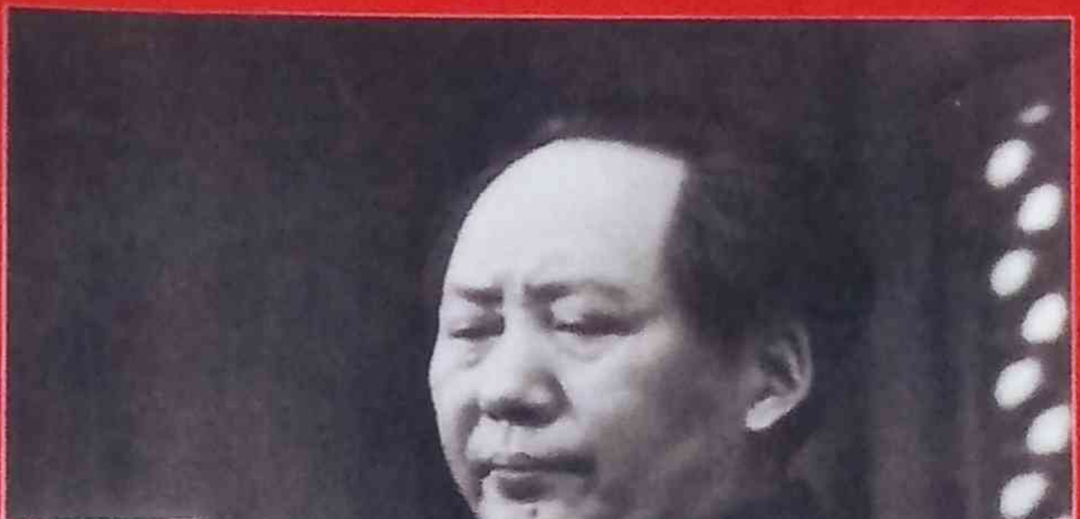
يونغ تشانغ وجون هوليداي

ماوتسي تونغ

القصة المجهولة



يونغ تشانغ وجون هوليداي

ماوتسي تونغ

القصة المجهولة

يونغ تشانغ وجون هوليداي

ماو تسي تونغ
القصة المجهولة

نقلتاه عن الإنكليزية
نولا شرفان
أوديت نحاس ينيّه

وحّدت المصطلح
أوديت نحاس ينيّه

راجع الكتاب
سليمان بختي

دار النهار

الترجمة العربية لهذا الكتاب واحدة من سلسلة
ترجمات تصدر بالتعاون مع
مؤسسة الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود (منشورات الفاخرية)
لتشجيع المشاريع التربوية والنقابية

Jung Chang - Jon Halliday
Mao, The Unknown Story
Published by Jonathan Cape 2005

الطبعة الأولى، آذار 2007
ص. ب 226-11، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-561693
darannahar@darannahar.com
ISBN 9953-74-136-0

المحتويات

القسم الرابع
نحو فتح الصين

القسم الخامس
حلم الوصول إلى مرتبة القوة العظمى

القسم السادس
الثأر المرير

إشارة حول الطبعة العربية

لحظت الطبعة العربية لهذا الكتاب حذف بعض اللوائح الملحقة به أصلا، ودون ان يؤثّر ذلك على المضمون والسياق والمعنى. وهذه اللوائح والملاحق، على أهميتها، تمتد على صفحات في مقدمة الكتاب ونهايته وتحفل بالمراجع والحواشي والاسماء والتفاصيل الكثيرة المتصلة بالمصادر الاساسية والثانوية. واذا كانت هذه اللوائح لا تهم القارئ العربي في حيثياتها المباشرة، إلا أنه يمكن للباحث او المهتم الرجوع اليها في الطبعة الانكليزية وتشمل هذه اللوائح على:

1. لائحة مسهبة بالشكر لكل من قدم مساعدة أو وفّر خدمة لانجاز هذا الكتاب من أكاديميين ودبلوماسيين وعسكريين ومحللين ومؤرخين. وكل من كان شريكاً أو شاهداً على الأحداث أو الوقائع، أو قريباً منها.
2. لائحة بأسماء الذين قابلهم المؤلفان أو تمت محادثتهم هاتفياً وكانوا شهوداً للأحداث الكبرى في الصين والعالم مع ذكر مواقعهم ومهامهم الرسمية والخاصة آنذاك. كذلك أسماء الذين تمت محادثتهم بشكل غير رسمي.
3. لائحة بالشروحات والايضاحات المتعلقة بالصور المرفقة بالكتاب.
4. لائحة ايضاحات مفصلة تتعلق بأوصاف الأمكنة والأسماء والأشخاص والمعارك.
5. لائحة شكر للأرشيفات التي أُستشيرت في الصين وغيرها من البلدان في العالم.
6. بيبلوغرافيا لمصادر اللغة الصينية واللغات غير الصينية مع عناوين المواقع الالكترونية المعتمدة.
7. الهوامش الموسعة والاضافية المتصلة بفصول الكتاب.
8. فهرس مسرد بالأعلام والمدن والحركات السياسية والثقافية.

أما بالنسبة للهوامش فقد ادرجت في أسفل كل صفحة وردت فيها وذلك توخياً للسهولة والدقة.

ويبقى أن نوضح اننا اعتمدنا في ترجمة «الحزب الوطني» تعبير «الحزب القومي» وايضاً «الصين القومية» بدلاً من «الصين الوطنية».

وبعد، كتاب «ماو - القصة المجهولة» في العربية ليس مجرّد ترجمة لكتاب ناجح ومهم بل في

بعض منه نقل لعالم مختلف وثقافة مختلفة تحتفي بغوامضها واسرارها وتترك، مع ذلك، متسعاً للمقاربة وهامشاً للاجتهاد وحيزاً لتجربة جديرة بالقراءة في لغتنا العربية. من هنا استحقاق الترجمة وصعابها.

القسم الاول

الضعيف الإيمان

1- التحوّل من القِدَم الى الحداثة
(1893-1911، العمر 1-17 سنة)

كان ماو تسي تونغ الذي تمتع بسلطة مطلقة على حوالى ربع سكان العالم، مسؤولاً عن وفاة ما يزيد على سبعين مليون شخص في زمن السلم، وتفوق في ذلك على اي زعيم آخر في القرن العشرين. ولد ماو في عائلة من الفلاحين في واد يدعى شاوشان في مقاطعة اقليم هونان في قلب الصين في 26 كانون الاول 1893 وكان اسلافه يعيشون في الوادي منذ 500 سنة.

شكّل الوادي عالماً من الجمال العريق وتميز بكونه منطقة رطبة ذات مناخ معتدل وكانت هضابه المتموجة والمليئة بالضباب مأهولة منذ العصر الحجري الحديث. كما ان المعابد البوذية التي تعود الى سلالة تانغ والتي تزامنت مع مجيء البوذية اليها في الفترة نفسها الممتدة بين سنتي 618 و906. لا تزال امكنة معتمدة للصلاة. وكانت الغابات التي ينمو فيها حوالى ثلاثماية نوع من الاشجار بما فيها القيقب والكافور والميتاسيكويا والجنكة النادرة تغطي المنطقة وتأوي النمور والاسود والخنازير البرية التي ما برحت تجول على التلال حيث قُتل آخر نمر سنة 1957. هذه التلال التي ليس فيها طرقات او انهر صالحة للملاحة تعزل القرية عن العالم لدرجة انه حتى في بداية القرن العشرين فان خبراً هاماً مثل وفاة الامبراطور سنة 1908 لم ينفذ اليها، واكتشف ماو الامر بعد سنتين على مغادرته شاوشان.

تبلغ مساحة وادي شاوشان حوالى خمسة كيلومترات طولا وثلاثة كيلومترات ونصف عرضا. كانت العائلات الستماية التي تعيش فيها تزرع الارز والشاي والخيزران وتستخدم الجواميس لحراثة حقول الارز وكانت الحياة اليومية تتمحور حول هذه النشاطات التقليدية. ابصر يي-تشانغ، والد ماو، النور سنة 1870 ولدى بلوغه العاشرة من عمره تمت خطبته على فتاة في الثالثة عشرة من عمرها من قرية تبعد حوالى 10 كلم وتقع وراء طريق يدعى طريق استراحة النمور حيث اعتادت هذه الاخيرة على الجلوس تحت اشعة الشمس. اعتبرت هذه المسافة القصيرة طويلة نسبياً في ذلك الزمن بحيث ان سكان القريتين كانوا يتكلمون لهجتين مختلفتين فلا يستطيع فريق فهم ما يقوله الآخر بصورة شبه كاملة. ولكون والدة ماو مجرد فتاة صغيرة فلم تحصل على اسم، وبصفتها الفتاة السابعة المولودة في عشيرة وين فهي فقط الاخت

السابعة في العشيرة. ووفقاً للتقاليد المتبعة منذ قرون، تمّ حشر وحزم قدميها للحصول على ما يسمّى «الزنابق الذهبية بطول ثلاثة انشات» التي كانت تجسّد الجمال آنذاك.

جرت خطبتها على والد ماو تبعاً لعادات متمتعة بقداسة القدم. دُبّرت الخطبة من قبل الاهل وتركزت على اعتبارات عملية: قبر احد اجدادها في شاوشان وهو بحاجة الى خدمة منتظمة وعبر طقوس معقدة، لذلك فان وجود احد الاقرباء في تلك القرية سيكون مفيدا. انتقلت الاخت السابعة في عشيرة وين مع عائلة ماو عند الخطوبة وزوّجت وهي في الثامنة عشرة من عمرها سنة 1885 عندما كان يي تشانغ في الخامسة عشرة.

بعد الزواج بفترة قصيرة رحل يي تشانغ ليلتحق بالجيش سعياً لكسب المال بما يمكنه من تسديد ديون العائلة، واستطاع ان ينهي الامر خلال بضع سنوات. لم يكن الفلاحون الصينيون عبيداً بل مزارعين احرار وكان الالتحاق بالجيش لاسباب مادية بحتة ومألوفة. لحسن الحظ لم يشارك في اي حرب بل واكتسب بعض الخبرة في الحياة وتعلّم بعض الافكار في ميدان الاعمال. وخلافاً لمعظم اهل القرية كان يي تشانغ قادراً على القراءة والكتابة بما يسمح له بتدوين حساباته. بعد عودته ربّى الخنازير وزرع الارز من النوعية الجيدة ليبيعه الى السوق الموجود في بلدة مجاورة. كما استرجع الارض التي كان والده قد رهنها واشترى المزيد من الاراضي ليصبح واحداً من اغنى رجال البلدة.

ورغم ان احواله المادية كانت جيدة بقي يي تشانغ بخيلاً ومثابراً في العمل طوال حياته. كان منزل العائلة يتألف من ست غرف تشغل جناحاً من الاملاك المسقوفة بالقش. اخيراً استبدل يي تشانغ القش بالبلاط وهو تحسّن كبير الاّ انه ابقى على الارض والحيطان المغطاة بالتراب. لم يكن هناك زجاج في الشبابيك، وهذا يعتبر ترفاً نادراً، فكانت الشبابيك مجرد فتحات مربّعة لها قضبان خشبية تقفل ليلا بالواح خشبية. وتجدر الاشارة الى ان الحرارة قلما كانت تهبط تحت الصفر. تميّزت المفروشات بالبساطة وتألفت من الاسرّة الخشبية والطاولات والمقاعد الخشبية غير المغطاة. ولد ماو في احدى هذه الغرف المتواضعة تحت لحاف ازرق فاتح قطني من غزل بيتي وفي داخل ناموسية زرقاء.

كان ماو الصبي الثالث في العائلة ولكنه الاول الذي بقي على قيد الحياة بعد مرحلة الطفولة. اصبحت والدته البوذية اكثر تقوىً لتشجّع بوذا على حمايته. اعطي ماو اسماً بجزئين هما تسي وتونغ. تسي يعني الاشراق وهو الاسم الذي اعطي الى كل ابناء جيله كما قدّر عندما كُتب تاريخ العشيرة للمرة الاولى في القرن الثامن عشر. اما تونغ فهي تعني الشرق، لذلك فان الاسم الكامل الذي اعطي له كان يعني «الاشراق على الشرق». عندما ولد صبيان آخران في العائلة سنتي 1896 و1905 اسميا تسي مين (مين تعني الشعب) وتسي تان (تان ربما تشير

الى المنطقة التي تعيش فيها العائلة اي ككز يانغتان).

عكست هذه الاسماء الطموح الراسخ لدى المزارعين الصينيين بان ينجح ابناؤهم وايضاً توقعهم بتحقيق هذا النجاح. كانت المناصب الرفيعة مفتوحة لجميع المتعلمين وكان التعليم يعني مجرد دراسة الاثر الادبي للكونفوشيوسية. اتاح التفوق للشبان اليافعين ذوي الجذور المختلفة النجاح في الامتحانات التي تنظّمها الامبراطورية ليشغلوا مراكز تبدأ من الوظيفة العليا لتصل الى رئاسة الحكومة. وحدّدت الانجازات بشغل الوظائف الرفيعة وعبّرت الاسماء المعطاة الى ماو واشقائه عن الآمال المعلقة عليهم.

لكن الاسم الكبير كان ايضا مرهقا ويمكن ان يجلب المصير المشؤوم لذلك فان معظم الاولاد كانوا يعطون اسما للدلال يتّسم بالوداعة او بالخشونة او بالاثنين معاً. اما اسم ماو فهو يعني «صبي الحجر» او ما يعرف بالصينية بشي سان يا زي. في سبيل هذه المعمودية الثانية اخذته والدته الى صخرة يبلغ ارتفاعها حوالى الثمانية اقدام وهي معروفة بانها مسحورة نظراً لوجود نبع تحتها. بعد ان انحنى ماو وسجد امامها اعتبر ان الصخرة تبنّته. ظلّ ماو مولعاً بهذا الاسم وبقي يستعمله بعد ان اصبح راشداً. سنة 1959 عندما عاد الى شاوشان والتقى القرويين للمرة الاولى والاخيرة بصفته القائد الاعلى في الصين بدأ يتناول العشاء معهم بملاحظة بارعة وظريفة جاء فيها: "اذاً الجميع هنا باستثناء والدتي القوية الصلبة. فهل ننتظرها؟».

احبّ ماو امه الحقيقية بقوة لم يظهرها لأي شخص آخر. كانت لطيفة ومتسامحة على ما يذكر ولم ترفع صوتها في وجهه ابداً. ورث عنها الوجه الممتلىء والشفاه المكتنزة ورباطة الجأش البادية في عينيه. وكان يتحدث عن والدته بعاطفة كبرى طوال حياته. اصبح بوذيا في طفولته من خلال السير على خطاها. بعد بضع سنوات قال لمساعديه: «انا عبدت والدتي... تبعتها اينما ذهبت... الى معارض خاصة بالمعابد من اجل حرق البخور والعملة الورقية او للانحناء امام بوذا... بما ان والدتي آمنت ببوذا كذلك آمنت به انا». الا انه تخلّى عن بوذيته وهو في حوالى الخامسة عشرة من عمره.

عاش ماو طفولة سعيدة وبقي مع عائلة والدته المعروفة باسم وين في قريتها حتى بلوغه الثامنة اذ ان والدته فضلت العيش مع عائلتها. في ذلك المكان شُغفت به جدته لامه وعامله خالاه وزوجاتهما كأحد ابنائهم، وقد اصبح احد هذين الخالين اباه بالتبني، اي ما يوازي العرّاب في الصين. عمل ماو في المزرعة قليلاً فكان يجمع العلف للخنازير ويأخذ الجواميس في نزهة في بساتين الكاميلية التي تنتج زيت الشاي بالقرب من بركة تظللها اوراق الموز. في سنوات لاحقة تذكّر ماو بحنين الاوقات الجميلة التي قضاها في القرية. بدأ يتعلم القراءة بينما

كانت خالاته تقمن باعمال الغزل والخياطة على ضوء القنديل.

عاد ماو الى شاوشان ليعيش فيها في ربيع 1902 عندما كان في الثامنة وتلقى علوماً اتخذت شكل درس خصوصي في منزل أحد الأساتذة. تخطى الاثر الادبي للكونفوشيوسية الذي شكل معظم مواد البرنامج التعليمي قدرة الاولاد على الاستيعاب وكان عليهم حفظه غيباً. أنعِم على ماو بذاكرة استثنائية واجاد في التعلم. يتذكر زملاؤه التلامذة صبياً مجتهداً تمكن ليس فقط من تلاوة هذه النصوص الصعبة بل ايضاً من كتابتها عن ظهر قلب. كما اكتسب ايضاً قاعدة في اللغة الصينية والتاريخ الصيني وراح يتعلّم كتابة النثر الجيد والخط والشعر اذ تعتبر كتابة الشعر جزءاً اساسياً من تعليم الكونفوشيوسية. واصبحت القراءة شغفاً بالنسبة اليه. كان الفلاحون بصورة عامة يأوون الى الفراش عند المغيب للاقتصاد في زيت القناديل، لكن ماو دأب على القراءة حتى وقت متأخر على ضوء قنديل وضع على مقعد خارج الناموسية. عندما اصبح الحاكم الاعلى للصين بعد بضع سنوات كان يملأ نصف سريره الضخم كتباً من الآثار الادبية الصينية الكلاسيكية بعلو قدم ويعمد الى حشو خطاباته وكتاباته بإسنادات تاريخية، الاّ ان اشعاره غالباً ما افتقدت الى الابتكار.

تصادم ماو مع معلميه في اغلب الاحيان وهرب من مدرسته الاولى وهو في العاشرة مدعياً ان المعلم كان صارماً. طرد ماو او «طُلب منه ان يغادر» ثلاث مدارس على الاقل لعناده وتمرّده. دلّلته والدته لكن والده لم يكن راضياً وشكّل تنقل ماو من معلم الى آخر سبباً من اسباب اخرى للتوتر بين الاب وابنه. غطّى يي تشانغ تكاليف تعليم ماو آملاً ان يتمكّن ابنه على الاقل من تدوين واحتساب مصاريف العائلة لكن ماو كان يكره ذلك. طوال حياته كان غامضاً في ما يتعلق بالارقام ويستحيل عليه فهم الاقتصاد. كذلك لم يكيّف نفسه مع الجهد الجسدي وتجنّب القيام به فور انتهاء عمله في المزرعة.

لم يكن يي تشانغ يتحمل فكرة عدم قيام ماو بأي عمل. وكونه امضى كل دقيقة من نهاره في العمل ترقّب ان يحذو ابنه حذوه فكان يضربه عندما لم يتجاوب. سنة 1968 عندما كان ماو ينتقم من اعدائه السياسيين على نطاق واسع قال لمعذّبيهم انه تمنى لو يعامل والده بالقساوة عينها: «كان والدي شريراً. لو كان حياً اليوم يجب ان «يخضع لعقاب الطائرة النفاثة». إنها لوضعية مؤلمة اذ ان يدي الشخص المعني كانتا مشدودتين الى خلف ظهره ورأسه منحنٍ الى أسفل عنوة»».

لم يكن ماو مجرد ضحية لوالده فهو قاومه وحالفه الربح في اغلب الاحيان. كان يقول لوالده انه نظراً لكون الوالد اكبر سنّاً عليه القيام باعمال يدوية اكثر مما هو مفروض على الابن، وهي حجة ملؤها الوقاحة وغير واردة وفقاً للمعايير الصينية. في احد الايام، حسب ماو،

حصل خلاف بين الاب وابنه امام الضيوف، «نهرني والدي امامهم ودعاني الولد الكسول وغير المنتج»، مما اغضبني فاجبته بكلمات نابية وغادرت المنزل... تبعني والدي وهو يكيل لي الشتائم ويأمرني بالعودة. بلغتُ حافة بركة وهددت بالقفز اليها اذا اقترب اكثر... فتراجع والدي». في احد الايام وبينما كان ماو يخبر القصة مرة اخرى ضحك واضاف الملاحظة التالية: «ان الرجال المتقدمين في السن لا يريدون ان يخسروا ابناءهم، وهذه نقطة ضعفهم. لقد شنّيت هجوماً على نقطة ضعفهم وربحت!»

كان المال السلاح الوحيد الذي يملكه والد ماو. بعد ان طُرد ماو من قبل معلّمه الرابع سنة 1907 توقف الوالد عن دفع قسط ابنه وكان على ابن الثالثة عشرة ان يصبح مزارعاً بدوام كامل. الاّ انه ما لبث ان وجد طريقة للتخلّص من العمل في المزرعة ليعود الى عالم الكتب. كان يي تشانغ متحمّسا لزواج ابنه كي يرتبط بامرأة ويتصرف بشكل مسؤول. كانت ابنة اخته في عمر مناسب للزواج وهي تكبر ماو باربع سنوات ووافق هذا الاخير على خطة والده واستأنف الدراسة بعد الزواج.

حصل الزواج سنة 1908 وكان ماو في الرابعة عشرة وعروسه في الثامنة عشرة. كان اسم عائلتها لُيو وبما انه ليس لديها اسم خاص بها فقد دعيت فقط «السيدة لُيو». المرة الوحيدة التي اتى ماو على ذكرها كانت امام الصحافي الاميركي ادغار سنو سنة 1936 عندما كان ماو مستخفّاً بالمسألة بصورة ملفتة وهو يبالغ في الفرق بين الاعمار: «عندما كنت في الرابعة عشرة زوّجني والداي الى فتاة في العشرين. لكني لم اعش معها ابدا... لا اعتبرها زوجتي... ولم اهتم بها الاّ قليلاً». لم يعطِ ماو اية اشارة الى وفاتها وفي الواقع توفيت السيدة لّيو سنة 1910 اي بعد أكثر من سنة على زواجهما.

ان زواج ماو المبكّر جعله عدوّاً شرسا للزواج المدبّر. بعد تسع سنوات كتب مقالا لاذعاً ضد هذا العرف وجاء فيه: «في العائلات الغربية يقرّ الاهل بحرية الارادة لدى اولادهم. لكن في الصين لا تتناغم اوامر الاهل ابداً مع ارادة الاولاد... هذا نوع من «الاغتصاب غير المباشر». في الصين يقوم الاهل باستمرار باغتصاب اولادهم بصورة غير مباشرة...».

ما ان توفيت زوجته حتى طلب الارمل ابن السادسة عشرة مغادرة شاوشان. كان والد ماو يودّ تدريب ابنه على العمل في متجر للارز في بلدة المقاطعة الاّ ان ماو أراد الالتحاق بمدرسة حديثة تبعد حوالى 25 كلم. علم ان الامتحانات التي تنظمها الامبرطورية الغيت واستعيض عنها بمدارس حديثة تعلّم مواداً كالعلوم وتاريخ العالم وجغرافيا العالم واللغات الاجنبية. هذه المدارس هي التي منحت الكثيرين من امثال ماو فرصة الخروج من حياة المزرعة.

شهدت الصين في القسم الاخير من القرن التاسع عشر تحولاً اجتماعياً كبيراً. وكانت سلالة مانشو الحاكمة منذ سنة 1644 تنتقل من القِدم الى الحداثة. يعود هذا التغيير الى سلسلة من الانهزامات الكبيرة التي منيت بها الصين على ايدي القوى الاوروبية واليابان، ابتداءً بالانكسار امام بريطانيا في حرب الأفيون 1839-1842 اذ صارت هذه القوى تدقّ على باب الصين الموصد. اتفق الجميع تقريبا، من سلالة مانشو الى المثقفين، على ان البلد يجب ان يتغيّر اذا اراد البقاء والاستمرار. ادخلت بعض الاصلاحات الاساسية ومن بينها نظام تربوي جديد، كما بدأ بناء سكك الحديد واعطيت الصناعات الحديثة والتجارة الاولوية. كذلك سُمح بانشاء المنظمات السياسية واصدار الصحف للمرة الاولى. ارسل التلامذة الى الخارج لدراسة العلوم وارسلت طبقة الموظفين لتعلّم الديمقراطية والانظمة البرلمانية. سنة 1908 اعلن البلاط عن برنامج لتحويل الصين الى ملكية دستورية خلال تسع سنوات.

اصبحت هونان، المقاطعة التي ينتمي اليها ماو والمأهولة بثلاثين مليون نسمة من المناطق الاكثر تحرراً واهمية في الصين. رغم عدم وجود منفذ بحري لها، فهي كانت متصلة مع الساحل بالانهر الصالحة للملاحة. في سنة 1904 اصبحت عاصمتها تشانغشا مرفأ تجارياً مفتوحاً. وصلت اعداد كبيرة من التجار الاجانب والارساليات حاملة معها الاساليب والمؤسسات الغربية. في الوقت الذي علم فيه ماو بوجود المدارس الحديثة كان هناك في هونان ما يزيد على المئة منها، اكثر مما يحويه اي جزء آخر من الصين، وبعضها مخصصاً للنساء.

كانت احدى هذه المدارس تقع بالقرب من ماو، على الهضبة الشرقية في إقليم عائلة وين عائلة والدته. كانت كلفة القسط والسكن مرتفعة الاّ ان ماو جعل عائلة وين وغيرهم من الاقارب يضغطون على والده فدفع كلفة خمسة اشهر. وابدلت زوجة احد اولاد خال ماو ناموسيته الزرقاء القديمة البيتية النسج باخرى بيضاء من الموسلين المصنوعة على الآلة تماشياً مع الطابع الحديث للمدرسة.

فتحت المدرسة عيون ماو على العديد من الامور. تضمّنت الدروس التمارين الرياضية والموسيقى واللغة الانكليزية، ومن بين القراءات كتيّبات عن السيرة الذاتية لنابوليون وولينغتون وبطرس الاكبر وروسّو ولنكولن. سمع ماو باميركا واوروبا للمرة الاولى ووقع نظره على رجل كان في الخارج هو معلّم درسَ في اليابان ولقبه تلاميذه بـ«الشيطان الاجنبي الزائف». بعد بضعة عقود كان ماو لا يزال قادراً على تذكّر اغنية يابانية لقّنهم اياها احتفالاً بالنصر الياباني العسكري المدهش على روسيا سنة 1905.

امضى ماو في الهضبة الشرقية بضعة شهور فقط وكان ذلك كافياً لينفتح امامه افقٌ جديد. في عاصمة المقاطعة تشانغشا كانت هناك مدرسة شيّدت خصيصاً للشبيبة من اقليم عائلة وين واقنع ماو معلماً بتسجيله رغم انه لم يكن من المقاطعة بالمعنى الضيق. في ربيع 1911 وصل ماو الى تشانغشا وهو يشعر بانه «متحمّس الى ابعد حد» كما جاء في وصفه. ودّع ماو حياة الفلاح في عمر السابعة عشرة.

ادّعى ماو لاحقاً انه عندما كان صبياً في شاوشان كانت تستثيره هموم الفلاحين الفقراء، لكن لا اثبات على ذلك. قال انه عندما كان لا يزال في شاوشان تأثر بشخص يجمع أكوام الحشيش يدعى بانج P'ang اوقف واعدم بعد قيادته لثورة محلية للفلاحين، لكن التفتيش الشامل من قبل مؤرّخي الحزب عن هذا البطل لم يؤدِّ الى اي اثر.

لا مؤشرات تدل على ان ماو استمد من جذوره القروية اية هموم اجتماعية فيما كان الاحساس بالظلم يحركه بدرجة اقل بكثير. فقد ورد في مستند معاصر هو يوميات معلّم ماو البروفسور يانغ تشانغ تشي في 5 نيسان 1915: «ان تلميذي ماو تسي تونغ قال ان... عشيرته... تتألف بمعظمها من الفلاحين ويسهل عليهم ان يصبحوا اغنياء». الاّ ان ماو لم يبرهن عن اي تعاطف خاص مع الفلاحين.

حتى نهاية 1925 وكان ماو في بداية الثلاثينات من عمره وبعد خمس سنوات من اعتناقه الشيوعية اشار الى الفلاحين بضع مرات فقط في جميع كتاباته المعروفة واحاديثه. برزت هذه الاشارات في رسالة مكتوبة في آب 1917 ولكن عوض التعبير عن التعاطف قال ماو انه أُربك بالطريقة التي اجهز فيها قائد يدعى تسنغ كو فان على اضخم ثورة للفلاحين في تاريخ الصين والتي تعرف بثورة تايبينغ 1850-1864 بعد سنتين، وفي تموز 1919 كتب ماو مقالاً عن اشخاص من خلفيات متنوعة لذلك كان ذكر الفلاحين محتّماً، لكن لائحة اسئلته جاءت عامة وبنبرة محايدة جلية. كان هناك غياب ملحوظ للعواطف لدى ذكر الفلاحين بالمقارنة مع المشاعر الجياشة التي يعبّر عنها حيال التلامذة الذين وصف حياتهم بانها 'بحر من المرارة». وبرز عنوان واحد فقط (العاشر) عن الفلاحة في لائحة شاملة للبحث صاغها في ايلول من السنة نفسها وتحتوي على ما لا يقل عن 71 موضوعاً. الموضوع الوحيد من اصل 15 عنوان تفصيلي ذكر الفلاحين، انما ذكرهم فقط كون المسألة 'مسألة المزارعين الفلاحين الذين يتدخلون في السياسة». ابتداء من اواخر سنة 1920 ومع دخول ماو في الفلك الشيوعي راح يستخدم عبارات مثل «العمّال والفلاحين» و«البروليتاريا». الاّ انها بقيت مجرد عبارات وجزءاً من مجموع المفردات الواجب استعمالها.

بعد بضع عقود تكلّم ماو عن كيفية اهتمامه بالناس المتضوّرين جوعاً في شاوشان في

صباه. وليس من اثباتات مدونة على هذا الاهتمام. سنة 1921 كان ماو في تشانغشا اثناء المجاعة. كتب احد اصدقائه في يومياته: «هناك الكثير من المتسولين، اكثر من مئة في اليوم الواحد... معظمهم... يبدون كالهياكل العظمية الملفوفة بجلد اصفر، وكأن نفحة من الهواء يمكن ان تمحيهم». «سمعت ان الكثيرين من الناس الذين اتوا الى هنا... هرباً من المجاعة في مناطقهم ماتوا، وان اؤلئك الذين كانوا يعطون الواح الخشب [لصناعة التوابيت]... لم يعد بامكانهم تأمينها». لكن لا ذكر لهذا الحدث في كتابات ماو في تلك الفترة ولا اشارة تظهر اهتمامه بالموضوع.

لم يتشرّب ماو من خلفيته الفلاحية النزعة المثالية إلى تحسين اوضاع الفلاحين الصينيين.

2- ماو يصبح شيوعياً
(1911-1920؛ العمر 17-26 سنة)

وصل ماو الى تشانغشا في ربيع 1911، عشية الثورة الجمهورية التي انهت ما يزيد على الالفي سنة من الحكم الامبراطوري. رغم ان تشانغشا بدت بعد عقد من الزمن «وكأنها مدينة من القرون الوسطى» بالنسبة الى الفيلسوف البريطاني برتراند راسيل و«شوارعها ضيقة... لا مجال للسير عليها الاّ للمحفّات وعربات الجنركشة»، وليست على تواصل مع الافكار والتيارات الحديثة، لكنها كانت تعجّ بنشاط الجمهوريين.

كان البلاط في مانشو قد وعد باقامة ملكية دستورية الاّ ان الجمهوريين كرسوا جهودهم للتخلص من سلالة مانشو نهائياً. بالنسبة اليهم كان حكم المانشو يعني السيطرة «الاجنبية» اذ ان هذه السلالة لم تنتمي الى هان الصينية اي المجموعة الاتنية التي شكّلت غالبية السكان او 94 بالمئة منهم. اشعل الجمهوريون شرارات من خلال الصحف والمجلات التي انتشرت بسرعة على كل الاراضي الصينية في العقد السابق ومن خلال غُرف المناقشات العامة الجديد كليّا، وذلك في مجتمع كان الى ذلك الوقت شبه مغلق. لقد شكّلوا منظمات واطلقوا عدّة ثورات مسلحة غير ناجحة.

اكتشف ماو هذه القضايا بسرعة من خلال الصحف التي قرأها للمرة الاولى وهو في السابعة عشرة، فكانت بدايةً لادمان تملكه طوال حياته. كتب مقاله السياسي الاول المتّسم بالارباك والذي يعبّر عن افكار الجمهوريين والصقه على حائط في مدرسته تماشياً مع احدث الاتجاهات. وكما فعل العديد من التلامذة في مدرسته، قطع ماو الضفيرة المتدلية من مؤخرة رأسه والتي حسب تقاليد المانشو تعتبر الرمز الابرز للحكم الأمبراطوري. ثم كَمَن مع صديق له لاثني عشر تلميذٍ وقصّوا اذيالهم بالقوة بواسطة المقصات.

في ذلك الصيف الحار والرطب والمألوف في تشانغشا، ناقش التلامذة بانفعال شديد كيفية الاطاحة بالامبراطور. في احد الايام ووسط مناقشة حامية قام شاب بتمزيق رداءه المدرسي الطويل ورماه على الارض وصاح: «لنقم ببعض التمارين العسكرية ولنتحضر للحرب [ضد الامبراطور]!»

في تشرين الاول بشّرت ثورة مسلحة في مقاطعة هوبي المجاورة بحصول ثورة الجمهوريين.

وانهارت سلالة مانشو التي حكمت الصين ما يزيد على 260 سنة واعلنت الجمهورية في 1 كانون الثاني 1912، لكن الامبراطور الذي كان لا يزال ولداً تنازل عن العرش الشهر اللاحق.

اصبح القائد العسكري للبلاد يوان شي كاي رئيساً خلفاً للرئيس المؤقت سان يات سين. وكانت المقاطعات تحت سيطرة قادة الجيش الذين يدينون بولائهم لسان يات سين. عندما توفي يوان سنة 1916 ضعفت الحكومة المركزية في بكين وانقسمت السلطة بين قادة المقاطعات الذين اصبحوا نصف امراء حرب مستقلين. خلال العقد اللاحق خاضوا حروباً متقطعة مما عطّل الحياة المدنية في مناطق القتال، لكن ما عدا ذلك ترك امراء الحرب معظم الناس غير متأثرين نسبياً. في الواقع ان الجمهورية الحديثة العهد والتي يتميز حكمها بالتراخي فتحت المجال لفرص عمل مختلفة. وجد ماو نفسه امام خيارات مدهشة تتراوح بين الصناعة والتجارة والقانون والادارة والتربية والصحافة والثقافة والجيش. في البداية تطوّع في احد جيوش الجمهوريين لكنه تركه في غضون اشهر اذ لم يكن يحب التدريب او القيام باعمال كنقل مياه الطبخ فاستخدم بائع مياه كي يقوم بالعمل عوضا عنه. قرّر ماو العودة الى المدرسة وتفحّص عدداً كبيراً من الاعلانات في الصحف، كانت الاعلانات الملونة والمزخرفة ايضاً شيئاً جديداً في الصين. لفتت نظره ست مؤسسات بما فيها معهد للبوليس وكلية للحقوق ومدرسة متخصصة بصناعة الصابون فاختار مدرسة ثانوية وامضى فيها ستة اشهر قبل أن يدفعه الملل الى الدراسة بنفسه في مكتبة المقاطعة.

واخيراً وجد ماو شيئاً يحب القيام به. كان يمضي النهار بكامله هناك يلتهم الكتب بما فيها الغربية المترجمة منها. قال لاحقا انه كان كالجاموس الذي يغرف من بستان خضار ويلتهم كل ما ينبت فيه. ساعدته هذه القراءات على تحرير عقله من قيود التقاليد.

هدّده والده بالتوقف عن امداده بالمال الاّ اذا تسجّل في مدرسة مناسبة لذلك التحق ماو بمدرسة لاعداد المعلمين. لم تتطلب المدرسة دفع اي قسط دراسي وامّنت الطعام والسكن بسعر زهيد كغيرها من المدارس العاملة في تلك الايام، كجزء من جهود الصين لتعزيز التعليم.

كان ذلك في ربيع 1913 وكان ماو في التاسعة عشرة من عمره. جسّدت المدرسة الانفتاح السائد حينها وحتى المبنى كان ذا طابع اوروبي له قناطر من الطراز الرومانيسكي وكان للشرفة اعمدة عريضة وجاءت تسميته يانغ لو اي «المبنى الاجنبي» مناسبة. كان لقاعات الصفوف ارض خشبية جميلة وشبابيك لها زجاج، وتسنّى للتلامذة الاطلاع على افكار جديدة متنوعة وكانوا يلقون التشجيع على التفكير بحرية وعلى تنظيم مجموعات للدرس الجماعي. واصدروا منشورات حول الفوضوية والقومية والماركسية وصورة لماركس علّقت لفترة في القاعة

الكبرى. كان ماو قد تعرّف سابقاً على كلمة الاشتراكية بالصدفة في احدى الصحف وها هو الآن يلتقي بالاشتراكية للمرة الاولى. كانت مرحلة من الحرية الحقيقية واشار اليها ماو لاحقا للحظة اثناء حكمه لكن دون ان يسمح للناس بالحصول على جزء صغير من الحرية التي نعم بها في صباه.

لم يكن ماو يميل الى الوحدة ومثله مثل التلامذة في جميع انحاء العالم فقد تكلم هو واصدقاؤه بحذر. كانت المدرسة تقع بالقرب من نهر كزيانغ الذي هو اكبر نهر في هونان وحثّته السباحة في كزيانغ على كتابة قصيدة متوهجة سنة 1917. دأب اصدقاؤه في الامسيات على السير طويلاً على ضفاف النهر متمتّعين برؤية السفن الشراعية الصينية بجانب جزيرة البرتقال المغطاة ببساتين الليمون. وفي الامسيات الصيفية كانوا يتسلقون الهضبة الواقعة وراء المدرسة ويجلسون على الحشيش ليتجادلوا حتى وقت متأخر حيث صرار الليل تدندن وسراج الليل يلمع، متجاهلين دعوات البواق الى النوم.

كما ان ماو واصدقاءه كانوا يسافرون. كانت هناك حرية تامة في التنقل ولا حاجة للهويات. خلال العطلة الصيفية سنة 1917 جال ماو وصديق له في الريف مدة شهر حيث كانوا يحصلون على الطعام والمأوى من الفلاحين مقابل زخرفة ابواب منازلهم بالخطوط. في مناسبة اخرى تمشّى ماو واثنين من زملائه الطلاب على طول جسر مبني حديثاً، وعند المغيب دقّوا على باب دير يقع على تلّة تشرف على نهر كزيانغ فسمح لهم الرهبان بقضاء الليل. بعد العشاء نزل اصدقاؤه الى النهر للسباحة متّبعين خطاً مرسوماً بالاحجار وبعدها جلسوا على ضفة النهر الرملية وعرضوا آراءهم على وقع ارتطام الامواج. كان لغرفة الضيوف شرفة وتابع الاصدقاء الكلام في سكون الليل. واثارت فتنة الليل الهادىء مشاعر احدهم وقال انه يريد ان يصبح راهباً.

في هذه المحادثة وغيرها كان ماو يصبّ سخريته على رفيقه الصيني. قال «ان طبيعة شعب البلد هي الجمود» و«هم يعبدون الخبث وقانعون لكونهم عبيداً واصحاب تفكير ضيق الافق». كان هذا الشعور مألوفاً في اوساط المتعلمين في ذلك الوقت حين كان الناس يفتشون عن تفسير لهزيمة الصين بسهولة على ايدي القوى الاجنبية ولتقصيرها الكبير في العالم الحديث. لكن ما قاله ماو لاحقا شكّل تطرفاً غير مألوفاً. كتب احد اصدقائه في يومياته: «اقترح السيد ماو ايضاً احراق كل المجموعات النثرية والشعرية دفعة واحدة بعد سلالتي تانغ وسانغ».

كانت هذه المناسبة الاولى المعلنة التي يذكر فيها ماو موضوعاً سوف يميّز حكمه وهو تدمير الثقافة الصينية. عندما قال ذلك للمرة الاولى في الدير الواقع تحت ضوء القمر لم يبدُ الامر غريباً. في ذلك الوقت المطبوع بالحرية الشخصية والفكرية غير المسبوقة وهي اللحظات

الاكثر حرية في تاريخ الصين، جرى التساؤل حول كل ما كان مسلّماً به وما يُنظر اليه على انه خطأ اصبح صحيحاً. هل يجب ان توجد بلدان وعائلات وزواج وملكية خاصة؟ لم يعتبر اي امر شائناً او مثيراً للاشمئزاز او غير مقبول التحدث عنه.

*

وسط هذا الجو تكونت آراء ماو الاخلاقية. في شتاء 1917-1918 وهو لم يزل تلميذاً في الرابعة عشرة كتب تعليقات مفصلة حول كتاب بعنوان **نظام أخلاقي** الّفه في اواخر القرن التاسع عشر فيلسوف الماني مغمور يدعى فريدريتش بولسن Friedrich Poulsen. في هذه التعليقات عبّر ماو عن العناصر الرئيسية في طبعه التي بقيت ثابتة طوال حياته وحدّدت معالم حكمه.

تكوّن موقف ماو من الاخلاق من جوهر واحد هو الذات، اي الـ«انا» قبل كل شيء: «لا اوافق الرأي الذي يعتبر ان كون المرء اخلاقياً يعني ان يكون الدافع لاعماله افادة الآخرين. يجب عدم تحديد الاخلاقية من خلال العلاقة مع الآخرين... الاشخاص الذين هم مثلي يريدون... اشباع قلوبهم الى اقصى حدّ... وبينما يفعلون ذلك يكون لديهم اهم المبادىء الاخلاقية. بالطبع هناك اناس واشياء في العالم، الا انها موجودة فقط من اجلي».

تجنّب ماو كل قيود المسؤولية والواجب. «ان الاشخاص الذين هم مثلي لديهم واجب تجاه انفسهم ولا واجب لدينا تجاه اشخاص آخرين». كتب ماو قائلا: «انا مسؤول فقط عن الواقع الذي اعرفه، وعلى نحوٍ قاطع لست مسؤولاً عن اي شيء آخر. لا شأن لهم بواقع ذاتي». رفض ماو بشكلٍ صريح تحمّل اي مسؤولية تجاه اجيال المستقبل». يقول البعض ان المرء مسؤول امام التاريخ الاّ اني لا اؤمن بذلك. اني معني فقط بتطوير نفسي... لديّ رغبتي واعمل بموجبها. انا لست مسؤولاً تجاه اي كان».

لم يكن ماو يؤمن بشيء الاّ اذا كان باستطاعته الاستفادة منه شخصياً. ان السمعة الجيدة بعد الوفاة «لا تستطيع ان تجلب اي فرح اذ انها تنتمي الى المستقبل وليس الى واقعي». ان اشخاصاً مثلي لا يقومون بانجازات للاجيال المستقبلية». لم يبدِ ماو اهتماما بما تركه من بعده واعتبر ان الضمير قد يذهب الى الجحيم اذا ما تناقض مع نزواته:

> «هذان الاثنان يجب ان يكونا واحداً. ان كل اعمالنا مسيّرة من قبل نزواتنا والضمير العاقل يتماشى مع ذلك في كل حالة. احياناً... الضمير يكبح النزوات كالافراط في الطعام والانغماس في الجنس. الاّ ان الضمير موجود فقط للكبح وليس للاعتراض. والكبح هو لاكمال اشباع النزوة على نحو افضل».

بما ان الضمير ينطوي دائماً على بعض القلق على الآخرين وهو ليس نتيجة طبيعية لمذهب المتعة فان ماو كان يرفض المفهوم. كان رأيه التالي: «لا اعتقد ان تلك [الوصايا مثل «لا تقتل»، «لا تسرق»، و«لا تشوّه سمعة الآخرين»] لها علاقة بالضمير. اعتقد انها متأتية من المصلحة الشخصية في حفظ الذات». ان جميع الاعتبارات يجب ان «تكون حسابات شخصية بحتة وعلى نحو قاطع ليس لاطاعة المبادىء الاخلاقية الآتية من الآخرين، او من اجل ما يسمّى شعوراً بالمسؤولية..»..

الانانية المطلقة وانعدام المسؤولية هما في صلب وجهة نظر ماو.

ان المميزات التي حملها محجوزة للابطال الكبار وهي مجموعة عيّن نفسه فيها. توجّه الى هذه النخبة بقوله:

«كل شيء خارج طبيعتهم كالقيود وكبح الانفعالات يجب محوه بالقوة العظيمة الموجودة في طبيعتهم... عندما يطلق الابطال الكبار العنان لنزواتهم يكونون اقوياء بصورة مدهشة وعاصفون ولا يقهرون. ان قوتهم هي كالاعصار الصاعد من غورٍ عميق وكمهووس جنسي مهتاج يبحث عن خليل... لا مجال لكبحهم».

النقطة المركزية الاخرى في طبعه والتي اوضحها ماو الآن هي الفرح الذي حصل عليه جراء الاضطراب والدمار. كتب قائلاً: «ان الحروب الضخمة ستستمر ما دامت السماء والارض لا تنقرضان ابداً... المثل الاعلى القائل بعالم تسوده المساواة العظيمة والانسجام [دا تونغ، المجتمع الكونفوشيوسي المثالي] هو مخطىء». لم يكن ذلك فقط تنبّؤاً صادراً عن شخص متشائم، بل كانت امنية ماو التي اكّد انها تمثّل رغبات الشعب ككل. اعتبر ان «السلام الطويل الامد»:

«لا يحتمله البشر ويجب خلق موجات عارمة من الاضطراب في هذا الوضع السلمي... حين ننظر الى التاريخ نهيم باوقات [الحرب] عندما تحدث الحالات الدرامية الواحدة تلو الاخرى... مما يجعل القراءة عن هذه الامور ممتعاً للغاية. عندما نبلغ مراحل السلام والازدهار نصاب بالملل... الطبيعة البشرية تحب التغييرات السريعة والمفاجئة».

بكل بساطة اخفق ماو في التمييز بين القراءة عن اثارة الاحداث واختبار التغيير العنيف في الواقع. لقد تجاهل حقيقة ان الحرب تعني المأساة بالنسبة الى السواد الاعظم من الناس.

وهو حتى عبّر عن موقف متعجرف من الموت:

«ان البشر موهوبون بحسٍّ من الفضول. لماذا علينا التعاطي مع الموت بصورة مختلفة؟ الا نريد اختبار اشياء غريبة؟ الموت هو اغرب الامور التي لن تختبرها ابداً اذا استمررت حيّاً... البعض يخشونه لان التغيير يأتي بسرعة فائقة. لكنني اعتقد انه الامر الاكثر روعة:

في اي مكان آخر في هذا العالم نستطيع ان نجد تغييراً عظيماً وجذرياً كهذا؟»

تابع ماو قائلاً وهو يستعمل لفظة «نحن» بنبرة ملكية جداً: «نحن نحب الابحار في بحر من الاضطراب. ان ينتقل المرء من الحياة الى الموت هو اختبار للاضطراب الاعظم. اليس ذلك رائعاً؟» في البداية يمكن ان يبدو ذلك فوق الواقع ولكن عندما تعرّض عشرات الملايين من الصينيين لاحقاً لمجاعة قضت عليهم خلال حكمه، اخبر ماو المقربين منه في الحكم انه لا يهم اذا مات الناس ويجب الاحتفال بهذا الموت. وغالباً، كان ماو يطبّق موقفه على سائر الاشخاص وليس على نفسه فقط. طوال حياته كان ينتابه هاجس ايجاد طرق لمقاومة الموت فكان يفعل كل ما بامكانه لجعل امنه في وضع مثالي ولتحسين العناية الصحية بنفسه.

لدى مواجهته السؤال «كيف نغيّر الصين؟» شدّد ماو بصورة رئيسية على التدمير: «يجب ان يهدم البلد ويعاد تكوينه». وشمل بافكاره ليس فقط الصين بل العالم باسره وحتى الكون: «ينطبق ذلك على البلد والامة والبشرية... ان تدمير الكون هو نفس الشيء... الاشخاص الذين هم مثلي يتوقون الى الدمار اذ انه عندما يُدمّر الكون القديم فان كوناً جديداً سيتشكل. أليس ذلك افضل؟»

بقيت هذه الآراء المصاغة بوضوح وهو في الرابعة والعشرين من عمره في صلب تفكير ماو طوال حياته. سنة 1918 لم تكن لديه الامكانيات لتطبيقها ولم يكن لهذه الآراء اي تأثير رغم انه بدا شخصاً مثيراً للاعجاب. كتب عنه معلمه يانغ تشانغ تشي في يومياته في 5 نيسان 1915: «قال تلميذي ماو تسي تونغ ان... والده كان فلاحاً وهو يتجه الآن الى التجارة... ومع ذلك فهو [ماو] مرهف جداً وممتاز. انه لأمر صعب الحصول... بما ان سلالة الفلاحين تنتج غالباً مواهب استثنائية فقد شجعته..». لكن لم يبدُ ان لماو مواصفات القائد. قال معلم آخر لاحقاً انه لم يظهر «اية موهبة خاصة في القيادة» في مدرسته. عندما حاول انشاء نوع من النادي وعلّق بيانات بهذا الخصوص فان عدداً قليلاً من الاشخاص تجاوبوا ولم يؤدِّ نشاطه الى اية نتيجة. عندما قام اثنا عشر تلميذاً من اصدقائه بانشاء جمعية الدراسة للشعب الجديد في نيسان 1918 لم ينتخب ماو رئيساً لها.

وجد ماو صعوبة في الحصول على عمل بعد تخرجه من مدرسة اعداد المعلمين في حزيران 1918. في ذلك الوقت كان طموح الخريجين الشباب بالذهاب الى الخارج من اجل الدراسة مألوفا. بالنسبة الى اؤلئك الذين لا تملك عائلاتهم الامكانات لمساعدتهم كما هي الحال مع ماو، كان هناك مشروع الذهاب الى فرنسا وفقاً لبرنامج يتضمن الدراسة مقابل العمل. كانت فرنسا بحاجة الى الطاقة البشرية بعد خسارتها للكثير من الشبان في الحرب العالمية الاولى

(من بين الاعمال التي استقدم العمال الصينيون للقيام بها ازالة الجثث من ساحات القتال).

ذهب بعض اصدقاء ماو الى فرنسا الا انه لم يذهب. ان احتمال القيام بالجهد الجسدي خلق لديه النفور ويبدو ان عاملاً آخراً لعب دوراً وهو وجوب تعلّم الفرنسية. لم يكن ماو بارعاً في اللغات وطوال حياته تكلّم لغته المحلية ولم يتكلم حتى «اللغة العامة»، المعروفة بتنفهوا Putonghua التي جعلها حكمُه اللغة الرسمية للبلاد. سنة 1920 عندما كان الذهاب الى روسيا رائجاً ورغب ماو بالذهاب اليها عدل عن الفكرة اذ كان عليه تعلّم الروسية، بعد ان كان اخبر صديقته قائلاً «عقلي مليء بالسعادة والامل» لدى التفكير بالامر. قام بالمحاولة فأخذ دروساً على يد مهاجر وعميل روسي يدعى سيرغي بوليفوي. لكن حسب بوليفوي سخر سائر التلامذة من ماو عندما عجز حتى عن تعلّم الالفباء الروسية فترك وهو غاضب. لم يذهب ماو الى فرنسا او روسيا خلافاً لما فعله العديد من معاصريه الراديكاليين بمن فيهم معظم القادة الشيوعيين المستقبليين في الصين.

عوضاً عن ذلك وبعد تركه المدرسة استدان ماو بعض المال وتوجه الى العاصمة بكين ليجرب حظه. كانت بكين سنة 1918 من اجمل مدن العالم حيث تتمشى الجِمال في الشوارع مقابل القصور الرائعة. وكانت الحدائق الملكية المجاورة لمسكن ماو قد فُتحت للتو امام العامة. عندما حلّ الشتاء كان ماو واصدقاؤه- كل الجنوبيين الذين نادراً ما رأوا الثلج او الجليد- مذهوشين لرؤية البحيرات المتجمدة المحاطة بالصفصاف المتدلّي المثقل بالكتل الجليدية المدلاّة والخوخ الشتوي المفتوح.

كانت الحياة في المدينة قاسية. لكن المقدار الكبير من الحرية والفرص التي ادخلها التمدن الى الصين قد جلب القليل فقط من الفوائد المادية وبقي الفقر المدقع مخيماً على معظم انحاء البلاد. شغل ماو مع سبعة من اصدقائه ثلاث غرف صغيرة جداً. فكان اربعة منهم يحشرون انفسهم على سرير من القرميد الساخن تحت لحاف واحداً وكانوا متراصين باحكام حتى اذا اراد احدهم الاستدارة كان عليه تنبيه من هم على يمينه ويساره. كان للثمانية معطفان فقط لذلك كانوا يتناوبون على الخروج. وبما ان المكتبة كانت تنعم بالتدفئة كان ماو يذهب اليها في المساء للقراءة.

لم يحقق ماو اي نجاح في بكين اذ وجد عملاً لفترة كأمين مكتبة في مرتبة دنيا فكان يكسب 8 يوان في الشهر وهو اجر كافٍ لتأمين المصاريف الاساسية. ومن ضمن مهماته تدوين اسماء الاشخاص الذين يأتون لقراءة الصحف ومعظمهم تعرّف عليهم بصفتهم مفكرين بارزين، الا انه لم يترك انطباعاً جيداً لديهم ولم يعِره هؤلاء اي اهتمام وشعر ماو بانهم يصدّونه فتولّد لديه حقد كبير تجاههم. اعتبر لاحقاً ان «معظمهم لم يعاملوه كانسان». بعد اقل من ستة اشهر

في زوايا الشوارع.ونُشرت فقط خمسة اعداد للمجلة.

لبث ماو يكتب مقالات متفرقة في مجلات اخرى. ومن انتاجه عشرة مقالات تعالج مواضيع تخص المرأة والعائلة. كان ماو مدافعاً عن استقلال المرأة وحرية الاختيار في الزواج والمساواة مع الرجل وجميعها آراء غير مألوفة في اوساط الراديكاليين. يبدو ان الدافع لتدفّق هذه الافكار هو وفاة والدته التي احب كثيرا، وكان ذلك في 5 تشرين الاول 1919. كان يرسل لها الادوية لمعالجة امراضها كالخناق والورم اللنفاوي ورتّب جلبها الى تشانغشا من اجل تلقي العلاج. هناك في ربيع تلك السنة أُخذت لها الصورة الاولى والوحيدة وهي في الثانية والخمسين يحيط بها صبيانها الثلاثة وعكست صورتها سلاماً داخلياً. اما التعبير الظاهر على وجه ماو فيدلّ على التصميم الهادىء وعلى التحفظ. خلافاً لشقيقيه اللذين يرتديان ثوب المزارعين ويبدوان كفلاحين غير لبقين فان لماو مظهر جميل في ردائه الطويل وهو اللباس التقليدي للطلاب والطبقة الارستقراطية.

يتبيّن في علاقة ماو بامه بانها اظهرت له على ما يبدو تساهلاً وحبّاً من غير قيد او شرط، وإن معاملته لها جمعت بين الاحاسيس القوية والانانية. في مرحلة لاحقة من حياته اخبر احد مساعديه المقربين منه قصة معبّرة: «بينما كانت والدتي على فراش الموت اخبرتها اني لا استطيع ان اتحمّل رؤيتها في حال من النزاع. اردت ان احتفظ بصورة جميلة لها واخبرتها اني اريد البقاء بعيداً عنها لبعض الوقت. كانت امرأة متفهمة جداً ووافقت على الامر. لذلك فان صورة امي في رأسي كانت دائما وما زالت صورة جميلة ودالّة على المعافاة». على فراش موتها كان ماو نفسه الشخص الذي اخذ الاولوية في اعتباره وليس امه، ودون ان يتردد في الاعلان عن ذلك.

وما هو اقل اثارة للدهشة ان ماو تعاطى مع والده المشرف على الموت ببرودة. مات يي تشانغ في 23 كانون الثاني 1920 اثر اصابته بالتيفوئيد، وقبيل وفاته تمنى رؤية ابنه البكر الا ان ماو بقي بعيداً عنه ولم يظهر اي احساس بالحزن تجاهه.

في مقال بعنوان «حول استقلال المرأة» كتبه ماو في.21 تشرين الثاني 1919 بعد وفاة والدته بوقت قصير، اعتبر ان «النساء بامكانهن القيام باعمال تتطلب جهداً جسدياً بنفس المقدار الذي يقوم به الرجال. هن فقط لا يستطعن القيام بمثل هذه الاعمال اثناء الولادة». لذلك فان ردّه على «استقلال النساء» هو انه «عليهن الاستعداد بما فيه الكفاية... قبل الزواج كي يحققن الاستقلال المادي»، وحتى انه «على النساء تأمين مخزون احتياطي من الحاجيات الاساسية لانفسهن في فترة الولادة». بالطبع لم يشأ ماو بصفته رجلاً ان يجد نفسه مجبراً على الاهتمام بالنساء. لم يكن يريد تحمّل اية مسؤولية تجاههن. بالاضافة الى ذلك ان اصراره على ان النساء قادرات على القيام بنفس الاعمال اليدوية كالرجال وهو امر يعاكس الواقع بوضوح، واظهر

انه كان يشعر بالقليل من الحنان تجاههن. عندما تسلّم السلطة كان جوهر مقاربته للنساء اسناد الاعمال اليدوية القاسية اليهن. سنة 1951 كتب اول عبارة منقوشة لمناسبة يوم المرأة وجاء فيها: «اتّحدن في سبيل المشاركة في الانتاج...».

في نهاية عام 1919 بدأ طلاب ومعلمون راديكاليون حملة في هونان لاخراج حاكم المقاطعة والقائد العسكري تشانغ تشينغياو من السلطة. ذهب ماو مع وفد لحمل الحكومة المركزية في بكين على التجاوب معهم وكتبوا العرائض والكتيّبات على مذبح في معبد في التيبت حيث بقي هو. رغم ان الوفد فشل في تحقيق هدفه تمكن ماو، بصفته راديكالياً بارزاً من هونان، من لقاء بعض الشخصيات المعروفة بمن فيها هو شيه الشخصية الليبرالية اللامعة، كما التقى الماركسي البارز لي تاتشاو.

لكن في طريق عودته عبر شانغهاي اجرى ماو لقاءً حاسماً غيّر مجرى حياته. في حزيران 1920 عرّج على استاذ يدعى تشن توهسيو الذي يعتبر حينها المفكر الماركسي الابرز في الصين والذي كان في غمرة تشكيل الحزب الشيوعي الصيني. كان ماو كتب مقالاً طويلاً سمّاه فيه «نجمة ساطعة في عالم الفكر». كان تشن البالغ الاربعين من العمر مؤمناً حقيقياً وقائداً ساحراً ذا طبع متقلّب.

لم تصدر فكرة انشاء حزب شيوعي عن البروفسور ولا عن اي صيني آخرَ، بل بدأت في موسكو. سنة 1919 اسست الحكومة السوفياتية الجديدة الشيوعية الدولية المعروفة بالكومنتيرن لخلق الثورات وللتأثير على رسم السياسات في جميع انحاء العالم خدمةً لمصالح موسكو. في شهر آب اطلقت موسكو برنامج عمل وتخريب للصين اتسّم بالسرّية والضخامة واطلق التزاماً بتزويد الشيوعيين الصينيين بالمال والرجال والسلاح لثلاثة عقود توجت بايصال الشيوعيين بقيادة ماو الى السلطة سنة 1949 وهو النصر الاكثر ثباتاً في السياسة الخارجية للسوفيات.

في كانون الثاني 1920 استولى البولشفيون على سيبيريا الوسطى وانشأوا صلة برّية مع الصين. وفي نيسان ارسل الكومنتيرن موفداً الى الصين يدعى غريغوري فويتنسكي، وفي ايار اقام مركزاً في شانغهاي بهدف «انشاء حزب صيني» بحسب ما نقله الى موسكو عميل آخر. بعدها قدم فويتنسكي اقتراحاً الى البروفسور تشن يقضي بانشاء حزب شيوعي. في حزيران ابلغ فويتنسكي حكومته ان تشن يجب ان يعيّن اميناً عاماً للحزب اي رئيسه، كما كان فويتنسكي يجري اتصالات مع «ثوار في مدن مختلفة».

حصل ذلك تماماً عندما ظهر ماو على عتبة منزل تشن فهو صادف قيام الحزب الشيوعي

الصيني. لم يُدعَ ماو ليكون واحداً من المؤسسين، كذلك لا يبدو انه جرى اعلامه بأن الحزب على وشك التأسيس. كان الاعضاء المؤسسين الثمانية ماركسيين بارزين ولم يقل ماو حتى انه يؤمن بالماركسية. جرى تأسيس الحزب في آب بعد ان ترك ماو شانغهاي(*).

لكن رغم ان ماو لم يكن من مؤسسيه الاّ انه كان في العصبة الخارجية المباشرة. أوكل اليه البروفسور تشن مهمة فتح مكتبة في تشانغشا لبيع منشورات الحزب فيما كان البروفسور غارقاً في جعل مجلته الشهرية المؤثرة **الشباب الجديد** *New Youth* صوت الحزب. حمل عدد تموز مقالات عن لينين والحكومة السوفياتية وابتداءً من الخريف اصبحت المجلة مدعومة من الكومنتيرن.

كان عمل ماو يقضي بتوزيع المجلة وغيرها من المنشورات الشيوعية بالاضافة الى بيع كتب ومجلات دورية اخرى. مع انه لم يكن شيوعياً ملتزماً الاّ انه كان راديكالياً وكان يحب الكتب ايضاً ورحب بعمله. بعد عودته الى تشانغشا بوقت قصير تضمن اعلان صادر حول المكتبة اعلاناً غريباً كتبه بنفسه يعتبر ان «لا ثقافة جديدة في العالم بأسره. هناك فقط زهرة جديدة لثقافة جديدة اكتُشفت في روسيا على شاطىء المحيط المتجمد الشمالي». فطلبت المكتبة على الفور 165 نسخة من عدد تموز من مجلة **الشباب الجديد** وهو الطلب الاكبر الى حدّ بعيد. وتقدّمت **الشباب الجديد** بطلب آخر كبير شمل 130 نسخة من صحيفة دورية يصدرها الحزب للعمال وتدعى **عالم العمل**. كانت معظم الصحف الدورية الاخرى التي طلبتها المكتبة راديكالية ومؤيدة لروسيا.

لم يكن ماو يعرّض حياته للخطر عبر قيامه بنشاطات مؤيدة للشيوعية ولم تشكّل هذه النشاطات جريمة. في ذلك الوقت اصبحت روسيا الشيوعية في الواقع امراً رائجاً. في تشانغشا كانت جمعية للدراسة الروسية في طور التأسيس والشخصية التي ترأستها ليست سوى زعيم الاقليم. كانت شعبية روسيا عائدة جزئياً الى خدعة قامت بها الحكومة البولشيفية عبر ادّعائها التخلّي عن الاراضي والامتيازات القديمة لروسيا القيصرية في الصين في الوقت الذي احتفظت بها في الواقع. شملت الاراضي الواقعة تحت السيطرة الروسية ما يزيد على الربع مليون فدّان وشكّلت الامتياز الاجنبي الاكبر في البلاد.

كان ماو مسؤولاً عن المكتبة ولكنه اوكل تسييرها الى احد اصدقائه. وبرزت لديه ميزة

(*) كانت هذه نقطة حساسة بالنسبة الى ماو وأخلافه ونتيجة لذلك يعيد التاريخ الرسمي تأسيس الحزب الى عام 1921 إذ أنها المرة الأولى التي كان فيها ماو داخل اجتماع للحزب: المؤتمر الأول. وقد خلّدت الذكرى بحسب الأصول في متحف في شانغهاي حفظت فيه أسطورة كون ماو عضواً مؤسساً للحزب. لكن تأسيس الحزب كان عام 1920 وليس 1921 وتمّ تأكيده من قبل كل من المجلة الرسمية للكومنتيرن أحد مبعوثي موسكو الذي نظّم المؤتمر الأول.

هامة في ذلك الوقت فكان موهوباً في اكتشاف الاشخاص وتفويضهم للقيام بالاعمال الروتينية. اعطى ماو لنفسه لقب «رجل الاتصال المميز» الذي يلتمس المساعدات من الاثرياء ويتعاطى مع الناشرين والمكتبات والجامعات ويتزعّم المفكرين في جميع انحاء البلاد. كان البروفسور تشن وعدد من الاشخاص اللامعين مدرجين على لائحة الأمناء للمكتبة مما عزّز وضع ماو بصورة هائلة وساعده في الحصول على مركز مشرّف كمدير للمدرسة الابتدائية الملحقة بمدرسته القديمة.

لا يوجد اثبات على التحاق ماو بالحزب في تلك الفترة بشكل رسمي رغم انه اعتبر في تشرين الثاني كأنه «واحد من بيننا» ويعود الفضل في ذلك الى المكتبة. عندما قررت موسكو انشاء منظمة في هونان تدعى عصبة الشباب الاشتراكي وخلق مجموعة من الاعضاء المستقبليين في الحزب، تمّ الاتصال بماو للقيام بهذا العمل. في الشهر التالي اعلن في رسالة الى اصدقاء له في فرنسا انه «وافق بايمان راسخ» على فكرة «استعمال النموذج الروسي لاصلاح الصين والعالم». كان هذا التعبير الاول عن ايمانه بالشيوعية.

اصبح ماو شيوعياً لدى اقترابه من سن السابعة والعشرين، ليس بعد رحلة الى عالم مثالي او لانه مدفوع بايمان انفعالي، ولكن من خلال وجوده في المكان والوقت المناسبين، ومن خلال اسناد عمل ملائم جداً له. اذ جرى دمجه في منظمة في طور الانتشار.

اعتبر صديقه الاقرب اليه في ذلك الوقت سياو يو ان ثمن الطريقة الروسية مكلف جداً وكتب اليه من فرنسا عمّا كان يشعر به هو وبعض الاشخاص الآخرين:

«نحن لا نعتقد انه يجب التضحية ببعض البشر في سبيل خير الاكثرية. نحن نحبّذ ثورة معتدلة من خلال العلم والسعي الى خير الجميع... نحن نرى ان الثورات على النمط الروسي والماركسي مسيئة من الناحية الاخلاقية...».

لخّص ماو طريقتهم بقوله انها «استعمال الوسائل السلمية سعياً لسعادة الجميع». عارضها ليس لاسباب تعلّقه بالمثالية بل استشهد بواقعية مطلقة: «لديّ تعليقان... : كل شيء يسير على ما يرام نظرياً لكن لا يمكن تطبيقه». قال ماو ان «المثاليات مهمة، الاّ ان الواقع هو اكثر اهمية».

لم يكن ايمان ماو بالعقيدة الشيوعية متّقداً فنتج عن هذا الغياب بالالتزام الصادق علاقة غير مألوفة وفريدة مع حزبه طوال حياته، وحتى عندما كان رئيساً لذلك الحزب.

3- الضعيف الايمان
(1920-1925، العمر 26-31 سنة)

في الوقت الذي اصبح فيه ماو منهمكاً في الحزب الشيوعي اقام علاقة مع ابنة معلمه السابق يانغ تشانغ تشي، يانغ كاي هواي، التي تصغر ماو بثماني سنوات واصبحت فيما بعد زوجته الثانية.

ولدت سنة 1901 في بقعة هادئة وجميلة خارج تشانغشا. كانت طفلة ضعيفة وحساسة وربّتها والدتها المتحدّرة من عائلة علماء، فيما امضى والدها احدى عشرة سنة في الخارج متنقلاً بين اليابان وبريطانيا والمانيا، حيث درس علم الاخلاق والمنطق والفلسفة. عندما عاد والدها الى تشانغشا سنة 1913 جلب معه عادات اوروبية وشجع ابنته على الانضمام اليه والى تلامذته من الذكور على مائدة الطعام وهو امر جديد في تلك الايام. كانت الفتاة الجميلة والانيقة والكئيبة الفصيحة تربك كل الشبان.

كان والدها معجباً بذكاء ماو واعطاه توصيات كثيرة الى اشخاص نافذين. كتب الى احدهم قائلاً: «انا اقول لك بجديّة ان هذين الشخصين [ماو وتلميذة أخرى تدعى كاي هي سين] يمثلان مواهب نادرة في الصين وسيكون لهما مستقبل عظيم... لا تستطيع سوى الانتباه اليهما بجدية». عندما اصبح استاذاً لعلم الاخلاق في جامعة بكين سنة 1918 رحّب بسكن ماو مع عائلته اثناء المغامرة الاولى وغير المثمرة لهذا الاخير في بكين. كانت كاي هواي حينها في السابعة عشرة وكان ماو متلهفاً جداً لها لكنها لم تظهر اي تجاوب. كتبت بعد سنوات قائلة:

> «عندما كنت في حوالى السابعة عشرة او الثامنة عشرة بدأت اكوّن آرائي الخاصة بالزواج. كنت ضد اي زواج يتضمن الطقوس. فكرت ايضا ان التفتيش المتعمّد عن الحب سيؤدي حتماً الى فقدان الحب الحقيقي والمقدس والاسمى والاجمل والذي لا يمكن تخطّيه!... هناك عبارة تعكس افكاري على احسن وجه: الافضل الاّ نحصل على الشيء اذا لم يكن كاملاً».

في كانون الثاني 1920 توفي والدها. كان ماو في بكين في رحلته الثانية وامضى وقتاً طويلاً مع العائلة. وفي ذلك الوقت وقعت في حب ماو وكتبت قائلةً:

> «توفي ابي. توفي ابي الحبيب. بالطبع كنت بائسة. لكنني شعرت بان الموت جلب له الراحة،

لذلك لم اكن حزينة اكثر مما ينبغي.
لكني لم اتوقع ان اكون محظوظة بهذا القدر. كان لديّ رجل احبّه. احببته كثيراً في الواقع. كنت احبه بعد ان سمعت الكثير عنه وقرأت العديد من مقالاته ويومياته... رغم اني احببته لم اكن اظهر ذلك. كنت مقتنعة بان الحب في ايدي الطبيعة ويجب الاّ اطلبه او اسعى اليه بوقاحة...».

لذلك بقيت كاي هواي متحفظة. بعدها افترقا عندما رافقت نعش والدها العائد الى تشانغشا حيث التحقت بمدرسة لاحدى الارساليات. عملت المسافة على تأجيج مشاعرها وتذكرت لاحقاً بقولها:

«كتب اليّ رسائل عديدة للتعبير عن حبّه. لكني لم اجرؤ ان افكّر باني كنت محظوظة الى هذه الدرجة. ولو لم يخبرني احد الاصدقاء العارف بمشاعر ماو نحوي وبانه بائس بسببي، اعتقد اني كنت بقيت عزباء طوال حياتي. منذ ان بدأت اكتشف مشاعره الحقيقية تماماً تجاهي، ابتداءً من ذلك اليوم اصبح لديّ احساس جديد. شعرت انه بمعزل عن كوني اعيش في سبيل والدتي فقد كنت ايضا اعيش لاجله... كنت اتخيّل انه عندما سيموت وفيها امي لم تعد موجودة، فاني ساتبعه بلا ريب واموت معه!»

عندما عاد ماو الى تشانغشا في وقت لاحق من تلك السنة اصبحا حبيبين. كان ماو يعيش في المدرسة التي يعمل فيها مديراً وكانت كاي هواي تزوره هناك لكنها لم تكن تمضي الليل فيها. لم يكونا متزوجين وكانت سنة 1920 حيث العيش معاً خارج الزواج غير وارد بالنسبة الى سيدة، كذلك فان ماو لم يكن راغباً في الارتباط. في رسالة موجهة الى صديق له في 26 تشرين الثاني ابدى تنديداً بالزواج: «اعتقد ان جميع الرجال والنساء في نظام الزواج ليسوا سوى شركاء في «حلف للاغتصاب»... انا ارفض الانضمام الى حلف الاغتصاب هذا». تطرّق الى فكرة تشكيل اتحاد لمقاومة الزواج» بقوله: «حتى لو لم يوافقني أحد الرأي. انا امثّل بنفسي «اتحاد الرجل الواحد».

في احدى الليالي وبعد ان ذهبت كاي هواي لم يتمكن ماو من النوم وكتب قصيدة افتتحها بهذه السطور:

«تراكم الحزن على وسادتي. ما بالك؟
تتحرّك مضطرباً الى ما لا نهاية، كالامواج في الانهار والبحار.
ما اطول الليل وكم السماء مظلمة. متى سيطلع الفجر؟
سهرت قلقاً والعباءة مرميّة على اكتافي في البرد.
عندما طلع الفجر اخيراً بقي الرماد وحده من افكاري اللامتناهية»...

استعان ماو بهذه القصيدة كي يتمكّن من اقناع كاي هواي بالبقاء معه ليلاً. كانت الحيطان مجرّد الواح رقيقة وتذمّر بعض المقيمين في المدرسة عندما تجامعا بحماس. استشهد احد جيرانه بالقانون القائل بانه يمنع على زوجات المعلمين النوم في المدرسة، لكن ماو كان المدير فغيّر القانون واطلق سابقة تقضي بالسماح لزوجات المعلمين البقاء في المدرسة ليلاً.

بالنسبة الى كاي هواي فان تمضية الليل فيها كانت تعني اعطاء نفسها بكلّيتها. كتبت قائلة: «انهارت قوة الارادة لديّ منذ فترة وسمحت لنفسي بان اعيش قصة غرام. توصّلت الى خلاصة مفادها: «لندع الارض تنهار والارض تغرق! فلتكن هذه النهاية! «ما معنى حياتي اذا لم اعش في سبيل امي وفي سبيله؟ لذلك عشت حياة ملؤها الحب»...

لم تكن مشاعر ماو مساوية لمشاعر كاي هواي واستمر في لقاء صديقات اخريات وبالتحديد معلمة ارملة تدعى سي يونغ وتصغره بثلاث سنوات. ساعدته كثيراً في توفير الاعتمادات المالية للمكتبة اذ ان بعض تلامذتها كانوا يأتون من عائلات ثرية وسافرت برفقة ماو كزوجين.

عندما اكتشفت كاي هواي الامر شعرت بالانكسار: «ثم فجأة وقعت قنبلة على رأسي في احد الايام. اصيبت حياتي الضعيفة بضربة قاضية وكدت اتحطّم من جراء هذه الضربة!» الا انها سامحت ماو. «لكن كان هذا شعوري عندما سمعت بالخبر اولاً. رغم كل شيء هو رجل غير عادي. هي [سي يونغ] احبته بحرارة الى درجة انها قد تعطيه كل شيء. وهو ايضاً احبها لكنه لا يخدعني، وفي النهاية لم يخدعني». يبدو ان ماو علّل علاقته بسي يونغ عبر ادعائه انه لم يكن متأكداً من حب كاي هواي له. لكن هذه الاخيرة قررت تصديقه:

> «... الآن رُفعت الاغطية عن قلبه وقلبي. رأيت قلبه ورأى قلبي بكلّيته. كلانا لديه نفسٌ ابيّة وانا كان لدي اباء اكبر حينها. كنت اعمل كل شيء لامنعه من رؤية قلبي، قلبي المفعم بحبه، لذلك تولّد لديه الشك تجاهي واعتقد اني لا احبه. وبسبب ابائه لم يكن يدع مشاعره تظهر. الآن فقط نحن نفهم بعضنا بصورة حقيقية. نتيجة لذلك نحن اقرب الى بعضنا اكثر من اي وقت».

انتقلت كاي هواي للعيش مع ماو وتزوجا في نهاية 1920. في ذلك الوقت تجنّب الراديكاليون الطقوس العائلية القديمة التي توطّد روابط الزواج وكان هناك نظام جديد سيُعتمد لتسجيل الزواج، لذلك لم تصدر شهادة رسمية.

طُردت كاي هواي من المدرسة الارسالية بسبب زواجها واستمرت علاقات ماو الغرامية واقام علاقتين جديدتين بعد زواجه بقليل. اخبرنا بالامر احد اصدقائه المقربين في ذلك الوقت وهو يكتب عبارة «الخائن» باصبعه على الطاولة. كانت احدى هذه العلاقات مع قريبة لكاي هواي. عندما علمت هذه الاخيرة بالامر ذهلت لدرجة انها ضربت هذه القريبة. الا انها قلما

كانت تفجّر ثورة غضبها وبقيت مخلصة لماو. كتبت لاحقاً بانكسار:

«تعلمت المزيد من الاشياء وبدأت افهمه تدريجياً. ليس وحده فقط بل الطبيعة البشرية في كل الناس. ان اي شخص دون عاهات جسدية لديه صفتان. الصفة الاولى هي الغريزة الجنسية والاخرى هي الحاجة العاطفية الى الحب. اخذت موقفاً بان ادعه حرّاً وليكن الامر كذلك».

بأية حال لم تكن كاي هواي زوجة صينية تقليدية ملزمة وفقاً للتقاليد بتحمّل سوء سلوك زوجها. في الواقع كانت من دعاة المساواة بين المرأة والرجل وكتبت لاحقاً مقالاً عن حقوق المرأة جاء فيه: «النساء هن من البشر تماماً كما هي حال الرجال... ايتها الاخوات! يجب ان نناضل في سبيل المساواة بين الرجال والنساء ويجب بصورة قطعيّة الاّ ندع الناس يعاملوننا كشيء ثانوي».

خلال الزواج الثاني لماو كانت موسكو تضاعف جهودها لاثارة اعمال تخريبية في الصين. بدأت بالتدريب السرّي لجيش صيني في سيبيريا واستكشفت القيام بتدخّل عسكري في الصين كما كانت اجرت للتو محاولة فاشلة في بولندا. في الوقت نفسه انشأت واحدة من اهم شبكات المخابرات لديها في اي مكان من العالم فيما شبكة الاستخبارات الروسية كي جي بي موجودة من قبل في شانغهاي، والعديد من العملاء المدنيين والعسكريين منتشرون في مدن رئيسية اخرى بما فيها كانتون وبكين بالطبع.

في 3 حزيران 1921 وصل ممثلان جديدان لموسكو على مستوى رفيع، كلاهما باسم مستعار وهما رجل المخابرات العسكرية الروسية المدعو نيكولسكي ورجل هولندي يدعو مارنغ الذي كان محرّكاً للجماهير في جزر الهند الشرقية الخاضعة للسيطرة الهولندية. طلب هذان العميلان من اعضاء الحزب الشيوعي الصيني في شانغهاي الدعوة الى مؤتمر لاضفاء الصفة الرسمية على الحزب. ارسلت الرسائل الى سبع مناطق حيث اجريت الاتصالات مع اشخاص معيّنين وطُلب الى كل منطقة ارسال ممثلَين، كما وضع مبلغ 200 يوان في كل مغلّف لتغطية نفقات سفر كل مقعد الى شانغهاي. وصلت مجموعة من الدعوات والاموال الى ماو في تشانغشا وكانت المئتا يوان تساويان تقريباً راتب سنتين من وظيفته في التعليم واكثر بكثير مما تتطلّبه الرحلة. كانت تلك اول دفعة نقدية علنية يتلقاها ماو من موسكو.

اختار شريكاً له في الوفد الممثل لمنطقته وهو صديق قديم يدعى هو شوهنغ ويبلغ الخامسة والاربعين من العمر. غادرا سراً مساء 29 حزيران في سفينة بخارية صغيرة تظللها سماء عاصفة بعد ان رفضا اقتراحات الاصدقاء بتوديعهما. رغم عدم وجود قانون يحظّر النشاطات

الشيوعية كان لديهما سبب لتجنّب لفت الانظار فقد كانا ضالعين في مؤامرة اي تواطؤ لانشاء منظمة بتمويل خارجي وبهدف الاستيلاء على السلطة عبر وسائل غير شرعية.

افتتح المؤتمر الاول للحزب الشيوعي الصيني في شانغهاي في 23 تموز 1921 بحضور 13 شخصاً جميعهم من الصحافيين والتلامذة او المعلمين وهم يمثلون ما مجموعه 57 شيوعياً معظمهم يعملون في مهن متشابهة لكن لم يكن اي منهم عاملاً. لم يحضر اي من عضوي الحزب الاكثر اعتباراً اي البروفسور لي تا تشاو وتشن توهسيو رغم ان هذا الاخير كان عيّن رئيساً للحزب، وادار الدفة مندوبا موسكو.

تلا مارينغ ذو القامة الطويلة والشاربين الخطاب الافتتاحي باللغة الانكليزية وترجمه احد المندوبين. يتذكر المشاركون طول الخطاب اكثر مما يتذكرون مضمونه اذ استغرقت تلاوته بضع ساعات. في ذلك الوقت كانت الخطابات الطويلة نادرة في الصين. ويذكر المشاركون ان نيكولسكي هو الشخص الذي القى الخطاب الاقصر.

وسرعان ما اصبح وجود الاجانب والنفوذ الذي يمارسونه مسألة أساسية. خصّصت رئاسة الجلسة لتشانغ كيوتاو الذي اصبح منافساً لماو لاحقاً، لانه سبق وزار روسيا وكانت له علاقات مع الاجانب. تذكر احد المندوبين ان كيوتاو اقترح غير مرة الغاء القرار المتخذ في الامسية الفائتة. «واجهته قائلاً: كيف يمكن الغاء قرار وافق علية المجتمعون بهذه السهولة؟ قال بأن تلك وجهة نظر المندوبين الروسيين. كنت غاضباً للغاية... اذاً لا حاجة لعقد الاجتماعات. علينا فقط تلقّي الاوامر من الروس». الا ان الاحتجاج غير مجدٍ. اقترح مندوب آخر انه قبل الذهاب بعيداً في الخطط الروسية يجب التحقّق اذا كانت البولشفية مناسبة واقترح ارسال وفد الى روسيا وآخر الى المانيا، لكن هذا الاقتراح ارعب المندوبين الروس ورُفض في حينه.

لم يتكلّم ماو كثيراً ولم يترك انطباعاً هاماً. بالمقارنة مع مندوبي المدن الكبرى كان يرتدي عباءة قطنية تقليدية ذات طابع ريفي بالاضافة الى حذاء اسود من القطن بدلاً من طقم اوروبي الطابع وهو لباس العديد من الشباب التقدميين. لم يجهد كي يترك انطباعاً قويّاً واكتفى بالاستماع بصورة رئيسية.

بدأ الاجتماع في منزل يقع في المستعمرة الفرنسية فيما كانت الشرطة الموجودة في هذه المناطق المعروفة بـ«الامتيازات» تراقب النشاطات الشيوعية. مساء 30 تموز اقحم غريب نفسه بين المجتمعين فأمر مارينغ المندوبين بالمغادرة بعد ان اشتبه بكونه جاسوس من الشرطة. انتقل المشاركون الصينيون الى بلدة صغيرة خارج شانغهاي تدعى دجياكسينغ عبر بحيرة مكسوّة بكستناء الماء. وظلّ المندوبون الروسيون خارج الجلسة الاخيرة خوفاً من لفت الانظار.

وحيّيتهم زوجة احد مندوبي شانغهاي من البلدة المحاذية للبحيرة واستأجرت مركباً للمتعة حيث جلس المندوبون على طاولة ملمّعة وضع عليها الطعام والشراب ومجموعة من الألعاب الصينية المعروفة بـ«المهجونغ». وكانت تفصل هذه الغرفة الداخلية عن الخارج شاشة خشبية محفورة الاّ انها كانت تحمي واجهة المركب حيث جلست زوجة المندوب وهي تدير ظهرها للشاشة. اخبرتنا كيف انها لدى مرور المراكب الأخرى كانت تدقّ على الشاشة بمروحتها فتُحدث قرقعة عالية في الداخل بسبب اهتزاز العاب الماهجونغ الفخارية. وبعد وقت قصير هطل المطر بغزارة وغلّفت المركب مياه الامطار. في هذا الاطار اعلن الحزب الشيوعي الصيني بشكل غير حاسم اذ انه في غياب ممثلي موسكو لا امكانية لانجاز اي برنامج. حتى ان المؤتمر لم يصدر اي بيان رسمي او دستور.

اعطي المندوبون مبلغاً اضافياً قدره 50 يوان كمصاريف للعودة، فاتاح ذلك لماو ان يرتاد الاماكن التي تستحق المشاهدة براحة في هانغزهو ونانجينغ حيث التقى بصديقته سي يونغ(*) مرة اخرى.

بقي الاعتماد على موسكو وعلى مساعداتها المالية نقطة حساسة بالنسبة الى الكثيرين في الحزب. اخبر بروفسور تشن الذي قدم الى شانغهاي في اواخر آب ليتسلّم منصب الامين العام رفاقه قائلاً: «اذا اخذنا مالهم يجب علينا ان نتلقّى الاوامر منهم». اقترح من دون جدوى الاّ يكون ايّ منهم من الثوار المحترفين العاملين بدوام كامل بل عوضاً عن ذلك يجب ان يكون لهم اعمال مستقلّة وان يستعملوها لنشر الافكار الثوريّة.

تجادل تشن مع مارينغ بحدّة حول اصرار هذا الاخير على اعتبار الحزب الشيوعي الصيني فوراً فرعاً من الكومنتيرن وتجادلا بشكل خاص حول مسألة فرض الاشراف على كل الاجتماعات من قبل نيكولسكي. وصاح قائلاً: «هل يجب ان يتحكّموا بنا هكذا؟ بكل بساطة لا يستأهل الامر ذلك». كان غالباً يرفض رؤية مارينغ لاسابيع متتالية. يبدأ تشن بالصراخ ويضرب براحة يده على الطاولة وحتى يرمي اكواب الشاي شمالاً ويميناً. بالنسبة اليه لقب مارينغ هو «البركان». في معظم المناسبات التي انفجر فيها غضب تشن كان مارينغ يذهب الى الغرفة المجاورة للتدخين فيما تشن يحاول ان يستعيد هدوءه.

لكن دون المساعدات المالية التي منحتها موسكو لم يكن الحزب الشيوعي الصيني حتى قادراً ان يبدأ القيام بنشاطاته من مثل نشر ما كتب عن الشيوعية وتنظيم حركة عمالية. خلال

(*) توفي سي يونغ من المرض عام 1931.

فترة تسعة اشهر ممتدة من تشرين الاول 1921 الى حزيران 1922 ، ومن اصل 17655 يوان تمثّل مصاريف الحزب فان 6 بالمئة فقط منها جُمعت في الصين بينما اتى 94 بالمئة من المبلغ من الروس كما افاد تشن بنفسه في تقرير مرفوع الى موسكو. في الواقع كان هناك العديد من المجموعات الشيوعية الاخرى في الصين حينها، على الاقل سبعة بين عامي 1920 و1922، وادعت احداهن بانها تضم في صفوفها 11000 عضواً. لكن دون التمويل الروسي كان السقوط مصير الجميع.

خلافاً لتشن لم يعان ماو من اي تأنيب للضمير بخصوص استخدام المال الآتي من موسكو بل كان واقعياً فحوّل التمويل الروسي حياته. بعد المؤتمر بدأ بالحصول على ستين الى سبعين يوان شهرياً من الحزب وهي مخصصة لفرع هونان وبعد وقت قصير ارتفع المبلغ الى مئة يوان ومن ثم الى مئة وستين ومئة وسبعين. هذا المدخول الكبير والمنتظم احدث تغييراً هائلاً في حياته. كان ماو دائماً بحاجة الى المال. كان لديه عملان فكان مدير مدرسة وصحافياً غير ذي شأن وكان يخشى الاعتماد على هاتين المهنتين لكسب رزقه. في رسالتين مكتوبتين في اواخر تشرين الثاني 1920 الى احد اصدقائه تذمّر بمرارة قائلاً: «ان حياة تعتمد فقط على الفم والعقل هي حياة شقاء الى اقصى حدّ... اني اعمل غالباً دون راحة مدة ثلاث او اربع ساعات، واعمل حتى خلال الليل... ان حياتي فعلا قاسية جداً».

بعدها اخبر بعض الاصدقاء: «في المستقبل على الارجح ساعتمد على راتبَي من هذين العملين. اشعر بان الاعمال التي تعتمد على العقل هي قاسية جداً لذلك افكر بتعلّم شيء يعتمد على العمل اليدوي مثل رتي الجوارب او صنع الخبز». بما ان ماو لم يكن مولعاً ابداً بالاعمال اليدوية فان اقتراح فكرة كهذه يبيّن انه وصل الى طريق مسدود.

لكن الآن اصبح لديه عمل مريح كثائر محترف يحصل على العون المالي. ترك ماو الصحافة واستقال حتى من وظيفة مدير المدرسة ليتمكّن من ان ينعم بنوع من الحياة كان لحينه يحلم به فقط. يبدو الآن انه طوّر عادةً ترافقه مدى حياته وتنطوي على النوم الى وقت متأخر نهاراً والسهر للقراءة ليلاً. في رسالة موجهة الى اعزّ اصدقائه القدماء سياو يو بعد مضي شهرين على المؤتمر الاول كان تقريباً في حالة ابتهاج غامر:

«انا الآن اقضي معظم وقتي مهتماً بصحتي واصبحت في وضع افضل بكثير. اشعر بالسعادة الكبرى فإلى جانب تحسّن صحتي ليس لديّ اي عبء عمل او مسؤولية. اشغل نفسي بالحصول على الطعام الجيد كل يوم فأدلّل معدتي واحسّن صحتي. باستطاعتي ايضاً قراءة اي نوع من الكتب التي اودّ قراءتها. حقاً انه لوضع مدهش وممتع!»

ان مفهوم ماو للحياة الجميلة هو ان يتمكّن المرء من أن يأكل كفايته من الطعام ويقرأ ما

يشاء من الكتب.

في تشرين الاول 1921 استطاع اقامة منزل مع كاي هواي في مكان يدعى «غدير الماء الشفاف» وكان لديه ما يكفي من المال ليتمكّن من استقدام الخدّام.

كان موقعاً جميلاً حيث تصبّ المياه في بركة كبيرة وتتحوّل من مياه موحلة الى مياه صافية لتعطي المكان اسمه. كان المنزل مبنى قديماً له دعامات خشبية سوداء وجدران قرميدية مهرّجة ويطلّ على حقول من الخضار وتقع وراءه هضاب صغيرة.

نظرياً كان المنزل مكتباً لفرع الحزب الشيوعي في هونان وبصفة ماو رئيس الحزب على مستوى المقاطعة كان من بين مهماته الاساسية ادخال اعضاء جدد، الاّ انه لم يعمل بحماس شديد في سبيل القضية. عندما طُلب اليه في البداية ادخال عناصر جديدة في عصبة الشباب فيّ تشرين الثاني 1920 أوكل بالمهمة الى شخص آخر وذهب في عطلة مع صديقته سي يونغ مدّعياً انه اخذ عطلة لانجاز بحث تربوي».

خلافاً لمعظم الديكتاتوريين مثل لينين وموسوليني وهتلر فان ماو لم يلهب مشاعر مجموعة من الانصار المتحمسين عبر خطاباته وجاذبية العقيدة. لقد فتّش بكل بساطة عن اعضاء جدد راغبين في الانضمام الى الحزب في اوساط المقربين منه اي اشخاص يتلقّون الاوامر منه. وصف اول عضو جديد وهو صديقه ومدير المكتبة يي لي رونغ كيف انه بعد وقت قصير على عودة ماو من المؤتمر الاول للحزب، دعاه هو الى خارج المكتبة. اخبره وهو يتّكىء على سياج من الخيزران في الساحة ان عليه ان ينضم الى الحزب. دمدم يي بعض التحفظات حول سماعه بأن الملايين ماتوا في الثورة الروسية، لكن كما قال ماو «طلب مني الانضمام الى الحزب وهكذا انضممت اليه». وبهذه الطريقة اسس ماو اول فرع للحزب في تشانغشا وتألّف من ثلاثة رجال فقط هم هو نفسه ويي والصديق الذي كان اصطحبه الى المؤتمر الاول للحزب.

اما الذين انضموا لاحقاً الى الحزب فهم افراد من عائلة ماو اي زوجته واخوته الذين استدعاهم من القرية. كان تسي مين يدير اعمال العائلة وكان ذكياً في التصرّف بالمال فتسلّم ادارة اموال ماو. استدعى ماو المزيد من الاقارب من القرية الى تشانغشا ووزع عليهم اعمالاً مختلفة وبعضهم انضم الى الحزب اذ كان عدد الاعضاء الجدد ضئيلاً. خارج محيطه العائلي واصدقائه ولم يبتعد عن الاطار العائلي في التفتيش عنهم.

في الواقع استقطبت الشيوعية حينها عدداً كبيراً من الاشخاص في هونان بمن فيهم الذي اصبح لاحقاً الرجل الثاني بعد ماو ورئيس الصين الذي يدعى ليو شاوكي وعدد آخر من القادة المستقبليين في الحزب. لكنهم لم يتعرّفوا الى الحزب بواسطة ماو بل بواسطة ماركسي في العقد الخامس من عمره يدعى هو مين فان وكان رئيساً لاقليم تشانغشا. كفل مين فان

عضوية ليو وغيره في رابطة الشباب الاشتراكي في اواخر 1920 ومهّد لزيارتهم الى روسيا. لم يذهب هو الى المؤتمر الاول للحزب فقد وُجهت الدعوة الى ماو الذي كان يغار كثيراً من مين فان وخاصة حيال نجاحه في استقطاب اعضاء جدد. عندما عاد ليو شاوكي من موسكو سنة 1922 استجوبه ماو بقسوة عن كيفية تحقيق مين فان هذا الامر.

ما إن اصبح ماو المفوّض الرسمي لفرع الحزب الشيوعي الصيني حتى خطّط لاخراج منافسه غير المتعمّد منافسته. كان مين فان يدير مركزاً للمحاضرات العامة يشغل احد الاملاك الجميلة، وهو معبد عشيرة كبير يعرف بـ«مركب الجبل». انتقل اليه ماو بمعيّة مجموعته بحجة حاجته اليه لاغراض حزبية وجعل الحياة فيه مستحيلة الى درجة انه في نهاية المطاف غادر مين فان كلاًّ من المقر الحزبي والاوساط الحزبية. بعد سنة اخبر ماو ليو شاوكي بأن مين فان الذي هو استاذ ليو كان «عاصياً. لذلك طردناه من «مركب الجبل»».

من خلال استعمال كلمة «عاصي» خاصة في وصفه لشخص اكبر منه سنّاً، كان ماو يظهر الجانب العنفي لديه. لم يسبق له ان تصرف بهذه الطريقة قبل ذلك. عندما التقى صديقه الليبرالي سياو يو للمرة الاولى كان ماو ينحني امامه احتراماً. كان لطيفاً مع زملائه ورؤسائه بالطريقة نفسها لكن طعم السلطة غيّر تصرفاته(*). ومنذ ذلك الوقت اقتصرت صداقات ماو على الاشخاص الذين لا ينافسونه، وهؤلاء بمعظمهم لا علاقة لهم بالسياسة. لم يقِم صداقات مع اي من زملائه السياسيين ونادراً ما كان يشارك في نشاطات اجتماعية مشتركة.

شكّلت ازاحة مين فان الصراع الاول على السلطة بالنسبة الى ماو وربح المعركة. اثناء تولّيه مهامه الحزبية لم يكن هناك من لجنة حزبية فالاجتماعات نادرة وكان هناك ماو فقط لاعطاء الاوامر رغم تولّيه مهمة ارسال التقارير الدورية الى شانغهاي حسب المطلوب.

لم يكن ماو يعمل شيئاً بخصوص مهمة رئيسية اخرى هي تنظيم الاتحادات العمالية فهو لم يشعر باي تعاطف تجاه العمال والفلاحين. في رسالة كتبها الى صديق له في تشرين الثاني 1920 وفيها تذمّر من وضعه كمفكّر اورد الملاحظة التالية: «اعتقد ان الفلاحين في الصين لا يعانون فعلياً من ظروف مادية صعبة. العلماء فقط هم الذين يتعذّبون».

في كانون الاول 1921 وجه عمّال في انيوان وهو مركز هام للمناجم يمتدّ على طول الحدود الفاصلة بين هونان وجيانغكسي رسالة الى الشيوعيين يطلبون فيها المساعدة، وهي المرة الوحيدة الموثقة التي اقترب فيها ماو من العمال. بقي هناك لبضعة ايام ثم غادر وفوّض شخصاً

(*) انفصل سياو يو عن ماو في ذلك الوقت وأصبح مسؤولاً حكومياً قومياً. وتوفي في الأورغواي عام 1976.

آخر للاهتمام بالجانب العملي للمهمة. بعد هذا الانغماس الوجيز في العالم الوسخ لعمال مناجم الفحم اخبر شانغهاي بانه اصيب «بالارتباك نتيجة لتنظيم شؤون العمال».

لكن كان هناك منظّمون فاعلون للاتحادات العمالية في المنطقة لا سيما شخصين غير شيوعيين اسّسا الاتحاد العمالي في هونان وادخلا اكثر من ثلاثة آلاف من العمال من اصل سبعة آلاف يعملون في تشانغشا. اوقف الاثنان في كانون الثاني 1922 اثناء قيادتهما اضراباً كبيراً وأُعدما في ساعات الصباح الاولى بواسطة التقطيع ارباً حتى الموت حسب الطريقة التقليدية. ادّى هذا الحدث الى اشعال موجة من الاحتجاج في كل انحاء البلاد، ولاحقاً عندما سئل الحاكم الذي قتلهما لماذا لم يستهدف ماو كان جوابه بانه لم يعتبرهُ يشكّل تهديداً.

استبعد ماو من المؤتمر الثاني للحزب المنعقد في تموز 1922 نتيجة لعدم فعاليته في تنظيم العمال وفي ادخال اعضاء جدد الى الحزب. كانت مناسبة هامة جداً اذ جرى التصديق خلال المؤتمر على دستور الحزب كما جرت المصادقة على الانضمام الى الكومنتيرن، فتكون بذلك قد تمّت الموافقة بصورة رسمية على سيطرة موسكو سيطرة تامة. حاول ماو لاحقاً تبرير غيابه عبر الادّعاء بانه «كان ينوي الحضور» لكنه «نسي اسم المكان حيث سينعقد المؤتمر ولم يستطع ايجاد رفاقه فأغفله». في الواقع كان ماو يعرف العديد من اعضاء الحزب في شانغهاي بمن فيهم بعض المندوبين ولا احتمال بأن يغفل بالصدفة مناسبة اساسية جداً. ان غيابه عن المؤتمر كان يعني انه قد يخسر منصبه كرئيس للحزب في هونان مما يعني ان التمويل الروسي لن يأتي من خلاله وسوف يتلقّى الاوامر من شخص آخر. حثّه هذا الاحتمال على التحرك، ففي البداية قام بزيارة منجم للرصاص والزنك في نيسان 1922 وفي ايار عاد الى انيوان اي مركز مناجم الفحم، وقاد عدداً من المظاهرات والاضرابات. في 24 تشرين الاول عندما ولدت كاي هواي ابنهما الاول لم يكن ماو الى جانبها اذ كان يفاوض باسم اتحاد البنّائين. اعطى اسم آن- ينغ لابنه: آن هو اسم جيل فيما ينغ تعني شخصاً متفوقاً.

اخيراً اسّس ماو لجنة للحزب الشيوعي في هونان في نهاية ايار اي بعد سنة على تعيينه رئيساً لفرع هونان. ضمّت اللجنة ثلاثين عضواً معظمهم لم يدخل الحزب عن طريق ماو(*). وصف الرئيس القادم ليو شاوكي وهو على فراش الموت كيفية عمل اللجنة برئاسة ماو. كتب قائلاً: «كانت لي عدة اجتماعات في منزل ماو، وبمعزل عن طرح الاسئلة لم يتسنّ لي الكلام ابداً. في النهاية كان ما يقوله الرئيس ماو هو الذي يُطبّق... في هونان كان للحزب رئيسه الخاص به

(*) مع نهاية شهر حزيران 1922 بلغ مجموع أعضاء الحزب على صعيد الأمة 195 عضواً.

واسلوب خاص به خلافاً لما كان عليه الحزب في شانغهاي». كان ليو يسجّل على نحو واضح ان ماو كان قد بدأ التصرّف بأسلوب ديكتاتوري في الايام الاولى للحزب.

في غضون ذلك عمل ماو على حلّ الخلاف مع مركز السلطة فسجّل نجاحاً. في كانون الثاني 1923 وجد معظم كوادر الحزب الشيوعي الصيني العاملين في شانغهاي أنفسهم في خصام مع امر صادر عن موسكو يقضي بالقيام بشيء يبدو غريباً واعتباطياً، الا وهو الانضمام الى حزب سياسي آخر يدعى حزب القوميين وهو معروف ايضاً باسم كيومينتانغ. كانت موسكو بحاجة الى شيوعيي الاقاليم لدعم موقفها ووجدت ماو لهذه المهمة.

تأسس الحزب القومي سنة 1912 من خلال اندماج عدد من المجموعات الجمهورية. كان رئيسه سان يات سين الذي شغل لفترة وجيزة منصب اول رئيس مؤقت للجمهورية قبل ان يخرجه من السلطة قائد الجيش يوان شيه كاي. منذ ذلك الوقت حاول سان تشكيل جيشه الخاص للاطاحة بحكومة بكين.

دفع هذا الهدف سان الى التعاون الوثيق مع موسكو. شاطره الروس هدف القضاء على حكومة بكين لرفضها الموافقة على احتلالهم لمنغوليا الخارجية التي كانت في حينها اراضٍ صينية. كان الحزب الشيوعي الصيني صغيراً جداً اي غير قادر على اسقاط حكومة بكين، لذلك فتّش مندوبو موسكو في اوساط عدة حكّام اقليميين ووجدوا ان الوحيد الذي كان مستعداً للقبول بالوجود السوفياتي هو سان.

كان مقر سان في كانتون عاصمة غوانغدونغ الواقعة على الساحل الجنوبي. طلب من الروس مساعدته على بناء جيش قوي قادر على اخضاع الصين. في ايلول 1922 ابلغ مندوباً روسياً انه يريد ان يبني «جيشاً يكون سلاحه وعتاده العسكري من روسيا». في المقابل وبالاضافة الى المصادقة على الاحتلال الروسي لمنغوليا الخارجية اقترح سان ان تضمّ روسيا اليها اقليم كزينجيانغ الكبير الواقع في الشمال الغربي والغني بالمعادن. قدّم مندوب روسيا الاعلى ادولف جوفّ تقريراً في تشرين الثاني يفيد بأن سان «يطلب ان تقوم احدى وحداتنا بالحاق كزينجيانغ بتركستان الشرقية التي هي جزء من الاتحاد السوفياتي. كان هناك «اربعة آلاف جندي صيني فقط» في الاقليم كما ابلغ سان الى الروس، «وعلى الارجح لن تكون هناك اية مقاومة». اقترح على الروس ان يبدأوا الاجتياح عبر كزينجيانغ باتجاه العمق الصيني وصولاً الى تشانغدو في سيشوان بالنيابة عنه.

لم يكن لسان طموحات كبيرة والقليل من التردد فقط بل كان لديه ايضاً حزب ضخم يضمّ الآلاف من الاعضاء المسجلين وقاعدة اقليمية لها مرفأ بحري هام في كانتون. لذلك في اوائل كانون الثاني 1923 قرّر المكتب السياسي السوفياتي «اعطاء الدعم الكامل للقوميين،

بالاضافة الى «اموال [من] الاعتمادات الاحتياطية للكومنتيرن». وقّع على القرار الزعيم المتوقع له النجاح ستالين الذي راح يبدي اهتماماً بالصين. هكذا اصبح سان كما قال جوفّ لستالين «رجُلنا». كان ثمنه «مليونا دولار مكسيكي كحدّ اقصى» اي ما يقارب المليوني روبل ذهبية. وسأل جوفّ: «الا يستحق كل ذلك مليوني روبل؟»

كانت موسكو تعلم انه لدى سان برنامجه الخاص وبانه يحاول ان يستعمل روسيا خدمة لاغراضه تماماً كما كانت روسيا تحاول ان تستعمله لمصلحتها. كانت موسكو تودّ ان يكون زبونها المحلّي اي الحزب الشيوعي الصيني حاضراً في المكان نفسه لتضمن التزام سان بسياسة موسكو التزاماً شديداً ولتضمن خدمته مصالحها. لذلك امرت الشيوعيين الصينيين بالانضمام الى الحزب القومي. في جلسة سرّية اوضح ستالين: «لا نستطيع اعطاء التعليمات من هنا، من موسكو بصورة علنية. نودّ ان نفعل ذلك من خلال الحزب الشيوعي الصيني ورفاق آخرين سرّاً..».

كانت موسكو تريد استعمال الحزب الشيوعي الصيني كحصان طروادة للتلاعب بالحزب الاضخم الى حدّ بعيد اي الحزب القومي. لكن جميع قادة الحزب الشيوعي الصيني، ابتداءً بالبروفسور تشن عارضوا الانضمام الى حزب سان بحجة انه يرفض الشيوعية وبأن سان هو مجرد سياسي «كاذب وعديم الضمير» يحاول الوصول الى السلطة. أبلغت موسكو بأن رعاية سان تعني «اهداراً للدم والعرق الروسيين وربما اهداراً لدم وعرق البروليتاريا في جميع انحاء العالم».

واجه مارينغ، موفد الكومنتيرن، ثورة وعلى الارجح هذا هو السبب وراء احضار ماو الى المركز الرئيسي للحزب. تبنّى ماو البراغماتي استراتيجية موسكو وعلى الفور انضم الى الحزب الوطني بنفسه. وابلغ شيوعي متحمّس آخر، هو في الواقع صديق قديم لماو يدعى كاي هي سن، الكومنتيرن انه عندما اقترح مارينغ شعار «لنعمل كلنا في سبيل القوميين» «كان ماو المؤيد [الوحيد]».

لم يؤمن ماو بالامكانات الضئيلة لحزبه او بأن الشيوعية قادرة على اجتذاب جمهور عريض. اوضح الامر بصورة لا لبس فيها في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الصيني الذي انعقد في حزيران 1923. ان الامل الوحيد بخلق الصين الشيوعية هو بواسطة الاجتياح الروسي. ورد في تقرير لمارينغ الذي ترأس المؤتمر ان ماو «كان متشائماً لدرجة انه رأى ان خلاص الصين الوحيد يكمن في التدخل الروسي» وابلغ المؤتمر «انه يجب ادخال الثورة الى الصين من الشمال على يد الجيش الروسي». هذه خلاصة ما حدث بعد عقدين.

ان حماس ماو لخط موسكو نقله بسرعة الى قلب الحزب بقيادة مارينغ. هناك بذل جهداً

كبيراً كما لم يفعل من قبل اذ رأى املاً فيما كان يقوم به. ان المسؤول عن توزيع المساعدات المادية الآتية من موسكو الى الصين فيلدي والذي عمل كنائب القنصل السوفياتي في شانغهاي ميّز ماو وشخصاً آخر في تقرير مرفوع الى موسكو على انهما «بلا ادنى شك من الكوادر الجيدة». عُيّن ماو مساعداً لرئيس الحزب البروفسور تشن وتركّزت مسؤولياته على المراسلات والوثائق وتدوين محاضر الاجتماعات. كل رسائل الحزب كان يجب ان تحمل توقيعه وتوقيع تشن. تقليداً لتشن وقّع ماو باللغة الانكليزية: ت.ت. ماو. من بين الامور الاولى التي قاما بها توجيه الرسائل الى موسكو طلباً لمزيد من المال «الآن ونحن في طور توسيع حقل نشاطنا».

بعد ان قادت موسكو زبائنها من الشيوعيين الصينيين الى الحزب القومي ارسلت مسؤولاً رفيع المستوى للسيطرة على كل من الحزب الشيوعي الصيني والحزب القومي ولتنسيق اعمالهما، عُيّن مايكل بورودين المعروف بجاذبيته وقدرته على اثارة الاضطراب السياسي مستشاراً سياسياً لسان يات سين بناء على توصية من ستالين في آب 1923. كان بورودين متمرّساً في النشاطات الثورية في اميركا والمكسيك وبريطانيا بالاضافة الى كونه خطيباً بارعاً ذا صوت جهوري ومنظّم نشيط واستراتيجي داهية. كان الشخص الاول الذي نصح بوجوب انتقال الشيوعيين الصينيين الى الجزء الشمالي الغربي للصين ليصبحوا على مقربة من الحدود الروسية، وهذا ما فعلوه بعد عقد من الزمن. كان يوحي بأوصاف تصح فيه مثل «ملوكي» وكان يشعّ طاقةً حتى اثناء المرض.

اعاد بورودين تنظيم الحزب القومي تبعاً للنموذج الروسي فمنح مؤسساته كدائرة الدعاية اسماء شيوعية. شارك ماو والعديد من الشيوعيين الصينيين في المؤتمر الاول للحزب الذي عقد في كانتون في كانون الثاني 1924 وضمن الحزب الشيوعي الصيني الصغير الحجم عدداً غير متكافىء من المراكز الحزبية. وبدأت موسكو الآن بتقديم الدعم المالي للقوميين بشكل واسع. والاهم من ذلك ان موسكو موّلت ودرّبت جيشاً واسست اكاديمية عسكرية. شُيّدت «أكادمية هوامبوا» Whampoa على جزيرة رائعة في نهر بيرل وتبعد حوالى عشرة كيلومترات عن كانتون، وجرى تنظيمها وفقاً للنموذج المتّبع في المؤسسات السوفياتية وضمّت مستشارين روس والعديد من المعلمين والتلامذة الشيوعيين. وشُحنت الطائرات والمدفعية من روسيا السوفياتية وتمكن القوميون من توسيع قاعدتهم بقوة بفضل الجنود المدربين على يد الروس والمدعومين ميدانياً بكتيبة من المستشارين السوفيات.

كان ماو نشيطاً جداً في الحزب القومي واصبح واحداً من الاعضاء الستة عشر الذين يتناوبون على الهيئة العليا فيه اي اللجنة التنفيذية المركزية. قام بمعظم عمله في القسم المتبقي من السنة في مكتب الحزب القومي في شانغهاي، وساعد على انشاء فرع هونان الذي اصبح

من اكبر الفروع.

وذهب ماو الى حد انه نادراً ما كان يحضر اجتماعات حزبه. اثار حماسه للعمل مع القوميين غضب زملائه الشيوعيين واشتكى لاحقاً صديقه القديم والاكثر عقائدية كاي الى الكومنتيرن انه في هونان «خسرت منظمتنا كل المغزى السياسي. اتخذت القرارات بشأن كل المسائل السياسية في اللجنة الاقليمية للحزب القومي وليس في اللجنة الاقليمية للحزب الشيوعي». ووافقه الرأي منظّم آخر للحركة العمالية بقوله: «كان ماو حينها معارضاً لقيام حركة اتحاد عمالي مستقل».

بالاضافة الى ذلك وجد ماو نفسه فجأة امام معاملة سيئة من قبل مبعوثي موسكو اذ ان حاميه مارينغ كان غادر الصين في تشرين الاول الفائت. رغم ان ماو كان منسجماً مع بورودين فقد ناضل للدفاع عن نفسه ضد الأصوليين الايديولوجيين. كانت موسكو اصدرت امراً للشيوعيين الصينيين بالحفاظ على هويتهم المستقلة واستقلالهم اثناء خرقهم للحزب القومي، الاّ ان صاحب العقيدة الغامض ماو لم يستطع رسم خط بين الحزبين. في 30 آذار 1924 كتب احد هؤلاء المبعوثين الايديولوجيين سيرغي دالين رسالة الى فويتينسكي جاء فيها:

«ان الرسائل التي ستصلك من امين عام [اللجنة المركزية] ماو (الذي هو من غير شك موظف لدى مارينغ) ستصدمك. ان [الحزب القومي] كان وهو حزب البروليتاريا ويجب ان تعترف به الشيوعية العالمية على انه واحدٌ من شعبها... هذه الشخصية مثّلت الحزب في رابطة الشبيبة الاشتراكية... لقد وجهت رسالة الى اللجنة المركزية في الحزب طلبت فيها تعيين ممثل آخر».

طُرد ماو في حينه من هذا المنصب وازاء اتهامه بـ«الانتهازية» وبالانتماء الى «الجناح اليميني» وجد نفسه مطروداً من اللجنة المركزية ولم يدعَ حتى لحضور المؤتمر القادم للحزب الشيوعي الصيني الذي كان متوقعاً انعقاده في كانون الثاني 1925(*). تدهورت صحته واصبح عليلاً وهزيلاً، وافادنا زميله وهو أيضاً احد الساكنين معه في المنزل، بان ماو كان يعاني من «مشاكل في الرأس... وكان منشغلاً باموره». انعكست حالته العصبية على امعائه فكان يستطلق بطنه مرة واحدة في الاسبوع فقط. وتعذّب بسبب الامساك وانتابه هاجس التبرّز طوال حياته.

اخرج ماو من شانغهاي في نهاية 1924. عاد الى هونان لكنه لم يشغل اي منصب حزبي والمكان الوحيد الذي توجه اليه هو قريته شاوشان التي وصلها في 6 شباط 1925 ومعه ما يزيد على الخمسين كيلوغراماً من الكتب وادّعى انه كان في «فترة نقاهة». كان مضى على وجوده في

(*) بلغ عدد اعضاء الحزب الشيوعي الصيني في ذلك الحين 994 عضواً.

الحزب الشيوعي ما يزيد على الاربع سنوات كانت مليئة بالنجاح والخيبة. عندما كان ماو بعمر الواحدة والثلاثين اعاده انعدام الوضوح الايديولوجي وغياب الحماسة الى مقر عائلته. ان النكسات التي اصابت ماو في السنوات الاولى للحزب الشيوعي الصيني ما زالت تحت التعتيم المحكم. لم يشأ ماو ان يشيع خبراً عن الغموض في عقيدته أو عن عدم فعاليته في العمل الحزبي وعن حماسه الشديد للحزب القومي الذي اصبح في السنوات اللاحقة العدو الرئيسي للشيوعيين.

4 - الارتقاء في الحزب القومي وتركه
(1925-1927، العمر 31-33 سنة)

عاش ماو مدة ثمانية اشهر في منزل العائلة في شاوشان حيث ورث واخوته من الأهل المنزل وارضاً واسعة، وحيث كان الاقارب يعتنون بالاملاك. كان شقيقا ماو يعملان في الحزب في تشانغشا بعد ان ادخلهما ماو اليه، لكنهما الآن عادا معه الى القرية. في تشانغشا التي تبعد خمسين كيلومتراً فقط عن القرية، كان الشيوعيون في هونان ينظمون الاضرابات والمظاهرات والتجمعات، لكن ماو لم يشارك فيها بل بقي في المنزل يلعب الورق معظم الوقت.

راح ماو يتحين الفرصة المناسبة للعودة الى السياسة وعلى مستوى عالٍ. في آذار 1925 توفي الزعيم القومي سان يات سين وخَلَفه وانغ تشينغ-واي الذي يعرفه ماو ويعرف موقفه الودي منه. كان وانغ عمل مع ماو في شانغهاي في السنة الفائتة وكان الاثنان منسجمان جداً.

ولد وانغ سنة 1883 وهو يكبر ماو بعشر سنوات. كان ساحراً للجماهير وخطيباً بليغاً بالاضافة الى تمتعه بمظهر جميل كنجوم الافلام. كما لعب دوراً فاعلاً في نشاطات الجمهوريين التي تستهدف سلالة المانشو، وعندما اندلعت الثورة في تشرين الاول 1911 حكم عليه بالسجن مدى الحياة بسبب محاولاته المتكررة اغتيال مسؤولين كبار في بلاط المانشو بمن فيهم الوصي على العرش. بعد اطلاقه مع انهيار السلالة اصبح واحداً من زعماء الحزب القومي. كان مع سان يات سين في أيامه الأخيرة وكان شاهداً على وصيته التي شكلت وثيقة اعتماد هامة سهّلت خلافته لسان. والأهم من ذلك انه كان يحظى بمباركة بورودين، المستشار الروسي الأعلى. مع وجود حوالى الالف عميل في قاعدة الحزب القومي اتمّت موسكو السيطرة على كانتون التي اتخذت طابع مدينة سوفياتية مزينة بالاعلام الحمراء والشعارات. كانت السيارات تتسابق والوجوه الروسية في داخلها فيما الحرس الصينيون يجلسون على العتبات الجانبية لهذه السيارات. كانت السفن السوفياتية المحملة بالبضائع تملأ نهر بيرل، وجلس وراء الابواب المقفلة مفوضو الحزب الشيوعي حول طاولات مغطاة بالقماش الاحمر امام نظرات لينين المحدّقة فيما هم يستجوبون مثيري الشغب ويديرون المحاكمات.

فور وفاة سان ارسل ماو شقيقه تسي مين الى كانتون لاستكشاف حظه ولحق به شقيقه الآخر تسي تان. في حزيران اصبح واضحاً ان وانغ هو القائد الجديد للقوميين وبدأ ماو يلمّع صورته

من خلال اقامة قواعد لفروع حزبية في منطقته وكان معظمها للقوميين وليس للشيوعيين. وبعد ابعاده عن قيادة الحزب الشيوعي الصيني ها هو الآن يجرب حظه مع القوميين.

جاءت «معاداة الامبريالية» في رأس برنامج القوميين وجعل الحزب مهمته الاساسية الدفاع عن مصالح الصين في وجه القوى الاجنبية، فاصبح ذلك موضوع تحركات ماو رغم انه كان بعيداً عن حياة الفلاحين. من الطبيعي ان تكون اللامبالاة هي ردة الفعل السائدة. دوّن احد العاملين معه في يومياته لـ29 تموز ما يلي: «اتى فقط واحد من الرفاق ولم يأتِ الباقون، لذلك لم يحصل الاجتماع». وبعد بضعة ايام كتب قائلاً: «لم نتمكن من عقد الاجتماع لان بعض الرفاق فقط اتوا». في احدى الليالي كان عليه هو وماو الانتقال من مكان الى آخر لجمع الناس ونتيجة لذلك بدأ الاجتماع متأخراً جداً ولم ينتهِ قبل الواحدة والربع بعد منتصف الليل. قال ماو انه ذاهب الى البيت «اذ كان يعاني من النوراستينيا وتكلّم مطولاً اليوم. وقال انه لن يتمكن من النوم هنا... مشينا حوالى الكيلومتر او الكيلومتر ونصف ولم نستطع المشي اكثر. كنا منهكين بكل ما في الكلمة من معنى فامضينا الليل في تانغ بروك».

لم ينظّم ماو اي نشاط للفلاحين في اطار يمثّل التناقض بين الفقراء والاغنياء ويعود ذلك جزئياً الى اعتقاده بان لا جدوى من عملٍ كهذا. وكان اعلم بورودين وعدداً من الشيوعيين قبلها في 18 كانون الثاني 1924 انه:

> «اذا ما قمنا بالنضال ضد مالكي الاراضي الكبار سنفشل حتماً. [في بعض المناطق، نظّم عدد من الشيوعيين] الفلاحين الاميين اولاً وبعدها قادوهم الى النضال ضد الاغنياء نسبياً وضد مالكي الاراضي الكبار. ماذا كانت النتيجة؟ انهارت منظماتنا على الفور وحُظّرت ولم يكتفِ هؤلاء الفلاحين باعتبارنا لا نناضل في سبيل مصالحهم، بل كرهونا قائلين انه لو لم نعمد الى تنظيمهم لما حدثت الكوارث او المحن.
>
> لذلك وحتى نصبح واثقين بان فروعنا على مستوى القواعد قوية... لا نستطيع اعتماد سياسة اتخاذ تدابير جذرية ضد مالكي الاراضي الاغنياء نسبياً».

كان ماو براغماتياً. قام احد الشيوعيين المدعو وانغ هسين-تسونغ بتنظيم الفلاحين الفقراء في منطقة ماو في سبيل تحسين اوضاعهم في الوقت الذي كان ماو في شاوشان. الاّ انه اتُّهم باللصوصية واوقف وتعرّض للتعذيب والاعدام على يد الشرطة المحلية.

قرر ماو بحذر تجنّب مثل هذه النشاطات الخطرة وغير المجدية لكن السلطات في هونان ظلّت مرتابة منه بسبب سمعته كراديكالي اساسي. حصل جفاف في ذلك الصيف كما كان يحصل غالباً من قبل، فلجأ الفلاحون الفقراء الى القوة لمنع الاغنياء من شحن الحبوب لبيعها في البلدات والمدن فاشتبهت السلطات بأن ماو حرّض على هذه النشاطات. وكان هناك في

العاصمة الاقليمية مظاهرات ضخمة «معادية للامبريالية» بعد حادثة جرت في شانغهاي في 30 ايار عندما قتلت الشرطة البريطانية عشرة من المحتجّين في المستوطنة البريطانية. ومع ان ماو لم يقم باي دور في مظاهرات تشانغشا وكان يعيش بسلام في منزله الذي يبعد بضعة اميال، فقد اصرّ البريطانيون على اعتباره محرّضاً وبرزت هذه الفكرة على نحو غير متوقع مع بداية ظهور سجلّات الحكومة الاميركية. ارسلت القنصلية الاميركية في تشانغشا تقريراً الى واشنطن اعدّه رئيس يال في الصين Yale-in-China عن «الاضطرابات البولشيفية» في تشانغشا في 15 حزيران، وجاء فيه ان حاكم هونان «تلقى لائحة باسماء عشرين من قادة مثيري الشغب بمن فيهم ماو تسي-تونغ المعروف بأنه زعيم الدعاية الشيوعية الاول هنا». حينها كان ماو مجرد اسم حتى بالنسبة الى اميركي مطّلع على ما يجري في الصين.

صدرت مذكرة توقيف بحق ماو في اواخر آب فقرر انه حان وقت الفرار بعد ان كان ذاهباً الى كانتون في جميع الاحوال. هرب في مِحفة متوجهاً اولاً الى تشانغشا وطلب من حامليها انه في حال سئلوا عن هوية الراكب، يتوجب عليهم القول بأنهم ينقلون طبيباً. بعد بضعة ايام حضر الى شاوشان بضعة من رجال الميليشيات بحثاً عن ماو ولما لم يجدوه اخذوا بعض المال وغادروا، لكنهم لم يضايقوا عائلته.

في الليلة التي غادر فيها تشانغشا تمشّى ماو على طول نهر كزيانغ وكتب قصيدة تطلّع فيها نحو المستقبل بقوله:

«النسور تحلّق عالياً في السماء الرحبة
السمك يهبط في مجرى النهر
تحت سماء يسودها الصقيع تتنافس عشرة آلاف من المخلوقات لتسيطر
وانا متأثر بهذا الاتساع
اسأل الارض اللامحدودة
في النهاية من سيكون سيّدك؟»

ان حدس ماو لم يخُنه فخلال اسبوعين من وصوله الى كانتون وفي ايلول 1925 سلّمه رئيس الحزب القومي عدداً من الوظائف الهامة. اصبح ماو البديل عن وانغ تشينغ واي على رأس دائرة الدعاية كما اصبح رئيس التحرير في مجلة القوميين الجديدة **السياسة الاسبوعية** *Politics Weekly*. وللتشديد على شهرته اصبح عضواً في اللجنة الخماسية التي تدقّق في اختيار المندوبين الى المؤتمر الثاني للقوميين الذي سيعقد في كانون الثاني التالي وفيه قدّم ماو واحداً من اهم التقارير. ان الدور الذي لعبه وانغ في صعود ماو، واظبت بكين على اخفائه لا سيما وان وانغ اصبح رئيساً لحكومة كانت ألعوبة في يد اليابان في الاربعينيات.

تعود قدرة ماو على العمل بكامل نشاطه بشكل رئيسي الى اكتشافه الحبوب المنوّمة في ذلك الوقت. كان يعاني قبلها من الارق الحاد الذي جعله في وضع الارهاق العصبي الدائم اما الآن فقد تحرّر منه. ولاحقاً احتلّ مخترع هذه الحبوب المنزلة جنباً الى جنب مع ماركس.

في تشرين الثاني 1925 وبينما كان ماو يعمل لدى القوميين عبّر عن اهتمامه بمسألة الفلاحين الصينيين للمرة الاولى. كتب وهو يملأ احدى الاستمارات بانه «في الوقت الحالي يبدي اهتماماً خاصاً» بعشرات الملايين من هؤلاء. في الاول من كانون الاول نشر مقالاً طويلاً عن الفلاحين في مجلة للقوميين وكتب مقالاً آخر في الشهر اللاحق نشر في العدد الاول لمجلة القوميين **تشيانيز بزانتس** *Chinese Peasants*.

لم ينبع الاهتمام الجديد لدى ماو من اي ايحاء شخصي او الهام شخصي، بل اتى على اثر امر طارىء من موسكو في تشرين الثاني فرضت فيه على كلٍّ من القوميين والشيوعيين اعطاء الموضوع الاولوية فتجاوب القوميون مع هذا النداء على الفور.

كان الروس هم اول من امر الحزب الشيوعي الصيني بالالتفات الى الفلاحين. في ايار 1923 سبق لموسكو ان اشارت الى «مسألة الفلاحين» على انها «محور كل سياستنا» وكانت اصدرت امراً الى الثوار الصينيين بـ«القيام بثورة الارض للفلاحين ضد بقايا الاقطاعية». كان ذلك يهدف الى تقسيم الفلاحين الصينيين الى عدة طبقات على اساس الغنى، والى تحريض الفقراء على من هم في حال افضل. لم يكن ماو متحمساً حيال هذا الاسلوب حينها وعندما نُقلت تحفظاته الى موسكو عزل من احد مناصبه. شرح دالين موقف ماو في رسالة وجهها الى فويتينسكي في آذار 1924 كما يلي: في ما يخص مسألة الفلاحين يجب التخلي عن خط الطبقة الاجتماعية، ولا امكانية للقيام بأي عمل في اوساط الفلاحين ويجب اقامة الروابط مع اصحاب الاراضي والطبقة [الارستقراطية]...».

لكن ماو غيّر موقفه تبعاً للموجة السائدة رغم حصول مشكلة مع الروس حول التعابير الايديولوجية. حاول ماو في مقالاته تطبيق «التحليل الطبقي» الشيوعي على الفلاحين من خلال وضع اؤلئك الذين يملكون قطعة ارض صغيرة في خانة «البورجوازية الصغيرة» وصنّف عمال المزارع على انهم «البروليتاريا». وظهر نقد لاذع له في مجلة المستشار السوفياتي كانتون التي تصل الى قرّاء يشغلون مناصب عليا في روسيا والتي يبرز اسم ستالين على رأس لائحة التوزيع المكونة من حوالى اربعين شخصاً. واتهم الناقد الروسي فولين، وهو خبير في شؤون الفلاحين، ماو بالمناقشة كما لو كان الفلاحون يعيشون في مجتمع رأسمالي في حين ان الصين كانت فقط في المرحلة الاقطاعية: «يبرز خطأ هام بوضوح... ان للمجتمع الصيني، بالنسبة الى ماو، بنية رأسمالية متطورة». اعتبر مقال ماو «غير علمي» و«غير متجانس»

و«تخطيطي على نحو استثنائي». وحتى الارقام الاساسية التي يستعملها كانت اقل مما هي عليه حسب ما قال فولين: اعتبر ان عدد السكان هو 400 مليون في حين بيّن احصاء 1922 ان العدد الفعلي هو 463 مليوناً.

لحسن حظ ماو لم يتطلب الحزب القومي هذه المعايير العليا في صوابية النظريات. في شباط 1926 عيّنه حاميه وانغ تشينغ وي عضواً مؤسساً في لجنة حركة الفلاحين القوميين كما عيّنه رئيساً لمعهد التدريب لحركة الفلاحين الذي كان أُنشىء قبل سنتين بتمويل روسي.

ابدى ماو اهتماماً بشؤون الفلاحين الفقراء فقط عندما كان في سن الثانية والثلاثين رغم اعتبار الكثيرين وحتى اليوم هذا انه كان المدافع عن قضيتهم. اثناء تولّي ماو المنصبين المذكورين اعلاه خرّج معهد الفلاحين اعداداً كبيرة من مثيري الاضطرابات الذين ذهبوا الى القرى وحرّضوا الفقراء على الاغنياء ونظّموهم في «جمعيات للفلاحين». حققوا نجاحاً في هونان بالتحديد بعد تموز عندما احتل الجيش القومي المقاطعة. كان القوميون قد بدأوا الزحف شمالاً انطلاقاً من كانتون في ما عرف بـ«الحملة الشمالية» للاطاحة بحكومة الصين، وشكلت هونان المحطة الاولى على طريق يبلغ طوله الفي كيلومتر.

قام مستشارون روس بمرافقة الجيش القومي اثناء حملته. كان الروس قد فتحوا قنصلية لهم للتو في تشانغشا وحصل مركز الاستخبارات الروسية هناك على ثاني اعلى ميزانية من بين اربعة عشر مركز لها في الصين بعد شانغهاي. كتب احد المبشّرين الاميركيين رسالة من تشانغشا ارسلها الى بلاده في وقت لاحق من تلك السنة وجاء فيها: «لدينا قنصل روسي [الآن]. لا وجود لمصالح روسية يمثلها هنا ابداً... الامر واضح... ما يستطيع القيام به... قد تدفع الصين ثمناً باهظاً لوجوده اللطيف..». منحت السلطات القومية الجديدة في هونان جمعيات الفلاحين بركتها والمساعدات المادية في ظل اشراف روسي مباشر وفي نهاية العام انتشرت الجمعيات في معظم انحاء الريف في هذه المقاطعة التي يسكنها ثلاثون مليوناً. وانقلب الوضع الاجتماعي فيها رأساً على عقب.

في ذلك الوقت كان مضى على مشاركة امراء الحرب في حروب متفرقة عشر سنوات وحصل اكثر من اربعين تغيير في الحكومة المركزية منذ ان اصبحت البلاد جمهورية سنة 1912. لكن امراء الحرب كانوا دائماً متأكدين ان البنية الاجتماعية ثابتة والحياة مستمرة كالعادة بالنسبة الى المدنيين ما دام اطلاق النيران المتبادل لم يطلهم. اما الآن فقد انهار الوضع الاجتماعي للمرة الاولى كون القوميين يتبعون التوجيهات الروسية الهادفة الى قيام ثورة وفقاً للاسلوب السوفياتي.

اندلع العنف على إثر سرقة الفلاحين الفقراء طعام واموال الاغنياء نسبياً وانتقامهم منهم.

كما اطلق قطاع الطرق والساديون العنان لرغباتهم. في كانون الاول عمّ الرعب والفوضى في ريف هونان، وبصفته زعيم حركة الفلاحين اعيد ماو الى مقاطعته لاعطائهم الارشادات اللازمة للتهدئة.

لدى عودة ماو كانت معالم مدينة تشانغشا قد تغيرت فكان الضحايا يعرضون في كل مكان وهم يضعون قبعات المغفّلين، وفقاً لاختراع اوروبي، علامة للاهانة. كان الاولاد يعدون في الامكنة ويهتفون «فلتسقط القوى [الامبريالية] ولنتخلّص من امراء الحرب» الذي هو نشيد الثورة القومية وكانوا ينشدونه على لحن «فرير جاك» *Frère Jacques*.

في 20 كانون الاول 1926 احتشد حوالى 300 شخص في مسرح تشانغشا الذي يعرض صوراً شفافة معكوسة على الشاشة من اجل الاستماع الى ماو الذي شاركه المنصّة محرض روسي يدعى بوريس فراير. وكأي عميل روسي في الصين حينها، اختفى لاحقاً في عملية التطهير الستالينية. لم يكن ماو خطيباً واستمر خطابه البارد ساعتين، لكنه كان معتدلاً وجاء فيه: «لم يحن الوقت بعد للاطاحة بمالكي الاراضي. علينا ان نقدّم لهم بعض التنازلات». في المرحلة الراهنة «يجب علينا فقط خفض بدلات الايجار ومعدلات الفائدة كما يجب علينا رفع اجور العمّال المستخدمين». وفيما نقل فراير عن ماو قوله «نحن لا نحضّر للاستيلاء على الارض فوراً» اخبر هيئة الرقابة الروسية المعروفة بمكتب الشرق الاقصى ان خطاب ماو كان «جيداً» بشكل اساسي، الاّ انه يميل الى الكثير من الاعتدال.

مع ان ماو لم يتطرّق الى مسألة العنف لم يكن اسلوبه العام عسكرياً. بعدها بوقت قليل ذهب الى هونان في جولة تفتيش ريفية وفي نهاية الجولة التي دامت اثنين وثلاثين يوماً حصل له تغيير دراماتيكي. قال ماو بنفسه انه قبل هذه الرحلة كان يتبع خطاً معتدلاً و «بدّلت موقفي كليّاً بعد ان امضيت ما يزيد على الثلاثين يوماً في هونان». في الواقع ما حصل ان ماو اكتشف ان لديه حبّ للسلوك الاجرامي المتعطّش الى الدم. هذا الاستمتاع الشجاع شارف على السادية وتناغم مع انسجامه مع العنف اللينيني، لكنه سبقه. لم يأتِ ماو الى العنف عبر النظريات بل نبع هذا الاستعداد من طبعه وكان له الاثر العميق على اساليبه المستقبلية في الحكم.

و في تقرير اعدّه ماو عن جولته رأى ان رؤساء جمعيات الفلاحين الريفيين على مستوى القاعدة كانوا بمعظمهم وحوشاً وناشطين ينتمون الى الفئات الاكثر فقراً والاكثر قساوة والاكثر عرضة للاحتقار، اما الآن فهم يملكون السلطة. «لقد اصبحوا مالكين للاراضي واسياداً وحوّلوا جمعيات الفلاحين التي يسيطرون عليها الى شيء مرعب». كانوا يختارون ضحاياهم بصورة اعتباطية و«ادخلوا عبارة: ان اي شخص يملك الارض هو طاغية وكل الطبقة الارستقراطية هي سيئة». هم «يرمون مالكي الاراضي ارضاً ويدوسون عليهم

بارجلهم... هم يطأون باقدامهم الاسرّة العاجية العائدة للآنسات والسيدات ويمرحون عليها. هم يلتقطون الاشخاص حينما يرغبون ويضعون قبعات المغفلين على رؤوسهم ويعرضونهم في كل الامكنة. بصورة عامة هم يطلقون العنان لكل نزوة... وهم حقاً خلقوا الرعب في الريف».

لاحظ ماو ان السفاحين كانوا يحبون اللهو بالضحايا وتحطيم كراماتهم، كما وصف ذلك موافقاً على ما يفعلونه:

«توضع قبعة وورقة طويلة على [الضحية] ويكتب على القبعة الطاغية مالك الاراضي كذا وكذا والارستقراطي السيء كذا وكذا. بعدها يجرّون الشخص بواسطة حبل [كما يجرّون الحيوان] وتتبعهم الحشود الكبيرة... هذا العقاب يجعل [الضحايا] ترتجف كثيراً. بعد معاملة كهذه يصبح هؤلاء الاشخاص منسحقين الى الابد..».

وراق له التهديد المتأتي من الشك والكرب تحديداً:

«تتمتع جمعية الفلاحين بالذكاء. قبضوا على احد النبلاء السيّئين واعلنوا انهم [سيفعلون ما ذُكر آنفاً] به... لكنهم قرروا لاحقاً عدم القيام بالعمل في ذلك اليوم... ولم يكن ذلك النبيل السيّء يعلم متى سيلقى هذا العقاب، لذلك كان يعاني من الكرب كل يوم ولم ينعم بلحظة سلام».

كان ماو مأخوذاً بأحد الاسلحة المعروف باسم سيو بياو وهي سكّين حاد ذو حدّين ومسكة طويلة تشبه الرمح: «انها تجعل جميع الطغاة من مالكي الاراضي والارستقراطيين السيّئين يرتجفون لرؤيتها. يجب على السلطات الثورية في هونان... ان تتاكد ان كل رجل في عمر الشباب او في خريف العمر لديه واحدة. يجب الاّ يكون هناك حدود [لاستعمالها]».

سمع ماو ورأى الكثير عن الوحشية واحبّها. قال في التقرير الذي اعدّه لاحقاً في 27 آذار بانه شعر «بنوع من النشوة لم يشعر بها من قبل». ورشحت الاثارة من وصفه للوحشية وتدفّق هذا الوصف مع فورة من الادرينالين» وتهلّل قائلاً: «انه امر رائع! انه امر رائع!»

علم ماو ان الناس كانوا يضربون حتى الموت. عندما سئل عما يجب فعله، وهي المرة الاولى التي كانت حياة او موت الناس متوقفة على كلمة منه، قال: «اذا ضُرب واحد او اثنين حتى الموت لا مشكلة في ذلك». مباشرة بعد زيارته حصل تجمّع في القرية وقتل رجل آخر بوحشية بعد ان اتهم بمعارضة جمعية الفلاحين.

قبل وصول ماو جرت محاولات من قبل زعماء حركة الفلاحين في هونان للتخفيف من مستوى العنف واحتجز بعض الذين ارتكبوا الفظاعات. امر ماو باخلاء سبيل المحتجزين حالاً والقى اللوم على الفرع المحلي لجمعية الفلاحين بقوله ان الثورة ليست كحفلة عشاء

بل هي بحاجة الى عنف. «يجب خلق... عهد من الرعب في كل اقليم» فاطاع الامر زعماء الفلاحين في هونان.

لم ينكبّ ماو يوماً على مسألة تهمّ الفلاحين كثيراً وهي اعادة توزيع الاراضي. في الواقع كانت هناك حاجة ماسة لزعيم لهم اذ ان بعض جمعيات الفلاحين كانت بدأت باعادة التوزيع من خلال نقل علامات الحدود وحرق عقود ايجارات الاراضي. وتقدّم الناس بعدة قتراحات محدّدة لكن ماو لم يفعل. كل ما قاله في اجتماع للجنة الاراضي القومية عقد لمناقشة هذا المسألة في 12 نيسان هو: تُختصر مصادرة الاراضي بعدم دفع بدل الايجار ولا حاجة لأي شيء آخر».

ما اذهل ماو هو العنف الذي حطّم النظام الاجتماعي وكانت هذه النزعة قد لفتت نظر موسكو نظراً لانسجامها مع النموذج السوفياتي للثورة الاجتماعية. وللمرة الاولى نُشرت كتابات لماو في مجلة الكومنتيرن حيث ظهر تقريره عن هونان رغم عدم وجود اسمه. اثبت ماو انه مع كون ايديولوجيته متزعزعة فإن غرائزه كانت لينينيّة. بعض الشيوعيين الآخرين لم يكونوا شيوعيين من النوع السوفياتي، خاصة زعيم الحزب البروفسور تشن الذي غضب فجأة عندما سمع بالفظاعات التي ارتكبتها حشود الجماهير واصرّ على وجوب كبح جماحها. الآن وبعد مضي سنتين على طرد ماو من الحزب الشيوعي الصيني منحه هذا الاخير حق الدخول مجدداً الى دائرة القيادة. في نيسان 1927 اعيد الى اللجنة المركزية ولكن فقط الى الصف الثاني حيث لا تصويت، (ما يعرف بالعضو البديل).

كان مركز ماو حينها في مدينة ووهان الواقعة على يانغتزي وهي تبعد حوالى 300 كلم الى الشمال الشرقي لتشانغشا التي انتقل اليها مع مركز القيادة للحزب القومي بينما كان جيش القوميين يتقدّم شمالاً. اما الآن وقد اصبح اكثر بروزاً بين القوميين بصفته مشرفاً على حركة الفلاحين، فقد ضاعف من تدريب مثيري الشغب في الريف كي ينشروا اسلوبه العنيف في مناطق جديدة استولى عليها الجيش. وتضمّن احد النصوص التي اختارها ماو لارشاد المتدربين وصفاً لناشطي جمعيات الفلاحين ومناقشةً لطرق التعامل مع ضحاياهم. اذا كانوا «عنيدين» «سوف نشقّ وتر الكاحل لديهم وسوف نقطع آذانهم». ورحّب الكاتب بانواع العقاب وخاصة المخيف منها بنشوة كبيرة: «كنت مستغرقاً بالاستماع كما لو اني في سبات او نشوة السكر. الآن ايقظني فجأة صراخ «رائع» وانا ايضاً لم استطع ان امنع نفسي من انفجر بالصراخ «رائع!». هذه القصة شبيهة بصورة استثنائية وردت في تقرير ماو من حيث الاسلوب واللغة وعلى الارجح هو نفسه الذي كتبها.

وإذ تسارعت وتيرة العنف تحت نفوذ ماو، ثار الجيش القومي ضد النموذج السوفياتي الذي كان يتبعه الحزب. كان قسم كبير من الجيش من هونان ووجد الضباط الذين ينتمون

الى عائلات ميسورة نسبياً ان اهاليهم واقرباءهم يتعرضون للتوقيف وللاساءة. لكن لم تقتصر المعاناة على مَن هم في حال افضل بل شملت الاشخاص العاديين ايضاً. في حزيران اعدّ البروفسور تشن تقريراً الى الكومنتيرن جاء فيه: «حتى المال القليل الذي يرسله الجنود العاديون تتمّ مصادرته» وكان الجنود ينفرون من التجاوزات» وهم يرون ان نتيجة نضالهم تجلب الكوارث الى عائلاتهم.

كان الكثيرون في الحزب القومي غير راضين عن اعتماد قادتهم خط موسكو منذ البداية عندما اتجه سان يات سين الى الروس في بداية العشرينات. وبلغ غضبهم نقطة الغليان بعد مؤتمر القوميين الثاني المنعقد في كانون الثاني 1926 حين بدا ان الحزب الشيوعي الصيني الاصغر حجماً (كان عدد اعضائه اقل من عشرة آلاف بكثير) سَطا على القوميين الذين كانوا يعدّون في صفوفهم بضع مئات الآلاف من الاعضاء. في عهد تشانغ وي كان ثلث المندوبين الـ256 من الشيوعيين وكان ثلث آخر «على الجهة اليسرى» ومن بينهم فريق كبير من الشيوعيين العاملين سرّاً. لم تعمد موسكو فقط الى زرع حصان طروادة اي الحزب الشيوعي الصيني نفسه داخل الحزب القومي، بل سرّبت الى داخله اشخاصاً يعملون في الظلام. الآن وبعد اكثر من سنة دفع تغاضي الحزب عن العنف الذي تسببت به الجماهير العديد من القوميين البارزين الى الدعوة لوضع حدّ للسيطرة الروسية ولوضع حدّ للعلاقة مع الشيوعيين الصينيين.

وصلت الازمة الى الذروة بسرعة فعلى بعد الف كيلومتر الى الشمال وفي 6 نيسان 1927 شنّت الحكومة الصينية غارة على المباني الروسية ووضعت يدها على مخبأ كبير للوثائق كشفت ان موسكو كانت ضالعة في اعمال تخريبية واسعة تهدف الى الاطاحة بحكومة بكين واستبدالها بحكومة تابعة لها. وكشفت الوثائق ايضاً صلات سوفياتية سريّة مع الشيوعيين الصينيين. في الواقع اوقف زعيم بارز في الحزب الشيوعي الصيني يدعى لي تا تشاو الى جانب ستين آخرين من الحزب نفسه اثناء تواجدهم في المجمّع الروسي حيث كانوا يعيشون. أُعدم لي سريعاً وخنقاً.

شاع خبر الغارات وكذلك اعلن عن اكتشاف الوثائق. اغضب الاثبات على نية سوفياتية بالتخريب على نطاق واسع الرأي العام الصيني وشكّل انذاراً للقوى الغربية. اذا لم يقم القوميون بخطوات حاسمة للانفصال عن الروس وعن الحزب الشيوعي الصيني جازفوا بجعل انفسهم جزءاً من مؤامرة لتحويل الصين الى دولة تابعة. كذلك فان العديد من القوميين قد يغادرون الحزب وسيتولّد نفور لدى الرأي العام فيما القوى الغربية تصلّبت في قرارها باعطاء الدعم الكامل لنظام بكين. وحين بلوغ الازمة هذه النقطة برز تحرّك للقائد العام للجيش القومي تشيانغ كاي شيك. ففي 12 نيسان اعطى اوامره بـ«تطهير» الحزب القومي

من النفوذ الشيوعي واصدر لائحة تتضمن 197 اسماً لشيوعيين مطلوبين بمن فيهم ماو تسي تونغ وعلى رأسهم بورودين.

ولد تشيانغ كاي شيك في عائلة تتعاطى تجارة الملح على الساحل الشرقي لمقاطعة كزينجيانغ سنة 1887، اي قبل ولادة ماو بست سنوات. عُرف لاحقاً في الخارج باسم «القائد العام» وكان رجلاً عسكرياً محترفاً وبدا بمظهر الشخص المتلبّد الحس والمنعزل وغير الظريف. اجرى تدريباته في اليابان وفي سنة 1923 ترأس بعثة دبلوماسية الى روسيا السوفياتية بصفته رئيس اركان الجيش القومي. في ذلك الوقت اعتبر الروس انه في «الجناح اليساري للحزب القومي» وانه «قريب جداً منا» لكن زيارته التي دامت ثلاثة اشهر حوّلته الى شخص مناهض للسوفيات للغاية وخاصة في ما يتعلّق بمسألة صراع الطبقات اذ كان ينفر بشدة من اصرار موسكو على تقسيم المجتمع الصيني الى طبقات وجعلها تتصارع في ما بينها.

الاّ ان تشيانغ لم يتفوّه بكلمة امام الرأي العام لدى عودته الى الصين. على العكس من ذلك اعطى بورودين انطباعاً بانه «لطيف للغاية معنا وهو مليء بالحماس». لقد اخفى افكاره الحقيقية لسبب بسيط هو ان القوميين كانوا معتمدين على المساعدات العسكرية السوفياتية لتحقيق هدفهم بالسيطرة على الصين. لكن تشيانغ الذي اصبح الرجل الثاني في الحزب القومي في هذه الاثناء، كان يحضّر للانقسام بسريّة وسبق وأقال بعض الشيوعيين من مناصب عليا في آذار 1926 مما دفع الروس الى البدء برسم الخطط للتخلص منه. وفقاً لاحد عملائهم في كانتون كانت فكرتهم تقضي بـ«الاعتماد على عامل الوقت» والتحضير لتصفية هذا الجنرال [تشيانغ]». بعد مرور سنة وفي بداية 1927 اصدر بورودين امراً سريّاً لتوقيف تشيانغ رغم ان الخطة لم تنفذ.

حالما نشرت حكومة بكين الوثائق المتعلقة بالتخريب الروسي تحرّك تشيانغ. في 12 نيسان اصدر بلاغاً جوهره الآتي: اوقفوا الشيوعيين. انتقل اولاً الى شانغهاي التي يوجد فيها المركز الرئيسي للحزب الشيوعي الصيني وحيث كان هو. كان للشيوعيين حرّاس مسلحين هناك فأخذ قراراً بتجريدهم من السلاح. في سبيل هذه الغاية جنّد قطّاع الطرق للتسبب بالقتال مع الحراس، وذلك من اجل خلق حجة لجيشه لينقضّ عليهم ويصادر الاسلحة. وتعرّضت معاقل الشيوعيين للهجوم واوقف عددٌ من زعماء جمعيات الفلاحين فيما أُعدم البعض الآخر. كما فتحت جيوش تشيانغ نيران الرشاشات على مسيرة احتجاجية لاحقة. خلال بضعة ايام كان هناك على الارجح اكثر من ثلاثمائة قتيل في الجانب الشيوعي. حطّم تشيانغ الشيوعيين كقوة منظمة قادرة على العمل علانيةً في شانغهاي مع ان قادة الحزب الشيوعي الصيني بقوا سالمين الى حدّ كبير، وما يثير الدهشة ان شانغهاي بقيت المكان الذي يتواجد فيه مركز الحزب

ويعمل بسريّة حتى في عزّ عملية التطهير. في السنوات الخمس او الست اللاحقة كانت «شانغهاي» مرادفاً لقيادة الحزب الشيوعي الصيني (ونستعملها هنا بهذا المعنى).

بعد ان بدأ تشيانغ كاي شيك بقتل الشيوعيين في شانغهاي قام الزعيم القومي وانغ تشينغ وي بقطع العلاقة مع الحزب الشيوعي الصيني واستسلم لتشيانغ. كان وانغ تشينغ وي في ووهان التي تبعد حوالى الستمائة كيلومتر الى الداخل الصيني. من الآن فصاعداً اصبح تشيانغ كاي شيك رئيس الحزب القومي وانتقل الى بناء نظام استمر اثنين وعشرين عاماً على الصين القارية الى ان اجبره ماو على الانتقال الى تايوان سنة 1949.

اثناء التمهيد لانشقاق وانغ، واجه ماو خياراً من اثنين. كان موضع تقدير لدى وانغ اكثر مما كان موضع تقدير من رفاقه الشيوعيين ومعظم الروس، وارتفعت مكانته بين القوميين اكثر بالمقارنة مع ما حققه في الحزب الشيوعي الصيني. فهل عليه الذهاب مع وانغ الآن؟ قال لاحقاً عن تلك المرحلة: «شعرت بالكآبة ولبرهة لم ادرِ ما افعل». واثناء معاناته من هذا العذاب النفسي صعد في احد الايام الى خيمة كبيرة وجميلة على ضفة نهر يانغتزي في ووهان. وتعتبر خيمة الكُركي الاصفر التي شُيّدت سنة 223 بعد الميلاد من معالم الصين الجميلة. حسب الاسطورة فان رجلاً اشار في احد الايام الى كُركي اصفر يطير فوق نهر يانغتزي وركب على ظهره الى القصر السماوي ولم يعد ابداً. تبدو هذه الاستعارة ملائمةً لكل شيء بناه ماو لنفسه في الحزب القومي. كان النهار مكفهرّاً لشدة هطول الامطار وفيها وقف ماو بجانب الدرابزين المنقوش في الخيمة وهو ينظر الى ضخامة اليانغتزي محبوساً، كما جاء في قصيدته، بين جبل الافعى وجبل السلحفاة الواقعين على الجانبين، فكّر ملياً بخياراته. وسكب شرابه سكبة تقليدية في السيل الجاري تحته وانهى قصيدته بالسطر التالي: «إن مدّ قلبي وجزره يحلقان مع الامواج الهائلة!»».

حاول ماو ابقاء وانغ الى جانب الشيوعيين عبر التبرّؤ من السفّاحين التابعين لجمعية الفلاحين الذين كان رحّب بهم قبلاً لكونهم رائعين واعتبرهم كبش محرقة. في 13 حزيران، قال وانغ تشينغ وي الى زعماء آخرين في وهان: «لقد ادركنا فقط بعد تقرير الرفيق ماو تسي تونغ ان قطّاع الطرق يتحكّمون بجمعيات الفلاحين. انهم لا يعلمون شيئاً عن القوميين او الشيوعيين، انهم يتقنون عمل القتل واحراق الممتلكات». وكانت محاولة ماو بتحمل المسؤولية الى الآخرين غير ذي جدوى اذ كان معلّمه القومي يخطّط للانفصال عن الشيوعيين والقاء اللوم عليهم في جميع الفظاعات التي ارتكبت في الريف. وبصفة ماو المشجّع لهذه العنف الاكثر تعبيراً، كان عليه ان يقطع العلاقة مع وانغ والقوميين نظراً لورود اسمه اصلاً على لائحة المطلوبين. لكن بصرف النظر عن ذلك كان البقاء مع وانغ يعني انه سيصبح معتدلاً

ويحترم النظام الاجتماعي. غير ان ماو لم يكن مهيّأً للقيام بذلك وخاصة بعد اكتشافه لولعه بالوحشية في ريف هونان. قبل عقد تقريباً وعندما كان في الرابعة والعشرين من عمره عبّر عن توقه الشديد للعنف والتغيير الاجتماعي الجذري بقوله: «البلد يجب ان... يُدمّر ومن ثم يُعاد بناؤه... ان اشخاصاً مثلي يتوقون الى تدميره..». وجاء النموذج السوفياتي متلائماً مع نزواته.

للمرة الاولى كان عليه ان يخاطر بحياته. اثناء احساسه بالذعر من التوقيف قبل سنتين كان لديه الوقت لاستدعاء محفّة لينسلّ هارباً بروّية الى تشانغشا، لكن الهروب الآن لم يعد سهلاً. لم يبدُ ان هناك ملاذٌ آمن لاَ سيما وان قتل الشيوعيين كان قد بدأ، فألقي القبض على الابن البكر للبروفسور تشن واعدم في 4 تموز. في نهاية السنة كان الشيوعيون قد اطلقوا ثورات تميّزت بالعنف وبالقضاء على الكثيرين، فقتل عشرات الآلاف من الشيوعيين والمشتبه بهم ومات الكثيرون وهم يعلنون ايمانهم بعقيدتهم، فيما البعض يطلقون الشعارات والبعض الآخر ينشدون نشيد الشيوعية العالمي. رحّبت الصحف بالاعدامات من خلال عناوين عديمة الرحمة.

كان على ماو اولاً تأمين سلامته الشخصية وبعدها قرّر استعمال الحزب الشيوعي الصيني والروس لتحقيق اهدافه. شكّل هذا القرار الذي اتخذه ماو في صيف 1927 وهو في سن الثالثة والثلاثين علامة على نضجه السياسي.

القسم الثاني

المسيرة الطويلة

للوصول الى زعامة الحزب

5- اختطاف قوة من الجيش الاحمر والسيطرة على اراض خاضعة للاشقياء (1927-1928؛ العمر: 33-34 سنة)

عندما قطع تشيانغ كاي شيك العلاقة مع الشيوعيين في نيسان 1927 كان ستالين قد برز بصفته الزعيم الاول في الكرملين وكان يملي شخصياً سياسته على الصين. وتجلّت ردة فعله على انفصال تشيانغ باصداره الاوامر الى الحزب الشيوعي الصيني بانشاء جيشه دون اي تأخير وباحتلال المزيد من الاراضي بهدف اخضاع الصين بقوة السلاح على المدى الطويل.

شكّل الخيار العسكري القائم على استخدام القوة لايصال الشيوعيين الصينيين الى السلطة الاسلوب المفضّل لدى موسكو منذ تأسيس الكومنتيرن سنة 1919. ما دام القوميون في دائرة اللعبة تركزت استراتيجية موسكو على تغلغل عناصر من الحزب الشيوعي الصيني في الحزب القومي وعلى انحراف القوات المسلحة للقوميين عن اهدافها. فور حصول الانفصال أمَر ستالين الشيوعيين بسحب تلك الوحدات التي تمكنوا من السيطرة عليها كما أمر بـ«تشكيل فيلق جديد».

ارسل ستالين احد الرفاق الجورجيين الذين يثق بهم ويدعى بيزو لوميناذزي Beso Lominadzé الى الصين. وأرسل رئيس المخابرات الروسية جان برزين Jean Berzin رسالة الى رئيس دائرة الحرب كليمنت فوروشيلوف الذي ترأس المفوضية الصينية في موسكو وتفيد هذه الرسالة بأن انشاء جيش احمر يأتي في رأس الاولويات الروسية في الصين الآن. واقيم جهاز عسكري سرّي وضخم لتقديم النصائح والدعم الى الشيوعيين الصينيين، فتوزّع رجال المخابرات العسكرية الروسية في كل المدن الرئيسية الصينية وزوّدوا الشيوعيين بالاسلحة والاموال والادوية الى جانب المعلومات المخابراتية التي كانت غالباً اساسية لاستمرار الحزب الشيوعي الصيني على قيد الحياة. وارسلت موسكو ايضاً مستشارين من الطراز الرفيع الى الصين لقيادة العمليات العسكرية للحزب بينما كانت تعمل على توسيع التدريب العسكري بشكل ملحوظ لكادرات الحزب الشيوعي الصيني في روسيا.

وقضت الخطة المباشرة المرسومة في موسكو بانتقال الوحدات الشيوعية المنسحبة من الجيش القومي الى الساحل الجنوبي لتسلّم الاسلحة المرسلة من روسيا واقامة قاعدة لهم

هناك. في الوقت نفسه تمّ تنظيم ثورات الفلاحين في هونان وفي ثلاثة اقاليم متاخمة لها حيث توجد منظمات للفلاحين المقاتلين تهدف الى الاستيلاء على السلطة في هذه المناطق.

وافق ماو على الخطة العسكرية وقال في اجتماع حزبي طارىء عقد في 7 آب 1927 برئاسة لومينادزي: «السلطة في فوهة البندقية» واصبح لهذا القول شهرة عالمية فيما بعد. من ضمن هذا المخطط الشامل كان ماو يخفي برنامجه القائم على قيادة كل من البندقية والحزب. وراح يخطط لبناء جيش خاص به، واقتطاع ارض خاصة به، والتعامل مع موسكو وشانغهاي من موقع القوة. اذا كان لديه مقاطعة سيضمن ذلك استمراره على قيد الحياة، وسيبقى في الحزب بالطبع اذ ان التعاون مع روسيا كان فرصته الوحيدة لتحقيق اي شيء يرفعه من كونه مجرّد قاطع طريق.

في هذا الوقت كان البروفسور تشن قد طرد للتو من رئاسة الحزب بقرار من لومينادزي وتحوّل الى كبش محرقة نتيجة الانقسام الحاصل في الحزب القومي. حلّ محله رجل اصغر سنّاً يدعى تشو تشيو باي وكانت كفاءته الوحيدة قربه من الروس. وكذلك تمّت ترقية ماو الآن من اللجنة المركزية الى المكتب السياسي ولكن بصفته عضواً من الدرجة الثانية.

باشر ماو سلسلة من الخطوات ستقوده الى اعلى السلّم في الحزب الشيوعي في فترة اربع سنوات. ابتداءً من صيف 1927 لم يكن لديه رجال مسلّحين بخدمته ولم يكن يشغل اي منصب قيادي عسكري، لذلك شرع بالحصول على قوة مسلّحة عبر السيطرة على الجيوش التي بناها القوميون.

في ذلك الوقت كانت القوة الرئيسية التي تمكّن الشيوعيون من سحبها من الجيش القومي تتألف من 20000 جندي مرابطين في نانتشانغ، عاصمة مقاطعة يانغتزي، وحولها، وهي تقع على بعد حوالى 250 كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من وهان كما تقع على بعد 300 كيلومتر الى الشرق من تشانغشا. لم يكن هذا الجيش على علاقة بماو وفي 1 أب قام بتمرّد بناء على توجيهات من موسكو. وكان المنظم الرئيسي للتمرّد تشو إن لاي، الرجل الذي عيّنه الحزب لادارة الامور العسكرية، تحت الاشراف المباشر للمستشار العسكري الروسي كومانين(*). بعدها توجّه الجيش مباشرة الى سواتو الواقعة على الساحل على بعد 600 كيلومتر الى الجنوب حيث كان من المفترض ان يرسل الروس الاسلحة.

(*) دخل هذا التمرد في حيز الاسطورة باعتباره عملية صينية نقية وتحت الاسم المخادع «تمرد نانتشانغ» واعتبر الأول من آب يوم الجيش الشيوعي الصيني. ولكن كما وصفها ستالين بصراحته بان العملية كان بمبادرة وتخطيط الكومنتيرن. وقد حذفت هذه الكلمات من الطبعة المنشورة لخطاب ستالين. وكان الشخص المسؤول عن ايصال الاسلحة للمتمردين هو انستازيا ميكويان.

باشر ماو بوضع يده على بعض الجنود التابعين لهذا الجيش. في طريقهم الى الساحل كان مقرراً ان يمرّوا بالقرب من جنوب هونان. في بداية آب اقترح على قيادة الحزب الشيوعي الصيني اطلاق ثورة للفلاحين في جنوب هونان في سبيل تأسيس ما سمّاه قاعدة حمراء كبرى تشمل «على الاقل خمسة اقاليم». لكن في الواقع لم يكن ماو ينوي البدء بتلك الثورة ولم يسبق له ان نظّم اية ثورة كما لم يفكّر بانه بالامكان القيام بذلك. (كان عنف الفلاحين السابق في هونان بحماية الحكومة الراديكالية). ان الهدف الوحيد للاقتراح كان التمهيد لطلبه التالي الذي يقضي بان تأتي فرقة كبيرة من المتمردين لمساعدته وهي في طريقها الى الساحل. بعد ان فشلت شانغهاي في ادراك ان هذه المبادرة من اجل هونان هي فقط خدعة للحصول بطريقة غير مباشرة الى الجيوش، وافقت على خطة ماو.

كان متوقعاً ان يجتمع زعماء الثورة في هونان في 15 آب في القنصلية الروسية في شانغهاي للمباشرة بالعمل الاّ ان ماو لم يأتِ مع انه كان على مشارف المدينة. ونظراً لكونه مسؤولاً عن المهمة فقد تأجل الاجتماع الى اليوم التالي حيث تخلّف ايضاً عن الحضور. واخيراً دخل الى القنصلية في 18 آب لاسباب امنية. قدّم اعتذاراً الى رفاقه الغاضبين والمحبطين معلّلاً غيابه بانه كان يقوم بـ«تحقيقات في اوساط الفلاحين».

اخفى ماو السبب الحقيقي لغيابه لمدة اربعة ايام وهو اعطاء الوقت لنفسه لمراقبة اداء المتمردين وما اذا كانوا سيتابعون المرور عبر جنوب هونان وبذلك يكونون في متناوله. وفي حال عدم مرورهم لم تكن لديه النية في الذهاب الى جنوب هونان.

بدأ المتمردون بتحرك فاشل اذ بعد ثلاثة ايام على مغادرتهم نانتشانغ كان ثلثهم قد فرّوا فيما توفي آخرون بسبب شربهم مياهاً وسخة من حقول الارز وفي حرارة تفوق الثلاثين درجة مئوية وجو تسوده الرطوبة. اما الناجون فقد خسروا تقريباً نصف ذخائرهم وكانت الصفوف المتضائلة تصارع فقط للاستمرار على قيد الحياة والوصول الى الساحل فيما امكانات الالتفاف من اجل مساعدته كانت معدومة.

لذلك عندما انضم ماو في النهاية الى رفاقه في القنصلية الروسية طلب الغاء الخطط المعدّة للقيام بثورة في جنوب هونان رغم انه هو صاحب الاقتراح في البداية. عوضاً عن ذلك اصرّ على مهاجمة تشانغشا، عاصمة المقاطعة، معتبراً انه يجب «تقليص خطة الثورة».

كان هدف هذه الخطة هو نفسه الذي اعتُمد في المرة السابقة، وهو وضع يد ماو على بعض الرجال المسلحين. عندها كانت القوات الشيوعية الوحيدة الموجودة في أي مكان بقربه خارج تشانغشا. وكانت تتألف من ثلاث مجموعات: فلاحون ناشطون ومزوّدون باسلحة استولوا عليها من الشرطة، عمّال المناجم العاطلون عن العمل وحرّاس المناجم المقفلة في انيونان،

ووحدة من الجيش كانت قد احتجزت في طريقها للانضمام الى المتمردين في نانتشانغ. بلغ اجمالي عدد القوة بضعة آلاف وقصد ماو من وراء تبنّيه الهجوم على تشانغشا حصول انتشار لهذه القوى استعداداً للمعركة فيتمكن من المناورة ليصبح قائداً لها.

نجحت الخدعة واعتمدت خطة ماو للهجوم على تشانغشا فتسلّم موقعاً قيادياً من خلال تعيينه قائداً لـ«لجنة الجبهة»، مما جعله ممثلاً للحزب على الفور وبذلك اصبح الرجل الذي تعود اليه الكلمة الاخيرة في غياب سلطة اعلى. لم يكن ماو قد اجرى تدريبات عسكرية من قبل الاّ انه بدأ العمل بجهد من خلال تقديم عرضٍ حماسي لاوامر موسكو امام ممثلَيها الروس في الاجتماع اللذين كانا يسيطران على الوضع. قال ماو: «كان الامر الصادر في الكومنتيرن الاخير» حول الثورات «[رائعاً لدرجة] انه جعلني اقفز من الفرح ثلاثمائة مرة».

تركّز التحرك التالي لماو على الحؤول دون مغادرة الجيوش الذاهبة فعلاً الى تشانغشا، وعوضاً عن ذلك جعلهم يحتشدون في مكان حيث يستطيع ابعادهم عن مركز القيادة. يفترض ان يكون المكان بعيداً نسبياً عن تشانغشا بحيث لا يتمكن ممثلون آخرون للحزب او ممثلون عن الروس الوصول اليه بسهولة. ولم تكن هذه القوات تملك شبكة اتصالات هاتفية او لاسلكية.

في 31 آب غادر ماو القنصلية الروسية قائلاً انه ذاهب للالتحاق بالجيش لكنه لم يفعل بل توجه الى بلدة تدعى ونجياشي تقع على بعد 100 كيلومتر الى الشرق من تشانغشا وبقي هناك. في اليوم المقرر لاطلاق التمرد اي في 11 ايلول لم يكن ماو مع اي من الجيوش، بل كان مختبئاً في ونجياشي. في الرابع عشر من آب وقبل وصول الجيوش الى اي مكان بالقرب من تشانغشا او قبل ان تُمنى بهزائم كبيرة اصدر اوامره بالتخلي عن الزحف الى تشانغشا والتجمع في موقعه. نتيجة لذلك كان على فرع الحزب في تشانغشا اجهاض الخطة برمّتها في 15 آب. اشار سكرتير القنصلية السوفياتية الى الانسحاب واصفاً اياه بـ«احقر خيانة وجبانة». واطلقت موسكو تسمية «الثورة النكتة» على المسألة كما لا يبدو انها ادركت ان ماو كان قد دبّر الامر من اجل ايقاع الوحدات المسلحة في الفخ.

تظهر العملية في كتب التاريخ تحت اسم «ثورة حصاد الخريف» وتوصف على انها ثورة الفلاحين بقيادة ماو. وكانت اللحظة التأسيسية للاسطورة العالمية التي جعلت من ماو زعيماً للفلاحين واحدة من اهم الخِدع في سيرته (وعمد ماو الى تلفيق قصة لطمس المسألة امام الناطق باسمه الاميركي ادغار سنو). لم تكن «الثورة» فقط مشروعاً غير حقيقي للفلاحين بل ان ماو لم يكن مشاركاً في اي نشاط(*) بل خرّبه في الواقع.

(*) أحد الأتباع المقربين جداً من ماو أكد انه فيما كان نجم ماو يصعد، «فشلت ثورة حصاد الخريف».

الاّ انه حصل على ما كان يسعى اليه اي السيطرة على قوة مسلحة تتألف من حوالى 1500 رجل. على خط مستقيم جنوباً وعلى بعد 170 كيلومتراً من ونجياشي تقع سلسلة جبال جينغانغ وهي المنطقة التي تأوي اللصوص تقليدياً. قرر ماو ان يجعل منها قاعدة للعمليات لا سيما أن انعدام وجود الطرقات الجيدة يعني ان العديد من المناطق الجبلية في الصين هي بغالبيتها خارج سيطرة السلطات. وهذا المكان بالذات اضاف عاملاً ايجابياً إذ يمتدّ على حدود المقاطعتين وبذلك يكون الطرف الخارجي لنطاق سيطرة السلطات في كلا المقاطعتين.

كان ماو على اتصال بأحد طريدي العدالة الناجحين في المنطقة ويدعى يوان ون كاي. كان ليوان وشريكه وانغ زو جيشاً من 500 رجل وكانا يسيطران على معظم اقليم نينغانغ المأهول بحوالى 130000 شخص. كان يعيشون من الايجارات والضرائب المحصّلة من السكان المحليين.

استبق ماو حصول المشاكل من خلال الطلب الى القادة في القوة التي اختطفها الذهاب الى الريف حيث يتواجد اللصوص وذلك دون صدور اوامر صريحة من الحزب. لذلك قصد بعض الرجال الذين يعرفهم من قبل وحصل على دعم منهم، قبل ان يدعو الى اجتماع للقادة العسكريين في 19 ايلول. ورتّب لمؤيديه امر تقديم الشاي والسجائر كي يتمكنوا من الدخول الى الغرفة ويراقبوا ما يجري. كان النقاش حادّاً اذ طلب القائد الرئيسي الاستمرار في الخطة القديمة وتركيز جهودهم على تشانغشا. لكن ماو كان الزعيم الحزبي الوحيد الحاضر (كان الزعماء الآخرون وكذلك الروس كانوا على بعد 100 كيلومتر في تشانغشا) وكان رأيه هو السائد. وانطلقت القوة باتجاه جبال جينغانغ وفي البداية بدا ماو غريباً بالنسبة الى الجنود لدرجة ان البعض منهم ظنوا انه من السكان المحليين ينتمي الى فرع من الاتحادات العمالية وحاولوا الامساك به وجعله يحمل البنادق.

بدا ماو كاستاذ مدرسة في الريف بردائه الازرق الطويل ووشاح من القطن البيتي الصنع حول عنقه. طوال الطريق تكلّم مع الجنود وهو يجري تقييماً لاحوالهم ولقوّتهم وكأنه يحسب ثروة العائلة» كما يتذكر احد الجنود.

عندما ابلغ ماو الجنود انهم على وشك ان يصبحوا «امراء الجبل» اي لصوص صُعقوا، فهم لم ينضموا الى الثورة الشيوعية ليبلغوا هذا الهدف. لكنه اكّد لهم باسم الحزب انهم سيكونون لصوص مميزين اي جزءاً من الثورة العالمية. واعتبر ان اللصوصية هي فرصتهم الفضلى: «لم يتم ابداً القضاء على امراء الجبل، اذا تجاوزنا ذكر انفسنا».

لكن الكثيرين منهم كانوا منهارين فسيطر عليهم الانهاك وانتشر التقيح في الارجل كما انتشر الاسهال والملاريا في اوساطهم. كلما توقفوا كانوا يغرقون بالنتانة الكثيفة لذلك فان

الرائحة الكريهة كانت تفوح منهم على بعد بضعة كيلومترات. كان المرضى والمصابون يستلقون على العشب وغالباً لم يستطيعوا النهوض مجدداً كما فرّ الكثيرون منهم. سمح ماو للذين يودّون الرحيل ان يفعلوا، ولكن من دون ان يأخذوا الاسلحة معهم، لعلمه انه لا يستطيع ان يجبر رجاله على البقاء. اختار اثنان من القادة الكبار الرحيل وذهبا الى شانغهاي وانتقل كلاهما لاحقاً الى الحزب القومي. في الوقت الذي بلغ فيه ارض الخارجين على القانون كان تبقّى لديه حوالى 600 رجل فقط بعد خسارته ما يزيد على نصف قوته في بضعة اسابيع. ان معظم الذين بقوا فعلوا ذلك لعدم وجود اي خيار آخر لديهم واصبحوا النواة التي كبرت قوة ماو انطلاقاً منها عندما دعاها لاحقاً «الشرارة الوحيدة التي اشعلت ناراً على مساحة مرج».

لدى وصوله الى الريف الذي يسيطر عليه اللصوص في بداية تشرين الاول كانت الخطوة الاولى التي قام بها ماو زيارة يونان برفقة بعض الرجال فقط وذلك بهدف طمأنة رئيس اللصوص. كان ليوان رجال مسلحين يختبئون في الجوار في حال استقدم ماو جنوداً. وعندما وجد يوان ان ماو لا يبدو انه يشكل اي خطر ذبح له خنزيراً لاقامة وليمة وجلسا معاً يشربان الشاي ويقضمان الفستق وبذار البطيخ.

وضع ماو رجله على عتبة الباب عبر الادعاء انه توقّف مؤقتاً وهو في طريقه الى الساحل للانضمام الى متمرّدي نانتشانغ. وابرم الاثنان صفقة يستطيع ماو بموجبها البقاء مؤقتاً وبامكانه ايضاً ان يطعم جنوده من خلال شنّ حملات سلب ونهب، لكن في البداية سيهتم بهم الخارجون عن القانون.

في شباط 1928 اي بعد اربعة اشهر على وجود ماو في تلك النقطة اصبح سيداً على مضيفيه. جرت الخاتمة في عملية الاستيلاء هذه بعد ان وضع رجال ماو يدهم على عاصمة نينغانغ في 18 شباط في ما اعتبر حسب معايير اللصوص نصراً عسكرياً ضحماً. وكانت ايضاً المعركة الاولى التي يشارك فيها ماو على مستوى القيادة بحيث كان يراقب ما يجري عبر المنظار ومن الجبل المقابل.

بعد ثلاثة ايام اي في 21 شباط اقام تجمعاً شعبياً لحشود منظمة للاحتفال بالنصر. وكانت الذروة في قتل رئيس المقاطعة الذي كان القي القبض عليه للتو. وصف المسرح شاهد عيان بكلام حذر اذ انه كان يخبر القصة في ظل الحكم الشيوعي: «جرى غرزٌ لاطار خشبي له شكل شوكة في الارض... ورُبط [رئيس المقاطعة] تشانغ كاي يانغ به. ووُضعت حلقات من الحبل في ارجاء المكان تمتد من قطب خشبي الى آخر من اجل تعليق الشعارات. وطعنه الناس برماحهم المعروفة باسم سو بياو وقتلوه بهذه الطريقة ... وتكلّم المفوّض ماو في الحشود». كان ماو سبق ان عبّر عن ولع مميز بهذا السلاح المدعو

سو بياو. الآن وامام اعينه سلب هذا السلاح الحياة من رئيس المقاطعة.

اصبحت الحشود المتفرجة على الاعدام في الساحات العامة ميزة من ميزات الحياة المحلية منذ وصول ماو الذي برهن عن نزعة الى القتل البطيء. في احدى التجمعات التي اقيمت للاحتفال بحملة للنهب والسلب في رأس السنة الصينية سنة 1928 كتب ماو (دوبَيت) مقاطع شعرية على اوراقٍ حمراء أُلصقت على عواميد خشبية على جانبي المسرح وجاء فيها:

تفرّجوا علينا ونحن نقتل مالكي الاراضي الرديئين اليوم

الستم خائفين؟

انها السكاكين تقطع الشرائح الواحدة تلو الاخرى.

وبعد ان توجّه ماو الى الحشود اعدم احد مالكي الاراضي المحليين ويدعى كو واي تشن انسجاماً مع القاعدة التي ارساها ماو في شعره.

لم يخترع ماو الاعدام في الساحات العامة لكنه اضاف الى هذا التقليد المروّع بعداً حديثاً هو التجمعات المنظمة، وبهذه الطريقة جعل من القتل مشهداً اجبارياً لقسم كبير من السكان. ان اخضاع الناس في سبيل دفعهم للانضمام الى الحشود وهم عاجزون عن الابتعاد واجبارهم على مشاهدة قتل غيرهم بهذا الاسلوب الوحشي والتعذيبي بالاضافة الى سماع صراخهم، كل ذلك زرع الرعب في نفوس الحاضرين.

لم يستطع الاشقياء التقليديون مجاراة ماو وفظاعاته المنظمة، واصابهم الرعب [منها]. خضع يوان وزو لسلطة ماو وبعد ذلك بقليل، وشكّلا والرجال التابعين لهما فوجاً بقيادته. لقد تفوق ماو في شقاوته على الاشقياء.

ما ان وصل ماو الى ارض الاشقياء حتى بعث رسولاً الى المركز الرئيسي للحزب في تشانغشا. تمّ الاتصال خلال ايام من وصوله، في تشرين الاول 1927، وفي ذلك الوقت تلقت شانغهاي تقارير عن الاحداث المرافقة لثورة حصاد الخريف. وما صعب اخفاؤه هو اجهاض ماو للمغامرة وهروبه مع الجنود دون إذن بذلك. ارسلت شانغهاي في طلب ماو الى جانب آخرين لمناقشة الاخفاق التام فتجاهل الاستدعاءات، وفي 14 تشرين الثاني أُقيل من منصبه الحزبي.

بذل الحزب جهوداً كبيرة للتخلص منه. في 31 كانون الاول ابلغت شانغهاي هونان ان «المركز» اعتبر ان «الجيش الذي يقوده الرفيق ماو تسي تونغ ... ارتكب اخطاء سياسية جسيمة. ان المركز يأمرك بارسال رفيق يشغل منصباً رفيعاً الى هناك وهو يحمل معه القرار بـ[طرد ماو]... كما يأمرك بالدعوة الى عقد مؤتمر للرفاق في الجيش ... وباصلاح الهيكلية الحزبية هناك». وفي استباق واضح لمشاكل قد يتسبب بها ماو اضافت الرسالة: عيّن رفيقاً

شجاعاً وذكياً من صفوف العمال ممثلاً للحزب».

كانت راية الحزب امراً حاسماً بالنسبة الى ماو إذ كان لديه القليل من الجاذبية على المستوى الشخصي. كان الحل الذي ابتكره رداً على امر الحزب بسيطاً: منع خبر طرده من بلوغ رجاله.

بعد مرور اسبوع على اصدار شانغهاي امرها أوقف جميع اعضاء اللجنة في هونان بسهولة على يد القوميين، لكن البعض قد يقول ان العملية جرت بشكل مشبوه . لم يعلم الجنود التابعون لماو بان الحزب سحب تفويضه منه وبقي الخبر مخفياً الى آذار 1928 حين سُمح لاول مبعوث حزبي بالظهور في قاعدة ماو حاملاً الرسالة التي تنصّ على طرده. الاّ ان ماو تفوّق في ذكائه على الحزب عبر التأكيد على ان المبعوث يستطيع تسليم الرسالة فقط الى بضعة متزلّفين مختارين بعناية ومن ثم الادعاء بالخضوع للحزب من خلال الاستقالة من منصبه الحزبي الذي سلّمه الى شخص يعتبر مجرد اداة. ومنح نفسه لقباً جديداً هو قائد فرقة واستمر في السيطرة على الجيش.

شكّل الريف الواقع تحت سيطرة اللصوص قاعدة مثالية كونه مزوداً بكميات كافية من الطعام. كانت الجبال رغم ارتفاعها الى 995 متر فقط شديدة الانحدار وامّنت حماية ممتازة إذ كانت تحيط بها حلقة من الجُرُف وتكسوها غابات كثيفة من التنّوب والخيزران المغطاة دائما بالسديم (الضباب الرقيق) وتعجّ بالقردة والخنازير البرّية والنمور وانواع الافاعي السامة. لذلك سهُل الدفاع عن هذه المنطقة وكذلك كان الخروج منها سهلاً في الحالات الطارئة نظراً لوجود طرق فرعية مخفيّة توصل الى مقاطعتين، ويستحيل على الغرباء اكتشاف هذه الطرق الضيقة والموحلة والمدفونة تحت كتلٍ من النباتات، لكنها شكّلت ملاذاً آمناً للخارجين عن القانون.

عاش ماو وجنوده من خلال القيام بهجمات على المقاطعات المجاورة بهدف السلب وفي بعض الاحيان كانوا يبتعدون اكثر عنها. وأُطلق اسم دا تو هاو على هذه الغزوات بفخر ويعني ذلك حرفياً «مالكو الارض المستبدون الذين يهشمون ». في الواقع كانت الهجمات من النوع الكلاسيكي الذي يشنّه اللصوص ولا يميّزون فيها بين شخص وآخر. قال ماو لجنوده: «اذا لم تفهم الجموع معنى «مالكي الارض المستبدين» يمكنكم ان تقولوا لهم انها تعني الاثرياء او «الاغنياء». ان لفظة «الاغنياء» كانت نسبية جداً ويمكن ان تعني عائلة تملك بعض الدزينات من ليترات زيت الطبخ او بضعة دجاجات. اما «التهشيم» فقد شمل سلسلة من النشاطات تمتد من السلب البسيط والفدية الى القتل.

غالباً ما احتلّت هذه الهجمات عناوين الصحف وسلّطت الضوء على ماو بصورة ملحوظة فاكتسب الآن السمعة السيئة كزعيم لصوص اساسي.

الا ان نشاطاته اللصوصية اكسبته شعبية ضعيفة بين سكان المنطقة. يتذكّر احد الجنود الشيوعيين كم كان صعباً اقناع الناس بمساعدتهم على ارشادهم الى الاغنياء او بالانضمام الى هجوم او حتى بالمشاركة في احد عمليات السلب. ووصف جندي آخر تجربة حدثت في احدى الليالي:

«كنا عادة نطوّق منزل المستبد من مالكي الاراضي فنعتقله اولاً ثم نبدأ بمصادرة الاشياء. لكن هذه المرة ما ان اقتحمنا المنزل حتى قُرعت الاجراس القرصية فجأة ... وبرز مئات من الاعداء (اهل القرية) ... فقبضوا على ما يزيد على الاربعين من رجالنا، واحتجزوهم في معبد العشيرة ... وضربوهم وحزموهم وداست النساء عليهم بارجلهن. بعدها وُضعت براميل الحبوب فوقهم ووُضعت احجار كبيرة فوقها. لقد عُذّبوا على نحو مُخز..».

رغم ادعاء ماو بوجود اسباب ايديولوجية تتمثّل بمحاربة الطّبقات المستغلّة للفلاحين، الاّ ان كون غزواته لا تتميز فعلياً عن السلوك التقليدي للصوص بقي مصدراً للاستياء في صفوف جنوده وخاصة القادة من بينهم. في كانون الاول 1927 حاول القائد الاعلى تشن هاو الذهاب بعيداً مع الجنود فيما هم في حملة للسلب. اسرع ماو الى المكان مع جماعة من المناصرين فأُلقي القبض على تشن وأُعدم لاحقاً امام القوة بكاملها. خسر ماو كل جيشه تقريباً وبعد بضعة اشهر على انتزاعه القوة العسكرية كان جميع الضباط الرئيسيين قد تخلّوا عنه.

انشأ ماو لجاناً خاصة بالجنود لارضاء رغبتهم في ابداء الرأي في مسار عمليات السلب واعتمد ذلك وسيلة للتملّق ليكسب رضاهم. في الوقت نفسه تمّ تشكيل خلايا حزبية سريّة مسؤولة فقط امام رئيس الحزب ماو. لكن حتى الضباط الكبار لم يكونوا يعلمون من هم اعضاء الحزب مما جعل هذا الاخير مساوياً لمنظمة سريّة. بهذه الطريقة استعمل ماو آلية السيطرة الشيوعية واسمها للمحافظة على قبضته على الجيش.

لكن بما ان قبضة ماو لم تكن صارمة وبما انه لم يكن شعبياً بالطبع لم يستطع تخفيف الاحتراس في ما يخص سلامته الشخصية، وابتدأ من ذلك الحين بتحسين الاجراءات الامنية التي تطورت في مراحل لاحقة من حياته الى نظام مُرعب حقاً وكان خفيّاً الى حد كبير. في البداية كان لديه حوالى المئة حارس ثم اخذ العدد بالازدياد. سرق عدة منازل في ارجاء مختلفة من الريف الواقع تحت سيطرة الاشقياء ومن ثم غطّاهم لاسباب امنية. كان لجميع المنازل دون استثناء مخارج للهروب هي كناية عن حُفرة في الحائط، توجد عادة في الجزء الخلفي من المنزل، وهذه المخارج تؤدي الى الجبال. لاحقاً وخلال عملية الزحف الطويل، وحتى انتقاله من مكان الى آخر، كان

لمعظم هذه المنازل ميزة بارزة هي عبارة عن مخرج خاص يؤدي الى طريق للهروب في الحالات الطارئة.

عاش ماو حياة ترف. كان لاحد البيوت التي سكنها وتدعى السُرادق المثمّن (ذو ثماني زوايا واضلاع) اسلوب هندسي مميز. كان الجزء الاساسي الفسيح المفتوح على ساحة الدار الواسعة التي اقيمت بالقرب من احد الانهر سقف يتكوّن من ثلاث طبقات من الواح الخشب التي تلتف لولبياً داخل سقف زجاجي صغير يشبه الباغودة ذات الرأس الزجاجي. كان يملكه احد اطباء المحلة الذي نُقل الآن الى زاوية في ساحة الدار لكنه استمر في ممارسة عمله، وناسب الامر ماو الذي غالباً ما كان يعاني من مرض ما.

شغل ماو منزلاً آخراً رائعاً في بلدة لونغشي الكبيرة ويملكه ايضاً طبيب. كان لهذا المنزل جمال غريب يدلّ على الازدهار الذي كان سائداً في البلدة. كان نصف المنزل الضخم عبارة عن مبنى لفيللا اوروبية لها شرفة مفتوحة فوق صف من القناطر الرومانيسكية فيما النصف الثاني مؤلف من قصر صيني من القرميد والخشب، وتتكون حافة سطحه من عدة طبقات مقلوبة ونوافذه مشبّكة باسلوب ناعم. كان الجزءان موحَّدين في مدخل مثمّن رائع اختير بعناية.

كان المركز الرئيسي لماو في لونغشي عبارة عن قصر فخم مؤلف من طبقتين ومشيّد على مساحة الفي متر مربع من الارض وكان فيها مضى افضل مدرسة للشبان الآتين من ثلاث مقاطعات، الى ان جاء ماوالى المنطقة. كانت الطبقة العليا باكملها مفتوحة على ثلاث جوانب وتطلّ على مشهد من الانهر والغيوم. صمم القصر بطريقة تسمح للتلامذة بالتمتع بالنسيم في ايام الحر الخانق في الصيف. واضفى شغل ماو لهذا المبنى نمطاً معيناً. اينما ذهب كانت المدارس ومعابد العشائر والكنائس الكاثوليكية (وهي غالباً المباني الاقوى في اجزاء كثيرة من الريف الصيني) تُصادر لاغراض عسكرية. كانت هذه المباني الوحيدة الفسيحة بما فيه الكفاية لعقد الاجتماعات بصرف النظر عن كونها المباني الافضل بالمقارنة مع غيرها، ومن الطبيعي في هذه الحال ان تُقفل صفوف المدارس.

طوال اقامته في ارض الخارجين على القانون والتي دامت خمسة عشر شهراً جازف ماو بالذهاب الى الجبال ثلاث مرات فقط تقلّ مدتها الكاملة عن شهر، ولم يسافر تحديداً على ارض وعرة. عندما ذهب لزيارة احد رؤساء الأشقياء المدعو زو مكث في قصر ابيض متألّق معروف بالبيت الابيض كان يملكه تاجر خشب من كانتون، ولقي فيه ماو تكريماً تميّز بالسخاء فنحرت الخنازير والخراف على شرفه.

في هذا الوقت كانت الاطر المحيطة بأسلوب حياة ماو المستقبلية في السلطة قد بدأت بالظهور. كان في حوزته فريقٌ كبيرٌ من الموظفين المهتمين باموره الشخصية وضم هذا الفريق

مديراً وطاهياً ومساعداً للطاهي مهمته الخاصة حمل الماء الى ماو، بالاضافة الى سائس خيل يهتم بالحصان الصغير الذي يملكه سيّده وامناء للسرّ. وكانت «المهمة الخاصة» للساعي تزويد ماو باستمرار بصنف جيّد من السجائر من لونغشي، اما عامل الارتباط فكان يجمع الصحف والكتب كلّما استولوا على بلدة او نهبوا منزلاً لاحد الاغنياء.

واتخذ ماو ايضاً زوجة هي الثالثة، ما إن استقر تقريباً في المنطقة الريفية التي يسيطر عليها الخارجون عن القانون. كانت غوي يوان امرأة شابة وجميلة لها عينان واسعتان ووجنتان بارزتان مرتفعتان ووجه له شكل لوزي وقوام ممشوق. كانت على وشك بلوغ الثامنة عشرة عندما التقت ماو وهي آتية من مقاطعة يونغزين المزدهرة الواقعة على سفح الجبل. اعطاها اهلها الذين يملكون صالة للشاي اسم غوي يوان (غوي تعني شجرة الاوسمانتوس اما يوان فهي تعني المستدير) لانها ولدت في مساء يوم خريفي عندما اطل قمر مستدير فوق شجرة اوسمانتوس مزهرة. تلقت علومها في احدى مدارس الارساليات التي تديرها سيدتان هولنديتان لكنها لم تكن راضية عن تربيتها كامرأة. فقد رفض مزاجها المتململ والناري الحياة التقليدية والمقيّدة المفروضة على المرأة وجعلها تتوق الى عالم اوسع والاستمتاع بالحياة والقيام ببعض النشاطات. لذلك انضمت الى الحزب الشيوعي في الجو المثير السائد اثناء دخول الحملة الشمالية للجيش الى بلدتها في صيف 1926 وما لبثت ان بدأت بالقاء الخطابات العامة كقائدة للهتافات المرحبة بالجنود. عندما كانت في سن السادسة عشرة فقط عُيّنت رئيسة لدائرة النساء لكل المقاطعة في الحكومة الجديدة. بدأت عملها بقصّ شعرها الطويل وهي خطوة كانت ما تزال تعتبر ثورية ومثيرة للرفض والدهشة.

بعد مرور سنة وبعد انفصال تشيانغ كاي شيك كان العديد من الشيوعيين والناشطين في حالة هروب، بمن فيهم اهلها وشقيقتها الصغرى التي انضمت ايضا الى الحزب. وأرسل شقيقها الكبير الذي ينتمي الى الحزب الشيوعي هو ايضاً الى السجن اضافة الى الكثير من الاشخاص، لكن صديقه يوان الخارج عن القانون ساعده على الفرار من السجن. هرب كل من غوي يوان وشقيقها مع الخارجين على القانون وربطتها علاقة صداقة متينة بزوجة يوان. واعطاها زو الذي هو ايضاً من الخارجين على القانون والذي لديه ثلاث زوجات مسدساً من طراز ماوزر.

عندما اتى ماو اسند اليها العمل كمترجمة لديه. لم يكن ماو يتكلم اللهجة المحلية ولم يتعلمها ابداً. هنا كما في رحلاته اللاحقة كان عليه التواصل مع السكان المحليين من خلال مترجم. وبدأ ماو فجأة التغزّل بها وفي بداية سنة 1928 كانا «متزوجين» دون المرور باحتفال ملزم

لكن السيدة يوان حضّرت لهما مأدبة سخيّة. وجرى ذلك في آب الفائت بعد ان مرّت بالكاد اربعة اشهر على مغادرة ماو لكاي هواي التي هي والدة ابنائه الثلاثة. لقد ارسل اليها رسالة واحدة فقط ذكر فيها ان رجله تؤلمه. ومنذ زواجه الجديد تخلّى عن عائلته.

خلافاً لكاي هواي التي كانت تحبّ ماو بجنون فان غوي يوان تزوّجته رغماً عنها. وكونها امرأة جميلة وسط جمع من الرجال فقد طلب يدها العديد منهم، لذلك اعتبرت ماو البالغ الرابعة والثلاثين من العمر «كبيراً في السنّ» و«غير جدير بها» كما قالت الى احد اصدقائها المقربين. وكان تسي تان شقيق ماو الوسيم والمليء بالحيويّة مولعاً ايضاً بغوي يوان. وقال: «ان اخي لديه زوجة، فمن الافضل ان تكون لي». لقد اختارت ماو الاكبر سنّاً لانها شعرت «بالحاجة الى الحماية في ذلك المحيط السياسي» كما قالت لاحقاً.

في عالم لا توجد فيه الكثير من النساء بل يعج بالكثير من الرجال الذين يعانون من الكبت الجنسي تسبّبت علاقة ماو مع غوي يوان بالثرثرة. كان ماو حذراً فتجنّب الظهور مع غوي يوان علناً. وعندما كان يجتازان مبنى يأوي جنوداً مصابين كان يطلب منها السير منفردة.

وبعد مضي سنة على زواجهما قررت غوي يوان ان تتخلّى عن ماو. واسرّت الى احد الاصدقاء بأنها غير محظوظة بزواجها منه وشعرت بانها «قامت بتضحية كبيرة» بزواجها على الزواج منه. عندما قرر ماو مغادرة ارض الخارجين على القانون في كانون الثاني 1929 حاولت جاهدة البقاء حيث هي. وربما كانت غوي يوان تفكّر باكثر من التخلّي عن ماو. عندما كانت لا تزال في عمر المراهقة تعرّضت لاضطراب كبير والآن اصبحت رغبتها بترك ماو قوية لدرجة استعدادها للمجازفة وتعريض نفسها لاحتمال القبض عليها على يد اعداء الشيوعيين. لكن ماو اصدر امراً باخذها معه «بأي ثمن». بكت غوي يوان طوال الطريق وتأخرت مرّاتٍ متكررة ليعود حرّاس ماو ويجلبوها على ظهر حصانه.

بدأت مكانة ماو في الحزب تتغير في نيسان 1928(*) عندما لجأت وحدة كبيرة من الجيش الاحمر مؤلفة من آلاف الرجال الى قاعدته. تألف قوام هذه الوحدة من الناجين من التمرّد في نانتشانغ وكان ماو احتال للحصول عليها منذ البداية. اتى الجنود الى ماو كقوة مهزومة صفوفها مستنزفة وكانت أُرسلت على الساحل الجنوبي في تشرين الاول الفائت عندما فشل الروس في تسليم الاسلحة التي وعدوها بها. وتجمّع بقايا القوة حول ضابط يدعى زو دو يبلغ الواحدة والاربعين من العمر. كان جندياً سابقاً محترفاً برتبة عميد ويعتبر محارباً متمرّساً بالمقارنة مع جنود الجيش الاحمر الذين كانوا في العشرينات من اعمارهم. سبق له ان ذهب

(*) أخبر أحد الروس في شانغهاي موسكو أن «كل شيء أحرق او ذبح وان النار اطلقت على الناس يميناً ويساراً».

الى المانيا عندما كان في منتصف الثلاثينات وانضم الى الحزب قبل ان ينتقل الى روسيا لتلقي تدريب عسكري خاص. كان رجلاً مرحاً وجندياً يختلط بسهولة مع الجنود العاديين فيأكل ويمشي معهم ويحمل البندقية وحقيبة الظهر مثل الباقين ويرتدي صندل القش ويضع قبعة من القش على ظهره ودائم التواجد على الجبهة.

لطالما اشتهى ماو السيطرة على المتمرّدين في نانتشانغ وعندما وصل للمرة الاولى الى الاراضي الخاضعة للخارجين عن القانون، بعث رسالة الى زو يحثّه فيها على الانضمام اليه لكن هذا الاخير رفض. قضت اوامر شانغهاي بشنّ ثورة في الزاوية الجنوبية الشرقية لهونان في فترة رأس السنة لعام 1928 وتجاوب زو مع الاوامر بصفته حزبياً مخلصاً. فشل التمرّد فشلاً ذريعاً نتيجة للعبثية والوحشية المطلقة في التكتيك الذي اتبعته موسكو. ووفقاً لما جاء في احد التقارير المرفوعة في ذلك الوقت كانت سياستها تقضي بـ«قتل كل شخص من اعداء الصف وحرق وتدمير بيته». كان الشعارالسائد «احرق، احرق، احرق! اقتل، اقتل، اقتل!» ان اي شخص غير مستعد للقتل واشعال الحرائق كان يسمى «كلب الطبقة الارستقراطية [الذي] يستحق القتل».

تماشياً مع هذه السياسة دمّر رجال زو بلدتي تشنزو وليانغ تدميراً كاملاً حتى سوّوهما بالارض، ونتيجة لذلك شُنَّت ثورة حقيقية على الشيوعيين. في احد الايام التي اقيمت فيها حشود لاجبار الفلاحين على القيام باشعال المزيد من الحرائق وقتل المزيد من الناس ثار الفلاحون وقتلوا الشيوعيين الحاضرين. انفجرت ثورات ضد الشيوعيين في قرية تلو الاخرى وفي بلدة اثر الاخرى حيث كان رجال زو ناشطين. وارتكب الفلاحون مجزرة بحق اعضاء في الحزب الشيوعي على مستوى القاعدة كما مزّقوا مناديل الرقبة التي كان عليهم ارتداؤها وارتدوا مناديل بيضاء للدلالة على ولائهم للقوميين.

ما إن بدأ جنود القوميون بممارسة الضغط اضطر زو الى الفرار وذهب معه آلاف المدنيين مثل عائلات الناشطين الذين قاموا باشعال الحرائق والقتل الذين لم يكن لديهم اي مكان آخر يذهبون اليه. هذا ما ارادته موسكو من وجوب اكراه الفلاحين على القيام باعمال لا تترك مجالاً للعودة الى الحياة الطبيعية. كان الحزب اصدر قراراً مفاده الآتي: « هناك طريقة وحيدة لاجبارهم على الانضمام الى الثورة هي استخدام الرعب لحثّهم على القيام باشياء لا تترك مجالاً لاجراء تسويات مع الطبقة الارستقراطية والبورجوازيين لاحقاً. ويروي احد الرجال التابعين لليانغ: «لقد قمعت [اي قتلت] القائمين بالثورة المضادة، لذلك انا لا استطيع العيش بسلام الآن. كان عليّ الذهاب الى آخر الطريق ... لذلك حرقت منزلي بيديّ ... وذهبت [مع زو]».

بعد ان غادر هؤلاء الاشخاص تسببت دورة الانتقامات والعقاب بالمزيد من الاصابات،

ومن بين المصابين امرأة شابة تدعى شقيقة كريزانتيموم التي كانت والدة ماو تبنّتها. تبعت هذه الاخيرة ماو الى الحزب وتزوجت شيوعياً وكان لهما ولد صغير. رغم عدم تأييدها هي وزوجها لقتل الشيوعيين فقد أعدم زوجها بعد ان غادر جيش زو ليانغ وعُرض رأسه في قفص خشبي معلّق على حائط المدينة، ووضعت شقيقة كريزانتيموم في السجن. ارادت ان تنكر علناً معتقدها لكن معتقليها رفضوا السماح لها بذلك فكتبت رسالة الى احد الاقارب تقول فيها انها أُكرهت على «تحمّل آلام لم تعتقد يوماً بوجودها ... وتولّد لديها توق الى الموت: «اني اتوق الى الموت بدل الاستمرار في التعرض للعذاب ... ان مغادرة هذا العالم ستجلب لي الفرج. لكن التفكير بـ[طفلي] المسكين مؤلم جداً. كان لدي العديد من الخطط لتنشئته. لم اتوقع يوماً بان كل ذلك سيحصل ... يجب الاّ يلومني طفلي ..». ثم أعدمت شقيقة كريزانتيموم لاحقاً.

اتى زو الى ماو كرجل مهزوم فيما كان ماو قادراً على اعتبار نفسه الشخص الذي خلّص اكبر كتيبة شيوعية كانت لا تزال عاملة في حين كانت تتقوّض القواعد الشيوعية الاخرى. انتهت جميع الثورات التي كان الروس امروا بقيامها الى الفشل وانهارت هايلوفنغ، اشهر القواعد الشيوعية الواقعة على الساحل الجنوبي في اواخر شباط 1928. اثناء وجود المنطقة المسمّاة «موسكو الصغيرة» التي دامت شهرين كانت هناك حتى «ساحة حمراء» مع مدخل نُسخ عن الكرملن. اصبحت المنطقة الواقعة تحت سيطرة القائد بينغ باي ارضاً للمجازر وعُرف بانه رجل متعطّش للدماء، فتمّ ذبح ما يفوق العشرة آلاف شخص و«سُويّت قرى الرجعيين بالارض».

شهدت هذه المناطق الضعيفة قتلاً وحرقاً على نطاق اوسع بكثير مما قام به ماو، مما اعني ان ماو لم يكن متعصباً. دأب على منع رجاله من تدمير الكنائس الكاثوليكية بواسطة اضرام النيران (وهي التي كانت غالباً افضل المباني في المناطق الريفية) وكذلك حافظ على المنازل الجميلة طالباً منهم الابقاء عليها كي يستعملوها هم. حقق القتل اهدافه لكنه يجب الاّ تتعرّض مصالحه السياسية بمعناها الأشمل للخطر(*).

في الوقت الذي قدم فيه زو دو الى ماو كانت موسكو قد بدأت بوقف «القتل والمذابح المنظمة العشوائية التي لا هدف لها» كما وصفتها، الى جانب وجود ميل لدى الشيوعيين الى استعمال لغة خاصة وصفت هذه الاعمال بـ«السلوك الاعمى» و«القتل والحرق». امرت

(*) امتدح لينين كما يجب بهذه الكلمات: «لم يكن في قانونه أي تفاصيل بل كان يقتل كل معارضة. كان باستطاعة عماله وفلاحيه أن يقتلوا كل طغاة الأراضي وصغار النبلاء الارديا وأرباب الأراضي والرأسماليين بدون حاجة الى التعليل لأحد...»فالنظام دعا الناس الى نزع الأحشاء وقطع الرؤوس...المذبحة فوراً بدون تردد. بدون أي إحساس...»، «اقتل، اقتل بحرية. القتل هو أهم عمل في الثورة». الاطفال يربون على قتل الرجعيين بدون اي تحفظ».

شانغهاي باستهداف المزيد من الاشخاص بالقتل وهو تماماً ما كان يفعله ماو. لقد ظهر ماو كداهية ورجل بعيد النظر مما اعاده الى اللعبة والى الحزب بحيث لقي الحظوة عند ستالين ايضاً. حتى تمرّد ماو على الحزب اصبح له الآن جانب ايجابي اذ ان ستالين كان بحاجة ماسة الى رابح يتمتع بروح المبادرة وليس الى مجرد مرؤوس اعمى. ضعفت قدرة موسكو على التحرك في الصين بسبب التغيير في سياسة تشيانغ كاي شيك في ربيع 1927 ولحق بها المزيد من الضعف بعد القبض على الدبلوماسيين الروس واياديهم مضرّجة بالدماء، اثناء محاولة انقلاب في كانتون معروفة بـ«عامية كانتون» في كانون الاول 1927. نتيجة لذلك اغلقت بعض البعثات الدبلوماسية في تشانغشا وخسرت موسكو الغطاء للعديد من عملائها السريّين.

ما ان وصل زو دو حتى عمل ماو على استعادة تفويض الحزب له فوجّه رسالة الى شانغهاي في 2 ايار يطلب فيها تشكيل لجنة خاصة برئاسته. لم ينتظر ماو وصول الردّ بل اعلن في احد التجمعات المعقودة للاحتفال بالعلاقة بينه وبين زو انه هو مفوّض الحزب وان زو هو قائده فيما عُرف لاحقاً بـ«الجيش الاحمر بقيادة زو وماو». ثم عقد ماو «مؤتمراً حزبياً» حضره مندوبون عيّنهم هو وانشأ اللجنة الخاصة جاعلاً من نفسه رئيساً لها.

كان هناك سبب اضافي وراء طلب ماو الملحّ للحصول على تفويض حزبي. كانت الفرقة التي يقودها زو تعدّ اربعة آلاف من الرجال الاقوياء وتفوق عدداً الفرقة التابعة لماو والتي تضم اكثر من الف رجل بقليل. اضافة الى ذلك كان رجال ماو جنوداً بكل ما للكلمة من معنى اي انهم يملكون خبرة في المعارك لذلك كان ماو بحاجة الى تفويض حزبي ليضمن سلطته. عمد ماو الى اللهو بمسدس عندما التقى بجيش زو في محاولة منه للتأكيد على مؤهلاته العسكرية، وكانت تلك من المرات القليلة التي شوهد فيها وهو يحمل مسدساً، لكن سرعان ما اعاده الى حارسه الشخصي. لقد آمن ماو باهمية السلاح لكنه لم يكن رجلاً مقاتلاً متمرساً في المعارك.

بينما كان ماو ينتظر موافقة شانغهاي راح يتصرف كعضو حزبي جيّد يتقبّل اوامر الحزب والتفتيش الدوري وارسال التقارير الطويلة. حتى ذلك الوقت لم يكن مهتماً بمعرفة عدد اعضاء الحزب في منطقته وكان اعطى اجوبة مبهمة ومضخمة الى احد المفتشين كقوله ان هذه المقاطعة لديها «اكثر من مئة» عضو وتلك تضم «اكثر من الف» عضو. اما الآن بدأت اللجان الحزبية بالعمل.

وبدأ ايضاً بتنفيذ مشروع اعادة توزيع الاراضي وهي مسألة اساسية في البرنامج الشيوعي بعد ان كان لا يكلّف نفسه القيام بهذه الاعمال في السابق اذ لم يكن لها علاقة بكيفية ممارسته للحكم فيما حكمه قائم على السلب بكل بساطة.

في هذا الوقت حمل رسالة ماو التي تتضمّن طلباً للمنصب الحزبي وكما غيرها من المراسلات موفد خاص ارسلته شانغهاي الى موسكو. وصلت الرسالة الى ستالين في 26 حزيران 1928، تماماً في منتصف المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الصيني المنعقد سرّاً خارج موسكو. ويدل انعقاد مؤتمر حزبي غير روسي لمرة وحيدة على الاهمية الخاصة التي يعلّقها ستالين على الصين، ويؤكد على ذلك تدبير الروس لسفر ما يزيد على المئة مندوب من الصين سرّاً وتغطية نفقات هذه الرحلة.

وأُعلن عن الخط الذي اتبعه ستالين في خطاب وجهه نيكولاي بوخارين استغرق تسع ساعات. لم يكن ماو من بين الحاضرين وسبق له ان اعتمد قاعدة ذهبية خاصة بالمستبدين وابقى عليها في الفترة اللاحقة من حياته وتقضي بعدم الخروج من ملجأه الاّ مضطراً.

كان لموسكو تحفظات على ماو. قال تشو إن لاي، الشخصية الرئيسية في المؤتمر، في تقريره العسكري ان جنود ماو لهم «طابع اللصوص بصورة جزئية» مما يعني ان ماو لم يلتزم دائماً سياسة الحزب التزاماً تاماً. لكن في الجوهر كان ماو يحظى بتأييد موسكو وذكر اسمه في المؤتمر على انه قائد عسكري رئيسي. كان ماو الرجل الاكثر فعالية في تطبيق سياسة الكرملين التي تقضي بانشاء جيش احمر، كما كرّر ستالين شخصياً امام قادة الحزب الشيوعي الصيني في 9 حزيران. بينما كان كل من المندوبين الى المؤتمر في روسيا تلقّى تدريباً عسكرياً فيما رُسمت الخطط العسكرية المفصلة. وشارك ستالين المعروف بالسطو على البنوك، شخصياً في التمويل عبر عملية تزوير كبرى.

كان ماو مناسبا لاهداف ستالين اذ كان يملك جيشاً وقاعدة وهو عضو قديم في الحزب. بالاضافة الى ذلك هو يملك الآن الشعبية الاعلى ولو من النوع السيء، من بين كل الشيوعيين الصينيين. لقد كان، كما قال ستالين لاحقاً الى اليوغوسلافيين، متمرداً ولكنه رابحاً. ولكن رغم عصيانه ظل ماو بحاجة ماسة الى الحزب بوضوح، كما كان بحاجة الى موسكو وهذا ما يجعله خاضعاً للسيطرة بشكل اساسي.

تمّ التجاوب مع طلبات ماو تجاوباً كاملاً. وفي تشرين الثاني جرى تبليغه انه مسؤول عن الجيش الاحمر المشترك بينه وبين زو، كما اصبح مسؤولاً عن الاراضي المحيطة بالمنطقة الخاضعة للخارجين عن القانون، فكانت تلك اللحظة حاسمة في صعود نجمه. واجه ماو الحزب بجسارة وكذلك واجه موسكو نفسها ايضاً بجسارة.

6- السيطرة على الرجل الاول في الجيش الاحمر (1928-1930: العمر 34-36 سنة)

تلقى ماو موافقة شانغهاي على قيادة جيش زو-ماو في تشرين الثاني 1928 وبدأ فوراً بالتخطيط لترك الارض الخاضعة للخارجين عن القانون في ايدي الجيش والسيطرة على املاك جديدة وقوات مسلحة جديدة. كان يودّ المغادرة ايضاً لان المنطقة باتت على وشك التعرض للهجوم. في حزيران من تلك السنة الحق تشيانغ كاي شيك هزيمة بحكومة بكين وبسط سيطرته على قسم كبير من الصين وجعل من نانجينغ عاصمته. كان جنود تشيانغ في طريقهم الى المنطقة التي يسيطر عليها ماو فيما انطلق هذا الاخير في رحلته في 14 كانون الثاني 1929، فغادر معه الجيش التابع له ولزو والمؤلف في ذلك الوقت من حوالى الثلاثة آلاف جندي، وكذلك فعل زو دو الذي كانت شانغهاي عيّنته القائد العسكري الاعلى للجيش.

بعد مرور خمسة عشر شهراً على وصوله ترك ماو من بعده ارضاً مستنزفة. في التجربة الاولى لادارة قاعدته اظهر انه لم يكن يملك اية استراتيجية سوى النهب وهي بمثابة «أُشرُط واحرق». كتب احد مفتشي الحزب رسالة الى شانغهاي جاء فيها:

'قبل قدوم الجيش الاحمر ... كان هناك جو من الحياة الهادئة والسعيدة ... الفلاحون ... كان لديهم ما يكفي ليعتاشوا ... منذ قدوم الجيش الاحمر تغيّرت الاشياء كلّياً. بما ان الدخل الوحيد للجيش الاحمر يأتي من سلب الاغنياء ... وبما انه حتى البورجوازية الصغيرة والفلاحون الاغنياء والبائعين المتجولين الصغار عوملوا كاعداء، وبما انه بعد حصول تدمير كبير لم يتم الاهتمام بالاعمار او بالازمة الاقتصادية، فان الريف هو في حالة من الافلاس التام ويعاني من الانهيار كل يوم».

قام رجال ماو بنهب كل اموال المنطقة فاشمأز منهم السكان المحليون وعندما غادر ماو ترك وراءه المصابين والشيوعيين المدنيين. كان اؤلئك الذين القى القبض عليهم الجيش النظامي محظوظين اذ تم قتلهم بواسطة الرشاشات فقط. اما الذين وقعوا في ايدي القوات المحلية فقد نزعت احشائهم واحرقوا احياء او جُلدوا ببطء حتى الموت. وطال القتل مئات الناس.

كشف تقرير مُعدّ من قبل لجنة حزبية بقيت في المنطقة ان المرارة التي خلفها نظام ماو كانت قاسية لدرجة انه حتى اقدام القوميين على «احراق المنازل وقتل زعماء الثورة لم يتسبّب بالحقد

لدى الجماهير تجاه الرجعيين». كان الناس يتخلّون عن حزبيتهم كلما سمحت لهم الفرصة بذلك: ان اؤلئك «الذين تحت سلطة الشيوعيين بالطبع لا يتجرأون على التصرّف كرجعيين» كما جاء في التقرير. «الاّ ان الجماهير التي هي خارج [سيطرتنا] تنتقل الى صفوف القوميين باعداد كبيرة». والقى التقرير اللوم على السكان المحليين بقوله انهم «لطالما كانوا اشراراً».

حقق الخارجون عن القانون الاصليون نجاحاً كبيراً ومعظمهم من السكان المحليين الذين بقوا في مواقع خلفية. استمرّ معظمهم على قيد الحياة بمن فيهم القائدان يوان وزو، الاّ ان هذين الاثنين لقيا حتفهما بعد سنة في آذار 1930 على يد الشيوعيين العائدين الى المنطقة. اصدرت موسكو اوامر الى الحزب الشيوعي الصيني بخيانة اؤلئك الذين سمّتهم «لصوص» وباستعمالهم بصورة عملية ومن ثم قتلهم. «ان التحالف مع اللصوص ومجموعات اخرى مماثلة يُطبّق فقط قَبل الثورة» كما جاء في احد القرارات. «بعد ذلك يجب انتزاع اسلحتهم وقمعهم بقسوة ... يجب النظر الى زعمائهم كزعماء للذين يعملون ضد الثورة حتى ولو ساهموا في الثورات. يجب الغاء هؤلاء الزعماء بصورة كاملة».

هرب اتباع يوان وزو عائدين الى عمق الجبال واصبحوا معادين للشيوعية بشراسة. وافاد تقرير لوحدة تفتيش تابعة للجيش الاحمر بان «السكان المحليين مستاؤون منا وعملوا كل شيء لحماية الـ [خارجين عن القانون]». بما ان السكان المحليين عاشوا تحت سلطة كل من اللصوص والشيوعيين كانوا يعلمون ايهما يفضلون. ترك الحكم الشيوعي المنطقة مخرّبة جراء الحقد والانتقام، ففي إقليم نينغانغ حيث قلب قاعدة ماو دُمر حوالى 3570 منزلاً بالنار على يد الجيش الاحمر ومن ثم على يد البيض. في الوقت الذي سبق استيلاء ماو على كل الاراضي الصينية في 1949–1950 انخفض عدد سكان المقاطعة الى 31000 بعد ان كان 130000 حين قدم اليها في البداية.

اثناء رحلة المغادرة من ارض الخارجين على القانون كان ماو يتبختر على طول الطريق ويطلق النكات امام المحيطين به. كان لديه سبب يجعله يشعر بالابتهاج. ان موافقة شانغهاي وموسكو على مطالبه اظهرت انه يستطيع الحصول على ما يريد. في الواقع وفي تلك اللحظة بالذات اي في كانون الثاني 1929 كان رئيس المخابرات العسكرية السوفياتية جان برزين والمسؤول المعين من قبل ستالين في الصين بافيل ميف مجتمعَين لمناقشة كيفية اعطاء الجيش السوفياتي «المساعدة العملية لجيش زو–ماو» الذي كانت موسكو تراقبه عن كثب. كانت المناسبة الاولى المعلنة التي رتّبت فيها موسكو لتقديم مساعدات عسكرية وبالتحديد لقوات زو–ماو المشار اليها علناً الآن على انها الاعظم بين الشيوعيين».

كانت القوات الحكومية تطاردها بسرعة وكان على جيش ماو ان يخوض معارك ضارية وفي احداها القي القبض على زوجة زو دو التي اعدمت لاحقاً والصق رأسها على احد الاعمدة في تشانغشا. وفي اسوأ المراحل من قدر زو قام ماو بانتزاع السلطة منه، اذ بعد مضي اسبوعين على مغادرة ماو ارض الاشقياء الغى منصب القائد العسكري الذي كان يشغله زو والذي منحته اياه شانغهاي وحصر كل السلطات في يده. وبينما كان القوميون يشنون هجوماً على الجيش الاحمر لم يردّ زو. لم يكن زو يساوي ماو في قدرته على استغلال الازمات.

لم يعلم ماو شانغهاي باستيلائه على السلطة وعوضاً عن ذلك وجه رسالة الى شانغهاي يعرب فيها عن سعادته بالخضوع لاوامر الحزب. وسأل الحزب كيف يتوجب على الجيش الاحمر ان يستمر في مهماته؟» «نحن نتوق خاصة الى تلقّي تعليماتكم. لو سمحتم هل يمكنكم ارسالها لتوجيهنا». «ان مقررات المؤتمر السادس هي صائبة جداً. ونحن نقبل بها بكل سرور». «ونأمل في المستقبل ان يرسل الينا المركز الرئيسي للحزب رسالة كل شهر». كان ماو يتملّق شانغهاي كسباً لرضاها آملاً ان تنظر اليه بايجابية لدى اكتشافها خبر انقلابه ضد زو دو.

لكن زو امتنع عن فضح ماو، فلم يكن لزو توق شديد الى السلطة كما لم يكن موهوباً في خداع الآخرين. وبما ان رفع التقارير الى شانغهاي كان من مهمة القائد فان قيامه بارسال الرسائل بنفسه موازٍ لاعلان الحرب على ماو.

في آذار ابتسم الحظ مجدداً لماو وهذه المرة بمشاركة القوميين. رغم مضي حوالى السنة على وجود حكومة مركزية فقد واجه تشيانغ كاي شيك اعداء اقوياء وبعضهم بدأ حرباً ضده. وسُحبت الجيوش التي كانت على وشك الاطباق على ماو كي تواجه الثوار. واعلم ماو المبتهج شانغهاي ان العدو الذي بلغ مسافة تبعد نصف كيلومتر عن مؤخرة موقعه «عاد ادراجه فجأة» وصرف النظر عن الهجوم.

في هذا الوقت كان ماو دخل مقاطعة فوجيان الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي حيث تمكن من السيطرة على تينغزو وهي مدينة كبيرة لكن الدفاع عنها كان ضعيفاً. ونظراً لوقوعها على نهر صالح للملاحة يعجّ بالزوارق المحملة بالبضائع كانت تنعم بالغنى وبعلاقات قوية مع الخارج. كانت المباني الاوروبية تقف الى جانب الاسواق الشرقية المزخرفة التي تبيع بضاعة من جميع انحاء جنوب شرق آسيا. وملأ ماو صناديقه مما سلبه من الاغنياء. قال لشنغهاي «ان التموين لا يشكل مشكلة لدينا ومعنوياتنا عالية جداً».

حصل الجيش على بذلات نظامية للمرة الاولى من مصنع تابع للقوميين. حتى ذلك الوقت كان جنود الجيش الاحمر يرتدون ثياباً من جميع الانواع والالوان، وفي بعض الاحيان كانوا يرتدون البسة نسائية والرداءات الخاصة بالكهنة الكاثوليك (اصيب احد الكهنة الايطاليين

بالقلق عندما اخذ الشيوعيون قميصه الفاشية). كانت البذلات الجديدة التي اتخذها الشيوعيون رمادية اللون مثل بذلات القوميين لكن مع نجمة حمراء على القبعة و شارة حمراء.

القي القبض على المُدافع عن المدينة العميد كو بناء على اوامر خاصة من ماو وتم اعدامه. ونُظّم حشد عُلّق فيه جسده رأساً على عقب على شجرة كستناء قرب منصة القى عليها ماو خطاباً، ثم عُرضت الجثة في الشوارع. وامر ماو ايضاً بتسوية القاعة العامة بالارض ليظهر لسكان المدينة ان النظام القديم قد استبدل.

انشأ ماو مركزاً له في قصر فخم قديم الطراز يطل على النهر. لكن ملاذه الجديد تعرّض للمضايقة في ايار عندما وصل رجل يدعى ليو ان غونغ موفداً من شانغهاي ليشغل منصب الرجل الثالث في جيش زو-ماو. كان ان غونغ آتٍ مباشرة من روسيا حيث تلقى التدريبات العسكرية. وارعبه ما قام به ماو تجاه زو دو كما ارعبته الطريقة التي كان ماو يدير بها الجيش. اتهم ماو بـ«الاستيلاء على السلطة» وبـ«الديكتاتورية» وبأنه كان «يقيم نظاماً خاصاً به ويتمرّد على القيادة».

لم يعد باستطاعة ماو اخفاء الانقلاب الذي قام به في 1 حزيران 1929 اي بعد حوالى الاربعة اشهر على اخراج زو دو من السلطة وجه رسالة الى شانغهاي يقول فيها ان «الجيش قرر مؤقتاً تعليق» منصب زو لانه «وجد نفسه في وضع خاص». وهو فعل ما في وسعه للتخفيف من تأثير ذلك عبر ادخال معلومات كالبند رقم 10 في تقريره الطويل المؤلف من 14 بنداً. وتمّت صياغة ما تبقى من التقرير بلهجة الطاعة والتملّق كما تمّت زخرفته باعلان عن توقه للحصول على تعليمات الحزب من مثل «لطفاً ... انشئوا دائرة خاصة للمعلومات» لاتاحة التعاطي مباشرة مع شانغهاي واضاف «هذا الأفيون يساوي 10000 يوان لتمويل تأسيس الدائرة». كان ماو يجرب كل شيء وحتى المال المجني من تجارة المخدرات لملاطفة شانغهاي كي توافق على استيلائه على السلطة.

عمد زو دو الى مواجهة ماو بجرأة الآن مع وجود ان غونغ الى جانب ماو فيما الجيش الاحمر لم يعد مطارداً من القوميين وحظي بتأييد معظم الجنود. لم يكن ماو شعبياً على الاطلاق كما جاء في تقرير رسمي مرفوع الى شانغهاي: «كانت الجماهير في مجموعها مستاءة من ماو». «شعر العديد من الرفاق بالمرارة من تصرفاته» و«اعتبروه ديكتاتوراً». «لديه طبع شرير ويحب ان يسيء معاملة الناس». ومن اجل خلق توازن في التقرير تعرّض زو للانتقاد ولكن بسبب اشياء تافهة مثل «التبجّح» وعدم اللياقة: «عندما يسترسل في الكلام كان يرفع سرواله حتى الفخذين فيبدو مثل قطّاع الطرق، لا يتمتّع بالوقار».

كان هناك لا يزال مقدار من الديمقراطية لدى الشيوعيين وكانوا غالباً يناقشون المسائل

ويصوتون عليها، فاجتمع ممثلو الحزب في الجيش في 22 حزيران وصوتوا على اقالة ماو من منصبه كقائد حزبي للجيش واعادوا تعيين زو في منصب القائد العسكري. لاحقاً وصف ماو نفسه بانه تعرّض للعزل الشديد وقبل التصويت اطلق التحذير التالي: «لدي زمرة وسأقاتل!» والواقع انه لم يكن باستطاعته القيام بأي شيء اذ ان اتباعه جُرِّدوا من سلاحهم قبل الاجتماع.

بعد ان خسر ماو السيطرة على قوته بدأ يناور لاستعادة السلطة. قضت خطته بالاستيلاء على المنطقة التي كان فيها وهي عبارة عن اراض محتلة حديثاً في فوجيان قرب الساحل الجنوبي الغربي ولها جيش احمر خاص بها. وكانت ايضاً المنطقة الاغنى من بين الاراضي التي سيطر الشيوعيون عليها ويناهز سكانها المليون والربع. ابلغ ماو القيادة العسكرية الجديدة انه وقد أُخرج من الجيش نتيجة لتصويت الحزب كان يودّ الذهاب و«القيام ببعض الاعمال مع السكان المدنيين في المنطقة». ولم يدرك احد ان هذا الطلب كان غطاءً يمكّن ماو من الدخول الى صفوف شيوعيي المنطقة من دون دعوة كما يمكّنه من الاجهاز على الهيكلية الحزبية.

غادر ماو المركز الرئيسي على مِحَفَّة برفقة زوجته وبضعة اتباع اوفياء ويتذكر احدهم قائلاً: «عندما غادرنا ... صادروا احصنتنا لذلك بدت حاشيتنا مخزية». واتجهت المجموعة المتسخة بالوحل الى جياويانغ حيث طلب ماو من احد الاصدقاء الحميمين ان يدعو الى انعقاد مؤتمر للحزب. كان جيش زو–ماو قد ساعد على انشاء القاعدة لذلك كان يتمتع بنفوذ لديهم مع ان شانغهاي لم تختر ماو لهذه المهمة بل كانت اختارت لجنة فوجيان. كانت خطة ماو تقوم على التلاعب بالمؤتمرين وادخال اتباعه الذين انتقلوا معه من الجيش الى المناصب العليا.

في 10 تموز تجمع حوالى الخمسين من المندوبين المحليين في جياويانغ بعد ان ابلغوا ان المؤتمر سيبدأ في اليوم التالي. عوضاً عن ذلك ارسلهم ماو للقيام «بجميع انواع التحقيقات» لمدة اسبوع كامل، كما ورد في تقرير كُتب مباشرة بعد ذلك. عندما افتتحت الخلوة اخيراً تظاهر ماو بالمرض واجّل المؤتمر، لكن في الواقع لم يكن مريضاً حسب ما افشى به امين السر لديه لاحقاً. وتضمن التقرير تذمراً من ان المؤتمر «استمر لوقت طويل جداً وسارت اعماله ببطء اذ طالت مدة انعقاده الى «عشرين يوماً» في الوقت الذي كانت تقترب القوات الحكومية. عند هذه النقطة، تابع التقرير، «وصلت الاخبار بأن جنود [القوميين] آتون ... لذلك فان لجنة الجبهة ... غيرت الخطة ... واختتم ... المؤتمر ...»

غادر المندوبون الحزبيون دون التصويت على المناصب الرئيسية وما ان اداروا ظهورهم حتى عيّن ماو اصدقاءه في هذه المناصب مدّعياً ان خطوته تمثّل قرار المؤتمر. عيّن احد رجاله في منصب القائد الفعلي للقوة الاقليمية في الجيش الاحمر. وكان اتباع ماو من هونان ولم يتكلموا اللغة المحلية.

عندما اكتشف شيوعيو المنطقة ان ماو حرمهم من السيطرة على منطقتهم تملّكهم الغضب وفي السنة التالية شنوا ثورة عليه مما جعله يطلق حملة تطهير دامية بحقهم.

بينما كان المؤتمر لا يزال منعقداً ابدى المندوبون خشيتهم من ماو وعبّروا عن كرههم له. افاد التقرير انه اثناء حضوره «كان المندوبون يتكلمون قليلاً» بينما اثناء غيابه «يبدأون المناقشات بحماس وكانت الامور تتطور بشكل هائل». لم يكن لماو سلطة على قسم المدنيين في الحزب فالسلطة كانت في يد لجنة مقاطعة فوجيان. كان المندوبون يريدون ان تتمثل هذه الهيئة في المؤتمر لحمايتهم من ماو، لكن المناقشة اللاحقة للمسألة اشارت الى انه «تمّ توقيف مندوبنا وضاع تقريرنا لذلك لم يكن هناك احد من لجنة المقاطعة من اجل ... ارشاد المؤتمرين». ولم تُفِد المناقشة اللاحقة لاعمال المؤتمر عن شك ايٍّ من المشاركين بحدوث عنف لكن كان ثمة نمط من التخاطب يُقطع فجأة عند مفاصل حساسة بالنسبة الى ماو.

ما ان وضع ماو يده على الاراضي الجديدة حتى بدأ باضعاف زو دو وكان حليفه في هذا المخطط احد رجال زو الذي يدعى لين بياو. كان هذا الاخير رجلاً منعزلاً ومستقلاً في بداية العشرينات من عمره وكان ماو يرعاه منذ ان قدم الى ارض الخارجين على القانون قبل سنة.

تمتّع لين بثلاث فضائل لفتت انتباه ماو. الاولى هي موهبة القتال. كان لين يود الالتحاق بالجيش منذ طفولته وكان يستمتع بالحياة في الاكاديمية العسكرية التي يديرها القوميون في وامبوا، وضليعاً في الاستراتيجية العسكرية واثبت ميوله هذه اثناء المعارك. اما الفضيلة الثانية لديه فهي بعده عن التقليد، فهو خلافاً للعديد من العسكريين الذين يشغلون مراتب عليا في الحزب الشيوعي الصيني لم يتلقَ تدريباً عسكرياً في الاتحاد السوفياتي كما لم يكن متشرّباً روح الانضباط الشيوعي. كان شائعاً في صفوف زو دو ان لين احتفظ لنفسه بالغنائم بما فيها الخواتم الذهبية كما التقط مرض التعقيبية. الفضيلة الثالثة والاعز على قلب ماو هي الحقد الذي يكنّه لين لرئيسه زو بسبب توبيخه له ولم يتمكّن لين من تقبّل ذلك بسبب حسّه المفرط بالكبرياء.

ما ان ظهر لين حتى سعى ماو الى التقرّب منه وجعله صديقاً له فكسب رضاه عبر دعوته اياه لتوبيخ جنوده وبذلك يكون ماو منحه شرفاً لم يمنحه لغيره. انطلاقاً من هذه النقطة بنى ماو علاقة خاصة مع لين وبعد عدة عقود عيّنه وزير دفاعه والرجل الثاني في قيادة الصين. خلال هذه الصداقة الحميمة التي دامت طويلاً اهتم ماو كثيراً بتجميل غرور لين وبالسماح له بالتحرك خلافاً لكل القوانين، وفي المقابل استطاع ماو ان يستعين بمشاركته اياه في ارتكاب الجرائم.

حصل التعاون الاول بينهما في نهاية تموز 1929 عندما شنّ القوميون هجوماً. رسم زو بصفةالقائد العسكري الاعلى خطة المعركة التي استدعيت جميع الوحدات بموجبها الى لقاء

في 2 أب، لكن مع حلول ذلك اليوم لم تظهر الوحدة التي كانت بقيادة لين. وتخلّف لين عن الحضور وكذلك فعل ماو ووحدة فوجيان التي كان ماو جمعها للتو. كان الاثنان يسيطران معاً على ما يزيد على نصف القوات الشيوعية التي تخطّى مجموعها في ذلك الوقت الستة آلاف رجل وكان على زو محاربة فقط نصف الرجال الذين كان يتوقع مواجهتهم، الاّ ان جنوده الذين لم يكونوا يتمتعون بقوة ذات شأن ابلوا بلاءً حسناً.

لكن اذا رفض نصف الجيش طاعة اوامر زو لن يتمكن هذا الاخير من قيادته بفاعلية. ومع وجود الجيش امام حائط مسدود لجأ اعضاء الحزب المحليين وكذلك جنود الجيش الاحمر الى شانغهاي لحلّ المشكلة.

في هذا الوقت كان تشو إن لاي الدعامة الاساسية للقيادة الحزبية في شانغهاي. اما المنصب الرسمي الاعلى في الحزب اي منصب الامين العام فقد شغله هسيانغ تشونغ فا البحّار وعامل الرصيف الذي كان رئيساً اسمياً وعُيّن في هذا المركز فقط بسبب انتمائه الى صفوف البروليتاريا. الا ان المقرّرين الفعليين كانوا العملاء السريّين الذين ترسلهم موسكو وكانوا في تلك الايام من غير الروس ومعظمهم من الشيوعيين الاوروبيين. كان الرئيسان المباشران الالماني غريهارت ايزلير الذي اصبح لاحقاً رئيس المخابرات السوفياتية في الولايات المتحدة، والبولوني المعروف باسم ريلسكي. كان هذان الرجلان يسيطران على ميزانية الحزب حتى اصغر التفاصيل وكذلك كانا يسيطران على الاتصالات بموسكو. لقد اتخذا كل القرارات السياسية وراقبا النتائج فيما اشرف المستشاران التابعان لموسكو على النشاطات العسكرية. اشار اليهما زملاؤهما الصينيون بالماو زي اي «الاشعران» اذ كانت اجسادهما مكسوة بالشعر اكثر مما هو الحال مع الصينيين. وبرزت في احاديث الصينيين غالباً عبارات مثل «الالماني الاشعر» و«البولندي الاشعر» و«الاميركي الاشعر» وغيرها من العبارات. وعُرف احد الاشخاص وهو على الارجح عميل محدودب بالـ «الاحدب الاشعر». اعطى هؤلاء الاوامر من خلال تشو إن لاي الذي اكتسب لاحقاً شهرة عالمية كرئيس للحكومة اثناء حكم ماو لمدة ربع قرن. لكن تشو الحقيقي لم يكن الدبلوماسي اللطيف كما بدا للاجانب، بل كان مسؤولاً لا يرحم وكان واقعاً تحت التأثير الشديد لعقيدته الشيوعية. وتميّزت حياته الحزبية غالباً بانعدام الاستقامة.

في البداية تعرّف تشو على الشيوعية في اليابان التي وصلها سنة 1917 لدى اندلاع الثورة البولشيفية حين كان تلميذاً في التاسعة عشرة من عمره. اخذ خياره بينما كان يدرس في اوروبا فانضم الى فرع الحزب الشيوعي الصيني في فرنسا سنة 1921. هناك اصبح من المؤمنين بالعقيدة الشيوعية والمتحمسين لها وانعكس تفانيه في سبيلها في زهده. كان جميلاً وجذاباً بالنسبة الى النساء لذلك كان مهتماً بالجمال. عندما وصل الى فرنسا للمرة الاولى سُمع دائماً وهو يبدي

اعجابه بنسائها. «ما اجمل هؤلاء الفتيات! ... النساء هنا [في باريس] لديهن مقدار كبير من الجاذبية» كما جاء في رسالة كتبها الى احد اصدقائه في الصين. وسرعان ما اصبح لديه صديقة جميلة ربطته بها علاقة حب كبيرة، ولكن ما ان اعتنق العقيدة الشيوعية حتى فعل ما سبقه اليه العديد من المبشّرين فاختار زوجة ليس على اساس الحب بينهما بل على اساس شراكتها في المهمة العقائدية.

بعد عدة سنوات وفي لحظة نادرة من الصدق كشف تشو الى واحدة من اولاد اشقائه كيف اختار زوجته. وذكر المرأة التي كان يحبها قائلاً: «عندما قررت ان اهب كل حياتي الى الثورة شعرت انها غير مناسبة لتكون شريكة مدى الحياة». كان بحاجة الى زوجة متفانية مثله تماماً. فقال لقريبته: «وهكذا اخترت عمّتك وبدأت اكتب اليها. بنينا علاقتنا من خلال المراسلة». عقد زواجاً دون حب مع فتاة متحمسة للشيوعية حين كان في السابعة والعشرين من عمره مع فتاة في الواحدة والعشرين وتدعى دنغ ينغ تشاو، لكن قبحها وغلاظتها كانا لافتين.

عُرف تشو بأنه عنيد لا يعرف التعب ويتمتّع بالمناعة في وجه البرد كما عُرف بانه اداري جيّد ومنظّم بارع. اختارته موسكو وكلفته بمهمة دقيقة هي انشاء الجيش الشيوعي الصيني. سنة 1924 ارسل مجدداً الى الصين حيث ما لبث ان اصبح مدير الدائرة السياسة في الاكاديمية العسكرية في وامبوا اي القاعدة التي كان يستعملها القوميون لتدريب الضباط والتي اسسها الروس. كانت مهمة تشو السريّة زرع العملاء الشيوعيين في الصفوف العليا وذلك بهدف السيطرة على جزء من الجيش القومي عندما يحين الوقت المناسب، وعمد الى تنظيم التمرّد في نانتشانغ في آب 1927 بعد ان انفصل تشيانغ عن الحزب الشيوعي الصيني. في الوقت الذي هُزم المتمردون على الساحل الجنوبي كان تشو يهذي بسبب اصابته بالملاريا وبقي يصرخ «اهجموا! اهجموا!» وحمله بعض الزملاء الى مركب صغير وهربوا به الى هونغ كونغ في بحر هائج لدرجة انهم اضطروا الى ربط انفسهم بالصاري ليحولوا دون جرفهم الى البحر.

بعد ذلك تابع طريقه الى شانغهاي حيث ادار اعمال الحزب اليومية ابتداءً من اول سنة 1928. اثبت انه نابغة في العمل السرّي، وشهد على ذلك الاشخاص الذين عملوا معه. ذهب الى روسيا في ذلك الصيف والتقى ستالين قبل انعقاد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الصيني هناك. كان الشخصية الأبرز في المؤتمر حيث سلّم ما لا يقلّ عن ثلاث تقارير وقام ايضاً بدور الأمين العام للمؤتمر. كان ميدان اهتمامه واسعاً فأنشأ وكالة الاستخبارات الصينية(*) باشراف موسكو وأدار فرقة القتل فيها، لكن تنظيم الجيش الأحمر الصيني شكّل عمله الرئيسي.

(*) غيرت الاستخبارات الصينية، مثل نظيرتها الروسية اسمها مرات عديدة، وسمي هذا الجهاز «وكالة الاستخبارات الصينية».

من بين الحسنات التي جعلت تشو مسؤولاً مثالياً انضباطه وطاعته العمياء لخط موسكو اضافة الى خنوعه. كان قادراً على استيعاب اي مقدار من ضربات العصي من رؤسائه. في السنوات اللاحقة وعندما كان رئيساً للوزراء خلال حكم ماو كان مستعداً لاذلال نفسه بصورة متكررة وذلك عبر استعمال لغة محرجة لدرجة ان مستمعيه شعروا بالاذلال والارتباك. كما سبق له وان اصدر انتقادات ذاتية مذلّة في العقود سابقة، فقال مثلاً سنة 1930: «اتمنى على الحزب باكمله مشاهدة اخطائي وادانتها» وتعهّد بانتقاد «اخطائه الجسيمة المنظّمة» التي ارتكبها في اعلام الحزب. في احد الاجتماعات التي حضرها احد مندوبي موسكو الالمان قال هذا الاخير بعد ان لاحظ اثراً للمازوشية لدى تشو: «اما بالنسبة الى الرفيق إن لاي، يجب علينا بالطبع ان نضربه على كفله، لكننا لا نريد ان نطرده من الحزب. يجب ان نصلحه ... ونرى ما اذا كان سيقوم باصلاح اخطائه». كان شو جالساً واستوعب الرسالة.

لم يبدُ ان تشو كان يطمح الى ان يشغل منصباً قيادياً في الحزب فلم يكن من واضعي البرامج ويظهر انه كان بحاجة الى اوامر من فوق. وكان ايضاً طويل النفس ويتذكر احد مرؤوسيه في العشرينات انه: «ما ان يبدأ بالكلام لم يكن يتوقف. ما كان يقوله كان واضحاً الاّ انه لم يكن مؤثراً ... كان يتكلم وكانه يعلّم تلامذة المدارس». كان قادراً على الكلام لسبع او ثماني ساعات دون توقف فيضجّر سامعيه لدرجة ان النعاس يغلبهم.

شكلّ اخلاص تشو وقدراته غير المحدودة السبب الرئيسي لاختيار موسكو له لمنصب القائد الاعلى للحزب ابتداءً من سنة 1928 لذلك وقع على عاتقه حل الخلاف في جيش زو-ماو. بناءً على تعليمات موسكو وجه رسالة الى الجيش في 21 آب 1929، اعطى فيها ماو الدعم الكامل ورفض كل الانتقادات الموجهة اليه وشدّد على ان ماو لم يكن «ابداً بطريركي النزعة». كما اعتبر ان الغاء ماو لمنصب زو دو صحيحاً، واستدعى مبعوث الحزب ان غونغ الذي انتقد ماو صراحة ما لبث ان قتل في احدى المعارك.

رغم ان ماو خالف جميع القوانين فقد حصل على دعم شانغهاي. كان ماو متمرداً لكنه كان رابحاً. اظهر طموحه شهوة السلطة المطلوبة للاستيلاء على الصين خاصة وان القوات الشيوعية بلغ عددها بضعة آلاف فقط في مقابل الملايين ناحية القوميين.

كان هناك عاملان اضافيان تركا اثراً ايجابياً على ماو في ذلك الوقت. على بعد 2000 كلم الى الشمال من موقعه كان الروس يسيطرون على خط السكك الحديدية الواقعة في الجزء الشرقي من الصين وتحديداً في منشوريا ويمرّ هذا الخط بطول 1500 كيلومتر عبر الجزء الشمالي الشرقي من الصين من سيبيريا الى فلاديفوستوك. في المقابل كانت موسكو قد ورثت من الحكم القيصري اكبر امتياز اجنبي يمتدّ على مساحة تزيد على الالف كيلومتر مربع من اراضي

الصين. في البداية تعهدت روسيا الشيوعية بالتخلي عن الامتيازات في الاراضي الاجنبية لكنها لم تفِ بتعهداتها(*) ابداً، واستولى الصينيون على خط سكك الحديد في صيف 1929.

انشأت موسكو جيشاً خاصاً للشرق الاقصى برئاسة المستشار العسكري السابق لتشيانغ كاي شيك الماريشال بليوخير المعيّن من قبلها واستعدّت لاجتياح منشوريا. وناقش ستالين ايضاً مسألة تنظيم ثورة في منشوريا لاحتلال هاربِين، المدينة الرئيسية في شمال منشوريا كما ناقش «تشكيل حكومة ثورية» فيها. اعلن ستالين عن هدفٍ واحدٍ بوحشية مميزة وبصورة عرضية تقريباً، بين هلالين وكما يلي: (اذبحوا مالكي الاراضي ...)». في تشرين الثاني اجتاحت الجيوش منشوريا وتوغّلت فيها مسافة 125 كيلومتراً.

ارادت موسكو ان يمارس الشيوعيون الصينيون ضغطاً عسكرياً ذا طابع تضليلي، واصدرت امراً الى الحزب الشيوعي الصيني «بتعبئة كل من الشعب والحزب بكل قطاعاته ليكونا جاهزين للدفاع عن الاتحاد السوفياتي بالسلاح». وفي هذا الاطار القائم على حماية مصالح الدولة الروسية اتخذ الهجوم العسكري العنيف بقيادة ماو اهمية بالغة. وامرت رسالة تشو التي اعادت ماو الى منصبه بالتالي: «ان مهمتك الاولى والرئيسية هي انشاء منطقة لحرب العصابات ... وزيادة عديد الجيش الاحمر ...» في 9 تشرين الاول سمّى المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، وبحضور ستالين، «مناطق ماو تسي تونغ» (دون الاشارة الى زو) المنطقة الاساسية حيث سيقوم الحزب بتوسيع نطاق الحرب المرتبطة بازمة السكك الحديدية في منشوريا.

كان لموسكو سبب آخر ملحّ لاختيار ماو دون سواه ويتعلّق الامر بتروتسكي الذي يعتبره ستالين بعبعاً ارسله الى المنفى للتو. كان لتروتسكي مجموعة صغيرة ولكن متفانية من الانصار فيما كان البروفسور تشن يظهر اشارات تدلّ على ميله الى التروتسكية. كان تشن الرئيس السابق للحزب الشيوعي الصيني الذي اعتبرته موسكو كبش محرقة قبل سنتين. كما عارض تشن جهاراً مساندة الحزب الشيوعي الصيني لروسيا في ازمة سكك الحديد وهو موقف «يجعل الناس يعتبرون اننا «نفعل كل ما يطلبه الروس منّا».

كان ستالين قلقاً من امكانية قيام تشن بتوظيف نفوذه الكبير في سبيل دعم التروتسكيين فيما كان عملاء موسكو في شانغهاي ايضاً قلقين من امكانية وقوف ماو الى جانب تشن الذي كان معلّمه في ما مضى.

لكل هذه الاسباب دعم الروس ماو وشجّعوه بحماسة في وسائل اعلامهم. خلال

(*) دعا زعيم الكومنتيرن بوخارين منطقة سكة الحديد «سبابتنا الثورية الموجهة نحو الصين»، وكانت تستخدم كقاعدة أساسية للتمويل الروسي والرعاية الروسية للشيوعيين الصينيين.

الاشهر الحاسمة لازمة منشوريا كان هناك ما لايقل عن اربع مواضيع عن ماو في صحيفة البرافدا الناطقة الرسمية باسم الحزب الشيوعي السوفياتي والتي ما لبثت ان وصفته بالقائد (وهي الكلمة نفسها التي استعملت لوصف ستالين). لم يلقَ اي شيوعي صيني آخر، ولا حتى رؤوساء ماو الاسميون كالامين العام للحزب، التهليل الكبير الذي لقيه ماو من قبل الروس.

عندما بلغت زو وزملاءه التعليمات الصادرة عن تشو باعادة ماو الى منصبه انحنى هؤلاء امام المرسوم الصادر عن شانغهاي وحوّلوا الرسالة الى ماو. في الوقت نفسه كان ماو مقيماً في قرية رائعة بعيدة في قصر جميل مؤلف من طبقتين وتزيّن ساحة داره شجرة نخيل. كان يعيش في جو من الراحة فيتناول الكثير من الحليب (وهو شيء نادر بالنسبة الى الصينيين) بالاضافة الى كيلو من لحم البقر المطهو في الشورباء كل يوم ومعه دجاجة كاملة. اشار ماو الى اي مدى هو بصحة جيدة فيما كان يستعمل عصاه الياردية في الوصف التالي: «استطيع ان اتناول الكثير من الطعام واتغوّط كثيراً».

خلقت الرسالة شعوراً بالابتهاج لدى ماو وعوض ان ينال تأنيباً قاسياً من الحزب بسبب مخالفته للقوانين الحزبية والحاق الاذى بزملائه لم ينَل الاّ المكافأة. وفي غمرة الشعور بالنصر لبث متريثاً في القرية لمدة شهر منتظراً ان يزداد ضغط شانغهاي على زو دو كي يضطر للخضوع له.

في ذلك الوقت كانت زوجة ماو غوي يوان تسكن معه بالاضافة الى زوجين من المساعدين. لم يكن يتكلم في السياسة مع النساء مفضلاً الاسترخاء معهن. بعد العشاء كان الازواج يسيرون الى جسر صغير للتمتع بالشفق المعكوس على جدول ينمو فيه العشب الوفير. عند حلول الظلام دأب الفلاحون على اضاءة المشاعل الصغيرة في اشجار الصنوبر على اطراف المياه. وكانت تتجمع افواج من الاسماك حول ضوء المنارات فيصطادها الفلاحون بالشبكات وحتى باليدين. اعتبر ماو رؤوس السمك اشهى الاطباق الى قلبه وقيل انها تساعد على نمو الدماغ. خلال النهار كان يجلس قرب النافذة ويقرأ الانكليزية بصوت عالٍ بلهجته الهونانية الثقيلة فيمتّع اصدقاءه بقراءاته هذه. شكّل هذا الاداء المتعثر الذي لا يتطلّب بذل جهد كبير من قبل صاحبه لتحقيق اي تقدم نوعاً من الاسترخاء لماو.

جاء في تقرير ارسله الى شانغهاي القلقة جداً كلٌّ من زو دو وزملاؤه انهم «كتبوا تكراراً لحثّ الرفيق ماو على العودة» . لكن ماو بقي حيث هو حتى أواخر تشرين الثاني حين أرسل زو جنوداً لمواكبته في عودة رسمية وفي اعلان واضح للرضوخ له.

في 28 تشرين الثاني أرسل ماو رسالة الى شانغهاي ادخلت البهجة الى قلب تشو إن لاي

المفرطة» والغى ممارسته.

كان ماو مدمناً على الرفاهية بينما كان زو يعيش كجندي عادي. ساد البغض الشديد للامتيازات في اوساط الجيش بشكل خاص اذ انه كان وراء التحاق العديدين به اغراء المساواة التي شكّلت ايضاً الجاذبية الاساسية للحزب. وفي محاولة من ماو لقمع اية احتجاجات على الامتيازات، اخترع عبارة «المساواة المطلقة» للاشارة الى اساءة ما وزاد كلمة «المطلقة» لجعل عدم الموافقة من جانب الاعداء امراً صعباً. ومنذ ذلك الوقت تمّت المصادقة الرسمية على الامتيازات كجزء لا يتجزأ من الشيوعية الصينية.

في مطلع سنة 1930، ومع بلوغ ماو السادسة والثلاثين من عمره كان بامكانه التطلع الى السنة الفائتة بمقدار كبير من الرضى. فقد سلّمه الحزب اكبر جيش احمر خارج الكتلة السوفياتية بعد ان خالف جميع القوانين. وكانت كل من موسكو وشانغهاي تقدّمان الرشاوى اليه ويعكس ذلك حاجتهما الماسة اليه. لكنه الآن بات قادراً على ممارسة المزيد من الاستغلال للنفوذ الذي اعطاه اياه هذا الامر.

طرح ماو السؤال التالي: «الى اين انا ذاهبٌ الآن؟» اثناء انطلاقه على ظهر حصانه وفيما هو يدندن قصيدة على طول طريق مكسوة بالطحالب وتمرّ في احدى الغابات. كان ماو يعلم الى اين هو ذاهب بالتحديد: للقيام بعمليات للمزيد من الاستيلاء على السلطة.

7- استيلاء ماو على السلطة وخسارة زوجته الثانية (1927-1930 العمر: 33-36 سنة)

بعد ان شكّل تشيانغ كاي شيك حكومة قومية مركزها نانجينغ سنة 1928 وتتمتّع بسلطة اسمية على كل انحاء الصين، شنّ هجوماً عسكرياً عنيفاً لتوحيد الجيوش المختلفة العاملة تحت قيادة حكام المقاطعات في جيش وطني موحّد يكون تحت امرته. لكن واجهته مقاومة عنيفة على يد اتحاد امراء الحرب وفي بداية 1930 كان كل طرف قد نشر مئات الالوف من الجنود ووضع القتال الضاري الناجم عن ذلك الصراع الحزب الشيوعي الصيني امام فرصة لزيادة عديد جيشه وقواعده.

بدأت موسكو تدرس مسألة اقامة دولة شيوعية في الصين. وذهب تشو إن لاي الى الاتحاد السوفياتي في آذار 1930 مصطحباً معه تقريراً مفصّلاً عن الجيش الاحمر الصيني يفيد بان هذا الجيش مؤلف من 627000 رجلاً يشكّلون 13 مجموعة مسلحة تسمى جيوشاً وتنتشر في ثماني مقاطعات. كان جيش زو-ماو الاشهر من بينها وكان يشكل حوالى ربع المجموع بعد ان ازداد عدده الى حوالى 15000 رجلاً نتيجة لسيطرته على قاعدة واسعة. كانت القواعد العامل الاهم في زيادة عديد الجيش اذ ان امتلاك قاعدة مكّن الشيوعيين من الحصول على مجنّدين الزاميين.

اثناء غياب تشو إن لاي شغل سدّة المسؤولية في شانغهاي لي لي سان الهوناني واحد مرؤوسي ماو السابقين. كان لي سان المعروف بمنظّم الاتحادات العمالية ناشطاً مندفعاً ومؤيداً لزيادة عديد الجيش بحماسة. اثناء توليه السلطة رُسمت خطة ضخمة للاستيلاء على جزء كبير من الداخل بما فيه مدن كبرى مثل نانتشانغ وتشانغشا ولتشكيل حكومة شيوعية في قلب الصين، تحديداً في وهان على نهر يانغتزي. وأسندت الى ماو مهمة احتلال نانتشانغ عاصمة جيانغتزي.

تميّز ماو بالواقعية فهو يعلم انه رغم القتال الجاري بين القوميين انفسهم لم يكن للجيش الاحمر من امل بالاستيلاء على مدن رئيسية والاحتفاظ بها. في البداية عبّر عن معارضة لتنفيذ الخطة لكن بعد ايام على التعبير عن الشكوك تملّكه الحماس الشديد. كان ماو غير مؤمن بالمشروع لكنه ادرك انه يستطيع استغلال نزوة شانغهاي لخدمة اغراضه التي تتمثّل بوضع اليد على ثاني اكبر قسم من الجيش الاحمر بقيادة بينغ دي هواي.

ولد بينغ الذي يصغر ماو بخمس سنوات في قرية تقع في هونان، المقاطعة التي ينتمي اليها ماو. اصبح بينغ اول وزير دفاع في الصين الشيوعية كما اصبح المنتقد الاقوى لماو والاكثر شجاعة من داخل النظام وقد دفع ثمناً لذلك تمثّل باحتضاره الطويل قبل موته.

بدا على فم بينغ وعينيه تعبير قوي عن الحزن الدائم وكان يهتم بالفقراء والمضطهدين. خلافاً لمعظم القادة الشيوعيين عاش طفولة بائسة مما ترك جرحاً عميقاً في نفسه. عندما توفيت والدته عانى شقيقه الاصغر الذي كان له من العمر ستة اشهر من الجوع مما اودى بحياته. بعد مضي بضعة عقود كتب بينغ عن طفولته:

«في الشتاء القارس عندما كان سائر الناس يرتدون الملابس المبطنة والاحذية كنت انا واشقائي نرتدي صنادل القش في ارجلٍ عارية الى جانب ملابس مصنوعة من اوراق شجر النخيل، كالبشر البدائيين ... عندما كنت في العاشرة لم يكن هناك اي طعام لنتناوله. في يوم رأس السنة عندما كان الاغنياء يطلقون المفرقعات النارية لم يكن لدى عائلتي حبة ارز. لذلك اخذت اخي الثاني وذهبنا للتسوّل للمرة الاولى».

وصف بينغ كيف انه فقد الوعي نتيجة للجوع بعد ان عادا الى المنزل. ورفض الذهاب للتسوّل في اليوم التالي بسبب كبريائه فذهبت جدته التي يزيد عمرها على السبعين سنة وهي تعرج برجلين مقيّدتين واخذت معها اخوته الصغار وكان احدهم في الثالثة من العمر فقط. وفيما كان بينغ يشاهدهم يتوارون عن الانظار في الثلج قال لاحقاً انه شعر بان سكاكين حادة كانت تتقطّع في قلبه، فذهب الى الجبال وقطع بعض الحطب وباعه مقابل حصوله على رزمة من الملح. ذلك المساء لم يأكل من الارز الذي جلبته جدته الى المنزل من التسوّل وبكت كل العائلة.

عندما كان بينغ في الخامسة عشرة ضرب الجفاف قريته فاصابت المجاعة العديد من السكان، فشارك في محاولة لاجبار مالكي الاراضي الاغنياء لتوزيع بعض الارز، وذلك من خلال الصعود على اسطح مخازن القمح التي يملكها هؤلاء وازالة البلاط لاظهار الحبوب التي انكروا تخزينها. ووضع بينغ على لائحة المطلوبين فكان عليه الهرب. سنة 1916 التحق بجيش هونان واصبح ضابطاً. كان وجهاء المنطقة يدعونه في بعض الاحيان الى مآدب حيث تتوفّر فيها فتيات هنّ بالكاد في عمر المراهقة لاشباع ملذّات الرجال الحاضرين. واخبرت فتاة في الثالثة عشرة بينغ انها تعرّضت للضرب الشديد على يد سمسار الفاحشة لانها رفضت مضاجعة الضباط فمنحها بينغ الحرية وبعد ذلك رفض كل الدعوات التي وُجّهت اليه لحضور المآدب. نتيجة لذلك اصبح بينغ مفتوناً بالشيوعية «من اجل ايجاد حل لمشاكل الفقراء» كما قال.

التحق بينغ سرّاً بالحزب الشيوعي الصيني مباشرة بعد رأس سنة 1928. في تموز من تلك

السنة تمرّد على القوميين واخذ معه 800 رجل. طلب منه الحزب اجراء اتصال بماو الذي كان في ارض الخارجين على القانون المجاورة. وصل بينغ في كانون الاول في الوقت الذي كان ماو يستعد لمغادرة القاعدة. كان ماو بحاجة الى احد ليبقى مكانه ليحافظ على القلعة اذ ان سيطرته على احدى القواعد شكّلت المصدر الاساسي لقوته.

لذلك امسك ماو ببينغ وطلب منه البقاء للدفاع عن الارض في مهمة مقررة سلفاً. بعد رحيل ماو قدم الجنود الحكوميون الى المنطقة باعداد كبيرة فهرب رجال بينغ في الثلج المتكدّس وتسلّقوا الجُرُف وساروا ببطء على طول ممرات ضيقة يقتصر استعمالها على الحيوانات البرية عادة.

ومنذ ذلك الوقت استمر ماو بمعاملة بينغ كمرؤوس يخضع له ولم يعترض هذا الاخير على تلك المعاملة. الاّ ان شانغهاي لم توافق رسمياً على هذا الترتيب ولم تمتد سلطة ماو رسمياً خارج نطاق جيش زو-ماو. في بداية 1930 قامت موسكو وشانغهاي باعادة تنظيم قوات الجيش الاحمر في جميع انحاء البلاد تحضيراً لانشاء الدولة الشيوعية. وأُخذ قرار بجعل جيش بينغ مستقلاً بعد ان ازداد عديده بنسبة كبيرة ليبلغ 15000 اي مماثلاً لجيش ماو نفسه. كان رجال بينغ جنوداً ممتازين وتجمعهم روح تضامنية قوية. وابلغ مفتش حزبيّ شانغهاي ان جيش بينغ «يملك معنويات مرتفعة. الجنود يطيعون الاوامر وهم منضبطون جداً وتسود بينهم روح الصداقة الحميمة وهم جنود شجعان ... انهم مخلصون لبينغ دو هيواي شخصياً. كان المصابون في المستشفيات الخلفية يصرّون حال شفائهم على العودة الى الجيش ... كان لهذا الجيش عدد ضئيل جداً من المنشقين».

كان ماو مصمماً على السيطرة على بينغ وجيشه المتفوّق وكان هذا السبب وراء اعلانه المفاجىء عن حماسه للهجوم على نانتشانغ. اذا تواجد ماو هناك بدل ان يكون في الجنوب على الحدود بين جيانغتزي وفوجيان، فان ذلك سيقّرب المسافة التي تفصله عن بينغ الموجود على مقربة منه مئات من الكيلومترات. كانت خطة ماو السرية تقضي بالذهاب الى بينغ وتوحيد الجيشين اذ انها الطريقة الوحيدة التي تمكنه من وضع يده على بينغ وجيشه.

انطلق ماو نحو الشمال قائلاً انه ذاهب الى نانتشانغ وفقاً لاوامر الحزب، لكنه عندما بلغ مشارف نانتشانغ في نهاية تموز اطلق فقط بعض الطلقات ومن ثم نقل جيشه الى تشانغشا التي كان بينغ استولى عليها للتو في 25 تموز.

كانت تشانغشا العاصمة المحلية الوحيدة التي وضع الشيوعيون يدهم عليها واحتفظ بها بينغ لاحد عشر يوماً معلناً قيام حكومة شيوعية وكان مركزه الرئيسي المؤسسة الانجيلية الاميركية. اثار نجاحه القلق في العواصم الغربية وخاصة واشنطن التي اعتبرت الشيوعيين

الصينيين وللمرة الاولى قوة لا يستهان بها. ومن بين الاسباب التي دفعت الاميركيين الى اتخاذ هذا الموقف مقتل الجندي البحري المصنّف درجة اولى صاموئيل الكين في المعركة، وهو اول جندي يموت اثناء القتال مع الشيوعيين الصينيين وقد لقي حتفه على متن اليو إس إس غام USS Guam في نهر كزيانغ نتيجة لقصف تعرضت له من قوات بينغ الذاهبة الى تشانغشا في الرابع من تموز. ولعبت السفن المدفعية التابعة لاربعة قوى اجنبية لا سيما اليو إس إس بالوس USS Palos دوراً حاسماً في اخراج بينغ من المدينة في 6 آب.

في منتصف آب تلقى بينغ رسالة مفاجئة تقول بان ماو آتٍ لمساعدته. وارسل ماو رسالة الى شانغهاي في الوقت نفسه اي في 19 آب تفيد بانه تخلّى عن مهمة الهجوم على نانتشانغ من اجل الذهاب لنجدة بينغ مدعياً بان بينغ في ورطة كبيرة اذ «يعاني من ضخامة الخسائر البشرية والمادية». وابلغ بينغ ماو بصراحة انه لم يكن يعاني المشاكل ولم يكن بحاجة الى المساعدة لكن ذلك لم يكن كافياً للتهرب من ماو الذي ردّ بمكر معترضاً وداعياً بينغ كي يأتي لمساعدته اذ كان على وشك مهاجمة بلدة تدعى يونغي تقع بين موقعيهما وعلى بعد حوالى المئة كيلومتر الى الشرق من تشانغشا.

عندما انضم اليه بينغ في 23 آب اعلن ماو ان فيلق بينغ اندمج مع فيلقه الآن ليصبح الفيلقان بقيادته هو ويُترك بينغ مجرد نائب للقائد العسكري تحت سلطة زو. حاول ماو تضليل شانغهاي وموسكو عبر الادعاء بان الهدف من اندماج الجيشين شنّ هجوم على تشانغشا مرة ثانية. لقي هذا التحرك معارضة كل من بينغ وزو دو اللذين اعتبرا ان لا امل بنجاحه اذ ان عامل المفاجأة الضروري لاستيلاء بينغ على المدينة لم يعد موجوداً.

الاّ ان ماو اصرّ وطمأن شانغهاي ان الفيلقين قادران على «احتلال تشانغشا [بسهولة] ... ومن ثم شنّ هجوم على وهان ... وذلك من اجل احداث ثورة عامة في كل ارجاء الصين». واذكى ماو النار في تضليل شانغهاي من خلال الايحاء بأن احتلال وهان كان وشيكاً وسيجري معه تشكيل حكومة شيوعية. خاطب شانغهاي بأسلوبه المداهن قائلاً: «لو سمحتم هل يستطيع المركز اصدار التعليمات باحتلال وهان» ... «والبدء بالتحضيرات لتنظيم حكومة..». في الواقع لم يكن لدى ماو اية نية بالذهاب الى اي مكان قريب من وهان.

كذلك لم يفكر فعلياً بوضع اليد على تشانغشا. ولكن لتعزيز سيطرته على بينغ فقد أمر بالهجوم على تشانغشا. الاّ ان النتيجة جاءت «خسائر بشرية ضخمة» كما علمت موسكو. واعتبرت هذه الخسائر اكثر جسامة في وحدات بينغ مما كانت عليه بالنسبة الى وحدات ماو اذ تجنّب ماو ضربة حقيقية في تشانغشا بينما راح بينغ ينفّذ اوامره بأمانة فشنّ هجوماً مباشراً على المدينة. واعلم رئيس المخابرات العسكرية السوفياتية غيليس موسكو بان «ماو اكتفى بالتفرّج».

في نهاية الاسبوع الثالث فكّ ماو الحصار مصرّاً على وجوب انتقال جيش بينغ معه الاّ انه لقي مقاومة من ضباط بينغ الذين حاول بعضهم الفرار. لم يكن الجيش الاحمر الصيني، كما هو الحال مع القوات الصينية عامة، جيشاً متطوراً بحيث تُطاع الاوامر من دون شروط ولا مناقشة. وما لبث ماو ان اطلق حملة تطهير دامية ضدهم.

استعمل ماو حصار تشانغشا ايضاً الذي احتلّ عناوين الصحف وسيلة ليحصل على ترقية الى منصب عالٍ وليحسّن صورته. عندما بدأ الحصار في 23 آب اعلن تشكيل لجنة ثورية تشمل الصين كلها وجعلها في موقع القيادة التي تسيطر على كل الجيوش الحمراء والحكومات والفروع الحزبية واعتبر نفسه رئيساً لها وارسل اعلاناً الى الصحافة بهذا الخصوص.

قبل شهرين وتحديداً في 25 حزيران كان ماو اصدر بيانين صحفيين يعطي لنفسه فيهما هذا اللقب. ورغم ان اية صحيفة لم تنشرهما فإن ماو الصقهما كبلاغين رسميين. وجاءت ردة فعل شانغهاي في اعلانها في 1 آب ان منصب الرئيس يعود الى الامين العام الصوري للحزب هسيانغ تشونغ فا. وبعمله هذا كان ماو يؤكد على تعيين نفسه في موقع اعلى من موقع هسيانغ، وذلك تحدّياً لشانغهاي.

الاّ ان ماو لم يلقَ اي عقاب. كانت الدولة الشيوعية الجديدة التي قررت موسكو اقامتها في الصين بحاجة الى قادة متعطّشين للسلطة وكان ماو اشدهم عطشاً. في 20 ايلول اعيد احياء عضويته التي هي من الدرجة الثانية، في المكتب السياسي للحزب مما مهّد الطريق له لشغل المناصب العليا في الدولة الشيوعية المقبلة. ورفضت موسكو اقامة مركز للدولة في وهان وامرت بانشائها في جيانغتزي الشيوعية التي هي «المنطقة الاكثر امناً الواقعة تحت سلطة الجيش الاحمر جيانغتزي الحمراء»(*).

والقي اللوم على لي لي سان المتهور بالنسبة الى الهزيمة والاصابات الكثيرة التي تسبب بها حصار ماو لتشانغشا. وابلغ لي سان الروس بان «واجبهم نحو اصدقائهم في الشيوعية العالمية» يقضي بارسال جنود لمساعدة الشيوعيين الصينيين في قتالهم. اثناء الاجتياح الروسي لمنشوريا في السنة السابقة كان دعا الشيوعيين الصينيين الى «الدفاع عن الاتحاد السوفياتي بواسطة السلاح». واقترح الآن ان تبادلهم موسكو بالمعاملة نفسها مما اغضب ستالين الذي شكّ في ان يكون لي سان يحاول جرّه الى حرب مع اليابان. واثار لي سان ايضاً غضب ستالين عليه من خلال قوله ان منغوليا التي كان الاتحاد السوفياتي اقتطعها من الصين وضمّها اليه يجب ان تبقى جزءاً من الصين الشيوعية. وادان الكومنتيرن لي سان في 25 آب لكونه «معادياً

(*) إن ما نسميه جيانغتزي الحمراء لا يشمل القاعدة في شمالي شرقي جيانغتزي الخاضعة لسيطرة فانغ زي مين.

للبولشيفية ومعادياً للكومنتيرن» وفي تشرين الاول وصلت رسالة تستدعيه الى موسكو. هناك استعمله ستالين ككبش محرقة لاغراض متعددة وطُلب منه الوقوف وادانة نفسه(*) تكراراً. دخل لي سان كتب التاريخ بصفته الرجل المسؤول عن كل الخسارة التي مُني بها الشيوعيون في بداية الثلاثينيات، وفي اعلى لائحة الخسارة المعاناة التي تعرّض لها الشيوعيون اثناء حصار تشانغشا، لكن في الحقيقة تقع المسؤولية فيها كلّها على ماو الساعي دوماً الى تعزيز سلطته الشخصية.

ان سعي ماو الى السلطة جلب المأساة ايضاً لعائلته. سنة 1930 كان كل من زوجته السابقة كاي هواي وابناؤهما الثلاثة الصغار بمن فيهم اصغرهم البالغ الثالثة من العمر، ما زالوا يعيشون في منزل ذويها على اطراف تشانغشا عندما فرض ماو حصاره على المدينة.

كان ماو قد غادرهم قبل ثلاث سنوات بالتحديد عندما انطلق ظاهرياً للمشاركة في «ثورة حصاد الخريف» لكنه فعلياً ذهب ليستولي خلسة على اول قوة مسلحة. ولم تمضِ اربعة اشهر على مغادرته حتى تزوّج امرأة اخرى.

رغم ان حاكم تشانغشا الجنرال هو تشن كان معادياً للشيوعية بشدة فقد تُركت كاي هواي وشأنها اذ انها لم تكن مشاركة في نشاطات شيوعية. حتى بعد ان سيطر بينغ دو هيواي على تشانغشا وكاد يقتله لم ينتقم منها هو تشن. لكن بعد ان ظهر ماو وعرّض المدينة لهجوم ثانٍ مطوّل قرّر الجنرال القومي الانتقام. القي القبض على كاي هواي وعلى ابنها البكر ان ينغ يوم عيد ميلاده الثامن في 24 تشرين الاول وعُرضت عليها صفقة تقضي بمنحها حريتها اذا اعلنت على الملأ طلاقها من ماو وادانتها له، لكنها رفضت وتمّ عدامها في صباح يوم غائم هو 14 تشرين الثاني 1930. في اليوم التالي اعلنت صحيفة الريبوبليكان دايلي Republican Daily الصادرة في هونان عن وفاتها تحت عنوان «اعدام زوجة ماو تسي تونغ الامس- الجميع يصفّق ويصرخ ابتهاجاً». من دون شك عكس هذا الكلام الكره الذي يكنّه البعض لماو وليس لها.

عندما احضرت كاي هواي الى المحكمة في المركز الرئيسي للحزب وهي ترتدي ثوباً طويلاً باللون الازرق الداكن لم تظهر عليها اية اشارة للخوف. ووضع هناك على احد المكاتب فرشاة وبعض الحبر الاحمر وملصق عليه اسمها. بعد ان سأل القاضي بضعة اسئلة وسم الملصق بواسطة الفرشاة المغمّسة بالحبر الاحمر ورماه على الارض ووفقاً للتقاليد كان ذلك مرادفاً للتوقيع على مذكرة الاعدام. عندها قام اثنان من الجلادين بسلخ ثوبها عنها واخذه كغنيمة ووجد آخر مكافأة هي عبارة عن 2.5 يوان ملفوفة بمحرمة في احد الجيوب.

(*) في أحد الأيام، حضر صيني حديثاً في موسكو لرجل أدان لي لي-سان بشدة. بعدذلك سأل المتحدث من يكون، ودهش عند سماعه الجواب «أنا لي لي-سان». في شباط 1938 اعتقل في اي-سان وأمضى حوالى سنتين في السجن.

وهكذا مضت الى الموت في يوم من ايام الشتاء مرتدية قميصاً رقيقاً وهي في التاسعة والعشرين من عمرها. وبينما كان الجنود يجولون بها في الشوارع وهي موثوقة بالحبال حسب المعاملة المألوفة للشخص المقبل على الاعدام، نادى احد الضباط عربة الجِنركشة (عربة صغيرة يجرها رجل واحد) لتصعدها بينما كان الجنود يركضون الى جانبي العربَة. وكانت الارض المخصصة للاعدام تقع مباشرة وراء احدى بوابات المدينة بين قبور التي دُفن فيها المعدومون الذين لم تؤخذ جثثهم الى منازلهم. بعد ان اطلقوا النار عليها خلع بعض اعضاء الفرقة حذاءها ورموه الى ابعد ما يكون اذ انه حسب الاسطورة سيلاحقهم شبح الميت الى المنزل ويكثر التردد اليه.

وبينما كان الجلادون يتناولون طعام الغذاء بعد ذلك في ثكنتهم أُبلغوا ان كاي هواي لم تمت بعد لذلك عاد سبعة منهم واجهزوا عليها. اثناء نزاعها كانت اصابعها مغروزة عميقاً في الارض.

اخذت جثتها الى قريتها من قبل بعض الاقارب ودُفنت في الارض التابعة لمنزل عائلتها. كما أُفرج عن ابنها وفي بداية 1931 قام تسي مين شقيق ماو بتدبير سفر الابناء الثلاثة الى شانغهاي حيث دخلوا الى روضة اطفال سرّية تابعة للحزب الشيوعي الصيني.

عندما علم ماو بوفاة كاي هواي كتب كلاماً عبّر على ما يبدو عن حزن حقيقي: «ان وفاة كاي هواي لا يمكن ان يُعوّض بمئات الوفيات التي اتسبب بها!» وتكلم عنها غالباً وخاصة في كهولته على انها تمثّل الحب الوحيد في حياته. وما لم يعلمه ابداً ان كاي هواي بالرغم من حبّها له فهي ايضاً رفضت ايديولوجيته واعمال القتل التي قام بها.

في السنوات التي فصلت بين هجر ماو لها ووفاتها دوّنت كاي هواي افكاراً عن الشيوعية وعن حبّها لماو في ثماني قطع ادبية عاطفية تتّسم بالغفران والتأنيب من وقت لآخر وخبّأتها في منزلها. اكتّشفت سبعة منها سنة 1982 في شقوق داخل الحيطان اثناء اعمال لتجديد المنزل. وظهرت الثامنة سنة 1990عندما سطع عليها شعاع تماماً خارج غرفة نومها اثناء اعمال التصليح وكانت لفّتها في ورق الشمع لحمايتها من الرطوبة. لم يرَ ماو هذه القطع ابداً ومعظمها ما زال محفوظاً سرّاً حتى ان الباقين على قيد الحياة من عائلة ماو مُنعوا من رؤية المقاطع الاشد وقعاً.

تبيّن هذه الكتابات الالم الذي عانت منه كاي جرّاء هجر ماو وخيبة املها ومرارتها بالمقارنة مع قساوة قلبه تجاهها وتجاه ابنائهما وربما الامر الاكثر ادانة له فقدانها الايمان بالشيوعية.

ان باكورة القطع الادبية هي قصيدة بعنوان «افكار» تعود الى تشرين الاول 1928. كان مضى عام على ذهاب ماو عندما ارسل اليها رسالة واحدة فقط وذكر فيها انه يعاني من مشكلة

في قدميه. في حزيران عندما رحل احد مفتشي الحزب الشيوعي الصيني الذي اشارت اليه بابن العمّ الى منطقة ماو اعطته ابريقاً من الفلفل مع الفاصوليا المخمّرة ليأخذه الى زوجها الذي يعتبره طبقه المفضل، لكن لم يصلها اي جواب منه على مبادرتها تجاهه. في احد الايام الباردة افتقدت كاي هواي ماو فكتبت:

« في نهار مكتئب تهبّ ريح شمالية
البرد القارس يتسرّب الى اللحم والعظام
افكر بهذا الرجل البعيد
فجأة تتحرّك امواجٍ مهتاجة في الهدوء
هل القدم العليلة شُفيت؟
هل ثياب الشتاء حاضرة؟
من يهتم بك وانت نائم لوحدك؟
هل تشعر بالوحدة والحزن مثلي؟
لا كلمات تصلني
اني اسأل ولا اجوبة
كم اتمنى لو لدي اجنحة
لأطير وارى هذا الرجل
وإذ انا لا اقدر ان اراه
فلا نهاية لحزني ...

وتتحدّث القطعة التالية التي كُتبت الى ابن العم في آذار 1929 ودُوّنت عليها عبارة «غير مرسلة» عن وحدتها وحنينها الى من يشجّعها:

«اجثم مرتعدة في احدى زوايا هذا العالم. مرتعبة ووحيدة. في هذه الحال افتش عن شيء اتكىء عليه كل دقيقة. انت تشغل مكاناً في قلبي وكذلك يفعل رين غزيو الباقي هنا. انتما موجودان جنباً الى جنب في قلبي! اصلّي غالباً: «لطفاً لا تجعل هؤلاء الاشخاص القلائل يتفرّقون!» وكأني رأيت اله الموت. يا له من وجه متوحشٍ وقاسٍ! بالنسبة الى الموت، في الحقيقة لا اخشاه واستطيع القول اني ارحب به. لكن هناك والدتي واولادي! اني اشفق عليهم! يلازمني هذا الشعور بشكل مزعج لدرجة انه يمنعني من الاستغراق في النوم العميق طوال الليل منذ يومين».

وفيما كاي هواي قلقة على اولادها وهي تدرك بوضوح انها لا تستطيع الاتكال على ماو، كتبت لابن عمها ما يلي:

«قررت ان اعهد اليك بهم، اي اولادي. من الناحية المادية طالما عمّهم [على الارجح تسي من شقيق ماو] على قيد الحياة فهو لن يتخلّى عنهم، وعمّهم في الواقع يحبّهم بقوة. لكن اذا خسروا والدتهم ووالدهم عندها لا يعود حبّ العم وحده كافياً لهم. هم بحاجة اليك والى حب الكثيرين لهم لينموا بصورة طبيعية كما لو كانوا في ربيع دافىء، فلا تدمّرهم العواصف القوية. هذه الرسالة هي كالوصية الآن ومن المؤكد انك تعتقد اني مجنونة. لكني لا اعلم لماذا لا استطيع التهرّب من الشعور بوجود حبلٍ حول عنقي كالافعى السامة والذي على ما يبدو ينبع من الموت وهو يقيّدني باحكام. لذلك لا مفرّ من ان اتحضّر لذلك! ..».

كان لكاي هواي هذا الحس الداخلي لانه في السابع من ذلك الشهر ذكرت صحيفة الريبوبليكان دايلي *Republican Daily* الصادرة في هونان ان زوجة زو دو قتلت وعُرض رأسها في احد شوارع تشانغشا وتضمنت الصحيفة مقالين اعرب فيهما الكاتبان عن مدى تمتّعهما برؤية رأسها المقطوع. في نيسان دوّنت كاي هواي بعض الافكار التي ارادت ان ترسلها الى احدى الصحف ولكنها لم تفعل وهي بعنوان: «شعور بالحزن لدى القراءة عن التمتّع برؤية رأس بشري»:

«اعتقد ان زوجة زو دو هي شيوعية على الارجح او انها حتى شخصية هامة، واذا صح ذلك ربما يجب عدم انتقاد اعدامها. لكن قتلها لا يعود لجريمة ارتكبتها. ان الذين تمتّعوا برؤية رأسها واعتقدوا انه منظر سارّ هم ايضاً لم يكونوا فرحين بسبب ارتكابها جريمة. لذلك اتذكر قصصاً قُتل فيها اقارب ينتمون الى العشيرة التاسعة بسبب جريمة ارتكبها رجل في بداية حكم سلالة المانشو. ان فكرتي القائلة بان القاتلين هم مجبرون على القتل تثبت في النهاية عدم صوابيتها هنا. هناك العديد من الناس الذين يتمتّعون بها وهم يتهللون لدرجة اننا نستطيع رؤية مقالات فرحة تمثّلهم في الصحف والمجلات. لذلك فان اعتقادي بان هناك فقط عدد صغير من الاشخاص المتوحشين يقدمون على القتل يبدو غير صحيح في هذا المجال. نتيجة لذلك اكتشفت المناخ السائد في ايامنا ...

الاّ انني ضعيفة وخائفة من ان اتعرّض للقتل، وخائفة جداً من القتل. لست على تناغم مع الاحوال السائدة في الوقت الحاضر. لا استطيع النظر الى ذلك الرأس وصدري مليء بالبؤس ... كنت اعتقد ان البشر في يومنا هذا وجزء منهم اي الصينيون هم متحضّرون بما فيه الكفاية ليلغوا عقوبة الاعدام! لم اتوقّع ان ارى بعينيّ قتل اقارب لي من العشيرة التاسعة بسبب جريمة ارتكبها رجل ... (ان قتل زوجة زو دو رغم انه ليس كما جرى تماماً في العشيرة التاسعة فهو في الاساس مساوٍ لذلك) ... واصبح الرأس البشري عملاً

فنياً يحتاج اليه الكثيرون!»

كان الغاء عقوبة الاعدام والتعذيب مطلباً شعبياً جداً في العقود الاولى للقرن العشرين وجعله دستور الحزب الشيوعي الصيني لعام 1923 من بين اهدافه.

بالطبع كانت كاي هواي تقرأ الانباء الواردة في الصحف عن اعمال القتل التي يقوم بها ماو. كانت دائماً تطلق عليه هو وجنوده تسمية «اللصوص» الذين «يحرقون ويقتلون ويخطفون(*) وينهبون». وروت الصحف ايضاً ان ماو طُرد من ارض الخارجين على القانون وتمّ «تطويقه من ثلاث جهات، وان جيش زو-ماو لن يكون له اي امل بالاستمرار على قيد الحياة».

كانت كاي هواي لا تزال تحب ماو وفوق كل شيء كانت تريده ان يتخلّى عمّا كان يفعله ويعود اليها. في 16 ايار 1929 كتبت ثمانية سطور تعكس عذابها وتناشد ماو العودة وجاء في قصيدة بعنوان «الى ابن عمي- غير مرسلة»:

انت حبيب القلب الآن
ارجوك ان تقول له: عد، عد
اني ارى قلب العجوز [على الارجح كانت تشير الى والدتها] يحترق
ارجوك عد! عد!
يتبلور الفراق الصعب فيما يلوح في الافق البؤس البارد والوحدة
كم اتمنى لو ترسل بعض الاخبار الى المنزل
كيف يمكن مقارنة هذا القلب مع النار المستعرة؟
ارجوك عُد! عُد!

وبعد ذلك بوقت قريب وصلت رسالة من ابن عمها تفيد بأن ماو ذاهب الى شانغهاي (كان الحزب امره بذلك في 7 شباط 1929)، مما يعني انها قد تتمكن من رؤيته فاصيبت كاي هواي بنوع من النشوة. وافتتحت رسالتها التالية الموجهة «الى ابن عمي» بـ«تسلّمت رسالتك. كم انا سعيدة ومرتاحة!» وحلمت بالتالي:

«اذا سمحت الحالة المادية يجب ان ارحل من هنا كي ادرس لبضع سنوات ... اريد ان اذهب من هنا واجد عملاً ... اني مستعجلة جداً لادرس ... وإن لم افعل فسوف أشعر فقط بالالم الذي يتسبب به الفراغ واشعر ايضاً بان لا شيء اتكيء عليه.

لم ارسل تلك الرسالة التي هي بمثابة وصية. اذا تمكنت من المجيء الى المنزل لمرة واحدة سيكون ذلك كل ما اتجرأ على التأمل به».

(*) من بين مخطوفي جماعة ماو، كاهن كاثوليكي أميركي الأب ادوارد يونغ الذي حاول الجيش الأحمر فديته بـ20 ألف دولار. فرّ يونغ وقتل مرافقوه الرهائن والسجناء الصينيون.

عندها تحوّلت افكارها الى ماو واحتمال عدم ذهابه الى شانغهاي وفكّرت ايضاً بسلامته في حال ذهب اليها:

«على الارجح لن يتمكن من الذهاب الى شانغهاي؟ اني افضل الاّ يذهب. اني قلقة عليه الآن. يا الهي! ساتوقف هنا ... »

بدأت بالكتابة لماو لكنها بدّلت رأيها. كان هناك عنوان لرسالة تبدأ بالعبارة التالية «الى حبيبي– غير مرسل» فيما جرى تمزيق الباقي. عوضاً عن ذلك دونّت قصة حياتها التي انهتها في 20 حزيران 1929. من الواضح انه كانت هذه طريقتها في اخبار ماو عن نفسها وافكارها ومشاعرها. ودلّت المذكرات على امرين: مدى حبها العميق له وكم كانت غير قادرة ابداً على تقبّل العنف والوحشية. ويبدو ان الموضوع الاخير شغل حيزاً كبيراً في عقلها اذ انها بدأت قصتها وانهتها به.

وهي تتذكر انها عندما كانت في السادسة من عمرها بدأت ترى العالم كمكان حزين:

«ولدت ضعيفة جداً وكنت افقد الوعي عندما ابدأ بالبكاء ... في ذلك الوقت كنت اتعاطف مع الحيوانات ... كل ليلة وانا ذاهبة الى الفراش كانت تتحرك في رأسي ظلال مخيفة مثل قتل الفراخ والخنازير والاشخاص المشرفين على الموت. كان ذلك مؤلماً جداً! ما زلت اذكر ذلك الطعم بقوة. شقيقي، ليس فقط شقيقي بل العديد من الاولاد الآخرين، لم اكن قادرة على فهمهم ابداً. كيف كانوا يجبرون انفسهم على التقاط الفئران الصغيرة او حشرات اليعسوب وعلى اللعب معها فيعاملونها تماماً كمخلوقات غريبة عن الالم؟

ولولم يكن الامر يتعلّق بتجنيب والدتي الالم الذي تعانيه لدى رؤيتي وانا اموت، ولو لم يكن يتعلّق كذلك بهذا الدعم القوي الذي توفّره لي، بكل بساطة لم اكن لأبقى على قيد الحياة.

كنت حقاً اودّ ان تكون لدي عقيدة!...

لقد تعاطفت مع الاشخاص المنتمين الى الطبقات الدنيا وكرهت اؤلئك الذين يرتدون الملابس الثمينة ويفكرون فقط بملذاتهم. في الصيف كنت ابدو مثل شخص من طبقة اجتماعية دنيا فيما ارتدي قميصاً قطنياً فضفاضاً وخشناً. هكذا كنت في السابعة عشرة او الثامنة عشرة..».

وكتبت كيف وقعت بحب ماو وكيف احبته بقوة وكيف علمت بخياناته وكيف سامحته. لكن في النهاية اعلنت انها فكرت بالانفصال عنه وعن الايديولوجية التي عرّفها اليها:

الآن انتقلت ميولي الى مرحلة جديدة. اريد ان احصل على بعض الغذاء عبر السعي الى المعرفة لأروي حياتي الفارغة واؤمّن رزقي ... ربما ساصرخ في احد الايام: كانت افكاري خاطئة في السابق!»

وانهت مذكراتها بالتالي:

«آه! اقتل، اقتل، اقتل! كل ما اسمعه في اذنيّ هو هذا الصوت! لماذا البشر هم شريرون؟ لماذا هم متوحشون الى هذا الحد؟ لماذا؟ لا استطيع الاستمرار بالتفكير بالامر! يجب ان تكون لدي عقيدة! يجب ان تكون لدي عقيدة! دعوني اكوّن هذه العقيدة!!»

شعرت كاي هواي بالجاذبية تجاه الشيوعية بسبب تعاطفها مع المحرومين. ان صرختها الباحثة عن العقيدة تدل من دون شك انها كانت تخسر عقيدتها الحالية اي الشيوعية. لم تُدِن ماو الذي كانت لا تزال تحبه كثيراً لكنها كانت تعلمه عن مشاعرها السلبية تجاه القتل، وهو ما كانت تكرهه منذ طفولتها.

كتبت هذه القطعة لماو اولاً ظنّاً منها انها قد تتمكن من رؤيته في شانغهاي لكن مع مرور الوقت اصبح واضحاً انها لن تقابله وفي الواقع كان يتجنب التوجه الى المدينة عمداً. خبأت كاي هواي الاثنتي عشرة صفحة التي كانت كتبتها له الى ذلك الحين بين احجار الحائط.

وفيما اليأس يسيطر عليها كتبت قطعتها الاخيرة في 28 كانون الثاني 1930 اي قبل رأس السنة الصينية بيومين وهي المناسبة التقليدية لاجتماع العائلة. وصفت القطعة التي تمتد على اربع صفحات معاناتها في السنتين والنصف اللتين اعقبتا رحيل ماو. بدأت بتذكر مشاعرها مباشرة بعد رحيله(*):

لا استطيع النوم منذ ايام
لا استطيع النوم. اني مصابة بالجنون.
لم يرسل اليّ اية رسالة منذ ايام عديدة. انتظر يوماً بعد يوم.
دموع ...
يجب الاّ اكون تعيسة الى هذا الحد. ان الاولاد بائسين مثلي
ووالدتي ايضاً.
اعتقد اني قد اكون حبلى مرة اخرى
حقاً انا بائسة جداً ووحيدة للغاية واعاني الكرب الشديد
اريد الهرب. لكن لديّ هؤلاء الاولاد فكيف استطيع الهرب؟
في صباح اليوم الخمسين تلقيت هذ الرسالة التي لا تقدر بثمن
حتى لو توفّي ستغطي دموعي جثته
شهرٌ، شهرٌ آخر، نصف سنة، سنة، وثلاث سنوات.

(*) جمعت الكلمات اللاحقة من الذاكرة بعد قراءة هذه الوثيقة في أحد الأرشيفات وبعضها قد لا يكون دقيقاً. تشكل المحذوفات أجزاءاً لم يمكن استعادتها؛ معظم علامات الوقف أضيفت للإيضاح.

تخلّى عني. الماضي يتحرّك في عقلي، المشهد تلو الآخر. المستقبل الذي اتصوّره يتحرّك ايضاً في عقلي، المشهد تلو الآخر. من المؤكد انه تخلّى عني.

انه محظوظ بحبّي له. حقاً اني احبه كثيراً.

من المؤكد انه لم يتخلّ عني. انا على يقين ان لديه اسبابه التي تمنعه من الكتابة اليّ ...

والدنا الحب هو لغزٌ فعلاً. الا يشتاق لاولاده؟ لا استطيع ان افهمه.

انه امر حزين ولكنه امر جيد ايضاً لانه بامكاني ان اكون انسانة مستقلة الآن.

اريد ان اقبّله مئة مرة في عينيه وفمه ووجنتيه وعنقه وراسه. انه ينتمي اليّ.

نستطيع الاتكال فقط على والدتنا الحب. اني افكر بامي ...

البارحة ذكرته امام اخي. حاولت ان ابدو بحالة طبيعية لكن دموعي انهمرت، ولا اعرف كيف.

لو استطيع ان انساه. لكن صورته الجميلة، صورته الجميلة امامي.

اراه واقفاً هناك وصورته غير جليّة فيها يحدّق بي بكآبة

لقد كتبت الى ابن عمي لاقول التالي: «ان كل من يأخذ رسالتي اليه ويأتيني برسالة منه هو مخلّصي».

بحق السماء لا استطيع التخلي عن قلقي عليه.

طالما هو بخير سواء انتمى اليّ ام لا امر ثانوي. لتحمِه السماء.

اليوم عيد ميلاده. لا اقدر ان انساه. لذلك اشتريت بعض المأكولات بهدوء وحضّرت طاسات من العصائبية (المعكرونة). ان امي ايضاً تتذكر هذا التاريخ. وبينما انا في فراشي في الليل تراودني افكار حزينة.

سمعت بانه مريض ويعود ذلك الى الافراط في العمل ... إن لم اكن بجانبه فلن يكون حريصاً على صحته. سوف يُجهد نفسه كثيراً بكل بساطة.

ان صحته في وضع دقيق لدرجة انه غير قادر على العمل. انه يرهق فكره كثيراً. يا الهي احمِني. يجب ان اعمل باجتهاد بالغ، باجتهاد بالغ. اذا تمكّنت من كسب ستّين يواناً في الشهر استطيع ان اعيده واطلب منه الاّ يعمل ابداً. في هذه الحال قد يتمكّن حتى من تحقيق النجاح الخالد بقدراته وذكائه.

الارق يسيطر عليّ لليلة اخرى.

لا استطيع تحمّل ذلك الآن. انا ذاهبة اليه.

ان اولادي، اولادي المساكين يمنعونني.

ان حملاً ثقيلاً يجثم على قلبي، هو من ناحية واولادي من الناحية الاخرى. لا استطيع

التخلّي عن كليهما.

اريد البكاء. حقاً اريد البكاء.

مهما حاولت لا استطيع التوقف عن حبّه. لا استطيع ...

ان شعور الانسان هو فعلاً غريب. سان تشان هِيْ يحبني كثيراً لكنني لا انظر اليه حتى.

كم احبه! يا الهي اعطني جواباً كاملاً!»

وبعد فترة قصيرة على كتابة هذه الكلمات المفطّرة للقلب القي القبض على ابن عمها وأعدم ودُفن خلف منزلها.

بعد بضعة اشهر توفيت هي ايضاً. اثناء الهجوم الذي شنّه ماو على تشانغشا لم يقم باي جهد لتخليصها هي وابنائها او حتى لتحذيرهم. وكان بامكانه انقاذها بسهولة اذ ان منزلها يقع على الطريق التي سلكها الى المدينة حيث بقي مدة ثلاثة اشهر. لكنه لم يكلّف نفسه عناء القيام بذلك.

8- عمليات التطهير الدموية تمهّد الطريق لرئاسة ماو (1929-1931؛ العمر: 35-37 سنة)

خلال السنة والنصف التي تلت مغادرة ماو لأرض الخارجين على القانون مارس سيطرته على مجموعتين من الجيش الاحمر وعلى جيش زو-ماو وجيش بينغ دي-هواي بالاضافة الى سيطرته على قاعدة شيوعية هامة في فوجيان. في موازاة ذلك وضع نصب عينيه هدفاً نهائياً هو إنشاء جيش احمر ضخم في جيانغتزي، المقاطعة الواقعة بين فوجيان وهونان.

عندما كان شيوعيو جيانغتزي تحت سلطة الزعيم المعتدل وساحر الجماهير لي ونلين اكتسبوا بعض المناطق التي هي بمثابة جيوب آمنة. كانوا مضيفين مرحبين بماو عندما اتاهم مباشرة من ارض الخارجين على القانون في شباط 1929. كانت هذه الاقامة قصيرة اذ ان جيش القوميين كان يتبعه على الاثر لكنه رغم ذلك اعلن نفسه رئيساً عليهم وعندما رحل ترك وراءه شقيقه الأصغر تسي تان قائداً لقطاع دونغو الذي هو مركز الشيوعيين في جيانغتزي. لكن لم يكن كلا التحركين حائزين على موافقة شانغهاي كما ان سكان المنطقة لم يكونوا راضين عنهما، الاّ انهم لم يقاوموا ماو إذ كان على وشك المغادرة.

توقّع ماو ان يمسك شقيقه بالوضع نيابة عنه الاّ ان تسي تان تنقصه العدائية وشهوة السلطة اللتين يملكهما ماو. وصفه مفتش حزبي بانه «يعمل كشخص مصاب بالملاريا» فهو عصبي فجأة وبارد فجأة ... على الاصح صبياني احمق وخائف من اخذ القرارات». لذلك بعد مضي ثلاثة اشهر ارسل ماو صديقاً حميماً من هونان يدعى ليو شي كي وكانت له سلطة على شقيقه.

لم يأخذ ليو من تسي تان مركزه فقط بل اخذ منه ايضاً صديقته التي تزوجها هو. ان المرأة التي هي موضوع الحديث، هو يي، كانت شقيقة زوجة ماو غوي يان فاصبح ليو عديل ماو. ومثل ماو كان ليو «شرس الطبع وبذيء اللسان» بحسب رفاقه، مع الكثير من الوقاحة والقليل من وخز الضمير، تماماً كما هو الحال مع ماو. في الوقت الذي عاد فيه ماو الى جيانغتزي الشيوعية في محاولة منه لاحكام قبضته عليها في شباط 1930 كان ليو قد سلب مناصب قيادية عديدة بالقوة.

عاد ماو الآن لأنه يملك القوة العسكرية التي تمكّنه من الاستيلاء على السلطة في جيانغتزي لكن مرة اخرى لجأ الى الحيلة. وُجِّهت الدعوة لعقد مؤتمر في مكان يدعى بيتو واعطي

اسماً ضخماً هو «المؤتمر المشترك» الذي من المفترض ان يضم ممثلين عن جميع الشيوعيين في جيانغتزي. ومن ثم تلاعب ماو بجدول المواعيد في اللحظة الاخيرة، فبعد ان اعلن ان المؤتمر سيُفتتح في العاشر من شباط قدّم الموعد فجأة الى السادس من الشهر نفسه. نتيجة لذلك انتهى المؤتمر قبل ان يصل المندوبون بمن فيهم العديد من المندوبين المحليين المقاومين لاستيلاء ليو على السلطة.

في الواقع كان «المؤتمر المشترك» المنعقد في بيتو اكثر قليلاً من مسألة عائلية بين عديلين وكما ينبغي مُنح ماو الموافقة ليصبح الحاكم المطلق للشيوعيين في جيانغتزي فيما كان ليو الرجل الذي يمثّله في الموقع نفسه. اما قائد الشيوعيين في جيانغتزي لي وون لي فقد أُنزلت مرتبته الى مرتبة وظيفة ادارابة عادية.

عارض معظم الشيوعيين في جيانغتزي هذه القرارات واضطر ماو الى اللجوء الى الارهاب لاسكاتهم. في بيتو امر بالاعدام العلني لاربعة من الشيوعيين المعروفين في المنطقة لاتهامهم بمعاداة الثورة، فكان هؤلاء اول شيوعيين يُقتلون على يد ماو وتُعلن اسماؤهم.

استخدم كلٌّ من ماو وعديله الاعدامات لترويع المنشقين المحتملين. وافاد احد مفتشي الحزب في ذلك الوقت ان ليو كان دائماً «يطلق الشتائم المتهورة فجأة... فيقول اشياء مثل «سوف اجعلهم يعدمونك!» كانت تستعمل تهمة معينة لارسال الضحايا الى الموت برزت في عبارة كانت رائجة في روسيا بقيادة ستالين وتفيد هذه العبارة بان الشخص هو «فلاح ثري» او «كولاكي». وزعم ماو بان «مالكي الاراضي والكولاكيين يشغلون المنظمات الحزبية [في جيانغتزي] على كل المستويات» معتمداً على سبب وحيد هو ان معظم القادة الشيوعيين في جيانغتزي يأتون من عائلات ميسورة. لكن في الواقع كان ماو نفسه ينتمي الى عائلة من الكولاك.

في السابق كان الشيوعيون الصينيون قد قتلوا بعضهم البعض لكن حتى الآن يبدو ان معظم حالات القتل كانت تتم بدافع تصفية حسابات عشائرية او شخصية من خلال استعمال العناوين الايديولوجية. ان اعمال القتل التي قام بها ماو جاءت لتعزّز طموحاته الكبيرة.

بينما كان ماو يقحم نفسه في جيانغتزي فعل كل ما بوسعه كي لا ينبّه شانغهاي التي لم تمنحه تفويضاً رسمياً بالسيطرة على الشيوعيين في جيانغتزي. بل على العكس من ذلك فقد اعتبرت شانغهاي الجيش الاحمر في جيانغتزي في وضع الجيش المستقل والمساوي لجيش زو-ماو وعيّنت له قائداً يدعى كاي شن كزي.

عندما وصل كاي الى جيانغتزي رفض ماو السماح له بتسلم منصبه وبكل بساطة عيّن عديله ليو على رأس جيش جيانغتزي. وتمكّن ماو من اخفاء الامر على شانغهاي لعد وجود

الهاتف او الاتصالات السلكية واللاسلكية في ذلك الوقت. كانت صلة الوصل الوحيدة الرسل الذين كانوا يمضون بضعة اسابيع في طريقهم بين شانغهاي والقاعدة. ويبدو ان ماو تأكد على نحو مضاعف بان استيلاءه على السلطة في جيانغتزي بقي سرّياً من خلال احتجازه الرسل، ولدينا اسباب وجيهة تجعلنا نعتقد ان عديله ليو قتل احد مفتشي الحزب غير المتعاونين معه ويدعى جيانغ هان بو ومن ثم لفّق تقريراً الى شانغهاي باسم جيانغ يدلّ على الخط الذي يتّبعه ماو.

كانت خطة ماو تقوم على خلق امر واقع. حتى الآن كان يكتب الرسائل التي تنمّ عن الخضوع لشانغهاي. اما الآن فقد توقف كلياً وتجاهل الاستدعاءات المتكررة الى شانغهاي. وليتخلّص من مضايقة شانغهاي له يبدو انه ذهب الى حدّ نشر اشاعة عن وفاته بمرض ما. وبما ان ماو كان «قائداً [مشهوراً] للصوص» فقد حصل الخبر على تغطية واسعة في صحافة القوميين فكانت طريقة مناسبة لنشر قصة قد يتمكّن من التنصّل من مسؤولية نشرها.

نجحت الخدعة في المدى القصير ففي 20 آذار ظهر في مجلة الكومنتيرن *International Press Correspondence* انترناسيونال برس كورسبوندنس نعيُ في اطار اسود جاء فيه: وصلت اخبار من الصين تفيد بان الرفيق ماو تزي دونغ ... مؤسس الجيش الاحمر توفي على الجبهة في فوكيين نتيجة لاصابته بمرض في الرئتين دام فترة طويلة».

لكن خلال خمسة عشر يوماً اكتشفت موسكو وشانغهاي بان ماو على قيد الحياة وبكامل حيويته وبالاضافة الى ذلك فقد وضع يده على جيش جيانغتزي. في 3 نيسان اصدرت شانغهاي مذكرة حادة اللهجة الى كل الجيوش الحمراء تطلب فيها تقديم الطاعة الى شانغهاي فقط. واصرّت المذكرة على انتقاد ماو (دون ان تسمّيه) لاستيلائه على الجيش الاحمر في جيانغتزي من دون تفويض منها. عندما وصلت وثيقة شانغهاي الى جيانغتزي ثار شيوعيو المنطقة على ماو في ايار. في بعض المناطق شجّعت الكادرات الحزبية قيام ثورات الفلاحين ضد نظام ماو–ليو المشترك. قبل قدوم ماو كان الشيوعيون في جيانغتزي يهتمون بمسائل كالرعاية الاجتماعية والانتاج وبناء معمل لصناعة الآلات الزراعية والادوات المنزلية. وحكم ماو وليو على هذه البرامج بانها تمثّل مفاهيم شخصية للواقع وكتب ليو قائلاً بانه «في سبيل الصراع لا مفرّ من تخفيض الانتاج». ولما حُرم الفلاحون من فرصة زيادة انتاجهم ولما عصرتهم الضرائب (التي ادعى ليو انهم «طاروا من الفرح لدفعها») فقد ثاروا في منطقة تلو الاخرى وهم يرفعون شعارات مثل «اعطونا حياة هانئة وعملاً هادئاً!» لكن ليو قمع الثورات دون رحمة إذ «ما ان يُكتشف احدهم وهو يلوّح بيديه او يخطىء التصرّف يجب ان يوقف»، كما جاء في اوامره. «يجب الاّ تكون هناك مشاعر ايجابية تجاه الاقارب او الاصدقاء. ان اي شخص يأتي الى منزلكم

او الى اي مكان آخر ولا يتصرّف بشكل صحيح ... يجب ان تبلّغوا عنه ... السلطات كي تلقي القبض عليه وتعاقبه ..».

كما ادّعى ليو انه كان على رأس الثورات «عناصر معادية للبولشيفية شغلت مناصب امناء السر في فروع الحزب». اطلقت عبارة المعادين للبولشيفية على مجموعة من القوميين لم تعد موجودة واعاد ليو احياءها على نحو زائف لادانة المنشقين في المنطقة، فخلال شهر قُتل الآلاف من الفلاحين والشيوعيين.

في تلك اللحظة توفّرت فرصة للشيوعيين في جيانغتزي. في بداية آب 1930 كان ماو وجيشه يحاولون الاستيلاء على جيش بينغ دي-هواي على بعد مئات الكيلومترات، بالقرب من تشانغشا، فاغتنم الفرصة الشيوعيون في جيانغتزي بقيادة قائدهم الاسبق لي ون لين ودعوا الى اجتماع قاموا خلاله بطرد ليو. واطلق الجمهور الصخّاب اصوات الاستهجان وهتف ضده ومن خلاله ضد ماو بسبب «تفكيرهم بالسلطة فقط» كما اعترف بذلك ليو الى شانغهاي لاحقاً بقوله وبسبب «تحوّلهم الى امراء حرب» و«تعريض الحزب للخطر الشديد». واتّهم ليو باعدام «العديد» من رفاقه وبالتسبب «بالفظاعات الهائلة على يد الشيوعيين».

دعا الشيوعيون في منطقة شانغهاي الى طرد ليو من الحزب. ولكن نظراً الى الحاجة الى قاتل بالغريزة دعوه يذهب الى شانغهاي مما وفّر له منصباً في قاعدة شيوعية اخرى حيث التقى نظيراً له. عُرف رئيس المنطقة تشانغ كو تاو بأنه مؤذٍ مثله مثل ماو نفسه وكان يقوم شخصياً بالمجازر التي قتل في احداها ليو. بعد رحيل ليو عادت زوجته هو يي التي هي شقيقة زوجة ماو الى تسي تان، شقيق ماو.

مع طرد ليو خسر ماو الرجل الذي يمثّله في جيانغتزي وبعد ان انتهى من الحصار على تشانغشا عاد الى جيانغتزي ليؤكد سيطرته عليها وليثأر لخسارته. في طريقه اليها وتحديداً في 14 تشرين الاول ارسل الى شانغهاي رسالة تتضمّن ادانة للشيوعيين في جيانغتزي وجاء فيها: «ان الحزب باكمله [هناك] هو بقيادة الكولاكيين ... وهو ممتلىء بالمعادين للبولشيفية ... لا مجال لتخليص الحزب ... دون القيام بعملية تطهير كاملة بحق القادة الكولاكيين وبحق المعادين للبولشيفية ..».

وفي ذلك الوقت بالذات علم ماو ان موسكو منحته الترقية القصوى التي جعلته الرئيس المستقبلي للبلاد. في الواقع ان سعيه المستميت وراء السلطة اكسبه التقدير. اما الآن وقد حاز ماو على مباركة موسكو قرر الانطلاق في عملية تطهير واسعة النطاق للتخلص من كل الذين عارضوه، وخلال هذه العملية خلق جواً من الذعر بحيث لم يعد يتجرأ احد على التمرد عليه ابتداء من تلك اللحظة. لم تكن شانغهاي في وضع يسمح لها بكبح جماحه اذ انه في اواسط

تشرين الثاني اندلع صراع عنيف على السلطة هناك بين القادة وتسبب به احد الاقارب غير المعروفين ويدعى وانغ مينغ الذي سيصبح في السنوات اللاحقة منافساً رئيسياً لماو.

بدأ ماو مجزرته في اواخر تشرين الثاني فاصدر امراً الى كل الجنود بالتجمع في وسط المنطقة التي يسيطر عليها الشيوعيون حيث كان من الصعب الفرار. هناك زعم بانه تم اكتشاف عصبة من المعادين للبولشيفية في الفرع الذي هو تحت سيطرة بينغ دي-هواي يضم اشخاصاً سبق لهم ان قاوموا محاولة ماو السيطرة عليهم. بدأت التوقيفات والاعدامات وكتب احد المحققين في مذكراته التي لم تنشر كيف جرى تعذيب احد الضباط الذين قادوا محاولة لترك ماو: «كانت الجروح في ظهره مثل حراشف السمك».

كان ماو يودّ ايضاً تصفية حسابه مع جيش زو-ماو إذ انه صوّت لاقالته من منصبه كقائد له في السنة الفائتة. كان للعديد من الضباط في الجيش الاحمر تحفظات على ماو ويظهر ذلك بوضوح فيما كتبه ضابط يدعى ليو دي في رسالة بعثها الى شانغهاي في 11 كانون الثاني 1931 وجاء فيها: «لم اكن اثق بماو ابداً». وبعد احدى المعارك قال: «التقيت العديد من الضباط من مختلف وحدات الجيش ... كانوا جميعهم قلقين وبدوا موهني العزيمة. قالوا انهم لم يكونوا يعلمون بان العمل في الحزب الشيوعي يتطلّب منهم ان يتعلّموا التملّق الذليل وانه في الواقع لم يكن الامر يستأهل ذلك. كان لدي نفس الشعور واعتبرت ان الروح البولشيفية للحزب تتعرّض للاستنزاف يوماً بعد يوم ... » واتُّهم ماو «بجريمة تلفيق التهم ضد رفاقه واضطهادهم» و«بكونه مدبّراً للمكائد وشريراً» كما اعترف لشانغهاي في 20 كانون الاول 1930.

استخدم ماو صديقاً حميماً يدعى لاي شاو جو لادارة عملية التطهير ويعتبر هذا الرجل من قبل رفاقه بانه «فاسدٌ وسافلٌ». «كان لاي مكروهاً من معظم الجنود» كما كتب احد مفتشي الحزب «لانه يتبجّح بامتلاكه الشجاعة ويخطب في الرجال قبل كل معركة ولكنه جبان في القتال». ان الناس الذين يعملون تحت امرته كانوا يتوسّلون الحزب «لطرده ومعاقبته».

شرع لاي اولاً بتوقيف بضعة اشخاص ومارس التعذيب لاجبارهم على اعطاء اسماء اشخاص آخرين. وبعدها حدث المزيد من التوقيفات والتعذيب واوقف الكثيرون من اعداء ماو. بحسب احد الضباط الكبار كان لاي ورجاله «يعلنون ببساطة «يوجد معادون للبولشيفية من بينكم» ويسمّون اشخاصاً ... دون توفّر اي دليل. كان هؤلاء الاشخاص ... يتعرضون للتعذيب ويجبرون على الاعتراف [بأنهم معادون للبولشيفية] وعلى اعطاء العديد من الاسماء العائدة لاشخاص آخرين. لذلك كان هؤلاء الاشخاص يُوقفون ويُعذبون لاعطاء المزيد من الاسماء..».

ووجّه ماو رسالة بنفسه الى شانغهاي في 20 كانون الاول يفيد فيها بانه خلال شهر «تم اكتشاف ما يزيد على 4400 شخص من المعادين للبولشيفية في الجيش الاحمر». قُتل معظمهم وتعرضوا جميعهم للتعذيب كما اعترف ماو. اعتبر انه اذا كان الضحايا غير قادرين على تحمّل العذاب واعطوا اعترافات كاذبة فهذا اثبات على انهم مذنبون. وسأل: «كيف يمكن للثوار الاوفياء ان يعطوا اعترافات كاذبة لتوريط رفاق آخرين؟»

ما إن احكم ماو قبضته على الجيش حتى وجّه اهتمامه ناحية الشيوعيين في جيانغتزي. في 3 كانون الاول ارسل لاي مع لائحة تتضمن اسماء اعدائه في فوجيان حيث يعيش قادة جيانغتزي. وشجب ماو الاجتماع الذي عقد في آب ونتج عنه طرد حليفه ليو معتبراً اياه «اجتماعاً للمعادين للبولشيفية» و«معارضاً لماو تسي تونغ». واصدر امره التالي: «اسحقوهم جميعاً» ومن ثم «ارتكبوا مجازر جماعية في كل الاقاليم والمقاطعات». «ان اي مكان لا تتم فيه التوقيفات والمجازر يُعتبر اعضاء الحزب والحكومة فيه معادين للبولشيفية وبامكانكم بكل بساطة اعتقالهم ومعالجة امرهم كما يجب [كزون بان، وتعني التعذيب مع التصفية الجسدية او التصفية وحدها]».

وصل ليو الى فوجيان في 7 كانون الاول واعتقل الاشخاص الموجودين على لائحة ماو واخضعهم للتعذيب طوال الليل. كانت احدى وسائل التعذيب تدعى «الالغام البرّية المدهشة» وهي تكسر الابهام ببطء متسببةً بآلام مفرطة. واستعملت تقنية ثانية تعتمد ايضاً على البطء في سبيل زيادة الالم وتقضي باحراق الضحايا بالفتيل المشتعل. وكان لاي متوحشاً خاصةً في معاملة نساء الزعماء في جيانغتزي. كانت تتم تعريتهن، ووفقاً لاحتجاج كتب بعدئذٍ مباشرة «كانت تحرق اجسادهن وبالتحديد ارحمتهن بواسطة الفتيل المشتعل فيما كانت صدورهن تقطع بواسطة السكاكين الصغيرة».

اشعلت هذه الفظاعات تمرّداً هو الاول وشكّل تحدياً علنياً لماو وكان على رأسه الضابط الكبير المذكور اعلاه ليو دي الذي هو في الواقع من هونان ويعرف ماو منذ بضعة سنوات. وبسبب كونه من هونان اراد ماو في السابق ان يجعله الى جانبه كي يساعده في السيطرة على جزء من جيش جيانغتزي. وقام لاي، رجل ماو، باستدعاء ليو دي في 9 كانون الاول زاعماً في البداية انه جرى التعرّف عليه كمعادٍ للبولشيفية ومن ثم وُعد بتحريره من العقاب في حال تعاون معه.

وصف ليو دي ما حصل في رسالة وجهها الى شانغهاي بعد الثورة. رأى الذين قاموا بالتعذيب يأكلون ويشربون بنهم في احدى المآدب المليئة «بالمشروبات واللحوم وفخذ الخنزير» فيما ضحاياهم منتشرون على اقدامهم وسمع لاي يتباهى بتعذيبهم «فرحاً ومبتهجاً» وسمع

ايضاً اصواتاً اخرى تمدحه على ما فعل. وفي غمرة الحماسة زلّ لسان لاي وقال ان المسألة كلّها «لم تكن تتعلّق بمعاداة البولشيفية بل كانت تتعلّق بالسياسة». وكتب ليو قائلاً: «توصلت الى خلاصة ثابتة مفادها ان كل ذلك لم يكن له علاقة بمعاداة البولشيفية. من المؤكد ان ماو تسي تونغ كان يدبّر مكائد للقاعدة ويرسل كلبه الامين لاي شاو جو الى هنا لقتل الرفاق في جيانغتزي».

قرر ليو دي القيام بمحاولة لايقاف ماو لكن كان عليه استعمال حيلة يفترض فيها الآتي: «اذا تصرفت كشيوعي وتعاطيت معهم بنزاهة فان الموت فقط ينتظرني. لذلك وضعت جانباً استقامتي ... وبدّلت لهجتي بلهجة تشانغشا [للتأكيد على هويته البعيدة عن جيانغتزي] وتوجه الى لاي قائلاً: «انا مرؤوس قديم لدى فضيلتكم ... اني سابذل جهدي للتقيّد بتعليماتكم الخاصة بالسياسة». وكذلك تعهّد بالولاء لماو. وقال:«بعد ان قلت ذلك، تغيّر موقفهما فوراً ... وطلبا مني ان انتظر في غرفة صغيرة مجاورة ..». وفيما كان ليو دي يستلقي على سرير فيها تلك الليلة كان يخطط تحركاته وهو يسمع صراخ رفيق يتعرّض للتعذيب يأتيه عبر الحائط.

في الصباح التالي ضاعف من اطرائه الى لاي وتمكن من التحرر فطلب منه لاي العودة «للتخلص من جميع المعادين للبولشيفية في الفوج التابع لك فوراً». ولدى عودته اخبر ليو دي زملاءه الضباط عمّا رآه وسمعه فحصل على دعمهم. في صباح الثاني عشر جمع جنوده وشنّ هجوماً على فوجيان واطلق الضحايا، وبما انه لم يكن قاتلاً لم يلاحق اصدقاء ماو الحميمين الذين هربوا بمن فيهم لاي. لكن هذا الاخير قتل على يد احد الآخذين بالثأر.

في تلك الليلة رُفعت الملصقات في فوجيان والتي تقول «فليسقط ماو تسي تونغ» وفي اليوم التالي حصل تجمّع شعبي مناهض لماو. وبعد الظهر ترك رجال جيانغتزي البلدة واجتازوا نهر غان لكي يكونوا خارج سيطرة ماو. وأرسلوا مذكرة تتضمن الوصف التالي لماو:

«انه مخادع وماكر الى حدٍّ بعيد وهو مصاب بجنون العظمة. انه لا ينفك يصدر الاوامر لرفاقه وهو يروّعهم باتهامات بارتكاب الجرائم ويشعرهم بالذنب. وهو قليلاً ما يجري مناقشات للقضايا الحزبية ... وكلّما عبّر عن رأي ما يجب على الجميع الموافقة والاّ استعمل الهيكلية الحزبية للاطباق عليك او انه يخترع بعض النظريات الملفّقة لجعل الحياة بغيضة جداً بالنسبة اليك ... ويستعمل ماو دائماً الاتهامات ذات الطابع السياسي لضرب رفاقه. ان طريقته المعهودة في التعاطي مع الكادرات الحزبية تقوم على ... استعمالهم كادواته الشخصية. في الخلاصة ... هو ليس فقط قائدٌ غير ثوري، بل هو ليس ... بولشيفياً».

وقالوا ان هدف ماو هو ان «يصبح امبراطور الحزب».

لكن صودف وجود مندوب شانغهاي وطلب منهم التوقف عن ادانة ماو علناً اذ انه كان

لماو «سمعة عالمية». لقد اطاعوه في الحال واوكلوا مصيرهم الى شانغهاي قائلين الى جنودهم: «يجب ان نرفع التقارير الى المركز عن مخططات ماو تسي تونغ المشؤومة وعن ارتكابه المجازر بحق الرفاق الحزبيين في جيانغتزي، وذلك كي يحلّ المركز المسألة».

كان ممثلوهم الذين ارسلوهم الى شانغهاي قد تعرّضوا للتعذيب على يد رجال ماو. وهناك قدموا الى الحزب البراهين التي لا يمكن الطعن فيها وهي الجراح الناتجة عن التعذيب. بالاضافة الى ذلك قالوا ان ماو «لم ينفّذ التعليمات [المتكررة الصادرة عن القيادة]. لقد تجاهل الرفاق المرسلين من المركز وخلق المشاكل لهم عمداً ... وارسل المركز عدة رسائل في محاولة لنقل ماو تسي تونغ لكنه بكل بساطة تجاهل هذه الرسائل».

الاّ ان مبعوثي موسكو والقادة في شانغهاي ساندوا ماو رغم علمهم بان التهم الموجهة اليه صحيحة ورغم رؤيتهم آثار التعذيب مباشرة. وقال تشو نفسه الى رجل موسكو البولندي رايلسكي ان «التوقيفات واعمال التعذيب التي طالت اعضاء من حزبنا ... حدثت في الواقع». ولكن في عالم ستالين فإن من يقوم بالتطهير هو دائماً المنتصر(*) اذ ان موسكو كانت تفتش عن الاشخاص الظالمين. ان الشيوعيين في جيانغتزي ورغم ولائهم للحزب كانوا يُلقبون بـ«المعادين للثورة» ووصلتهم الاوامر بالخضوع لماو او بمواجهة «صراع عسكري لا يرحم» اي الابادة. قالت موسكو ان «ماو هو مستقيم في الاساس» واضافت بأن «هذا الخط في الصراع العديم الرحمة والموجّه ضد اعداء الثورة يجب [ان يستمر]». وشكّل ذلك حدثاً هاماً آخراً بالنسبة الى ماو اذ حصل على تأييد موسكو في قتله زملائه من اعضاء الحزب الذين لم يرتكبوا اي خطأ تجاه حزبهم. هؤلاء لم يقتلوا او يجرحوا عضواً واحداً في الحزب بينما سحق ماو بقدميه كل القوانين الحزبية.

اقدمت شانغهاي حتى على اعادة مناشدات الضحايا المرفوعة ضد ماو اليه في اشارة الى انه حرٌ في معاقبتهم بالطريقة التي يريد. وعلى هذه التقارير المفطّرة للقلب دوّنت يد عنكبوتية الكلمات التالية: «بعد الترجمة [الى الروسية] عودوا الى ماو» او بكل بساطة: «الى ماو». كانت هذه الكلمات في يدي رئيس الدائرة التنظيمية كانغ شنغ. كان رجلاً نحيلاً له شاربان ويضع نظارات ذات اطار ذهبي، كما كان خبيراً في الفن الصيني والمنشورات الصينية المثيرة للشهوة الجنسية. ويملك نظرة ثاقبة ايضاً في اصناف الآلام الناتجة عن التعذيب واكتسب لاحقاً سمعة سيئة كمضطهِد معيّن من قبل ماو. الآن ومع هذه الكلمات التي تدلّ على اللامبالاة رغم كونها

(*) حتى عندما كانت للتطهير مفاعيل انتاجية مضادة. في تقرير نشرته فدرالية العمل الشيوعية عام 1932 قيل إن العمال «كانوا خائفين جداً» من الانضمام الى الاتحادات الشيوعية: «رأوا غالبية (أقتبس) العمال (الذين كانوا) أعضاء في الاتحاد التجاري يعدمون (أي على يد رفاقهم) بتهمة الانتماء الى «المعادين للشيوعية».

مشؤومة، سلّم هؤلاء الضحايا الى ماو وبالتأكيد سُلّموا الى الموت.

مع هذا التشجيع الذي حصل عليه من شانغهاي امر ماو بمحاكمة واعدام ليو دي ورفاقه المتمردين. قبل ان يموتوا عُرضوا في المنطقة الحمراء كرادع للسكان المحلّيين وأحضر ممثلون من كل انحاء القاعدة ليشاهدوا الاعدامات فتكون لهم درساً.

تعرّضت جيانغتزي الشيوعية للتخريب كما بيّن تقرير سرّي لاحق: «تم توقيف كل الاعمال من اجل اعدام المعادين للبولشيفية». «الجميع عاشوا الرعب ... وفي الحالات القصوى كان يتم الشك بكل شخصين يتكلمان معاً بانهما معاديين للبولشيفية ... وتمّ التعاطي مع كل من لم يظهر شراسة في ضرب المعادين للبولشيفية على انه معادٍ لها بدوره ..». وكان التعذيب المروّع مألوفاً: «كانت هناك انواع عديدة ... تحمل اسماء غريبة مثل ... «الجلوس على كرسي يجلب السرور»، «شُرب ضفدع الطين»، «قردة تمسك بحبل». وفي بعض الحالات كان يُحشر مسدّس متوهّج بالحرارة في الشرج ... في مقاطعة فيكتوري وحدها كان هناك 120 نوعاً من انواع التعذيب». وأحد هذه الانواع المسماة بإبداعية مريضة «نقر ملائكي القانون» كان يُدخل سلك معدني في القضيب ويُعلّق في اذن الضحية وكان المعذّب ينقر على السلك المعدني. كما كانت هناك ايضاً اشكال مروّعة للقتل، وذكر التقرير انه «في جميع المقاطعات كانت هناك حالات تُفتح فيها المعدة بواسطة السكين ويُغرف القلب».

بالاجمال توفّي عشرات الآلاف في جيانغتزي. كان هناك حوالى العشرة آلاف وفية في الجيش وحده اي ما يقارب ربع الجيش الاحمر بكامله بقيادة ماو في ذلك الوقت، كما تبيّن في التقرير السرّي الذي أُعدّ بعدئذٍ مباشرة. كان ذلك اول تطهير يجري على نطاق واسع في الحزب وحدث قبل التطهير الكبير الذي قام به ستالين بوقت طويل. وحتى اليوم ما زال التعتيم يسيطر على تلك الفترة الحساسة التي هي الى حدٍّ كبير اللحظات التي تكوّن فيها مذهب ماو، وتبقى مسؤولية ماو الشخصية ودوافعه بالاضافة الى وحشيته المفرطة من المحرّمات التي لا يأتي احد على ذكرها.

بالقرب من جيانغتزي ثار الشيوعيون في فوجيان ضد ماو واخرجوا اتباعه من الحزب بواسطة التصويت في تموز 1930 بينما كان هو وجيشه خارج المنطقة . أعدم الآلاف الآن، ووصل العدد الى 6352 اذا ما أخذت في الحسبان فقط اسماء الاشخاص المعروفين والتي ألغيت رسمياً فيما بعد. في احدى المقاطعات تم سوق الضحايا في الشوارع الى الاعدام فيما الاسلاك المعدنية الصدئة تخترق خصيهم. وفرّ القائد الشيوعي في فوجيان عند الفرصة الاولى عندما أرسل الى هونغ كونغ لشراء الادوية، وذلك بعد ان اصيب بالرعب وخيبة الامل. كان فقط واحداً من بين الكثير من الشيوعيين الفارّين وهم يشغلون المناصب العليا. وفرّ شيوعي

آخر هو في الواقع ابن بينغ دي-هواي بالتبنّي.

مباشرة بعد التمرّد على ماو اطلق الشيوعيون نداءً الى زو دو وبينغ طلباً للمساعدة. وناشدوهم كما يلي: «ايها الرفاق، هل ان حزبنا سيكون اسوداً ومظلماً الى الابد؟» كان هذان الاثنان لا يحبان ماو. في احدى الليالي وبعد ان تناول زو الكثير من نبيذ الارز قال الى صديق قديم له: «ان العديد من الرفاق القديمين ... قتلوا في التطهير. الرجل المسؤول عن قتلهم انت تعرفه من يكون». وكان الصديق يعلم انه يقصد ماو وقالها في مذكراته. ومن ثم نُسب الى زو قوله: «ان الحادث الذي حصل في فوجيان تسبّبت به المجازر التي ارتكبها ماو ضد المعادين للبولشيفية ..». «وبدا [زو] غارقاً في الحزن». لكنه هو وبينغ بقيا قريبين من ماو. كانت كل من شانغهاي وموسكو داعمتين لماو وسيعني الوقوف الى جانب الشيوعيين في جيانغتزي القطيعة بينهما وبين الحزب. كان ماو وضع الاسس لتلفيق التهم ضد زو وبينغ وكان بدأ بتطهير العاملين لدى زو دو كما اعدم اثنين من اصل خمسة من مساعدي زو. فلم يكن من الصعب على ماو اكراه بعض الضحايا المعذبين على اطلاق الاتهامات ضد زو وبينغ. وصلت رسالة الى رئيس المخابرات العسكرية الروسية في الصين تلمّح الى ان «بينغ قد يكون متورطاً» مع المعادين للبولشيفية.

لم يكتف ماو بابتزاز القادة العسكريين بل تأكد من انهم لوّثوا ايديهم بدماء رفاقهم فأمر زو بالجلوس في هيئة المستشارين التي حكمت على ليو دي بالاعدام.

امتنع كل من زو وبينغ عن تأييد ماو لسبب آخر. في ذلك الوقت اي في كانون الاول 1930 كان تشيانغ كاي شيك قد ربح الحرب ضد منافسيه القوميين للتو وكان يطلق «حملة ابادة» ضد الشيوعيين. كان زو وبينغ حريصين على الجيش الاحمر وكانا يخشيان ان يؤدّي اي انشقاق فيه الى القضاء عليه. وكان موقفهما يختلف عن موقف ماو في هذا الخصوص. اثناء ذلك الهجوم والهجومات اللاحقة التي شنّها تشيانغ سنة 1931 لم يوقف ماو عمليات التطهير وعندما توقّف القائد العام لفترة ضاعف ماو عمليات القتل الشرسة رغم ان الاشخاص الذين كان يصفّيهم كانوا حاربوا تشيانغ للتو على الجبهة.

ادّت قساوة ماو الى بروز سياسة فعّالة معادية لتشيانغ وتقضي بـ«استدراج العدو ليتوغّل في المنطقة الحمراء وبتوجيه الضربة اليه عندما يكون منهكاً». اعتبر ماو انه نظراً لكون القوميين غير مطّلعين على الارض فإن الظروف هي لصالح الشيوعيين. وبما ان الطرقات كانت قليلة جداً سوف يعتمد الجنود القوميون على التموين المحلي وبما ان الشيوعيين قادرون على السيطرة على السكان فقد كانوا قادرين على حرمان العدو من الطعام والماء. كانت خطة ماو تقوم على اجبار جميع الناس على طمر طعامهم واغراضهم المنزلية وسدّ الامكنة التي توضع فيها بأحجار

ضخمة واخلاء المنازل والذهاب الى الجبال كي لا يجد جيش تشيانغ الماء او الطعام او عمّالاً ومرشدين. حوّلت هذه الاستراتيجية القاعدة الشيوعية الى ساحة حرب وفرضت على جميع السكان مشقات هائلة فوضعهم ماو قسراً على طريق الهلاك.

رغم ان بعض القادة توافقوا مع ماو في الرأي الاّ ان استراتيجيته نجحت. واشتكى لاحقاً احد القادة القوميين انه في كل مكان «لم نرَ اي شخص وكانت المنازل فارغة كما لو ان الفيضانات جرفت محتوياتها. لم يكن هناك من طعام ولا مقالي ولا طناجر ... لم نستطع الحصول على اية معلومات عسكرية». وقال تشيانغ في يومياته: «ان الصعوبة في ابادة اللصوص [الشيوعيين] هي اكبر من الصعوبة التي نواجهها في حرب كبيرة لانهم يحاربون في ارضهم وبإمكانه اكراه السكان على فعل ما يريدون».

لكن لم تكن استراتيجية ماو الوحشية هي التي حسمت امر النصر للشيوعيين. ان ما ادّى فعلياً الى ترجيح كفّتهم هو الدعم الروسي رغم بقاء هذا الامر غير معلن عملياً. انشأت موسكو مجموعة استشارية عسكرية على مستوى رفيع في الاتحاد السوفياتي للتخطيط الاستراتيجي كما انشأت لجنة عسكرية في شانغهاي قوامها مستشارون سوفيات ومن غير السوفيات، وخاصة الالمان. اتى الدعم الحاسم من المخابرات العسكرية السوفياتية التي كان لديها شبكة من العملاء في الصين يفوق عددهم المئة، ومعظمهم صينيون يعملون في مكاتب القوميين الموجودة بالقرب من الجيش الاحمر وكان عملهم الاساسي تزويد الشيوعيين الصينيين بالمعلومات. في بداية 1930 ارسلت موسكو ضابطاً لامعاً الى شانغهاي لادارة هذه العملية هو ريتشارد سورغ(*) الذي هو نصف الماني ونصف روسي. كانت الضربة غير المتوقعة التي ينوي سورغ تسديدها تقوم على التسلل الى داخل مجموعة المستشارين العسكريين الالمان في المراكز الامامية للاستخبارات التابعة لتشيانغ حيث حاول اقناع زوجة احد المستشارين الذي يدعى ستولزنر، المستاءة بسرقة الشِفرة التي يستخدمها القوميون بما فيها تلك التي يستعملونها في الاتصالات بين قيادة الاركان والوحدات الموجودة في ساحة القتال. واعطت هذه المعلومات التي امّنها الجواسيس الروس فوائد لا تحصى لماو. وكان للحزب الشيوعي الصيني ايضاً عملاؤه العاملين في قلب المخابرات التابعة للقوميين، فاصبح احدهم وهو يدعى كيان زوانغ في، امين السرّ الخاص لرئيس مخابرات القوميين يو تي هسو ولعب دوراً كبيراً في نجاح ماو.

زوّدت شبكات المخابرات هذه ماو بمعلومات دقيقة عن تحركات جيش تشيانغ. وبعد

(*) وبالتالي سورغ مشهور لكونه الجاسوس الذي زود ستالين عام 1941 بالمعلومات الاستخباراتية الأساسية بأن اليابان لن تهاجم الشرق الأقصى السوفياتي عندما اجتاح هتلر روسيا الأوروبية. من بين مساعدي سورغ امرأة تدعى زانغ ون- كيو تزوجت ابنتاها لاحقاً من ابني ماو. وقد لفتت انتباه سورغ من خلال أنياس سميدلي العميلة الأميركية للكومنتيرن.

مرور اسبوعين على بدء الحملة، وفي 30 كانون الاول 1930، استخدم ماو اربعين الفاً من الجنود والمدنيين لنصب كمين لتسعة آلاف من جنود القوميين. علم في اليوم السابق اية وحدات بالتحديد كانت قادمة فيما كان ماو ينتظر فجراً على قمة بعيدة والضباب والرذاذ يغطيان الجبال. ومن ثم تابع ماو سير المعركة وسط اوراق القيقب التي كان بعضها ما زال يلتهب على الاشجار فيما تساقط البعض الآخر على الارض الباردة جداً. واثناء شروق الشمس بعد الظهر اعلنت النصر اصوات متحمّسة برزت من الاسفل، وبكل بساطة رفع معظم جنود القوميين ايديهم والقي القبض على القائد القومي. عُرض الجنرال في حشد جماهيري القى فيه ماو خطاباً هتفت خلاله الحشود الموجّهة: «اقطعوا رأسه! وكلوا لحمه!» ثم قُطع رأسه وأُرسل في النهر وهو مربوط بباب ومعه علم ابيض كُتب عليه انه كان «هدية» لرؤوسائه.

انهى هذا الكمين حملة تشيانغ الاولى التي كسب الجيش الاحمر منها الاسلحة والاسرى بالاضافة الى اجهزة الاستقبال اللاسلكي ومشغّليها. ازداد نفوذ ماو نتيجة لذلك وقلة قليلة كانت على علم بالدور الحاسم الذي لعبته الاستخبارات الروسية وكذلك المال والادوية والاسلحة المرسلين من روسيا. اما ماو فقد طلب حتى الحصول على الغازات السامة.

في نيسان 1931 عاد الجنود القوميون ليواجهوا «حملة ابادة ثانية». هذه المرة ايضاً أُحبطوا نتيجة للتكتيك المعتمد والقائم على «استدراج العدو الى عمق المنطقة الحمراء». ووفّرت موسكو مجدداً المساعدات الحاسمة والمعلومات المخابراتية بما فيها اجهزة اتصال لاسلكي ضخمة مرسِلة ومستقبلة حصلت عليها من هونغ كونغ، بالاضافة الى تقنيين مدرّبين من قبل الروس لاستعمال هذه الاجهزة. وفي هذه الحملة تمكّن ماو من ايقاف اتصالات العدو.

لكن في بداية تموز قاد تشيانغ كاي شيك بنفسه قوة كبيرة تتألف من 300 الف رجل في اطار حملة ثالثة وغيّر التكتيك الذي يعتمده كي يصعب على ماو استعمال تفوّقه في مجال المخابرات في نصب الكمائن. بالاضافة الى ذلك كان حجم القوات التي يقودها القائد العام عشر مرات اكبر من قوات ماو وتمكّنت من احتلال المناطق التي «استدرجت» اليها وبقيت فيها. وجد الجيش الاحمر نفسه غير قادر على العودة وخلال شهرين انخفضت مساحة القاعدة الشيوعية الى بضع كيلومترات مربعة واصبح رجال ماو على وشك الانهيار.

الاّ ان تشيانغ لم يواصل ما بدأه بنفس العزم وجاء خلاص ماو على يد العامل الاكثر استبعاداً الذي هو اليابان ذات النظام الفاشي.

سنة 1931 ضاعفت اليابان انتهاكها لاراضي منشوريا في الشمال الشرقي للصين. ولما وجد تشيانغ نفسه في مواجهة التهديدات على الطرفين المتقابلين لبلاده الواسعة قرّر اعتماد سياسة «الاستقرار الداخلي اولاً» اي معالجة مسألة الشيوعيين قبل معالجة القضية مع اليابان.

الاّ ان طوكيو احبطت التوقيت الذي كان وضعه لتحركه. في 18 ايلول ركب تشيانغ متن سفينة متوجهة من نانجينغ الى جيانغتزي ليعطي دفعة كبيرة لهجومه العسكري على قاعدة ماو التي تقلّصت مساحتها. في تلك الليلة وفي العاشرة اجتاحت اليابان منشوريا مطلقةً في الواقع شرارة حرب المحيط الهادىء والحرب العالمية الثانية. لم يبادلها القتال القائد القومي في منشوريا تشانغ هسويه ليانغ المعروف بالماريشال الشاب. وبعد مرور ستين سنة اطلعنا على السبب قائلاً: كانت المقاومة غير ذي جدوى. «لم يكن هناك من امل لنربح» كما قال. «كنا قادرين على القتال في حرب العصابات فقط او ارسال شخص غير منظّم اليها ... لا يمكن مقارنة النوعية في الجيش الصيني مع النوعية في الجيش الياباني ... كان الجيش الياباني متفوقاً بالفعل ... ان «عدم المقاومة» كان السياسة الوحيدة التي يمكن تنفيذها».

وقبل ان يصل تشيانغ كاي شيك الى جيانغتزي في اليوم التالي اي في 19 ايلول، كانت اليابان قد احتلّت شينيانغ عاصمة منشوريا وغيرها من المدن الرئيسية فكان عليه العودة الى نانجينغ بسرعة في 20 ايلول للتعامل مع الازمة. لم يعلن الحرب على اليابان معتبراً، مثلما اعتبر المارشال الشاب، ان المقاومة المسلحة لن تكون مجدية نظراً لتفوّق القوة العسكرية اليابانية. ويقوم التكتيك الذي اراد تشيانغ اعتماده على استعمال المساحة الواسعة للصين والقوة البشرية والارض المحبطة للعزيمة لاكتساب الوقت لعلمه بانه كان من المستحيل عملياً ان تحتل اليابان كل الاراضي الصينية وتقيم حاميات فيها. في تلك اللحظات كان يسعى الى تدخّل عصبة الامم وكانت خطته الطويلة الامد تقضي بتحديث الجيش وتعزيز الاقتصاد ومحاربة اليابان عند وجود احتمال بتحقيق النصر.

كتب تشيانغ في يومياته: «ان هذه المحنة قد تثبت في النهاية انها نعمة مخفيّة اذا ما ادّت الى توحيد البلد». قررت نانجينغ فوراً «تعليق خطة ... ابادة الشيوعيين» واقترحت اقامة جبهة موحدة في مواجهة اليابان. ورفض الحزب الشيوعي الصيني الفكرة بازدراء قائلاً بان اي تلميح الى استعداده للانضمام الى الجبهة الموحدة هو «سخيف الى ابعد حدود». ووفقاً لموقف الشيوعيين فإن القوميين وليس اليابانيين هم العدو الرئيسي واشارت شعاراتهم الى ذلك بوضوح شديد فكانت بمثابة اوامر من مثل «فليسقط القوميون» ولكن «قاوموا اليابانيين الامبرياليين» فحسب. ووُصفت «المهمة الاساسية» للحزب على انها «حماية الاتحاد السوفياتي بواسطة السلاح» (تبعاً للخط السوفياتي الذي اعتبر ان الاجتياح الياباني لمنشوريا هو مقدمة للهجوم على الاتحاد السوفياتي).

ومنذ ذلك الوقت أُعيدت كتابة التاريخ تماماً واصبح العالم يعتقد ان الحزب الشيوعي الصيني هو اكثر وطنيةً من القوميين واكثر حماسة منهم لمحاربة اليابان وبأن الحزب الشيوعي الصيني

وليس القوميين هو الحزب الذي اقترح اقامة الجبهة الموحدة. لكن كل ذلك كان غير صحيح.

عندما اتى تشيانغ بفكرة الجبهة الموحدة ضد اليابان سحب جيشه من المنطقة العسكرية في جيانغتزي. في الحال استغل الشيوعيون هذه الفرصة لاستعادة الاراضي التي خسروها وللتوسّع وانشاء دولتهم.

في 7 تشرين الثاني 1931 الذي صادف الذكرى الرابعة عشرة للثورة الروسية أُعلنت هذه الدولة. رغم عدم اعتراف اية دولة اخرى بها ولا حتى راعيها الاتحاد السوفياتي، فقد شكّلت النظام الشيوعي الوحيد في العالم خارج الكتلة السوفياتية التي كانت تتألّف حينها من روسيا ومنغوليا فقط.

كانت هذه الدولة تتألّف من عدة مناطق يسيطر عليها الشيوعيون وتنتشر في القسم المركزي من البلد في مقاطعات جيانغتزي وفوجيان وهونان وهبي وهنان وانهوي وزيجيانغ. تتراوح مساحة اراضيها كلها بين 150000 و160000 كيلومتراً مربعاً كحدّ اقصى فيما يتخطى عدد السكان العشرة ملايين(*). في الفترة التأسيسية شكّلت «منطقة القاعدة المركزية» الجيب الاكبر حيث يعمل ماو ويشمل هذا الجيب جيانغتزي الحمراء وفوجيان الحمراء وتبلغ مساحته خمسين الف كيلومتر مربع ويصل عدد السكان الى ثلاثة ملايين ونصف. وسبق لموسكو ان جعلت هذه المنطقة مقرّاً للحكومة الشيوعية قبل ما يزيد على السنة وكانت عاصمتها بلدة رويجين.

كما عيّنت موسكو ماو رئيساً لهذه الدولة واعطته لقباً بعيداً جداً عن الطابع الصيني هو رئيس اللجنة التنفيذية المركزية. وكان ايضاً رئيسا للحكومة لكونه رئيساً لهيئة تدعى لجنة الشعب. في المساء الذي أُعلنت فيه المناصب اتى احد اصدقاء ماو الحميمين وكان هذا الرجل قام شخصياً بتعذيب لي ون لين القائد الشيوعي في جيانغتزي والمكروه من ماو، ونقل التفاصيل الى ماو لاحقاً. اتى الآن ليقدّم التهاني وهتف قائلاً «ايها الرئيس ماو!» فأجابه ماو «انت تتعلم بسرعة حقاً. أنت الشخص الاول». وكان هذا المعذّب اول شخص يستعمل لقب «الرئيس ماو» الذي اصبح جزءاً من المفردات العالمية.

(*) بفضل الرقابة على أراضي الجيش الأحمر، ارتفع عدد أعضاء الحزب الى 120 ألفاً عام 1931 في حين بلغ 18 ألفاً في نهاية عام 1926.

9- ماو والدولة الشيوعية الاولى
(1931-1934، العمر 37-40)

كانت رويجين عاصمة الدولة الشيوعية الجديدة تقع جنوب شرق جيانغتزي في وسط حوض نهري ذات تراب احمر تحيط به الهضاب من ثلاث جهات. وكانت تبعد ثلاثمئة كيلومتر عن نانتشانغ عاصمة المقاطعة التي يسيطر عليها القوميون، ولم تكن بعد طرقات تصل بين العاصمتين. لكن كانت تفصلها حوالى الاربعين كيلومتراً عن مدينة تينغزو الكبيرة التي يمسك بها الشيوعيون والتي تقع على حدود فوجيان المتصلة بالعالم الخارجي بواسطة احد الانهر. وكون المنطقة تتمتع بمناخ نصف استوائي فقد نعمت بمنتجات زراعية وافرة بالاضافة الى اشجار عملاقة فريدة كالكافور والأثاب التي برزت جذورها الهرمة فوق الارض بينما تدلّت الجذور الصغيرة من الرأس كالشلال.

كان المركز الرئيسي للحكومة الشيوعية يقع خارج البلدة في موقع لمعبد كبير تابع لاحدى العشائر وعمره 500 سنة. وكان للمعبد صالة واسعة كفاية لاستقبال مئات الاشخاص في حال انعقاد اجتماعات ضرورية. وبُنيت منصّة حسب النمط السوفياتي الروسي في المكان الذي وضع فيه مذبح العشيرة، وعُلّقت عليها صور حمراء لماركس ولينين محفورة في الخشب وعُلّقت بينهما راية حمراء تحمل نجمة ذهبية ومنجلاً. كما جرى تخييط قماشة حمراء بخيط مذهّب فوق المنصة وتحمل الشعار التالي: «ياعمال العالم اتحدوا!». والى جانبها كتب الشعار التالي بلون فضّي: «صراع الطبقات». والى اسفل ناحيتي الصالة رسمت تقسيماتٌ مؤقتة حدود لخمسة عشر مكتباً باعتبارها ادارة الدولة الحديثة. وكان لهذه المكاتب اسماء مترجمة مباشرة من الروسية وكانت طويلة جداً في اللغة الصينية ومن بينها «مفوّضية الشعب للشؤون الداخلية».

وراء معبد العشيرة تمت ازالة الأشجار واحدى المزارع لافساح المجال للنشاطات الشيوعية المتكررة المتمثلة بالحشود الجماهيرية، وبُني العديد من المباني التذكارية في هذه الساحة فيما بعد. وفي احد الجوانب كانت هناك منصة من الخشب والقرميد تحمل المجلات العسكرية ذات النمط السوفياتي. وفي الجانب الآخر كان هناك برج لاحياء ذكرى اموات الجيش الاحمر (الذين يُدعون شهداء) له شكل رصاصة ضخمة وتخرج منه احجار تشبه الرصاص. وعلى الجانبين هناك نصبان تذكاريان احدهما مقصورة والآخر قلعة ويحملان اسمين لقائدين

شيوعيين .... كان المشروع بأكمله نموذجاً مسبقاً لساحة تيان ان مين في بكين الشيوعية رغم ان المباني التذكارية كانت اكثر خيالية وغنىً في الالوان بالمقارنة مع الهندسة الكئيبة الطابع التي شوّهت تيان ان مين لاحقاً.

وبالقرب من هذا المكان وفي عمق الغابة بنى الشيوعيون مقراً مموّهاً للاجتماعات العامة وقادراً على استيعاب الفي شخص وصُمّمت سمعانية ممتازة فيه للتعويض على غياب الميكروفونات. وكان مثمّن الشكل ويشبه قبعة الجيش الاحمر آنذاك. اما الواجهة فتذكّر بكتدرائية اوروبية مزودة بمصاريع للنوافذ والابواب يستطيع الناس من خلالها النظر الى الخارج وليس العكس. وفوق الباب الوسطي كانت هناك نجمة حمراء ضخمة مع كرة ناتئة في الوسط ومقفلة بإحكام بواسطة المطرقة والمنجل. الى جانب مبنى الاجتماعات كان هناك ملجأ للحماية من الغارات الجوية قادر على استيعاب ما يزيد على الالف شخص وله بابان للدخول مباشرة وراء المنصة كي يتمكن القادة من الوصول اليه اولاً.

اما القادة فكانوا يعيشون في قصر يملكه اغنى شخص في القرية ويقع في احدى جهات معبد العشيرة الذي تحوّل الآن الى ادارة حكومية. وهنا اختار ماو افضل مكان للسكن هو جناح يقع في الزاوية وله نافذة تطل على المعبد. بُنيت هذه النافذة خصيصاً له بعد ان امتنع المالك السابق عن بناء نافذة تطل على المعبد احتراماً له. وطلب ماو ايضاً ان توضع احجار قرميد على الارض فوق الخشب لابقاء الفئران بعيداً عن المنزل.

كذلك وضعت اليد على الارض المتاخمة لمساكن القادة لاسكان الحرّاس وعمّال الارتباط ولتضمّ الحصون الامنية مثل المخزن الذهبي ولوحة المفاتيح ومحطة الاتصال اللاسلكي. بصرف النظر عن بعض القرويين الذين احتفظوا بهم للعمل كخدم فقد أُخلي باقي السكان بصورة جماعية وأقيم زنّار من الحواجز والمتاريس خارج المنطقة. ان ايّاً من القادة الحزبيين لم يكن يتكلّم اللهجة المحلية ومعظمهم لم يقم باي جهد لتعلّمها، لذلك كانوا بحاجة الى مترجمين للتخاطب مع سكان المنطقة الذين بقي اتصالهم بهم قليلاً . وقامت الكادرات الحزبية في المنطقة بتأمين الاتصال. لقد كان ذلك اسلوب ونمط يتّبعها جيش محتلّ.

في 7 تشرين الثاني 1931 اقامت رويجين احتفالاً كبيراً بمناسبة تأسيس الدولة الشيوعية. في تلك السهرة جرى تنظيم الآلاف من سكان المنطقة للمشاركة في العرض وهم يحملون مشاعل من الخيزران ومصابيح على شكل نجوم او مطارق ومناجل وبدا مشهد شعاع الانوار المتوهجة في عتمة الليل مميزاً. وكانت هناك طبول ومفرقعات نارية ومسرحيات هزلية قصيرة وفي احداها يسير «امبريالي بريطاني» وراء سجناء مقيّدين بالسلاسل ويحملون اسمي «الهند» و«ايرلندا». وكان مولد كهربائي يهدر في الملجأ المعدّ للاختباء من الغارات الجوية الى جانب

المعبد فيضيء الكثير من المصابيح الصغيرة المنتظمة على طول اسلاك معلّقة وسط الأعمدة. انارت هذه المصابيح الاعلام الكبيرة والشعارات الملونة والمتدلّية ايضاً من الاسلاك بالاضافة الى صور ضخمة بالاحمر والابيض والاسود معلّقة على الحيطان.

وقف ماو والقادة الآخرون على رأس اللجنة التنفيذية الدائمة وراحوا يصفقون وينادون بالشعارات فيما الموكب يمرّ تحتهم. كانت تلك المرة الاولى التي يتذوّق فيها ماو طعم الامجاد التي تنتظره بحيث ادّى له التحيّة حوالى المليون شخص في تيان ان مين.

لكن هناك فرق هام هنا اذ ان ماو لم يكن القائد الاعلى في رويجين فرغم تعيينه رئيساً ورئيس حكومة من قبل موسكو الاّ ان هذه الاخيرة لم تعيّنه دكتاتوراً. على العكس من ذلك فقد احاطته برجال آخرين تستطيع الوثوق بهم لناحية امتثالهم لأوامرها. كان على رأس الجيش زو دو الذي عُيِّن رئيساً للمجلس العسكري وسبق له ان تلقّى التدريب في روسيا وكان الروس يعرفونه ويعرفون انه مخلص. كانت موسكو فكرت في ماو لهذا المنصب لكنها غيّرت رأيها، وانتهى الامر باعتباره واحداً من الاعضاء الخمسة عشر العاديين للمجلس.

الامر الاهم انه كان لماو رئيس صيني مباشر في المنطقة نفسها هو تشو إن لاي الذي كان متوقعاً ان يصل من شانغهاي في كانون الاول 1931 اي الشهر الذي يلي تأسيس النظام، ليشغل منصب رئيس الحزب. يمثّل رئيس الحزب في النظام الشيوعي اعلى سلطة ويعلو على رئيس الدولة. مع وصول تشو انتقل مركز الحزب الى رويجين واصبحت شانغهاي اكثر بقليل من مكتب ارتباط مع الروس. اقيمت شبكة اتصالات لاسلكية بين رويجين وموسكو يُعوّل عليها وتمرّ عبر شانغهاي حيث كان شاب يدعى بو كو(*) مسؤولاً عنها. لم يكن ماو الشخص الذي يتحكّم بالاتصالات بل تشو إن لاي وكان تشو هو الذي بنى رويجين كدولة ستالينية. لم يكن ماو الشخص الرئيسي المسؤول عن العمل في رويجين وعن تأسيس الشيوعية فيها.

كان تشو محترفاً في التنظيم وكان المجتمع بأسره خاضعاً له في آلة تشمل الجميع وعلى نحو مترابط. اثبت فعاليّته في بناء ادارة ضخمة لم يقتصر عملها فقط على ادارة القاعدة بل اشتمل ايضاً على اكراه الناس على تنفيذ اوامر الحزب. في كل القرى انشأت الحكومة العشرات من

(*) تم إعدام الرجل الأول اسميا في الحزب هزيانغ تشونغ-فا على يد القوميين في شهر حزيران بعد إشارة من رئيس الاستخبارات القومية ي.ت.هسو الذي أصر أن القوميين انفسهم قدموها. في البداية، رفض هزيانغ الاعتراف بأنه الرجل الأول في الحزب الشيوعي الصيني إذ كتب «ولدى رؤية هذا الرجل الذي يبدو مغفلاً شعرنا اننا قد نكون على خطأ. لكن أحد الزملاء قال...عندما كان هزيانغ بحاراً كان مدمناً على المراهنة وعندما خسر كل ماله أقسم على الاقلاع عن الادمان وقطع أطراف أصابع يده اليسرى...وفعلا كانت أصابع يده اليسرى ينقصها أصلاً قطع لحم صغيرة...» بعد التعرف الى هزيانغ، جثا على ركبتيه متوسلاً أن يبقى على قيد الحياة» «وأعطانا فوراً أربعة عناوين». لاحظ تشو إن لاي لاحقاً أن إخلاص هزيانغ للشيوعية لا يقارن حتى مع عفة العاهرات.

اللجان مثل لجنة التجنيد ولجنة الارض ولجنة مصادرة الاراضي ولجنة التسجيل ولجنة حظر التجول الشيوعية وغيرها من اللجان. كان الناس يقعون في الشرك في احدى المنظمات ابتداء من سن السادسة بحيث يتوجب عليهم الالتحاق بفيلق الاولاد، وفي سن الخامسة عشرة كانوا يُسجّلون تلقائياً في لواء الشباب. أُدخل كل الراشدين باستثناء الهرمين والمعوقين الى جيش الدفاع الشيوعي وبهذه الطريقة أُخضع جميع السكان لنسق موحّد وتشكّلت شبكة للمراقبة.

كانت هذه الآلة بمثابة شيء مثير للدهشة بالنسبة الى ماو. قبل وصول تشو كان ماو يحكم الارض التي يسيطر عليها الشيوعيون بالاسلوب الذي يعتمده اللصوص مع اخضاع السكان لنسق موحّد بدرجة اقل، لكنه سرعان ما قدّر امكانات الطريقة الجديدة و فوائدها. عندما تولّى السلطة على مستوى البلد في آخر الامر ورث هذه الآلة التوتاليتارية وجعلها حتى اكثر تماسكاً وتراصاً واكثر تطفّلاً في حياة الناس بالمقارنة مع الحالة في رويجين او روسيا تحت حكم ستالين. واحتفظ بالقوات المسلحة التابعة لتشو حتى وفاة هذا الاخير.

أسّس تشو ايضاً وكالة الاستخبارات الروسية الصينية المسماة حينها مكتب الامن السياسي العامل تحت اشراف موسكو سنة 1928. اتى بهذا النظام الى رويجين تشو ومساعدوه وابقوا الدولة مستمرة من خلال الرعب. بينما كان ماو يستعمل الرعب لمآرب سلطوية شخصية استعمله تشو لدعم الحكم الشيوعي. كان مساعدو ماو الذين استخدمهم في عمليات التطهير متهكمين وفاسدين وساعين الى المصلحة الشخصية، اما تشو فقد استخدم محترفين مدربين على يد السوفيات.

عندما وصل تشو اولاً الى رويجين في نهاية 1931 اعتبر ان الطرق التي يستعملها ماو في التطهير غير صحيحة بالاجمال. ان ماو «اعتمد على الاعترافات والتعذيب اعتماداً كلّياً» و«تسبب بالرعب لدى الجماهير». ردّ تشو الى بعض الضحايا اعتبارهم ويتذكر العملية احد الاشخاص بقوله ان احد الرسميين «اخرج دفتراً وبدأ يقرأ اسماء. وطُلب من الذين وردت اسماؤهم الذهاب والوقوف في ساحة الدار الداخلية حيث الحراس المسلحون. كان هناك العديد من الاسماء ... وورد اسمي ايضاً. كنت مرعباً لدرجة ان العرق تصبب من كل انحاء جسدي. ثم تم استجوابنا واحداً فواحداً، وتبرئتنا واحدا فواحداً. وفي وقت قصير، وبمثل لمح البصر اطلق سراح كل المعتقلين. واحرقت على الفور كل الاعترافات التي تجرّم هؤلاء..».

لكن خلال بضعة اشهر وضع تشو حدّاً لفترة الراحة هذه. فحتى هذه الفترة القصيرة من اعادة الاعتبار ومن التراخي كانت كافية لنمو سريع في حركة المنشقّين. «ان التخفيف في عمليات التطهير جعل المعادين للثورة ... يرفعون رؤوسهم من جديد» كما اشار رجال الامن التابعين لتشو وهم مذعورين. وكما ظن الناس، وحسب ما يرغبون، انه لن يكون هناك

من قتل وتوقيفات، فبدأوا بالتجمع في سبيل تحدّي الاوامر الصادرة عن الشيوعيين. ووضح بسرعة ان النظام لن يستمر دون اللجوء الى التصفيات باستمرار فعاد القتل مجدداً.

رأت الدولة الشيوعية في شعبها سبباً لأربعة مصادر قوة هي المال والطعام والعمل والجنود الذين تحتاج اليهم اولاً في حروبها كما تحتاجهم في نهاية المطاف لفتح الصين.

كان هناك مصدر كبير للمال في المنطقة يكمن في اكبر مخزون للتنجستين في العالم وهو معدن ذو قيمة استراتيجية عالية وسبق ان جرى التنقيب عنه من قبل مجموعة شركات تعمل معاً برأس مال اجنبي. عاود النظام الشيوعي اعمال التنقيب في بداية 1932 وبينما كان الجنود والعمال المستعبدون يعملون كمعدّنين كان يتم تصدير التنجستين عبر الحدود الجنوبية للدولة الشيوعية الى امراء الحرب في كانتون الذين رغم كونهم من البيض كانوا معادين لتشيانغ وكانوا توّاقين الى الكسب المادي. نظرياً كانت المنطقة الشيوعية تحت الحصار لكن التجارة مع كانتون ازدهرت حتى عندما كانت هذه الاخيرة في حال حرب مع الجيش الاحمر. كانت الشاحنات تنقل للملح والقطن والادوية وحتى الاسلحة علناً مقابل الحصول على التنجستين. ادار العملية تسي مين شقيق ماو وهو رئيس البنك الذي تملكه الدولة.

بالرغم من الارباح الكبيرة التي كان النظام يجنيها من التنجستين وغيره من الصادرات فإنه لم يلطّف من قساوة مشاريعه الرامية الى انتزاع اقصى ما يمكن من سكان المنطقة. ومع انه اصبح للفلاحين ارضهم الآن ومع ان ايجارات الاراضي أُلغيت فقد تراجع وضعهم بالمقارنة مع ما كان عليه في السابق. قبل ذلك كان لمعظم الناس ممتلكات تتعدّى ما يحتاجون اليه لمجرد الاستمرار على قيد الحياة. اما الآن فقد أُخذت منهم هذه الاشياء الاضافية بحِيَل مختلفة، من بينها اكراه الناس على شراء «سندات الحرب الثورية». ومن اجل دفع ثمنها أُجبرت النساء على قص شعرهن كي يسلّمن الدبابيس الفضية مع ما تبقى من مجوهراتهن التي تعتبر تقليدياً مدّخرات العمر. ان حيازة الناس على هذه المجوهرات في الزمن الذي سبق الشيوعية دليل واضح على ان مستوى المعيشة كان افضل حينها. بعد ان ابتاع الناس السندات الحربية كانت هناك «حملات لاسترجاع السندات» لارهاب المشترين بالصياح او بالعبوس لاعادة السندات مقابل لا شيء. وجوهر الامر هو، كما قال بعض السكان الجريئين بحسرة، ان «سندات الشيوعيين هي اسوأ من ضرائب القوميين».

استعملت الطريقة ذاتها في ما يتعلق بالطعام، فبعد ان دفع الفلاحون الضرائب على الحبوب جرى الضغط عليهم لاعارة المزيد من الحبوب للدولة في حملات تحمل شعارات من مثل «ايتها الجماهير الثورية اعيري الحبوب الى الجيش الاحمر!» الاّ ان الطعام الذي اعاروه لم يعد اليهم ابداً. وكان في الواقع الطعام الذي يعتمد عليه الفلاحون للبقاء على قيد الحياة.

امرهم ماو بكل بساطة بتخفيض ما يستهلكونه وهو قليل في الاصل.

جُنّد معظم الرجال الذين هم في سنّ العمل او أُلزموا بالعمل. بعد مرور ثلاث سنوات على الحكم الشيوعي بالكاد كان يُترك اي رجل في القرية يتراوح عمره بين بداية المراهقة والخمسين. ونتيجة لذلك اصبحت النساء القوة العمالية الاساسية. تقليدياً كانت النساء تقوم بالاعمال الخفيفة الى حدّ ما في الحقول اذ ان اقدامهن المقيّدة والمصابة بالعَرَج تعني ان الاعمال اليدوية القاسية تتسبب بالالم الشديد. وبات عليهن الآن القيام بمعظم الاعمال الزراعية بالاضافة الى غيرها من الاعمال الروتينية التي تخصّ الجيش الاحمر كنقل الحمولة والاهتمام بالجرحى وغسل الثياب وأصلاحها وصناعة الاحذية التي كنّ يدفعن ثمن موادها الاولية، وكلّها ليست بالعبء الخفيف الاضافي. وكان ماو الذي يفكر منذ صباه بان النساء قادرات على القيام بالاعمال القاسية التي يقوم بها الرجال من اشد المدافعين عن هذه السياسة واصدر المرسوم التالي: «اتكلوا في شكل اساسي على النساء للقيام بالاعمال الزراعية».

لم يشغل خير السكان مكاناً على جدول الاعمال خلافاً للاسطورة التي لقّنها ماو الى الناطق بإسمه الاميركي ادغار سنو. ففي بعض القرى لم يُعطَ الفلاحون اية ايام عطلة على الاطلاق بل وكان عليهم حضور الاجتماعات التي اتخذها الشيوعيون وسيلة هامة لضبط الاوضاع. قال ماو «ان الشخص العادي كان عليه حضور ما يوازي خمسة ايام كاملة من الاجتماعات كل شهر وكانت افضل وقت للراحة بالنسبة اليهم».

كما ان مستوى الخدمات الصحية لم يتحسّن. كان هناك مستشفى تابع سابقاً لإرسالية بريطانية في تينغزو وكان يعالج الاشخاص العاديين. بعد ان استقر ماو هناك واحبّه امر بالغائه ونقله الى رويجين وحجزه للنخبة الشيوعية. اهتم ماو بصحته اهتماماً خاصاً فكان يحمل كوبه الشخصي اينما رحل وكان يستعمله كلما قدموا اليه فنجاناً من الشاي. مكث ماو لفترة في قرية تدعى ساند أيليت حيث ان المصدر الوحيد لمياه الشرب هو بركة راكدة، وللتأكد من عدم التقاط الجراثيم أمر بحفر بئر. نتيجة لذلك حصل اهل القرية على مياه نظيفة للشرب للمرة الاولى. بعد ذلك بدأ حفر الآبار في المكاتب التي كان الشيوعيون يأوون اليها، لكن لم تُبذل اية جهود لتزويد سكان المنطقة بالمياه النظيفة.

بالنسبة الى التربية ادّعى ماو على لسان سنو ان عدد المتعلمين ارتفع في بعض المقاطعات «بالمقارنة مع سائر المناطق الريفية في الصين بعد مرور عدة قرون». في الحقيقة حُصر التعليم تحت الحكم الشيوعي بالمدارس الابتدائية المسماة «مدارس لينين» حيث يتعلم الاولاد ليصلوا الى مستوى معين في القراءة والكتابة يمكنّهم من استيعاب أُسس الدعاية الشيوعية. واقفلت معظم المدارس الثانوية وصودرت لتتحوّل الى مساكن للقادة وامكنة للاجتماعات. واستعمل

الاولاد كحرّاس وانتظموا في فرق للمضايقة سُميت «فرق الاذلال» مهمّتها مطاردة الناس بهدف حملهم على الالتحاق بالجيش والضغط على الفارّين للعودة. وكان المراهقون يلقون التشجيع احياناً على القيام بالاعدامات في «صفوف الاعداء».

من اهم إسهامات ماو في ادارة الدولة الشيوعية هو بدء حملة لممارسة المزيد من الضغط على السكان في شباط 1933. وطلب من الكادرات على مستوى القاعدة الكشف عن «مالكي الاراضي المختبئين والكولاكيين». وبما ان الشيوعيين كانوا يستهدفون اعداء الصف» لسنوات لا يمكن تصوّر بقاء هذا النوع من الاشخاص متوارين عن الانظار.

لم يكن ماو متعصّباً او يفتش عن المزيد من الاعداء مدفوعاً بحماسة عقائدية. كان شخصاً عملياً يرمي الى تحديد اهداف للابتزاز وخلق اعداء يمكن طردهم وسوقهم الى الموت «بصورة شرعية» وفقاً للعقيدة الشيوعية، وهو ما اشار اليه ماو بـ«القيام بالاشغال الشاقة اللامحدودة». وتركزت النقطة الثانية على ترويع السكان لإجبارهم على قول كل ما يطلبه النظام.

شملت اوامر ماو الى الكوادر الحزبية «مصادرة كل ما تبقّى» من الذين صُنِّفوا ضحايا. غالباً ما كانت عائلات بكاملها تُجبر على مغادرة منازلها والعيش في سقيفة للجواميس معروفة باسم نيو بينغ. وفي تلك المرحلة اكتسبت المنازل البائسة التي رُمي فيها المنبوذون فجأة هذا الاسم. بعد مضي ما يزيد على الثلاثين سنة استعمل الاسم على نطاق واسع في الثورة الثقافية بمعنى التوقيف، رغم انه لم يتم توقيف الناس في ذلك الوقت في مبانٍ منفصلة بل في امكنة كالمراحيض والصفوف ودور السينما.

نتج عن حملات ماو عشرات الالآف من العمال المستعبدين لكن ذلك لم يغنِ خزينة الدولة، وفي الحقيقة لم يعد للفلاحين اي شيء ليتخلوا عنه. واشارت السلطات الى ان مقاطعتين فقط من اصل اثنتي عشرة مقاطعة في جيانغتزي كانت قادرة على دفع«غرامات» او «تقديمات» فوصل المبلغ الاجمالي الى جزءٍ من الهدف الذي كان ماو قد وضعه.

اعطى ضابط في الجيش الاحمر يدعى غونغ تشو وصفاً حياً للمأزق الذي وجد فيه الضحايا من خلال ما شاهد. اثناء مروره في مكان يدعى غانغ ميلّ بالقرب من رويجين ويسكنه اشخاص يحملون اسم عائلته مما يعني انه قد يكون واياهم متحدّرين من نفس الاجداد.

«لقد دخلت الى بينغل كبير له بلاط اسود ... صُعقت بجو جامح من الحزن والاسى. لم يكن هناك اية مفروشات باستثناء طاولة مكسورة وبنك. وكانت هناك امراتان في خريف العمر وامرأة مسنّة بالاضافة الى ثلاثة اولاد، جميعهم يلبسون ثياباً بالية ويبدو انهم جائعون. عندما رأوني ادخل برفقة اربعة من الحرّاس الشخصيين الذين يحملون المسدسات اصيبوا بالذعر الشديد ...

ومن ثم لمّا سمعوا اسم غونغ تشو «ركعوا امامي وتوسّلوني لأنقذ حياتهم».

وفيها المرأة المسنّة تشهق بالبكاء قالت: «قرأ زوجي المسنّ بعض الكتب [مما يعني ان العائلة كانت غنية نسبياً] ولذلك كان لدي ابنان. كان لدينا ما يزيد على عشرة مو من الاراضي وكان ولداي يحرثانها ... وتم توقيف زوجي المسنّ وولديّ ... وضُربوا وعُلّقوا وطُلب منا ان ندفع 250 يواناً. فعلنا ما بوسعنا لتأمين 120 يوان واعطيناهم ايضاً كل المجوهرات النسائية ... لكن ... كان زوجي المسنّ ما زال متروكاً وهو معلّق الى ان توفي، كما قُتل ولداي ايضاً. الآن هم يكرهوننا على دفع 500 يواناً والاّ سيسجوننا نحن الستة. ايها القائد! بالكاد لدينا شيء نأكله فأين نجد الخمسمئة يوان؟ ارجوك ان تفكر باجدادنا المشتركين وتكتب كلمة عادلة بحقنا».

واخبرت المرأة غونغ ان زوجها كا يودّ الذهاب للتفتيش عنه الاّ ان السلطات «منعتنا من ان نخطو خطوة واحدة خارج القرية. اليوم فتحت السماء عينيها حقاً وأوحت لك بالمجيء الى عائلتنا. ارجوك ايها القائد ان تخلّصنا!» وبعد هذه الكلمات ضربت رأسها على الارض بعنف دون توقف. وكان كلّ من كنّتيها والاولاد ساجدين ويجهشون بالبكاء.

وعدهم غونغ تشو بالمساعدة لكنه في النهاية لم يفعل شيئاً اذ كان يعلم ان التدخل قد يجعل الامر اسوأ. قبل بضعة اشهر عندما حاول مساعدة طبيب في وضع مماثل انتظره بعض الكوادر الحاقدين على مستوى القاعدة الى ان ذهب و«قتلوا الطبيب وصادروا المحل الذي يبيع فيه الادوية. واصبح كل من زوجته واولاده متسوّلين». ان احداثاً كهذه هي التي دفعت غونغ تشو الى رفض الشيوعية والفرار لدى توفّر الفرصة الاولى(*).

كان ماو ايضاً داهية في جعل الناس «يتطوعون» في الجيش الاحمر. عندما واجه احد افراد الكوادر مشاكل في تجنيد الناس طلب منه ماو ان «يجد معادين للثورة خلال ثلاثة ايام» فقام بالمهمة والتحق بالجيش [الذين كانوا مرتابين من الاصطدام بالنظام]. في احدى المناطق فشل الرجل المسؤول عن التجنيد الاجباري في الحصول على عدد كاف من المجندين. فأمر ماو باحضار هذا الرجل اليه وطلب ان يّضرب وعلى الارجح طلب ايضاً ان يخضع للتعذيب اذ ان كاي «اعترف» بأنه شكّل «لواءً من المعادين للشيوعية». واقيم حشد جماهيري اعلن فيه ماو عن الاعتراف، وأُعدم كاي وعدد من الاشخاص الآخرين على الفور. وقال احد افراد الكوادر الذي كان عمل مع كاي انه فيما بعد و«في اقل من نصف شهر سجّلت اكثر من مئة وخمسين شخصاً». كانت الدولة الشيوعية الاولى في الصين التي تُدار بواسطة الرعب وكانت تُحرس

(*) نشرت مذكرات غونغ المدمرة في هونغ كونغ عام 1954. أما رئيس الصين الذي أتى بعد ماو، يانغ شانغ كون، الذي شهد بنفسه لزمن رويجين، فقد أطلع مجموعة من المقربين أن المذكرات صحيحة رغم إدانة الصين لها. ومع ذلك، سمح لغونغ بالعودة والعيش في الصين القارية عام 1991 وهو في التسعين من عمره.

كالسجن. كان الناس بحاجة الى إذن للخروج من قراهم وكان الحرّاس منتشرين في كل مكان على مدار الساعة. كان احد الاشخاص الذين توفّرت لهم فرصة الهرب مديراً لمبنى تذكاري حكومي وكان ايضاً قادراً على الحصول على المال. اخذ معه 246.7 يواناً وهو مبلغ كافٍ لشراء جواز المرور ولدفع المال للاشخاص الذين سيساعدونه على الهرب. لكن قبل ان يتمكن من الفرار تم توقيفه. بعدها تمكن من الفرار من السجن بالتواطؤ مع شخصين من الكادرات العالية ومن بينهما رجل كان شاهد مقتل اخيه بصفته معادٍ للبولشيفية. اعتقل المدير وأُحضر الى محكمة كنغرية (محكمة لا تراعى فيها مبادىء القانون والعدالة) يحضر اليها مئات الاشخاص ومن ثم أُعدم. ويتذكر المقيمون في المنطقة منذ زمن بعيد بأنه لم يُقتل فقط اي شخص «يحاول الهرب الى المنطقة البيضاء» بل احياناً «كان يُعدم السجّان اذا هرب السجين».

في هذا العالم الذي يشبه السجن كان الانتحار شائعاً، وهي الموجة الاولى لظاهرة تطورت لاحقاً الى طوفان ساد طوال الفترة التي حكم فيها ماو. كان عدد حالات الانتحار مذهلاً حتى في اوساط الرسميين لدرجة انه توجّب على النظام ان يتحدّث عنه علناً كما جاء في الشعار التالي: «ان حالات الانتحار تمثّل العناصر المخزية جداً في صفوف الثورة».

وحتى إن ضابطاً برتبة عالية جداً مثل يانغ يوي بين وهو من المفضلين لدى ماو، كان يائساً بما فيه الكفاية ليقدم على الهرب والانضمام الى القوميين. افشى هذا الضابط بمعلومات عن الموقع الذي توجد فيه منازل القادة الحزبيين فقصف القوميون الموقع وأُجبر هؤلاء القادة جميعاً على الرحيل بسرعة.

توفّرت للاشخاص العاديين فرصٌ اكبر للهرب اذا كانوا يعيشون على اطراف المنطقة الشيوعية ونظّم بعض الكادرات على مستوى القاعدة والذين يكرهون النظام عمليات فرار جماعية. ان اياً من الكوادر الذين يثيرون الشكوك بالحد الادنى كانوا يُنقلون بعيداً عن المناطق النائية فوراً. انتظر الكثيرون حتى شنّ القوميون هجومهم ومن ثم حاولوا العبور. في الايام الاخيرة للدولة الشيوعية وعندما كان القوميون يحكمون الطوق على الشيوعيين ثارت قرى بكاملها وبدأت تشنّ الهجمات على الجيش الاحمر اثناء انسحابه مستخدمين الاسلحة الوحيدة المتوفرة لهم وهي السكاكين والرماح بما ان النظام وضع يده على كل الاسلحة النارية.

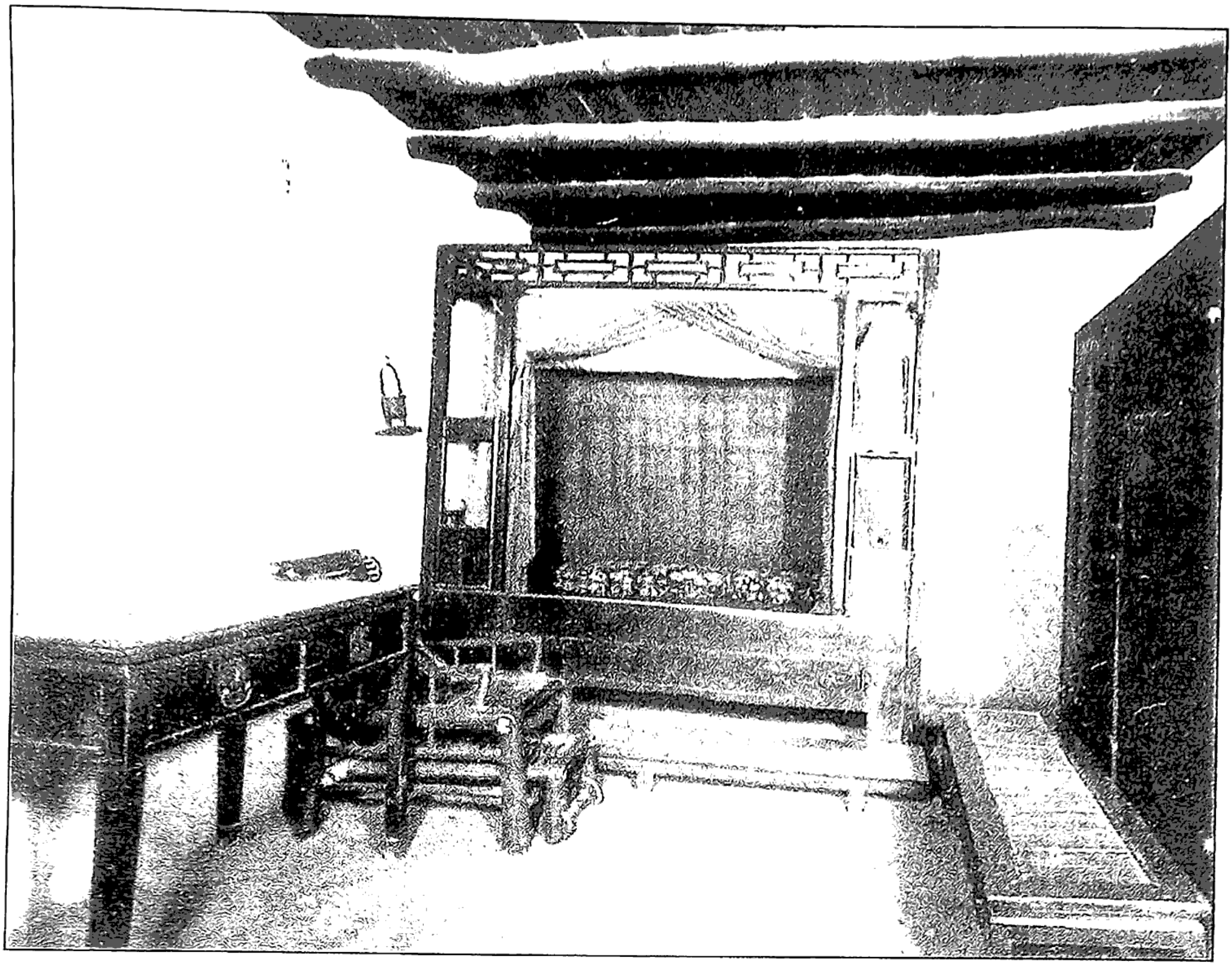
ردّت الدولة بتصرّف لا يعرف الرحمة ولا يخلو من المجازفة. في اللحظات الاسوأ كان ممكناً ان يتسبب التعاطي الاجتماعي اليومي والضيافة بالموت للعديدين. «لم يسمح لاية عائلة بالاحتفاظ بالزوار اثناء الليل» كما يتذكر احد المحاربين القدامى. «اذا اكتُشفت اية عائلة قامت بهذا العمل كان يُقتل افرادها مع الزائر».

كانت قاعدة رويجين، مقر الدولة الشيوعية الاولى تشغل اجزاء واسعة في مقاطعتي

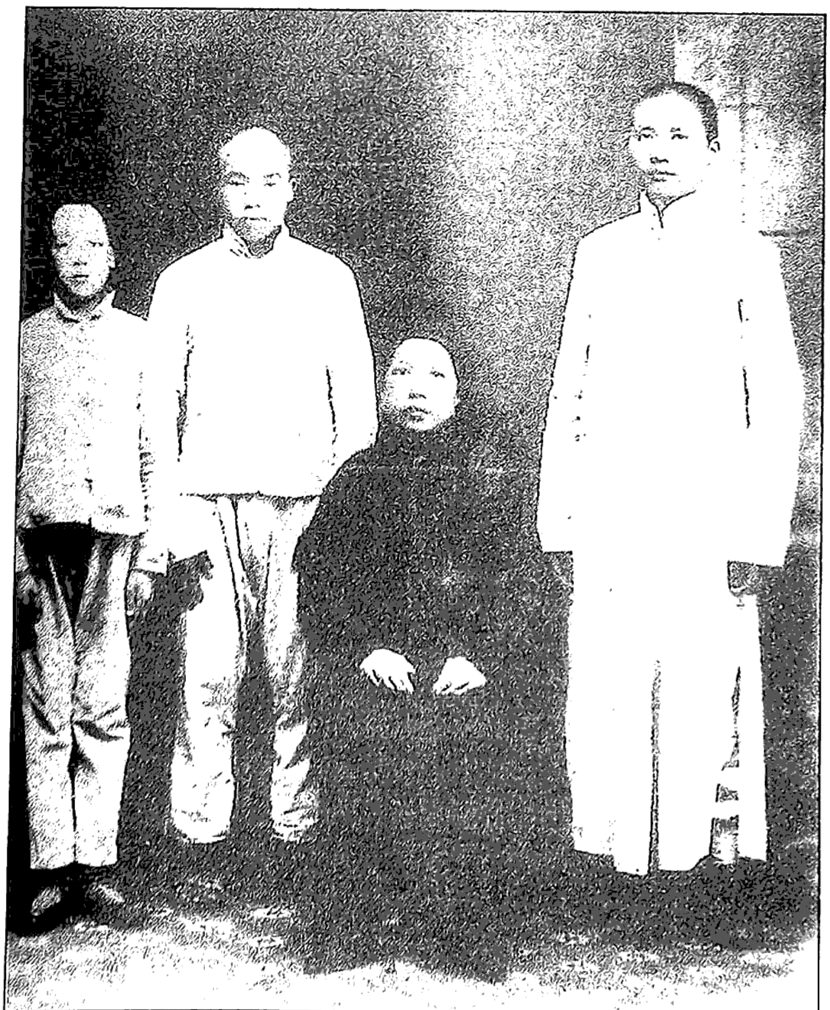
جيانغتزي وفوجيان. وعانت هاتان المقاطعتان من اكبر انخفاض في عدد السكان مقارنة مع سائر المقاطعات الصينية، ابتداءً من السنة التي تأسّست فيها الدولة الشيوعية اي 1931 وصولاً الى السنة التي تلت خروج الشيوعيين اي 1935. وخسرت جيانغتزي الواقعة تحت السيطرة الشيوعية اكثر من نصف مليون شخص، اي حصل فيها انخفاض قدره عشرين بالمئة فيما كان الانخفاض مماثلاً في رويجين الشيوعية. نظراً الى ان حالات الفرار كانت قليلة فإن هذا يعني ان حوالى 700 الف شخص بالاجمال توفوا في قاعدة رويجين. ان اكثر من نصف هؤلاء قُتلوا بصفتهم «اعداء الصف» او انهم اجبروا على العمل المضني حتى الموت او انهم انتحروا او ماتوا ميتة مبكرة يُمكن نسبتها الى النظام. ان اقل من النصف ماتوا في الحرب(*). ولا يشمل رقم 700000 الوفيات العديدة التي حصلت في مناطق واسعة احتلها الشيوعيون لفترات متقطعة او العدد المرتفع للوفيات في القواعد الشيوعية الخمسة الواقعة في اجزاء اخرى من الصين والتي كانت تحت سلطة رويجين.

بعد مرور عدة سنوات كان السكان يشيرون للسواح الى مقابر جماعية وقرى مهجورة. ورفض هذا الامر الناس الذين عاشوا تحت سلطة النظام الشيوعي الاول في الصين . في اول زيارة لضابط المخابرات الروسية الى المنطقة مباشرة بعد استيلاء الشيوعيين عليها في اواخر 1949 اخبره رئيس الحزب الواصل حديثاً انه في كل انحاء جيانغتزي «لم يكن هناك عضو واحد في الحزب الشيوعي الصيني».

(*) في عام 1983، بعد وفاة ماو، اعتبر 238,844 من أهل جيانغتزي «شهداء ثوريين» أي أناس قتلوا زمن الحروب وأبان عمليات التطهير داخل الحزب.



الغرفة التي ولد فيها ماو في 26 كانون الاول 1893 في بلدة شاوشان في مقاطعة هونان.



ماوتسي تونغ (إلى اليمين) في الصورة الوحيدة التي أخذت له برفقة والدته في تشانغشا عام 1919، قبل فترة وجيزة على وفاتها. يرتدي ماو، وهو في الخامسة والعشرين، زي الطالب بينما بقي شقيقاه (إلى اليسار) يرتديان زيّ الفلاحين.



ماوتسي تونغ (إلى اليمين) يضع على ذراعه شارة الحداد على والدته بعد وفاتها، ويرى جلوساً (إلى اليسار) والده و(إلى اليمين) عمه ووقوفا شقيقه تسي تان، في تشانغشا 13 تشرين الثاني 1919.



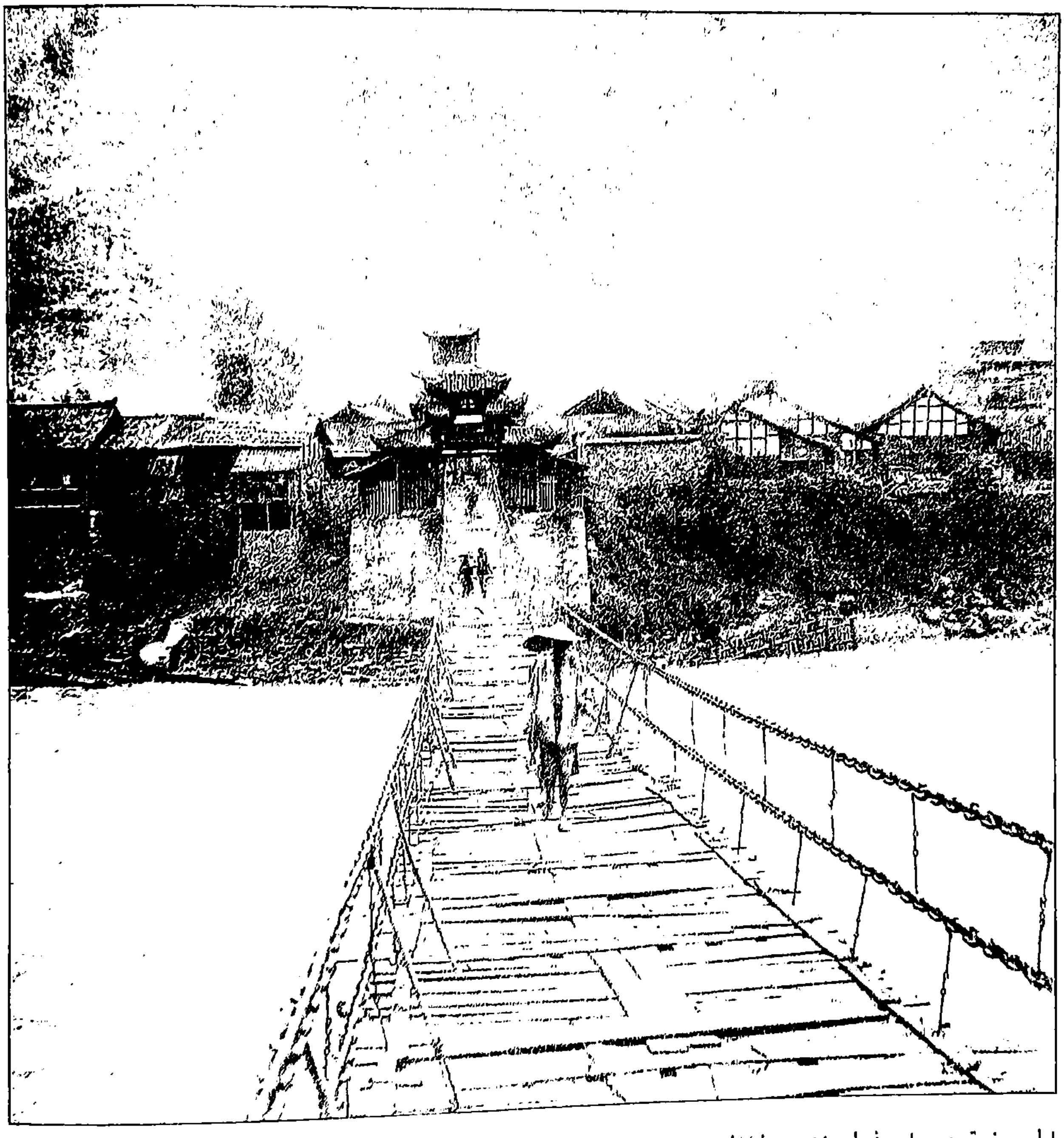
شانغهاي 1924: يانغ كاي هواي، زوجة ماو الثانية، مع ابنيهما البكرين، آن ينغ (إلى اليمين) وله من العمر سنتان وآن شنغ، وله من العمر سنة. بعد ذلك بفترة وجيزة، هجر ماو زوجته وقتلها القوميون بسبب ماو. تركت يانغ كتابات مؤثرة تصف فيها صحوتها من أوهام الشيوعية وماو الذي أحبت.

عملاء موسكو الرئيسيون في الصين. غريغوري فويتنسكي (إلى اليمين) اسس الحزب الشيوعي الصيني عام 1920. مارينغ (إلى اليسار)، الممرض الهولندي، احد رئيسي المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الصيني في شنغهاي عام 1921. انفصل لاحقاً عن الشيوعيين واعدمه النازيون.

جمع ميخائيل بورودين (إلى اقصى اليمين) قيادة القوميين والشيوعيين في الاعوام 1923-1927. كان في كانتون عام 1925 (الصورة إلى الأسفل) مع تشانغ كاي تشك (إلى جانبه) الذين أصبح فيها بعد زعيم القوميين، وقانغ شينغ فاي (في الوسط)، رئيس ماو في الحزب القومي، ولاحقا رئيس الحكومة التابعة لليابان.





الجسر فوق نهر دادو في لودنغ، وهذا الموقع هو في قلب خرافة «المسيرة الطويلة». ادعاءات الشيوعيين ان اشتباكات عنيفة حصلت هنا عام 1935 كلها من نسج الخيال.



رويجين في 7 تشرين الثاني 1931، اليوم الذي تأسست فيه اول دولة شيوعية في الصين واصبح ماو (الثاني من اليمين) «الرئيس».



قيادة الدولة الشيوعية في اجتماعها الرسمي الاول في اول كانون الاول 1931. يقف ماو وراء الكاميرا وزو دو إلى يمينه. انهارت الدولة الشيوعية في تشرين الأول 1934 عندما انطلقت «المسيرة الطويلة».



ماو (الثالث من اليسار وقوفاً، وفيه شيء من اوسكار وايلد) في قيادته العامة ما بعد «المسيرة الطويلة»، ينان، ايلول 1937، مع بعض ممن شارك في «انتفاضة حصاد الخريف» للعام 1927، اللحظة التأسيسية لخرافة ماو كزعيم للفلاحين. وتبدو زوجته الثالثة، غوي يوان، تقف إلى اقصى اليمين.

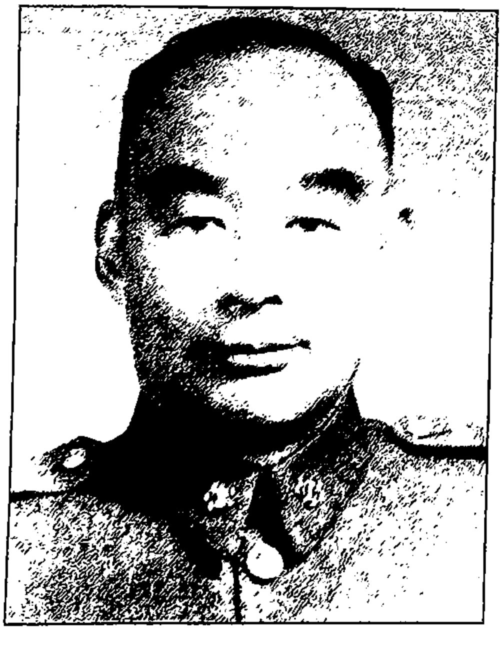


ماو (الثاني جلوسا من اليسار) مع ضباط الجيش الاحمر، بمن فيهم زو دو (الثالث جلوسا من اليسار)، ولين بياو، أقرب المقربين إلى ماو (الرابع، جلوسا من اليسار)، ينان، 1937.





الجواسيس الاربعة الذين ساعدوا في خداع القوميين. شاو لي تسو (اليمين) سلم ابن تشانغ كاي تشك إلى موسكو عام 1925 ليكون رهينة لدى ستالين لحوالى العقد. لم يقض تشانغ كاي تشك على الشيوعيين إبان «المسيرة الطويلة» بهدف استعادة إبنه. الجنرال زانغ زي زونغ (إلى الأعلى) إفتعل الحرب مع اليابان عام 1937 جاذباً اليابانيين إلى قلب الصين بعيداً عن روسيا. الجنرال هوتسونغ نان (إلى الاسفل) أهدى مجموعة كبيرة من القوى المسلحة القومية إلى ماو في العامين 1947-1948 للقضاء عليها. الجنرال واي لي هوانغ (في وسط الصورة السفلى)، في صورة للايف ماغازين، سلّم فرقة من اكثر من نصف مليون من افضل مقاتلي تشيانغ ومنشوريا إلى ماو عام 1948.





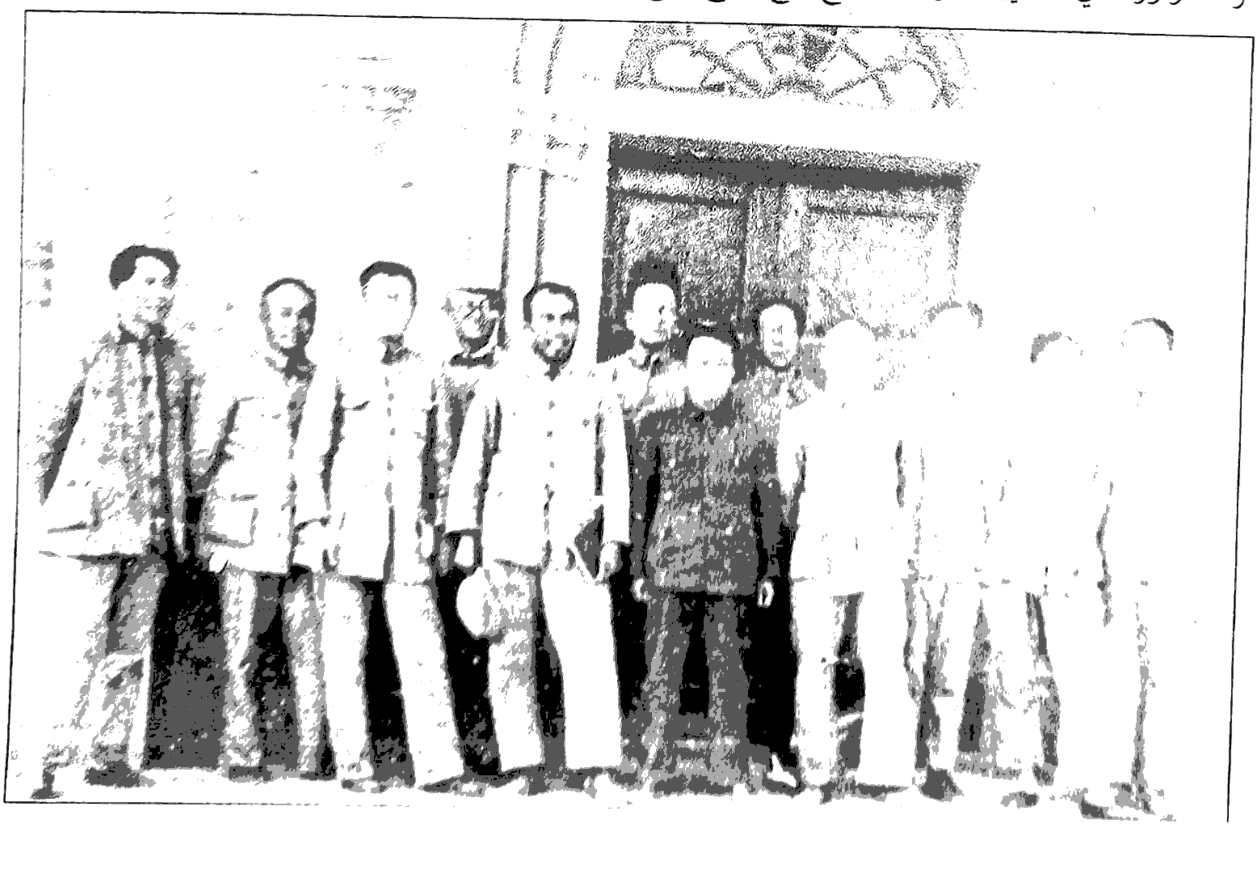


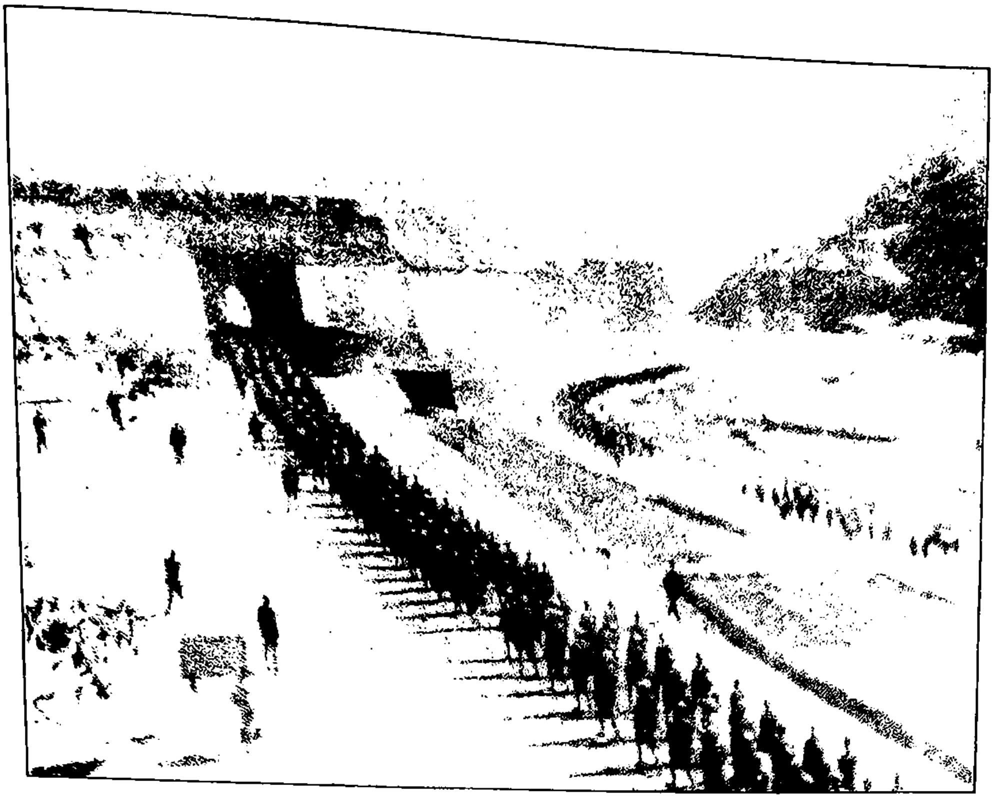
القائد الأعلى تشانغ كاي تشك (إلى اليمين) مع تشانغ هسوي ليانغ («المارشال الشاب»)، أمير الحرب المنشوري السابق الذي اختطف تشانغ في كسيان في كانون الأول 1936 وأعاد الاختطاف الصين مع ماو والشيوعيين المهمشين إلى الأمة. ويقف وراءهما صهر تشانغ كاي تشك وحافظ أسراره هـ. هـ. كونغ.



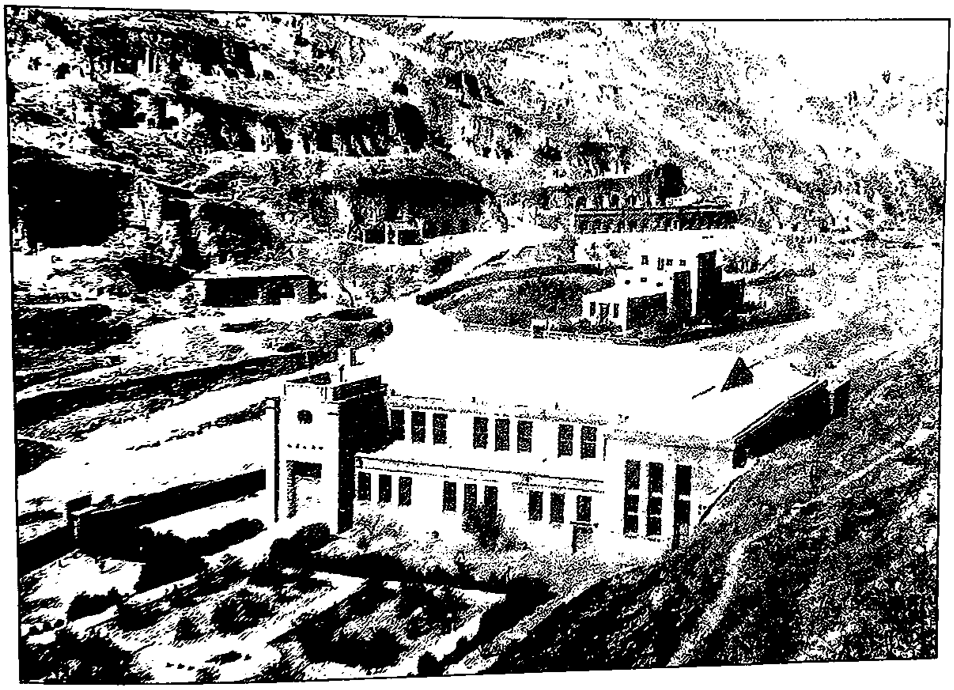


اهم اخصام ماو في الحزب. تشانغ كيو تاو (إلى اليمين، أعلاه) مع ماو في ينان عام 1937. نسف ماو مساعي جيش تشانغ الاكثر عدداً إبان «المسيرة الطويلة»، ثم ارسل نصف الباقين إلى حتفهم في الصحراء الغربية الشمالية، وهكذا دفن الناجين وهم احياء. فانغ مينغ (إلى اليسار، اعلاه) برفقة ماو بعد وصوله بقليل من موسكو إلى ينان في اواخر 1937، آتيا باوامر ستالين بمحاربة اليابان إلى الحزب الشيوعي الصيني. ماو، الذي رحب بالغزو الياباني كوسيلة لتحطيم تشانغ كاي تشك، شعر ان فانغ مينغ يهدده ثم سمم له. كان ماو أقليا في المكتب السياسي عندما اطلق شعاره السياسي «لا تحاربوا اليابان»، لكنه قلب حظوظه السياسية بالاحاييل في خريف 1938، عندما اجتمع المكتب السياسي في ينان (أدناه)، امام باب كاتدرائية الفرنسيسكان الاسبان. من اليسار: ماو، بنغ ده هاي، فانغ جيا تسيانغ، لو فو، زو دو، بوكو (الذي حاول ترك ماو وراءه في «المسيرة الطويلة»)، فانغ مينغ، كانغ شينغ، كسيانغ ينغ، ليو شاوكي، شن يون، شوان لاي.

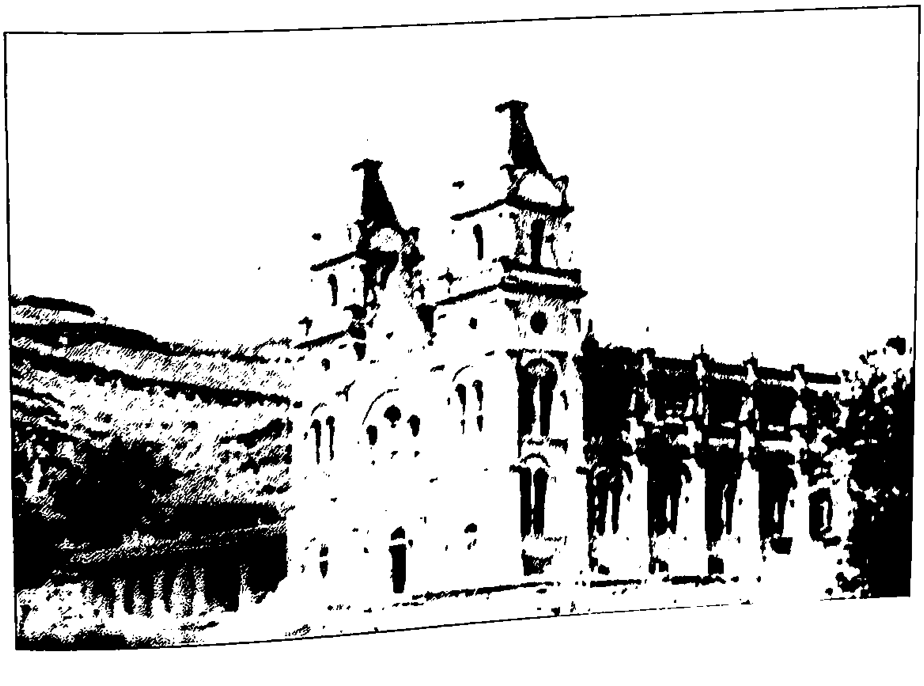




كانون الثاني 1937: الجيش الاحمر يدخل ينان التي اصبحت مقر ماو لعقد من الزمن.



ينان: المبنى الذي شيّد خصيصا لمؤتمر الحزب الذي ولّى ماو عام 1945. وتظهر في خلفية الصورة مغاور السكن المحفورة في التراب الناعم.



كاتدرائية سيدة بيغونيا للفرنسيسكان الاسبان في ينان. بعد انجازها عام 1935، استولى عليها القائد الاحمر المحلي، ليو شه تان الذي صفاه ماو. عقدت فيها اجتماعات حزبية عديدة بما فيها تلك التي لعبت دوراً في تغيير مصير ماو.

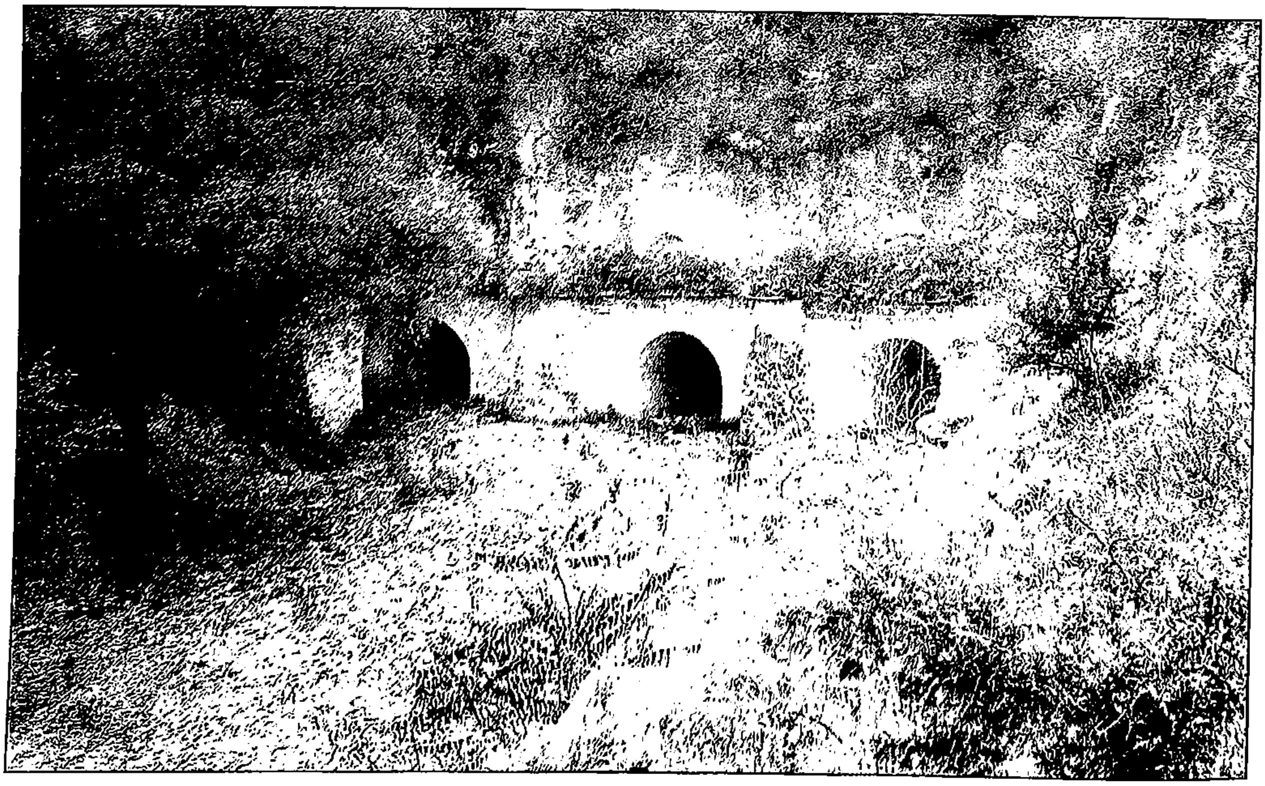


المؤلفة يونغ تشانغ تقابل أحد المزارعين المحليين وكانت والدته تهتم بغسل ثياب ماو.

المؤلف جون هوليداي امام آثار تشبه الكنيسة بنيت في الوادي خارج ينان لاجتماعات الحزب.



المجمّع السري، غير المعروف حتى اليوم، الذي عاش ماو في «كهف» (إلى يمين الصورة) داخله وهو مجهز بانفاق تقود إلى التلال. مدخله مغطى ولا يدخله نور الشمس. جيرانه الوحيدون آلاف المسجونين تحت الحراسة المشددة.





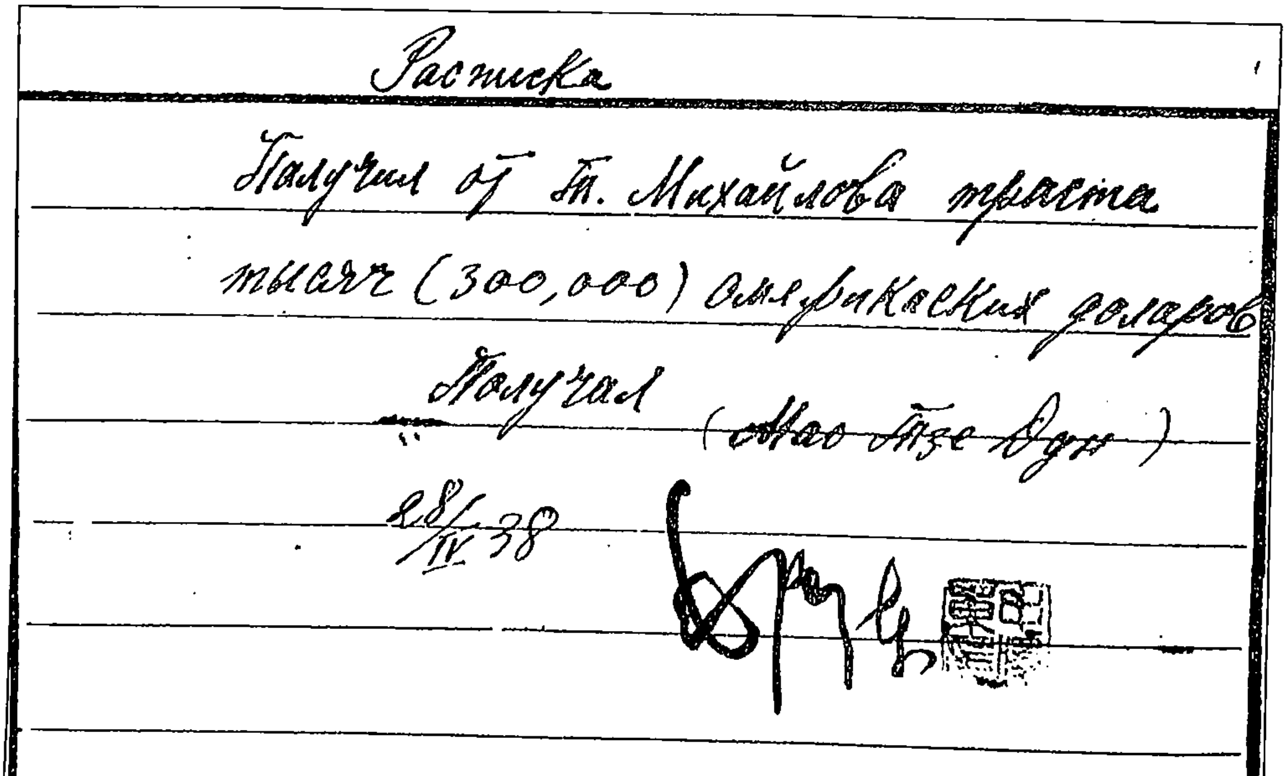
ماو مع زوجته الثالثة غوي يوان في ينان عام 1937. تركته بعد ذلك بقليل وغادرت إلى روسيا. أمضت بقية حياتها في الانهيارات العصبية ومحاولة الشفاء منها.



ابنا ماو الناجيان في المدرسة الخاصة لأبناء القادة الشيوعيين الأجانب في ايفانوفو، قرب موسكو. ان ينغ، الابن البكر، هو الطويل القامة في وسط الصف الثاني. تقول اليافطة الموضوعة فوق صورة ماو: عاشت الاممية الشيوعية، مؤطرة «الصراع في سبيل انتصار العمال».



ماو امام احد مقراته عام 1939 يقرأ كتاباً لستالين في وثائقي صوّره اقرب المخرجين السينمائيين إلى قلب ستالين، رومان كارمن، الذي نقل عند عودته إلى موسكو «تعبد» ماو لستالين.



Расписка

Получил от т. Михайлова триста тысяч (300,000) американских долларов

Получал (Мао Тзе Дун)

28/IV.38

ايصال وقعه ماو باستلام 330,000 دولار اميركي من روسي يدعى مخايلوف بتاريخ 28 نيسان 1938 (توازي في 2005 مبلغ اربعة ملايين دولار).





في شهر آب 1945، عند استسلام اليابان، طلب ستالين من ماو الذهاب إلى تشونغكينغ للعب ورقة التفاوض مع تشانغ كاي تشك. ويرى (اعلاه) السفير الاميركي باتريك هيرلي بين ماو وشوان لاي. وعندما استعرت الحرب الاهلية من جديد، ولاحت هزيمة ماو في الافق، أنقذه الجنرال الاميركي جورج مارشال الذي يُرى هنا مع زوجة ماو الرابعة جيانغ كينغ في ينان، 5 آذار 1946.

(إلى اليمين) المارشال تشانغ كاي تشك المهزوم يزور معبد الاجداد للمرة الاخيرة قبل مغادرته البر الصيني في العام 1949. ويرى ابنه ووريثه تشنغ كيو (إلى اليسار، معتمراً قبعة).



(ادناه) الجيش الاحمر يدخل بكين حيثٍ لقي استقبالا بارداً. هذا وصوّر الشيوعيون لاحقا افلاما عن دخول المدن مدعين انها مشاهد حقيقية.





(اعلاه) ماو يعلن تأسيس الصين الشيوعية من اعلى بوابة ساحة تيان ان مين في اول تشرين الاول 1949. وكان محور حملته السياسية الاولى الإعدامات الجماعية امام الحشود المنظمة. قال ماو: «فقط عندما يتم ذلك على افضل وجه يكون لسلطتنا الأمان». وقد حمل المحكومون بالاعدام على صدورهم يافطات تشير انهم «ملاّكو اراضي» و«جواسيس» (الصورتان أدناه).





10- من مثير للمتاعب الى رئيس صوري
(1931-1934؛ العمر 37-40 سنة)

لما تولى ماو السلطة كرئيس للدولة الشيوعية كان في الواقع قد فقد سيطرته المطلقة على المنطقة التي كان يحكمها في السابق وبوجه خاص سيطرته على الجيش الاحمر. كانت موسكو قد عينت تسو دي قائداً اعلى للجيش. بالاضافة الى ذلك كان تشو إن لاي الرقم الاول بصفته الامين العام للحزب. رفض ماو العمل في اطار قيادة جماعية وحاول التهويل على زملائه فردّ هؤلاء على حملته واتهموه بارتكاب عدد من الخطايا وحتى باعتماد «خط الكولاك» وهو اتهام دأب ماو نفسه على استعماله لقتل الكثيرين من الشيوعيين في جيانغتزي. وها هو الآن يواجه معارضة هي بمثابة حائط من الفولاذ. اثناء انعقاد اجتماع جرى بعد وصول تشو ترأس ماو الجلسة كما لو انه لا يزال في موقع المسؤولية. تدخل الآخرون لثنيه واعطاء كرسي الرئاسة لتشو. طلب ماو اذناً بالانصراف في وقت مبكر جداً واعطي له بكل سرور وبعدها ترك رويجين وهو متجهم الوجه في نهاية كانو الثاني 1932.

رحل ماو الى معبد بوذي مصادر لاغراض عسكرية ويدعى دونغوا هيلّ وهو واحد من عدة صخور ضخمة ترتفع من السهل المحيط برويجين. وتظلل الهضبة وسط المعبد النضر وهي مكسوة باشجار الميتاسيكويا والسرو والصنوبر وتنتشر فيها الاحجار السوداء الملساء. هنا امضى ماو الأيام التي عاشها مع زوجته غوي يوان بعيداً عن الحرّاس. كان المكان فسيحاً وتتردد فيه اصداء الاصوات وتنمو الطحالب على ارضه الترابية الرطبة. خارج غرفة ماو الموجودة في الدير كانت أوراق الشجر تتساقط بفعل ريح الشتاء ومياه الأمطار تغرق في التصدعات التي اصابت الاحجار في ساحة الدار فتتسبب بالمزيد من البرد. كان المشهد حزيناً.

جلبَ ماو معه صندوقين مطليّين بالحديد ومليئين بالوثائق وقصاصات الجرائد والملاحظات والقصائد التي كتبها خلال سنوات. في الأيام المشمسة كان الحرّاس يخرجون هذين الصندوقين الموضوعين فوق بعضهما الى ساحة الدار فيجلس ماو على ما يشبه البديل عن كرسي ويقرأ ويعيد قراءة محتوياتها ويفكر ملياً كيف يطالب باسترداد السلطة التي خسرها.

وقتها كان لا يزال يتلقى الوثائق الهامة يومياً بالاضافة الى الصحف القومية والشيوعية التي يحبها. ومن خلال هذه الصحف استكشف فرصة ذهبية، ربما، هو الذي خلقها بنفسه. بين

16 و21 شباط ظهر بلاغ لانكار للشيوعية في الصحف القومية الرئيسية وحمل الاسم المستعار لتشو إن لاي حينها وتبرّأ من الشيوعية وادان الحزب الشيوعي الصيني خاصة لخضوعه لموسكو. ووصل مكتب الحزب الشيوعي الصيني في شانغهاي الى حدّ مواجهة التأثير الذي تركه البلاغ ونشر اشاعات تفيد بان البلاغ ملفّق ووزع مناشير لهذه الغاية وحاول ان ينشر بيانات مضادة لهذا البلاغ في الصحف.

رغم انه ما من شك بان البلاغ مكيدة مدبّرة فقد ادّى الى اضعاف تشو وسلطته، وهكذا تمكن ماو من استغلال نقطة الضعف هذه. لم تقم استراتيجيته على اخراج تشو من منصبه، الامر الذي سيبدو غير واقعي، بل قامت على جعل تشو يسانده لازاحة زو دو فيستعيد سيطرته على الجيش.

في اوائل آذار دُعي ماو الى اجتماع لمعالجة احدى الأزمات عُقد على بعد 125 كيلومتر غرب رويجين خارج مدينة غانزو التي حاول الجيش الاحمر وضع اليد عليها دون جدوى. في اللحظة التي وصلت فيها الدعوة اسرع ماو لتلبيتها رغم هطول المطر بغزارة. حاولت غوي يوان اقناعه بالانتظار حتى يتوقف هطول الامطار الاّ انه اصر على الخروج فوراً فتبلّل بسرعة. انطلق ليلاً باقصى سرعة على ظهر حصان وعندما وصل الى الاجتماع تدخّل مباشرة لانتقاد القيادة العسكرية. لم يكن معظم القادة الآخرون في مزاج يمكّنهم من سماع محاضرة يلقيها امامهم كما لم يقترح اي منهم اعادته الى قيادة الجيش.

لكن بما ان ماو عاد لمناقشة مسألة الجيش اصرّ على البقاء هناك وبدأ بتنفيذ خطته. وكان على الشيوعيين الغاء الحصار على غانزو ووافقت الاغلبية على وجوب تحويل القتال باتجاه الغرب لتأمين الاتصال مع جيب آخر شيوعي موجود على الحدود بين جيانغتزي وهونان. لكن ماو اصرّ على ذهابهم في الاتجاه المعاكس. وبما انه رفض ان يغيّر رأيه وقع امر اتخاذ القرار على تشو إن لاي بصفته رئيس الحزب. صادق تشو على الخطتين ولكنه اراد ارسال ثلث الجيش فقط في الاتجاه الذي تحبّذه الاكثرية بينما يُرسل القسم الاكبر من الجيش مع ماو في الاتجاه الذي يريده ماو. نتيجة لذلك سمح لماو بانتزاع السيطرة على ثلثي الجيش، خلافاً لرغبات معظم القادة.

ان التفسير الاكثر احتمالاً لهذا القرار الاستثنائي هو ان تشو رأى انه من الافضل وربما من الاهم تهدئة ماو. كان على علم بان ماو هدد بتلفيق تُهم معاداة البولشيفية ضد كل من بينغ دو هياوي وزو دو بالاضافة الى زعيم حزبي آخر عارضه ويدعى غزيانغ يينغ. لم يرفّ جفن لماو فيما يتعلّق بقتل عشرات الالآف من الشيوعيين المخلصين الذين وقفوا في طريقه. في الواقع كان ماو قادراً على زرع بلاغ الانكار للشيوعية بنفسه وأظهر ميلاً للتلاعب بالصحافة مثل اختلاق شائعة وفاته. ولماذا اتى بلاغ الانكار المزيف في الوقت الذي كان تشو خلف ماو للتو

في منصب الرجل الاول في الدولة الشيوعية؟ لم يكن تشو يتحمّل جعل ماو عدواً له.

ان خوف تشو من ماو بدأ من هذا التاريخ ولم يفارقه ابداً، وفي الواقع لوّح ماو لتشو ببيان الانكار المزيف مرات عديدة حتى وفاة هذه الاخير بعد اربعة عقود.

اطلع ماو كلاًّ من تشو والقيادة العسكرية على نيته بالذهاب الى شمال شرق الصين. بعد انطلاقه غيّر طريقه فجأة وقاد الجنود المرافقين له والذين يشكلون ثلثي الجيش باتجاه الساحل الجنوبي الشرقي واعلم تشو فقط عندما كان على وشك الوصول فكان من المستحيل على تشو عدم الموافقة. لم يكن لهذا التوجه اية قيمة استراتيجية اذ ان الشيوعيين كانوا غير قادرين على الابقاء على قاعدة هناك ودان زملاء ماو هذا الانحراف لاحقاً واعتبروه توقفاً «نخّر مشاريعنا».

اثناء قيام ماو بهذا الالتفاف تعاون مع شريكه القديم لين بياو، الرجل الذي شكل عصابة معه في السابق بهدف الحاق الخراب بزو دو. كان لين القائد الاساسي للقوة المخصصة لماو. في 20 نيسان احتلت هذه القوة مدينة زانغزو المزدهرة والقريبة من الساحل. وكان الدفاع عنها ضعيفاً واستهدفها ماو لاهداف شخصية.

من بين هذه الاهداف اكتساب النفوذ في العالم الاوسع اذ ان زانغزو ربطتها علاقات جيدة بدول عديدة على الساحة العالمية. وفيما كانت تدور في بال ماو التغطية الاعلامية لنشاطه دخل المدينة على حصان ابيض وبدا وسيماً على غير عادته ومرتدياً بزة سان يات سين والتوبية (قبعة هندية من الفلّين). زحف الجيش المرافق له في اربعة صفوف شوهدت فيها نتوءات بارزة. ارسل ماو الى زملائه قصاصات من الصحف جمعها عن نفسه وتروي مآثره في عبارات مثل «الجيش الاحمر في زانغزو؛ الساحل بكامله مهتزّ؛ فرار ما يزيد على المئة الف» و«28 سفينة مدفعية اجنبية مجتمعة في اموي». كان ماو مدركاً انه كلما تعززت سيرته كلما اصبحت موسكو تميل لمساعدته. في الحقيقة عندما تحرك زملاؤه الغاضبين باتجاه اخراجه في وقت لاحق من تلك السنة كبحتهم موسكو مشيرة الى هذا السبب بالذات. وطمأن ممثل موسكو في شانغهاي الالماني ارثور ايفرت الروس انه اكّد فوراً لرويجين ان «ماو تسي تونغ هو الآن زعيم ذو سيرة مشرّفة ... ولذلك ... احتججنا على اقالته ..».

الا ان السبب الرئيسي لذهاب ماو الى زانغزو كان تجميع ثروة خاصة به. واعيد الى جيانغتزي عدد كبير من الاقفاص التي كُتب عليها «التسليم الى ماو تسي تونغ شخصياً» وملأت الاقفاص شاحنة بأكملها وعندما خلت الطريق من المارة نقلها الحمّالون. قيل انها تحتوي على كتب كان ماو اشتراها او نهبها، الا ان العديد منها كان يحتوي على الذهب والفضة والمجوهرات. نقلها الحمالون بسريّة الى قمة احد الجبال وحفظها داخل كهف اثنان من حرّسه

الشخصيين الجديرين بالثقة واشرف عليها تسي مين شقيق ماو تسي تونغ. خُتم المدخل فيما كان هؤلاء القلّة على علم بالغنيمة اما القيادة الحزبية فقد حُجب عنها السرّ. وبذلك يكون ماو حصل على ضمانة في حال اختلف مع الحزب ومع موسكو.

بينما كان ماو يماطل في بقائه في زانغزو في ايار 1932 كان تشيانغ شيك يهيّىء لـ«حملة ابادة» اخرى هي الرابعة ونشر نصف مليون جندي لهذه الغاية. اقنعه بناء الدولة الشيوعية بان الشيوعيين كانوا سيتّحدون معه ضد اليابان. في 28 كانون الثاني من تلك السنة شنّت اليابان هجوماً على شانغهاي، المدينة الصينية الرئيسية لناحية النشاطات التجارية والصناعية وهي تبعد عن منشوريا الف كيلومتر. هذه المرة واجهه الجنود الصينيون الذين تكبدّوا اصابات فادحة. وبما ان الاهداف العسكرية لليابان في منطقة شانغهاي كانت محدودة في تلك المرحلة تمكّنت عصبة الامم من التوسّط لترتيب وقف لأطلاق النار. طوال الأزمة التي دامت حتى اواخر نيسان عمل الشيوعيون بعزم على توسيع سيطرتهم على المزيد من الاراضي(*). بعد انحسار الازمة اعاد تشيانغ احياء سياسته القائمة على «الاستقرار الداخلي اولاً» وحضّر للهجوم على القواعد الشيوعية مجدداً.

عندما حصلت قيادة الحزب الشيوعي الصيني على هذه المعلومات المخابراتية ارسلت برقية الى ماو تطلب فيها اعادة الجيش الى القاعدة دون تأخير. اجاب ماو بأنه لا يعتقد ان تشيانغ سوف «يشنّ هجوماً كالحملة الثالثة التي قادها السنة الفائتة» وقال للحزب بأن «تقييمه واستراتيجيته العسكرية هما مخطئان كلياً». رفض ماو مغادرة زانغزو الى ان مضى حوالى الشهر وظهرت نيّة تشيانغ الى العلن وتأكد عدم صوابية الرأي الذي يتمسّك به ماو.

في 29 ايار كان على ماو العودة الى جيانغتزي الشيوعية ونتيجة لايصال جيشه الى مأزق منفرد أُجبر عشرات الآلاف من الجنود على الزحف معه ما يزيد على الثلاثمئة كيلومتر في طريق العودة في حرّ قاسٍ فانهار عدد كبير منهم وماتوا. وفيما هم على طريق العودة كان عليهم محاربة عدو اضافي هو سكان كانتون الذين سبق وان تجنبوا محاربة الشيوعيين. اتّخذ سكان كانتون موقفاً مستقلاً من تشيانغ وكانوا في الواقع يدبّرون مؤامرة ضده. الا ان غزو ماو لزانغزو اقلقهم اذ كانت المدينة على بعد ثمانين كيلومتراً فقط من مقاطعتهم وحتّم قرب الخطر التحرّك

(*) في 15 نيسان أصدر الشيوعيون «إعلان حرب على اليابان». كان هذا وباء ترويج محض وقد حصل قبل أكثر من 5 سنوات من إطلاق الجيش الأحمر النار على اليابانيين (عدا في منشوريا حيث خضع تنظيم الحزب لسيطرة موسكو وليس روبجين) فشكل ذلك أحد أطول الحروب في التاريخ. في الواقع، شكل إعلان الحزب الشيوعي الصيني إعلان حرب على تشيانغ كاي شيك أكثر منه حرباً على اليابان إذ يؤكد أنه «بهدف ...مقاتلة الامبرياليين اليابانيين، من الضروري أولاً مجابهة قاعدة القومبن». ففي المحادثات السرية داخل الحزب الشيوعي الصيني لم تحصل أية إشارة الى اليابان كعدو.

من قبلهم. عندها اضطر الجيش الاحمر الى القتال في واحدة من اعنف المعارك القليلة التي خاضها قرب بلدة تدعى واتر ماوث Water Mouth وتكبّد خسائر جسيمة. كان الجنود الشيوعيون الذين قاتلوا بشكل ملفت جداً من المتمردين حديثاً على الجيش القومي وذهبوا الى المعركة وهم عراة حتى الخصر فيما يلوّحون بسكاكين ضخمة(*).

ورغم تسبب ماو بكل هذه الاصابات والمشقات غير الضرورية للجيش الاحمر لم يتعرّض للتأنيب بل تابع الهجوم عبر الطلب باعطائه اعلى منصب في الجيش اي رئيس المفوضية السياسية. كان المصدر الوحيد لتشجيع ماو على تصرفاته موقف موسكو المتسامح منه الى درجة لا تصدق. وبينما كان ماو يضيّع الوقت في زانغزو كانت القيادة الحزبية بمن فيها تشو ارسلت برقية موحدة الى موسكو تصف اعمال ماو بانها تمثل «الانتهازية بنسبة مئة بالمئة» وهي «من غير ريب معاكسة لتعليمات [الكومنتيرن]». لكن موسكو اجابت بوجوب الحفاظ على ماو في موقعه باي ثمن وعلى مكانته ومنزلته. كان واضحاً ان موسكو تعتبر ماو ضرورياً اذ ان الكرملن كان دائماً يبدي له الاحترام الذي لم يمنحه الى اي زعيم آخر، واذا تعلّق الامر بالحسم في نزاع ما فان موسكو على الارجح ستدعم ماو.

في 25 تموز اوصى تشو بتلبية مطالب ماو «من اجل تسهيل قيادة المعركة على الجبهة». كان زملاؤه يودّون ان يعهدوا بالمهمة لتشو الاّ ان هذا الاخير اجاب قائلاً: «اذا اصررتم على ان يكون تشو رئيس المفوضية السياسية فإن ذلك ... سيترك رئيس الحكومة [ماو] دون اي عمل يقوم به ... وهذه اقصى درجات الخطورة ..». وعُيّن ماو رئيس المفوضية السياسية في الجيش في 8 آب.

استعاد ماو سيطرته على الجيش الا ان الخلافات مع زملائه تعمّقت. في صيف 1932 ركّز تشيانغ هجوماته على منطقتين واقعتين تحت السيطرة الشيوعية الى الشمال من جيانغتزي. ووفقاً لتعليمات موسكو اصدر الحزب امراً الى كل فرق الجيش لتنسيق كل تحركاتها لمساعدة هذه المناطق. وكانت مهمة ماو تقضي بايصال جيشه الى موقع قريب من القاعدتين اللتين تتعرضان للاعتداء وشنّ هجوم على البلدات لاجبار العدو على سحب قواته. قام ماو بهذا العمل لبعض الوقت ولكن لما اصبح التقدّم صعباً رفض بكل بساطة الاستمرار في القتال. رغم البرقيات الملحّة التي طلبت المساعدة جلس متفرجاً لمدة شهر بينما كان تشياتغ يعمل على

(*) ينتمي المتمردون الى وحدة مؤلفة من 17 ألف رجل حملهم قادتهم الى الجيش الأحمر من نينغدو في كانون الاول 1931. انه التمرد الوحيد لمصلحة الشيوعيين منذ نانتشانغ في عام 1927 – ولسنوات طويلة لاحقة. هؤلاء الآتون الجدد ساهموا في تقوية الجيش الأحمر على مسرح فوجيان–جيانكسي بنسبة الثلث إذ بلغ قوامه 50 ألف رجل. وسرعان ما أدرك قائدهم جي زين تونغ أنه أقحم نفسه وجيشه معهم وطلب «الذهاب الى الاتحاد السوفياتي للدراسة» –وهذه الحجة الوحيدة التي تمكن من إعطائها للفرار: لكنه اعتقل ثم أعدم لاحقاً.

اخراج الشيوعيين من هاتين القاعدتين.

شكّلت جيانغتزي الهدف الثاني لتشيانغ وقررت موسكو ان افضل استراتيجية تعتمدها في هذه المسألة تكمن في التصدي لهجوم تشيانغ وجهاً لوجه، لكن مرة أخرى امتنع ماو عن الموافقة مشدداً على انه من الأفضل تشتيت القوات الشيوعية بانتظار ما سيحدث. لم يؤمن ماو ان الجيش الأحمر المتفوّق عددياً قادرٌ على الحاق الهزيمة بتشيانغ ويبدو انه كان يأمل ان يلقى الشيوعيون الصينيون المساعدة من موسكو ليتمكّنوا من النجاة من المأزق الذي اوقعوا انفسهم فيه. في ذلك الوقت كانت موسكو ونانجينغ تتفاوضان على اعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما بعد ان قطعتها موسكو سنة 1929 بسبب محاولة الصين السيطرة على خط السكك الحديدية الشرقية الصينية في منشوريا. ويبدو انه تبعاً لحسابات ماو فان تشيانغ سوف يسمح للشيوعيين الصينيين بالاستمرار على قيد الحياة كبادرة حسن نية تجاه موسكو.

رأى زملاء ماو ان تكتيكه السلبي المعتمد على التأجيل هو «خطير للغاية» الاّ ان ماو لن يتزحزح. وكما قال تشو: «في بعض الاحيان اصبحت الخلافات من دون نهاية»؛ «من المستحيل ان نعرف ماذا يجب ان نفعل».

استلزم الأمر انعقاد اجتماع طارىء في بداية تشرين الأول وتحول الى مكاشفة مع ماو، فتجمّع ثمانية من قادة القاعدة الشيوعية في بلدة نينغدو لعقد اجتماع برئاسة تشو. ويمكن استشعار الغضب الذي تفجّر في وجه ماو في المفردات التي استعملها لوصف المشهد حيث، كما جاء في قولهم، شاركوا في صراع على خطين [خطين تعني كأنهم يواجهون عدواً] وتخلّوا عن النمط السابق القائم على الاستسلام لـ[ماو] وارضائه» وفي ذلك اشارة الى معاملة تشو اللينة لماو.

ادين ماو لـ«عدم احترامه القيادة الحزبية ولانعدام فكرة التنظيم الحزبي لديه» مما يعني بعبارة اخرى التمرّد. وكادت ان تكون اللهجة اقسى لولا تشو الذي حسب ما نقل زملاؤه «لم ينتقد اخطاء ماو تسي تونغ على نحو غير غامض بل حاول في بعض الحالات ان يموّه اعماله ويفسّرها ويعللها». كما كانت الكوادر الحزبية العليا الباقية في شانغهاي مغتاظة من ماو لدرجة انها ابرقت الى الزملاء في نينغدو دون التشاور مع ممثلي موسكو وكان ذلك الامر غير مألوف ابداً ودليل على الدرجة التي بلغها غضب تلك الكوادر. وفي هذه البرقيات وصفت اعماله بانها «لا تطاق» وقالت بانه يجب اخراجه من الجيش، وورد اقتراح حتى بوجوب طرده من الحزب.

عمد القادة الحزبيون في نينغدو الى طرد ماو من منصبه في الجيش على الفور دون اعطاء موسكو الوقت للتدخل. لكن مراعاةً لاوامر موسكو بعدم تشويه صورة ماو امام الرأي العام قيل للجنود بانه «عائد مؤقتاً الى الحكومة المركزية لترؤس كل شيء». وأُعلمت موسكو بان ماو ذهب الى موقع خلفي «بسبب المرض».

خلال المؤتمر ارسل ماو برقيتين من نينغدو الى شانغهاي في محاولة واضحة لحثّ موسكو على المساعدة. لكن ايفرت، ممثل موسكو في شانغهاي والذي كان ايضا فقد صبره مع ماو اختار ان يرفع تقريراً الى موسكو عبر رسول وليس عبر برقية حتى لا تصل اخبار طرد ماو الى موسكو قبل انتهاء المؤتمر. وجد ايفرت نفسه مضطراً لشرح فشله بالمحافظة على ماو لموسكو. «ان القرار ... بازالة وانتقاد» ماو كان اتُّخذ «دون التشاور المسبق معنا» وقال ايفرت انه لم يوافق عليه: «ان قراراً كهذا [يجب الاّ] يؤخذ دون استنفاد كل الاحتمالات الاخرى ..». رغم انه «ليس هناك من شك مهما يكن ان ... ماو تسي تونغ مخطىء ... يجب استعمال الاقناع الودّي معه».

واصدرت موسكو الأمر التالي الى الحزب الشيوعي الصيني: «فيما يتعلق بخلافاتكم مع الرفيق ماو تسي تونغ نحن نكرر: حاولوا ان تكسبوه وتضمّوه الى خط الصراع الفعلي بطريقة ودّية. نحن ضد اقالة ماو تسي تونغ من الجيش في الوقت الحاضر اذا تقيّد بالنظام الحزبي». وسُئل ستالين «بالحاح» عن رأيه في 2 تشرين الثاني، وطُلب الى زملاء ماو بعدها شرح خطوتهم القاضية بازاحة ماو من الجيش. وانتقد ستالين منتقدي ماو ومدح تعاطي تشو مع المسألة باعتدال.

اتى الدعم الروسي لماو متأخراً جداً وبعد ان ترك نينغدو في 12 تشرين الاول انتقل منصبه كمفوض للجيش الى تشو. لم يغفر ماو ابداً لمناوئيه في نينغدو وجعلهم يدفعون الثمن لاحقاً وبعضهم دفع ثمناً مكلفاً. كان تشو الهدف الرئيسي لاستياء ماو رغم انه حاول حمايته الا ان السبب هو انه في نهاية المطاف اخذ منصب ماو. في مرحلة لاحقة من حياته شجب تشو نفسه اكثر من مئة مرة فيما تمّ الاحتفاظ باقسى عملية جلد ذاتي قام بها هذا الاخير الى حين الوصول الى نينغدو. وبعد مضي اربعين سنة أُجبر تشو على القيام باعتذار مذلّ تلو الآخر الى مجموعة من المسؤولين في مناصب عليا. وحصل ذلك في ربيع 1972 حين كان تشو رئيساً للحكومة كما تمّ مباشرة بعد ان افاد التشخيص بانه مصاب بسرطان المثانة. في الوقت نفسه كانت الصين غارقة في مفاوضات شاقة مع الولايات المتحدة واليابان وعدد من الدول الاخرى وترك تشو انطباعاً ممتازاً لدى محدثيه الاجانب.

كان ماو واثقاً من انه يشكّل اهمية بالنسبة لموسكو فرفض بقوة الذهاب الى رويجين والقيام بعمله هناك وبدلاً من ذلك ذهب الى تينغزو «للنقاهة» حيث مستشفى الانجيل الذي كان تابعاً لاحدى الارساليات في السابق ويؤمن افضل عناية طبية في المنطقة الخاضعة لسيطرة الشيوعيين، وذلك قبل ان يأمر ماو بنقله الى رويجين. مكث ماو في قصر مؤلف من طابقين يملكه احد المسيحيين الاغنياء وتمت مصادرته من قبل النخبة من الشيوعيين. يقع القصر على

هضبة تكسوها الغابات وتحيط به على المستويين شرفتان مفتوحتان ومنقوشتان بخشب داكن اللون. ووفّر هذا الموقع للقصر الظلال والنسيم المثاليين للحرّ الذي يميّز الجنوب بالاضافة الى العطر والجمال اللذين يميّزان اشجار الليمون واوراق الموز في الحديقة شبه الاستوائية.

من هذا القصر ادار ماو مركزاً حزبياً رئيسياً منافساً لسواه من الحزبيين. واستدعى عدداً من الاتباع وطلب منهم عدم المواجهة والقتال عند تعرّضهم لهجوم من القوميين بل اخلاء المناطق الواقعة على الخطوط الامامية. وشجع زمرته على اتخاذ الموقف التالي تجاه الاوامر الحزبية: «نفّذوها اذا كانت تناسبكم وتجاهلوها اذا كانت غير مناسبة لكم».

في كانون الثاني 1933 وصل بو كو البالغ خمسة وعشرين سنة الى قاعدة رويجين(*). كان يدير مكتب الحزب في شانغهاي وكان للتو حثّ زملاءه في نينغدو على الحاق الهزيمة بماو. كان بو كو يصغر ماو باربعة عشر عام ومضى على وجوده في الحزب سبع سنوات فقط. كان فائق الذكاء وترك انطباعاً جيداً لدى ادغار سنو الذي رأى انه يملك ذهناً «سريع الاستيعاب وحادّاً كذهن تشو إن لاي، وربما اكثر ليونة من ذهن هذا الاخير». كان يتكلّم الروسية والانكليزية بطلاقة ومعتاداً على اسلوب الحياة في موسكو اذ خضع لتدريب عسكري هناك لمدة ثلاث سنوات ونصف (1926-1930) وقبل كل شيء كان حاسماً على نحو ممتاز وهي ميزة كانت موضع تقدير كبير من قبل رفاقه الساخطين بمعظمهم على تشو الذي اعتبّر ليّناً جداً تجاه ماو. رغم ان بو كو كان اصغر سناً واقلّ خبرة فقد صوتت الغالبية له كي يتسلم رئاسة الحزب من تشو الذي احتفظ بالقيادة العسكرية. وترك تشو الامر يحدث إذ لم يكن لديه نَهَمٌ للسلطة ولم يكن توّاقاً لشغل منصب الرجل الاول. في الواقع يبدو انه رحّب بوجود شخص في موقع اعلى منه.

كان بو ساخطاً جداً على ما فعله ماو وقرر التحرّك بسرعة بما ان رويجين كانت تواجه هجوماً وشيكاً من قبل تشيانغ. بالاضافة الى ذلك كان بو يتلقى العديد من الشكاوى الاخرى على ماو. ووصف بينغ دي-هواي ماو بانه «شخصية بغيضة اهانت» زو دو. وقال بينغ انه «يحب اثارة النزاعات»؛ «ان الاساليب التي يستعملها ماو وحشية جداً. اذا لم تخضع له سوف يجد طريقة لا محالة لاجبارك على الخضوع. هو لا يعرف كيف يوحّد الكوادر الحزبية».

الاّ ان يدي بو كانتا مكبّلتين. عندما غادر شانغهاي قال له عميل موسكو ايفرت بصورة فظّة انه يتوجب عليه على نحو جازم العمل مع ماو. الا ان هذه الامر لا يشمل أتباع ماو فاستطاع بو العمل في هذا النطاق. ابتداءً من شباط 1933 وُجّهت الانتقادات في الصحافة الى مجموعة من مساعدي ماو بمن فيهم شقيقه تسي تان وجميعهم في مناصب دنيا. لكن القلة التي

(*) لم يعد الحزب قادراً على العمل بالخفاء في اية مدينة في المنطقة البيضاء نتيجة مراقبة القوميين البوليسية والانسحابات الواسعة من الحزب. في كتب التاريخ، أدين هذا الفشل عن غير حق وأسند الى لي لي سان كبش المحرقة الدائم.

تشغل المناصب العليا ادركت بان ماو هو الهدف الحقيقي وجرت المحافظة على سمعته بدقة في اوساط الجنود العاديين. اضف الى ذلك ان بو لم يلجأ الى الطرق التي يتّبعها ماو في القتل. رغم ان اللهجة كانت حادة («هشّمهم الى فُتات» و«قتال وحشي») فقد عومل اتباع ماو كرفاق وقعوا في الخطأ وليس بصفتهم «أعداء» وسُمح للبعض منهم بالاحتفاظ بمراكز هامة.

تمكن بو كو من تفكيك سلسلة القيادة المستقلة التي انشأها ماو ووحّد الحزب كي يحارب تشيانغ بنجاح كبير. للمرة الاولى هزم الجيش الاحمر الجنود المحترفين التابعين للقائد العام في معارك ضمّت عشرات الالوف من الرجال واخفقت حملة الابادة الاخيرة التي شنّها تشيانغ اخفاقاً تاماً في آذار 1933.

خلال هذه الحملة الرابعة كان على تشيانغ محاربة الشيوعيين على خلفية ازمة وطنية متصاعدة. في شباط 1933 اندفع اليابانيون الى شمال الصين عبر السور الكبير انطلاقاً من منشوريا فاصبحت بكين واقعة تحت تهديدهم. وفي نفس الشهر انشأ اليابانيون دولة تابعة لهم في الشمال الشرقي وهي تدعى منشوكيو(*).

ربحت رويجين هذه الحملة الرابعة نتيجة للمساعدة الكبيرة التي تلقتها من الاتحاد السوفياتي الذي كان للتو اعاد علاقاته الدبلوماسية مع تشيانغ في كانون الاول 1932. سمح استئناف العلاقات الرسمية لروسيا بارسال ضباط المخابرات الى الصين مجدداً من اجل مساعدة الشيوعيين تحت ستار الدبلوماسية والصحافة. ولعب الملحق العسكري الروسي التابع للمخابرات العسكرية السوفياتية المايجور جنرال ادوارد لوبين دوراً رئيسياً اذ انه كان يلتقي تشيانغ وضباطاً قوميين كباراً بانتظام بامكانه تالياً نقل احدث المعلومات الهامة الى الجيش الاحمر الصيني. وشكّل ايضاً صلة وصل بين هذا الجيش ومجموعة المستشارين العسكريين للحزب الشيوعي الصيني في موسكو. وكذلك لعب المستشارون العسكريون السوفيات العاملون سرّاً في الصين دوراً كبيراً في الحرب. عندما اجتمع ماو باحدهم لاحقاً وهو الالماني الشيوعي اوتو براون، الوحيد الذي وصل الى رويجين، قام ماو بمدحه. بعد ان القى عليه ماو التحية «بشكل رسمي وقاسٍ» سجل براون ان «ماو اقرّ بنجاح الهجوم المضاد ... في شتاء 1933-1932 . وقال اني كنت الدافع له..».

كانت الشخصية العسكرية الاساسية من جانب الشيوعيين الصينيين خلال هذه الحملة الرابعة تشو إن لاي كما ان انتصارات الشيوعيين غير المسبوقة والتي تحققت بقيادته عزّزت

(*) الدول الوحيدة التي اعترفت بها الى جانب اليابان هي السلفادور، الفاتيكان والاتحاد السوفياتي حيث رفرف علم منشوكيو فوق قنصليات تشيتا وفلاديفوستوك. هذا جزء من محاولة قام بها ستالين لتهدئة طوكيو ليجرب تحاشي تحول اليابان شمالاً لمهاجمة الاتحاد السوفياتي.

مكانته وثقته بنفسه الى حدّ كبير. كان ماو يعلم ان موسكو تعترف بالمنتصرين والانتصار العسكري الذي حققه تشو يمكن ان يؤدّي الى ميل دفة موسكو باتجاه تشو لاسيما وان ماو عارض منذ البداية استراتيجية الحرب التي اعتمدتها موسكو. لذلك عاد ماو الى رويجين من فترة النقاهة في شباط 1933 وأظهر تعاوناً. ظلّت موسكو تخصّه بعناية واهتمام فريدين وتسدي النصيحة لزملاءه باستمرار بانه «يجب عليهم اشراك ماو في العمل باي ثمن... بالنسبة الى ماو تسي تونغ يجب ان تبذلوا اكبر جهد لاعتماد موقف قائم على التسامح والاسترضاء معه..».

تابع ماو المشاركة في الاجتماعات التي تُعقد على مستوى عالٍ وترأس تلك التي يخوّله منصبه ترؤسها. كان دائم الاطلاع على كل المعلومات واحتفظ بالامتيازات النخبوية لنفسه. لكنه كان يعلم ان لموسكو تحفظات عليه ليس اقلّها الطريقة التي اتُّهم فيها معاونوه في الصحف الشيوعية. وفهم ايضاً قوة الريح التي تهبّ في وجهه من خلال ادراكه للدرجة العليا التي بلغتها عزلته. فبالكاد كان يزوره احد وراح اتباعه يتجنبون التعاطي معه. وتذكر زوجته انه احياناً لم يكن يبادل احداً كلمة خارج عائلته لايام. قال ماو بعد مضي عدة عقود ان الامر بدا وكأنه جرى «نقعي في برميلٍ من البول وتحريكي بعنف صعوداً ونزولاً عدة مرات، لذلك اصبحت رائحتي كريهة فعلاً».

وجاء دليل آخر على خسارته لتأييد موسكو في بداية 1934 عندما خسر منصب «رئيس الحكومة» بينما احتفظ بمنصب «الرئيس» الذي هو اعلى. كانت المهمة الرئيسية لرئيس الحكومة الاشراف على الادارة التي لم يزعج ماو نفسه للقيام بها فيما كان الحزب يريد شخصاً في هذا المنصب يقوم بالعمل بصورة فعلية. وحلّ محلّه لو فو الرجل الطموح البالغ الرابعة والثلاثين من العمر وكان تلقّى تدريبات عسكرية في موسكو. جرى التعويض على ماو عبر تعيينه عضواً كاملاً في المكتب السياسي للحزب للمرة الاولى منذ سنة 1923، الاّ انه لم يدخل الجزء المركزي في الحزب اي الامانة العامة. لم يكن ماو على اللائحة التي حظيت بموافقة موسكو وقاطع الجلسة المكتملة للحزب التي نفّذت هذه القرارات مدّعياً المرض. ولاحظ بو كو ان «في تصرّفه هذا خلل آخر في اللياقة» ولكن فليكن الامر كذلك.

ظلّ ماو موضع اهتمام شعبي كما بقي مطلّعاً باسهاب على منشورات الحزب الشيوعي الصيني والمنشورات الصادرة عن موسكو. وبقي ماو «الرئيس» في نظر سكان المناطق الخاضعة للشيوعيين، وفي نظر العالم الخارجي بما فيه القوميين. لكن في المجالس الخاصة قارنه بو كو بالرئيس الصوري لروسيا. الآن «سيصبح ماو العجوز مجرّد كالينين آخر، ها ها»، كما قال لاحد اصدقائه.

11- مادفع ماو الى المسيرة الطويلة
(1933-1934؛ العمر 39-40 سنة)

في ايلول 1933 قام تشيانغ كاي شيك بتعبئة نصف مليون جندي لـ«حملة ابادة» اخرى هي الخامسة في سجلّه، ضد قاعدة رويجين. وكان توصل الى اتفاق هدنة مع اليابانيين في ايار يقبل بموجبه احتلالهم لاجزاء من شمال الصين بالاضافة الى منشوريا مما ترك له مجالاً للتركيز بقوة على الشيوعيين.

خلال الشهور الفائتة كان تشيانغ ماضياً في بناء طرقات قوية مكّنت جنوده من التجمع في المنطقة لاستقدام التموين. ومع هذه التحضيرات اللوجستية اصبح تشيانغ الآن قادراً على الاطباق على المنطقة الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين. من ثم توغّل جنوده في القاعدة الشيوعية ببطء وكانوا يرتاحون كلما اجتازوا بضعة كيلومترات لبناء حصون صغيرة قريبة من بعضها لدرجة انه يمكن ربطها بنيران الرشاشات، مما اوقع الشيوعيين في حصار خانق بفعل هذه المعاقل. وكما جاء في وصف قائدهم بينغ دي-هواي كان تشيانغ يدفع المنطقة الشيوعية الى «الانكماش تدريجياً وهو التكتيك القائم على تجفيف البركة ومن ثم الحصول على الاسماك».

كان الجيش الاحمر يتمتع فقط بعُشر القوة التي يتمتع بها تشيانغ وكان اقل تسليحاً بكثير. بالاضافة الى ذلك كان جيش تشيانغ افضل تدريباً نتيجة لجهود مجموعة كبيرة من المستشارين العسكريين الالمان. وبالتحديد حصل القائد العام على خدمات الرجل الذي لعب دوراً رئيسياً في اعادة بناء الجيش الالماني سرّاً بعد الحرب العالمية الاولى، الجنرال هانس فون سيكت. لذلك بنت موسكو شبكة «المانية» خاصة لمساعدة الشيوعيين الصينيين على مواجهة مستشاري تشيانغ. وارسلت خبيراً عسكرياً يتكلم الالمانية يدعى مانفرد سترن وعُرف لاحقاً باسم الجنرال كليبير في الحرب الاهلية الاسبانية، ليكون المستشار العسكري الاول وقاعدته شانغهاي. كما أرسل الالماني اوتو براون الى رويجين في ايلول كقائد فعلي للجيش على الارض.

في رويجين استقر براون في المنطقة المحاطة بالحواجز والمحجوزة للقادة الحزبيين في منزل مسقوف بالقش في وسط حقول الارز. وطُلب منه «البقاء داخل المنزل قدر الامكان للحفاظ على امني بصفتي «شيطان اجنبي»، ونظراً لتذمر [القوميين] المتواصل من وجود «عملاء روس». أُعطي براون اسماً صينياً هو لي دي أي «لي الالماني» وزُوّد بـ«زوجة»كانت لها ميزة

هامة وحيدة هي انه «يجب عليها ان تكون ضخمة» و«لها جسد قوي جداً» على اعتبار ان الاجانب بحاجة الى نساء اقوياء قادرات على تلبية حاجاتهم الجنسية.

بحسب السيدة زو دو التي خلفت زوجته التي اعدمها القوميون والتي كانت معلوماتها تعكس الكلام المتداول في تلك الايام «لم تكن اية رفيقة مستعدة للزواج من اجنبي لا يتكلم الصينية. لذلك لم يستطع الحزب ايجاد الشريك المناسب». في النهاية وجدوا صدفة فتاة جميلة من الريف كانت عروساً في طفولتها وفرّت للانضمام الى الثورة، لكن رغم الضغط الكبير عليها رفضت. «بعد مرور بضعة ايام تلقّت امراً يقول: «ان لي دي هو رفيق بارز وأُرسل لمساعدة الثورة في الصين. ان زواجك منه يمثّل حاجة للثورة. وقررت المنظمة ان تتزوجيه». اطاعت الامر رغماً عن ارادتها... لكنهما لم يتفقا».

وفي زواجها الثاني حملت بابن لبراون وكانت بشرة الصبي داكنة وكان لونها اقرب الى بشرة الصينيين منها الى بشرة شخص ابيض مما دفع ماو الى اطلاق هذه النكتة: «حسناً، ان هذا يدحض النظرية القائلة بتفوق العرق الجرماني».

كان بو كو، الرجل الاول في الحزب، الشخص الاقرب الى براون وسبق لبو كو ان عمل معه في شانغهاي وكان قادراً على التكلم معه بالروسية. كانا يلعبان الورق مع المترجمين وكانا يركبان الخيل معاً، وكان تشو إن لاي يرى براون كثيراً بصفته الشخص الثاني في الحزب وبصفته رجل عسكري يشغل مرتبة عليا. الاّ انه لم يتوجب على براون التعاطي المكثف مع ماو الذي كان يلتقيه فقط اثناء مهمات رسمية. كتب براون عن تلك المناسبات ان ماو «ابقى على تحفّظ مهيب». لم يكن ماو يتكلم الروسية وظل متيقظاً تجاه براون اذ رأى فيه تهديداً له.

قبل ان يحلّ ربيع 1934 كانت حملة تشيانغ تشكّل ضغطاً على القاعدة منذ حوالى الستة اشهر. لا المستشارون الروس ولا احد من قادة الحزب الشيوعي الصيني لديه حلاً لمواجهة حرب الحصون المفروضة من قبل تشيانغ وتفوّقه العسكري الساحق. كان القادة الشيوعيون في رويجين يعلمون بأن ايام القاعدة باتت معدودة وبدأوا يخططون للانسحاب. في 25 آذار ارسلت موسكو برقية الى رويجين التقطتها المخابرات البريطانية وجاء فيها ان التوقعات بالنسبة الى القاعدة تنذر بكارثة وهي تنذر بكارثة اكبر، كما قالت، مما يقدّره الحزب الشيوعي نفسه. ما إن تلقى بو هذه الرسالة حتى بدأ يحاول ازاحة ماو. في 27 آذار ارسلت شانغهاي برقية الى موسكو تقول فيها ان رويجين «تفيد بان ماو مريض منذ مدة طويلة و[هي] تطلب ان يُرسل الى موسكو»، لكن ماو لم يكن مريضاً ابداً. لم يكن بو كو وزملاؤه يريدون بقاءه حيث هو اذ قد يتسبب بالمشاكل مجدداً.

لكن رُفض طلب رويجين باخراج ماو وفي 9 نيسان ارسلت موسكو برقية تفيد بانها «ضد

زيارة ماو» لها إذ ان الرحلة التي تشمل المرور في مناطق يسيطر عليها البيض قد تنطوي على مخاطر كبيرة. «من غير ريب يجب معالجة امره في المنطقة السوفياتية [اي المنطقة الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين] حتى ولو يستلزم ذلك كلفة مرتفعة. اذا استحالت معالجة امره في المكان الذي يوجد فيه واذا كان هناك خطر بمصير مشؤوم نتيجة للمرض، في هذه الحالة فقط نوافق على مجيئه الى موسكو».

لم يكن ماو يرغب في ان يُطرد وردّاً على بو كو الذي يضبط الاتصالات مع موسكو قال: «ان صحتي جيدة ولن اذهب الى اي مكان». لكن بو توصل الى نتيجة اخرى تقضي بترك ماو وراءه ليحتفظ بالحصن. ان ابقاء رئيس الدولة في موضعه الطبيعي سيكون طريقة مثالية للاعلان ان الدولة الشيوعية ما زالت مستمرة.

لم يكن احد يريد ان يظلّ ماو حيث هو. ان الكثيرين من الذين بقوا خسروا حياتهم اما في المعركة او في الاسر والاعدام. وكان تسي تان شقيق ماو الاصغر من بينهم فيما كان صديقه هو شو هنغ الذي اتى به ماو الى المؤتمر الاول للحزب الشيوعي الصيني ضحية اخرى. وكذلك كان مصير الرجل الاول في الحزب سابقاً تشو تشيو باي. وكان الاستياء قوياً لدى الباقين على قيد الحياة. ان الرجل الثاني في الحزب الذي بقي حيث هوَ يدعى تشين يي وجُرح بسبب شظية كبرى اصابت فخذه وحُمل على نقّالة الى زو دو وناشد من حمله دون نتيجة ان يأخذوه معهم. وبعد مضي عقدين تذكر غاضباً كيف انتُهك القرار بحقه (مما يعطي صدفة تفسيراً نادراً لكيفية نظر قادة الحزب الشيوعي الصيني الى مغالطات زملائهم): «لقد تم اسماعي كلاماً فارغاً مثل: «انت مسؤول كبير لذلك يجب ان نحملك على نقّالة. لكن بما انك كنت تعمل في جيانغتزي لمدة تفوق العشر سنوات فانت تملك النفوذ والمقام... ونظراً لانهيار المركز الآن لن نستطيع مواجهة الجماهير ولذلك لم ندَعك تبقى حيث انت». وكان الرجل الذي انبثق عنه هذا الكلام هو تشو إن لاي.

كان ماو يعلم انه اذا بقي في مكانه سيتم ابعاده عن الموقع المركزي في الحزب وعن الجيش، حتى لو استمر على قيد الحياة. لم يكن راغباً في ان يتم التخلص منه بسهولة. عند هذه النقطة لم يكن لدى ماو اي جيش يأتمر به بعد ان حُرم من منصبه العسكري القيادي، لكن بصفته رئيس الحكومة كان سيّد نفسه وقادراً بالتالي على عمل ما يشاء وان يكون حيث يريد. خلال فترة السنة والنصف القادمة كرّس جهوده للتأكد من ان بو كو ورفاقه لن يستطيعوا تركه في عزلة او في وضع يائس عندما يغادرون.

لذلك عمد ماو الى المراقبة السرّية لموقع كائن على الطريق التي يمكنه الهرب عليها. كانت الجبهة الجنوبية المكان الاول الذي امضى فيه فترة قصيرة ورأى فيه حينها نقطة الفرار التي

سيسلكها. وهنا واجه الشيوعيون امير الحرب الكانتوني الذي كان يتعاطى تجارة مربحة معهم في تونغستن وكان يكره تشيانغ. خلافاً للجبهات الاخرى حيث توغل القوميون اكثر فاكثر لم تتميّز هذه الجبهة بالمعارك الكثيرة. في اواخر نيسان بدأ امير الحرب الكانتوني بالكلام مع الشيوعيين حول تأمين ممرّ يستطيعون الخروج والعودة من خلاله. ما إن علم ماو بذلك حتى نزل الى المقر العام للحزب الواقع على الجبهة الجنوبية في هويتشانغ، مباشرة على الطريق الرئيسية المؤدية التي تنفذ اليها المنطقة الشيوعية.

بات واضحاً للقادة المحلّيين انه لم يكن لدى ماو مهمة رسمية تبرّر وجوده في تلك النقطة. وليس لديه شيء يفعله فكان يتسلق الهضاب للتسلية ويزور القادة ويسترخي على اسرّتهم ويسترسل في التحدّث معهم. وحتى فعل اشياء مثل تصحيح البرامج التدريبية للوحدات المحلية ففي بعض الاحيان استغرق تصحيح مستند واحد ساعات من العمل.

فجأة غادر ماو المكان في تموز مثلما اتى اليه وذلك بعد اعلامه بان نقطة الخروج انتقلت الى الغرب. في ذلك الشهر أرسلت وحدة مؤلفة من ثمانية آلاف جندي لاستكشاف الطريق. عاد ماو الى رويجين وبعد شهر، وما ان تأكد من نقطة الخروج الجديدة الواقعة في يودو وهي بلدة تبعد 60 كيلومتراً الى الغرب من رويجين، حتى حضر الى المقر الرئيسي للحزب في المنطقة ومعه حوالى اثني عشر شخصاً يشملون امين السرّ والطبيب والعشي وسائس الخيل وسريّة من الحرّاس. كان مقر الحزب يبعد مسافة مرمى حجر من معبر احد الانهر الذي يقع مباشرة بعد قنطرة تعود الى سلالة سانغ وتوجد في حائط المدينة. عند هذه النقطة تحدّد الهجوم المنوي القيام به لكسر الطوق وجثم ماو هنا ليتأكد من انه سيكون في عداد القوة الرئيسية اثناء خروج القادة.

قبل ان يغادر ماو رويجين قرر ان يسلّم الحزب ما ادّخره في خزنته اضافة الى الذهب والفضة والمجوهرات التي خبّأها في مغارة في السنتين السابقتين. وطلب من مدير مصرفه الذي هو شقيقه تسي من ان يسلّمها الى بو كو. اظهر ماو فقداناً كبيراً للالتزام الحزبي تجاه حزبه وتجاه موسكو من خلال اخفائه للغنائم التي بحوزته حتى آخر لحظة ويمكن لهذا المستوى من الغدر ان يُعتبر ممسكاً عليه من قبل الكرملين. سبق لماو ان خالف قوانين عديدة بما فيها القوانين التي تتضمن المبادىء الاساسية التي نظّمها بنفسه وهي: اطيعوا الاوامر دائماً، لا تأخذوا ابرة او خيطاً من عامة الشعب (اي النهب غير المرخص به)، وبالتحديد سلّموا جميع البضاعة التي تستولون عليها. لكن «تخصيص» النهب كان مرفوضاً بصورة خاصة اذ انه يدلّ على التفكير بالانشقاق عن موسكو.

بما ان القوميين كانوا قادمين لم يكن معقولاً ترك الغنائم مدفونة في المغارة. الآن حان وقت

قبض ثمنها للحصول على اذن بالخروج. كان الحزب في امسّ الحاجة الى تمويل الرحلة وكان يتوسّل موسكو لترسل المزيد من المال(*). سلّم ماو ما كان يخبّئه ووعد بو كو انه سيسلك سلوكاً حسناً فوافق هذا الاخير على اصطحابه معه، وربما لم يكن لديه خيار آخر اذ ان ماو فرض نفسه على نقطة الانطلاق.

في اللحظة الاخيرة عُيّن زيانغ يينغ المعتدل نسبياً ونائب الرئيس في الدولة الشيوعية على رأس الباقين في المنطقة. كان زيانغ الشخص الوحيد في القيادة الآتي من الطبقة العاملة وقبل هذه المهمة دون اعتراض او تردد فاظهر امتلاكه لروح التضحية بالنفس وهي ميزة نادرة بين زملائه. الاّ انه عبّر عن قلق عميق بخصوص ذهاب ماو مع القيادة. اكتسب زيانغ الخبرة الواسعة في طباع ماو اثناء وجوده في القاعدة الشيوعية التي وصل اليها سنة 1931 في اوج موجة القتل التي نفذها ماو في حق الشيوعيين في جيانغتزي. كان زيانغ مقتنعاً ان ما من شيء يثني ماو عن السعي الى السلطة لكنه حاول دون جدوى حماية الشيوعيين في جيانغتزي. كان ماو يشمئز منه واكره ضحايا التعذيب على توجيه التهم اليه. ابلغ تشو إن لاي الكومنتيرن بان «الاشخاص الموقوفين شهدوا ان [زيانغ يينغ]... ينتمي الى المعادين للبولشيفية». وقال الكسندر بانيوشكين الذي اصبح لاحقاً السفير الروسي لدى الصين، ان ماو حاول التخلّص من زيانغ يينغ من خلال تصنيفه في خانة المعادين للبولشيفية: «ان تدخل المكتب السياسي منع ماو من التخلص من زيانغ يينغ». في نينغدو سنة 1932 كان زيانغ من بين الذين كانوا الاكثر اصراراً على طرد ماو من قيادة الجيش، وادّى الكره الشديد الذي يكنّه ماو لزيانغ الى مقتل هذا الاخير بعد عشر سنوات.

اعترض زيانغ بقوة على اصطحاب ماو مع القيادة. وتذكر اوتو براون ان زيانغ «ألمح بوضوح الى الخط الارهابي الذي يتبعه ماو تسي تونغ واضطهاده للكوادر الحزبية المخلصة سنة 1930. وحذّر ايضاً من الاستخفاف بخطر الصراع الحزبي الذي يقوده ماو ضد القيادة الحزبية. ان تحفّظه المؤقت عائد فقط لاعتبارات تكتيكية. انه... سيستفيد من الفرصة الاولى ليستولي على الجيش والحزب استيلاءً تاماً». لكن بو كو حسب براون بدا متفائلاً: «قال... [انه] ناقش المسألة مطولاً مع ماو وكان واثقاً من انه لن يفكر باثارة ازمة على مستوى القيادة..».

في الواقع اخذ ماو يبدي سلوكاً حسناً. قبل حلول شهر تموز وبينما كان يخيّم على الجبهة الجنوبية كان ينتقد تعليمات الحزب في كل منعطف للاحداث فيطلب من الضباط عدم اطاعة

(*) بلغت إعانة موسكو الشهرية للحزب الشيوعي الصيني عام 1934 نحو 7.418 «دولار ذهب». حاول الروس ارسال اسلحة مباشرة لكن الجيش الاحمر الصيني فشل في الاستجابة لتوصية موسكو بإقامة موطىء قدم على مرفأ «يمكن نقل المؤن والأدوية المهربة إليه».

الاوامر ويصدر اوامره هو مبطلاً الاوامر الحزبية. عندما اخبره احد مساعديه بانه عُيّن وزيراً للارض في مكان ما طلب منه ماو الذهاب الى مكان آخر والقيام بعمل مختلف كلّياً: «لن تكون وزير الارض هناك. اذهب الى اقليم هويتشانغ لتصبح رئيس الحكومة هناك».

لكن مع قدوم ايلول تبدّل كل شيء. عندما قام لين بياو الذي كان معتاداً على طعن ماو بالقيادة الحزبية بزيارة له لاحظ مرافقه ان ماو كان منضبطاً جداً» وهو بعيد عن «المشاركة خلسة في نشاطات ذات طابع يثير الانشقاق في الحزب».

عندما بلغ ماو خبر سفره وحيداً المؤكد بينما كان في يودو، ارسل بطلب زوجته. بما ان الاطفال كانوا ممنوعين من الذهاب تُرك ابنهما ماو الصغير البالغ سنتين حيث هو ولم يره ماو ابداً بعد ذلك.

ولد ماو الصغير في تشرين الثاني 1932 وكان الولد الثاني لماو من غوي يوان بعد ان كانت ابنتهما، البكر، قد ضاعت. ولدت في حزيران 1929 في مدينة لونغيان في فوجيان في منزل يتمتع بجمال ملفت. عندما رأى الطفلة اطلق ماو واحدة من نكاته المميزة: «ان هذه الفتاة تعرف كيف تختار تاريخاً مناسباً: انها لم تأت الى هذا العالم حتى وجدت مكاناً جميلاً!» بعد اقل من شهر على ولادتها اضطرت غوي يوان الى مغادرة البلدة مع ماو وتُركت الطفلة مع حاضنة مرضعة فيما قاد مصير ماو الزوجين بعيداً عن المدينة حوالى الثلاث سنوات. وفي النهاية عندما عادت غوي يوان قيل لها بان الفتاة توفيت لكنها لم تستطع اقناع نفسها بتصديق ذلك، وبعد ان تولّى الشيوعيون السلطة بعد عقدين بدأت بالتفتيش عنها واستمر التفتيش المكثف لعقود امتدّت حتى نهاية حياتها سنة 1984.

لم تستطع غوي يوان اصطحاب ماو الصغير معها اثناء اخلاء المنطقة فعهدت بالصبي لشقيقتها التي كانت متزوجة من تسي تان شقيق ماو، وبقي الزوجان بالاضافة الى شقيقها واهلها حيث هم وبكت غوي يوان بمرارة بسبب افتراقها عن ابنها. توفي الولد الثالث قبل بضعة اشهر، بعد بضعة ايام على ولادته. اما ماو الصغير فقد بقي مع حاضنته المرضعة لفترة معينة. غداة احتلال القوميون الاراضي التي كان الشيوعيون يسيطرون عليها قام تسي تان بنقله سرّاً، الاّ ان تسي تان قُتل في معركة في نيسان 1935 قبل ان تمكنه من ابلاغ زوجته عن مكان وجود الصبي.

ما ان وصل ماو الى السلطة حتى بدأت غوي يوان التي لم تعد زوجته منذ فترة طويلة، محاولة يائسة لايجاد ماو الصغير لكن النتيجة جاءت مأساوية. ان شقيقتها التي شعرت بالذنب بسبب ضياع ماو اثناء اهتمامها به، قتلت في حادث سيارة في تشرين الثاني 1949 عندما انطلقت في مطاردة دليل في احدى الليالي بعد ايام على استيلاء الشيوعيين على المنطقة. وسنة 1952 وُجد

رجل قد يكون ماو الصغير ويتذكر شقيق غوي يوان انها «اسرعت للتعرف عليه و تأكدت من امرين، اولهما ما اذا كان لاذنيه رائحة الزيت وما اذا كان لابطه رائحة وهو امر غير مألوف لدى الصينيين. كانت مقتنعة بان كل اولادها ورثوا هذه الميزات عن ماو تسي تونغ. وبعد ان فحصته تكوّنت لديها قناعة بانه ولدها ماو الصغير».

لكن العديد من النساء الشيوعيات اللواتي أُجبرن على ترك اطفالهم بدأن بحملة تفتيش من النوع ذاته وكانت ارملة جندي في الجيش الاحمر قد تعرّفت على الصبي بصفته ابنها وحكم الحزب بان الصبي هو ابن هذه المرأة. ذهب شقيق غوي يوان لرؤية ماو الذي لم يكن معنياً بالتفتيش حتى ذلك الوقت وعرض عليه صورة صبي في عمر المراهقة ملمّحاً الى ان غوي يوان تودّ لو يتدخّل هو، الاّ ان ماو رفض قائلاً: «انه من غير الملائم ان اتدخّل». وطلب منه ماو ان يتقيّد بقرار الحزب. الاّ ان غوي يوان لم تستسلم وخاضت حرباً مؤلمة ومأساوية لسنوات. وظلّت هي وشقيقها على اتصال بالشاب حتى وفاته في السبعينات نتيجة لسرطان في الكبد وكانتا حتى مهتمّتين بترتيبات زفافه(*).

لم يظهر ماو اي حزن لتركه ماو الصغير وحتى لم يودّعه محتفظاً بحزنه لنفسه. ترك غونغ تشو قائد الجيش الاحمر في يودو قصة معبّرة حدثت في الاسابيع الاخيرة التي سبقت رحيل ماو حين كان هذا الاخير يراقب في مركز الحزب. في اوائل ايلول كان غونغ يقوم بدراسة خريطة عندما:

> «فجأة دخل حارسي الشخصي واعلن: «الرئيس ماو هنا!»... اسرعت الى البوابة الرئيسية ورأيت ماو تسي تونغ مع اثنين من الحرّاس الشخصيين يترجّلون... بدا شاحب اللون ومنهكاً. سألته: «هل الرئيس بخير؟» فاجاب: «انت على حق. اني اعاني منذ فترة من مشاكل صحية لكنني اشعر بالم اكبر بكثير في داخلي..».

بعد ان غسل وجهه اشعل سيجارة وقال: «... سأمضي بعض الوقت هنا».

(*) لم يكن هذا النوع من المأساة غير شائع. فالثورة جلبت آلاماً كثيرة لمن التزموا بها. وقبل ان يستلم الشيوعيون السلطة، لم يكن متوقعاً فقط أن يقوموا بتضحيات إزاء أطفالهم بل، حرفياً، أن يضحوا بهم. فأن يبيع أحد طفله -أو يسمح ببيعه- لزيادة مدخول الحزب لم يكن أمراً غير شائع. فالعضو في الحزب صديقة غوي-يوان زينغ زي في أموي، باعت طفلها مقابل 100إيوان دفع الشاري سلفاً وأنفق الحزب المال قبل وضعها أمام الأمر الواقع. وقالت لاحقاً بعد أكثر من نصف قرن:«طبعاً كان الأمر مؤلماً جداً. قبل تسليم ولدي الى منزل (الشاري) حملناه زوجي وأنا الى حديقة سان يات سين ليلعب. كان طفلاً جميلاً بعد 40 يوماً وكان يضحك دائماً. أسميناه تينبو. لم يكن يبكي أبداً بدون سبب وجيه وقلما كان يضع الماء على جسمه. فحملناه الى مكان ليلعب. كان سعيداً جداً بالفعل. ثم رحل ولم يكن الأمر محتملاً. نجحت في تخطي المأساة لكن طفلي مات بعد 26 يوماً. لم يجرؤ سكرتير الحزب على إخباري بذلك مع انني كنت اعلم. بقي صامتاً إذ لم أقل شيئاً. احياناً في الليل أتألم وأتعرق بصمت لأنه من المحرج أن يعلم الآخرون (انها تبكي طفلها). ثم في أحد الأيام رآني أبكي وأدرك السبب فاعتذر مني».

قال ماو لغونغ انه نظراً لكونهما اصدقاء منذ ان كانا في ارض الخارجين على القانون: «آمل ان تأتي لندردش معاً كلما توفّر لديك الوقت في المساء. كان ماو تسي تونغ يحب الكلام». قبل غونغ دعوة ماو وبعد ان انضمت غوي يوان الى ماو كانت «تحضر طعاماً لذيذاً للعشاء. وكنا نحن الثلاثة ندردش ونشرب وندخن السجائر غالباً... حتى منتصف الليل... من خلال مشاهداتي لم يكن احد غيري يزور منزل ماو... وكان يبدو كأنه معزول وبائس بالفعل».

في احد الايام اشترى غونغ دجاجة وبعض مقادم الخنازير للعشاء وبدا ماو «سعيداً وافرط في الشرب». تذمّر من القيادة ولكن جاء تذمّره من شخص يبوح بكلام نابع من القلب يتبادله صديقان قديمان اكثر منه تذمّر صادر عن شخص يدعو الى التخريب. عندما ذكر غونغ بأنه تلقى تأنيباً على شيء فعله «قال [ماو] انه لم يكن موافقاً على التأنيب وتمّ ذلك لان تشو إن لاي قاس جداً... وقال ايضاً [ان اعداءه في الحزب] كانوا يريدون الاستئثار كل السلطة... ويبدو انه كان مستاءً جداً منهم».

واصبح ماو حزيناً بسبب تناول الكحول وعدّد حالات العقاب المختلفة التي تعرّض لها. في لحظة معينة «انسابت الدموع على وجنتيه فيما هو يتذمر من انه لم يعد الرجل الاول. كان يسعل من وقت لآخر كما بدت علامات الشحوب والتعب على وجهه. وفي ظل نور خافق منبعث من قنديل زيت بدت صورته مكتئبة».

لا انهيار الدولة الشيوعية ولا الانفصال عن ابنه كانا قادرين على خلق جرح لدى ماو كالذي خلقته خسارته للسلطة.

بعد ذلك، عندما بدا ان كل شيء مقرّر انهارت احلام ماو. قبل ايام على الرحيل المخطط له ارتفعت حرارته الى 41 درجة وراح يهذي بسبب الملاريا. بلغ موسم الملاريا اوجه وكانت رفوف البعوض السميكة تملأ الهواء في يودو لدرجة انها كانت تدخل مباشرة انوف الناس وحتى الكينين فشلت في معالجة المشكلة. كان شفاؤه السريع امراً ضرورياً كي يتمكن من المغادرة مع الآخرين. ان افضل طبيب في المنطقة الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين، نلسون فو والذي عالج ماو في مستشفى الارسالية في شتاء 1933-1932، اتى مسرعاً من رويجين ليساعده كي يتعافى ويتمكن من السفر. كان المريض والطبيب يعلمان بأن فو انقذ حياة ماو ومصيره السياسي.

اصبح الدكتور فو المشرف على اطباء ماو لعقود من الزمن. سنة 1966 واثناء عملية التطهير الكبرى التي قام بها ماو كتب اليه رسالة اثار فيها هذه الحادثة في يودو بقوله: «انا انقذت حياتك. اتمنّى ان تتمكن من انقاذ حياتي الآن». لكن الطبيب البالغ الثانية والسبعين من عمره وقتها تلقى الضرب بوحشية مما ادّى الى كسور في الضلوع والجمجمة. وتحرّك ماو قليلاً

لكن ليس بقوة من خلال تدوين الكلمات التالية على رسالة فو: «هذا الرجل لم يرتكب جرائم كبيرة وربما يجب ان يُستثنى». لكنه سمع في ما بعد كلاماً مزعوماً عن تحدّث فو عن صحته هو اي ماو الى قادة آخرين في الحزب، مما اعتُبر من المحرّمات بالنسبة اليه. سمح ماو برمي فو في السجن لكن الطبيب السبعيني لم يستمر على قيد الحياة اكثر من اسبوعين فتوفي على ارض زنزانته.

في ذلك الوقت حافظ الجيش الاحمر على مستوى عالٍ من الاداء في القتال اثناء الانسحاب فيما كان جيش تشيانغ يتقدم لكن التحضيرات لاخلاء المنطقة استمرّت سرّاً. كان التحرك قسرياً لكنه اتاح للشيوعيين تنفيذ انتقال استراتيجي باتجاه الشمال الغربي وبقي الهدف النهائي الوصول الى الحدود الواقعة تحت السيطرة الروسية بهدف الحصول على الاسلحة. وعُرفت العملية لاحقاً بـ«اقامة رابط مع الاتحاد السوفياتي» فيما التخطيط لها جارٍ من سنوات. وبالعودة الى سنة 1929 كان رئيس المخابرات العسكرية السوفياتية برزين قد اطّلع سورج على مهمته التي تتركز على محاولة جلب الجيش الاحمر الى الحدود السوفياتية.

في تموز أُرسلت وحدة مؤلفة من ستة آلاف رجل في اتجاه معاكس على سبيل الخدعة وهي تحمل مليوناً وستمئة الف منشور تملأ حمولة توضع على اكتاف 300 شخص واتخذت الوحدة اسماً ضخماً هو «طليعة الجيش الاحمر المسافر نحو الشمال لقتال اليابانيين»(*). وأُعطيت تحركاتها اقصى تغطية دعائية لكن الوحدة ادركت انها خدعة، الامر الذي لم يكن يعلمه حتى قادتها. شعر هؤلاء الرجال بالمرارة على نحو مضاعف لان المهمة المنوطة بهم كانت تافهة اذ لا تستطيع وحدة كوحدتهم ان تخدع العدو او تدفعه الى الابتعاد عن رويجين. عوضاً عن ذلك وجد رجال الوحدة انفسهم مطاردين من قبل قوات قومية اخرى من دون هوادة وخلال بضعة اشهر تمّ عملياً القضاء على القوة الخدعة بكاملها.

شكّلت غربلة الذين تمّ اجلاؤهم والتي جرت بادارة تشو إن لاي جزءاً من التحضير لإخلاء المنطقة وأُعدم الذين صُنّفوا بأنهم لا يُعوّل عليهم وبلغ عددهم الالآف. من بين الذين قتلوا كان معظم الاساتذة في المدارس العسكرية الذين كانوا غالباً ضباطاً معتقلين من القوميين السابقين. نُفّذت الاعدامات في وادٍ مغلق مُنع الدخول اليه وحُفرت حفرة ضخمة. خضعت اجساد الضحايا للتقطيع ارباً ارباً ورُفست الى قلب الحفرة. عندما امتلأت الحفرة أُجبر الباقون على حفر حُفرهم بأنفسهم في الارض وقُطّعوا ارباً ارباً او دُفنوا احياء.

ارتكب المجزرة جهاز امن الدولة رغم ان العديد من رجال الامن كانوا فقدوا الثقة بالنظام

(*) اعترف القادة الحمر ان الاسم كان فقط للترويج. لاحظ براون: «لم يحلم احد بمسيرة نحو الشمال لمحاربة اليابانيين».

حينها وكانوا يُقتلون بدورهم. كان احد الذين فقدوا الثقة رئيس الفريق الذي يقوم بحراسة المجلس العسكري. اثناء فوضى المغادرة هرب واختبأ في التلال، الا ان السلطات وجدت مخبأه عبر توقيف صديقته التي هي من فلاّحي المنطقة. دارت معركة بين السلطات وبينه وأقدم بعدها الرامي المحترف على قتل نفسه.

في تشرين الاول 1934 وصل حكم هذا النظام الوحشي الى نهايته. انشئت الجسور العائمة فوق النهر في يودو وفي مقدّمة كل مركب كان يتدلّى مخزن للمصابيح فيها المزيد من المصابيح والمشاعل تشعّ على الجانبين ويلمع انعكاس ضوئها في الماء. شكلت عائلات الجنود والفلاحين المنظمين صفوفاً على الضفاف لوداع الجنود الشيوعيين، اما اصحاب الجروح البليغة فقد أوتهم عائلات المنطقة. بينما كان الجنود يرتحلون سيراً على الاقدام مجتازين الطريق المرصوف بالحصاة الكبيرة الواقع تحت سور المدينة نزولاً باتجاه نقطة العبور، كان صبي في الثانية عشرة يلصق عينيه على شق في باب منزل مبني على الزاوية قرب السور ومحاولاً التقاط انفاسه. وكان والده الذي يمتلك متجراً صغيراً قُتل قبل اربع سنوات في اوج موجة القتل التي استهدفت المعادين للبولشيفية عندما كان الناس يُعدمون حتى لكونهم «مساعدين ناشطين لاصحاب المتاجر». وكغيره من الكثيرين كان هذا الصبي مسروراً لرؤية الشيوعيين وهم يغادرون، كما اوضح عندما التقيناه بعد ستين سنة.

حوالى السادسة من مساء 18 تشرين الاول غادر ماو مركز الحزب في المنطقة محاطاً بحرّاسه الشخصيين. بدا كئيباً ولكن محافظاً على رباطة جأشه فيما شعره مسرّح الى الوراء. اجتاز الشارع وتجاوز القنطرة التي بنتها سلالة سانغ وسار على الجسر العائم.

هذا الجسر المتزعزع لم يحمل ماو عبر المياه فقط بل حمله الى الاسطورة. ان ماضيه المثقل بالقتل وكذلك ماضي النظام الشيوعي كانا على وشك ان يُتركا حيث هما. وكان ماو نفسه على وشك انشاء الخرافة الاكثر ثباتاً في تاريخ الصين الحديث وواحدة من اكبر الخرافات في القرن العشرين والتي عُرفت باسم «المسيرة الطويلة».

12- المسيرة الطويلة:
تشيانغ يسمح بمغادرة الشيوعيين
(1934، العمر 40 سنة)

بدأ حوالى الثمانين ألف شخص المسيرة الطويلة في تشرين الاول 1934. خرج الموكب خلال عشرة ايام في ثلاث صفوف مع وجود الوحدتين الاقدمين والوحدة الرئيسية بقيادة لين بياو وبينغ دي-هواي على التوالي على جانبي القيادة. ضمّت القيادة الى جانب خمسة آلاف جندي بضعة من القادة وموظفيهم والخدم والحرّاس العاملين لديهم، اما ماو فقد كان مع القيادة.

ساروا ببطء على خط مستقيم نحو الغرب فيما هم مرهقون بالحمولة الثقيلة. حُملت مجموعات الاسلحة وماكينات الطباعة وخزنة ماو على اكتاف الآلاف من الحمّالين المجنّدين الزامياً في كتيبة التجنيد حديثاً وكانوا مراقبين من رجال الامن. اعلن المشرف على الادارة ان الاحمال الاكثر ثقلاً كان سيحملها اشخاص «تحرروا للتو من فرق الاشغال الشاقة وكانوا يعانون من ضعف جسدي كبير ... بعضهم انهار وفارق الحياة اثناء السير». واصيب العديد من الزاحفين بالامراض ويتذكر احدهم ما جرى بقوله:

«استمرت امطار الخريف طويلاً محوّلة طريقنا الى وحول ... ولم يكن هناك سبيل للهروب من الامطار كما لم يكن النوم المريح متوفراً ... ان بعض المرضى والضعفاء خلدوا الى النوم ولم يستيقظوا ابداً. وعانى الكثيرون من التهابات في الارجل فكان عليهم لفّها بالقماش النَتِن مما تسبب بآلام لا تطاق عند الدوس على الارض ... وبينما كنا نبتعد عن منطقة القاعدة كان بعض العمال يفرّون. لكن المطيعين من بينهم فقد توسّلونا وهم باكون لندعهم يرحلون معنا ..».

اما الذين هم اكثر شجاعة فقد رموا الاحمال ارضاً وفرّوا عندما كان المشرفون عليهم يصرفون الانتباه عنهم، وكذلك انشقّ الجنود جماعات جماعات اذ ترنّحت يقظة رؤوسائهم المنهكين اكثر فاكثر.

واجه الزاحفون الاحتمالات المروّعة المتأتية من اربعة خطوط من المعاقل وهي المعاقل نفسها التي ادّت الى هلاك قاعدتهم الشيوعية. لكن تبيّن ان هذه المعاقل لا تمثّل عقبة في وجههم ابداً، دون تفسير لذلك .

زُوِّد الخط الاول بالرجال الجنود الكانتونيون الذين كان قائدهم يقوم باعمال مربحة مع الشيوعيين وكان وعد بالسماح لهم بالعبور، وهذا ما فعله. لكن الفرار دون اللجوء الى القتال لا يعود فقط الى الكانتونيين المعادين لتشيانغ كاي شيك. ادرك القائد العام بان الشيوعيين ينوون الانسحاب عبر الجبهة الكانتونية وعلم بانه سيُسمح لهم بالعبور. في 3 تشرين الاول وقبل بدء الفرار بفترة قصيرة اخبر رئيس وزرائه بان الكانتونيين كانوا «ينوون فتح جهة واحدة في الشبكة» امام الشيوعيين. ومع ذلك رفض تشيانغ رفضاً قاطعاً فكرة ارسال جنود موالين له الى القطاع الذي سيحصل فيه الفرار. حاول احد مساعديه المقربين منه اقناعه بأنه من اجل دفع كانتون الى «تنفيذ الاوامر يجب ان يتواجد رجالنا في المكان» فطلب منه تشيانغ الاّ يقلق.

بلغ الزاحفون الخط الثاني للمعاقل في بداية تشرين الثاني. رغم ان الاعمدة شكّلت هدفاً سهلاً من خلال امتدادها على ما يزيد على العشرة كيلومترات فانها لم تتعرّض للهجوم. ومرة اخرى لم يُثِر الكانتونيون المتاعب، كذلك لم تثِر المتاعب القوة التي تتولّى الدفاع عن جزء من الخط الثاني والتي كانت بقيادة الجنرال هو تشيين، الهوناني المعادي للشيوعية بشراسة وهو من اعدم زوجة ماو السابقة كاي هوي.

تكررت القصة نفسها على الخط الثالث المحصّن لكن تشيانغ لم يمتنع فقط عن تأنيب هو تشيين على تقصيره الظاهري بل رقّاه في 12 تشرين الثاني الى منصب قائد العمليات ضد الزاحفين. فكان هذا العدو الشرس للشيوعية المسؤول عن خط التحصين الرابع الواقع في مكان مثالي لابادة الشيوعيين هو الضفة الغربية لزيانغ، اطول نهر في هونان ومصدر الالهام لشعر ماو في صباه. لم تكن هناك جسور وكان على الشيوعيين غير المزوّدين باسلحة مضادة للطيران اجتياز النهر العريض فاصبحوا بذلك اهدافاً سهلة للهجمات الارضية والجوية. لكن مرة اخرى لم يتعرضوا لاي تحرّش اثناء اجتيازهم المجهد الذي استغرق اربعة ايام بينما كانوا منتشرين على مدى ثلاثين كيلومتراً على طول النهر. خلَت النقاط المشرفة على ضفاف النهر من الجنود فيما اكتفى اؤلئك التابعين لهو تشيين بالمراقبة فقط. كانت طائرات تشيانغ تحوم فوق المنطقة لكن فقط للاستطلاع كما لم يحصل اي هجوم او حتى اي قصف جوي. خاض ماو والقيادة النهر في 30 تشرين الثاني دون مواجهة اي ازعاج وفي اليوم التالي اي الاول من كانون الاول كانت القوة الشيوعية المؤلفة من اربعين الف جندي انهت اجتياز النهر.

الآن فقط لجأ تشيانغ الى منع الناس من عبور النهر واصدر امراً بالقصف الشديد بعد مراقبته العبور «بتركيز كامل» كما افاد مساعدوه. انقطع الاتصال مع قسم من الشيوعيين الموجودين في الاجزاء الخلفية وعلى الضفة الشرقية للنهر، اما الزاحفين الذين عبروا النهر فقد

انخفض عددهم الى النصف(*)، لكنهم كانوا يضمّون القيادة والوحدات المقاتلة الرئيسية. كان تشيانغ على علم بذلك وكتب القائد العامل بامرته هو تشيين في اليوم التالي: «ان القوة الرئيسية للصوص [اجتازت النهر] جميعها وهي هاربة باتجاه الغرب».

ليس هناك ادنى شك بان تشيانغ سمح لقيادة الحزب الشيوعي والقوة الرئيسية في الجيش الاحمر بالفرار.

لماذا فعل تشيانغ ذلك؟ برز جزء من السبب بسرعة عندما دفع الجيش التابع لتشيانغ الزاحفين بعد عبورهم نهر زيانغ الى مسافة ابعد باتجاه الغرب ناحية مقاطعة غويزو ومن ثم سيشوان. كانت خطة تشيانغ تقضي باستعمال القوة الشيوعية لاغراضه هو. وشكّلت هاتان المقاطعتان مع مقاطعة يونان المجاورة منطقة واسعة في الجنوب الغربي تزيد مساحتها على المليون كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها حوالى المئة مليون. كانت عملياً مستقلة عن الحكومة المركزية اذ كانت تحتفظ بجيوشها وكانت تدفع ضرائب قليلة الى نانجينغ. اعتُبرت سيشوان هامة جداً كونها الاكبر والاغنى والاكثر كثافة في السكان البالغين خمسين مليوناً. وكانت محميّة في كل الجهات بجبال يتعذّر بلوغها مما جعل الوصول اليها «اصعب من الصعود الى السماء الزرقاء» كما جاء في كلام للشاعر لي بو. كما تصوّرها تشيانغ كـ«قاعدة لاعادة احياء الوطن» اي انها موقع خلفي آمِن استعداداً لحرب محتملة ضد اليابان.

بامكان تشيانغ احكام القبضة على المنطقة فقط في حال وجود جيشه في المقاطعات الثلاث الاّ انها سبقت ان رفضته واذا حاول الدخول عنوةً ستندلع الحرب. لم يشأ تشيانغ ان يجد نفسه مضطراً لاعلان الحرب علناً على امراء الحرب. قاربت خطته لبناء الأمة الماكيافيلّية وكانت كلفتها معقولة بالنسبة الى النتائج. اراد دفع الجيش الاحمر الى داخل هذه المقاطعات الرافضة للاذعان كي يصاب امراء الحرب لديها بالرعب من احتمال استقرار الشيوعيين في ارضهم فيسمحوا لجيش تشيانغ بإخراج الجيش الاحمر منها. وبهذه الطريقة تصوّر تشيانغ ان جيشه سيزحف الى داخل هذه المقاطعات وسيفرض سيطرة الحكومة المركزية. كان يودّ الحفاظ على الجزء الاساسي من الجيش الاحمر كي يشكّل المقدار الكافي من الخطر بالنسبة الى امراء الحرب.

اوضح تشيانغ خطته الى امين سرّه المقرّب منه بقوله: «عندما يدخل الجيش الاحمر الى غويزو نستطيع ان ندخل وراءه. من الافضل الاّ نكون نحن البادئين بحرب لاحتلال غويزو.

(*) من بين النصف الآخر - حوالى 40 ألف من الذين لم يجتازوا النهر، قليلون فقط فقدوا خلال القتال-حوالى أكثر من-3000. غالبية الذين فروا قضوا بسبب المرض أو الإرهاق أو لأنهم فروا من الرحلة الصعبة خلال الأشهر الستة السابقة أو تبعثروا في كزيانغ.

وسيتوجب على سيشوان ويونان الترحيب بنا لانقاذ نفسيهما ... من الآن وصاعداً اذا علمنا كيف نلعب اوراقنا ... نستطيع ان نبني بلداً موحداً». في 27 تشرين الثاني وفي اليوم نفسه الذي بدأ فيه الشيوعيون اجتياز نهر كزيانغ والاتجاه ناحية غويزو اصدر تشيانغ برنامج عمله لبناء الامة وهو «اعلان حول تقسيم السلطات بين الحكومة المركزية والمقاطعات».

بقي برنامج العمل هذا سرّياً طوال حياة تشيانغ وما يزال مخفياً من قبل التاريخ الرسمي لكل من القوميين والشيوعيين. يعزو الاثنان فرار الشيوعيين الى امراء حرب المناطق فيما تشيانغ يضع اللوم على امراء الحرب والشيوعيون يمدحونهم. ويتشارك الاثنان نفس الهمّ وهو عدم الاعلان ان القائد العام بذاته سمح للشيوعيين بالذهاب. بالنسبة الى القوميين كانت اساليب تشيانغ في بسط نفوذه على المقاطعات العاصية ملتوية وكان سوء تقديره القائم على استعمال الشيوعيين والذي ادّى في النهاية الى انتصارهم مذلاً جداً. اما بالنسبة الى الشيوعيين انه لمن المحرج الاقرار بان المسيرة الطويلة الشهيرة كانت الى حدّ بعيد خاضعة لتوجيه تشيانغ كاي شيك.

شكّل السماح للشيوعيين بالرحيل خطوة حسن نية من جانب تشيانغ تجاه روسيا. كان بحاجة الى علاقة ودّية مع الكرملين لانه كان مهدداً من اليابان فيما كان الحزب الشيوعي الصيني طفل موسكو.

لكن كان هناك سبب آخر اكثر سرّيةً وخاص جداً. كان ابن تشيانغ المدعو تشينغ كو رهينة في روسيا منذ تسع سنوات وهو السليل الوحيد لتشيانغ كاي شيك، ليس من السيدة تشيانغ المشهورة بل من زوجته الاولى. بعد ولادة تشينغ كو يبدو ان تشيانغ اصيب بالعقم من خلال التقاطه لمرض تناسلي عدة مرات فتبنّى صبيّاً آخر يدعى ويغو. لكن تشينغ كو بقي الاقرب الى قلبه بصفته الوريث الوحيد من خلال رابطة الدم. كان تشيانغ منغمساً في التقاليد الصينية حيث الهمّ الاساسي الحصول على وريث. كان يُنظر الى الفشل في تأمين استمرارية العائلة على انه امر مخزٍ وعلى انه اكبر اذى يمكن ان يبلي به انسان اهله واجداده الذين لن تستطيع ارواحهم المتوفاة انّ ترقد بسلام. من اسوأ الشتائم في الصين: «فلتُحرم من وريث لك!» وكان احترام الاهل والاجداد وطاعة الاولاد لاهلهم الوصيّة الاخلاقية الاساسية التي تفرضها التقاليد.

سنة 1925 ارسل تشيانغ ابنه تشينغ البالغ حينها سن الخامسة عشرة الى مدرسة في بكين، وفي ذلك الوقت كان نجم تشيانغ صاعداً في الحزب القومي الذي كانت موسكو ترعاه حينها. وبمثل لمح البصر راح الروس يكلّمون تشينغ كو ودعوه الى الدراسة في روسيا. كان الشاب متحمساً جداً للفكرة، وبعد مرور بضعة اشهر على وصوله الى بكين تمّ اصطحابه الى موسكو

من قبل شخصية هامة ولكن غير معروفة كثيراً هي شاو لي تزو الذي كان شخصية شيوعيةً هامة تعمل سرّاً في الحزب القومي.

كان زرع العملاء السرّيين من اثمن الهدايا التي اورثتها موسكو الى الحزب الشيوعي الصيني. انضم معظم هؤلاء العملاء السرّيين الى القوميين في النصف الاول من العشرينات عندما فتح سان يات سن ابواب حزبه للشيوعيين اثناء مغازلته الروس، فجرى التسلل اليه على عدة مستويات. بالاضافة الى الشيوعيين العاملين علناً داخل الحركة القومية، كما هو الحال مع ماو، كان هناك ايضاً شيوعيون يعملون سرّاً، ومن ثم تأتي مجموعة ثالثة تتألف من اؤلئك الذين يقومون بعمليات انشقاق مزيفة عن الحزب الشيوعي الصيني. عندما انشق تشيانغ عن الشيوعيين سنة 1927 بقي عدد كبير من هؤلاء العملاء السرّيين كالمنتظرين الذين سيتم تشغيلهم في الوقت المناسب. في السنوات العشرين التالية وما بعدها لم يكونوا فقط قادرين على اعطاء الشيوعيين معلومات هامة بل كانوا غالباً في موقع يمكّنهم من ممارسة التأثير الكبير على القرارات السياسية اذ ان العديدين كانوا حينها قد بلغوا مراتب عليا في الحزب القومي. في النهاية لعب هؤلاء العملاء دوراً عملاقاً في المساعدة على تسليم الصين الى ماو وربما كان هذا الدور على مستوى سياسي رفيع اكبر من اي دور مماثل في اي بلد آخر في العالم. وبقي العديد منهم غير مكشوف الى يومنا هذا.

كان شاو لي تزو واحداً منهم وهو فعلياً عضو مؤسس في الحزب الشيوعي الصيني لكنه بقي بعيداً عن النشاطات الحزبية وفقاً لاوامر موسكو وأبقيت هويته مخفيّة حتى على قادة الحزب. عندما انقلب تشيانغ ضد الشيوعيين في شانغهاي في نيسان 1927 ارسل شاو برقية الى الروس حُوّلت مباشرة الى ستالين وفيها طلب للتوجيهات: «ان شانغهاي تضايقني كثيراً. اني لا استطيع ان اكون سلاح الثورة المضادة. اني اطلب نصيحة عن كيفية القتال». في السنوات العشرين التالية بقي شاو مع القوميين وشغل مناصب هامة عديدة الى ان انتصر الشيوعيون سنة 1949 فذهب الى ماو وبقي الى جانبه الى ان توفي في بكين سنة 1967. لكن حتى اثناء الحكم الشيوعي لم يتم الاعلان عن وجهه الحقيقي وما زال يُقدّم الى يومنا كمتعاطف شهم وليس كشيوعي «نائم» لسنوات.

مما لا شك فيه ان شاو اخذ ابن تشيانغ الى روسيا في تشرين الثاني 1925 بناءً لتوجيهات موسكو. عندما اكمل تشينغ كو دراسته هناك سنة 1927 لم يُسمح له بالمغادرة وأُكره على شجب والده علناً. كان ستالين الذي يحب احتجاز الرهائن يبقيه رهينة بينما كان يقول للعالم انه اختار البقاء. وصفت بيغي دينيس زوجة الزعيم الشيوعي الاميركي يوجين دينيس زيارة المستشار الخفي في الكومنترن ديميتري مانويلسكي عندما كانت هي وزوجها على وشك

مغادرة روسيا للعودة الى اميركا سنة 1935بقولها: «وقعت المفاجأة المذهلة بهدوء ... وبطريقة عَرَضية تقريباً اعلمنا مانويلسكي اننا لا تستطيع اعادة تيم [ابنهما] معنا، «... سوف نرسله الى بلاده في وقت آخر وفي ظروف اخرى». ولم يعيدوه ابداً الى بلاده.

جرى توضيح امر احتجاز تشينغ كو كرهينة الى والده عام 1931 من قبل السيدة سان يان سن (المولودة سونغ تشينغ لينغ) التي هي شقيقة زوجته وكانت ايضاً عميلة سوفياتية بدورها(*). اقترحت باسم موسكو ان يتم استبدال تشينغ كو باثنين من العملاء الروس الكبار اللذين اوقفا مؤخراً في شانغهاي، الاّ ان تشيانغ رفض العرض. كان توقيف العميلين الروسيين مسألة عامة وكانا خضعا للمحاكمة العلنية وارسلا الى السجن. لكن عرض موسكو اطلق العنان لسيلٍ من الكرب لدى تشيانغ الذي فكّر بان ابنه قد «يموت بصورة وحشية على يد الروس السوفيات». في 3 تشرين الاول كتب القائد العام في يومياته: «في الايام القليلة الماضية ازداد حنيني الى ابني. كيف ساواجه اهلي عندما اموت [اذا قتل تشينغ كو]؟» وكتب في الرابع عشر من الشهر نفسه: «لقد ارتكبت جريمة كبرى كوني غير مطيع [من خلال تعريض حياة وريثه للخطر] ..».

بقي تشيانغ مستغرقاً في القلق حول ما يمكن ان يحدث لابنه ويفسّر شعوره بالكرب والمرارة حدثاً جرى على بعد آلاف الكيلومترات. في ذلك الوقت بالتحديد اي كانون الاول 1931 وُجد ابن شاو لي تزو مقتولاً برصاصة في روما. وسبق لشاو ان اخذ ابنه الى روسيا سنة 1925 كرفيق درب لتشينغ كو، لكن خلافاً لتشينغ كو فقد سُمح لشاو الابن لاحقاً بالعودة الى الصين. غطّت الصحافة الايطالية هذه الوفاة كأنها مأساة عاشقين فكتبت احدى الصحف القصة تحت عنوان «النهاية المأساوية لصيني جرح حبيبته» ونُقل انها سيدة تشيكية. لكن شاو وعائلته كانوا مقتنعين بان مقتل ابنه الذي حجبه كل من الحزبين القومي والشيوعي نفّذه عملاء قوميون وان ذلك يمكن اتمامه فقط بإذن من تشيانغ كانتقام شخصي: ولَد مقابل ولد آخر.

في الوقت الذي بدأ فيه المسيرة الطويلة كان تشيانغ قد ابتكر عملية تبادل مرسومة بدقة وتقوم على الحفاظ على الحزب الشيوعي الصيني مقابل الحفاظ على حياة تشينغ كو، لكن لم

(*) هي أخت السيدة تشيانغ كاي شيك. إن كونها عميلة روسية بقي سرياً طوال حياتها، وقليلون فقط الى اليوم يعلمون ذلك. لكن رسالة سرية كتبتها في 26 كانون الثاني 1937 لوانغ مينغ رئيس وفد الحزب الشيوعي الصيني في موسكو ومراقبه، تظهر دورها الذي يفوق كل الشكوك. تبدأ الرسالة كما يلي: «الى الرفيق وانغ مينغ. أيها الرفيق العزيز: من الضروري بالنسبة الي أن أطلعك على الأمور التالية التي قد تعرض نشاطاتي للخطر..في الصين في المستقبل القريب. أريدك أن تأخذها بعين الاعتبار على أمل أن تنصحني بالطريق التي يجب سلوكها». من بين هذه النقاط في رسالتها شكاوى ضد عميلة الكومينترن الاميركي أنياس سميدلي التي -على حد قول السيدة سان-«أعادت المتعاطفين الأجانب الى ديارهم وبالتالي هدم ذلك البيت المميز الذي كان يستعمل لأهداف هامة...لقد حولت تعليماتك الى الحزب الشيوعي الصيني لعزلها».

يكن ممكناً توضيح هذا العرض. نفّذ خطته باساليب ماكرة وتقضي بإبقاء الشيوعيين محاصرين مؤقتاً الى ان يستعمل اليابانيين لاحقاً لسحقهم. اعتبر تشيانغ ان الحرب مع اليابان حتميّة وكان مدركاً ان روسيا تريد هذه الحرب. كان السيناريو الاكثر رعباً بالنسبة الى ستالين هو قيام اليابان باحتلال الصين وبعدها قيامها بشنّ هجوم على الاتحاد السوفياتي معولةً على موارد الصين وحدودها غير المضبوطة البالغة سبعة آلاف كيلومتر. وقدّر تشيانغ انه فور اندلاع الحرب الصينية-اليابانية ستُجبر موسكو على اصدار امر الى زبائنها الصينيين بالتحرك لمواجهة اليابان. حتى ذلك اليوم كان تشيانغ مستعدّاً للسماح للشيوعيين بالبقاء على قيد الحياة، الامر الذي امل ان يشكل تعويضاً كبيراً مقابل استرجاع ابنه.

لم يكن تشيانغ يريد ان يتمسّك الشيوعيون بالداخل الصيني المميز بغناه. كان يهدف الى دفعهم الى زاوية قاحلة لا كثافة سكانية فيها بحيث يتمكن من محاصرتهم. اما السجن الذي كان يجول في رأسه فهو سهل الارض الصفراء في شمال غرب الصين وبشكل رئيسي الجزء الشمالي من مقاطعة شانكسي. وللتأكد من ان الشيوعيين سوف سيدخلون هذه المنطقة سمح تشيانغ لقاعدة شيوعية بالازدهار فيها بينما كان يقمع بقوة القواعد الاخرى في اماكن مختلفة من الصين.

ان الشخص الرئيسي الذي استعمله تشيانغ لتنفيذ خطته لم يكن سوى شاو لي تزو، اي الرجل الذي سبق وأخذ ابن تشيانغ الى روسيا. عُيّن شاو حاكماً على شانكسي في نيسان 1933 ورغم معرفة تشيانغ بآرائه الحقيقية لم يفشِ سرّه ابداً بل ظلّ يستعمله وكأنه قومي حقيقي. كانت العلاقة التي تربط تشيانغ مع شاو وكذلك مع العديد من العملاء السرّيين الهامّين نوعاً من شبكة معقّدة وغير منطقية تقوم على المكائد والغش والخداع والخداع المزدوج والتي خرجت عن سيطرته في النهاية وساهمت في سقوطه.

اعتبر تشيانغ ان عميلاً سرّياً فقط قادر على تعزيز جيب شيوعي كما ان اي قومي اصيل يمكن ان يهدمه. وبالفعل بعد ان عُيّن شاو في المنطقة بدأ ما كان يعرف حتى ذلك الوقت بحرب العصابات الشيوعية المحدودة بالنمو في شانكسي الواقعة على حدود غانسو مباشرة الى الغرب(*). في اللحظة نفسها التي بدأ فيها المسيرة الطويلة في منتصف تشرين الاول 1934 قام تشيانغ بزيارة مقاطعة شانكسي. وبينما كان ينادي علناً بابادة «اللصوص» الشيوعيين سمح بتوسيع قاعدتهم بطريقة غير مسبوقة. خلال بضعة اشهر توسّعت هذه القاعدة لتغطي مساحة

(*) كان قائد الجيش القومي في شانكسي رحالاً زميلاً يدعى جنرال يانغ هو تشيانغ الذي سبق أن طلب الالتحاق بالحزب الشيوعي والذي علم تشيانغ بأمر علاقته مع الجيش الأحمر وتعاون بشكل جيد مع شاو.

ثلاثين الف كيلومتر مربع يبلغ عدد سكانها 900,000.

اقام تشيانغ سياجاً يستطيع ان يقود في داخله الكتائب المختلفة التابعة للجيش الاحمر فيما يخرجهم من جيوبهم المتعددة في قلب الصين. هدفت خطته الى اضعافهم بشكل ملحوظ على طول الطريق ولكنها لم تهدف الى التخلّص منهم كلّياً. قال تشيانغ لاحقاً الى مبعوث اميركي: «لقد اخرجت الشيوعيين من جيانغتزي الى ... شمال شانكسي حيث انخفض عددهم الى بضعة آلاف وتُركوا دون مطاردة».

قاد جيشه من خلال استعمال اللاسلكي لابلاغهم الاوامر بالانتشار رغم علمه بانه معرّض للتنصّت. ووجد الشيوعيون ان «برقيات العدو كانت دائماً عرضة للتنصّت وحلّ الشفرة من قبلنا وكان جيشنا مدركاً لنوايا العدو وتحركاته مثل معرفته بظهر أيدينا». لكن تشيانغ رفض تغيير شفرته. وذهب الشيوعيون الى حيث لا وجود لجنود العدو او ربما وُجد قلّة منهم في المكان.

قرّر تشيانغ اعتبار ليلة رحيل الشيوعيين لحظة الاستفادة من ضربة استخباراتية موفقة وذلك من اجل التأكد من ان الشيوعيين سيسلكون الطريق التي رسمها بالتفصيل ولعدم ترك المجال لأي تغيير في توجيهاتهم. في حزيران شنّ القوميون غارة سرّية على محطة الاذاعة التابعة للحزب الشيوعي الصيني في شانغهاي والتي تؤمن الصلة بين رويجين وموسكو. ترك القوميون الاذاعة تعمل تحت سيطرتهم لأشهر عديدة ومن ثم اغلقوها إغلاقاً تاماً في تشرين الثاني. حاول الحزب الشيوعي الصيني طوال اشهر اعادة الاتصال من خلال ارسال مشغّل بارع للراديو في شانغهاي ولكنه انشق عن صفوف الحزب فور وصوله. أرسل الحزب اشخاصاً لقتله فاخطأوه اول مرة الا انهم تمكنوا من قتله اثناء المحاولة الثانية وهو في سريره في مستشفى الماني. ومنذ ذلك الوقت فقدت شانغهاي اهميتها بالنسبة الى الحزب الشيوعي الصيني رغم استمرارها قاعدة اساسية للمخابرات السوفياتية.

استعمل تشيانغ المسيرة الطويلة لإطلاق عملية التبادل بين الشيوعيين وابنه. مباشرة قبل الفرار من قاعدة رويجين ارسل مطلباً من خلال قنوات دبلوماسية يلتمس فيه اعادة ابنه اليه. في 2 ايلول 1934 سجّل في يومياته انه «تمّ اعداد بيان رسمي لإعادة تشينغ الى دياره». اثناء فترة الفرار العصيبة الواقعة خلال تشرين الاول وتشرين الثاني وجد تشيانغ طريقة للتاكيد للروس على انه كان يغض الطرف ويسهّل مغادرة الشيوعيين ليس فقط من خلال تغيّبه عن خط الجبهة بل ايضاً من خلال الاتجاه الف كيلومتر في الاتجاه المعاكس للقيام برحلة علنية طويلة دامت اربعين يوماً في شمال الصين.

فهمت موسكو الرسالة، لكن موسكو زادت من مراقبة رهينتها بصورة دراماتيكية تحديداً في الفترة الممتدة بين طلب تشيانغ باطلاق سراح ابنه واليوم الذي اجتاز فيه ماو ورفاقه نهر كزيانغ وتحرروا من معاقل تشيانغ. حينها كان تشينغ كو يعمل في معمل للآليات في جبال الاورال بعد ان عمل في قرية وفي منجم للذهب في سيبيريا. ثم كما روى لاحقاً «وُضعت فجأة تحت المراقبة المشددة من قبل وكالة الاستخبارات السوفياتية من آب الى تشرين الثاني 1934 وكان يتجسس عليَّ رجلان كل يوم».

في بداية كانون الاول ومباشرة بعد ان تجاوز الشيوعيون الصينيون آخر المعاقل طالب تشيانغ بابنه مجدداً (كما اعلمت وكالة الاستخبارات الروسية تشينغ كو)، لكن الروس اخبروا تشيانغ بان ابنه لا يرغب في العودة. كتب تشيانغ في يومياته قائلاً: «لا نهاية لخداع العدو الروسي المثير للسخط» رغم قوله انه قادرُ على «التعامل مع المسألة بهدوء». «اشعر اني حققت تقدماً بالفعل اذ بامكاني حتى صرف النظر عن هذه الكارثة العائلية». كان تشيانغ يعلم ان ابنه سيكون بأمان اذا قدّم المزيد من المساعدة للشيوعيين.

13- المسيرة الطويلة II: القوة الداعمة للعرش
(1934-1935، العمر 40-41 سنة)

في منتصف كانون الاول قاد تشيانغ المسيرة الطويلة الى داخل غويزو المقاطعة الاولى التي ينوي السيطرة عليها. وكما توقع، خلق وصول الجيش الاحمر المؤلف من اربعين الف جندي الهلع لدى امراء الحرب في المنطقة. ويتذكر احد هؤلاء بانه شعر في ذلك الوقت بان تشيانغ «كان يودّ احتلال غويزو منذ وقت طويل». «الآن يجري جيش الحكومة المركزية في أثر الجيش الاحمر وربما لن استطيع رفض وجوده ... كنت مضطرباً بالفعل. وقررت في تلك الظروف ان اضع نفسي بتصرّف تشيانغ». في 19 كانون الاول زحفت ثماني فرق من جيش الحكومة المركزية الى داخل عاصمة المقاطعة وبدأت فوراً بناء مطار وطرقات. وبعد ذلك بقليل احتلّت مواقع اساسية وكما قال احد امراء الحرب «تحوّل [جنودها] من ضيوف الى اسياد».

من ثم وجّه تشيانغ الجيش الاحمر نحو الشمال باتجاه الهدف الثاني سيشوان عبر اغلاق الطرقات الاخرى والابقاء على هذا الممر مفتوحاً. وتقضي خطة تشيانغ بتكرار الاسلوب الذي اعتمده في السيطرة على غويزو في هذه المنطقة وبعدها يدفع الشيوعيين شمالاً الى شانكسي. لكن هناك بدأت الامور تنحرف عن السيناريو المرسوم اذ راح ماو يتصرّف بطرقٍ لم يتوقّعها تشيانغ. كان ماو مصمماً على عدم الدخول الى سيشوان، لكن دوافعه لا علاقة لها بتشيانغ بل بسعيه الى السلطة داخل حزبه هو.

بدأ ماو باتخاذ خطوات عملية للاستيلاء على القيادة في حزبه فور دخول الزاحفين الى غويزو. تطلّب ذلك خلق انشقاق بين اعدائه الحزبيين من الداخل، وتحديداً سعى لمصادقة شخصين لهما دوران اساسيان في الحزب ولم تربطه بهما افضل العلاقات في السابق هما وانغ جيا زيانغ الملقب بـ«الاستاذ الاحمر» ولو فو، الرجل الذي سبق وان اخذ منه منصب «رئيس الحكومة». كان ماو تبارز معهما في الماضي لكنه اصبح الآن يداهنهما فكلاهما حاقد على الرجل الاول في الحزب بو كو.

عرف الاثنان بو وهما على مقاعد الدراسة في موسكو ورغم ان هذا الاخير كان يصغرهما فقد تجاوزهما بسرعة ليصبح رئيساً عليهما وكان في بعض الاحيان فكلاهما حاقد يستثنيهما من عملية اتخاذ القرارات. قال لو فو بعد عدة سنوات ان بو «اقصاني» وهذا الذي دفع لو

الى احضان ماو. ويتذكر لو قائلاً: «شعرت بأني وُضعت في مركز لا سلطة فيه اطلاقاً وذقت مرارة الاستياء». «اذكر انه قبل الرحيل بيوم واحد كان للرفيق ماو دردشة معي فاطلعته على استيائي دون تحفّظ. ومنذ ذلك التاريخ اصبحت قريباً من الرفيق ماو وطلب مني ان ألازمه هو والرفيق وانغ جيا زيانغ، وبذلك تشكّل ثلاثي برئاسة الرفيق ماو».

سافر الثلاثي معاً وهم عادة يستلقون على مِحفّات اثناء السفر. كان استعمال مِحفّات الخيزران مسموحاً به لبعض القادة وكان يحق لكل واحد منهم بحصان وحمّالين لنقل اغراضه. كان معظمهم محمولاً في اغلب مراحل المسيرة الطويلة بما فيها المراحل القاسية للرحلة. كان ماو حتى صمّم وسيلة نقل خاصة به. وتتذكر السيدة لو فو كيف كان يقوم بالتحضيرات مع البروفسور الاحمر ويتبجّح بابداعه: لقد قال: «انظروا. نحن صمّمنا مِحفّاتنا بانفسنا ... وسوف نكون محمولين». وكان هو وجيا زيانغ راضين عن نفسيهما اثناء عرضهما «لاعمالهما الفنية» امامي، اذ ان نوع المِحفّات التي صنعوها كانت لها اقطاب طويلة جداً من الخيزران تجعلها اسهل حملاً واخف وزناً اثناء تسلّق الجبال. وكان لها مظلة من القماش المشمّع ... فيصبح [الراكب] محميّاً من الشمس والمطر».

اخبر ماو الموظفين العاملين لديه بعد مرور بضعة عقود بقوله: «اثناء الزحف كنت ممدّداً على مِحفّة. ماذا فعلت؟ قرأت وقرأت كثيراً». لم يكن الامر سهلاً بالنسبة الى الحمّالين ويتذكر الزاحفون: «اثناء تسلّق الجبال تمكن حاملو المِحفّات من التقدم فقط على ركبهم وكان الجلد مسلوخاً عن اللحم عند الركب قبل ان يصلوا الى القمة. وكان تسلّق كل جبل من الجبال يترك ذيلاً من عَرَقهم ودمائهم».

بينما كان ماو محمولاً على اكتاف رجال آخرين خطّط لضربة موفقة ضد بو كو بالتعاون مع زميلين حَسودين. عندما كانت الطريق واسعة كانوا يتكلمون جنباً الى جنب وعلى الممرات الضيقة حيث كان عليهم السير في رتل افرادي فيكون احدهم خلف الآخر، رتّبوا مِحفّاتهم بحيث تكون رؤوسهم قريبة من بعضها. عقد اجتماع في بستان ليمون بدا ذهبياً مع تدلّي الفواكه الناضجة من بين الاوراق النضرة الخضراء. عندها اخذ حاملو المِحفّات راحة قصيرة ووضعوا حمولتهم جنباً الى جنب. قرر الثلاثي العمل معاً على «اخراج» بو بالاضافة الى المستشار الالماني براون وقرروا ايضاً تسليم قيادة الجيش الى ماو. وبما ان هذا الاخير كان غير شعبي على الاطلاق، وبما انه لم يكن حتى عضواً في الامانة العامة للحزب اي الهيئة المركزية، لم يهدف الى الوصول الى مركز الصدارة في الحزب في تلك المرحلة. كان هذا المنصب مخصصاً الى لو فو العضو الوحيد في الثلاثي الذي كان في الامانة العامة. اما الاستاذ الاحمر فستكون مكافاته العضوية الكاملة في المكتب السياسي للحزب. وبدأ الثلاثي خلق لوبي يجتمع لمناقشة

كيفية خسارة الشيوعيين لدولتهم.

وافق بو كو على اجراء التحقيق بعد هذه الخسارة. في الواقع كان يشعر بالخيبة الكبرى بسبب فشل الشيوعيين لدرجة ان زملاءه اعتقدوا انه قد يقدم على الانتحار بعد ان رأوه يصوّب مسدساً نحوه عدة مرات.

لذلك عقدت مجموعة ضمّت عشرين رجل هم اعضاء في المكتب السياسي اضافة الى بعض القادة العسكريين اجتماعاً بين 15 و17 كانون الثاني 1935 في مدينة زونيي في شمال غويزو. خُصّص معظم وقت الاجتماع لاستعادة قضية المسؤولية عن انهيار الدولة الشيوعية والقى الثلاثي اللوم في كل شيء على القادة الكبار الذين كانوا يشغلون المناصب الهامة قبل المسيرة الطويلة وخاصة بو وبراون.

شاع ادّعاء بان ماو اصبح رئيساً للحزب وقائداً للجيش بتفويض من اغلبية المجتمعين في زونيي. في الحقيقة لم يصبح ماو رئيساً للحزب كما لم يصبح قائداً للجيش في زونيي. بقي بو كو الرجل الاول في الحزب وبموافقة الاغلبية، وحصل توافق على ان لا لوم عليه في خسارة رويجين. لكن كون براون الاجنبي الوحيد فقد وفّر لهم كبش محرقة مناسب وأزيل من القيادة العسكرية. ورغم ان المتآمرين مع ماو اقترحا ان يتسلّم القيادة هو يبدو ان لا احد سواهما دعم هذا الاقتراح وأعيد التأكيد على بقاء تشو إن لاي قائداً عسكرياً مع تولّيه «المسؤولية في اتخاذ القرارات النهائية في المسائل العسكرية»(*).

الا ان ماو حقق تقدماً حاسماً في زونيي اذ اصبح عضواً في الامانة العامة للحزب وهو الهيئة المركزية لاتخاذ القرارات. كانت موسكو قد شكلت التركيب السابق لهذه المجموعة سنة 1934 وتتألف من سبعة اعضاء شارك اربعة من بينهم في الزحف وهم بو كو، تشو إن لاي، لو فو ورجل يدعى تشين يون. كان الثلاثة الآخرون زيانغ ينغ، وانغ مينغ الذي هو ممثل الحزب الشيوعي الصيني في موسكو، وتشانغ كو تاو وهو رئيس ما كان يُعتبر حينها اكبر ثاني قاعدة شيوعية. في زونيي اقترح البروفسور الاحمر إحضار ماو الى الامانة العامة. في الواقع لم يكن يحق للبروفسور الاحمر القيام بهذا التعيين اذ انه لم يكن عضواً كاملاً في المكتب السياسي للحزب. لكن شعوراً كبيراً بالذنب كان يتملّك في بو كو، كما كانت معنوياته ضعيفة لدرجة انه لم يستطع مقاومة ترقية ماو فأُنجزت المسألة على نحو رسمي. لكن لم تجرِ استشارة موسكو لأن الاتصالات اللاسلكية كانت مقطوعة.

فور دخول ماو الى الامانة العامة اصبح في موقع يمكنه من التلاعب والمناورة. من بين

(*) بدا نقص دعم الأغلبية لماو واضحاً أيضاً عندما استشهد بالذين دعموه في زونيي، فلم يذكر يوماً أكثر من اسمين – وهما الشخصان المتآمران معه.

الاعضاء الاربعة الآخرين المشاركين في الزحف كان لو فو حليفاً له فيما لم يكن لتشين يون اهتمام بالسلطة وكان غائباً في معظم الاحيان لمعالجة امور لوجستية. فبقي تشو وبو. وكانت استراتيجية ماو فيما يخص تشو تقوم على شقّه عن بو عبر اللجوء الى استعمال مزيج من العصي والجزر، واولّها الابتزاز من خلال التهديد باتهامه بالمشاركة في المسؤولية عن حالات الفشل السابقة. في زونيي جرى الاتفاق على اعداد قرار عن كيفية خسارة الدولة الشيوعية ووجد لو فو شريك ماو في المؤامرة وسيلة ليأخذ على عاتقه كتابة القرار الذي يقوم باعداده عادة الرجل الاول في الحزب.

هذه الوثيقة ستكون بمثابة الحكم وسترسل الى الحزب ويُرفع تقرير عنها الى موسكو. اعدّ لو فو مسودة مزودة بالعنوان الفرعي التالي: «مراجعة للاخطاء في السياسة العسكرية التي ارتكبها الرفاق بو كو وتشو إن لاي واوتو براون» ووصف تشو بانه مجرم شارك في المسؤولية عن خسارة الدولة الشيوعية. لكن بعد ان وافق تشو على التعاون أُزيل اسمه ولم يعد موضعاً للّوم.

وكما قال براون بطريقة جافة فان تشو «ابتعد عن بو كو وعنّي وبذلك وفّر لماو الحجة المطلوبة لتركيز هجومه علينا فيما استثناه هو». نتيجة لذلك بقي بو المشكلة الوحيدة وكان ماو قادراً دائماً على تهميشه. في الواقع ما ان انتهى اجتماع زونيي والتحق معظم المشاركين بوحداتهم ضمن ماو الحصول على لقب «مساعد الرفيق إن لاي في ادارة الشؤون العسكرية» من هذه المجموعة الرئيسية الجديدة وهو لقب غير مسموع به ويبدو غريباً بدون شك. وبذلك اعاد ماو إقحام نفسه داخل القيادة العسكرية.

من ثم رفّعت هذه المجموعة المركزية الجديدة الاستاذ الاحمر الى مرتبة العضوية الكاملة في المكتب السياسي في الحزب وقبل مضي وقت طويل كافأته بتعيينه في منصب عسكري رفيع رغم انه لا يلُم بالامور العسكرية. لكن الاهم، انه وبعد مضي ثلاثة اسابيع على اجتماع زونيي وفي 5 شباط عُيّن فجأة لو فو في منصب الرجل الاول في الحزب مكان بو كو وجرى ذلك في قرية تلتقي عندها المقاطعات الثلاثة وتدعى «ديك يصيح على المقاطعات الثلاثة». جعل كل من ماو ولو فو تشو يذعن ومن ثم واجها بو كو بـ «الاكثرية» في المجموعة الرئيسية. وافق بو على التخلي عن منصبه «فقط نتيجة لمناقشات عديدة وضغوط» كما وصف الامر.

شكّل صعود لو فو الى منصب الرجل الاول في الحزب انقلاباً ماكراً لذلك ابقي سرّاً على كل من اعضاء الحزب والجيش لأسابيع. واعلن عن التغيير على مستوى القمة فقط عندما وجد المتآمرون أنفسهم في موقع اقوى بفضل نصر عسكري احرزوه. أُخرج بو الآن من عملية اتخاذ القرارات وبما ان لو فو شخصية ضعيفة فقد اصبح ماو الشخص المسيطر على الوضع.

بعد نجاح الانقلاب الذي قام به ماو كان عليه تعزيز موقعه. وكانت الحاجة الى القيام بذلك هي التي تقف وراء المكائد الاستثنائية التي لجأ اليها لتجنّب الدخول الى سيشوان ونتيجة لذلك عطّل مخططات تشيانغ عن غير قصد.

تقع سيشوان مباشرة الى شمال زونيي وكانت المكان الطبيعي الذي سيتوجه اليه كونها منطقة واسعة وغنية ومزدهرة وكان الروس نصحوا القوة الموجودة في رويجين بها منذ وقت طويل. كانت اقرب بكثير الى منغوليا الواقعة تحت السيطرة السوفياتية واقرب الى غزينجيانغ (التي اصبحت الآن مستعمرة سوفياتية بالفعل تقيم القوات الروسية حامية فيها) وكانت موسكو تحضّر هاتين المنطقتين لشحن السلاح عبرهما الى الحزب الشيوعي الصيني. وكان ستيرن المستشار العسكري السوفياتي في الصين سابقاً يبحث عن طرق لربط سيشوان بمواقع تمكّن الروس حتى بتزويدهم بـ«الطائرات وسلاح المدفعية ... وما يكفي من الاسلحة لتسليح خمسين الف شخص»(*).

قرر المجتمعون في زونيي الانتقال الى سيشوان. لكن بالنسبة الى ماو قد يكون الامر مهلكاً، اذ يعني الانضمام الى تشانغ كو تاو، المحارب القديم الذي قاد قوة اقوى بكثير من تلك التي بامرة ماو ويزيد عدد افرادها على الثمانين الفاً.

وفور الانضمام الى هذا الجيش القوي سيتعرّض للخطر الشديد كل من موقع لو فو بصفته رئيساً للحزب وموقع ماو بصفته القوة التي تدعم العرش. سبق لكو تاو ان ترأس المؤتمر الاول للحزب سنة 1921 لدى مشاركته بصورة هامشية وعندها لم يكن لو فو حتى عضواً في الحزب (انضم لو الى الحزب سنة 1925). كان عضواً اصيلاً في الامانة العامة خلافاً لماو الذي دخل عنوة الى الامانة العامة خارقاً القوانين الحزبية بعمله هذا. بالاضافة الى ذلك كان كو تاو عضواً كاملاً في اللجنة التنفيذية للكومنتيرن مما اعطاه احتراماً كبيراً كما كان له نفوذ في روسيا التي عاش فيها لسنوات والتقى ستالين اثناء وجوده فيها. بعد عودته من موسكو الى الصين في كانون الثاني 1931 ارسلته شانغهاي الى ايوان لرئاسة الجيب الشيوعي على حدود مقاطعات هبي وهونان وانهوي في شرق وسط الصين. هناك بنى قاعدة مماثلة لقاعدة رويجين وفي صيف

(*) قدم الملحق العسكري السوفياتي لوبان نصائح حول افضل طرق التموين. كما أرسل قائد الحزب الشيوعي الصيني السابق لي لي سان من موسكو الى قاعدة سرية على الحدود الصينية في محاولة لإقامة اتصال إذاعي. أما نائب القنصل الأميركي في ينان أرثور رينغوالت فقد رصد الخطر وحذر واشنطن في بداية كانون الثاني 1935: «يبدو الوضع جدياً بشكل متصاعد بالنسبة الى الصين. فما لم تحصل اية اعجوبة، سيقتحم الشيوعيون سيشوان في احدى الطرق. ثم تكون مسألة وقت قبل استكمال الخطة المعروفة.. لإقامة اتصالات مع روسيا السوفياتية. بعد ذلك لن ينفع الحديث عن قمع شيوعي.
شخص آخر أثار المسألة هو جاسوس بريطاني هام يعمل لصالح روسيا كيم فيلبي. ففي مقالة حول التيبت نشرت في المانيا النازية عام 1936 ركز فيلبي على الدلالة الاستراتيجية للترابط بين الجيش الاحمر الصيني والروس في الشمال الغربي.

1932 كانت تغطي مساحة تزيد على الاربعين الف كيلومتر مربع فيها يبلغ عدد السكان فيها ثلاثة ملايين ونصف المليون ولها جيش قوامه خمس واربعين الف رجل. بعد ان أُخرج في ذلك الخريف على يد تشيانغ كاي شيك انتقل الى شمال سيشوان حيث بنى خلال سنة قاعدة اكبر من تلك التي بناها في رويجين وزاد من عديد جيشه الى ما فوق الثمانين الفا(*). كان كو تاو من دون شك الانجح من بين كل الشيوعيين. فور انضمامه الى سائر القادة بدا محتوماً انهم سينتخبونه رئيساً جديداً عليهم.

كما لم يكن بإمكان ماو ان يتوقّع تحويله الى دمية. لم يكن لدى كو تاو اي وخز ضمير حول القتل في سبيل الوصول الى السلطة، ففي القواعد التابعة له نفّذ تطهيرات دموية بحق القادة المعارضين له من السكان المحليين. كان يترأس شخصياً جلسات الاستجواب التي تتضمن التعذيب، تماماً كما كان يفعل ماو. اما ضحاياه فهم عادة يُطعنون بالحراب او يُخنقون حتى الموت كما كان البعض يُحرقون وهم احياء. قال قائده العسكري غْزو انه دأب بسهولة على «التخلص من الناس الذين يعترضون طريقه وذلك كي يبني حكمه».

مع وجود هذه الشخصية المرهبة المنافسة لماو بدت حظوظه بالوصول الى القمة ضعيفة. بالاضافة الى ذلك اذا شنّ صراعاً على السلطة ضد كو تاو قد يخاطر في حياته. حتى ذلك الوقت كان ماو يتعاطى مع قادة حزبيين يعني تفانيهم في سبيل الحزب انهم يقدمون على القتل لمصلحة الحزب وليس في سبيل تعزيز سلطتهم الشخصية. شعر ماو بالامان التام مع بو كو وتشو إن لاي رغم انه تسبب بالمشاكل لهما. لم يكن يستطيع الاتكال على التساهل الكبير الصادر عن كو تاو لذلك كان هدفه الاساسي اعاقة اي تحرّك يرمي الى الدخول الى سيشوان الى ان يمسك بالقيادة الحزبية بإحكام.

الا ان ماو لم يكن قادراً على الاعلان عن هدفه. كان عليه مماشاة الخطة القاضية بالتوجه الى سيشوان. في 19 كانون الثاني 1935 انطلقت القوة التي كانت معه من زونيي وفي 22 كانون الثاني ابرقوا الى كو تاو الذي كان في شمال سيشوان معلنين انهم قادمون وطالبين منه التحرك باتجاه الجنوب لتحقيق الالتحام بهم. لكن ماو كان يحتفظ بخدعة يستعملها عند الحاجة. بعد اربعة ايام اصرّ على وجوب نصب الجيش الاحمر كمين لقوة عدوة تتعقّب مجموعتهم. كانت هذه القوة من سيشوان ومعروفة بخشونتها. اشارت تقديرات ماو التي احتفظ بها لنفسه الى

(*) كان تشانغ كيو تاو ناجحاً جداً وبخاصة لأن الجزء الذي دخله من سيتشوان كان خاضعاً لبعض أرباب الحرب القاسين المميزين الذين سحقوا شعبهم الى حد أن العديد من الناس حتى في المدن لم يستطيعوا شراء اللباس فتمشوا عراة تماماً. كما حصلت ثورات عدة للفلاحين قبل وصول جيش كيو تاو وكانت قواته قادرة على تجنيد المتطوعين الكثر. كما كان لديه قائد عسكري كزو كزيانغ كيان الأفضل بين القادة الشيوعيين.

ان الجيش الاحمر قد يُمنى بهزيمة وفي هذه الحالة يمكنه ان يعتبر ان العدو السيشواني هو شرس جداً ومن ثم يطلب البقاء في غويزو.

كانت فكرة الكمين غير منطقية اذ ان وحدة العدو التي اختارها ماو لشنّ هجوم عليها لم تسدّ الطريق الى سيشوان بل كانت وراء الشيوعيين ولم تكن حتى تضايقهم. في الواقع تضمّنت الخطة الاساسية التي اعتبرت ان سيشوان هي المكان المقصود الامر بالتالي: «ابتعدوا عن» الذين يطاردونكم و«لا تشتبكوا» معهم. لكن ماو تمكن من الحصول على موافقة تشو إن لاي الذي يملك الكلمة الاخيرة في القرارات العسكرية، على الارجح من خلال تهديد تشو بأنه اذا لم يماشيه سيتهمه بالمشاركة في المسؤولية عن خسارة الدولة الشيوعية في «القرار» الذي كان لو فو يكتبه. يبدو ان تشو كان لديه خوف مفرط من العار وهذا الضعف استغلّه ماو مرات عديدة في العقود القادمة.

في 28 كانون الثاني امر ماو بنصب كمين الى الشرق من منطقة تدعى توتشنغ واتت النتيجة مدمّرة للشيوعيين. جاء اداء العدو متناغماً مع سمعته بانه مخيف واستغل الفرصة بسرعة وبعثر القوة التي ركّزها ماو فادار الجنود ظهورهم الى النهر الاحمر الهائج واسرعت القوة بين المنحدرات الصخرية السحيقة. جلس ماو على قمة بعيدة يتفرج على هلاك جنوده وانتظر نهاية يوم طويل من المعارك الدامية كي يسمح لهم بالانسحاب. كان المطر يهطل بغزارة وسيطر الهلع على الجنود المنسحبين الذين يجهدون للتقدم على الطرقات الجبلية الزلقة فيما دُفع الجرحى والنساء الى المؤخرة. كان العدو قريباً منهم لدرجة ان احد المتعقّبين لهم انتزع حقيبة ظهر تعود الى السيدة زو دو بيد واحدة بينما كان يشد مسدسها في اليد الثانية. تركته يأخذ حقيبتها وركضت. كانت المعركة الوحيدة في المسيرة الطويلة التي تلاحم فيها اشخاص في القيادة في معركة مع العدو.

في تلك المعركة قتل او جرح اربعة آلاف من جنود الجيش الاحمر اي عشرة بالمئة من مجموع عددهم. اعتبرت توتشنغ الهزيمة الاكبر خلال المسيرة الطويلة وكانت تُستذكر على هذا الاساس في المجالس الخاصة فيما كانت تُطمس كلياً في العلن لان ماو كان المسؤول عن اختياره للمكان والتوقيت. في يوم واحد تسبب باصابات اكبر حجماً بكثير من تلك التي تكبّدها الشيوعيون في الخسارة السابقة الكبرى على نهر كزيانغ حيث بلغ حجم الاصابات الثلاثة آلاف. وتقول الاسطورة ان ماو هو الذي انقذ الجيش الاحمر بعد زونيي، اما الحقيقة فهي العكس تماماً.

اجتاز الشيوعيون النهر الاحمر على عوامات مبنية بسرعة باتجاه الغرب وهم في حال من الفوضى تاركين المدفعية الثقيلة وتجهيزات مثل ماكينة الاشعة. وغطّى عملية الانسحاب زو

شخصياً فيما يحمل في يده ماوزر. في ذلك اليوم فقد صوابه وصرخ في وجه ضباطه لشدة خيبته وهو المعروف بهدوء طباعه. كان على الرجال المنهكين ان يحملوا او يجرّوا رفاقه المصابين على طول طرقات مليئة بالمنعطفات المشرفة على منحدرات صخرية ساحقة تصيب بالدوار. وغطى الثلج المتساقط بغزارة الغابات الكثيفة والوديان، وظلّت ذكريات البرد القارس والجوع والانهاك وصرخات الالم تلازم العديد من الناجين في العقود اللاحقة.

هذا المشهد المأساوي كان تماماً ما يريده ماو لكي يبرهن ان جيش سيشوان هو شرس جداً اثناء الاشتباك معه وبالتالي يجب الاّ يتجه الشيوعيون الى سيشوان بحسب الخطة الاساسية المعلنة.

الا انهم كانوا في ذلك الحين داخل الزاوية الجنوبية الشرقية لسيشوان ورأى الكثيرون ان عليهم ان يكملوا باتجاه الشمال.

ايّد القادة العسكريين الكبار وحتى صديق ماو القديم لين بياو التوغّل في سيشوان. بالاضافة الى ذلك شعر الجميع بعدم الرضى حيال ترك ماو يملي عليهم تفاصيل الكمين في توتشينغ. عندما حضر ماو الى مقر لين بياو لتبرير ما يقوم به والقاء اللوم على الآخرين لاحظ براون ان لين بدا «فظّاً من غير ريب». الا ان ماو انتصر بدعم من لو فو. كان لدى لو مصلحة مشتركة مع ماو في تفادي او تأجيل الانضمام الى تشانغ كو تاو اذ ان تبوأه الحديث لموقع الرجل الاول في الحزب سيتعرض للخطر شديد في حال تمّ الانضمام الى كو تاو بهذه السرعة. في 7 شباط 1935 اعلنت القيادة الجديدة برئاسة لو فو انه صُرف النظر عن الخطة الاساسية الرامية الى الدخول الى سيشوان لصالح اقتراح ماو بالبقاء في غويزو.

استدار الشيوعيون واجتازوا النهر مرة ثانية وجرى التخلص من المصابين بعد ان تركوهم في برّية يسودها البرد ولا يملكون سوى القليل من الطعام والادوية، لذلك توفي معظمهم خلال بضعة اشهر(*).

اعادت القوة التابعة لماو احتلال زونيي في 27 شباط. كان تشيانغ يريد سوق الشيوعيين الى سيشوان بالقوة فارسل جنرالاً مقداماً مع فرقتين لاستعادة المدينة التي قصفها ايضاً.

(*) الإجراء العادي للمسيرة يقوم على ترك الجرحى مع العائلات المحلية مع بعض المال. وكان الحظ يحدد مصير من سقطوا. تركت كتيبة تشانغ كيو تاو بعض الجنود النساء المرضى والعاجزين عن المتابعة. عندما بحث عنهم مؤرخو الحزب بعد نصف قرن، لاحظوا انهم عانوا تجارب مؤلمة. اما المحليون الذين عانت عائلاتهم على يد الحمر فقد عذبوا بعض النساء حتى الموت بإدخال عصى خشبية في مهبلهم وقطع صدورهم. كما تزوج بعض النساء من الفلاحين الأغنياء للبقاء على قيد الحياة. ولكن عندما وصل حزبهم الى السلطة وصفهم بـ«أرباب الأراضي» وأدانهم وازدراهم وفصلهم مدى الحياة. في عام 1985 في تشرين الثاني البارد كان الذين رآهم مؤرخو الحزب وهم في 60 أو 70 من العمر في حال من الفقر الشديد ولا ينتعلون أحذية لأن هذه الأخيرة اعتبرت قيمة جداً لتعرض للخطر في مناسبة غير أساسية.

تمكن الشيوعيون من ردّ خطر هؤلاء الجنود وكان ماو مسروراً جداً خاصة وان هؤلاء الجنود متفوّقون مما يعني انه قد يتمكن من البقاء على الاقل لوقت كافٍ يتيح له ولدميته لو فو تعزيز قوتهم. وكتب قصيدة تعبيراً عن رضاه جاء فيها:

«انه لادّعاء فارغ بان الموقع الحصين هو حائط من حديد

اليوم بلغت القمة بخطوة واسعة

بلغت القمة

الجبال المتمايلة لها زرقة البحر

وشمس المغيب حمراء كالدم»

عندها فقط قام ماو ولو فو بإبلاغ الجيش وتشانغ كو تاو بان لو فو هو الرجل الاول في الحزب وبان ماو انضم الى الامانة العامة. كان كو تاو عاجزاً عن القيام باية خطوة حيال ذلك. وانتظر كلّ من ماو ولو عمداً الى ان حققا «نصراً» قبل ان يفصحا عن التغييرات. وما إن أُعلنت هذه التغييرات ولم يحصل اي احتجاج علني عليها حتى اقدم لو فو على تعيين ماو في منصب «القائد العام للجبهة» وهذا منصب جديد وُجد خصيصاً له تماماً كما حصل لدى تعيينه في المنصب العسكري الرسمي الاول له الذي شغله خلال سنتين ونصف.

اعتُبر هذا «الكسب» في الواقع انتصاراً انتُزع بثمن مكلف. وسجّل بينغ دي-هواي «خسائر كبيرة» في فيلقه وقال معلّقاً: «ان فوجاً واحداً فقط يستطيع الحفاظ على ... خمسين الى ستين رجل في السريّة الواحدة ... الآن كل مراكز الافواج ومراكز الفيلق هي خالية كما لو ان الفيضانات جرفتها». قدّم ضابط آخر برتبة رفيعة النصيحة التالية اذ كان «قلقاً جداً»: لم يبقَ لدينا العديد من الجنود ويجب ان نتجنب المعارك القاسية ... لم يعد بمقدور الجيش الاحمر تحمّل هذا الثمن».

لكن ماو كان صمم على الاستمرار في محاربة قوات تشيانغ. الآن تسيطر هذه القوات على غويزو وكان بحاجة الى مهاجمتها اذا اراد ان يجرّب حظه في اقامة قاعدة في المقاطعة وهو امر اساسي في تصميمه على البقاء خارج سيشوان. في 5 آذار اصدر امراً بـ«القضاء على فرقتين تابعتين للحكومة المركزية» مما فجّر موجة من الاحتجاجات الصادرة عن القادة المتواجدين في ميدان القتال والذين اغتاظوا للطريقة التي كان ماو يعتمدها لتشتيت جنودهم. ارسل لين بياو «برقية عاجلة جداً» في العاشر من آذار يرفض فيها الحرب ضد هؤلاء الاعداء القساة.

عند فجر ذلك النهار دعا لو فو حوالى العشرين شخصاً الى اجتماع لمجلس الحرب حضره ايضاً القادة المسؤولون عن ميدان القتال. وجد ماو نفسه معزولاً تماماً فيما يخص مسألة الهجوم على قوات تشيانغ المتفوّقة وحتى حليفه لو فو لم يوافقه الرأي. عندما اخطأ ماو التقدير وهدد

بتقديم الاستقالة من منصب قائد الجبهة تهافتت الاغلبية على القبول بالعرض. عُيّن بينغ دي-هواي مكانه وصوّت المجلس على قرار بالابتعاد عن قوات تشيانغ.

هذة المرة بدا حقاً ان ماو خارج اللعبة، لكنه لم يضيع الوقت ابداً قبل ان يعود الى التخطيط لإبطال تلك القرارات. وفي تلك الليلة سار وهو يحمل قنديل كاز في يده قاصداً تشو إن لاي الذي كان، نظرياً، يحتفظ بالقرار النهائي في المسائل العسكرية، واقنعه بعقد اجتماع آخر في الصباح واهم ما فيه انه سيعقد من دون قادة الجبهة الذين عادوا الى وحداتهم.

قدّم ماو اغراءاً معيّناً الى تشو. عندما خُلق منصب القائد العام للجبهة اصبح هذا الاخير يشكّل فائضاً الى حد ما، فاقترح عليه ماو الغاء منصب قائد الجبهة وانشاء هيئة جديدة تدعى الثالوث وتتألف من تشو وماو نفسه والاستاذ الاحمر.

استطاع ماو التلاعب في الاجتماع الثاني لا سيما في غياب القادة المسؤولين عن ساحة القتال. فألغيت القرارات القاضية بتعيين بينغ مكان ماو وبتجنّب القوات الخاضعة لتشيانغ. وهكذا تمّ اسقاط حكم واضح اتخذه من شكّلوا نصاباً قانونياً ولعب التواطؤ من قبل تشو دوراً حاسماً في الموضوع. بالاضافة الى ذلك ونتيجة لتلك التغييرات السرية لم تعد القيادة العليا في الجيش تضم ضابطاً حقيقياً واحداً ابتداءً من 11 آذار 1935.

على الفور اصدر الثالوث امراً بالهجوم على قوات تشيانغ القريبة من ماوتاي، موطن اشهر شراب كحولي صيني، وحيث كان العدو حفر الخنادق استعداداً للدفاع عن نفسه. ناشدهم بينغ قائلاً: «انسحبوا من المعركة بسرعة»، «ان تعزيزات العدو قوية والطبيعة الجغرافية للمنطقة ليست لمصلحتنا. ليس هناك من احتمال لسحق [هذه الوحدة التابعة لتشيانغ]». لكن الثالوث اصرّ قائلاً: «القوا بكل القوات التي نملكها غداً ... لا تردد البتة».

عندما شنّ الشيوعيون هجوماً على الجبهة كان جيش تشيانغ مستعداً للمواجهة بالرشاشات وسيّر المهاجمين الذين تكبدوا ما يزيد على الالف اصابة(*). واجتاز الشيوعيون الخاضعون للتوجيه النهر الاحمر مجدداً واجبروا على الدخول الى سيشوان.

بعد ان اوصلهم تشيانغ الى حيث يريد اغلق طريق العودة الى غويزو. الا ان ماو استمر يرفض بازدراء الخيار الذي يبدو جلياً انه الافضل ويقضي بالاستمرار في الزحف نحو الشمال. عوضاً عن ذلك امر الجيش الاحمر بالاستدارة واجتياز النهر مجدداً وشقّ طريق العودة الى غويزو بالقوة. كان الامر غير منطقي وغير شعبي لدرجة انه استلزم صدور امر استثنائي اطّلع عليه القادة في المناصب العليا فقط وفرض الامر الآتي: «يجب الامتناع عن الاعلان عن هذا

(*) اعترف ماو لاحقاً أمام المقربين منه فقط - انه المسؤول عن الهزيمة الكبرى وعن توتشنغ، وليشير الى أن أية هزائم لن تزعزعه. أمام الرأي العام، بقي هذا الحدث بدون أهمية مثل توتشنغ.

العبور الى الشرق ويجب ابقاءه سرّاً».

خلال شهرين كان الجيش الاحمر «يدور في منطقة تتقلّص مساحتها يوماً بعد يوم لدرجة انه مرّ عبر بعض المناطق مرتين او ثلاث مرات» في «تجوال مرهق وعديم الجدوى» كما لاحظ براون بحيرة وكان هذا الجيش يتعاطى مع المسألة برمتها بـ«ضلال» ملحوظ. لقد خاض هذا الجيش معارك بدت غير مبرّرة ومكلفة. بالاضافة الى ذلك لم يقم ماو فقط بجلب الكوارث للجيش الذي كان بامرته بل عرض للخطر ايضاً الجيش الذي يعمل بامرة تشانغ كو تاو من خلال اكراهه على التسكّع وانتظار اوامره. ولاحقاً وصف ماو هذا الاخفاق التام دون خجل بقوله انه «عمل يدلّ على البراعة». وتظل حقيقة غير معلنة الى يومنا هذا وهي ان الخسائر الهائلة عائدة لمناوراته في سبيل تعزيز سلطته الشخصية.

اصيب تشيانغ كاي شيك بالحيرة لرؤية العدو «يطوف في دوائر في منطقة غير ذي جدوى على الاطلاق». ونظراً لعدم اطلاع تشيانغ على البرنامج الخاص بماو فقد توقع ان يذهب الشيوعيون الى سيشوان. اعتبر تشيانغ ان جيشه سيلحق بالجيش الاحمر الى سيشوان فسافر الى تشونغكينغ، اكبر مدينة في المقاطعة، في 2 آذار ليفرض سيطرة الحكومة المركزية. حاول تشيانغ انهاء الاقطاعات شبه المستقلة لكن امراء الحرب صعدوا من مقاومتهم العنيفة رغم انها لم تكن عسكرية. ووجد نفسه غير قادر على اخضاعهم اذ ان جيشه لم يكن حاضراً.

ضاعف تشيانغ جهوده الآن لسوق الشيوعيين الى سيشوان وجعلهم عرضة للقصف الجوي العنيف فاصبح مستحيلاً على ماو ان يؤسس موطىء قدم له في غويزو. في الوقت نفسه عمد تشيانغ، وفي اسلوب استعراضي، الى نقل وحدات من الجيش بعيداً عن حدود سيشوان في اشارة الى انه لم يعد هناك من جنود على تلك الحدود. اذهبوا الى سيشوان! لكن ماو قاد الجيش الاحمر المنهك بتصميم كبير في الاتجاه المعاكس اي نحو الجنوب(*).

كتب براون قائلاً انه على وقع هجوم جوي مستمر «كانت القاعدة السير القسري بطول اربعين الى خمسين كيلومتراً».

> «وظهر على الجيش المزيد من عوارض الارهاق ... عندما كانت الطائرات تنزل حتى تكاد تلامس الرؤوس كنا بكل بساطة نرمي بانفسنا على جانب الطريق دون التفتيش عن غطاء كما اعتدنا ان نفعل. اذا بدأت القنابل تسقط في قرية او مزرعة نبيت فيها لم اعد استيقظ من النوم. واذا وقعت واحدة بالقرب مني كنت فقط انقلب من جهة الى اخرى ...

(*) كان تشيانغ وضباطه مرتبكين الى حد اعتقادهم أن ماو اراد مهاجمة عاصمة غويزهو حيث كان تشيانغ، ليحاول الوصول الى تشيانغ نفسه. لكن الجيش الاحمر مر بدون ان يتوقف. في غويزهو حيث الناس وسخين وفقراء، جند الجيش الاحمر آلاف الشبان.

وازداد عدد الوفيات اليومية جراء الامراض والانهاك اكثر منه جراء الاصابات. رغم تجنيد الوف المتطوعين منذ بداية السنة فقد تضاءلت الصفوف بشكل ملحوظ».

اثناء الاندفاع غير المنضبط كان على الشيوعيين ترك معظم معداتهم الطبية وحلّ الفيلق الطبي. فابتداء من ذلك الوقت عملياً لم يحصل المصابون على علاج، والى جانب الاصابات التي تسبب بها الرصاص والشظايا عانى الكثيرون من التهابات خطيرة ومؤلمة في اقدامهم.

استقطبت الحماقة التي اتسمت بها مناورات ماو الاهتمام خلال التجربة التي مرّت بها احدى الوحدات، وتحديداً الفيلق التاسع الذي اصبح معزولاً على نهر وو وترك الفين من رجاله مدفوعين الى الشاطىء الشمالي للنهر. نتيجة لذلك اجبروا على الذهاب الى سيشوان. ويا للعجب لم يتعرضوا لاي مضايقة باستثناء مناوشة او اثنتين. خلافاً لفرقة ماو التي كان عليها الزحف القسري المنهك لاسابيع اضافة لتعرضها للقصف، فقد كان هؤلاء الرجال يتجولون على الطرقات العامة في وضح النهار وكان بإمكانهم حتى ان يأخذوا بعض الأيام للراحة.

*

ومن بين ضحايا المكائد التي دبرها ماو زوجته هو. لقد سافرت هذه الأخيرة مع الجرحى والمرضى الحاصلين على رعاية مميزة في وحدة خاصة تدعى مجموعة الكوادر المتماثلة للشفاء التي تضم ثلاثين امرأة بمعظمهن زوجات القادة الكبار. بعد معركة توتشنغ زحف الجيش الاحمر حوالى الثلاثين كيلومتر فيما المطر منهمر طوال النهار. وفي مكان يدعى الرمل الأبيض تركت غوي يوان المِحفّة التي خصصت لها منذ شهرين عندما منعها حملها من امتطاء الحصان واستلقت في كوخ مسقوف بالقش. بعد ساعات ولدت طفلة هي ولدها الرابع من ماو وذلك في 15 شباط 1935عرضت عليها سلفتها، زوجة تسي مين، الطفلة الملفوفة بسترة. امضى الجيش يوماً واحداً فقط في منطقة الرمل الابيض. وكما سبق وان فعلت غوي يوان مرتين تركت طفلتها حيث هي. بكت عندما نقلتها المِحفّة فيما اخذت السيدة تسي مين الطفلة واخذت معها حفنة من الدولارات الفضية وبعض الافيون الذي كان يستعمل كعملة، وذلك كي تجد عائلة تستقبلها. وكانت السيدة تسي مين طلبت من غوي يوان ان تعطي الطفلة اسماً لكنها هزّت برأسها لانها فكرت انها لن ترى الفتاة ابداً. كان حدسها مصيباً. لم يكن للسيدة المسنة التي عُهد بالطفلة اليها حليب وبعد ثلاثة أشهر انتشرت الحبوب في جميع انحاء جسد الطفلة وتوفيت.

في مرحلة لاحقة من حياة غوي يوان وحين أمضت وقتاً طويلاً في التفتيش عن الأطفال الذين اضطرت الى تركهم لم تحاول أبداً التفتيش عن ابنتها بجدية. وكانت تقول للاشخاص المقربين منها: «ان الفتاة التي ولدت اثناء المسيرة الطويلة في آذار، لم انظر اليها لوقت طويل. لم

اكن متأكدة حتى اين وُلدت والى من اعطيناها ..». لكن الطفلة بقيت في ذاكرتها. سنة 1984 اي السنة التي توفيت فيها غوي يوان زارها في المستشفى القائد السابق للزحف الذي جرى في آذار. لقد اخبرنا انه بينما كانا يتحدثان عن مسألة اخرى سألته فجأة وعلى نحوٍ غير متوقع: «اين ولدت الطفلة، وهل تذكر؟».

لم يأت ماو لرؤية غوي يوان مع انهما كانا في نفس البلدة. ولاحقاً عندما التقيا صدفة اخبرته انها تركت الطفلة حيث ولدت فقال ماو بلطف: «كنتِ على حق. كان علينا ان نفعل ذلك».

في قرارة نفسها اصيبت غوي يوان بجرح نتيجة لعدم المبالاة لدى ماو. كانت تخبر الاصدقاء ان ملاحظته التي آلمتها كثيراً هي قوله لسائر النساء وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «لماذا انتن النساء خائفات الى هذا الحد من الولادة؟ انظرن الى [غوي يوان]، ان الولادة بالنسبة اليها هي بنفس السهولة التي تبيض بها الدجاجة البيضة»(*). وبعد مرور شهرين على الولادة وبينما كان ماو يقود الجيش الاحمر في الزحف الجهنمي باتجاه الجنوب بعيداً عن سيشوان اصيبت غوي يوان بقنبلة وكادت تفارق الحياة. وفي احدى الأمسيات في منتصف نيسان ظهرت ثلاث طائرات بين حقول الارز ومنحدرات الجبال وكانت تطير على علوٍّ منخفض جداً لدرجة ان الناس الواقفين على الارض كانوا قادرين على رؤية وجوه الطيارين. خشخشت اصوات الرشاشات وسقطت القنابل على طول الطريق التي كانت غوي يوان ورفاقها يلتقطون انفاسهم عليها. تطايرت الاعضاء على الشجر وشكّلت الادمغة والدماء بريكات قرمزية اللون على الارض.

ان اكثر من اثنتي عشرة شظية قطّعت جمجمة غوي يوان وظهرها وشقّت احداهن ظهرها محدثة فتحة كبيرة فيه فأصبحت تسبح في دمائها. انتزع احد الاطباء الشظايا بواسطة الملقط ووضع مرهماً للجروح يدعى باوايو لوقف النزيف. كانت غوي يوان ممددة وهي فاقدة الوعي فيما الدم يتدفق من انفها وفمها. اعتقد الطبيب الذي اعطاها حقنة منشطة للقلب انها قد لا تعيش اكثر من ساعتين. فقرر القادة من مرافقيها ان يتركوها مع احدى عائلات المنطقة وأُعلم ماو الموجود في القرية المجاورة عن حالتها الا انه لم يأتِ لانه كان «متعباً». قال فقط انه لم يشأ ان يتركها حيث هي وارسل اليها طبيباً واثنين من حاملي مِحفّته. لم يأتِ ماو لرؤيتها حتى اليوم الثالث. في ذلك الوقت كانت قد استعادت وعيها لكنها كانت لا تزال غير قادرة على الكلام

(*) الولادة في شهر آذار كانت كابوساً. فالمرأة التي في طور الولادة كان عليها السير ليلاً الى مكان الولادة فيما الجنين بدأ يتدلى. في اليوم التالي قبل الفجر، انتحبت وهي تترك طفلها على كومة من القش في كوخ فارغ، وكان عليها السير واغمي عليها فوق نهر ثلجي. وجدت رفيقاتها النساء طاولة ليحملنها. كذلك زوجة تينغ فا التي كانت رئيسة لوكالة الاستخبارات الصينية، حظيت بولادة مؤلمة. كانت تئن من الوجع فشتمت زوجها لأنه جعلها حبلى. كانت تينغ فا شاحبة فجلست بارتياح في كوخ صغير واسندت راسه. قالت السيدة بو كو شبه مازحة: «خلال المسيرة أفضل ركوب الحمار أو الحصان على رحل عجوز!»

او حتى البكاء. ان متابعة الرحلة كان بمثابة النزاع بالنسبة اليها وظلت غوي يوان تفقد وعيها لتستيقظ فقط على طعنات من الألم الشديد، فتوسّلت رفاقها بأن يطلقوا النار عليها.

بعد شهرين على الاندفاع اكثر واكثر باتجاه الجنوب من دون نهاية تلوح في الافق كان الجميع يسأل: «الى اين نحن ذاهبون؟» وتولّد استياء عميق تجاه ماو في اوساط اصحاب المناصب الرفيعة الذين يعلمون بالخطة الرامية الى تحقيق اتصال بفرع الجيش الاحمر في سيشوان وبالاستراتيجية الطويلة الامد الهادفة الى الاقتراب من روسيا. وتذمّر لين بياو بصخب قائلاً: «بهذه الطريقة سينجرّ الجيش الى الانهيار! ونحن لا يمكننا قطعاً ان نقبل بادائه هذا في القيادة!» كما جاء في الرسالة التي ارسلها الى الثالوث في نيسان ودعا ماو الى تسليم القيادة الى بينغ دي-هواي ودعا القوة بكاملها الى الذهاب مباشرة الى سيشوان. كان الجميع مغتاظاً من ماو بمن فيهم لو فو الذي وافق في البداية على مخططه. كانت التضحيات رهيبة جداً ويذكر براون ما جرى بقوله: «في احد الايام بدأ لو فو الذي لم يكن لي عادة تعاطٍ كثير معه ... يتكلم عمّا سماه المأزق العسكري الكارثي الناتج عن التهور الذي يميز تكتيك ماو واستراتيجيته منذ وجودنا في [زونيي]». واعتبر لو انه اذا ارادوا تفادي الابادة فان الثالوث «يجب ان يُستبدل بقادة عسكريين كفوئين».

بدا ماو شاحباً بسبب التغيير الذي اصاب لو فو. ولاحظ براون انه عندما استهلّ ماو الحوار معه في احدى المرات «كان اسم لوفو يضفي حدّة على نبرة صوته. وقال ان لو فو يتآمر عليه». لكن لو فو لم يشكّل تهديداً حقيقياً ضده اذ انه جعل نفسه عرضة لابتزاز ماو ابتداءً من اللحظة التي وافق فيها على تأجيل الانضمام الى تشانغ كو تاو، وذلك للحفاظ على منصبه كالرجل الاول في الحزب. واقدم ماو ايضاً على اغراء لو على مستوى الامور الشخصية. كان ماو على علم بان فو تربطه علاقة حب مع امرأة شابة فرتّب الامر لنقلها كي تكون الى جانبه.

في منتصف نيسان 1935 دخل الشيوعيون مقاطعة يونان في الناحية الجنوبية الغربية للصين فيما هم ما زالوا مطاردين. امرهم ماو بالبقاء في مكانهم وحتى بـ«التوسّع جنوباً» اي الابتعاد عن اتجاه سيشوان. لكن هناك فيتنام ناحية الجنوب وهي محتلة من الفرنسيين المعادين للشيوعيين بقوة. الى جانب ذلك كانت تلك البقعة من الصين مأهولة من قبل جماعة اتنية تدعى المياو والتي خلقت المتاعب الكبيرة للشيوعيين في بداية زحف آذار وكانت مولعة بالحرب. وكان باستطاعة الجميع ان يفهموا ان تلك الطريق مسدودة.

شعر قادة الجبهة بالسخط حيال الامر الذي اصدره ماو وفي الليلة التي تلقوه اي في 25 نيسان ارسل لين بياو برقية يطلب فيها ان يدخلوا فوراً ... الى سيشوان ... ويكونوا جاهزين للانضمام» الى تشانغ كو تاو، ووافقه بينغ الرأي.

لم يعد ماو قادراً على جرّ رجليه. في 28 نيسان وافق اخيراً على التوجه الى سيشوان. وفور توجّه الجيش الاحمر شمالاً كانت الطريق خالية من المشاكل بل ومُيَّسرة. في ذلك اليوم وجدت شاحنة تحمل عشرين خريطة مفصلة (على مقياس 1:100000) بالاضافة الى حمولة من المنتوجات المحلية اللذيذة المذاق كالشاي والجانبون ومرهم الجروح المشهور باسم بايايو وكانت متوقفة الى جانب الطريق تنتظر من يستولي عليها. وكان تشيانغ والسلطات في يونان قد رتّبوا هذه الهبة السخية للتعجيل في خروج الشيوعيين من يونان وذهابهم الى سيشوان. عندما اقترب الشيوعيون من حدود المقاطعة حيث نهر الرمال الذهبية (وهو اسم نهر يانغتزي في اجزائه المستقيمة العليا) فتحت ثلاث بلدات للعبور بواباتها ولم تبدِ اية مقاومة وحتى قدمت لهم المال والطعام.

احتاج الشيوعيون الى ثلاثة ايام ولياليها لاجتياز نهر الرمال الذهبية في بداية ايار. كانت قوات تشيانغ تقف على مسافة قريبة لكنها لم تتدخل، كما لم يتم الدفاع عن اي نقطة من نقاط عبور المراكب. ودارت طائرات الاستكشاف فوق الرؤوس لكنها لم ترمِ القنابل. ويتذكر الزاحفون ان «الاعداد المرعبة» للذباب كانت مصدر ازعاج كبير.

لكن ما ان عبر ماو النهر حتى حاول تجنّب الاتجاه شمالاً وامر بفرض حصار على بلدة داخل سيشوان تدعى هويلي كي تكون مركزاً للقاعدة الجديدة. يحيط بهويلي خندق مائي وحيطان سميكة وشرفات مفرَّجة تعود الى القرن الخامس عشر وكانت خاضعة لحكم احد امراء الحرب من ابناء المنطقة الذي جعلها منزلاً له وابدى استعداداً لبذل كل جهد مستطاع للاحتفاظ بها. هدم هذا الاخير جميع المنازل الواقعة خارج اسوار المدينة بالحريق حتى لا يترك اي مأوى للمحاصرين وقتل عدداً من جنوده الذين يشك بتعاطفهم مع الشيوعيين. عاودت طائرات تشيانغ القصف الآن لدفع الشيوعيين الى متابعة دخولهم المنطقة. كانت الاصابات مرتفعة جداً ولم يتمكن الجيش الاحمر من الاهتمام بالمصابين لعدم وجود الأدوية لديه. كان ماو لا مبالٍ ولم يزُر الجرحى ولو لمرة.

اعتبر بينغ دي-هواي ان النسبة المرتفعة للاصابات والفشل في معالجة الجرحى بمثابة القشة المطفحة للكأس وقرر ان يدعو ماو للمبارزة في القيادة العسكرية. كان بينغ يتمتع بتأييد واسع من القادة الآخرين المشرفين على ساحات القتال ليس أقلهم لين بياو الذي أشار الى ان ماو جرّ الجيش الاحمر الى التفاف كبير والى انه كان بامكانهم الذهاب مباشرة الى سيشوان قبل ثلاثة اشهر بكثير. ودعا لو فو الى اجتماع في 12 ايار في مقرٍّ بديل مؤقت هو عبارة عن سقيفة مسقوفة بالقش.

فيما كان ماو يدير ظهره الى الحائط قاتل بقوة ارادة رهيبة وغضب كبير وادان بينغ بنعوت

سياسية مثل «الجناح اليميني» واتهمه بتحريض لين بياو. عندما حاول لين ان يقنعه بالمنطق صرخ في وجهه قائلاً: «انت طفل! ولا تعرف شيئاً!» لم يكن لين قادراً على منافسة ماو في مباراة للصراخ وأكره على الصمت. اما بينغ فقد خضع لما يمليه عليه ذوقه ولياقته. خلافاً لماو كان خجولاً في الصراع الهادف الى تعزيز سلطته الشخصية رغم ان قضيته محقة، كما انه لم يستطع مجاراة ماو في طعن الخصوم ببذاءة وفي تشويه سمعته «السياسية».

حصل ماو على الدعم من الرجل الاول في الحزب لو فو السيء السمعة والذي وسم بينغ ومؤيديه بصفة «الانتهازيين اليمينيين». وبتصرّفه هذا قام بعمل يناقض شعوره وذلك تحت تأثير الابتزاز الذي يمارسه ماو. كان الباقون صامتين اذ ان تحدّي ماو لم يكن بالامر السهل. بصرف النظر عن الجو المرعب الذي خلقه في ذلك الموقع والحس بالاحراج وبضعف المعنويات جراء وجودهم في حالة من الهروب والنشاط المستمرين منذ ثمانية اشهر فان متابعة القتال سيؤدي بكل سهولة الى انقسام في كل من الحزب والجيش، لذلك احتفظ ماو بمركزه. واستمرّ كرهه لبينغ بسبب هويلي طوال الفترة اللاحقة من حياة بينغ وبدأ بالثأر منه مباشرة. بعد الاجتماع وجد احد اصدقاء بينغ الحميمين نفسه متهماً بعد تسببه بالإصابات الكثيرة في المعارك التي بدأها ماو كما عارض تحرّك الجنود من دون احراز تقدّم في غويزو. فهم ان بينغ هو الهدف الضمني: «لم يكن من المناسب اتهام بينغ دي-هواي بالاسم لذلك جرى اتهامي كبديل عنه».

كان ماو ماكراً بما فيه الكفاية ليوافق على الموازنة بين نقيضين. سحب الامر الذي كان اصدره للسيطرة على هويلي ووافق اخيراً وبدون تحفّظ على «الذهاب الى الشمال فوراً للانضمام الى تشانغ كو تاو». كان يؤجل المسألة منذ اربعة اشهر وبعمله هذا خسر حوالى الثلاثين الف رجل اي اكثر من نصف القوة التي كانت معه. وبسببه ايضاً قطع الجنود العاملون تحت سيطرته على الاقل ما يزيد على الالفي كيلومتر، غالباً على ارجلٍ ممزقة.

لكن ماو قام بخطوات هائلة الى الامام باتجاه تحقيقٍ هدفه. فهو لم يحصل فقط على منصب عسكري رسمي رفيع المستوى لكن دميته لو فو كرّس نفسه في الواقع الرجل الاول في الحزب. ان هذه الاشهر الاربعة التي تميزت بالمماطلة المليئة بالقساوة والتضحيات جعلت الامر مختلفاً على نحوٍ حاسم. لم يتفادى ماو الصراع على السلطة مع تشانغ كو تاو كلّياً لكنه حسّن حظوظه بالنجاحٍ بشكل ملحوظ.

على الفور بدأ ماو القيام بالتحضيرات وكانت الخطوة الاهم بالنسبة اليه ارسال ممثل له يثق به الى موسكو ليثبّت وضعه الشرعي. كان على الجميع الذهاب شخصياً نظراً لعدمِ وجود اتصالات لاسلكية. لم يكن للرجل الذي اختاره طموح سياسي وكان لطيفاً وراشداً بما فيه

الكفاية للتعاطي مع اية مشاكل قد تبرز في موسكو. هذا الرجل هو تشين يون، العضو في الامانة العامة للحزب. وكان اختيار ماو للناطق باسمه موفقاً. في موسكو سلّم رسالة تمّت صياغتها بدقة مما اعطى انطباعاً بان الاغلبية في القيادة العليا انتخبت ماو رئيساً عليها في اجتماع ناجح بكل معنى الكلمة.

عقد اجتماع موسع للمكتب السياسي بهدف ازاحة القيادة (القديمة) ووضع الرفيق ماو تسي تونغ في موقع القيادة.

كانت مجموعة ماو قد وصلت الآن الى غربي – وسط سيشوان، قرب التيبت، خلال سيرها مباشرة باتجاه شمال تشانغ كوتو. وشكل هذا الامتداد التالي الخلفية للأسطورة المعروفة عن المسيرة الطويلة – عبور الجسر فوق نهر الدادو. وشكل هذا النهر حاجزاً طبيعياً رائعاً. ففي اواخر ايار، يمتلئ هذا النهر بثلوج همالايا ويصبح كتيار هائج محصور بين قمتين. مما يجعل ارضه المليئة بالصخور والبرك الخطرة مستحيلة العبور مشياً او سباحة. لم يكن هناك طريق آخر. فقط جسر واحد بُني في اوائل القرن الثامن عشر كجزء من طريق للامبراطور كي تصل تشنغدو، عاصمة سيشوان، الى لاسا عاصمة التيبت. كان جسراً ضخماً معلقاً طوله 101 متراً وعرضه 3 أمتار، تحمله 13 من السلاسل الحديدية الغليظة، 9 منها في العمق وبينها فراغات بحجم القدم بين كل سلسلة. وقد غطت الأسطح والفراغات قطع من الخشب الدقيق.

هذا الجسر هو في قلب اسطورة المسيرة الطويلة التي اختلقها ماو(*) ولقنها الى الصحافي ادغار سنو 1936.

وكتب سنو: «ان اجتياز الجسر كان الحدث الأكثر خطورة للمسيرة الطويلة». ووصفها بقوله: «ان نصف السطح الخشبي قد تم ازالته (من قبل القوميين) وامامهم (رجال المسيرة) فقط بقيت السلاسل الحديدية معلقة حتى نصفها في مجرى النهر. وفي مواجهتهم من الجهة الشمالية للجسر كان هناك بطارية من المدافع الرشاشة وخلفها تقع مواقع يسيطر عليها الجنوب البيض... وهم اعتقدوا بأن الشيوعيون سيحاولون بكل جنون العبور على السلاسل الحديدية فقط؟ هذا ما فعلوه تماماً. وراح يصف رجالاً يصابون ويسقطون في النهر.

تم رمي البرافين على السطح (الباقي) وراح يشتعل. وعندها أخذ عشرون من الشيوعيين بالتقدم زحفاً على أيديهم وركبهم، وهم يرمون القنابل اليدوية باتجاه المدافع الرشاشة».

هذا كله كذب. لم تحصل أية معركة على جسر الدادو. على الارجح جرى اختلاق الاسطورة بسبب الموقع ذاته: بدا الجسر وبسلاسله الحديدية فوق النهر الهائج وكأنه مسرحاً

(*) تظهر الصور ملامح هذه المسيرة الطويلة في كتاب «المسيرة الطويلة» لهاريسون سالزبوري الصادر في العام 1985 بما يناقض رواية ماو.

للأعمال البطولية. والواقع، انه لم يكن هناك جنود من القوميين عند الجسر لدى وصول الحمر في التاسع والعشرون من ايار. ادعى الشيوعيون ان الجسر كان تحت سيطرة كتيبة من القوميين بقيادة لي كوان شان.

لكن المراسلات من والى هذه الكتيبة تظهر انها كانت في موقع بعيد، وفي مكان يدعى هوالين بينغ. كان هناك وحدة من القوميين متمركزة في لودينغ، وهي المدينة التي تقع آخر الجسر. لكن هذه الوحدة جرى نقلها قبل وصول الشيوعيين(*). كما لا تشير الاتصالات العديدة التي قام بها القوميون الى اي قتال على الجسر او في البلدة بينما تُذكر مناوشات حصلت على الطريق المؤدية الى الجسر بعد ان عبره الشيوعيون. كان تشيانغ قد ترك المعبر مفتوحاً امام الشيوعيين.

عندما بلغت القوة الشيوعية المتقدمة المنطقة اقامت مركزاً لها في كنيسة كاثوليكية بالقرب من الجسر واستهدفت لودينغ الواقعة على الجهة المقابلة بالقصف واطلاق النار. ووصفت لنا امرأة من اهل المنطقة ما حدث. حين التقيناها سنة 1997 كانت في الثالثة والتسعين ومفعمة بالحيوية والنشاط. سنة 1935 كانت عائلتها الكاثوليكية بجميع اعضائها مثل معظم سكان المنطقة، تملك متجراً للتوفو مباشرة قرب الجسر الى الجانب الذي يسيطر عليه الشيوعيون. وكان الجنود الشيوعيون ينزلون في بيتها. وتذكر ان اطلاق النار بالنسبة الى الشيوعيين يعني «ان ين مرادف للقذيفة ويانغ مرادف لاطلاق النار» وهي عبارة صينية تستعمل للاشارة الى الاعمال العسكرية المتفرقة. ولم تذكر ان جانب النهر الذي كانت تسكن فيه تعرض لاطلاق النار ابداً.

قد لا تكون بعض الالواح الموجودة على الجسر أُزيلت او أُصيبت بالاضرار، وتذكر السيدة البالغة الثالثة والتسعين من العمر ان الشيوعيين استعاروا ابوابها وابواب جيرانها لوضعها على الجسر وبعد ان اجتازه الجنود ذهب سكان المنطقة لاستعادة ابوابهم. وذهب البعض الى حدّ تسليم اغطية التوابيت الثمينة (كان الناس يحضرون توابيتهم قبل وفاتهم بوقت طويل). لكن الجسر لم يتحوّل الى سلاسل مجردة والمرة الوحيدة التي حدث فيها الامر هي عندما انتج نظام ماو فيلماً دعائياً.

اما الجزء الاساسي للاسطورة فهو الادعاء بان ذلك القسم من الجسر كان قائماً فوق النار وكان على الجنود الزحف من خلال السلاسل الملتهبة. ونفى هذا الادعاء بوضوح القيّم على

(*) شرحت المخططات القومية في تاريخ 28 مهمة الوحدة بإدارة يو سونغ لين والتي تقضي «بالدفاع عن كينغدينغ» مدينة تبعد حوالى 50 كلم. إن عدم وجود جيوش يو قرب الجسر تأكد في تقرير رفعه حاكم المنطقة في 3 حزيران.

المتحف القريب من الجسر سنة 1983. لم يحترق الجسر رغم اشتعال حريق في البلدة نفسها تسبب به القصف الذي قام به الجيش الاحمر.

ان البرهان الاقوى الذي يفضح الزيف في اسطورة القتال «البطولي» هو انعدام وجود اصابات ناجمة عن معركة. لقد اجتاز الجيش الاحمر الجسر دون ان يتكبّد خسارة واحدة في الارواح. وتشكّلت طليعة الجيش من اثنين وعشرين رجلاً انقضّوا على الجسر في هجوم انتحاري. لكن خلال احتفال جرى مباشرة بعد ذلك في 2 حزيران لم يكن الاثنان والعشرون جميعاً احياء وبصحة جيدة فحسب بل تلقّى كل واحد منهم بذلة لينين وقلم حبر وطاسة وعودين للطعام الصيني. لم يكن اي منهم مصاباً.

وبعد عبورهم لم يمت اي شخص نتيجة التعرّض لاطلاق النار. ويصف الحارس الشخصي لتشو إن لاي كيف ان تشو ذهب للتأكد من الخسائر البشرية بعد ان اصيب بالقلق بعد سماعه ان حصاناً سقط في النهر. وسأل تشو قائد الوحدة التي احتلّت الجسر ويدعى يانغ تشنغ وو «هل من وفيات بين الرجال؟» فأجابه يانغ: «لا وجود لحالة وفاة واحدة»(*). لكن حتى اوضاع الدفاع اليائس من المفترض ان تنتج عنها على الاقل حالة وفاة واحدة.

عبر ماو جسر دادو في 31 ايار 1935 واصبح الآ ن على بعد حوالى ثلاثمئة كيلومتر فقط من مكان الالتقاء المثير للرهبة مع تشانغ كو تاو. وكان يوجد بينه وبين الوحدات الامامية التابعة لكو تاو الآتية للقائه جبل يدعى الجبل الكبير المكسو بالثلج الواقع بمعظمه في منطقة التيبت. رغم اسمه ورغم الاسطورة لم يكن هناك من ثلوج حيث تسلّق الشيوعيون الجبل وكما اخبرنا سكان المنطقة. لكن الطقس كان بارداً والمطر نصف متجمّد والرياح قارصة وما زاد الامر سوءاً ان العديد من الرجال تركوا ثيابهم الشتوية في البلاد المنخفضة ذات المناخ شبه الاستوائي وذلك بهدف التخلّص من بعض الحمولة. كل ما يملكون للحصول على شيء من الدفء هو الماء المغلية بالفلفل التي شربوها قبل الانطلاق. ومع ان اجتياز الجبل استلزم يوماً واحداً فان البعض خسروا حياتهم وذلك عائد جزئياً الى ارتفاع الطريق التي تقع على علو عشرة آلاف قدم، ولكن السبب الاساسي هو ان العوز اضعف الزاحفين.

(*) عندما سئل أصدق القادة الشيوعيين بينغ دي هواي عن عبور دادو، من قبل كاتب بريطاني عام 1946، رفض بلطف ولكن بحزم الكشف عن السر. «حصل ذلك منذ زمن بعيد ولا أتذكر كل شيء. تعددت الأنهار – نهر غولد ساند ونهر كزيانغ وهو وبانغتزي.. لا اذكر كثيراً لكنني اذكر الناس يسقطون في الماء..» لم يقل كلمة واحدة عن القتال أو حرق الجسر. يبدو أن شخصين أو 3 ماتوا على الجسر، سقطوا أثناء ترميمه عندما انهار فجأة لوح خشبي، كما تذكرت الشيدة زو دو وأحد السكان المحليين البالغ من العمر 93 سنة اللذين قابلناهما. وكتدبير احترازي، بنى الحمر خرافة أخرى حول مزيد من البطولة حول العبور الثاني لنهر دادو في انشونتشانغ نحو 75 كلم جنوباً. ورغم كون هذا العبور معرضاً جداً واستغرق الجيوش اسبوعاً كاملاً للعبور، بتغطية من الطائرات، لم تحصل هناك أية خسائر من المعارك.

كانوا يسيرون فعلياً دون توقف منذ حوالى الثمانية اشهر ونصف الوقت وبلا اي جدوى من الناحية العسكرية او من وجهة نظر الاستمرار على قيد الحياة،وليس من وجهة نظر ماو الساعي الى السلطة. والى جانب تعرّضهم للهجوم من اعدائهم اصيبوا بامراض عديدة. يذكر براون قائلاً: «جميعنا اصيب بالقمل على نحو لا يصدق. وانتشر الاسهال المترافق مع النزيف وظهرت اولى حالات التيفوس ... واكثر فأكثر كانت الطريق التي سلكناها مغطاة باجساد القتلى المتجمّدة او ببساطة المنهكة ». كان الامر شاقاً جداً بالنسبة الى الذين توجّب عليهم حمل قادتهم في المِحفّات الى جانب الحمولة الثقيلة كما لم يتمكن بعض الحمّالين من النهوض مجدداً بعد ان جلسوا للاستراحة.

تسلّق ماو الجبل على الاقدام مستعملاً عصا المشي وتفوّق على حرّاسه الشباب لتوفّر افضل الغذاء والراحة له بالمقارنة مع ما توفّر لهم.

كان رجال كو تاو بانتظارهم على الجهة البعيدة في بلدة تقع في التيبت تضم حوالى المئة عائلة وفيها وفرة من المؤن التي تشمل ليس فقط الطعام بل ايضاً الالبسة والاحذية والجوارب الصوفية والبطانيات والكفوف والاطعمة المترفة كالحمّص الاصفر المخلّل والشاي والملح. وكان يتوفّر لهذا الجيش الطعام الكافي والتجهيزات اللازمة من ملابس وعدّة وكان لديه حتى مؤونة احتياطية. حصل ماو والقادة الآخرون على طعام اضافي واحصنة او حمير وبذلات صوفية. وتم اختيار حصان طيّع لماو كما مُنح طبيباً ذكراً ليقوم بمهام الممرض له.

بعد اسبوع، في 25 حزيران، وصل كو تاو للقاء ماو ورفاقه في قرية تدعى فوبيان بعد ان اجتاز غابات عذراء وممرّات ضيقة صخرية لمدة ثلاثة ايام، فالتحم الآن رسمياً اكبر جيشين شيوعيين.

بعد ايام وفي الرابع من تموز تحديداً وجّه صهر تشيانغ كاي شيك ويدعى ه. ه. كونغ الذي يشغل منصب نائب رئيس الحكومة ووزير المال، الى السفير السوفياتي ديمتري بوغومولوف طلباً مزعوماً لمناقشة تحركات اليابان في شمال الصين. وفي النهاية اورد ملاحظة مفادها ان القائد العام كونغ يودّ رؤية ابنه، وخاطب تشيانغ ستالين بقوله: «لقد سمحت لاثنين من الجيوش الحمراء الرئيسية بالاستمرار وبدمج قواتهما. فهل تسمحون لي بالحصول على ابني؟» فأجابه بوموغولوف بقوله فيما هو يكذب عليه بلطافة: «نحن لا نضع العقبات في وجه خروجه، لكن حسب معلوماتي هو لا يريد الذهاب الى اي مكان آخر».

رغم ان تشيانغ لم يستعد ابنه في حينه الا انه حقق هدفه بوضع المقاطعات الجنوبية الغربية تحت سيطرة الحكومة المركزية. وأجبر امير الحرب في غويزو على الاستقالة وغادر المقاطعة بعد ان تم التخلص منه بدفع الاموال الطائلة له. بقي حاكم يونان في موقعه وحافظ على

علاقة جيدة مع تشيانغ في ذلك الوقت. ومع وجود جيش تشيانغ حينها في سيشوان بعد تعقبّه ماو، عاد اليها في ايار ليتولى السيطرة على هذه المقاطعة التي تشغل موقعاً استراتيجياً هاماً والتي تضم اكبر عددٍ من السكان. وهناك امضى اشهراً بذل خلالها النشاط المكثف لتحضير سيشوان كي تصبح قاعدته في الحرب المقبلة ضد اليابان.

نجح ماو ايضاً في بلوغ هدفه. ان الاستدارة على مسافة الفي كيلومتر التي فرض على الجيش الاحمر القيام بها اكسبته الوقت لتثبيت العوبته لو فو كرئيس امر واقع للحزب وضمن ماو احكام قبضته على قيادة الحزب بصفته الرجل الذي يقف وراء العرش. اما حظوظ تشانغ كو تاو فقد تضاءلت على نحو حاسم. وادّت المكائد التي رسمها ماو الى تخفيض عدد الرتباء والافراد الخاضعين له بعشرات الالوف ليصل العدد الى حوالى العشرة آلاف من الرجال الجائعين والمنهكين الذين يرتدون الخِرق. لكنه لا يهتم للامر إذ يمكن اعادة بناء الجيش لاحقاً.

وكالعادة اعتبر ماو الكرملين امله الوحيد اذا ما اراد احتلال الصين. الآن وقد اصبح قريباً اكثر من ذي قبل من الاراضي التي يسيطر عليها الروس بدأ بالحديث عن طلب «المعدات والمساعدة التقنية» من آسيا الوسطى السوفياتية. وكان هدفه الاول الآن التأكد من انه ليس لتشانغ كو تاو الذي كان يتفوق عليه عسكرياً بنسبة 8 الى 1، سبيل للوصول الى السلاح السوفياتي او الى الاتصال بالكرملين قبل ان يبادرهم قبله.

14- المسيرة الطويلة III: احتكار العلاقة مع موسكو (1935، العمر 41 سنة)

عندما اندمج الجيشان الاحمران في حزيران 1935 كان جيش ماو في حال انهيار وهو معروف بالجيش الاحمر المركزي لأنه خاضع مباشرة للقيادة الحزبية. بدأت المسيرة الطويلة بثمانين الف رجل انخفض عددهم الآن الى عشرة آلاف اي ثمن القوة الاصلية فيما كان الباقون على قيد الحياة على وشك الانهيار. وفقدت هذ القوة كل اسلحتها الثقيلة ولم يبق لديها سوى البنادق بمعدل خمس طلقات لكل واحدة. وجاء في شكوى زو الى تشانغ كو تاو الذي هو صديق قديم ان هذا الجيش «كان ضخماً في السابق الا انه الآن مجرد هيكل عظمي، ولم يعد بامكانه القتال».

في المقابل بلغ عديد الجيش التابع لكو تاو عشرين الفاً في بداية زحفه ثم وصل عديد هذا الجيش الى اربعة اضعافه مع بلوغه الثمانين الفاً. كان هذا الجيش مزوداً بما يحتاج اليه من الطعام والتجهيزات من رشاشات ومدافع الهاون والكثير من الذخيرة وكان مدرباً تدريباً ممتازاً.

نتيجة لذلك التقى كو تاو بزملائه من موقع قوة جديرة بالاعتبار. يذكر براون انه كان:

«رجلاً جليلاً طويل القامة في الاربعين من عمره تقريباً واستقبلنا كما يستقبل المضيف ضيوفه. وتصرف بكثير من الثقة بالنفس وكان مدركاً تماماً لتفوقه العسكري وقدرته على التنظيم الاداري ... كانت الكوادر التابعة له ... تسيطر على معظم الموارد القليلة في المنطقة والضرورية لتلبية حاجات عشرات الالوف من الجنود في الجيش الاحمر ... وكان طموحاً تماماً مثل ماو ...».

اتت اللحظة التي يجب ان تُعهد مهمة الى كو تاو وكانت لديه حجّة مقنعة لتعيينه قائداً اما في الحزب او في الجيش. الا ان ماو لم يرغب ان يحصل كو على اي منهما فجاء وقت المبارزة. وبدا ان ماو في وضع غير مؤاتٍ ابداً ومع ذلك ظهر في عملية الاندماج مع كو تاو وكأنه منتصر وذلك عائد لثلاث شخصيات سياسية كانت الى جانبه وشكلت القيادة المركزية للحزب التي هي الامانة العامة، وهؤلاء هم لو فو وتشو إن لاي وبو كو.

في ما يتعلق بلو فو لم يكن لديه اي امل بالاحتفاظ بمنصب الرجل الاول في الحزب دون

وجود ماو. بالاضافة الى ذلك عندما قرر ماو جرّ الجيش للالتفاف بعيداً عن مساره منحه لو الموافقة عوض ان يعرّض نفسه لخسارة موقعه الجديد. وكان تشو إن لاي متآمراً مع ماو طوال الوقت. اما الشخص الذي قد يبدو انه سيخسر باقل قدر اذا بدّل تحالفاته هو بو كو الذي كان اخرج من الموقع الاول في الحزب على يد ماو ولو فو. لكنه وقع ضحية تسوية مذلّة من خلال التدمير الذي اصاب الجيش ولم يكثّف التحركات الفعّالة لدعم هذا الجيش واصبح الآن بمثابة رجل مُدمَّر.

لذلك ورغم وجود فرصة لتشكيل مجموعة مع كو تاو ونبذ ماو لم يقدم الرجال الذين يشغلون المناصب العليا على ذلك بسبب المصالح الشخصية. واذا القوا اللوم على ماو في كل ما حدث من مشاكل عندها يُفترض توجيه السؤال التالي: اين كنتم؟ وهذا يعني انه كان هناك خيار افضل وفشلوا في التمسك به. وهذا يجعلهم يبدون غير مناسبين للقيادة. والتزموا بسياق مبسط للرواية يقولون بموجبه ان الجيش المركزي تعرّض للتدمير من قبل القوات التابعة للقوميين وهي اقوى من هذا الجيش. ولدعم الصورة التي تعكس المرونة لديهم حاولوا تشويه سمعة الجيش الخاضع لكو تاو الذي تميز اداؤه بالنجاح الكبير رغم القتال الضاري الذي شارك فيه. ونظراً لصعوبة ايجاد العيوب في ادائه العسكري لجأوا الى تكتيك يقوم على تشويه سمعته فقالوا انه يعاني من «ظاهرة امراء الحرب» ومن «التخلف السياسي» وكان يعتمد على «اساليب اللصوصية».

اغاظت هذه الاتهامات الجيش العامل بامرة تاو وتنازل الفريقان في مبارزة في الطعن البذيء حقق فيها رجال كو تاو انتصاراً سهلاً. وكان الوضع المزري للجيش المركزي ماثلاً امام الجميع والاحتقار الذي انصب عليه طال جميع افراد القيادة.

كان الشعور السائد هو: «كيف يمكن للجيش المركزي ولماو تسي تونغ ان يتولّوا قيادتنا؟» وتوجّه هذا الاستياء ضد الجيش المركزي بكامله وليس فقط ضد ماو. وكان ذلك عاملاً اساسياً في تسديد ضربة الى القادة الاساسيين الثلاثة لو فو وتشو إن لاي وبو كو الى جانب ماو مما اعطى هذا الاخير الاغلبية في الامانة العامة اي اربعة مقابل واحد لكو تاو.

شعر الثلاثي بأن القصة مع ماو تتراوح بين «الفشل والنجاح» اذ ان الضباط والجنود التابعين لهم عبروا عن غضبهم. كانت هناك موجة من الشكاوى عن «انعدام الكفاءة» في المجال العسكري وعن اللامبالاة تجاه راحة الناس العاديين. واخبر بعض الضباط كو تاو «انهم لم يكونوا يعرفون الى اين يركضون ... كانوا يتحركون من دون اهداف بينما كان عليهم ترك الجيش يرتاح ويتعافى». كما عبّر الجنود العاديون بدورهم عن شعورهم بالمرارة حيال الطريقة التي تخلّى فيها قادتهم عن الجرحى وحوّلوا هؤلاء الجنود العاديين الى «حملة كراسي

المِحفّات» لاصحاب الشأن وزوجاتهم.

كانت هذه التهمة القائلة بأن ماو وسواه من القادة «جلسوا على كراسي المِحفّات» طوال الزحف، المسألة التي تسببت باكبر قدر من الالم. واخبرنا احد المشاركين في الزحف عن المدى الذي بلغه غضب الجنود العاديين، فالقادة «تحدثوا عن المساواة لكنهم كانوا متسكعين على المِحفّات مثل مالكي الاراضي. وكنا نتكلم همساً ..». وقيل للجنود ان «القادة يعيشون حياة قاسية. رغم انهم لا يتكلمون او يحملون اثقالاً فإن ادمغتهم تعمل بجهد اكبر بكثير بالمقارنة مع ادمغتنا. نحن نمشي ونأكل فقط، لكن ليس لدينا من هموم». فلا عجب اذا لم تهدّىء هذه المغالطة الجنود العاديين.

ان عدم الاضطرار الى السير شكّل حدّاً فاصلاً بين الحياة والموت. اثناء الزحف لم يمت اي شخص مصاب او ضعيف من الذين يشغلون منصباً رفيعاً وينتمون الى مجموعة الكوادر المتماثلين الى الشفاء. كما لم يمت اي من القادة المحمولين وحتى اؤلئك الذين اصيبوا بجروح خطرة. وبينما استمرت النخبة بجميع افرادها على قيد الحياة قضى الارهاق الصرف على العديد من حاملي مِحفّاتهم الذين يصغرونهم عمراً بسنوات كثيرة اذ ان بعض هؤلَاء لا يتجاوزون الثانية عشرة او الثالثة عشرة، وقضى ايضاً على الممرضين والحرّاس. ويبيّن احد الارقام التراتبيةَ التي تتحكّم بها القلوب المتحجّرة والامتيازات تحت سلطان ماو، فالجيش الاحمر المركزي الآن يفوق عدد الضباط فيه تقريباً عدد الجنود.

عرض ماو على كو تاو، وبالتواطؤ مع حلفائه الحزبيين الثلاثة، المنصب الرمزي لنائب رئيس المجلس العسكري الذي اصبح الآن هيكلاً فارغاً وليس حتى منصباً للموافقة الاوتوماتيكية على القرارات. اجاب كو تاو واتباعه بأنه يجب ان يتولى هو قيادة الجيش فردّ ماو بصمت مروّع. اثناء فترة التباعد بدأ الطعام ينفذ لدى الجنود. وكان الجيشان اللذان يعدّان سوياً تسعين الفاً محتشدين في منطقة جبلية في التيبت. قادرة فقط على مدّ سكانها بالغذاء لكن اقتصادها اخرج عن مساره المنتظم مع مجيء هذه القوة الضخمة. ويذكر احد الضباط في الجيش الاحمر ما حدث بقوله: «لقد اجبرنا على مقاتلة السكان المحليين للحصول على الطعام». وقام الجنود الزاحفون بقطع نبات الشعير في الحقول فحرموا سكان المنطقة من رزقهم للسنة التالية. وباسلوبه المميز تعاطى ماو مع هذا النهب الذي ربما شكّل الحد الفاصل بين الحياة والموت بالنسبة الى الآلاف وكأنه نكتة: «هذا هو ديننا الخارجي الوحيد» كما قال للناطق باسمه الاميركي ادغار سنو باسلوب وصفه سنو بأنه «ظريف».

من الطبيعي ان يكنّ سكان التيبت الكره للشيوعيين وكونهم رماة بارعين شنّوا هجمات عصابات من الغابات. وسُجل في يوميات المسيرة الطويلة: «كان هناك العديد من الجثث على

طول الطريق ويعود معظمها الى تائهين قتلهم همجيون». «التقينا بثلاثة من الهمجيين (قتلهم الفرسان الهمجيون)».

في النهاية اضطر ماو الى القبول بتولّي كو تاو قيادة الجيش. في 18 تموز عُيّن كو تاو المفوض الرئيسي للجيش الاحمر «الذي يقود كل الجيوش مباشرة». لكن ماو احتفظ بقيادة الحزب.

في بداية آب 1935 جرت الموافقة على خطة مفصلة للذهاب الى الشمال وكما قال ماو فان ذلك يحدث من اجل ان نكون «على مقربة من الاتحاد السوفياتي حيث نستطيع تلقّي المساعدات ... من طائرات وذخائر». ووفقاً لتصوّر الخطة كان التوجه الى غانسو اولاً ومن ثم تُرسل وحدة الى زينغجيانغ وكانت منطقة خاضعة للنفوذ السوفياتي «ويتم بناء المطارات ومستودعات الاسلحة». واثناء هذه العملية التي تقضي بالاتجاه شمالاً دبّر ماو المكائد لافشال فرص كو تاو باجراء اتصالات مع الروس قبل ان يقدم على الخطوة هو بنفسه.

وكانت تتضمن الخطة تقسيم الجيش بحيث تحتل القوة الرئيسية بقيادة كو تاو وذو دو بلدة ابا وتتابع بعدها سيرها نحو الشمال فيما كانت قوة اصغر حجماً معروفة بعمود اليمين ستسلك طريقاً مختلفاً نحو الشرق عبر بانيو. واختار ماو ان يذهب هو والجيش المركزي مع عمود اليمين الذي يضم معظم الجنود الذين كانوا يعملون بامرته في السابق بقيادة لين بياو وبينغ دو-هواي رغم ان هؤلاء اصبحوا الآن بإمرة قائدين تابعين لكو تاو(*). بعد مضي تسعة ايام على رحيل كو تاو وقوته اي في 15 آب ابرق ماو الى كو تاو باسم المكتب السياسي للحزب ليأمره بتغيير وجهة سيره تغييراً كاملاً: «يجب على القوة الرئيسية ان تذهب عبر بانيو» اي ان عليها سلوك الطريق عينها التي سيسلكها عمود اليمين. وهكذا راح ماو يهشّم الخطة التي تم التوافق عليها كما طلب من كو تاو وعشرات الالوف من الجنود في العمود الآخر ان يبدّلوا اتجاههم ويلتحقوا به.

اجاب كو تاو في 19 آب بأنه اصبح قريباً جداً من ابا حيث الطعام الوفير وبأنه يخطط لاحتلال البلدة خلال ايام. وقدّم البراهين القوية للبقاء على طريق ابا مشيراً الى انه كانت هناك «ثلاثة او اربعة طرقات موازية للشمال ويوجد عليها الكثير من الطعام والناس» بينما «الطريق المؤدية الى بانيو هي مجهولة تماماً».

(*) لبسط سلطته على الجناح الأيمن، حاول ماو نشر الخوف. إن امرأة من جيش كيو تاو أنجبت طفلاً من ضابط لم تكن متزوجة منه. ولمنع الحبل منعت ممارسة الجنس إلا للقادة الموجودين برفقة زوجاتهم. عقد اجتماع موسع للضباط والجنود لتقرير كيفية معالجة مسالة هذا الثنائي. قال معظمهم بضرورة إعدام الرجل وإطلاق سراح المرأة على أساسٍ أنها الضحية. أما ماو فامر بإعدام المرأة والرجل على حد سواء فرميا بالرصاص أمام رفاقهم. نشر امر ماو الرعب فعلاً لكن كثيرون شعروا بالازدراء.

استعمل ماو سيطرته على القيادة السياسية لممارسة الضغط على كو تاو. في اليوم التالي ارسل اليه قراراً باسم المكتب السياسي للحزب يفيد فيه بأن قواته ذهبت بعيداً باتجاه الغرب. وفجأة وُصف الطريق الذي سلكه كو تاو وفقاً لقرار بالاجماع بأنه «غير ملائم[لمصالحنا]» واتُّهم كو تاو نفسه بأنه «انتهازي» لانه «اختار الطريق الذي يوجد عليه اقل عدد من العقبات». ان استعمال صفة مثل «انتهازي» هو نوع من التهديد بادانته بجريمة سياسية.

وفي كل ذلك يتلخّص هدف ماو بجعل نفسه متقدماً على كو تاو على الدوام مما يعني ايضاً ان كو تاو وجيشه سوف ينجرّون الى ظروف كارثية. الآن اكتشف ماو ان طريقه الذي يمر عبر بانيو والذي اختاره بنفسه ينذر بالشؤم في الواقع فيما الطريق الذي سلكه كو تاو لم تعترضه عقبات. وكان طريقه يمر عبر ارضٍ مهلكة فيها مستنقع كبير جداً يستلزم عبوره اسبوع على الاقل وتشمل مخاطره انعدام وجود السكان مما يعني ان لا وجود للطعام او لمأوى بالاضافة الى كون المناخ رديء جداً يتميّز بالضباب الداكن والعواصف المندفعة بسرعة والبرد. ومن المخاطر ايضاً وجود عدد قليل من الاشجار مما يجعل اشعال النار امراً شبه مستحيل، وكذلك الوحول الغادرة التي تشبه الوعث (الرمل اللين الذي تغيب فيه الاقدام) وغالباً ما تكون سامّة ويمكنها ابتلاع شخص لمجرد حصول خطوة ناقصة. كان كل ذلك على علو يزيد على الثلاثة آلاف متر وفي حرارة ليلية تهبط الى ما دون الصفر حتى في آب.

بدلاً من ان يحاول ماو المحافظة على قوة الجيش الاحمر اصرّ على جعل كو تاو يواجه الظروف البغيضة نفسها من بعده. وبعد ان اصدر انذاره المليء بالتهديد كان ماو يطفو على المستنقعات وهو محمول على محفّته مضحّياً بكومة ضخمة من الكتب بما فيها المجموعة الكاملة المفضّلة لديه قبل ان يرحل وهي بعنوان «اربعة وعشرين تاريخاً». وعند نهاية اليوم الاول تظهر سجلاّت المسيرة الطويلة ان الجنود مشوا مجهدين «في مكان مقفر تماماً واجتازوا خمسة انهر، ثلاثةٌ منها لا جسور لها» و«تبلّل جلدهم بالماء ... وجلسوا محتشدين تحت الامطار طوال الليل». وترك براون وصفاً حيّاً لمعاناتهم فيما يلي:

> «كان غطاء اخضر مضلّل يحجب مستنقعاً اسود شرير يبتلع اي شخص يخترق القشرة الرفيعة او يضلّ عن الممر الضيق ... لقد سُقنا ماشية او احصنة من المنطقة امامنا كي تكتشف الطرقات الاقل خطراً معتمدة على غرائزها. كانت الغيوم الرمادية معلّقة مباشرة فوق الارض في معظم الاحيان، وكان المطر البارد يسقط عدة مرات في اليوم الواحد ويتحول في الليل الى ثلج رطب او الى مطر متجمد. لم يوجد في المنطقة اي منزل او شجرة او شجيرة في المساحة التي يطالها نظرنا. وجلسنا القرفصاء اثناء النوم على الهضاب التي تعلو على المستنقع. وكانت اغطيتنا المتوفرة عبارة عن بطانيات رقيقة وقبعات قش

كبيرة ومظلات من اوراق الزيت او في بعض الاحيان رداءات مسروقة. وكان البعض لا يستيقظون في الصباح نتيجة لوقوعهم ضحايا البرد والارهاق. جرى كل ذلك في منتصف آب! ... كما ان تفشي الاسهال الدموي والتيفوس هيمن على الجنود».

ويتذكر مشارك آخر في المسيرة الطويلة بقوله: «في احدى المرات رأيت عدة رجال تحت حرام وظننت انهم مشرّدون، لذلك حاولت ايقاظهم». كان الرجال قد فارقوا الحياة اذ لم يكن لديهم ما يكفي من الطعام: «عندما كان حصان يموت كنّا نأكله، فالجنود المتواجدون على الجبهة يأكلون اللحم فيما الذين في الصفوف الخلفية يقضمون العظام. وعندما ينفذ كل شيء كنا نأكل جذور الاعشاب ونمضغ الزنانير الجلدية».

السيدة لو فو شاهدت «جثث الاصدقاء كل الوقت... في اليوم السادس اصبت بالاسهال. لم اقلق بشأن الاحراج فجلست القرفصاء وتبرّزت طوال الوقت. ثم كنت اربط سروالي واسرع لألحق بالباقين. امضيت يومين وانا على هذه الحال وصررت اسناني كي اجتاز المحنة. كان عالماً لا يمتّ الى البشر بصلة مدة سبعة ايام وليالي. في اليوم الثامن وعندما خرجت من المستنقع ورأيت قرى واشخاص وماشية ودخاناً متصاعداً من المداخن وعندما رأيت اللفت في الحقول كانت سعادتي لا توصف ... كانت الايام السبعة ولياليها اصعب اوقات المسيرة الطويلة وأحرجها. ولما وصلت الى بانيو شعرت كأنني عدت لتوّي من عالم الموت الى عالم البشر».

كان الترف للذين استمروا على قيد الحياة في بانيو، خلال الليل، كوخ مصنوع من الرَوث المجفف لثيران التيبت الضخمة الملصوقة على اماليد مجدولة حيث بالامكان تجفيف الثياب بواسطة مشعلة المتعددة الاستعمالات. في الفيلق التابع للين بياو وحده لقي اربعمئة حتفهم اي ما يوازي خمسة عشر بالمئة من المجموعة الكاملة.

تلك هي المحنة التي طالب ماو ان يمرّ بها عشرات الوف الجنود التابعين لكو تاو بدلاً من ان يسلكوا الطرقات المناسبة المختارة في البداية. من خلال استشهاد ماو باسم المكتب السياسي للحزب صعّد الضغوط على كو تاو وحثّه على «التوجّه بسرعة الى بانيو». وفي برقية كتبت بعد خروجه من المستنقع وهو يعلم جيداً كيف كانت التجربة، تلفظ ماو بالكذبة التالية: «ابتداءً من ماورغاي [حيث بدأ الزحف] وصولاً الى بانيو المسافة قصيرة والطريق مليئة بالامكنة التي يمكن ان نأوي اليها». ومن ثم قدّم هذه النصيحة الى كو تاو: «اني اقترح عليك ... ان تأتي بكل المصابين والمرضى القادرين على السير الى جانب المعدات والتجهيزات ..». وكأنه يقول لكو تاو: لا تتخلى عن المصابين لديك، لكن النية الحقيقية كانت التسبب باقصى درجة من العذاب.

اذا رفض كو تاو الانصياع كان ماو قادراً على ادانته رسمياً وطرده من القيادة. ووافق كو تاو رغماً عنه على الذهاب الى ماو ووجّه جيشه الضخم باتجاه المستنقع وجعله اختبارُ تجربةٍ مماثلة لما ينتظره اقل حماسة من ذي قبل. في 2 ايلول بلغت قوته نهراً في حال من الفيضان وابرق الى ماو قائلاً: «لقد استكشفنا حوالى الثلاثين لي [15 كيلومتر] صعوداً ونزولاً على طول النهر ولم نجد اي موضع نستطيع خوض النهر من خلاله، وهناك صعوبة في ايجاد معدات لصنع جسر. لدينا طعام لاربعة ايام فقط ..».

في اليوم التالي قرر الاّ يذهب الى مسافة ابعد وقال لماو: «لقد استطلعنا سبعين لي [35 كيلومتر] في اعلى النهر ولم نستطع الى الآن ايجاد موضع نخوض النهر من خلاله او نبني جسراً». «لدينا طعام لثلاثة ايام فقط لجميع الوحدات ... وبدا المستنقع وكأنه من دون حدود. من المستحيل التقدم ويبدو اننا ننتظر الموت. نحن لا نجد دليلاً. انه البؤس المطلق. قررنا العودة الى ابا ابتداءً من صباح الغد». وهو بالكاد اخفى غضبه الشديد تجاه ماو: «لقد تأثرت الاستراتيجية بكاملها. المرة السابقة ... نفذ الطعام لدى الجنود وتكبدوا الخسائر الكبيرة. هذه المرة انك تكرهنا على الاتجاه الى بانيو واوصلتنا الى هذا الوضع ..». كما جاء في ردّ كو تاو.

الآن ومنذ شهر يجرى تحويل مسار كو تاو والجزء الاساسي من جيشه نتيجة لمشيئة ماو. اضف الى ذلك انه بدأ الطقس القاسي بالحلول في هذه الاراضي الجبلية. اتخذ كو تاو قراراً كان ماو يحتال للحصول عليه وهو يقضي بتعليق الرحلة الى الشمال والبقاء حيث هو حتى الربيع التالي وقال لماو: «لقد ضاعت فرصة الذهاب الى الشمال». واصيب ثلثا الجنود التابعين له بالتهابات في الاقدام وكانوا يمشون بصعوبة بالغة واذا قرروا الانطلاق في المسيرة الطويلة شمالاً فانه يجب التخلي تقريباً عن جميع المصابين والمرضى.

بالطبع كان ماو يعرف كل هذه الامور. في الواقع ان القصد من وراء دفع كو تاو بقوة من مكان الى آخر هو ايصاله الى هذه الحالة. حقق ماو الآن هدفه الرئيسي فضمن وصوله الى الروس قبل اي منافس له ملحقاً الهزيمة بكو تاو في الركض في عدة اتجاهات من خلال حبسه في الجنوب حتى السنة التالية.

ما ان اصدر كو تاو الامر بعدم التوجه نحو الشمال حتى واجه ماو مشكلة اساسية. لقد اصدر كو تاو هذا الامر بصفته صاحب اعلى سلطة عسكرية. ان ماو قادر على اصدار الاوامر باسم الحزب لكنه ليس متأكداً ابداً انه بامكانه ان يأخذ معه احداً من الجيش وحتى جنوده هو اذا ما أُعطي لهم الخيار. حان وقت الازمة في 8 ايلول عندما أمر كو تاو اثنين من القادة العسكريين العاملين بامرته والموجودين مع ماو بالاتيان برتل اليمين الى الجنوب حيث تمركزه هو.

ونظراً لادراك ماو بأنه لا يتمتع بالهيبة في اوساط جنوده فقد تملّص من مواجهة مباشرة مع كو تاو. لم يجرؤ ماو على الاعتراض علناً على قرار كو تاو، حتى باسم الحزب. بدلاً من ذلك خطف فرقه معتمداً على ادعاءات كاذبة. في ليل 9-10 ايلول قام هو ولوفو باخبار بضعة اشخاص مختارين كذبة فاضحة تقول بان كو تاو امر رجاله بالحاق الاذى بقادة الحزب. لذلك قال ماو انه يجب عليهم ان يحشدوا التابعين لهم ويرحلوا فجأة في تلك الليلة. وتذكر السيدة لو فو انهم ايقظوها في منتصف الليل(*) وقالوا لها: «انهضي! انهضي! وانطلقي على الفور!» وسألنا: «ماذا حدث؟» «الى اين نحن ذاهبون؟» [واخبرونا]: «لا اسئلة، فقط اسرعوا وارحلوا! ... لا ضجة ولا مصابيح ... اتبعوني!« اندفعنا حوالى العشرة لي [5 كيلومتر] ولم نتوقف لالتقاط انفاسنا الاّ بعد اجتياز الطريق الجبلي».

في نفس الوقت وفيما ماو يبعد جنوده طلب من احد رجاله المتفوقين استخراج معلومات من المكتب الثاني الذي يتولّى الاتصالات اللاسلكية، من المركز الرئيسي للحزب كما طلب سرقة الخرائط المفصلة.

في هذه المناسبة حصل ماو على مساعدة من حليف جديد هام هو بينغ دو-هواي. قبل ثلاثة اشهر فقط اعترض بينغ على تولّي ماو القيادة العسكرية وكان على علاقة طيبة مع كو تاو الذي سعى لمصادقته. لكن بينغ انحاز الى ماو الآن ولا يعود ذلك فقط الى سيطرة ماو على القيادة الحزبية بل ايضاً الى انه امسك بموقع العلاقة مع الروس.

في فجر 10 ايلول افاق القادة التابعون لكو تاو في عمود اليمين ليجدوا ان ماو وصحبه قد رحلوا ومعهم الخرائط. بالاضافة الى ذلك أُبلغوا ان مؤخرة الفرقة الهاربة مع ماو تصوّب بنادقها الى الوراء استعداداً لاطلاق النار على من يتبعها. اتصل الضباط المتمركزون على طول الطريق التي سلكها الفارّون ليسألوا ما اذا كان عليهم استعمال القوة لوقف ماو وزمرته اذ بات واضحاً انهم يغادرون خلسةً. وقرر القادة التابعون لكو تاو ان «الجيش الاحمر يجب الاّ يطلق النار على الجيش الاحمر» لذلك سُمح لماو بالافلات منهم.

وبينما ذهب ماو ورجاله في سبيلهم ظهر فريق للدعاية من الجيش الخاضع لكو تاو وبدأ

(*) في ذلك الوقت اطلقت الكذبة بكلمات غامضة الى القليل فقط من الناس، جملها ماو لاحقاً في قصة حية عن أن كو تاو ارسل برقية الى رجاله يأمرهم فيها «بتصفيته» وكذلك المركز. واصبحت هذه النسخة الرسمية. لكن ماو لم يعلن ذلك إلا بعد 18 شهراً في 30آذار 1937 عندما حاول إبعاد كو تاو. حتى ذلك الوقت، ورغم وجود قرار حزبي بإدانة كو تاو «الشقه الجيش الاحمر»، لم يشمل الاعلان هذه التهمة. وكذلك الأمر بالنسبة الى الاتهام الوارد في أي برقية لاحقة أرسلها ماو وجيشه الى كو تاو. حتى برقية ماو الى موسكو التي أدان فيها كوتاو ما إن أصلحت الخطوط الإذاعية في حزيران 1936لم تذكر شيئاً عن الامر، وكذلك تقرير الحزب الشيوعي الصيني المرسل الى موسكو حول طرد كو تاو من قبل الحزب في نيسان 1938. يبرهن كل ذلك ان كو تاو لم يصدر اي أمر بإيذاء ماو.

بالتلويح والمناداة: «لا تتبعوا الانف الكبير! من فضلكم عودوا!» وتعني عبارة «الانف الكبير» الاجنبي، وفي هذه الحالة تعني اوتو براون. كان براون ايضاً أخبر الكذبة التي تقول بان كو تاو اعطى امراً «بسحق مقاومة اللجنة المركزية بالقوة اذا لزم الامر». وللمرة الاولى كشف الصراخ الى الجنود العاديين بان هناك انقسام في الجيش تسبب بارتباك وقلق كبيرين. على الفور ارسلت الدائرة السياسية التابعة لماو اركان الحرب لتحفيز الجنود على متابعة العمل بعزم، في حال اغتنم البعض الفرصة للذهاب مع كو تاو.

كان لماو حينها اقل من ثمانية آلاف جندي وكانوا رجالاً منذهلين الى حد كبير ولم يختاروا الوقوف الى جانبه. وعلى غير عادته ظهر امام الجنود ولم يتوجّه اليهم لكنه وقف صامتاً الى جانب الطريق يشاهدهم يمرّون بجانبه ويقدّر قوتهم في محاولة منه لتقدير المنحى في امزجتهم. وضمن وقوف بينغ الى جانبه مما يكسبه شرعية ما. بالنسبة الى الاغلبية كانت تلك المرة الاولى التي شعروا بأنهم على مقربة من ماو الذي فضل استخدام نفوذه في الظلّ.

كانت الخطوة التالية لماو التأكد من ان تشيانغ كاي شيك ليس مصدر مشاكل لفرقته. الآن لم يعد هناك شك بان تشيانغ كان يسمح له بالتحرك دون اعتراضه لكنه يسمح فقط لجيشه الضعيف ببلوغ هدفه. خلال المسيرة الطويلة لم تواجه القوة التابعة لماو مشاكل كبيرة فيما كان على القوة التابعة لكو تاو القتال في كل خطوة على طول الطريق وبسبب انها قوة كبيرة ولها قدرات عسكرية عالية.

لذلك كان من مصلحة ماو ان يعرف تشيانغ ان قسماً صغيراً فقط من الجيش يتوجه شمالاً وان قيادة الحزب الشيوعي الصيني كانت تؤيده. من غير ريب كان القوميون على علم بهذه الوقائع خلال ساعات من انشقاق ماو عن رفاقه الشيوعيين وكذلك يعرفون من هم الجنود الذين ذهبوا معه بالتحديد ومدى ضعفهم. في 11 ايلول اي بعد مرور يوم على انفصال ماو، اعلم تشيانغ حاكم المنطقة الخاضع له بأنه «تلقى معلومات تفيد بان ماو وبينغ ولين بالاضافة الى اللصوص التابعين لهم يفرّون شمالاً وهم يعانون من الجوع والارهاق الشديدين ...».

يبدو ان كو تاو لم يكن لديه ادنى شك بأن ماو هو الذي سرّب المعلومات عمداً، وفقاً لبرقية ارسلها الى ماو وصحبه في اليوم التالي: «بعد مغادرتكم في ذلك الصباح علم [العدو] على الفور ان الوحدة التابعة لبينغ دو-هواي فرّت باتجاه الشمال. نرجوكم ان تحترسوا من الرجعيين ... بشأن تسريب الاسرار. بصرف النظر عن الخلافات بيننا يجب الاّ نفشي بتحركاتنا العسكرية لعدوّنا».

وضَمَن هذا التسريب للمعلومات لماو عدواً مريحاً على طول الطريق المؤدي الى الهدف الذي هو السهل الارضي الاصفر. هناك في شمال شانكسي كانت بانتظاره القاعدة الآمنة

الوحيدة في الصين بموافقة تشيانغ كاي شيك. كان ماو والقادة الرئيسيون يعلمون بوجود هذه القاعدة قبل الزحف الذي بدأ في آذار وكانت موسكو ابلغتهم في 3 ايار 1934 انها قد تكون احد الامكنة التي يمكن ان يقصدوها، اي قبل الانطلاق في زحف آذار بوقت طويل.

حصل ماو على مساعدة من تشيانغ وكانت المسافة التالية والبالغة الف كيلومتر خالية من العقبات من الناحية العسكرية. وسجّل براون الملاحظة التالية: «باستثناء القنّاصين المحلّيين كانت هذه المسافة خالية من الاعداء»(*). لكن القوات التابعة لتشيانغ كانت تتعقّبه خلسة، فقط من اجل منع ماو من الشرود عائداً الى قلب الصين.

كان اجتياز هذه المسافة الاخيرة سهلاً بالمقارنة مع ما سبقه. وعوضاً عن الثلج والبرد والتعرّض للقنص على يد سكان التيبت المتمركزين في الغابات، رأى الشيوعيون هنا في جنوب غانسو شتول الحبوب الذهبية في الشمس الساطعة كما راوا الخراف يرعون في المراعي والمزارعين يعتنون بالحقول. كان سكان المنطقة ودودون وبذل ماو جهداً للمحافظة على ودّهم. لم يكن يريد استقبالاً كالذي لقيه من اهل التيبت وفرض «نظاماً صارماً». يشكل المسلمون ستين بالمئة من السكان وكان ممنوعاً على الشيوعيين ذبح او اكل الخنازير واصدر امراً بعدم سلب اي مسلم، وحتى الاغنياء منهم.

سمح سكان المنطقة للجيش الاحمر بالدخول الى منازلهم حيث اخذ الرجال حماماً ساخناً للمرة الاولى خلال اشهر ونعموا بحلاقة ذقونهم وقص شعرهم كما تناولوا الوجبات الاسلامية المشبِعة التي تتضمن الفطائر المحلاّة والمعكرونة المسطحة ولحم الضأن والدجاج والثوم والبهارات. ويذكر براون قائلاً ان الضيافة «ادهشتني كثيراً».

لكن هذا الجو الودّي اصبح مصدر قلق بالنسبة الى ماو اذ ارتفع عدد الفارّين. ويبيّن احد التقارير الصادر عن القوميين انه بينما كان الجنود التابعون لماو في اقليم واحد هو مِنكسيان استسلم ما يزيد على الالف رجل من الجيش الاحمر. في 2 تشرين الاول اصدر ماو امراً الى قوات الامن بـ«جمع» الشاردين وغالباً ما كانت عبارة «جمع» تعني الاعدام. ويتذكر احد الضباط الكبار الذي اصبح فيما بعد رئيس الاركان في الصين الشيوعية: «اثناء الزحف الى شمال شانكسي كان هناك باستمرار العديد من المتخلفين عن اللحاق بالجيش. واعتمد جهاز الامن السياسي التابع للجيش ... اساليب عقاب متوحشة مجدداً». كان مرتعباً اذ قال: تبعت الجنود بدقة وكنت قلقاً طوال الوقت من احتمال تأخري والتعرّض للمعاملة التي يلقاها المتخلفون».

(*) حصلت مناوشة صغيرة في ممر يدعى لازيكو في 17 أيلول. ومع ان ذلك لم يورط سوى رجل واحد، فقد تحولت الى معركة كبرى -وانتصار كبير. سبب ذلك أن ماو، ليشرّع انفصاله عن كو تاو، اضطر الى اظهار قوة سلاحية واحدة على الأقل بعد ابتعاده عنه. في الواقع أدخل ماو الى لازيكو ببساطة.

كانت عبارة «التعاطي مع» مماثلة لعبارة «الاهتمام بشخص ما» بمفهوم المافيا وهي تعبير لطيف معناه القتل. في احد الايام وبينما هم «على وشك الانهيار» اعتقد انه قد لا ينجح في محاولته: «لقد عاد قلبي الى مكانه فقط عندما وصلت الى المركز في الحادية عشرة ليلاً».

عندما وصل ماو اخيراً الى المنطقة التي يسيطر عليها الشيوعيون في شمال شانكسي والتي ستشكّل قاعدة له كان تدنّى عدد الجنود في جيشه الى ما دون الاربعة آلاف. في الشهر الاخير والاسهل خلال الرحلة خسر في الواقع اكثر من نصف الرجال الباقين بين المنشقين والمتخلفين والمتوفين نتيجة للامراض او للتصفية على يد رجال الامن التابعين له. وكان عديد القوة الخاضعة له تقريباً مماثلاً لما كانت عليه عندما غادر ارض الخارجين عن القانون في كانون الثاني 1929 اي قبل سبع سنوات. وكان الجنود هذه المرة في اسوأ حال يمكن ان يكونوا فيها، ويذكر احد الضباط ذلك بقوله:

«كنا جائعين ومنهكين. وكانت احذيتنا بالتحديد ممزقة. لم يكن لدينا احذية او جوارب ولفّ اشخاص كثيرون ارجلهم بقطع طويلة من الحرامات ... وكانت ووكي [حيث وصلوا] منطقة فقيرة جداً ولكن حتى ... الرفاق في المنطقة ظلوا يسألوني: كيف وصلتم الى هذه الحالة المزرية؟ انتم لا تبدون سوى كمجموعة من المتسولين».

لكن ماو لم يكن يشعر ابداً بالهزيمة عندما وطأت قدمه الاراضي الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين في 18 تشرين الثاني 1935. لقد انتهت «اللحظة الاكثر سواداً في حياته» كما كان يصف التهديد الآتي من كو تاو، وكان المنتصر. قد يكون الجيش الاحمر على شفير الموت بعد رحلة بطول عشرة آلاف كيلومتر دامت سنة كاملة تضمنت اربعة اشهر اضافية بسببه، لكن الحزب هو الآن تقريباً ملكٌ له.

وصل مبعوثه تشين يون الى موسكو وسلّم رسالته الى الكومنتيرن في 15 تشرين الاول. وكون ماو هو المنتصر بوضوح على ارض الواقع قبلت موسكو وللمرة الاولى اعتباره الآن رئيس الحزب الشيوعي الصيني. في تشرين الثاني نشر الروس نسخة مصاغة بدقة عن التقرير الذي قدمه تشين يون معلناً ماو بالاسم القائد «السياسي الموثوق والمجَرَّب» للحزب الشيوعي الصيني. وبعد اسبوعين نشرت صحيفة البرافدا مقالاً مُبرزاً بعنوان «قائد الشعب الصيني ماو تسي تونغ» والذي يصف ماو بلغة مزخرفة ومحزنة جداً فيبدو وكأنه جندي تشيكوفي عاجز يصارع المرض والحرمان ببطولة».

في منتصف تشرين الثاني وصل مبعوث من موسكو الى شانكسي وكان ذلك الاتصال الاول المباشر بعد مرور ما يزيد على السنة. كان هذا المبعوث سافر عبر صحراء غوبي متنكراً بلباس تاجر يرتدي معطفاً من جلد الغنم، وكان يحمل في عقله رموزاً لاعادة الاتصالات

اللاسلكية مع موسكو واستقدم مشغلاً للراديو معه. خلال بضعة اشهر اعيدت الاتصالات اللاسلكية مع موسكو والشخص الذي كان يسيطر عليها على الجانب الصيني هو ماو.

حمل المبعوث معه كلمة ستالين التي تقول بأنه على الشيوعيين الصينيين «الاقتراب من الاتحاد السوفياتي» عبر الاتجاه الى الحدود مع الدولة التابعة لروسيا التي هي منغوليا الخارجية فأصبح بالامكان الآن البدء بالتحرك «لتحقيق الاتصال بالاتحاد السوفياتي».

حقق تشيانغ كاي شيك نجاحاً اقل في تنفيذ برنامجه الخاص. في 18 تشرين الثاني، اي النهار الذي انتهى فيه المسيرة الطويلة بالنسبة الى ماو، التقى تشيانغ السفير السوفياتي بوغومولوف للمرة الاولى منذ ما قبل بداية المسيرة الطويلة مباشرة. اقترح تشيانغ عليه «معاهدة عسكرية سرّية» مع روسيا يكون هدفها الوحيد اليابان التي كثّفت جهودها لسلخ خمس مقاطعات من شمال الصين عبر اعطائها «استقلالاً» زائفاً. وجاء الرد الروسي بأنه يتوجب على تشيانغ اولاً «تسوية علاقته مع الحزب الشيوعي الصيني». وعلى الفور بدأ تشين لي فو مساعد القائد العام ومؤسس مكتب التحقيق الفدرالي الصيني محادثات سرّية مع بوغومولوف والملحق العسكري السوفياتي لوبين حول التفاصيل العملية لصفقة مع الحزب الشيوعي الصيني مشيراً حتى الى «التعاون» مع الشيوعيين.

خلال هذه المحادثات طلب تشين لي فو من بوغومولوف اطلاق سراح تشينغ كو الذي هو ابن تشيانغ كاي شيك. قال لنا تشين: «لقد قلت له: نحن بلدان يوقعان اتفاقية الآن ونحن على علاقة طيبة. لماذا تستمرون في احتجاز ابن قائدنا؟ لماذا لا تستطيعون اطلاق سراحه؟» واضاف تشين الموالي لتشيانغ بأنه يتصرف دون علم هذا الاخير. ربما لم يكن يريدني ان اثير هذا الطلب». وتعكس هذه الملاحظة التفاهم بين الاشخاص القليلين المقربين من تشيانغ حول الخطة التي رسمها للتبادل بين الشيوعيين وابنه ووفقاً لهذا التفاهم يجب الاّ تُنسب الصفقة الى تشيانغ البتة كما يجب عدم السماح بتسرّبها.

لكن ستالين ابقى على رفضه باطلاق سراح رهينته. مضى على سلخ تشينغ كو عن اهله الآن عشر سنوات تماماً. في آذار من تلك السنة وفيما هو يعمل في معمل للآلات الضخمة في جبال الاورال ادخل الحب الليونة الى الحياة الكئيبة التي يعيشها هذا الشاب عندما تزوج بعاملة تقنية روسية تدعى فاينا فاخريفا. في كانون الاول ولد طفلهم الاول في الاسر، هذا الأسر الذي سيتحمله تشينغ كو نفسه ليالٍ عديدة بعد اذ ان حظوظ ماو تزداد باطراد.

القسم الثالث

ماو يبني قاعدة سلطته

15- وفاة مضيف ماو في الوقت المناسب
(1935-1936، العمر 41-42 سنة)

في العقد التالي كان مقر ماو السهل الارضي الاصفر في شمال غرب الصين قرب النهر الاصفر الذي هو ثاني نهر أهمية بعد نهر يانغتزي، مهد الحضارة الصينية. كان عدد سكان القاعدة حوالى المليون ويشغلون مساحة تزيد على الثلاثين الف كيلومتر يقع معظمها في شمال شانكسي وتمتد القاعدة على طول الحدود مع مقاطعة غانسو في الغرب. ونظراً لبعدها عن قلب البلاد كانت في تلك الايام الارض الشيوعية الوحيدة الآمنة في كل انحاء الصين.

وتتميز الطبيعة فيها بأراضٍ واسعة تكسوها الرواسب الطفالية وبارض صفراء تبدو جرداء وقاحلة تتخللها ممرات ضيقة طويلة ومسنّنة وغالباً ما يبلغ عمقها مئات الامتار وتشق طبقة طرية سفلية مكونة بعوامل الزمن من جسيمات الغبار التي نفختها الرياح الآتية من صحراء غوبي المجاورة. ان معظم المنازل محفورة داخل منحدرات التلال الصفراء وبامكان المرء ان يحدّق بعيداً دون ان يرى احداً. وفي «بلدة». ووكي، البلدة الاولى التي رآها ماو عند وصوله، يبلغ عدد السكان فقط حوالى الثلاثين نسمة. تنفرد هذه المنطقة بكونها قليلة السكان وتتميز بشيء غير مسموع فيه في اماكن اخرى من الصين وهو وجود اراض صالحة للزراعة فائضة عن حاجات السكان. كان تشيانغ كاي شيك اختار هذا الموقع لابقاء الجيش قائماً ولكن بحجم صغير.

مؤسس القاعدة شيوعي من سكان المنطقة ويدعى ليو تشيهتان ولديه جيش من خمسة آلاف رجل، اي انه اكبر من الجيش التابع لماو. كان تشيهتان بطلاً بالنسبة الى الشيوعيين المتعاطفين من اهل المنطقة. اما بالنسبة الى المطران الكاثوليكي الاسباني المسؤول عن المنطقة والذي استولى رجال تشيهتان على كاتدرائيته الجديدة في تموز 1935 وعلى غيرها من الممتلكات فقد بدا تشيهتان «جريئاً ومتآمراً مشاركاً في كل عمل تخريبي».

واثناء تقدم ماو نحو القاعدة التي يديرها تشيهتان ابدى ملاحظة حادة مفادها ان قيادة تشيهتان «لا تبدو سليمة». بما معناه ان سياسة تشيهتان غير صحيحة. ويبدو ان ماو اعطى اوامره السرّية الى مكتب الحزب الذي تشمل سلطته المنطقة الواقعة تحت سيطرة تشيهتان (مكتب المنطقة الشمالية) لتنفيذ عملية تطهير فيها. في منتصف ايلول نزل مبعوثون للحزب

الى القاعدة حيث انضمت اليهم في اليوم نفسه وحدة من 3400 جندي من الجيش الاحمر توجهت الى هناك انطلاقاً من ناحية اخرى من الصين. واطلق وصول هذين الفريقين عملية تطهير وحشية. رغم ان قوات تشيهتان كانت متفوقة فانه لم يبدِ اية مقاومة سواء للاستيلاء على السلطة او لعملية التطهير. وبعد ان استُدعي من الجبهة واكتشف على طريق العودة انه سيتعرض للتوقيف سلّم نفسه.

ادان مبعوثو الحزب تشيهتان كونه «ثابت في الجناح اليميني». (وهي عبارة جديدة تعني المعتدل) واتهموه بأنه عميل لتشيانغ اذ «انشأ قاعدة للجيش الاحمر في سبيل ابادة هذا الجيش». وعوض ان يلقى استعداده للخضوع الى سلطة الحزب التقدير كونه عمل ينمّ عن الاخلاص شُوه وفُسر ضده واتُهم «بالمكر في سبيل خداع الحزب وكسب ثقته». وجرت ممارسات للتعذيب الشنيع وتعرّض احد زملاء تشيهتان للطعن في الفخذ باسلاك متوهجة وصلت الى العظم فيما أُحرق الكثيرون وهم احياء. سنة 1992 كتب احد الناجين: «سجنونا في سلاسل حديدية ضخمة... سمعنا ان الحفرة التي سندفن فيها احياء قد حُفرت...». ويقدّر ان ما بين المئتين والثلاثمئة شخص قد قتلوا.

في تلك اللحظة وصل ماو في الوقت المناسب ليلعب دور الحكم المعتدل. امر بتعليق التوقيفات والاعدامات واطلق سراح تشيهتان ورفاقه في آخر تشرين الثاني واعتُبرت عملية التطهير بحقهم «غلطة كبرى». وخضع للتأنيب شخصان اعتبرا بمثابة كبشي محرقة.

هكذا تمكن ماو من الحاق الضرر بقادة الحزب الشيوعي في المنطقة وقدّم نفسه على انه الرجل الذي خلّصهم مما مهّد لبسط سيطرته على قاعدتهم. نتيجة لعملية التطهير كان تشيهتان ورفاقه قد خضعا للترويع الهائل عند ظهور ماو، فمثلاً كان تشيهتان يمشي بصعوبة بعد وضع القيود على رجليه. عندها تمكن ماو من اخراجهم من مواقع القرار ومن المناصب العسكرية الهامة دون التسبب بمقاومة كبيرة. عُيّن تشيهتان الذي هو مؤسس القاعدة في منصب عادي كقائد كتيبة تسمى «الجيش الثامن والعشرون». الذي كان فعلياً مجموعة من المجندين الجدد الذين دسّ ماو بينهم رجلاً يثق به وعيّنه مفوضاً عليهم ليصبح بالتالي رئيساً على تشينغتا . لم يعترض تشينغتا ووافق على سلطة ماو علناً وطلب من رفاقه الذين وقعوا ضحايا ان يضعوا مصالح الثورة فوق عذاباتهم الشخصية.

لم يشأ ماو ان يظهر وكأنه يتخلص من تشيهتان اذ اراد ان يستغلّ اسمه لكسب الشرعية والهيبة لحكمه. لكن في الوقت نفسه لم يكن ينوي الاحتفاظ به لانه كان من سكان المنطقة. كان ماو يخطط للتورط في ابتزاز السكان من اجل الحصول على الطعام والمال والجنود والفلاحين، كما سبق للحزب الشيوعي الصيني ان فعل في القواعد الاخرى. ومثلما حدث فعلياً في القواعد

الشيوعية الاخرى كان ماو يعلم ان هذه السياسة ستلقى المقاومة من قادة المنطقة الذين قد يقودون ثورة شعبية ضد الحزب. كان لدى ماو طريقة مختلفة للتعامل مع تشيهتان تختلف عن تلك التي استعملها ضد مصادر محتملة للتهديد.

ما ان استقر ماو حتى باشر في تنفيذ مشروعه القائم على محاولة فتح طريق الى الحدود الخاضعة للسيطرة الروسية حيث يستطيع تسلّم المؤونة وخاصة الاسلحة. وكانت خطته تشمل اجتياز النهر الاصفر وصولاً الى مقاطعة شانكسي الغنية جداً والواقعة في الجانب الشرقي، وذلك للحصول على المزيد من القوة البشرية والمؤن وحتى انشاء قاعدة قبل التحوّل شمالاً باتجاه منغوليا الخارجية الواقعة تحت السيطرة الروسية.

بدأت الحملة في شباط 1936(*) وادّت الى جمع بعض الغنائم والمجندين الجدد لكنها اعيدت بسرعة الى النهر الاصفر على يد الجنود التابعين لتشيانغ دون التمكن من الوصول الى اي مكان قرب الحدود المنغولية. خلال هذه الحملة القصيرة لقي تشيهتان حتفه وهو في سن الثالثة والثلاثين. وفقاً لكتب التاريخ توفي اثناء القتال لكن الاثبات المرجّح يشير الى القتل.

أُطلقت النار على تشيهتان في 14 نيسان 1936 في منطقة تدعى سانجياو وهي بلدة تقع على النهر الاصفر ويستقل الناس منها المراكب النهرية. تفيد الرواية الرسمية ان احد رشاشات العدو التي كانت تقاتل وحدة متقدمة للجيش الاحمر اطلقت رصاصة اصابت قلبه. لكن تشيهتان لم يكن مع الوحدة المهاجمة كما انه لم يكن محتجزاً في تبادل لاطلاق النار. كان على بعد مئتي متر على تلة صغيرة حيث يراقب ما يجري من خلال التيليسكوب. كان الرشاش الذي قيل ان نيرانه قتلته يطلق النار في اتجاه مختلف تماماً واذا اردنا تصديق الرواية الرسمية فهي تتمحور فجأة حول طلقة واحدة اطلقت على بعد مئتي متر واصابت تشيهتان في القلب على نحو اعجازي، ويبدو ان هذا الرشاش يتمتع بدقة القناص.

عندما اصيب تشيهتان كان معه شخصان فقط، احدهم يشغل منصب المسؤول عن الامن السياسي في وحدته ويدعى بي وهو نجم الكي.جي.بي الصينية. خلال المسيرة الطويلة أُسندت اليه المهمة الاساسية لمراقبة الحمّالين الذين ينقلون الاشياء الثمينة العائدة للمصرف الذي يملكه النظام. اما الشخص الآخر الموجود آنذاك فهو حارسه. بعد اطلاق النار على تشيهتان ارسل بي الحارس لاحضار طبيب، حسب روايته، تاركاً اياه وحده عندما توقف تشيهتان عن التنفس نهائياً. ويبدو ان لا شك في احتمال قيام بي بقتل تشيهتان.

يشير تسلسل الاحداث المحيطة بوفاة تشيهتان بقوة الى ان ماو رسم خطوطها. قبل اسبوع

(*) كما في المسيرة الطويلة، ادعى الحمر ان الهدف محاربة اليابانيين واطلق عليها اسم «الطليعة المناهضة لليابانيين» مع شعار مثل «الذهاب شرقاً لمحاربة اليابان». لكن الأمر مجرد حملة دعائية. فلم تحاول قوات ماو حتى الاقتراب من اليابانيين.

ابرق ماو الى تشيهتان ليخبره بان الوحدة التابعة للجيش الثامن والعشرين «تخضع مباشرة لهذا المركز من الآن وصاعداً». ليس من سبب بارز لهذا الامر باستثناء طبعاً انه بهذه الطريقة كل ما يحدث لتشيهتان منذ ذلك الوقت سوف يُبلّغ عنه عبر التسلسل الطبيعي للقيادة ولكن مباشرة الى ماو. وبعد يومين على ذلك قام ماو بتعيين تشيهتان في المجلس العسكري الذي سبق وان اقصي عنه، وذلك موازٍ الى ترقية تشيهتان الى منصب عسكري رفيع. اذا توفي الآن ستكون له مكانة البطل وسيبقى رجاله سعداء. واخيراً وفي الثالث عشر من الشهر اصدر ماو بنفسه امراً بانتقال تشيهتان الى سانجياو حيث قُتل في اليوم التالي مباشرة.

عندما دُفن تشيهتان أُبقيت زوجته بعيداً عن مكان الدفن وقال لها تشو إن لاي: «انت لست بخير ورؤيته ستزيدك حزناً». كان ذلك بمثابة الامر. ومرّت سبع سنوات قبل ان يُسمح لها باخراج الجثة من القبر وكانت الجثة قد تحلّلت. فُتح التابوت نزولاً عند طلبها عندما أُقيم لتشيهتان قبر عام في مقام خاص. وكتب ماو كلاماً منقوشاً واصفاً وفاة تشيهتان بأنها «مفاجأة». وجرى ذلك في وقت كان بحاجة تحديداً الى ضمان انعدام وجود اي نوع من المشاكل في القاعدة واستعمل تشيهتان لاضفاء الشرعية على نفسه.

كان تشيهتان القائد الوحيد الذي يشغل منصباً عالياً في قاعدة شيوعية ويموت على الجبهة. بالاضافة الى ذلك قُتل ضابطان من المحيطين به سابقاً الواحد تلو الآخر وبسرعة خلال اسابيع من مقتله، فقُتل كل من يانغ كي في آذار ويانغ سين في ايار. خلال اشهر من وصول ماو قُتل الضباط الثلاثة الكبار في شانكسي ولم يُصِب هذا المصير ايّاً من القادة في اية وحدة اخرى من وحدات الجيش الاحمر.

مع وفاة تشيهتان واثنين من زملائه الكبار أُزيل اي خطر محتمل لقيام ثورة على حكم ماو في القاعدة. بعد ذلك ورغم قيام ثورات على نطاق ضيق في اوساط سكان المنطقة لم تندلع ثورة قادرة أن تشكل تهديداً لنظام ماو.

16- خطف تشيانغ كاي شيك
(1935-1936، العمر 41-42 سنة)

عندما وصل ماو الى الشمال الغربي في نهاية المسيرة الطويلة في تشرين الاول 1935 كان هدفه، بالاضافة الى مجرد الاستمرار على قيد الحياة، فتح ممرّ الى حدود الاراضي الواقعة تحت السيطرة الروسية من اجل الحصول على الاسلحة وغيرها من المؤونة التي تمكنه من التوسع. اراد تشيانغ كاي شيك ان يبقى الشيوعيون محبوسين ضمن سياج العربات المدافعة عن معسكرهم. كان الرجل الذي عهد اليه بالمهمة امير الحرب سابقاً في منشوريا تشانغ هسوي ليانغ المعروف بـ«المارشال الشاب». التابع لمركز مدينة زيان عاصمة مقاطعة شانكسي. كان ماو في المقاطعة نفسها على بعد حوالى الثلاثمئة كيلومتر شمالاً.

كانت هناك منطقتان واقعتان تحت السيطرة الروسية يمكن تسليم الاسلحة من خلالهما وهما زينغ جيانغ التي تقع على بعد يزيد عن الالف كيلومتر الى الغرب والشمال الغربي، ومنغوليا الخارجية التي تبعد حوالى الخمسمئة كيلومتر الى الشمال وعلى خط مستقيم. كان الجيش الضخم التابع للمارشال الشاب والمؤلف من ثلاثمئة رجل متمركزاً في المقاطعات المؤدية الى هاتين المنطقتين.

ترك ربان الطائرة الاميركي الشاب رويال ليونارد وصفاً لرجل له خبرة في الحياة جاء فيه: «ان انطباعي الاول... انه يوجد هنا رئيس نادي الروتاري، فهو ممتلىء الجسم وناجح وانيس وحسن السلوك... اصبحنا اصدقاء خلال خمس دقائق...». بعد ان ورث المارشال الشاب منشوريا في حزيران 1928(*) اثر مقتل والده امير الحرب المعروف ب«المارشال العجوز». وضع مقاطعته تحت سيطرة الحكومة المركزية بقيادة تشيانغ فيما بقي رئيساً عليها حتى اجتاحتها اليابان سنة 1931. عندها انسحب الى الاراضي الصينية مع مئتي الف جندي وأُعطي لاحقاً مناصب عديدة هامة من قبل تشيانغ. وكانت تربطه بوضوح علاقة خاصة مع تشيانغ وزوجته وكان مولعاً بالقول عن القائد العام الذي يكبره بثلاثة عشرة سنة هو «بمثابة ابي».

لكن وراء ظهر القائد العام كان المارشال الصغير يخطط للحلول محله. بعد ان حكم ارضاً

(*) ينسب هذا الاغتيال عامة الى اليابانيين لكن مصادر الاستخبارات الروسية ادعت مؤخراً أن الأمر صدر عن ستالين، ونظم على يد الرجل الذي أوكل اليه لاحقا اغتيال تروتسكي، ناووم ايتنغون، وألصق باليابانيين.

اكبر من فرنسا وانكلترا مجتمعتين شعر بالضيق حيال خضوعه لتشيانغ اذ كان يطمح لحكم الصين بكاملها. ولهذه الغاية سبق له ان حاول التقرّب من الروس وحاول زيارة الاتحاد السوفياتي عندما كان في اوروبا سنة 1933 لكن الروس كانوا حذرين جداً وخذلوه. وبعد اربع سنوات فقط اي سنة 1929 اجتاح ستالين منشوريا ودخل في حرب قصيرة الامد معه بعد ان استولى على خط سكك الحديد الذي يسيطر عليه الروس في منشوريا. بالاضافة الى ذلك اعرب المارشال الشاب عن اعجابه بالفاشية وكان صديقاً لموسوليني وعائلته. وفي آب 1935 صدر تصريح عن موسكو باسم الحزب الشيوعي الصيني يصفه بأنه «حثالة المجتمع»، و«خائن».

لكن فور تعيينه قيّماً لدى ماو في وقت لاحق من تلك السنة بدّلت موسكو موقفها كلّياً، فأصبح المارشال الشاب يستأهل التودد، ففي امكانه تسهيل الامور بالنسبة الى الحزب الشيوعي الصيني والأهم من ذلك يمكنه ان يساعد الشيوعيين على تحقيق الاتصال بالتموين الروسي. خلال اشهر من وصول ماو الى الشمال الغربي دخل الدبلوماسيون الروس في مفاوضات عميقة مع المارشال الشاب.

سافر الى شانغهاي وعاصمتها نانجينغ للاجتماع سرّاً بالروس، ولتغطية المسارات التي يسلكها فقد حاك اشياء تافهة لاخفائها. وعُرف عنه انغماسه بالملذات وتعمّد اظهار هذه الصورة. ويذكر الطيار الاميركي العامل لديه انه في احد الايام طلب منه المارشال الشاب «التحليق في الطائرة بصورة عامودية فوق منحدر جاعلاً من احد اجنحتها في الشارع يمر عند نقطة مقابل نوافذ فندق بارك حيث يعيش اصدقاؤه. قطعنا مسافة عشرة اقدام امام الواجهة فيما الضجة التي يتسبب بها المحرّك تُحدث قعقعة في الواح الزجاج مثل التي تحدثها الصنوج». تم الترتيب لهذا الاستعراض خارج الغرفة التي تقطن فيها احدى صديقات المارشال الشاب. وقال لنا المارشال الشاب البالغ الواحدة والتسعين سنة 1993 فيما هو يضحك ضحكة خافتة امامنا: «ربما سيجعلكم ذلك تبتسمون. في ذلك الوقت حاول تاي لي [رئيس الاستخبارات التابعة لتشيانغ] المستحيل ليكتشف مكان وجودي واعتقد اني كنت اذهب لقضاء اوقات ممتعة مع صديقاتي. لكن في الواقع كنت اقوم بصفقات...».

واوضح المارشال الشاب الى الروس انه مستعد لتشكيل تحالف مع الشيوعيين الصينيين و التعهّد بالدخول في« قتال حاسم ضد اليابانيين». اي اعلان الحرب على اليابان، الامر الذي لم يفعله تشيانغ. في المقابل كان يريد ان تدعمه موسكو كي يحلّ محل تشيانغ في رئاسة البلد.

كانت الصفقة تتضمن ميزات مغرية جداً لستالين، بما فيها ما يرغب رئيس الكرملين تحقيقه وهو ان تشنّ الصين حرباً شاملة على اليابان. كانت هذه الاخيرة تنتهك الاراضي الصينية

وكانت تقضم اجزاءاً منها منذ العام 1931. بعد ضمّ منشوريا اليها اقامت طوكيو نظاماً العوبة في جزء من شمال الصين في تشرين الثاني 1935، لكن تشيانغ كان يتجنب الحرب الشاملة. وكان ستالين قلقاً من امكانية توجّه طوكيو شمالاً وشنّ هجوم على الاتحاد السوفياتي.

كان ستالين يهدف الى استعمال الصين كوسيلة لابعاد طوكيو عن الاتحاد السوفياتي من خلال جرّ اليابانيين الى داخل الاراضي الصينية الشاسعة والحؤول دون تقدّمهم. عملت موسكو جاهدة لاثارة الحماس في الصين لتأييد هذه الحرب الشاملة ضد اليابان بينما ابقت على برنامجها قيد الكتمان. ساهمت موسكو في تظاهرات طلابية هامة وشكل عملاؤها الكثيرون وعلى رأسهم السيدة سان يات سين اي شقيقة السيدة تشيانغ كاي شيك مجموعات ضاغطة في سبيل تحفيز نانجينغ للعمل.

لم يكن تشيانغ يريد الاستسلام لليابان لكنه لم يكن يريد اعلان الحرب عليها. لقد اعتبر انه ليس للصين حظوظ فعلية بالنجاح وبأن القبول بتحدّي طوكيو سيؤدي الى دمار بلده. واتخذ خياراً وسطاً استثنائياً يقضي بعدم الاستسلام او الدخول في حرب شاملة. استطاع التمسّك بهذا الوضع بسبب المساحة الشاسعة للصين وبسبب الانتهاكات التدريجية التي يقوم بها اليابانيون. وربما كان تشيانغ يأمل ان تشنّ اليابان هجوماً على روسيا وتترك الجزء المتبقي من الصين.

كان الاقتراح الذي تقدم به المارشال الشاب مناسباً لستالين لكن هذا الاخير لم يثق به كما لم يصدق ان امير الحرب السابق الآتي من منشوريا قادر على الامساك بالصين كتلة واحدة للدخول في حرب كهذه. اذا انزلقت الصين في نزاع ضروس سوف تسهّل الفتح الياباني ومن باب اولى سيتضاعف الخطر الياباني على الاتحاد السوفياتي.

كانت موسكو تتمتع بمقدار من الحكمة يجعلها تمتنع عن رفض العرض الذي تقدم به المارشال الشاب فوراً. ضلّله الروس من خلال الايحاء بأنهم يبحثون المسألة وذلك كي يساعد الشيوعيين في الصين. طلب منه دبلوماسيون روس اقامة اتصالات مباشرة مع الحزب الشيوعي الصيني سرّاً. جرت المحادثات الاولى بين مفاوض من الحزب الشيوعي الصيني والمارشال الشاب في 20 كانون الثاني 1936.

بينما كان الروس يخدعون المارشال الشاب فحسب، كان ماو سعيداً لدعمه ليحل مكان تشيانغ مع رغبته في إقامة تحالف معه. كان ذلك السيناريو المثالي بالنسبة الى ماو. بما ان المارشال الشاب سيصبح خاضعاً للاتحاد السوفياتي سيلعب الحزب الشيوعي الصيني دوراً محورياً وقد يصبح ماو المسيطر الفعلي على الصين بأكملها. اعطى تعليمات للمفاوض باسمه لي كي نونغ لاقتراح قيام تحالف مناهض لتشيانغ مع المارشال الشاب والتعهّد بمساندته كرئيس للحكومة

الوطنية خلفاً لتشيانغ. وطُلب من المفاوض «التلميح». الى ان العرض حصل على موافقة موسكو، وذلك عبر الايحاء بان المال والمساعدات لن يشكلا عقبة.

بطبيعة الحال اراد المارشال الشاب رؤية الوعود التي قطعها ماو منجزة على يد الروس انفسهم.

ويبدو ان الامر كان على وشك الحصول عندما تم اقتراح خطة بارسال مبعوث هام من قبله الى موسكو. وفي كانون الثاني وصل الى مقر المارشال الشاب رجل يدعى «القس دونغ». آتياً من شانغهاي. كان دونغ، القس السابق في كنيسة القديس بطرس في شانغهاي في العشرينات، عميلاً للاستخبارات الشيوعية. اخبر القسّ المرتد المارشال الشاب بأن ابناء ماو هم في عهدته بصورة سرّية في شانغهاي وبأن هناك خطة لارسالهم الى روسيا الى المدرسة الخاصة بابناء القادة الشيوعيين الاجانب وهي بادارة الكومنتيرن. واقترح ان يعين المارشال الشاب مبعوثاً لمرافقته الى هناك.

كان لماو ثلاثة ابناء من زوجته الثانية كاي هيوي التي أُعدمت على يد القوميين سنة 1930. بعد وفاة والدتهم نُقل الصبيان الى شانغهاي حيث اهتمت بهم جماعة شيوعية سرّية.

كان الاولاد يعانون المصاعب وتوفي اصغرهم ويدعى أن لونغ بعمر الاربع سنوات مباشرة بعد وصوله الى شانغهاي. اما الآخران اي أن ينغ وأن تشينغ فكان عليهما ان يعيشا حياة سرّية فلا يتسطيعان الذهاب الى المدرسة او يقيما علاقات صداقة خارج عائلة دونغ التي يسودها التوتر باستمرار. كان دونغ قد اودعهما مع زوجته السابقة التي اصاب حياتها الخطر والاضطراب بوصولهم وهي لم تشعر بأية عاطفة تجاه هؤلاء الصبيان في كل الاحوال. في بعض الاحيان كانوا يهربون ليعيشوا في الشوارع كأولاد الفقراء أو كالاشرار. بعد سنوات وفيما كان أن ينغ يشاهد فيلماً عن احد الايتام في شانغهاي تحرّكت عواطفه واخبر زوجته بأنه وشقيقه عاشا حياة مماثلة فكانا ينامان على الارصفة ويبحثان عن الطعام واعقاب السجائر في تلال النفايات. طوال كل هذه السنين لم يرسل ماو اليهما بكلمة.

قررت موسكو الآن ان تستقدم ابناء ماو الى روسيا حيث سيجري الاهتمام بهما وارسالهما الى المدرسة. وكما حصل مع ابن تشيانغ كاي شيك بينما كان والده يصعد الى القمة، كان الهدف الاحتفاظ بالصبيان كرهائن. كان ستالين شخصياً متورطاً في هذا القرار ولم يبدِ ماو اية معارضة.

وهكذا فان عرض موسكو الى المارشال الشاب بجعل مبعوث من قبله يرافق الصبيان الى روسيا السوفياتية اصاب عصفورين بحجر واحد. بهذه الطريقة يضمن المارشال الشاب سلامة الاولاد خلال الرحلة ويهتم بالناحية اللوجستية بالاضافة الى دفع حوالة للحاشية

التي تتضمن مربية. والاهم من كل ذلك ان المارشال الشاب سوف يرى في الدعوة الموجهة اليه لارسال مبعوث دليلاً على اهتمام موسكو الكبير بانجاز صفقة لا تتم خلال اشراف تشيانغ كاي شيك على الصين.

كان المارشال الشاب مبتهجاً وانجز الترتيبات بسرعة وابحر ممثله والصبيان من الصين باتجاه مرسيليا في 26 حزيران. وكانت موسكو ابلغت المارشال الشاب بأنهم يستطيعون تسلم تأشيرات الدخول الروسية في باريس.

في ذلك الشهر شكلت مقاطعتا غواندونغ وغوانكسي الواقعتان في جنوب الصين تحالفاً وثارتا على حكومة تشيانغ كاي شيك. حاول ماو اقناع المارشال الشاب باقتناص هذه الفرصة فيحذو حذوهم ويحوّل شمال غرب البلاد الى دولة انفصالية متحالفة مع الشيوعيين. وكان هدفه، كما ابلغ الكاتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني، انشاء كيان «يشبه منغوليا الخارجية». اي دولة تابعة لروسيا.

لم يتحمس المارشال الشاب للفكرة اذ كان يريد ان يحكم الصين بكاملها وليس فقط قسماً منها فيما كانت موسكو معارضة للمشروع بصراحة. في هذا الوقت وفي اواخر حزيران أُعيدت الاتصالات اللاسلكية بين الحزب الشيوعي الصيني وموسكو بعد انقطاع دام عشرين شهراً. وفي اول برقية ارسلها ماو الى الكومنتيرن بعد التوقف طلب الموافقة على اقامة دولة انفصالية في شمال غرب البلاد. أُرسلت الخطة الى ستالين الاّ انها لم تَرُق له لانه كان يريد الصين دولة موحدة غير مفككة تستدرج اليابان الى حرب شاملة.

بعد مرور ايام على ارسال ماو هذه البرقية فشلت الثورة التي قادتها كل من غواندونغ وغوانكسي على نحوٍ مُخزٍ ليس اقلّه بسبب كون الرأي العام معارض بقوة لاية حركة انفصالية. وتعزز اعتقاد ستالين بانّ تشيانغ هو الشخص الوحيد الذي يمكنه ان يمسك بالصين موحدة. في 15 آب ارسلت موسكو امراً تاريخياً الى الحزب الشيوعي الصيني تطلب فيه التوقف عن معاملة تشيانغ كعدو واعتباره حليفاً للشيوعيين. «انه من الخطأ معاملة تشيانغ كاي شيك تماماً كمعاملة اليابانيين... يجب عليكم العمل في سبيل وقف الاعمال العدائية بين الجيش الاحمر والجيش التابع لتشيانغ كاي شيك، كما ينبغي العمل للوصول الى اتفاق... في سبيل القتال معاً ضد اليابانيين...». «يجب اخضاع كل شيء لقضية معاداة اليابان». الان يريد ستالين من الحزب الشيوعي الصيني ان يدعم تشيانغ كرئيس للصين الموحدة، على الاقل في الوقت الراهن.

فرضت موسكو على الحزب الشيوعي الصيني الدخول في مفاوضات جدية مع تشيانغ لعقد تحالف بينهما. كان على ماو الموافقة وبدأت المفاوضات حول «جبهة موحدة». في ايلول بين ممثلين عن الحزب الشيوعي الصيني وتشيانغ واستهلّ هذه الاخير عملية التقارب. في

الوقت الذي انتهت فيه المسيرة الطويلة كان حقق انفتاحاً على موسكو لكن الروس ابلغوه ان عليه التحدث «مباشرة مع [الحزب الشيوعي] الصيني». وذلك لتعزيز هذا الحزب.

ابقى كل من موسكو وماو هذا التغيير في سياستهما مخفياً على المارشال الشاب واستمرا في تضليله حول المسألة التي تهمه وهي الحلول محل تشيانغ. عندما اخبر المارشال الشاب السفير السوفياتي بوموغولوف في اواخر تموز انه «يأمل». ان «تتلقى كتلته المتعاونة مع [الحزب الشيوعي الصيني] والموجهة ضد تشيانغ كاي شيك واليابانيين دعم الاتحاد السوفياتي». لم يقل السفير شيئاً البتة يوحي بان موسكو تعارض هذه الفكرة بشدة. من جهته شجّع ماو المارشال الشاب على الاستمرار في اعتقاده بان موسكو قد تسانده.

*

رغم ان ستالين قرر دعم تشيانغ كرئيس للصين فهو لم يقلّل ابداً من جهوده السرّية الهادفة لتطوير الجيش الاحمر الصيني. في اوائل ايلول 1936 صادق على خطة لشحن كمية كبيرة من الاسلحة الى الحزب الشيوعي الصيني عبر منغوليا الخارجية. تتضمن اللائحة التي تجسّد تمنيات ستالين«مساعدة شهرية بقيمة ثلاثة ملايين دولار». بالاضافة الى «طائرات ومدفعية ثقيلة وقذائف وبنادق للمشاة ورشاشات مضادة للطائرات و زوارق للتجسير». ومعها طاقم سوفياتي لقيادة الطائرات وتشغيل المدافع. في 18 تشرين الاول سمع من الكومنتيرن ان «البضائع ليست بالكمية التي طلبتموها في برقيتكم المؤرخة في 2 [تشرين الاول]... ولا توجد طائرات او مدافع ثقيلة...». ورغم ذلك ان «الشركة الاجنبية». التي تهتم بالشحن، وهي نسخة مفبركة عن المخابرات العسكرية السوفياتية، سوف« تسلّم مئة وخمسين مركبة وتؤمن السائقين والبنزين؛ وبامكانها القيام برحلتي عودة... وهي محملة بحوالى الخمسمئة وخمسين والستمئة طن». في كل رحلة. كان عدد البنادق هو تقريباً نفس العدد الذي ارسله الروس الى اسبانيا حيث اندلعت الحرب الاهلية للتو.

في تشرين الاول بدأ الجيش الصيني عمليته التدميرية التي تقوده الى نقطة يتسلّم فيها البضائع في الصحراء الواقعة بالقرب من الحدود مع منغوليا الخارجية. في تلك المرحلة كان لماو عشرين الف رجل في القاعدة وكانت الفروع الاخرى من الجيش الاحمر على وشك الالتقاء هناك تلبية لدعوته اياها للالتحاق به. وتضم الجنود التابعين لمنافسه تشانغ مو تاو الضعيف الآن والذي امضى الشتاء على الحدود مع التيبت تحت رحمة قصف القوميين. هناك تجمّد العشرات حتى الموت واصيب الكثيرون بالعمى الثلجي وخلال السنة الفائتة كان كو تاو خسر نصف الجنود البالغ عددهم ثمانين الفاً والذين كان على رأسهم عندما التقى ماو في حزيران 1935.

رغم انه ما زال لدى كو تاو ضعف عدد الرجال التابعين لماو فهو اتى الان كشريك ادنى

منزلة. ازاء ادراكه بأنه في حالة بليً اصبح «عاطفياً جداً». كما لاحظ زملاؤه. «ذرف الدموع قائلاً: «لقد انتهيت. عندما نصل الى شمال شانكسي سأذهب الى السجن...»». وفي النهاية قام ماو بالحاق المزيد من التدمير بجيشه ومن ثم تخلص منه. لكن في الوقت الراهن كان ماو بحاجة الى القوة الكبيرة والفعالة التي يقودها كو تاو من اجل القتال على الحدود مع منغوليا الخارجية.

كان الفرع الآخر للجيش الاحمر الذي اتى الى ماو الآن بقيادة هو لانغ المتشدد وأحد الخارجين على القانون سابقاً. اما الذي قاده من قاعدته الواقعة على الحدود بين هونان وهوبي(*) الى شمال شانكسي فهو تشيانغ كاي شيك. اتحدت الفروع الثلاثة للجيش الاحمر في 9 تشرين الاول 1936 ليصبح ماو قائداً لجيش يبلغ عديده حوالى الثمانين الف رجل اي عشرين ضعفاً العدد الذي انزله الى ساحة القتال قبل سنة بالتحديد.

كانت هذه القوة هائلة ولكن من اجل الوصول الى السلاح الروسي كان على الشيوعيين تحقيق اختراق في صفوف الجيش القوي الذي يملكه القوميون، فيما كان تشيانغ مصمماً على وقفهم. في 22 تشرين الثاني طار الى زيان ليقود العملية شخصياً مما وضع المارشال الشاب في ورطة. وفي حينه حذّر المارشال الشيوعيين من مخططات تشيانغ كما قدّم لهم المال وملابس الشتاء لكنه توقف عند هذه الحدود فلم يستطع تحدّي الاوامر الصادرة عن تشيانغ علناً. لذلك قام رجاله بمحاربة الشيوعيين في نهاية المطاف. خلال اسبوع أُحبط الهجوم العسكري الذي قاده ماو بهدف الحصول على المؤن الروسية. وجدت فرقة مؤلفة من ثمانية وعشرين الف جندي اجتازت النهر الاصفر نفسها وحيدة وعاجزة على الجهة الاخرى. انسحب القسم الاساسي للجيش الاحمر عائداً الى موقعه في شمال شانكسي ليحبس نفسه مجدداً هناك.

طلب ماو من موسكو ارسال الاموال بإلحاح، فأبرق قائلاً: «تصرفوا بسرعة». ارسل الكومنتيرن(*) على الفور خمسمئة وخمسين الف دولار اميركي لكن هذا المبلغ لم يحل المشاكل المزمنة. بالنسبة الى الطعام كان هناك فقط الفول الرديء. اما المنازل في هذه المنطقة فهي بشكل اساسي كناية عن ياو دونغ اي مساكن محفورة في الهضاب مثل كهوف كبيرة ولم تتوفر الى العديد من الجنود. وعندما بدأ الثلج بالتساقط كان الجنود يرتدون الملابس البالية وصنادل

(*) هذه القاعدة دفعت أيضاً الى عمليات تطهير دموية بقيادة الحمر بين عامي 1932 و1934. هو لونغ نفسه قال لاحقاً: «في عملية التطهير هذه وحدها قتل اكثر من 10 آلاف شخص. اليوم، (عام 1961) فقط بعض الرفاق النساء ما زلن على قيد الحياة ذلك أن الرجال قتلوا أولاً... ثم اتى العدو قبل ان يبحث (المبعدون) عن النساء...» حتى اليوم في المنطقة ينتشلون العظام من بئر تلو الآخر: «يقول الناجون إن كثيرين وضعوا في أكياس ورميوا في بحيرة هونغ وقد ربطوا بحجارة كبيرة. لم يجرؤ صيادو الأسماك على الصيد في البحيرة لأن العديد من الجثث كانت تظهر فتغير لون البحيرة.

(*) ارسلت هذه الأموال وغيرها من التحويلات من خلال السيدة سان يات صن من أميركا.

القش. على الجبهة كان بينغ دو-هواي القائد الرئيسي يعيش في مأوى لاحد الرعاة وهو كناية عن حفرة في الارض عمقها متر وعرضها متران وتقع على حافة الصحراء وتضربها عواصف رملية هوجاء. حتى ماو كان يعاني من الازعاج اذ ان مركز الحزب أُجبر على الانتقال الى باوان حيث كان يعيش هو وزوجته التي كانت على وشك وضع مولودها في مغارة شديدة الرطوبة بسبب تقطّر المياه من السقف. وفي احدى المرات عندما حاول حارسه فتح الباب لدغه عقرب حجمه كبير وغير مألوف. وكثرت الجرذان التي تحمل الطاعون والتي يبلغ حجمها نصف حجم القطط المنزلية، وكانت هذه الجرذان وقحة لدرجة انها تجلس على صدور الاشخاص النائمين وتضرب وجوههم ضربات خفيفة فتوقظهم فجأة.

في نهاية تشرين الثاني 1936 أصاب اليأس الشيوعيين فرأى المارشال في ذلك فرصة لانقاذهم والحصول على رضى موسكو. كانت خطته بسيطة ومتهوّرة وتقضي بخطف تشيانغ الذي كان على وشك ان تطأ قدماه حلبة سباق الخيل التي يملكها. رغم ان المارشال الشاب لم يحصل على تعهّد صريح من موسكو كان يسعى الى الحصول عليه. كان مبعوثه قد لقي مراوغة بشأن تأشيرة دخوله الى روسيا فاعتبر المارشال ان انقاذ الجيش الاحمر الصيني ووضع تشيانغ تحت وصايته سيغيّر المعادلة برمّتها بالنسبة الى ستالين. كانت هذه المسألة بمثابة المقامرة لكن المارشال الشاب هو مقامر وقال مرة في اوساط المحيطين به: «فلسفتي تقوم على المقامرة. قد اخسر مرة او اثنتين لكن ما دامت اللعبة مستمرة سيأتي الوقت الذي استرجع فيه كل رهاناتي». ان وجود تشيانغ في حلبة سباق الخيل التي تخصّه هي فرصة العمر التي لا تتكرر.

ناقش المارشال الشاب خطته مع موفد الارتباط السرّي التابع لماو ويدعى يه جيانغ يينغ، فابلغ هذا الاخير بأنه ينوي القيام بانقلاب مستعملاً هذه العبارة التي تكتب كو دي دا في اللغة الصينية. في 29 تشرين الاول ابرق يه الى ماو معتمداً على لغة مبطنة وجاء في برقيته انه «يوجد اقتراح بابقاء تشيانغ». في 5 تشرين الثاني ذهب يه الى مقر ماو حاملاً معه خطة الانقلاب.

تعود فكرة اختطاف تشيانغ الى المارشال الشاب لكنها دون شك استحثّت ماو من خلال مبعوثه يه. وسجّل المطّلع في الاستخبارات السوفياتية الكسندر تيتوف ان «مسألة توقيف تشيانغ كاي شيك تمّت مناقشتها من قبل... يه جيانغ يينغ وتشانغ هسوي ليانغ في تشرين الثاني 1936». واخفى ماو الخطة عن موسكو عمداً لعلمه بان ستالين سيعارضها بشدة. كان ماو الآن يعمل مباشرة ضد مصالح موسكو فيما كان تشيانغ هاماً بالنسبة الى ستالين اكثر من اي وقت مضى. في 25 تشرين الثاني وقعت المانيا واليابان على معاهدة عرفت بالميثاق المناهض للكومنتيرن لتضع الاتحاد السوفياتي في مواجهة ابشع الكوابيس المتمثّل بعدوّين محاربين يحيطان به ومتحالفين فيما بينهما، مع وجود قوات مدعومة من اليابان تتقدم باتجاه الغرب على

طول الحدود الجنوبية لمنغوليا باتجاه آسيا الوسطى السوفياتية. وفي نفس اليوم الذي اعلن فيه عن المعاهدة اصدر ستالين امراً عاجلاً الى رئيس الكومنتيرن جورجي ديميتروف للضغط بقوة على الحزب الشيوعي الصيني ليتخلى عن موقفه المعارض لتشيانغ وليدعم حكومة موحدة: «نحن بحاجة... الى حكومة تقوم بمهام الدفاع الوطني». في الصين، كما ابلغ ستالين ديميتروف واضاف قائلاً: «ارسم خطة...».

كان ماو يعرّض نفسه لخطر اغاظة ستالين من خلال تعريض تشيانغ للخطر وحاول توخّي الحذر عبر البقاء بعيداً عن عملية الخطف. قبل المباشرة بالمهمة الصعبة ابرق المارشال الشاب الى يه طالباً منه العودة بقوله: «هناك امر هام بحاجة الى المناقشة. ارجوك ان تأتي في الحال». منعه ماو من العودة فيما ادعّى امام المارشال الشاب ان يه هو في طريقه اليه. من ثم شجّع المارشال الشاب عبر ارسال برقية اليه تفيد بأنه لا امكانية لتوصل الشيوعيين الى اية تسوية مع تشيانغ وبان الشيوعيين مصممون على اكمال حربهم ضد القائد العام. اعطى ماو المارشال الشاب انطباعاً بأنه هو، اي المارشال، الشريك الوحيد الممكن ملمحاً الى قبول موسكو بذلك.

عندما وصل تشيانغ الى زيان في 4 كانون الاول لم يتخذ اية ترتيبات استثنائية تتعلق بامنه الشخصي. وكان مسكنه المباشر محروساً من قبل العشرات من مساعديه لكن البوابة والمحيط الخارجي للمنزل كانت تحرسهما دوريات تابعة للمارشال الشاب. وتمكن المارشال الشاب من احضار الخاطفين لاستكشاف مقرّ تشيانغ الموجود بالقرب من نبع يقع على اطراف البلدة وللتأكد من غرفة نوم القائد العام.

في فجر 12 كانون الاول خُطف تشيانغ. كان انهى تمارينه الرياضية الصباحية بحسب روتين صارم يتبعه وكان يرتدي ملابسه عندما سمع طلقات نارية. تعرّض منزله للهجوم على يد حوالى اربعمئة من رجال المارشال الشاب. قاومهم حرّاس تشيانغ وقُتل العديدون منهم بمن فيهم المسؤول عن جهاز امنه. تمكن تشيانغ من الهرب الى الهضاب الواقعة خلف المنزل، حيث وُجد بعد ساعات مختبئاً في صدع عميق مرتدياً فقط قميص النوم، حافي القدمين ومغطى بالغبار فيما ظهره مجروح.

مباشرة قبل ذلك كان المارشال الشاب اعلم ماو انه على وشك القيام بالعملية. عندما تلقى ماو البرقية من امين سرّه ابتسم مبتهجاً وقال: «عُد الى النوم. سوف تكون هناك اخبار سارة في الصباح!».

17- لاعب على المستوى الوطني
(1936، العمر 42-43 سنة)

عندما وصلت الاخبار الى المقر الرئيسي للحزب بأن تشيانغ كاي شيك قد خُطف تجمع القادة المتهللين في مغارة ماو الذي كان «يضحك كالمجنون» حسب ما يذكر احد الزملاء. الآن وقد القي القبض على تشيانغ كان لماو هدفاً اعلى وهو رؤيته ميتاً. اذا قتل تشيانغ سيحدث فراغ في السلطة فتكون فرصة جيدة لتتدخل روسيا وتساعد على الاتيان بالحزب الشيوعي الصيني وبه الى السلطة.

في اولى برقياته الى موسكو بعد الحادثة ناشد ماو الروس التدخل بجدية. اختار ماو كلماته بتأنٍّ والتمس منهم الموافقة على قتل تشيانغ قائلاً بان الحزب الشيوعي الصيني كان يريد ان «يطلب من نانجينغ ان تطرد تشيانغ كاي شيك وتسلّمه الى الشعب ليحاكمه». وكانت هذه العبارة ملطّفة وتلمّح الى عقوبة الاعدام من دون ريب. واذ كان ماو يعلم بان اهدافه مختلفة عن اهداف ستالين ادعى بأنه لم يسمع بعملية الخطف الاّ بعد حصولها وتعهّد بان الحزب الشيوعي الصيني «لن يصدر تصريحات رسمية لعدة ايام».

في هذا الوقت كان ماو منشغلاً بإلألاعيب بغير علم موسكو في سبيل اتمام قتل تشيانغ. في برقيته الاولى الى المارشال الشاب بعد عملية الخطف المؤرخة في 12 كانون الاول حثّه ماو على التالي: «ان افضل خيار هو قتل [تشيانغ]». حاول ماو ارسال دبلوماسي من الطراز الاول من قبله هو تشو إن لاي الى زيان على الفور. كان تشو فاوض المارشال الشاب في وقت سابق من تلك السنة ويبدو انهما صوّرا الامر ببراعة. اراد ماو ان يقنع تشو المارشال الشاب «بتنفيذ الاجراء النهائي» كما جاء في كلام تشو، اي قتل تشيانغ.

التمس ماو من المارشال الشاب الحصول على دعوة لتشو دون ان يعلن الهدف الحقيقي لمهمة تشو. في ذلك الوقت كان المركز الرئيسي للحزب الشيوعي يقع على مسافة يستلزم اجتيازها على ظهر جواد عدة ايام للوصول الى زيان في باونان والتي تبعد حوالى الثلاثمئة كيلومتر الى الشمال. لذلك طلب ماو من المارشال الشاب ارسال طائرة لاخذ تشو من مدينة ينان المجاورة التي كان المارشال يسيطر عليها. ويتوفر في تلك المدينة مهبط للطائرات كانت شركة ستاندرد اويل بنته ابان تنقيبها عن البترول في وقت سابق من القرن العشرين. وقطع

ماو عهداً زائفاً للمارشال الشاب في الثالث عشر من الشهر لتشجيعه على التحرك بسرعة: «لقد توصلنا الى ترتيبات مع الكومنتيرن وسنعلمك بالنتائج لاحقاً». مما يعني بوضوح ان تشو سينقل معلومات عن خطة وضعت بالتنسيق مع موسكو.

ما كان المارشال الشاب بحاجة اليه ليس وعود منجزة سرّاً ومنقولة بواسطة الحزب الشيوعي الصيني، بل كان بحاجة الى المصادقة العلنية لروسيا. لكن في الرابع عشر من الشهر صدرت ادانة شديدة لاعماله في مقالات على الصفحات الرئيسية في صحيفتين رئيسيتين في الاتحاد السوفياتي هما البرافدا والايزفستيا. واعتُبرت اعماله بمثابة المساعدة لليابان، كما صدر في هذه المقالات تأييد لا لبس فيه لتشيانغ. بعد مرور يومين على الاختطاف ادرك المارشال ان اللعبة انتهت.

لم يُصغِ المارشال الشاب لاقتراح ماو بإرسال تشو. لكن ماو ارسل تشو على كل حال قائلاً للمارشال الشاب في الخامس عشر من الشهر بان تشو قادم اليه وطلب طائرة لتقلّه من ينان. عندما وصل تشو الى ينان لم تكن هناك طائرة بانتظاره وكانت بوابة المدينة مقفلة في وجهه وعليه الانتظار خارج السور طوال الليل في حرارة دون الصفر. «رفض الحرس فتح البوابة كما رفضوا الاستماع الى المنطق» حسب ما جاء في برقية ارسلها ماو الى المارشال الشاب وحضّه على عمل شيء. في الواقع عامل المارشال الشاب تشو بجفاء مما يدل على المرارة التي يشعر بها جراء التضليل الذي اعتمده الشيوعيون معه حيال موقف موسكو.

في السابع عشر من الشهر ابدى المارشال الشاب ليونة ملحوظة. كان يفتش عن طريقة لوضع حدّ لهذا الاخفاق التام فأرسل طائرته البوينغ لاحضار تشو. صُدم الطيار الاميركي العامل لديه رويال ليونارد عندما علم بأنه ينقل شيوعيين كانوا يطلقون النار على طائرته مؤخراً. في طريق العودة في فترة بعد الظهر من ذلك النهار مارس حيلة على الركاب. كتب في مذكراته: «لقد اخترت الطقس العاصف عمداً. من وقت لآخر كنت انظر خلسة الى الوراء وكنت اتمتع بمشاهدة الشيوعيين ... وهم يضعون لحاهم السوداء جانباً بيد ويتقيأون في علبة يمسكونها باليد الاخرى».

استقبل المارشال الشاب تشو وهو مصرٌّ على مواجهة المصاعب الاّ انه عامله معاملة ودّية وادعى انه يوافق ضيفه الرأي(*). وعندما حثّه تشو على قتل القائد العام ادعى بأنه سيفعل ذلك

(*) ظهرت قليلاً مرارة المارشال الشاب إزاء موسكو والحزب الشيوعي الصيني خلال اجتماعنا الحميم معه بعد 56 سنة. عندما سألناه إذا أخبره الشيوعيون الصينيون عن الموقف السوفياتي الحقيقي تجاهه قبل الانقلاب، أصبح موقفه فجأة عدوانياً. «طبعاً لا. انك تطرح علي سؤالاً غريباً جداً».

«عندما يصير لا مفر من الحرب الاهلية وتصبح زيان محاصرة» من قبل القوات الحكومية.

في الواقع كان ماو يحاول التسبب بحرب بين نانجينغ وزيان. وحاول اشعالها عبر تحريك الشيوعيين باتجاه نانجينغ. في الخامس عشر من الشهر اصدر امراً سرّياً الى القادة الكبار التابعين له «بتوجيه ضربة الى رأس العدو اي حكومة نانجينغ ...» لكن كان عليه الغاء الخطة اذ ان تنفيذها سيكون بمثابة الانتحار للجيش الاحمر ولعدم توفر ضمانات بأنها ستشعل حرباً بين نانجينغ وزيان. ولسروره اعلنت نانجينغ الحرب على المارشال الشاب في السادس عشر من الشهر فحرّكت جيشها نحو زيان وقصفت الجنود التابعين للمارشال الشاب المتمركزين خارج المدينة. وحثّ ماو المارشال الشاب ليس فقط على الردّ بل ايضاً على توسيع القتال الى حرب كبيرة من خلال الاندفاع بقوة باتجاه نانجينغ. في اليوم التالي ابرق اليه ماو قائلاً: «ان الشرايين الاساسية للعودة هي نانجينغ و[خطان رئيسيان لسكك الحديد]. اذا أُرسل بين عشرين وثلاثين الف ... جندي لضرب خطوط سكك الحديد هذه ... سيتبدل الوضع بكامله على الفور. ارجوك ان تفكر بالامر». كان ماو يأمل انه من خلال قيام المارشال بهذا العمل لن يكون بامكانه التراجع عن نانجينغ وبالتالي سيزداد احتمال قتله لتشيانغ.

وبينما كان ماو يناور لاتمام قتل تشيانغ عارض ستالين الامر بشدة انقاذاً للقائد العام. في 13 كانون الاول اي اليوم الذي تلى اعتقال تشيانغ استُدعي القائم بالاعمال السوفياتي في نانجينغ من قبل القائم بأعمال رئيس الحكومة ه. ه. كونغ الذي هو صهر تشيانغ. ابلغه كونغ بان هناك اشاعة عن تورط الحزب الشيوعي الصيني في الانقلاب وبأنه «اذا تعرضت سلامة تشيانغ للخطر سيمتد غضب الامة من الحزب الشيوعي الصيني الى الاتحاد السوفياتي وسيخلق ضغوطاً على [الحكومة الصينية] للانضمام الى اليابان في معاداة الاتحاد السوفياتي». وادرك ستالين ان الاختطاف قد يشكل خطراً داهماً على مصالحه الاستراتيجية.

في منتصف ليل الرابع عشر من الشهر رنّ الهاتف في مكتب رئيس الكومنتيرن ديميتروف وكان ستالين على الخط. وسأله هذا الاخير: «هل جرت الاحداث في الصين بموافقتك؟» فاجابه ديميتروف بسرعة: «كلا! قد يكون الامر اكبر خدمة يسديها ايّ كان الى اليابان. ان موقفنا بشأن هذه الاحداث لم يتغير». وتابع ستالين مستعملاً كلاماً ينذر بالشؤم ليستفسر عن دور مندوب الحزب الشيوعي الصيني في الكومنتيرن والذي قدم الى ستالين مسودة برقية ينبغي ارسالها الى الحزب وتحبذ اعدام تشيانغ. وسأله: «من يكون هذا الذي يدعى وانغ مينغ

الذي ارسلته اليّ؟ هل هو عميل محرّض؟ سمعت بأنه يريد ارسال برقية تدعو الى قتل تشيانغ». في ذلك الوقت تذكر مساعد ديميتروف الصيني بأنه «لن تجد شخصاً واحداً» في المقر الرئيسي للكومنتيرن لا يعتقد بأنه «يجب الاجهاز على تشيانغ». حتى ممثل ستالين الذي يشغل منصباً رفيعاً في الكومنتيرن المدعو مانويلسكي والمعروف بطباعه الهادئة «فرك يديه وعانقني هاتفاً: "القي القبض على صديقنا العزيز، آها».

ردّ وانغ مينغ بان رئيس العمليات الخارجية في الكي جي بي ارتور ارتوزوف هو الذي اقترح مسودة البرقية فجرى توقيف ارتوزوف عاجلاً واتُّهم بالجاسوسية. قبل اعدامه اكّد على براءته في رسالة كتبها بدمه الذي سال «من انفه»، كما لاحظ ببرودة شديدة سجّانه. احجم ستالين عن تنفيذ الاعدام وجهد ديميتروف لتبرئة نفسه والقى اللوم على ماو. كتب الى ستالين قائلاً: «رغم تحذيراتنا ... فان الحزب الصيني اقام علاقة وثيقة جداً وودّية مع [المارشال الشاب]». والاسوأ من ذلك قال ديميتروف الى ستالين: «من الصعب ان نتخيّل مباشرة [المارشال الشاب] في مغامرته دون التنسيق معهم [ماو وزملائه] او حتى دون مشاركتهم». وفي ذلك اشارة واضحة الى ان ماو كان يكذب حين نفى اي علم مسبق له بالحدث والى ان ماو هزىء باوامر موسكو.

ساور الشك ستالين من احتمال وجود تعاون وثيق بين ماو واليابانيين. كان ستالين قد بدأ بادانة كل السوفيات تقريباً ذوي الخبرة في الشؤون الصينية كما جرى استجوابهم تحت التعذيب. بعد مرور اربعة ايام على اختطاف تشيانغ «اعترف» احد الموقوفين الكبار بضلوعه في مخطط لتروتسكي يرمي الى استفزاز اليابان ودفعها والمانيا الى شنّ هجوم على روسيا. وبرز اسم ماو فوراً في الاعترافات وتشكل ملف دسم عنه يتضمن اتهامات بكونه عميلاً يابانياً وتروتسكياً.

ارسل ديميتروف رسالة شديدة اللهجة الى ماو في السادس عشر من الشهر ادان فيها عملية الخطف بقوله انها «قادرة فقط على الحاق الضرر بالجبهة الموحدة المناهضة لليابان وهي تدعم الهجوم الياباني على الصين». النقطة الاساسية فيها هي انه «يجب على الحزب الشيوعي الصيني اتخاذ موقف حاسم لصالح حلّ سلمي». كان الهدف من وراء ذلك ضمان اطلاق سراح القائد العام واعادته الى مركزه.

عندما وصلت البرقية يقال ان ماو «استشاط غضباً ... اطلق السباب وضرب الارض باخمص قدميه». وكانت خطوته التالية الادعاء بأن الرسالة لم تصله ابداً وأخفاها على المكتب السياسي للحزب وعلى المارشال الشاب وعلى تشو إن لاي الذي كان في طريقه الى زيان في

محاولة لاقناع المارشال الشاب بوجوب قتل تشيانغ. استمر ماو بالمناورة من اجل اتمام عملية قتل تشيانغ(*).

وينطوي هذا التكتيك على مخاطرة كبيرة في العلاقة مع موسكو. لم يكن ماو فقط يخفي عن الكرملين تشجيعه خطة الاختطاف بل كان ايضاً يطمس امراً صادراً عن ستالين مباشرة ويتحدّاه. لكن بالنسبة الى ماو فان الآفاق التي يتيحها التخلص من تشيانغ تفوق اهمية المخاطر.

الاّ ان القائد العام لم يكن على وشك الاختفاء عن الخريطة. ما إن علم المارشال الشاب بأن موسكو لا تدعمه وكان ذلك مباشرة اثر الخطف قرر الحفاظ على سلامة تشيانغ. اثبت ماو انه حقير، فرغم كل المواقف التي شهدها الحزب الشيوعي الصيني في مداولاته الخاصة فقد احتفظ هذا الحزب بالصمت العلني لمدة ثلاثة ايام بعد الاختطاف ولم يعلن عن تأييده للمارشال الشاب. ولم يصدر اي بيان رسمي له حتى الخامس عشر من الشهر ولم يُشِر التصريح الى تأييد المارشال الشاب في الوصول الى رئاسة الصين كما جاء في عرض سبق وانْ قدّمه ماو. بدلاً من ذلك اعترف البيان بسلطة نانجينغ.

كان الخيار الوحيد المتاح للمارشال الشاب البقاء الى جانب تشيانغ، مما يعني انه عليه اطلاق سراحه. بالاضافة الى ذلك ادرك ان السبيل الوحيد للبقاء حياً هو ان يترك زيان بين ايدي تشيانغ ويضع نفسه تحت تصرف تشيانغ. كان الكثيرون في نانجينغ يودّون رؤيته ميتاً وكانوا يودّون ايضاً ارسال قاتلين في إثره للقضاء عليه. كان السجن الذي وُضع فيه تشيانغ المكان الوحيد الذي يمكن ان يشعر فيه بالامان. ومن خلال مرافقة تشيانغ الخارج من الاسر بامكانه ان يأمل بالحصول على وداد القائد العام. واثبتت مراهنته على عدم قتل تشيانغ له صوابيتها. وبعد الاقامة الجبرية تحت سلطة تشيانغ وخلفه لمدة تزيد على نصف قرن حيث كان محتجزاً ومحمياً، أُطلق سراحه وتوفي في منزله في هاواي بعمر المئة وسنتين العام 2001 فيكون بذلك عمّر اكثر من تشيانغ وماو ما يزيد على الربع قرن.

في 14 كانون الاول، اليوم الذي شجبت فيه موسكو الانقلاب علناً، ذهب المارشال الشاب لرؤية تشيانغ ووقف امامه صامتاً وباكياً. اشار تشيانغ الى ان آسره اظهر «الكثير من الندم». في

(*) حاول ماو لاحقاً الادعاء بأن برقية الكومنتيرن في 16 كانون الأول «كانت محرفة ولا يمكن تفكيك رموزها، وأن الحزب الشيوعي الصيني طلب من موسكو في 18 كانون الأول إعادة إرسالها. انه أمر مفبرك. فقد اخبرنا عمال الإذاعة في قلب الحزب الشيوعي الصيني ان الإجراء العادي يقضي بالطلب من موسكو فوراً إعادة إرسال البرقية إذا بقيت غير مقروءة ولا يمكن الانتظار يومين -أقله في زمن الأزمات. كما أخبر ماو مكتبه السياسي في الـ19 من الشهر: «لم تصل تعليمات الكومنتيرن».

وقت لاحق من ذلك النهار اخبر المارشال الشاب تشيانغ بأنه ادرك ان عملية الاختطاف هي «تصرّف احمق وغير مدروس» كما اخبره بأنه يودّ اطلاق سراحه سرّاً. وابدى تشيانغ استعداده للتعاون من خلال التأكيد ان نانجينغ لن تفسد الامر. عندما اعلنت نانجينغ الحرب على المارشال الشاب في السادس عشر من الشهر ارسل تشيانغ رسالة على الفور يطلب فيها من نانجينغ الامتناع عن القتال، فعلّقت العمليات العسكرية وارسلت صهر تشيانغ المدعو ت. ف. سونغ والمعروف بت. ف. «كمواطن خاص» للمفاوضة بشأن الصفقة اذ من غير المعقول رؤية تشيانغ يتفاوض مع آسريه. وصل ت. ف. الى زيان في العشرين ولحقت به بعد يومين السيدة تشيانغ.

في العشرين ارسلت موسكو مجدداً برقيتها الى الحزب الشيوعي الصيني والتي كان ماو يخفيها وهي تتضمن امراً بالتوصل الى «حلّ سلمي». وكان على ماو الآن ارسال البرقية الى تشو إن لاي مع تعليمات بوجوب المساعدة على «اعادة الحرية الى تشيانغ كاي شيك».

*

وهكذا يكون ماو جعل اهدافه تنسجم مع اهداف ستالين مرة اخرى. طلب الحزب الشيوعي الصيني ان يتعهد تشيانغ «بوقف سياسة "ابادة الشيوعيين"» واصرّ ايضاً على ان يلتقي تشيانغ بتشو إن لاي الذي كان بالقرب منه في زيان. بالنسبة الى تشو سوف يمنح التحدث الى تشيانغ الحزب الشيوعي الصيني منزلة لاعب اساسي في السياسة الوطنية وهذا عمل موازٍ في ايامنا لاستقبال رئيس الولايات المتحدة فجأة رئيس احدى المجموعات الارهابية السيئة السمعة.

في محادثات جرت في الثالث والعشرين بين ت. ف. سونغ والمارشال الشاب وتشو قال ت. ف. انه شخصياً موافق على ما طالب به تشو وسوف ينقل مطالب الحزب الشيوعي الصيني الى القائد العام. لكن تشيانغ رفض التكلم مع تشو مباشرة رغم ابلاغه انه لن يُطلق سراحه الاّ اذا رأى تشو، فوصلت المحادثات الى طريق مسدود.

كانت موسكو تعلم ما الذي يجعل القائد العام يوافق على رؤية تشو. كانت احدث اشارة ارسلها تشيانغ الى موسكو مباشرة قبل اختطافه في تشرين الثاني حين كان الجيش الاحمر الصيني يدير ظهره للسور بعد فشله في الوصول الى التموين الروسي بالاسلحة. في تلك المناسبة طالب سفير تشيانغ الى موسكو بعودة ابن تشيانغ تشينغ كو وكان جواب موسكو: «كلا». لكن الآن اصبحت موسكو جاهزة للتجاوب. وفي وقت متأخر من الرابع والعشرين وصل الرئيس السابق للحزب بو كو الى زيان حاملاً معه اخباراً معينة. هذا الخبر جعل تشو يدخل غرفة نوم تشيانغ يوم عيد الميلاد. وقام تشو بابلاغ تشيانغ ان ابنه تشيانغ كو «سيعود». ولم يوافق تشيانغ

على مطالب الشيوعيين الاّ بعد تلقيه هذا الوعد من ستالين ودعا تشيانغ «للمجيء الى نانجينغ من اجل اجراء مفاوضات مباشرة». ابتداء من تلك اللحظة توقف اعتبار الحزب الشيوعي الصيني مجموعة من اللصوص بصورة رسمية وجرى التعامل معه كحزب سياسي بكل ما للكلمة من معنى.

كان الاجتماع بين تشيانغ وتشو قصيراً لكنه اتمّ صفقة الاعتراف بالشيوعيين مقابل اعادة ابن تشيانغ التي كان تشيانغ يعمل من اجل تحقيقها منذ سنوات. ويشكل ذلك علامة على نهاية الحرب الاهلية بين الحزب الشيوعي الصيني والقوميين.

وبعد الظهر من ذلك اليوم غادر آل تشيانغ زيان. وكذلك فعل المارشال الشاب الذي طار باتجاه الاقامة الجبرية(*) بملء ارادته. كان تشيانغ يتمتع بشعبية وصلت الى الذروة وعندما دخلت سيارته نانجينغ واحتشدت الجماهير بعفوية على طول الشوارع للترحيب به، وتفرقعت الالعاب النارية طوال الليل. ويقول الاشخاص الذين عاشوا تلك الايام بأن هيبة تشيانغ سطعت كشمس الظهيرة. لكن انتصاره لم يدم طويلاً وارتدّت عليه الصفقة التي اعادت ابنه. كانت حساباته التي تقوم على قدرته على احتواء ماو والتفوّق على ستالين مجرد رغبة. كان ماو غير قابل للاحتواء وكذلك جرت للتو ترقية الحزب الشيوعي الصيني الصغير الحجم الى «حزب معارض» اساسي.

(*) منذ ذلك الوقت، أصبح أحد اكبر الأساطير في التاريخ الصيني وموضوع كتب ومقالات لا تنتهي. ولكن حتى أعداءه ذكروا بصعوبة تحركاته مع الروس أو أن ما حصل هو نتيجة طموح شخصي. حتى نهاية حياته الطويلة، ادعى ان الخطف جاء بوحي من «دوافع صادقة». قال لنا عام 1993: «فهمتني السيدة تشيانغ جيداً... قالت اني لم أرد المال، لم أرد أراض، أردت فقط التضحية».

18- ماو في حلة جديدة ومع زوجة جديدة
(1937-1938، العمر 43-44 سنة)

ما إن هدأ غبار اختطاف تشيانغ في كانون الثاني 1937 حتى ابلغت موسكو ماو رؤيتها المحددة للمرحة المقبلة. كان على الحزب الشيوعي الصيني التخلي عن سياسة محاولة الاطاحة بالحكومة من خلال اللجوء الى العنف وكذلك الأقلاع عن مصادرة الاراضي وسرقة الاغنياء. بدلاً من ذلك سيعترف الحزب بحكومة نانجينغ بصفتها الحكومة الشرعية وسيضع الاراضي التي يسيطر عليها بالاضافة الى الجيش الاحمر تحت سلطة تشيانغ. قبل ماو هذا التغيير كوسيلة تكتيكية محضة وقدّم الحزب الشيوعي الصيني تعهّداً علنياً الى نانجينغ يجسّد التغييرات التي ترغب موسكو ان يدخلها الى سياسته، مما اشّر الى مرحلة جديدة في حياة الحزب.

في مقابل ذلك كان على تشيانغ تخصيص بعض الاراضي للجيش الاحمر وتمويل الادارة والجيش التابعين للشيوعيين. بذل ماو كل جهد في سبيل الحصول على أكبر قطعة ارض واعلى مستوى من التمويل. في النهاية أُعطي الشيوعيون حصة من الاراضي مساحتها 126000 كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها حوالى المليونين وعاصمتها ينان وادّت هذه التسوية الى تدفق التمويل الحكومي للشيوعيين. وقام تشيانغ ايضاً بتسليح وتمويل ما يزيد على 46000 جندي نظامي في الجيش الاحمر وهو العدد الذي اعترف به رسمياً.

احتفظ ستالين بابن تشيانغ لمساعدة ماو في تحقيق هذه المغانم، ولم يتخلّ عنه حتى رضي عن التنازلات التي قدمها تشيانغ. في 3 آذار اصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي مرسوماً كُتب بلهجة خاصة تنمّ عن التذمّر: «لا معارضة لاعادة ابن تشيانغ كاي شيك الى الصين». عاد تشينغ كو الى الصين في 19 نيسان واجتمع مع ابيه مجدداً بعد احتجازه كرهينة(*) لمدة زادت على احدى عشرة سنة.

اثناء الرحلة التي دامت اسبوعاً عبر سيبيريا كان تشينغ كو تحت وصاية الرئيس المستقبلي للمخابرات في الحزب الشيوعي الصيني كانغ شنغ. وقبل بضعة اسابيع فقط كان كانغ شنغ

(*) قبل مغادرة تشينغ كيو لروسيا، واجهه ستالين شخصياً، كما تعرض لحملة من المداهنات والتهديدات على يد ديميتروف. في الطريق اتصل تشينغ كيو بديميتروف: «كل تعليماتك ستطبق». عندما دنا من فلاديفوستوك، أخذ الى مكتب وكالة الاستخبارات الروسية حيث أبدى طاعة شكلية لموسكو واعداً: «سأنفذ بحزم أسلوب الحزب».

اتى بولدَي ماو من باريس الى موسكو. وكان ان يينغ وان تشينغ البالغين الرابعة عشرة والثانية عشرة من العمر امضيا بضعة اشهر في باريس بانتظار تأشيرة الدخول الروسية. لم يشأ الروس منح الاذن بالدخول الى مبعوث المارشال الشاب الذي كان يرافقهما لكنهم لم يشاؤوا ايضاً ان يبدوا رفضاً مباشراً لذلك حجبوا تأشيرات الدخول عن المجموعة كلها. بعد انتهاء عملية اختطاف تشيانغ أبلغ المبعوث انه لن يحصل على تأشيرة دخول. وصل ولدا ماو الى موسكو في بداية 1937 واصبحا من التلامذة الداخليين في مدرسة خاصة لاولاد القادة الشيوعيين الاجانب. ورغم انهما ارسلا رسائل وصوراً الى والدهما فهو نادراً ما كان يجيب عليها.

فيما تميّز موقف ماو من ولديه باللامبالاة، كان موقف تشيانغ من ابنه يبلغ حدود الهاجس. في شباط 1937 عندما كان ستالين ما يزال يحتجز تشينغ كو وفيما كان تشيانغ ينتظر بفارغ الصبر اعادته اليه، قدّم القائد العام خدمة كبيرة الى الحزب الشيوعي الصيني كان لها انعكاسات طويلة الامد. لقد عيّن العميل السرّي شاو لي تزو الذي اصطحب ابن تشيانغ الى روسيا سنة 1925 رئيساً لقسم الدعاية القومية المشرف على وسائل الاعلام. كانت مهمة شاو احداث تغيير في موقف الصحافة والرأي العام اللذين كانا معاديين بقوة للشيوعية، وفي ذلك دليل كبير على النوايا الحسنة تجاه موسكو.

ابتداء من ذلك الوقت جرت تغطية واسعة وايجابية لاخبار الاتحاد السوفياتي كما بدأت تبرز صورة ملطّفة وايجابية عن الشيوعيين الصينيين. في الصيف قام كل من شاو وماو بتدبير/ وبتلفيق فكرة نشر السيرة الذاتية لماو حيث يتم وصفه بالرجل الجيّد والطيّب وهي سيرة كاملة وفيها ملحقُ يتضمن تصريحاته عن الحرب مع اليابان وتصوّره على انه رجل ملتزم بقتال اليابانيين. كتب ماو عبارة مقتبسة توحي بالفكرة العامة بنبرة الوطني المتحمّس: «حارب اليابانيين الامبرياليين دون هوادة حتى النهاية ...». صدر الكتاب في اول تشرين الثاني وكان بمثابة ضربة موفقة. كانت تلك الفترة هي التي انتجت الاسطورة القائلة بأن الحزب الشيوعي الصيني هو القوة الاكثر تفانياً في مناهضة اليابان ولعبت دوراً اساسياً في نجاح ماو. ونتيجة لهذه الاسطورة التحق عشرات الآلاف بالحزب الشيوعي الصيني بمن فيهم اؤلئك الذين سيشغلون وظائف عديدة في نظام ماو لاحقاً.

تألفت السيرة الذاتية لماو بصورة عامة من مقابلات اجراها معه الصحافي الاميركي ادغار سنو في صيف 1936 وهي الرواية الوحيدة المفصلة التي اعطاها ماو عن حياته. كما ألّف سنو كتاباً خاصاً به بعنوان «النجمة الحمراء فوق الصين». وفيه اعتماد كبير على مقابلات مع ماو ومع غيره من الشيوعيين ووضع هذا الكتاب أُسساً لاعادة الاعتبار للشيوعيين ليس اقلّه عبر محو ماضيهم المغمّس بالدماء.

لم يكن اللقاء مع سنو صدفة. في ذلك الربيع طلب ماو من الجماعة السرّية في شانغهاي ايجاد صحافي اجنبي يستطيع نشر قصته كما طلب ايجاد طبيب. بعد التدقيق قام ماو بدعوة سنو الذي جمع كل المميزات المطلوبة: كان اميركياً وكان يكتب مقالات في صحيفتي الساترداي افنينغ بوست *Saturday Evening Post* والنيويورك هيرالد تريبيون *New York Herald Tribune* بالاضافة الى كونه متعاطفاً مع الشيوعيين. وصل سنو الى المنطقة الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين في تموز برفقة طبيب اميركي من اصل لبناني يدعى جورج حاتم جلب في حقيبته الطبية وثائق بالغة السرّية من الكومنتيرن. مكث سنو مدة ثلاثة اشهر فيما بقي حاتم مع الشيوعيين الى نهاية حياته ليصبح واحداً من اطباء ماو وليعمل في جهاز الاستخبارات الخارجية في الحزب الشيوعي الصيني.

لم يترك ماو اي شيء للصدفة بل اعطى تعليمات مفصّلة حول كيفية التعاطي مع زيارة سنو: «الامن والسرّية والودّ والسجاد الاحمر». ونسّق المكتب السياسي للحزب الشيوعي بدقّة الاجوبة على الاسئلة التي كان على سنو تسليمها مسبقاً. قدّم ماو الى سنو مزيجاً من المعلومات القيّمة والتحريف الهائل اللذين استوعبهما سنو جملةً واصفاً ماو وقيادة الحزب الشيوعي الصيني بأنهما «مباشرين وصريحين وعاديين وغير مراوغين». واخفى ماو سنوات تميزت بالعذاب والقتل كعمليات التطهير التي طالت المعادين للبولشيفية واخترع معارك وبطولات مثل عبور نهر الدادو اثناء الرحلة الطويلة من جانب الى آخر في بلاد الصين والتي سُمّيت بدهاء الآن «المسيرة الطويلة». كما جعل سنو يعتقد بأنه باستثناء الايام التي عانى فيها من المرض فهو«قطع معظم المسافة التي شملها المسيرة الطويلة والبالغة ستة آلاف ميل سيراً على الاقدام، كما فعل الجنود العاديين. وطمس ماو بصورة كاملة الصلات التي تربطه بموسكو وادّعى انه يريد الصداقة مع اميركا فخدع الكثيرين بهذا الادعاء.

اتخذ ماو المزيد من الاحتياطات من خلال التدقيق في كل ما كتبه سنو لاحقاً فغيّر اجزاء واعاد كتابة اجزاء اخرى. في 26 تموز 1937 وقبل صدور النجم الاحمر كتب سنو الى زوجته هيلين التي كانت في ينان حينها قائلاً: «كفّي عن ارسال المذكرات التي تشير الى الاشخاص الذين ينكثون بوعودهم لي، عبر اخباري قصصاً تتعلّق بهم ... وكما حدث في العديد من الاشياء المحذوفة فهي تبدأ بعبارات مثل رحلة تشايلدي هارولد». وغفل سنو عن ذكر هذه الخلفية في النجم الاحمر وبدلاً من ذلك زعم ان ماو «لم يفرض عليّ اية رقابة». وقامت النسخة الصينية حتى على تمويه كلام سنو ودفعته الى القول بأنه وجد كلمات ماو «صادقة وحقيقية».

نُشر كتاب النجم الاحمر باللغة الانكليزية في شتاء 1937–1938 ولعب دوراً كبيراً في جعل الرأي العام الغربي يميل الى ماو. ونظّم الحزب الشيوعي الصيني نشره في اللغة الصينية

تحت عنوان «قصص عن رحلة الى الغرب». كي يبدو الكتاب غير منحاز. بالاضافة الى هذا الكتاب والسيرة الذاتية لماو تسي تونغ صدر كتاب ثالث من المعلومات المتوفرة لسنو تحت عنوان آخر يبدو حيادياً هو «انطباعات عن ماو تسي تونغ».

ترك النجم الاحمر والكتابان المؤلفان من المقتطفات المُحرّرة اثراً عميقاً على الشباب الراديكالي في الصين. وانضم الكثيرون كأحد الشيوعيين الاوائل من سكان التيبت الى الشيوعيين نتيجة لقراءتهم كتابات سنو، فكانت بداية النهضة بالنسبة الى الحزب الشيوعي الصيني. وقال ماو ان لنشره حسنة لا تقلّ عن السيطرة على الفيضانات على يد يو الكبير». كان يو الكبير الامبراطور الاسطوري الذي سيطر على الفيضانات مُطلقاً بذلك الحضارة الصينية.

لعب شاو المسؤول عن الاعلام لدى تشيانغ كاي شيك دوراً هاماً في مساعدة سنو وفي تعزيز صورة ماو والشيوعيين. في الوقت الذي قرّر فيه تشيانغ عزل شاو من منصبه بعد حوالى السنة كان ماو والشيوعيون قد لمّعوا صورتهم.

خلال العقد التالي عاش ماو في ينان، عاصمة المنطقة التي خصصها تشيانغ للشيوعيين. انتقل الى المدينة يوم رأس السنة لعام 1937 عبر بوابة ضخمة انفتحت بعظمة وصمت في وجه صفوف من جنود الجيش الاحمر الزاحفين على طول الطريق الترابية الممتدة داخل الارض الصفراء اللامحدودة. هذه المدينة القديمة التي يعني اسمها «توسيع نطاق السلام». كانت محاطة بحيطان سميكة وعالية تعلو سلسلة من الهضاب المكسوة بالرواسب الطفالية فوق المدينة مع شرفاتٍ مفرّجة تبرز جلال المحاربين. وفي هواء جاف ومنعش تحت سماء زرقاء عالية تشرف على المدينة باغودا من تسع طوابق مبنية منذ الف عام. وتحت الباغودا يوجد مجمّع للمعابد ويبدو العديد منها وكأنه يتشبّث بالمنحدرات الصخرية الشاهقة. وعلى مستوى ادنى ينضم الى نهر يان المليء بالغرين نهر تو فو الذي سُمّي على اسم شاعر كبير من القرن الثامن والذي شاع انه اتى الى هنا ليبدي اعجابه بالعمال الكادحين، ومن هنا شهرة المنطقة.

لم تكن ينان مركزاً ثقافياً فقط بل كانت ايضاً محوراً للنشاطات التجارية. أُكتشف البترول في المنطقة ووضع الشيوعيون يدهم على المساكن التي بنتها شركة ستاندرد اويل، واستولوا ايضاً على مبانٍ هامة يملكها الفرانسيسكان الاسبان بما فيها كاتدرائية مبنيّة حديثاً عُقد فيها لاحقاً العديدٌ من الاجتماعات الحزبية الهامة. ومما سهّل اكثر على حلّ مشكلة السكن فرار الكثيرين من سكان المنطقة وخاصة الميسورين نسبياً الذين تركوا وراءهم مئات المنازل الفارغة وبعضها واسع وجميل. احتلّ ماو احد هذه القصور الواقعة في مكان يدعى قرية فينيكس. وكانت ساحة الدار الكبيرة ضخمة حسب المعايير المحلية ولها حائط مزخرف مباشرة من

الناحية الداخلية مقابل البوابة الرئيسية لطرد الارواح الشريرة وللمحافظة على الخصوصية. وللمرة الاولى منذ ما يزيد على السنتين استقرّ ماو في جو من الرفاهية.

من وسائل الترف الخاصة بذلك المكان والزمان وجود التدفئة في الحيطان التي ركّبها ماو. ان الطريقة المألوفة لتدفئة منزل في شمال الصين هي في تسخين قاعدة القرميد المعروفة بالكانغ من الاسفل لكن ماو فضّل قاعدة خشبية خاصة به واختار هذا الشكل الفاخر جداً للتدفئة. ومن الامور الاخرى التي اشبع بواسطتها رغباته حيازته على عدة منازل. عندما انتقل لاحقاً الى منطقة تدعى يانغ هيل احتفظ بالمنزل في قرية فينيكس واحتفظ بالاثنين عندما استقر في مجمّع الكي جي بي الصيني الواقع في منطقة رائعة تدعى ديت غاردن. بالاضافة الى هذه المنازل المعلنة كانت له منازل سرّية مبنية في وديان منعزلة مثل المنزل الواقع وراء يانغ هيل ومنزل آخر يقع وراء ديت غاردن. ويعلم القليلون بوجود هذه المنازل، الآن وفي ذلك الوقت.

كان المنزل المعروف بالنسبة الى العامة ذلك الواقع في يانغ هيل وكان الاقل ضخامة والاقرب الى فلاّحي المنطقة. كانت عشر عائلات تعيش على واجهة وادٍ ضيّق شديد الانحدار مقابل هضبة مكسوة باشجار كثيفة من الدردار والسرو والحور ذات الخشب الاحمر. كانت المنازل من طراز ياو دونغ الهندسي وينفرد بها هذا الجزء من البلاد، وهي تبدو كالمغائر الجوفاء المحفورة في المنحدرات المغطاة بالرواسب الطفالية. كان لماو صفّ من الياو دونغ في ساحة الدار له بوابة صغيرة يعلوها سقف من حجر القرميد. كانت عائلة احد الفلاحين من جيرانه تقوم بغسل ملابسه، اما الطبّاخ الخاص بماو فقد اصطحبه معه لاسباب امنية ولاسباب تتعلّق بالطبخ. ورفض ماو مشاركة الفلاحين في المحدلة الحجرية المستعملة لطحن حبوبه واخبرنا سكان المحلّة قائلين: «كان الرئيس ماو ينظر الى الاشياء من زاوية السلامة». كان محاطاً بالاجراءات الامنية المشددة، بعضها ظاهر والبعض الآخر مستتر.

بالنسبة الى ماو وفّرت له ينان اول مرحلة من الاستقرار النسبي ومن السلام دامت حوالى عقد من الزمن. وبدأ ماو بمطاردة النساء علناً تقريباً مع توفّر السلام والحياة الهانئة الى حدّ ما، بالاضافة الى التوفّر المفاجىء في النساء الشابات المتعلّمات والفاتنات اللواتي بدأن بالقدوم تباعاً الى ينان سعياً وراء الاغراء في ظل بروز صورة جديدة وملطّفة للشيوعيين. وافضى الى احد الزملاء المنهمكين في مغازلة النساء بأنه قادر على العيش دون جنس «مدة اربعين يوماً كحدٍّ اقصى».

من اولى النساء على الساحة كانت الممثلة الجميلة المتزوجة ليلي وو والتي وصلت في اوائل سنة 1937 لتصبح الممثلة النجمة في ينان. ادارت اناقتها، وسلوكها، الرؤوس في تلك المنطقة

النائية من البلاد وكان تحديداً شعرها المناسب حتى الاكتاف رمزاً للجاذبية الجنسية. اما النساء الشيوعيات فكنّ يرتدين في الاغلب البذلات النظامية الضخمة كما كنّ يحلقن شعرهن للتخلص من القمل. ودخل ماو في علاقة مع هذه المرأة.

اقامت ليلي علاقة صداقة مع كاتب اميركي زائر يدعى اغنس سميدلي وكان مناصراً لقضايا المرأة الى جانب كونه راديكالياً وصريحاً. سبق لسميدلي ان عمل لصالح الكومنتيرن لكنه كان متقلّب المزاج وارسلت موسكو تعليمات «لعزله». ومع ذلك ورغم انها اكتشفت لدى ماو «ميزة مشؤومة». كونه «رقيق». و«شكله مثير للاشمئزاز». فقد سعى ماو لمصادقتها واعطاها مقابلة طويلة لانها كانت اميركية.ارسل ماو نسخة عن المقابلة الى سنو وطلب منه تامين «التغطية الاعلامية»، الواسعة لها.

بينما كانت نظرات ليلي وو الجذابة تثير الرغبة الجنسية لدى ماو فان سميدلي صاحب الشكل الاقل جاذبية تسبب بإعصار من خلال تنظيمه رقصة تربيعية مصحوبة بتسجيلات الفونوغراف. وأُغرقت الرقصات الناس في اتونها. في البداية لاحظ سميدلي ان «الكبرياء منعه [ماو] من محاولة الرقص. لم يكن يوجد ايقاع في داخله». اكتفى «[بالمشي] على حلبة الرقص». كما افادت النساء اللواتي رقصن معه. ولكنه ادرك فوراً فوائد الرقص بصفته نوع من الرياضة وبصفته ايضاً وسيلة للتحرّش بالنساء. وجرى تنظيم حلقات رقص اسبوعية، بعضها في الهواء الطلق والبعض الآخر في كنيسة سابقة، وساد الحماس للرقص في ينان.

في البداية رفضت غوي يوان زوجة ماو الحضور وتضامن معها نساء اخريات شاركن في المسيرة الطويلة. حسب سنو «بدا عناق الاجساد المشاركة منافٍ للحشمة بالنسبة الى الحرس القديم». ويبدو ان الحسد لعب دوراً كبيراً ولو كان غير معلن. وكان الولع السرّي بهذه المتعة مكبوتاً اذ اصبحت غوي يوان تحب الرقص لاحقاً واجادت فيه.

وجدت غوي يوان مطاردة ماو للنساء غير محتملة، وفي احدى ليالي حزيران سمع سميدلي غوي يوان وهي تصرخ: «انت ابن خنزير وبيضة سلحفاة ومعاشر للبغايا. انت شخص سيّء! كيف تجرؤ على التسلل الى هنا من اجل معاشرة هذا العاهرة البورجوازية الصغيرة!». وذهب سميدلي باتجاه الباب المجاور ليجد غوي يوان تحاول ضرب ماو فجأة بواسطة مصباح بينما حارسه ينظر بارتياب. ولم يكسر الجليد تأكيد ماو بأنه كان فقط يتحدث مع ليلي. وفجأة هاجمت غوي يوان ليلي فخدشت وجهها وشدّت شعرها بينما كان ماو يتفرّج.

من ثم عمدت غوي يوان الى مهاجمة سميدلي وصرخت في وجهه: «ايها الامبريالي العاهر! انت المسبب لكل هذا، اخرج من هنا!». وضربت سميدلي الذي ردّ عليها بالضرب. سقطت غوي يوان على ركبتيها وهي تتّهم ماو بسؤالها: «أي نوع من الرجال انت وأي نوع من الازواج

واي نوع من الشيوعيين انت؟ انك تَدَع امبريالياً عاهراً يضربني أمام عينيك!». عندما طلب ماو من حارسه أن يرفعها عن الارض أزلّت قدم الحارس وأوقعته ارضاً وفي النهاية لزم الأمر ثلاثة من الحراس لنقلها بالقوة فيما يرافقها صمت ماو اثناء جرّها بعيداً.

أُبلغ سميدلي بحزم بوجوب الرحيل فوراً، اما ليلي فلم تُطرد فقط من ينان بل أُزيل اسمها من الوثائق الشيوعية الصينية، واختفت عن الخريطة الى الابد.

قام ماو باعمال عبثية اخرى بما فيها المغامرة مع الكاتبة دينغ لينغ. رغم شكلها الصبياني وبدانتها وعدم تمتعها بالجمال اللافت كان لديها الموهبة والطبع المميز. ارسل اليها ماو قصيدة فيها الكثير من الاطراء وجاء فيها: «إلامَ اقارن قلمك النحيل؟ ثلاثة آلاف بندقية من طراز ماوزر وافضل الرجال». وتذكر بعد سنوات كيف انها غالباً ما كانت تزور ماو. في احد الايام قارن ينان بقصر امبراطوري صغير بنبرة تشبه المزاح وبدأ يدوّن اسماء زملائه تحت عناوين امبراطورية متعددة كانت تعطيه اياها وهو يصيح. قال لي فجأة: «بعد ان انتهينا من هذا، دينغ لينغ، علينا فرز مئة اسم عائد الى رجال الحاشية المدنيين والعسكريين. الآن ونحن نشكّل بلاطاً ملكياً، مهما كان صغيراً، يجب ان يكون لدينا خليلات في ثلاثة قصور وستة ساحات للدار! هيا اعطيني بعض الاسماء وسوف امنحها الالقاب».

بالنسبة الى غوي يوان كانت مطاردة النساء التي يقوم بها ماو بشكل فاضح القشة المطفحة للكأس. خلال زواجهما الذي مضى عليه ما يقارب العشر سنوات كان عليها العيش مع زوج متحجّر القلب. وشعرت بالاساءة تحديداً عندما اظهر قساوة قلب حيال الألم الذي اصابها اثناء الحمل والوضع بما فيها الحالة التي مرّت بها أثناء المسيرة الطويلة كما شعرت بالإساءة حيال النكتة التي اطلقها بقوله انها تلد الاطفال «بالسهولة نفسها التي تبيض فيها الدجاجة البيض». واحسّت ايضاً بالمرارة عندما جعلها تحمل تكراراً رغم عدم اهتمامه بالاطفال وعدم اكتراثه ازاء وفاة اربعة منهم او التخلّي عن احدهم. وُلد طفلهم الخامس وهو فتاة سُميت تشياو تشياو سنة 1936 في باوان حيث كانت ظروف الحياة مرعبة بحيث تنتشر العقارب والجرذان في كل مكان. بعد سنة حملت غوي يوان مجدداً مما اغرقها في الكآبة. اساء الحمل المتكرر في ظروف قاسية الى صحتها كثيراً دون ان تجد تعويضاً في حياة عائلية هانئة. اما الآن وفوق كل ذلك كان زوجها يعاشر نساء أخريات علناً.

بعد ان استقر الشيوعيون في ينان تمكن بعض الذين اصيبوا في الحرب من اصحاب المناصب العليا من الذهاب الى روسيا سعياً للعلاج الطبي. غادرت غوي يوان الصين باتجاه روسيا في اوائل تشرين الاول 1937 زاعمةً انها تريد التخلص من الشظية المؤلمة التي كانت لا تزال مستقرة في جسدها، وبقيت ابنتها البالغة عاماً واحداً في ينان.

وصلت غوي يوان الى موسكو في عزّ فصل الشتاء وتلقّت تنبيهاً هي وسواها من الصينيين الواصلين حديثاً من قبل صينيين آخرين موجودين هناك بعدم الاتصال باي شخص يعرفونه من قبل. وكانت عملية تطهير كبيرة تجتاح روسيا السوفياتية وكان العديد من الصينيين يتعرضون للتوقيف. في هذا الجو المطبوع بالجليد والعزلة ولدت صبياً اعطته اسماً روسياً هو ليوفا لكنه توفي لاصابته بالتهاب في الرئتين بعد ستة اشهر فقط وغرقت غوي يوان في حزن لا عزاء فيه. جلست لايام على مقعد مقابل للهضبة الصغيرة حيث دُفن في حديقة خلفية وهي تهمس اسمه باكيةً.

لم يُبدِ زوجها اي عاطفة حيال مأساتها. عندما ولد الصبي كتبت رسالة الى ماو لتقول له ان الصبي يشبهه تماماً لكن ماو لم يردّ على هذه الرسالة كما لم يعلّق على وفاة ابنه. من ثم في صيف 1939 اي بعد مرور حوالى السنتين على افتراقهما علمت غوي يوان بالصدفة ان ماو تزوج مرة اخرى. كانت هي ومجموعة من المتكلمين باللغة الصينية من غير الروس يجتمعون دورياً للاستماع الى اخبار من الصحافة الروسية تُقرأ عليهم باللغة الصينية. في هذه المناسبة كان المترجم يقرأ مقالاً كتبه منتج افلام روسي مشهور يدعى رومان كارمن حول لقاء مع ماو. وذكر كارمن ان ماو و«زوجته» ودّعاه خارج كهفهما على ضوء القمر. ان عبارة «زوجة ماو» التي ذُكرت عرضاً خلقت اضطراباً في معدة غوي يوان وهي كانت تعاني من الارق الشديد. اما الآن فقد وصلت الى حافة الانهيار العصبي وساءت حالتها اكثر عندما تلقّت رسالة مقتضبة من ماو وفيها كلام جاف مفاده انه يأمل انها تدرس جيداً وتحرز تقدماً في السياسة. وفي جملة بالغة الدقة والاناقة اعلن ماو عن حلّ زواجهما بقوله: من الآن وصاعداً نحن فقط رفاق.

لم يشأ ماو عودة غوي يوان الى الصين اذ انه تزوج مرة ثانية. لدى عودة اصدقاء لها الى الصين سنة 1939 كانت سافرت معهم الى روسيا، ارسل معهم برقية يأمرها فيها البقاء حيث هي. نتيجة لذلك امضت الطفلة التي تركتها في ينان اعوامها الاولى كولد يتيم فعلياً. كان على تشيا تشياو العيش كتلميذة داخلية في بيت للحضانة يرتاده اولاد النخبة. وحين كان الاطفال الآخرون يذهبون مع اهلهم الى المنزل في آخر النهار لم يكن احد يأتي لاصطحابها. وتذكر في فترة لاحقة من حياتها انه كان هناك ايضاً صبي يبقى في الحضانة بعد ذهاب بقية الاطفال. وكان دائماً يبكي ويصرخ: «اريد ابي! اريد امي! اريد ان اذهب الى المنزل!». لم يكن لدى تشياو اية فكرة عمّا تعنيه تلك الكلمات. وعندما اصبحت شابة اخبرت صديقة لها بهدوء لا يخلو من الانفعال: «في تلك الايام كنت «اليتيمة» التي لم تكن يتيمة تماماً».

عندما كانت في الرابعة أُخذت تشياو تشياو الى روسيا لتنضم الى والدتها. عندما اجتمع

شملهما عانقت غوي يوان ابنتها لوقت طويل وبقوة والدموع تنهمر من عينيها مما ادخل الفرح الكبير الى قلب تشياو تشياو. وكانت ايضاً مفتونة بشعر والدتها المجعّد وتنانيرها واحذيتها الجلدية مع الكعب، وكل ذلك مختلف جداً عمّا ترتديه النساء في ينان. فهؤلاء يرتدين السراويل الفضفاضة والاحذية القطنية غير الانيقة وكان على القادمين الى ينان من المدن الواقعة تحت سيطرة القوميين اعتماد هذا اللباس. الاّ ان غوي يوان كانت مسحوقة تحت وطأة المرض الناتج عن الحمل المتكرر والاصابات التي عانت منها اثناء المسيرة الطويلة والذكريات المريرة عن اولادها المتوفين والذين تخلّت عنهم بالاضافة الى سنوات الوحدة القاتلة. ومن المحتمل ان يكون الرعب الذي عاشته خلال الثورة بقي ملازماً لها. انهارت اعصابها بسرعة وتحمّلت ابنتها وطأة غيظها فكان الاولاد الآخرون غالباً يسمعون تشياو تشياو تصرخ بسبب ضرب والدتها لها. ووُضعت غوي يوان في مصحّ عقلي و راحت تولول اثناء انتزاعها من غرفتها والقائها في سيارة. هربت ابنتها البالغة السابعة من العمر لتختبىء في الغابة وكبرت كفتاة صامتة منطوية على ذاتها.

في صيف 1937 وقبل ان تغادر غوي يوان الى روسيا كان وقع نظر ماو على ممثلة شابة تدعى جيانغ كينغ اصبحت فيما بعد زوجته الرابعة تميزت جيانغ كينغ بمظهر خاص وانيق حتى وهي ترتدي الزي الشيوعي، فزنّارها مشدود حول خصرها النحيل باحكام فيما قبعتها العسكرية المائلة تبرز شعرها الاسود اللماع والمتموّج. كانت تنضح بالانوثة والاثارة، ولها وقفة ليّنة ومطواعة وصوت عذب يبدو للبعض غير طبيعي.

كانت جيانغ كينغ المولودة سنة 1914 ابنة لخليلة مالك حانة لبيع الخمر. تركتها والدتها تكبر كفتاة عنيدة وسمحت لها حتى بفك الرباط عن قدميها بعد الكسور التي اصابت العظام عندما كانت في السادسة. كانت جيانغ كينغ صلبة العود، فاثناء المشاجرات المتكررة بين اهلها دأبت على مساندة والدتها عبر التمسك برجلي ابيها وعضّ ذراعيه. في احدى هذه المشاجرات خسرت جزءاً من احد اسنانها الامامية. ويذكرها زملاؤها التلامذة كحامية للعاهرة وطُردت من المدرسة وهي في الثانية عشرة من عمرها بعد ان بصقت على احد الاساتذة. هربت من المنزل عندما كانت في الرابعة عشرة للانضمام الى فرقة اوبرا جوّالة لتتوقف في شانغهاي حيث صنعت اسمها كممثلة. لكن التمثيل كان مهنة محفوفة بالمخاطر وفي صيف 1937 قدمت الى ينان التي اغرت اناقتَها الراديكالية بعد ان اصبحت عاطلة عن العمل وغير قادرة على تحمّل ابن عشيقها البالغ سبع سنوات.

عرفت كيف تجذب الانظار اليها فكانت تجلس في الصف الامامي اثناء المحاضرات التي

يلقيها ماو لتطرح اسئلة وهي مشدوهة. في احد الايام حضر ماو الى مسرح للاوبرا في بكين حيث لعبت دور البطولة، وكان يحب هذا النوع من الفنون. بعد ذلك ذهب الى الكواليس ووضع معطفه على اكتافها. في اليوم التالي ذهبت الى منزل ماو لاعادة المعطف وأمضت الليل هناك.

بدأ الاثنان بالظهور سوية علناً وتسبب الامر بفضيحة اذ انها كانت امرأة ذات ماض. سبق لها ان تزوجت او عاشت مع اربعة رجال وتركت اثراً في صحافة شانغهاي المهتمة بالثرثرة. كما وفرت علاقتها العاصفة مع احد ازواجها مادة دسمة للصحف الفضائحية، خاصة بعد محاولتها الانتحار من خلال تجرّعها قنينة من الكحول المستعملة في تطهير الجراح تحتوي على رؤوس أعواد الكبريت المطحون.

واذا وجدت شانغهاي المدينة المنفتحة صعوبة في تحمّلها فإن ينان المتزمّتة رفضتها. وفوق كل هذا كان هناك الكثير من التعاطف مع المرأة التي حلّت محلها. وتذكر احدى رفيقات غوي يوان في المسيرة الطويلة: «شعر جميع التلامذة في مدرستي بالاضطراب. البعض كتب الرسائل الى ماو علناً فيما البعض الآخر ارسلها سرّاً ... انا ارسلت ثلاثة رسائل. وورد فيها تقريباً ما يلي: حضرة الرئيس ماو، نحن نأمل الاّ تتزوج جيانغ كينغ. ان حالة [غوي يوان] الصحية مقلقة للغاية ولديكما لغاية الآن خمسة او ستة اولاد ... وسمعة جيانغ كينغ سيئة للغاية».

بالنسبة الى الحزب كان هناك همّ اكبر. لقد سُجنت جيانغ كينغ مرة على يد القوميين بصفتها من الشيوعيين المشبوهين، وخرجت من السجن عبر التوقيع على وثيقة تتخلى بموجبها عن عقيدتها الشيوعية، وهو عمل يعتبره الحزب «خيانة». بالاضافة الى ذلك كانت هناك ادعاءات بأنها تكرّم سجّانيها فتكون رفيقتهم في العشاء وحتى في السرير. ارسلت المنظمات السرّية في شانغهاي وفي مناطق اخرى برقيات الى ينان للاحتجاج رسمياً على كونها «غير مناسبة للزواج بالرئيس ماو». ووجّه الرئيس الصوري للحزب لو فو رسالة الى ماو تحمل اعتراضاته هو والعديدين في الحزب. عندما تلقى ماو الرسالة مزقها على الفور وبشّر الرسول بقوله: «اني سأتزوج غداً. على الجميع ان يهتموا بامورهم!». في اليوم التالي اقام مأدبة «زفاف». دعا اليها اربعاً وعشرين من النخبة في ينان ولم يوجه الدعوة الى لو فو.

طلب ماو من رئيس جهاز الامن لديه كانغ شينغ ان يكفل حسن سلوك جيانغ كينغ. بينما كان كينغ يعمل في روسيا رافق ولدي ماو الى موسكو كما رافق ابن تشيانغ كاي شيك اثناء خروجه من روسيا. قدم الى ينان في تشرين الثاني 1937 وتعلّق بماو بسرعة فعيّنه رئيساً للكي جي بي. في هذا العالم ذات الارض الصفراء برز كانغ كالعادة مرتدياً الملابس السوداء فقط،

من رأسه الذي تعلوه قبعة سوداء الى اخمص قدميه اذ ينتعل جزمة جلدية غير مألوفة لركوب الخيل. كان حصانه اسود اللون وغالباً ما كان الناس يشاهدونه يداعب كلباً اسود هو الحيوان الوحيد الذي يقتنيه. رغم وجود اثبات لدى كانغ بأن سلوك جيانغ في السجن مثير للريبة فقد زوّد ماو بحكم رسمي يبرّئها عبر القول بأن «ماضيها لا يعتبر مشكلة من الناحية السياسية». في الواقع كان ماو يعلم بأن التهم صحيحة كما اقرّ بذلك قبيل وفاته لكنه لم يهتم للامر اذ كان يريدها.

اصبحت السيدة ماو التي تشغل الرقم اربعة السيدة ماو السيئة السمعة.

19- عميل سرّي شيوعي يشعل الحرب بين الصين واليابان (1937-1938؛ العمر 43-44 سنة)

في 7 تموز 1937 اندلع القتال بين الجيشين الصيني والياباني في مكان يقع خارج بكين مباشرة ويدعى جسر ماركو بولو. وفي نهاية الشهر كان اليابانيون قد احتلوا المدينتين الرئيسيتين في شمال الصين وهما بكين وتيانجين. لكن ماو لم يعلن الحرب اذ لم يكن يريد حرباً شاملة، الى حينه على كل حال، كما لم يكن اليابانيون بدورهم يريدونها.

عندها لم يهدف اليابانيون الى توسيع القتال ليتعدّى شمال الصين. لكن خلال اسابيع اندلعت حرب شاملة على بعد الف كيلومتر الى الجنوب وتحديداً في شانغهاي حيث لا تشيانغ ولا اليابان رغبا في حصول الحرب هناك او خطّطا لها. كان لليابان فقط ثلاثة آلاف عنصر من البحرية متمركزين بالقرب من شانغهاي وفقاً لاتفاق الهدنة الموقع سنة 1932. وبقي مخطط طوكيو قائماً على الآتي حتى منتصف آب: «ارسال الجيش الى شمال الصين فقط». ويضيف المخطط: «لا حاجة لارسال الجيش الى شانغهاي».

وفي ما بعد كتب مراسل النيويورك تايمز هـ. ابند الذي يملك الكثير من المعلومات:

> «كان مألوفاً ... الاعلان ان اليابانيين شنّوا هجوماً على شانغهاي. لم يكن الامر بعيداً عن نواياهم او عن الحقيقة. لم يكن اليابانيون يريدون حصول حرب في وادي يانغتزي كما لم يتوقعوها. كانت لديهم قوة صغيرة الحجم هناك حتى في موعد متأخر كالثالث عشر من آب ... لدرجة انهم تراجعوا الى النهر في الثامن عشر والتاسع عشر من الشهر نفسه».

ادرك ابند انه كانت هناك «خطط مرسومة بذكاء لافساد المخطط الياباني الهادف الى حصر الحرب فقط في شمال الصين». كان محقاً بشأن وجود «خطط مرسومة بذكاء». لكنه اخطأ فقط في مسألة واحدة هي انه ليس تشيانغ من وضع الخطط، بل من شبه المؤكد ان ستالين هو الذي قام بالعمل.

شكّل احتلال اليابان السريع لشمال الصين في تموز خطراً مباشراً على ستالين. واصبح الجيش الضخم التابع لليابان في موقع يتيح له الاتجاه شمالاً والهجوم على روسيا في اي مكان على حدود تمتد على آلاف الكيلومترات. في السنة السابقة كان ستالين اعتبر علناً ان اليابان هي مصدر تهديد رئيسي. يبدو انه الآن فعّل نشاط عميل شيوعي يعمل لديه منذ زمن في

قلب الجيش القومي ففجّر حرباً شاملة في شانغهاي مما ادّى حكماً الى دفع اليابانيين الى داخل الاراضي الصينية بعيداً عن روسيا.

النائم الذي افاق الآن من نومه هو الجنرال زانغ زي زونغ، قائد الموقع العسكري في شانغهاي-نانجينغ. سنة 1925 كان استاذاً في وامبوا، الاكاديمية العسكرية الواقعة بالقرب من كانتون والعاملة بتمويل روسي وموظفوها ايضاً من الروس. منذ تأسيسها بذلت موسكو جهوداً كبيرة لتعيين عملاء من المستوى الرفيع في الجيش القومي. ويقرّ زانغ زي زونغ في مذكراته انه: «في صيف 1925 كنت متعاطفاً بالكامل مع الحزب الشيوعي و ... كنت أدعى «الاستاذ الاحمر». و«قائد الفوج الاحمر». ... كنت اودّ الانضمام الى الحزب اشيوعي الصيني واعلمت السيد تشو إن لاي بذلك». طلب منه تشو ان يبقى مع القوميين وان يتعامل «خفيةً» مع الحزب الشيوعي الصيني. في منتصف الثلاثينات كان زانغ زي زونغ على اتصال وثيق بالسفارة السوفياتية.

اثناء اندلاع الاشتباكات على جسر ماركو بولو تولى زانغ زي زونغ مهمة رئيس حامية شانغهاي- نانجينغ البالغ الاهمية. حاول اقناع تشيانغ باطلاق «الضربة الاولى» ضد اليابان، ليس في شمال الصين حيث يدور القتال، بل على بعد الف كيلومتر الى الجنوب في شانغهاي حيث الحامية اليابانية الصغيرة لم تكن مشاركة في اي عمل عسكري في تلك المرحلة. لم يُجِب تشيانغ على هذا الاقتراح رغم ان زانغ زي زونغ كرره عدة مرات. كانت شانغهاي تشكل القلب في النشاطات الصناعية والمالية في الصين الى جانب كونها مدينة ذات طابع عالمي، ولم يشأ تشيانغ ان يراها تتحول الى ساحة للقتال. بالاضافة الى ذلك كانت قريبة جداً الى عاصمته نانجينغ وهو حتى نقل جنوداً ومدفعية بعيداً عن منطقة شانغهاي كي لا يعطي اليابان اية ذريعة للحرب هناك.

في نهاية تموز ومباشرة بعد احتلال اليابان لبكين وتيانجين ابرق زانغ زي زونغ الى تشيانغ مجدداً محاولاً بقوة اقناعه «لأخذ المبادرة» في البدء بالحرب. بعد ان قال زانغ زي زونغ انه سيقدم على هذه الخطوة فقط اذا صدر عن اليابانيين مؤشرات لا لبس فيها على نيتهم بالهجوم على شانغهاي، اعطى تشيانغ موافقته المشروطة مشدداً على الامر التالي: «يجب ان تنتظر الاوامر المتعلقة بتوقيت حدوث ذلك».

لكن في 9 آب رتّب زانغ زي زونغ حادثة خارج مطار شانغهاي حيث قامت وحدة من الجيش الصيني ركّزها هو بنفسه خصيصاً هناك باطلاق النار على ملازم وجندي في البحرية اليابانية فاردتهما. من ثم أُلبس سجين صيني محكوم عليه بالاعدام بدلة عسكرية صينية وقُتل على بوابة المطار كي يبدو الامر وكأن اليابانيين هم الذين اطلقوا النار اولاً.

اعطى اليابانيون كل الدلائل التي تشير الى انهم يرغبون في نزع فتيل الحادثة لكن زانغ زي زونغ امطر تشيانغ بوابل من الطلبات الرامية الى شنّ هجوم، الامر الذي عارضه تشيانغ. في صباح الثالث عشر طلب القائد العام زانغ زي زونغ عدم شنّ حرب «بناءً على نزوة». بل «القيام بدراسة ومناقشة». جميع جوانبها مجدداً ومن ثم تقديم خطته. في اليوم التالي الحّ زانغ زي زونغ بقوله: «هذا الجيش مصمم على بدء الهجوم على العدو في الخامسة من بعد ظهر اليوم وهذه هي الخطة ...». في الرابع عشر قصفت الطائرات الصينية البارجة اليابانية ايزومو كما قصفت جنوداً وطائرات تابعة للبحرية رابضة على الارض، وامر زانغ زي زونغ بشنّ هجوم شامل. لكن تشيانغ اوقفه قائلاً: «يجب عدم شنّ الهجوم هذا المساء. انتظر الامر».

عندما لم يصدر الامر التفّ زانغ زي زونغ على تشيانغ عبر اصدار نشرة صحفية في اليوم التالي يدّعي فيها زوراً ان السفن الحربية اليابانية قصفت شانغهاي وبأن الجنود اليابانيين بدأوا بالهجوم على الصينيين. ومع تصاعد المشاعر المعادية لليابان وجد تشيانغ نفسه في مأزق. في اليوم التالي اي في السادس عشر اعطى الامر في النهاية: «هجوم شامل فجر الغد».

لكن بعد يوم واحد على اندلاع القتال امر تشيانغ بالتوقف وكان ذلك في الثامن عشر. وبكل بساطة تجاهل زانغ زي زونغ الامر ووسّع هجومه فاصبحت الحرب الشاملة امراً حتمياً اذ ان التعزيزات اليابانية الهامة بدأت بالوصول في 22 آب.

وتسبب اليابانيون باصابات هائلة، ففي شانغهاي أُجبرت على التراجع ثلاثة وسبعون فرقة من اصل مئة وثمانين مؤلفة من اربعمئة الف رجل من ضمنهم الثلث الافضل وتعرّض جميعهم تقريباً للابادة. واستهلك الصراع هنا فعلياً السفن الحربية الرئيسية اضافة الى كل القوة الجوية الصينية الحديثة العهد التي كان عزيزة على قلب تشيانغ لدرجة انه لم يرسل طائرة واحدة الى الجبهة الشمالية. اضعف الصراع بصورة ملحوظة القوة العسكرية التي كان تشيانغ يبنيها بعناية كبيرة منذ بداية الثلاثينات. وتكبّد اليابانيون خسائر اقل بكثير رغم وجود اصابات خطيرة طالت حوالى الاربعين الفاً.

ما إن وجد تشيانغ نفسه مجبراً على المشاركة في حرب شاملة تحرّك ستالين بسرعة لدعم امكانات تشيانغ على تكبّد اوزار الحرب. وقّع هذا الاخير على معاهدة عدم اعتداء مع نانجينغ في 21 آب وبدأ بامداد تشيانغ بالسلاح. لم تكن الصين قادرة على صنع اية اسلحة باستثناء البنادق. وقام ستالين بتسليف تشيانغ 250 مليون دولار اميركي لشراء الاسلحة من روسيا وتتضمن الف طائرة اضافة الى دبابات ومدفعية وتعهّد بتقديم المساعدة من

خلال ارسال فرقة ضخمة من القوة الجوية السوفياتية(*). وارسلت موسكو حوالى الثلاثمئة مستشار عسكري كان على رأسهم لفترة معينة الجنرال فاسيلي تشويكوف الذي يتكلم الصينية والذي اكتسب شهرة في ستالنغراد لاحقاً. في السنوات الاربعة التالية لم تكن روسيا فقط المزوّد الاساسي بالاسلحة الى الصين بل كانت عملياً المصدر الوحيد للاسلحة الثقيلة كالمدفعية والطائرات.

كانت موسكو مبتهجة ازاء الاتجاه الذي اخذته الاحداث كما اقرّ وزير الخارجية السوفياتية ماكسيم ليتفينوف امام نائب رئيس الحكومة الفرنسي ليون بلوم. حسب بلوم اخبره ليتفينوف بأنه «هو [ليتفينوف] والاتحاد السوفياتي كانا مسرورين جداً لقيام اليابان بمهاجمة الصين [مضيفاً] ان الاتحاد السوفياتي يأمل ان تستمر الحرب بين الصين واليابان الى امد طويل ...».

ربما كانت هذه الحرب من اهم الضروب الموفقة وغير المتوقعة بالنسبة الى ستالين، فبواسطة مسألة نائمة لفترة وحصدت النجاح فجأة، تفادى الخطر الياباني على روسيا السوفياتية(*). وعلى الفور استُدعي الروسيان اللذان تعاملا مع زانغ زي زونغ وأُعدما، وهما الملحق العسكري لوبان والسفير بوغومولوف.

أُجبر زانغ زي زونغ على الاستقالة بسرعة في ايلول من قبل تشيانغ الغاضب والمحبط والمشكك من دون ريب. لكن القائد العام لم يُفشِ سرّه، وبقي كل من زانغ زي زونغ والعميل الكبير الآخر شاو لي تزو مع الشيوعيين عندما فرّ القوميون الى تايوان سنة 1949.

اتى اندلاع الحرب الشاملة بين اليابان والصين بمنافع سريعة الى ماو. واخيراً وافق تشيانغ كاي شيك على مطلب اساسي للشيوعيين كان لحينه يرفض اخذه بعين الاعتبار ويقضي بمحافظة الجيش الاحمر على استقلاله. وهكذا ظلّ ماو مسيطراً على جيشه رغم انه من المفترض ان يكون جزءاً من القوات المسلحة التابعة للحكومة المركزية. ومع ان تشيانغ هو القائد الاعلى للجيش الصيني لم يكن باستطاعته اصدار الاوامر للجيش الاحمر انما عليه صياغة اوامره على شكل «مطالب». بالاضافة الى ذلك اكتسب الحزب الشيوعي الآن الصفة الشرعية فعلياً. وأُطلق سراح المساجين الشيوعيين وسُمح للحزب الشيوعي الصيني بفتح مكاتب له في مدنٍ رئيسية كما سُمح له بنشر الصحف الخاصة به في المناطق الخاضعة لسيطرة القوميين.

(*) من كانون الأول 1037 وحتى نهاية عام 1939 نفذ أكثر من 2000 طيار روسي مهمات قتالية مسقطين حوالى 1000 طائرة يابانية وحتى قصف تايوان المحتلة من اليابانيين.

(*) يمكن اعتبار زانغ زي زونغ، استناداً إلى ادلة وبراهين، أهم عميل في كل الأزمنة. معظم العملاء الآخرين كانوا يكتفون بتمرير المعلومات. زانغ زي زونغ بدّل ربما مجرى التاريخ بعمل افرادي.

لكن كان ذلك مجرد البداية في الارباح التي جناها ماو من الحرب الصينية-اليابانية التي دامت ثماني سنوات وقضت على عشرين مليون صيني. وفي النهاية ادّت الى اضعاف دولة تشيانغ بصورة بالغة ومكّنت ماو من ان يبرز وفي حوزته جيش ضخم مؤلف من مليون وثلاثمئة الف رجل. في بداية الحرب كان الجيش الذي يقوده تشيانغ يشكّل ستين ضعفاً الجيش التابع لماو وفي نهاية الحرب اصبحت النسبة ثلاثة اضعاف.

بعد ان برع ستالين في تفجير حرب شاملة بين الصين واليابان امر الجيش الاحمر الصيني بالمشاركة الفعلية طالباً الى الحزب الشيوعي الصيني بكلام واضح عن وجوب التعاون الى حد بعيد مع القوميين وعدم القيام باي عمل يعطي تشيانغ ادنى ذريعة كي يمتنع عن محاربة اليابان.

في هذا الوقت كان الجيش الاحمر الصيني يضم حوالى الستين الف جندي نظامي. من بين هؤلاء كان ستة واربعون الفاً في شمال غرب المنطقة التي يسيطر عليها الشيوعيون وعاصمتها ينان. وأُعيدت تسمية هؤلاء بـ«جيش الطريق الثامن». وعلى رأسهم ذو دو ونائبه بينغ دو-هواي. كان عشرة آلاف متواجدين في وادي يانغتزي الشرقي في قلب الاراضي الصينية، وهؤلاء من المشاركين في حرب العصابات الذين بقوا في المنطقة اثر المسيرة الطويلة واصبحوا اليوم يشكلون «الجيش الرابع الجديد». اصبح زيانغ ينغ رئيساً للمتخلّفين الذين بقوا اثر المسيرة الطويلة قائداً للجيش الرابع الجديد وهوالخصم القديم لماو الذي عارض بقوة اصطحابه في المسيرة الطويلة.

في اواخر آب بدأت الفرق الثلاثة التي تكوّن جيش الطريق الثامن باجتياز النهر الاصفر باتجاه الجبهة التي تقع على بعد بضعة مئات من الكيلومترات الى الشرق في مقاطعة شانكسي. وكان كل من قادة الجيش الاحمر والجنود التابعون له متحمسين لقتال اليابانيين وكذلك معظم قادة الحزب الشيوعي الصيني.

الاّ ان ماو لم يكن متحمساً اذ انه لم يعتبر الحرب الصينية- اليابانية صراعاً سوف يجتمع فيه كل الصينيين لمحاربة اليابانيين، كما لم يعتبر نفسه ابداً في الجهة نفسها التي يوجد فيها تشيانغ. بعد سنوات قال للمحيطين به انه كان يرى ان الحرب ذات جوانب ثلاثة. قال: «تشيانغ واليابان ونحن نشكل ثلاثة ممالك». اثناء استحضاره للحقبة المعروفة في تاريخ الصين بالممالك الثلاثة المتصارعة. كانت الحرب بالنسبة اليه فرصة لتدمير تشيانغ على يد اليابانيين. في سنوات لاحقة شكر اليابانيين اكثر من مرة «لتقديم المساعدة الكبيرة». وعندما اعتذر منه بعض الزوار اليابانيين بعد الحرب لاجتياحهم الصين قال لهم: «اني افضل ان اقدّم شكري الى امراء الحرب

اليابانيين». ولولا احتلالهم القسم الاكبر من الصين «لكنّا ما نزال في الجبال اليوم». وكان يعني كل كلمة يقولها.

لم يملك ماو استراتيجية خاصة لاخراج اليابانيين من الصين دون مساهمة تشيانغ. كما لم يكن باستطاعته التأمل بامكانية تعامل الحزب الشيوعي الصيني مع الجيش الياباني المحتل ما إن يُهزم تشيانغ. كانت كل آماله معلقة على ستالين، واوضح ماو حساباته في مقابلة مع ادغار سنو سنة 1936 بقوله ان روسيا السوفياتية:

«لا تستطيع تجاهل الاحداث الدائرة في الشرق الاقصى. لا تستطيع البقاء متفرجاً. هل ستنظر بعين الرضى الى اليابان وهي تجتاح كل الاراضي الصينية وتجعلها قاعدة استراتيجية تنطلق منها لمهاجمة الاتحاد السوفياتي؟ ام انها ستساعد الشعب الصيني ...؟ نحن نعتقد ان اليابان ستختار المسلك الاخير».

لذلك كانت خطة ماو الاساسية المتعلقة بالحرب الصينية-اليابانية المحافظة على قواته وتوسيع منطقة نفوذ الشيوعيين الصينيين فيما ينتظر قيام ستالين بالتحرك. فعندما توغّل اليابانيون الى الداخل انطلاقاً من شمال الصين ومن منطقة شانغهاي اقنع ماو تشيانغ بالموافقة على عدم اشراك الجيش الاحمر في اية معركة وهو سيعمل فقط كاحتياطي في الجيش التابع للحكومة. لم يكن ماو يريد ان يقاتل الجيش الاحمر الغزاة ابداً. وأمر القادة في الجيش الاحمر بانتظار ان يهزم الجنود اليابانيون القوميين ومن ثم وبينما اليابانيون يندفعون بقوة، يحتل الجيش الاحمر الاراضي الواقعة وراء الخطوط اليابانية. لم يكن اليابانيون قادرين على اقامة حاميات على الاراضي الصينية الشاسعة التي احتلوها والتي هي في النهاية اكبر بكثير من اليابان نفسها. كانوا قادرين فقط على السيطرة على خطوط السكك الحديدية والمدن الكبرى تاركين البلدات الصغرى والريف في متناول اي طامح للسيطرة عليها. كما امر ماو رجاله بجمع الشمل مع الجنود القوميين المهزومين من اجل زيادة عديد القوات الشيوعية. كانت خطته تقضي بالاستفادة من نجاح اليابانيين لتوسيع الاراضي التي تقع تحت السيطرة الشيوعية.

امطر ماو القادة العسكريين العاملين بامرته ببرقيات من مثل: «ركزوا على انشاء مناطق نستعملها كقواعد ... لا على القتال في المعارك ...». وعندما كان اليابانيون يكتسحون مقاطعة شانكسي اصدر الامر التالي: «اقيموا قواعد لنا في جميع انحاء مقاطعة شانكسي». وقال بعد سنوات ان موقفه كان يتلخص بالآتي: «كلما احتلت اليابان المزيد من الاراضي كلما كان ذلك افضل لنا».

لكن القادة التابعين لماو عارضوا هذه الطريقة اذ كانوا متحمسين لقتال اليابانيين. في 25

ايلول حصل اول اشتباك بين الجيش الاحمر واليابانيين عندما كَمَنت وحدة بقيادة لين بياو للجزء الخلفي من موكب ياباني للنقل عند ممر بينغزينغوان في شمال شرق شانكسي بالقرب من السور العظيم. رغم كون الامر اشتباكاً محدوداً مع وحدة غير مقاتلة كان افرادها بمعظمهم نائمين وفقاً لما قاله لين، فقد كانت المرة الاولى التي قتل فيها الشيوعيون يابانياً خارج منشوريا. لو ان ماو فعل ما يريد لما حدث هذا القتال ابداً. حسب تقرير كتبه لين بياو في روسيا سنة 1941 حيث كان يتلقى علاجاً لجروح ناتجة عن رصاص اصيب به، فان ماو رفض تكراراً السماح لجيشه بالتحرك: «عندما بدأت المعارك بين الجيش الياباني والجيش القومي طالبتُ [اللجنة المركزية] في الحزب الشيوعي [اي ماو] اكثر من مرة باتخاذ قرار لتنظيم اضراب ضخم ضد اليابانيين. لكني لم اتلقى اي جواب وانتهى بي الامر بالدخول معهم في معركة بالقرب من بينغزينغوان بناءً على مبادرة مني».

اغتاظ ماو لما حدث في بينغزينغوان واعتبر ان هذا القتال «يساعد تشيانغ كاي شيك». ولم يفعل شيئاً في سبيل التعجيل في تحقيق هدفه الذي هو انشاء مناطق تابعة للشيوعيين. عمد ماو الى تضخيم معركة بينغزينغوان بشكل كبير للدلالة على ان الحزب الشيوعي الصيني هو الآن اكثر التزاماً من القوميين بمحاربة اليابانيين. ومن الأسباب التي جعلت الشيوعيين يرددونها باستمرار لأنها موضوعياً «المعركة». الوحيدة التي خاضوها ضد اليابانيين في سنوات(*)، وادّت الى مقتل بضع مئات منهم على الاكثر.

سجّل الجيش الاحمر بضعة نجاحات اخرى بصفته لاعباً صغيراً متعاون مع الجنود القوميين. لكن ماو كان يحثهم كل الوقت على وقف القتال ضد اليابانيين والتركيز على السيطرة على الاراضي. في منتصف تشرين الثاني كانت القاعدة الشيوعية الاولى والجديدة قد تأسست في جينتشاجي الواقعة خلف الخطوط اليابانية، بالقرب من بكين. وجعلها عدد سكانها البالغ اثني عشر مليوناً اكبر من قاعدة ينان بعدة اضعاف. ان هذه القاعدة بالاضافة الى غيرها من الاراضي الواسعة الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين «خلقت الظروف المؤاتية لنجاحنا». في احتلال الصين، كما جاء في كلام لماو بعد عدة سنوات الى زائر ياباني.

لكن ستالين كان يريد من الشيوعيين الصينيين مقاتلة اليابانيين، ومن اجل ضمان تنفيذ سياسته ارسل الى ينان مساعده الصيني المخلص جداً في طائرة خاصة في تشرين الثاني 1937. ويدعى وانغ مينغ وكان يعمل في الكومنتيرن لسنوات كممثل للحزب الشيوعي الصيني.

(*) اكد لين بياو بنفسه ذلك في تقريره الى الروس في شباط 1941. حتى ذلك اليوم، استغل الحزب الشيوعي الصيني هذه المعركة لأهداف ترويجية تهييجية. في كل وثائقنا هذه هي المعركة الوحيدة الهامة المذكورة.

مباشرة قبل رحيله استدعاه ستالين وأوضح خطته: «الأمر الأساسي الآن هو الحرب [اي القتال ضد اليابان] ... عندما تنتهي هذه الحرب سوف نواجه مسألة كيفية محاربة بعضنا [اي محاربة الشيوعيين لتشيانغ]».

وافق معظم قادة الحزب الشيوعي الصيني على خطة ستالين. عندما اجتمع المكتب السياسي للحزب الشيوعي للمرة الاولى بعد عودة وانغ مينغ اصبح هذا الاخير بطلاً لسياسة «حارب اليابان اولاً». وقرر المكتب السياسي انه على الجيش الاحمر تلقي الاوامر من القيادة العسكرية للحزب القومي التي يرأسها تشيانغ والتي يشكل الحزب الشيوعي الصيني جزءاً منها. اعترض ماو على هذه المسألة، لكنه اضطر للموافقة امام امر صريح صادر عن ستالين.

ابدى زملاء ماو معارضتهم لهذا البرنامج عبر اتخاذ قرار يخرج ماو من منصب الرجل الاول في الحزب. وطلبت موسكو من الحزب الشيوعي الصيني الدعوة الى عقد مؤتمر كان من المفترض عقده منذ فترة طويلة، بعد ان كان المؤتمر الاخير عقد سنة 1928. ان الشخص الذي اختاره المكتب السياسي للحزب لقراءة التقرير السياسي في المؤتمر والذي حسب البروتوكول الشيوعي الصارم يؤول الى الرجل الاول في الحزب، لم يكن ماو بل وانغ مينغ. وهكذا قالت القيادة الحزبية بأنها تريد ان يكون وانغ مينغ الرئيس المستقبلي للحزب.

رغم ان ماو كان رئيس الحزب في الواقع وكانت موسكو تعترف به على هذا الاساس الا انها لم تُضفِ الصفة الرسمية على موقعه وهو امر غير مألوف ابداً في العالم الشيوعي الذي يستحوذ عليه هاجس الطقوس. وكان لو فو لا يزال الرئيس الاسمي للحزب. كما لم يكن ماو يتمتع برهبة كالتي يتمتع بها ستالين.

خسر ماو ايضاً السيطرة على الامانة العامة التي هي المجموعة الاساسية التي تتخذ القرارات. للمرة الاولى منذ الانفصال عن القوميين الذي تمّ سنة 1927 اجتمع جميع الاعضاء التسعة في مكان واحد ولم يدعم خمسة منهم ماو. كان رئيس الاغلبية المعارضة وانغ مينغ، قائد الجيش الرابع الجديد، معارضاً لماو بصراحة. وكان تشانغ كو تاو الرجل الذي عرّضه ماو للتدمير الهائل خلال المسيرة الطويلة يكره هذا الاخير. وكان كل من تشو إن لاي وبو كو يدعمان وانغ مينغ. كان تشو يحبّذ محاربة اليابان بفعالية ووافق الاكثرية بكل سرور فيما كان ماو مع الاقلية(*).

كان وانغ مينغ يتمتع بسلطة تدعمها موسكو بالاضافة الى مؤهلاته كممثل الحزب سابقاً لديها واجتماعه بستالين والتحدث مع قادة شيوعيين عالميين. كما كان يتكلم الروسية بطلاقة

(*) الأعضاء الـ3 الآخرين في أمانة السر هم لو فو وتشين يانغ وكانغ شينغ.

ومطّلعاً على الاساليب المتبعة في الكرملين الى جانب كونه طموحاً ولا يعرف الرحمة. اثناء عملية التطهير الكبيرة التي جرت في روسيا ارسل العديد من الشيوعيين الصينيين اما الى السجن او الى الاعدام. ومع ان لديه وجه طفولي اضافة الى قصر قامته وبدانته فقد شكّل هذا الرجل البالغ الثالثة والثلاثين من العمر والذي يملك ثقة كبيرة بنفسه تهديداً شديداً لماو.

غالباً ما كان ماو يسترجع بمرارة كبيرة ما حدث في كانون الاول من عام 1937 عندما انتصر وانغ مينغ. في هذا تناقض تام مع عدم اشارته ولو مرة في حياته الطويلة الى حدث آخر جرى في الفترة نفسها تحديداً وهو المجزرة الضخمة التي ارتكبها اليابانيون في نانجينغ بحق حوالى الثلاثمئة الف صيني من المدنيين واسرى الحرب. لم يدلي ماو باي تعليق، لا في حينه ولا فيما بعد على اكبر مأساة انسانية تطال ابناء بلده جراء الحرب الصينية-اليابانية.

بعد سقوط نانجينغ في 13 كانون الاول اقام تشيانغ كاي شيك عاصمته المؤقتة في وهان الواقعة في عمق الداخل الصيني على نهر يانغتزي. ذهب وانغ مينغ الى هناك في 18 كانون الاول بصفته وسيلة اتصال مع الحزب الشيوعي الصيني وكان كل من تشو وبو كو نائبين له، واقاموا علاقة عمل جيدة مع تشيانغ. وتردد قادة من الجيش الاحمر الى هناك ايضاً للعمل كضباط ارتباط مع القوميين. في ذلك الوقت كان ماو مهمشاً في ينان ويشير بامتعاض الى مركزه الهامشي بأنه مواز «للمكوث في المنزل». رغم ان هذه الشكوى تطمس حقيقة اساسية هي انه استغلّ هذا الوقت كما استغلّ انغماس الآخرين في الحرب لبناء ينان كإقطاعة خاضعة له.

انطلاقاً من ينان شنّ ماو صراعاً لا هوادة فيه لمنع الجيش الاحمر من العمل وفقاً للخطط المرسومة في القيادة المركزية للقوميين بقيادة تشيانغ. عندما ابرق ذو دو في 19 شباط 1938 ليقول بأن جيش الطريق الثامن التابع للقيادة المركزية يتجه شرقاً تبعاً للمخطط العام، حاول ماو اعادة الجيش مدّعياً بأن اليابانيين على وشك الهجوم على ينان. في الواقع لم تحاول اليابان ابداً شن هجوم على ينان باستثناء قصفها لها من وقت لآخر.

رفض زو العودة الى الوراء قائلاً بأنه من المحتمل ان يكون ماو لجأ الى حيلة هدفها تحديداً اغراء الجيش الثامن الجديد لابعاده عن الجبهة. واستمر ماو في ارسال العديد من البرقيات الى زو يأمره فيها هو وبينغ بالعودة الى ينان: «يتوجب عليكما انتما بالتحديد العودة». واجاب زو وبينغ بـ«لا». نهائية في 7 آذار وتابعا سيرهما باتجاه الشرق مع الجيش التابع لهما.

اجتمع المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني مرة اخرى في نهاية شباط من اجل وقف اصدار الاوامر عن ماو والتي تنقض الاستراتيجية المتفق عليها. طلب وانغ مينغ عقد الاجتماع لهذه الغاية ولمعالجة مسألة اخرى ملحّة. في كانون الثاني أعلنت منطقة جينتشاجي الواقعة

حديثاً تحت السيطرة الشيوعية قاعدة للشيوعيين وذلك برعاية ماو، لكن دون اخذ الموافقة من تشيانغ كاي شيك مما تسبب بخلق موجة معادية للشيوعية في البلاد وطرح الكثيرون السؤال التالي: «لماذا نحن نقاتل اليابانيين؟ بعد هزيمة اليابان إن جُلّ ما نحصل عليه هو تولّي السلطة من قبل الشيوعيين!». كان وانغ مينغ والمجموعة التابعة له في وهان مستائين جداً من وقاحة ماو هذه.

ومرة اخرى وقف المكتب السياسي للحزب الى جانب وانغ مينغ واكد انه سيرفع التقرير السياسي في المؤتمر القادم للحزب. جاء في ملخص عن الاجتماع الذي اعدّه وانغ مينغ بأنه يجب على الجيش الاحمر ان يكون خاضعاً الى «القائد الاعلى». اي تشيانغ كاي شيك في ظل وجود «قيادة موحدة بالكامل ... ونظام موحّد وخطط حربية موحدة وعمليات موحدة». ان اية قواعد جديدة للشيوعيين «يجب ان تحصل على الموافقة والاذن من ... الحكومة القومية مسبقاً». وقال وانغ مينغ كلاماً ينذر بالسوء لماو خاصة، مفاده ان «الفاشيين اليابانيين فقط ... وكلابهم الراكضين ... والتروتسكيين يحاولون اليوم الاطاحة بالقوميين ...».

كانت هذه كلمات صادرة عن موسكو فيها التهمة تنذر بالهلاك، لذلك تظاهر ماو بقبول سياسة «حاربوا اليابان اولاً». واعلم القادة الشيوعيين انه بامكانهم تلقي الاوامر من القيادة المركزية للقوميين ووعد بعدم «التدخل». في المستقبل.

كان ماو قلقاً للغاية بسبب اتخاذه خطوات تمنع موسكو من فهم موقفه الحقيقي. في نهاية اجتماع المكتب السياسي المنعقد في كانون الاول 1937 رتّب مصادرة الملاحظات التي دوّنها المشاركون بحجة «حمايتها». وذلك كي لا يستطيع احد الاستشهاد بكلامه اذا قرر التبليغ عنه. عندما أُرسل مبعوث جديد الى موسكو دبّر ماو قيام احد حلفائه المدعو رين بيشي بالمهمة. واخبر رين الروس بأن سياسة ماو لم تكن تختلف عن سياسة موسكو.

في اواخر كانون الثاني 1938 قام مندوب من قيادة الاركان السوفياتية يدعى ف. ف. اندريانوف بزيارة سرّية الى ينان وهو الروسي الاعلى منصباً الذي يقوم بهذه الخطوة. واتى بمبلغ ضخم مقداره ثلاثة ملايين دولار اميركي يوازي الاربعين مليوناً اليوم، لهدف محدد هو تطوير الجيش الاحمر كي يقاتل اليابانيين. قال ستالين انه يريد ان يكون للجيش الاحمر «ثلاثين فرقة وليس ثلاثة فرق». وابدت موسكو استعدادها لتمويل هذا التوسع الضخم الرامي الى محاربة اليابان(*).

سأل اندريانوف ماو عن خططه الحربية فقدّم له ماو رواية مفصلة لكن كاذبة قائلاً بأنه

(*) عندما كان وانغ مينغ لا يزال في موسكو، اخبر الكومنتيرن ان ماو «أبرق الي كثيراً بأنه يحتاج كثيراً جداً الى المال (و) يطلب منك الاستمرار في إرسال المال شهرياً».

ينوي تركيز فرقٍ كبيرة لضرب اليابان من خلال «الحرب المتنقلة». ومدّعياً بأن القوميين يصدّون جهوده للتعاون معهم. وحاول حتى اظهار حماسه عبر الاشارة الى ان اليابانيين الذين وصفهم بأنهم غير كفوئين ويعانون من ضعف في المعنويات هم عدوٌ محاربته اسهل من محاربة القوميين.

تميزت تلك المرحلة من حياة ماو بالمخاطر والمجازفات. ومن غير المحتمل الاّ يكون تنبّه الى ان موسكو قلّلت للمديح العلني له في السنة الفائتة بشكل ملحوظ، والى انها انتقدت الحزب الشيوعي الصيني في نصّ هام ورد في ذكرى الثورة البولشيفية. كان من المحتوم ان يثير اشتراكه في اختطاف تشيانغ ريبة ستالين تجاهه. في الواقع كان ستالين يحتفظ في ذهنه بشكوك حول احتمال ان يكون ماو «عميلاً يابانياً». وتم توقيف مسؤولين في الكومنتيرن كانوا على علاقة بماو وتعرّضوا للاستجواب تحت التعذيب. ومن بينهم رئيس جهاز المخابرات في الكومنتيرن اوسيب بياتنيسكي + الذي نَعَت ماو في نيسان 1938 بالتآمر في «مجموعة بوخارين». المزعومة. كما جاء في الادعاء بأن القائد السابق للكومنتيرن بوخارين تجسس لصالح اليابان.

تضمن الملف الخاص بماو ادانة له بصفته «زعيم التروتسكيين في أعمق موضع في الحزب الشيوعي الصيني». وهي تهمة خطيرة على نحو مضاعف اذ ان التروتسكيين الصينيين يُعتبرون جواسيس لحساب اليابان. ووُجهت تهمة تجنيد ماو للعمالة الى كبير عملاء موسكو السابقين في الصين بوريس ملنيكوف، كما اتُّهم بالانتقال بعدها الى اليابانيين الى جانب غيره من القادة الكبار في الحزب الشيوعي الصيني. وأمر ستالين بإحضار ملينكوف الى الكرملين لاستجوابه وجهاً لوجه وتم تأجيل اعدام ملينكوف ثمانية شهور بينما كان يجري استجوابه بقسوة بشأن الحزب الشيوعي الصيني. في تلك الفترة تعرّض عدد كبير من العملاء السوفيات السابقين في الصين للتصفية بتهمة التجسس لصالح اليابان، فيما كان مصير ماو متأرجحاً.

+ تم توقيف بياتنيسكي في 7تموز 1937 يوم وقوع حادثة جسر ماركو بولو التي ادت الى هجوم اليابان على شمالي الصين وهددت روسيا. إن أول استجواب له يعود الى 11 تشرين الأول 1937. في ذلك اليوم نفسه، رأى ستالين وانغ مينغ قبل ان يغادر هذا الأخير الى ينان للضغط على الحزب الشيوعي الصيني وماو لمحاربة اليابان. يوجد اشارات غير مغلوطة الى أن توقيف بياتنيسكي له علاقة بالحرب مع اليابان والحزب الشيوعي الصيني – وماو.

20 - حارِب المنافسين وتشيانغ
ولا تحارِب اليابان
(1937-1940، العمر 43-46 سنة)

حاول تشانغ كو تاو استغلال الضعف الذي يعاني منه ماو وهو كان التقاه في حزيران 1935 اثناء المسيرة الطويلة مع جيش مؤلف من ثمانين الف جندي، خلافاً لجيش ماو المسحوق والذي يضم عشرة آلاف رجل. كما كان يتمتع بمؤهلات هامة تخوّله الوصول الى قيادة الحزب الشيوعي الصيني. لكن خلال الاشهر القليلة التالية الحق ماو الخراب بجيشه في عملية منظمة واحتكر الطريق المؤدية الى الشمال والتي تؤمن الاتصال بالروس تاركاً كو تاو يعاني من الوهن على الحدود مع التيبت. وحين وصل كو تاو الى المقر العام للحزب في شمال شانكسي في تشرين الاول 1936 كانت قوة الجيش العامل بامرته قد بلغت نصف ما كانت عليه، فاصبح الشريك الاضعف. ومع ذلك تابع ماو الحاق المزيد من الضعف بكو تاو اذ ان عديد جيشه كان لا يزال ضعف ما كان عليه الجيش التابع لماو وظل منافساً محتملاً له.

في ذلك الشهر اي تشرين الاول 1936، عندما ارسل ماو الجيش الاحمر في محاولة لفتح الطريق امام التموين الروسي بالاسلحة قرب الحدود الخارجية مع منغوليا، عهد الى الوحدات المتمرّسة بالقتال التي تأتمر بكو تاو باختراق القوة التابعة للقوميين والتي تسدّ الطريق. عندما فشلت هذه العملية اصبح 21800 جندي تابعين لكو، اي نصف الرجال المتبقين، معزولين في ابعد نقطة على ضفة النهر الاصفر. من ثم اقترحت موسكو فكرة حصول الحزب الشيوعي الصيني على الاسلحة من منطقة اخرى يسيطر عليها الروس هي زينجيانغ. كانت المهمة متعذرة نظراً الى انها تنطوي على اجتياز اكثر من الف وخمسمئة كيلومتر عبر صحراء غير مأهولة وعبر ارض يسيطر عليها جيش مسلم معادٍ للشيوعية بضراوة. لكن ماو رحّب بهذه الفكرة واختار القوة العالقة التابعة لكو تاو لهذه المهمة المحكومة بالفشل، وسُميت هذه القوة الفرقة الغربية.

دبّر ماو الأمر لجعل الرحلة غير مجدية من خلال اصدار عدد كبير من الأوامر المتناقضة التي دفعت الفرقة من موقع جهنمي الى موقع جهنمي آخر بحيث يغرقها في المعارك المرتّبة باستمرار. ويشير قائدها بمرارة الى ان المهمات الموكلة اليه من قبل ينان كانت «محيّرة ومتقلّبة».

عندما ارسلت الفرقة برقية في اوائل شباط 1937 من وسط الصحراء تفيد فيها بأنها غير قادرة على الصمود لوقت طويل او اكمال مهمتها وطلبت اذناً بالقدوم الى ينان، امرها ماو بالبقاء حيث هي طالباً منها «القتال الى آخر انسان والى آخر نقطة دم».

في منتصف آذار كانت الفرقة التي تشكل العمود الفقري في الجيش التابع لكو تاو تعرّضت للابادة تقريباً كما تعرّض الذين أُلقي القبض عليهم لابشع اصناف القتل. وإثر احدى المعارك التي بلغت الذروة في الجزء الغربي من غانسو أُحرق اكثر من الف جندي وهم احياء. وأُخذت صور ممزقة للقلب لمجموعة كبيرة من السجناء غير المشبوهين قبل قتلهم. وتم اغتصاب الفي امرأة وتم تعذيب وقتل البعض فيما تم بيع البعض الآخر في اسواق الرقيق المحلية. من اصل 21800 رجل وامرأة تمكن فقط حوالى الاربعمئة من بلوغ زينغجيانغ في نهاية نيسان وكانوا اقرب الى الاموات منهم الى الاحياء.

سمحت ابادة هذه القوة لماو باغلاق الغطاء على تابوت كو تاو وحوّل ماو كو تاو المتواجد في ينان الى كبش محرقة مؤكداً ان الفرقة كانت تتبع «الخط الذي رسمه كو تاو». لكن موسكو رفضت دعم محاولة ماو طرد كو تاو من المكتب السياسي للحزب الشيوعي. ومع ذلك بقي كو تاو موضع ادانة من قبل الضباط الخاضعين له.

لم يقدم ماو فقط على انهاء المستقبل السياسي لكو تاو بل وضع حدّاً لحياة القلّة من الفرقة الغربية التي تمكّنت من الوصول الى ينان في النهاية. وجاء في وصف احد الضباط المحليين لما حدث:

> «عندما جرى تعقّبهم الى [منطقتنا] اقمنا لهم في البداية حفلة ترحيبية ووضعنا يدنا على سلاحهم. ثم قلنا لهم: «ايها الرفاق لقد عانيتم الكثير من المشقات. انتم الآن تُنقلون الى المواقع الخلفية ليتسنّى لكم الاستراحة». واخذناهم دفعة واحدة الى الوديان ودفنّا كل هؤلاء الاحفاد من السلاحف [اي الاولاد غير الشرعيين] احياء».
>
> وكان دفنهم امراً ممتعاً. في البداية قلنا لهم ونحن نبتسم: «ايها الرفاق احفروا الحفر جيداً لاننا نريد ان ندفن جنوداً قوميين احياء هنا. في الواقع عملوا بجهد فاشتغل الرفش تلو الآخر ومسحوا العرق المتصبب من وجوههم ... بعد ان انتهوا من العمل دفعناهم ورفسناهم كلهم الى داخل الحفرة. في البداية اعتقدوا اننا كنا نمزح لكن عندما بدأنا نجرف التراب الى داخل الحفرة راحوا يصرخون: «ايها الرفاق نحن لسنا جنوداً قوميين!». فشتمناهم قائلين: «يا ابناء العاهرات، نحن لا نبالي اذا كنتم من الجيش القومي ام لا. نحن نريدكم ان تموتوا وستموتون ...».

عندها لاقى المتباهي بهذا العمل اعتراضاً على ما جرى: «اني ارفض على نحو قاطع

التصديق ان ما حدث جاء تنفيذاً لامر حزبي».

لكن الرجل تابع قائلاً: «ماذا! ان قائد فرقتنا هو الذي امرنا بأن نفعل ذلك. وقال ان الامر آت من الرفيق غاو غانغ الذي هو زعيم شيوعي محلي، وكان بالطبع ينفذ الامر الصادر عن الرئيس ماو. نحن نعترف فقط بسلطة الرئيس ماو. نحن نفعل كل ما يطلب منا الرئيس ماو ان نفعله».

تعرّض كو تاو نفسه الى العديد من «العذابات ... التي خطط لها ماو». كما كتب لاحقاً. ورُمي خارج منزله من قبل امين السر لدى ماو كي يتمكن الاخير من وضع اليد عليه وأُوقف عامل الارتباط عنده. قام ماو حتى بتعذيب ابن كو تاو الشاب تشانغ مو تاو الذي وُضع في خانة التروتسكي الطليعي في مسرحية مدرسية. ويصف كو تاو كيف وصل الى المدرسة ووجد «مجموعة من الاشخاص يسخرون من ابني. وكان ماو تسي تونغ هناك يتمتع بذلك. وقال وهو يضحك بمكر: «انه من المناسب جداً ان يلعب ابن تشانغ كو تاو دور تشانغ كو مو تاو». ... فمزقت القناع الذي كان يضعه ابني واخذته بعيداً عن المسرح وصرخت غاضباً اثناء مغادرتي: «همجيون! ... انتم اسوأ من الحيوانات!».

في ربيع 1938 كان كو تاو عاجزاً عن فعل اي شيء اضافي وكان ذلك تحديداً في الوقت الذي كان وضع ماو ضعيفاً للغاية اذ انه لم يكن على تناغم مع اوامر موسكو المتعلقة بالحرب مع اليابان. استكشف كو تاو فرصة للتعاون مع وانغ مينغ الذي يمثل وجهة نظر موسكو. في ذلك الوقت كان وانغ مينغ في وهان، العاصمة المؤقتة لتشيانغ، برفقة تشو إن لاي وبو كو. في 4 نيسان ترك كو تاو يونان بصفته رئيس المنطقة التي يسيطر عليها الشيوعيون لحضور احتفال مشترك للقوميين والحزب الشيوعي الصيني عند مقبرة الامبراطور الاصفر الاسطوري الواقعة خارج المنطقة الشيوعية. بعد الاحتفال غادر الى زيان ومن هناك توجه الى وهان لرؤية وانغ مينغ وزملائه.

كانت تلك الفرصة من الفرص النادرة التي يوجد فيها معظم القادة الحزبيين الرئيسيين وجميعهم على خلاف مع ماو، خارج ينان في نفس الوقت وبذلك يكونون خارج قبضة ماو. وكان زيانغ ينغ، الناقد الاشرس لماو وقائد الجيش الرابع بالقرب من وهان. وكان مضمون مسامرات كو تاو في وهان من اهم الاسرار المحفوظة بتكتّم شديد. من شبه المؤكد ان كو تاو حاول ان يبرهن ضرورة اخراج ماو من موقعه. وابلغت ينان موسكو لاحقاً بأن كو تاو «حاول ضرب وحدة الحزب». عندما كان في وهان. لكنه غادر فارغ اليدين ربما لان ثلاثي وهان لم يصدق بأن موسكو تؤيد اسقاط ماو. بينما كان كو تاو يائساً كان وانغ مينغ يتمتع باعلى

درجات الثقة بالنفس وربما كان يصعب عليه التقدير بأن قبول ماو الظاهري بالقرارات التي اخذتها الاغلبية تخفي تصمياً هائلاً على استعادة السيطرة على الوضع.

استمرت المحادثات حوالى الاسبوع. عندما ادرك كو تاو انه لم يحقق شيئاً قرر ترك الحزب الشيوعي والانتقال الى الحزب القومي، وهذا ما فعله في 17 نيسان بعد ان تركه ثلاثي وهان يذهب. ثم بعث برسالة الى زوجته التي تركها في ينان وهي حامل طالباً منها الالتحاق به مع ابنهما البالغ اثني عشر عاماً. أخر ماو الامر بالمواربة كي يتأكد من عدم قيام كو تاو باذى كبير ومن ثم اذن لهما بالرحيل. عندما قدمت زوجة كو تاو الى وهان نصحها تشو بأن تطلب من زوجها «الاّ يحفظ خط العودة مع الحزب» فتنبّه كو تاو الى ذلك. لقد سبق له ان شغل منصب رئيس القسم العسكري في الحزب الشيوعي الصيني حيث كان مسؤولاً عن زرع عملاء يتمتعون بمستوى عالٍ في الجيش التابع للقوميين لكنه لم يُفشِ باي اسم الى القوميين. في الواقع لم يقم بخدمات ذات شأن لهم وكانوا مستائين منه، كما كانَ واضحاً ان سيرته الذاتية التي تفوق الالف صفحة لم تؤدي الى افشاء العديد من الاسرار. ومن المؤشرات على التزامه الصمت انه بعد فراره الى الصين القارية عشية اجتياح ماو للصين سُمح لاحد ابنائه بالعودة الى دراسته الجامعية في كانتون في منتصف الخمسينات. عمّر اكثر من ماو وتوفي بعمر الثانية والثمانين في احدى دور العجزة في تورنتو في كندا سنة 1979 بعد ان كان اعتنق المسيحية السنة التي سبقتها.

سمح ارتداد كو تاو عن الشيوعيين والتحاقه بالقوميين لماو بتشويه سمعته في عيون جنوده، وطُرد من الحزب على الفور. كان بعض اتباعه القدامى في ينان «غير راضين ابداً». كما نقل الى تشيانغ كاي شيك رئيس المخابرات التابعة للقوميين تاي لي. لقد اجتمعا سرّاً ونتيجة لذلك قامت القوات التابعة لماو «بتصفيتهم جميعاً فوراً وأُحرق حوالى المئة شخص وهم احياء».

انتظرت موسكو شهرين قبل التصديق على الطرد. في هذا الوقت حدث امر هام جداً بالنسبة لماو، فقد وضع ستالين حداً لعملية التطهير التي اجازها الكومنتيرن. تم اعدام بياتنيسكي وملنيكوف اللذين كانا اتهما ماو بالتورط في التجسس لصالح اليابان في نفس اليوم الى جانب الكثيرين الذين هم على علاقة بالصين. وبقي ملف ماو مفتوحاً جاهزاً لاحيائه عندما كان ستالين بحاجة اليه مجدداً بعد عقد من الزمن، لكن ماو هو الآن خارج الشرك.

ما إن علم ماو بأن الكرملين وافق على طرد كو تاو وبأنه مبرّأ من التهم تحول الى معالجة امر وانغ مينغ.

عند هذه النقطة كان لماو حليف اساسي في موسكو هو وانغ جيا زيانغ، رفيقه القديم في

حَبكِ المكائد اثناء المسيرة الطويلة والمعروف بالاستاذ الاحمر. منذ اقامة الانصالات اللاسلكية مع موسكو في حزيران 1936 مارس ماو الضغط عليها وامطرها بالطلبات بشأن ذهاب الاستاذ الاحمر الى روسيا، ظاهرياً من اجل تلقي العلاج الطبي. وصل الاستاذ الاحمر الى هناك في تموز 1937 واصبح ممثل الحزب الشيوعي الصيني فور عودة وانغ مينغ الى الصين. الآن في حزيران 1938 ارسل ماو برقية الى الاستاذ الاحمر يطلب منه فيها العودة. وكان في موقع يتيح له القيام بارسال الاشارات الى ماو. قبل مغادرته التقى رئيس الكومنتيرن ديميتروف وفي محادثة حول وحدة الحزب قال ديميتروف ان الحزب الشيوعي الصيني بحاجة الى حل مشاكله «في ظل قيادة يكون ماو تسي تونغ على رأسها». واستعمل ماو هذه العبارة الوحيدة لاحداث حركة عكسية في دعم حظوظه الشخصية وفي رسم سياسة الحزب الشيوعي الصيني.

عاد الاستاذ الاحمر الى ينان في اواخر آب وطلب منه ماو على الفور ان يدعو وانغ مينغ وسواه الى جلسة عامة للجنة المركزية يحضرها جميع الاعضاء «للاستماع الى التعليمات الآتية من الكومنتيرن». كانت المرة الاولى التي تلتئم فيها اللجنة المركزية منذ ما قبل المسيرة الطويلة اي ما يزيد على الاربع سنوات. وكانت وهان تتعرض لهجوم شرس من اليابانيين، لكن ماو استدعى قادة الجبهة والرجال الذين يشغلون مناصب رفيعة الى ينان التي كانت في موضع خلفي منعزل. اعترض وانغ مينغ قائلاً بأنه الظرف لم يكن مناسباً لغياب كل القيادة الحزبية عن عاصمة البلد واقترح عقد الاجتماع في وهان، فأعلن ماو: «اني لن اذهب الى اي مكان!»وابرق البروفسور الاحمر بلهجة مليئة بالتهديد الى وانغ مينغ: «اطيعوا المركز والاّ».

اتى وانغ مينغ الى ينان رغماً عنه في 15 ايلول. توجه البروفسور الاحمر اولاً الى المكتب السياسي للحزب مستشهداً بالملاحظة التي ابداها ديميتروف والتي بناءاً عليها قال ماو انه سيقدم التقرير السياسي في جلسة عامة يحضرها الجميع وبذلك يستعيد موقعه كالرجل الاول في الحزب. لم يصدر عن وانغ مينغ اية مقاومة. عندما افتتحت الجلسة العامة في التاسع والعشرين في كاتدرائية الفرانسيسكان في ينان كرر البروفسور الاحمر الجالس تحت صورة لينين الموضوعة على المذبح كلام ديميتروف امام الحضور الكبير. وهكذا جرى زرع الفكرة القائلة بموافقة موسكو الواضحة على قيادة ماو للحزب في عقول القادة في الحزب الشيوعي الصيني.

ولمكافأة البروفسور الاحمر فقد عيّنه ماو في عدد كبير من المناصب الهامة بما فيها منصب نائب قائد المجلس العسكري. كما وجد ماو للعازب البالغ الثانية والثلاثين عروساً جميلة وجذابة في الثالثة والعشرين من العمر متخرجة من كلية الطب ووالدها صديق قديم لماو. وبعد ان جعل ماو من لو فو الرئيس الاسمي للحزب رجلاً سعيداً مع زوجة قصيرة القامة ومفعمة بالحيوية، قام بتدبير قصة حب اخرى رابطاً مصير حليفين اساسيين به. كان ماو

يستمتع بتدبير الزيجات وكان داهية في الوصول الى القلوب وخاصة لدى الرجال المكبوتين جنسياً.

بدأ ماو الآن بتشويه سمعة وانغ مينغ، لكن تمزيق وحدة الحزب كان امراً تعارضه موسكو بالتحديد وكان متوقعاً ان يرد وانغ مينغ اذا تعرض لهجوم في حضوره. لذلك لجأ ماو الى حيلة قديمة تقضي بتطويل مدة الاجتماع الى ان يخرج وانغ مينغ وسواه من اعدائه الرئيسيين قبل ان ينقضّ عليهم.

فعمد ماو الى اطالة مدة الجلسة العامة الى الشهرين تقريباً جاعلاً اياها اطول جلسة لتاريخه، حتى ولو انعقدت وسط ازمة وطنية سقطت خلالها في ايدي اليابانيين ليس فقط وهان بل كانتون التي تضم آخر مرفأ رئيسي للقوميين. وكانت القواعد الشيوعية الواقعة خلف الخطوط اليابانية مهددة ايضاً ووردت التماسات ملحة من مثل: «وضع طارىء هنا. من فضلكم هل يستطيع بينغ دو-هواي العودة في اسرع وقت ممكن ...». الاّ ان ماو رفض اطلاق سراح القادة العسكريين الى ان حقق اهدافه.

نقل تشيانغ كاي شيك عاصمته الى تشونغكينغ الواقعة في عمق الاراضي الصينية حيث دعا الى انعقاد جمعية تشريعية جديدة في 28 تشرين الاول والتي كان متوقعاً ان يحضرها وانغ مينغ. وتاكد ماو من استمرار انعقاد الجلسة العامة التي كان دعا اليها هو عندما توجّب على وانغ مينغ المغادرة الى تشونغكينغ، فتكون تلك هي الخدعة نفسها التي استعملها سنة 1929 ليضع يده على فوجيان الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين.

في سبيل تطويل امد الامور اصرّ ماو على ان يلقي كل عضو في المكتب السياسي خطابين مماثلين عملياً، الأول اثناء انعقاد جلسة المكتب السياسي والثاني لدى انعقاد الجلسة العامة. وهو نفسه اجّل بواسطة الحيلة تقديم تقريره السياسي مدة اسبوعين أُجبر خلالهما المشاركون على التسكّع. وعندما تكلم في النهاية كان كلامه طويلاً حتى الاملال الثقيل، ونظراً الى عادته في النوم صباحاً فقد استغرق خطابه ما لا يقل عن ثلاثة ايام.

في نهاية تشرين الأول كان اخصام ماو الاقوياء مثل تشو وزيانغ ينغ وبو كو ووانغ مينغ قد غادروا المنطقة. ما إن غادروا حتى شنّ ماو هجوماً ضارياً عليهم وخاصة على وانغ مينغ بسبب «تنفيذه الاوامر الصادرة عن تشيانغ كاي شيك». وحتى بسبب عمليات التطهير الدموية التي جرت في المناطق الشيوعية قبل المسيرة الطويلة عندما لم يكن وانغ مينغ هناك.

مع غياب اخصامه فرض ماو سياسته على الجلسة العامة وشملت زيادة عدد القواعد الشيوعية بشكل مكثّف وشنّ حرب على الجيش القومي اذا لزم الامر. كانت هذه المرة الاولى التي يعلن فيها ماو عن نواياه الحقيقية. كان هناك العديد من الجنود القوميين وراء الخطوط

اليابانية وكانوا ينافسون الشيوعيين على احتلال الاراضي. حتى ذلك الوقت كانت سياسته تقوم على تفادي القتال معهم وعلى جعل الوحدة مع تشيانغ اولوية. اعرب ماو عن الموافقة التامة اثناء وجود وانغ مينغ ودعا تشيانغ كاي شيك «قائداً كبيراً». وتعهّد باخضاع القواعد الشيوعية الجديدة لسلطة الحكومة المركزية ووعد «بتوجيه كل مسدس الى اليابانيين». واعلن حتى ان «الامة الصينية وقفت على قدميها! ... ان الوضع الذي عانينا فيه من الاستضعاف والاهانة والاجتياح والظلم ... انتهى». ان هذه الكلمات مماثلة تقريباً لتلك التي استخدمها ابّان تأسيس الصين الشيوعية سنة 1949 حين قال: «لقد وقف الصينيون على قدميهم». ويتم الاستشهاد بالملاحظة التي اوردها سنة 1949 على انها الاولى كما تُعتبر كذلك من قبل الكثيرين. في الوقع لم تكن تلك المرة الاولى التي يوردها. بالاضافة الى ذلك عندما استعمل ماو هذه العبارة لاول مرة عزا «وقوف». الصينيين «على اقدامهم». الى «قيادة السيد تشيانغ»!

مع ذهاب وانغ مينغ ابلغ ماو الرجال الذين يشغلون المناصب العليا بأن القائد العام هو عدوّهم الاساسي وانه يجب عليهم الآن البدء في التحضير للاستيلاء على السلطة. ويجب على الجيش الاحمر توجيه ضربة للجيش القومي الذي يقف في وجه توسّعه. وكان هذا امراً هاماً موجهاً الى القيادة العليا: يبقى تشيانغ عدوكم الاول وبامكانكم فتح النار على الجيش التابع له.

من ابرز داعمي هذا الاسلوب الرئيس المقبل ليو شاوكي الذي كان يدير شبكة سرّية في شمال الصين. كان ليو امضى فترتين طويلتين في روسيا والتقى ستالين سنة 1921 وربطته علاقة غرامية بلاريسا ريزنر التي هي من الاصدقاء المقرّبين جداً من لينين. وأيّد ليو الذي يتمتع بمقدار كبير من بعد النظر استراتيجية ماو المتشددة الهادفة الى وضع اليد على السلطة. مباشرة بعد الجلسة العامة عيّنه ماو قائداً حزبياً على منطقة واسعة في القسم الشرقي من وسط الصين حيث يتواجد الجيش الرابع الجديد وبذلك اصبح رئيساً على زيانغ ينغ وعلى هذا الجيش.

حصل ماو على دعم بينغ دو-هواي، نائب القائد في جيش الطريق الثامن، الذي رأى انه لا بد من حرب اهلية اذا اراد الشيوعيون التوسع او حتى البقاء في بعض الاماكن. وايدّهم كذلك ذو دو قائد جيش الطريق الثامن. وهكذا يكون ماو ضمن تأييد قادة كل القوات الشيوعية لسياسته.

كان ماو خائفاً من تسرّب الاخبار الى وانغ مينغ ومن خلاله الى موسكو اذ ان استراتيجيته تتنافى مع تعليمات ستالين بصورة مباشرة. لذلك امر بالمحافظة على السرّية المطلقة لخطاباته. ولابقاء اتباعه صامتين فقد اصدر ماو «قرارين بشأن الانضباط» ذات طابع تحذيري يمنعان اي كان من «افشاء الاسرار». الى «اي كان داخل او خارج الحزب». ويعني ذلك ان المشاركين

لا يستطيعون اطلاع زملائهم او حتى الذين حضروا الجزء الاول من الجلسة العامة بأن ماو اصدر للتو امراً بشنّ حرب اهلية على القوميين. كما لم يجرؤ احد على اطلاع وانغ مينغ على القصة الكاملة لتهجمات ماو عليه.

ولاشاعة موجة من الخوف اعتمد ماو على كانغ شنغ الذي اصبح فيما بعد رئيساً لجهاز الامن وصاحب السمعة السيئة. في روسيا كان كانغ اشرف على عمليات تطهير طالت المئات من الصينيين الذين تعرّض الكثيرون منهم للتعذيب والاعدام او حتى أُجبروا على العمل في معتقلات للاشغال الشاقة حتى الموت. وكان نائباً لوانغ مينغ في الوفد الذي مثّل الحزب الشيوعي الصيني الى الكومنتيرن وكان يتابع اعماله عن كثب. عندما وصل الاثنان الى ينان اولاً اطلق كانغ صرخة «ليحيا قائد حزبنا العبقري الرفيق وانغ مينغ!». اثناء الدورات التدريبية في جهاز الامن. لكن سرعان ما ادرك كانغ ان ماو هو الرابح فنقل ولاءه اليه. وقدّم كانغ الضمانة بخصوص جيانغ كينغ متيحاً لماو ان يتزوجها مما وثّق العلاقة بينهما اكثر. وعيّنه ماو رئيساً لجهاز الكي جي بي التابع للحزب الشيوعي الصيني وتوطّدت ثقته به لدرجة انه طلب منه اختيار حرّاسه الشخصيين.

وصدر امر بعودة وانغ مينغ الى ينان الواقعة تحت السيطرة المحكمة بعد جلسة الجمعية الوطنية المنعقدة في تشونغكينغ. وعُيّن رئيساً لدائرة الجبهة الموحدة وهو منصب هام اسمياً لكن جرى تحويله بسرعة الى رئيس صوري. ويذكر شاهد عيان رآه في الشارع كيف كان «رأسه محنياً وخطواته ثقيلة ... وغارقاً في افكاره». لكن وانغ مينغ لم يكن موضع اتهام علني بسبب الرابط القوي الذي يجمعه بموسكو. لذلك بالنسبة الى العضو العادي في الحزب كان لا يزال واحداً من القادة الشيوعيين والمتمتعين بالشعبية. ويذكر الكثيرون انه كان «خطيباً مفوهاً له خطابات مليئة بالحيوية ومثيرة للحماس كما كان الشباب يحبونه». لم يكن ماو يتمتع بموهبة الخطابة وبقي مينغ العمل الذي يتوجب عليه انهاؤه.

ابتداءً من سنة 1939 وبعد ان أمر ماو الحزب باتخاذ موقف عدواني من القوميين حدثت اشتباكات على نطاق واسع وراء الخطوط اليابانية بين الشيوعيين والقوات التابعة للقوميين حول احتلال اراضي وفاز فيها الشيوعيون اجمالاً. في كانون الثاني 1940 ازداد عديد جيش الطريق الثامن بقيادة ذو دو وبينغ الى ما لا يقل عن 240000 بعد ان كان 46000 في بداية الحرب. وتضاعف عديد الجيش الرابع الجديد العامل بقيادة ليو شاو كي بالقرب من شانغهاي ونانجينغ ثلاث مرات مع بلوغه 30000 رجل. وبرز عدد ضخم من القواعد الكبيرة في الخلف الياباني. وتوسّعت قاعدة جينشاجي وحدها التي تقع على بعد ثمانين كيلومترٍ من بكين بحيث

اصبحت تسيطر على خمسة وعشرين مليون نسمة. عند هذه النقطة وبعد مرور سنتين على اندلاع الحرب ومع حلول الواقعية محل الحماسة الوطنية اصبح العديد من القادة الشيوعيين معجبين بالذكاء والرزانة اللذين يميّزان الرؤيا التي يملكها ماو. وصف بينغ دو-هواي ماو في خطاب القاه في شباط 1940 بأنه «قائد حكيم يتمتع بالبصيرة في السياسة وبامكانه توقّع التطورات قبل حدوثها وهو بارع في التعاطي معها». وفي هذه المرحلة تحوّل تشو إن لاي كلياً الى ماو.

ادّى ماو خدمات كبرى للحزب الشيوعي الصيني لكن كان عليه ابقاء ستالين مطّلعاً على ما يجري. لقد اخفى الاشتباكات مع القوميين على موسكو لاشهر عديدة ثم اعترف بالامر فقط عندما صار القتال جلياً وخطيراً في حزيران 1939 ومن ثم ادعى انه كان محض دفاعٍ عن النفس واصفاً القوميين بأنهم مصممون على ابادة الشيوعيين من وجه الارض.

عرف ماو كيف يلعب دوره بنجاح امام جمهوره في موسكو. في ربيع 1939 ارسل ستالين منتج الافلام الوثائقية المتفوق رومان كارمن الى ينان لتصوير فيلم عن ماو. عندما وصل كارمن وجد ان ماو ترك في مكتبه كتاباً لستالين مفتوحاً وثم جلس في وضع معيّن لفترة طويلة وهو يحمل كتاباً لستالين تظهر على غلافه الخارجي صورة بارزة للكاتب. وشرب نخب ستالين قائلاً بأن المكان الوحيد الذي يريد الذهاب اليه خارج البلاد هو موسكو، من اجل رؤية ستالين. وعندما ودّع كارمن في الظلام على مدخل مغارته اصرّ على سؤاله عن الجهة التي تقع عليها موسكو، ثم غرق في صمت طويل. وكتب كارمن معلقاً: «ان ماو يتكلم عن الرفيق ستالين بحرارة كبيرة!(*).

والمسألة الاهم هي ان ماو جعل رجاله في موسكو يدعمون موقفه ويشوهون سمعة اعدائه. وتأكد ايضاً من كون مبعوثي الحزب الشيوعي الصيني الى موسكو حلفاء له، ويأتي البروفسور الاحمر في طليعتهم ويليه رين بيشي. وبما انه بدأ باتباع مسار معين ضد تشيانغ يشكل تحدياً لاوامر ستالين فقد ارسل مجموعة اضافية من الموفدين بدءاً بلين بياو الذي ذهب الى روسيا في نهاية 1938 لمعالجة جرح ناتج عن اصابة بالرصاص. وكان لين اصيب على يد الجنود القوميين بينما كان يرتدي معطفاً يابانياً مستولى عليه فاعتُبر يابانياً عن طريق الخطأ.

اخذ لين معه فقط الوثائق التي اراد ماو ان تتطلع عليها موسكو، لذلك ظل ستالين غير عالم بمكائد ماو وبالسياسة الحقيقية التي يعتمدها. وقدّم لين وصفاً مضخماً لماو اعتبره فيه بأنه

(*) يبدو أن أول صور سليلويد لماو ظهرت في موسكو تعود الى عام 1935 عندما عُرض شريط سينمائي لقادة الحزب الشيوعي الصيني أمام مؤتمر الكومنتيرن السابع. وقال الرجل الثالث في الكومنتيرن بياتنيسكي الذي اعدم لاحقاً على يد ستالين انه اعتقد ان ماو يبدو «كالسفاح».

«القائد الصلب وصاحب القرارات الحاسمة ورجل المبادىء في الحزب الشيوعي الصيني». فيما قال اشياء سيئة عن تشو من مثل «المخادع». وعن ذو دو قال انه «الشرطي السابق». وهو «ليس واحداً منّا».

ولحق تسي مين شقيق ماو بلين في حزيران 1939 لاسباب «صحية» ظاهرياً رغم انه لم يمضِ يوماً واحداً في المستشفى كما لاحظ الروس. وكانت مهمة تسي مين الرئيسية اضعاف وانغ مينغ الذي وصفه بـ«النذل» متهماً اياه بعدة امور من بينها تضخيم قوة الجيش الاحمر الصيني بحضور ستالين وهي تهمة قد تؤدي الى الموت. ومن اهداف ماو الاخرى تحجيم الدور الذي سيقوم به وانغ مينغ في المؤتمر القادم للحزب. كان مقرراً ان يقدم وانغ مينغ التقرير الثاني عن موضوع التنظيم في الحزب. لكن تسي مين اعلم موسكو بأن وانغ مينغ ليس الشخص المناسب وزعم خطأً بأنه «عملياً لم يقم باي عمل تنظيمي». وشهّر تسي مين ايضاً باعداء آخرين لماو مثل بو كو ولي ويهان الذي هو قائد شيوعي قديم في هونان واتهم الاثنين بارتكاب «جرائم كبيرة» قائلاً بأنه يجب ابقاؤهما خارج كل الهيئات القيادية. وشبّه بو كو بـ«الانتهازيين والتروتسكيين واللصوص».

وصل تشو إن لاي، المبعوث الثالث «الاضافي». لماو، تماماً مع بدء الحرب في اوروبا ودخل مستشفى الكرملين في 14 ايلول من اجل اجراء عملية في ذراعه اليمنى التي ثُبّتت فيها عظمة مكسورة نتيجة لوقوعه عن حصانه. كان تشو تحوّل للتو الى مذهب ماو وهو تحول غير مشروط جعله خادم ماو المخلص ابتداءً من ذلك الوقت. وواظب على اعطاء وصف ايجابي ومضخم لماو واخبر الروس بأن قيادة الحزب الشيوعي الصيني «تعتبر بأنه يجب انتخابه اميناً عاماً». وطمأن موسكو بأن سياسة الحزب الشيوعي الصيني مستمرة في اعتبارها بأن «الحرب على اليابان تأتي قبل اي شيء آخر». وبأن الحزب ملتزم «بالجبهة الموحدة». مع تشيانغ. وروى بالتفصيل توسّع القوات الشيوعية وسيطرتها على المزيد من الاراضي مضيفاً الى روايته عدداً من الادعاءات المضخّمة من مثل قيام جيش الطريق الثامن بمحاربة اليابانيين في ما لا يقل عن 2689 معركة. وقال ان عدد الاعضاء في الحزب الشيوعي الصيني «تضاعف سبع مرات ليبلغ 498000». منذ ان بدأت الحرب.

وبينما كان ماو يستعمل تشو خدمة لاغراضه تقصّد افهامه ايضاً ان حجمه ليس كبيراً بالقدر الذي يظنه. فبعد ان قام تسي مين بزيارة تشو في المستشفى اخبر الروس بأن تشو يحمل آراءً «غير سليمة» عن العلاقات مع القوميين وادعى بأن تشو عارض قتل التروتسكي البارز تشانغ مو تاو.

وكان ماو قلقاً على اوتو براون، مستشار موسكو في الصين منذ ما قبل المسيرة الطويلة،

الذي قدم الى روسيا مع تشو اذ انه قد يخبر الروس اشياء لم يكن ماو يريد ان تصل الى مسامعهم. واصرّ تسي مين على وصف التكتيك الذي يستعمله براون بـ«المعادي للثورة». وهي تهمة قد تتسبب بقتل براون. وقال براون الذي استمر على قيد الحياة بأنه كانت هناك نية بذلك. وانضم تشو إن اليه واصفاً صديقه القديم وزميله المقرّب منه بأنه «عدو الثورة الصينية». اما براون فيصف تشو بأنه يمثّل «المدعي العام» بالنسبة اليه.

لاحقاً اتهم ماو منافسيه بأنهم «يذمّون الآخرين لدفعهم الى احضان اسياد خارجيين». لكن ايّاً منهم لم ينهمك بالاساءة الى سمعة الناس التي مارسها ماو، ولو بمقدار بسيط.

21- السيناريو المطلوب:
ستالين يقسّم الاراضي الصينية واليابانية
(1939-1940؛ العمر 45-46 سنة)

وقّع الاتحاد السوفياتي في 23 آب معاهدة عدم اعتداء مع المانيا النازية. وفي الشهر التالي اجتاحت الدولتان بولندا واقتسمتا اراضيها. غضب الكثيرون من الصينيين حيال الصفقة التي عقدها ستالين مع هتلر، وربما جاء افضل تعبير عن هذه المشاعر على لسان مؤسس الحزب الشيوعي الصيني تشين تو هسيو، الرجل الذي وضع ماو على طريق الشيوعية، ولكنه طُرد من الحزب لأظهاره ابدى استقلالاً كبيراً في الرأي. بعد مرور سنوات على سجنه على يد القوميين أُطلق سراحه الى جانب غيره من السجناء السياسيين عندما شكّل القوميون والشيوعيون «الجبهة الموحّدة» سنة 1937. عندها كتب قصيدة اعرب فيها عن «حزنه وغضبه». وقارن ستالين بـ«الشيطان المتوحّش» الذي:

«يمشي بخطىً واسعة وبغطرسة في بلد مجاور
... ويحرق ابطالاً واصدقاءً وهم احياء منقضاً عليهم بوحشيّة ...
و يتبدّل معه الصواب والخطأ كتحوّل الليل والنهار،
ويتغيّر الاسود والأبيض فقط وفقاً لأمره ...»

خلقت المعاهدة المعقودة بين ستالين وهتلر احتمال قيام ستالين بعقد صفقة مماثلة مع اليابان وتحوّل الصين الى بولندا ثانية. في الواقع، في تلك اللحظة بالذات وقّع الكرملين على وقف لاطلاق النار مع اليابان فوضع حدّاً للقتال الدائر بين الجيش الاحمر السوفياتي واليابان على الحدود الخارجية لمنغوليا وفي مانتشوكو. تسبّب السيناريو الموضوع لبولندا بالقلق الشديد لدى تشيانغ كاي شيك مما دفعه الى مناقشة الموضوع مع موسكو، لكن ردّة فعلها جاءت تعبيراً عن البهجة. لقد هدفت استراتيجيته الموضوعة للحرب مع اليابان برمّتها الى اقناع روسيا بالتدخّل. الآن بدا ان هناك فرصة حقيقية لقيام ستالين باحتلال جزء من الصين وتعيين ماو في موقع السلطة.

في اواخر ايلول من تلك السنة وعندما وجه ادغار سنو سؤالاً الى ماو عن شعوره ازاء المعاهدة المعقودة بين الاتحاد السوفياتي واليابان كان ردّ ماو مفعماً بالحماسة. قال انه بامكان

روسيا ان توقّع مثل هذه المعاهدة «طالما ان ذلك لا يعيق دعمها ... لمصالح حركة التحرّر العالمية [اي ماو نفسه والحزب الشيوعي الصيني]». ولدى سؤاله عمّا اذا «كان الدعم السوفياتي لحركة التحرّر الصينية سيتّخذ شكلاً مماثلاً الى حدٍّ ما». للاحتلال الروسي لبولندا، اعطى ماو جواباً ايجابياً بقوله: «ان ذلك يأتي فعلاً في سياق الخطوات المحتملة التي قد تقدم عليها اللينينيّة». لقد اصبح السيناريو البولندي الآن نموذجاً يستطيع ماو تطبيقه في الصين(*).

وكذلك رحّب ماو بوضع يد روسيا على الجزء الشرقي من فنلندا في بداية سنة 1940، رغم ان هذا الموقف لم يكن علنياً. وفي تعليمات سرّية صادرة في 25 حزيران اعتبر ان اتفاق السلام السوفياتي-الفنلندي والذي بموجبه ضمّت موسكو مساحات كبيرة وضيقة من الاراضي الفنلندية «يضمن انتصار الثورة العالمية والثورة الصينية». كما قام ماو بالمقارنة بعد ان جرى تقسيم فرنسا الى نصفين اولّهما يقع تحت الاحتلال الالماني والثاني يحكمه نظام العوبة مركزه فيشي. لقد كتب في لغة مرمّزة في مذكّرة موجّهة الى القادة من ذوي المناصب الرفيعة في 1 تشرين الثاني 1940: «ما زال هناك احتمال بحصول تدخّل سوفياتي لتسوية العلاقات الصينية-اليابانية». وفي اشارته الى التقسيم الذي فُرض على فرنسا تابع الحديث عن «حصول [الشيوعيين] على صفقة افضل في [اتكالهم على] تدخّل الاتحاد السوفياتي للقيام بالتسوية، وعلى استمرارنا في المحاولة». هنا ايضاً كان ماو يأمل ان تقوم روسيا باقتسام الصين مع اليابان.

وتصوّر ماو حتى نهر يانغتزي الذي يجري في وسط الصين كخطٍ فاصلٍ مثالي، وفي الاوساط المقربة منه افصح ماو عن حلمه بـ«رسم الحدود ... عند نهر يانغتزي، فيما نحن نحكم النصف ...».

كان تكرار السيناريو البولندي يراود ستالين بالفعل وبدأت روسيا محادثات مع اليابان في ايلول 1939 مباشرة بعد توقيع المعاهدة النازية-السوفياتية، فيما شكّل مستقبل الصين محور المفاوضات. وهكذا كان لستالين اهتمام مباشر في توسّع كل من الجيش الاحمر الصيني وفي الاراضي الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين إذ ان ذلك سيقوّي موقعه التفاوضي حيال اليابان وسيعزّز اهدافه الطويلة الامد في مرحلة ما بعد الحرب.

(*) لم تؤيد موسكو ملاحظات ماو حول النموذج البولوني والحلف السوفياتي الياباني. فصياغتها لم تكن لبقة وتبعها تأنيب عنيف. وأبرق رئيس الكومنترن ديميتروف الى ماو قائلاً: «ان الجوهر التحريضي لذلك يجب ان يظهر جلياً. نطلب بشكل عاجل بأن يتوقف ماو تسي تونغ والرفاق الصينيين الآخرين عن إجراء مقابلات مع المراسلين الأجانب كالمقابلة التي أجريت مع ادغار سنو لأن ذلك يستخدم لأهداف تحريضية». بقي ماو متكتماً علناً وابعد سنو عن الصين الخاضعة لسيطرة الحمر حتى الانفصال الصيني السوفياتي عام 1960.

خلال شتاء 1939-1940 حدث تبدّل ملحوظ في كلام ماو لموسكو عن الاشتباكات المسلّحة بين الشيوعيين الصينيين والقوات التابعة لتشيانغ. انخفضت نبرة كلامه عن مستوى القتال. وقبل توقيع الاتفاق بين ستالين وهتلر كان ماو يصوّر الاشتباكات على انها جاءت نتيجة لمحاولات القوميين للقضاء على القوات الشيوعية زاعماً ان الشيوعيين هم في حالٍ من الدفاع عن النفس. بعد توقيع المعاهدة النازية-السوفياتية راح يسعى للحصول على موافقة ستالين للتوسّع بشكل كبير على حساب تشيانغ. في 22 شباط 1940 ارسل تقريراً يحمل نبرة حربية عالية المستوى الى موسكو يفيد بانه اثناء القتال ضد القوات التابعة لتشيانغ «النصر حليفنا بصورة عامة». وابلغها قائلاً «اننا أبَدنا 6000 من [القوميين] في هبي، وأبَدنا 10000 .... في شانكسي».

لم يقل له ستالين «توقّف!» بل على العكس من ذلك أمر بعد ثلاثة ايام بتحويل مبلغاً ضخماً قدره 300 الف دولار اميركي شهرياً الى الحزب الشيوعي الصيني. عندما غادر تشو إن لاي موسكو بعد ذلك بوقت قصير جلب معه نظام اتصالات جديد للتواصل معها وسلّمه الى ماو(*). واشار مساعد ماو الذي يتولّى ترجمة المواد الواردة في اللغة الروسية الى انه: «كان للرئيس ماو وحده الحق باستعماله. لقد قام شخصياً باجراء الاتصالات وقرّر من هم الاشخاص الذين يطلعهم على المعلومات».

بعد توقيع المعاهدة النازية-السوفياتية واحتمال قيام ستالين بابرام صفقة مماثلة مع اليابان، اطلق ماو تعاوناً سرّياً وثيقاً وطويل الامد مع المخابرات اليابانية املاً بالحاق المزيد من الخراب بتشيانغ والمحافظة على قواته هو. كان على رأس العملية التي قام بها الحزب الشيوعي الصيني رجل يدعى بان هان نيان الذي عمل مع مساعد القنصل الياباني في شانغهاي ايتشي ايواي وهو ضابط مخابرات كبير. أُعطي بأن بطاقة هوية يابانية خاصة كُتب عليها: «الى جميع العسكريين وافراد الشرطة والموظفين العسكريين اليابانيين: الرجاء الاتصال بالقنصل العام لليابان من اجل الاستفسار عن حامل هذه البطاقة». كما تمّ وضع عامل للاتصالات اللاسلكية في منزل ايواي من اجل اجراء اتصال مباشر مع ينان لكن في النهاية لم تُستعمل هذه القناة لاعتبارها محفوفة «بالمخاطر الكبرى».

قام بان بتزويد ايوا بالمعلومات عن قدرة تشيانغ على مقاومة اليابانيين وعن نزاعاته مع الحزب الشيوعي الصيني وعلاقاته بالقوى العظمى وكذلك عن العملاء الاميركيين والبريطانيين في هونغ كونغ وتشونغكينغ. اعتُبرت هذه المعلومات هامة من قبل اليابانيين إذ ان

(*) النظام الجديد كان فعالاً جداً. لم يستطع اليابانيون حتى تحديد موقع الإذاعات وأقل من ذلك فك الرموز.

معلومة واحدة جعلت السفير الياباني لدى اليابان «يطير من الفرح». قبل اجتياح اليابان لهونغ كونغ في كانون الاول 1941 ساهم ايواي في اجلاء عملاء الحزب الشيوعي الصيني. وكما اكّد بان لايواي فان بعض العملاء يستمرون في تجميع المعلومات لليابانيين بينما يأتي آخرون الى شانغهاي من اجل «المساهمة في «حركة السلام» عندنا». شكّلت «حركة السلام». الدافع الاساسي غير العسكري لدى اليابان لتجبر الصين على الاستسلام. من ابرز المنظمات الفاعلة في هذه الخطة كانت «حركة اعادة احياء آسيا وبناء البلاد». التي ساهم بان في انشائها وكانت بتمويل ياباني ومعظم افرادها من الشيوعيين العاملين بشكل سرّي.

استعمل الشيوعيون اليابانيين لطعن القوميين في الظهر. «في ذلك الوقت». تذكّر احد افراد المخابرات في الحزب الشيوعي الصيني ما جرى:

«قام التكتيك المتّبع من قبل اليابانيين والمتعاملين معهم على التالي: استعملوا يد العدو لتوجيه ضربة للعدو الآخر ...». لقد اخبرنا بذلك الرفيق كانغ شينغ مرات عديدة ... كانت منظمات المتعاملين مليئة برفاق من بيننا استعملوا السكاكين التي لدى لليابانيين لقتل القوميين ... من بين الاشياء التي كنت اعرفها شخصياً اعتبر ان ابادة اليابانيين [للجيش القومي السرّي] جنوب يانغتزي [كانت واحدة] من روائع التعاون بين اليابانيين وحزبنا»(*).

بصرف النظر عن الحاق الاذى بتشيانغ كانت المهمة الاخرى لبان تقضي بجعل اليابانيين يسمحون للشيوعيين بالعمل دون مضايقة وذهب الامر الى حدّ ترويج فكرة وقف اطلاق نار سرّي في شمال الصين لدى اكبر ضابط مخابرات ياباني في الصين المايجر جنرال ساداكي كاغيسا.

في شرق وسط الصين أُبرمت صفقة تخلّى بموجبه الجيش الرابع الجديد التابع للشيوعيين عن سكك الحديد مقابل ان يترك اليابانيون هذا الجيش وحده في الريف. ومرّت القطارات اليابانية بسلام عليها لسنوات عدة فيما انتشر الجيش الرابع الجديد التابع للشيوعيين بهدوء. ان الفكرة التي تكمن وراء ترك الشيوعيين بسلام اوضحها لنا شقيق الامبراطور هيروهيتو الامير ميكاسا الذي كان ضابطاً في الصين آنذاك. لقد اخبرنا بان الرأي الياباني يقول بأنه بينما قد يكون الشيوعيون مصدر ازعاج لم يكن لديهم دور هام على المستوى الاستراتيجي، اما تشيانغ كاي شيك فقد اعتبره اليابانيون عدوّهم الرئيسي.

في ربيع 1940 كانت بقع شاسعة من الريف في شمال الصين تحت سيطرة الشيوعيين. في

(*) يبدو أن رهان ماو لم يتوسع الى التعاون العسكري الحالي في هذا المجال، رغم أن القائد الروسي في ينان أخبر عن إحدى المناسبات حيث هاجمت الجيوش الشيوعية القوات القومية في شاندونغ في صيف 1943 «بالتنسيق مع الجيوش اليابانية».

سلسلة واحدة من المعارك الدائرة في آذار، مباشرة بعد صدور الضوء الاخضر الضمني من ستالين، حشد الشيوعيون بين 30 و40 الفاً من الجنود وقضوا على ما يزيد على 6000 من القوميين. بعد ان عزّز قادة جيش الطريق الثامن زو دي وبينغ دو-هواي مواقعهما في شمال الصين شعرا بانه يتوجّب عليهما القيام بعملٍ ما ضد اليابان. وفي 1 نيسان امرا بالقيام بتحضيرات على نطاق واسع لعمليات تخريب ضد خطوط المواصلات اليابانية. لكن ماو رفض السماح بشنّ الهجوم، وعوضاً عن ذلك أمر كل الجيوش المتوفرة بالانتقال الى شرق وسط الصين للاستيلاء على مزيد من الاراضي هناك، فأجبر زو وبينغ على التخلّي عن مخططهما.

عند هذه النقطة وجّه تشيانغ دعوة الى زو الذي اعترض على القتال الداخلي المستمر للحضور الى تشونغكينغ لمناقشة حلّ للمسألة. في طريقه اليها توقّف في ينان اذ ان ماو اخبره بان مؤتمراً للحزب كان على وشك الانعقاد، لكن زو لم يجد اي مؤتمر ولم يلقَ حتى اي اشارة اليه. ومع ذلك مُنع من اكمال طريقه الى تشونغكينغ وتمّ احتجازه في الواقع في ينان طوال المدة المتبقية للحرب. رغم كونه القائد العام لجيش الطريق الثامن لم يلعب اي دورٍ في الحرب واستعمله ماو بشكل اساسي للموافقة الروتينية على قراراته.

ارسل ماو شخصاً آخر الى تشونغكينغ هو تشو إن لاي الذي كان قناة الاتصال الوحيدة آنذاك مع تشيانغ. واكمل ماو احكام سيطرته على الاتصالات مع المكانين الهامين بالنسبة اليه وهما موسكو وتشونغكينغ.

في ذلك الوقت، في ايار 1940، دخلت الحرب اليابانية-الصينية مرحلة حاسمة. بدأ اليابانيون بتكثيف قصفهم على تشونغكينغ التي اصبحت المدينة الاكثر تعرّضاً للقصف في العالم الى تاريخه. خلال الستة اشهر التالية كان وزن القذائف التي أُسقطت عليها موازياً لوزن تلك التي قصف بها الحلفاء جميع انحاء اليابان طوال فترة حرب المحيط الهادىء، وقُتل حوالى العشرة آلاف مدني في غارة واحدة. في غضون ذلك تقدّم الجيش الياباني نحو نهر اليانغتزي باتجاه تشونغكينغ. طلبت طوكيو ان تقفل فرنسا خط سكة الحديد من الاراضي الفيتنامية وبان تقفل بريطانيا الطريق المؤدية الى بورما، وهما الطريقان الوحيدان المؤديان الى الاراضي الصينية، الى جانب الاراضي التي تصلها بروسيا. وافقت كل من الدولتين الغربيتين في 20 حزيران و18 تموز على التوالي (رغم ان الاقفال البريطاني دام فقط ثلاثة اشهر). في تشونغكينغ ازدادت الرغبة في عقد صفقة مع اليابان. كان كل من تشيانغ والصين يواجهان ازمة خطيرة.

بالنسبة الى ماو شكّلت الازمة مصادفة سعيدة غير منتظرة، فكلّما تفاقمت كلّما كان الامر افضل. قال لاحقاً بانه «أمل بان يبلغ [اليابانيون] ... ». اعتقد انه بهذه الطريقة سيترتّب على روسيا التدخّل.

الاّ ان بينغ دو-هواي الذي كان حينها القائد الفعلي لجيش الطريق الثامن بعد شبه الاحتجاز الذي تعرّض له زو في ينان، اراد ان يخفّف من الحماس السائد في تشونغكينغ واعاد احياء خططه الرامية الى القيام بعملية تخريب خطوط المواصلات اليابانية في شمال الصين مطلقاً عليها اسم «عملية المئة فوج» الباهر. في 22 تموز امر جيش الطريق الثامن بالاستعداد للانطلاق في 10 آب وارسل برقية لاسلكية عن الخطة الى ماو مرتين. لكنه لم يحصل على ردّ وعندما لم يحصل بينغ على اي جواب على برقيته الثالثة اعطى الضوء الاخضر للانطلاق في العشرين من الشهر.

كان بينغ يعلم بأن ماو سيعارض خطته. هذه الخطة ستؤدي ليس فقط الى مساندة تشيانغ بل ستؤدي ايضاً الى الحاق الاذى بالشيوعيين اذ ان طوكيو كانت ملزمة بالرد على الاراضي الواقعة تحت السيطرة الشيوعية. كان بينغ يعتبر البلد اولوية تتقدّم على الحزب.

شملت العملية التي استمرّت حوالى الشهر بشكل اساسي هجمات على القواعد العسكرية وليس على الجنود اليابانيين. أخذ اليابانيون «على غفلة تامة» كما جاء في كلامهم. وأُفيد بان الاضرار التي لحقت بخطوط سكك الحديد والاوتوسترادات في بعض الاقسام «بالغة». وهي «على نطاق واسع يفوق الوصف». (لقد قام المحكومون بالسخرة بجزء من العمل التخريبي). اصيبت مناجم الفحم الواقعة في جينغزينغ والتي كانت تغذّي مصانع انشان للحديد والفولاذ الهامة في منشوريا باضرار جسيمة واصبح المنجم الرئيسي خارج نطاق العمل «لمدة نصف سنة على الاقل». كان على اليابانيين سحب احدى الفرق العسكرية التي تحارب تشيانغ من الجبهة كما كان عليهم تأجيل تنفيذ الخطط المرسومة للاستيلاء على خطّين لسكّة الحديد في جنوب الصين لفترة قصيرة.

ظهر الاثر الكبير على معنويات الصينيين بصورة خاصة في المناطق التي يسيطر عليها القوميون والتي تعرّضت للقصف العنيف. عمدت الصحافة التابعة للقوميين هناك الى مدح جيش الطريق الثامن لقيامه بالهجوم ولـ«الحاقه ضربة قاضية بالاشاعات التي يروّجها العدو باننا منقسمون وغارقون في نزاع داخلي». من ارسل تشو برقية الى ماو يفيد فيها بان العملية «كان لها وقعٌ كبير جداً». «نحن نشيّع الخبر وننشره في كل مكان ... الآن حان الوقت لنشر نفوذ حزبنا». الاّ ان ماو استغلّ النتائج السلبية باقصى قدر ممكن.

لكن في مجالسه الخاصة كان ماو يغلي وذلك عائد جزئياً لكون العملية تسبّبت باصابات كبيرة لدى الشيوعيين وصلت الى 90 الفاً حسب زو دي. ردّ اليابانيون ردّاً عنيفاً جداً على الاراضي الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين والتي تقلّصت الى النصف في وقت قصير. كما ان عدد السكان تحت الحكم الشيوعي انخفض من حوالى 44 مليون الى 25 مليون. لكن بينغ ما

لبث ان اعاد الجيش الطريق الثامن والقواعد العسكرية الى سابق عهدهما. ففي فترة تجاوزت السنتين بقليل استعاد جيش الطريق الثامن القوة التي كان يتمتّع بها قبل سنة 1940 فبلغ عديده 400 الف رجل كما اعاد بينغ بناء المناطق التي أُنشئت عليها القواعد التابعة لهذا الجيش.

لكن اكثر ما اغاظ ماو هو ان المبادرة قلّلت من حظوظ الحاق الهزيمة بتشيانغ وكذلك قلّلت من حظوظ حصول التدخل الروسي. في السنوات اللاحقة جعل ماو بينغ يدفع ثمناً باهظاً لقيامه بهذه العملية التي هي الوحيدة الواسعة النطاق التي نفّذتها قوات شيوعية طوال السنوات الثمانية للاحتلال الياباني.

في تلك الاثناء ورغم القصف الياباني صمدت تشونغكينغ ولم يُصَب تشيانغ بالانهيار، فكان على ماو ايجاد طريقة اخرى لتوريط الروس. ابتكر تشيانغ حينها خطة جديدة لوضع حدّ للقتال الدائر بين القوميين والشيوعيين عبر الفصل بين القوتين على الارض. في ذلك الوقت كان جيش الطريق الرابع يسيطر على معظم الاراضي التي يتوقّع ان يحكم قبضته عليها في شمال الصين لذلك توقّف القتال هناك. انتقل المسرح الرئيسي للحرب الاهلية الى وادي يانغتزي في شرق وسط الصين بالقرب من شانغهاي ونانجينغ. وقضت خطة تشيانغ بان ينتقل الجيش الاحمر الرابع الجديد الى خارج منطقة يانغتزي والالتحاق بجيش الطريق الثامن في الشمال مقابل السماح للشيوعين بالاحتفاظ بجميع الاراضي تقريباً التي استولوا عليها في شمال الصين. في 16 تموز 1940 تقدّم تشيانغ بهذا العرض المتوازن المصاغ في شكل «امر». واعطى الجيش الرابع الجديد مهلة تنتهي خلال شهر.

لم يكن ماو ينوي التخلّي عن الداخل الصيني المتميز بغناه وموقعه الاستراتيجي. ورفض رفضاً قاطعاً الامر-العرض الذي تقدذم به تشيانغ. في الواقع كان يأمل ان يضطر تشيانغ الى استعمال القوة للتخلّص من الجيش الرابع الجديد وبانه ستحصل حرب اهلية شاملة. قال السفير الروسي بانيوشكين بان حسابات ماو تقوم على اعتبار انه «اذا كان هناك من حرب اهلية سيدعم الروس الحزب الشيوعي الصيني». وكان ماو يريد ان «يدفع الامر باتجاه تطوّر كهذا».

في البرقيات العديدة التي ارسلها ماو الى موسكو في ذلك الصيف ظلّ يحثّ الروس على مساعدته في توجيه «ضربات موجعة» الى القوميين. وعوضاً عن التوجه شمالاً شنّ الجيش الرابع الجديد هجومه الاكبر حتى ذلك التاريخ على القوميين في بداية تشرين الاول عند نقطة تدعى الجسر الاصفر فقضى على 11000 من الجنود القوميين وقتل اثنين من الجنرالات. لم يأمر تشيانغ بالقيام بأي ردّ وحافظ على هدوئه حيال الهزيمة جرياً على عادته بعد الهزائم العديدة

التي مُني بها على يد الشيوعيين. خلافاً لماو كان تشيانغ خائفاً من التسبب باشعال حرب اهلية شاملة قد تقضي على حظوظ الصين بالصمود في وجه اليابان. وأكّد في 19 تشرين الاول انه على الجيش الرابع الجديد الانتقال الى «المناطق المحدّدة» خلال شهر.

واجه ماو هذا الاستحقاق بصمت، فأراد ان يدفع القائد العام الى اللجوء الى القوة فتبدأ بذلك حرب اهلية شاملة وكما قال ماو لتشو، «سيتدخّل الاتحاد السوفياتي». مرة اخرى لم يقم تشيانغ بأي تحرّك وكان ماو على علم بنقاط الضعف التي لدى القائد العام، فكتب رسالة الى تشو في 3 تشرين الثاني جاء فيها: «ان اكثر ما يخشاه تشيانغ هو الحرب الاهلية والاتحاد السوفياتي. لذلك نستطيع ان نلحق به الاذى ونرعبه من خلال ذلك».

في 7 تشرين الثاني 1940 ، اي في ذكرى الثورة البولشيفية، ناشد ماو موسكو التدخّل عبر التقدّم باقتراح ينمّ عن ولع شديد وصريح بالقتال. وقّع ماو بنفسه البرقية التي وجّهها الى ديميتروف ومانويلسكي، المساند الاول لماو في الكومنتيرن وأُرسلت نسخٌ عنها الى ستالين ووزير الدفاع سيميون تيموشنكو. كانت خطة ماو تقضي بارسال 15000 جندي «من اجل تسديد ضربة». الى الصفوف الخلفية للجنود التابعين لتشيانغ ودعا هذه العملية «هجوم مضاد وقائي». اي انه سيطلق الطلقة الاولى.

كان ماو يطلب من موسكو الموافقة على شروعه هو في شنّ حرب اهلية شاملة في معمعة الحرب الصينية–اليابانية. ان ما جعله يشعر بالقدرة على المجازفة الى هذا الحدّ هو ادراكه ان التطورات الاخيرة قد تجعل ستالين يحبّذ توجيه ضربة الى تشيانغ. ابتداءً من اواخر ايلول كان الكرملين يناقش الانضمام الى الحلف الثلاثي الذي كانت فيه اليابان عضواً الى جانب المانيا النازية وايطاليا الفاشية. اذا وجّه ماو ضربةً الآن، مشكّلاً هجوماً ضد تشيانغ على شكل كمّاشة وبالتعاون مع اليابان، فإن تشيانغ قد ينهار. اذا ساهم ماو في الحاق الهزيمة بتشيانغ فإن ذلك سيعزّز موقع ستالين بشكل ملحوظ في المفاوضات مع طوكيو.

توسّل ماو لموسكو للسماح له بالدخول الى هذا التحالف الشرّير مع اليابان المُعتبَر امراً واقعاً حين كان وزير الخارجية السوفياتي مولوتوف على وشك الانطلاق الى برلين حيث احد اهدافه جعل هتلر يساعد موسكو على اقحام نفسها في الحرب الصينية–اليابانية كفريق اساسي معني بالمسألة. واعلن برنامج مولوتوف ما يلي: «ناقشوا ضرورة التوصّل الى سلام مشرّف للصين (تشيانغ كاي شيك) يكون فيه الاتحاد السوفياتي بمشاركة المانيا وايطاليا على استعداد للتوسّط ... ويبقى نظام المانتشوكو قائماً في اليابان». من ثم قال مولوتوف للفوهرر: «يجب ان نجد مخرجاً بمثابة تسوية للوضع السائد بين الصين واليابان ... في هذا الخصوص يستطيع الاتحاد السوفياتي والمانيا ان يلعبا دوراً هاماً». لكن الفوهرر لم يكترث للامر.

لم تتلاءم الشروط التي تقدّمت بها اليابان بخصوص الصين مع تطلّعات ستالين. ان طوكيو سوف توافق فقط على «منطقة نفوذ روسية في منغوليا الخارجية وزينغجيانغ»، الامر الذي لم يكن مغرياً ابداً بالنسبة لستالين إذ ان هذين المكانين كانا في الاصل تحت سيطرته. واعتبرت اليابان ايضاً ان «الاعتراف والقبول ببقاء المقاطعات الثلاث الواقعة في الشمال الغربي (شانكسي وغانسو ونينغزيا) قاعدة شيوعية صينية». ممكن بشرط ان توافق روسيا على «كبح النشاطات المعادية لليابان التي يقوم بها الشيوعيون الصينيون». لكن هذه الفكرة ايضاً لم تكن كافية بالنسبة لستالين إذ ان الحزب الشيوعي الصيني كان يحتلّ ارضاً اوسع بكثير من هذه المقاطعات الثلاث.

يعني فشل موسكو في عقد صفقة مع طوكيو ان الأولوية بالنسبة الى ستالين تبقى تأجيل احتمال هجوم على روسيا وذلك يعني ايضاً انه لم يكن في استطاعة ماو شنّ حرب شاملة على تشيانغ. كان ستالين يودّ رؤية الصين موحّدة ومستمرّة في منع اليابان من التقدّم باتجاه الاراضي الروسية. عندما ارسل ستالين الجنرال تشويكوف الى تشونغكينغ بصفته مستشاره العسكري الجديد، سأل تشويكوف لماذا أُرسل الى «تشيانغ كاي شيك وليس الى الجيش الاحمر الصيني». اجابه ستالين قائلاً: «ان مهمتك تقوم على تكبيل يَدَي المعتدي الياباني في الصين بحزم»(*).

لذلك جاءت ملاحظة الكرملين الى ماو كما يلي: لا تشنّ الحرب. ووصله امر في 25 تشرين الثاني جاء فيه: «في الوقت الراهن، إلعب على مسألة الوقت وناور وساوم تشيانغ كاي شيك في كل الطرق الممكنة بشأن اخراج قواتك من وسط الصين ... من المهم الاّ تكون البادىء في العمل العسكري ضد تشيانغ ...». لكن موسكو سمحت لماو بالردّ في حال تعرّض للهجوم: «لكن اذا قام تشيانغ كاي شيك ... بالهجوم عليك، يجب ان تضرب بكل قوّتك ... في هذه الحال ستقع المسؤولية الكاملة في التسبّب بالانشقاق وبالحرب الاهلية على تشيانغ ...».

ترك هذه الامر لماو املاً وحيداً يكمن في اقدام تشيانغ على اطلاق الطلقة الاولى. لكن بما ان المواعيد النهائية لانتقال الجيش الرابع الجديد الى الشمال حلّت وانقضت توصّل ماو الى خلاصة مفادها «ان قيام تشيانغ بشنّ هجوم كبير ليس محتملاً ...».

بعد ان فشل ماو في استفزاز تشيانغ لاطلاق الطلقة الاولى خلق وضعاً الآن بات بموجبه تشيانغ مجبراً على الضغط على زند البندقية.

(*) دور تشيكوف الآخر والذي لم يذكره في مذكراته كان إعطاء موسكو تقييماً حول إذا كان باستطاعة الجيش الأحمر الاستيلاء على السلطة بعد هزيمة اليابان.

الوطنية، سجّل هذا الاخير ريبته من قيام ماو بنصب فخٍّ لزيانغ ينغ يبدو معه مذنباً كما سجّل في هذه المذكرات اعتقاده بان تشو يكذب.

في غضون ذلك ناشد ماو موسكو مباشرة شنّ حرب شاملة على تشيانغ ووصف مصدر مخابراتي روسي ما جرى بـ«برقية هستيرية تلو الاخرى». معتبراً بان خطة ماو تقضي بابادة الجيش الرابع الجديد اولاً ومن ثم ابادة جيش الطريق الثامن وبعد ذلك «سحق الحزب الشيوعي الصيني». قال ماو لموسكو «يوجد خطر بتعريض جيشنا للابادة الكاملة».

وفي اليوم الذي وصلت فيه هذه البرقية، اي 16 كانون الثاني، اشار رئيس الكومنتيرن ديميتروف في دفتر يومياته الى وجود «خطر باندلاع حرب اهلية». ودعا الجيش الرابع الجديد «جنودنا». لم تصدّق موسكو مزاعم ماو بان تشيانغ كان على وشك القيام بمحاولة من اجل «ابادة» الحزب الشيوعي الصيني وابلغت ماو بذلك. فردّ ببرقية اخرى تحذيرية وطلب ان تذهب الى الرفيق ستالين «بالتحديد» كي يستطيع ان يفهم حقيقة الوضع في الصين ويرى ما إذا كان غير قادرٍ على مدّنا بالمساعدة العسكرية عاجلاً». وتعني «المساعدة» التدخّل المباشر وليس فقط الاسلحة وتقديم المساعدة. يبدو ان هذا الالحاح اغضب ستالين، ففي مناسبة احياء ذكرى وفاة لينين في 21 كانون الثاني تكلّم باستخفاف عن القائد الاسمي للجيش الرابع الجديد يي تينغ الذي كان الروس فكّروا بإرساله مرةً الى مديرية معسكرات العمل الاصلاحية ووصفوه بـ«الحزبي غير المنضبط». «علينا التأكد من انه لم يتسبّب بهذه الحادثة. نحن ايضاً كان لدينا عدد من الحزبيين الجيّدين الذين أُجبرنا على قتلهم بسبب عدم انضباطهم». وقال ديميتروف لماو مرة اخرى بحزم فاق ما كان عليه في المرّات السابقة «لا تأخذ المبادرة في شقّ...».

وفي رسالته الى ستالين القى ديميتروف المسؤولية على ماو شخصياً بقوله: «ان الرفاق الصينيين... يسعون الى الانشقاق بأسلوب طائش؛ لقد قرّرنا... ان نلفت نظر الرفيق ماو تسي تونغ الى هذا الموقف غير السليم...». في 13 شباط وافق ستالين على الامر الصادر عن ديميتروف الى الحزب الشيوعي الصيني والموجّه الى ماو شخصياً. كان استباقياً: «نحن نعتبر ان الانشقاق ممكن تجنّبه. يجب الاّ تناضل من اجل احداثه. على العكس من ذلك يجب... ان تعمل المستطاع... لمنع اندلاع حربٍ اهلية. نرجوك ان تعيد النظر في موقفك الحالي من هذه المسألة...». في اليوم نفسه ارسل ماو برقية الى موسكو يبدي فيها التزامه بسياستها التزاماً شديداً لكن تردّد فيها صدى تصميمه على النيل من تشيانغ: لقد شدّد ماو على ان «الانقسام حتمي في المستقبل».

توقّع ماو ان تأخذ موسكو قرارها قبل ايام من اقدامها على تلك الخطوة. اصابه هذا القرار بخيبة كبيرة وجعله يكتب رسالة غير مألوفة في 31 كانون الثاني الى ولديه الموجودين في روسيا وهو نادراً ما كان يكتب اليهما، وجا فيها:

«الى ولديّ آن ينغ وآن تشينغ:

... انا مسرور للتقدّم الذي احرزتماه. ان آن ينغ يكتب جيداً والاحرف الصينية التي يكتبها مقبولة جداً ولديكما تطلّعات الى القيام بانجازات وهذا كلّه جيد جداً. لديّ شيء واحد اقترحه عليكم: بينما انتما تعيشان شبابكما واظبا اكثر على دراسة العلوم الطبيعية وتكلّما اقلّ في السياسة. السياسة تستأهل الحديث عنها، لكن في الوقت الراهن يجب ان تركّزا على دراسة العلوم الطبيعية... ان العلم وحده هو التعلّم الحقيقي وسيكون استعماله غير محدود في المستقبل...».

بالمقارنة مع رسائله السابقة الموجّهة الى ولديه والتي اتّسمت بقلّتها وبرودتها وتشابهها مع المذكرة فان هذه الرسالة كانت طويلة اضافة الى حميميّتها وكآبة في نبرتها. انها ترشح بالارهاق. واكثر ما يدهش فيها على نحو قاطع هو ان ماو طلب من ولديه تجنّب السياسة!

قد يكون ماو اخفق في التسبّب بحرب شاملة ضد تشيانغ لكنه حقّق عدداً غير قليل من الانتصارات. ليس اقلّها مصدراً للسرور موت منتقده الاكثر صراحةً. فرّ زينغ يانغ بعد ان أمر تشيانغ جيش القوميين بالتوقف عن القتال، لكن في ساعات الصباح الاولى لنهار 14 آذار وبينما هو نائم في مغارة جبلية اطلق عليه النار وأرداه الضابط المعاون له الذي انقلب على الشيوعيين قبل مدة. أخذ هذا الضابط المعاون الذهب والأشياء الثمينة التي كان زينغ يانغ يضعها في جيوبه وسلّم نفسه الى القوميين.

قبل شهرين على وفاة زينغ يانغ ومباشرة بعد نجاته من فخ كاد يودي بحياته كتب ماو رسالة الى مسؤولين حزبيين كبار وفيها ادانة قاسية لزينغ يانغ وتلميح الى ان زيانغ هو «عميل للعدو». (حتى اليوم لا تزال الملامة تقع على زيانغ ينغ في أغلب الاحيان، الى جانب تشيانغ كاي شيك، في مقتل نساء ورجال الجيش الرابع الجديد).

مثّل التخلّص من زيانغ ينغ واحداً فقط من المكاسب التي حقّقها ماو فيما المكسب الآخر هو انه سُمح للجيش الرابع الجديد بالبقاء حيث هو. كان تشيانغ مستقتلاً لتجنّب اندلاع حرب اهلية شاملة وسط الحرب ضد اليابان. ومارس حينها الضغوط الهائلة على القائد العام كي لا يعرقل التوسّع الشيوعي، وبدرجة اقل كي لا يصدّه. شكّل الجنرال تشويكوف صلة جليّة بين موافقة تشيانغ على القبول بالخط المرسوم واستمرار نقل المساعدات الروسية الى القوميين. لاحظ السفير السوفياتي كيف ان تشيانغ كان محتدماً من الغيظ، كتب بانيوشكين قائلاً بانه «تلقّى عرضي للقضية بتوتّر شديد». «لقد جال في المكتب ذهاباً واياباً و... كان عليّ تكرار سؤالي ثلاث مرّات».

كان تشيانغ ضعيفاً امام الضغوط الكبيرة الآتية من الولايات المتحدة التي كانت أمله الوحيد بتحرير نفسه من الاتكال على الروس للحصول على الاسلحة. كان الهمّ الطاغي للرئيس الاميركي فرانكلين روزفلت، كما كان بالنسبة الى ستالين، جعل الصين تستمر في الحرب على اليابان اطول فترة ممكنة ومنعها عن احراز ايّ تقدّم. ونظراً الى انه لم يكن للرئيس الاميركي اي نفوذ لدى الشيوعيين فقد مارس كلّ ضغوطاته على تشيانغ وربط مسألة تقديم المساعدة الى حكومته بنهاية الصراع الداخلي بغض النظر عن الفريق الذي تسبّب به. في اعقاب الحادث الذي جرى للجيش الرابع الجديد اعلنت وسائل الاعلام الاميركية ان واشنطن تناقش مسألة الاحتفاظ بقرض بقيمة خمسين مليون دولار اميركي بسبب الحرب الاهلية. وصل هذا الخبر تماماً حين كان ممكناً ان تلعب المساعدة الاميركية دوراً كبيراً في الوقت الذي فُتح فيه الخط الجوّي الذي يمرّ فوق الهملايا المعروف بـ«سلسلة الجبال» في 25 كانون الثاني.

اعتمد روزفلت بصورة اساسية في الحصول على المعلومات الخاصة بالصين على شبكة خاصة ضمّت ادغار سنو، متجاهلاً الى حدٍّ كبير وزارة الخارجية الاميركية التي لم يكن يثق بها. وكان المزوّد الاساسي بالمعلومات عن الصين والخاص به ضابط في البحرية يدعى ايفانز كارلسون الذي رفع التقارير المليئة بالآمال الى البيت الابيض وفيها ثناءٌ على الشيوعيين. كان روزفلت يكرّر هذه المعلومات دون السؤال عن صحّتها امام اعضاء ينتمون الى الحلقة الخاصة به وقال له احد هؤلاء بان رواية كارسون للاحداث اثبتها ما جاء في صحيفة النجم الاحمر Red Star التي يملكها سنو. كان كارلسون في تشونغكينغ حين جرت الحادثة للجيش الرابع الجديد ومباشرة بعد ذلك عاد الى واشنطن لينقل الرواية الشيوعية الى روزفلت شخصياً.

لم تكن بريطانيا مأخوذة في الاعتبار حين يتعلّق الامر بالمساعدات المادية، الاّ ان تشيانغ طمح الى التقرّب من الكتلة البريطانية-الاميركية، لذلك كان عرضةً للضغوط البريطانية. كان رئيس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل يكره تشيانغ لأنه لا يملك الفعالية في المجال العسكري كما كان يعتبره تهديداً محتملاً للمصالح البريطانية في الصين. قال السفير البريطاني في الصين كلارك كير الى تشيانغ انه في حال اندلاع حرب اهلية فان بريطانيا لن تدعمه بغض النظر عمّن يبدأ بالقتال. وكانت هناك اشارات الى وجود علاقات تربط كير مع السوفيات. بالطبع بصفته السفير البريطاني في مرحلة تزامنت مع الحدث الخاص بالجيش الرابع الجديد، فإن نصيحته الى لندن تؤيّد الشيوعيين بقوة. قال علناً بان تشو إن لاي يساوي كل القوميين مجتمعين.

نتيجة للحدث الذي جرى للجيش الرابع الجديد نظّمت موسكو حملة اعلانية هائلة ضد تشيانغ في الغرب. وزعمت الدعاية الشيوعية بان عشرة آلاف ذهبوا ضحية مذبحة، لكن في الواقع ان العدد الاجمالي للاصابات هو حوالى الالفين. وكان ثلاثة آلاف تمكّنوا من الفرار

عائدين الى الجهة التي كانوا فيها وذلك من خلال الاستدارة وسلوك الطريق الشمالي عبر نهر اليانغتزي الذي اختاره تشيانغ كما انهم لم يتعرّضوا للتحرّش على الطريق.

لم ينصب تشيانغ فخّاً لكنه عرض قضيته على نحو هزيل. اعلنت حكومته قراراً غير حكيم يقضي بحلّ الجيش الرابع الجديد فتركت انطباعاً بان القوميين ابادوا هذا الجيش. ومن العوائق التي واجهها تشيانغ ايضاً انه لم يحتجّ علناً على الاشتباكات الواسعة العديدة التي جرت في السابق والتي كان فيها جنوده الضحية. وبلغ به الامر اخفاء الاخبار المتعلّقة بهم بحجة ان النزاع الاهلي مؤذٍ لمعنويات الناس كما انه مؤذٍ فيما يتعلّق بالحصول على المساعدات الخارجية التي اقرنتها القوى الخارجية بشرط عدم حصول نزاع داخلي. هذا الصمت من قبل القائد العام كان مناسباً ايضاً للشيوعيين. وكما جاء في كلام للقائد العام الشيوعي زو دي: «احتفظ [القوميون] بالصمت وكذلك فعلنا نحن. لقد اصيبوا بالهزيمة ولم يتكلّموا؛ ربحنا فلماذا نعلن عن ذلك؟». نتيجة لجميع هذه العوامل علم الكثيرون في الغرب بالحادث الذي جرى للجيش الرابع الجديد ورأوا فيه هجوماً غادراً واسع النطاق شنّه القوميون على الشيوعيين الابرياء.

كانت ماكينة الدعاية التابعة للشيوعيين فعّالة. في تشونغكينغ قاد تشو إن لاي معزوفة ماو التضليلية وكان تشو الوحيد الذي يعلم بدور القتل الذي تولاّه ماو في تصفية الرجال ونسائهم في الجيش الرابع الجديد. حقّق شريك ماو نجاحاً كبيراً في نشر الكذبة وذلك عائد لوسامته، واخبرتنا الصحفية الاميركية مارتا غيلهورن التي التقته في ذلك الوقت بانها كانت ستلحق بتشو الى اقاصي الارض لو دعاها الى ذلك. لكن الخلاصة التي توصّل اليها زوجها ارنست همينغواي تبرز الميزة الاساسية لدى تشو: «انه يقوم بعمل جيد الا وهو تسويق وجهة نظر الشيوعيين بخصوص اي موضوع قد ينشأ».

في اميركا وفي 22 كانون الثاني تضمّنت صحيفة The New York Herald-Tribune النيويورك هيرالد تريبيون تقريراً بقلم ادغار سنو يؤيّد الرواية الشيوعية للاحداث وجاء في افتتاحيّته: «ان اول رواية يمكن الاعتماد عليها بالنسبة الى الاشتباكات التي جرت مؤخراً...». لكن رواية سنو كانت مرتكزة كلّياً على احد رجال المخابرات التابعين للحزب الشيوعي الصيني في هونغ كونغ.

وفيما جالت الرواية الشيوعية جميع انحاء العالم فإن ملاحظات اخرى أُنزلت الى المرتبة الثانية من قبل اصدقاء موسكو والحزب الشيوعي الصيني في اميركا. ابدى همينغواي الذي كان في الصين مباشرة بعد الحادث الذي جرى للجيش الرابع الجديد ملاحظات قاسية عن الشيوعيين: «... بصفتهم شيوعيين صالحين سيحاولون توسيع مدى نفوذهم... مهما كانت الحدود البرّية التي يقبلون بها على الورق». وكتب ايضاً: «يعود الفضل في ذلك الى الشيوعيين».

«اعلان ممتاز». «لدى اميركا فكرة مبالغ فيها عن الدور الذي لعبوه في الحرب ضد اليابان. ان الدور الذي لعبوه كبير جداً لكن الدور الذي لعبه الجيش التابع للحكومة المركزية هو اكبر من ذلك بمئة مرة». قال همينغواي ان «الشيوعيين، وفقاً لتجربتي في اسبانيا، يحاولون دائماً اعطاء الانطباع بانهم الوحيدون الذي يحاربون فعلياً».

نظراً الى الوزن الذي يتمتّع به اسم همينغواي كان من المحتمل ان يترك تقييمه للامور تأثيراً كبيراً على الرأي العام لكنه لم يبصر النور حتى سنة 1965. لقد ثناه عن نشر آرائه سنة 1941 احد مساعدي روزفلت المدعو لوتشلين كوري الذي اعلمه بأن «سياستنا تقوم على الثني عن الحرب».

زار لوتشلين كوري الذي كان يشغل منصب المستشار الاقتصادي في البيت الابيض الصين مباشرة بعد الحادث الذي ألمّ بالجيش الرابع الجديد. ويشير الرصد الاميركي لحركة المخابرات السوفياتية (فينونا) الى ان كوري يساعد الروس ويعتقد البعض انه كان عميلاً سوفياتياً. وفي دراسة حكيمة أُجريت مؤخراً عن روزفلت والمخابرات وصفٌ لكوري بانه «المتعاطف الذي هو عرضة للتلاعب». وتخلص الدراسة الى انه لم يكن جاسوساً بل «صديقاً». للروس في البيت الابيض. اثناء رحلته الى الصين اسدى للشيوعيين خدمة ممتازة. في تشونغكينغ قال لتشيانغ بانه يحمل رسالة شفوية من روزفلت، اضافة الى واحدة مكتوبة. وبدأ كوري رسالته الشفوية بهذه الجملة: انه على بعد عشرة آلف ميل «يبدو ان الشيوعيين الصينيين هم ما نسمّيه في بلدنا شيوعيين. نحن نقدّر موقفهم من الفلاحين ومن النساء ومن اليابان».

في التقرير الذي رفعه كوري الى روزفلت ذكر اشياء سلبية عن تشيانغ واظهر صورة مشرقة جداً عن الشيوعيين. اعتبر ان «الشيوعيين هم الحزب الوحيد الذي تمكّن من جذب تأييد شعبي واسع». مشيراً الى ان هذا هو السبب وراء انتشارهم. وقدّم كوري الى روزفلت الرواية الشيوعية للأزمة التي وقع فيها الجيش الرابع الجديد(*).

كانت الضغوط الدولية على تشيانغ كبيرة لدرجة انه في 29 كانون الثاني أبلغه سفيره لدى موسكو بان يطلب من الكرملين التدخّل للمساعدة في حلّ الازمة مع الشيوعيين، وعملياً يعني ذلك الطلب من الروس ان يفرضوا شروطهم. بعد مرور ثلاثة ايام قال ماو المبتهج

(*) أمر آخر قام به كوري، وكان لمصلحة ماو، هو إحباط محاولة تشيانغ إقامة قناة مؤيدة لروزفلت. اقترح تشيانغ أن يطلب كوري من روزفلت إن يرسل له مستشاراً سياسياً مقرباً من الرئيس. سمى تشيانغ من اختاره بنفسه وهو وليم بوليت السفير الاميركي الاول الى الاتحاد السوفياتي، الذي يعرفه تشيانغ شخصياً وعرف بمناهضته للشيوعية. رفض كوري طلب تشيانغ من تلقاء نفسه، ولا إشارة الى انه أخبر روزفلت حتى بأن تشيانغ يريد بوليت. عندما عاد كوري الى اميركا نصح بأكاديمي هو أوين لاتيمور الذي لم يلتق حتى بروزفلت. وأقله الاتصال بالرئيس الذي حدده تشيانغ. والنتيجة كانت أن كوري أحكم قبضته على المكالمات بين تشيانغ وروزفلت.

كثيراً للقادة العسكريين في جيشه: «مهما حاول تشيانغ كاي شيك ان يتمرّد، بإمكانه ان يجرّب هذا الخيار أو ذاك، الاّ انه في النهاية سيطيح بنفسه». استعمل ماو كلمة «متمرّد». كأنّ تشيانغ كان خارجاً عن القانون وكأنه اصبح هو جالساً على العرش. قبِل تشيانغ بالمطالب الروسية بالسماح لرجال ماو الاحتفاظ بما كسبوه من الاراضي والبقاء في قلب الاراضي الصينية بالقرب من نانجينغ وشانغهاي.

ادرك ماو بسرعة كيف يمكن ان يكون صحفيون اجانب مثل سنو مفيدين لقضيته لكنه لم يقدّر بسرعة الافادة الناتجة عن تكبيل يدَي تشيانغ من قبل الحكومتين البريطانية والاميركية. كان عداؤه للدولتين كبيراً وفي 25 تشرين الاول 1940 قال للضابط الذي يشغل اعلى منصب لديه انه يتمنّى ان يحتلّ النازيون بريطانيا وان يستمر اليابانيون في احتلال الصين وقال «ان السيناريو الاصعب والاكثر خطورة والاكثر سواداً هو انضمام تشيانغ كاي شيك الى الكتلة البريطانية الاميركية»:

> «يجب علينا ان نتصوّر التالي: ان اليابانيين غير قادرين على احتلال سنغافورة... التي ستحتلّها البحرية الاميركية؛ ان لندن لا تسقط... اليابان ستستسلم الى اميركا؛ الجيش الياباني يغادر الصين؛ اميركا تموّل وتسلّح الصينيين المؤيدين للكتلة البريطانية الاميركية... لا يمكن ان يكون الامر اسوأ من ذلك».

بالنسبة الى ماو كان هذا السيناريو اسوأ من الاحتلال الياباني لكن فجأة حصل تبدّل مذهل في موقفه. في 6 تشرين الثاني كتب رسالة الى تشو إن لاي جاء فيها: «قرأت هذا الصباح المعلومات الهامة المذكورة في برقيّتك المؤرخة في 3 تشرين الثاني. ان انضمام تشيانغ الى الكتلة البريطانية الاميركية مفيد لنا... فلنتوقّف عن معارضة هذه المسألة... يجب ان نقيم المزيد من الروابط مع بريطانيا واميركا...».

سبق لتشو إن لاي ان أوضح لماو كيف ان الغرب يمكن ان يكون مفيداً بالنسبة اليه. ابتداءً من ذلك الوقت خصّص تشو المزيد من الجهود في السعي لمصادقة الغربيين وخاصة الاميركيين. وازداد وقع سحره بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور في كانون الاول 1941 فيما ازداد بشكل ملحوظ الوجود الاميركي في الصين.

في 13 نيسان 1941 وقّعت روسيا مع اليابان معاهدة حياد، ممّا اتاح الى العديد من الجنود اليابانيين الهجوم على الجنوب الشرقي لآسيا وعلى بيرل هاربور. لكن ذلك لم يشمل تقسيم الاراضي الصينية بين روسيا واليابان. خلافاً لما كان يشتهيه ماو، لم يتمّ تنفيذ سيناريو مماثل لسيناريو احتلال بولندا.

23- بناء قاعدة للسلطة بواسطة الارهاب
(1941-1945؛ العمر 47-51 سنة)

في 22 حزيران 1941 اجتاحت المانيا الاتحاد السوفياتي وغيّر هذا الحدث حسابات ماو بصورة جذرية. كانت روسيا السوفياتية تمثّل له الراعي والامل فيما كان مستبعداً ان تقدّم روسيا الضعيفة او التي تحوّلت عن مسارها مساعدات هامة. نتيجة لذلك لم يكن ماو قادراً على النوم لأيام عديدة(*).

في البداية لم يتوفر اي احتمال لقيام روسيا بالتدخل لصالحه في ذلك الوقت وتأمين الضمانة له اذا ما تبيّن ان القتال ضد الجنود التابعين لتشيانغ يشكّل خطراً عليه. على الفور انهى ماو الاعمال الهجومية واصدر امراً لجنوده جاء فيه: «اوقفوا كل الاعمال الهجومية على جميع الوحدات التابعة للقوميين».

اهتم ماو بالحفاظ على نفسه في علاقته بروسيا التي بدأ الضعف يلحق بها. نتيجة للاجتياح الالماني ارادت موسكو ان يتعهّد الحزب الشيوعي الصيني بمواجهة الجيش الياباني عسكرياً اذا هاجمت اليابان الاتحاد السوفياتي. ولاحق ستالين كابوس حصول هجوم ضخم على شكل فكّي كمّاشة تشنّه اليابان من الشرق بالتنسيق مع هجوم يشنّه هتلر من الغرب. وجّهت موسكو السؤال التالي الى ماو: ما هو عدد الجنود اليابانيين الذين يستطيع الحزب الشيوعي الصيني «تحويلهم عن مسارهم» في حال حصول هذا الهجوم؟ ومن اجل تشجيع ماو على التحرّك ارسل ديمتروف برقية في 7 تموز تفيد بانه كان يبعث اليه مليون دولار اميركي على دفعات. وبعد يومين طلب الكومنتيرن من الحزب الشيوعي الصيني اتّخاذ «خطوات عملية».

اعتقد معظم زملاء ماو انه يجب عليهم القيام بعملٍ ما في حال هاجمت طوكيو الاتحاد السوفياتي. وارسل ليو شاوكي المعروف باحتراسه رسالةً الى ماو يقول فيها انه إذا ما هاجمت اليابان روسيا يجب على الحزب الشيوعي الصيني ان يشنّ الهجمات لاعاقة عمل القوّات

(*) وأدرك ماو أن الاجتياح الألماني آت، ومتى، في غضون ساعات فأنذر الكرملين. سجل رئيس الكومنتيرن ديميتروف في يومياته المعلومات السرية التي زوده بها الحزب الشيوعي الصيني:«ستهاجم المانيا الاتحاد السوفياتي... التاريخ - 21 حزيران 1941» كان هذا الانذار الوحيد الذي أطلق. وصلت هذه المعلومات الى أعضاء الحزب الشيوعي الصيني الذين يعملون في الظل. وعندما بدأ اجتياح الألمان في الـ22 من الشهر اعترف الكرملين بمساعدة الحزب الشيوعي الصيني رغم أنه بدا غير مكترث للإنذار.

اليابانية. لكن ماو كان مصمّماً على عدم ادخال جنوده في المغامرة مهما كانت الظروف. في 18 تموز اخبر ليو بانه اذا هاجمت اليابان روسيا، الامر الذي اعتبره ماو في 2 تموز بانه «محتملٌ جداً»: «انها ليست فكرة جيدة ... ان نقوم بعمل واسع النطاق ... ان جيشنا ضعيف. من المؤكّد ان تحرّكنا سوف يتسبّب باضرار لا تُعوّض». ان مقاربته للمسألة تقوم على ترك الروس يقومون بالقتال: «ان القصة بكاملها تتعلّق بنصر يحرزه الاتحاد السوفياتي».

اوضح ماو الأمر الى بينغ دو هواي الذي يشغل منصب نائب القائد في جيش الطريق الثامن ان ايّ تنسيق مع الروس يجب ان يكون فقط «استراتيجياً، اي اسمياً، وطويل الامد ولا يشمل المعارك». وحذّر ماو جنوده تكراراً بقوله: «لا تبالغوا في اغضاب العدو الياباني».

اشتكى ماو الى موسكو من ان القوات التابعة له ضعيفة بحيث لا يمكن الاعتماد عليها: «ان مواردنا البشرية والمادية تتناقص فيما تتقلّص المساحة التي تشملها مناطق العمليات وكذلك فان المؤن، تنفذ والوضع يصبح اكثر صعوبة خلال النهار». واعتبر ماو انه اذا تحرّك الجيش التابع له «هناك احتمال بأن نصاب بالهزيمة ولن نكون قادرين على الدفاع عن قواعدنا الحزبية لمدة طويلة ... ان تحرّكاً كهذا لن يكون جيداً لكلينا ...» وطلب من موسكو الاّ تعلّق الآمال الكبيرة: «اذا هاجمت اليابان الاتحاد السوفياتي فان امكاناتنا المتعلّقة بتنسيق العمليات العسكرية لن تكون كبيرة».

اقرّ ماو فعلياً بان جيشه لم يحارب اليابان ولن يبدأ بمحاربتها في حينه، واطلع الروس منذ فترة قصيرة فقط بان لديه جيش ضخم يتألف من 329899 رجلٍ في جيش الطريق الثامن وحده. اما الآن فهو يقول بان جنوده بالكاد قادرون على اطلاق طلقة واحدة.

ابرق ستالين شخصياً الى ماو مرّات عديدة طالباً منه دون جدوى ابقاء اليابانيين منشغلين، وذلك عندما كان الالمان على ابواب موسكو في اواخر سنة 1941 ومباشرة قبل معركة ستالينغراد التي وقعت في تموز 1942. اغاظ رفض ماو تقديم المساعدة لموسكو وزاد من غضب اسياده عبر توجيه النصيحة اليهم بالانسحاب الى جبال الاورال والدخول في حرب عصابات. اعتبر بعض الروس ان الدافع لتصرفات ماو عدم ثقته بالاتحاد السوفياتي وحتى، حسب الجنرال تشويكوف، رغبته في استغلال هجوم هتلر للحلول محلّ روسيا. وانتشرت مقولة بان ماو قال: «لا يستطيع ستالين الحاق الهزيمة بهتلر» و«لا تستطيع الاشتراكية البالغة اربعة وعشرين سنة ان تنافس الفاشية البالغة ثمانين سنة».

بعد مرور سنوات تمّ توجيه السؤال التالي الى مولوتوف: «نحن كنّا نعلم بما كان ماو يفعله لنا ومع ذلك استمررنا في مساعدته؟» وتمتم مولوتوف قائلاً: «هذا صحيح. اجل، اجل. انا اعلم انه من الصعب عليكم ان تفهموا. لكن يجب الاّ تنظروا الى الاشياء بهذا التصلّب». «لقد

بدونا كالمغفّلين ولكننا لسنا كذلك».

في الواقع ورغم ان ستالين وماو كانا متخاصمين فهما كانا يفهمان بعضهما تماماً. كانت علاقتهما مبنيّة على المصلحة الذاتية الوحشية وعلى استعمال بعضهما خدمة لهذه المصالح، اضافة الى مشاركتهما الاهداف ذاتها على المدى الطويل. ولكن رغم ان تصرّفات ماو اغضبت الكرملين مرّات عديدة فان ستالين لم يتوقّف ولو للحظة عن التعاطي معه.

بينما لم يكن ماو منشغلاً بالقتال ضد اليابان او القوميين وفيما كانت روسيا تعاني من المشاكل ولم تكن في وارد التدخّل، استغلّ الفرصة للشروع في تحويل الحزب الى ماكينة مطيعة له تحضيراً للحرب الاهلية الشاملة والوشيكة ضد تشيانغ كاي شيك.

في نهاية سنة 1941 ارتفع عدد اعضاء الحزب الى 700 الف. انضم ما يزيد على التسعين بالمئة من هؤلاء الى الحزب منذ بداية الحرب ضد اليابان وكان العديد منهم من الشباب المتحمّسين الذين قدموا الى القواعد الشيوعية من المناطق الواقعة تحت سيطرة القوميين. شكّل هؤلاء المتطوعين اهمية بالنسبة الى ماو لانهم كانوا متعلّمين نسبياً وكان بحاجة الى اداريين كفوئين للعمل في نظامه الذي سينشأ لاحقاً. في المقابل كان معظم المشاركين في المسيرة الطويلة والمجنّدون من المناطق الريفية من داخل القواعد الشيوعية من الفلاحين الامّيّين. لذلك شكّل المتطوعون الشباب هدفاً لماو.

التحق هؤلاء المتطوعين بالشيوعيين في اواخر الثلاثينات حين تحرّك المزاج السائد في اوساط الشباب من الطبقة المتوسطة باتجاه اليسار بشكل ملحوظ. في ذلك الوقت كانت روسيا الشيوعية بالنسبة الى الصين الحليف الوحيد عملياً والمزوّد الوحيد بالاسلحة في الحرب ضد اليابان فاصبحت النوايا الحسنة تجاه روسيا جزءاً من سلوك الحزب الشيوعي الصيني. اعتقد الكثيرون ان الشيوعيين الصينيين كانوا متفانين بصدق في قتال اليابان.

الى جانب ذلك انتشر استياء عام من القوميين الذين اعتُبروا غير قادرين على اقتلاع الصين من الفقر والظلم المتفشّيين فيها. كانت الفظاعات التي ارتكبها الحزب الشيوعي الصيني قبل المسيرة الطويلة امّا غير معلنة وامّا منسية او صُرف النظر عنها لاعتبارها دعاية قومية. وصدّق البعض ايضاً الحزب الشيوعي عندما اعلن انه تغيّر وتخلّى عن سياسته السابقة. كما أثبت سلوك الشيوعيين لفترة معينة ان هذا التغيير حقيقي وتقبّل العديد من الاجانب وحتى بعض الارساليات الادعاءات الشيوعية. وكذلك قام الجاسوس شاو ليتزو، الحاكم المطلق على وسائل الاعلام التابعة للقوميين في الفترة المفصلية لسنتي 1937-1938 ، بجهد كبير لمحو تاريخ الحزب الدموي واظهار صورة معتدلة للشيوعيين. وكذلك فعلت صحيفة «النجم الأحمر فوق الصين» Red Star Over China التي يشرف عليها ادغار سنو الذي واظب

ماو على نشر حجة مفادها ان الشيوعيين كانوا عرضة لتشويه سمعتهم. وقال لمجموعة من الاشخاص الواصلين حديثاً من ينان ان الحزب الشيوعي الصيني «كان دائماً جذّاباً، ولكن رُسمت صورة سلبية عنه ...»

تجمّع عدد كبير من المتطوعين الشباب في ينان،عاصمة ماو. وقبل ان يبدأ ماو في بذل جهوده للتحكّم بهم كان حوالى 40 الفاً وصلوا الى هناك. كان معظمهم في اواخر سنوات المراهقة وبداية العشرينات وانضموا الى الحزب في المناطق الخاضعة لسيطرة القوميين ومن ثم أُرسِلوا الى ينان.

كانوا متحمّسين للغاية عندما وصلوا الى المنطقة التي صُوِّرت لهم على انها مكّة الثائرة، ووصف احد المتطوعين الشباب مشاعره عند وصوله بقوله: « واخيراً رأينا مرتفعات مدينة ينان. كنّا نشعر بالاثارة لدرجة اننا بكينا. اطلقنا التحيّات من الشاحنة التي تقلّنا ... بدأنا بانشاد «النشيد العالمي للشيوعية» ونشيد المسيرة الى روسيا الوطن الام».

وقال ان الواصلين حديثاً «بالفعل حسدوا البذلات النظامية القديمة المبطّنة التي تخصّ المحاربين القدامى وتفوح منها رائحة القذارة. وجدوا كل شيء جديداً ومثيراً وغامضاً».

كان القادمون حديثاً بمعظمهم مسجّلين في «مدارس» و«معاهد» مختلفة من اجل التدريب وتعلّم المبادىء الحزبية لكن معظمهم خاب امله في وقت قصير جداً. تمحورت الخيبة الاكبر حول النوعية التي تشكّل جوهر المثالية بالنسبة اليهم. فهي لم تكن فقط غائبة تماماً ولكنها كانت مرفوضة على نحوٍ جليٍّ من النظام وساد التفاوت والامتيازات في كل مكان. وكان لكل منظمة ثلاث درجات مختلفة من المطابخ، فالطبقة الادنى كانت تحصل تقريباً على نصف كمية اللحوم وزيت الطبخ بالمقارنة مع تلك التي في الوسط، بينما كانت النخبة تحصل على اكثر من ذلك بكثير. اما القادة الكبار فكانوا يحصلون على طعام خاص ذا فوائد غذائية.

وينطبق المبدأ نفسه على الملابس. كان القطن المصنوع محلّياً خشناً وغير مريح لذلك جرى استيراد القطن الانعم للكادرات العليا. ارتدى ماو ملابس خارجية مماثلة لتلك التي يرتديها الباقون لكن ملابسه الداخلية صنعت من مواد ناعمة، كما قال لنا احد الخدّام الذين يغسلون الملابس ويصلحونها في عائلته. لم يكن الخادم يستحق الحصول على اية ملابس داخلية او جوارب ونتيجة لذلك كان مصاباً بالزكام طوال الوقت. كذلك جرى توزيع اغراض كالتبغ والشموع واوراق الكتابة تبعاً لمرتبة الشخص.

كذلك فقد أُرسل اولاد القادة الكبار الى روسيا وكانت لهم مربّيات خاصة بهم، وكان باستطاعة زوجات الكوادر الولادة في المستشفى ومن ثم الحصول على ممرضة خاصة لمدة معينة. وكان بامكان المسؤولين الرسميين في الدرجة الثانية ارسال اولادهم الى حضانة خاصة

بالنخبة، اما الشيوعيون العاديون المتزوجون وعددهم اقل نسبياً فقد كانوا يميلون الى عدم انجاب الاولاد او في حال وجود الاولاد كان عليهم المكافحة للحصول على المنافع الخاصة بهم.

ادّت ظروف التقشّف ورداءة الطعام الى تفشّي امراض عديدة لكن المسؤولين الكبار فقط استطاعوا الحصول على الادوية النادرة المستوردة خصيصاً من المناطق الخاضعة للقوميين. وكان لماو طبيب خاص آتٍ من الولايات المتحدة ويدعى جورج حاتم اضافة الى اطباء روس يهتمون به. وعندما كان يحتاج الى شيء او الى احد، مثل معالج فيزيائي، كان يطلب من موسكو او من تشو إن لاي في تلبية طلبه. وأعطيت الكوادر العليا معاملة خاصة في المستشفيات ويمنع الدخول الى اي مستشفى دون الحصول على الموافقة من قسم العمل الذي ينتمي اليه. كما ان الطعام كان مصنّفاً في المستشفيات ايضاً.

في بداية الحرب الصينية اليابانية كان هناك فريق للصليب الاحمر في ينان وكان مُرسلاً من القوميين. كان يعالج السكان المحلّيين اضافة الى الشيوعيين العاديين الاّ ان النظام عمل على اخراجه من المنطقة. نُشرت اشاعات تفيد بان الادوية التي يستعملها تتسبّب بالتسمّم وبانها «مُرسلة من القوميين بهدف قتل رفاقنا! ومن اجل تسميم مياه الشفة لدينا ونشر الجرائيم!» وما لبث ان غادر معظم اعضاء الفريق، اما الباقون فقد تمّ ابقاؤهم بالقوة لخدمة النخبة الشيوعية بصورة اساسية.

ظهر اعلى رمز للامتيازات في ينان بوضوح في السيارة الوحيدة التي هي فعلياً سيارة اسعاف، وكانت هدية من عمّال المصابغ في نيويورك من اجل نقل جرحى الحرب. لكنها لم تنقل اي جندي جريح إذ ان ماو حوّلها الى ملك خاص، فنقلت ضيوفه بمن فيهم ادغار سنو سنة 1939. كان هذا الاخير غير مبالٍ حيالها فقال: «هكذا تجلّى التبذير الذي قام به ماو وصدم صديقي المبشّر» كما اكّد انها كانت واحدة «من الهدايا التي جمّعها عدد من عمال المصابغ في ينان حيث كانت تُستعمل في بعض الاحيان لنقل ضحايا الغارات الجوية من المدنيين الى المستشفيات القريبة». في الواقع كانت السيارة الوحيدة ولم تنقل اي جريح مدنيّ وعُرفت على نحو ملائم بانها «سيارة الرئيس ماو». حتى الاشخاص الذين يشغلون مناصب عليا قريبة من القيادة ظنّوا ان السيدة سان يات سين اعطت السيارة لماو «للاستعمال الشخصي».

شعر الكثيرون بالاساءة الشديدة جراء ذلك. ورأى احد المتطوعين الشباب ماو يقود السيارة في ربيع 1939 والى جانبه زوجته التي كانت ترتدي «ثوباً خاصاً ربيعياً بلون الاحمر الداكن. كانت هي وماو يجولون في المنطقة ويلفتون الانظار فيما المارّة يشاهدون الزوجين بازدراء».

كان ماو مدركاً ان هذه الامتيازات تشكّل مسألة حساسة. في احد الايام اتت واحدة من المتطوعات القدامى اليه لتناول العشاء وبعد ذلك دعاها ماو لتكرار زياراتها اليه وعندئذٍ قالت من دون تفكير: « إذاً سآتي اليك كل يوم احد كي أُمتّع نفسي بوجبة جيدة!» ولاحظت ان «ابتسامة الرئيس تجمّدت وبدا مرتبكاً قليلاً. كنت اعلم اني قلت شيئاً خاطئاً ...».

حاول الحزب تقديم الحجج التي تبرّر الامتيازات: «ليس الرفاق القياديون هم الذين يطلبون الحصول على امتيازات» كما عبّر احد المنظّرين العقائديين البارزين عن رأيه. «انه امرٌ صادرٌ عن الحزب. خذ الرئيس ماو على سبيل المثال، يستطيع الحزب ان يأمره بأكل دجاجة في اليوم الواحد».

فشلت هذه الحجّة المتكلّفة في تبديد الاستياء الشامل. وقال احد اللصوص اثناء قيامه بجولته المعتادة: «في ينان هناك فقط ثلاثة اشياء متساوية بالنسبة الى الجميع وهي الشمس والهواء والمراحيض». وشمل نظام الامتيازات حتى مجموعة الشيوعيين اليابانيين وسجناء الحرب. الوحيد من بينهم الذي سُمح له رسمياً بممارسة الجنس هو قائدهم سانزو نوساكا. قال لنا احد سجناء الحرب السابقين من اليابانيين الذي احتُجزوا في ينان: «اراد ماو ان يبقيه في مزاج جيّد، لذلك اعطاه امرأة لتكون رفيقة له ... لم نحتجّ. ليس علناً. كان للناس شكاوى، لكنهم احتفظوا بها في قلوبهم».

مهما شعر المتطوعون الشباب بالخيبة فقد ادركوا انهم لا يستطيعون مغادرة ينان، ومحاولة المغادرة كانت تُعتبر فراراً من عقوبته المحتملة الاعدام. كانت منطقة ينان تُحكم وكأنها سجن. وأُطلق على الاجزاء المتبقية من الصين بما فيها سائر القواعد الشيوعية اسم «الخارج». وصف احد المتطوعين مشهداً رآه في مستشفى معيّن حيث كان رجلان يصرخان قائلين: «نحن لسنا عليلين. لماذا ارسلونا الى هنا؟» ودلّت لهجتهما الى انهما من يانغتزي وكانا من المشاركين في المسيرة الطويلة. كانا يصارعان فيما يقوم رجلان مسلّحان بتثبيتهما في مكانهما.

«لقد طلبنا الحصول على اجازة للذهاب الى المنزل ورؤية عائلاتنا ولكننا لا نحصل على الاذن. لقد اصرّوا على اعتبارنا مجانين وارسلانا الى هنا».

كان الرجلان يضعان الميدالية الخاصة «بالمحاربين القدامى المشاركين في المسيرة الطويلة». وقال احد الكوادر: «ايها الرفاق تذكروا تاريخكم الثوري المجيد».

«تبّاً لاستعمال هذا الشيء. كنّا في عداد الاموات وأُصبنا بجروح مرات عديدة. وكل ما نحصل عليه هو رؤية سوانا يتبوأون مراكز المسؤولية وتتوفّر لهم الاشياء الجيدة من الطعام واللباس. وماذا نجني من ذلك؟ من الافضل الذهاب الى المنزل والعمل في الارض».

«يبدو انك لست مجنوناً، انت فقط تتردّد في موقفك الثوري».

لاحظ شهود عيان انه «في اوساط الكوادر في ينان، سواء كانوا من القدامى أوالجدد، كان الحنين داخل كل شخص الى منطقته مألوفاً». اما الكوادر الآتية من اوساط الفلاحين «فغالباً ما كانت تطالب صراحةً بالذهاب الى منطقتها ولكنها حتى تُواجه بالرفض من قبل رؤسائها. حاول البعض الفرار وما إن يُلقى القبض عليهم حتى يُعدمون فوراً. كان المتعلمون اكثر ذكاءً بكثير. لم يكونوا يقولون بانهم يريدون الذهاب الى منطقتهم، بل كانوا يختلقون قصةً ما ويطلبون من الحزب نقلهم الى خارج المنطقة ...»

كان الفرار اسهل للعسكر على حدود المنطقة وكانت نسبة الفرار من الجندية هائلة. كان هدف احد الالوية وحده، ابتداءً من 29 ايلول 1943، القاء القبض على الف من الفارّين منه. لكن في قلب المنطقة الشيوعية كان الفرار عملياً مستحيلاً واختار معظم المتطوعين الشباب الاستقرار حيث هم.

هؤلاء هم الاشخاص الذين اعتمد عليهم ماو في بناء قاعدة لسلطته المستقبلية، وكانوا يشكّلون بوضوح مادة رخيصة خدمةً لتلك الغاية. لقد قدموا الى ينان في سبيل تحقيق حلم، ومن اجل حلمهم للقتال في سبيل الحزب الشيوعي الصيني كان على ماو تغييرهم بصورة جوهرية واعادة قولبتهم. بدأ ماو بتنفيذ هذا المشروع الضخم القائم على هندسة البشر ابتداءً من اوائل 1942(*). وكانت خطوته الاولى تقضي بضرب بطل المتطوعين الشباب وانغ شي واي البالغ الخامسة والثلاثين من العمر وهو كاتب ومتفانٍ في سبيل الشيوعية وسبق له ان ترجم اعمال انغلز وتروتسكي الى الصينية. استرعى انتباه ماو مقال بعنوان «الزنابق البرّية» نُشر في الصحيفة الرئيسية في ينان، «ليبراشن دايلي». Liberation Daily. في الحلقة الاولى التي نُشرت في 13 آذار كتب شي واي:

«يبدو ان الشباب في ينان فقدوا الحماس في حياتهم اليومية مؤخراً ويبدو انهم يشعرون بالاستياء. لماذا؟ ماذا ينقصنا في حياتنا؟ قد يجيب البعض: تنقصنا التغذية وتنقصنا الفيتامينات ... ويقول البعض ان عدد الرجال بالنسبة الى النساء هو 18 مقابل واحد ولا يستطيع العديد من الرجال ايجاد زوجة ... ويقول آخرون: ان الحياة في ينان شديدة الملل وكئيبة جداً ...

ان هذه الاجوبة ليست بعيدة عن المنطق. لكن ... الشباب ... اتوا الى هنا للمشاركة

(*) zheng-feng هو الاسم الذي أطلق على هذا المشروع وترجمتها «حملة التصحيح».

في الثورة وهم مستعدّون للتضحية بانفسهم. لم يأتوا بحثاً عن ملذّات الطعام والجنس ومباهج الحياة».

وقال ان ما حطّم احلامهم الامتيازات المكرّسة في المؤسسات والتي يرافقها الاستبداد والعجرفة. ونقل حواراً دار بين امرأتين شابتين حول اسيادهما في العمل وسمعه بالصدفة:

«انه يتهمك دائماً بانك تتبنّين المساواة التي ينادي بها البرجوازيون الصغار. لكنه هو نفسه ... يفتّش فقط عن الامتيازات الخاصة به ... وهو غير مبالٍ ابداً برفاقه الذين في عهدته ...!

«يقتصر الامر على الكلمات الجميلة عن الصداقة والودّ اللذين يميّزان الطبقة الدنيا فيما تُختصر كلها بالهراء! ليس لديهم الحدّ الادنى من التعاطف الانساني! ... هناك فقط عدد قليل جداً من الكوادر الذين يهتمّون لامرنا فعلياً».

وفي الحلقة الثانية التي نُشرت بعد عشرة ايام فقط، ازدادت حدّة النقاط الأساسية التي أثارها شي واي: «يقول البعض انه لا يوجد نظام للتراتب الهرمي والامتيازات في ينان لكن ذلك غير صحيح. ويقول آخرون اجل، انه موجود وهناك الاثباتات. ان هذا يتطلّب منّا ان نفكّر بعقولنا».

كان شي واي يدعو الناس الى التفكير بانفسهم. اضافة الى ذلك كانت الحجج التي يستعملها منطقية وبليغة: «انا لا ادعو الى المساواة. لكنني لا اعتقد انه من الضروري والمبرّر وجود عدّة درجات في ما يتعلّق بالطعام او الملابس ... اذا كان المرضى لا يستطيعون الحصول على القليل من حساء المعكرونة ... فان بعض النافذين الاثرياء ينغمسون في العلاوات غير الضرورية وغير المبرّرة، مما يخلق شعوراً بالنفور لدى الطبقات الدنيا ... »

عندما قرأ ماو هذا المقال رمى الصحيفة على مكتبه بعنف وسأل غاضباً: «من المسؤول هنا؟ وانغ شي واي او الماركسية؟» رفع سمّاعة الهاتف وأمر باعادة تنظيم جذرية في هيكلية صحيفة «ليبراشن دايلي».

وعبّر شي واي عن افكار اكثر حدّة في احد الملصقات على الحائط الاّ ان ماو اخذ موقفاً متسامحاً منها باعتبارها متنفساً للمفكّرين الشباب. بالنسبة اليه تتميّز ملصقات الحيطان بكونها محصورة بجمهور محدود كما يمكن تمزيقها او محوها. اعلن الملصق الذي اعدّه شي واي ما يلي: « يجب احلال العدالة في الحزب. يجب التخلّص من الظلم ... اسألوا انفسكم ايها الرفاق ... هل انتم مرتعبون من اعلام «ذوي المناصب العليا» بما يجول في خاطركم ...؟ أم انكم من الصنف الذي يجيد اضطهاد «الرجال الصغار» المتّهمين بالجرائم الملفّقة؟» ذهب شي واي الى ابعد من مسألة الامتيازات، الى صميم الظلام المسيطر على الحزب.

رُفع الملصق الذي يحمل كلمات شي واي خارج البوابة الجنوبية اي المكان الاكثر ازدحاماً في المدينة. وتقاطر الناس افواجاً لقراءة هذه الجمل القليلة التي عبّرت عمّا اراد الكثيرون قوله ولكنهم لم يفعلوا بسبب الخوف، فأصبح شي واي بطلاً نتيجة لذلك.

في احدى الليالي اجتاز ماو النهر لقراءة الملصق على ضوء قنديل لحظيرة المواشي. هناك رأى الجموع المتحمّسة واخذ علماً بالشعبية الكبيرة التي يتمتّع بها شي واي، فقال على الفور: «لديّ الآن هدف». وشكى لاحقاً بقوله: «اندفع الكثيرون من مناطق بعيدة من اجل ... قراءة هذا المقال. لكن لا احد يريد قراءة مقالي!» «كان وانغ شي واي الملك وسيّد الموقف ... كان في موقع القيادة في ينان ... وهُزمنا ...»

قرّر ماو ادانة شي واي من اجل ادخال الرعب الى قلوب المتعاطفين معه من المتطوعين الشباب. وبما انه لا يستطيع مجابهة النقاط التي ينادي بها شي واي مباشرةً اتّهمه بأنه تروتسكي النزعة، كما جرى الاعلان عن بعض الملاحظات التي ابداها شي واي عن تروتسكي وستالين في مجالسه الخاصة. سبق لشي واي ان قال ان تروتسكي كان «عبقرياً» بينما كان ستالين «شخصاً بغيضاً تسبّب بمصائب لا تُحصى» خلال عمليات التطهير. ووصف المحاكمات التي جرت في موسكو بانها «مشكوك فيها». أُرسل شي واي الى السجن وأمضى السنوات الأخيرة في حياته القصيرة في الحبس الانفرادي حيث أُخضع الى ضغوطٍ هائلة. سنة 1944 عندما سُمح لبعض الصحفيين الآتين من المناطق التابعة للقوميين بالدخول الى ينان نُقل على كرسي للقائهم وللادلاء باعتراف مُحضَّر سلفاً. «كرّر القول التالي: "انا تروتسكي وهاجمت ماو. اني استحق الاعدام ... لكن ماو رحب الصدر لدرجة ... اني شاكرٌ جداً لرحمته"». وقال احد المراسلين: «عندما ذكر «اخطاءه». السابقة كانت تعابير وجهه قاسية جداً لدرجة انها كانت مرعبة ... في رأيي كان عقله مشوشاً الى حدّ بعيد ...»

اعلن سائله لاحقاً عن خلفية ما جرى بقوله: «قال ما طُلب منه ان يقوله. بالطبع لم يكن لديه اي خيار. بعد ذلك تمدّد في السرير وهو يعاني كرباً شديداً». اطبق اصابعه باحكام وبدا على وجهه الكثير من المرارة». عندما اخلى الشيوعيون ينان سنة 1947 أخذوه معهم وقتلوه على الطريق. في احدى الليالي قُطِّع إرباً إرباً ورُمي في بئر جاف. وفي ذلك الوقت كان يبلغ الواحدة والاربعين من العمر.

*

بعد ان جعل ماو من شي واي هدفه الرئيسي عُقدت الاجتماعات طوال الفترة المتبقية من سنة 1942 وطُلب خلالها من المتطوعين الشباب توجيه التُهم اليه. ولاحظ ماو انهم عبّروا عن مقاومة كبيرة وبما انهم لم يكونوا مرتعبين بما فيه الكفاية كان عليه ايجاد طريقة اخرى لارهابهم.

لذلك قام ماو ورئيس الكي جي بي لديه كانغ شينغ باختراع تهمة شاملة مفادها بان معظم المنظمات الشيوعية في المناطق التابعة للقوميين كانت حلقات تجسّسية تعمل لحساب تشيانغ كاي شيك. من الناحية العملية حوّل هذا التأكيد كل المتطوعين الشباب الى مشتبه بهم في الجاسوسية لانهم إما كانوا منتمين الى احدى هذه المنظمات او انهم اتوا الى ينان برعايتها. وفي سبيل دعم هذه التهمة كان هناك «اثبات» وحيد يقوم على اعتراف ادلى به متطوّع في التاسعة عشرة من عمره بعد ان كان محروماً من النوم وبعد ان تعرّض للتعذيب على يد قوات الامن لسبعة ايام وليالي الى ان ادلى بما طُلب منه قوله.

من خلال نشر هذه التهمة وجد ماو طريقة لوضع كل المتطوعين الشباب في ينان في نوع من الحبس من اجل «غربلتهم» وذلك ابتداءً من نيسان 1943. جرى توقيف الآلاف ورُمي بهم في سجن هو كناية عن مغائر محفورة حديثاً في الرواسب الطفاليّة على جوانب المرتفعات. وفي احد السجون جرى حفر الزنزانات لما يزيد على الثلاثة آلاف سجين في الوهد الواقع وراء «حديقة المواعيد». التي هي مقرّ جهاز الكي جي بي الصيني وحيث عاش ماو. جرى احتجاز معظم الباقين في المؤسسات التي ينتمون اليها والتي تحوّلت عملياً الى سجون محكمة الاقفال وتحرسها دوريات من الجنود. اعطى ماو الاوامر بوجوب قيام كل منظمة «بوضع الحراسة وفرض حظر التجوّل. كما يجب منع الزيارات وحرية التحرّك في الخروج او الدخول». وقام بدور السجّانين والمستجوبين المتواجدون في كل مؤسسة من غير المشتبه بهم. وكان هؤلاء اشخاص غير قادمين من المناطق التابعة للقوميين وغالباً ما يشكّلون الاقلّية من بين الموظفين، فتتدنّى نسبتهم احياناً الى ما بين العشرة والعشرين بالمئة في اي مؤسسة.

فعلياً كان تحويل المنظمات العادية الى سجون ابتكاراً ملفتاً لماو وطبّقه طوال سني حكمه. في هذا المجال تخطّى الانجازات التي حقّقها هتلر او ستالين الى حدٍّ بعيد فحوّل زملاء الاشخاص الى سجّانيهم فكان الزملاء السابقون والسجناء والسجّانون يعيشون في الابنية نفسها. في الصين الخاضعة للنفوذ الشيوعي كانت امكنة العمل هي نفسها الاحياء السكنية في اغلب الاحيان. وبهذه الطريقة لم يقدم فقط على دقّ اسفين بين الناس العاملين والقاطنين جنباً الى جنب بل زاد بصورة كبيرة عدد الاشخاص المشاركين على نحو مباشر في القمع بما فيه التعذيب. فيكون بذلك وسّع الفلك اكثر بكثير مقارنة مع ما فعله ستالين او هتلر اللذان اعتمدا بشكل اساسي على النخبة السرّية اي جهازي الكي جي بي والغستابو اللذين احتجزا ضحاياهما في مواقع مستقلّة وغير ظاهرة للعيان.

تمّت ممارسة ضغوط هائلة على المتطوعين الشباب في السجن لاجبارهم على الاعتراف بانهم جواسيس وعلى اتهام الآخرين، ليس من اجل ايجاد الجواسيس بل من اجل خلق

الرعب. امّا التفتيش الحقيقي عن الجواسيس فقد قامت به القوّات الامنية في السرّ واستعملت الوسائل التقليدية. ان كل المشتبه بهم الحقيقيون كان يجري «الاهتمام بهم دون هرج ومرج» كما قال لنا شي زي، مساعد ماو للشؤون الامنية، وهذا يعني حصول اعدامات بسرعة وبسرّية ودون ضجّة(*).

خلقت عملية التفتيش عن الجواسيس المزيّفة عذراً لارتكاب التعذيب. كان الحرمان من النوم التقنية القاعدة وكان يدوم احياناً اسبوعين من غير انقطاع. واستُعملت ايضاً وسائل تعذيب قديمة مثل الجلد والتعليق في المعصم وخلع الركب المعروف بمنصّة النمر، اضافة الى التعذيب النفسي الذي يتراوح بين التهديد بوضع الحيّات السامّة في المغارة الى الاعدام الزائف. في الليل ووسط الهضاب الساكنة ومن داخل صفوف المغائر كانت صرخات الالم الجارح تلعلع في كل مكان على مرمى سمع معظم القاطنين في ينان.

كان ماو شخصياً يعطي التعليمات الخاصة بالتعذيب الذي يطلق عليه النظام التعبير الملطّف بي غونغ زين الذي يعني استعمال «القوة» لاجبار الناس على الاعتراف مما يؤمن الحصول على «اثباتات موثوق بها»: «ليس مفيداً تصحيح الامر في وقت مبكر جداً او متأخر جداً» كما جاء في مرسوم اصدره في 15 آب 1943. «في وقت مبكر ... لا تتجلّى الحملة للعيان كما ينبغي. وفي وقت متأخر ... سيكون الاذى الذي يلحق [بضحايا التعذيب] بليغاً. اذاً سيكون المبدأ المتّبع المراقبة الدقيقة والتصحيح في الوقت المناسب». كان ماو يريد ان يبدو ضحاياه في شكلٍ جيّد بما فيه الكفاية، خدمةً لاغراضه.

وشهر تلو الآخر تمحورت الحياة في ينان على الاستجوابات عبر ارهاب التجمعات الشعبية بحيث أُجبر بعض المتطوعين الشباب على الاعتراف بانهم جواسيس وعلى اعطاء اسماء اشخاص آخرين امام الجموع الغفيرة المسعورة. وكان يُرفع الاشخاص الذين تُذكر اسماؤهم على المنصة ويُكرهون على الاقرار بالذنب. اما الذين يتمسّكون ببراءتهم فقد كانوا يُوثقون على الفور ويُساقون الى السجن فيما يؤخذ البعض الى المحاكمات الزائفة وسط مناداة هستيرية بالشعارات. كان الخوف الذي تتسبّب به هذه التجمعات لا يُحتمل، وقال احد زملاء ماو المقرّبين منه حينها بان الحشود كانت بمثابة «حرب مُهلكة جداً للاعصاب. بالنسبة لبعض الناس كانت اشدّ تدميراً من اي نوع آخر من التعذيب»(*).

(*)كان الإعدام يخدم أحياناً وظائف أخرى. زار شي زي مستشفى فيه حوض كبير: «في داخله جثة رجل في الثلاثين من عمره غرق في مادة الفورمادیهاید». كما أخبره موظفو المستشفى أنهم بحاجة للجثث للتشريح و«أمرنا كانغ شينغ بقتل ثلاثة من منفذي الثورة المضادة» لأهداف طبية.

(*)استخدام الاجتماعات المتعبة -لكسر- الناس كان بهدف التكثيف كجزء لا يتجزأ من قاعدة ماو.

خارج نطاق الاستجوابات والحشود كان الناس يُضربون فيما هم منبطحون على الارض خلال اجتماعات لتلقين المبادىء الحزبية. وجرى ايقاف كل انواع التسلية كالغناء والرقص. ان لحظات الهدوء القليلة لم توفّر السلام اذ ملأوها بتقديم «امتحانات فكرية» وهي ممارسة لم تكن معروفة الى حينه الاّ في اليابان الخاضعة للنظام الفاشي. وأصدر ماو الامر التالي: «اجعلوا الجميع يقدّمون امتحاناتهم الفكرية وليكتبوها ثلاث مرّات وخمس مرّات وتكراراً ... اطلبوا من الجميع ان يبوحوا بكل الامور التي تجول في خاطرهم والتي ليست بالآراء الايجابية عن الحزب». اضافة الى ذلك طُلب من الجميع تدوين معلومات واردة بصورة غير رسمية من قبل اشخاص آخرين يسمّيهم النظام «الاذاعات الصغيرة». قال لنا احد المحاربين القدامى في ينان: «كان على الفرد تدوين ما قاله فلان او فلان اضافة الى ما قاله الشخص عن نفسه ومن المفترض الاّ يكون مقبولاً. كان على المرء ان يحفر في ذاكرته الى ما لا نهاية كما كان عليه الكتابة الى ما لا نهاية. كان الامر كريهاً». وأبقيت المعايير المعتمدة في اعتبار امرٍ ما «غير مقبول» مبهمة عمداً فيخطىء الناس لجهة ذكر المزيد وذلك بسبب الخوف.

حاول الكثيرون المقاومة لكن اية اشارة الى القيام بعمل كهذا كانت تُعتبر «اثباتاً» بان الشخص المقاوم هو جاسوس بحجة ظاهرها مقبول ومفادها: «اذا كنت بريئاً يجب الاّ يكون هناك اي شيء لا يمكن نقله الى الحزب». كما ان اثارة مبدأ الخصوصية غير واردة إذ انه يُطلب من الشيوعي ان يتخلّى عن القضايا الخاصة. وقام رجل في «معهد الادارة» Administration College حيث التعبير بقوة عن البغض للنظام، بخطوة صغيرة ولكن جبارة للاحتجاج بسخرية على ما يجري: «هل يتوجّب علينا تدوين احاديثنا الخاصة مع زوجاتنا في الليل؟» مما اثار الضحك الخافت بين الناس. من الطبيعي ان يتم «اكتشاف» الجاسوسية لدى هذا الرجل ومعظم من كانوا في ذلك المكان. «باستثناء شخص واحد فان جميع الاساتذة وموظفي الادارة هم جواسيس» في هذه المدرسة، حسب ما اعلن ماو في 8 آب 1943 «اضافة الى ان العديد من التلامذة هم جواسيس ايضاً، ربما اكثر من نصفهم». وتحت هذا النوع من الضغوط دوّن احد الرجال ما لا يقلّ عن 800 موضوع حواري في محاولة مسعورة للافلات من الشَرَك.

من خلال اجبار الناس على الابلاغ عن «نشرات قصيرة» نجح ماو الى حدٍّ كبير في جعلهم يخبرون عن بعضهم البعض. وهكذا يكون كسر الثقة بين الناس وارعبهم حيال تبادل الآراء ليس فقط في ذلك الوقت في ينان ولكن في المستقبل ايضاً. ومن خلال قمع «النشرات القصيرة» سدَّ ما كان فعلياً المصدر غير الرسمي الوحيد للمعلومات في محيط كان يسيطر فيه سيطرة تامة على جميع القنوات الاخرى. لم تكن الصحافة المستوردة متوفرة ولم يكن لدى ايٍّ كان جهاز للراديو. كما لم يكن متاحاً تبادل الرسائل مع العالم الخارجي بما فيه العائلة، فكان اي تواصل

مع المناطق التابعة للقوميين دليل على الجاسوسية. وتسبّبت قلّة المعلومات تدريجياً بموت في النشاط العقلي وخصوصاً بغياب اي متنفّس للتفكير، إذ لم يكن احد قادراً على التواصل مع ايٍّ كان او على وضع افكاره على الورقة او حتى في السرّ. خلال الحملة خضع الناس للضغوط من اجل تسليم الدفاتر التي كانوا يدوّنون فيها يومياتهم. وفي عقول الكثيرين كان الخوف من التفكير مستتراً، فبدا الامر ليس فقط غير ذي جدوى بل خطير ايضاً، فشُلَّ التفكير الحرّ نتيجة لذلك.

ان سنتين من الرعب ومن هذا النوع من تلقين المبادىء الحزبية حوّلتا المتطوّعين الشباب المفعمين بالحياة من مناصرين متحمّسين للعدالة والمساواة الى أناس آليين. عندما سُمح للصحفيين الآتين من الخارج بالدخول الى ينان للمرة الاولى بعد عدّة سنوات وذلك في حزيران 1944، لاحظ مراسل وجود انتظام مخيف: «اذا سألت السؤال نفسه الى عشرين او ثلاثين شخصاً، من المثقفين الى العمّال وعن اي موضوع، فان اجاباتهم هي نفسها تقريباً ... وحتى في ما يتعلّق بالاسئلة عن الحب، يبدو ان هناك وجهة نظر متّفق عليها في الاجتماعات». ومما لا يثير الدهشة «ان جميعهم دون استثناء ينفون بقوة ان يكون للحزب ايّ تحكّم مباشر بأفكارهم».

شعر الصحفي «بالاختناق جرّاء هذا الجو من التوتّر الشديد» ولاحظ ان الجدّية «تبدو على معظم وجوه الناس. اما في اوساط القادة الكبار باستثناء ماو تسي تونغ الذي كان غالباً يتمتّع بروح الدعابة والسيد تشو إن لاي الذي يجيد الدردشة، فان الآخرين قليلاً ما كانوا يطلقون النكات». في سنة 1937 اخبرتنا هيلين سنو، زوجة ادغار سنو، انه عندما كانت حينها في ينان كان الناس ما زالوا قادرين على قول اشياء مثل «ما زال الله موجوداً دون إذنٍ من ماو. لكن بعد سبع سنوات لم يجرؤ احد على قول اشياء وقحة الى هذا الحدّ. لم يمنع ماو فقط السخرية والهجاء (رسمياً منذ ربيع 1942) بل اعتبر روح الدعابة جريمة. ابتكر النظام اساءة ذات طابع عام وغامض تقوم على «استعمال كلمات غريبة» بحيث يمكن لأي امر يتراوح بين الشك و التذمّر الى مجرّد الادلاء بملاحظات بارعة ان يؤدّي الى اطلاق صفة الجاسوس على شخص ما.

قرّر ماو عدم اقامة تعاون فاعل وطوعي (ان ارادة الناس، وبرغم كل شيء، يمكن سلبها). لم يكن يريد متطوعين، فهو كان بحاجة الى ماكينة ليستطيع الكبس على الزرّ فتعمل كل اجزائها بانسجام وهذا ما حصل عليه.

في بداية العام 1944، كانت روسيا في وضع هجومي ضد المانيا وكان ماو يتطلّع الى المسألة كوسيلة يستعملها في سبيل الدخول في حرب ضد اليابان. بعد الهزيمة التي مُنيت بها اليابان

كان ماو بحاجة الى كوادر لمحاربة تشيانغ كاي شيك فبدأ التخفيف من حدّة الترهيب.

بقي الضحايا قيد الاحتجاز وهم يعيشون في المجهول والعذاب بينما بدأت القوى الامنية تدرس حالاتهم لترى ما اذا كان هناك اي مشتبهين حقيقيين بالجاسوسية من بين الكميّات الهائلة من الاعترافات الحاصلة تحت القمع، وكان متوقعاً ان تكون هذه العملية طويلة وبطيئة. لكن الجهاز الامني كان واثقاً من امرٍ واحد منذ البداية: ان المشتبهين الحقيقيين يشكّلون اقل بكثير من واحد بالمئة من بين المتطوّعين الشباب.

في ذلك الوقت اصدر ماو امراً الى القواعد الشيوعية الاخرى لتبدأ بالتحرّي عن الجواسيس، في تكرار للنموذج المتّبع في ينان. وحذّرهم تحديداً من درس الحالات الشخصية لمجرّد ان ينان تفعل ذلك. كان على الجميع ان يمرّوا بحلقة الترهيب الكاملة. ولحثّهم على خلق موجة من الجنون كتلك التي تسود في ينان، عمد ماو الى تضخيم النسبة المئوية للمشتبهين بالجاسوسية من قبل الكي جي بي برفعها من واحد الى عشرة بالمئة وادّعى زوراً ان ينان كشفت عن وجود فرطٍ من الجواسيس عبر تطبيق الطريقة التي ابتكرها هو.

انتظر ماو مرور سنة كاملة في ربيع 1945 حتى أمر باعادة تأهيل شاملة للضحايا. حينها كان يعلم ان روسيا ستدخل الحرب ضد اليابان وسيكون في حال من القتال من اجل السيطرة على جميع الاراضي الصينية لذلك كان بحاجة الى الكوادر بسرعة.

كان المتطوعون الشباب الذين يعدّون عشرات الآلاف في ينان وحدها يعيشون حالة لا تُطاق من الارباك والكرب وحصلت انهيارات عصبية استمرّ بعضها مدى الحياة. ويتذكّر الناس الذين عاشوا في ينان رؤية المغائر مكتظّة بالناس «الذين اصاب معظمهم الجنون. كان البعض منهم يضحك بافراط فيما البعض الآخر يبكي» فيحدثون «صراخاً وعواءً كالذي تحدثه الذئاب كل ليلة».

بلغ عدد الذين قضوا بالآلاف على اقل تقدير. بالنسبة الى الكثيرين كان الانتحار الطريقة الوحيدة لوضع حدٍّ لمحنتهم، فقفز بعضهم عن المنحدرات الصخرية الشاهقة فيما رمى البعض الآخر بنفسه في الآبار. اما اؤلئك الذين لديهم اولاد وزوجة فقد قتلوهم في معظم الاحيان. وكانت المحاولات المتكررة مألوفة: فشل احد اساتذة الفيزياء في الانتحار عند ابتلاعه رؤوس كبريت مسمّمة ومن ثم شنق نفسه ونجح في وضع حدٍّ لحياته. كان الناجون من محاولات الانتحار يتعرّضون للمطاردة من دون رحمة وكذلك فإن احد الذين ابتلعوا زجاجاً مكسوراً أُعيد الى الحياة وأُجبر على الفور على «كتابة نقد ذاتي».

كان الانتحار يستعمل ايضاً كطريقة لاطلاق الاحتجاج وفي احدى الحالات اصبح الاحتجاج مزدوجاً. عندما قتل احد المحتجزين نفسه عبر القفز من على منحدر صخري

شاهق دفنه رفاقه مقابل مكان سكن مستجوبيه الذين سجّل احدهم اهمية الخطوة: سيعود الشبح ليُلازمكم!

وكما جاء في رسالة احد المسؤولين الى القيادة في آذار 1945 اصيب المتطوعون الشباب «بضربة قاضية فيما يتعلّق بحماسهم للثورة ... كانت الجراح المحفورة في عقولهم وقلوبهم هي عميقة جداً في الواقع». كان ماو واثقاً طوال الوقت انه يستطيع الاعتماد على هؤلاء الناس كي يسدوا له الخدمات. ولكن رغم شقائهم كانوا واقعين في شَرَك التنظيم الشيوعي وكان من الصعب جداً المغادرة من الناحية النفسية وكذلك من الناحية الجسدية. وفي غياب الخيارات عاد الكثيرون الى ايمانهم مما سهّل عليهم عقلنة التضحية. استغلّ ماو مثاليتهم بدهاء واقنعهم بقبول المعاملة السيئة كجزء من «خدمة الشعب» وهي عبارة ذكيّة ابتكرها في حينه واكتسبت شهرة فيما بعد، كما اقنعهم بقبولها كتجربة نبيلة وكمطهّر للروح في المهمّة الهادفة الى تحقيق خلاص الصين.

ومن اجل نزع فتيل المرارة المتشبّثة بقلوب عديدة ادّى ماو بضعة مشاهد من «الاعتذار» العلني في ربيع 1945 قبل ان يرسل ضحاياه الى الجبهة لمحاربة تشيانغ كاي شيك. وقام بعمل نموذجي تمثّل بخلع قبّعته او بتحيّة جمهوره ولكنه كان يقدّم اعتذاره بحذر فتحمّل المسؤولية بالنيابة عن الآخرين مستعملاً عبارة مثل «باسم المركز اقدّم اعتذاري ...» وكان يوزّع اللوم حتى على الضحايا انفسهم. «ان ينان باسرها ارتكبت الاخطاء» كما اكّد بحزم. «كنّا ننوي اعطاءكم استحماماً هنيئاً لكن وُضع الكثير من برمنغانات البوتاسيوم الذي يُستعمل لقتل القمل في حوض الاستحمام مما تسبّب بالاذى لجلدكم الحسّاس». وتعني هذه الملاحظة الاخيرة ان الضحايا كانوا مُدلّلين كثيراً وكانوا ضعفاء جداً. انسابت المغالطات من فم ماو بسهولة: «كنّا نقاتل العدو في الظلام فاصيب شعبنا بالجروح». او حتى: «كان الامر مماثلاً لضرب الاب لابنه، لذلك لا تحملوا الضغينة في قلوبكم». «تفضّلوا بالنهوض وانفضوا الغبار عن ملابسكم وتابعوا القتال».

في لحظات كهذه كانت الدموع تملأ عيون الجماهير وكانت هذه الدموع مزيجاً من الاستسلام والارتياح. واكمل معظمهم القتال في سبيل نظام اساء اليهم بوحشيّة. بعد ان ساعدوا ماو في الوصول الى السلطة عملوا كجزء من ماكينة سحقت الشعب الصيني باكمله. لم يبنِ ماو هذه الماكينة من خلال الالهام او الجاذبية بل بناها بصورة اساسية من خلال الرعب.

خلال ما يمكن تسميته حملة الرعب في ينان كان الحزب باكمله عرضة للهجوم وحتى اؤلئك الاعضاء الذين لم يصبحوا ضحايا على نحوٍ صريح. أُكره هؤلاء دائماً على اتهام اشخاص آخرين كزملاء لهم واصدقاء وحتى زوجاتهم، مما تسبّب لهم وللضحايا بجرح

دام أثره طويلاً: ان اي شخص كان يحضر التجمعات الشعبية كان يشهد على مشاهد مرعبة تلازمه وتشمل اشخاصاً يعرفهم وبات الجميع يعيشون في ظل الخوف من ان يصبحوا الضحية التالية. ان التدخّل القاسي بالخصوصيات واجبار الناس على كتابة «امتحانات فكرية» لا نهاية لها جلبا المزيد من الضغوط، وقال ماو بعد مرور عقد من الزمن انه لم يدُس فقط على ثمانين بالمئة من الحزب بل «انه في الواقع [داس على] مئة في المئة وبالقوة ايضاً».

كان ماو يمسك الآن بوسيلة مرعبة بامكانه استعمالها ضد تشيانغ كاي شيك. اعتُبرت ممارسة الضغوط من اجل الحصول على كل معلومة عن اية علاقة بالقوميين من اهمّ الانجازات لحملة الرعب السائدة. وابتكر ماو استمارة خاصة بـ«العلاقة الاجتماعية»: «اطلبوا من الجميع تدوين كل علاقة اجتماعية من اي نوع كانت». في نهاية الحملة جمع النظام ملفاً عن كل عضو في الحزب ونتج عن ذلك معرفة ماو بجميع القنوات التي يمكن ان يستعملها القوميون للتسلّل في المواجهة الوشيكة. في الواقع خلال الحرب الاهلية وبينما كان القوميون مخترَقين كالمنخل، لم يحققوا فعلياً اي نجاح في اختراق الشيوعيين. لقد اتى ماو بماكينة محكمة بالفعل.

حضّر ماو قوة مناهضة لتشيانغ «لا مجال معها لطرح الاسئلة» وذلك عبر اثارة الحقد ضده. عندما انضم معظم المتطوعين الشباب الى الحزب الشيوعي الصيني لم يكن هذا الاخير في حرب مع القوميين ولم يكن الكثيرون يكرهون تشيانغ كاي شيك بالطريقة التي كان ماو يريدها. وكما قال ماو: «يعتقد بعض الناس ان الحزب القومي جيّد جداً وجذّاب». وقال احد المسؤولين الكبار في حينه ان «الكوادر الجديدة متعلّقة الى حدٍّ بعيد بالافكار الوهمية المضخّمة عن تشيانغ بينما خفّفت الكوادر القديمة من كرهها المبني على الانتماء الطبقي» والموجّه ضد القائد العام. كان تشيانغ القائد غير المنازع في الحرب الدائرة بين الصين واليابان، ويعود الفضل اليه في جعل الولايات المتحدة وبريطانيا تعيدان الاراضي اللتي تسيطران عليها (باستثناء هونغ كونغ) سنة 1943، وهو حدث تاريخي اضطر ماو حياله الى اصدار امر باقامة احتفالات ضخمة. وخلال حكم تشيانغ ايضاً تمّ الاعتراف بالصين كواحدة من بين «القوى العظمى الاربعة» الى جانب اميركا وروسيا وبريطانيا. كما يعود الفضل الى تشيانغ في الحصول على المقعد الدائم وحق الفيتو في مجلس الامن التابع للامم المتحدة وكلاهما ورثهما ماو في آخر الامر.

في ذلك الوقت كان يُنظر الى تشيانغ على انه باني الصين الحديثة الذي تخلّص من امراء الحرب ووحّد البلاد، كما قاد الحرب ضد اليابان. كان على ماو تحطيم هذه الصورة ففي حملة الرعب التي قادها أمر الحزب «باعادة التعلّم» فيما يتعلّق بالسؤال التالي: «من هو باني الامّة

في الصين: القوميون ام الحزب الشيوعي الصيني؟» جاءت النتيجة الطبيعية للاتجاه الى تحطيم صورة تشيانغ في خلق اسطورة مفادها ان ماو هو مؤسس الصين الحديثة.

اخترع ماو خطوطاً معيّنة تحدّد المساوىء والحقد تجاه تشيانغ من خلال حملة «التفتيش عن الجواسيس» التي قامت من اجل التجسّس لحساب القوميين وليس لحساب اليابانيين، وشكّل ذلك المسألة الاساسية، ففي بعض الاحيان جرى اعتبار القوميين واليابانيين فريقاً واحداً عبر الايحاء بالتشابه المبهم بينهما. ومن خلال حملة الرعب حوّل ماو تشيانغ الى عدوّ في نظر الشيوعي العادي.

ولأثارة الحماسة ضد تشيانغ داخل الحزب الشيوعي الصيني دبّر ماو «مجزرة» اخرى للقوميين كتلك التي شملت المقرّ العام للجيش الرابع الجديد قبل سنتين. هذه المرة كان بين الاشخاص الذين جرت التضحية بهم اخوه الوحيد الباقي على قيد الحياة تسي مين.

كان تسي مين يعمل في زينجيانغ، في اقصى الشمال الغربي منها، وكانت مقاطعة تابعة للروس لسنوات عديدة. سنة 1942 اتّخذ امير الحرب المسيطر عليها موقفاً معادياً من الشيوعيين. وبعد ان شعر بالخطر على الحياة كل من تسي مين وسواه من القادة الاقليميين في الحزب الشيوعي ابرقوا الى ماو تكراراً طالبين تأمين خروجهم من المقاطعة، لكنه طُلب منهم البقاء حيث هم. في بداية سنة 1943 تمّ سجن تسي مين وما يزيد على 140 من الشيوعيين وعائلاتهم، بمن فيهم زوجة تسي مين وابنه، اضافة الى فتاة كان ماو يناديها «ابنته» وتدعى سي كي، واصبحت فيما بعد كنّته.

لدى ذهاب امير الحرب الى تشونغكينغ كان بديهياً ان يُطلب من ضابط الارتباط في الحزب الشيوعي الصيني تشو إن لاي التقدّم بطلب الى حكومة القوميين لاطلاق سراحهم، وقد حثّ الروس تشو إن لاي على القيام بذلك. طلبت القيادة في الحزب الشيوعي الصيني جماعياً وباسم الامانة العامة من تشو ان يفعل ذلك في 10 شباط. بعد يومين اي في 12 شباط، ارسل ماو برقية مستقلة الى تشو تحمل توقيعه وحده وتتضمّن برنامجاً للمحادثات مع القوميين، لكنها لم تتضمّن اي ذكر لاطلاق سراح المجموعة المحتجزة في زينجيانغ. لم يناقش تشو الذي كان يتلقّى الاوامر حينها من ماو وحده مسألة تلك المجموعة اثناء الاجتماعات العديدة التي عقدها مع القوميين.

في ذلك الوقت كان ليو بياو في تشونغكينغ وفي 16 حزيران وصل الى اجتماع مع السفير الروسي بانيوشكين قبل تشو واخبر بانيوشكين بان تشو لم يكن قد فعل شيئاً وبان «الاوامر» وصلت من «ينان». وعندما وصل تشو اخذ يدّعي انه ارسل رسالة الى تشيانغ منذ حوالى

الثلاثة اشهر ولكنه لم يحصل على جواب. عندها ابلغ بانيوشكين موسكو بالامر. جلس لين بياو «مطأطأ الرأس» إذ ان تشو كان يكذب بوضوح. في الواقع كان تشو ولين التقيا تشيانغ قبل ايام فقط، في السابع من الشهر، وكان تشيانغ لطيفاً اثناء اللقاء فيما لم يقل تشو شيئاً عن رفاقه المسجونين في زينجيانغ.

انتهى الامر باعدام تسي مين شقيق ماو وشخصيتين بارزتين في الحزب الشيوعي الصيني في 27 ايلول بتهمة التخطيط لانقلاب. لكن مع حدوث حالات وفيات قليلة، ثلاثة فقط، لم يكن ماو قادراً على البكاء جرّاء «المجزرة». كما لم يعلن عن ادانته للاعدام لأن ذلك قد يطرح اسئلة حول ما اذا كان الشيوعيون مذنبين حقا(*). وبقيت وفاة تسي مين لسنوات لا تحمل صفة الحدث العام.

(*) أطلق لاحقاً سراح المحتجزين الآخرين بمن فيهم زوجة تسي مين وابنهما يوان كسين، بإذن من الجنرال اليسيمو.

24- تسميم معارض لا يلين
(1941-1945؛ العمر 47-51 سنة)

بينما كان ماو يلجأ الى الرعب لتحويل اعضاء الحزب العاديين الى اجزاء ثانوية في ماكينته انتقل الى التركيز على زملائه الذين يشغلون مناصب رفيعة. كان هدفه تحطيمهم وجعلهم يتزلّفون له، وكان الهدف النهائي تكريس نفسه القائد غير المنازع عليهم بحيث لا يعود بحاجة الى الاتكال على مباركة موسكو فاختار الوقت الذي كان فيه ستالين منشغلاً في الحرب ضد المانيا.

في خريف 1941 دعا ماو الى عقد اجتماعات عديدة للمكتب السياسي للحزب توجّب خلالها على جميع الذين عارضوه في السابق باية طريقة ادانة انفسهم بطريقة مذلّة والتعهّد بالولاء له. قام بهذا العمل الأسبوعي معظم الأعضاء بمن فيهم الرئيس الأسمي للحزب لو فو والرجل الاول في الحزب سابقاً بو كو، وهو الرجل الذي حجّم ماو الى رئيس صُوري قبل المسيرة الطويلة(*). يُذكر ان تشو إن لاي كان في تشونغكينغ). الاّ ان شخصية حزبية بارزة رفضت الزحف، وكان ذلك وانغ مينغ الذي شكّل التهديد الرئيسي لماو منذ عودته من موسكو في اواخر سنة 1937.

بعد الاجتياح الالماني لروسيا اعتبر وانغ مينغ ان ستالين سيكون حتماً غير راض عن رفض ماو القيام بعمل ضد اليابان في سبيل مساعدة الاتحاد السوفياتي. في تشرين الاول 1941 لاحظ وجود برقية موجهة من رئيس الكومنتيرن ديميتروف الى ماو ويطرح فيها خمسين سؤالاً قاسياً جداً بما فيه السؤال التالي: «ما هي الاجراءات التي يتّخذها الحزب الشيوعي الصيني لتوجيه ضربة الى الجيش الياباني كي لا تعود اليابان قادرة على فتح جبهة ثانية ضد الاتحاد السوفياتي؟ بعد ان تسلّح وانغ مينغ بهذا الدليل الدامغ على اغتياظ موسكو من ماو انقضّ على هذه الفرصة املاً في تعزيز حظوظه الشخصية والسياسية. وفي ضوء هذه الواقعة رفض القيام بجلد نفسه وانتقد سياسة ماو تجاه كل من تشيانغ واليابان وطلب ان يتناظر مع ماو في منتدى حزبي موسّع معلناً انه مستعدّ ان يأخذ المسألة الى الكومنتيرن.

كانت خطة ماو الأساسية تقضي بالسيطرة غير المشروطة على زملائه ومن ثم دعوة المؤتمر

(*) مات بو كو في تحطم طائرة عام 1946.

الحزبي المؤجّل منذ فترة طويلة الى الانعقاد واعتلاء عرش الحزب. كان ماو حينها الرئيس الفعلي للحزب منذ حوالى السبع سنوات لكن دون ان يكون حاصلاً على مركز او لقب يتناسبان مع وضعه. لكن التحدّي الذي مارسه وانغ مينغ أحبط خطة ماو. واذا تمكن بتحديه هذا من فتح مناقشة لسياسة ماو الحربية في المؤتمر الحزبي، فإن المجتمعين سرّاً قد يقفون الى جانبه. فكان على ماو وضع المؤتمر الحزبي على الرّف.

اغتاظ ماو ازاء هذا الانقلاب غير المتوقّع في الاحداث وتفجّر غضبه الشديد من خلال قلمه. في تلك الفترة كتب وأعاد كتابة تسع مقالات صاخبة شتم فيها وانغ مينغ وحلفاءه السابقين بمن فيهم تشو إن لاي رغم ان هذا الأخير بدّل ولاءه منذ ذلك الحين. وما زالت هذه المقالات سرّاً محفوظاً بامانة الى يومنا هذا. بحسب امين سرّ ماو احتوت هذه المقالات على «فيض من العواطف عبّر عنها بكلام شديد الحدّة». وفي احد المقاطع أشار الى زملائه وكأنهم «ديدان صغيرة تثير الشفقة». ؛ «في داخل هؤلاء الأشخاص لا وجود حتى لنصف ماركس حقيقي، ماركس الحيّ، ماركس الذي يفوح منه العبير ... لا وجود الاّ لماركس المزيّف وماركس المتوفي وماركس ذو الرائحة الكريهة».

اعاد ماو صياغة هذه المقالات مرّات عديدة ومن ثم وضعها جانباً وبقي متعلّقاً بها لدرجة الهوس حتى مماته بعد ثلاثة عقود ونصف. في حزيران 1974 وبعد ان توفي وانغ مينغ في منفاه في الاتحاد السوفياتي وبينما كان تشو إن لاي يعاني من سرطان المثانة الذي بلغ درجة متقدمة، طلب ماو اخراج مقالاته من الارشيف كما طلب ان تُقرأ له إذ كان حينه اعمى تقريباً. وقبل شهر من وفاته التي حصلت سنة 1976 طلب ان تُقرأ على مسمعه مجدّداً.

في غضون ذلك ومباشرة بعد قيام وانغ مينغ بتحدّي ماو في تشرين الاول 1941 انهار مينغ بسبب مرض مفاجىء وأُدخل المستشفى للمعالجة. ادّعى بانه كان ضحية تسمّم يقف ماو وراءها وقد يصحّ الاتهام في هذه الحالة. الامر الاكيد ان ماو حاول تسميمه في شهر آذار اللاحق عندما كان وانغ مينغ على وشك الخروج من المستشفى. وحافظ هذا الاخير على روح التحدّي واخذ على نفسه عهداً: «لن احني رأسي حتى لو كان جميع الآخرين يتزلّفون له». في السرّ كتب اشعاراً اطلق على ماو فيها اسم «المعادي للاتحاد السوفياتي والمعادي للحزب الشيوعي الصيني». بالاضافة الى ذلك قال ان ماو كان «يؤسّس نظاماً ديكتاتورياً خاصاً به». «ان كل ما يفعله يكون خدمة لمصالحه ولا يهتم بأي شيء آخر». وكان ماو يتوقّع بان يعبّر صاحب الكلام الواضح جداً عن رأيه جهاراً من غير تردّد».

استعمل ماو اداةً في عملية دسّ السمّ هي طبيب يدعى جين ماويو اتى في الاصل من ينان

كجزء من فريق طبّي تابع للقوميين في اوج التنسيق بين القوميين والحزب الشيوعي الصيني. كان طبيباً نسائياً ماهراً فابقاه الشيوعيون في ينان. عندما أُحضر وانغ مينغ الى المستشفى عُيّن جين في منصب الطبيب الرئيسي المشرف عليه، وتمّ اثبات دسّ السمّ لوانغ مينغ من خلال تحقيق رسمي شمل الاطباء البارزين في ينان في اواسط 1943. وتبقى النتائج التي توصّل اليها التحقيق والتي حصلنا عليها سرّاً محفوظاً بامانة.

ابتداءً من اول آذار 1942 قيل ان وانغ مينغ «مستعدّ لأن يُعفى من منصبه». كان الدكتور جين يحاول ابقاءه في المستشفى من خلال اعتماد حجج هي عبارة عن سلسلة من العمليات من مثل «اقتلاع اسنانه واستئصال البواسير واللوزتين». لكن صُرف النظر عن هذه العمليات بعدما اعترض عليها طبيب آخر. واكتشف التحقيق انه كان هناك خطر محتمل من اجراء العمليات لكل من اللوزتين والبواسير (التي كانت منتشرة «على مساحة واسعة)».

لكن عندما كان وانغ مينغ على وشك مغادرة المستشفى في 13 آذار أعطاه الدكتور جين بعض الادوية التي انهار بعد تناولها. وسجّل التحقيق انه: «في 13 آذار وبعد ان تناول وانغ مينغ حبّة دواء شعر بألم في رأسه. في 14 آذار تناول اثنتين وبدأ بالتقيّؤ كما شعر بألم شديد في الكبد وتورّم طحاله وكان هناك ألم ناحية قلبه». بعد تناوله المزيد من حبوب الادوية التي وصفها الدكتور جين «افاد التشخيص بانه يعاني من التهاب حادّ في المرارة وتضخّم في الكبد».

لم يتوصّل التحقيق الى اكتشاف نوع الحبوب التي كان يتناولها لعدم وجود وصفة طبّية بها. ولدى طرح السؤال على الدكتور جين اعطى «اجوبة غامضة جداً». عن نوع الحبوب وكمّيتها. لكن التحقيق برهن انه بعد ان تناول وانغ مينغ الحبوب ظهرت عليه «عوارض التسمّم».

بعدئذٍ وصف الدكتور جين المزيد من الحبوب اتت على شكل جرعات كبيرة من الكالوميل والسودا وهما نوعان من الادوية، في حال جرى تناولهما معاً، ينتجان نوعاً من كلوريد الزئبق المسبّب للتآكل. ووجد التحقيق ان هذه الوصفات كانت «كافية لقتل عدّة اشخاص». وفنّد التقرير الكثير «من عوارض التسمّم الناتج عن الزئبق». وتوصّل الى الخلاصة التالية: «لقد ثبتت واقعة تسمّمه».

كان هناك احتمال بأن يموت وانغ مينغ لو تناول كل الوصفات السّامة التي اعدّها له الدكتور جين، لكن تولّد لديه الشك وتوقّف عن تناولها. في حزيران اوقف الدكتور جين علاجه المميت والسبب هو وصول ضابط ارتباط روسي جديد يشغل منصباً رفيعاً جداً الى ينان هو بيوتر فلاديميروف. سبق لفلاديميروف الذي يحمل رتبة جنرال ان عمل في شمال غرب الصين وكان يتكلّم الصينية بطلاقة كما كان يعرف بعض قادة الحزب الشيوعي الصيني شخصياً. وكانت تقاريره تُرفع الى ستالين واصطحب معه جراحاً من المخابرات العسكرية

السوفياتية يدعى اندريه اورلوف وهو برتبة جنرال، الى جانب عامل اضافي للاتصالات اللاسلكية.

في 16 تموز وبعد وصول فلاديميروف واورلوف بوقت قصير علمت موسكو وللمرة الاولى بان وانغ مينغ «هو على شفير الموت بعد تسعة اشهر من تلقّي العلاج». في هذه المرحلة يبدو ان وانغ مينغ لم يخبر الروس عن شكّه بالتسمّم. لم يكن فقط تحت رحمة ماو بل لم يملك الاثبات على ذلك. حاول في البداية ان يدقّ اسفيناً بين ستالين وماو من خلال قوله الى فلاديميروف بان ماو لا ينوي تقديم المساعدة العسكرية لروسيا. وفي 18 تموز اشار فلاديميروف الى ان وانغ مينغ «يقول بانه اذا هاجمت اليابان روسيا ... يجب على الاتحاد السوفياتي عدم الاتكال على الحزب الشيوعي الصيني».

اتّخذ فلاديميروف موقفاً انتقادياً حاداً من ماو بسرعة وتنبّه الى ان «الجواسيس يراقبون كل خطوة نقوم بها». «في الايام القليلة الاخيرة كان كانغ شنغ يكرهني على قبول استاذ مزيّف للغة الروسية كان مفترضاً عليّ قبوله كتلميذ. لم يسبق لي أن رأيت فتاة صينية في مثل هذا الجهال الخارق. ان هذه الفتاة لا تدعنا نعيش بسلام ليوم واحد ...». خلال اسابيع طرد فلاديميروف الطاهي الذي كان مقتنعاً بانه «مُخبر لدى كانغ شنغ».

في بداية سنة 1943 تدهورت حالته الصحية تدهوراً كبيراً. واوصى الاطباء الذين كان الجرّاح الروسي اورلوف في صفوفهم بان يتلقّى العلاج في المنطقة الخاضعة للقوميين او في روسيا، الاّ ان ماو رفض السماح لوانغ مينغ بالذهاب.

ولكي ينقذ وانغ مينغ حياته ويؤمّن انتقاله الى موسكو كان عليه ان يُشعر ستالين بان له دور سياسي هام. في 8 آذار املى على فلاديميروف برقيّة طويلة موجّهة الى ستالين شخصياً. حسب روايته فصّلت البرقية «الجرائم العديدة» التي ارتكبها ماو والتي وصفها بانها «على نقيض من السوفيات ومن الحزب». في النهاية « استفسر ما اذا كان ممكناً ارسال طائرة اليّ لأتلقّى العلاج في موسكو حيث سيزوّد الكومنتيرن ايضاً بتفاصيل عن الجرائم التي ارتكبها ماو».

وصلت رسالة ماو التي خفّف من حدّتها فلاديميروف الى رئيس الكومنتيرن ديميتروف في الاول من شباط. اكتشف ماو على نحوٍ بيّن ان وانغ مينغ وجّه رسالة خطيرة الطابع الى روسيا فارسل على الفور برقية الى ديميتروف اورد فيها اتهامات مضادة ضد وانغ مينغ. ورغم ذلك وعد ديميتروف وانغ مينغ بالآتي: «سوف نؤمّن سفرك الى موسكو».

عند هذه النقطة حاول الدكتور جينغ مجدّداً التخلّص من وانغ مينغ. في 12 شباط، اي بعد يومين مباشرة على وصول رسالة ديميتروف، وصف الدكتور جين وصفة هي عبارة عن مزيج مميت من الكالوميل والسودا مرّة اخرى. بعد اسبوع وصف حقنة من حمض التنّيك بلغت

قوّتها درجة قاتلة. هذه المرّة لم يكتفِ وانغ مينغ بعدم اتّباع وصفاته بل احتفظ بها بعناية.

شعر ماو بالالحاح الشديد للقيام بتحرّك مروّع. في 20 آذار دعا الى اجتماع سرّي للغاية للمكتب السياسي للحزب، مستثنياً وانغ مينغ، وجعله ينتخبه قائداً اعلى للحزب فاصبح بذلك رئيساً على كل من المكتب السياسي والامانة العامة. وأعطي القرار لماو سلطة مطلقة وفي الواقع اوضح ما يلي: «فيما يتعلّق بجميع المسائل ... يملك الرئيس الصلاحية لاتخاذ القرارت النهائية». كما طُرد وانغ مينغ من الامانة العامة التي تشكّل المجموعة الرئيسية في الحزب.

كانت هذه المرة الاولى التي يصبح فيها ماو الرجل الاول في الحزب بصفة رسمية وفعلية. لكن كانت هناك مسألة شديدة السرّية وأُبقيت سرّاً بصورة كلّية على حزبه وعلى موسكو، كما بقيت سرّاً طوال حياة ماو وعلى الارجح لم يعلم بها سوى بضعة اشخاص.

قد يكون وانغ علم بمناورات ماو ولذلك كشف عن محاولة دسّ السمّ للروس للمرة الاولى. في 22 آذار اطلع اورلوف على على واحدة من وصفات الدكتور جين والتي ارسل فلاديميوف برقيّة بشأنها الى موسكو. فردّت هذه الاخيرة على الفور قائلة بأن الوصفة «تتسبّب بالتسمّم البطيء». و«في الحالات الخطيرة تؤدّي الى الموت». ومن ثم عرض وانغ مينغ على رئيس الطاقم الطبّي في ينان الدكتور نلسون فو الوصفة ممّا ادّى الى حصول تحقيق واثبت هذا التحقيق من دون ادنى شكّ بان وانغ مينغ هو ضحية تسمّم.

لكن ماو المخطّط من الطراز الاول حوّل التحقيق لصالحه. بينما لم يثبت التحقيق بان هناك محاولات لقتل وانغ مينغ، استعمل ماو هذه الحقيقة ليقول بانها ما زالت تبرّر التأخير في سفر وانغ مينغ.

بالنسبة الى ماو يمكن تسليم كبش المحرقة على الدوام، وفي هذه الحالة فان الدكتور جين هو المعني. واشار فلاديميروف الى انه في 28 آذار «أتت [السيدة ماو] لرؤيتي على نحوٍ مفاجىء». «تكلّمت مطوّلاً عن عدم جدارة الدكتور جين بالثقة، وهو [كما قالت] قد يكونُ عميلاً للقوميين ...».

بعد مرور ستة وخمسين عاماً وفي بناء كئيب الطابع من الاسمنت يقع في بكين ذات الجوّ المليء بالغبار تسلّمنا مقابلة مسجّلة على شريط من الدكتور واي الذي هو العضو الوحيد الباقي على قيد الحياة من اللجنة الطبية المؤلفة من خمسة عشر عضواً والتي رفعت النتائج الرسمية للتحقيق في ينان. يتميّز الدكتور واي بالحيوية والنشاط الذهني رغم بلوغه السابعة والثمانين من العمر.

ما إن أُخذ القرار باجراء التحقيق الطبّي أُسندت الى الدكتور واي مهمة اثبات ما اذا كان

وانغ مينغ بالفعل قد تعرّض للتسمّم. «مكث مع وانغ مينغ مدة شهر وكان ينام في مكتبه». ويسخّن بوله كل يوم ومن ثم يغمس فيه قطعة من الذهب ويفحصه تحت المجهر. وبعد ان تثبّت من احتوائه على الزئبق قال الدكتور واي الى رئيسه في الجسم الطبّي: «كان يتعرّض للتسمّم بصورة بطيئة». لكن لم تُتَّخذ اي خطوة لاسابيع. واخيراً بدأ التحقيق الطبّي في 30 حزيران، اي بعد مرور اكثر من ثلاثة اشهر على افتضاح امر التسمّم. تشير النتائج التي رُفعت في 20 تموز الى ان وانغ مينغ تعرّض للتسمّم على يد الدكتور جين وحملت النتائج توقيع جين نفسه. وبعد توقيعه كتب بين هلالين: «سوف أدلي بافادة مستقلّة حول العديد من النقاط». ولكنه لم يفعل. في منتصف احد الاجتماعات وامام زملائه رمى بنفسه على اقدام زوجة وانغ مينغ وتوسّلها الغفران قائلاً بانه كان مخطئاً». «واقرّ بارتكابه الاخطاء. بالطبع لم يقرّ بانه ارتكبها عمداً.». في الواقع كان الدكتور جين يحمل في جيبه كتيّباً طبّياً يعلن بالتحديد بانه من المحرّمات استعمال الكالوميل في مزيج مع الصودا وشدّد على هذه الكلمات. في الواقع واجهه الدكتور واي بهذا الخصوص قائلاً: «انظر، انه مكتوب هنا: وصفة محرّمة، اذى شديد. وانت حتى وضعت خطّاً تحت هذه الملاحظة!» الاّ ان جين بقي صامتاً.

لكن بدل ان يواجه جين المتاعب تمّت حمايته عبر نقله الى مأوى الجهاز الامني اي حديقة المواعيد حيث عاش مع النخبة في هذا الجهاز. كما بقي احد اطباء ماو وغيره من القادة، وكان هذا الامر مستحيلاً لو توفر لماو ادنى شكّ في كفاءته او لولا تزعزت ثقته به.

بالطبع لم يشمل التحقيق ماو لكن كان للروس شكّ بان: «وانغ مينغ تعرّض للتسمّم و... ان ماو تسي تونغ وكانغ شينغ كانا متورّطين».

مرة اخرى كان تشو ان لاي، ضابط الارتباط في تشونغكينغ لدى ماو، شريكه الرئيسي في منع وانغ ينغ من نقل الخبر الى موسكو. كانت موافقة تشيانغ كاي شيك للسماح للطائرات الروسية بالقدوم الى ينان ضرورية لذلك طلب ماو من تشو وبطريقة خبيثة ان يحصل على اذن من تشيانغ كاي شيك يُسمح بموجبه لطائرة روسية بالمجيء ونقل وانغ مينغ فيما اوضح لتشو بانه لا يريد رؤية وانغ مينغ يغادر . وكما ينبغي ابلغ تشو الروس بان «الوطنيين/ القوميين لن يسمحوا لوانغ بمغادرة ينان». في الواقع اخبر لين بياو الذي كان في تشونغكينغ في ذلك الوقت السفير السوفياتي بانيوشكين بان تشو لم يُثِر المسألة مع القوميين ابداً بسبب «التعليمات الصادرة من ينان».

في هذا الوقت بالذات حصل تشو على اذن من تشيانغ يسمح بموجبه لطائرة روسية باعادة آن ينغ ابن ماو من روسيا. كان آن ينغ الموجود في روسيا منذ سنة 1937 قد بلغ الواحدة والعشرين من عمره وكان من المتحمّسين جداً في الكلية العسكرية حيث التحق بالحزب

الشيوعي السوفياتي. كان وجّه ثلاث رسائل الى ستالين يطلب فيه تكليفه بمهمة على الجبهة مع المانيا.

وبما ان آن ينغ لم يُرسل الى الجبهة فقد طلب اذناً بالعودة الى الصين بعد تخرّجه في 1 ايار 1943. لم يكن فقط الابن البكر لدى ماو بل كان ايضاً الوريث الذكر الوحيد لديه اذ ان ابن ماو الآخر آن تشينغ كان مصاباً بالتخلّف العقلي. ابرق آن ينغ الى والده من خلال ديميتروف واجابه ماو قائلاً بان تشيانغ اعطى الموافقة على رحلة الطائرة. استعدّ آن ينغ للرجوع الى بلاده وطلب من مدير المدرسة الشيوعية الدولية الاهتمام بشقيقه قائلاً: «لا تدعه يغيب عن نظرك... انه شخص مستقيم وهو يشكو فقط من مشاكل في السمع واعصابه منهارة».

في 19 آب انطلقت طائرة من ينان لتقلّ وانغ مينغ وكان من المفترض ان يكون آن ينغ على متنها، لكن في ذلك اليوم استُدعي لمقابلة ديميتروف. لدى وصول الطائرة الى ينان لم يكن آن مينغ فيها، وكأن موسكو تقول لماو بانها تريد وانغ مينغ اولاً قبل ان تطلق سراح ابنه.

لكن ماو تمسّك بوانغ مينغ واعلن فلاديميروف: «طُلب من الاطباء القول بان وانغ مينغ لم يكن قادراً على تحمّل مشقّة الرحلة ... واستمر الطاقم في تأخير الرحلة بقدر ما استطاع لكن ماو حصل على ما يريده».

جاءت طائرة اخرى سوفياتية في 20 تشرين الاول ومكثت اربعة ايام قبل ان تغادر وعلى متنها رجال من الاستخبارات السوفياتية ولكن مرة اخرى دون وانغ مينغ. اعلن فلاديميروف انه «لدى رؤيته [الدكتور اورلوف] ... انفجر وانغ مينغ بالبكاء ... انه ... ما زال غير قادر على السير ... لقد تخلّى عنه اصدقاؤه ... انه وحيد بكل ما للكلمة من معنى...». لقد مضى الآن سنتان على التأزّم في صحته وتسعة عشر شهراً كاملاً على بداية التسمّم لديه. في تلك الايام الطويلة المليئة بالعذاب اهتمت به زوجته بتفانٍ فيما بدا على وجهها الهدوء والقوة. ولكنها كانت في بعض الاحيان تقفل الباب وتحاول تبديد الكرب عنها. واخبرنا ابنها بانه عندما كان صبياً يافعاً وجدها مرة وهي تدور وترفس الارض الترابية وتكبت نشيجها وصراخها بمنشفة. كان ابنها صغيراً جداً غير قادر على فهم ما يجري ولكن المشهد المؤذي ظلّ محفوراً في ذاكرته.

قال الدكتور واي انه في ينان «كان الكثيرون على علم بان وانغ مينغ تعرّض للتسمّم بواسطة الزئبق وبان احداً كان يحاول قتله ... وكان الخبر منتشراً». ليس فقط بين الضباط الكبار بل ايضاً فيما بين اعضاء الحزب العاديين الذين كانوا على علاقة بالموظفين العاملين في الحقل الطبي. لذلك كان العديد من الناس يشكّون بان ماو احسّ بان عليه القضاء على الشعور الخفيّ بالشك والتخلّص منه. وكان ذلك يعني جعل عائلة وانغ مينغ تقوم بانكار علني.

في 1 تشرين الثاني وبعد مضي اسبوع على مغادرة الطائرة الروسية الثانية دعا ماو الى اجتماع موسّع للضباط الكبار. فيما جلس هو على المنصة وأبقي وانغ مينغ بعيداً. كان الشاهد النجم قائداً سابقاً تردّد انه أُخرج من الاعتقال للقول بانه منذ ما قبل السنة طلبت منه السيدة وانغ مينغ القول ان زوجها تعرّض للتسمّم ولّمحت بقوة الى ان ماو مسؤول عن هذا التسمّم. الاّ ان السيدة مينغ انكرت ذلك بشدّة على المسرح. في 15 تشرين الثاني وجّهت رسائل الى ماو الى المكتب السياسي للحزب اقسمت فيها بانها هي وزوجها لم يضمرا تلك الفكرة ولم يشعرا تجاه ماو سوى بالامتنان. وهكذا أُقفلت مسألة التسمّم/ وأُسدِل الستار عليها رسمياً.

*

تحدّى ماو ارادة ستالين الى درجة مذهلة فلم ترسل موسكو طائرة الى ينان لامر غير هام. علاوة على ذلك حدثت امور غريبة مع الروس الموجودين في ينان في حينه، فتحطّمت محطة الاتصالات اللاسلكية التابعة لهم إذ تعرّضت للتخريب على ما يبدو. كما أُطلقت النار على كلابهم التي جلبوها معهم لتأمين سلامتهم الشخصية اضافة الى الحماية من الذئاب. وتجرّأ ماو على القيام بكل هذه الاعمال إذ كان يعلم بانه المنتصر وبان ستالين بحاجة اليه وبانه كان ملتزماً تجاهه. وفي نفس المرحلة اخبر ستالين الروس في 30 تشرين الاول 1943 بانه سوف يشنّ حرباً على اليابان في نهاية المطاف وتضاعف كثيراً تزويد الروس لماو بالاسلحة .

عندما ابرق ديميتروف الى ماو مجدّداً في 17 تشرين الثاني حول نقل وانغ مينغ الى روسيا لم يرسل ماو ايّ ردّ. وحين ارسل ديميتروف رسالة الى وانغ مينغ في 13 كانون الاول كانت تسيطر عليها بوضوح روح الكآبة. وبعد ان ذكر بان ابنة وانغ مينغ التي كان آل ديميتروف تبنّوها، هي بخير، تابع ديميتروف بلهجة استسلامية قائلاً: «في ما يتعلّق بأمور حزبكم، حاولوا تسويتها بانفسكم. ليس من الملائم ان يحصل تدخّل من هنا في الوقت الراهن».

لكن ستالين اخذ قراراً واضحاً بوجوب توجيه انذار الى ماو، وبعد ذلك بوقت قصير وفي 22 كانون الاول فوّض ديميتروف ارسال برقية غير عادية ابداً طلب فيها من ماو ما يلي:

> «لا حاجة للقول بأنه بعد حلّ الكومنتيرن(*)، ان قادته ... لن يستطيعوا التدخّل في الشؤون الداخلية للحزب الشيوعي الصيني. لكن ... لا استطيع الامتناع عن التعبير عن قلقي بسبب الوضع السائد في الحزب الشيوعي الصيني ... اعتقد ان سياسة تقليص الصراع ضد المحتلّين الاجانب هي خاطئة من الناحية السياسية، كما ان التحرّك الحالي القائم على التخلّي عن الجبهة المتحدة الوطنية هو ايضاً خاطىء ...».

(*) في 20 أيار 1943. وكان مجرد إجراء لتهدئة حلفاء ستالين الغربيين، الأمر الذي أدخل بعض التغييرات على العلاقة بين موسكو وماو.

وبعد قول ديميتروف بأن لديه شعور بالريبة تجاه كانغ شنغ رئيس الاستخبارات التابعة لماو والذي وصفه بانه «يساعد العدو». قال لماو بان «الحملة التي يقودها لتجريم» وانغ مينغ وتشو إن لاي هي «خاطئة».

وبدأ ديميتروف البرقية بمقطع شديد اللهجة حول ابنه آن ينغ:

«في ما يخصّ ابنك رتّبت امره كي يتسجّل في الكلّية العسكرية السياسية ... انه شاب موهوب لذلك لا اشكّ ابداً بانك سوف تجد فيه مساعداً جيداً وجديراً بالثقة. انه يرسل اليك تحياته».

لم يذكر ديميتروف كلمة واحدة عن عودة آن ينغ الى الصين والتي فات موعدها منذ وقت طويل. كما ان ذكره في سياق متناقض مع ذكره لوانغ مينغ هو اوضح طريقة للقول لماو بان ابنه كان رهينة، تماماً كما كان ابن تشيانغ كاي شيك.

عندما قام فلاديميروف بترجمة برقية ديميتروف له في 2 كانون الثاني 1944 اتّسمت ردة فعل ماو الفورية بالتحدّي، وكتب جواباً فظّاً على الفور تضمّن ردّاً على النقاط التي تنتقده بمثلها:

«الى الرفيق ديميتروف:

1- نحن لم نقلّص القتال ضد اليابان، بل على العكس من ذلك ...

2- ان خطّنا فيما يخصّ التعاون مع القوميين يبقى ثابتاً ...

3- ان علاقتنا بتشو إن لاي جيدة ونحن لن نفصله عن الحزب ابداً. ان تشو إن لاي احرز تقدّماً كبيراً.

4- ان وانغ مينغ مشارك في نشاطات عديدة معادية للحزب ...

5- اني اؤكّد لكم واضمن بان الحزب الشيوعي الصيني يحب الرفيق ستالين والاتحاد السوفياتي ويكنّ لهما الاحترام الكبير ...

6- ... ان وانغ مينغ غير جدير بالثقة. وهو أُوقف مرة في شانغهاي. وقال العديد من الاشخاص انه عندما كان في السجن اقرّ بعضويته في الحزب الشيوعي. وأُطلق سراحه بعد ذلك(*). كذلك هناك كلام عن علاقاته المشبوهة بميف الذي شملته عملية التطهير في روسيا.

ان كانغ شنغ رجل جدير بالثقة ...»

ماو تسي تونغ

(*) يعني ذلك أن تفسير وانغ مينغ لطريقة خروجه من السجن كانت غير مرضية وبالتالي مثيرة للريبة.

وبعد قول ديميتروف بأن لديه شعور بالريبة تجاه كانغ شنغ رئيس الاستخبارات التابعة لماو والذي وصفه بانه «يساعد العدو». قال لماو بان «الحملة التي يقودها لتجريم» وانغ مينغ وتشو إن لاي هي «خاطئة».

وبدأ ديميتروف البرقية بمقطع شديد اللهجة حول ابنه آن ينغ:

«في ما يخصّ ابنك رتّبت امره كي يتسجّل في الكلّية العسكرية السياسية ... انه شاب موهوب لذلك لا اشكّ ابداً بانك سوف تجد فيه مساعداً جيداً وجديراً بالثقة. انه يرسل اليك تحياته».

لم يذكر ديميتروف كلمة واحدة عن عودة آن ينغ الى الصين والتي فات موعدها منذ وقت طويل. كما ان ذكره في سياق متناقض مع ذكره لوانغ مينغ هو اوضح طريقة للقول لماو بان ابنه كان رهينة، تماماً كما كان ابن تشيانغ كاي شيك.

عندما قام فلاديميروف بترجمة برقية ديميتروف له في 2 كانون الثاني 1944 اتّسمت ردة فعل ماو الفورية بالتحدّي، وكتب جواباً فظّاً على الفور تضمّن ردّاً على النقاط التي تنتقده بمثلها:

«الى الرفيق ديميتروف:

1- نحن لم نقلّص القتال ضد اليابان، بل على العكس من ذلك ...

2- ان خطّنا فيما يخصّ التعاون مع القوميين يبقى ثابتاً ...

3- ان علاقتنا بتشو إن لاي جيدة ونحن لن نفصله عن الحزب ابداً. ان تشو إن لاي احرز تقدّماً كبيراً.

4- ان وانغ مينغ مشارك في نشاطات عديدة معادية للحزب ...

5- اني أؤكّد لكم واضمن بان الحزب الشيوعي الصيني يحب الرفيق ستالين والاتحاد السوفياتي ويكنّ لهما الاحترام الكبير ...

6- ... ان وانغ مينغ غير جدير بالثقة. وهو أُوقف مرة في شانغهاي. وقال العديد من الاشخاص انه عندما كان في السجن اقرّ بعضويته في الحزب الشيوعي. وأُطلق سراحه بعد ذلك(*). كذلك هناك كلام عن علاقاته المشبوهة بميف الذي شملته عملية التطهير في روسيا.

ان كانغ شنغ رجل جدير بالثقة ...»

ماو تسي تونغ

(*) يعني ذلك أن تفسير وانغ مينغ لطريقة خروجه من السجن كانت غير مرضية وبالتالي مثيرة للريبة.

كان ماو رجلاً متهوّراً لكنه كان يسيطر على نزواته. قال مرّة الى احد الموظّفين الذي علّق على «هدوئه» و«ضبط النفس التام» الذي يتمتّع به: «لا يعني ذلك باني لست غاضباً. في بعض الاحيان اكون غاضباً لدرجة اني اشعر بان رئتيّ على وشك الانفجار. لكنني اعلم بانه يجب ان اتمالك نفسي والاّ اظهر شيئاً».

لم تكن ردّة فعل ماو السريعة في هذه المناسبة من ميزاته. ولا يعود السبب الذي جعله ينفجر الى اهتمامه الزائد بابنه بل الى ان موسكو حاولت ابتزازه للمرة الاولى، لكنه ندم على ثورانه فوراً. لم يكن قادراً على تحمّل الحاق الاذى بموسكو لا سيما وان الموجة اتجهت في حينه ضد المانيا وكان مُرجّحاً ان تتحرّك روسيا ضد اليابان في وقت قريب فتوصله الى السلطة.

في اليوم التالي قال ماو لفلاديميروف بانه «افرط في التفكير» ببرقية ديميتروف وسأله اذا ما أُرسل جوابه. واذا لم يُرسل فهو «سوف يغيّر مضمونه بالتأكيد».

لكن البرقية كانت أُرسلت وفي الايام التالية بدأ ماو الذي بدت عليه علامات القلق بالتودد الى فلاديميروف. في 4 كانون الثاني دعا هذا الاخير الى استعراض في الاوبرا و«على الفور شرع في الحديث عن الاحترام الذي يكنّه للاتحاد السوفياتي ... وللمدعو اي. في. ستالين ... قال ماو انه يحترم حقاً الرفاق الصينيين الذين تلقّوا علومهم في الاتحاد السوفياتي او عملوا فيه...».

في اليوم التالي عرّج على فلاديميروف مجدّداً واشار هذا الاخير الى «انه يفهم على ما يبدو بان البرقية التي ارسلها الى ديميتروف في 2 كانون الثاني فظّة اللهجة ولا تنمّ عن الاحترام». في السادس من كانون الثاني اقام ماو عشاءً على شرف الروس: «اتّسم الجو بالودّ وبالتذلّل وبالمحافظة على الرسميّات». في اليوم التالي اتى ماو وحده الى منزل فلاديميروف في التاسعة صباحاً وكان ذلك بالنسبة اليه بمثابة منتصف الليل. و«فجأة بدأ [ماو] يتكلّم عن وانغ مينغ بلهجة مختلفة كلّياً وودّية تقريباً!». في النهاية جلس ماو وكتب برقية اخرى الى ديميتروف وطلب من فلاديميروف «ارسالها». في الحال «بدا ماو مضطرباً وكانت ايماءاته تدلّ على التوتّر والعصبية ... وبدا متعباً للغاية كما لو انه لم ينَم لدقيقة واحدة».

كانت اللهجة السائدة في البرقية الثانية انبطاحية ومما جاء فيها:

«اني اشكركم من كل قلبي على التوجيهات التي اعطيتموني ايّاها. سوف ادرسها بتمعّن ... واتّخذ الاجراءات وفقاً لها ... فيما يتعلّق بالمسألة الداخلية في الحزب ان سياستنا تهدف الى المحافظة على الوحدة، وسوف تُتّبع السياسة نفسها مع وانغ مينغ ... اني اطلب منكم ان تطمئنّوا. ان كل افكاركم عزيزة على قلبي ...».

من ثم قام ماو بزيارتين مطوّلتين الى وانغ مينغ.

ارسل ديميتروف رسالة في 25 شباط قال فيها انه مرتاح جداً لبرقية ماو الثانية. وبرز استعداد للتعاون في هذه الرسائل وتلك التي تلتها .

في 28 آذار طلب ماو من فلاديميروف ارسال برقية الى ابنه آن ينغ قال له فيها بالاّ يفكر بالعودة الى الصين. وجاء فيها بان ماو «سعيد جداً بسبب نجاحه في دراسته». وطلب منه ايضاً «الاّ يقلق على صحة والده إذ انه بخير». كما طلب ماو من آن ينغ ان ينقل «تحيّاته الحارة». الى مانويلسكي والى ديميتروف اللذين، وفقاً لماو، «ساندا ... الثورة في الصين. ويدين اليهما الرفاق الصينيون واولادهم بتعليمهم في روسيا وتربيتهم والحفاظ عليهم».

وكأن ماو يقول لموسكو: اني اقبل بان تحتفظوا بآن ينغ كرهينة. وفي ظلّ هذا التفاهم بقي آن ينغ في روسيا.

في غضون ذلك طلب ديميتروف من وانغ مينغ ان يقبل بتسوية مذلّة. وفيما احتجّ قائلاً بانه لا يقف وراء الانقسام وعد وانغ مينغ وهو في حالٍ من الضعف بالتعاون مع ماو لكنه طلب من موسكو آن تحاول ضبطه.

كانت النتيجة حصول تباعد ولكنه جاء لصالح ماو إذ سُمح له بالاحتفاظ بوانغ مينغ في ينان وعمل ما يشاء معه طالما لم يقتله. في الحقيقة شكّل الذمّ بوانغ مينغ حيّزاً كبيراً من حملة الرعب التي سادت ينان ابتداءً من سنة 1942. وعُقدت جلسات لا حصر لها لتلقين المبادىء الحزبية وهدفت الى تشويه سمعته في اوساط اعضاء الحزب. خلال انعقاد احد التجمّعات التي أُدين فيها غيابياً (تأكّد ماو من بقاء وانغ بعيداً عن الكوادر الحزبية) تمكّنت زوجة وانغ مينغ من الوصول الى المنصّة والقول بان التُهم ليست حقيقية وطلبت باحضار وانغ مينغ لتوضيح الوقائع. ولمّا لم يتحرّك احد رمت بنفسها على ماو وهي تجهش بالبكاء وتمسّكت برجليه طالبةً منه ان يكون منصفاً، الاّ انه جلس في المكان ولم يتحرّك وكأنه حجر.

في نهاية الحملة ترسّخ في ذهن الناس ان وانغ مينغ هو العدو الاول للحزب وهو ليس في وضع يمكّنه من تحدّي ماو بعد ذلك الحين، رغم ان ماو كان لا يزال يرى فيه خطراً لانه بقي غير مهزوم. وبعد خمس سنوات جرت محاولة للاعتداء على حياته(*).

فيما استعمل ماو السمّ لمعالجة مسألة وانغ مينغ اتّجه ايضاً الى تشو إن لاي. وكان ذلك رغم

(*) عام 1948 عندما خطط ماو للذهاب الى روسيا كان قلقاً لما سيفعله وانغ مينغ في غيابه. فحقن وانغ مينغ بالليزول لمعالجة إمساكه المزمن. الليزول مادة مطهرة تستخدم لتنظيف المجاري البولية والأمعاء. بقي وانغ مينغ على قيد الحياة لأن زوجته أوقفت فوراً هذه المادة بعد أن صرخ من الألم. لم يعان أي قائد آخر في الحزب الشيوعي الصيني من «الحوادث الطبية»هذه-أو أية حوادث جدية أخرى. إمكانية أن يكون ذلك حادثاً مضبوط بكون الطبيب الذي وصف الليزول بقي الطبيب الرئيسي لماو. ذكر تقرير رسمي مؤرخ في 7تموز1948 وغيره من الوثائق الطبية هذا «الحادث الطبي» وكان الصيدلي كبش المحرقة.

ان تشو تعاون مع ماو في بعض ما قام به من اعمال دنيئة ليس اقلّها جعل تسي مين يُقتل ومنع صديقه القديم وانغ مينغ من المغادرة الى موسكو لتلقّي العلاج.

لكن ماو اراد اكثر من مجرّد اذعان مفعم بالخنوع؛ اراد ان يكون تشو مرتعباً ومحطّماً كلّياً. وانذرت حملة الرعب التي شُنّت خلال سنتي 1942 و1943 بادانة تشو بتهمة ترؤس الجواسيس. في الواقع يعود ذلك جزئياً الى رغبة ماو في تلفيق تهمة ضد تشو مفادها ان معظم المنظمات الشيوعية في المناطق الخاضعة للشيوعيين تقوم بالتجسّس لحساب تشيانغ إذ ان تشو هو المسؤول عن هذه المنظمات. وفي سبيل احضار تشو الى ينان على الفور واقحامه في دائرة الرعب، ارسل ماو برقيات مليئة بالتهديد يأمره فيها بالعودة من وجاء في احداها المؤرّخة في 15 حزيران 1943: «لا تتباطأ ... لتجنّب كلام الناس». وعندما عاد تشو في تموز وجد ان الامر الاول الذي قاله ماو امامه كان تهديداً: «لا تترك قلبك في معسكر العدو!». اصاب تشو الهلع وردّ بتزلّفٍ مقيت من خلال توجيه المديح لماو في حفلة «الاستقبال». التي اقامها له. ومن ثم في تشرين الثاني ضرب نفسه بعنف مدة خمسة ايام امام المكتب السياسي للحزب موجهاً الاقوال بانه «ارتكب جرائم فظيعة جداً». وكان «شريكاً» لوانغ مينغ وبان له «طباع العبد»؟ الى السيّد غير المناسب بالطبع. وقال لجمهور كبير من الحزبيين بان تشو وقادة آخرين يشكّلون كارثة وبان ماو هو الذي انقذ الحزب منهم. وبعد ان تمّ ترويض تشو بالكامل اصبح عبداً حقيراً خاضعاً لماو لمدة زادت على الثلاثة عقود واستمرّت تقريباً حتى الرمق الاخير من حياته.

كان الرجل الاخير الذي شرع ماو في اضعافه بينغ دو هواي، نائب قائد الجيش الطريق الثامن. كان بينغ عارض ماو في الثلاثينات وفي سنة 1940 عارض رغبات ماو وأطلق الحملة الوحيدة الواسعة النطاق التي شُنَّت من قبل الشيوعيين على اليابان طوال الحرب الصينية اليابانية. كما فعل شيئاً آخر اثار غضب ماو حين حاول تطبيق بعض المثاليات التي بحسب قاموس ماو يجري التلويح بها على سبيل الدعاية. قال ماو ان «الديمقراطية والحرية والمساواة والاخوة». هي مفاهيم تُنشر فقط خدمةً «لمستلزمات حياتنا السياسية». ووبّخ بينغ بسبب «التكلّم عنها كمثاليات حقيقية».

كان ماو متسامحاً مع بينغ لان هذا الاخير لعب دوراً هاماً جداً في نشر الجيش وفي تدمير المناطق التي تقع فيها القواعد. (لقد تمتّعت القواعد الخاضعة لبينغ بعلاقات افضل مع السكان المحلّيين كما ساد جوّ اقلّ ظلماً فيها بالمقارنة مع ينان). في خريف 1943 اعاده ماو الى ينان رغم انه لم يضعه على لائحة اهدافه على الفور لانه لم يشأ الدخول في صفقة مع الكثير من الاعداء في نفس الوقت. تكلّم بينغ بصراحة عن الاشياء الكثيرة التي أغاظته في ينان، بما فيها جهود ماو

لتحويل نفسه الى معبود الجماهير، الامر الذي سمّاه بينغ «الخطأ» الصرف. وفي احد الايام وبينما كان يتكلّم مع عضو حزبي شاب أُطلق سراحه للتو من السجن التابع لماو قال وهو غارق في التفكير: «من الصعب ان يصمد المرء وحده بصورة مشرِّفة».

مع اوائل 1945 بدأ ماو بتلطيخ سمعته ومصداقيته وافقده رباطة جأشه. وفي سلسلة من الاجتماعات المنهكة امطره تابع لماو بالشتائم والاتهامات ووصف تلك التجربة كأنها «تعرّضٌ للنكاح لمدة اربعين يوماً». واستمرّت الجلسات التي تهاجم بينغ بصورة متقطّعة حتى عشية استسلام اليابان حين توقّفت لان ماو كان بحاجة الى قادة من وزن بينغ للقتال ضد تشيانغ كاي شيك. عند هذه النقطة كان ماو قد اخضع كل اعدائه بصورة منتظمة.

25- ماو قائداً أعلى للحزب
(1942-1945، العمر 48-51 سنة)

ان حملة الرعب التي قادها ماو خلقت له الكثير من الاعداء، ابتداءً من المجنّدين الجدد الخام وصولاً الى القادة الحزبيين المتمرّسين، لدرجة راح معها يشعر بالخطر فضاعف الاحتياطات الخاصة بأمنه الشخصي. في خريف 1942 تم افتتاح الحرس البريتوري الخاص. تخلّى ماو عن مسكنه العام في يانغ هيلّ نهائياً وامضى كل اوقاته في «حديقة المواعيد» Date Garden المأوى المنعزل للكي جي بي والذي يقع على بعد بضعة كيلومترات خارج ينان. كانت الاملاك المحاطة بالحيطان العالية والمحروسة باحكام مكاناً يبتعد عنه الجميع. ان ايّ شخص يخاطر بالاقتراب قد يثير الشك بانه جاسوس. بنى ماو منزلاً خاصاً به هناك وكان مصمّماً على الصمود في وجه اعنف قصفٍ جوي.

ولكن حتى «حديقة المواعيد» Date Garden لم تكن مكاناً آمناً بما فيه الكفاية. يقع وراءه طريق يمرّ عبر الاقحوان البرّي وصولاً الى اعماق التلال وكأنه مخبأ اكثر سرّية، وكان الطريق مغطّى باشجار الصفصاف والاجاص ذات الاوراق التي تشبه البتولا واشجار الحور ذات الجذوع الحمراء. هناك وفي ساحة تدعى الوهد الاسود اقيمت مجموعة من المساكن لماو في مكانٍ ناءٍ يقع على منحدر التلّ. وجرى توسيع الطريق كي يصبح ممكناً قيادة سيارة ماو وصولاً الى بابه. وقلة قليلة كانت تعلم بانه يسكن هناك.

كان لغرفة ماو الرئيسية هنا، كما في معظم المنازل التي سكنها، بابٌ ثانٍ يؤدّي الى ملجأ محفور داخل الجانب الآخر من الهضبة. ويمتد الممرّ الرئيسي ايضاً الى مسرح في قاعة كبيرة للاحتفالات كي يتمكّن ماو من الصعود اليها دون الحاجة الى الخروج. كانت قاعة الاجتماعات والكهوف التابعة لماو مموّهة تماماً في الهضاب والاحراش لدرجة ان لا احد يمكن ان يشكّ بوجودها قبل وصوله فعلياً الى عتبة الباب. لكن كان من السهل مراقبة الطريق المؤدّي الى اعلى الهضبة من المكان الذي يوجد فيه ماو. كانت قاعة الاحتفالات مصمّمة، على غرار معظم المباني العامة في ينان، على يد رجل درس الهندسة المعمارية في ايطاليا وكانت تبدو هذه المباني كالكنائس الكاثوليكية. لكنها لم تُستعمل ابداً سوى لبعض التجمّعات القليلة للقوى الامنية. اراد ماو ابقاءها سرّية للغاية كما اراد ابقاءها ملكاً له وحده. اليوم تستكنّ الكهوف في عزلة تامة

فيما الصالة الكبرى خربة مثل الكاتدرائية المهدّمة ومثل الشبح في منظر طبيعي تملأه اخاديد من الرواسب الطفالية التي تمتدّ الى ابعد نقطة تراها العين.

قال لنا مساعد ماو للشؤون الأمنية شي زي: «كنت اضبط المدخل المؤدّي الى الطريق. لم يكن مسموحاً لاحد الدخول لمجرّد انه يريد الدخول». اتى الى المكان عدد قليل جداً من القادة وكان باستطاعة كل منهم ان يصطحب معه حارساً شخصياً واحداً فقط ولكن «ليس الى جوار المكان الذي يسكن فيه ماو تسي تونغ». وكان رجال ماو يرافقون القائد وحده الى منزل ماو.

ادّت الحملة التي قادها ماو حتى الى ارهاب الارهابيين مثل نائبه وصاحب التغييرات غير الشعبي بين زملائه كانغ شينغ. لاحظ شي زي ان كانغ يعيش في حالة من الخوف الشديد من ماو في هذه المرحلة. رغم ان كانغ ساعد في تلفيق التهمة بوجود شبكة واسعة للجاسوسية في الحزب الشيوعي الصيني كان يمكن ارتدادها عليه إذ ان كانغ نفسه له ماض ضبابي. ويبقى مكان وزمان التحاقه بالحزب الشيوعي الصيني لغزاً، فليس لديه شاهد علىً هذا الحدث كما ان الشخص الذي سمّاه عرّاباً نفى هذا الادّعاء. ووصل العديد من الرسائل الى ماو التي تلقي بظلال الشك على كانغ وجاء في بعضها انه ساوم على مواقفه عندما اوقفه القوميون. والامر الاكثر هلاكاً له ادانة ديميتروف (اي ستالين) لكانغ امام ماو في كانون الاول 1943 بصفته «مثيراً للريبة». وقال بإن كانغ كان «يساعد العدو». في الواقع وبالعودة الى سنة 1940 كان الروس الحّوا على ابقاء كانغ خارج القيادة.

لم ينفر ماو من الماضي الضبابي لكانغ بل استساغه بكل ايجابية. وكما فعل ستالين الذي استخدم اعضاء سابقين في الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي مثل فيشينسكي، استغلّ ماو ضعف الناس فجعلهم وسيلة لاحكام القبضة على مرؤوسيه. لذلك ابقى كانغ في منصب رئيس الكي جي بي التابع له وعينه مسؤولاً عن التدقيق بملفات الآخرين وادانتهم. بقي كانغ خائفاً من ماو حتى وفاته سنة 1975، ومن آخر المهمّات التي قام بها دفاعه وماو عن الزعم بأنه «مستقيم».

استغلّ ماو الى اقصى حدٍّ ميل كانغ لاضطهاد الناس كما استغلّ غرابة اطواره. كان كانغ في موسكو خلال المحاكمات الصوَرية وشارك في حملات التطهير ذات الطابع الستاليني. كان يتمتّع برؤية الناس وهم مصابون بالرعب خلال التجمعات الحاشدة ويحب اللعب على مسألة الكرب الذي يصيب ضحاياه. وكما كان ستالين يستدعي ضحاياه في بعض الاحيان الى مكتبه من اجل التحدّث معهم لآخر مرّة، كذلك كان كانغ يستمتع بمشاهدة المحكومين يقعون في الهاوية في اللحظة التي يظنّون فيها انهم بامان. كان ساديّ النزعة، ومن القصص التي كان يحبّ سردها بشكل خاص تلك التي تدور حول احد مالكي الاراضي في المنطقة التي ينتمي

اليها والذي كان يجلد العمّال في مزرعته بسوط مصنوع من الاعضاء الذكورية. وكان كانغ ايضاً يختلس النظرات الى الاعضاء التناسليّة . وبعد ان اخترعت فتاة في الخامسة عشرة قصة عن استعمالها لجسدها للقيام باعمال الجاسوسية طلب منها ان تكرّر المسألة في جميع انحاء المنطقة فيما كان يستمع اليها تكراراً. من الروابط القويّة التي تجمع كانغ بماو ما يتأتّى من تزويده بالمواد المثيرة للشهوة الجنسية ومن تبادل للقصص المليئة بالخلاعة.

اصبح كانغ لاحقاً كبش محرقة في حملة الرعب التي اجتاحت ينان لكن كل ما يفعله جاء بناءً لاوامر صادرة عن ماو. في الحقيقة اثناء الحملة قلّص ماو من سلطته عبر جعله المفوّضين الحزبيين في كل وحدة، وليس جهاز الكي جي بي الذي يرأسه كانغ، مسؤولين عن تحديد معظم الضحايا والاهتمام بشؤونهم في مؤسساتهم. لم يكن لدى الصين الشيوعية في الفترة اللاحقة من جهاز مساو بالكامل لوكالة الاستخبارات الروسية السوفياتية.

ومن ضحايا حملة الارهاب الكبيرة ليو شاو كي الذي هو احد الشركاء/ الزملاء. لم يكن فقط مشرفاً على بعض منظمات التجسّس بل تعرّض للتوقيف على يد القوميين/ الوطنيين مرات عديدة مما ادّى الى شكّ كبير في احتمال خروجه من الحزب. في حال تسبّب بادنى مقدار من الاستياء كان ماو قادراً بسهولة على ادانته بانه جاسوس محترف. كان ليو في الواقع معارضاً لحملة الارهاب عند بداية عودته الى ينان في نهاية سنة 1942 . ولكن بعد هذه الموجة القصيرة من النفور وصفه ضابط الارتباط الروسي فلاديميروف بانه "يغيّر آراءه بسرعة وبانه يتودّد الى كانغ شينغ. بعد ذلك تماشى مع خط ماو ولعب دوراً شائناً في حملة الرعب. وبما ان ماو يتمتّع بنفوذ هائل فقد اختاره ليكون نائبه في القيادة واحتفظ ليو بهذا المنصب حتى سقوطه في الثورة الثقافية سنة 1966.

ودخلت عالم ممارسة الاضطهاد امرأتان اصبحتا فيما بعد من اصحاب النفوذ الشديد وهما زوجة ماو وزوجة الرجل الذي إصبح نائبه في الثورة الثقافية، لين بياو .أتت الامرأتان الى ينان من خلال المنظمات الحزبية التي أُدينت بصفتها مراكز للتجسّس. في احد الايام من سنة 1943 وبينما كان لين بياو في تشونغكينغ رُبطت زوجته بحصان وتمّ جرّها الى مقرّ التوقيف. ولحسن حظّها كان لين بياو شخصاً يتمتّع بعلاقة صداقة حميمة وخاصة جداً مع ماو. عندما عاد لين الى ينان في تموز تقدّم الى المكتب الحزبي الذي يتعاطى في قضيّة زوجته وصرخ قائلاً: «اللعنة!». ورمى سوطه على المكتب. «نحن نقاتل على الجبهة فيما انتم تعتدون على زوجتي في الجهة الخلفية للجبهة!». تمّ اطلاق سراح زوجته وأُعطيت اشارة زوال الخطر. ان هذه التجربة القصيرة المليئة بالخوف الشديد شكلت البداية في التصلّب القلبي الذي اصاب يي كون. عندما برزت هي وزوجها خلال الثورة الثقافية اصبحت من المتسبّبين بتحويل الناس الى ضحايا.

كما تعلّمت الارهاب زوجة ماو المدعوّة جيانغ كينغ والتي اكتسبت سمعة سيّئة فيما بعد، خلال حملة الرعب التي اجتاحت ينان. سبق لها ان تعرّضت للتوقيف على يد القوميين قبل سنوات وخرجت من السجن عبر انكار معتقدها علناً وامتاع سجّانيها، وحسب ما قاله كانغ شينغ لاحقاً، عبر مضاجعتهم. شكّل ماضيها مسألة هامة سنة 1938 عندما اراد ماو الزواج منها. الآن ورغم ان لا احد يجرؤ على اتهامها لانها زوجة ماو، فقد عاشت في ظلّ الفزع من ان يقوم احد بانتقادها إذ انها هي ايضاً أجبرت على القيام «بفحص لافكارها». حاولت الاختباء من الناس عبر طلب اجازات مَرَضيّة، ولكن خلافاً لما فعله لين بياو بالطلب من زوجته البقاء في المنزل، أمَر ماو زوجته بالعودة الى الوحدة التي تنتمي اليها والمعاناة من حلقة الرعب نفسها. ومع ان التجربة التي خاضتها لا تمثّل شيئاً بالمقارنة مع المحن التي عانت منها الاغلبية، كان كافياً لها ان تعيش باقي حياتها في الرعب بسبب سمعتها السيّئة المتاتّية من ماضيها. وبعد مرور اكثر من عقدين من الزمن وعندما اصبحت تنعم بمقدار كبير من السلطة ساهم هذا الخوف الملازم لها بسجن وقتل العديد من الناس العارفين بقصتها. وقبل كل شيء كانت تخاف جيانغ كينغ زوجها، وخلافاً لزوجته السابقة غوي يوان لم تتجرّأ ابداً على خلق صخبٍ بسبب مغامرات ماو النسائية كما لم تجرؤ على التفكير بهجره. وكانت تقوم بكل ما كان يسنده اليها من مهمّات قذرة.

شكّلت حملة الرعب التي اجتاحت ينان بدايتها في اضطهاد الآخرين، الامر الذي اصبحت تستسيغه. وكانت ضحيتها الاولى مربّية ابنتها البالغة التاسعة عشرة من العمر والتي رمت بها في السجن، كما كشفت هذه المربّية بعد خمسة وخمسين سنة.

كان لماو وجيانغ كينغ ابنة وحيدة هي لي نا التي ولدت في 3 آب 1940. وعندما بلغت لي نا السنة والنصف اصبح لها مربية ثالثة آتية من عائلة فلاّحين فقيرة في شانكسي. وكان والدها توفّي اثناء نقله البضائع الخاصة بالشيوعيين عبر النهر الاصفر المتجمّد. بدأت هي نفسها باكراً بصنع الاحذية لحساب الجيش الاحمر وجرت ترقيتها الى الادارة التابعة للشيوعيين في منطقتها. واختيرت سواها من النساء اللواتي «يمكن الاعتماد عليهنّ». للقيام بدور المربّيات في منازل الزعماء.

وبعد اخضاعها لفحص طبّي وبعض التدريبات، استُخدمت كمربّية وخادمة لدى عائلة ماو، ومن بين اعمالها اليومية غسل شعر السيدة ماو. ووصفت كيف كانت السيدة ماو تفقد صوابها اذا لم يُغسل شعرها بالطريقة التي تريد. وفي احد الايام من سنة 1943 استُدعيت المربّية فجأة للمثول امام السيدة ماو واثنين من العاملين لديها وصرخت السيدة ماو في وجهها: «انتِ اتيت بالسمّ الى هنا! اعترفي بذلك!». وفي تلك الليلة أخذت المربّية الى السجن الواقع في الوهد

الاسود وراء حديقة المواعيد.

اتُّهمت بدسّ السمّ في الحليب الذي تتناوله عائلة ماو والآتي من بقرة يملكونها وهي خاضعة للحراسة الخاصة في مجمّع جهاز الامن. اصيبت السيدة ماو باسهال وبعد استجواب رئيس الطهاة والحاجب قالت لكانغ انها تريد حبس المربّية واستجوابها.

في السجن تقاسمت المربّية حجرة مع عدد كبير من النساء. خلال النهار كان النشاط الرئيسي الذي مارسته النساء الغزل وكان عليها انجاز كميّة كبيرة ممّا اجبرها على العمل بسرعة لانجازها. اكتشف النظام ان هذا هو العمل المثالي للمساجين إذ انهم كانوا مجبرين على البقاء حيث هم فتسهل بذلك حراستهم فيما يكونون منتجين اقتصادياً. وكان المساء مكرّساً للاستجوابات التي تعرّضت خلالها المربّية للملاحظات المسيئة من مثل: «لماذا لا تعترفين وتنتهين من المسألة ايتها اللعينة!». خلال الليل كان الحراس يحشرون رؤوسهم داخل الحُجَر للتنبّه من حصول حالات انتحار و فرار. أُطلق سراحها بعد تسعة اشهر لكن الرعب الموجع لاحشائها بقي ملازماً لها الى الابد.

ومن خلال حملة الرعب التي اجتاحت ينان حقّق ماو هدفاً هاماً آخر هو بناء صورة لنفسه كمعبود للجماهير. ويتذكر جميع الناس الذين عاشوا خلال هذه الفترة انها نقطة تحوّل إذ انهم «رسّخوا في اذهانهم الفكرة القائلة بان الرئيس ماو هو قائدنا الحكيم الوحيد». حتى ذلك الوقت كان ممكناً الاعراب عن الاعجاب بماو الى جانب الاعلان عن التحفّظ تجاهه، كما كان بالامكان الثرثرة عن زواجه من جيانغ كينغ الى جانب الاستمرار في تأييده بصفته القائد. عندما كان يُطلب من الكثيرين في البداية «دراسة». خطاب لماو كانوا يجيبون بأنين مسموع بوضوح: «الشيء القديم نفسه». ، «لن نزعج نفسنا بالاطلاع عليه مجدداً». ، «مبسّط جدّاً». ومانع القليلون جدّاً في انشاد نشيد «ليَعِش الرئيس ماو طويلاً». ويذكر احدهم ما خطر في باله: «كان هذا الشعار للاباطرة. لماذا نحن نفعل ذلك؟ شعرت انني كنت متملّقاً فرفضت انشاده». وقضت حملة الرعب على حرّية التعبير وحرّية الفكر وحلّ محلّهما تأليه ماو. ولم يكن هناك من رابط بين هذه العبادة والشعبية الطبيعية بل كانت ناجمة عن الارهاب.

كان ماو يرسم كل خطوة في بناء صورة معبود الجماهير بنفسه وكان يشرف على ادقّ التفاصيل في الوسيلة الرئيسية التي استعملها لتلك الغاية وهي صحيفة الليبراشن دايلي Liberation Daily التي ظهرت فيها عناوين ضخمة من مثل: «الرئيس ماو تسي تونغ هو مخلّص الشعب الصيني!». وكان ماو هو الذي اطلق ظاهرة الشارة التي تحمل صورة رأسه والتي اصدرها اولاً ووزّعها على النخبة خلال الحملة. سنة 1943 أمر بحفر رأس ذهبي نافر

هو نسخة عن رأسه على واجهة احدى قاعات الاحتفالات الرئيسية. وفي تلك السنة طُبعت صور ماو في كمّيات كبيرة للمرّة الاولى وتمّ بيعها الى المنازل كما اصبح نشيد ماو «الشرق هو احمر اللون». اغنية كل منزل.

وفي سنة 1943 ايضاً ابصرت النور عبارة «فكر ماو تسي تونغ». التي شاعت لاحقاً وظهرت حينها في مقال بقلم الاستاذ الاحمر وانغ جيا زيانغ، ورتّب ماو هذا المديح بنفسه. ووصفت زوجة الاستاذ الاحمر كيف ان ماو زارهم بصورة غير متوقّعة في يوم مشمس كانت ثمار البلح الخضراء على الشجر. وبعد المزاح عن لعبة المهجونغ طلب ماو من زوجها كتابة مقال احياءً للعيد الثاني والعشرين للحزب في تموز من تلك السنة ملمّحاً بقوة الى ما يجب ان يحتويه المقال. وراجع ماو النصّ النهائي والزم الجميع بقراءته.

كل يوم واثناء الاجتماعات المطوّلة كانت الصيغة المبسّطة تتكرّر: يجب القاء اللوم على لآخرين في كل فشل ويجب اعتبار كل نجاح عائد له. ومن اجل تحقيق هذا الهدف أُعيدت كتابة التاريخ وفي الواقع كان يُكتب كل مرّة بطريقة مختلفة جداً عن المرّات التي سبقتها. ويُشار الآن الى معركة توتشنغ، الكارثة الاكبر خلال المسيرة الطويلة والتي جرى خوضها بقيادة ماو، على انها مثل عمّا حدث عندما قام الجيش «بانتهاك المبادىء التي نادى بها ماو تسي تونغ». كما اعتُبر ان الفضل يعود الى ماو في اول تحرّك ضد اليابان في بينغزينغوان رغم انه تمّ خوض المعركة ضد ارادته. واعطى ماو التوجيه الآتي: «يجب الايضاح لاعضاء الحزب والكوادر الحزبية بان القيادة برئاسة ماو تسي تونغ هي مصيبة كليّاً»(*).

في بداية سنة 1945 كان ماو جاهزاً لتوجيه الدعوة لانعقاد مؤتمر الحزب المؤجّل منذ وقت طويل وقام هو بافتتاحه بصفته القائد الاعلى للحزب الشيوعي الصيني. افتُتح المؤتمر السابع للحزب في ينان في 23 نيسان اي بعد سبعة عشر عاماً على انعقاد المؤتمر السادس في سنة 1928 إذ ان ماو أجّله لسنوات الى ان تاكّد من سيطرته التامة على الحزب.

لم يكتفِ ماو بغربلة لائحة المندوبين بل احتجز معظمهم فيما يشبه السجن لخمس سنوات وجعلهم عرضة لمطحنة حملة الرعب الطويلة التي شنّها. من بين حوالى الخمسمئة مندوب، اتُّهم نصفهم بالتجسّس وعانوا بشكل مروّع، واقدم بعضهم على الانتحار فيما عانى سواهم من الانهيار العصبي. ومن ثم أُخرج العديد منهم فيما جرى تعيين مئات المندوبين الجدد الموثوق باخلاصهم لماو.

(*) عام 1943، نشر كتيب في ينان بعنوان «تاريخ مختصر لحركة العمال في الصين» كتبه دينغ زونغ-كزيا قائد عامل اعدمه القوميون. نشر النص الأساسي عام 1930 في روسيا ولم يتضمن أي ذكر لدور ماو. أدخل الآن مقطع: «عام 1922 وبفضل القائد الرفيق ماو تسي تونغ، تطورت كثيراً حركة العمال في هونان...».

ساد الصالة التي عُقد فيها المؤتمر شعار ضخم عُلِّق فوق المنصّة: «سِر الى الامام تحت راية ماو تسي تونغ!». وانتُخب ماو رئيساً على الهيئات الحزبية العليا الثلاث وهي اللجنة المركزية والمكتب السياسي والامانة العامة. للمرة الاولى منذ تأسيس الحزب اصبح ماو رئيساً له بصورة رسمية وعلنية واستغرق الامر اربعة وعشرين عاماً. كانت لحظة مؤثّرة بالنسبة لماو وكما جرت العادة عندما تتحرّك مشاعره فان الاشفاق على الذات لم يكن ابداً في غير محلّه. وبينما راح ينقّب في حكاياته عن الويلات ويستفيض في الحديث عنها كان على وشك البكاء.

اصبح ماو تسي تونغ ستالين الحزب الشيوعي الصيني.

القسم الرابع

نحو فتح الصين

26- «حرب الأفيون الثورية»
(1937-1945، العمر 43-51 سنة)

حُكمت ينان التي شكّلت المقرّ العام لماو اثناء الحرب الصينية اليابانية بطريقة مختلفة عن تلك التي حُكمت فيها قواعد شيوعية سابقة مثل رويجين. ومع التغييرات في سياسة الحزب الشيوعي الصيني التي أُدخلت في سبيل تعزيز «الجبهة الموحّدة» فقد تقلّصت ممارسة تحديد «الاعداء الطبقيّين» للعمل في الاشغال الشاقة وكذلك تقلّصت مسألة طردهم من الحزب. لكن انتزاع اقصى ما يمكن استمرّ وذلك من خلال الضرائب.

جرى ذلك رغم ان ينان كانت تنعم بنوعين من الاعانات المالية الخارجية الضخمة وهما: تمويل كبير من القوميين واستمرّ خلال السنوات الاولى، ورعاية سرّية وضخمة من موسكو حدّدها ستالين بنفسه في شباط 1940 بثلاثمئة الف دولار اميركي شهرياً، وقد تساوي هذه المساعدة مبلغاً يتراوح بين خمسة واربعين وخمسين مليون دولار اميركي في يومنا هذا.

كان المصدر الاساسي للدخل المحلّي الضرائب المفروضة على الحبوب التي ارتفعت بصورة مرهقة خلال سنوات الاحتلال الشيوعي. وتشير الارقام الرسمية الخاصة بالضرائب على الحبوب عن السنوات الخمس الاولى للحكم الشيوعي والتي توفّرت الملفّات عنها الى التالي (حسب الشي الذي كان يساوي 150 كيلوغراماً في ذلك الوقت):

1937: 13,859

1938: 15,972

1939: 52,250

1940: 97,354

1941: 200,000

استُعملت الزيادات الحادة التي فُرضت على الضرائب ابتداءً من سنة 1939 لتمويل التوسّع الكبير الذي قام به ماو في كل من مساحة الاراضي التي يسيطر عليها وفي حجم الجيش. انتشر القمع والعنف بصورة جليّة كما اورد امين عام الحزب الشيوعي في المنطقة زي جو زاي في يومياته لنهار 21 حزيران 1939 وجاء فيها ايضاً ان الفلاّحين كانوا «يُساقون الى

الموت» على يد جباة الضرائب. كان زي من القلائل الذين احتفظوا بدفتر يومياتهم ويعود ذلك الى المنصب العالي الذي كان يشغله والى علاقته القديمة مع ماو التي تعود الى شباب ماو. سنة 1940 تضاعفت الضرائب المفروضة على الحبوب رغم المجاعة والظروف المناخية القاسية. كما تضاعفت مجدّداً سنة 1941 مع ان المحاصيل انخفضت بمعدل يتراوح بين 20 و30 بالمئة بالمقارنة مع السنة السابقة.

كان ماو مكروهاً من سكّان المنطقة وكان على علم بهذا الواقع ولم يؤثر ذلك على سياسته. وفي وقت لاحق اخبر بعض الكوادر الحزبية العليا قصّة عن احد الفلاّحين الذي اشتكى من الضرائب المرتفعة. بعد ان أصيب قائد المنطقة بصاعقة قاتلة قال الفلاّح: «السماء لا تملك عيوناً! لماذا لم تقتل الصاعقة ماو؟» اخبر ماو القصة ليقول انه تجاوب مع الاستياء الشعبي وادّعى بانه أمر بتخفيض الضرائب المفروضة على الحبوب نتيجة لذلك. في الواقع حصلت حادثة الصاعقة ولعنة الفلاّح في 3 حزيران 1941 اي قبل الاعلان عن الضرائب المرتفعة وغير المسبوقة في 15 تشرين الاول من تلك السنة. ضاعف ماو الضرائب بعد سماعه بغضب الفلاّح وفي تشرين الثاني من السنة نفسها اضاف ضريبة جديدة فرضها على علف الاحصنة.

في مناسبة اخرى كشف ماو ان احد الاشخاص الذي حسب ما قال هو، «كان يتظاهر بالجنون» اندفع بقوّة نحوه وحاول الانقضاض عليه بسبب الضرائب المرتفعة. ولم ينقل ماو قصصاً اخرى انتشرت بسرعة بما فيها واحدة عن فلاّح انتزع عيون ماو من الصورة. ولدى استجوابه قال: «الرئيس ماو لا يملك عيوناً» ومعنى ذلك: «لا وجود للعدالة في ظلّ حكمه». وردّ ماو على ذلك عبر التلاعب بالارقام. في سنتي 1942 و1943 صرّحت اعلانات الحكومة عن ضرائب هي اقلّ بعشرين بالمئة ممّا هي عليه في الحقيقة.

زعم الشيوعيون بان الضرائب في ينان كانت اقلّ بكثير من تلك التي تُجبى من المناطق الخاضعة لحكم القوميين. لكن امين عام الحزب في المنطقة زي اشار في دفتر يومياته الى ان الضرائب المفروضة على الحبوب لكل فرد كانت سنة 1943 «مرتفعة وفقاً للمعايير المعتمدة في المناطق الخلفية الواسعة» اي تلك التي يسيطر عليها القوميون. وفي بعض الاحيان اشار الى ان الضرائب المفروضة على الحبوب كانت «مساوية تقريباً لمحصول سنة كاملة» وفي حالة احدى العائلات التي ذكر اسمها اخذت الدولة مبلغاً ضخماً بلغ 92 بالمئة. حاول عدد كبير من الناس الهرب ووفقاً للسجلاّت الخاصة بالشيوعيين فرّ ما يزيد على الالف عائلة من مقاطعة ينان وحدها سنة 1943 فكان ذلك بمثابة عمل بطولي إذ ان المنطقة بأسرها كانت محروسة على مدار الساعة، ولم تكن المقاطعة تقع على الحدود مع المنطقة الخاضعة للنفوذ الشيوعي والتي تساوي مساحتها تقريباً مساحة فرنسا.

عزّز الشيوعيون الاسطورة القائلة بان ينان واقعة تحت القبضة المحكمة للحصار الاقتصادي الذي يفرضه تشيانغ كاي شيك. في الحقيقة كانت هناك حركة تجارية ناشطة مع المناطق التابعة للقوميين وكان الشخص الذي اختاره تشيانغ ليتواجد على حدود ينان الشمالية الجنرال تنغ باو شان تربطه علاقات طويلة العهد بالشيوعيين. كانت ابنته عضواً في الحزب الشيوعي وتعيش في ينان التي كان يزورها من وقت لآخر، كما كانت امينة السرّ لديه شيوعية. سمح للشيوعيين بتسلّم نقطتي عبور حدوديّتين هامتين تقعان على النهر الاصفر، ممّا امّن لهم اتصالات مستمرة مع قواعدهم الاخرى. اضافة الى ذلك اشترى رجاله الاسلحة والذخائر للشيوعيين. تقبّل تشيانغ هذا الواقع لأنه لم يشأ حدوث حرب اهلية شاملة وعد ماو بشنّها إذا لم يحصل على مبتغاه.

كانت منطقة ينان تتمتّع بميزات ضخمة وكان الملح اهمّها من الناحية التسويقية. اذ توجد فيها سبع بحيرات لاستخراج الملح وكل ما يجب القيام به هو «فقط جمع الملح» بحسب احد التقارير المعدّة سنة 1941. في السنوات الاربعة الاولى للاحتلال لم ينتج الشيوعيون ايّ ملح جديد واستعملوا الاحتياطي الذي تجمّع قبل وصولهم. «ان احتياطي الملح المخزون منذ عقود تمّ بيعه بالكامل» كما جاء في التقرير المرفوع سنة 1941 وكانت الارض «تعاني من مجاعة للملح». لم يكن النظام فقط بطيئاً في زيادة هذا المحصول الثمين بل وليس لديه خطّة لذلك. ويعكس هذا الامر حقيقة تعاطي ماو مع ينان التي اعتبرها كما سواها من المناطق التي احتلّها، محطّة في رحلة فابلاها بسياسة اقتصادية مماثلة لسياسة التقطيع والحرق دون ان يعير اهتماماً للانتاج على المدى الطويل.

في منتصف 1941 اعتبر النظام متأخّراً ان الملح هو «ثاني اكبر مصدر وطني للدخل» بعد الضرائب المجنيّة من الحبوب كما اعتبره مصدرّاً للمال الوفير إذ شكّل في وقت قريب ما يزيد على تسعين بالمئة من ارباح التصدير. كان الملح موجوداً في الشمال الشرقي للمنطقة لكن سوق التصدير كان يقع على الحدود الجنوبية. وبما انه لم يكن هناك من سكك حديدية او من نهر صالح للملاحة، إذا تجاوزنا ذكر المركبات، كان يجب نقل الملح على مسافة 700 كيلومتر تقريباً على طرقات ملتوية تقع على حافة منحدرات شاهقة. «ان نقل الملح هو من اقسى انواع الضرائب» كما جاء في رسالة كتبها احد حكّام ينان الى الامبراطور الحاكم في ظلّ سلالة المانشو، واردف قائلاً: «ان الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الحيوانات، عليهم حمله على ظهورهم واكتافهم ويعجز الكلام عن وصف معاناتهم...» ولاحظ امين عام الحزب في المنطقة زي ان «لا يختلف الامر كثيراً اليوم عمّا كان عليه في السابق».

فرض النظام الاشغال الشاقة، اي العتالة غير المدفوعة، على مئات الآلاف من عائلات

الفلاّحين. ووجّه زي وغيره من الاشخاص المعتدلين الرسائل الى ماو مرّات عديدة للاحتجاج على هذه الطريقة القاسية لكن ماو قال لهم بصورة قطعيّة ان هذه السياسة «ليست فقط بمنأى عن الانتقاد، بل هي ايضاً صحيحة تماماً». وقال بان «الفلاّحين» يجب ان «يُجبروا» على القيام بهذا العمل وبالتحديد فَرض ذلك «في فصل الركود». وكان ماو هو الذي وضع خطّاً تحت هذه العبارة للتأكيد على انهم يجب الاّ يهملوا عمل المزرعة.

كان على فلاّحي المنطقة دعم ادارة ضخمة وغير فعّالة. وشعر بالاحباط مايكل ليندسي، احد خبراء الاتصالات البريطانيين الذي عاش في ينان سنتي 1944 و1945 مما جعله يعدّ وثيقة بعنوان «لماذا تجري الامور على نحوٍ خاطىء في ينان؟» وكتب ليندسي بان النظام يخنق المبادرة ويجعل الناس مرتعدين من تقديم الاقتراحات لتحسين الوضع إذ يمكن اساءة تفسير كل اقتراح وتحويله الى تهمة سياسية قاتلة. «كان التقنيون يهربون لدى توفّر اول لحظة مناسبة». وسُلِّمت نسخة عن الرسالة الى تشو إن لاي لكن لم يسمع ليندسي اية ردّة فعل من النظام.

سبق لاشخاص آخرين ان رفعوا أصواتهم في وجه الادارة الضخمة. وفي تشرين الثاني 1941 اقترح احد اعضاء البرلمان الدمية من غير المنتمين الى الحزب الشيوعي الصيني تقليص حجم الجيش والادارة مستشهداً بقولٍ مأثور مفاده ان الحكومة الجيدة يجب ان يكون لديها «جيش صغير ولكن فعّال الى جانب ادارة صغيرة ومبسّطة». ولاهداف دعائية اعلن ماو عن اعتماده لهذا القول المأثور في حفلة علنيّة لكنه لم يكن مهتّماً في تخفيض عدد الكوادر او الجنود، بل كان يريد المزيد منهم، وذلك من اجل اجتياح الصين.

بُنِي جزء من الاسطورة التي رافقت تأسيس الصين الشيوعية على القول بانه تمّ تخفيض حجم كل من الجيش والادارة في ينان وبأن هذه الخطوة خفّفت الحمل عن كاهل الشعب. في الواقع ان ما فعله النظام هو التخلّص من الاشخاص غير الجديرين بالثقة من الناحية السياسية والذين وُصفوا بالمتخلّفين، كما تخلّص النظام من المتقدّمين في السنّ ومن المرضى واوكل اليهم مجدّداً الاعمال اليدوية. وجاء في قوانين اعادة توزيعهم انه «يجب وضعهم في نواحٍ مختلفة من وسط المنطقة لتجنّب قيام القوميّين باجتذابهم اليهم». بعبارة اخرى يجب منعهم من الهرب. وتلحظ وثيقة سرّية أُعِدَّت في آذار 1943 انه رغم هذه التخفيضات في الاعداد كانت هناك في الحقيقة «زيادة بصورة عامة» في اعداد موظّفي الادارة في المنطقة وخاصة في المرتبات الدنيا وذلك من اجل تكثيف المراقبة على القاعدة. في غضون ذلك عوّل ماو على هذا الاندفاع لدمج الدوائر واجراء تعديلات في المناصب على مستوى القيادة في سبيل احكام قبضته.

دفع الاجتياح الالماني لروسيا في حزيران 1941 ماو لدرس احتمال قيام مصادر بديلة

للتمويل في حال لم تتمكّن موسكو من الاستمرار في مدّه بالعون فجاء الحلّ في الافيون. خلال بضعة اسابيع اشترت ينان كميات كبيرة من بذار الافيون وفي سنة 1942 بدأت زراعة وتجارة الافيون على نطاق واسع.

اطلق ماو تسمية «حرب الافيون الثورية» على العملية التي قام بها امام بعض الاشخاص. في ينان كان الافيون يُعرف بعبارة ملطّفة هي «تي هو» اي «المحصول المميّز». عندما سألنا شي زي المساعد السابق لماو عن زراعة الافيون اجاب بما يلي: «لقد حصلت» واضاف: «إذا أُشيع الخبر سيشكل الامر اساءة قوية لنا نحن الشيوعيون». وقال لنا بأنه زُرعت نباتات تقليدية كالسّرغوم بشكل اساسي، حول الافيون لاخفائه. عندما وجّه ضابط ارتباط روسي سؤالاً مباشراً الى ماو اثناء ممارستها لعبة المهجونغ في آب 1942 عن كيفية «قيام الشيوعيين علناً بانتاج الافيون» التزم ماو الصمت. واعطى الجواب تنغ فا، احد رجال ماو المكلّفين اجراء تغييرات غير مرغوبة: الافيون، كما قال «يعيد لنا القافلة محمّلة بالاموال... وبهذه الاموال سوف نضرب القوميين!» في تلك السنة افادت دراسة دقيقة بان المنطقة المزروعة بالافيون بلغت مساحتها ثلاثين الف أكراً من الاراضي الزراعية الممتازة.

كانت المقاطعات الرئيسية المنتجة للافيون تقع على الحدود مع الارض التي يسيطر عليها الجنرال القومي تنغ باو شان المتواجد الى الشمال من المناطق الخاضعة للشيوعيين والذي تربطه بهم علاقة صداقة وقد عُرف باسم «ملك الافيون». حصل ماو على مساعدات لا تقدَّر بثمن منه وبادله بالمثل عبر تسهيل تجارة الافيون الخاصة بتنغ نفسه. وحين كان تشيانغ كاي شيك يفكّر بنقل تنغ تحرّك ماو لمنع حصول ذلك: «اطلب من تشيانغ ان يتوقّف فوراً» كما جاء في كلامه الى تشو الموجود في تشونغكينغ وقال بانه كان «مصمّماً على ابادة» الوحدة التي ستحلّ محلّ تنغ فألغى تشيانغ عملية النقل. اظهر ماو مدى تقديره لتنغ من خلال ذكر اسمه مرتين حين توجّه الى المؤتمر السابع للحزب لسنة 1945، كما ذكر اسمه مرّة حتى في نفس اللحظة التي ذكر فيها ماركس مما جعل ضابط الارتباط الروسي فلاديميروف يسأل: «ايّ نوع من الرجال هو تنغ باو شان هذا الذي ذكره ماو تسي تونغ... الى جانب ماركس؟» لكن ماو لم يثق ابداً بالمحسِن اليه فبعد استيلاء الشيوعيين على السلطة سنة 1949 بقي تنغ على البرّ الصيني وجرت مكافأته بمناصب عليا اسميّة. لكن عندما طلب إذناً بالسفر الى الخارج رُفض طلبه.

خلال سنة حلّ الافيون مشاكل ماو المالية. في 9 شباط قال لتشو إن لاي بان ينان «تخطّت مشاكلها المالية وجمعت المدّخرات... التي تصل قيمتها الى 250 مليون فابي». الفابي هو العملة المعتمدة في المناطق الخاضعة للقوميين وكان ماو يكدّس هذه الاموال الى جانب الذهب والفضّة «حتى ندخل المناطق التابعة للقوميين» اي ما إن تبدأ حرب شاملة ضد تشيانغ. كان

هذا المبلغ يساوي ستة اضعاف الميزانية الرسمية لمنطقة ينان سنة 1942 وشكّل ادّخاراً صافياً. سنة 1943 قدّر الروس مبيعات ماو من الافيون بـ44.760 كيلوغراماً وتساوي قيمتها مبلغاً ضخماً هو 2.4 مليون فابي اي حوالى الستّين مليون دولار اميركي حسب قيمة الدولار حينها كما تساوي حوالى 640 مليون دولار اميركي اليوم.

في اوائل سنة 1944 كان الشيوعيون «اغنياء جداً» حسب زي، امين عام الحزب في ينان. وكتب زي في يومياته ان احتياطي الفابي الضخم «يعود من دون شكّ الى المحصول المميّز». تحسّن نمط الحياة بالنسبة الى اعضاء الحزب في ينان بصورة ملحوظة ايضاً وخاصة المسؤولين في المناصب العليا. وكانت الكوادر الآتية من قواعد اخرى تُعجَب بالنوعية الجيدة لطعامهم. ووصف احدهم وجبة مؤلفة من «عدة دزّينات من الاطباق» وكان الاشخاص «ينصرفون عن الطاولات فيما الطعام لا يزال في الاطباق».

اكتسب ماو وزناً اضافياً وعندما التقاه ملك الافيون تنغ في حزيران 1943 كانت الكلمات الاولى التي حيّا بها ماو: «الرئيس ماو اصبح سميناً!» وكان يقصد بذلك الاطراء.

بالنسبة الى الفلاّحين كانت الفائدة الاساسية التي اتى بها الافيون هي تخفيض الضرائب المفروضة عليهم. حتى ذلك الوقت كانت اغراضهم المنزلية المتواضعة والادوات الزراعية الاساسية بالنسبة اليهم عرضةً للمصادرة. بعد ان اغتنى ماو بسبب الافيون اصدر الاوامر باجراء اللازم لتحسين العلاقة مع سكان المنطقة، فبدأ الجيش باعادة البضائع التي اخذها منهم وراح حتى يساعد الفلاّحين في اعمال الزراعة. أقرّ ماو لاحقاً بان موقف سكان المنطقة تجاه الحزب كان حتى ربيع 1944 مبنيّاً على «ابقاء مسافة ملؤها الرعب والخوف كما لو كان الحزب هو الاله والشيطان» اي كانوا يحاولون الابتعاد عن الشيوعيين قدر الامكان. وكان ذلك بعد مرور سبع سنوات على احتلال الشيوعيين لينان. طوال تلك الفترة كان تعاطي الشيوعيين مع سكان المنطقة محصوراً جداً باستثناء الموجبات التي تتطلّب هذا التعاطي او بسبب زيارات رأس السنة الى القرى من اجل تبادل التمنّيات التقليدية، كما كانت حالات الزواج من الطرفين والعلاقات الاجتماعية نادرة.

لكن الغنى الذي اتى به الافيون لم يرفع من مستوى المعيشة لدى سكان المنطقة بل بقي ادنى من المستوى الذي يتمتّع به الشيوعيون المحتلّون. كانت ادنى حصّة سنوية من اللحم لدى الشيوعيين (12 كلغ) خمسة اضعاف المعدّل الفردي لسكان المنطقة (2.5 كلغ). وبينما حافظ النظام على مدّخراته الكبيرة من النقود، لم يوفّر فرصةً لاستنزاف السكان. في حزيران 1943 وبحجّة ان تشيانغ كان على وشك مهاجمة ينان، ولم يكن الامر صحيحاً، أُجبر السكان

المدنيون على «التبرّع بملء ارادتهم» بالحطب اللازم للتدفئة والخضار والخنازير والاغنام وبالقليل الذي يملكونه من الذهب والذي اعتُبر غالباً مدّخرات العمر.

ويأتي ذكر المدّخرات الضخمة التي يملكها الحزب الشيوعي الصيني في دفتر يوميات زي في 12 تشرين الاول 1944 بين الاوصاف الرهيبة لحياة الفلاّحين والتي جاء فيها ان ان معدّل الوفيات لم يكن فقط على ارتفاع بل انه تخطّى معدل الولادات بكثير في احدى المناطق بنسبة 5 الى 1 تقريباً. واشار زي الى ان الاسباب كانت «ملابس غير ملائمة وطعام غير ملائم اضافة الى السكن غير الملائم» زِد على ذلك مياه الشرب الملوثة و«انعدام وجود الاطباء». كان النظام وراء سببٍ هام للوفيات من خلال حظره اقتناء الاسلحة. كانت الذئاب تتبختر في الساحات الاماميّة للمنازل فيها النمور تطوف بحرية على الهضاب. لذلك كان على الناس الاتيان بالمواشي الغالية على قلوبهم الى منازلهم وإلاّ يعرّضون انفسهم لخسارتها. نتجت عن الوقاية الصحّية شبه المعدومة عدة امراض كما كان الحصول على الطرائد للطعام غير ممكنٍ بسبب حظر اقتناء الاسلحة.

ارتفع معدّل الوفيات بين المهاجرين القادمين الى ينان والذين شكلوا جزءاً كبيراً من السكان. انطلق هؤلاء الى ينان بسبب وجود اراضٍ واسعة وصالحة للزراعة فيها، وشجّعهم ماو على الاستمرار في القدوم اليها لكنه لم يقدّم لهم شيئاً عندما انتقلوا اليها. جرى سوقهم باعداد كبيرة الى الريف وتُركوا وحيدين يتّقون الاخطار فماتوا مثل الذباب إذ قتل 31 بالمئة منهم خلال سنتين في منطقة واحدة. كان ماو يعلم ان معدل الوفيات بين الاطفال بلغ 60 بالمئة فيما تحوّل معظم الذين استمروا على قيد الحياة الى امّيين. ورغم ذلك وكما يتذكّر احد كبار موظفي الادارة فان «معدلات الوفيات المرتفعة لدى الاشخاص والمواشي لم تسترعِ الاهتمام اللازم من السلطات». ولدى مناشدة ماو في نيسان 1944 القيام بعملٍ ما قال: لنناقش المسألة في الشتاء. اصبحت الصحة العامة موضع تركيز في المناقشات الجاريةً في تشرين الثاني من تلك السنة وللمرة الاولى منذ وصول الشيوعيين الى المنطقة قبل نحو عقدٍ من الزمن، لكن لم يُذكر اي انفاق للمال عليها.

جلبت زراعة الافيون الى سكان المنطقة ايضاً التضخّم الهائل، فكانت الحالة اسوأ بكثير مما كانت عليه في المناطق الخاضعة للقوميين. وكتب زي في دفتر يومياته في 6 آذار 1944: «لقد تسبّبنا بالتضخم الكبير، ليس لاننا فقراء بل لاننا اغنياء».

لعب ماو دوراً رئيسياً في ذلك. في حزيران 1941 أمر شخصياً بطبع عملة بيانبي الخاصة بالشيوعيين المتواجدين في تلك المنطقة، وذلك من دون سقف لهذه الطباعة. كانت الخطة

الاساسية تحتوي على سقف معيّن ولكن بعد ان اطّلع ماو على الميزانية كتب قائلاً: «لا تتمسّكوا بفكرة ابقاء البيانبي تحت سقف العشرة ملايين... لا تكبّلوا ايدينا». وحثّ على الانفاق «بسخاء» على الجيش والادارة مبدياً استخفافه بالاقتصاد: «اذا انهار النظام في المستقبل فليكن». سنة 1944 بلغ ثمن الملح 2131 مرات ما كان عليه سنة 1937 فيما بلغ ثمن زيت الطبخ 2250 مرات، والقطن 6750، والقماش 11250، والكبريت 2500، حسب زي Xie، امين عام الحزب في ينان.

لم يؤذِ هذا التضخّم اؤلئك الذين يأكلون من معلف الدولة. وقال السفير الروسي بانيوشكين الذي ربما كانت لديه صورة اوضح من غيرها لدى غالبية الناس، بان التضخم جلب الاذى «للكادحين» اي الفلاّحين المحتاجين الى النقد لشراء حاجيات اساسية مثل الاقمشة والملح والكبريت والاواني وادوات المزرعة والعناية الطبية التي لم تكن ابداً مجانية للموظفين غير الحكوميين، هذا إذا تمكن هؤلاء من الحصول عليها. وكشف احد المسؤولين في مستشفى يقع في منطقة تابعة للشيوعيين: «نحن نستقبل الاشخاص العاديين فقط عندما نريد الحصول على القمح».

وكان شراء العروس من العادات التي تبرز الحاجة الى النقد والتي تتيح قياس نتائج التضخّم. في سنة 1939 بلغ ثمن احدى العرائس 64 يوان، اما في سنة 1942 فكانت الاسعار على الشكل التالي: 700 يوان للفتاة التي تبلغ السابعة من العمر وللعجوز، و1300 يوان للمراهقة، و3000 للارملة. سنة 1944، وصل سعر الارملة الى مليون ونصف يوان.

ازدهر اقراض الناس بفوائد مرتفعة تتراوح معدلاتها بين 30 و50 بالمئة شهرياً وفقاً لما جاء في دفتر يوميات امين عام الحزب في ينان زي الذي سجّل معدلات ضخمة جداً تتراوح بين 15 و20 بالمئة لمدة يوم عمل في السوق الى آخر، الذي هو خمسة ايام. كانت هذه المعدلات سيئة كالتي طبّقت قبل مجيء الشيوعيين. وكان عدد كبير من الفلاحين يبيعون محاصيلهم قبل قطافها وذلك لأجل الحصول على النقود، مما يعني في بعض الاحيان القبول بنسبة قليلة كخمسة بالمئة من ثمن البضاعة في وقت الحصاد الطبيعي.

كان «تخفيض الفوائد على القروض» واحداً من عهدين رئيسيين قطعهما الشيوعيون في ميدان الاقتصاد في ذلك الوقت، فيما كان الآخر تخفيض رسوم الايجارات على الاراضي. ولكن بينما كانت توجد انظمة خاصة تتعلّق بهذه الاخيرة، لم يضع النظام اي سقف للفوائد على القروض. في الواقع لم تكن هذه الانظمة مجدية كثيراً إذ رتّبت على الفلاحين تسليم محاصيلهم الى الدولة بدل تسليمها الى مالكي الاراضي. اما كل ما قاله النظام بشأن الفوائد على القروض فكان: «يجب ترك الامر للناس كي يقرروا بانفسهم... والحكومة يجب الاّ تحدّد فوائد متدنية

جداً، إذا ما نضب المال المتوفر للاقراض». وبما ان النظام لم يقدّم فعلياً القروض كان عليه ايجاد طريقة اخرى لتعويم الاعتمادات. طبّقت بعض المناطق الخاضعة للشيوعيين سقوفاً منخفضة على معدلات الفوائد لكن في منطقة ينان ترك النظام الحرية للقوى الاكثر جشعاً في القطاع الخاص لتتحكّم برعاياها الضعفاء.

في آذار 1944 اوقف النظام الطبع السريع للعملة وبدأ بسحب البيانبي من التداول. وما حثّه على ذلك، على نحو جزئي، هو الوصول الوشيك لاجانب من غير الروس للمرة الاولى خلال خمس سنوات وهم بعثة اميركية وبعض الصحفيين. لم يبدُ التضخّم امراً مستحبّاً، لكن الانكماش لم يكن هبة الى اؤلئك المدنين وكما قال زي في دفتر يومياته في 22 نيسان: «مهما ارتفعت قيمة العملة او انخفضت فان الذين يعانون هم دائماً الفقراء... كانت الديون المستحقة عليهم يوم كانت الاسعار مرتفعة والآن يجب تسديدها عبر بيع المزيد من ممتلكاتهم. لقد سمعت ان الكثيرين منهم يبيعون الحيوانات التي تجرّ الاثقال».

توقفت زراعة الافيون في تلك المرحلة وبصرف النظر عن رغبة النظام في عدم رؤية الاميركيين لتلك المزروعات كان هناك فائض في الانتاج. في الواقع، اصبح الفائض نوعاً من العبء. وأيّد بعض المتشددين اغراق السكان في ينان به فعارض ماو الفكرة إذ ان الفلاحين المدمنين كانوا غير ذي جدوى بالنسبة اليه، لكن بعض الفلاحين كانوا قد ادمنوا على الأفيون بسبب زراعتهم له. أمر النظام سكان المنطقة بالتخلص من هذه العادة ووضع مهلاً محددة كما وعد «بمساعدة المدمنين من خلال تقديم الادوية لهم» وقال بانه لا يتوجّب على «الفقراء» دفع ثمن علاجهم فبيّن بوضوح بانه يترتّب على المدمن الدفع إذا كانت لديه الامكانات.

في ما يتعلّق بالمسؤولين المطلعين على معلومات سرّية، واجه ماو القلق السائد بشأن الافيون من خلال اعتباره واحداً من خطأين ارتكبهما الحزب ولكنه استمر في تبريرهما في نفس اللحظة. في 15 كانون الثاني 1945 قال بان احد الاخطاء يكمن في انه اثناء المسيرة الطويلة اخذنا اغراض الناس» «ولكن» اضاف على الفور قائلاً «لو لم نأخذها لما استمررنا على قيد الحياة». اما الثانية فقال انها «تتمثّل بزراعة شيء ما هو الافيون، ولكن دون زراعته لم نكن قادرين على اجتياز ازمتنا».

بقيت ينان تعاني من الفقر حتى بعد بسط ماو سيطرته على الصين باكملها. في سنة 1954 علّق زائر قادم من هنغاريا الخاضعة للحكم الشيوعي والتي لم تكن بلداً غنياً على «القرى القذرة والمعدمة لدرجة تفوق الوصف» والواقعة بالقرب من ينان. في الواقع بقيت جميع القواعد الشيوعية من بين المناطق الاكثر فقراً ويعود السبب تحديداً الى انها كانت قواعد للشيوعيين في السابق. وحصلت محادثة بين ماو واحد المتحمسين السويديين سنة 1962 وجاء فيها:

ج. ميردال: لقد عدت للتوّ من رحلة الى منطقة ينان.

ماو: انه جزء فقير جداً ومتخلّف وغير نامي من البلاد.

ميردال: لقد عشت في قرية... اردت دراسة التغيير في الريف...

ماو: إذاً انا اعتقد ان ذهابك الى ينان فكرة سيّئة للغاية... في ينان هناك فقط الفقر والتخلّف. لم يكن ذهابك الى قرية هناك فكرة جيدة.

ميردال: لكن لديها تقاليد عظيمة قوامها الثورة والحرب. اقصد القول بان ينان هي البداية برغم كل شيء.

ماو (مقاطعاً): التقاليد (يضحك) التقاليد (يضحك).

27- الروس قادمون!
(1945-1946، العمر 51-52 سنة)

في شباط 1945 وفي يالطا الواقعة في شبه جزيرة القرم، اكّد ستالين لروزفلت ولتشرشل بان روسيا سوف تدخل الحرب في المحيط الهادىء بعد شهرين او ثلاثة على هزيمة المانيا. وهذا يعني ان الجيش السوفياتي سيدخل الصين فيعطي بذلك ماو الفرصة التي ينتظرها منذ زمن طويل للسيطرة على البلاد. اجرى ماو تقييماً ينمّ عن دهاء للمرحلة السابقة التي تعود الى سنة 1923 وقال ان الشيوعية حينها «كان يجب ادخالها الى الصين من الشمال على يد الجيش الروسي». الآن وبعد اثنتين وعشرين سنة كان هذا الامر على وشك التحقق.

لم يضطر ستالين لاقناع روزفلت وتشرشل بالسماح له بالدخول الى الحرب ضد اليابان عند نهايتها إذ كانا راغبين في مشاركته بها. في ذلك الوقت لم تكن القنبلة الذرية الاميركية قد خضعت للتجربة بعد، وساد شعور بان المشاركة السوفياتية ستسرّع في هزيمة اليابان وتحافظ على حياة الخاضعين لسيطرة الحلفاء. قبل الزعيمان الغربيان مطالب ستالين «بالتعويضات» غير مدركين بان ستالين لم يكن بحاجة ابداً الى حوافز للانضمام اليهما. ووافقا ليس فقط على القبول «بالوضع القائم» في منغوليا الخارجية وفي الواقع سمحا لستالين بالاحتفاظ بها، بل قبلا ايضاً باعادة عقارب الساعة الى عقود من الزمن واعادة الامتيازات التي كانت تتمتّع بها روسيا القيصرية في الصين بما فيها السيطرة الخارجة عن نطاق التشريع الوطني على خطوط سكك الحديد في شرق الصين وعلى مرفأين رئيسيين في منشوريا(*).

استعمل ستالين حجّة القتال ضد اليابان عند اللحظة الاخيرة من اجل اجتياح الصين وخلق ظروفاً تسمح لماو بالاستيلاء على السلطة. وجاء التلميح مباشرة بعد يالطا، في 18 شباط، عندما اشارت صحيفة ايزفستيا Izvestia الناطقة باسم الحكومة الروسية الى «رغبة موسكو في حلّ مشكلة الشرق الاقصى آخذة في الاعتبار مصالح الشيوعيين الصينيين».

(*) في إعلان يالطا، قدمت هذه الأمور كتعويضات لروسيا من اليابان لكنها في الحقيقة أخذت من الصين. رحب تشرشل بذلك على أساس أن «أي ادعاء من قبل روسيا للتعويض على حساب الصين سيكون في مصلحة حل المسائل المتعلقة بهونغ كونغ». ورغم أن الشروط تطال الأراضي الصينية، لم تكن الحكومة الصينية مطلعة على ذلك ولم تتم استشارتها. أكثر من ذلك، وضعت الولايات المتحدة نفسها تحت رحمة ستالين من خلال الالتزام بانتظار إذنه قبل إخبار تشيانغ كاي شيك-ووضعت نفسها في موقع فريد لتكون مسؤولة عن الحصول على إذعان تشيانغ. نتيجة لذلك، لم يحظ الجنراليسيمو بتقرير كامل من الولايات المتحدة حتى 15 حزيران بعد أربعة شهر. كانت هذه معاملة سيئة لحليف، وفجرت المشاكل.

27- الروس قادمون!
(1945-1946، العمر 51-52 سنة)

في شباط 1945 وفي يالطا الواقعة في شبه جزيرة القرم، اكّد ستالين لروزفلت ولتشرشل بان روسيا سوف تدخل الحرب في المحيط الهادىء بعد شهرين او ثلاثة على هزيمة المانيا. وهذا يعني ان الجيش السوفياتي سيدخل الصين فيعطي بذلك ماو الفرصة التي ينتظرها منذ زمن طويل للسيطرة على البلاد. اجرى ماو تقييماً ينمّ عن دهاء للمرحلة السابقة التي تعود الى سنة 1923 وقال ان الشيوعية حينها «كان يجب ادخالها الى الصين من الشمال على يد الجيش الروسي». الآن وبعد اثنتين وعشرين سنة كان هذا الامر على وشك التحقق.

لم يضطر ستالين لاقناع روزفلت وتشرشل بالسماح له بالدخول الى الحرب ضد اليابان عند نهايتها إذ كانا راغبين في مشاركته بها. في ذلك الوقت لم تكن القنبلة الذرية الاميركية قد خضعت للتجربة بعد، وساد شعور بان المشاركة السوفياتية ستسرّع في هزيمة اليابان وتحافظ على حياة الخاضعين لسيطرة الحلفاء. قبل الزعيمان الغربيان مطالب ستالين «بالتعويضات» غير مدركين بان ستالين لم يكن بحاجة ابداً الى حوافز للانضمام اليهما. ووافقا ليس فقط على القبول «بالوضع القائم» في منغوليا الخارجية وفي الواقع سمحا لستالين بالاحتفاظ بها، بل قبلا ايضاً باعادة عقارب الساعة الى عقود من الزمن واعادة الامتيازات التي كانت تتمتّع بها روسيا القيصرية في الصين بما فيها السيطرة الخارجة عن نطاق التشريع الوطني على خطوط سكك الحديد في شرق الصين وعلى مرفأين رئيسيين في منشوريا(*).

استعمل ستالين حجّة القتال ضد اليابان عند اللحظة الاخيرة من اجل اجتياح الصين وخلق ظروفاً تسمح لماو بالاستيلاء على السلطة. وجاء التلميح مباشرة بعد يالطا، في 18 شباط، عندما اشارت صحيفة ايزفستيا Izvestia الناطقة باسم الحكومة الروسية الى «رغبة موسكو في حلّ مشكلة الشرق الاقصى آخذة في الاعتبار مصالح الشيوعيين الصينيين».

(*) في إعلان يالطا، قدمت هذه الأمور كتعويضات لروسيا من اليابان لكنها في الحقيقة أخذت من الصين. رحب تشرشل بذلك على أساس أن «أي ادعاء من قبل روسيا للتعويض على حساب الصين سيكون في مصلحة حل المسائل المتعلقة بهونغ كونغ». ورغم أن الشروط تطال الأراضي الصينية، لم تكن الحكومة الصينية مطلعة على ذلك ولم تتم استشارتها. أكثر من ذلك، وضعت الولايات المتحدة نفسها تحت رحمة ستالين من خلال الالتزام بانتظار إذنه قبل إخبار تشيانغ كاي شيك–ووضعت نفسها في موقع فريد لتكون مسؤولة عن الحصول على إذعان تشيانغ. نتيجة لذلك، لم يحظ الجنراليسيمو بتقرير كامل من الولايات المتحدة حتى 15 حزيران بعد أربعة شهر. كانت هذه معاملة سيئة لحليف، وفجرت المشاكل.

كان ماو في حالٍ من النشوة وتوسّع اهتمامه بالروس الى حياتهم الجنسية. خلال ايام كان يحاول ترتيب امورهم. وسأل ماو ضابط الارتباط الروسي فلاديميروف في 26 شباط: «ألم تعجبك اية امرأة جميلة هنا؟ لا تكن خجولاً...» وعاد الى الموضوع نفسه بعد اسبوع فقال: «حسناً، هناك فتيات جميلات هنا، اليس كذلك؟ ويتمتّعن بصحة ممتازة. الا تعتقد ذلك؟ ربما اورلوف يريد التفتيش عن واحدة منهن؟ وربما انت ايضاً قد تكون وقعت عينك على احداهن؟»

وكتب فلاديميروف معلقاً:

«حوالى المساء ظهرت فتاة... القت عليّ التحية بحياء قائلة بانها اتت لترتّب المنزل...

اخرجت كرسياً بلا ظهر ووضعته تحت الشجرة الوحيدة التي لدينا، بالقرب من الحائط. جلست وهي متوترة ولكنها كانت تبتسم. من ثم اجابت بلطف على اسئلتي وكانت تنتظر بحذر طوال الوقت وهي تضع رجلاً فوق رجل وكانت لديها رجلان نحيلتان وصغيرتان وهي ترتدي الخفّ المنسوج...

لقد كانت بالفعل فتاة رائعة!

... اخبرتني بانها تلميذة في الجامعة وتسجّلت فيها حديثاً.

كم كانت شابة... »

في 5 نيسان، ارسلت موسكو علماً الى طوكيو بانها سوف تنقض معاهدة الحياد المبرمة بينهما. بعد مرور شهر على هذا التبليغ استسلمت المانيا. حدث ذلك مباشرة في وسط مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني الذي صادق على زعامة ماو. واثار ماو حماسة المندوبين عبر الايحاء بقرب تحقيق النصر للحزب الشيوعي الصيني ايضاً. وقال بان الجيش السوفياتي آتٍ حتماً لمساعدته، ومن ثم وضع يده على عنقه مثل رأس الفأس واعلن التالي: «إذا لم يحصل ذلك بامكانكم قطع رأسي!» اصدر ماو التعليقات الاكثر اسرافاً في التعبير عن العاطفة التي يكنّها لستالين طوال حياته. «هل ان ستالين هو زعيم الثورة العالمية؟ بالطبع هو هذا الزعيم». «من هو زعيمنا؟ انه ستالين. هل هناك من شخص آخر؟ كلاّ». وراح ماو يرنّم: «ان كل عضو من الحزب الشيوعي الصيني هو تلميذ ستالين». «ان ستالين هو معلّمنا جميعاً».

في الثانية عشرة وعشرة دقائق بعد منتصف ليل 9 آب 1945 اي بعد ثلاثة ايام على القاء اميركا القنبلة الذرّية الاولى على هيروشيما، زحف ما يزيد عن المليون والنصف من الجنود السوفيات والمنغوليين الى الداخل الصيني على طول جبهة تمتدّ لأكثر من 4600 كلم من شواطىء المحيط الهادىء الى مقاطعة تشاهار، وكانت هذه الجبهة اعمق من الجبهة الاوروبية الممتدة من بحر البلطيق الى البحر الادرياتيكي. في نيسان أمر ماو جنوده الذين كانوا بالقرب

من نقاط العبور الروسية للاستعداد «للقتال بالتنسيق مع الاتحاد السوفياتي». وما إن دخل الجيش الروسي المنغولي الاراضي الصينية حتى راح ماو يعمل على مدار الساعة فارسل الجنود من اجل تحقيق الاتصال بهم والاستيلاء على الاراضي التي مرّوا بها. كما نقل مكتبه الى صالة للاحتفالات في حديقة المواعيد حيث استقبل رتلاً من القادة العسكريين وكان ينصّ البرقيات على طاولة تستعمل للعبة كرة الطاولة جعلها مكتباً له وكان يرتاح فقط لتناول الطعام بنَهَم.

وفقاً لاتفاقات يالطا كان من المفترض ان توقّع روسيا على معاهدة مع تشيانغ كاي شيك قبل الدخول الى الصين ولكنها انقضّت عليها دون توقيع اتفاق كهذا. بعد مضي اسبوع على الاجتياح الروسي الذي توغّل فيه الجيش السوفياتي مئات الكيلومترات في الداخل الصيني وقّع وزير خارجية تشيانغ رغماً عنه على معاهدة صداقة وتحالف بين الصين والاتحاد السوفياتي، مما فصل منغوليا الخارجية عن الصين بصورة رسمية. قبِل تشيانغ بتسوية مذلّة في مقابل اعتراف روسي بحكومته على انها الحكومة الوحيدة الشرعية في الصين ومقابل التعهّد باعادة جميع الاراضي المحتلة اليه وحده.

رغم هذا التعهّد وجد ستالين عدداً هائلاً من الطرق لمساعدة ماو. كانت حيلته الاولى رفضه الالتزام بجدول زمني للانسحاب. واصدر وعداً شفهياً بسحب جنوده خلال ثلاثة اشهر الاّ انه رفض ادخال هذا الوعد الى الاتفاق، كما أُلحق به كمذكّرة غير ملزمة. في الواقع بقي ستالين اكثر من ثلاثة اشهر بكثير واستغل فترة الاحتلال لخذل تشيانغ ولنقل الاراضي والممتلكات سرّاً الى ماو(*).

استسلمت اليابان في 15 آب وهلّلت الصين لهذه المناسبة من خلال المفرقعات النارية والاحتفالات التي عمّت الشوارع ومن خلال ذرف الدموع وشرب نخب النصر وقرع الطبول والاجراس القرصية. كانت معظم انحاء الصين منخرطة في الحرب ضد اليابان منذ ثماني سنوات فيما كانت بعض المناطق في حالة حرب مع اليابان منذ اربعة عشر عاماً. خلال تلك المدة كان ثلث السكان على الاقل خاضعين للاحتلال الياباني، وتوفي عشرات الملايين من الصينيين فيما اصبح الملايين الذين لا يعدّون ولا يُحصون من المعاقين، وتحوّل اكثر من 95 مليون شخص الى لاجئين وهو العدد الاكبر في التاريخ. لهذه الاسباب كان الناس يتوقون الى السلام.

لكن ما حصلوا عليه هو حرب اهلية خطيرة واندلعت على الفور شملت كل انحاء البلاد

(*) كان لستالين أيضاً جدول أعماله العدائية: مخطط لمحاولة فصل جزء من المنطقة المنغولية في الصين المتاخمة لمنغوليا الخارجية وضمها الى النطاق السوفياتي. فشكلت قوات الاحتلال الروسية في منغوليا حكومة مؤقتة لمنغوليا الداخلية جاهزة للاندماج. لكن المخطط سحب لاحقاً.

في هذه الحرب كان ستالين مسانداً لماو، وفي الحقيقة لم يوقف الروس تقدّمهم جنوباً عندما استسلمت اليابان بل استمرّوا في الضغط لعدة اسابيع بعد ذلك. كانت المنطقة التي انتقل اليها الروس في شمال الصين اكبر مساحة من مجموع الاراضي التي احتلوها في اوروبا الشرقية. وحطّ المظليون الروس في باوتو التي تُعتبر نهاية خط السكك الحديدية لتفريغ المؤن العسكرية وتقع مباشرة الى الشمال من القاعدة التابعة لماو، اي على بعد حوالى 750 كلم الى الغرب من الحدود مع منشوريا. في نهاية آب كان الحزب الشيوعي الصيني قد احتلّ وبمساعدة الروس، قسماً كبيراً من مقاطعتي تشاهار وجيهول اضافة الى عاصمتيهما زانغجياكو وتشنغدي. وتقع كلاهما على بعد حوالى 150 كلم من بكين الى الشمال الغربي والى الشمال الشرقي على التوالي. ابدى ماو عزمه لفترة وجيزة على نقل عاصمته الى كالغان وانطلقت قوافل الجمال المحمّلة بالوثائق والحقائب الى ابعد من ينان.

كانت الجائزة الهامة منشوريا التي تحتوي على اهم مخازن الفحم الحجري والحديد والذهب التي تملكها الصين اضافة الى الغابات الضخمة و70 بالمئة من الصناعات الثقيلة في البلاد. كانت منشوريا محاطة من الجهات الثلاثة بالاراضي التي يسيطر عليها الاتحاد السوفياتي اي سيبيريا ومنغوليا وكوريا الشمالية. وبلغ طول الحدود مع سيبيريا وحدها ما يزيد على الالفي كيلومتر. قال ماو الى اعضاء حزبه: «اذا وضعنا يدنا على منشوريا سنضمن النصر».

لم يكن للشيوعيين او القوميين جيوش في المنطقة الواقعة تحت الاحتلال الياباني وتميّز هذا الاحتلال الذي دام اربعة عشر عاماً بالكفاية والقساوة من جانب الجنود اليابانيين. لكن رجال العصابات الشيوعية كانوا اقرب بكثير من الجنود التابعين لتشيانغ. على الفور فتح الروس مخازن الاسلحة اليابانية امام الشيوعيين ومن ضمنها المخزن الاكبر الموجود في شينيانغ الذي يضمّ وحده حوالى «100,000 بندقية والآلاف من قطع المدفعية وكميات كبيرة من المؤن والاقمشة والطعام» وفق ما جاء في مذكرة سرّية للحزب الشيوعي الصيني. وقبل بضعة اشهر فقط كان جيش الطريق الثامن التابع للشيوعيين لا يملك اكثر من 154 قطعة من المدافع الثقيلة.

لم يقتصر الدعم على الاسلحة فقط بل شمل ايضاً الجنود، فقد استسلم مئتا الف جندي تابعون لنظام مانتشوكو الدمية الحاكم في اليابان الى الجيش السوفياتي. وضعهم هذا الجيش بتصرّف الحزب الشيوعي الصيني لاعادة تجنيدهم في صفوفه، وحدث الامر نفسه مع مئات الآلاف من الرجال العاطلين عن العمل حديثاً نتيجة لاعمال النهب والتدمير على يد الروس. واقدمت قوات الاحتلال السوفياتي على نقل مصانع بكاملها والآلات الصناعية بعيداً باعتبارها «غنائم حرب» وقامت حتى بتدمير التجهيزات الصناعية. قُدّرت قيمة المعدّات التي

ازالها الروس بـ858 مليون دولار اميركي وهي تساوي الملياري دولار اميركي حسب قيمة التبادل الحالية. نتيجة لذلك حُرم العديد من سكان المنطقة من مصدر رزقهم فيما رأى الحزب الشيوعي الصيني ان عديد قواته تضاعف بسرعة ليتخطى 300,000 بعد ان كانت القوة المرسلة في البداية الى منشوريا لا تتعدّى 60,000.

منح الروس هذا التفويض الى الحزب الشيوعي الصيني بسرّية مطلقة إذ انه يمثّل انتهاكاً فاضحاً للمعاهدة التي وقعتها موسكو للتو مع تشيانغ. ان افضل ما يملك القائد الاعلى من جنود مجهزين ومدرّبين على القتال العنيف على يد الاميركيين اصبحوا الآن عالقين في جنوب الصين وبورما بعيداً عن المناطق التي تسيطر عليها روسيا. وكان القائد العام بحاجة ماسة الى سفن اميركية لنقلهم الى منشوريا بسرعة. لكن الولايات المتحدة كانت تريده ان يتناقش مع ماو بشأن السلام، لذلك وتحت الضغط الاميركي وجّه القائد العام دعوة الى ماو للحضور الى تشونغكينغ من اجل عقد محادثات بينهما. حدّد الرئيس الاميركي السابق روزفلت السياسة التي تتّبعها الولايات المتحدة في الصين «لاجبار الفرقاء على وقف السجال والتزام التعقّل». توفي روزفلت في 12 نيسان 1945 وخلفه نائبه هاري ترومان. وسبق للسفير الاميركي في الصين ان اقترح فكرة جمع كل من القائد العام وماو في البيت الابيض اذا ما توصّل الزعماء الصينيون الى اتفاق/ صفقة.

لم يكن ماو راغباً في الذهاب الى تشونغكينغ ورفض دعوة تشيانغ مرتين لانه لم يكن يثق بتشيانغ لناحية عدم قيامه بايذائه. كما ان الرحلة في حال حصولها تعتبر المغامرة الاولى لماو خارج عرينه منذ ان بدأ بقيادة القوة العسكرية التابعة له سنة 1927. قال لتشيانغ انه سيرسل تشو إن لاي بدلاً عنه لكن تشيانغ اصرّ على ان القمّة يجب ان تعقد مع ماو، وفي النهاية وافق ماو. كما كان ستالين قد ابرق اليه ثلاث مرات على الاقل طالباً منه الذهاب. بينما كان ستالين يساعد ماو سرّاً على الاستيلاء على الاراضي كان يريده ان يلعب لعبة المفاوضات. اذا رفض ماو الحضور الى القمة سيبدو وكأنه يرفض السلام فيما يُرجّح ان تمنح الولايات المتحدة تشيانغ تعهّداً كاملاً بالدعم.

استاء ماو من الضغوط التي يمارسها عليه ستالين وشكّلت له اهمّ شكوى حملها ضده وظلّ يثيرها حتى آخر ايام حياته.

قال ستالين لماو بان سلامته ستكون مؤمنة من قبل روسيا والولايات المتحدة. وقال لنا تشن لي فو مؤسس مكتب التحقيق الفدرالي لدى تشيانغ بانه لم يكن للقوميين من مخطط للتعرّض لحياة ماو «لان الاميركيين ضمنوا سلامته». كان ماو يعلم بانه ستتوفر له حماية سرية من عملائه الذين يشغلون مواقع استراتيجية، لا سيما رئيس حامية تشانغ تشن. ومع ذلك

اصرّ على مجيء السفير الاميركي باتريك هورلي الى ينان لمرافقته من هناك الى تشونغكينغ، كضمانة لعدم قتله في الجو.

ومع كل هذه التدابير الوقائية الملائمة غادر ماو اخيراً الى تشونغكينغ في طائرة اميركية في 28 آب تاركاً ليو شاو كي في موقع المسؤولية في ينان. عندما حطّت الطائرة ظلّ ماو ملتصقاً بهورلي وركب سيارته متجنّباً السيارة التي ارسلها تشيانغ اليه.

حصل ماو على بوليصة تأمين من النوع الذي كان يعرفه جيداً وذلك من خلال اصدار امر بشنّ هجوم على القوات التابعة للقوميين بينما يكون هو في تشونغكينغ، مما دلّ على ان الشيوعيين سوف يصعّدون الحرب الاهلية اذا أصابه مكروه. وقال الى الجنرالات الكبار الخاضعين له والذين كانوا على وشك الانتقال جواً في طائرات وفّرها الاميركيون للالتحاق بالمقرّ العام لجيش الطريق الثامن: حاربوا من دون اي تحفّظ. وكلما قاتلتم بطريقة افضل كلما كنت انا بامان. عندما ربح جنوده المعركة عند نقطة تدعى شانغدانغ ابتسم ماو مبتهجاً وقال: «جيد جداً! كلما كبر حجم المعركة كلما كبر النصر وكلما ازداد املي بالعودة».

سيطر الهلع على ماو لبرهة اثناء وجوده في تشونغكينغ، حين غادرها هورلي في 22 ايلول ولحق به تشيانغ في 26 من الشهر نفسه، فخاف من احتمال وجود خطة لتوجيه ضربة له. أرسل تشو الى السفارة السوفياتية ليسأل ما اذا كان الروس يسمحون لماو بالبقاء فيها، لكن السفير ابولون بيتروف ابدى موقفاً ملتبساً ولم يحصل على ردٍّ عندما ابرق الى موسكو طالباً التوجيهات اللازمة. عندها اغتاظ ماو لهذا الامر.

ربح ماو الكثير من خلال ذهابه الى تشونغكينغ. تكلّم مع تشيانغ كمساوٍ له «كما لو ان المدانين كانوا يفاوضون سجّانيهم» وفقاً لملاحظة احد المراقبين. دعته السفارات الاجنبية ليس بصفته متمرّداً، بل بصفته رجل دولة ولعب هذا الدور بنجاح فتصرّف باسلوب دبلوماسي وتجنّب من خلال اللجوء الى الضحك الاحراج الشديد المقصود الذي صدر عن مبعوث تشرشل الجنرال كارتون دي ويارت. قال الجنرال لماو بانه «لا يعتبر ان الشيوعيين ساهموا كثيراً في الحاق الهزيمة باليابانيين» وبان الجنود التابعين لماو فقط «يشكّلون الاذى وليس اكثر». وحتى حين فوجىء ماو بمواجهة قاسية وجهاً لوجه مع قائد القوات الاميركية في الصين الجنرال البيرت ويديمير، تركّزت على مسألة قتل وتشويه الضابط الاميركي جون بيرش على يد الشيوعيين اظهر ماو رباطة جأش. وحافظ على هدوئه عندما قال له ويديمير بلهجة تتضمّن اكثر من الاشارة الى التهديد بان الولايات المتحدة كانت تخطط للاتيان بقنابل ذرّية الى الصين اضافة الى المجيء بعدد متزايد من الجنود قد يصل الى النصف مليون. ومن خلال الظهور بمظهر الساعي الى الوفاق سجّل ماو نصراً دعائياً.

استمرت محادثات السلام خمسة واربعين يوماً لكن الحلقة بأسرها كانت نوعاً من المسرحية. وراح ماو يهتف بالعبارة التالية: «عاش القائد العام تشيانغ» وقال بانه يدعم تشيانغ بصفته زعيم الصين لكن ذلك لم يعنِ شيئاً. كان ماو يريد الصين لنفسه ويعلم بالتالي انه يستطيع الحصول عليها فقط من خلال الحرب الاهلية.

كما كان تشيانغ ايضاً يعلم بان الحرب حتمية لكنه بحاجة الى اتفاق سلام لارضاء الاميركيين. رغم انه لم يكن ينوي التقيّد بالاتفاق فقد صادق عليه في 10 تشرين الاول. جلب له هذا التصرف المكاسب اقلّه على المدى القصير. بينما كان ماو في تشونغكينغ احتلّت القوات الاميركية المدينتين الرئيسيتين في شمال الصين تيانجين وبكين وسلّمتهما الى تشيانغ كما بدأت بنقل جنوده الى منشوريا. بعد التوقيع على الاتفاقية دعا تشيانغ ماو للبقاء معه خلال الليل وفي اليوم التالي تناولا طعام الفطور معاً قبل ان يعود ماو الى ينان. وفي اللحظة التي ادار فيها ماو ظهره عبّر القائد العام عن مشاعره الحقيقية في دفتر يومياته: «ان الحزب الشيوعي غادرٌ ودنيء وأسوأ من الحيوانات».

عندما عاد ماو الى ينان في 11 تشرين الاول بدأ على الفور بتنفيذ العمليات العسكرية الهادفة الى ابقاء جيش تشيانغ خارج منشوريا. وعُيِّن لين بياو قائداً للقوات الشيوعية هناك، وأُرسل عشرات الآلاف من الكوادر الى المنطقة وكان الجميع يعمل بأمرة مكتب منشوريا الذي عمل القادة الروس على نقل قادته سرّاً من ينان الى شينيانغ ابتداءً من منتصف ايلول.

اصدر ماو الامر بنشر الجنود حول شانهايغوان الواقعة عند الطرف الشرقي للسور العظيم. كانت قواته احتلّت هذا المعبر الاستراتيجي بين الصين ومنشوريا بالتعاون مع الجيش السوفياتي في 29 آب. طلب من الروس الاهتمام بالمرافىء البحرية وبالمطارات، وبتشجيع روسي اطلقت (الوحدات التابعة للحزب الشيوعي الصيني والمرابطة مثل قطّاع الطرق) النار على السفينة الاميركية التي تحاول انزال جنود تابعين لتشيانغ. وفي احدى الحالات اصابوا الزورق الذي يقلّ القائد الاميركي الادميرال دانيال باربي باضرار فادحة فأجبروه على التراجع نحو البحر.

واخيراً كان على الاسطول السابع الاميركي الوصول الى الرصيف في كينهوانغداو الذي هو مرفأ يقع مباشرة الى الجنوب من منشوريا ونزل فيه احد افضل الجنود التابعين لتشيانغ. في ليل 15 – 16 تشرين الثاني انقضّ هذا الجيش على معبر شانهايغوان في هجوم عنيف. دعا ماو الى «معركة حاسمة» وطلب من جنوده الصمود عند المعبر لكن الفرق التابعة لتشيانغ اجتاحتهم بكل بساطة. انهارت القوات التابعة لماو بشكل ساحق لدرجة ان احد القادة

القوميين رثى الموقف بفخر قائلاً: «ليس لدينا حتى العدد الكافي من الناس كي يقبلوا كل هذه الاسلحة التي تُسلّم الينا».

لم يكن للقوات الشيوعية خبرة في حرب الخنادق او في غيرها من فنون الحرب الحديثة. بصفتهم رجال عصابات كان المبدأ الاول الذي وضعه ماو بنفسه لهم: «انسحبوا عندما يتقدّم العدو» وهذا ما فعلوه الآن. من ناحية اخرى سبق للجيوش العاملة بامرة تشيانغ ان خاضت حروباً على نطاق واسع ضد اليابانيين، ففي بورما وفي حملة واحدة عطّلت هذه الجيوش عمل عدد من جنودهم فاق بكثير عدد زملائهم الذين عطّل الشيوعيون عملهم خلال ثماني سنوات على كامل الاراضي الصينية. تولّى القائد القومي في منشوريا الجنرال تو يومنغ قيادة المعارك الرئيسية ضد اليابانيين، بينما شارك لين بياو القائد في جيش ماو في كمين واحد في ايلول 1937 اي قبل ثماني سنوات ومنذ لك الوقت بالكاد اشتمّ رائحة البارود. من خلال حرصه على تجنّب القتال مع اليابانيين اصبح ماو يملك جيشاً غير قادر على خوض حرب على الطراز الحديث.

خاض الشيوعيون معارك على بعض الجبهات اثناء الحرب ضد اليابان وكانت بمعظمها ضد وحدات ضعيفة في الجيش القومي. لم يواجه الشيوعيون النخبة في القوات العاملة بامرة تشيانغ والذين حسب ما كتب احد كبار القادة الشيوعيون في رسالة الى ماو، كانوا مفعمين بالنشاط ومدرّبين جيداً اي انهم كانوا «جنوداً على النمط الاميركي» وجاهزين للمعارك.

لم يكن الجنود التابعون للحزب الشيوعي الصيني مدرّبين تدريباً ضعيفاً فقط بل كانوا ايضاً غير متحمّسين. بعد الحرب مع اليابان اراد العديد منهم الحصول على السلام فقط. كان الشيوعيون يعتمدون على اغنية دعائية بعنوان «اهزموا اليابان كي نستطيع الذهاب الى منازلنا». بعد استسلام اليابان طُبّق الحظر على هذه الاغنية باسلوب هادىء لكن ليس من السهل كبت الشعور بالتوق الى المنزل كما تدعو اليه الاغنية.

عندما طُلب من الجنود الشيوعيين الزحف بصورة اساسية من شاندونغ نحو منشوريا لم تتركّز المحادثات المتّسمة بالحيوية والنشاط على المُثُل العليا بل على المغريات المادية. وتوجّه الكوميسار تشين يي الى ضباطه بالقول: «عندما غادرت ينان طلب مني الرئيس ماو ان اخبركم بانكم ذاهبون الى مكان جيّد يتوفر فيه اللهو بكثرة، وأيضاً الانوار الكهربائية والابنية الشاهقة والذهب والفضة...» وقال آخرون الى مرؤسيهم: «في منشوريا سنأكل الارز والطحين الابيض، اي الاطعمة المرغوبة، طوال الوقت» و«سيحصل كل منكم على ترقية». ووجد بعض الضباط انه من المستحيل خلق الحماس لدى الجنود وابقوا المكان المقصود سرّاً الى ان اصبح الجنود على متن السفينة المتجهة الى منشوريا.

يتذكر الضباط الشيوعيون الذين شقوا طريقهم بصعوبة الى منشوريا المعنويات المنهارة

لافراد الجيش. ويذكر احد الضباط ما يلي:

«ان المسألة التي تسببت باسوأ أنواع المتاعب كانت فرار الجنود...

بصورة عامة ان جميعنا، من اعضاء الحزب الى قادة الفرق وقادة الفريق المقاتل كان يتوجّب علينا مراقبة «المتأرجحين». كنّا نفعل اي شيء معاً من مهمة الحراسة الى الاعمال الروتينية والمهمات الاخرى... عندما كان المتأرجحون ينوون التسلل بعيداً كنا نقول لهم «انا ايضاً اريد ان ابوّل»... كان علينا التعاطي مع اشارات الانهيار العصبي والحنين الى المنزل والشكاوى على الفور... بعد القتال وخاصة بعد الهزائم كنّا نظلّ متيقّظين.

ان معظم الذين هربوا انما قاموا بذلك بعد استقرار المعسكر لذلك... اضافة الى الحرس العاديين كنّا نضع الحرّاس السرّيين... كما ان البعض منّا ربط نفسه خلال الليل بالاشخاص المتأرجحين بشكل مستتر... ان بعضنا كان يائساً لدرجة اننا لجأنا الى الطريقة التي استعملها اليابانيون مع عمّالهم إذ كانوا يجمعون سراويل الرجال ويخزنوها في المقر العام للجيش خلال الليل».

لكن حتى بعض الكوادر الموثوق بهم فرّوا.

ابلغ قائد احدى الفرق الذي انتقل من شاندونغ الى منشوريا ماو في 15 تشرين الثاني انه بين «الفارّين والمشرّدين والمرضى» اضاع حوالى الثلاثة آلاف رجل من اصل 32،500 رجل انطلق معهم. وفي وقت سابق افاد قائد وحدة اخرى بالتالي: «خلال الليلة السابقة وحدها... هرب ما يزيد على الثمانين».وعانت احدى الوحدات من معدّل فرار تخطّى الخمسين بالمئة فانتهى الامر ببقاء اقل من ألفي رجل من اصل اربعة آلاف. كما انشقّ المجنّدون الجدد من سكان منشوريا جماعاتٍ جماعات عندما ادركوا انهم سوف يحاربون الحكومة الوطنية. وفي فترة عشرة ايام امتدّت من اواخر كانون الاول 1945 الى اوائل كانون الثاني 1946 انتقل ما يزيد على الاربعين الفاً الى القوميين، وذلك حسب الاحصاءات الخاصة بالشيوعيين انفسهم. ومع ان عدد الجنود التابعين للحزب الشيوعي الصيني في منشوريا فاق بكثير عدد القوميين ورغم تسلّحهم بالاسلحة اليابانية استمرّوا عاجزين عن الحفاظ على سلاحهم.

*

توقّع ليو شاو كي الرجل الثاني لدى ماو ان لا يتمكّن الشيوعيون من اقفال ابواب منشوريا في وجه تشيانغ. لقد اتّبع استراتيجية مختلفة عن تلك التي اتّبعها ماو. بينما كان ماو في تشونغكينغ، ارسل ليو التعليمات الى الحزب الشيوعي الصيني في منشوريا لتركيز جهوده على بناء قاعدة صلبة على الحدود مع روسيا والدول التابعة لها ويستطيع الجنود في هذه القاعدة تلقّي التدريبات اللازمة في فنون القتال الحديث. في 2 تشرين الاول 1945 ارسل الامر التالي:

«لا تنشروا القوات الرئيسية عند بوابة منشوريا لمحاولة ابقاء تشيانغ خارجاً لكن انشروها على الحدود مع الاتحاد السوفياتي ومنغوليا وكوريا ولا تغيّروا رأيكم ابداً». اضافة الى ذلك طلب ليو من الشيوعيين الاستعداد للتخلّي عن المدن الكبرى والذهاب الى الريف المحيط بالمدينة لبناء القواعد هناك.

لكن عندما عاد ماو من تشونغكينغ الى ينان هيمن على ليو. وفي 19 تشرين الاول أمر بنشر القوات الرئيسية على نحو مركّز عند المعبر المؤدي الى منشوريا وعند تقاطع كبير للسكك الحديدة. لم يكن ماو قادراً على الانتظار من «اجل امتلاك منشوريا بكاملها» كما جاء في امر آخر اصدره، لكن هذا الجيش لم يكن على مستوى المهمة المطلوبة.

وفي علاقة ماو بجيشه ساد جو من التباعد في نواح عديدة. لم يحاول ابداً ان يؤثّر شخصياً في جنوده تأثيراً يبعث الامل في نفوسهم، فلم يزر الجَبهة ابداً كما لم يذهب مرة للقاء الجنود المتواجدين في الصفوف الخلفية. لم يكن يهتم لامرهم. كان العديد من الجنود الذين أُرسلوا الى منشوريا مصابين بالملاريا. ومن اجل سحب هؤلاء الرجال المصابين بالحمّى مسافة تمتدّ على مئات الكيلومترات حُشر كل رجل مريض بين اثنين من الجنود الاصحّاء وتمّ جرّه بواسطة حبل مربوط عند الخصر. كانت الطريقة المفضلة لدى ماو في التعاطي مع الجنود المصابين تقضي بتركهم مع فلاّحي المنطقة التي يتواجدون فيها، وكان هؤلاء الفلاّحين يعيشون عيشة تتأرجح بين البقاء على قيد الحياة والمجاعة كما لم تكن الادوية متوفرة لديهم(*).

اظهر اداء الجيش التابع لماو بأن لا امل في ان يحقق نصراً في وقت قريب فتأقلم ستالين مع متطلبات الوضع بسرعة. في 17 تشرين الثاني 1945 وبعد ان اقتحم الجيش التابع لتشيانغ جنوب منشوريا لاحظ تشيانغ «تغييراً مفاجئاً في الموقف» الروسي. لقد اعلم الروس الحزب الشيوعي الصيني انه سيترتب عليه اخلاء المدن فوضعوا بذلك حدّاً لآمال ماو في ان يصبح سيّداً على منشوريا باكملها على الفور، كما وضعوا حدّاً لآماله بتحقيق نصر سريع على نطاق البلاد باكملها.

كان ستالين يعلم بأن لهذا القرار وقعٌ مدمّر على ماو فاصدر اشارة لطمأنته. في الثامن عشر من تشرين الثاني أُرسلت اليه برقية من روسيا جاء فيها: «ان ماو آن ينغ يطلب إذناً منكم بالذهاب الى «41» [الاسم المرمّز لينان]». واخيراً قرر ستالين اعادة ابن ماو اليه وكان ذلك خبراً جيداً بالنسبة اليه لكنه لا يساعده في الاستيلاء على منشوريا. وتبع ذلك توسّلات يائسة

(*) بعد سنتين، عندما أرسل قوات كبيرة الى داخل المناطق القومية سأل القادة ماذا سيحدث للجرحى بدون منطقة ركيزة يلجأون اليها. كان رد ماو السريع: «هذا أمر سهل... اتركوا الجرحى والمرضى للجماهير».

رفعها الى الروس الى جانب الاوامر غير المجدية التي اصدرها الى جنوده بالصمود. عندما لم تؤدِّ المسألتان الى نتيجة اصيب ماو بانهيار عصبي. في 22 تشرين الثاني انتقل من حديقة المواعيد الى عيادة خاصة بالنخبة بعد طرد جميع المرضى منها. بقي ماو غير قادر على النهوض من السرير ولم يغمض له جفن لايام من غير انقطاع. كان جسده يرتجف وهو ممدَّد على الفراش فيما اصاب التشنّج يديه ورجليه وكان ينضح بالعرق البارد.

تحت تأثير الارتباك اقترح شي زي مساعد ماو طلب المساعدة من ستالين. وافق ماو فارسل شي برقية الى ستالين الذي ردّ على الفور مقترحاً ارسال اطباء لمعالجة ماو. قبل ماو بالعرض لكن يبدو انه بعد ساعتين خطرت بباله افكار اخرى حول عرض نفسه كما هو امام ستالين، وطلب من شي التريث في ارسال البرقية لكنه كان قد ارسلها.

قبل ايام فقط كان ستالين استدعى طبيب ماو الدكتور اورلوف التابع للمخابرات العسكرية السوفياتية الى جانب جميع اعضاء بعثة المخابرات السوفياتية العاملة في ينان. كان اورلوف يعمل في ينان منذ ثلاث سنوات ونصف دون انقطاع ولكن في اللحظة التي وصل فيها الى موسكو امره ستالين بالعودة الى ماو. عاد اورلوف القليل الحظ في 7 كانون الثاني 1946 وكان يرافقه طبيب ثانٍ يدعى ملنيكوف من جهاز الاستخبارات الروسية الكي جي بي. لم يجدا صحة ماو في خطرٍ شديد باستثناء معاناته من الاجهاد الفكري والتوتر العصبي، ونصحاه بالتخلّي عن المزيد من العمل وتفويض اشخاص للقيام بهذه المهمات، كما نصحاه بالاسترخاء والمشي وتنشّق الكثير من الهواء النقي. لكن اورلوف ما لبث ان ادّعى باصابته بالتوتر العصبي وتوسّل موسكو ان تستدعيه، لكن ذهبت توسّلاته سدى.

اتى آن ينغ، ابن ماو على متن الطائرة التي نقلت الاطباء وقبل مغادرته كان ستالين شخصياً قدّم له مسدساً منقوشاً. كان مضى ما يزيد على الثمانية عشر عاماً لم يرَ ماو ابنه خلالها. لدى انتقاله الى الاتحاد السوفياتي سنة 1927 كان في الرابعة من عمره وحينها ايضاً ترك ماو زوجته كاي هوي وثلاثة ابناء وبدأ بممارسة مهنة الخارج على القانون. الآن اصبح آن ينغ شاباً وسيماً في الثالثة والعشرين من عمره. على مدرج المطار عانقه ماو صائحاً: «كم اصبحت طويلاً!» وفي ذلك المساء كتب ماو رسالة شكر الى ستالين.

في ذلك الوقت كان ماو قد انتقل الى خارج العيادة واستقر في مركز قيادة الجيش وهو مكان جميل يُعرف باسم مقصورة الفاوانيا (زهرة صيفية). كان المركز محاطاً ببستان كبير من ازهار الفاوانيا التي ضمّت اجمل تشكيلة صينية من تلك الزهرة. كما اضاف القائد العام الصوري للجيش المغرم بالشتول وهيئة اركانه الى هذه الروعة بستاناً للخوخ اللذيذ، الى جانب بركة للاسماك وملعباً لكرة السلة. امضى ماو وقتاً طويلاً مع آن ينغ وكان يجلس غالباً على طاولة حجرية مربعة خارج منزله

المصنوع من اللبن والواقع مباشرة قرب ملجأه الخاص العميق الذي يحميه من الغارات الجوية. لاحظ احد شركاء عائلة ماو المعتادين في لعبة المهجونغ ولعبة الورق في ذلك الوقت بان ماو كان يعامل ابنه بكثير من الحنان. تحسّنت صحته تدريجياً الى ان شفي في الربيع.

خلق بقاء القسم الاكبر من منشوريا في يد الشيوعيين الارتياح والرضى في نفس ماو. ابقى ستالين سيطرته على المنطقة متخطّياً فترة الثلاثة اشهر التي التزم بها للانسحاب وسمح فقط ببقاء عدد هزيل من الموظفين التابعين للقوميين في المدن. ورغم انه كان على الحزب الشيوعي الصيني اخراج منظماته من معظم المدن فقد تحصّن الشيوعيون في الريف الشاسع.

لم يغادر الجيش الروسي منشوريا نهائياً حتى 3 ايار 1946 اي تقريباً بعد عشرة اشهر على دخوله اليها. ولزيادة فرص الحزب الشيوعي الصيني لم يُطلع الروس القوميين على الجدول الزمني لانسحابهم حتى اللحظة الاخيرة، بينما كانوا ينسقون مغادرتهم مع الحزب الشيوعي الصيني كي يضطلع بموجودات المنطقة بما فيها المدن الرئيسية التي عاد الشيوعيون ودخلوها مجدداً الآن. أمر ماو جيشه مرة اخرى بالصمود في المدن الهامة الواقعة على طول خط السكك الحديدية مصرّاً على الدفاع عنها «بغض النظر عن التضحية» «مثل مدريد» مستحضراً الصورة البطولية للدفاع عن العاصمة حتى الموت في الحرب الاهلية في اسبانيا.

حذّر ليو شاو كي، الرجل الثاني في قيادة ماو، مرة اخرى من عدم قدرة الشيوعيين على التصدّي لجيش تشيانغ ولفت الى وجوب التخلّي عن معظم المدن. وقام لين بياو القائد الشيوعي في منشوريا بتحذير ماو ايضاً من «انه لا يوجد احتمال كبير بالصمود في المدن» واقترح بان تقوم استراتيجيتهم على «القضاء على قوات العدو وليس على الدفاع عن المدن». ووافق مع ليو شاو كي على الرأي القائل بان الاولوية يجب ان تُعطى لبناء قواعد في المناطق الريفية. الاّ ان ماو اصرّ على وجوب الدفاع عن المدن «حتى الموت»(*).

لكن الجولة المقبلة من المعارك اظهرت ان جيشه لا يزال غير متكافىء مع الجيش الذي يملكه تشيانغ. بعد مضي اسابيع على الانسحاب الروسي كان القوميون استولوا على كل المدن الرئيسية في منشوريا باستثناء هاربين وهي الاقرب الى روسيا وكانت القوات الشيوعية حينها بلغت حدود الانهيار. انسحبت هذه القوات الى الشمال في حال من الفوضى وتحت القصف الجوي فيما كانت عرضة للهجمات المتكررة من الدبابات التابعة للقوميين والجنود المزوّدين

(*) منذ ذلك الحين بدأ ماو استراتيجيتي «محاصرة المدن من جهة الريف» و«تصفية قوات العدو بديلاً عن حماية او احتلال المدن». في الواقع أتت الفكرة الأولى من ليو شاو كي وعارضها ماو بشدة قبل ان ترغمه فعاليتها الى اعتمادها، وأتت الفكرة الأخرى من لين بياو.

بعربات. واقرّ لاحقاً المفوض السياسي لدى لين بياو بان «الجيش بأسره انحلّ» ووقع في حالة نسمّيها «الفوضى التامة». ويذكر احد الضباط كيف انه تعرّض للمطاردة ناحية الشمال لمدة اثنين واربعين يوماً دون توقّف: «يبدو الامر فعلياً وكأننا فقدنا كل امل بالنجاة...».

لم يكن الشيوعيون في حال من الانهيار العسكري فقط بل كانوا في وضع سيّء جداً في علاقتهم بالسكان المدنيين الذين كانون يتوقون الى الوحدة الوطنية بعد اربعة عشر عاماً من الحكم الياباني الوحشي، وهم رأوا في القوميين ممثلين للحكومة الصينية. ونقل لين بياو الى ماو ما يلي: «يقول الناس ان جيش الطريق الثامن يجب الاّ يحارب الجيش التابع للحكومة... انهم ينظرون الى القوميين باعتبارهم الحكومة المركزية».

كان الحزب الشيوعي الصيني يشكو من وضع آخر غير مؤاتٍ وهو وجود صورة في اذهان الناس عن علاقتهم بالروس المكروهين جداً. لم يكتفِ الجنود الروس بنهب المعدات الصناعية فقط بل نهبوا ايضاً منازل الناس وكثرت حالات الاغتصاب التي ارتكبها الجنود الروس. وعندما كشف الاعلان المتأخر لاتفاقية يالطا في شباط 1946 الامتيازات الضخمة الخارجة عن نطاق التشريع الوطني التي اغتصبها ستالين في منشوريا، اندلعت المظاهرات المعادية للسوفيات في عدة مدن هناك وفي اجزاء اخرى من الصين. عمّ الاحساس بان الحزب الشيوعي الصيني دخل منشوريا على ظهر الروس ولم يكن يدافع عن مصالح الصين. عندما نادى المتظاهرون بشعارات مثل «يجب على الحزب الشيوعي الصيني ان يحبّ بلدنا» صفّق المتفرّجون. وانتشرت الشائعات القائلة بان الحزب يقدّم النساء للروس مقابل الحصول على الاسلحة.

عامل سكان المنطقة الشيوعيين الصينيين بطريقة مختلفة عن معاملتهم للقوميين. ويتذكر احد الضباط الشيوعيين: «كنّا جائعين وظامئين عندما وصلنا الى جيلين... لم نرَ احداً في الشارع... لكن عندما دخل العدو المدينة ظهر الناس كافةً مهلّلين وملوّحين بالاعلام الصغيرة... تصوّر كم هو كبير حجم غضبنا!»

كان الجنود الشيوعيون مثبطي العزيمة ونفّسوا عن غضبهم حتى في وجه الضباط الكبار لديهم. وفي احدى المرات علق لين بياو الموجود في سيارة جيب وسط حشد من الجنود المنسحبين. عندما طلب حارسه من الرجال فتح الطريق للقائد حيّوه بصيحات من مثل: «اسأل ذلك القائد هل نحن ننسحب الى الارض الخاضعة للرجال الضخمين الكثيري الشعر؟» واعتُبر هذا اللقب اللفظة الازدرائية التي يستعملها سكان المنطقة لوصف الروس.

بدا الامر وكأن الشيوعيين الصينيين قد يساقون عبر الحدود الى داخل الاراضي الروسية او قد يتفرّقون في وحدات صغيرة لرجال العصابات العاملين في الجبال، وهذا ما توقّع حصوله

لين بياو. في 1 حزيران طلب من ماو ان يسمح له بالتخلّي عن هاربين، آخر المدن الكبرى التي يحتفظ بها الشيوعيون والواقعة على بعد حوالى 500 كلم من الحدود الروسية. في اليوم التالي ارسل المكتب التابع للحزب الشيوعي الصيني في منشوريا الى ماو نفس الرسالة المتشائمة: «لقد قلنا الى اخينا تشن، اي الروس، باننا جاهزون لمغادرة هاربين...» ناشد ماو ستالين التدخل مباشرة مرتين امّا على شكل «مظلّة عسكرية» او على شكل «عمليات مشتركة». رفض ستالين التدخل إذ انه ستكون له انعكاسات على المستوى العالمي رغم انه سمح لوحدات الحزب الشيوعي الصيني بالعبور الى الاراضي الروسية. في 3 حزيران كان على ماو المصادقة على خطط التخلّي عن هاربين والانتقال الى حربِ العصابات الطويلة الامد.

كان ماو على وشك الهزيمة. ثم أُنقذ على يد الاميركيون.

28- واشنطن تنقذ ماو
(1944-1947، العمر 50-53 سنة)

لم يكن سرّاً ان العديد من المسؤولين الاميركيين لم يبدوا ايّ حماس لتشيانغ، لذلك عمل ماو على استغلال هذه الازدواجية املاً بأن تمتنع الولايات المتحدة الاميركية عن دعم القائد العام وربما ستتبع موقفاً اكثر ليونة من الشيوعيين. عمل ماو بدقة على تعزيز الخدعة القائلة بأن الحزب الشيوعي الصيني ليس حزباً شيوعياً حقيقياً بل أنه حزب الاصلاحيين الزراعيين المعتدلين الذين يريدون التعاون مع الولايات المتحدة الاميركية.

في منتصف سنة 1944 ارسل روزفلت بعثة الى ينان ومباشرة بعد وصول اول الاميركيين روّج ماو لفكرة تغيير اسم الحزب فقال الى فلاديميروف، ضابط الارتباط الروسي في ينان في 12 آب: «نحن نفكّر بتغيير اسم حزبنا وبتسميته غير «شيوعي» بل شيئاً آخر. عندها الوضع... سيكون مؤاتياً اكثر خاصة مع الاميركيين...» ووافق الروس على الفور. وفي وقت لاحق من ذلك الشهر نقل مولوتوف هذا الموقف الى الجنرال باتريك هورلي، المبعوث الخاص للرئيس روزفلت الى الصين حينها، وقال له ان في الصين «بعض... الناس الذين يسمّون انفسهم «شيوعيين» لكن لا علاقة لهم البتة بالشيوعية. هم بكل بساطة يعبرون عن استيائهم من وضعهم الاقتصادي من خلال اطلاق تسمية «شيوعيين» على انفسهم. لكن ما ان تتحسن ظروفهم الاقتصادية حتى ينسون هذه النزعة السياسية. ان الحكومة السوفياتية... غير مرتبطة بالعناصر الشيوعية»(*).

تعاظمت خيبة الامل لدى الشيوعيين بشكل خاص عندما قام هاري ترومان الذي خلف الرئيس روزفلت بارسال جورج مارشال، الجنرال الاعلى مرتبة في الولايات المتحدة، الى الصين في كانون الاول 1945 لمحاولة انهاء الحرب الاهلية. ان المارشال الذي سبق له ان خدم في الصين في العشرينات كان موقفه من تشيانغ في الاصل غير ودّي لارتباط اقارب تشيانغ بالفساد، كما كان سريع التأثر بإدعاءات الحزب الشيوعي الصيني بأن هناك الكثير من النقاط المشتركة بينه وبين الولايات المتحدة. خلال الاجتماع الاول بينهما راح تشو إن لاي يتملّق

(*) العمل المشترك بين موسكو وماو خيب آمال الكثيرين الذين افترضوا خلال عقود طويلة ان ماو سيخسر امام الولايات المتحدة وان هذه الأخيرة خسرت فرصة فصل ماو عن المعسكر السوفياتي. في الواقع، لطالما أخبر ماو حزبه سراً بأن الصداقة مع أميركا «هي مجرد تكتيك في نضالنا ضد تشيانغ».

لمارشال من خلال قوله له بأن الحزب الشيوعي الصيني «يرغب في بناء نظام ديمقراطي... على النمط الاميركي». وبعد شهر اوحى تشو على نحو فظيع بأن ماو يفضّل اميركا على روسيا واخبر مارشال «نكتة صغيرة قد تكون مفيدة له. لقد سرت شائعة مؤخراً مفادها بأن الرئيس ماو سوف يقوم بزيارة الى موسكو. ولدى اطلاع الرئيس ماو عليها ضحك ولاحظ باسلوب من الهزل انه إذا ما اراد اخذ اجازة خارج البلاد... هو يفضل الذهاب الى الولايات المتحدة...» ونقل مارشال هذه الملاحظات دون نقد أو تدقيق الى ترومان. وبعد سنوات ظلّ ينقل هذه الملاحظات الى ترومان ومفادها بأن الشيوعيين هم اكثر تعاوناً من القوميين.

لم يكن مارشال قادراً على فهم ماو او فهم العلاقة التي تربط ماو بستالين. في 26 كانون الاول 1945 قال لتشيانغ انه «من المهم جداً تحديد ما إذا كانت الحكومة الروسية على علاقة بالحزب الشيوعي الصيني وما إذا كانت تقدم له النصائح» كما لو كان الامر لا يزال يحتاج الى التحقق من صحته. لاحقاً، في شباط 1948، قال للكونغرس الاميركي انه « لا توجد لدينا ادلّة مادية في الصين على تلقّي الحزب الشيوعي الدعم من الشيوعيين في الخارج». ان هذا الجهل ملفت للنظر لان الاميركيين مثل البريطانيين، كانوا يلتقطون البرقيات المرسلة من روسيا والتي كان بعضها موجهاً الى ينان، مما يبيّن بوضوح وجود العلاقة بينهما. كما ان مارشال تلقى تحذيرات شديدة اللهجة من مسؤولين اميركيين آخرين بمن فيهم رئيس البعثة الاميركية في ينان الذي افتتح تقريره الاخير بثلاث كلمات تنذر بالخطر: «الشيوعية حركة عالمية!»(*).

زار مارشال ينان في 4 و5 آذار 1946، ولهذه المناسبة تأكد على نحو مضاعف بأن كل شيء كان مرتّباً ومحضّراً تحضيراً محكماً. وكان من الخطوات المطلوبة ابعاد ابنه آن ينغ الى احدى القرى، وقال له بأن هذه الخطوة تهدف الى مساعدته في تعلّم الاعمال الزراعية والعادات الصينية، لكن السبب الحقيقي هو ان ماو كان مغتاظاً من الاهتمام الذي يبديه الاميركيون بابنه الذي يتكلّم الانكليزية. بعد وصول آن ينغ من روسيا بوقت قصير عرّفه ماو الى مراسل الاسوشياتيد برس جون روديريك الذي اجرى معه مقابلة بعد ذلك على حافة حلبة الرقص خلال سهرة سبت راقصة. بعدها تفجّر غضب ماو ويذكر آن ينغ ان والده «لم يقرأ حتى المقابلة بتمعّن قبل ان يسحَن الورقة التي طُبعت عليها ويحوّلها الى كرة ومن ثم قال لي وهو متجهّم الوجه:... كيف تتجرأ على اعطاء حديث الى مراسل اجنبي هكذا بكل بساطة ومن تلقاء نفسك ودون اتباع التوجيهات اللازمة؟» كان آن ينغ قد تلقّى تعليمه في عالم روسيا القاسي الخاضع لحكم ستالين، لكن حتى ذلك لم يؤهّله للانضباط الصلب المطبّق في معسكر والده. وفيما أبعد آن ينغ

(*) كان سفير واشنطن في موسكو أفيريل هاريمان قلقاً بشأن موعد مارشال تحديداً لأنه شعر ان مارشال لم يكن مدركاً بشكل كاف «الخطر الروسي».

الى الريف كانت السيدة ماو التي لا تتكلم الانكليزية على وشك الظهور الاول بصفة السيدة الاولى.

كانت الاوهام ترشح من التقرير الذي رفعه مارشال الى ترومان عن ينان: «اجريت محادثات مطوّلة مع ماو تسي تونغ وكنت صريحاً للغاية. لم يُبدِ اي استياء واعطاني كل الضمانات بخصوص استعداده للتعاون». وابلغ مارشال ترومان بأن القوات الشيوعية في منشوريا هي «اكثر قليلاً من عصابات ضعيفة التنظيم» وقال حتى ما يثير الدهشة: «انه من المستحيل تقريباً ان يتمكّن مركز القيادة في ينان من الاتصال بمركز القيادة» في منشوريا. حصل ذلك بعد ان قام الروس بنقل قادة الحزب الشيوعي الصيني من منشوريا الى ينان على متن طائرة «د س 3» DC3 وحين كانت ينان على اتصال يومي مع قوات الحزب الشيوعي الصيني المتواجدة على الارض بمئات الآلاف من الجنود.

عندما كان مارشال لا يزال في ينان استدعى ماو ضابط الارتباط التابع للمخابرات العسكرية السوفياتية الدكتور اورلوف واطلعه على مضمون المحادثات.

قدّم مارشال خدمة هامة لماو. عندما كان ماو في وضع محرج سمّاه «دانكيرك الخاصة به» في اواخر ربيع سنة 1946 مارس مارشال ضغوطاً كبيرة وحاسمة على تشيانغ كي يوقف تعقّب الشيوعيين في شمال منشوريا وقال بأن الولايات المتحدة لن تساعده اذا ما حقّق المزيد من التقدّم وهدّد بالتوقف عن نقل الجنود القوميين الى منشوريا. في 31 ايار ارسل مارشال رسالة الى تشيانغ استحضر فيها شرفه الشخصي:

> «في ظل الظروف التي يتمّ فيها التقدم المستمر للقوات الحكومية في منشوريا يجب عليّ... ان اكرّر انه... بلغت المسألة نقطةً تُطرح فيها تساؤلات كبيرة عن الامانة المتعلّقة بمركزي. لذلك اطلب منكم مجدداً ان تصدروا امراً على الفور بوقف التقدّم والهجومات او الملاحقات التي تقوم بها القوات الحكومية...».

استسلم تشيانغ ووافق على وقف لاطلاق النار لمدة خمسة عشر يوماً. حصل ذلك في اللحظة التي وطد ماو نفسه مع التخلّي عن هاربين، آخر مدينة كبيرة يسيطر عليها الشيوعيون في منشوريا كما كيّف نفسه مع فكرة تفريق جيشه الى وحدات لحرب العصابات. في الواقع اصدر الامر في 3 حزيران ولكن في الخامس من الشهر نفسه اصدر امراً آخر على عجل عندما علم بوقف اطلاق النار وجاء فيه: «اصمدوا... وحافظوا على هاربين بشكل خاص» فالتيّار تبدّل.

ربما كان الامر الصادر عن مارشال القرار الوحيد الاكثر اهمية الذي أثّر على نتيجة

الحرب الاهلية. اتفّق الشيوعيين الذين عاشوا تلك المرحلة من لين بياو الى قدامى المحاربين في الجيش جميعاً في السرّ على اعتبار الهدنة غلطة مميتة ارتكبها تشيانغ. لو استمرَّ في التقدم آنذاك ربما استطاع على الاقل ان يمنع الشيوعيين من تأسيس قاعدة كبيرة وآمنة على الحدود مع الاتحاد السوفياتي، وتربط هذه القاعدة خطوط سكك حديدية تُستعمل لادخال كميات هائلة من المدفعية الثقيلة. اضافة الى ذلك بعد ان وافق تشيانغ على هدنة لمدة اسبوعين واجه اقتراح مارشال بتمديدها الى اربعة اشهر تقريباً وجعلها تشمل كل اجزاء منشوريا والسماح للشيوعيين بالاحتفاظ بشمال منشوريا. بالنسبة الى تشيانغ لو حصل الاستمرار في التقدم لَعنى اصطداماً وجهاً لوجه مع مارشال الذي كما اشار تشيانغ «كان في غضب شديد بشكل بارز» في هذه الفترة.

رأى القائد العام ان الضغوط تُمارس عليه ليس فقط من المارشال بل من الرئيس ترومان نفسه. في المنطقة الخاضعة للقوميين في منتصف تموز أُطلقت النار على اثنين من المفكّرين البارزين المناهضين للقوميين. في ذلك الشهر اظهر استطلاع للرأي أجري في الولايات المتحدة ان 13 بالمئة فقط يؤيدون مساعدة تشيانغ بينما اراد 50 بالمئة البقاء خارج اللعبة. في 10 آب ارسل ترومان رسالة الى تشيانغ استعمل فيها عبارات قاسية جداً وذكر فيها حادثتي الاغتيال وقال بأن الشعب الاميركي «ينظر باشمئزاز كبير» الى الاحداث الجارية في الصين. وهدّد ترومان بأنه قد يضطر الى «اعادة تحديد» الموقف الاميركي اذا لم يحدث اي تقدّم «باتجاه تسوية سلميّة».

في هذه الظروف توقّف تشيانغ عن الاعمال العسكرية في منشوريا رغم انه استمر في مطاردة القوات التابعة لماو في امكنة اخرى حيث سجّل بعض الانتصارات. وخالف تشيانغ الرأي بخصوص ضبط النفس. هذا احد اقرب مساعديه تشن لي فو. قال لتشيانغ: «كُن مثال فرانكو في اسبانيا. اذا اردت ان تقاتل الشيوعية حاربها حتى النهاية». ان اسلوب «التوقف ومن ثم الانطلاق» لن ينفع، كما قال لتشيانغ واضاف: «لا يُستحسن التناوب بين اطلاق النار ووقف اطلاق النار، وبين وقف اطلاق النار واطلاق النار...» لكن تشيانغ كان بحاجة الى المساعدة الاميركية التي بلغت حوالى الثلاثة مليارات دولار اميركي طوال فترة الحرب الاهلية (وصلت المنح المباشرة تقريباً الى 1,6 مليار دولار اميركي بينما بلغت المساعدات الفعلية من الاسلحة 850 مليون دولار اميركي) فرضخ للضغوط الاميركية.

وهكذا ضمن ماو قاعدة آمنة في شمال منشوريا بلغ طولها حوالى الالف كلم وبلغ عرضها 500 كلم وهي مساحة اكبر بكثير من مساحة المانيا، ولها ايضاً حدود برّية طويلة ونقاط اتصال لخطوط السكك الحديدة مع روسيا والبلدان التابعة لها. وامام كبار الضباط قارن ماو

هذه القاعدة مع كرسي مريح ذات ذراعين وشبّه روسيا بظهر صلب يتّكىء عليه فيما شبّه كوريا الشمالية ومنغوليا الخارجية الواقعتين على الناحيتين بجهتي الكرسي اللتين يريح ذراعيه عليهما.

ومع فترة راحة امتدت اربعة اشهر اخذ الشيوعيون وقتهم في دمج جيش المانتشوكو الدمية المؤلف من 200,000 جندي وفي دمج غيره من المجندين الجدد وكان لديهم الوقت الكافي لاعادة تدريب واعادة تأهيل الجنود القدامى. عمد الشيوعيون الى «تطهير» كل جندي لا يستطيعون السيطرة عليه وغالباً ما يعني ذلك القتل. تكشف الارقام المصنّفة انه بما يتعلق بالجيش الاحمر في مسرح الاحداث هذا، وصل العدد الكامل للخاضعين للتطهير الى جانب اؤلئك الذين هربوا الى 150,000 خلال ثلاث سنوات وهو رقم مذهل ويقارب العدد الكامل للذين قُتلوا في المعركة او اعتُبِروا أسرى او غير صالحين للخدمة العسكرية (172,400).

شكّل حثّ الجنود على قتال تشيانغ جزءاً اساسياً من التجديد في الجيش. وحصل ذلك من خلال التجمعات الحاشدة الى دُفع فيها الجنود على «النطق بكلام لاذع». كان معظمهم من الفلاحين الفقراء الذين عانوا طويلاً مع الجوع والظلم فجرى تحريك الذكريات الاليمة واثارة حالات الاذى الشخصية. سيطر التوتر على الجموع وجاء في احد التقارير ان احد الجنود فجّر ثورة من الحزن والغضب لدرجة انه «فقد الوعي وعندما استعاد وعيه لم يسترجع ابداً سلامته العقلية وهو الآن معتوه». عندما بلغت الجماهير المحتشدة ذروة الشحن العاطفي كان الحزب يقول للحشود التي تلهبها الحماسة بأنها تحارب الآن من اجل «الثأر من تشيانغ كاي شيك» الذي يعتبر نظامه مصدراً لكل الويلات التي حلّت بهم. وهكذا وجد الجنود الحوافز التي تحثّهم شخصياً على القتال. ويشهد الناس الذين اختبروا هذه العملية على فعاليتها رغم انهم وجدوا صعوبة في تصديق الامر عندما يفكرون به وهم في حال الصفاء الذهني.

لكن الكثيرين رفضوا تحضير انفسهم ذهنياً للامور الصعبة وابدى البعض الملاحظات المشكّكة، فوجدوا انفسهم فجأة مدانين لاعتبارهم اعضاء في «الطبقات التي تستغلّ الفقراء» وانضموا الى صفوف اؤلئك الذين كُتب لهم «الاستبعاد».

كان التدريب العسكري مكثفاً مثله مثل اعادة التوجيه السياسي، وهنا كان وجود الروس ضرورياً. عندما وصلت الوحدات الاولى للشيوعيين الصينيين الى منشوريا ظنّ الروس ان بعضهم لصوصاً. لم يبدُ الشيوعيون كجيش نظامي ولم يكونوا قادرين على استعمال الاسلحة الحديثة. اثناء الهدنة فتح الروس ست عشرة مؤسسة عسكرية رئيسية على الاقل بما فيها القوة الجوية والمدفعية وكلّيات للهندسة. ذهب العديد من الجنود الصينيين الى روسيا لتلقي التدريب العسكري فيما توجه آخرون الى محميّات روسية في بورت آرثر وداليان. وكان ستالين حصل

على هذين المرفأين في يالطا ولعبا الآن دور الملاذ للوحدات والكوادر المحطّمة التابعة لماو في جنوب منشوريا. هنا حصلت الوحدات والكوادر على الملجأ والتدريب واعادة التسليح.

تسارعت عملية تسليح الروس لماو فنقلوا اليه حوالى 900 طائرة يابانية و700 دبابة وما يزيد على 3,700 قطعة مدفعية ومدافع هاون وقاذفات رمّانات وما يقارب 12,000 رشاش والاسطول الصغير المستعمل في نهر سانغاري، اضافة الى العديد من المدرّعات ومئات الآلاف من البنادق. استُقدمت الاسلحة المحمّلة بالحافلات والمعدّات العسكرية عبر السكك الحديدية من كوريا الشمالية حيث اهم مستودعات الاسلحة اليابانية كما وصل المزيد من الاسلحة التي استولوا عليها من منغوليا الخارجية. وجرى ايضاً شحن الاسلحة المصنوعة في روسيا اضافة الى الاسلحة الالمانية التي استولوا عليها بعد ان أُزيلت الكلمات المنقوشة عليها وادّعى الشيوعيون حينها ان هذه الاسلحة المستولى عليها اميركية الصنع.

زيادة على ذلك نقل الروس سرّاً عشرات الآلاف من سجناء الحرب اليابانيين الى الحزب الشيوعي الصيني. ولعب هؤلاء الجنود دوراً كبيراً في تحويل الجيش الشيوعي المتداعي للسقوط الى ماكينة هائلة للقتال، كما لعبوا دوراً مفصلياً في تدريب القوات الشيوعية على استعمال الاسلحة اليابانية التي اعتمدوا عليها بصورة اساسية، ولعبوا دور آخر مفصلياً في تدريبها على صيانة وتصليح هذه الاسلحة. كان اليابانيون مرة اخرى هم الذين اسّسوا القوات الجوية التابعة للحزب الشيوعي الصيني فقام الطيارون اليابانيون بدور المدرِّبين على قيادة الطائرات. وقدّم الفريق الطبي الياباني المؤلف من آلاف الموظفين المدربين الى الجرحى الصينيين مستوى جديد من العلاج يدلّ على الاحتراف والنوعية العالية فلقي الترحيب من المتلقّين له. كما شارك بعض الجنود اليابانيين حتى في العمليات الحربية.

وشكّلت كوريا الواقعة تحت الاحتلال السوفياتي عاملاً حيوياً آخر، فمن خلالها زوّد الروس الشيوعيين ليس فقط بالاسلحة بل ايضاً بفرقة من 200,000 جندي نظامي من المعتادين على المشقات. اضف الى ذلك انه نظراً الى ان الحدود الفاصلة بين منشوريا وكوريا الشمالية تبلغ 800 كلم فقد اصبحت هذه الاخيرة ما اسماه الحزب الشيوعي الصيني «الجزء الخلفي السرّي الخاص بنا» والملاذ الذي يلجأون اليه وقت الشدّة. في حزيران 1946 وعندما كان الشيوعيون الصينيون يتجنّبون الوقوع في الاسر نقلوا جنودهم والمصابين والمعدات العسكرية الى هناك. وبما ان القوميين سيطروا على القسم الاكبر من وسط منشوريا متسبّبين بانشقاق القوات الشيوعية الى قسمين، تمكّن الشيوعيون من استعمال كوريا الشمالية كصلة وصل بين القوات التابعة لهم المتواجدة في شمال وجنوب منشوريا وبين منشوريا والساحل الشرقي للصين ولاسيما في مقاطعة شاندونغ الهامة. ومن اجل الاشراف على منشآت النقل الواسعة هذه اقام

الحزب الشيوعي الصيني مكاتب له في بيونغيانغ وانشأ اربعة مرافىء في كوريا.

على أي حال، كان متوقّعاً ان يؤدّي الحد الادنى من المساهمة السوفياتية الى تسيير عمل السكك الحديدية. ما إن جرى تعزيز القاعدة في منشوريا الشمالية في اواخر سنة 1946 حتى اعاد فريق من الخبراء الروس ترميم شبكة السكك الحديدية الموسعة في الاراضي الخاضعة لماو وربطوها بروسيا في ربيع 1947. في حزيران 1948 عندما كان جيش ماو يحضّر لهجومه العسكري الاخير للاستيلاء على منشوريا بكاملها ارسل ستالين وزير الاتصالات السابق لديه ايفان كوفاليف للاشراف على العمل. بالاجمال اشرف الروس على اصلاح ما يزيد على الالف كيلومتر من الخطوط و120 جسراً رئيسياً. كان لخطوط سكك الحديد هذه دورٌ حاسم في السماح للشيوعيين بنقل اعداد كبيرة من الجنوّد والمدفعية الثقيلة بسرعة، وذلك في سبيل مهاجمة المدن الرئيسية في الخريف.

استُقدمت المساعدات الهائلة من روسيا وكوريا الشمالية ومنغوليا بسرّية تامة وما زالت السرّية تحيط بهذه العملية الى يومنا هذا. بذل الروس جهوداً جبارة لاخفائها. طلب ماو من لين بياو شطب الاشارة الى ان قاعدتهم «تحظى بدعم من كوريا والاتحاد السوفياتي ومنغوليا الخارجية» حتى من الوثائق(*) السرّية الخاصة بالامور الحزبية الداخلية. ولعبت موسكو دورها المعتاد القاضي بتسمية التقارير التي تذكر المساعدات السوفياتية «بالقصص الملفّقة من البداية الى النهاية». اما القصة الملفّقة حقيقة فهي ادّعاء ماو بأن الحزب الشيوعي الصيني كان يحارب «فقط بواسطة بنادق من نوع ميلّيت».

لكن المساعدات الروسية أتت بفاتورة باهظة دفعها اؤلئك الذين يعيشون تحت حكم ماو. لم يشأ ماو ان يكون مديناً الى ستالين بهذه المساعدات، واراد ان يشعر ان بامكانه طلب المزيد. اقترح مرتين في آب وتشرين الاول 1946 ان يدفع ثمنها من خلال ارسال الاغذية الى روسيا لكن الممثل التجاري الروسي في هاربين رفض هذا العرض في البداية. ففي تشرين الثاني ارسل ماو واحداً من معاونيه الجديرين بالثقة ويدعى ليو يا لو الى موسكو للاصرار على عرضه، وتوصّل الفريقان الى اتفاق سرّي يرسل بموجبه الحزب الشيوعي الصيني الى روسيا مليون طنّ من الأغذية كل سنة.

نتج عن ذلك المجاعة والوفيات في بعض المناطق الصينية التي يحتلّها الشيوعيون. توفي في منطقة ينان ما يزيد على العشرة آلاف فلاح سنة 1947 حسب ما افاد مدير التجهيزات اللوجستية لدى ماو. كان ماو مدركاً لحقيقة الوضع واثناء تجواله في المنطقة في تلك السنة

(*) قيل أيضاً للين: «قل اننا نقاتل من اجل الديمقراطية السياسية والاقتصادية والعسكرية...لا تنشر شعار صراع الطبقات».

رأى الاولاد يفتشون عن حبوب البازيلا المتناثرة في الاسطبلات الموجودة في محيطه كما شاهد النساء يفتّشن عن المياه التي استُعملت لغسل الارز الخاص به، وذلك من اجل الحصول على قطرات من المواد المغذّية. في القاعدة الشيوعية المجاورة في شانكسي قال له رئيس حرّاسه بعد زيارة الى منزله ان الناس يموتون جوعاً وان عائلته محظوظة بالبقاء على قيد الحياة، وحدث ذلك بعد وقت الحصاد بقليل. في منشوريا نفسها بلغت وفيات المدنيين من المجاعة مئات الالآف سنة 1948 وحتى الجنود الشيوعيون عانوا من نصف مجاعة في اغلب الاحيان.

كان القليلون يعلمون بأن المجاعة في المناطق الخاضعة للشيوعيين في تلك السنوات عائدة على الارجح الى تصدير ماو للغذاء واعتُبر التقنين نتيجة للحرب. كانت تلك دلالة منذرة بالمجاعة الكبرى التي حلّت مستقبلاً والتي كانت ايضاً من ابتكارات ماو: مرة اخرى انها نتيجة قراره بتصدير الغذاء الى روسيا.

خلال الفترة التي طُبِّق فيها وقف اطلاق النار المفروض من مارشال اي في حزيران 1946 كان تشيانغ لا يزال يسجّل تفوّقاً عسكرياً على ماو، فكان جيش القوميين يتألف من 3,4 مليوناً متخطّياً بسهولة عديد الجيش التابع لماو والبالغ 1,27 مليوناً. وبدا لفترة معينة ان القائد العام منتصرٌ. وبينما ترك الشيوعيين يعيشون بسلام في منشوريا اخرجهم خلال شهر تشرين الاول من معظم معاقلهم على الاراضي الصينية نفسها بما في ذلك مدينة زانغجياكو، المدينة الوحيدة الهامة التي لا يزالون يسيطرون عليها. وفي العمق الجنوبي أُخرج الشيوعيون بصورة كاملة من منطقة يانغتزي. وفي كل مسارح القتال اعتمد ماو مرة اخرى الطريقة الفاشلة نفسها التي اعتمدها في منشوريا وحثّ الجنرالات على الاستيلاء على المدن الكبرى بأي ثمن. في 22 حزيران دعت خطّته المعدّة لشرق الصين على سبيل المثال الى الاطباق على نانجينغ التي اعادها تشيانغ عاصمة له للتو. رغم ان ماو اطلق على مشروعه اسم «الخالي من المجازفة» تحتّم عليه التخلّي عنه مثلما تخلّى عن خططه الاخرى.

رغم هذه الخسائر الكبيرة بقي ماو واثقاً من نفسه تماماً بسبب احتفاظه بقاعدة منشوريا الشمالية. عندما بدأ تشيانغ بالهجوم عليها في تشرين الاول 1946 وبعد ان اعطى اتفاق وقف النار الشيوعيين اكثر من اربعة اشهر لتعزيز مواقعهم، كان غير قادر على خرق خطوط الدفاع لديهم. في ذلك الشتاء (1946–1947) الذي بلغ فيه البرد القارس ذروته بالمقارنة مع السنوات الاخرى على ما يذكر الكثير من الناس، وجد القوميون انفسهم في معارك عنيفة تتأرجح نتائجها بين الربح والخسارة بعد التبدّل الذي لحق بالقوات الشيوعية بقيادة لين بياو الذي لعبت مواهبه العسكرية دوراً هاماً خلال هذه الاشهر الصعبة. ويختصر ماو الاسلوب

الذي يتبّعه لين بأنه «مراوغ ولا يعرف الرحمة» مقدّراً له هاتين الصفتين. من الاساليب التي اعتمدها لين الاستفادة من الطقس البارد. عندما كانت الحرارة تهبط الى الاربعين درجة مئوية تحت الصفر وحين كان التبوّل يتسبّب بقضمة الصقيع للقضيب كان جنوده يترصّدون الكمائن في الجليد والثلج لايام متواصلة. ويقدّر المحاربون الشيوعيون القدامى عدد الوفيات وحالات الاعاقة في صفوفهم بالمئة الف. تكبّد القوميون خسائر اقلّ حجماً بكثير لانهم كانوا مزوّدين بملابس اكثر ملاءمةً للظروف المناخية وكان قادتهم اقلّ قساوةً.

في ربيع 1947 باتت القاعدة الشيوعية في منشوريا الشمالية غير قابلة للاهتزاز. سبق لمارشال ان غادر الصين في كانون الثاني مسجّلاً النهاية لجهود الوساطة الاميركية. لاحقاً اعطت الولايات المتحدة مساعدات هائلة الى تشيانغ لكنها لم تغيّر الوضع القائم. حقق الشيوعيون هدف «الاتصال البرّي بالاتحاد السوفياتي» الذي كانوا يسعون اليه سرّاً منذ ما يزيد على العقدين، وذلك بمساعدة واشنطن رغم كون هذه المساعدة غير مقصودة. ان تحقيق انتصار ماو على مستوى البلاد بكاملها كان فقط مسألة وقت.

29- العملاء السرّيون والخيانات وضعف القيادة من اسباب هلاك تشيانغ وفشله (1945-1949، العمر 51-55 سنة)

في بداية 1947 وعندما فشل القوميون في اقتحام القاعدة الواسعة التابعة لماو والواقعة على الحدود مع روسيا ادرك تشيانغ انه في مأزق، كما ادرك الكثيرون من الصينيين ذلك. كان بأمسّ الحاجة الى تحقيق انتصار لرفع معنوياته فأتى بفكرة الاستيلاء على ينان، عاصمة ماو. وكما كتب في دفتر يومياته في 1 آذار، سيكون للاستيلاء عليها «المغزى الاكبر». في ذلك اليوم عهد بهذه المهمة الاساسية الى رجل يحظى بثقته التامة. كان الجنرال هو تسونغ نان وصيّاً على ابنه الاصغر بالتبنّي ويغو وناب عن تشيانغ خلال زفاف ويغو.

بعد التحقيقات التي اجريناها ترسّخت قناعتنا بأن الجنرال هو عميل سرّي شيوعي. بدأ حياته المهنية في كلّية وامبوا العسكرية التابعة للقوميين سنة 1924 والتي اسّستها موسكو وزّودتها بالدعم المادي وبالاساتذة في الوقت الذي كان فيه سان يات سين يحاول استعمال الرعاية الروسية لاجتياح الصين. كان تشيانغ شيك على رأس الكلية فيما كان تشو إن لاي رئيساً للقسم السياسي البالغ الاهمية فيها. وزُرع العديد من العملاء السرّيين الشيوعيين هناك واكملوا مسيرتهم ليصبحوا ضباطاً في الجيش القومي.

في وامبوا كان هو تسونغ نان موضع شبهة قوية بكونه عميلاً شيوعياً سرّياً(*) ولكن كان لديه اصدقاء في مناصب رفيعة يكفلونه. في ذلك الوقت بنى صداقة مع رئيس المخابرات لدى تشيانغ المدعو تاي لي الذي دبّر زواجه. اصبح الاثنان مقرَّبَين لدرجة ان تاي أمر مرؤوسيه في الوحدات التابعة لهو بارسال نسخ من كل التقارير المخابراتية التي يعدّونها الى هو واليه، مما ادّى الى عدم تجرّؤ احدهم على التبليغ عن اي شك بهو. ظلّ هو يعمل في السرّ مدة اثنتي عشرة سنة استمرت الى سنة 1947 حين اوكل اليه تشيانغ مهمة الاستيلاء على ينان. في اليوم الذي أوكلت اليه المهمة ظهرت الرسالة على مكتب ماو فأمر هذا الاخير باخلاء المدينة وتولّت الميليشيات المسلحة سوق سكان المدينة الى التلال، وأُرسل القسم الاكبر من الادارة التابعة للشيوعيين الى قاعدتهم الواقعة شرق النهر الاصفر.

(*) كان هذا جزءاً من صداقته الحميمة مع رجل يدعى هوي كونغ ميان الذي كان في ذلك الوقت شيوعياً سرياً واعترفت به بكين الآن عميلاً. خلال الحرب ضد اليابان عندما تمركز هوي تسونغ نان في جنوبي ينان، جعله ممثله الخاص لدى ماو.

خلال يومي 18 و19 آذار استولى هو على ينان وهلّل القوميون لما اعتبروه نصراً كبيراً. لكن كل ما حصلوا عليه كان مدينة للاشباح. ونزولاً عند اوامر ماو كان النازحون وسكان المنطقة قد دفنوا ليس فقط طعامهم بل كل الموجودات في منازلهم وصولاً الى ادوات الطبخ.

ان ماو نفسه غادر قبل بضع ساعات فقط بتباهٍ وبرويّة وحتى من غير اكتراث وتوقف لبرهة ليحدّق في الباغودة التي هي رمز ينان فيما زاد سائقه عدد دورات المحرك في الجيب الاميركي الخاص به، الذي وهبته اياه البعثة الاميركية لدى مغادرتها، على سبيل التذكير بأن القوميين هم على مقربة من المكان. قدّم ماو هذا العرض المسرحي لكسب ثقة المحيطين به والذين كانوا غافلين عن الهوية الحقيقية له. وقبل وقت قصير اصيب كبار الضباط الخاضعين لماو بالرعب عندما ارسل معظم الجنود المتواجدين في ينان الى خارجها تاركاً معه 20,000 رجل فقط لحماية المنطقة بأسرها، اي اقل من عُشر القوة الموضوعة تحت تصرف هو والتي يبلغ مجموعها 250,000.

انطلق ماو شمالاً ومعه تشوإن لاي الذي كان يشغل حينها منصب رئيس اركانه ورافقته زوجته. على طول الطريق استغرق ماو وتشو بالدردشة والضحك كما «لو كانت المسألة نزهة» كما قال احد الحرّاس.

على بعد 30 كلم شمال شرقي ينان وفي محلّة تدعى كينغوابيان طلب ماو من سائقه التمهّل في وادٍ عميق حيث المنحدرات المليئة بالرواسب الطفالية اصبحت مصقولة بفعل جرف الامطار والفيضانات لهذه الرواسب الى الوديان الضيقة. اصيب حراسه بالارباك لدى رؤيتهم اياه يشير الى شيء ما ويومىء برأسه لتشو فيما هو غارق في التفكير. وبعد اسبوع فقط اتّضح لهم التفسير لما جرى وذلك عندما دخلت فرقة هو الواحدة والعشرين التابعة للمقر العام للقوميين والى جانبها 2900 جندي موقعاً يوجد فيه كمين عند تلك النقطة بالتحديد في 25 آذار.

كانت الفرقة تلقّت الاوامر من هو بالسير على هذا الطريق في اليوم السابق فقط. لكن سبق لرجال ماو ان تمركزوا قبل ايام، كما ان ماو ورّط القوة التابعة له بأكملها في هذه العملية الوحيدة. قبل اطلاق الطلقات الاولى اكتشفت الفرقة الذين نصبوا الكمين وارسلت المعلومات الى هو فطلب هذا الجنرال من قواته الاستمرار في الضغط مهدّداً اياها بالمحاكمة امام المجلس العسكري اذا لم تمتثل لاوامره، فتعرّض 2900 جندي للابادة. في غضون ذلك ارسل هو القسم الاكبر من جيشه في اتجاه آخر، مباشرة الى الغرب، مما جعل قدومه لاغاثة الفرقة الواقعة في الشَرَك امراً مستحيلاً.

بعد مرور ثلاثة اسابيع وفي 14 نيسان سجّل ماو نصراً آخر بالطريقة نفسها في مكان يدعى يانغماهي عندما تقدّمت احدى الوحدات التابعة لهو مباشرة نحو الكمين، فقُتل وجُرح او وقع في الاسر خمسة آلاف رجل. وكما حدث في السابق ارسل هو القوة الرئيسية التابعة له

الى خارج المكان فانقطعت عنها الفرقة التي حُكم عليها بالهلاك بفعل الاوهاد التي يتعذّر اجتيازها.

في 4 ايار اتت مهمة يسيرة ثالثة حين وضع الشيوعيون يدهم على مستودع بانلونغ الرئيسي للذخيرة الموجود في موقع امامي. مرة اخرى ارسل هو القوة الرئيسية الخاضعة له بعيداً في محاولة عقيمة، تاركاً المستودع دون حماية قوية. واشار كل من المدافعين والقوة الرئيسية الى ان الوحدات الشيوعية كانت «مختبئة» بالقرب من المستودع لكن هو قال بأنها كانت تطلق استغاثة كاذبة. عندما بلغت القوة الرئيسية هدفها وجدت امامها مدينة فارغة.

وفّر مستودع بانلونج للشيوعيين مقادير وافرة من الطعام والالبسة والذخيرة الحربية والتجهيزات الطبية فيما تُرك القوميون يعانون من المجاعة. تحوّل البعض الى اخذ الاحذية من جثث الشيوعيين المهترئة. ويذكر احدهم ما جرى بقوله: «مهما غسلناها جيداً لم نستطع التخلص من رائحة النتانة الكريهة». اصاب المرض الكثيرين لكن المكان كان فارغاً تماماً من الادوية.

بعد هذه الانتصارات الثلاثة التي تحققت خلال شهرين من احتلال القوميين لينان اذاع الشيوعيون خبراً مفاده ان ماو بقي في منطقة ينان. وكان المعنى واضحاً: رغم انه لم يكن فعلياً في العاصمة كان الرجل الاقوى في الحزب الشيوعي الصيني قادراً على البقاء حيّاً في المنطقة والعمل فيها وكان مسيطراً على مسار الاحداث الى حدٍّ كبير.

بقي ماو متواجداً ضمن مسافة تبعد حوالى 150 كلم عن المقر العام الخاص بهو في مدينة ينان سنة كاملة وكان يتنقّل مع حاشية من 800 شخص ازداد حجمها في آخر الامر ليبلغ 1400 شخص بمن فيهم مجموعة مرافقة له من الفرسان. وعمل فريق كبير من عمال الاتصالات اللاسلكية على مدار الساعة وابقى الاتصال قائماً مع الجيش الاحمر وروسيا ومع القواعد الشيوعية المنتشرة على كل الاراضي الصينية.

كان ماو يتنقّل من مكان الى آخر للمرة الاولى منذ ان قدم لحكم هذه المنطقة قبل عقد من الزمن. أبقيت مِحَفّة متوفرة للاستعمال الفوري لكن ماو فضّل المشي وامتطاء الاحصنة خلافاً لعادته المتبعة اثناء الزحف الطويل فاصبح جسمه لائقاً. وحمل الطاهي الخاص به انواع الطعام المفضّلة لديه مثل اللحم المطهو بالفلفل الاحمر والنقانق. لم يتناول ماو طعامه ابداً مع سكان المنطقة التي يوجد فيها او في المطاعم لخشيته من عدم توفّر الشروط الصحّية الملائمة او من التسمّم. وكان ينال قسطاً وافراً من النوم لدرجة انه استغنى عن الحبوب المنوّمة وبدت عليه بوضوح علامات الابتهاج ايضاً. وارتاد ماو الاماكن التي تستحق المشاهدة واستوضع امام طاقم يمثّل جريدة سينمائية اتى من منشوريا لتصويره. حصلت السيدة ماو على كاميرا

لتصوير اللقطات وأُخذت لها الصور الكثيرة وشرعت بممارسة هواية برعت فيها لاحقاً. وغالياً ما كان الاطباء الروس يأتون من القاعدة الشيوعية المبنية شرق النهر الاصفر لاخضاع ماو للفحوص الطبية ولرفع التقارير على حالته الصحية الى ستالين.

خلال هذه السنة بقي القسم الاكبر من منطقة ينان تحت السيطرة الشيوعية وكان هو وجيشه الضخم محبوسين في مدينة ينان بصورة اساسية. عندما ارسل هو جيشه كان ذلك بهدف تحويلهم الى طعام يلتهمه ماو تدريجياً وكان دائماً يتّبع النمط نفسه: وحدات معزولة محاطة ومسحوقة بالقوات الشيوعية الكثيفة الاعداد فيما كانت القوات الرئيسية التابعة لهو تتعقّب مخبريها في مكان آخر. وجرى تسليم الكتيبة المدفعية التابعة لهو والمدرّبة تدريباً رائعاً دفعة واحدة للشيوعيين واصبحت تشكّل جزءاً هاماً من المدفعية التابعة لماو. لكن كميناً آخر مذهلاً دفن واحدة من الوحدات المدمّرة حين امرها بالعودة الى ينان مدّعياً بأن المدينة مهدّدة. وقعت الوحدة في الشرك في وادٍ ضيّق وتعرّضت لقصف حوّلها الى فُتات. وهكذا بينما دُمِّر الجيش التابع لهو على نطاق واسع اعطى ماو انطباعاً بأنه نابغة في الميدان العسكري وباستطاعته انتزاع الانتصارات الباهرة بقدرة سحرية.

نجا ماو من الموت باعجوبة في حزيران 1947 بعد ان امضى حوالى الشهرين في قرية تدعى وانغجياوان حيث مكث مع عائلة من الفلاحين وكانت المرة الاولى التي عاش فيها على مسافة قريبة كهذه من سكان المنطقة. عندما اشتدّ الحرّ طلب الجلوس في مكان ظليل للقراءة خارج المنزل لذلك قام حرّاسه الشخصيون بقطع بعض الاشجار لصنع العواميد وغزلوا الاغصان الصغيرة والاوراق وحوّلوها الى تعريشة حيث جلس ماو كل يوم للقراءة ولدراسة اللغة الانكليزية على سبيل الاسترخاء.

في 8 حزيران ظهر فجأة في مكان قريب احد القادة التابعين لهو ومعه قوة كبيرة ويدعى ليو كان، وجرى تزويده بالمعلومات السرّية عن وجود ماو من قبل احد سكان المنطقة الذي تمكّن من الهرب من المنطقة الخاضعة للشيوعيين. انفجر غضب ماو على نحو غير مسبوق ورفع صوته في وجه تشو إن لاي ونتج عن ذلك نقاش حاد حول الطريق الذي يجب سلوكه للهرب. شكّلت قاعدة شيوعية تقع شرق النهر الاصفر الملاذ الاقرب والاكثر اماناً وكانت المراكب والسيارات جاهزة دائماً عند نقطة العبور. لكن هذه القاعدة كانت بعيدة جداً لذلك قرر ماو التوجه غرباً باتجاه صحراء غوبي بعد ان اتخذ تدبيراً وقائياً قضى بتجميع مجموعة كبيرة من القرويين الذين أُجبروا على اخلاء القرية في الاتجاه المعاكس بحيث يُخدع العدو بهم.

غادر ماو المكان على عجل وسط العواصف الرعدية محمولاً على ظهور حرّاسه الشخصيين

على طرق جبلية زلقة وغير صالحة للاحصنة. فُرض التوقف عن القيام بالاتصالات اللاسلكية للتقليل من فرص الاكتشاف على يد العدو، لكن الاستثناء شمل جهازاً واحداً للاتصالات اللاسلكية الذي عمل دون توقف، بالطبع من اجل الاتصال بهو كي يأمر جنوده بالتوقف(*).

وهذا ما حصل بالفعل. ففي 11 حزيران كانَ ليو كانْ يجري في إثر ماو لدرجة ان الشيوعيين كانوا قادرين على سماع جنوده وعلى رؤية المشاعل التي يحملونها. وقال حراس ماو بأنهم احسّوا بأن شعرهم يقف من شدة الرعب، وبينما هم يتحضرون للدفاع عنه حتى الموت ظهر ماو من الكهف والابتسامة على ثغره وتوقّع ان يتغاضى العدو عنهم. في تلك اللحظة وامام اعين الحراس المليئة بالدهشة اسرع الجنود القوميون اثناء المرور بالقرب منهم دون التحرّش بهم مطلقاً. كان هو اصدر اوامره الى ليو كان بالتخلّي عن كل شيء والاسراع في الوصول الى المكان المقصود في الاساس وهو باوان، عاصمة ماو القديمة.

كان هناك احتمال بأن تؤدي هذه الحادثة الى ارسال طلب عاجل الى ستالين باخراج ماو الى روسيا. وجاءت البرقية التي ارسلها ستالين في 15 حزيران من دون ريب ردّاً على مثل هذا الطلب. واقترح ستالين ارسال طائرة لتقلّ ماو.

حينها كان ماو في امان. في اليوم السابق لوصول برقية ستالين كان ماو ارسل رسالة يسودها شعور بالابتهاج الى زملائه في القاعدة الشيوعية الواقعة شرق النهر الاصفر وجاء فيها: «بين 9 و11 من الشهر الحالي قامت الفرق الاربعة التابعة لليو كان باستعراض في المكان الذي كنّا فيه... باستثناء الخسائر القليلة التي لحقت بالسكان لا خسائر تذكر. الآن يقوم جيش ليو كان بالتحرك ذهاباً واياباً بين ينان وباوان». لم يقبل ماو العرض الذي قدمه ستالين هذه المرة باخلائه، بل امر ببناء مهبط للطائرات على الفور مباشرة الى الشرق من النهر الاصفر لاستخدامه عند الضرورة.

وما لبث ليو كان ان لقي حتفه. في شباط 1948 تلقى امراً بتعزيز بلدة يِتشوان الواقعة بين ينان والنهر الاصفر. كانت هناك ثلاث طرق محتملة وكان الطريق الذي اختاره له الجنرال هو يمرّ عبر وادٍ ضيّق ومليء بالاشجار. وجد الكشّاف تجمعاً كثيفاً للجنود الشيوعيين وفي ذلك دليل واضح على وجود كمين. ارسل ليو برقية الى هو طلب فيها اذناً بمهاجمة الذين نصبوا الكمين ومن ثم تغيير الاتجاه لكن هو رفض ذلك رفضاً تاماً.

لاحقاً كتب وانغ ينغ تسون، احد قادة الفرق العسكرية التابعة لليو كان: «بعد صدور

(*) حافظت اذاعات ماو على اتصالات عادية مع العملاء الشيوعيين في حرب هوي «ليكون عملهم تحت السيطرة كلياً». هذا ما قاله لنا أحد أحد عمال إذاعة ماو مضيفاً أن «بعض هويات المشتركين لم تكشف حتى اليوم» (1999).

هذا الامر الذي تجاهل كلياً الوضع القائم ومصالحنا اصاب القنوط الضباط والجنود... سار الجميع بصمت فيما كانت رؤوسهم منحنية...» لقد دخلوا مباشرة الى المنطقة المطوّقة وتعرّضوا للابادة عملياً. قُتل ستة جنرالات واقدم ليو كان على الانتحار. تمكن قائد الفرقة العسكرية من الهرب والتقى بالجنرال هو في وقت لاحق. بحسب ما قاله فان الجنرال «عبّر عن اسفه بخبث وسأل لماذا استمررنا في ممارسة الضغط فيما ليس لدينا العدد الكافي من الجنود؟ واعتقدت: ان الامر صادر عنك اما رجالي فسُحقوا وقُتلوا...» وقدّم قائد الفرقة الشهادة التالية: «بعد تعرّض جيش ليو كان التاسع والعشرين للابادة اصبح من المسلّم به فقدان الجنود التابعين لهو تسونغ نان معنوياتهم. اضافة الى ذلك تعرّض الجو العام في المنطقة التي يسيطر عليها تشيانغ للاهتزاز العميق...» هذه الهزيمة اصدرت القرار النهائي بشأن مصير القوميين الموجودين على مسرح الحرب الدائرة في ينان وانكرت على تشيانغ هدفه بالاستيلاء على ينان، الامر الذي كان اقدم عليه لرفع معنويات الناس ولتعزيز ثقتهم على مستوى البلد باكمله.

كان تشيانغ يعلم ان هو يخرّب كل مسألة يتعاطى بها. في دفتر يومياته لـ 2 آذار 1948 كتب القائد العام: «كلّفت الكارثة ما يزيد على ثلث القوة الرئيسية التي تعمل بإمرة هو» وقال ايضاً بأن هو كان «يتبع الطريق الجهنمية نفسها مرة بعد اخرى». ومع ذلك عندما اقترح هو تقديم استقالته باسلوب مخادع رفضها تشيانغ وهو يتفجّع: «ان خسارة جنودنا في يتشوان ليست فقط اكبر نكسة في الحملة التي يشنّها الجيش القومي على اللصوص بل هي ايضاً تضحية لا معنى لها ابداً. قتل الجنرالات من اصحاب الكفاءة وجيش باكمله تعرّض للابادة. ان الاسى والكرب يتأكلاني...» ووضع تحقيق صوري اللوم في حصول الهزيمة الكاملة على ليو كان المتوفي. وتبع النظام القومي تقليده القاضي بالعمل في جوّ من التضامن لا سيما بعد ان رأى الآخرون ان هو كان يشعر بالامان الكبير في ظلّ العطف الذي يحظى به من تشيانغ.

ان ترك القائد العام لهو الافلات من العقاب بعد تسبّبه بسنة كاملة من الهزائم غير المعقولة حصلت جميعها وفقاً للنمط ذاته، ويكشف الكثير عن اسلوبه في القيادة وعن آرائه. كان يثق بالناس الذين يحبهم وكان يساندهم مهما حدث وغالباً ما كانت عواطفه تسيّره، اضافة الى كونه عنيداً ويتمسّك باخطائه. سمح تشيانغ لهو بتحويل مسار الجنود من مسارح اخرى للحرب ذات موقع حيوي. ولاحظ رئيس المستشارين العسكريين الاميركيين الماجر جنرال دايفيد بار بأن هو «سيطر على» تشيانغ «من اجل تعزيز موقعه العسكري في زيان لدرجة اثبتت انها جلبت الكارثة للقوميين في شرق وسط الصين». جاءت الخسائر الهامة هناك «نتيجة مباشرة لنقل الجنود الى الغرب» حيث، كما اشار بار، كانوا إما غير ذي جدوى او لحق بهم الهلاك.

عندما غادر ماو منطقة ينان نهائياً وتوجه شرقاً مجتازاً النهر الاصفر وقاصداً القاعدة

الشيوعية في 23 آذار 1948 قام بهذا التحرّك علناً ونظّم حشوداً من الفلاحين لوداعه عند نقطة العبور على النهر، كما صافح الكوادر الحزبية المحلية قبل ان يصعد على متن زورق. جاء هذا الانفتاح غير المعتاد للدلالة على انه لم يكن يهرب خلسةً. وتعزز الاعتقاد العام بأن الشيوعيين كانوا يسجلون الانتصارات بعد شهر حين تخلّى هو عن ينان تماماً. خلال السنة السابقة خسر مئة الف جندي. وكانت استعادة ينان كسباً اعلامياً محتملاً وغير متوقع بالنسبة الى الشيوعيين، الاّ ان ماو اتّخذ موقفاً هادئاً جداً. وتوقّع مساعده شي زي ان يستغل المناسبة الى اقصى درجة: «لقد انتظرت الى جانبه... لكن لم يحدث اي شيء». لم يشأ ماو لفت الانظار الى هو في حال صُرف عميله السرّي الكبير هذا من الخدمة.

استمر هو بالتسبّب بالمزيد من الكوارث المذهلة لتشيانغ فجعله يخسر في نهاية الامر مئات الآلاف من الجنود وثلث الاسلحة الاميركية التي كانت بحوزة القوميين. عندما وصل تشيانغ الى تايوان ذهب اليها هو ايضاً. هناك وُجِّهت اليه على الفور تهمة «التسبّب باكبر ضرر لجيشنا ولبلدنا» من بين كلٍ القوميين. لكن التهمة فشلت بسبب الحماية التي وفّرها له تشيانغ. وعيّنه هذا الاخير مسؤولاً عن العمليات الخاصة بالتسلّل الى الصين القارية لكن جميع هذه العمليات انتهت بالمآسي. توفي هو في تايوان سنة 1962 فيما ظلّت هويته الحقيقية سرّاً ولا تزال كذلك الى يومنا هذا. ربما طرح تشيانغ تساؤلات عن صحة قراراته في السنوات اللاحقة من عمره. اخبرنا رئيس حرّاسه هو بو تسوم الذي اصبح رئيس وزراء تايوان فيما بعد، بأن تشيانغ اظهر بغضاً شديداً تجاه ذكر كلّية وامبوا التي تعتبر قاعدته سابقاً إذ ان هو والعديد من العملاء السرّيين الآخرين اتون من تلك القاعدة.

استمر العملاء السريون في لعب دور هام في الهزائم التي لحقت بتشيانغ اثناء الحملات العسكرية الثلاثة التي جرت بين سنتي 1948 و1949 والتي حسمت امر اندلاع الحرب الاهلية. كانت الاولى في منشوريا حيث اختار تشيانغ الجنرال واي لي هوانغ لمنصب القائد العام. في هذه الحالة لم يتم فقط اعلام تشيانغ بأن واي هو عميل شيوعي بل في الحقيقة اشتبه في كون ذلك صحيحاً. ومع ذلك عيّن واي مسؤولاً عن جميع جنوده الممتازين البالغ عددهم 550,000 في مسرح الاحداث الحاسمة في كانون الثاني 1948.

كان واي طلب الالتحاق بالحزب الشيوعي الصيني سنة 1938 وابلغ ماو موسكو بالخبر سنة 1940 قائلاً بأن الحزب الشيوعي الصيني سبق واعطى تعليماته الى واي بابقاء هويته سرّاً على القوميين. ويبدو ان واي قرّر خيانة تشيانغ بسبب حقد كبير يكنّه له بعد منحه ترقيته الى رتبة عالية اعتبر انه يستحقها. اخبر واي اصدقاءه الحميمين حينها: «اني اخترت الشيوعيين... ان ينان تعاملني معاملة طيبة... لنعمل مع الشيوعيين من اجل اسقاط تشيانغ».

وصلت اخبار الى تشيانغ عن علاقات واي السرّية عن طريق احد المنشقين الشيوعيين في ذلك الوقت، لذلك غضّ النظر عن ترقية واي الى منصب رفيع في الجيش بعد سنة 1945 رغم ان واي حارب جيداً ضد اليابان في بورما وكسب لقب «واي صاحب المئة انتصار». ازدادت النقمة لدى واي وفرض على نفسه النفي الى الخارج.

يعود السبب في اعادة واي سنة 1948 واعطائه مركزاً هاماً هو الى استمالة تشيانغ لكسب ودّ الاميركيين الذين اعجبوا باداء واي في بورما واعتبروه شخصية «ليبرالية» هامة. قال لنا نائب القنصل الاميركي في شينيانغ في حينه وليام ستوكس ان تشيانغ عيّن واي «في محاولة يائسة منه للحصول على المزيد من المعدات والتمويل من الاميركيين إذ انهم اقرّوا بمهارته كقائد عسكري».

في اللحظة التي تلقّى واي الاتصال الهاتفي من تشيانغ اعلم السفارة الروسية في باريس بالامر ومن ذلك الحين فصاعداً راح ينسّق كل تحرك مع الحزب الشيوعي الصيني. في البداية سحب جيشه الى بضعة مدن كبرى فسمح بذلك للشيوعيين بالسيطرة على 90 بالمئة من منشوريا دون قتال وسمح لهم بعد ذلك بتطويق هذه المدن. ومثلما فعل هو راح واي يقدّم جنوده لماو شيئاً فشيئاً.

اراد ماو ان يتأكد واي من بقاء جميع الجنود القوميين التابعين له في منشوريا كي تجري ابادتهم جميعاً هناك. لذلك تجاهل واي الاوامر المتكررة الصادرة عن تشيانغ بنقل جنوده الى جينزو التي هي نقطة التقاء سكك الحديد في اقصى جنوب منشوريا، تحضيراً للانسحاب التام من منشوريا. وكان رئيس المستشارين العسكريين الاميركيين اللواء بار نصح بالقيام بهذا التحرك. وعوضاً عن صرف واي من الخدمة استمر تشيانغ بالجدل معه لعدة اشهر الى ان احتل الشيوعيون جينزو في 15 تشرين الاول موقعين في الشرك القسم الاكبر من الجنود القوميين البالغ عددهم مئات الالوف. وقامت القوات التابعة لماو بسرعة بعزل قوات واي المتواجدة فيما تبقى من مدن يسيطر عليها القوميون وهاجمتها واحدةً فواحدة. مع سقوط شينيانغ في 2 تشرين الثاني اصبحت منشوريا باكملها في يد ماو.

وضع تشيانغ واي تحت الاقامة الجبرية بسبب ادائه في منشوريا وصدرت دعوات لمحاكمته امام المجلس العسكري. لكن القائد العام الذي نادراً ما كان ينفّذ حكماً بالاعدام او حتى بالسجن في حقّ اي من القادة الكبار لديه او اعدائه، اطلق سراح واي فابحر هذا الاخير باتجاه هونغ كونغ دون ان يتعرّض للمضايقة. وبعد سنة وتحديداً بعد مرو يومين على الاعلان عن قيام الصين الشيوعية ابرق واي الى ماو معبّراً عن سروره: «التوجيهات الحكيمة... الانتصار الباهر... القائد العظيم... ابتهجوا وهلّلوا وامنحوه الدعم الصادق... اني اقفز بعلو عشرة

آلاف قدم مثل العصفور...» لكنه رفض بطريقة ساخرة الذهاب الى الصين والعيش في ظل حكم ماو. سنة 1951 حاول الاتصال بوكالة الاستخبارات الاميركية من اجل الحصول على الدعم لانشاء قوة ثالثة بقيادته. اخيراً انتقل الى الصين القارية سنة 1955.

تحدث ماو الى ابن شقيقه عن واي بالفاظ مدمّرة: «لم يعد واي لي هوانغ الآّ عندما اصيب بالافلاس اثناء تعاطيه الاعمال في هونغ كونغ. ان رجلاً مثل واي لي هوانغ هو جدير بالازدراء...» وتأكد ماو من ان ازدراءه ظهر بوضوح. طُلب من رفاقه القدامى في الحزب الشيوعي رفض دعواته الى العشاء واستمر صدُّه من قبل الكثيرين الى وفاته في بكين سنة 1960. لا تزال مساعدته الحاسمة لماو مطموسة إذ ان عبقرية ماو في المجال العسكري ستبدو اقلّ بريقاً بكثير إذا عُلم ان القائد الاعلى لدى العدو قدّم له القسم الاكبر من القوة التابعة له والعديد من الجنود الممتازين التابعين لتشيانغ على طبق من فضة.

لم يذهب ماو الى منشوريا طوال الحملة التي شُنَّت فيها بل بقي في مقرّه الجديد في زيبايبو الواقع على بعد 240 كلم جنوب غرب بكين. بعد سقوط منشوريا في بداية تشرين الثاني 1948 أمر الجيش المتواجد فيها بقيادة لين بياو بالمجيء الى الجنوب. كان الجيش يتألف حينها من اكثر من 1.3 مليون جندي وتركّزت مهمته الجديدة على الامساك بالجيش القومي البالغ عديده 600,000 جندي والمتواجد في شمال الصين بقيادة فو تسو يي، الجنرال الشهير الذي حارب خلال الحرب الاولى التي ربحتها الصين ضد الدمى اليابانية سنة 1936. كانت المواجهة بين لين وفو المعروفة باسم حملة بكين – تيانجين الثانية في ثلاث حملات اساسية قد حسمت وقوع الحرب الاهلية.

خلافاً لواي لم يكن الجنرال فو شيوعياً يعمل في السرّ، بل كان محاطاً بالناس، ليس اقلّه ابنته التي كلّفها الحزب البقاء مع والدها في هذه الفترة والتبليغ عن كل تحرك يقوم به. ورغم ان تشيانغ يملك بعض المعلومات عن هذا الوضع لم يتّخذ اي خطوة لمعالجته.

في تشرين الثاني وحتى قبل ان يسير لين في طريقه من منشوريا الى الجنوب كان فو قرّر الاستسلام دون اخبار تشيانغ. خسر ثقته بنظام تشيانغ وقرّر ان يحاول تخليص المنطقة الواقعة تحت سيطرته من دمارٍ غير مُجدٍ، ليس اقلّه بكين نفسها، العاصمة الثقافية للبلاد وحيث يوجد مقرّه العام. لم يفعل ذلك بسبب انخداعه بالحكم الشيوعي الذي حسب ما قال عنه علناً في ذلك الوقت انه سوف يجلب «الوحشية... الرعب والاستبداد» وتسبّب له القرار بالاستسلام المّاً كبيراً. بدأ ينهار وشوهد وهو يصفع وجهه ويفكر بالانتحار.

علم تشيانغ بما كان يحدث لفو. في 12 كانون الاول كتب في دفتر يومياته بأن فو «يعاني

من الاحباط العميق... ويبدو انه يتّجه الى الجنون». لكنه ظل يرفض الاستغناء عن خدماته وعندما اقترح فو تقديم استقالته رفضها تشيانغ مع «الف لا» مفعمة بالعواطف الجياشة.

ابقى ماو مراقبة شديدة على الوضع العقلي لفو من خلال ابنة فو نفسها وحسم امكانية الحصول على اكثر من مجرد الاستسلام من خلال هذه الحالة. فقد رأى انه باستطاعته تصوير نفسه في عيون الرأي العام بأنه العبقري في الميدان العسكري الذي تغلّب على فو، بطل الحرب المعروف. لذلك عندما التمس فو الاستسلام عبّر ماو عن موافقته لمبعوثي فو طوال شهرين دون ان يقبل الاستسلام، ولكن دون ان يقول «لا» فيما استمر في شنّ الهجمات على جيش فو طوال الوقت. حينها لم يعد فو صالحاً للقيادة ويذكر احد الضباط كيف انه في احدى المعارك الهامة وعندما طُلب من فو اعطاء التوجيهات ارتجف وتلعثم ومن ثم قال بفتور: «تعاملوا مع الواقع وفقاً للتطورات». في تلك اللحظة خُيِّل اليّ اننا انتهينا...» وكما هو متوقع وضع جيش ماو يده على المدينة تلو الاخرى بما فيها تيانجين، ثالث اكبر مدن الصين، التي سقطت في 15 كانون الثاني 1949. وبعد ان خلق ماو لنفسه صورة القائد العسكري والمقاتل العملاق عندها فقط قبل اقتراح فو القاضي باستسلام بكين. وهكذا تمكّن ماو من القول بأن فو اختار السلام فقط بعد ان مُني بالهزيمة الكاملة على ارض المعركة وعلى يد ماو نفسه. الحقيقة انه لم يكن ضرورياً ابداً خوض الحملة باكملها كلّفت عشرات آلاف الضحايا. وتعاون فو المنكسر مع ماو حتى وفاته على الصين القارية سنة 1974.

في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه حملة بكين – تيانجين الزائفة تقريباً، كانت تدور حملة ثالثة ضخمة واقرب الى الحقيقة في عمق الاراضي الصينية شمال نانجينغ، عاصمة تشيانغ. ضمّت هذه الحملة التي عُرفت باسم حملة هواي – هاي ما يزيد على المليون رجل واستمرت من تشرين الثاني 1948 الى كانون الثاني 1949. لم يكن القائد الاعلى في الجانب القومي عميلاً شيوعياً او مريضاً عقلياً. ولكن مباشرة دونه كان هناك عملاء شيوعيون سرّيون مُعيّنون لاغراض استراتيجية ومن بينهم اثنان من الجنرالات الذي مضى على عضويتهم في الحزب عشر سنوات وعشرين سنة على التوالي. وهما اللذان شنّا هجوماً على البوابة المؤدية الى ساحة القتال هذه خلال ثمانية واربعين ساعة من بدء الحملة.

اما المخرّبان الرئيسيان فكانا رجلان آخران يدعيان ليو فاي وكو جو كوي وهما من المقر العام التابع لتشيانغ كما انهما مشاركان بصورة جوهرية في رسم خطط المعارك الخاصة بالحملة. وضعا القوميين في موقع دفاعي في كل تحرك من خلال القيام المتعمّد بالانتشار الخاطىء ومن خلال اصدار التوصيات الخاطئة فيما كانوا يمرّرون الخطط للشيوعيين.

كان تشيانغ يعتمد بشكل اساسي على كو وكان يهاتفه يومياً تقريباً كما اخذ بنصيحته الهدّامة. في الواقع اصبح كو موضع شبهة في هذا الوقت من قبل الضباط المشاركين في المعركة وحتى صدرت بحقه تهمة التجسس من ابن تشيانغ بالتبنّي وايغو بنفسه. لكن القائد العام لم يفعل شيئاً الى ان فات الوقت وحتى آنذاك اكتفى بنقل كو الى سيشوان تبعاً لتوصية العميل الآخر الاساسي ليو فاي. في سيشوان جعل جيشاً كاملاً يستسلم لاحقاً.

في منتصف سنة 1949 كان ماو قد ختم الحملات الثلاثة بالانتصار واصبحت المنطقة الريفية الواقعة شمال يانغتزي حيث يتمركز 80 بالمئة من جنود تشيانغ تحت سيطرة ماو. واراد الآن تعيين العملاء في المناطق الواقعة جنوب النهر والتي لم يتم اجتياحها بعد، وذلك كي ينتظروا وصول جيشه للاستسلام قي الوقت المناسب. غادر القوميون من اصحاب الشأن العظيم السفن التي كانوا على متنها في حشود كبيرة. في 7 كانون الثاني اعلم ماو ستالين بأن العديد من رجال تشيانغ البارزين، بمن فيهم وزير الدفاع باي كانوا يحاولون ابرام صفقات: «اعرب باي تشانغ هسي الى رجالنا عن استعداده لتنفيذ الاوامر الصادرة عن الحزب الشيوعي الصيني فوراً، مهما كانت هذه الاوامر...» طلب ماو من هؤلاء المتوسّلين البقاء مع تشيانغ وفي بعض الحالات حتى اظهار مقدار عالٍ من المقاومة وانتظار اللحظة المناسبة. رغم ان نهر يانغتزي يشكّل عائقاً هائلاً ورغم ان تشيانغ يملك بحرية ذات حجم ضخم، فقد تأكد هؤلاء الخونة القدماء والجدد من ان الطريق المؤدي الى العاصمة نانجينغ والمركز التجاري شانغهاي والمناطق الصينية الاخرى مفتوح. في 9 و10 كانون الثاني اسرّ ماو الى ستالين ان حكومته «يمكن تشكيلها في الصيف» او «قبل ذلك الوقت».

إنّ ما ساعد ماو في تحقيق الانتصار في الحرب الاهلية سوء تقدير تشيانغ لنوايا الناس، مع انه لم يكن ايضاً من السهل اكتشاف امر العملاء الشيوعيين والقضاء عليهم. لم تكن السياسة التي رسمها ماو تقضي بالمخاطرة بالحدّ الادنى. ان حملة الرعب التي سادت ينان وغيرها من المناطق الخاضعة للشيوعيين عرّضت للخطر كل اتصال يجريه الافراد الشيوعيون مع القوميين كما ان هذه الاتصالات انقطعت فعلياً. اضف الى ذلك ان قضاء الشيوعيين الكامل على السرّية كان يعني ان لا امكانية على الاطلاق ليقوم اؤلئك الخاضعين لحكمهم باجراء الاتصال بالقوميين حتى لو ارادوا ذلك.

اما ماو فلم يَلِن، ففي كل مرة كان يحصل فيها على المزيد من الاراضي والموظفين كان يتّخذ الخطوات القاسية لفرض سيطرته طالباً من كل عنصر حزبي جديد تدوين اسماء جميع افراد عائلته والاشخاص الذين تربطه بهم علاقات اجتماعية، وكان ذلك مخصصاً فقط للمبتدئين. لم يتوقف عن التفتيش عن اي منفذ ممكن تصوره كما انه لم يتوقف ابداً عن سدّه. لقد نجا عدد

قليل جداً من العملاء القوميين او الاجانب من لفت نظره وبالطبع لم يبلغ احد منهم اي منصب هام.

ساهمت المشاعر الودّية القوية التي يكنّها تشيانغ لزوجته مساهمة قوية في خسارته الصين. كان اول رئيس وزرائه الاول بعد الحرب الصينية اليابانية ت. ف. سونغ شقيق زوجته. جمع الثروات كل آل سونغ والعائلة التي ينتمي اليها زوج شقيقة السيدة تشيانغ الكبرى اي آل كونغس بسبب السياسة التي اتّبعها ت. ف. بعد استسلام اليابان حدّد ت. ف. سعر صرف العملة في الحكومة الدمية الموجودة خارج منشوريا بمستوى 1 مقابل 200 المنافي للعقل. ازدادت ثروة العائلة نتيجة لذلك ولكن الفقر اصاب جميع السكان في المناطق الصينية التي كانت خاضعة للاحتلال الياباني سابقاً وشملت المدن الرئيسية مثل شانغهاي ونانجينغ اضافة الى القسم الاكبر من الطبقة المتوسطة في البلاد. في ظلّ حكم ت. ف. انهمك المسؤولون الذين تولّوا السلطة في عملية ابتزاز واسعة فابتزوا الاموال من الاغنياء ووصفوهم بـ«المتعاملين مع العدو». اقرّ تشيانغ نفسه بأن المسؤولين كانوا «منغمسين في التبذير وغارقين في الدعارة ولعب القمار دون تحفّظ... انهم يتباهون ويتبجّحون ويمارسون الابتزاز ولا يقفون عند حدود...» «ان فاجعة الانتصار» كانت في كيفية وصف صحيفة تا كونغ باو المؤثرة لعملية تولّي السلطة.

في الوقت الذي استسلمت فيه اليابان بدا تشيانغ وكأنه المنتصر المتألق لكن خلال فترة قصيرة جداً اندفع بسرعة بالغة نحو الانهيار. خيّمت على المدن مشاكل عديدة مثل التضخم الكبير والازمات الغذائية والادخار والهلع. وفي ظلّ حكم ت. ف. تمكّنت الحكومة ليس فقط من تبذير مدّخراتها بل عمدت ايضاً الى تبذير ممتلكاتها الضخمة من الذهب والعملة الاجنبية التي ورثتها من الحكومة الدمية.

كان بامكان آل سونغ وآل كونغ الحصول على احتياطي العملة الاجنبية في الصين باسعار تفضيلية مما مكّنهم من بيع البضائع الاميركية في الصين وجني الارباح الطائلة، فتسببوا في سنة 1946 باكبر عجز في الميزان التجاري في تاريخ الصين. ادّى اغراق الاسواق بالبضائع الى افلاس اعداد كبيرة من المصانع والمؤسسات التجارية وأُجبر ت. ف. على الاستقالة من منصب رئيس الحكومة في 1 آذار 1947 بعد ان تعرّض لهجوم عنيف من المجلس النيابي ومن الصحافة. أمر تشيانغ باجراء تحقيق وصل الى استنتاج مفاده ان الشركات التي تملكها عائلتا سونغ وكونغ حوّلت ما يزيد على 380 مليون دولار اميركي بطريقة غير شرعية.

لكن كل ما فعله القائد العام هو انزال مرتبة ت. ف. مما اثار غضب ونفور العديد من اتباعه المتفانين وغير الفاسدين. وتسارعت وتيرة انتشار الارباك بين السكان فيما شجب الكثيرون

منهم النظام بصفته «حفنة من اللصوص» و«من مبتزّي الاموال». ان فشل تشيانغ في تطهير السلطة وخاصة في التعاطي مع الارتكابات التي قامت بها عائلة زوجته ادّى الى خسارته للدعم الاميركي.

أُبقي التقرير الناتج عن التحقيق في الاعمال المنسوبة الى اقارب تشيانغ سرّياً. ومن ثم حصلت صحيفة «ذي سنترال دايلي» The Central Daily التي يملكها القوميون على نسخة منه ونشرته في 29 تموز فتسبب الامر بضجة كبيرة. وبعد يومين وإثر مكالمات هاتفية غاضبة اجرتها السيدة تشيانغ مع زوجها اضطرت الصحيفة الى نشر بلاغ تزعم فيه بأنها حصلت على الفاصلة العشرية الخطأ وخفضت المبلغ الذي اخذته العائلتان من اكثر من 300 مليون دولار اميركي الى ثلاثة ملايين. ترك تشيانغ مشاعره الشخصية تملي عليه خطواته السياسية والعسكرية باستمرار. خسر الصين مسلّماً اياها الى رجل لا يحمل ايّاً من نقاط الضعف التي يشكو منها.

30- فتح الصين
(1946-1949، العمر 52-55 سنة)

كان انعدام الرحمة سلاح ماو الأمضى. سنة 1948، عندما انتقل الى تشانغتشان في منشوريا وحين فشل هجوم مباشر في السيطرة على المنطقة أُعطي الامر بتجويعها لدفعها للاستسلام. وكانت الكلمات الفعلية التي استعملها القائد التابع لماو على الارض لين بياو: «حوّلوا تشانغتشان الى مدينة للموت».

كان القائد الذي يتولّى الدفاع عنها الجنرال تشنغ تانغ كو احد ابطال الحرب ضد اليابان ورفض الاذعان. ونظراً لوجود طعام يكفي السكان المدنيين الـ500,000 حتى آخر تموز حاول اخلاءهم.

جاء ردّ لين بياو الذي صادق عليه ماو كما يلي: «امنعوا المدنيين من مغادرة المدينة منعاً باتاً». سمح الشيوعيون للاشخاص الذين يحملون الاسلحة والذخيرة الحربية بالفرار وذلك من اجل تشجيع الجنود القوميين على الانشقاق ولكنهم صدّوا المدنيين تحديداً. وفقاً لحسابات ماو كان الجنرال تشنغ «رجلاً لطيفاً» كما وصفه امام لين بياو ويمكن الضغط عليه للاستسلام من خلال التسبب بوفيات كثيرة بين المدنيين. رغم ان ماو كان معدوم الشعور بالشفقة ولكنه يدرك كيفية التلاعب بهذا الشعور لدى الآخرين. واثناء حصول ذلك تحمّل تشنغ المشقات حتى النهاية رغم معاناته العميقة منها.

بعد مرور ثلاثة اشهر على احكام الحصار على المدينة رفع لين بياو تقريراً الى ماو وجاء فيه:

> «ان الحصار... اتى بنتائج ملحوظة وتسبب بمجاعة قاسية في المدينة... يقتات السكان المدنيون بصورة اساسية من اوراق الشجر والحشيش وتوفي العديد منهم نتيجة للمجاعة...
>
> تتركز سياستنا في الدرجة الاولى على منع السكان من الخروج.
>
> على الخطوط الأمامية وضعنا حارساً كل خمسين متراً اضافة الى الأسلاك والخنادق واغلقنا كل الفجوات... الذين خرجوا، اقنعناهم بالعودة... عندما اشتدّت المجاعة اكثر فأكثر اندفع الناس الى الخارج افواجاً، وبعد ان اعدناهم الى الداخل حشرناهم في اراضٍ لا يسيطر عليها أحد، وهناك توفي الكثيرون بسبب المجاعة. وفي مكان واحد فقط كانت

هناك حوالى الالفي حالة وفاة...».

كانت هذه السياسة وحشية لدرجة ان الجنود اعاقوا تنفيذها. وقال لين بياو الى ماو:

«ركع الناس المتضوّرون جوعاً امام جنودنا في كتلة كبيرة وراحوا يرجونهم السماح لهم بالذهاب. وضع البعض اطفالهم امام الجنود وعادوا وحدهم فيما شنق البعض انفسهم في مراكز الحرّاس. لم يقدر الحراس على تحمّل مشاهد البؤس فركع بعضهم مع الناس الجائعين وبكوا معهم... فيما البعض الآخر اطلقوا سراح اللاجئين سرّاً. وبعد ان عالجنا هذه المسألة اكتشفنا اتجاهات اخرى. فقد كان الجنود يضربون اللاجئين ويسيئون معاملتهم ويربطون ايديهم وارجلهم لمنعهم من الهرب وذهبوا الى حدّ فتح النار عليهم فتسببوا بعدد من الوفيات».

وحتى لين بياو صاحب القلب القاسي نصح بترك اللاجئين يذهبون لكن لم يأتِ اي جواب من ماو. اقدم لين المعتاد على التكتيك الذي يتّبعه ماو في المعارضة من خلال الصمت على اخذ الامر على عاتقه واصدر الامر التالي في 11 ايلول: «اطلقوا سراح اللاجئين في تشانغتشان... على الفور». لكن الامر لم يُنفّذ ولذلك تفسير واحد هو ان ماو ابطله. كان الاشخاص الوحيدون الذين سُمح لهم بالمغادرة اؤلئك الذين لديهم اشياء مفيدة للشيوعيين ويعني ذلك عادة انهم من الاغنياء نسبياً. ويذكر احد الناجين ان الجنود الشيوعيين «مشوا صعوداً ونزولاً وهم ينادون: «ان كل من لديه مسدس او ذخيرة او آلة تصوير عليه ان يسلمه وسوف نملأ له بطاقة للخروج». وحصل المنشقون القوميون وعائلاتهم على معاملة مميزة. خرجت عائلة هذه السيّدة الناجية في 16 ايلول كون زوجها طبيب وبالتالي هو مفيد للشيوعيين.

بعد منتصف ايلول سجّل رئيس بلدية تشانغتشون ارتفاعاً كبيراً في عدد الوفيات مع سقوط اوراق الشجر، الطعام الاخير المتوفر للسكان. في نهاية خمسة اشهر من الحصار انخفض عدد السكان المدنيين من نصف مليون الى 170,000. وبلغ عدد الوفيات معدلاً اكبر من المعدّل التقديري للوفيات التي نتجت عن المجزرة اليابانية في نانجينغ سنة 1937(*).

احد المحاربين القدامى الشيوعيين المشاركين في الحصار وصف شعوره وشعور زملائه كما يلي:

«عندما علمنا اثناء وجودنا خارج المدينة ان الكثير من الناس ماتوا بسبب المجاعة لم نُصَب بصدمة كبيرة. كنّا نذهب بانتظام الى الامكنة التي توجد فيها تلال من الجثث واصبحت قلوبنا قاسية بفعل ذلك. كنّا غير مبالين. لكن عندما دخلنا المدينة ورأينا ما كانت عليه

(*) حتى الرقم الرسمي الذي أعطاه الحزب الشيوعي الصيني للموتى المدنيين من الجوع في تشانغتشون بلغ 120 ألف.

اصابنا الذهول وبكى الكثيرون من بيننا. وقال اشخاص عديدون من بيننا: «من المفترض ان نناضل في سبيل قضايا الفقراء لكن من بين جميع الاموات هنا كم هو عدد الاغنياء؟ من هم القوميون من بينهم؟ أليسوا جميعاً فقراء؟»

وجرى اخفاء الاخبار عن هذه الوحشية الهائلة. كان القليلون من السكان الذين سُمح لهم بالخروج يحملون جوازات مرور طُبعت عليها اربعة «قواعد خاصة باللاجئين» ومن بينها «عدم نشر الاشاعات» اي لا تتكلّم. وحسب الجنرال الشيوعي سو يو استُعمل نموذج تشانغتشون القائم على تجويع المدنيين حتى الموت لاجبار الجنود المدافعين عنها على الاستسلام في «بضعة مدن» الاّ انه لم يعطِ اسماء محدّدة لاسباب يمكن تفهّمها.

كان المدنيون في المناطق الخاضعة لسيطرة الشيوعيين موضع استغلال دون رحمة. وجُند معظم الرجال الذين في سنّ العمل في الجيش الاحمر الذي تضاعف حجمه باستمرار او أُرسلوا الى الجبهة للقيام بالاعمال الصعبة والمحفوفة بالخطر، وشملت المهمة الثانية بالتحديد اعداداً كبيرة منهم. في منشوريا اخضع الشيوعيون 1.6 مليون عامل للتجنيد الاجباري اي ما يقارب اثنين لكل مقاتل. وفي الحملة التي نُفّذت في بكين وتيانجين وصل العدد الى 1.5 مليون وفي تلك التي نُفّذت في هواي هاي وصل العدد الى 5.43 مليون. قام عمّال السخرة بمهمات متعددة على الجبهة كان القوميون يستخدمون فيها الجنود العاديون، ومن بينها تفكيك التعزيزات ونقل الذخائر الحربية ونقل الجرحى.

تُركت الاعمال الزراعية بمعظمها للنساء والاولاد والرجال غير المؤهلين للقيام بالمهمات التي تتطلبها الجبهة. كما كان على هؤلاء الاهتمام بالجرحى وتصليح البزات العسكرية وصناعة الاحذية التي لا تُعدّ للجيش واعداد الطعام للجيش الضخم من الجنود والعمال. اثناء حملة هواي هاي كان على كل منزل تسليم كمية معينة من الطعام وصلت الى رقم مذهل هو 225 مليون كلغ من الحبوب وحدها. استُعمل الطعام ايضاً في حرب نفسية هدفت الى اغراء الجنود القوميين لدفعهم الى الانشقاق عن جيشهم، الى جانب استعماله في تأمين التغذية للجنود الشيوعيين.

كان القوميون دائماً يعانون من نقص في الطعام نظراً لاتكالهم بصورة خاصة على التموين الآتي عبر القطارات وخطوط التموين الجوية المتفرقة. يذكر احد المحاربين القدامى كيف ان مئات الآلاف من الرجال مكثوا في جيب واحد وهم يتضورون جوعاً ويعانون من الجليد في حرارة انخفضت الى عشر درجات تحت الصفر. كان الجنود يحاربون بعضهم ويُقتلون في بعض الاحيان من اجل الحصول على الطعام المُنزل جوياً. فيما بعد اعتُبر لحاء الشجر «وجبة

جيدة» وراح الجنود يأكلون زنانيرهم الجلدية ونعال احذيتهم. ويذكر المحارب القديم كيف صاح لدى اخراج جرذ ميت من الارض: «كم هو لذيذ! انه لحم!» في النهاية قال انه لم يعد الشيوعيون مضطرين لقصفهم: «في منطقة لا تتعدّى مساحتها الكَفَل اقتصر كل ما عليك القيام به على رمي الحجارة على 300،000 الف من الاشباح الذين يتضوّرون جوعاً ولم يعد بمقدورهم تحمّل المزيد». وانتقل الكثيرون الى صفوف الشيوعيين نتيجة لملاحقة مكبرات الصوت لهم بالنداءات التالية التي سجّلها المحارب القديم: «هاي تشيانغ كاي شيك! لدينا الفطائر المحلاّة هنا. تعالَ وتناولها». «ان لا مقدار من السياسة له الجودة نفسها التي يتمتع بها الطعام». «الجميع يعلم ان اليخنة المُعدَّة من لحم الخنزير هي افضل من نعال الاحذية».

بصرف النظر عن معاناة الفلاحين من قيام الشيوعيين بمصادرة المؤن وتجنيدهم بالقوة، فقد خسر العديد منهم منازلهم التي دُمِّرت من اجل تأمين الوقود للطهي والمواد اللازمة لبناء الجسور. وتحوّلت المناطق التي يسيطر عليها الشيوعيون الى ماكينة حرب ضخمة تشمل كل جانب من حياة كل شخص. أجبر جميع السكان على الانكباب على العمل دون اي شيء سواه ليلاً نهاراً في سبيل الحرب وغالباً في وسط المعارك. اطلق ماو تسمية «حرب الشعب» على كل هذا.

لكن الشعب لم يقدّم طوعياً هذا النوع من الدعم الذي يستنفد كل شيء، وقدّم ما أُجبر على تقديمه بحماس اقل بكثير من الحماس الذي اظهرته الاساطير الشيوعية. كان الارهاب المكثّف فقط يكرههم على تأمين الخدمات اللازمة للحرب «لوقت طويل ودون الشعور بالتعب» كما قال ماو. وجرت العملية تحت اسم مغلوط هو «الاصلاح الزراعي».

خلال الحرب على اليابان علّق الشيوعيون تطبيق سياسة مصادرة الاراضي واعادة توزيعها واستبدلوها بسياسة تخفيض رسوم الايجارات على الاراضي. وعندما بدأت الحرب ضد تشيانغ بصورة جدّية عادوا الى اسلوبهم الراديكالي القديم. لكن اعادة توزيع الاراضي لم تشكّل الجانب الرئيسي من الاصلاح الزراعي التي تبنّاها ماو. لكن الجزء الهام فعلياً هو ممارسة تدعى دو دي زو اي «الصراع ضد مالكي الاراضي» وتعني عملياً ممارسة العنف ضد الاغنياء نسبياً. كان عدد كبار مالكي الاراضي قليلاً جداً في الصين خلافاً مع روسيا ما قبل الحكم الشيوعي. عندما يتذكر الناس الاصلاحات الخاصة بالاراضي الزراعية فإن هذه الممارسة تهيمن على ذاكرتهم.

جرت ممارسة العنف على نحو نموذجي في التجمعات الشعبية التي أُجبر جميع القرويين على المشاركة فيها. وتوجّب على المُستهدفين بالعنف الوقوف امام الحشود الكبيرة وخضع الناس للتحضير النفسي وتمّ تنظيمهم كي يتقدّموا ويصبّوا شكاواهم عليهم. كما طُلب منهم المناداة بشعارات فيما يلوّحون مهددين بقبضاتهم والادوات الزراعية. من ثم يقوم القرويون

المناضلون وقطّاع الطرق السفّاحون بالحاق الاذى الجسدي بهم وهو يتراوح بين جعل الضحايا يركعون على ركبهم العارية على البلاط المكسور وتعليقهم من معاصمهم او اقدامهم او ضربهم احياناً حتى الموت وغالباً بالادوات الزراعية، كما كانوا يُخضعونهم لانواع مروعة من التعذيب.

قضت الاوامر الحزبية الى الكوادر بعدم التوقف عن ممارسة العنف إذ ان الخطة المتّبعة تقول بأن هذه الاعمال الانتقامية التي يقوم بها المضطهدون هي مشروعة. وقيل للكوادر انه يجب «ترك الناس يفعلون ما يشاؤون، ضدّ الذين ظلموهم واستغلوهم. في الواقع كان الحزب يريد التشجيع على ممارسة العنف وحيث لم يكن هناك من عنف وُجّهت التهم الى الكوادر المحلية باعاقة حركة الاصلاح الزراعي واستُبدلوا بآخرين على الفور.

وخُلق نموذج بين آذار وحزيران 1947 على يد كانغ شنغ، خبير الارهاب لدى ماو. تلقّت الكوادر الحزبية في سائر المناطق الخاضعة للشيوعيين التوجيهات بأن تحذو حذوه في تطبيق اساليبه. وتتوضّح طبيعة البرنامج مع تكليف رجل خبير في الرعب وليس في اصلاحات الاراضي الزراعية. ذهب كانغ الى قرية في شمال غرب شانكسي تدعى هاوجيابو. بعد التجمّع الشعبي الاول وبّخ كوادر المنطقة والناشطين فيها لكونهم «مفرطين في التهذيب». قال: «يجب ان تكون هناك اساءات». «علّموا الفلاحين... على التخلّي عن الرحمة... ستكون هناك وفيات. لكن يجب الاّ نخاف من الموت».

طلب كانغ من الكوادر والمناصرين معاملة عائلات بكاملها، وحتى الاطفال، بصفتهم اهدافاً لهم. وكان يقف متفرّجاً حين يقوم اولاد القرية بضرب «مالكي الاراضي الصغار» إذ كان يتم استدعاء الاولاد من عائلات غير تلك المقصودة. ويمكن ان يشمل هؤلاء ايّ كان لأن كانغ وسّع دائرة المعايير المستعملة لادانة الناس لتشمل اكثر من «مالكي الاراضي» و«المزارعين الاغنياء» وذلك من اجل خلق ضحايا حيث لا وجود لاصحاب اراضي اغنياء. ينطبق ذلك بصورة خاصة على المناطق التي خضعت للاحتلال الشيوعي منذ سنوات حيث افتقر الاغنياء نسبياً. واخترع كانغ مقياساً جديداً غامضاً قوامه «كيف تحبّهم الجماهير».وهذا يعني ان أيّ كان يمكن ان يتحوّل الى هدف، لذلك فان الذين يتعرّضون لمشاعر الغضب او الحسد من قبل القرويين المنتمين الى نفس القرية لقيامهم بأمور غير مشروعة، يصبحون من الاهداف الرئيسية.

انتشرت ممارسة الايذاء الجسدي في المناطق الخاضعة للشيوعيين. ووصفت لنا احدى المسؤولات حشداً حيث «كان اربعة اشخاص معلّقين عند معاصمهم في صفّ واحد على اربعة حبال» وكان يشاهدهم «كل رجل وامرأة ومسنّ وشاب وحتى الاولاد» في القرية.

وكانت هناك «سيدة من مالكي الاراضي» عند نهاية احدى الحبال. وقالت لنا الشاهدة: «من المؤلم جداً التفكير بالامر».

«في الحقيقة لم تكن تملك الكثير من الاراضي بل كانت بحاجة الى العمّال واستأجرت احد عمّال المزارع... سألوها اين خبّأت الحبوب... كنت اعلم انها لا تملك حبوباً. لكنهم اصرّوا على انها تملك منها وضربوها... مزقوا قميصها. سبق لها ان ولدت طفلاً منذ فترة وكان الحليب يقطر منها. كان الطفل يبكي ويزحف على الارض محاولاً ان يلحس الحليب. اخفض الناس رؤوسهم ولم يتحمّلوا رؤية هذا المشهد... اشمأز الكثيرون من ذلك كلّه ولكنهم أجبروا على المشاهدة. اذا اعترضوا كانوا معرَّضين للكارثة ايضاً. لقد كان بعض الكوادر في القرية من السفّاحين بالفعل. لم يجرؤ الفلاحون الشرفاء على الحاق الاذى بهم.

ان استعراضات ومشاهدات عامة كهذه خلقت حالة من الرعب لدى الاشخاص الذين شهدوا عليها. في مناطق عديدة أُجبر الناس حتى على مشاهدة مناظر اكثر شناعة. ففي مكانٍ ما جرى ادخال سلك في انف احد الارستقراطيين المسنّين من عائلة نيو اي، كما أُجبر ابنه على جرّه من خلال السلك في القرية، مثل الثور فيما الدم يفيض على وجهه. وفي اماكن اخرى «قُتلت عائلات بكاملها، من اصغر شخص فيها الى اكبر شخص. وانتُشل الاطفال الرُضَّع وجرى تقطيع اوصالهم او جرى رميهم في البئر». وحدثت بعض المشاهد المروّعة امام أعين ماو في مقاطعة جيازيان الواقعة في منطقة ينان حيث مكث من 16 آب الى 21 تشرين الثاني 1947 يرتاد الامكنة الجميلة الخلابة. تضمّنت التقارير المرفوعة الى ماو عن مقاطعته وصفاً عن كيفية اغراق احد الاشخاص في وعاء ضخم من المياه المالحة فيما قُتل آخر عبر سكب الزيت المغلي على رأسه. وفي احدى المناطق طُبِّقت قاعدة تقول بأن «اي شخص لا يشارك في توجيه التهم الى مالكي الاراضي سوف يُرجم حتى الموت».

رأى ماو مشاهد العنف بعينيه ويصف حرّاسه كيف انه كان يذهب متخفّياً لمشاهد الحشود في قرية يانغجياغو حيث مكث في نهاية سنة 1947 وحيث جرت امور مرعبة(*). بعد ذلك تكلّم مع الحرّاس عن مختلف انواع التعذيب وعن ضرب الاطفال ضرباً مبرّحاً.

كان الشيوعيون في بداية سنة 1948 يسيطرون على 160 مليون شخص شكّل الفلاحون غالبيتهم العظمى وتعرّض جميعهم للترهيب بطرقٍ مؤذية جداً. وصدر املاء عن الحزب يفيد

(*) الرعب والمستوى العالي من القتل سجلا فوراً في مقاطعة هبي من قبل جاك بالدين الصحفي الاميركي المتعاطف جداً مع الحمر والذي أخبر الديبلوماسي الأميركي جون ميلباي «عن الاستخدام المتزايد للرعب ضد أية معارضة وقتل العديد من الناس». قال بالدين إن الحمر «خلقوا لدى الفلاحين الرعب والخوف كما لم يشهده من قبل في المناطق الشيوعية».

بأنه يمكن اعتبار عشرة بالمئة من السكان منتمين الى عائلات «مالكي الاراضي» و«الكولاكين». ويعني ذلك انه من ضمن هذه الفئات وحدها الى جانب فئات اضافية اوجدتها المعايير الجديدة لكانغ، هناك على الاقل 16 مليون شخص عرضة للاذى الجسدي والاهانة بقدر معين. قُتل مئات الآلاف وربما مليون شخص او دُفعوا الى الانتحار.

في ينان وفي سنتي 1942 و1943، بنى ماو وسيلة فعّالة من خلال ترهيب القواعد الشعبية لسلطته، قوامها اعضاء الحزب الشيوعي. الآن راح يمارس الارهاب بحقّ قاعدته الاقتصادية وجنوده والفلاحين من اجل السيطرة التامة عليهم. كانت النتيجة ان الفلاحين ابدوا بعض المقاومة لمصادرة ماو للجنود والعمال والطعام واي شيء آخر كان يريده للوصول الى اهدافه.

اعتبر ماو عملية الترهيب هذه ضرورية لربح الحرب. لذلك بينما كان يحضّر لحملة هواي هاي الاخيرة الحاسمة، ارسل كانغ شنغ الى مقاطعة شاندونغ التي كانت ستتحمّل عبء القسم الاكبر من التجهيزات اللوجستية، من اجل تنفيذ حملة ثانية من الاصلاح الزراعي في نهاية سنة 1947 بعد ان رأى ان الحملة الاولى كانت مخيفة بما فيه الكفاية. واصدر كانغ مراسيم للتعذيب العلني الشنيع والاعدامات على نطاق واسع لدرجة ان منظمة الحزب في شاندونغ ثارت في وجهه، فتعرّضت لعملية تطهير جماعي. ويمكن استنتاج المدى الذي بلغه العنف مما حصل في بلدة صغيرة حيث العلاقات السائدة بين الناس كانت جيدة الى حينه وحيث ضُرب 120 شخصاً فيها حتى القتل وأُشير الى بعضهم بالمتعاطفين مع مالكي الاراضي. كان من بينهم صبيّان في عمر السبع السنوات قُتلا على يد اطفال ينتمون الى فيلق الاطفال. وكان هذا الرعب المعمّم في شاندونغ هو الذي اسّس لانتصار هواي هاي.

كان الاشخاص الذين نفّذوا سياسة ماو المتعلّقة بالاصلاح الزراعي من الكوادر الحزبية الذين تعرّضوا بدورهم للترهيب والوحشية خلال العملية. وشكّل ذلك جزءاً من مخطط ماو. أُرسل معظم اعضاء الحزب الجدد الى القرى كي «يتعلّموا» الاساليب التي تُنفّذ فيها الاصلاحات. واصرّ على التدرّب على الصلابة ابن ماو آن ينغ البالغ 25 سنة والذي وضعه والده تحت وصاية كانغ خلال سنتي 1947 و1948 فيما كان متنكّراً باسم ابن شقيقة السيدة كانغ. بعد اقل من عشرة ايام على وصول آن ينغ الى المقر العام لكانغ كان يعاني من العذاب. وقع تحت وابل من الانتقادات وجعلوه يشعر بأن لافكاره «رائحة الجناح اليميني». لم يستطع النوم خلال الليل وعاش في حالة دائمة من الانتقاد الذاتي العائد الى «مشاعره البورجوازية». وكتب في يومياته: «لم أنزل بعد الى مستوى البروليتاريا» ويبقى دفتره هذا سرّياً الى يومنا هذا. «انا فاسد الطبع». واحسّ بأن «الالم الشديد يملأه لدرجة انه بكى».

أُصيب آن ينغ بالصدمة حيال ممارسة الوحشية الجماعية والعلنية التي لم يختبرها في روسيا

الخاضعة لحكم ستالين. وهذا تحديداً ما كان والده يريده ان يعتاد عليه كما وان يتعوّد على التحريض من خلال وجوده مع كانغ. بعد شهرين على وجوده بصحبة كانغ كتب رسالة الى والده استعمل فيها الفاظاً خاصة بالشيوعية، وجاء فيها ان «موقفه البروليتاري هو اكثر صلابة الآن». لكنه احتفظ بشعور الكراهية النابع بقوة من ملاحظات دوّنها عن حشود جماهيرية وصفها له اشخاص آخرين. في احدى الحالات تمّ سوق عشرة آلاف فلاح الى تجمعات استمرت تقريباً حوالى الاسبوع. وكتب آن ينغ: «كان الطقس بارداً جداً في ذلك النهار. كان الجميع يقولون: «كم هو بارد! على الارجح هناك بعض الذين تجمّدوا من شدة الصقيع وماتوا اليوم. ماذا فعلنا لنستحقّ هذا!»! أظهر نفوراً كبيراً من التجمعات نفسها: «بعد التمارين الدقيقة التي قام بها في اليوم الخامس بدأ توجيه الاتهامات... طُلب من الجماهير جميعها ان ترفع اسلحتها عندما أعطي السيف وان تصرخ: «اقتل، اقتل، اقتل»... كان الموقع الذي تجمّعت فيه الحشود في حالة من الفوضى العارمة وانتهى التجمّع بضرب ثمانية اشخاص حتى الموت». وسجّل آن ينغ ايضاً ان الحزب كان يعتمد غالباً على اسوأ الاشخاص لتطبيق الاصلاح الزراعي: «ان بعض الناشطين الذين تمّت ترقيتهم هم من السفّاحين ومن الحثالة، اضافة الى كونهم من الجنود الخاضعين لليابان والتابعين المتزلّفين». ويشكّل هؤلاء الاشخاص نسبة كبيرة من المتطوعين الجدد في الحزب في المناطق الريفية.

وكما هو الحال مع آن ينغ فان العديد من اعضاء الحزب انضموا الى صفوفه خلال الحرب بين الصين واليابان وكانت لديهم نزعة مثالية. اصابهم النفور بسبب الفظاعات المرتكبة ورفع بعضهم عريضة الى الحزب بهذا الخصوص. وخشي بعض القادة الكبار بأن يحرم هذا المستوى من العنف الحزب من فرصته للاستيلاء على السلطة. ليس ماو قلقاً بل كان يعلم ان سلطته ليست متعلّقة بشعبيته وكما فعل في ينان، ترك الرعب يغوص عميقاً في قلب كل شخص، قبل ان يدعو الى وقف هذه الاعمال. حدث ذلك في بداية 1948 عندما وزّع تقارير تنتقد الوحشية التي ادّعى بأنه سمع بها للمرة الاولى.

بعد حملة الرعب في ينان قدّم بعض الاعتذارات التبريرية لتهدئة الكوادر الحزبية. والآن اختار كبش محرقة للعنف والاعمال المرتكبة. في 6 آذار كتب الى الشخص الثاني في الحزب ليو شاو كي رسالة يعلمه فيها انه يجب عليه ان يكون كبش محرقة: «اشعر بأن العديد من الاخطاء المرتكبة في جميع المناطق هي بصورة اساسية... عائدة الى هيئة القيادة... فلم تحدّد ما هو مسموح وما هو غير مسموح... الرجاء ان تُجروا تقييماً ذاتياً لاعمالكم». في البداية ابدى ليو مقاومة لكنه استسلم فيما بعد، وقال الى الكوادر العليا: «يجب القاء اللوم عليّ في معظم الاخطاء» «لم يتمّ تصحيحها من قبل الى ان قام الرئيس ماو بتوجيه انتقادات منظّمة». ومنذ

ذلك الحين اصبح ليو وليس ماو موضع اللوم من قبل مسؤولي الحزب بشأن ممارسة العنف في تطبيق الاصلاح الزراعي. كان على المرء تحمّل القاء اللوم عليه نيابة عن ماو إذا ما اراد صعود السلّم في ظل حكمه.

أبقيت مسألة الاقرار بـ«الاخطاء» محصورة بإحكام داخل الحزب. لم يكن الجمهور يعلم شيئاً عنها نظراً لبقاء الحزب منظمة سرّية، كما لم يُقدَّم اي اعتذار علني للناس. اعتبر ماو انه غير مضطر لارضاء عامة الناس لانه لا يشكلون اهمية بالنسبة اليه، وانطبق هذا الاعتبار على كل من المناطق الخاضعة للشيوعيين وتلك الخاضعة للقوميين.

رغم ان الناس في المناطق التي يسيطر عليها الغربيون، توفّر لديهم الكثير من المعلومات عن الوحشية السائدة اثناء تطبيق الاصلاح الزراعي، ليس اقلّه من خلال مئات الآلاف من الهاربين، فهم غالباً ما عزوها الى مبالغات الذين تعرّضوا للظلم. على اية حال لم يكونوا قادرين على القيام باي شيء لوقف تقدّم ماو وبما انهم لا يكنّون الودّ للنظام القائم فقد لجأوا لتبرئة ماو لفقدان الادلة الكافية.

شهد الكابتن هسو تشن القومي على بعض اعمال الترهيب التي خلقت لديه مشاعر معادية للشيوعية بقوة. في بداية سنة 1948 ولدى عودته في احد الايام الى المنزل في نينغبو بالقرب من شانغهاي وجد ان الناس غير مستعدين لسماعه واعتبروه مزعجاً وقال تعليقاً على ذلك:

«اتى العديد من الاقارب والاصدقاء لرؤيتي... تكلّمت مع كل زائر الى ان جفّ لساني وتشقّقت شفتاي... اخبرتهم عن الاعمال الوحشية التي لا تعرف الرحمة والتي يرتكبها اللصوص الشيوعيون... لكني لم استطع ايقاظهم من احلامهم بل على العكس من ذلك فقد أثرت بغضهم الشديد... وجدت ان معظمهم يفكر بالطريقة التالية:

«ان هذا الكلام هو عبارة عن دعاية قومية. كيف يمكن تصديقه كلّه؟».

«في حرب قاسية كهذه هناك فقط طرق انتقالية...».

«لقد اختبرنا الاحتلال الياباني وبقينا على قيد الحياة. لا يمكنك القول ان الشيوعيين هم اسوأ من اليابانيين».

«يمكن القول ان هذه الآراء تمثّل طريقة التفكير لدى الطبقات الاجتماعية الوسطى والدنيا... يجب على الناس ان يتعلّموا من اخطائهم دائماً...».

كان الناس في حال من الرفض كما كانوا عاجزين في وجه القوة الماحقة التي يتمتّع بها ماو. وتعزّز هذا الاستسلام للقدر بفضل خيبة الامل التي لقيها هؤلاء على يد القوميين الذين بدورهم ارتكبوا الفظاعات في اغلب الاحيان ضد جماعات يراها سكان المدن بسهولة وفي محيط منفتح بالمقارنة مع الجو السائد في ظل حكم ماو. اضف الى ذلك ان البيئة القومية تميّزت

بوجود رأي عام وصحافة حرّة وقدرة الناس على التكلّم والثرثرة والتذمّر. قام القوميون بتوقيفات علنية شملت اعداداً كبيرة من التلامذة والمثقفين وخضع الكثيرون من بينهم الى التعذيب كما قُتل البعض الآخر. في نيسان 1948 كتب احد التلامذة القوميين رسالة الى الزعيم المفكّر هو شي المؤيد لتشيانغ جاء فيها: «يجب الاّ تكون الحكومة غبية الى هذا الحدّ فتعامل كل التلامذة جميعاً على انهم شيوعيون». بعد اربعة اشهر وجّه اليه رسالة اخرى: «الآن هم عرضة للمذابح باعداد كبيرة». رغم ان المجازر التي ارتكبها القوميون كانت بمثابة النقطة في محيط بالمقارنة مع تلك التي ارتكبها ماو، فقد اثارت مشاعر غضب قوية وحتى اعتقد البعض ان الشيوعيين هم اهون الشرّين.

لكن رغم الكره الذي يكنّه الناس للقوميين فقد اعتنق الشيوعية فقط عدد صغير من الراديكاليين. في اواخر كانون الثاني 1949 وعندما بدا بوضوح ان الشيوعيين على وشك تحقيق النصر الكامل قال ماو لمبعوث ستالين اناستاس ميكويان انه حتى في اوساط العمال في شانغهاي الذين يُفترض ان يشكّلوا جمهور المقوّمات الاساسية للشيوعيين، كان حضور القوميون اقوى بكثير من الحضور الشيوعي. وحتى في النهاية، في كانتون، مرتع الراديكاليين في العشرينات، اشار القنصل الروسي الى انه لم يكن هناك «عملياً حركة سرّية للشيوعيين... لذلك لم يخرج الناس للترحيب بوصول» الجيش الشيوعي.

في الصين الوسطى، قال لين بياو للروس في كانون الثاني 1950: «إن السكان لا يظهرون فرحاً كبيراً إزاء تغيير السلطة». لم يحصل أي تمرد، مدنياً كان أو قروياً، لمصلحة الحزب الشيوعي الصيني في الصين بكاملها، خلافاً لروسيا والفيتنام وكوبا خلال ثوراتها. حصلت انسحابات من الجيوش القومية (لدى المواجهة على أرض المعركة)، لكن هذه الانسحابات لم تحصل بتمرد القواعد بل كبار الضباط و«الجواسيس» المنظمين مسبقاً في غالبيتهم، الذين حملوا قواعدهم معهم.

في 20 نيسان 1949 بدأ جيش شيوعي قوامه 1,2 مليون جندي بالانتشار عبر يانغتزي. في الثالث والعشرين من الشهر، احتل الجيش عاصمة يانغتسي، نانديغ، منهياً عملياً 22 سنة من السيطرة القومية على البر الصيني. في ذلك اليوم سافر تشيانغ الى بيت أجداده في كزيكو، وإذ أدرك أن هذه الزيارة ستكون الأخيرة على الأرجح، أمضى معظم وقته الى جانب قبر أمه يصلي والدموع في عينيه. (بعد ذلك، سرعان ما أصدر ماو المنتصر أمراً بحماية القبر ومنزل عائلة تشيانغ ومعبد عشيرته). ثم قامت سفينة بإبعاد تشيانغ عن شانغهاي، فعبر فعلياً في اتجاه جزيرة تايوان.

بعد أشهر قليلة، طلب ماو من ستالين تزويده بطائرات وغواصات مرفقة بطواقمها

السوفياتية للمساعدة في الاستيلاء على تايوان عام 1950 أو «حتى قبل هذا التاريخ»، قائلاً لستالين إن الحزب الشيوعي الصيني يملك عدداً كبيراً من الجواسيس المندسين بشكل جيد والذين «هربوا» الى هناك مع تشيانغ. ولكن رغم ذلك، لم يكن ستالين مستعداً للمخاطرة بمواجهة مباشرة مع أميركا في منطقة مكشوفة الى هذا الحد وخاضعة لهذا الكم من الضغط، فكان على ماو أن يحمي خطته، فسمح لتشيانغ بتحويل جزيرة تايوان الى حصن حصين(*).

وبالرغم من كراهية تشيانغ للشيوعيين، لم يتبع سياسة الأرض المحروقة عندما طار الى هناك. فنقل معظم سلاح الجو المدني الصيني والعديد من الكنوز الفنية لكنه اكتفى بمحاولة نقل عدد صغير من المصانع، وبشكل أساسي المنشآت الالكترونية الى تايوان. لكن هذه المحاولة واجهت تصدي مسؤول قومي كبير ها، وبقيت معظم التجهيزات الصناعية الهامة وسيطر عليها الشيوعيون، بما فيها 68 مصنعاً للأسلحة. إن الضرر الذي ألحقه تشيانغ على الصعيد الصناعي في البر الصيني بكامله، كان أقل بكثير مما فعله الروس في منشوريا. لم يرث ماو أرضاً مقفرة عام 1949 بل حظي في الواقع بهيكلية صناعية بحالة جيدة نسبياً وإن كانت صغيرة، لا تقل عن 1000 مصنع ومنجم إضافة الى دولة تعمل. لم يكن تشيانغ قاسياً بقساوة ماو. فكما لاحظ أحد نقاد النظامين، إن «السيد تشيانغ العجوز لم يكن مثل السيد ماو العجوز. ولهذا السبب ربما هزم تشيانغ على يد ماو».

في ذلك الصيف، ذهب ماو الى حدود بكين عبر براعم الإجاص في زبايبو، حيث مكث خلال السنة السابقة. كانت بكين عاصمة الصين طوال سلالات متعاقبة منذ القرن الثاني عشر، فقرر أن يجعلها عاصمة له. في قلب المدينة مجمع امبراطوري ضخم يدعى زونغنانهاي حيث البحيرة الوسطى الجنوبية، وشلالات المياه والفيلات والقصور؛ أصبح هذا المجمع مقره الرئيسي ومكان عمله ومركز استراحة القادة وما يعادل الكرملين، والمكان الذي يتصل الروس فيه بماو أحياناً.

وفيما يتم إعداد زونغنانهاي، مكث ماو عدة أشهر في موقع جميل على الحدود الغربية التي تدعى فراغرانت هيلز. طرد السكان من المنطقة وحوصر الجبل بكامله حماية للقادة من قبل الحرس البرايتوري وحوالى 6000 موظف. وحفاظاً على السرية، علقت لافتة عند المدخل

(*) لكن ستالين استجاب بحماس لطلب ماو المساعدة على السيطرة على الصحارى الواسعة والبعيدة الواقعة في الشمال الغربي والقضاء على قوة مسلحة مسلمة معادية للشيوعية هناك. لا مشكلة، أجاب ستالين يمكن «القضاء» على الخيالة المسلمين «بسهولة بواسطة المدفعية. وإذا شئتم يمكن ان نعطيكم 40 طائرة مقاتلة بامكانها إخراج... الخيالة بسرعة كبيرة». وقال لنا دبلوماسي روسي رفيع بواسطة حركات إيمائية متنوعة ان هذا ما قام به فعلاً طيران ستالين الحربي، بعيداً عن الأعين، في سهوب غوبي الواسعة.

كتب عليها «جامعة اليد العاملة» لكن العديد من الشبان الذين أرادوا التسجيل استنتجوا أن شارة أخرى كان من المفروض أن توضع وعليها: جامعة اليد العاملة غير جاهزة بعد؛ راجعوا الصحف لمعرفة تواريخ التسجيل.

انتقل ماو الى زونغنانهاي في شهر أيلول. هناك، وفي أي مكان آخر يمكن أن تطأه قدمه، كانت الأرض مليئة بمنقبي المناجم الروس والجنود الصينيين يسيرون جنباً الى جنب كمنقبي ألغام بشرية. كما وضع جهاز أمن مدهش ولكن متواضع، والكلمة المفتاح فيه هي «واي سونغ ناي جين» أي «متهاون ظاهراً ومحكم باطناً»(*). كان الجهاز فعالاً جداً لدرجة أن المترجم الرسمي لستالين، بخبرته الأمنية الواسعة، عجز عن رصده.

ومع كل الأمن المحكم حول ماو، وعشية افتتاح تتويجه قائداً مطلقاً للصين، اعترى الخوف الشديد خبايا عقله. إن صديقة قديمة تدعى السيدة لو فو وصفت زيارة له والسيدة ماو في ذلك الوقت. كانت معنويات ماو عالية...عندما سألت عن صحته قالت جيانغ كينغ إنه بصحة جيدة عدا انه يرتعد عندما يرى غرباء. لم أفهم في البداية وقلت: لكنه يبدو على ما يرام اليوم! فقال الرئيس ماو ضاحكاً: «أنت صديقة قديمة ولست غريبة». ويبدو أن ماو أدرك جيداً أن إرهابه لم يُنتج فقط حالة من التجانس الجماعي، بل أن البعض سيكونون قتلة.

في تشرين الأول 1949، ظهر ماو واقفاً على بوابة تيان ان مين، على مرمى حجر من زونغنانهاي أمام المدينة المحرمة، وأعلن قيام جمهورية الصين الشعبية. كان هذا أول ظهور علني له أمام حشد كبير من مئات الآلاف. كان الحشد منظماً بشكل جيد وبعيداً عن البوابة العالية فوقه. ومنذ ذلك الحين بات ماو يصعد البوابة في المناسبات الخاصة، وهي ممارسة نقلها عن القادة السوفيات الذين يقفون فوق قبر لينين في الساحة الحمراء التي كانت أقل علواً واتساعاً. في هذه المناسبة أدلى ماو بخطابه الوحيد من أمام البوابة طوال فترة حكمه الذي دام 27 عاماً. (في مناسبات أخرى، ولدى ظهوره هناك، كان يكتفي بإلقاء شعار أو اثنين على الأكثر). كان يفتح صدره عند كل جملة كالمتحدث الغاضب أكثر منه الخطيب المحنك. أكثر من ذلك، كان المضمون عادياً بشكل مذهل وبالأحرى أشبه بلائحة مواعيد. وأقوى ما يبدو فيه هو ما يفعله ماو وليس ما يقوله. لم يشر ماو الى أي برنامج يستفيد منه «الشعب» الذي تأسس النظام على اسمه.

كان الحشد الذي فاق الـ100 ألف نسمة يصرخ «العمر الطويل للرئيس ماو!» بدا ماو

(*) خدع هذا النظام الامني الاجانب وقادهم إلى الظن ان الأمن مسترخ: مما جعل العديدين يستنتجون ان النظام شعبي ولا يحتاج إلى الكثير من الحماية. ومن المؤشرات الكثيرة على هذا الأمر ما كتبه صحافي فرنسي راقب شوإن لاي يجتاز ساحة تيان آن مين مع رئيس وزراء الهند البانديت نهرو في تشرين الاول 1954: «التخطيط لاغتيال شوإن لاي يمكن ان يكون لعبة اطفال».

كتب عليها «جامعة اليد العاملة» لكن العديد من الشبان الذين أرادوا التسجيل استنتجوا أن شارة أخرى كان من المفروض أن توضع وعليها: جامعة اليد العاملة غير جاهزة بعد؛ راجعوا الصحف لمعرفة تواريخ التسجيل.

انتقل ماو الى زونغنانهاي في شهر أيلول. هناك، وفي أي مكان آخر يمكن أن تطأه قدمه، كانت الأرض مليئة بمنقبي المناجم الروس والجنود الصينيين يسيرون جنباً الى جنب كمنقبي ألغام بشرية. كما وضع جهاز أمن مدهش ولكن متواضع، والكلمة المفتاح فيه هي «واي سونغ ناي جين» أي «متهاون ظاهراً ومحكم باطناً»(*). كان الجهاز فعالاً جداً لدرجة أن المترجم الرسمي لستالين، بخبرته الأمنية الواسعة، عجز عن رصده.

ومع كل الأمن المحكم حول ماو، وعشية افتتاح تتويجه قائداً مطلقاً للصين، اعترى الخوف الشديد خبايا عقله. إن صديقة قديمة تدعى السيدة لو فو وصفت زيارة له والسيدة ماو في ذلك الوقت. كانت معنويات ماو عالية...عندما سألت عن صحته قالت جيانغ كينغ إنه بصحة جيدة عدا انه يرتعد عندما يرى غرباء. لم أفهم في البداية وقلت: لكنه يبدو على ما يرام اليوم! فقال الرئيس ماو ضاحكاً: «أنت صديقة قديمة ولست غريبة». ويبدو أن ماو أدرك جيداً أن إرهابه لم يُنتج فقط حالة من التجانس الجماعي، بل أن البعض سيكونون قتلة.

في تشرين الأول 1949، ظهر ماو واقفاً على بوابة تيان ان مين، على مرمى حجر من زونغنانهاي أمام المدينة المحرمة، وأعلن قيام جمهورية الصين الشعبية. كان هذا أول ظهور علني له أمام حشد كبير من مئات الآلاف. كان الحشد منظماً بشكل جيد وبعيداً عن البوابة العالية فوقه. ومنذ ذلك الحين بات ماو يصعد البوابة في المناسبات الخاصة، وهي ممارسة نقلها عن القادة السوفيات الذين يقفون فوق قبر لينين في الساحة الحمراء التي كانت أقل علواً واتساعاً. في هذه المناسبة أدلى ماو بخطابه الوحيد من أمام البوابة طوال فترة حكمه الذي دام 27 عاماً. (في مناسبات أخرى، ولدى ظهوره هناك، كان يكتفي بإلقاء شعار أو اثنين على الأكثر). كان يفتح صدره عند كل جملة كالمتحدث الغاضب أكثر منه الخطيب المحنك. أكثر من ذلك، كان المضمون عادياً بشكل مذهل وبالأحرى أشبه بلائحة مواعيد. وأقوى ما يبدو فيه هو ما يفعله ماو وليس ما يقوله. لم يشر ماو الى أي برنامج يستفيد منه «الشعب» الذي تأسس النظام على اسمه.

كان الحشد الذي فاق الـ100 ألف نسمة يصرخ «العمر الطويل للرئيس ماو!» بدا ماو

(*) خدع هذا النظام الامني الاجانب وقادهم إلى الظن ان الأمن مسترخ: مما جعل العديدين يستنتجون ان النظام شعبي ولا يحتاج إلى الكثير من الحماية. ومن المؤشرات الكثيرة على هذا الأمر ما كتبه صحافي فرنسي راقب شوإن لاي يجتاز ساحة تيان آن مين مع رئيس وزراء الهند البانديت نهرو في تشرين الاول 1954: «التخطيط لاغتيال شوإن لاي يمكن ان يكون لعبة اطفال».

مغتبطاً ومترنحاً وهو يسير من أحد أطراف البوابة الرائعة الى الطرف الآخر، وكان يصرخ من وقت الى آخر عبر المذياع: «العمر الطويل للشعب!» في ذلك اليوم، أقام نفسه حاكماً مطلقاً لـ550 مليون نسمة.

31- الدولة التوتاليتارية ونمط الحياة المترف
(1949-1953، العمر 55-59 سنة)

حصل الانتقال من النظام القومي الى النظام الشيوعي بدون انقطاع كبير. استحوذ الجيش الشيوعي المتقدم على كل المؤسسات المدنية وأطّر المتعلمين من شبان وشابات لتوظيفهم لديه الى جانب كوادر الحزب الموسميين. وسرعان ما أحكمت هذه الآلة السيطرة على البلد.

إن عدداً من الإداريين القدامى بقوا خاضعين لأرباب الحزب الجدد طوال الفترة التي استغرقتها عودة الاقتصاد الى دورته السابقة. وقيل لرجال الأعمال إن ممتلكاتهم لن تُمس مدة طويلة، وأن عليهم الحفاظ على حركة مصانعهم وفتح مخازنهم. لم تؤمم الصناعة والتجارة لسنوات عديدة ولم يحصل التجميع الزراعي حتى أواسط الخمسينيات.

ومع ذلك، خضع بعض القطاعات لتغييرات فورية وجذرية. إحداها كانت القانون بحيث استبدلت المحاكم بلجان الحزب. وطال التغيير الآخر وسائل الإعلام التي فرضت عليها فوراً رقابة شديدة، فطُبع الرأي العام بذلك وقام ماو تدريجياً بابتلاع ما تبقى من المجتمع.

حظي ماو بفريق قدير يرأسه الرجل الثاني ليو شاو كي الى جانب تشو إن لاي الرجل الثالث ورئيس الوزراء. في حزيران 1949 أرسل ماو ليو الى روسيا للتعرف على النموذج السوفياتي بالتفصيل. بقي ليو هناك حوالى شهرين وقابل ستالين 6 مرات، كما لم يسبق لذلك مثيل. فعقد اجتماعات مع عدد من الوزراء والمدراء السوفيات وزار الكثير من المؤسسات. كما عُين مئات من المستشارين السوفيات في الصين وعاد بعضهم مع ليو على متن قطاره. فبنيت دولة ستالينية حتى قبل استلام ماو السلطة رسمياً.

لجأ النظام الجديد الى المقاومة المسلحة في الأرياف وتعامل معها بدون رحمة. وما إن ساد الأمن في الدولة، حتى بدأ ماو سياسة ترهيب منظمة للشعب، لنشر التجانس والطاعة. وكانت الوسائل التي لجأ اليها فريدة من نوعها وخاصة بالماوية.

كان ماو مناهضاً شديداً للقانون، وقد حُرم أتباعه كلياً من الحماية القانونية. كما وصف نفسه لإدغار سنو عام 1970 بأنه «رجل بلا قانون ولا حدود» (الأمر الذي أسيئت ترجمته بالقول إنه «راهب متوحد»). وبدلاً من القوانين، أصدر النظام مراسيم وقرارات وافتتاحيات صحفية. وترافقت هذه مع «حملات» قادها نظام الحزب. كان القانون واجهة من كرتون،

الأمر الذي سمح رسمياً «بحق المراجعة» لكن ممارسة هذا الحق اعتبر إهانة، «مطالبة بمزيد من العقوبة»، كما وصف أحد السجناء السابقين، مما قد يؤدي الى مضاعفة الحكم المطلق لمجرد التجرؤ على الشك بحكمة «الشعب».

في تشرين الأول 1950، أطلق ماو «حملة على صعيد الأمة لقمع مناهضي الثورة» وكرّس طاقة كبيرة لتحقيق ذلك، كأول هجوم ضخم له منذ أن استولى على السلطة، فأمر رئيس شرطته «بإرسال التقارير إلي مباشرة». وكانت الأهداف صوب ما بقي من النظام القومي السابق. فخضعت لتصنيف عام «الأعداء الطبقيون» قسمت الى فئات «كالعصابات»، التي تضم كل من تورط في المقاومة المسلحة: هذه وحدها ضمت ملايين عدة من الناس. وثمة مجموعة أخرى هي «الجواسيس»، التي لا تعني الأشخاص الذين يتجسسون حالياً بل كل من عمل في الاستخبارات القومية. كما وقع القادة القوميون الريفيون ضحية جماعية رغم خضوع كبارهم للحماية، كطُعم لجذب الآخرين الى العودة من الخارج. فقد قال ماو: «لن نقتل أياً من كبار أتباع تشيانغ كاي شيك. سنقتل صغار أتباع تشيانغ كاي شيك».

تابع ماو إصدار الأوامر، الواحد تلو الآخر، موبخاً كوادر الأقاليم على تساهلهم، وحثهم على مزيد من «الاعتقالات الجماعية والقتل الجماعي». في 23 كانون الثاني 1951 مثلاً، انتقد أحد الأقاليم لكونه «متهاوناً جداً ولم يقتل (بشكل كاف)»؛ وعندما رفع الإقليم نسبة الإعدامات، قال ماو إن هذا «التحسن» جعله يشعر «بفرح كبير».

إن هذه الحملة على صعيد الأمة، والتي استمرت سنة، تزامنت مع الإصلاح الزراعي في المناطق المحتلة حديثاً، حيث يعيش حوالى ثلثا شعب الصين. فمات ما يقارب الـ3 ملايين إما بسبب الإعدام أو العنف الجماعي أو الانتحار(*). أراد ماو أن يكون للقتل أثره الأمضى، ما يعني أن يحصل ذلك علناً. في 30 آذار 1951، أصدر التعليمات: «في أماكن عديدة...لا تتجرأوا على قتل اعداء الثورة على نطاق واسع أمام جمهور كبير. يجب أن يتغير هذا الوضع». في بكين وحدها، جمعت الحشود لإصدار أحكام على 30 ألف شخص وإعدامهم، في حضور حوالى 3,4 مليون شخص. إحدى الشابات النصف صينيات من بريطانيا، شهدت احدى هذه التجمعات الحاشدة في وسط بكين، عندما سار موكب يضم 200 شخصاً أُطلق الرصاص بعد ذلك على رؤوسهم فتناثرت أدمغتهم أشلاءاً. حتى الذين نجحوا في الفرار من الحشود، لم يستطعوا دوماً تحاشي رؤية الأمور المرعبة، كالشاحنات التي تنقل الجثث عبر الشوارع وتسيل

(*) اعلن ماو ان عدد الذين أعدموا بلغ الـ 700,000، لكن هذا الرقم لا يضم الذين ضربوا او عذبوا حتى الموت خلال الاصلاح الزراعي ما بعد 1949 وهو رقم يوازي، في اقل تعديل الرقم السابق. وكان ثمة عمليات انتحار عديدة يمكن، انطلاقاً من تحديات محلية عدة، اعتبارها مساوية في العدد للذين أعدموا.

منها الدماء.

توقع ماو من كل الشعب، صغاراً وكباراً، أن يشهدوا للعنف والقتل. كان هدفه إخافة الشعب بأسره وتعنيفه بطريقة تفوق كثيراً ما ذهب اليه ستالين أو هتلر، اللذين أبقوا جرائمهم الجماعية بعيدة عن مرأى الجماهير.

كثيرون آخرون كانوا سيموتون لولا قيمتهم كيد عاملة مرتزقة. قال ماو الكثير في أمر واحد أصدره: بعض الناس «ارتكبوا جرائم تستحق العقاب بالموت»، لكن يجب ألا يقتلوا ويعود ذلك جزئياً لأننا «سنخسر قوة عاملة كبيرة». وهكذا وُزِّع ملايين على معسكرات عمل. ونزولاً عند نصيحة خبراء روس في مسائل الترحيل وإدارة المعسكرات، نشر ماو واسعاً من المعسكرات، كانت تسميتها الرسمية (لاو-غاي): «الإصلاح بواسطة العمل». فأن يُرسل أحد الى (لاو غاي) يعني الحكم عليه بالعمل المضني للظهر في معظم الأراضي الصحراوية القاسية وداخل أكثر المناجم المسببة للأمراض، الى جانب سوء المعاملة والتعسف المستمرين. وفي أماكن خفية وبعيدة عن هذه المعسكرات، كان الأضعف جسدياً والأقوى روحياً يُدفعون الى العمل بقسوة حتى الموت. أُعدم الكثير من السكان فيما انتحر آخرون بشتى الوسائل، كالقفز في قاطعة القمح. بشكل عام، وخلال فترة حكم ماو، وصل عدد الذين ماتوا في السجون ومعسكرات العمل الى حوالى 27 مليون نسمة(*).

الى جانب الإعدام والموت في السجون والمعسكرات، ثمة طريقة نموذجية للعقاب، خاصة بماو، وهي التي فرضت على عشرات الملايين من الناس خلال حكمه. أطلق عليها اسم «تحت المراقبة» فيما الضحية ما تزال في المجتمع. يعني ذلك «العمل خارجاً» والبقاء على نصل الكلمة الحادة، وكان أحد المشتبهين العاديين يحاصر ويعذب حياً بأية وسيلة من وسائل القمع الجديدة. ويعني ذلك أن عائلة الشخص بكاملها تعيش كما يعيش المرذولون. والإشارة الحمراء العالية ليراها الجميع بشكل جيد، كانت بمثابة تحذير لعامة الشعب بعدم تجاوز النظام.

ساد الرعب وحقق مبتغاه. ففي تقرير الى ماو في 9 شباط 1951 وبعد أشهر قليلة فقط على الحملة، قيل إنه بعد هذه الدفعة الأولى من القتل، «همدت الشائعات القروية وساد النظام الاجتماعي». وما أسمته الدولة «شائعات» كان في أغلب الأحيان الطريقة الوحيدة التي يعبر فيها الناس عن مشاعرهم الحقيقية. في حالة واحدة، نشر إنذار بدا غريباً ليس فقط من قرية الى أخرى بل من إقليم الى آخر: «يرسل الرئيس ماو الناس الى القرى لقطع رؤوس (الرجال)

(*) حسب التقديرات العامة عن سجون الصين ومعسكرات العمل فيها بلغ الرقم السنوي لأي عام من أعوام حقبة ماو العشرة ملايين سجينا ومعتقلا. وما ذكر من وصف للمعسكرات عبر الذين حلوا فيها يشير إلى مستويات وفاة تبلغ الـ10 في المئة سنوياً.

وإعطائها للاتحاد السوفياتي لصنع القنابل الذرية». (باللغة الصينية، «رؤوس» و«قنابل» تلفظان بالطريقة نفسها: دان) في بعض الأماكن، عندما يأتي من يبدو وكأنه جابي الضرائب، يسود الصمت: «قطّاع الرؤوس هنا!»، ويفر كل سكان القرية للاختباء. يعكس ذلك حقيقة أن ماو كان يفرض أصلاً على السكان رسماً ضريبياً باهظاً على الطعام، وافترض بعضهم بوضوح أن الطعام كان يُرسل الى روسيا.

هذه الحملة ضيقت الخناق مجدداً على أي تعبير مماثل عن المخالفة، ولكن بعض التصدعات بقيت تجتاح النظام في هذه السنوات الأولى. في بعض الأحيان يبقى الضحايا مختبئين. فقد نجحت إحدى مالكات الأراضي من مقاطعة أنهوي في الفرار مع ابنها مدة 636 يوماً بدون أي خبر عنهما حتى من قبل الذين أرسلوا للقبض عليهم. ويذكر الابن عندما عاد الهاربون فعلياً الى قريتهم، كيف «ذرف معظم الناس وبخاصة النساء...دموع الشفقة»، وعندما انتهت الحملة آنذاك استمروا على قيد الحياة.

لكن الرقابة أصبحت تدريجياً أكثر تشدداً، فغابت معها الحرية على كافة الأصعدة: في الخطاب والحركة والعمل والمعلومات. كما أقيم نظام حراسات على صعيد الأمة أطلق عليها اسم لجان حفظ النظام في كل مصنع وقرية وشارع يتواجد فيه أفراد من عامة الشعب، وغالباً ما كانت الهيئات العاملة الأكثر ضجيجاً وحركة هي التي تواطأت مع سياسة القمع التي ينتهجها النظام. راقبت هذه اللجان الجميع وليس فقط المشتبهين السياسيين والمجرمين الصغار. وفوق كل ذلك، ألزم النظام كل شخص في الصين بوظيفة ومكان إقامة محددين لا يتغيران من خلال نظام تسجيل بدأ في تموز 1951 وسرعان ما أصبح قبضة حديدية.

كذلك لجأت الحكومة الى حملة «قمع المناهضين للثورة» لمواجهة شتى أشكال المقاومة غير السياسية كاللصوصية العادية والسرقة والقتل والنهب والمقامرة والمتاجرة بالمخدرات والعهر (وقد تم الترتيب بأن تقوم العاهرات «المحررات» بعمل يدوي). وبفضل تنظيم لافت وانعدام الرحمة كانت هذه الأعمال ناجحة جداً. مع نهاية عام 1952 زالت المتاجرة بالمخدرات وكذلك بيوت الدعارة.

كان ماو يقول باستمرار ان عمليات القتل هذه «ضرورية جداً»، مردداً: «فقط عندما يحصل ذلك بشكل جيد، يمكن حماية سلطتنا».

فيما أعدِم الكثير من الصينيين، عُرف أن اثنين فقط من الأجانب عانوا هذا المصير: أحدهما إيطالي يدعى أنطونيو ريفا والآخر ياباني يدعى ريوتشي ياماغوتشي. لم تكن التهمة خفيفة: التخطيط لقتل ماو بقنبلة في أثناء وقوفه أمام بوابة تيان ان مين في 1 تشرين الأول 1950، في اليوم الوطني. اعتقل الرجلان قبل أيام من ذلك ومعهما العديد من الأجانب الآخرين. بعد

عشرة أشهر، في 17 آب 1951، اقتيد الرجلان الى وسط بكين ووقفا وهما يرتديان الجينز ثم رميا بالرصاص علناً قرب جسر السماء. انتشر الخبر في صحيفة People's Daily بيبولز دايلي تحت عنوان «قضية الجاسوسين الأميركيين المتآمرين لتنفيذ تمرد مسلح»، مع القول إن أمر الاغتيال كان من الملحق العسكري المساعد الأميركي السابق الكولونيل دايفيد باريت.

بالنسبة الى أي كان، تعتبر محاولة اجنبي قتل ماو في أكثر المناسبات أمناً كاليوم الوطني، وسط حشد من مئات الصينيين المنظمين والحذرين، إضافة الى 10 آلاف رجل شرطة و10 آلاف كتيبة جيش، قضية كبيرة. في الواقع، غادر باريت الآمر المزعوم الصين قبل أشهر عديدة من الحادث. بعد عقدين، اعتذر تشو إن لاي منه بطريقة غامضة عن توريطه ودعاه الى العودة الى الصين. وهذا اعتراف غير مباشر بأن الاتهام كان مزيفاً.

إن ربط المؤآمرة بباريت ساعد في إحياء الشعور المناهض لأميركا والذي لم يكن بالقوة التي تمناها النظام. كما استخدِمت التهمة الملفقة لتلطيخ هدف كبير آخر لماو هو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الذي كان ممثلها الأجنبي الأعلى من بين المعتقلين وهو مونسينيور إيطالي. كان في الصين حوالى 3،3 مليون كاثوليكي في ذلك الوقت. كان ماو مهتماً جداً بالفاتيكان وبخاصة قدرته على فرض السلطة الى ما بعد الحدود الوطنية، وغالباً ما كان زواره الإيطاليون يُمطرون بأسئلة حول سلطة البابا. إن حزم الكاثوليك وفعاليتهم أقلقا النظام الذي لجأ الى استغلال محاولة الاغتيال لتسريع الاستيلاء على المؤسسات الكاثوليكية بما فيها المدارس والمستشفيات والمياتم. وحصلت حملة تلفيق وكذب كبيرة اتُهم فيها الكهنة والراهبات الكاثوليوك بممارسات مهينة تتراوح بين القتل الصريح الى أكل لحوم بشرية وممارسات الاختبارات الطبية على الأطفال الرضع. فأعدم مئات الصينيين الكاثوليك وعانى العديد من الكهنة الأجانب من التحرش الجنسي.

بشكل عام، كانت المنظمات الدينية وشبه الدينية إما مقاومة ومقموعة أو تحت السيطرة. فطرد معظم رجال الدين، وكذلك غالبية رجال الأعمال الأجانب لتخلو الصين نسبياً من الأجانب المناهضين للشيوعية حوالى عام 1953. وغني عن القول إن الصحف والإذاعات الأجنبية المناهضة للشيوعية أبيدت بدورها.

استمرت «حملة قمع المناهضين للثورة» سنة كاملة حتى تشرين الأول 1951 رغم أن القمع الروتيني استمر بعد ذلك. ثم ركز ماو انتباهه على إحكام أمن ومراقبة خزينة الدولة للتأكد من أن الأموال التي تأخذها الدولة من الناس لا تذهب الى الجيوب الخاصة. ففي نهاية عام 1951 بدأت حملة عرفت «بالمقاومات الثلاث»، هدفها ضبط الاختلاس والهدر و«البيروقراطية» (بمعنى التهاون في العمل لا البيروقراطية المحض). الهدف الأول كان إخافة كل من يتعامل

مع مال الحكومة من وضعه في جيبه. وأطلق على المختلسين المزعومين اسم «النمور». «النمور الكبار» هم من تورطوا في كميات من المال تفوق الـ10 آلاف يوان ومصيرهم الموت.

ولما تفشّى الفساد كالمرض في ظل القوميين، بدت الحملة أمراً طبيعياً. فقد اعتقد كثيرون إن الشيوعيين يحاولون اقتلاع الفساد. ولكن ما لم يلاحظه الناس هو أن الأموال المكدسة في خزائن الدولة لن تستخدم لمصلحتهم رغم أنه مع هذه الحملة، لم يجرؤ سوى القليل ممن تعاملوا مع مال الدولة، على المس بها.

استولى ماو الآن فعلياً على ما أصبح الآن ماله هو. فأمطر وزارات الحكومة وقادة الأقاليم والجيش بالاتصالات لحثهم على القبض على «النمور الكبيرة» وتحديد حصصهم: «يجب على الأرجح أن نعدم من 10 آلاف الى عشرات الآلاف من المختلسين على صعيد الأمة قبل أن نتمكن من حل مشكلتنا». فأطلق منافسة بين الأقاليم محدداً أعلى الأهداف ومهدداً: «كل من يعصي الأوامر يعتبر إما بيروقراطياً أو مختلساً».

إن طريقة الكشف عمن اعتبروا مسيئين تقضي، كما قال ماو، «بالاعتراف والإخبار». وباستخدام هذه التقنيات تم كشف ومعاقبة حوالى 3,83 مليون رسمي مدني (وأكثر من الجيش). ورغم عدم تشجيع التعذيب العلني في ذلك الوقت، ظل يستخدم في بعض الأماكن، وكان ماو على علم بذلك. كما نقل الروس الذين يعملون على خطوط الحديد في منشوريا أنهم سمعوا صراخاً («كما من الدهاليز اليابانية») آتياً من المكاتب المجاورة. اتضح أن هذا الصراخ هو صوت زملاء صينيين يتم «التحقق» معهم من خلال سحق أعضائهم التناسلية بملاقط من البامبو.

في النهاية، عثر على عدد قليل نسبياً من الرسميين وبحوذتهم أموالاً مختلسة وطائلة جداً الى حد تسميتهم «بالنمور الكبيرة». لكن ماو حقق هدفه بنشر الخوف. ومن الآن وصاعداً، قليلون فقط تجرأوا على المس بأموال الدولة.

أما بالنسبة الى هدفه الثاني، الهدر، فقد تسببت الحملة بخسارة فاقت ما حاولت تحاشيه. فمن خلال زج المدراء والتقنيين المتمرسين في اجتماعات عقيمة طوال أشهر كاملة، حُرم الاقتصاد من الطاقات البشرية التي هو بأمس الحاجة اليها. في 14 شباط 1952 نقل عن تيانجين أن التجارة بالجملة انخفضت الى النصف، والمصارف أوقفت قروضها، وتجرأ قطاع الأعمال الخاص على عدم بيع السلع. كما تراجع الانتاج الصناعي وانهارت ضريبة الدخل وانحسرت التجارة. في منشوريا، هبط الانتاج الى النصف. في الواقع، كان نظام القمع نفسه مصدراً أولاً للهدر. وأكد كاهن بلجيكي أنه استُجوِب، بدون نتيجة، لأكثر من 3000 ساعة خلال ثلاث سنوات، أي مدة عمل ثلاثة أو أربعة أشخاص على الأقل بدوام كامل (على

الأقل 10 آلاف ساعة عمل لكل رجل)، إضافة الى استخدام كميات كبيرة من الورق النادرة الوجود.

في كانون الثاني 1952، وبعد فترة قصيرة على بداية «المقاومات الثلاث»، أمر ماو ببدء حملة أخرى تتماشى معها، أطلق عليها اسم «المقاومات الخمس». الإهانات المرتكبة هي: الرشوة والتهرب من الضرائب وسرقة ممتلكات الدولة والغش وسرقة المعلومات الاقتصادية. هذه الحملة تستهدف رجال الأعمال في القطاع الخاص الذين لم تصادر ممتلكاتهم لإرغامهم على ضخ المال، الى جانب إخافتهم من القيام بأعمال كالرشوة والتهرب من الضرائب. إن شخصاً متورطاً الى حد كبير قدر عدد حالات الانتحار في هاتين الحملتين بين 200 ألف و300 ألف على الأقل. في شانغهاي، قفز عدد كبير من الناس من ناطحات السحاب حتى تمت تكنيتهم بـ«المظليين». وتساءل أحد شهود العيان لماذا قفز الناس الى الشارع بدلاً من النهر. فاكتشف أن السبب هو أنهم أرادوا حماية عائلاتهم: «إذا قفزت الى نهر هيانغبو وغرقت بدون أن يحصل الشيوعيون على الجثة، سيتهمونك بالفرار الى هونغ كونغ وستعاني عائلتك منهم. لذا فأفضل طريقة هي القفز الى الشارع».

في أيار 1953، عندما أنهى ماو الحملات، كان قد حقق ما صممه، وبالأخص إخافة الناس وإبعادهم عن المس بمال الدولة. وهكذا أصبحت البيروقراطية الشيوعية غير فاسدة نسبياً بالمعنى المتعارف عليه لجهة عدم قبول الرشاوى، ولكنها حظيت بمستوى معيشي مميز صنف بدقة وبشكل تراتبي.

ماو نفسه لم يختلس بالطريق المعروفة كغيره من الديكتاتوريين الصغار الذين حافظوا على حسابات في المصارف السويسرية. ويعود السبب، ببساطة الى أنه لم يواجه امكانية فقدان السلطة. فتأكد تماماً أن يوماً كهذا لن يأت. وبدلاً من الاختلاس، تعامل مع أموال الدولة وكأنها ماله الخاص واستخدمها كما حلا له بغض النظر عن حاجات الناس ومضطهداً كل من يدين أولويات الصرف كما حددها هو. وفي ما يتعلق بنمط العيش الشخصي، بدا ماو متساهلاً ملكياً مع نفسه على حساب البلد. هذا التصرف الفاسد ظهر ما ان سيطر على الصين.

كان ماو يعيش خلف جدار سري لا يخترق، بحيث أن قليلين جداً كانوا يعلمون كل شيء عن حياته وعالمه، بما في ذلك مكان عيشه أو مكان تواجده (فكان ظهوره العلني قليلاً). حتى بالاقتراب منه، لم يكن يعطي انطباعاً واضحاً عن مستوى معيشي عال. لم يحب الغنى الوفير وكان يبعد بشكل إيجابي الأغراض التي تنم عن ترف كبير كالأواني الذهبية والتحف الأثرية والرسومات والثياب المتنوعة والأثاث المتقن. لكن غياب كل ذلك لم يعن كبح رغباته. فقد كان ماو في الواقع ينفذ ويستمتع بكل ما يبتغيه في حياته اليومية.

كان ماو يحب الفيلات. فطوال فترة حكمه الذي دام 27 عاماً أنشىء أكثر من 50 عقاراً له، ليس أقل من 5 منها في بكين، ولم يدخل العديد منها. أقيمت هذه العقارات على أراض فسيحة غالبيتها في مواقع رائعة الجمال. لذا، ففي أماكن خلابة كثيرة، كان يفصل جبل بكامله (كهضاب جايد سبرينغ هيلز خارج بكين) أو مجاري أنهر طويلة (كما على طول البحيرة الغربية في هانغزهو)، لتبقى لاستخدامه الحصري. وغالباً ما وجدت في هذه المواقع فيلات قديمة من الطراز المعماري الرائع. فكانت تهدم لتشيد مكانها أبنية مصممة ومبنية تحت إشراف قوات أمنه فتكون الأولويات الأمن والراحة على طريقة ماو. كانت هذه المباني المشيدة بهدف محدد، واقية من الرصاص والقنابل، وفي داخل بعضها ملاجىء نووية عميقة. لكن معظمها صمم بالنمط نفسه: جناح كبير مقسم الى قسمين أحدهما لماو والآخر لزوجته، مع غرفة جلوس ضخمة في الوسط. كل ذلك في طابق واحد لأن ماو يخاف من الإسقاط به من الطوابق العلوية.

هذا الطابق الوحيد كان عالياً جداً وأحياناً بعلو مبنى مؤلف من طابقين عاديين أو ثلاثة، وذلك لإظهار روح العظمة التي عرف بها ماو. بنيت إحدى الفيلات في منتصف الستينيات خارج نانتشانغ وبلغ ارتفاعها حوالى 50 قدم ومؤلفة من طابق واحد كهنغار رمادي ضخم. عندما تحولت كل هذه الأبنية الى بيوت عائلية بعد موت ماو، كانت ممراتها واسعة جداً بحيث بقي المجال يتسع لممر عادي حتى بعد تشييد غرف بحجم طبيعي في داخله.

بدأ بناء فيلاته الجديدة عام 1949 عندما دخل الى بكين. تلى ذلك بناء فيلات أخرى خلال حملة المقاومات الثلاث. أنجزت إحداها عام 1954 وتقع في بايدايهي على الشاطىء الشرقي. كانت مجمعاً على البحر منذ نهاية القرن وتضم أكثر من 600 فيلا معظمها فسيح وجميل ولكنها ليست مطابقة لمواصفات ماو الأمنية، فدُمر بناء على نمط ماو في مساحة ضخمة مطلة على البحر بشكل رائع، يحيط به هضاب مشجرة للحماية، وتتداخل فيه ملاجىء وأنفاق. منعت كل المساحة البحرية عن الجميع باستثناء قلة من الذين سمح لهم.

في عام 1952 أرسل القائد الأمني لماو رسالة الى هونان تشير الى ان الفيلا يجب أن تبنى في العاصمة الاقليمية تشانغشا ليتمكن ماو من العودة الى دياره. لم يكن قادة هونان متأكدين من أن هذه هي فعلاً إرادة ماو. وبما أن ذلك كان بمستوى المقاومات الثلاث، فقد بدا صحيحاً بشكل واضح. فأخلوا منازلهم وأعادوا تجديدها لماو. لكن ماو لم يأت، ثم قيل لهم إن ماو يريد عقاراً جديداً فبدأت أعمال البناء. ولم ينتظر ماو نهاية البناء حتى عاد للزيارة. لاحقاً، بنيت فيلا أخرى فقط من الحجر المرمي والمتروك. ثم بني مزيد من الفيلات في قريته الأم شاوشان. والأقاليم الأخرى التي تريد جميعها بالطبع أن يزورها ماو، قيل لها: «ولكن ليس لديكم مكان يقيم فيه الرئيس» فتشيد له الأبنية المطلوبة.

وللتخفيف من خطر التعرض للقتل، ألصقت النوافذ في هذه الممرات بتلك التي في غرفة ماو بحيث لا يُرى سوى الحائط من مختلف الجوانب. ومن التحسينات الأمنية الأخرى في الفيلات الأخيرة، بوابات حديدية عند طرفي المداخل الرئيسية التي باتت مدموجة بالمنزل بحيث يستطيع ماو إدخال سيارته الى غرفة الجلوس.

في بعض الأحيان، كان قطار ماو أيضاً يدخل الى الفيلا، أو بصريح العبارة، الى الحديقة الأمامية على طول سياج وضع خصيصاً له. وفي أماكن عديدة صنع نفق تحت الأرض على طول الخط الممتد من الفيلا الى المطار العسكري المحلي. وغالباً ما كان ماو ينام في قطاره المركون في المطارات في انتظار فرار سريع بالقطار أو الطائرة في حالة الطوارىء. وخلال حكمه، عاش في بلده كما في منطقة عسكرية.

في أكثر الأحيان كان ماو يسافر بثلاث وسائل نقل، القطار والطائرة والسفينة (عند توفرها). وحتى عند استخدام وسيلة نقل واحدة، كانت الوسيلتان الأخريان تليان عند الإمكان في حال حصل أمر ما. عندما كان يطير، تهبط كل الطائرات الأخرى في الصين. وعندما يتحرك قطاره الخاص كان ينطلق دوماً بعد إشارة، فيما السكك الحديدية في البلد في حال من الفوضى إذ منعت القطارات الأخرى من التواجد بقرب قطاره. هذه التقطعات كانت متكررة بسبب تنقل ماو الدائم بالقطار. كان الطاقم في حالة تأهب مستمرة ولم يسمح له بالعودة الى دياره طوال أسابيع في بعض الأحيان وحتى أشهر.

من بين الأمور اللافتة أحواض السباحة لأن ماو يحب السباحة. كانت الأحواض قليلة في تلك الفترة فكيف في بلد فقير جداً. (في تشنغدو، عاصمة إقليم سيشوان، عندما يبنى حوض سباحة لماو لا يعرف الحاضرون ما هي كمية الكلورين التي يجب أن يضعوها في الماء. نتيجة لذلك، فالقليلون الذين نعموا بامتياز السباحة في الحوض، وجدوا أعينهم حمراء اللون. فشك ماو بوجود سم). أول حوض بني له كان في جايد سبرينغ هيلز في وسط حملة المقاومات الثلاث. بحساب ماو الخاص، كلفة الحوض بلغت 50 ألف يوان أي خمسة أضعاف القيمة التي تحكم على المختلس بالإعدام «كنمر كبير». في زونغنانهاي، مقر إقامته الرسمي في بكين المخبأ جيداً وراء لافتة كبيرة كتب عليها «اخدموا الشعب»، بُني حوض داخلي لماو بعد مرور وقت قصير على الحملة، رغم وجود حوض للسباحة في الخارج بقي مفتوحاً للعامة حتى مجيء ماو الى السلطة.

بقيت هذه الأحواض دافئة طوال أشهر في حال أراد ماو تناول بعض الطعام، وكان ذلك مكلفاً جداً. كانت المياه تسخن بمجاري الأنهر الساخنة التي تمر عبر أنبوب وتستهلك كميات كبيرة من الفيول النادر.

لم يحرم ماو نفسه من أي شيء أحبه. كان شرهاً فيُشحن له طعامه المفضل من كل أنحاء البلاد. (قلما كان ماو وكبار قادته يرتادون المطاعم التي انخفض عددها في ظل الشيوعيين). السمكة الخاصة من وهان التي كان يحبها كانت تنقل له حية طوال 1000 كم في كيس من البلاستيك مليء بالماء والأوكسيجين. الى جانب الأرز، كان ماو يطلب أن تحفظ له القطعة بين الجلد والقلب ما يعني أن عملية التقطيع يجب أن تحصل يدوياً وبتأن تام. في إحدى المرات تذمر لأنه لم يذق هذه القطعة وقال لمدبر المنزل أنه أصيب نتيجة لذلك بداء البري بري. فأسرع هذا الأخير الى المزرعة الخاصة في جايد سبرينغ هيلز وأحضر لماو بتأن القطعة التي أرادها.

خصصت هذه المزرعة لتربية أنواع الأسماك التي يحبها ماو إذ يفترض أن تكون المياه هناك من أفضل الأنواع. في الأيام الخوالي كانت الينابيع تزود البلاط الامبراطوري بمياه الشرب. وهي تستخدم اليوم لتربية أسماك ماو. والخضار التي أحبها ماو الى جانب الطيور والحليب كانت تنتج في مزرعة خاصة تدعى جوشان. أما الشاي الذي اختاره ماو فهو الذي اعتبره الأفضل في الصين، دراغون ويل، وكانت تُختار له أفضل الأوراق في الوقت المناسب. كل طعام ماو يخضع لكشف طبي دقيق وكان مدبر منزله يشرف على الطهي ويضيف ذوقه الخاص. أما الأطباق المقلية، فلا بد من تقديمها فوراً ولكن بما أن المطبخ بعيد قليلاً كي لا تصل الروائح الى حيث يمر ماو، كان الخدم يركضون كل المسافة الى طاولته عند تقديم كل طبق.

لم يكن ماو يحب الدخول للاستحمام أو الاغتسال ولم يوجد حمام في دياره طوال ربع قرن. بدلاً من ذلك، كان خدامه يلفونه كل يوم بمناشف ساخنة. كان يتمتع بالتدليك اليومي ولم يذهب يوماً الى المستشفى. فالتسهيلات الاستشفائية، الى جانب كبار الأخصائيين، كانوا يأتون اليه. إن لم يكن مستعداً لمقابلتهم، يبقون في الانتظار خارجاً، أسابيع طويلة في بعض الأحيان.

لم يحب ماو يوماً الثياب الأنيقة، بل كان يفضل ما هو مريح. فينتعل الحذاء نفسه سنين عديدة لأن الأحذية القديمة كما قال، مريحة اكثر؛ كان حراسه يلبسون له أحذيته الجديدة. أما ثوب الحمام ومنشفة وجهه وغطاءه فكانت مرقعة ولكن ليس بالرقع العادية بل بتلك المأخوذة خاصة من شانغهاي والمصنوعة على يد أفضل المصممين اليدويين وكانت كلفتها تفوق كلفة الأشياء الجديدة. وبعيداً عن إشارات التنسك كانت هذه دليلاً للتنعم بالتفوق السلطوي.

ليس من الطبيعي أن لا يتنعم قائد بالفيلات وغيرها من وجوه الترف، لكن ماو كان ينعّم نفسه وهو يعدم الآخرين لأخذهم جزءاً مما كان يبدده، فيما يبشر ويفرض الامتناع عنها ويقدم نفسه «خادماً للشعب». إن الازدواجية في التعابير التي عبر عنها ماو تنم عن قساوة واضحة وضعته في كوكبه الخاص.

إن هذه المعايير المزدوجة لم تحدث في أي جزء من الحياة، مأساة أكثر من التي أحدثتها

في مجال الجنس. فقد أراد ماو من شعبه أن يتحمل المصاعب البوريتانية جداً. اذ كان يمنح الأزواج المنتشرين في أماكن مختلفة من الصين فقط 12 يوماً في السنة ليكونوا معاً، ففرض على عشرات الملايين فترة امتناع جنسي على مدار السنة. وإن الجهود الآيلة الى تخفيف الكبت الجنسي قد تؤدي الى اذلال علني. أحد الصينيين الوطنيين الذي عاد الى «الأرض الأم» دُفع الى وضع إشارة فوق سريره ينتقد فيها نفسه لممارسة العادة السرية.

كان ماو يندفع دائماً لإشباع رغباته الجنسية بسرية تامة. في 9 تموز 1953 أمر الجيش باختيار شابات من مجموعات التسلية الخاصة بهم لتشكيل فريق خاص في الحرس البريتوري. كل المعُينات أدركن أن مهمتهن الأساسية هي مشاركة ماو الفراش. أطلق قائد الجيش بينغ دو هواي على ذلك عبارة «الاختيار الامبراطوري للعشيقات»، وهو تذمر سيكلفه غالياً فيما بعد. لكن اعتراضه لم يكن فعالاً على ماو فتحولت مجموعات التسلية أكثر فأكثر الى وكالات لبيع الهوى. والى جانب المغنيات والراقصات، أُحضرت الممرضات والعذارى أيضاً الى فيلات ماو لتشكيل مجموعة من النساء يختار منهن تلك التي يريد ممارسة الجنس معها.

قليل فقط من هؤلاء النساء حصلن على إعانات من ماو، شأنهن شأن بعض موظفيه وأقاربه. فالمبالغ المدفوعة هنا لم تتعد البقشيش لكنه أصر على الموافقة شخصياً على كل مبلغ يدفع. كان ماو واعياً جداً لقيمة المال وبقي طوال سنوات عديدة يراقب حساباته المنزلية بعين القروي الساهرة.

كانت تقديمات ماو تأتي من حساب سري هو الحساب الخاص. هناك يودع حقوق نشر كتاباته، لأنه من بين كل امتيازاته الأخرى كان يدعم تسويق كتبه من خلال إرغام الشعب بأسره على شراء مؤلفاته الخاصة، فيما منع غالبية كبيرة من الكتّاب من النشر. وفي الحد الأقصى له، ضم هذا الحساب أكثر من 2 مليون يوان وهذه كمية ضخمة جداً. أما موظفو ماو فكانوا يحصلون على حوالى 400 يوان سنوياً. ودخل القروي في أفضل السنين كان يبلغ يوانات قليلة. وحتى الصينيين المميزين قلما حصلوا على أكثر من بعض مئات اليوانات.

كان ماو المليونير الوحيد الذي خلقته الصين في عهد ماو.

القسم الخامس

حلم الوصول إلى مرتبة القوة العظمى

32- التنافس مع ستالين
(1947-1949؛ العمر 53-55 سنة)

كان ماو يصوّب أنظاره نحو العالم الواسع حتى قبل غزو الصين. وما إن لاحت بوادر النصر في الحرب الأهلية حتى بدأ ينشط في العمل.

وكان أمل ماو أن يعيد بريق نجاح علاقاته العامة كما حصل مع إدغار سنو وكتاب «النجم الأحمر فوق الصين» وهو نجاح فريد من نوعه في العالم الشيوعي. لكن سنو تعرّض في تلك الأثناء لإدانة موسكو، فاضطر ماو للجوء الى صحافية أميركية من الدرجة الثانية تدعى أنّا لويز سترونغ Anna Louise Strong ولم يكن لديها أبداً تأثير سنو العام، بل كان يُنظَر إليها كمتزلّفة.

في عام 1947، أرسل ماو سترونغ في جولة حول العالم ليروّج نفسه. وسلّمها وثائق طلب اليها توزيعها على «الأحزاب الشيوعية في العالم». وأراد منها خصوصاً أن «تُريها لقادة الحزب في الولايات المتحدة وأوروبا الشرقية»، مضيفاً بالتحديد أنه «لا يرى من الضروري أن تحملها الى موسكو»(*).

في ذلك الوقت نشرت سترونغ مقالاً بعنوان «فكر ماو تسي-تونغ» وكتاباً بعنوان «الفجر الآتي من الصين» وفيهما بعض المديح والإطراء، كالادعاء بأن «عمل ماو العظيم هو تحويلٌ للماركسية من شكلها الأوروبي الى شكلها الآسيوي...في أي مسألة كان...بطريقة لم يكن لماركس أو لينين أن يحلم بها»، وبأن «كل آسيا ستتعلّم من [الصين] أكثر مما ستتعلمه من الاتحاد السوفياتي»، وبأن أعمال ماو «أثّرت الى حد بعيد في أنظمة الحكم الأخيرة في بعض أجزاء أوروبا ما بعد الحرب». هذه الادعاءات كانت مهينة جداً بالنسبة الى ستالين. وليس غريباً أن يُمنَع نشر كتابها في روسيا، وأن يطلب الحزب الشيوعي الأميركي حذف نصف الكتاب. أما الصيغة الكاملة فقد صدرت في الهند وبدلالة أكبر، في العديد من دول أوروبا الشرقية، بما فيها يوغوسلافيا.

(*) في أميركا، كان للحزب الشيوعي الصيني شعبه الخاص الذي يعمل داخل الحزب الشيوعي الأميركي، وشبكة استخبارات قوية مع تواصل مع المعلومات غير المتوفرة للروس. عندما أدانت موسكو رئيس الحزب الشيوعي الأميركي إيرل برودير، وهو مساعد قديم للصين، والذي كانت «لمكتبه الصيني» علاقات وثيقة بماو، بقي ماو يدعوه علناً «الرفيق».

إن أكثر ما يثير غضب الكرملين هو الترويج لماو عالمياً بدون موافقة ستالين، والقول بأن ماو أدخل تحسينات على ما تقدّم به ستالين، لا بل يمكنه التفوق عليه. لكن ماو فهم بوضوح أن السيطرة على منطقة ما يحتاج الى سند، وقد بات يتمتع الآن بنفوذ قوي.

كما ظهرت مؤشرات على تخلي ستالين عن بعض الأراضي. ففي أيلول 1947 أسس منظمة جديدة تدعى مكتب الإعلام الشيوعي (كومينفورم)، الذي ضم فقط أحزاباً أوروبية. وهذا ما يفسح المجال أمام إمكانية نشوء تجمّع آسيوي منفصل. في شهر تشرين الثاني وبعد مرور أسابيع على تأسيس مكتب الإعلام الشيوعي (كومينفورم)، وفيما كان ماو لا يزال يتجول قرب ينان، بدّل الاسم الذي يُطلق على أتباعه ليصبح «وحدة آسيا».

بقي ستالين ملتزماً بدعم ماو لكنه بدأ باتّخاذ خطوات لتحجيمه ولتذكيره بهوية صاحب الأمر.

في 30 تشرين الثاني 1947، عندما تأكد ماو أنه سينتصر قريباً في الحرب الأهلية، اقترح على ستالين أن يزور روسيا. فقرر ستالين أن الزيارة هي الطريقة المثالية لإقلاق ماو، وردّ مكتبه ببرقية ترحيب في 16 كانون الأول. مستلِم البرقية، د. أورلوف، كان يخضع لأوامر ستالين التي تقضي بإطلاعه على ردات فعل ماو بالتفصيل. في اليوم التالي، قال لستالين إن ماو كان «مسروراً جداً» «لا بل متحمساً» في الواقع، وأجاب فوراً «عظيم، يمكنني الذهاب الى هناك بعد ثلاثة أشهر...».

مرت الأشهر الثلاثة، ولا دعوة من ستالين. فأعاد ماو تحريك المسألة في 22 نيسان 1948 بعد مرور يوم على احتلال ينان من قبل الحزب الشيوعي الصيني، وقال لأورلوف إنه ينوي الذهاب في 5-4 أيار. هذه المرة قال ستالين «نعم». فطلب ماو أن يأخذ معه الطبيبين الروسيين لأسباب صحية -ولكن في الواقع لمنع التواصل بين أيٍّ من معاونيه والروس خلال غيابه. فوافق ستالين. وأراد ماو زيارة أوروبا الشرقية أيضاً، لكن يبدو أن هذا الاقتراح لم يحظ بموافقة ستالين.

في 10 أيار، وبعد أيام على موعد الرحيل الذي حدده ماو نفسه، قام ستالين فجأة بتأجيل الزيارة. وبعد الانتقال من فصل الربيع الى الصيف، لم تصدر عنه أية إشارة تنذر بإعادة إحياء موعد الزيارة. وكان ماو متلهفاً للذهاب. في تلك الفترة، كان برفقة معاونيه في المقر الرئيسي للحزب في كزيبايبو وجميعهم يعرفون أنه ذاهب الى موسكو لمقابلة ستالين. وكان الانطباع السائد بأنه سينطلق في أية لحظة: من بين هذه الدلائل، عدم إسكات الضفادع التي كانت تُقلِق نوم ماو. ففي الأيام العادية كانت كل الحيوانات التي تُصدر ضجيجاً كالدجاج والكلاب، «توضع تحت السيطرة» في أي مكان يقبع فيه ماو. فاقترح مرافقوه استعمال الديناميت لإسكات

الضفادع التي كانت تنقّ فرحاً في بركة كثيرة القصب. لم تطبّق الخطة إذ كان من المفترض أن يمكث ماو في كزيبايبو فترة قصيرة. فأحسّ ماو بالحاجة الى إزالة أي تأثير سلبي للتأخير، ودبّر لبعبعه وانغ مينغ «حادثاً» طبياً جديداً. في 25 حزيران حُقِن وانغ مينغ بمادة الليزول المطهّرة التي أتلفت أمعاءه.

في 4 تموز، أبرق ماو لستالين: «قررت أن أزورك في المستقبل القريب». وحدد تاريخ رحيله بعد عشرة أيام: «على أي حال يجب أن نغادر قرابة الخامس عشر من هذا الشهر» وقال لستالين «من الضروري إرسال طائرتَي نقل (ركاب)».

في الرابع عشر من الشهر وعشية التاريخ الذي قال لستالين أنه سيغادر فيه، وبدل أن يرسل هذا الأخير طائرة، أرسل برقية الى د. أورلوف يعلن فيها تأجيل الزيارة حتى فصل الشتاء:

> أُخبر ماو تسي-تونغ ما يلي: بسبب بداية موسم حصاد الحبوب سيغادر كبار الرسميين في الحزب الى المقاطعات في شهر آب، وسيمكثون هناك حتى شهر تشرين الثاني. بالتالي، تطلب اللجنة المركزية من الرفيق ماو تسي-تونغ أن يؤجل زيارته الى موسكو حتى نهاية تشرين الثاني ليحظى بفرصة مقابلة كبار الرفاق في الحزب.

إن هذه الحجة هي بشكل واضح مدعاة للسخرية. فردّ أورلوف بأن ماو «استمع اليها ووجهه يبتسم باستخفاف» وقال «حسن، حسن»؛ لكنه سأل أورلوف: «هل يُعقل...في الاتحاد السوفياتي أن تعطى هكذا أهمية كبيرة لموسم حصاد الحبوب لدرجة أن كبار أعضاء الحزب...يذهبون للمشاركة فيه؟» ونقل أورلوف ما يلي: «عرفت ماو تسي-تونغ لأكثر من ست سنوات، وإذا فهمت جيداً ما قاله فإن ابتسامته وكلماته (حسن، حسن)... ما كانت لتشير أبداً الى انشراحه...» «أخبرني ميلنيكوف [الطبيب الروسي الآخر] أن ماو تسي-تونغ طرح عليه في 15 تموز سؤالاً مشابهاً حول موسم الحصاد». «كان [ماو] واثقاً أنه سيغادر فوراً». «ومن الواضح أن الزيارة باتت ضرورية بالنسبة اليه...» فقد وُضّبت حقائبه وشُريت الأحذية الجلدية...وصنع المعطف الصوفي...»

كان واضحاً بالنسبة الى ماو أن ستالين غاضب منه ويتلاعب به في شأن سفره. فبات يبذل كل ما في وسعه لإدخال بعض التحسينات بدءاً بمسألة العجب بالذات. في 15 آب، عارض ماو البرنامج الجديد لجامعة الصين الشمالية «وخاصة المتعلق بدراسة الماو تسي-تونغية» قائلاً: «لا فائدة من ذلك بل مجرد أذى». كما غيّر عبارة «فكر ماو تسي-تونغ» واستبدلها بعبارة «الماركسية اللينينية» في الوثائق. إن الترويج لتصبيغه الخاص «للفكر» لم يكن مستحباً لدى ستالين: فوسائل الإعلام السوفياتية لم تذكر أبداً «فكر» ماو بل كانت تشطب بالقلم الأحمر هذه العبارة كلما وردت في وثائق الحزب الشيوعي الصيني المنشورة.

أخيراً، ومع حلول فصل الخريف، أرسل ماو في 28 أيلول تلغرافاً غير اعتيادي يحتوي الكثير من التقريظ ويخاطب فيه ستالين ملقباً إياه بـ«القائد» ومتوسلاً: «من الضروري تسليمه شخصياً... الى القائد... آمل بصدق أن نحصل على تعليمات من [الحزب السوفياتي وستالين]».

وهكذا، أظهر ستالين من هو الرئيس، وأحس ماو أنه يتذلل. في 17 تشرين الأول وبعد أن سجّل ستالين موقفه، ردّ بتحفظ ولكن بحزم، مؤكداً سفر ماو في «نهاية شهر تشرين الثاني». لكن ماو بات يتمتع الآن بثقة كافية مكّنته من الرد بطلب تأجيل صغير. وانتهت بذلك الجولة الأولى من معاقبة ستالين لماو بسبب إخفائه طموحات تتعدى الصين.

في البداية تلكّأ ماو لكنه في الوقت نفسه بقي حازماً في وجه ستالين كلما تعلق الأمر بمصالحه الأساسية. خلال المرحلة الأخيرة من الحرب الأهلية، وقبل أن يذهب تشيانغ كاي-شيك الى تايوان، طالبت العاصمة نانجينغ بوقف لإطلاق النار وبإحلال السِلم في 9 كانون الثاني 1949. فطلب ستالين من ماو أن يردّ قائلاً إن الحزب الشيوعي الصيني «يدعم المفاوضات». غضب ماو (و«تكلّم بحزم أكبر» بحسب ما نقل أورلوف لستالين). فأرسل ستالين خلافاً لعادته، تلغرافاً آخر في اليوم التالي محاولاً إعادة تحديد موقعه ومدّعياً أن اقتراحه هو مجرد تكتيك للإيحاء بأن القوميين مسؤولون عن استمرار الحرب: «إن ما طلبنا منك قوله في الرد... إنما يهدف الى إضعاف محادثات السلام».

يتلخص موقف ماو بعدم السماح للقوميين بيوم سلام ولو من باب المظاهر...وأخبر ستالين أنه يريد «إستسلاماً غير مشروط لحكم نانجينغ...لم نعد نحتاج الى القيام بمزيد من المناورات السياسية». إنها قطعاً المرة الأولى التي يملي فيها ماو على ستالين ما يجب قوله إذ توجّه الى القائد بما يلي: «نعتقد أن عليك إعطاء الجواب التالي...» للقوميين الذين طلبوا الوساطة الروسية. لقد كسب ماو أفضلية واضحة على ستالين، الأمر الذي لاحظه الكرملين: إذ أكّد لنا أحد كبار مستشاري ستالين في الصين أن أركان حاشية ستالين شعروا أن ماو «يوبّخ» القائد بتعابير لا تفتقر الى الحزم.

في اليوم التالي، في 14 كانون الثاني، ردّ ستالين بعنف في خطاب طويل قائلاً لماو إن رفض المحادثات أمر مسيء للعلاقات العامة ويزيد شبح التدخّل الأجنبي. لم يكن ماو مؤمناً بذلك، بل وجد وسيلة يتمسك من خلالها بموقفه ويرضي ستالين في الوقت نفسه؛ فنشر لائحة شروط لمحادثات السلام توازي المطالبة بإستسلام غير مشروط. ثم، وبكل براعة، رد على ستالين مقتبساً حرفياً الموقف الذي عبّر عنه هذا الأخير: «بالنظر الى التوجّه الأساسي (الذي

هو إضعاف محادثات السلام مع القوميين، ومتابعة الحرب الثورية حتى النهاية)، فنحن متفقون معك تماماً». في اليوم التالي ردّ ستالين: «توصلنا الى اتفاق كامل ...إذاً المسألة طويت الآن».

تركت هذه الحادثة انطباعاً كبيراً في نفس ستالين. فبعدها مباشرة، قال معلقاً أمام القادة اليوغوسلافيين والبلغاريين إن ماو متمرد ولكنه ناجح، إذ دافع عن موقفه بشراسة وبفعالية: فعندما «أصرّ» ستالين في 14 كانون الثاني أن يؤجل ماو رحلته الى موسكو مرة أخرى، يبدو أنه كان يعني ذلك حقاً عندما قال «لأن وجودك في الصين أمر جوهري». وعوضاً عن ذلك، عرض ستالين أن يرسل عضواً «نافذاً» من مكتبه السياسي ليرى ماو «فوراً».

ردة الفعل الأولى لماو على هذا التأجيل الجديد كانت الغضب. وتذكّر سكرتيره كيف رمى التلغراف على الطاولة قائلاً: «فليكن كذلك! ولكن بعد أن فكّر ثانية، رأى أن ستالين يبحث في الواقع عن تقارب. فستالين لم يرسل يوماً عضواً من مكتبه السياسي الى منطقة حرب لزيارة حزب شيوعي متورط في حرب أهلية - وأكثر من ذلك، هي حرب أهلية ضد حكومة تربطها بموسكو علاقات ديبلوماسية. في 17 كانون الثاني ردّ ماو «بترحيب شديد» بموفد ستالين.

كان الموفد صديق ستالين الحميم أنستاس ميكويان. وصل الى مقر ماو الرئيسي في كزيبايبو، في 30 كانون الثاني برفقة أخصائيَين في تعطيل القنابل المتأخرة المفعول والأجهزة الجرثومية. نقل ميكويان عن ماو «سروره الكبير» «وشكره للرفيق ستالين لحسن اهتمامه». كما رافق ميكويان وزيرُ النقل السابق إيفان كوفاليف الذي أصلح خط منشوريا الحديدي والذي هو الآن صلة الربط الشخصية بين ستالين وماو.

منذ البداية، أظهر ماو ثقته الفائقة بنفسه. وفي اليوم الذي تلى وصول ميكويان، انتقلت حكومة القوميين من نانجينغ الى كانتون. والسفير الوحيد الذي رافق القوميين كان السفير السوفياتي روشيتشين. في الأول والثاني من شهر شباط تخلّف ماو عن لقاء ميكويان إظهاراً لانجراح كبريائه، فأرسل تشو إن-لاي للاستفهام. وإذ اعتبر ميكويان أن ذلك «أمر طبيعي جداً» قال «ما جرى لن يضرّ أبداً بقضيتنا المشتركة بل على العكس سيسهلها»(*). لم يهدأ ماو، وستالين أدرك ذلك. بعد فترة وجيزة، حاول ستالين أن يشرح للرجل الثاني لماو ليو شاو-كي أن الانتقال حصل بهدف جمع الاستخبارات. لكن ماو حافظ على استيائه وصبّه على روشيتشين عندما أرسله ستالين مجدداً الى الصين كأول سفير لروسيا في حكومة ماو. عندما أقام روشيتشين أول مأدبة عشاء على شرف المكتب السياسي الصيني، جلس ماو ولم يتفوه بأية كلمة طوال

(*) تعلم ماو من ازدواجية ستالين بناء علاقة مفتوحة لا بل ودية ظاهراً مع الحكومة فيما هو يحاول سراً تخطيها. وعندما وصل الى السلطة، نقل عن ستالين تعامله مع البلدان الاخرى.

الأمسية، مظهراً ما وصفه أحد الديبلوماسيين الروس بـ«الموقف الساخر اللامبالي».

خلال زيارة ميكويان، ضبط ماو غضبه. فدُهش ميكويان لأن ماو لم يتذمّر بشأن معاهدة روسيا عام 1945 مع تشيانغ كاي-شيك والتي حصلت روسيا بموجبها على مزيد من التنازلات خارج أراضيها، بل ذهب أبعد من ذلك معتبراً هذا الأمر «وطنياً». إن ما أراده ماو من ستالين كان كثيراً جداً. فقائمة طلباته تبدأ بقرض بقيمة 300 مليون $ أميركي - لأغراض عسكرية حصراً - ثم تنتقل الى انواع عديدة من الأسلحة بما فيها الدبابات الثقيلة والمدافع المضادة للطائرات، إضافة الى مستشارين في مسألة إعادة تنظيم الجيش. والأهم من ذلك انه هو طلب أيضاً المساعدة الطويلة الأمد للحصول على مصانع لإنتاج الطائرات والدبابات والأسلحة الثقيلة الخاصة به. كان ماو بحاجة الى مساعدة ستالين ليصبح قوة عسكرية أساسية.

قام ستالين حديثاً بطرد القائد اليوغوسلافي تيتو من المعسكر الشيوعي لأنه أبدى استقلالية فائضة وميلاً الى انتزاع منطقة نفوذ خاصة به. وفي رسالة سابقة الى ستالين، ألمح ماو الى خبرة تيتو، ويبدو أنه وضعها بموازاة خبرة روسيا كنموذج ممكن، لكنه وُجِه بقساوة. اليوم، عرف ماو كيف يلمح الى تيتو بشكل صحيح حتى أنه أثنى على انتقاد قديم لستالين ضد القومية اليوغوسلافية في عام 1925. هذا هو الجهد الذي يبذله ماو ليطمئن ستالين أنه لن يكون تيتو آخر.

كما أصر ماو أن يظهر لميكويان كم ينظر الى نفسه كتابع لستالين. ونقل ميكويان لستالين أن ماو، بعد أن شرب نخب ستالين، «شدد على أن ... ستالين هو ... أستاذ الشعب الصيني وشعوب العالم بأسره». كما «شدد ماو مرات عديدة على أنه تلميذ الرفيق ستالين»، و«هو ينتظر التعليمات ... وقد خفف طوعاً من أهمية دوره...كقائد وباحث...[قائلاً] إنه لم يُدخِل الى الماركسية أية مساهمة جديدة...» لكن ميكويان الداهية لم يأخذ ذلك على محمل الجد. فقال لستالين «هذا لا يتلاءم مع ما هو عليه في الواقع ماو تسي-تونغ، ولا مع ما يفكر به عن نفسه».

بالفعل، عندما أثار ميكويان مسألة «التنسيق» بين الأحزاب الشيوعية الآسيوية، كانت خطة ماو جاهزة وتقضي بتشكيل كومينفورم آسيوي، اقترح أن يبدأ تنظيمه ما إن ينتهي من غزوه للصين. وأراد أن تضم المجموعة «العديد» من الأحزاب الآسيوية الأخرى منها، فذكر كبداية الكوريين والهنديين-الصينيين والفيليبينيين.

ثم قدّم ميكويان عرض ستالين الذي يحصر ماو في النطاق الصيني الداخلي المباشر، معتبراً أن ماو يجب أن «يترأس» مكتباً لأحزاب شرقي آسيا التي تضم أساساً ثلاثة أعضاء: الصين، اليابان وكوريا. وقال «في وقت لاحق قد تدخل أحزاب أخرى تدريجياً».

بهذه الطريقة يقدّم ستالين بعض التنازلات، ولكنه، في الوقت نفسه، أوعز الى ماو بألا يضغط كثيراً. في اليوم الذي تلى الحديث عن الأراضي، أرسل ستالين لميكويان برقية شديدة اللهجة طلب منه فيها أن يأمر ماو بتوقيف أميركي يدعى سيدني ريتنبيرغ، يعمل مع الحزب الشيوعي الصيني - بتهمة «جاسوس»-. ربط ستالين بين ريتنبيرغ وأنّا لويز سترونغ الأميركية التي أرسلها ماو الى الخارج لتروّج له. وبحسب ستالين، كانت سترونغ أيضاً جاسوسة أميركية. (قال ميكويان إن ستالين أمره بالبحث عن «جواسيس» أميركيين وبريطانيين في محيط قيادة الحزب الشيوعي الصيني). فتمّ توقيف ريتنبيرغ حسب الأصول.

في تلك الأثناء كانت سترونغ معزولة في موسكو، ومنعت من الحصول على تأشيرة خروج الى الصين. في 13 شباط وفي اليوم الذي تلى عودة ميكويان الى موسكو ورؤيته ستالين، زُجّت في سجن لوبيانكا. وخلافاً لكل عادة، نُشر خبر توقيفها بتهمة «التجسس» في صحيفة البرافدا في اليوم التالي، الأمر الذي زاد وطأة التحذير على ماو والأنظمة الشيوعية التابعة الأخرى. وإثر ترحيل سترونغ بعد فترة قصيرة من توقيفها، كتبت الى وسيط في الحزب الشيوعي الصيني: «أرجو أن تخبر الرئيس ماو... أنه على حد علمي، فإن ما ادانه الروس أخيراً على أنه «عمل تجسسي» كان بحثي الدؤوب والمتواصل عن الطريق الى الصين [كذا].

من بين الأشخاص الذين اتصلت بهم سترونغ في موسكو، ميكاييل بورودين الناشط السري الأساسي لستالين في العشرينيات والذي حاول مساعدتها في نشر كتابها حول الترويج لماو، في روسيا. وبعد أسبوعين على توقيف سترونغ، تمّ توقيف بورودين أيضاً وتعذيبه ليدلي بمعلومات عن ماو.

ورغم أن هذه التوقيفات كانت بمثابة طعنة لماو، إلا أنه حافظ على هدوئه. وكان ستالين يقول: لا تعبث مع أميركا أو أوروبا. لكن ميكويان سبق ووعده بشرقي آسيا. وبات ماو الآن يحدد الأراضي مع ستالين؛ فكان مزاجه جيداً وهو يفكر علناً في هذا المشروع خلال الجلسة المكتملة للجنة المركزية السابقة للنصر، والتي ستعقد في 13 آذار 1949.

في هذا الاجتماع، تحدث وانغ مينغ الذي كان يتحدى ماو في السابق وقد سلّم الآن بالهزيمة، وراح بدلاً من ذلك يتملّق كسباً لرضاه ويخطب قائلاً إن فكر ماو كان «...تطويراً للماركسية-اللينينية في البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة». ليس شرقي آسيا أو آسيا فقط بل «كل البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة».

لقد عبّر وانغ مينغ علناً عما كان يضمره ماو في عقله، وكان هذا الأخير مغتبطاً الى حد أنه أُخِذ بالحديث وقال: «إن الجملة التي قالها الرفيق وانغ مينغ تبعث رائحة تقسيم «السوق». فالبلدان المستعمرة ونصف المستعمرة تحتل جزءاً كبيراً جداً من العالم. عندما تصل إلينا ألا

يعني ذلك أن ستالين وحده سيتولى المناطق الصناعية المتطورة، ويكون [الجزء المتبقي من العالم] في عهدتنا...؟ وأردف ماو قائلاً وهو يستعمل الـ«نحن» الملكية: «نحن نقول إن البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة تخصنا. ولكن ماذا لو لم تشترِ إحداها سِلعنا وتوجهت الى موسكو مباشرة...؟ ... بالطبع، دعونا لا نستعجل التفكير البعيد الى هذا الحد. فلنُصلِح الصين أولاً».

وكان ماو قد بدأ يحلم في تقاسم العالم مع ستالين.

*

لكن هذا الأخير قرر أن السماح لماو بالإشراف حتى على قطعة أرض صغيرة سيؤدي الى تراجع قوته هو. لذا، عندما زار ليو شاو-كي روسيا في ذلك الصيف، وتطرق بخفر الى هذا الموضوع سائلاً ستالين عن إمكانية انضمام الصين الى الكومينفورم، أحسّ بأعلى مستويات الخبث عند ستالين إذ رد قائلاً: «أظن ذلك ليس ضرورياً حقاً». بل يجب على الصين في المقابل أن «تنظم وحدة الأحزاب الشيوعية في شرقي آسيا». غير أن هذا التأكيد الظاهري في عرضه السابق أعقبه فوراً القول «طالما أن الاتحاد السوفياتي بلد يقع بين أوروبا وآسيا، فسيشارك في [هذه] الوحدة». وليس هذا الكلام تراجعاً من قبل القائد.

كما حصل سابقاً، وجّه ستالين الى ماو بعض الإنذارات الحادة بتوقيف مجموعة كاملة من العملاء السريين الذين كانوا في الصين. وفيما كان ليو في موسكو، خضع العديد من العملاء الروس الأساسيين الذين كانوا مع ماو للعذاب نفسه الذي لقيه بورودين في الزنزانات: فقد استدعي طبيب ماو، أورلوف، وتمّ تعذيبه بوحشية على يد رئيس المخابرات الروسية فيكتور أبكوموف شخصياً. اتُّهِم أورلوف بعلاقات مع جاسوس «الأميركيين واليابانيين» ماو. علم هذا الأخير بأمر توقيف أورلوف عندما تقرّب الروس من تشي زي مترجم ليو ومساعد ماو، وطلبوا منه التبليغ عمّا جرى لأورلوف. كانت هذه مؤشرات على أن ستالين يُعدّ الأجواء لإدانة ماو كجاسوس أو كموال لتيتو، إذا سنحت الظروف بذلك(*).

كان ستالين قاسياً وغاضباً لكن ماو لم يكن خائفاً وراح يركّز على مسألة شديدة الأهمية بالنسبة اليه: الاجتماع الشيوعي الدولي الأول المقرر عقده في عاصمته الجديدة بكين Peking. إنه مؤتمر ضخم لنقابات العمّال وسيشكل نقطة الإنطلاق لوضع ماو على خارطة العالم، لأنه

(*) سرعان ما توفي العديد من عملاء ستالين عند ماو بطريقة غير طبيعية. فقد مات أورلوف بعد ذلك بقليل في حادث تحطم طائرة. كما اختفى ملنيكوف طبيب ماو التابع للاستخبارات الروسية، بدون أن يترك أي أثر بعد مرافقة ماو في رحلته الى روسيا في شتاء العامين 1949 - 1950. توفي بورودين نتيجة التعذيب عام 1951. مات فلاديميروف بعمر الـ47 عام في العام 1953 بعد أن اغتاله رئيس المخابرات لافرينتي بيريا بواسطة السم، كما اخبر ابن فلاديميروف المرشح الرئاسي في فترة ما بعد الشيوعية (والبطل الاولمبي في رفع الأثقال) يوري فلازوف.

لا يضم كل آسيا فحسب بل أيضاً أوسترالاسيا، وهي محيط رأسمالي متقدّم. كما كان المؤتمر سياسياً بامتياز، وأشبه بمؤتمر دولي للأحزاب الشيوعية أكثر منه اجتماعاً لنقابات العمال. فكّر ستالين في إحباطه أو تغيير مكان انعقاده لكن ماو جعل ليو يصرّ على «عقده في الصين في الوقت المحدد له». فوعد ليو بأن المؤتمر لن ينفّذ أي عمل تنظيمي» ما يعني أن ماو لن يحاول استغلاله لإنشاء شبكته العالمية الخاصة.

عندما افتُتِح المؤتمر في 16 تشرين الثاني 1949، كان ماو قد أسس حكومته في الأول من تشرين الأول. وفي الخطاب الإفتتاحي، أعلن ليو عن «طريق ماو تسي-تونغ» ولم يذكر ستالين أو النموذج الروسي ولا مرة واحدة. موضوع المؤتمر كان وضع اليد على السلطة من خلال «طريق ماو تسي-تونغ» عبر آسيا - والى خارج حدودها: «إن الطريق الذي سلكه الشعب الصيني هو الطريق نفسه الذي يجب أن تسلكه شعوب العديد من البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة...» وكان ليو جازماً في موقفه: «من المستحيل أن يتحاشى الشعب الثوري...في تلك المناطق [هذه] الطريق ...[و] من الخطأ أن يقوموا بذلك. وقال «إن الكفاح المسلح يجب أن يكون الشكل الرئيسي لأي نضال».

كان هذا الكلام قاسياً جداً، وما جرى بعده أظهر مدى التقدّم الذي أحرزه ماو. فعندما تذمّر الموفد الروسي معتبراً خطاب ليو «يسارياً متطرفاً»، أدان ستالين موفده الخاص على أنه «مرتد». أما الموفد السيء الحظ ليونيد سولوفيوف فقد اضطر الى الاعتراف بالخطأ خلال اجتماع ترأسه ماو. وكانت هذه المرة الأولى بالنسبة الى ماو، التي يعتذر فيها ضابط روسي كبير من ماو أمام معاونيه. ثم طلب ماو من ستالين بكل شهامة أن «يصفح» عن سولوفيوف.

والأنكى، أن ماو أخلّ بتعهده بعدم حصول متابعة تنظيمية للمؤتمر. ففي 23 تشرين الثاني أعلن ليو شاو-كي عن إنشاء مكتب علاقات في بكين يمكن من خلاله للبلدان المشاركة أن «تقيم علاقاتها». وأسرع ماو في إصدار الأوامر «للحمر الأجانب»، أما ستالين فلم يمنع ذلك.

كان ماو مدركاً تماماً أن القائد لن يتقبّل كل هذا الأمر الواقع، وأن بعض العقوبات ستنتج عن ذلك حتماً. ولكنه الآن يملك الصين ومعها ربع شعب العالم. فقد تمكّن من توسيع نطاق المعسكر الشيوعي ونفوذه ككل. لم يتحمّل ستالين إنكار وجوده. وكان ماو ينوي فعلاً إجبار ستالين على مساعدته للسير قدماً في طموحاته الشخصية الشاملة.

33- صراع الطاغيين
(1949-1950؛ العمر 55-56 سنة)

إن جلّ ما يطلبه ماو من ستالين هو المساعدة على بناء آلة حرب من المستوى العالمي، وتحويل الصين الى قوة شاملة. وتحقيق هذا الهدف ليس مرتبطاً بعدد الأسلحة التي يؤمنها ستالين، بل بالتكنولوجيا والبنية التحتية الضرورية لتصنيع الأسلحة في الصين. في ذلك الوقت، كانت مصانع الأسلحة في الصين قادرة على إنتاج أسلحة صغيرة دون سواها. وكان على ماو الاستعانة بمساعدة أجنبية إذا أراد التحرك بالسرعة التي يريدها - والتي تفوق سرعة اليابان في بناء صناعة أسلحة متقدمة من لا شيء في القرن التاسع عشر. ولم يكن ستالين رهان ماو المفضّل بل رهانه الوحيد. فالحرب الباردة بدأت حديثاً ولا يمكن بالتالي للغرب مساعدته في تحقيق غاياته بدون أن يغيّر طبيعة نظامه، وهذه مسألة لا تقبل النقاش.

لكن ماو يواجه مشكلة أساسية: إذ عليه إقناع ستالين بأن طموحاته مقبولة من وجهة نظر ستالين. فراح يغالي في التعبير عن ولائه له، ويُغدق ستالين بالمدح أمام ميكويان، كبير موفدي القائد، كما اصطنع أقوالاً يدلي بها كوفاليف، الرجل الصلة بينهما. نقل هذا الأخير الى ستالين أن ماو «انتفض مرة ورفع يده وصرخ ثلاث مرات: «ليحيا ستالين عشر آلاف سنة»». الى جانب هذا التلفيق، عرض ماو أمراً جوهرياً جداً - قطع كل روابط الصين بالغرب. فأخبر كوفاليف «سنكون سعيدين إذا خرجت سفارات كل البلدان الرأسمالية من الصين الى الأبد».

حفَّز هذا الموقف الشؤون الداخلية. ففي 31 كانون الثاني 1949 أخبر ماو ميكويان أن «الاعتراف سيسهّل [على] الولايات المتحدة وبريطانيا القيام بنشاطات تخريبية». وقد تخوّف ماو من أن أي وجود غربي يشجع الليبراليين ويعطي أخصامه شيئاً من الانفتاح ولو كان بسيطاً. فأوصد كل الأبواب من خلال فرض سياسة أسماها «تنظيف البيت قبل دعوة الضيوف». «تنظيف البيت» هو تعبير لطيف عن عمليات التطهير العنيفة والدموية والى إقامة نظام رقابة مُحكَم يمتد في كل أنحاء الدولة ويشمل سد منافذ كل البلد وحرمان الصينيين من الخروج، وطرد كل الغربيين بشكل فعلي. كما كان طرد الأجانب وسيلة للتأكد من عدم وجود مراقبين من الخارج لعمليات التطهير. ولم يفتح ماو الباب قليلاً إلا بعد أن انتهى من «تنظيف» - أو بالأحرى تطهير - البيت، فسمح بدخول قلّة من الأجانب الذين يمكن مراقبتهم عن

كثب والذين اعتبروا دائماً «نزلاءاً» وليس ضيوفاً.

أحسّ ماو بالقلق، وكان محقاً في ذلك بالنظر الى نوع النظام الذي يفكّر في إنشائه. وكان التأثير الغربي قوياً في الصين. فقد أخبر ماو ميكويان بأن «العديد من ممثلي الاستخبارات الصينية تعلّموا في أميركا وبريطانيا وألمانيا واليابان». في الواقع، كل المؤسسات التربوية المعاصرة إما تأسست على يد غربيين (أي الإرساليات في أغلب الأحيان) أو تأثرت الى حد بعيد بالغرب. وفي صيف 1949 كتب ليو لستالين «الى جانب الصحف والمجلات ووكالات الأنباء، تملك أميركا وبريطانيا وحدهما 31 جامعة ومدرسة متخصصة، في الصين، و32 مؤسسة تربوية دينية و29 مكتبة إضافة الى 2688 مدرسة و3822 بعثة أو منظمة دينية و147 مستشفى.

كانت الصين تفتقر الى المتعلمين وخاصة اصحاب المهارات، وكان ماو بحاجة الى هؤلاء الأشخاص لتشغيل البلاد وبخاصة المدن. وخلافاً للإفتراض الشائع في هذا الإطار، كان الاهتمام منصباً على المدن بشكل أساسي. في آذار 1949 قال أمام كبار الضباط «إذا عجزنا عن إدارة المدن، لن نستمر طويلاً». فهدفه هو إخافة طبقة المثقفين وذلك لمواقفها الغربية الليبرالية. ولعل تحقيق ذلك كان أكثر سهولة لو أدرك الأخصام المحتملون عدم وجود ممثلين غربيين في البلد يمكنهم الاحتكام إليهم، أو أية وسائل إعلام أجنبية تروي القصة.

كان ماو قلقاً بشأن الانجذاب الحاصل داخل حزبه نحو الغرب. فجيشه يحب الأسلحة الأميركية: حرّاسه الشخصيون كانوا يقارنون بازدراء الرشيشات السوفياتية بالبندقيات الصغيرة الأميركية الصنع ويناشدون ماو بقولهم: «البنادق الصغيرة [الأميركية] خفيفة ودقيقة جداً. لماذا لا يسعنا الحصول على مزيد من البنادق الصغيرة؟ السيارات الأميركية بدورها كانت تثير خشية إيجابية: تذكر أحد ضباط الحزب الشيوعي الصيني في المرفأ الروسي المحتل في داليان والذي يملك سيارة فورد 1946 سوداء لامعة: «جميل جداً التباهي بها وإثارة اهتمام القائد الأعلى في الجيش السوفياتي» الذي طلب استعارتها يوماً واحداً، الأمر الذي دفعه الى الاستعلاء قليلاً على الروس. كان هدف ماو إحباط أية فرصة للغرب بالتأثير على حزبه في أي حقل من الحقول، بدءاً من الأفكار وصولاً الى السلع الاستهلاكية؛ في هذا المجال كان ماو أكثر اجتهاداً حتى من ستالين.

إن السبب الرئيسي الذي دفع ماو الى تجنب الاعتراف بالغرب هو الرقابة. لكن غايته الأولية هي أن يظهر لستالين التزام الصين الجديدة الكامل بالكتلة الشيوعية. وهذا هو السبب الأساسي لعدم إقامة بكين علاقات ديبلوماسية مع أميركا ومعظم الدول الغربية عند إنشاء النظام. وكان الاعتقاد السائد بأن الولايات المتحدة هي التي رفضت الاعتراف بـ«صين ماو». في الواقع، بذل ماو جهداً خاصاً ليستحيل حصول هذا الاعتراف من خلال التزام أعمال

عدائية. وعندما استولى الشيوعيون على شينيانغ في تشرين الثاني 1948، كانت فيها ثلاث قنصليات غربية (الأميركية، البريطانية والفرنسية)، وكان الحزب الشيوعي الصيني يتقرّب منها في البداية. لكن سرعان ما أصدر ماو أوامر «بطردها بالقوة»...كان تشو صريحاً مع ميكويان: «لقد خلقنا لها ظروفاً لا تُحتَمل لإرغامها على الرحيل»(*). في 18 تشرين الثاني، وُضع القنصل العام الأميركي وارد Ward وطاقمه في الإقامة الجبرية. واتُّهم وارد لاحقاً بالتجسس فطُرد. وبالروح العدائية نفسها، اقتحمت الجيوش الحمراء مقر السفير الأميركي ج.لايغتون ستوارت في نانجينغ في نيسان 1949، عندما احتلت العاصمة القومية.

وكان ماو عدائياً أيضاً إزاء بريطانيا. ففيما كان الشيوعيون يعبرون يانغتزي في أواخر نيسان أبريل متجهين جنوباً، ركنت سفينتان بريطانيتان على هذه الضفة من النهر وهما: الأميتيست HMS Amethysyt والكونسورت HMS Consort. أمر ماو «بقصف كل السفن الحربية التي تعترض طريق عبورنا. عاملوها كسفن قومية». فقُتل 42 بحاراً بريطانياً أي أكثر من مجموع القتلى العسكريين الغربيين الآخرين طوال فترة الحرب الأهلية. ابتعدت «كونسورت» في حين ارتطمت الأميتيست بالقعر. بالعودة الى بريطانيا، قام البحارة الغاضبون بضرب قائد الحزب الشيوعي هاري بوليت الذي قبع في المستشفى. أما ونستون تشرشل، قائد المعارضة آنذاك، فسأل في البرلمان لماذا ليس لدى بريطانيا «في المياه الصينية حاملة طائرات واحدة إن لم يكن إثنتين، قادرة على ...الانتقام بقوة فعالة».

أقلق هذا الحادث ستالين كثيراً فوضع القوات السوفياتية في كل الشرق الأقصى في حالة تأهب قصوى – وهذه المرة الوحيدة التي يحصل فيها ذلك ارتباطاً بالحرب الأهلية الصينية. كان ستالين قلقاً من إمكانية تدخّل الغرب عسكرياً وتوريط روسيا، فأبرق لماو بشكل عاجل لينتقص من شأن علاقتهما: «لا تعتقد أن الوقت مناسب الآن لإعلان الصداقة بين الاتحاد السوفياتي والصين الديمقراطية». كان على ماو أن يخفف حدة عدائيته فأصدر أوامر جديدة «لتحاشي صدامات مع السفن الأجنبية؛ فلا تطلق النار [عليها] بدون أمر من المركز. وهذا أمر هام، وهام للغاية. كما طلب من ضباطه أن «يحموا...بشكل خاص الديبلوماسيين من أميركا وبريطانيا»، «وإلا حصلت كارثة كبيرة». في 27 نيسان، علّق التقدم نحو شانغهاي التي كانت أهم مركز اقتصادي ومالي في البلد، ومحط اهتمام الغرب – وهي بالتالي أكثر منطقة يمكن أن يتمركز فيها الغرب فينشر فيها قوات عسكرية ضخمة.

وللتخفيف من خطر التدخل الغربي، قام ماو في 10 أيار بخطوات تضليلية من خلال

(*) استخدم تشو عبارة «الستار الحديدي» ليشرح ما أراده الحزب الشيوعي الصيني: «التقدم نحو تغطية منشوريا بستار حديدي ضد القوى الأجنبية»، «ما عدا الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية».

السماح بقيام محادثات مع السفير الأميركي ستوارت الذي بقي في نانجينغ بعد رحيل الحكومة القومية. كان ستوارت «مساعداً قديماً للصين» واعتقد بأمل كبير أن باستطاعته التقريب بين واشنطن وماو. بعد مرور عشرات السنين، أوضح مفاوِض ماو ووزير الخارجية المستقبلي هيانغ هواي، نوايا ماو: «لم يكن ماو وتشو...يبحثان عن علاقات صداقة. كان همهما واحداً: إحباط تدخل أميركي كبير من شأنه إنقاذ القوميين في الساعة الحادية عشرة...»

ولمزيد من الاحتياء ضد أي تحرّك مفاجىء من القوى الأجنبية، قام ماو بتلفيق مجموعة من المعلومات المغلوطة. ففي 30 أيار، أبلغ تشو إن-لاي أحد الوسطاء رسالة شفهية ينقلها الى ترومن Truman. كانت الرسالة تراعي بدقة آمال الأميركيين في ذلك الوقت، إذ تحدثت عن انشقاق داخل الحزب الشيوعي الصيني بين «الليبراليين» الموالين للغرب برئآسة تشو نفسه، و«الراديكاليين» الموالين للسوفيات برئآسة ليو شاو-كي نفسه، وأنه في حال حصل تشو على دعم أميركا، سيتمكن من التأثير على سياسة الحزب الشيوعي الصيني الخارجية. كانت هذه مجرد خدعة، لكنها ساهمت في تحقيق التضليل حول إمكانية ارتماء الحزب الشيوعي الصيني في أحضان الغرب(*).

إن هذه الديبلوماسية المزيفة التي تهب كالرياح المتقطعة وكأنها هدنة مؤقتة في ساحة المعركة، لم تكن تعني بأي شكل من الأشكال تراجع ماو عن عزمه تجنّب الغرب. حوالى منتصف أيار، أعطى الضوء الأخضر لشن هجوم شامل على شانغهاي التي سقطت في نهاية الشهر. عندما انسحبت السفن الحربية الأجنبية من شانغهاي مع اقتراب الجيوش الحمراء، وإذ سارعت القوات الأميركية الى ترك آخرق قواعدها في البر الرئيسي في كينغداو، زاد اقتناع ماو أكثر من أي وقت مضى بأن القوى الغربية لن تجتاح الصين حيث ستعجز عن التقدم، كما أظهرت الخبرة اليابانية.

برهن ماو الآن عن عدائية كاملة تجاه الغرب. فقد صرح في مقال نُشر في صحيفة بيبولز دايلي *People's Daily* في 30 حزيران، أن سياسته الخارجية ستقوم على «الانحياز حصرياً الى معسكر واحد»: yi-bian-dao. ولا يعني ذلك مجرد البقاء بحزم داخل المعسكر الشيوعي، بل يعني تجميد العلاقات مع الغرب. بعد أيام على ذلك، تمّ توقيف نائب القنصل الأميركي في شانغهاي وليم أوليف، في الشارع وزُجّ في السجن وضُرب بقساوة شديدة الى حد انه توفي متأثراً بجراحه. فاستدعت الولايات المتحدة السفير ستوارت على الفور. في نهاية شهر تموز، عندما حاولت السفينة أميتيست المغادرة أصدر ماو أوامر «بقصفها بعنف». غادرت أميتيست

(*) وشكل ذلك أيضاً مصدر اعتقاد خاطىء بأن ليو شاو كي كان أكثر تشدداً من تشو.

لكن سفينة ركاب صينية كانت راسية وراءها غرقت.

في الشهر نفسه، أي تموز، أوضح ماو لستالين أن سياسته المفضلة هي «الانتظار وعدم استعجال كسب اعتراف هذه الدول [الغربية]. فرح ستالين وكتب في الهامش مسطراً تحت كلام ماو «نعم! من الأفضل عدم الاستعجال».

كانت سياسة قطع العلاقات مع الغرب، هدية ماو لستالين قبيل لقائهما. وكان ماو يتوق لزيارته فور إعلان نظامه في تشرين الاول 1949: ستالين هو سيد المعسكر الشيوعي، وعلى ماو بالتالي أن يقابله، وهو يدرك تماماً أن نوع الصفقات التي أرادها يجب أن تُناقَش وجهاً لوجه.

بقيت الزيارة معلّقة مدة سنتين، لكن ستالين استمر في خداع ماو والتلاعب برغبته الواضحة في حصول هذا اللقاء، لمعاقبته على التمادي في طموحاته التي تجاوزت كل الحدود. ولم تحصل الدعوة حتى بعد تكريس ماو قائداً أعلى للصين. في نهاية تشرين الاول، اضطر تشو لمقابلة السفير الروسي ليخبره بأن ماو يريد الذهاب الى موسكو لتقديم احترامه لستالين في عيد ميلاده السبعين في 21 كانون الاول 1949. وافق ستالين لكنه لم يعرض على ماو ما يشبه زيارة دولة – التي هي من حقه الشخصي– بالطريقة التي قد يتوقعها مَن ضم ربع شعب العالم الى المعسكر الشيوعي. على العكس، كان ماو ذاهباً كمجرد عضو في مجموعة قادة الأحزاب الآتين من مختلف أقطاب الأرض للتودد الى ستالين في عيده.

بدأ ماو رحلته في القطار في 6 كانون الاول وهي رحلته الأولى خارج الصين. لم يصطحب أي معاون رفيع المستوى بل كان سكرتيره الشخصي هو الأعلى مرتبة في الوفد. وصدق كوفاليف – صلة الوصل مع ستالين– في افتراضه أن سبب ذلك هو حصول إذلال ستالين لماو– وهذا أمر محتم – «بدون شهود صينيين». فعندما التقى ماو بستالين للمرة الأولى أبعد حتى سفيره عن اللقاء. وبما أنه قوي ظاهرياً أمام الجميع ويمكن بالتالي لأي إهانة تصدر عن «السيد» أن تُضعِف سيطرته على معاونيه.

ذهب ماو لرؤية ستالين يوم وصوله وكرر تأكيده التزام الصين الحصري مع روسيا وقال لستالين «إن العديد من الدول وبخاصة بريطانيا تقوم بحملات كبيرة للاعتراف بجمهورية الصين الشعبية. لكننا نؤمن مع ذلك بعدم استعجال هذا الاعتراف». ثم عرض مطالبه الجوهرية: المساعدة في بناء جهاز عسكري صناعي شامل مع التركيز على صناعة الطائرات وبناء الجيش الحديث، وبشكل خاص القوات البحرية.

في المقابل، كان ماو مستعداً للقيام بتنازلات هامة. فقد أتى الى موسكو يريد تأمين معاهدة صينية – سوفياتية جديدة تحل محل المعاهدة القديمة المبرمة بين الاتحاد السوفياتي وتشيانغ

كاي- شيك. ولكن بعد أن علم «بقرار ستالين عدم تغيير أي من بنود معاهدته في الوقت الحاضر» على أساس أن نبذ المعاهدة القديمة سيُدخِل تعقيدات على اتفاقية مالطا، تراجع ماو على الفور: «يجب أن نعمل لما فيه خير القضية المشتركة... يجب ألا تتغير المعاهدة في الوقت الحاضر». فالمعاهدة مع تشيانغ أعطت روسيا تنازلات على الأرض، وقد عرض ماو بكل سرور تركها بين أيدي الروس، وقال إن الوضع الراهن «يتلاءم تماماً مع المصالح الصينية...»

إن استعداد ماو القيام بتنازلات كبيرة لصالح تحقيق هدفه - المساعدة على تعزيز طموحاته الشاملة- بدا شفافاً جداً. ولكن ما على ستالين قياسه هو مدى تأثير هذه الطموحات على وضعه الخاص. فالصين القوية عسكرياً ستكون سيفاً ذو حدّين: مصدر قوة كبيرة للمعسكر الشيوعي - وله، ولكن أيضاً تهديداً ضخماً. لذلك احتاج ستالين الى مزيد من الوقت ليفكر ملياً: هل يقدّم لماو أي شيء بالمطلق؟ في هذه الحالة ماذا يقدم وبأي مقدار؟

أثر ذلك، أُمِر ماو فجأة بالانصراف الى مكان إقامته الخاضع للتنصت في الداشة الثانية لستالين التي تبعد مسافة 27 كلم خارج موسكو. مرت أيام ولم يُستكمَل الاجتماع. بقي ماو يحدق عبر النافذة وينظر الى الحديقة المكسوة بالثلوج ويصب غضبه على مساعده. أرسل ستالين العديد من الأتباع لرؤية ماو لكن من دون تفويضهم التحدث بشؤون العمل. بل ارتكزت مهمتهم - كما قال ستالين لمولوتوف - على «اكتشاف أي نوع من الرجال هو ماو» ومراقبته. عندما نقل كوفاليف لستالين أن ماو «غاضب وقلق» أجاب ستالين: «لدينا العديد من الزوار الأجانب هنا الآن. فلا يجب أن يُستفرد الرفيق ماو» بمعاملة مميزة.

ولكن في الواقع، استُفرد ماو بمعاملة خاصة - وقاسية - بالتحديد مع هؤلاء «الزوار». كان ماو يتوق لمقابلة قادة شيوعيين من الدول الأخرى، المتحمسين بدورهم لرؤيته -هو الرجل الذي أحرز لتوه انتصاراً يمكن تسميته ثورة أكتوبر الثانية. لكن ستالين أعاق التقاء ماو بأي منهم ما عدا المقابلات مع الهنغاري التافه ماتياس راكوزي. وقد طلب ماو مقابلة القائد الشيوعي الإيطالي بالميرو توغلياتي «ولكن» (بعد موت ستالين) قال ماو أمام وفد شيوعي إيطالي «ستالين لجأ الى آلاف الاستراتيجيات ليمنع عني ذلك»(*).

لمناسبة هذا الاحتفال بعيد ميلاد ستالين، في 21 كانون الاول، ارتدى ماو القناع الالزامي وأظهرته الصحف وهو يغالي في التصفيق لستالين. ستالين من جهته، بدا قلقاً من ماو وقد أجلسه الى يمينه على المنصة، وقد نقلت صحيفة برافدا أن ماو كان المتكلّم الأجنبي الوحيد

(*) مذكرات القائد الشيوعي البريطاني جون غولان حول ما قاله له ماو عام 1957 (عن عام 1949): «ولا حتى حرية في لقاء القادة. عيد المولد الـ70 - عدم الجرأة حتى هناك».

الذي وقف له الحضور في نهاية خطابه. في «العرض» التالي، كان الترحيب بماو حماسياً وعالياً «يشبه الحماس أمام بولشوي لا شك أنها لم تُشاهَد من قبل! على حد تعبير راكوزي الذي أضاف: وكان الحضور يغني «ستاين، ماو تسي-تونغ! وماو يردد: «العمر المديد ستالين! المجد لستالين»».

وما إن انتهى الاحتفال في اليوم التالي، حتى طلب ماو مقابلة ستالين، فصرخ في وجه كوفاليف: «أنا لست هنا من أجل عيد ميلاده فحسب. أنا هنا لمناقشة بعض الأعمال! ثم أضاف بأسلوب مختلف: «هل أنا هنا فقط للأكل والذهاب الى الحمام والنوم؟»

من بين هذه الوظائف الجسدية الثلاث لم تكن أي منها خالية من المشاكل: فعلى صعيد الطعام، كان ماو يشكو من أن مستضيفيه يقدمون له السمك المبرّد الذي يكرهه - كما قال لمعاونه - «إرم لهم هذا!» الذهاب الى الحمام كان مشكلة أساسية إذ لم يكن ماو يعاني فقط من الإمساك، بل يعجز عن استعمال المراحيض العادية مفضلاً الإقعاء. ولم يكن يحب الفراش الروسية الناعمة أو الوسادات وقال ثاقباً الوسادات المحشوة قليلاً: «كيف يمكنك النوم على هذه؟ يختفي رأسك!» فاستبدلها بوسادته الخاصة المحشوة بقشر الحنطة، واستبدل الفراش بألواح خشبية.

قابل ماو ستالين بعد يومين أي في 24 كانون الاول، لكن السيد رفض مناقشة مطالبه المتعلقة ببناء القوة العسكرية الصينية واقتصر الحديث على المسألة التي لم يتناولاها في لقائهما الأول: دور ماو تجاه الأحزاب الشيوعية الأخرى كأحزاب الفيتنام واليابان والهند. وبعد جسّ مدى شهية ماو لاقتناء الأراضي، اختفى ستالين مجدداً بضعة أيام، تخللها عيد ميلاد ماو السادس والخمسين في 26 كانون الاول، لكنه مرّ بدون أن يترك أي أثر. أمضى ماو وقته مسجوناً في الداشة يعالج أموراً داخلية عبر البرقيات. وأخبر لاحقاً أنه «حاول الاتصال به هاتفياً [بستالين] في شقته لكن قيل لي إن ستالين ليس في البيت ونصحوني بمقابلة ميكويان. كانت هذه إهانة لي...» اتصل ستالين بماو بضع مرات لكن المخابرات كانت مختصرة ولم تتناول أي موضوع. ثم رفض ماو دعوات لزيارة مَواقع تستحق المشاهدة قائلاً إنه ليس مهتماً وهو موجود في موسكو للعمل. ففي غياب العمل يفضّل البقاء في الداشة والنوم. كان ماو متشنجاً وغاضباً. أحياناً كان يظهر «بائساً» أمام معاونه الحميم.

يبدو أن ماو قرر الآن أن يلعب «ورقة الغرب» ليحث ستالين على التحرك. فقد أعلَم، أقلّه من خلال التحدث بصوت عال داخل مقره، أنه «مستعد لإبرام صفقات عمل مع... بريطانيا واليابان وأميركا». وخلافاً لما قاله لستالين لدى وصوله الى موسكو (انه لن «يستعجل الاعتراف به» من قبل بريطانيا) بدأت المحادثات مع بريطانيا وأدت الى اعتراف لندن بنظام

ماو في 6 كانون الثاني 1950. في هذه الأثناء نشرت الصحف البريطانية أن ستالين وضع ماو في الإقامة الجبرية وأن هذا «التسريب» قد يكون من صنع رجال ماو. في وقت لاحق، صرح ماو: «قد يكون هذا التحول في السياسة نحو الغرب هو الذي ساهم في دفع تغيير موقف ستالين» لافتاً الى أن المفاوضات الحقيقية «بدأت بعد ذلك مباشرة».

في يوم رأس السنة 1950 اتخذ ستالين قراره. ففي 2 كانون الثاني، نشرت صحيفة برافدا «مقابلة» مع ماو قال عنها بسخرية بعد سنوات «إن ستالين وضع مسودتها وكأنه سكرتيري». فالنص الذي أعدّه ستالين يوضح تماماً أنه يبدي رغبة في التوقيع على معاهدة جديدة. بالنسبة الى ماو يعني ذلك أن ستالين كان مستعداً للتعاطي مع المسألة الأساسية وهي تحويل الصين الى قوة عسكرية عظمى. فدعا ماو تشو إن-لاي من بكين إضافة الى مدرائه الصناعيين والتجاريين الأساسيين للبدء بمفاوضات مفصلة، محدداً أن على تشو السفر في القطار وليس في الطائرة لأسباب أمنية. لكن تشو اضطر للمجيء بطائرة روسية، فألمح ماو الى أنه كان يتخذ تدابير احتياطية.

ومع ذلك، لم يكن ماو مستعداً لتقبل المعاملة التي لقيها بدون رد الضربة لستالين. وسرعان ما سنحت له فرصة لذلك عندما أدلى وزير الخارجية الأميركي دين أشيسون بخطاب أمام نادي الصحافة الوطنية في واشنطن في 12 كانون الثاني، تزامن توقيتها مع بقاء ماو المطول في موسكو، اتهم فيه روسيا «بفصل المقاطعات الشمالية في الصين...و...إلحاقها بالاتحاد السوفياتي»، وقد باتت العملية «مُنجزة» في منغوليا الخارجية و«شبه منجزة» في منشوريا وعلى طريق الإنجاز في منغوليا الداخلية وكزنجيانغ. فأرسل ستالين ساعده الأيمن، مولوتوف، ليقول لماو أن عليه نفي الخطاب باسم وزارة الخارجية الصينية، وبأن منغوليا وروسيا ستفعلان الشيء نفسه. وافق ماو على الطلب ولكن بدل النفي باسم وزارة الخارجية، كتب نصاً باسم كبير الصحافيين لديه، وشخصية من المرتبة الدنيا نسبياً. أشارت الورقة الى الدولة السوفياتية التابعة، منغوليا الخارجية، التي كانت مستقلة صورياً تزامناً مع المناطق الصينية، فبدت وكأنها تقول إن الصين رفضت إقدام روسيا على ضم الأراضي كأمر واقع.

عشية صدور هذه المقالة في صحيفة ماو الرئيسية **بيبولز دايلي**، في 21 كانون الثاني، قام ستالين باستدعاء ماو الى الكرملين لتوبيخه أشد التوبيخ واتهامه ببروز «تيتو خاص» بالصين. وقد تولى الأمر خادمه الأمين مولوتوف في حضور بيريا. وأصر ستالين على ان تُمثل مسرحية التوبيخ أمام تشو إن-لاي الذي وصل لتوه في اليوم السابق. فبدا ماو شاحباً رغم أن تشو بالنسبة اليه هو بمثابة خصيّ، ومن بين ضباط المراتب العليا الذين قلما يذكر ماو أنه رآهم يمسكون بزمام الأمور.

بعد معاقبة ماو، دعاه ستالين الى العشاء في الداشا (الفيلا) الخاصة به برفقة تشو. وكان مدركاً أن ماو ليس في وارد المخاطرة بطلب منغوليا الخارجية بما أن بكين اعترفت بها ديبلوماسياً في تشرين الاول 1949. إن تصرف ماو المتمرد في شأن نفي خطاب أشيسون، كان تعبيراً عن امتعاض أكثر منه نتيجة سياسة مرسومة (رغم ذلك طلب ستالين تبادلاً رسمياً للمذكرات المختصة بوضع منغوليا). في الطريق الى العشاء، جلس ستالين وشي زي مترجم ماو على المقاعد المتحركة في وسط السيارة فيما جلس ماو وتشو على المقاعد الأمامية. في السيارة، تذكر شي زي أن الصمت كان سائداً والجو ثقيلاً كالرصاص.

«للتخفيف من هذا الضغط، تحدثت قليلاً مع ستالين ثم سألته: «ألم تعد بزيارة وفدنا؟» فأجاب بسرعة: «نعم فعلت وما زالت لدي هذه الرغبة». قبل أن ينتهي سألني الرئيس ماو: «بماذا تحدثه؟ لا تدعوه لزيارتنا». اعترفت فوراً أنني بالفعل كنت أتحدث معه عن ذلك. فقال الرئيس ماو: «اسحب ذلك. لا دعوات من الآن فصاعداً».

...ساد الصمت مجدداً. كان الجو ثقيلاً كأن رصاصاً جديداً يُرشق علينا. بقينا على هذه الحال مدة ثلاثين دقيقة.

...في أثناء العشاء، بقي الجو بارداً ومضجراً...وحافظ الرئيس على صمته ولم يتفوه بأية كلمة...

ولكسر هذا الجليد، وقف ستالين ليدير الفونوغراف...ولم ينجح أي من الرجال الثلاثة أو الأربعة الذين تعاقبوا على دفع ماو الى حلبة الرقص...وانتهت الأمور الى شيء مسيء للسمعة ...»

أخيراً وقّع الطرفان على معاهدة جديدة في 14شباط 1950. وكان النص المنشور مجرد إجراء شكلي؛ إذ ورد جوهر المعاهدة في ملحقات سرية. وقد تأكد القرض بقيمة 300 مليون $ أميركي الذي طلبته الصين رغم أنه وزع على خمس سنوات، ولا تحصل الصين فعلياً خلال الجزء الأول من السنة إلا على ثلث القيمة (20 مليون دولار أميركي) على أساس أن القيمة الباقية مستحقة نتيجة شروات سابقة. خُصص القرض بكامله لشراءا عتاد عسكري من روسيا (في محيط ماو المغلق جرى الكلام على «قرض عسكري»). وكان نصف مجموع القرض أي 150 مليون دولار، مخصصاً للسلاح البحري. وقد أعطى ستالين الضوء الأخضر لخمسين مشروعاً صناعياً ضخماً - وهذا أقل بكثير مما أراده ماو.

في المقابل، وافق ماو على اعتبار منشوريا وكزينجيانغ منطقتي نفوذ سوفياتية، مع تعاطي روسيا الحصري بكل «نشاطاتها الصناعية والمالية والاقتصادية...». وبما أن هاتين المنطقتين تشكلان المصدرين الأساسيين للموارد المعدنية الغنية والاستثمارية، كان ماو يتنازل فعلياً عن

معظم الموجودات الصينية القابلة للمتاجرة. وقال بنفسه عن هاتين المقاطعتين أمام المقربين منه أنهما «مستعمرتان». خلال العقود اللاحقة قال للأميركيين، إن الروس اغتصبوا نصف أراضي كزنجيانغ وكانت تسمى منطقة نفوذ مانتشوكو Manchukuo بدورها [أقتبس] سميت منطقة نفوذهم». سمح لروسيا باحتكار كل «فائض» الصين من التنجستين والقصدير والأنتيمون مدة أربع عشرة سنة فحرمت الصين بالتالي من فرصة بيع حوالى 90 % من موادها الأولية الممكن تسويقها في الأسواق العالمية حتى أنصاف الستينيات.

في عام 1989، قال خلف ماو القائد دينغ كزياو بينغ للقائد الروسي ميخاييل غورباتشوف: «من بين كل القوى الأجنبية التي اجتاحت وخدعت واستعبدت الصين منذ حرب الأفيون (عام 1842)، كانت اليابان الوحيدة التي أصيبت بالضرر الأكبر؛ ولكن في النهاية، الدولة الأكثر استفادة من الصين كانت روسيا القيصرية وتشمل [أقتبس] الاتحاد السوفياتي خلال مرحلة من المراحل...» كان دينغ يلمح بدون شك الى هذه المعاهدة.

بذل ماو جهداً كبيراً للتكتم على مدى خيانة هذه المعاهدة. وعندما راجع مسودة الإعلان، محا بدقة كل العبارات مثل «اتفاقيات إضافية» و«ملحقات»، التي من شأنها دفع الناس الى الشك بوجود هذه الوثائق السرية وكتب على الفقرة المشطوبة: «دقيق جداً، دقيق جداً!»(*).

وأمام إصرار ستالين، لم تكتفِ الصين بدفع رواتب ضخمة للتقنيين السوفيات في الصين، إضافة الى الفوائد الشاملة لهم ولعائلاتهم، بل كان عليها أن تدفع أيضاً تعويضاً للمؤسسات الروسية بسبب خسارتها خدمات التقنيين الذين أتوا الى الصين. غير أن التنازل الأهم الذي كان ماو قلقاً من إخفائه هو إعفاء الروس من السلطان القضائي الصيني. هذه هي المسألة الأساسية التي كان الحزب الشيوعي الصيني دائماً يركز عليها كتجسيد «للإذلال الإمبريالي». والآن ها هو ماو بنفسه يدخلها بشكل سري.

أراد ماو إنهاء رحلته على مستوى رفيع فناشد ستالين، الذي لم يجتمع بالأحزاب خارج الكرملين، أن يحضر الاحتفال الذي سيقيمه في فندق ميتروبول عشية التوقيع: «نرجو أن تمر قليلاً. ويمكنك المغادرة باكراً متى شئت...» قرر ستالين أن يمنح ماو لحظة المجد هذه. وعندما وصل ستالين عند الساعة التاسعة مساءاً وبيده قنينته الخاصة، أصيب الزوار بالذهول.

لكن ستالين لم يأت فقط لإظهار إرادة طيبة بل ثمة رسالة وراء ذلك. فشرب نخب القائد اليوغوسلافي تيتو الذي طرده منذ فترة من المعسكر الشيوعي. وأشار ستالين بالتحديد الى أن

(*) عندما ورد خبر في آذار 1950 عن شركات مشتركة، قال ليو شاو كي إن الأنباء «أثارت موجات كبيرة بين طلاب بكين الذين شكوا بأن ذلك ...من شأنه تدمير سلطة الصين. طلب العديد من الأعضاء الشباب في العصبة...تفسيراً؛ حتى أن البعض صرخوا عالياً...بأن حكومة الشعب باعت البلد». وذلك بدون معرفة نصف الخبر.

أي دولة شيوعية تسير في طريقها الخاصة ستكون نهايتها سيئة ولن تعود الى ممارسة أعمالها إلا في ظل قائد جديد. كان التحذير واضحاً - وكاد يكون أكثر تهديداً لو كُشفت مخططات ستالين بقتل تيتو.

لكن هذه الأقاويل لم تحبط ماو. ففي ذلك اليوم، وخلال حفل توقيع المعاهدة، تقدم ستالين القصير خطوة الى الأمام عند التقاط الصور. بعد ذلك لاحظ ماو أمام معاونيه متبسماً: «سيبدو طويلاً مثلي إذاً!» (يبلغ طول ماو 1.8 م).

كان ماو عازماً على ملاحقة حلمه بجعل الصين، قاعدته، قوة عظمى. وستالين بدوره كان مصمماً على إعاقة طموحه هذا - الامر الذي استنتجه ماو، لأن ما حصل عليه من ستالين كان قليلاً نسبة للتنازلات الكبيرة التي قام بها. فما سمح له ستالين بحيازته هو أقل بكثير من الهيكل الأساسي للآلة الحربية العالمية المستوى. كان على ماو إيجاد سبل أخرى لانتزاع المزيد من ستالين.

34- لماذا بدأ ماو وستالين الحرب الكورية؟
(1949-1950؛ العمر 55-56 سنة)

اعترف ستالين أن ماو لديه الدينامية والموارد، وبخاصة الموارد الإنسانية، لتوسيع حدود الشيوعية في آسيا بشكل هام. ولعدم زعزعة قوته الخاصة، قرر ستالين عدم إنشاء كومينفورم آسيوي من شأنه إعطاء القائد الصيني وضعية آسيوية شاملة ورسمية؛ ولكن بدلاً من ذلك، تصدّق على ماو ببعض البلدان الفردية بحيث يبقى هو، ستالين، القائد الاعلى. وفي الاجتماع الثاني بينهما خلال وجود ماو في موسكو، أوكل اليه الاشراف على فيتنام.

كان اهتمام ستالين بفيتنام ضئيلاً حتى الآن. في عام 1945 عندما شن القائد الشيوعي الفيتنامي هو شي مينه ثورةً على السلطة الاستعمارية الفرنسية وأعلن حكومة مستقلة مؤقتة، لم تهتم موسكو حتى بالرد على اتصالاته. ومع أن ستالين لا يثق تماماً بهو، فقد غيّر موقفه بشكل جذري ما إن تسلم ماو زمام الأمور ووصلت الجيوش الصينية الى حدود الفيتنام في أواخر عام 1949. في 30 كانون الثاني 1950، وفيما كان ماو في موسكو، أعترف ستالين بنظام هو بعد أيام قليلة على اعتراف ماو به. إن غياب الحدود المشتركة مع الفيتنام، صعَّبت على ستالين السيطرة من بعيد، في حين تمكنت الصين من التزويد بالأسلحة والسلع والتدريب عبر حدودها مع الفيتنام (ولاوس). عندما أعطى ستالين لماو الوصاية على الفيتنام، أعطى نفسه طريقاً للوصول الى الفيتنام، ووهب ماو، أثناء المرور عبر الصين، الثمن الباهظ لدعم التمرد الهندي-الصيني.

كان ماو يحاول أصلاً ضم الشعب الفيتنامي تحت وصايته. عاش هو في الصين لأكثر من عشر سنوات ومن ضمنها مدة في ينان، وكان يتكلم اللغة الصينية بطلاقة. وكان ماو يدرّب ويموّل ويسلّح الفيتناميين، ولكن عندما وضع خطة لإدخال الجيوش الصينية ما إن سيطر على الحدود الفيتنامية أواخر عام 1949، استدعاه ستالين ليستميله. فقد أراد هذا الاخير أن يجمع كل الخيوط بيديه أولاً.

أحضر هو شي مينه الى موسكو عبر بكين، ووصل في الوقت المحدد ليكون ظهوره دراماتيكياً في العشاء الوداعي الذي أقامه ستالين على شرف ماو في الكرملين في 16 شباط 1950. قال ستالين لهو أن مساعدة الفيتنام من مسؤولية الصين- وعلى نفقتها. وكان هو القائد

الشيوعي الأجنبي الوحيد الذي سُمح لماو أن يجري معه محادثات خاصة خلال رحلته؛ فعاد الرجلان الى الصين في القطار نفسه ضمن مواكبة، بين قطار يحمل طيارين سوفيات ذاهبين لحماية شانغهاي والمدن الصينية الساحلية، وأخر محمّل بـ MiG-15s.

تولى ماو شخصياً خطة العمل في الفيتنام، مدققاً في الوقت نفسه في الاستراتيجية الكبيرة والتفاصيل الصغيرة للعمليات العسكرية. الهدف الأول كان ربط قاعدة الشيوعيين الفيتناميين بالصين، كما فعل الحزب الشيوعي الصيني مع روسيا عام 1945-1946. في داخل الصين، انتهت في آب 1950 الحرب الخاطفة التي شنت باتجاه الحدود. في خلال شهرين، سمح ذلك للفيتناميين بالانتصار في سلسلة حاسمة من المعارك عُرفت بحملة الحدود؛ كانت نتيجتها فقدان الجيش الفرنسي سيطرته على الحدود مع الصين. بعد ذلك، قدمت الصين مساعدات كبيرة. وفي 19 آب، قال ماو لمبعوث ستالين بافيل يودين إنه خطط لتدريب 60-70 ألف جندي فيتنامي. فتكون الصين خلفية آمنة ومستودع ذخيرة، الأمر الذي سمح للفيتناميين بشن حرب دامت 25 سنة وبهزم الفرنسيين ومن ثم الأميركيين.

في معظم هذه السنوات، كانت الصين تحمل بشكل شبه كامل العبء اللوجستي الكبير للقتال في الهند الصينية. بالنسبة الى ماو، لم تكن الكلفة أمراً هاماً في هذا المجال. فعندما ذكر المبعوث الأول للحزب الفرنسي أمام هو الطرق التي يمكن أن يلجأ اليها الشيوعيون الفرنسيون لمساعدة الفيتناميين، قال له ليو شاو-كي: «لا تُضع وقتك في ذلك. لا تدخل في أمور كالمساعدات الطبية مثلاً. يمكننا تولي ذلك. في النهاية يوجد 600 مليون صيني...».

لم يمر وقت طويل حتى راح ماو يحاول «إدخال فكره» زبائنه إذ فرض على الفيتنام إصلاحاً مكروهاً جداً للأراضي في الخمسينيات، فترأس المرشدون الصينيون حتى المحاكم الكنغرية التي حكمت على الفيتناميين بالموت في بلدهم. «الشاعر الفيتنامي المكرّم» تو هو، نظم شعراً هزلياً صريحاً ومذهلاً عن دور ماو:

أقتل، أقتل أكثر...
من أجل المزرعة والأرز الجيد والجمع السريع للضرائب...
أجّلوا الرئيس ماو، أجّلوا ستالين...

ومع أن بعض القادة الفيتناميين عارضوا بعنف طريقة ماو في الإصلاح الزراعي، لم يُبدِ هو شي مينه سوى معارضة ضعيفة ومتأخرة على محاولة ماو تحويل الثورة الفيتنامية الى استنساخ للثورة الصينية.

بين شهري أيلول وتشرين الاول 1950، خفف ماو نسبة العمليات العسكرية في الفيتنام

بهدف التركيز على حرب أوسع في قطعة أرض أخرى قرر ستالين إعطاءها له: إنها كوريا.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية كانت كوريا-التي ألحقت باليابان في بداية القرن- مقسمة الى نصفين على طول خط العرض الـ38؛ كانت روسيا تحتل النصف الشمالي والولايات المتحدة النصف الجنوبي. بعد الاستقلال الرسمي عام 1948 خضع شمال كوريا لديكتاتور شيوعي هو كيم إيل سونغ. في آذار 1949 وفيما جيوش ماو ماضية نحو النصر، ذهب كيم الى موسكو ليحاول إقناع ستالين بمساعدته على احتلال الجنوب. قال ستالين «لا» إذ من شأن ذلك أن يؤدي الى مواجهة أميركا. ثم توجه كيم الى ماو، وبعد شهر واحد، أرسل مندوبه وزير الدفاع الى الصين. فعبّر ماو أمام كيم عن التزام حازم معلناً إنه سيساعد بيونغ يانغ بكل سرور على مهاجمة الجنوب ولكن هل يمكن الانتظار الى حين استيلائه على الصين بكاملها؛ وقال: «من الأفضل أن تشن حكومة كوريا الشمالية هجوماً شاملاً على الجنوب في النصف الأول من عام 1950...» وأضاف مؤكداً: «يمكننا عند الضرورة أن نضع في تصرفك خلسة عدداً من الجنود الصينيين». وقال إن للكوريين والصينيين شعراً أسوداً ولن يتمكن الأميركيون من معرفة الفرق: «لن يلاحظوا».

شجع ماو بيونغ يانغ على اجتياح الجنوب واستخدام الطاقة البشرية المتطوعة من الولايات المتحدة الأميركية والصين منذ أوائل أيار 1949. في تلك المرحلة، كان يتحدث عن إرسال جيوشه الصينية خلسة، على أنها عناصر كورية، وليس عن دخول الصين في صِدام مفتوح مع أميركا. ولكن ماو تغيّر خلال زيارته الى روسيا. فقد زاد عزمه على مواجهة أميركا علناً - إذ وحدها حرب مماثلة ستمكّنه من ابتزاز ستالين فيحصل على ما يريده لبناء آلة حرب على مستوى عالمي خاصة به. وما فكّر به ماو اختُصِر في صفقة: يحارب الجنود الصينيون الأميركيين من أجل ستالين مقابل تكنولوجيا ومعدات سوفياتية.

تسلّم ستالين تقاريراً من سفيره في كوريا ومن صلة الوصل مع ماو، حول توق هذا الأخير الى حصول حرب في كوريا. ونتيجة لهذا العنصر الجديد، بدأ ستالين يعيد النظر في رفضه السابق لكيم بأن يجتاح الجنوب.

كان كيم يضغط على ستالين: ففي 19 كانون الثاني 1950 نقل السفير السوفياتي في بيونغ يانغ، تيرينتي شيتيكوف، أن كيم قال له «بحماس» «الآن وقد استكملت الصين تحريرها» فستكون كوريا الجنوبية «التالية على الخط». «اعتقد كيم أنه بحاجة لأن يزور الرفيق ستالين مجدداً ليحصل على تعليمات وعلى موافقة لشن هجومه». أضاف كيم «إذا تعذّر لقاء ستالين الآن، فسيحاول لقاء ماو». وشدد على أن ماو «وعد بمساعدته بعد انتهاء الحرب في الصين». وإذ لعب كيم «ورقة ماو»، أخبر شيتيكوف «أن لديه مسائل أخرى يطرحها على ماو تسي-

تونغ وبخاصة مسألة إمكانية إقامة مكتب شرقي للكومينفورم» (بدون ذكر التحدث في هذا الشأن مع ستالين). وقال: «ستكون لماو تعليمات حول مختلف القضايا». وكان كيم يخبر ستالين بأن ماو عازم على دعمه عسكرياً، وأنه في حال إصرار ستالين على رفض الاجتياح، سيذهب (كيم) مباشرة الى ماو ويضع نفسه في تصرفه.

بعد مرور 11 يوماً على ذلك، في 30 كانون الثاني، أبرق ستالين الى شيسيكوف ليخبر كيم أنه «مستعد لمساعدته في هذا الشأن». إنه أول برهان موثّق على موافقة ستالين على بدء حرب في كوريا وقد بدّل موقفه بسبب ماو الذي يملك مصدر القوة الكبرى–طاقة بشرية لا تنضب. عندما أتى كيم الى موسكو بعد شهرين، قال ستالين إن المحيط الدولي «تغير بشكل كاف يسمح بدعم أكثر فعالية لتوحيد كوريا». وأضاف موضحاً أن ذلك حصل لأن «الصينيين باتوا الآن في موقع يجعلهم يكرسون مزيداً من الانتباه للمسألة الكورية»؛ ويوجد «شرط حيوي واحد لذلك –هو دعم بكين» للحرب. على كيم «أن يثق بماو الذي يفهم الشؤون الآسيوية جيداً»(*).

إن حرباً في كوريا يتواجه فيها الصينيون والكوريون ستهب الاتحاد السوفياتي حسنات لا تحصى: فهي اختبار ميداني لتجهيزاتها الجديدة، وبخاصة الطائرات النفاثة ميغ، وللتكنولوجية الأميركية على حد سواء، الى جانب اكتساب شيء من هذه التكنولوجيا ومن معلومات قيّمة حول أميركا. بالتالي، ستكون الصين وكوريا مرتبطتين بالأسلحة الروسية، ما يسمح لستالين بمعرفة مدى تورط روسيا. أكثر من ذلك، سيتمكن من اختبار مدى قدرة أميركا على التمادي في حرب ضد المعسكر الشيوعي.

ولكن بالنسبة الى ستالين، أكثر ما يجذب في حرب في كوريا هو قدرة الصينيين– بأعدادهم الغفيرة التي كان ماو يتوق الى استخدامها– على إبعاد، أو في جميع الأحوال إحباط العديد من الجنود الأميركيين بحيث تنقلب موازين القوى لمصلحة ستالين فتتحول مخططاته الى واقع. شملت هذه المخططات الاستيلاء على دول أوروبية مختلفة، من بينها ألمانيا واسبانيا وإيطاليا. السيناريو الوحيد الذي ناقشه ستالين خلال الحرب الكورية كان هجوماً جوياً على الأسطول الأميركي في البحار العليا بين اليابان وكوريا (على الطريق نحو إنشون Inchon في أيلول 1950). في الواقع، قال ستالين لماو في 5 تشرين الاول 1950 إن المرحلة فتحت نافذة فرصة فريدة –وقصيرة المدى– لأن اثنتين من الدول الرأسمالية الأساسية، ألمانيا واليابان، كانتا خارج

(*) قال كيم إيل سونغ لاحقاً لرئيس الحزب الشيوعي الصيني الاسباني سنتياغو كاريلو (وهو مصدر خبرنا) أنه بدأ الحرب – وأن ماو كان أقوى بكثير من ستالين في اطلاقها.

العمل العسكري. وفي سياق مناقشة إمكانية حصول ما يوازي حرباً عالمية ثالثة، قال ستالين: «هل يجب أن نخشى ذلك؟ برأيي الخاص، كلا... إذا كان لا بد من الحرب فلتُشنّ الآن وليس بعد سنوات قليلة...»(*).

عبّر ماو باستمرار عن هذا الاحتمال أمام ستالين كطريقة للتشديد على فائدته. في الأول من تموز 1950 وخلال الأسبوع الذي اجتاح فيه الشمال الجنوب، وقبل وقت طويل من دخول القوات الصينية، طلب من تشو أن يقول للسفير الروسي: «علينا الآن أن نبني بشكل فعال أسطولنا الجوي والبحري» وأضاف ليسمع ستالين تحديداً: «وكأننا نواجه هجوماً حاسماً... ضد القوات الأميركية المسلحة». في 19 آب قال ماو نفسه لمبعوث ستالين، يودين، إن باستطاعة أميركا إرسال 30 الى 40 فرقة عسكرية لكن قد «تسحقها» الجيوش الصينية. ثم كرر هذه الرسالة ليودين بعد أسبوع. وفي الأول من آذار 1951، لخّص لستالين خطته الشاملة للحرب الكورية بلهجة باردة: «لتمضية سنوات عديدة في استنفاد مئات الآلاف من أرواح الأميركيين».

أمام عرض ماو بالتضحية بمزيد من الرجال، رغب ستالين فعلاً في شن حرب على الغرب في كوريا. عندما اجتاح كيم الجنوب في 25 حزيران 1950، سارع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الى إصدار قرار يلزم الجيوش بدعم كوريا الجنوبية. وكان سفير ستالين في الأمم المتحدة ياكوف ماليك يقاطع الجلسات منذ كانون الثاني والسبب الظاهري هو استمرار تايوان في احتلال مقاعد الصين. توقع الجميع من ماليك، الذي بقي في نيويورك، أن يأتي الى الجلسة ويقاطع القرار ولكنه بقي بعيداً. وكان ماليك قد طلب في الواقع الإذن بالعودة الى مجلس الأمن لكن ستالين اتصل به وطلب اليه البقاء خارجه. إن الفشل السوفياتي في ممارسة حق الفيتو أقلق المراقبين منذ ذلك الحين، إذ بدا وكأنه يرمي بفرصة ذهبية بتجميد تدخل الغرب في كوريا. ولكن إذا قرر ستالين عدم استعمال حق الفيتو فذلك ربما لسبب واحد فقط: أنه لم يرد إبقاء القوات الغربية خارجاً. أرادها في الداخل ليسحقها الوزن العددي الذي لماو.

بات الآن في مصلحة ستالين أن يجعل ماو القائد المتقدم على كيم، لكن هذه المسألة مختلفة

(*) في أواخر الخمسينيات، لخص كبير مستشاري الحكومة الفرنسية في الهند الصينية (جان سانتيني) تفكير القائد العام الفرنسي هناك جان دو لاتر دي تاسيني بهذه الكلمات: «يبحث الروس عن بليون بشري من آسيا، يكونون نوعاً من الدواب البشري ليحاربوا الغرب». وهذا ما فكر به أيضاً في وقت سابق السيناتور الأميركي كابوت لودج. وفي سؤال لرئيس مجموعة المستشارين العسكريين الأميركيين لدى القوميين الصينيين الجنرال بار في آذار 1949 قال كابوت لودج: «هل تظن ان باستطاعة الروس إخضاع هؤلاء الصينيين...وجعلهم قوة عسكرية خارج حدود الصين واستخدامهم في أوروبا أو...في مكان آخر؟ وبعد ملاحظة من السيناتور الكسندر ويلي («جانكيز خان صيني أليس كذلك؟»)، رد بار: «..هل يستطيع الروس تنظيم كتيبة صينية وإرسالها الى المانيا أو تلك المنطقة...أخشى أن تروق هذه الفكرة لبعض الشيوعيين الصينيين».

عن الفيتنام. وبسبب التشعبات العديدة لتحدي الولايات المتحدة الأميركية، قرر ستالين المحافظة على مستوى عال جداً من السيطرة. فيجب أن يتأكد تماماً من إدراك كيم أن ستالين هو السيد الأخير قبل وضعه بين أيدي ماو. ورغم وجود ماو في موسكو بتاريخ 30 كانون الثاني، فعندما أعطى ستالين موافقته لكيم على خوض الحرب، لم يتفوه بأية كلمة أمام ماو وأمر كيم بعدم إطلاع الصينيين على ذلك. لم يأت ستالين بكيم الى موسكو إلا في نهاية شهر آذار، بعد مغادرة ماو. ناقش ستالين خطط المعركة بالتفصيل مع كيم؛ وفي المحادثات الأخيرة التي دارت بينهما في نيسان 1950 قال لكيم بإصرار وصراحة: «إن كنت سترفس من أسنانك لن أحرك ساكناً. يجب أن تطلب المساعدة من ماو». بهذه الكلمات الرفيقة أُسلِم كيم لماو.

في 13 أيار نقلت طائرة روسية كيم الى بكين. فتوجه فوراً الى ماو ليُخبره بأن ستالين أعطى الضوء الأخضر. في الساعة الحادية عشرة والنصف من تلك الليلة، أُرسل تشو ليطلب من السفير السوفياتي روتشيشن الحصول على تأكيد موسكو. في الصباح التالي وصلت رسالة ستالين الرسمية: «يمكن لكوريا الشمالية أن تتحرك ولكن هذه المسألة يجب مناقشتها... شخصياً مع الرفيق ماو». في اليوم التالي (15 أيار)، عبّر ماو لكيم عن التزامه الكامل، وحول المسألة الأكثر أهمية قال: «إذا شارك الأميركيون... فإن [الصين] ستساعد كوريا الشمالية بجيشها الخاص». وقد تعمّد استبعاد مشاركة الجيوش الروسية بقوله: «بما أن الاتحاد السوفياتي ملزَم باتفاقية حدود مع أميركا حول خط العرض 38 [الذي يقسم كوريا]، فمن «غير اللائق» [له] أن يشارك في أعمال عسكرية؛ [ولكن بما أن] الصين ليست ملزمة بأية تعهدات يمكنها بالتالي تقديم مساعدة كاملة للشماليين». كما عرض ماو أن ينشر جيوشه على الحدود الكورية فوراً.

وافق ماو على خطة كيم-ستالين وأبرق ستالين معلناً موافقته في السادس عشر من الشهر. وفي 25 حزيران اقتحم جيش كوريا الشمالية خط العرض 38. ويبدو أن ماو لم يطلع على اليوم المحدد للهجوم. وأراد كيم أن تبقى الجيوش الصينية خارج المعركة الى حين الحاجة الماسة اليها. ستالين بدوره أراد دخولها فقط عندما تسلّم أميركا عدداً كبيراً من الجنود «ليستهلكها» الصينيون.

رد ترومن على الهجوم بسرعة. ففي خلال يومين، في السابع والعشرين من الشهر، أعلن أنه سيرسل جيوشاً الى كوريا، الى جانب مساعدات إضافية للفرنسيين في الهند الصينية. أكثر من ذلك، فقد قلب الآن سياسة «عدم التدخل» تجاه تايوان. وبسبب هذا الالتزام الأميركي الجديد لم يستطع ماو ولا أسلافه يوماً احتلال تايوان.

في بداية شهر آب، احتل الكوريون الشماليون 90% من الجنوب لكن الولايات المتحدة أرسلت الكثير من التعزيزات المسلحة القوية، وفي 15 أيلول أُنزلت الجيوش في إنشون المتاخمة

لخط العرض 38 فأوقفت تحرّك معظم جيوش كوريا الشمالية في الجنوب، وتمركزت استعداداً للتحرّك باتجاه الشمال. في التاسع والعشرين من الشهر، أرسل كيم نداء استغاثة الى ستالين طلب فيه إرسال «وحدات متطوعة» من الصين.

في الأول من تشرين الاول أشار ستالين لماو أن الوقت حان له أن يتحرك مُبرئاً نفسه، من أية مسؤولية عن الهزيمة: «أنا بعيد عن موسكو في عطلة وبعيد عن الأحداث التي تدور في كوريا...» بعد هذه الكذبة السافرة جاءت نقطته الحقيقية: «أعتقد أنك إذا...فكرت في إمكانية إرسال جيوش لمساعدة الكوريين، عليك تحريك 5 الى 6 مجموعات على الأقل باتجاه خط العرض 38...[هذه] يمكن تسويتها متطوعة...»

بدأ ماو تحركه. فعند الساعة الثانية فجراً من الثاني من تشرين الاول أصدر أمراً الى الجيوش التي سبق ونقلها الى الحدود الكورية: «حالة تأهب في انتظار أوامر الانطلاق نحو [كوريا] في أي وقت...»

إن الصين المكافحة للفقر والمرهقة هي على أبواب التورط في حرب مع الولايات المتحدة. ويبدو أن ماو قرر الآن فقط، في بداية تشرين الاول، عقد اجتماعاً للهيئة العليا لنظامه، المكتب السياسي، لمناقشة هذه المسألة الخطيرة. لم يكن المكتب السياسي فريقاً يصدر قرارات هامة، بل هو بالنسبة الى ماو بمثابة موجه للصوت. في هذه المناسبة، دعا بشكل خاص الآراء المتباينة بسبب الانعكاسات الكبيرة للحرب مع اميركا. كل معاونيه تقريباً كانوا معارضين جداً لاقتحام كوريا، بمن فيهم الرجل الثاني ليو شاو-كي والقائد العسكري الاسمي زو دي. وكان لين بياو أكثر المعارضين جهاراً. أما تشو إن لاي فاتخذ موقفاً حذراً وغير قاطع. وقال ماو لاحقاً إن إقتحام كوريا «تقرر من قبل رجل ونصف رجل»: هو نفسه «الرجل» وتشو «نصف الرجل». ومن بين المشاكل الكبيرة التي يجب مواجهتها هنا: تمتّع الولايات المتحدة بتفوق جوي بالإضافة الى تفوق على صعيد سلاح المدفعية بنسبة 40 الى واحد تقريباً؛ فإذا تورطت الصين يمكن لأميركا أن تقصف المدن الكبرى في الصين وتدمر قواعدها الصناعية؛ وقد تلجأ الى إسقاط قنابل ذرية على الصين.

كان ماو قلقاً جداً في شأن هذه المسائل. إنه بحاجة الى الصين العاملة كقاعدة لطموحاته الأكثر شمولية. لكنه راهن على أن أميركا لن تتوسع في الحرب حتى الصين. فسلاح الجو الروسي قد يحمي المدن الصينية والقواعد الصناعية من القصف الأميركي. أما بالنسبة الى القنابل الذرية، فأحس في داخله أن الرأي العام الدولي سيردع أميركا، خاصة وأن ترومن سبق وأسقط قنبلتين ذريتين-وكلاهما على بلدان آسيوية. ومع ذلك أخذ ماو احتياطات لنفسه. فخلال الحرب الكورية، غالباً ما كان يختبىء في أرض عسكرية سرية خارج بكين في جايد

سبرينغ هيلز المجهزة بملاجىء ضد الغارات.

كان ماو مقتنعاً بأن أميركا لن تستطيع هزمه بسبب مصدر قوتة الأساسية -أي ملايين من الصينيين الذين سيضحي بهم، وكان يتوق الى التخلص من بعضهم. في الواقع، قدمت الحرب فرصة عظيمة لتسليم الجيوش القومية السابقة الى الموت. هؤلاء الرجال هم الذين استسلموا بالجملة خلال المراحل الأخيرة من الحرب الأهلية، وقد قرر ماو تلقائياً إرسالهم الى كوريا حيث شكلوا حجم القوى الصينية. وفي حال إخفاق الجيوش الأميركية في القيام بالعمل، فإن فرق إعدام خاصة تنتظر في مؤخرة الجيوش لتولي أمر كل من يتخلّف منهم.

أدرك ماو أن أميركا لن تستطيع منافسته في التضحية برجالها. وكان مستعداً للرهان على كل شيء لأن قيام الجيوش الصينية بمحاربة الولايات المتحدة الأميركية هو الفرصة الوحيدة أمامه لينتزع من ستالين ما أراده من أجل جعل الصين قوة عسكرية من المستوى العالمي.

في 2 تشرين الاول كتب ماو مسودة برقية لستالين التزم فيها «بإرسال الجيش الصيني الى كوريا». ثم يبدو أنه أعاد التفكير في ذلك. فبسبب تشوقه دخول هذه الحرب، لم يُطلع ستالين على أي من مشاكله، لأن إبرازها أمامه قد يزيده شأناً. فتراجع عن البرقية التي يلتزم فيها إرسال قوات صينية، وأرسل برقية مختلفة يقول فيها إن دخول الصينيين «قد يؤدي الى عواقب جدية...واعتبر العديد من الرفاق...أنه من الضروري الحذر...بالتالي، من الأفضل...وقف تقدم الجيوش...» ومع ذلك، ترك الباب مفتوحاً أمام إمكانية الدخول: «إن قراراً نهائياً لم يتخذ بعد» وختم قائلاً «نرجو مشاورتكم في هذه المسألة».

في الوقت نفسه، أعدّ ماو الساحة لاقتحام كوريا من خلال الادعاء بتوجيه «إنذار عادل» الى الأميركيين. لهذه الغاية، قام تشو إن لاي بدور تمثيلي تحذيري إذ أيقظ السفير الهندي في ساعات الفجر الأولى من الثالث من تشرين الاول ليقول له «سنتدخل» في حال تجاوزت الجيوش الأميركية خط العرض 38. إن اللجوء الى هذه الوسيلة الملتوية من خلال استخدام سفير قلّت أهميته بالنسبة الى الغرب، في حين كان من الأسهل تماماً الإدلاء بتصريح رسمي، يعني بالضرورة أن ماو أراد أن يُهمَل هذا «التحذير»: بالتالي يمكنه اقتحام كوريا مدّعياً أن عمله هو من باب الدفاع عن النفس.

في الخامس من تشرين الاول، وفيما قوات الأمم المتحدة تضغط باتجاه الشمال، بدأ ستالين يضيق ذرعاً. في ذلك اليوم، ردّ على برقية ماو الثانية التي اقترح فيها التراجع. فذكّر ماو أنه (أي ماو) قطع عهداً:

> أعتقد أنه من الممكن أن أعود اليك في شأن فرق المتطوعين الخمسة أو

السنة لأنني كنت قلقاً من بعض التصاريح التي أدلى بها الرفاق الصينيون [أي أنت] في ما يتعلق باستعدادهم لنقل العديد من الجيوش لدعم الرفاق الكوريين...

كان ستالين متوعداً الى ما أسماه «سياسة إنتظر وراقب السلبية» التي، قال أنها ستكلّف ماو تايوان. وكان ماو يستخدم تايوان كحجة لإقناع ستالين بمساعدته على بناء السلاحين الجوي والبحري؛ وكان ستالين يقول الآن لماو إنه لن يحصل على شيء إذا راوغ حيال مهمته في كوريا.

غير أن ماو لم يحاول فعلياً الاختيار بل كان يعمل على الرفع من شأنه . وعندما استلم رد ستالين، كان سبق وعين قائداً أعلى للقوات المسلحة الصينية التي اختيرت لدخول كوريا: بينغ دي-هواي، وتحرّك ماو بسرعته الخاصة. في 8 تشرين الاول وبعد أن أمر بإعادة تسمية جيوشه بـ«المتطوعين من الشعب الصيني»، أبرق لكيم قائلاً «قررنا إرسال المتطوعين الى كوريا لمساعدتكم». كما أرسل تشو إن-لاي ولين بياو للتحدث مع ستالين في شأن التزويد بالأسلحة. في الطريق، أرسل لين لماو رسالة طويلة حثه فيها على التخلي عن فكرة الاقتحام. قام ماو بإرسال لين بياو لرؤية ستالين -علماً أن لين معارض كبير لعملية الاقتحام- ليشدد أمام ستالين على الصعوبات العسكرية التي تواجه الصين وبالتالي ينتزع من ستالين أكثر ما يستطيع.

توجه تشو وستالين الى منزل ستالين على البحر الأسود في العاشر من الشهر وتحدثوا طوال الليل حتى الساعة الخامسة فجراً. وعدهم ستالين «بالطائرات والمدفعيات والدبابات وغيرها من التجهيزات». لكن تشو لم يناقش حتى أي سعر. وخلافاً لأي توقّع، أنكر ستالين ما اتُفِق عليه في شأن الطلب الأساسي: التغطية الجوية للجيوش الصينية. وكان ستالين قد وعد بذلك («فريق من الطائرات المقاتلة النفاثة – 124 قطعة لتغطية الجيوش [الصينية]») في 13 تموز. والآن، إدّعى أن الطائرات لن تكون مستعدة قبل شهرين إضافيين. فبدون تغطية جوية ستكون الجيوش الصينية أهدافاً سهلة. اعتبر تشو ولين بياو أن التغطية الجوية الروسية أمر أساسي والا فالجميع في مأزق. ثم أبرق ستالين لماو ليخبره بأن الصين ليست مضطرة لخوض الحرب.

كان ستالين يدعو ماو الى تنفيذ وعيده بقوله-كما قال ماو لاحقاً- «إنسَ ذلك!» فتراجع ماو فوراً عن موقفه وقال لستالين: «سندخل الحرب بتغطية جوية من الاتحاد السوفياتي أو بدونها». كان ماو بحاجة الى الحرب فأبرق لتشو في 13 تشرين الاول: «يجب أن ندخل الحرب. يجب أن ندخل الحرب...» عندما استلم تشو الرسالة خبأ وجهه بين يديه. في اليوم نفسه أخبر

ماو السفير الروسي أن الصين ستدخل الحرب وعبّر فقط عن «أمله» بوصول التغطية الجوية الروسية «بأقرب وقت ممكن، ولكن ليس بعد أكثر من شهرين» وهذا هو في الواقع الجدول الزمني الذي وضعه ستالين نفسه.

وهكذا، وبسبب الطموحات الشاملة التي كانت للطاغيين الشيوعيين ستالين وماو، الى جانب الطموح المحلي الذي كان لكيم، قُذِفت الصين الى جحيم الحرب الكورية في 19 تشرين الاول 1950.

35- ماو يستغل الحرب الكورية
(1950-1953 العمر 56-59 سنة)

عندما دخلت الجيوش الصينية الى كوريا في تشرين الأول 1950، كان الكوريون الشماليون في حالة هروب. بعد مرور شهرين، طرد جيش ماو قوات الأمم المتحدة الى خارج كوريا الشمالية وأعاد ديكتاتورية كيم إيل سونغ. لكن قوة كيم العسكرية باتت ضعيفة الآن إذ بلغ عدد العناصر المستنزفة من الجيش 75 ألف وتفوقهم عدداً بنسبة 6 الى 1 بحيث تساوي جيوش ماو في كوريا 450 ألف فرقة. في 7 كانون الأول وفي اليوم الذي تلى إستعادة عاصمة كيم بيونغ يانغ، تنازل كيم عن القيادة للصينيين. فأبرق القائد الصيني بينغ دي-هواي لماو ليخبره أن كيم «وافق...على عدم التدخل في المستقبل في مسائل القيادة العسكرية». عيّن بينغ زعيماً للمقر الرئيسي الصيني - الكوري المشترك. وقد سيطر ماو على حرب كيم.

أراد بينغ التوقف شمالي خط العرض 38 وهو الحدود الأصلية بين شمالي كوريا وجنوبها، لكن ماو رفض. ادعى بينغ أن خطوط التموين كانت متسعة بشكل فائض، الأمر الذي يجعلها فعلاً عرضة للقصف الأميركي: «جيوشنا عاجزة عن استلام مؤن الطعام والذخيرة والأحذية والزيت أو الملح...» أضاف ماو بإصرار: «المشكلة الأساسية هي عدم وجود تغطية جوية ولا خطوط نقل مضمونة؛ فالى حين إصلاحها تكون قد قُصفت مجدداً».وكان مصمماً على عدم وقف القتال الى حين انتزاع أكثر ما يمكنه من ستالين. في 13 كانون الأول أمر بينغ: «يجب عبور خط العرض 38». وفي بداية كانون الثاني 1951 احتل الصينيون سيول، العاصمة الجنوبية، في تقدّم نحو 100 كم جنوبي خط العرض.

إن الانتصارات العسكرية الصينية دعمت كثيراً موقف ماو أمام ستالين الذي هنّأه بحماس عارم، ولم يظهر ذلك عندما نجح ماو في احتلال الصين. وقد لاحظ ستالين بشكل خاص أن الانتصارات كانت «على الجيوش الأميركية».

سدد ماو ضربة نفسية قوية للولايات المتحدة الأميركية. ففي 15 كانون الأول 1950، أعلن ترومن عبر الإذاعة حالة طوارىء وطنية، الأمر الذي لم يحصل لا في الحرب العالمية الثانية ولا في حرب الفيتنام. فقد استخدم لغة شبه رؤيوية وقال للشعب الأميركي: «بيوتنا، أمتنا...في خطر كبير». في هذا الوقت كان الصينيون قد دفعوا الأميركيين حوالى 200 كم الى

الوراء في خلال أسابيع، في ظروف مروعة ودرجات حرارة تحت الصفر مرفقة برياح ثلجية. ووصف وزير الخارجية دين أشيسون التراجع بأنه «أسوأ هزيمة» بالنسبة الى القوات الأميركية خلال قرن.

إن انتصارات الصينيين قد كلفت رجالهم غالياً جداً. وفي 19 كانون الأول قال بينغ لماو:

> تدنت الحرارة الى 30- درجة مئوية. وكانت الجيوش مرهقة جداً، وأرجلهم متأثرة بالصقيع وكان عليهم النوم في الهواء الطلق...معظم الجنود لم يحصلوا على معاطف وأحذية مبطنة.أما ستراتهم وأغطيتهم المبطنة فاحترقت بسبب مادة النّبيم. وما زال العديد من الجنود ينتعلون أحذية قطنية وبقي بعضهم حتى حافي القدمين...

حذّر بينغ قائلاً: «قد تحصل خسائر لا تُعقل». وفي 2 كانون الثاني 1951، قال المدير اللوجستي لدى ماو للروس إن جميع الوحدات ماتت من البرد. كما عان الكثير من «المتطوعين» من العَشَى بسبب سوء التغذية. فكان جواب المقر الرئيسي: اجمعوا إبر الصنوبر لصنع الحساء. كلوا الشرغوف الحي للحصول على الفيتامين والبروتيين.

كافح الصينيون «بتكتيكات الموج البشري» (ren-hai zhan-shu) مستخدمين الأفضلية الوحيدة لديهم – وهي التفوق العددي. أخبرنا الممثل البريطاني مايكل كاين الذي انخرط في الحرب أنه دخلها ولديه شعور بالتعاطف مع الشيوعية، كونه ينتمي إلى عائلة فقيرة. لكن الخبرة جعلته متمرداً باستمرار. وكان الجنود الصينيون يرسلون الأمواج البشرية الموجة تلو الأخرى ليُفرغوا الرصاصات الغربية. ولم يكن يتوانى عن التفكير: إن لم يكونوا مهتمين بحياة شعبهم، كيف يمكن أن أتوقع منهم أن يعتنوا بي؟

ولكن سرعان ما توقف تقدّم الصينيين. في 25 كانون الثاني 1951 أطلقت الأمم المتحدة هجوماً مضاداً وبدأت الأمور تنقلب. كانت الخسائر الصينية جسيمة. فعاد بينغ الى بكين في 21 شباط ليُطلع ماو وجهاً لوجه على «الصعوبات الخطيرة» و«الخسائر الفادحة غير الضرورية». ومن المطار أسرع نحو زونغنانهاي ليجد أن ماو انتقل الى جايد سبرينغ هيلز وقبع في ملجئه تحت الأرض. عندما وصل بينغ الى هناك قيل له إن ماو في قيلولة، لكنه أبعد الحراس عن طريقه واقتحم غرفة نوم ماو (وهو عملياً طعن في الذات الملكية). سمح له ماو بأن يقول ما لديه لكنه لم يبالِ بقلقه وقال له أن يتوقع حرباً طويلة، لا تحاول تحقيق انتصار سريع».

شرح ماو لستالين «استراتيجيته الشاملة» في برقية أرسلها في الأول من آذار، بدأت بالجملة التالية: «لن يغادر العدو كوريا بدون إبعاد جماعات غفيرة...» ثم أخبر ستالين أن خطته تقضي باستخدام احتياطاته غير المحدودة من الطاقة البشرية لإرهاق الأميركيين. وأضاف إن الجيش

الصيني (وهذا صحيح) قد تكبد حتى الآن «أكثر من 100 ألف خسارة...ويتوقع 300 ألف خسارة أخرى هذه السنة والسنة المقبلة». لكنه أخبر ستالين أنه سيعوض عن الخسائر بإضافة 120 ألف مقاتل وسيرسل أكثر من 300 ألف جندي للتعويض عن الخسائر القادمة. وختم ماو قائلاً إنه : «باختصار، مستعد للاستمرار في حرب طويلة الأمد وإمضاء سنوات عديدة في استنفاد مئات الآلاف من الأرواح الأميركية، حتى تراجعهم...» وكان ماو يذكّر ستالين بقدرته على إضعاف الأميركيين بشكل جدي(*) ولكن على ستالين أن يساعده في بناء جيش من الطراز الأول وفي صناعة الأسلحة.

تابع ماو السير قدماً في هدفه الأساسي منذ دخول الصين الحرب في تشرين الأول 1950. في ذلك الشهر بالتحديد أرسِل قائد الأسطول البحري الصيني الى روسيا ليطلب المساعدة من أجل بناء الأسطو ل البحري. وتبعته في كانون الأول بعثة من السلاح الجوي الرفيعة المستوى أحرزت نجاحاً كبيراً. في 19 شباط 1951 وافقت موسكو على مسودة اتفاق للبدء ببناء مصانع في الصين لتصليح وخدمة الطائرات، إذ أن عدداً كبيراً منها قد دمر وبحاجة لتسهيلات تصليح متقدمة على المدرّج. كانت الخطة الصينية تقضي بتحويل تسهيلات التصليح هذه الى تصنيع حقيقي للطائرات. مع نهاية الحرب أصبح لدى الصين، البلد الفقير، ثالث أكبر سلاح جوي في العالم، قوامه أكثر من 3 آلاف طائرة بما فيها طائرات الـMiG. كما أنشئت مصانع لتشغيل 3600 طائرة مقاتلة سنوياً كان مخططاً (بتفاؤل مفرط، إذ فشلت الخطة) أن تصبح في وضع يمكنّها من الإنتاج خلال ثلاث الى خمس سنوات، وقد بدأت المفاوضات في شأن تصنيع قاذفات القنابل.

فور الانتهاء من صفقة الطائرات في بداية عام 1951 - وبعد موافقة ستالين على خطة ماو «بتمضية سنوات عديدة في استنفاد مئات الآلاف من أرواح الأميركيين» - رفع ماو رهانه طالباً الحصول على الطبعات الزرقاء لكل الأسلحة التي كان يستخدمها الصينيون في كوريا، كما طلب من الروس المساعدة لبناء مصانع لإنتاجها إضافة الى الأسلحة الضرورية لتجهيز ما لا يقل عن 60 فرقة. وقد أرسل رئيس أركانه الى روسيا في شهر أيار لمناقشة هذه المطالب.

ورغم إرادة ستالين في أن تقاتل الصين عوضاً عنه، ورغم كونه سعيداً لبيع ماو الأسلحة للفرق الـ60، إلا أنه لم ينو منح ماو صناعة الأسلحة كاملةً، فحاول إعاقة التصديق على مطالب الوفد الصيني الذي بقي في روسيا عدة أشهر. طلب ماو من رئيس أركانه أن يستمر في إلحاحه؛ وفي تشرين الاول وافق الروس على مضض على تحويل التكنولوجيا باتجاه إنتاج سبعة أنواع

(*) أرسلت الصين ما مجموعه 3 ملايين مقاتل على الأقل الى كوريا. والتزمت الولايات المتحدة بشدة بفريق عمل عسكري من مليون فرد.

من الأسلحة الصغيرة تشمل المدافع الرشاشة، لكنهم رفضوا تقديم أكثر من ذلك.

حتى الآن، مضى على الحرب سنة واحدة، دُمّرت خلالها كوريا الشمالية تحت وابل القصف الأميركي. ورأى كيم أن عليه إنهاء سيطرته على أرض قاحلة وربما على جزء متضائل منها. لقد أراد انهاء للحرب. في 3 حزيران 1951، ذهب سراً الى الصين ليقوم بمفاوضات مفتوحة مع الولايات المتحدة. وبما أن ماو بات قريباً الآن من تحقيق هدفه، فإن آخر ما كان يهمه هو وقف الحرب. في الواقع، أمر الجيوش الصينية بدفع قوات الأمم المتحدة الى عمق كوريا الشمالية وقال: «كلما ازداد الدفع عمقاً الى الشمال، كلما كان ذلك أفضل»، شرط ألا يحصل بمحازاة الحدود الصينية. لقد فرض ماو الحرب واستخدم كوريا بغض النظر عن مصالح كيم.

وفيما كانت جيوشه تتكبد هزائم ثقيلة، فُتح أمام ماو مُتنفّس مفيد تكتيكياً، فأرسل رئيس منشوريا برفقة كيم لاستشارة ستالين - وللضغط من أجل الحصول على مزيد من مصانع الأسلحة. بعد ذلك، أبرق ستالين لماو، واصفاً كيم بالحاكم الثانوي المستبد الخاضع لماو، بهدف استرضاء ماو بعد خذله في شأن مصانع الأسلحة. قال ستالين لماو «بعد التحدث الى ممثليك من منشوريا وكوريا» (أقتبس) «أرى أن الهدنة باتت مفيدة الآن». لم يعن ذلك أن ستالين أراد وقف الحرب؛ بل أراد من جنود ماو أن يُنزلوا بالأميركيين مزيداً من الدمار، لكنه رأى أن الالتزام بمحادثات قد يكون أمراً مناسباً، وأن إظهار اهتمام بالسلام قد يساهم في تحسين صورة الشيوعيين. في 10 تموز بدأت محادثات وساطة لوقف إطلاق النار في كوريا بين الفرق العسكرية التابعة للأمم المتحدة والفرق الصينية-الكورية.

حُسمت غالبية الأمور بسرعة وبشكل عادل، لكن ماو وستالين حوّلا إحدى المسائل الى نقطة عالقة: إعادة أسرى الحرب: أرادت أميركا إعادة توطين طوعي و«غير قسري»؛ وأصر ماو أن يحصل ذلك بالجملة. فاحتجزت الأمم المتحدة أكثر من 20 ألف صيني، خاصة من الجيوش القومية السابقة، رفض معظمهم العودة الى الصين الشيوعية. لكن أميركا رفضت إعادة التوطين غير الطوعي لأسباب إنسانية وسياسية على حد سواء، خاصة وأنها تتذكر كيف سُلّم الأسرى لستالين في نهاية الحرب العالمية الثانية واقتيد معظمهم الى الموت. لكن توجّه ماو أمام مفاوضيه كان: «يجب ألا يفر أحد أبداً!» إن الصيغة الغامضة والباردة التي لجأ اليها ماو أدت الى استمرار الحرب سنة ونصف إضافية، مات خلالها مئات الآلاف من الصينيين وأكثر من ذلك بكثير من الكوريين. كان كيم يتوق جداً الى التنازل واعتبر أن «لا فائدة من استمرار القتال» لتغطية تطرف قومي «غير ثابت سياسياً». لكن ذلك لم يكسر الجليد مع ماو لأن هدفه مختلف. لم يهتم ماو بمسألة أسرى الحرب بل كان يحتاج الى قضية محددة ليضغط في الحرب من أجل انتزاع المزيد مما يريده من ستالين.

في بداية عام 1952، كان كيم فاقد الأمل كلياً بوقف الحرب. في 14 تموز 1952، أبرق الى ماو راجياً إياه الموافقة على التسوية. فالقذائف الأميركية كانت تحول بلده الى أنقاض. فلاحظ مساعد وزير الخارجية الأميركي دين راسك: «لم يبق شيء ليُقصف». وكان الشعب ينحدر الى مستويات معيشية شبه خطرة كما قُتل حوالى ثلث الرجال فيه.

خيّب ماو أمل كيم في البرقية الجوابية بحيث ذكر بدم بارد الحجة: «إن رفض اقتراح العدو لا يؤدي سوى لنتيجة واحدة مؤلمة – مزيد من الخسائر للشعب الكوري وللمتطوعين من الشعب الصيني. ومع ذلك...» ثم بدأ ماو بتعداد «حسنات» هذه الخسائر البشرية كأن يصبح المتألمون «أكثر اعتدالاً ومزودين بخبرة الاقتتال ضد الإمبريالية الأميركية». وختم بلهجة تهديدية قائلاً إنه سينقل ذلك الى ستالين ثم يحمل الى كيم «الرد فور الحصول عليه».

وبدون أن ينتظر كيم ما سينقله ماو عن رأي ستالين، ردّ فوراً قائلاً إن ماو «محق» في الواقع، وإنه- أي كيم، مصمم على الاستمرار في القتال. ثم أبرق بعد ذلك فوراً الى ستالين محاولاً بحزن أن يشرح له هذا الاهتزاز في الموقف.

في السابع عشر من الشهر، أبرق ستالين الى ماو ليطلعه على رأيه: «نعتبر أن موقفكم المتعلق بالمفاوضات حول الهدنة محقّ تماماً. استلمنا اليوم تقريراً من بيونغ يانغ يقول إن الرفيق كيم إيل سونغ موافق أيضاً على موقفك».

كان كيم مسعوراً، لكنه عاجز عن إيقاف الحرب في بلده. أكثر من ذلك، مصيره الخاص كان في خطر. وبعد شهر واحد دار حديث مشؤوم بين ستالين وتشو إن-لاي أظهر أنه كم هو محقّ في شعوره بعدم الأمان. فبعد أن قال تشو إن الصين تستعد «لإمكانية استمرار الحرب سنتين أو ثلاث سنوات إضافية»، سأل ستالين عن موقف القادة الكوريين. وهذا تسجيل لما دار في اللقاء (تعليقنا مدوّن بين قوسين):

> ستالين يقول إن الأميركيين لم يُخيفوا الصين. هل يمكن القول إنهم فشلوا أيضاً في إخافة كوريا؟
>
> تشو إن لاي يؤكد إمكانية الجزم بذلك.
>
> ستالين يقول [وقد راوده الشك بوضوح] إذا كان هذا صحيحاً فليس الأمر سيئاً الى هذا الحد.
>
> تشو إن لاي [مضيفاً الى شك ستالين] أردف قائلاً إن كوريا تتأرجح بشكل ما...فثمة عناصر في تصرف القادة الكوريين تظهر حتى حالة الذعر لديهم.
>
> ستالين تذكّر أنه سبق إطلاعه على هذه المشاعر من خلال برقية كيم إيل

سونغ الى ماو تسي-تونغ.
تشو إن لاي أكّد ذلك

إن تضاؤل خوف كيم من أميركا تراجع أمام خوفه من ماو وستالين. فالقصف الأميركي قد يقتل جزءاً كبيراً من شعبه لكن ستالين وماو قد يخلعاه (وهذه هي المكيدة التي نوى ماو تدبيرها فعلاً في وقت لاحق) - أو يقومان بأسوأ من ذلك.

وهكذا استمرت الحرب.

*

في آب 1952، قرر ماو زيادة الضغط على ستالين والتأكيد على مطلبيه الأساسيين: الأراضي ومصانع الأسلحة. فأرسل تشو الى موسكو مع هذه المطالب. في البداية اعتبر تشو أن ماو أدى خدمة ثمينة جداً لستالين. ففي أول اجتماع لهما في 20 آب، أخبر ستالين أن ماو «يؤمن بأن استمرار الحرب أمر مفيد لنا». فردّ ستالين: «ماو تسي-تونغ على حق. هذه الحرب ترهق أعصاب أميركا». وإذ ردد ستالين تعليقات ماو غير الرسمية حول الإصابات من جهتهم، أدلى بالملاحظة الباردة التالية: «لم يخسر الكوريون الشماليون شيئاً، باستثناء الإصابات». ثمّ علّق أمام تشو بالقول: «أظهرت الحرب في كوريا ضعف أميركا»، وتابع ممازحاً: «إن أسلحة أميركا البدائية هي الجوارب والسجائر وغيرها من السلع. يريدون إخضاع العالم ولا يمكنهم بالتالي إخضاع كوريا. كلا. لا يعرف الأميركيون كيف يقاتلون». «الأميركيون عاجزون تماماً عن شن حرب واسعة النطاق، وبخاصة بعد الحرب الكورية».

ماو هو الذي جعل ستالين يصل الى هذا الاستنتاج. فأميركا كانت تخسر طائرات بما يوفق قدرتها على التحمّل عسكرياً، ورجالاً بما يفوق طاقة الشعب على القبول. بشكل إجمالي، خسرت الولايات المتحدة أكثر من 3000 طائرة في كوريا ولم تستطع تعويض هذه الخسائر بالسرعة الكافية لتشعر بالأمان حيال القتال على جبهتين في وقت واحد: آسيا وأوروبا. وتجدر الإشارة أيضاً الى أن الولايات المتحدة خسرت حوالى 37 ألف شخص.

ورغم أن نسبة الخسائر الأميركية بالأرواح كانت ضئيلة مقارنةً مع الخسائر الصينية، إلا أن أميركا الديمقراطية عاجزة عن منافسة الصين التوتاليتارية عندما يتعلق الأمر بأكياس الجثث. وفيما كانت أميركا تنطلق نحو حملة رئاسية في عام 1952، لم يتعدّ الدعم الأميركي لاستمرار الحرب الـ33%، وكان المرشح الجمهوري الجنرال السابق دويت د. إيزنهاور Eisenhower يدير حملته تحت شعار «سأذهب الى كوريا»، ما عنى الى حد بعيد إنهاء الحرب.

إن دور الصين في قبول تحدي الولايات المتحدة أطلق يد تشو، فطلب من الرئيس ما لا يقل عن 147 منشأة كبيرة للحاجات العسكرية، وتشمل مصانع لإنتاج الطائرات الحربية والسفن،

و1000 دبابة خفيفة سنوياً مع مصنع واحد للدبابات المتوسطة، على أن تكون جاهزة خلال خمس سنوات.

كان ستالين يراوغ ويرد بابتذال («يجب أن تكون الصين مسلحة بشكل جيد وبخاصة على صعيد السلاحين الجوي والبحري»؛ «يجب أن تصبح الصين بارجة آسيا الأميرالية»). لكنه لم يوقع أبداً قائمة مطالب تشو.

ثم هناك مسألة الأراضي. كان ستالين يتصدّق على ماو بأجزاء من آسيا منذ أن بدأ يفكر في الحرب على كوريا. أما ماو فقد نشر المِجَسّ في ستة بلدان آسيوية إمتداداً من اليابان (وقد أتى اليابانيون الشيوعيون الى بكين في ربيع عام 1950 للإعداد لعمل مسلّح تزامناً مع الحرب الكورية) وحتى الفيليبين (حيث للولايات المتحدة قواعد استراتيجية) ومالايا حيث حركة التمرد الصينية الضخمة والواسعة النطاق تواجه القانون البريطاني. في جنوبي شرقي آسيا، تقدمت القوات المتمردة الشيوعية البورمية باتجاه الحدود الصينية لتتصل بالصين وتحصل على الذخيرة والتدريب، تماماً كما فعل جيش هو شي مينه في الفيتنام. إن أحد المبشرين الأشرار الذي سيأتي قريباً الى الصين للتدريب، هو القائد المستقبلي للهنود الحمر الكمبوديين بول بوت Pol Pot.

في أيلول 1952، تحدث تشو الى ستالين عن جنوبي شرقي آسيا وكأن مصيرها يُقرَّر كلياً في بكين، فلا يدخلها الجيش الصيني إلا إذا رغبت بكين في ذلك. واستناداً الى محضر لقائهما في 3 أيلول، قال تشو: «إنهما يحافظان في علاقتهما مع بلدان جنوبي شرقي آسيا، على استراتيجية ممارسة تأثير سلمي بدون إرسال قوات مسلحة. وأعطى مثل بورما...والشيء نفسه في التيبت؛ وسأل إن كانت هذه استراتيجية صحيحة». لقد تعامل تشو مع بورما والتيبت بالطريقة نفسها. رد ستالين باستياء: «التيبت جزء من الصين. يجب نشر جيوش صينية في التيبت، ويجب أن تعمل بدقة كما في بورما ». لكن ستالين أضاف فوراً، مؤكداً أن بورما لماو: «من المستحسن أن تكون في بورما حكومة موالية للصين». (وكان ستالين يدير بورما عن كثب من خلال سفيره، صلة الوصل منذ زمن بعيد في ينان، فلاديميروف).

يخطط ماو الآن لتشكيل كتلته الإقليمية، مستخدماً «مؤتمر السلام» لمنطقة آسيا-المحيط الهادىء المفترض انعقاده في بكين، والذي هو على مفكرة تشو من أجل محادثاته مع ستالين. اضطر ستالين للإعتراف بأن الصين يجب أن تلعب «الدور الأساسي». ومن خلال ما تلى ذلك، يمكن ملاحظة مدى عدم سروره. سأله تشو «ما هي الأعمال المحددة» التي سيقوم بها الوفد الروسي، وكانت هذه دعوة حاذقة لستالين ليؤكد أن الروس لن ينتزعوا القيادة. رد ستالين ساخراً بكلمة واحدة: «السلام».

وبدون أي انزعاج غاص في القول إنه خلال مؤتمر الحزب السوفياتي الوشيك، يرغب ليو شاو-كي في مقابلة القادة الشيوعيين الآسيويين؛ فهذه طريقة حاول من خلالها الحصول على بركة ستالين بإسناد أجزاء آسيوية لماو؛ لكن انتزاع الموافقات من السيد يشبه انتزاع الماء من الحجر. الأندونيسيون كانوا أول المذكورين. وسجل محضر اللقاء ما يلي:

تشو إن-لاي...سأل إذا كان الوقت مناسباً لتُناقَش معهم مسائل متعلقة بالحزب في موسكو.

ستالين قال إنه من الصعب معرفة ذلك بعد...

تشو إن-لاي نقل أن اليابانيين على وشك الوصول، وقد يرغبون أيضاً في مناقشة مسائل متعلقة بالحزب.

ستالين رد أن الإخوة البكر لا يهملون إخوتهم الصغار في أمر كهذا. وقال لا بد من مناقشة ذلك مع ليو شاو - كي...

تشو إن-لاي أشار الى أن ليو شاو - كي ينوي أن يحمل معه المواد المناسبة لمناقشة عدد من المسائل.

ستالين ذكر أنه في حال أراد الرفاق الصينيون مناقشة هذه المسائل، فلا اعتراض لدينا طبعاً؛ ولكن إذا رفضوا فلا شيء آخر نناقشه.

تشو إن-لاي رد أن الرفاق الصينيين سيريدون حتماً التحدث.

كم كان تشو إن-لاي قوياً! فقد لاحق السيد بقساوة فيما هو يحاول التهرب. وخلال سنتين ونصف، وقبلهما حرب همجية، وعندما كان ماو في موسكو والطقس ماطر وعاصف، منعه ستالين من إجراء أي اجتماعات مماثلة. الآن، اضطر ستالين الى التنازل: «في هذه الحالة، يجب أن نجد الوقت المناسب». ثم وبشيء من السخرية الإضافية قال تشو اللطيف «إنهاء الحديث يعني أنهم يريدون الحصول على تعليمات في شأن كل هذه المسائل».

ستالين سأل - تعليمات أو اقتراحات؟

تشو إن-لاي رد أنه من منظار الرفيق ستالين، ستكون هذه نصائح ولكن من منظارهم ستكون هذه تعليمات.

إن براعة تشو تُخفي درجة جديدة مروعة من الحزم من جهة ماو. في الواقع، بدأ ماو حتى بعمليات تآمرية في الاتحاد السوفياتي نفسه.

بين شهرَي آب وأيلول 1952 كانت مهمة تشو تهدف بشفافية الى تمكين ماو من أن يصبح قوة عظمى ومنافساً لستالين، وقد زاد كثيراً إحساس ستالين بتهديد ماو فبدأ بإضعافه من

خلال إظهار حميمية مميزة تجاه كبار معاوني ماو. الصداقة الأولى كانت مع قائد الجيش بينغ دي- هواي الذي أتى الى موسكو في بداية شهر أيلول برفقة كيم، لحضور قمة الحرب الثلاثية الوحيدة الروسية- الصينية - الكورية. في نهاية أحد الاجتماعات، وخلافاً للعادة، أخذ ستالين بينغ جانباً بدون تشو، الأمر الذي نقله تشو لماو الغاضب. شرح بينغ لماو أن ستالين لم يتحدث إلا عن سوء معاملة الكوريين الشماليين لأسرى الحرب (الأمر الذي سبب مشاكل دبلوماسية للشيوعيين). بقي ماو مرتاباً واستنتج على ما يبدو أنها مجرد خدعة من ستالين لزعزعته.

حاول ستالين مجدداً زرع الإسفين - وهذه المرة بين ماو وليو شاو-كي، الذي أتى الى موسكو لحضور مؤتمر الحزب السوفياتي في تشرين الاول. كان ستالين شديد الانتباه لليو، بشكل ملفت، إذ أظهر درجة من الحميمية لفتت محيط ليو. ولاحظ مترجم ليو، شي زي، أن «ستالين ذكر حتى أموره الشخصية وأطباعه». كما ترجم شي لماو ورأى التناقض الحاد مع طريقة معاملة ستالين لماو. وعلّق تشو إن-لاي أمام مجموعة صغيرة بأن ستالين رحّب بليو بحرارة تفوق كثيراً ترحيبه بماو.

بعد ذلك، وجه ستالين تحية خاطفة لإغاظة ماو، في حركة غير مسبوقة وفريدة من نوعها في حوليات العالم الشيوعي. في 9 تشرين الاول، نشرت صحيفة برافدا تهاني بكين للمؤتمر الذي عقده ليو في اليوم السابق. وتعبيراً عن المودة ورد بالخط العريض توصيف ليو بأنه «الأمين العام» للحزب الشيوعي الصيني (وهي المرتبة الأعلى عند باقي الأحزاب). لكن كما تعلم موسكو جيداً، ليس للحزب الشيوعي الصيني أي أمين عام؛ ولا يمكن التصديق أن هذا الأمر محض صدفة. وقال لنا أحد السفراء الروس في بريطانيا معلقاً: «لا ترتكب صحيفة برافدا أخطاءاً هذه الأيام». وكان ستالين يقول لماو: يمكنني أن أجعل رجلك الثاني، الرجل الأول!

أراد ليو تصفية ذهنه فكتب فوراً مذكرة لرجل ستالين الثاني جيورجي مالنكوف، قائلاً إنه ليس أميناً عاماً وأن الحزب الشيوعي الصيني كان «خاضعاً بكامله لقيادة الرفيق ماو تسي-تونغ [الذي] هو الرئيس». وإذ قرر بوضوح أنه من الحكمة عدم الخوف، لم يرسل اعتذارات مسعورة الى ماو في الوطن. بعد المؤتمر، بقي في موسكو كما كان مخططاً للتحدث مع القادة الشيوعيين الآسيويين الآخرين، بمن فيهم هو شي مينه؛ لم يناقش الرجلان مع ستالين مسألة الفيتنام فحسب بل أيضاً اليابان وإندونيسيا. ثم استبقى ستالين ليو في روسيا أشهراً عدة حتى ك2 1953، ليلتقي الشعب الذي كان في طليعة قائمة ماو - الشعب الإندونيسي. في ليل 6-7 كانون الثاني 1953 قابل ليو ستالين أخيراً، وكبير عملاء روسيا في إندونيسيا وعقدوا اجتماعاً طويلاً خلافاً للعادة مع القائدين الشيوعيين الإندونيسيين إيديت Aidit و نجوتو Njoto، لمناقشة «سيطرة» بكين على الحزب الإندونيسي. بعد ذلك، احتفل إيديت بالخروج في الليل

المثلج ورمي كرات الثلج، بدون أن يعي أنه في عام 1965 أي بعد عشر سنوات، سيُدان هو ونجوتو ومئات الآلاف من أتباعهما من قبل وصاية ماو ويُساقون جميعهم الى موت مبكر ومروع.

ما إن انتهى الإجتماع مع الإندونيسيين حتى غادر ليو موسكو عائداً الى الوطن في اليوم نفسه. وقد دام بقاؤه في روسيا ثلاثة أشهر. كان ماو عاجزاً حيال مكائد ستالين الساعية الى إيذائه وإثارة شكوكه؛ كما كان عاجزاً عن صب غضبه على ليو، الأمر الذي سيفيد ستالين وليس هو. فأرسل إنذاراً سريعاً لليو لحظة عودة هذا الأخير الى بكين مفادها: لا تُخال لك أمور غير موجودة!(*).

في هذه الأثناء، بقي ماو يمطر ستالين بمطالبه المتعلقة بمصانع الأسلحة. ففي 17 كانون الاول 1952 أبرق رسالة مدوّية من ثماني صفحات يطلب فيها من ستالين بفظاظة ما يلي: «رجاءاً، هل يمكن للحكومة السوفياتية أن تلبي مطالبنا من الأسلحة للحرب في كوريا عام 1953، ومطالبنا المتعلقة بمصانع الأسلحة»؛ والمقدمة التي سبقت ذلك شرحت رؤيا ماو للحرب: «في المرحلة التالية (من المفترض بعد سنة)، ستكون أكثر ضراوة». ومن باب الإغراء الإضافي للحصول على ما يريده من ستالين، عرض ماو أن يتحمل الحالة الإفلاسية التي يعاني منها كيم، قائلاً لستالين إن بكين ستعوّض لبيونغ يانغ على ثلاث سنوات - بمعدل 60 مليون دولار أميركي سنوياً، ما يعادل في الواقع القيمة الدقيقة التي «أقرضها» ستالين لماو في شباط 1950؛ ولكن من حيث رأس المال، فهي 50 مرة أكثر من القيمة التي كان ستالين يريد تقديمها- ومن بلد أكثر فقراً. وبعكس قرض ستالين، فإن قرض ماو لكيم هو من دون فائدة. بعد أسابيع قليلة، في كانون الثاني 1953، تقدّم ماو بطلب كبير آخر لسلاحه البحري. قال ستالين إنه سيرسل الأسلحة المطلوبة ووافق على مشاركة أسطول ماو البحري في العمليات البحرية خارج المياه الإقليمية للمرة الأولى، لكنه عارض بشدة مطالب ماو المتعلقة بمصانع الأسلحة.

عند هذا الحد، تراجعت محادثات الهدنة فيما استمرت المعارك العنيفة. في 2 شباط 1953 اقترح رئيس الجمهورية الأميركي الجديد إيزنهاور في خطابه أمام اتحاد الولايات إمكانية استخدامه القنبلة الذرية على الصين. في الواقع، لاذ هذا التهديد لماو، إذ بات يملك الآن عذراً ليطلب من ستالين أهم ما يريده: الأسلحة النووية.

منذ إلقاء القنبلة الأولى على هيروشيما عام 1945، وماو يتوق الى امتلاك قنبلة. ويتذكر أحد

(*) قام ماو بذلك من خلال إدانة رئيس اتحاد النقابات، لي سي سان، لأنه أيد مزيداً من الاستقلالية للنقابات وقد أدرك المطلعون أن هذا الخط أيده ليو بشدة.

مدرائه الاقتصاديين بو يي-بو أنه في بداية الخمسينيات، «وفي كل الاجتماعات والمناسبات، كان الرئيس ماو يتحدث عن عدم امتلاكنا قنابل ذرية. فكان يتكلم ويُكثر الكلام. كان الرئيس ماو قلقاً فعلاً!» وقد نجح ماو في إخفاء هذا التوق عن الشعب، مبدياً في المقابل ازدراءاً لامبالياً بالأسلحة الذرية، ومدعياً أنه يفضل الإعتماد على «الشعب»؛ واشتهر هذا الموقف عام 1946 عندما قال إن القنبلة الذرية هي «أسد من ورق».

وما إن ألمح أيزنهاور الى إمكانية استخدام القنبلة الذرية، حتى أرسل ماو كبار علمائه النوويين كيان سان-كيانغ الى موسكو. وكانت رسالة ماو تُختَصر بما يلي: أعطوني القنبلة الذرية، فلا تنجرون الى حرب نووية مع أميركا. بالتالي، وجد ستالين نفسه في مأزق جدي إذ بين روسيا والصين معاهدة دفاع مشترك.

لم يشأ ستالين إعطاء ماو القنبلة الذرية لكنه قلق في شأن أيزنهاور. وتحت وطأة هذا الضغط المتواصل - من ماو ومن الغرب على حد سواء - يبدو أن ستالين قرر إنهاء الحرب الكورية. بحسب ديمتري فولكونوف، الجنرال الروسي الذي كان على إطلاع بالملفات الأكثر سرية على الإطلاق، فإن ستالين اتخذ قرار إنهاء الحرب في 28 شباط وأخبر معاونيه أنه ينوي التنفيذ في اليوم التالي. في تلك الليلة، وقع ستالين ضحية ضربة قوية قُتل على أثرها في 5 آذار. وقد يكون ماو أحد عناصر هذه الضربة. ففي العشاء الأخير تحدّث ستالين عن الحرب الكورية، رابطاً بين فشل إبقاء يوغوسلافيا الخاضعة لتيتو في المعسكر وخسارة الشيوعيين لفرصة الانتصار في كوريا. كما تحدث عن الكومنتيرن في الشرق الأقصى وكيف فشل في اليابان. بعد العشاء قرأ بعض الوثائق وآخرها تقرير حول فشل محاولته قتل تيتو. فشك ستالين في كون ماو جاسوساً يابانياً في الماضي، وهو ينظر الى ماو وكأنه تيتو بالقوة. ولعل فكره الاستحواذي يدور حول ماو، ويرى أن التخلص من ماو يشبه في رهبته محاولة القضاء على تيتو(*). و قد يكون ماو ساهم في توجيه الضربة الى ستالين.

ذهب ماو الى السفارة السوفياتية ليرى موت ستالين. وادّعى أحد موظفي السفارة أن عيني ماو إغرورقتا بالدموع وأنه عجز عن الوقوف بشكل مستقيم، وأن تشو كان يبكي. في الواقع، موت ستالين شكّل لحظة تحرر ماو.

في 9 آذار أُقيمت خدمة تذكارية مهيبة في ساحة تيان ان مين في حضور حشد منظّم قوامه مئات الآلاف من الناس. وأعطيت أوامر صارمة للجماهير بما فيها عبارة «لا تضحكوا!»

(*) ارتدت الحرب الكورية بشكل استعراضي على الرجل الثالث الذي أثارها كيم إيل سونغ. في عام 1994، وبعد 44 سنة على بدايتها وجد كيم ميتاً وهو جالس يمسك في يده نسخاً عن الملف الذي كانت الحكومة الروسية لما بعد الشيوعية على وشك إطلاقه ويكشف القصة الداخلية للحرب ودوره في إطلاقها.

ارتفع تمثال ضخم مغطى لستالين فوق المدخل الرئيسي وافتتحت الخدمة بانحناء ماو أمام التمثال ووضعه إكليلاً من الزهر. تعددت الخطابات لكن ماو لم يلق أي منها؛ كما أنه لم يذهب الى الجنازة في موسكو مع أن السيدة ماو التي كانت في موسكو في تلك الفترة، وزارت نعش ستالين. تشو من جهته حضر الجنازة في الساحة الحمراء وكان الأجنبي الوحيد الذي سار مع كبار المشيعين الروس إذ مشى الى جانب القائد الأمني بيريا، في طقس بارد قارص (من بين العطايا التي يتمتع بها تشو، المناعة ضد الحرارة).

إن موت ستالين أدخل تغييرات فورية. فخلال اجتماع استمر ليلة كاملة في 21 آذار، قال القادة الروس الجدد وعلى رأسهم رئيس الوزراء جيورجي مالنكوف، لتشو إنهم قرروا إنهاء الحرب في كوريا. وكان أخلاف ستالين يتوقون الى التخفيف من حدة التوتر مع الغرب، وأوضحوا أنه في حال تعاون ماو في مسألة وقف الحرب سيُكافأ بعدد كبير من منشآت الأسلحة – واحدة وتسعين منشأة – كان ستالين يؤجلها. وخلافاً لستالين الذي رأى في ماو منافساً شخصياً له، اعتبر القادة السوفياتيون الجدد أن الصين القوية عسكرياً مفيدة للمعسكر الشيوعي.

لكن ماو أصر على استمرار الحرب الكورية إذ أراد شيئاً إضافياً: القنبلة الذرية. في الواقع، كان هذا الهدف الرئيسي من رحلة تشو، الى جانب مصانع الأسلحة. حاول تشو جاهداً إدخال مجموعة كيان سان–كيانغ الفيزيائية النووية الى معاهد الأبحاث النووية الروسية، لكن مطالبهم المتكررة بتحويل التكنولوجيا النووية كانت تُرفض. استمر كيان بالضغط مدة ثلاثة أشهر، وهي فترة تزامنت تماماً مع تقدّم ماو بخطى بطيئة نحو إنهاء الحرب. ثم في أيار، سارت موسكو بخطى ثابتة.

واجه المعسكر الشيوعي خلال فترة من الزمن حملة كبيرة تتهم الأميركيين باللجوء الى الحرب الجرثومية في كوريا والصين، وادّعت وجود عدد كبير من الموتى بسبب الإصابة بالجراثيم. وقد أجبر طيارون أميركيون ألقي القبض عليهم، بالاعتراف بإلقاء القنابل الجرثومية، وأحياناً أمام عدسات الكاميرا.

استخدم ماو هذه المسألة ليثير الكره للأميركيين داخل الصين. لكن الاتهامات كانت ملفقة. عندما مات ستالين قرر الكرملين فوراً سحب الأعباء التي أدت الى «معاناة روسيا من دمار سياسي على الساحة الدولية»، كما كتب بيريا لمالنكوف في 21 نيسان 1953.

إن الاتهام بفَبرَكَة الأعباء بات يُستخدم اليوم للضغط على ماو لإنهاء الحرب. فقد كتب وزير الخارجية السوفياتي مولوتوف لمعاونيه أن الصينيين أعطوا الكوريين الشماليين «تقريراً خاطئاً متعمّداً...حول استعمال الأسلحة البكتيريولوجية من قبل الأميركيين». وقال إن

الكوريين «وضعوا تحت الأمر الواقع». وكان الروس يمهدون لإلقاء اللوم على ماو.

في 2 أيار طلب الكرملين من سفيره الجديد في بكين ف.ف. كوزنيتسوف Kuznetsov أن يبعث رسالة قاسية غير مسبوقة لماو وفيها:

> لقد خُدعت الحكومة السوفياتية وكذلك اللجنة المركزية [للحزب السوفياتي]. إن تسرّب معلومات الى الصحف حول استعمال الأميركيين للأسلحة البكتيريولوجية في كوريا إنما يرتكز على معلومات خاطئة. كانت الاتهامات ضد الأميركيين من نسج الخيال.

هذه الرسالة «أوصت» بأن تُسقط بكين الاتهامات، وأبلغت ماو بلهجة تهديدية أن الروس «المسؤولين عن المشاركة في الفَبْرَكَة...سيُعاقبون أشد عقاب». في الواقع، استدعي السفير السوفياتي في بيونغ يانغ، ف.ن.رزوفاييف Razuvayev، كما علم ماو، وتمّ تعذيبه من قبل رجال بيريا.

في منتصف ليل 11-12 من شهر أيار، قابل كوزنيتسوف ماو وتشو. بعد ذلك، قال في موسكو إن ماو تراجع عن موقفه. فبحسب كوزنيتسوف قال ماو: «إن الحملة بدأت على أساس تقارير وردت من القيادة [الصينية]...ومن الصعب الآن معرفة مدى صحة هذه التقارير...في حال اكتشاف أنها مزورة فلا يجب بالتالي الوثوق بها من أساسها». من الواضح أن كوزنيتسوف ينفّذ أوامراً بإعطاء تفاصيل دقيقة عن ردات فعل ماو، وربما بالغ الى حد ما في عكس الموقف عندما قال: «لوحظ بعض التشنج من جهة ماو تسي-تونغ؛ فقد...رمى سيجارته...وعند نهاية الحديث ضحك ومازح وهدأ. أما تشو إن-لاي فتصرّف بجدية مدروسة وبعض الارتباك».

وكان ماو محقاً في الشعور بالارتباك. فلهجة موسكو قاسية خلافاً للعادة، إذ أظهرت مدى عزم الكرملين على إنهاء الحرب، وأشارت الى الاستعداد لممارسة ضغط كبير وإنكار ما قد وافق عليه ستالين. وفي تعقب سريع لإنكار الكرملين لمؤآمرة ستالين المزيفة الأخيرة، Doctors Plot (وهي المرة الأولى التي يدان فيها علناً عمل قام به ستالين، فكان لها وقع القنبلة في العالم الشيوعي)- قال الكرملين الجديد لماو إنه مصمم على السير في طريقه الخاص. فؤجىء ماو بشكل واضح إذ كان أصدر أوامره بإنهاء الحرب في الليلة نفسها(*).

لاحظ ماو أن الحصول على القنبلة الذرية من روسيا ليس مطروحاً في الوقت الحاضر، إذ

(*) كان حكم كيم يتوق الى وضع الكرة في ملعب ماو. ونقل القائم بالأعمال السوفياتي في بيوغيانغ سوزداليف الى موسكو 1 حزيران أنه لدى سماع نبأ «توصيات» الكرملين رأى الضابط الكوري الذي أوصل اليه الرسالة باك تشانغ اوكي في ذلك فرصة لتبرئة الصينيين وحتى اقتراح «إمكانية قذف القنابل من طائرات صينية».

عزم الكرملين الجديد على تخفيف الضغط بينه وبين الأميركيين. فاستدعى الوفد النووي الذي أرسله الى موسكو، وانكبّ على مشاريع الأسلحة التي عرضها عليه قادة الكرملين الجديد. كما أمر مفاوضيه في كوريا بالموافقة على إعادة التوطين الطوعي لأسرى الحرب، الأمر الذي كان على بساط البحث منذ أكثر من 18 شهراً.

رفض ثلثا أسرى الحرب الصينيين الـ21،374 العودة الى الصين الشيوعية وذهب معظمهم الى تايوان(*). أما الثلث الذي عاد الى الصيني فتمت معاملتهم «كخونة» بسبب استسلامهم، وعانوا بشكل مروع خلال الفترة المتبقية من حكم ماو. المساهمة الأخرى الرهيبة وغير المعروفة كثيراً التي أضافها ماو الى مأساة الأمة الكورية كانت المساعدة في تسليم أكثر من 60 ألف أسير كوري جنوبي كانوا محتجزين بصورة غير شرعية من قبل الشمال خلال الهدنة، ولقيوا مصيراً فظيعاً. طلب ماو من كيم الاحتفاظ بهم. شُتّت هؤلاء التعساء في أقصى أطراف كوريا الشمالية لحجبهم عن أعين المتطفلين وتقليل فرص فرارهم، وهذا هو المكان الذي ينتهي اليه على الأرجح أي حي حتى ذلك اليوم.

في 27 تموز 1953 تم أخيراً التوقيع على الهدنة فانتهت الحرب الكورية التي استمرت ثلاث سنوات وحصدت ملايين من القتلى وأعداد من الجرحى.

كما أرسِل الى كوريا أكثر من 3 ملايين رجل صيني مات منهم 400 ألف على الأقل+. لكن وثيقة روسية رسمية اعتبرت عدد القتلى الصينيين مليون رجل.

من بين الذين ماتوا في كوريا آن-ينغ الإبن البكر لماو، الذي قتل في غارة جوية أميركية على المقر الرئيسي لبينغ دي-هواي حيث كان يعمل كمترجم روسي لبينغ. حصل ذلك في 25 تشرين الثاني 1950 بعد مرور شهر واحد على دخوله كوريا وكان في الثامنة والعشرين من عمره.

كان قد تزوج منذ سنة فقط في 15 تشرين الاول 1949. وكانت زوجته سي-كي بمثابة

(*) اختار 21 أميركي واسكتلندي واحد الذهاب الى الصين حيث سرعان ما ترك معظمهم وخاصة بعد صعوبات كبيرة. نشر ذلك الخوف في الغرب من حصول عملية «غسل دماغ» كما ظهر في «اعترافات» رجال الجو المحتجزين حول القاء القنابل الجرثومية.

+ «بحسب الاعلام الرسمي بلغ عدد القتلى 152 الف قتيل. ذلك في الاوساط الخاصة ابلغ دينغ كسياو بينغ القادة الشيوعيين اليابانيين بان عدد القتلى الصينيين كان 400 الف قتيل، وهو الرقم نفسه الذي اعطاه كانغ تشينغ للزعيم الالباني انور خوجا. رهن التضحيات الصينية لَم تستحق الشكر من قبل كوريا الشمالية. وعندما حاولنا الدخول الى النصب التذكاري للحرب الصينية رفض المسؤولين الكوريين منحنا الأذن. يبقى ان السؤال حول عدد القتلى الصينيين في الحرب الكورية كان جوابه وباكراه، وبعد رفض من المسؤولين الصينيين بانه ربما 10 آلاف قتيل».

إبنة ماو بالتبني. تعرفت الى آن-يينغ منذ بضع سنوات؛ عندما أخبر آن-يينغ والده في نهاية عام 1948 أنه يريد الزواج منها تحوّل ماو الى غاضب متوحش وجأره بصوت مرتفع جداً بحيث أغمي على آن-يينغ لشدة الخوف وبردت يداه وتوقفتا عن التفاعل حتى مع زجاجة من الماء المغلية التي تركت عليهما بثرتين كبيرتين. إن ردة فعل ماو الغاضبة تنمّ عن غيرة جنسية (فسي-كي الجميلة والرشيقة كانت بجوار ماو سنوات طويلة من مراهقتها). علّق ماو الموافقة أشهراً عديدة، ثم طلب من الثنائي تأخير الزواج الى حين الإعلان الرسمي عن نظامه في الأول من تشرين الاول 1949. وفي الذكرى الأولى لزواجه، غاب آن-يينغ. وكما هي القاعدة، لم يخبر زوجته الى أين كان ذاهباً، وهي لم تسأله.

عندما علِم ماو بوفاة ابنه، بقي صامتاً بعض الوقت ثم تمتم: «في الحرب، كيف لا يسقط قتلى» ولاحظ سكرتير ماو: «بالفعل لم يُعبّر عن أي ألم كبير». حتى السيدة ماو ذرفت بعض الدموع رغم علاقتها المتوترة مع إبن زوجها.

لم يخبِر أحد أرملة آن-يينغ الشابة بذلك لأكثر من سنتين ونصف. ففيما الحرب مستمرة، تقبلت تكتم آن-يينغ إذ هي معتادة على السرية الحزبية. ولكن في صيف 1953، وبعد توقيع الهدنة، أقلقها هذا التكتم المستمر وسألت ماو الذي أخبرها أن آن-يينغ مات. خلال هذه السنوات، كانت ترى ماو باستمرار وتقضي معه نهاية الاسبوع والعطل، ولم يُبدِ أي حزن ولم يلمِح حتى الى حصول أمر سيء، لا بل كان يخبر دعابات متبججة عن آن-يينغ كما لو كان حياً.

36- إطلاق برنامج القوة العظمى السري
(1953-1954، العمر 59-60 سنة)

بعد أن وافق ماو على إنهاء الحرب الكورية في أيار 1953، وافق أخلاف ستالين في الكرملين على بيع الصين 91 منشأة صناعية ضخمة. وبعد التأكد من الحصول عليها، مضافة الى المشاريع الخمسين التي وافق عليها ستالين، بات بإمكان ماو أن يطلق مخططه للتصنيع في 15 حزيران. فكان التركيز محصوراً ببناء مصانع الأسلحة لجعل الصين قوة عظمى. وهذا في الواقع برنامج القوة العظمى الذي أراده ماو. وقد حُجبت كلياً الطبيعة العسكرية للبرنامج ولا تزال غير معروفة بشكل كاف في الصين اليوم.

أراد ماو دفع أي مورد من موارد الأمة في اتجاه هذا البرنامج. فعملية «التصنيع» ككل يجب أن تنتهي «خلال عشر أو خمس عشرة سنة»، أو أكثر من ذلك بقليل كحد أقصى. وكرر ماو مراراً أن السرعة هي كل شيء - «الجوهر». لكن ما لم يقله علناً هو هدفه الحقيقي: أن يصبح قوة عسكرية في حياته، ويجعل العالم يستمع اليه حين يتكلم.

اقترب ماو من سن الستين، وغالباً ما كان يستشهد بعمره وبموته عند مناقشة عملية التصنيع. ففي إحدى المناسبات، شدد خلال تحدثه مع مجموعة من حراسه على أنه: «سيحقق ذلك خلال 15 سنة»، ثم أضاف عرضاً هذه الكلمات: «كونفوشيوس توفي في الثالثة والسبعين من عمره». والمعنى الضمني وراء ذلك: يمكنني حتماً أن أعيش أطول من كونفوشيوس، فأستطيع بالتالي أن أرى النتائج خلال خمس عشرة سنة.

في مناسبة أخرى، قال «يمكننا تجاوز بريطانيا...خلال 15 سنة أو أكثر بقليل»، ثم أضاف: «أنا بنفسي وضعت أيضاً خطة على خمس سنوات: أعيش...15 سنة إضافية ثم أكون راضياً: ولعله من الأفضل طبعاً إنجاز المزيد» - أي العيش مدة أطول أيضاً.

لم يكن ماو مهتماً بالخلافة. بالعودة الى عام 1918، كتب: «يقول البعض إن على المرء مسؤولية أمام التاريخ. أنا لا أؤمن بذلك...أناس مثلي لا يبنون الإنجازات ليتركوها للأجيال الصاعدة..»(نحن كتبنا ما هو بالخط المائل). بقيت هذه وجهات نظره طوال حياته. في عام 1950، بعد زيارة ضريح لينين، قال ماو للمحيطين به إن الاحتفاظ الرائع بالجثمان هو من أجل الآخرين فقط؛ لا يرتبط ذلك بلينين. عندما مات لينين، لم يشعر

بشيء ولم يكترث كيف سيُحفظ جثمانه.

عندما مات ماو، لم يترك لا وصية ولا ورثة - وفي الواقع، وعلى عكس معظم الأولياء الصينيين، وبخاصة الإباطرة الصينيين، كان غير مبال لوجود وريث، وهذا أمر غير مألوف أبداً (وهو يختلف في ذلك جذرياً عن تشيانغ كاي-شيك الذي ذهب بعيداً جداً لحماية ورثته). الإبن البكر لماو الذي مات في الحرب الكورية، لم يكن له نسل، لأن زوجته لم ترغب في إنجاب الأطفال وهي ما زالت تتابع دراستها. لم يضغط عليه ماو لينجب وريثاً مع أنه الإبن الوحيد لماو الصافي الذهن إذ أن الإبن الأصغر يعاني من تخلف عقلي.

خلال العقود القادمة، كان هدف ماو أن يصبح على رأس قوة عسكرية عظمى في حياته، العنصر الوحيد والأهم الذي أثر في مصير الشعب الصيني.

كان ماو يستعجل بناء ترسانته. ففي أيلول 1952، عندما قدّم تشو إن-لاي لستالين قائمة بمطالب بكين لمخططها للسنوات الخمس الأولى (1953-1957)، جاءت ردة فعل ستالين كما يلي: «إن هذه النسبة غير متوازنة أبداً. فحتى أيام الحرب لم تبلغ مصاريفنا العسكرية هذا الحد من الارتفاع». «المسألة هنا هي...هل سنكون قادرين على إنتاج هذا القدر من التجهيزات». استناداً الى الإحصاءات الرسمية، فإن الصرف خلال هذه المرحلة على المصانع العسكرية وتلك المرتبطة بالأسلحة، بلغ 61% من الميزانية - رغم أن النسبة هي في الواقع أكثر ارتفاعاً، ويمكن أن ترتفع أيضاً مع تقدّم السنين.

في المقابل، فإن الصرف على التربية والثقافة والصحة مجتمعين، لا يساوي سوى 8.2% وليس هناك قطاع خاص ليسد العجز عندما تتخلف الدولة عن ذلك. لم تكن التربية والعناية الصحية يوماً مجانيتين، باستثناء الحالات الوبائية، وهما غالباً غير متوفرتين لا للفلاحين ولا للطبقات المدنية الدنيا. ولتوفير المال من أجل الصحة، لجأ النظام الى بعض الخطط كالحملات الصحية التي لم تدع فقط الى قتل الذباب والجرذان بل أيضاً في بعض المناطق، الهرر والكلاب؛ رغم أن النظام لم يتوسع في عملية تنظيف حمامات الصين النتنة والوبائية التي بقيت وسخة طوال فترة حكم ماو.

قيل للشعب الصيني، بغموض ولكن بتعمّد، إن التجهيزات الآتية من الاتحاد السوفياتي والمستخدمة في عملية التصنيع الصينية هي «مساعدة سوفياتية»، أي أن «المساعدة» كانت هبة. لكنها لم تكن كذلك، إذ يجب دفع ثمن أي غرض - ما يعني أيضاً الطعام بشكل أساسي - الأمر الذي حُجب تماماً عن الشعب الصيني، وما زال الى حد بعيد. في تلك الأيام كان لدى الصين أشياء قليلة أخرى للبيع. فقد قال تشو أمام مجموعة صغيرة إن التجارة مع روسيا «تُختصر

بالنسبة الينا ببيع المنتوجات الزراعية لشراء آلآت»(*). طوال فترة الخمسينيات، واستناداً الى الاحصاءات الرسمية اليوم، «شملت الصادرات الرئيسية الأرز وحبوب الصويا والزيت النباتي وشعر الخنازير وجلد النقانق والحرير الخام ولحم الخنزير والكشمير والشاي والبيض». في تلك الفترة، قال ماو للرئيس الإندونيسي سوكارنو بشيء من الوقاحة: «بصراحة أقول لك، لم تتوفر لدينا أشياء كثيرة [للتصدير] باستثناء بعض التفاح والفستق وشعر الخنازير وحبوب الصويا».

ما كانت تصدره الصين الى روسيا وأتباعها، يرتكز على عناصر شكلت مواداً أساسية بالنسبة الى شعبها هي، وتشمل كل المنتوجات الرئيسية التي يعتمد عليها شعب الصين للحصول على البروتيين: حبوب الصويا والزيت النباتي والبيض ولحم الخنزير التي كان دائماً التزود بها قليلاً. وبما أن الصين تضم فقط 7% من أراضي العالم الصالحة للزراعة، و22% من شعبه، فقد كانت الأرض ثمينة جداً لتربى الماشية على القسم الأكبر منها؛ لذلك معظم الصينيين لا يحصلون على المنتوجات اللبنية ويحصلون على كميات قليلة جداً من اللحوم. حتى الحبوب التي تعتبَر السلعة الرئيسية في البلاد، كانت على لائحة صادرات ماو، في حين أن انتاج الصين من الحبوب لم يكن مناسباً بل في حالة مزرية، فيما كان البلد تقليدياً مستورداً كبيراً للحبوب.

كان ماو مستعداً أن يحرم شعبه من الطعام ليتمكن من تصديره. ومن بين التعليمات الواردة الى وزارة التجارة الخارجية في تشرين الأول 1953 تقرأ:

بالنظر الى السلع الضرورية جداً لبقاء الأمة (أي الحبوب وحبوب الصويا والزيت النباتي)، صحيح أننا بحاجة الى تزويد شعب الصين بها، لكن لا يمكننا التركيز على هذا فقط...يجب أن نفكر بشتى الطرق التي تؤدي الى انتزاعها للتصدير] نحن كتبنا ما هو بالخط المائل [...أما بالنسبة الى السلع (كاللحوم والفستق) التي هي أقل أهمية لبقاء شعبنا، فلدينا أكثر من سبب لنقطعها عن الاستهلاك داخل الصين لسد حاجة التصدير.

وفي أمر آخر صدر في تموز 1954 تقرأ:

بالنسبة الى السلع كاللحوم، يجب على السوق الداخلية أن تخفف استهلاكها وتنقبض لتضمن عمليات التصدير. أما السلع الأخرى كالفاكهة والشاي... فيجب تصديرها قدر الإمكان، ولا تُزوَّد السوق الداخلية إلا بما يتبقى منها ... [نحن كتبنا ما هو بالخط المائل]

(*) في أيلول 1952 أخبر تشو ستالين بأن الصين يمكنها أيضاً «جمع» حتى 1.6 بليون ليرة استرلينية إضافة الى 200 مليون دولار أميركي في أكثر من 5 سنوات، «غالبيتها» من خلال ما أسماه «التهريب».

إن التأثير الأساسي يقع على الفلاحين. فقد قضت السياسة المتبعة بتأمين الطعام الأساسي لسكان المدن، بنسب محدودة، وترك الفلاحين يجوعون عندما ينفذ الطعام لا محال. إن كل من تسجّل كفلاح في فترة حكم ماو، مُنع من التنقل داخل المدن أو من تغيير وضعه الشخصي. فلم يسمح للفلاحين حتى بالانتقال الى قرية أخرى إلا بإذن خاص (أي في حال الزواج)؛ وإلا اعتُقلوا في قراهم مدى الحياة، وكذلك أولادهم وأحفادهم. هذا الجمود التام كان جديداً في الصين. تقليدياً، كان الفلاحون قادرين دوماً على التحرك جغرافياً وكذلك اجتماعياً. وكانوا قادرين على التطلع نحو الشهرة والثروة - كما فعل ماو. فإذا سادت المجاعة، كان بامكانهم الانتقال سريعاً الى المدن أو مناطق أخرى ليجربوا حظهم على الأقل. أما الآن، وحتى في أفضل الأوقات، لا يمكنهم أبداً أن يتمنوا تحسين وضعهم، إلا عندما تدفعهم الحكومة للانخراط في الجيش، أو الالتحاق بمصنع. وعندما تقع الكارثة، يجوعون أو يموتون في قراهم(*).

في أحد الأيام، وإذ وعد تشو إن-لاي بإرسال مزيد من حبوب الصويا الى ألمانيا الشرقية، قال لمحدثيه الألمانيين: «إذا جاع الشعب هنا سيحصل ذلك في القرى وليس في المدن كما يحصل عندكم». بتعبير آخر: مجاعتنا لن تظهر الى العلن.

كان على الفلاحين أن ينتجوا الطعام للتصدير بدون أية مساعدة تذكر من الدولة، الأمر الذي أكده للمجلس الأعلى للأختام في 27 شباط 1957 رئيس الوزراء تشو، عندما قال بفظاظة: «لا شيء للزراعة». ولزيادة المحصول، قال المسؤول الزراعي لدى ماو لعماله، «نحن نعتمد على الفلاحين، كتفين وأسفل واحد» - أي يد عاملة وبراز يستعمل كسماد.

والى جانب اضطرار الفلاحين أن ينتجوا الطعام لدفع الواردات العسكرية من روسيا وشرقي أوروبا، كان عليهم أيضاً أن ينتقوا غلة ثمينة للتعويض عن الهبات الضخمة التي يوزعها ماو ليدعم طموحاته بالحصول على أراضيه. لم تكن الصين تؤمن الطعام للدول الفقيرة مثل كوريا الشمالية والفيتنام الشمالية فحسب، بل كانت تعطي بسخاء للأنظمة الشيوعية الأوروبية الأكثر غنى بكثير، وبخاصة بعد موت ستالين، عندما بدأت بكين تنشر فكرة أن يصبح ماو رأس المعسكر الشيوعي العالمي. وعندما أقامت رومانيا المهرجان القومي للكشافة الشباب، وهبها ماو 3 آلاف طن من الزيت النباتي - فيما يحصل الفلاحون في الصين المنتجون للزيت على حوالى كيلوغرام واحد في السنة، ويجب أن يكفي للطبخ وللإنارة، إذ أن الكهرباء لم تكن موجودة في معظم القرى. بعد ثورة 1956 في هنغاريا الغنية بشكل لا يقاس،

(*) التهديد بالتريف كان بمثابة رادع قوي للمقيمين في المدن كي لا يتعدوا الخط. أدرك الجميع أن الدنو من الفلاحين لا يقصيهم وعائلاتهم عن العمل فحسب، بل يجعلهم يفقدون الثقة بكسب المعيشة، وأن هذه المصيبة قد تمتد الى أجيال المستقبل أيضاً.

أرسلت بكين للنظام 30 مليون روبل قيمة سلع، و3.5 مليون ليرة استرلينية «كقرض»؛ وكما بقي ماو يقول القروض لا يعاد دفعها.

عندما انفجرت أول ثورة كبرى في أوروبا الشرقية، داخل ألمانيا الشرقية في حزيران 1953، بعد موت ستالين، سارع ماو الى دعم الديكتاتورية هناك، واهباً 50 مليون روبل على الفور قيمة طعام. لكن الألمان أرادوا أكثر من ذلك وقدموا في المقابل آلات لا تحتاج إليها الصين. في الواقع، قرر مدراء التجارة الخارجية في بكين رفض هذا المقابل، لكن ماو تدخل وأمرهم بقبوله بحجة مضحكة «أنهم أكثر حرماناً منا. ويجب أن يشكل هذا شغلنا الشاغل للإعتناء بهم» (هذا ما ركز عليه ماو). فبفضل الطعام الصيني كان باستطاعة ألمانيا الشرقية أن ترفع معدل الطعام في أيار 1958.

والصينيون العاديون ليسوا فقط عاجزين عن إبداء رأيهم في كرم ماو، لكنهم لم يدركوا أن عطاءاته السخية تحققت بفضلهم. فماو وحده كان مسروراً. وعندما جاء القائد الألماني الشرقي المتوحش والتر أولبريشت Ulbricht الى الصين عام 1956 وتحدث الى ماو بإطراء تقليدي، رد هذا الأخير بحسم: «لا داعي أن تقلدنا حتى النهاية». وكان ماو يتحدث كمعلم. فقد أراد أيضاً التأكيد أن أولبريشت على درجة كافية من الطغيان. وسأل ماو: «بعد السابع عشر من حزيران [ثورة 1953 في برلين الشرقية] هل احتجزت عدداً كبيراً منهم كأسرى؟ واقترح أن يفكر الألمان الشرقيون في نقل أحد »النماذج« الصينية: الحائط الكبير. الحائط كما قال، يساعد كثيراً في إبقاء الناس خارجاً «كفاشيين». بعد سنوات على ذلك، ارتفع حائط برلين.

إن أعلى نسبة لإجمالي الناتج القومي تقدمها أغنى البلدان كمساعدة خارجية، قلما يتعدى الـ0،5%؛ والرقم الأميركي في نهاية الألفية كان أقل بكثير من 0.01%. في ظل حكم ماو، بلغت الصين نسبة لا تصدق 6.92% (عام 1973) - وهو أعلى نسبة شهدها العالم.

كان فلاحو الصين من أفقر فلاحي العالم، وماو يعرف ذلك؛ ويعلم جيداً أيضاً أن الفلاحين خضعوا للمجاعة في عهده. ففي 21 نيسان1953، وعشية إطلاق برنامج القوة العظمى، ذكر في أحد التقارير: «سيعاني حوالى 10% من الأُسر الزراعية من قلة الطعام خلال الربيع والصيف...وحتى من نفاذ الطعام بتاتاً». وكتب أيضاً: سيحصل ذلك «كل سنة». فكيف يمكن لمخزون الطعام المحدود في البلد أن يلبي طموحات ماو الكبيرة؟ تكفي عملية حسابية بدائية لتدل على ضخامة عدد ضحايا المجاعة إذا استمر ماو في إرسال الطعام الى الخارج على حساب هذه الطبقات.

لم يكترث ماو بل كان يطلق ملاحظات غير رسمية مثل: «لديكم فقط أوراق الأشجار للأكل؟ كلوها إذاً». كل الاحصاءات الاقتصادية والمعلومات كانت سرية ومتكتمة، وبقيت

كل الأمور مخبأة عن الشعب العادي، الذي كان عاجزاً عن التأثير على السياسات. لكن الرجال في السلطة كانوا محط الأنظار، ومن بينهم الرجل الثاني لماو ليو شاو-كي الذي توقف فجأة أمام العواقب الضخمة لبرنامج ماو. كان ليو داعماً للتصنيع ولوضعية القوة العظمى، لكنه أراد تحقيق هذه الأهداف بوتيرة تصاعدية، من خلال بناء أساس اقتصادي أكثر قوة، ورفع مستويات المعيشة أولاً.

وقال أمام مجموعة صغيرة في 5 تموز 1951: «لا يمكننا تطوير الصناعة الثقيلة أولاً، لأنها تستهلك مبلغاً ضخماً من المال بدون عائدات...والطريقة الوحيدة المتوفرة لدينا لزيادة المال هي حرمان شعبنا...حياة الناس اليوم باتت تعيسة، فعلينا رفع مستويات معيشة الناس أولاً»، وقد تستغرق هذه العملية برأيه عشر سنوات. وأضاف يجب أن تكون هذه المسألة من أولويات الحزب. وكتب: «الناس فقراء جداً». «إنهم بحاجة ماسة لعيش حياة أفضل، حياة مريحة ومثقفة». وإن المهمة الأساسية [للحزب] يجب أن تكون تحقيق هذه الأمنية...» وقال في مناسبة أخرى «يريد الفلاحون اقتناء ملابس جديدة وابتياع الجوارب وانتعال الأحذية واستخدام...المرايا والصابون والمحارم...أطفالهم يريدون الذهاب الى المدرسة». هذه هي اللغة التي لم يستعملها ماو أبداً.

ليو، الأصغر من ماو بخمس سنوات، جاء أيضاً من قرية في هونان تبعد كيلومترات قليلة عن قرية ماو. ذهب الى موسكو عام 1921 والتحق بالحزب هناك وهو طالب في الثالثة والعشرين من عمره. كان شاباً جذاباً جداً للنساء، وجدياً جداً؛ هوايته الوحيدة المطالعة ويكره الثرثرة التفهة. التقى ماو للمرة الأولى عندما عاد الى هونان عام 1922 لكن لم تنشأ علاقة بين الرجلين إلا في أواخر الثلاثينيات، عندما أصبح ليو حليف ماو من خلال مشاركته رؤياه الباردة حول شن الحرب على اليابان لتدمير تشيانغ كاي-شيك. فأطلقه ماو على أنه الرجل الثاني لديه عام 1943. في عام 1945 عندما اضطر ماو للذهاب الى شونغكينغ، وكذلك بين عامي 1949 و1950 خلال وجوده في موسكو، عيّن ليو بديلاً عنه، واعتمد عليه كرئيس منفّذ.

كان ليو الملازم المتعدد المواهب و المهارات والأكثر أهلية بين الذين التقاهم ماو. كما جمع بين التكتم التام والرغبة في أن يبقى في تصرف ماو ليلاً نهاراً. كان ماو ينام خلال النهار ويعمل في الليل، فغيّر ليو الروتين الذي يعيشه ليحاول التنسيق مع أوقات ماو. لكن ماو غريب الأطوار، وغالباً ما كان يجتمع بليو عندما يشعر هذا الأخير بالارتخاء بسبب الحبوب الفعالة التي يتناولها للنوم على غرار غالبية موظفي ماو. وتذكر سكرتير ليو: «كلما اتصل سكرتير الرئيس ماو تكون الرسالة دوماً: «تعال في هذه اللحظة»... وبما أن الحبوب المنومة بدأت

تعطي مفعولها، كان [ليو] يبدو مرهقاً وكأنه ينازع. وفي أغلب الأحيان لا تسنح له الفرصة لاحتساء جرعة من الشاي القوي الذي أعده له خادمه، فيذهب فوراً الى مكان وجود ماو». فالأهم بالنسبة الى ماو أن ليو لم يخف طموحاته بالحلول محله.

ولكن إبان تولّي الشيوعيين السلطة، برزت اختلافات جدية بين الإثنين حول إعطاء الأولوية لتحويل الصين الى قوة عسكرية عظمى من خلال مسيرة قسرية، أو لتحسين المستويات المعيشية. كثيراً ما كان ماو يهزأ من مناصرة ليو للأولوية الثانية بالقول: «آه، حياة الفلاحين صعبة جداً – إنها نهاية العالم! لم أفكر يوماً بذلك».

عندما كان ستالين لا يزال على قيد الحياة، تريّث ماو كي لا يعطي السيد أية ذريعة للقسوة عليه أو تدميره. حاول ستالين إضعاف ماو من خلال صب الانتباه على ليو خلال زياراته الى روسيا، وليس أقله من خلال القيام بخطوة غير مسبوقة إذ حثّ صحيفة برافدا على تسمية ليو «الأمين العام» للحزب الشيوعي الصيني.

ما إن علم ماو أن ستالين على فراش الموت، في بداية آذار 1953، حتى بدأ العمل. فأرسل أولاً إشارات حول إمكانية خلع ليو. في هذه الأثناء، كان ليو في المستشفى يخضع لعملية استئصال الزائدة الدودية في أواخر شباط. فتأكد ماو من بقائه هناك، حتى أنه قطع عنه نبأ وفاة ستالين. ذهب ماو الى السفارة السوفياتية مرتين تزامناً مع مرض ستالين وموته، وكان يرافقه في كل مرة أحد كبار القادة غير ليو، رغم أن وضع ليو الصحي يسمح له بالتحرك. عندما نشرت صحيفة بيبولز دايلي رسالة تمنيات طيبة لستالين من جمعية الصداقة الصينية–السوفياتية، لم تكن الرسالة موقعة من ليو الذي كان رئيساً للجمعية، بل من أحد أتباعه، وهذا أمر غريب بحسب البروتوكول. كما استُبعِد ليو من الاحتفال التذكاري في ساحة تيان ان مين.

في شهر أيار، بعث ماو لليو رسالة قاسية لا بل تهديدية قال فيها: «كل الوثائق والتلغرافات الصادرة باسم المركز لا يمكن أن تنشر إلا بعد إطلاعي عليها. [وشدد ماو] قائلاً وإلا تُعتبر غير صالحة. كن حذراً». وفي رسالة أخرى طلب من ليو (وتشو وقائد الجيش بينغ) «التحقق من كل التلغرافات والوثائق الصادرة باسم المركز أو المجلس العسكري...للتأكد من عدم وجود أية وثائق لم أطلع عليها...في الماضي، قرارات عديدة...صدرت غير مصدقة لأنني لم أطلع عليها. هذا خطأ لا يُحتمَل وهو خرق للقواعد...» إنها لتعابير قاسية جداً، والهدف منها مضايقة ليو أكثر فأكثر.

ثم جاء الهجوم المباشر والمفتوح على ليو أمام جمهور قليل ولكن هام جداً. ففي 15 حزيران، عندما اجتمع المكتب السياسي للإستماع الى ماو وهو يعلن برنامج التصنيع، أدان ماو ليو بشدة ودعاه «الجناح الأيمن». ومع أنه لم يسمّ ليو، فقد أدرك كل مستمع الى من كان يلمح. كما اتخذ

ماو كل الاحتياطات اللازمة كي لا يحصل ما يُستبعَد في الواقع حصوله، أي أن يلجأ ليو الى الحارس البريتوري الذي هو حارس ماو أيضاً، ليدافع عن نفسه. فأدار تحريات سرية مسبقة ليعرف مدى العلاقات الفردية بين الأعضاء وليو. وفي يوم الاجتماع، أُطيح ببعض الحرس وتمّ نقلهم الى خارج بكين.

خلال الأشهر اللاحقة، بات ماو يدين ليو بالتفويض أمام مجموعات أكبر، من خلال انتقاد الأشخاص الأساسيين الذين يحميهم ليو مثل وزير المالية بو يي-بو الذي ابتكر نظاماً ضريبياً لا ينتج ما يشبه العائدات المطلوبة لبرنامج ماو. ثم في شهر أيلول، اختار ماو ضابطاً من الرتبة الدنيا ليُلمح أمام مؤتمر الحزب الى أن ماضي ليو والرجال الذين يحميهم هو ماض، مشبوه، وهم ربما عملاء أعداء. إنه لاتهام مخيف، فواجه ليو خطر فقدان أكثر من وظيفته.

ترك ماو ليو يقلق عدة أشهر، ثم في 24 كانون الأول 1953 أعلن فجأة أمام المكتب السياسي أنه ذاهب في عطلة، وعيّن ليو ليحل محله، ما يعني أن ليو ما زال الرجل الثاني. أحس ليو كمَن سُحب من الجرف، وكان التأثير النفسي لذلك هائلاً؛ انصاع ليو لمطالب ماو بأن ينكر نظرياته السابقة أمام كبار معاونيه، ففعل وبقي يتذلل باستمرار طيلة ثلاثة أيام وليال بدون توقف. وهكذا حصل ماو على ما أراد: ليو المذلول الى أقصى الحدود.

بقي ماو يهدد باستبدال ليو برجل آخر يدعى غاو غانغ Gao Gang رئيس منشوريا. كان غاو متطرفاً وداعماً 100% لبرنامج القوة العظمى الذي خطط له ماو، ومن أكثر المنتقدين علناً لآراء ليو في المجالس العليا. أبدى ماو إعجابه بغاو وعدم إعجابه بليو، وألمح الى غاو أنه يفكر في إعطائه منصب ليو. تحدث غاو مع أشخاص آخرين كبار حول ما قاله له ماو، ولعب الدور الأساسي في الهجوم على ليو. واعتبر كثيرون في المجالس الداخلية، أن غاو على وشك الحلول محل ليو.

ثم، وعلى نحو غير متوقع، أعاد ماو ليو الى منصبه - وأبعد غاو الذي اتهم «بالتآمر لتقسيم الحزب بهدف اغتصاب سلطة الحزب والدولة». كان هذا أول إبعاد يحصل على مستوى عال منذ تولي النظام السلطة، فبعث جواً من القلق والريبة. عندما وصل دالاي لاما الى بكين فور إدانة غاو، حذّره المحيطون به فوراً من الإبعاد كفأل مرض. إنها المسألة الأولى التي أراد دالاي لاما مناقشتها معنا عندما قابلناه بعد 45 سنة.

إن السبب الحقيقي للإبعاد يورط روسيا السوفياتية. وبصفته رئيس منشوريا كان على غاو أن يتعامل كثيراً مع الروسيين، وقد أطلق لسانه أمامهم، حتى أنه أخبر كوفاليف، صلة الوصل مع ستالين، بشأن الاختلافات داخل المكتب السياسي، بحيث ادّعى أن ليو ترأس «فصيلة

موالية للأميركيين». علم ماو بذلك عندما كان في موسكو عام 1949، حين سلمه ستالين تقرير كوفاليف، المستند بشكل أساسي الى أقوال غاو. كما أخبر غاو روسيين آخرين بأن ليو لطيف جداً مع الطبقة البورجوازية. وشكا من تشو أيضاً، قائلاً للروس أنه دخل في «صراع جدي» مع تشو في شأن الحرب الكورية داخل المكتب السياسي(*).

لاحظ ثنائي بريطاني في ينان منذ عشر سنوات، أن غاو كثير الكلام. فكتبا أن غاو «هو ربما الأكثر ثرثرة بين كل الشيوعيين الذين قابلناهم». ولا بد أنهما صُدما قليلاً إذ كان غاو آنذاك مغموراً.

بالنسبة الى ماو، التحدث باستخفاف عن الأعمال الداخلية في نظامه أمام الغرباء، أمر محرّم جداً. فمن خلال إبعاد غاو، أراد بعث رسالة: يستحيل قطعاً أن تكون متحفظاً الى هذا الحد حتى – وبالأخص – مع الروس. وبما أن برنامج القوة العظمى اعتمد الى حد بعيد على الاتحاد السوفياتي، ستُجرى اتصالات كثيرة مع الروس. خشي ماو من أن تؤدي الأخوة الى فقدانه السيطرة وبالتالي الى تهديد قوته. في هذا المجال، لم يخاطر ماو أبداً. فتيقظه في استباق التهديدات القوية، كان السبب الرئيسي الذي أدى الى موته في سريره. لم يستطع ماو منع كل الاتصالات مع الروس، فانتقل الى وضع حاجز خفي بين رجاله و«الإخوة». وشكل غاو صلة الوصل الممتازة لتحذير أتباعه: لا توطدوا علاقات الأخوّة مع الروس!

وسرعان ما استعمل ماو قضية غاو صراحة ليأمر كبار رتبائه بالافصاح عن أية علاقات مع الروس، وهو ما أسماه «الاتصالات غير المشروعة مع البلدان الأجنبية»:

> هل يوجد عندنا في الصين هكذا أشخاص يعطون معلومات للأجانب من دون علم المركز [أي أنا]؟ أعتقد ذلك - غاو غانغ هو أحدهم... أرجو التخلي كلياً عن هؤلاء الرفاق...كل شيء يجب أن يمر بالمركز [أنا من جديد]. وللتزود بالمعلومات، لا تتخطوه...فالذين مرروا معلومات فليعترفوا ولن تلاحقوا. وإن لم تعترفوا، سنتحقق ونكتشف. وستكونون في مأزق.

لم يحدد ماو ما الذي يعتبره معلومات. فالقاعدة السائدة هي ببساطة عدم التحدث الى الأجانب عن أي شيء.

عيّن ماو تشو إن-لاي قائداً «مدعياً» ضد غاو، في غيابه. في الاجتماع الذي عقد في شباط 1954 عندما تهجم تشو على غاو (الذي كان حاضراً)، كانت أكواب الشاي مملوءة مسبقاً خلافاً

(*) لقد ثبت بطريقة غير مباشرة أن غاو قال الكثير، وذلك من خلال كبير المستشارين السوفيات في الصين أرخيبوف. وعندما ضغطنا عليه في هذه المسألة رمقنا بنظرة فولاذية وقال بنبرة مختلفة: «لماذا تريدون معرفة الكثير عن غاو غانغ؟».

للعادة، لتحاشي تنصت الخدم. ولكن أمام عجز القادة عن الاستمرار بدون مزيد من الماء الساخن، سُمح لفتى يحمل الشاي بالدخول. فذهل لرؤية تشو اللطيف عادة، يتحول الى وجه متوحش، وهذا جانب لم يره العالم الخارجي أبداً. تشو، المجرم القديم، اخذ احتياطات وطلب من إثنين من أتباعه الأوفياء أن يحملا مسدسات، وهذا أمر مرفوض كلياً عادة في الاجتماعات على مستوى كبار المسؤولين.

خرج غاو عن طوره مصدوماً من الطريقة التي قدّمه بها ماو، وحاول الانتحار بالكهرباء في 17 شباط ولم ينجح، لذلك أُجبر على الاعتذار، لكن اعتذاره رفض في ظل عدم الرحمة المعتادة داخل الحزب؛ هذا التعبير عن اليأس صُنّف «عملاً واضحاً يقوم به خائن ضد الحزب». فبقي في الإقامة الجبرية، ونجح أخيراً في إنهاء حياته بعد ستة أشهر، إثر تراكم كمية كافية من الحبوب المنومة لتحقيق الخدعة.

في العالم الشيوعي، كانت المؤآمرة تفضَل على الخيانة الفردية. وللتحضير «لمؤآمرة»، اختار ماو على رأس دائرة التنظيم، راو شو-شي Rao Shu-shi المتهم بتشكيل «حلف معارض للحزب» مع غاو، رغم أن الرجلين ليسا مقربين. كان راو رئيس شبكة المخابرات في الحزب الشيوعي الصيني في أميركا، إنتر أليا inter alia، ويُرجّح أن يكون هذا هو سبب رغبة ماو في اعتقاله، في ظل سعي ماو الى خرق نظامه المخابراتي. اعتُقل راو ثم مات في السجن بعد 20 سنة في آذار 1975.

في 26 كانون الأول 1953، وبعد إشعال فتيل وراثة غاو، احتفل ماو فرحاً بعيد ميلاده الستين مع معاونيه، فشرب خمراً أكثر من المعتاد، كما تناول الدراق رمز طول العمر، مع أنه لا يحب الفاكهة عادة. خلال تناول الطعام، دندن تسجيلات من أوبيرا بكين وحرك يديه فوق فخذه بشكل نظامي. مات ستالين، وأنجز ماو بنجاح مناورتين كانتا مفتاح برنامج القوة العظمى: حجب قائده التنفيذي ليو، وتطعيم كبار أتباعه ضد أي عدوى روسية ممكنة من شأنها وضع سلطته موضع الخطر.

في اليوم التالي، عندما وصل الى هانغزهو Hangzhou الرائعة الواقعة على بحيرة قرب شانغهاي، كان مبتهجاً حتى انه ما عدا يطيق انتظار ترتيب أغراضه قبل أن يطلب لعبة المهجونغ. جاء ماو الى هانكزهو منذ 32 سنة، في صيف 1921، بعد أول مؤتمر للحزب الشيوعي. ثم كان استاذاً ريفياً معوزاً يسافر بمساعدة مادية روسية. وهو الآن سيد الصين. لقد تمّ الإعداد لمجيئه بالشكل المناسب: فقد اختير له مكان مشهور عبر العصور سمي «الماء والخيزران». كان مزخرفاً ببرك الماء وبساتين الخيزران والكروم وأشجار النخيل، وله رؤيا بانورامية على البحيرة الغربية. الى جانبه فيلات، والتلال بموازاته؛ كلها تفاصيل إذا اندمجت

تولد هذا الموقع الفريد والضخم الذي يمتد على مساحة 36 هكتاراً. وقد تم تجويف التلال لتشكل ملجأ نووياً. بقي ماو داخل بناء رائع، يجمع بين النمط الصيني الكلاسيكي والغريب الأجنبي، بالأعمدة والأبواب والزخرفات التي شحنها المالك الأصلي بالسفن قطعة قطعة. ولكن بعد فترة وجيزة، هدمه ماو واستبدله بالمبنى العادي الغريب الذي لا تتغير هيكلته أينما بناه. فقرقعة الخشب القديم أتلفت أعصابه إذ ذكّرته بالمجرمين. ولم يشعر بالإطمئنان إلا في غرفة صلبة ومحصنة تحت الأرض.

أحب ماو المناظر الطبيعية. كل يوم، ورغم تساقط الرذاذ أحياناً، كان يتسلق الجبال المجاورة التي حُصّنت خصيصاً لأجله، ويتمشى ببطء فوق أزهار الخوخ المزهرة ويتنشق رحيق أوراقها. وكان يحادث ويمازح معاونيه، فالتقط مصوّروه صوراً تظهر مزاجه الجيد ووجنتيه الريّانتان المشرقتين تحت أشعة الشمس.

ولكن سرعان ما تساقطت أكبر كمية من الثلوج خلال عقود. فاستيقظ ماو عند الساعة السابعة صباحاً، وهو توقيت غريب بالنسبة اليه؛ ووقف يحدق في الحديقة الجنوبية المكسوة بالثلج. ثم سار في طريق تغطيها الثلوج، وأمر بعدم إزالتها، لينظر بإعجاب الى البحيرة البيضاء، وراح يتسلى في نظم قصيدة.

جاء فصل الربيع متقلباً بين رذاذ ضبابي وشمس باهرة؛ كل يوم يمر يبسط كميات رائعة من البراعم. وخلال رحلة ترفيهية، جمعت مصورة ماو، هو بو، باقة من الأزهار البرية وقدمتها له. لم يعرف أحد ما اسم هذه الزهرة فقال ماو: فلنسمِّها زهرة هو بو.

كان ماو يحب زيارة موطن شايه المفضل، قرية دراغون ويل القريبة. نُقل الفلاحون منها بحسب الأصول «بسبب اجتماع جماهيري» - ولكن في الواقع من أجل سلامته. غير أن بعض المفاجآت العرضية غير المتوقعة كانت تحصل وتعتبَر آمنة بشكل كاف؛ وفي مناسبة أخرى، عندما أمر ماو بزيارة منزل أحد الفلاحين. لم يفهم الزوجان أية كلمة من لهجته الهونانية، ولم يفهم هو لهجتهما. بدأ القرويون الفضوليون يتوافدون فتقدّم حراس ماو لسحبه بهدوء.

وفي رحلة الى قمة أحد الجبال، رأى ماو عن بعد، كوخاً من القش يحترق. كان السكان واقفين في الخارج، عاجزين عن المساعدة فيما النيران تلتهم منازلهم. بحسب مصوّر ماو، 'رمقني ماو بنظرة سريعة وقال ببرودة: «نار جميلة. حسن الاحتراق بها، حسن الاحتراق بها!»'

ذُهل المصور، فأحس ماو بذلك وقال: «بدون النار كان عليهم أن يعيشوا في أكواخ من القش.»

«ولكن الآن الأكواخ تحترق، أين سيعيشون؟...»

«لم يجب على سؤالي وكأنه لم يسمع...»

لم يرد ماو على هذا السؤال. فطوال فترة حكمه، كان على الفلاحين أن يناضلوا بأنفسهم خاصة في ما يتعلق بالسكن. ولم تكن الدولة تقدم أية قروض. حتى في المناطق المدينية، لم تُبن أية منازل جديدة باستثناء الشقق للنخبة والمباني السكنية داخل المجمعات الصناعية.

فيما ماو ينظر الى أكواخ القش تتحول الى رماد قال في نفسه: «آه، كم هي نظيفة الأرض لو غرقت في الفراغ التام والعدم!»

كانت هذه لمحة شعرية مقتبس من كتاب الأدب الكلاسيكي، «حلم الغرفة الحمراء». لكن ما يقوم به ماو هو أكثر من تلاوة قصيدة. إنه صدى الانجذاب نحو الدمار الذي عبّر عنه محذراً عندما كان شاباً، وأردف قائلاً: «هذا ما يسمى: لا دمار، لا بناء».

البناء بالنسبة الى ماو يرتبط حصرياً بالتحول الى قوة عظمى. هنا في هانكزهو بدأ يراجع مسودة «الدستور» الأول، الذي لم يلتفت اليه إلا بعد أكثر من أربع سنوات من السلطة. ومن بين الأمور التي أراد مراجعتها، الوعد بأن يعمد نظامه «الى حماية أمن كل المواطنين وحقوقهم الشرعية...» ووضع ماو خطاً تحت عبارة «كل المواطنين» وكتب في الهامش: «ماذا تعني بالتحديد كلمة مواطن؟»

اقترح المتملقون تسمية هذه الوثيقة «قانون ماو تسي-تونغ» متذكرين بوضوح «قانون نابوليون». رفض ماو الفكرة إذ كان نافراً من القانون ولم يرد التقيّد بأي شيء. في الواقع، كان الدستور ضعيفاً ولا امل في تفعيله، لذا سرعان ما طرح جانباً بكامله.

في أحد الأيام، قام ماو بزيارة معبد أُخلي كالعادة لأسباب أمنية، إلا من راهب أعمى. على المذبح، قاعدة خشبية وقصاصات من الخيَزران كتبت عليها النبؤآت؛ طلب ماو من مصورته أن تأتيه بإحدى القصاصات. فهزت القاعدة وأخذت قصاصة وذهبت الى زاوية الكتب حيث الكتب الشعرية القديمة لتجد البيت الذي تشير اليه القصاصة، وهو: «لا سلام لا في الداخل ولا خارج المنزل». لن تقرأ هذا البيت المشؤوم أبداً، فاختارت بسرعة قصاصة أخرى، كتبت عليها رسالة فرحة ومضحكة.

كانت النبؤة دقيقة بشكل مخيف. فقد أتت السيدة ماو يوماً مع ابنتها لي نا، لتمضية رأس السنة الصينية، وهي الفترة التقليدية لاجتماع العائلة. لكن الزيارة انتهت ببكاء السيدة ماو وطلبت طائرة لتبعدها عن المكان. لم تكن هانكزهو مشهورة فقط بمناظرها الجميلة بل بنسائها أيضاً، لذلك اجتذبت خيال ماو الجنسي. وقد عاد اليها 41 مرة، وغالباً لهذا السبب. كان يحب النساء الشابات والبريئات في الظاهر، اللواتي يقتدنهن مرؤوسوهن الى حلبات الرقص الأسبوعية ثم الى الفسوق الذي يلي.

لم يعد ماو يشعر باهتمام جنسي بزوجته. وحتى قبل عام 1949، كان طبيبه الروسي أورلوف

يعالجه بسبب «مشاكل جنسية» معها (وفي برقية لستالين أشار أورلوف بمرارة الى السيدة ماو على أنها «الملكة»). ثم عانت السيدة ماو من أمراض نسائية حادة، فعولجت في روسيا باسم مستعار هو 'يوسوبوفا' إذ أقامت في قصر في يالطا يملكه الأمير يوسوبوف، الرجل الذي قتل راسبوتين. (ستالين نفسه أقام فيه خلال مؤتمر يالطا). ولا شك أن مرضها زاد في ابتعاد ماو عنها. فازدادت بالتالي وقاحته أثناء الغزل. في أحد الأيام وُجدت السيدة ماو تنتحب قرب إحدى البحيرات في زونغنانهاي. قالت للرجل الذي رآها، وهو طبيب ماو،: «لا تخبر أحداً». الرئيس شخص لا يستطيع أحد أن يهزمه في المواجهة السياسية، ولا حتى ستالين؛ كما لا يستطيع أحد أن يهزمه حتى في الحصول على النساء». تصاعدت تدريجياً صعوبة التعامل مع السيدة ماو وهستيريتها، وكانت تصب غضبها وتشنجها على المعاونين، وتتهم الممرضات بشكل روتيني، «بإزعاجها عمداً»، فأنبتهن وطلبت معاقبتهن.

في هذه الأثناء، وكما شرحت النبؤة المكتوبة على قصاصات الخيزران، سار عدد لا بأس به من معاوني ماو نحو الاضطراب والمصير المروع. بالنسبة الى الأمة ككل، كانت السياسة الاقتصادية في طريقها الى مزيد من القساوة فيما برنامج القوة العظمى في طريقه إلى التنفيذ.

37- الحرب على الفلاحين
(1953-1956، العمر 59-62 سنة)

منذ خريف 1953، فُرضت مصادرة المؤن على صعيد الدولة ككل، بهدف تأمين مزيد من الطعام لتمويل برنامج القوة العظمى. فبحسب الطريقة المتّبعة لمخيم العمل: أتركوا للناس ما يكفي من الطعام ليبقوا على قيد الحياة وخذوا الباقي. وقد قرر النظام أن البقاء على قيد الحياة يتطلب كمية من الطعام تساوي 200 كغ من الحبوب المعالَجة سنوياً، أطلق عليه اسم «الطعام الأساسي».

ولكن قلّما طُبّقت هذه الكمية في عهد ماو. ففي عام 1976، سنة وفاته، وبعد 27 سنة من النفوذ، بلغ معدل الكمية على صعيد الدولة 190كغ فقط؛ ومع ازدياد عدد سكان المدن، تدنى معدل استهلاك الفلاحين الى أقل بكثير من 190كغ.

أراد ماو أن يحصل الفلاحون على أقل من ذلك بكثير، وقال: «يحتاجون فقط الى 140كغ من الحبوب، وبعضهم الى 110 كغ فقط». حتى هذا الرقم الأخير، فليس في الحقيقة سوى نصف الكمية الضرورية للبقاء على قيد الحياة. ورغم أن الحد الأدنى الذي اختاره ماو لم يكن مطبقاً بعد في تلك المرحلة، إلا أن بعض الفلاحين عبّروا بألم عن نتائج قيامه «بعصر كل شيء»، أمام ضابط متعاطف خلال سنة من بدء المصادرة. «لا تملك أية عائلة ما يكفيها من الطعام». «عملت سنة كاملة وفي النهاية يجب أن أتضور جوعاً بضعة أشهر...جيراني يعانون مثلي». «الحصاد ليس سيئاً ولكن ما الفائدة منه؟ لا يهم كم نجني طالما أننا، في جميع الأحوال، لا نملك ما يكفينا لنأكل ...» أما بالنسبة الى «الطعام الأساسي» «فلا أحد يملك كمية كافية منه». نظرياً، كان يُفترض من كل من يتضور جوعاً أن يكون قادراً على شراء بعض الطعام مجدداً، لكن الكميات لم تكن يوماً مناسبة، وكان ماو يوبّخ ضباطه باستمرار لأن «كمية كبيرة من الحبوب يعاد بيعها!» ويحثهم على خفض الكمية «كثيراً».

ردُّ ماو على معاناة الفلاحين كان عديم الشفقة. يجب أن يأكلوا أوراق البطاطا الحلوة التي كانت تستعمل تقليدياً لتغذية الخنازير. وكان يعطي تعليمات بقوله: «علّموا الفلاحين أن يأكلوا كميات أقل فيكون قصاصهم أصغر؛ على الدولة أن تبذل جهدها...لمنع الفلاحين من الإفراط في الطعام». في وقت لاحق، كشف أحد مدراء ماو الاقتصاديين، بو يي-بو، أنه

في ظل سياسة المصادرة «معظم الطعام الذي ينتجه الفلاحون يؤخذ منهم». وأضاف «كان العنف» أمراً مألوفاً؛ والناس «يساقون الى الموت». هذا العنف كان ينفّذ بشكل أساسي من قبل ماو الذي ناقش عواقب المصادرة مع مصممها، شين يان، في الأول من أكتوبر تشرين الأول 1953. في اليوم التالي، أخبر ماو المكتب السياسي أنهم «في حالة حرب» مع كل الشعب: «إنها حرب على منتجي الطعام – كما على مستهلكي الطعام»، ويعني بهم سكان المدن الذين باتوا الآن خاضعين لتخفيض غير مسبوق في نسب الطعام. ولتبرير معاملة الفلاحين كأعداء، كان منطق ماو السخيف أن «ماركس وإنجلز لم يقولا أبداً إن جميع الفلاحين صالحون». بعد أيام قليلة، عندما بلّغ شين يان تعليمات ماو الى رؤساء المقاطعات المسؤولين عن انتزاع الطعام، قال لهم أن يكونوا مستعدين لمواجهة الموت والشغب في 100 ألف قرية – أي عشر قرى الصين بكاملها. لكنه أكّد لهم أن ذلك لن يعرّض النظام الشيوعي للخطر، مقارناً مع مانتشوكو حيث صادر المحتلون اليابانيون كميات كبيرة من الحبوب. وقال «ما كانت مانتشوكو لتسقط لو لم يأت الجيش الأحمر السوفياتي». بتعبير آخر، القوة العنيفة على الطريقة اليابانية، ستكفل عدم تعرّض الفلاحين للنظام مهما قست عملية العصر.

في بداية عام 1955 أدت المصادرة الى بؤس تام. فقد وصلت تقارير عديدة الى ماو تخبره أن الفلاحين يأكلون لحاء الشجر، ويتخلون عن أطفالهم الصغار لنفاذ الطعام. وأقام ماو قنوات عديدة لجمع الأصداء المختلفة في الأرياف، إذ هو بحاجة الى معرفة ما يجري ليحافظ على سيطرته. كان حراسه إحدى هذه القنوات. فعندما ذهبوا لزيارة منازلهم هذه السنة، طلب منهم إعداد تقارير حول أوضاع قراهم. كانت الصورة التي نقلوها كئيبة. فقد كتب أحدهم أن 50% من بيوت قريته، نفذ منها الطعام واضطر أصحابها هذا الربيع أن يأكلوا أوراق الشجر. وكتب آخر: كان على الناس أن يعتمدوا على الأعشاب البرية كطعام وهم يتضورون جوعاً.

ومن قنوات أخرى، علم ماو أن الناس كانوا يقولون أشياء كثيرة مثلاً: ما الجيد الى هذا الحد في الاشتراكية؟ فمنذ البداية، لا يُسمح لنا بالحصول على زيت الطهي»؛ و«الحزب الشيوعي يقود الناس الى الموت!» ثم اتصل ضابط مجهول من مقاطعة غوانغدونغ بزاو زي-يانغ (الذي أصبح قائد الحزب في حقبة ما بعد ماو) وأخبره أن الكوادر يفتشون المنازل ويقيدون الفلاحين ويضربونهم لإرغامهم على تسليم الطعام، ويختمون منازل الذين قالوا إن الطعام نفذ لديهم. كما ذكر حالة امرأة عجوز شنقت نفسها بعد سجنها داخل منزلها. وفي إقليم غاوياو النموذجي اقتيد 110 أشخاص الى الانتحار. إذا عُمّم هذا الرقم على أقاليم الصين الـ 2000 وأكثر، فإن عدد حالات الانتحار في المناطق الريفية في تلك الفترة القصيرة، سيقارب الربع مليون حالة.

تجرأ بعض الأفراد الشجعان على تقديم عريضة لماو. وكتب أحد أصدقاء الدرب البارزين لماو أنه استلم رسائل عديدة تقول إنه لم يعد لدى الفلاحين القوة الكافية للعمل بسبب كميات الطعام القليلة المتبقية لهم. جمع ماو كل هذه التقارير: «10 آلاف تقرير [«10 آلاف» تعبر عن ضخامة] حول حالات موت بشرية وموت حيوانات، وحول أشخاص هاجموا مخازن القمح: 10 آلاف تقرير قاتم...» لكن ماو لم يحرك ساكناً. وكان ليعاقب صديق الدرب لما سماه بازدراء «شيء من الاضطهاد»، إذ من المفترض أن يقول بفرح إن الناس «لم يكونوا بدون طعام على مدار السنة – فقط خلال ستة...أو أربعة أشهر» (كذا!). أما الضباط الكبار الذين استشهدوا بالمفهوم التقليدي للضمير (liang-xin) ليرجوا منه التساهل، فوجدوا أنفسهم عرضة لملاحظات مهينة مثل: «من الأفضل أن ينخفض تحكيمكم للضمير. فبعض رفاقنا يبدون كثيراً من الرحمة، ومقداراً غير كاف من العنف، ما يعني أنهم ليسوا ماركسيين الى هذا الحد». وقال ماو «حول هذه المسألة، ليس لنا أي ضمير! الماركسية هي بهذا العنف».

منذ منتصف عام 1955 ضاعف ماو شدّ الخناق من خلال دفع كل سكان الأرياف الى داخل مزارع جماعية، والهدف تسهيل تعزيز المصادرة. في السابق، كان باستطاعة الفلاحين أن يحصدوا غلالهم الخاصة ويحملوها الى منازلهم قبل تسليم «حصة» الدولة. بالنسبة الى ماو، تركت هذه الطريقة منفذاً للفلاحين إذ يمكنهم الإقرار بجني كمية أقل من المحصول وتخبئة قسم منه؛ ولم يكن سهلاً التحقق من ذلك في وجود ما يقارب المليون منزل. ولكن من خلال التجميع، يذهب الحصاد بكامله من الحقول الى أيادي الدولة مباشرة، فتكون للنظام سيطرة تامة على كيفية تخصيصه. وكما قال أحد الفلاحين: «ما إن تجمع الغلة حتى تحصل فقط على ما تتصدق عليك الدولة به».

الحسنة الكبيرة الأخرى للتجميع، بالنسبة الى ماو، هي أنه يسهل كثيراً إبقاء الفلاحين تحت المراقبة في أثناء عملهم؛ فمن خلال التجميع يصبحون مسيّرين كالعبيد. ومن الآن فصاعداً، باتت الدولة تفرض على الفلاحين أوقات العمل ومدى قساوته. فقد أوضحت افتتاحية صحيفة بيبولز دايلي في يوم رأس السنة عام 1956، أن الهدف هو دفع الفلاحين الى مضاعفة ساعات العمل. كان ماو يستهدف النساء بشكل خاص؛ فاللواتي لم يعتدن العمل في الحقول، سيعتدن الآن.

ولِلَجم أية مقاومة للمصادرة والتجميع على حد سواء، لجأ ماو الى علاجه العام القديم: الإرهاب. ففي أيار 1955، تحدث عن «خطة الخمس سنوات» أخرى، وهذه المرة بهدف الإبادة: «خلال خمس سنوات علينا توقيف مليون ونصف شخص يقومون بثورات مضادة... أنا موافق على حصول مزيد من التوقيفات...تركيزنا الأساسي هو: التوقيف بطريقة شاملة،

بطريقة ضخمة...» كان ماو مولعاً باستخدام اللغة الأدبية للتعبير عن المواضيع السيئة فأضاف بهذه اللغة: «أوامري هي أوامر اشتراكية، يجب أن تكون عطِرة»، أي مطاعة. فكل من يقاوم مصادرة الطعام أو التجميع، وأي ضابط يتعاطف مع المقاومين، يعتَبر مجرماً وتُعلّق إشعارات بمحاكمته في كل أنحاء البلد.

شكّل تجميع الزراعة خطوة كبيرة نحو تحوّل الصين الى دولة توتاليتارية أكثر فأكثر. في الوقت نفسه، أمر ماو بتأميم الصناعة والتجارة في المدن لتقنية أي مورد بسيط في اتجاه برنامج القوة العظمى. ومع ذلك، لم يتم اضطهاد رجال الأعمال بالشكل الذي اضطهد فيه القرويون أصحاب الأراضي، لأسباب براغماتية. قال ماو: «البورجوازيون هم أكثر نفعاً من...أصحاب الأراضي. فهم يتمتعون بحذق تقني وبمهارات إدارية»؛ لكنه سرعان ما بدأ يحط من شأن هذه المواهب الإدارية والتقنية علناً. إضافة الى ذلك، شُلّ عمل الحرفيين العظيم في الصين خلال السنوات اللاحقة؛ كما تضاءل كثيراً عدد متاجر التصليح والصيانة، فزاد بالتالي بؤس الحياة اليومية. وعلق ليو شاو-كي على ذلك بشفقة قائلاً «بدأنا بالاشتراكية فاختفى كل شيء».

ولدفع موظفي الدولة الى الانصياع، أطلق ماو حملة تطهير أخضع خلالها ما لا يقل عن 14.3 ملايين رجل وامراة لاختبار مروع شمل «اعترافات وإعلام»، الى جانب اجتماعات الإدانة العامة المتكررة والإساءة الجنسية. كما تحولت المكاتب والمباني السكنية الى مراكز احتجاز؛ وكان هذا أيضاً مصير القاعات الرياضية وأقسام المنامة في الجامعات. ثم أعلن ماو أن «الذين يقومون بثورات مضادة...يشكلون...حوالى 5%» من هؤلاء الخاضعين للاختبار، ما يعني أن 715 ألف شخص كانوا مدانين وعوقبوا بطرق مختلفة تشمل الإعدام. في الواقع، أشار ماو الى إمكانية مقتل مزيد من الناس، إذ نصت إحدى التعليمات على ما يلي: «كلما تمّ تخطّي هذا الرقم [5%] بات من الضروري الحصول على إذن».

ترافقت هذه الحملة مع تشدد في الأدب والفنون. وما إن تسلم ماو السلطة حتى بدأ يخنق الثقافة، بالشمولية التي تميزه؛ كما باتت الصناعة السينمائية شبه متوقفة. في عام 1950، تمّ انتاج 39 فيلماً؛ في عام 1952، تدنى هذا الرقم إلى 5. في عام 1954 توجه ماو نحو إزالة تأثير الكتّاب والمؤرخين والعلماء غير الشيوعيين الذين غادر قسم منهم الى خارج البلاد أو الى تايوان. فالتفت الى الذين بقيوا وأظهروا شيئاً من الاستقلالية. اختار ماو أحد الكتّاب المعروفين «هو فنج»، الذي دعا الى بيئة فنية أكثر تحرراً، وكان له أتباعه. في أيار 1955، أدين «هو» علناً وزُجّ في السجن ولم يخرج منه إلا مصاباً عقلياً، وبعد مرور أكثر من عشرين سنة على وفاة ماو، تصدرت قصة «هو فنج» الصحف، وخدمت هدفاً آخر - هو إخافة الناس من تبادل الآراء من خلال الرسائل. فقد نشرت الرسائل التي تبادلها «هو» وأتباعه، وكشفت عن

أفكار تنتقد النظام، فعُرضت على أنها إثبات ضدهم. نتيجة لذلك، تورع الناس عن أي تدوين لأفكارهم. إن عجز الإنسان عن تدوين أفكاره، مضافاً الى عجزه عن التعبير عنها جهاراً، أو الاضطرار الى مراقبتها باستمرار، يفقد الناس قدرتهم على صياغة احكامهم الخاصة المستقلة.

ساد الإرهاب. وفي بداية العام 1956، قال ماو لكبير رتبائه:

> النصف الأول من عام 1955 كان مجنوناً للغاية... مع غيوم سوداء تغطي السماء... كانت اللعنات تواجهنا في كل مكان. قال الناس إننا لسنا صالحين، كل ذلك لأننا [أخذنا] قليلاً من الحبوب. في النصف الأخير من السنة، اختفت اللعنات وبرز بعض الأحداث المفرحة. فالحصاد الجيد والملكية الجماعية حدثان كبيران ومفرحان؛ ثم كان تطهير اعداء الثورة، وهو حدث مفرح آخر.

والحدث «المفرح» الإضافي الذي بقي ماو متكتماً حوله، هو الحدث الأكثر أهمية على الإطلاق، في مجالات عديدة. فقد حصل ماو على الشيء الوحيد والأغلى على قلبه: بداية إطلاق التكنولوجيا التي تؤدي الى صنع القنبلة الذرية.

في عام 1953، فشل ماو في إخراج القنبلة الذرية من موسكو من خلال محاولة تمديد الحرب الكورية. لكنه سرعان ما وجد وسيلة أخرى – بدء حرب جديدة، تطال هذه المرة تايوان. في تموز 1954، أظهرت بكين أنها تعدّ جدياً للانطلاق في الحرب على تايوان. فذهب تشو إن-لاي الى موسكو وسلّم رسالة ماو الى الكرملين: لا بد من وقوع حرب «لتحرير تايوان».

في الواقع، قال قادة الصين العسكريين لماو إن فرصة نجاح العبور البحري ضئيلة، فقرر فعلياً عدم التحرك باتجاه تايوان إلا عندما يصبح مستعداً لذلك. إن الهدف من هذه الضجة حول الهجوم على تايوان هو في الحقيقة دفع الوضع باتجاه مواجهة نووية مع أميركا، الأمر الذي يجعل روسيا تواجه إمكانية الانتقام نيابة عن الصين، إلا في حال سمحت لماو بالحصول على القنبلة الذرية.

في 3 أيلول، فتحت مدفعية الصين القارية نيرانها على جزيرة كيموي Quemoy التي يحتلها القوميون، والتي تقع على بعد كيلومترات قليلة فقط من الشاطىء، وكانت تعتبر نقطة انطلاق أي تحرّك باتجاه تايوان. أطلقت هذه الحادثة ما أصبح معروفاً بـ«أول أزمة صارمة في تايوان». اعتبرت واشنطن من جهتها أن الأزمة قائمة بينها وبين بكين، ولكن في الواقع كانت مؤآمرة دبّرها ماو ليضغط على موسكو.

بعد ذلك بقليل، في الأول من تشرين الأول 1954، ولمناسبة الذكرى الخامسة لقيام النظام الشيوعي، وصل الى بكين نيكيتا خروتشيف – الذي نصّب نفسه الرجل الأول في الكرملين، يرافقه عدد من كبار المعاونين، الأمر الذي كان مستحيلا في عهد ستالين. جاء خروتشيف

مصمماً على بناء أفضل العلاقات الممكنة. فنظّف جزءاً من سجل أعمال ستالين، وعرض إلغاء الملحقات السرية من معاهدة عام 1950 التي تخرق مصالح الصين. كما وافق على تقديم مزيداً من التجهيزات لمصانع الأسلحة الـ141 التي في طريقها الى التسليم، وعلى بيع ماو 15 منشأة أخرى مع تمديد قرض جديد بقيمة 520 مليون روبل.

تمسك ماو فوراً بالمبادرة وطلب المساعدة في بناء قنبلته الذرية الخاصة لدحر الأميركيين. وعندما سأله خروتشيف عمّا يفجّر الهجوم الأميركي قال الأزمة التايوانية. حاول خروتشيف أن يناقش معه بدون التطرق الى صنع قنبلته الذرية الخاصة، واعداً إياه بالحماية تحت مظلة روسيا النووية، وضامناً له الانتقام في حال تعرضت الصين للهجوم. كما قدّم خروتشيف الحجة الاقتصادية بأن صنع القنبلة الذرية مكلف جداً بالنسبة الى الصين. فتصرّف ماو وكأن كرامته الوطنية قد أهينت؛ ورغم انزعاج خروتشيف من ذلك، إلا أن القائد السوفياتي وعد مكرهاً أنه سيعيد النظر في مساعدة الصين في بناء المفاعل النووي.

وبعد فترة قصيرة على مغادرة خروتشيف، صعّد ماو الأزمة من خلال مزيد من القصف والعدوان على الجزر المحتلة من القوميين. رد الرئيس الأميركي أيزنهاور من خلال الموافقة على توقيع معاهدة دفاع مشترك مع تايوان. تابع ماو ضغطه وكان ينوي على ما يبدو احتلال جزيرتي كيموي وماتسو البعيدتين عن الشاطىء – وأكثر منهما. وكانت خطته أن يدفع أميركا برفق الى التهديد باستخدام الأسلحة النووية. في آذار 1955، قالت الولايات المتحدة إنها ستستخدم الأسلحة النووية في ظروف محددة. ففي 16 آذار، تعمّد أيزنهاور أن يقول في مؤتمر صحفي إنه لا يرى سبباً لعدم استخدامها «تماماً كما يمكن استخدام رصاصة أو أي شيء آخر». حصل ماو على ما كان يهدف اليه – وهو جعل الصين في خطر حصول ضربة نووية أميركية.

لم يكن خروتشيف راغباً في الانجرار الى مواجهة نووية مع أميركا؛ فاتخذ القرار الخطير بتزويد الصين بالمساعدة التقنية لصنع القنبلة الذرية.

في هذا الوقت، تأكد حصول إيداعات كبيرة من اليورانيوم في مقاطعة غوانكسي. كان ماو متحمساً جداً، وأمر فوراً ببدء عرض في 14 كانون الثاني. تذكّر القائد الجيولوجي ليو دجي ما حدث:

> وضعت معدن اليورانيوم الخام على الطاولة، و...حركت عبره عداد «جيجر». بدأ عداد «جيجر» يصدر صوتاً 'غا-غا-غا...' نظر الرئيس ماو بارتباك شديد.ثم ضحك كطفل صغير وحمل بنفسه عداد «جيجر» وحركه عبر المعدن الخام وهو يستمع الى صوت «غا-غا» مجدداً...عندما ودّعته...أمسك يدي وقال... «ليو-دجي - آه! أريدك أن تعرف أن ما تفعله أمر يقرر مصيرنا».

بعد ذلك كانت مأدبة طعام. فاقترح ماو نخباً تناول الموضوع مباشرة: «إرفعوا كؤوسكم نخب ...أن تكون لنا قنابلنا الذرية الخاصة بأسرع وقت ممكن!»

في شهر نيسان، وافق الروس على أن يبنوا للصين الشيئين الأساسيين الضروريين لصنع القنبلة الذرية: السيكلوترون والمفاعل النووي. كان ماو في طريقه الى أن يصبح قوة نووية؛ وقد أرسلت مجموعات كبيرة من العلماء الصينيين للتدرّب في روسيا. في شهر كانون الأول وصلت أنباء بأن الروس تعهدوا المساعدة في بناء صناعة نووية شاملة في الصين. كان ماو مغبطاً ومبتهجاً. ونزولاً عند نصيحة العلماء الروس، تمت صياغة خطة نووية على 12 سنة. في مطلع عام 1956 قال ماو لمساعديه إنه الآن في حال أفضل مما كان عليه منذ ست سنوات عندما بدأ يحكم الصين. فأحس أنه على رأس العالم بأسره وأعلن جهاراً أمام مجموعة من المقرّبين: «علينا السيطرة على الأرض!».

تماشياً مع الخطة النووية الممتدة على 12 سنة، وضع ماو ومجموعة من أصدقائه الحميمين خطة زراعية تمتد على 12 سنة. كان هذا بالفعل مخطط ماو لانتزاع مزيد من الطعام لتمويل برنامجه المتقدّم والمتسع، برنامج القوة العظمى. فقد أُمِر بموجبه الفلاحون بانتاج ما يعادل 500 بليون كغ من الحبوب سنوياً في نهاية السنوات الـ12، أي أكثر من ثلاثة أضعاف المحصول الأعلى على الإطلاق الذي كان يُجنى سنوياً (في عام 1936). ويجب تنفيذ هذا الأمر الكبير بدون أي استثمار فعلي ولا حتى للسماد.

عند هذا الحد، واجه ماو مقاومة جديدة – هذه المرة من المكتب السياسي كله فعلياً، ورأس حربته الهندي الأميركي المعتاد تشو إن-لاي، الذي كان مسؤولاً عن التخطيط، ويحظى بدعم ليو. أدركوا جميعهم أن هدف ماو الإنتاجي الهائل لا يمكن بلوغه. لكن ماو حدد الرقم من خلال عملية «حسابية ارتجاعية» لا تنطلق من الواقع بل من كمية الطعام التي يحتاج اليها لتمويل شراءاته، ثم يعمل إنطلاقاً من تلك النقطة. النتيجة الواضحة كانت أن خطة ماو ستفرض أن ينتزع من الفلاحين نسبة من الحصاد أعلى من السابق. وبما أن الفلاحين يعيشون أصلاً على شفير هاوية، فسيسقط ملايين منهم على الأقل في مستنقع الجوع والموت.

في شباط 1956، وإذ أدرك تشو عواقب هذه المسألة، أوقف الإنفاق على المشاريع الصناعية بمعدل أكثر من الربع. صحيح أنه كان توّاقاً، مثل ماو، الى جعل الصين قوة عظمى، لكنه أراد أيضاً مواجهة واقع وهو افتقار البلد الى الموارد الكافية لتسديد ثمن كل ما أراده ماو، بتواتر أقل بكثير مما يحصل. فاختار التركيز على البرنامج النووي والمشاريع الأساسية، وإيقاف المشاريع الأخرى، الأمر الذي كان محتماً على كل حال بسبب نقص المواد الأساسية كالفولاذ

والإسمنت والخشب.

ومع ذلك، أراد ماو كل المشاريع، وفي وقت واحد. وبعيداً عن موقفه المتهور إزاء سلامة مرؤوسيه، كان ماو متجاهلاً لعلم الاقتصاد. فبحسب بو يي-بو، طلب ماو قراءة وسماع التقارير الواردة من الوزارات في ذلك الوقت، لكنه لاحظ أن الأمر «مكلف جداً ضريبياً»، وتذمر من كون التقارير تقتصر على «لوائح وأرقام غير واضحة، وتخلو من القصص». وفيما كان يستمع مرةً الى أحد الوزراء، عقد حاجبيه وقال هذا «أسوأ من الوجود في السجن» (حيث لم يتواجد أبداً). لقي تشو إن-لاي تحذيراً لأنه «أفاض على الرئيس ماو بمواد وأرقام مملّة». وكان ماو يواجه مشكلة حتى مع الأرقام الأساسية. في إحدى المرات، وفيما كان يتحدث عن التجارة مع اليابان، كانت الملاحظات التي أعدّها تحتوي الرقم 280 مليون$ أميركي لكنه كتب الرقم نفسه في السطر التالي على أنه 380 مليون$ أميركي، فحوّل العملية الحسابية بكاملها بـ100 مليون$ أميركي. وقد لاحظ الرجل الثاني في يوغوسلافيا إدفارد كاردلدج Edvard Kardelj بعد أن التقى ماو عام 1957، أن «الإحصاءات والأرقام لم تكن مكرسة لديه بأي شكل من الأشكال». «فقال مثلاً 'بعد 200 سنة من الوقت' أو ربما 40». وأخبرنا المستشار الاقتصادي في الصين القائد السوفياتي إيفان أرخيبوف بشيء من الغضب أن ماو «لا يفهم، لا بل يجهل كلياً» أمور علم الاقتصاد.

في نيسان 1956، قال ماو لمعاونيه إنه لا بد من إعادة تخزين المحصول، ولكنهم للمرة الأولى قرروا الصمود في وجهه، فحلّ ماو الاجتماع غاضباً. بعد ذلك، ذهب تشو لرؤيته، ورجاه أن يقبل المحصول، والأغرب من هذا قوله إن «ضميره لن يسمح» له بأن يطيع أوامر ماو. فجُن جنون ماو لكنه لم يستطع توقيف استخدام المحصول.

وقف معاونو ماو في وجهه لأنهم، مع كونهم أشدّاء، رأوا العواقب المروعة لما يقوم به - موت الملايين من الجوع -. كما شجعهم على ذلك حادث وقع لتوه في موسكو. هناك، في 24 شباط 1956، وفي المؤتمر الـ20 للحزب الشيوعي قام خروتشيف بإدانة ستالين على أعمال القتل وتصرفه الطغياني - وأكلاف المسيرة الإلزامية نحو التصنيع، وهو مشروع كان في الواقع أقل ضخامة بكثير من مشروع ماو. فبدأ معاونو ماو الآن ينتقدون ستالين على هذه المسائل نفسها (ودائماً في إطار مجموعة من المقربين). واعتبر ليو أن سياسة ستالين تجاه الفلاحين هي واحدة من «أخطائه الأساسية». كما لاحظ المسؤول الأول السابق في الحزب لو فو أن ستالين «ركّز كثيراً على...الصناعة الثقيلة». وقال «عندما كنت سفيراً لروسيا ذهبت الى المتاجر ولم أجد أي شيء أبتاعه. وكانت دائماً فارغة من الطعام...يجب أن نستخلص عبرة كبيرة من ذلك». وفي 20 نيسان، قال شو أمام مجلس الدولة «سنقترف أخطاءاً كبيرة إذا تجاهلنا الزراعة». «كل

العِبر من الاتحاد السوفياتي وبلدان أوروبا الشرقية تثبت ذلك». إن المقارنة مع ممارسات ماو لا تحتاج الى كثير من العمل.

لم يكن ماو يمانع إدانة ستالين ولكن ليس حول هذه المسائل التي كانت في صلب حكمه هو. فقد حاول التمسك بالصيغة البسيطة باعتبار ستالين على حق بنسبة 70% وعلى خطأ بنسبة 30% فقط. الـ30% ليس لها علاقة بجرائم القتل والتعذيب وسوء الإدارة الاقتصادية، بل ترتبط بغالبيتها بكيفية معاملة ستالين لماو تسي-تونغ.

لكن لم يستطع ماو معارضة خروتشيف علناً لأنه يتولى السلطة في الاتحاد السوفياتي، ورأس المعسكر الشيوعي - وكان يعطي ماو العديد من مصانع الأسلحة الى جانب القنبلة الذرية. وأكثر من ذلك، أن إدانة خروتشيف المفاجئة والعنيفة لستالين باغتت ماو وجعلته يطيل السهر ويتكشّف خروتشيف. وكما لاحظ ماو، فإن خطوة خروتشيف زعزعت المعكسر الشيوعي بكامله و«هزت العالم بأسره»، وبثت الرعب في نفس ماو وأشعرته أنه يتعامل مع شخص وقح خلافاً للمألوف، ولا يمكن التكهن له ولا العبث معه. وقد علّق على ذلك مرات عديدة وبكآبة قائلاً: «خروتشيف مقدام فعلاً، تجرّأ على التعرض لستالين». «ويحتاج ذلك حقاً الى شجاعة».

أحس ماو بضرورة أن يبقى حذراً. وفي هذا الوضع، كان عاجزاً عن مخالفة معاونيه عندما ذكروا خروتشيف معترضاً سياساته. فغادر بكين متشنجاً وغاضباً، ليجد حلاً في المقاطعات. رؤساء المقاطعات (المعروفين بأمناء السر الأوائل) كانوا مجموعة مميزة تمّ اختيارهم بسبب إخلاصهم الأعمى. يجب أن يكونوا من النوع الذي يوافق سريعاً على كل شيء، بما أنهم الداعمون الفوريون الواجب عليهم التأكد من أن كل انحاء البلد الفسيح تنفذ ما يطلبه ماو.

إن الرحلات الفجائية غير المبرمجة كانت روتينية بالنسبة الى ماو، لكنه غادر هذه المرة الى بكين بطريقة غير مسبوقة. ففي إحدى ليالي نهاية شهر نيسان، اتصل شخصياً بأحد أتباعه الموثوقين قائد السلاح الجوي ليو يا-لو على نحو غير متوقع، وطلب منه أن يضع طائرات في حالة تأهب. لم يستقل ماو طائرة إلا في عام 1945، الى شونغكينغ، بضغط من ستالين. الآن بات يتوق الى الانضمام لأصدقائه الحميمين.

وبما أنها الرحلة الأولى لماو على متن طيرانه الخاص، فقد اتخذت تدابير غير اعتيادية من حيث الراحة والأمن. فوضع سرير خشبي كبير داخل طائرته ولم يطلع الطاقم على اسم الراكب إلا في الدقيقة الأخيرة. وبدا ماو بالنسبة اليهم متحيراً الى حد ما؛ كان جالساً بهدوء وترك سيجارته تحترق على طول الرماد قبل أن يستيقظ فجأة، ويأمر الطائرة بالهبوط. حطّ ماو أولاً في وهان حيث كان في استقباله القائد المحلي وسيد الأوفياء الذي وضع تمثالاً ضخماً لماو

في قاعة الانتظار في المطار – وهو ربما التمثال الأول في الصين. لكن ماو أبدى تجاهلاً، إذ جاء ذلك مباشرة بعد إدانة خروتشيف لمفهوم عبادة الذات، وطلب من الوفي أن يتخلص منه؛ لكن الرجل لم يعرف إذا كان ماو يعني فعلاً ما طلبه، فترك التمثال.

ثم طار ماو الى كانتون عاصمة المقاطعة الجنوبية وكان في استقباله معاون كبير آخر الى جانب السيدة ماو. يقع هنا عقاره الكبير المدعو «إيسليت the Islet» على بحيرة بيرل؛ فأوقفت السفن في البحيرة وسدّ امتداد خط المياه. كما منع المحيطون بماو من استقبال الزوار أو استلام الرسائل أو إجراء اتصالات هاتفية، والحد من الخروج. كان الطقس غائماً، وحتى وجود خمسة براميل من الثلج داخل غرفة ماو لم يحدث أي تغيير. وعلى مساحات الأراضي الناضرة بشجيرات استوائية، احتشد البعوض والذباب الصغير. فأحضرت المبيدات من هونغ كونغ للقضاء عليها، بدون نتيجة نهائية. فقَدَ ماو أعصابه مع الخَدَم الَذين لامهم لعدم الاجتهاد في مكافحة الحشرات.

وكانت تصل فعلياً لماو أخبار بكين حيث استمر معاونوه ولا سيما الرجلين الثاني والثالث، ليو وتشو، في تحدّي رغباته، كما زادا الضغط في اتجاه دحر المشاريع الصناعية العسكرية. وفي خضم غضبه الجامح، قرر ماو أن يرسل اليهما بسرعة إنذاراً وحيداً. وفي نهاية شهر أيار، غادر كانتون الى وهان ليسبح في يانغتزي، أكبر بحيرة في الصين. أراد أن يبرهن تصميمه على تحدّي أخصامه، وقدرته على الاحتمال حتى يشهد نهاية المعركة.

في وهان كانت يانغتزي متسعة جداً، وحاول العديد من المحيطين به إقناعه بعدم الغطس فيها. لكن ماو أحس بالأمان. وكما لاحظ أحد قادة حرسه، «لم يكن ليفعل شيئاً...فيه مخاطرة». في وقت لاحق، أراد ماو أن يسبح في يانغتزي غورجيس لكنه عدل عن الفكرة لحظة علم أن الماء غدّارة فعلاً. في وهان، انضم عدد كبير من الضباط، من رؤساء المقاطعات ونزولاً، الى رجال الأمن لفحص الدوامات والتيارات التسطحية. وعندما غطس ماو فعلياً في الماء ضرب حوله عشرات الحراس المدربين خصيصاً لذلك، طوقاً كبيراً، وتبعتهم ثلاث سفن.

سبح ماو عبر البحيرة في ثلاث مناسبات. كانت الرياح قوية والأمواج مرتفعة، لكنه لم يكن مضطرباً وتماوج بقوته. قبل النزول للمرة الأولى الى السباحة، وقف أمام عدسات المصورين في مقدم سفينته، ونظر الى المحيطين به «كجبل لا يهتزّ». في آخر يوم سباحة، تحت الرذاذ، وقف عشرات الآلاف من الناس ينظرون اليه من بعيد ويصيحون «العمر الطويل للرئيس ماو!» هذا الظهور العلني النادر، هو الوسيلة التي يلجأ اليها ماو ليبلغ رسالة لمعاونيه. فقد أبدى مزيداً من التصميم في قصيدة حول السباحة. يُقرأ في جزء منها:

لا يهمني – أن تلفحني الرياح أو تضربني الأمواج،

فأنا أواجهها وألهو واكثر من النزهة في الحديقة

*

بالعودة الى بكين، بقي معاونو ماو ثابتين وفي مواقفهم. وفي 4 حزيران أقر المكتب السياسي صرف المزيد من المحصول وألغى المزيد من المشاريع الصناعية. عاد ماو الى بكين بعد ظهر ذلك اليوم لكن وجوده لم يبدل شيئاً.

في 12 حزيران، أرسل ليو الى ماو مسودة افتتاحية أعدّها بنفسه لصحيفة **بيبولز دايلي**. الهدف منها، كما يظهر من عنوانها «الإحساس بنفاذ الصبر»، وهي تنتقد الناس الذين «يخططون لأعمال تفوق قدراتهم، فيحاولون الضغط على أمور لا يمكن تنفيذها» و«يريدون تحقيق كل شيء في يوم واحد» «فيولد الفقر». وأضافت «إن هذا الإحساس بنفاذ الصبر موجود أولاً بأول بين الكوادر القيادية» التي كانت «تُقحِم» البلد في ذلك. وكما قال ماو لاحقاً كانت هذه القيود موجهة ضده بشكل أساسي. فصرخ غاضباً هذه الكلمات السريعة والمختصرة: «لن أقرأ». لكن الافتتاحية صدرت رغم ذلك.

مشكلة ماو أن هذه الفترة بالنسبة اليه هي فترة عدم الثبات– بما يفوق أحياناً عدم الثبات في عهد ستالين، الذي كان ملتزماً أساساً بماو لكونه ستالينياً. لكن خروتشيف رفض الستالينية ولم يُعرف ما إذا كانت هذه المحدلة ستطال القادة الستالينيين – وحتى ماو نفسه ربما. في الواقع، قام خروتشيف بخلع قائد الحزب الهنغاري الستاليني، راكوزي، وهو القائد الشيوعي الأوروبي الوحيد الذي وثق به ستالين لمقابلة القائد الصيني خلال زيارة ماو الى روسيا. أكثر من ذلك، في شهر آب، وبدفع من إدانة خروتشيف لستالين، جرى تحرّك في كوريا الشمالية لمحاولة التصويت للديكتاتور كيم إيل سونغ الذي بدا في الجلسة المكتملة للحزب مطوقاً وعاجزاً عن أية سلطة.

ماو بدوره كان في مواجهة اجتماع سري للحزب: المؤتمر الأول لحزبه الخاص منذ توليه السلطة، والذي كان مقرراً في شهر أيلول. لم يستطع تأجيله بسبب الإعلام الواسع حوله والجو الجديد السائد منذ أن أصبح تعرّض خروتشيف لستالين، تعرضاً للتقيّد بالأحكام. فقلق ماو من أن يؤدي شعور معاونيه بالإحراج الى محاولتهم القيام بأمر ما داخل المؤتمر كتحذيره مثلاً أو حتى إخراجه بالتصويت، من خلال عرض كل مضامين برنامج القوة العظمى. وقبل ذلك بأسابيع قليلة فقط قام موفد خروتشيف الى مؤتمر ماو، أنستاز ميكويان، بالإشراف على تنحية راكوزي في هنغاريا.

اتخذ ماو سلسلة من الخطوات للتأكد من أن المؤتمر لا يشكل أي تهديد. فأرسل أولاً تحذيرات سريعة الى معاونيه. وقبل أيام من انعقاد المؤتمر، في 10 أيلول، ذكّرهم بحجم المعارضة

التي لقيها في الماضي وكيف كان يغلبها دائماً. والأكثر غرابة اعترافه الطوعي بارتكاب «أخطاء» في الماضي، إذ ذكر عملية التطهير التي جرت في بداية الثلاثينيات، والكارثتين الكبيرتين خلال «المسيرة الطويلة»، توتشينغ Tucheng وماوتاي Maotai، اللتين أسماهما «الخطيئتين الحقيقيين». وليس الأمر كما قد يبدو، اعتذاراً، لكنه طريقة في إيصال الرسالة الى الوطن: لا شيء يمكنه إسقاطي؛ وهذه الأخطاء، على فظاعتها، لا تبدّل أي شيء في الوضع. فلا تحاولوا حتى.

لكن خطة ماو التكتيكية الرئيسية تقضي بأن يبدي استرضاءاً ورغبة في التفاهم. فقبل أن يُنتقص من عجبه بذاته من خلال السماح بسحب عبارة «فكر ماو تسي-ونغ» من شرعة الحزب - رغم أنه رتّب لوجودها الى جانب أشكال أخرى من الترويج الذاتي كأن يُصنع له تمثال باعتباره القائد الحكيم الذي نبذ دائماً عبادة الذات. في النهاية، نجح في قلب هذا النبذ للذات لمصلحته من خلال تفكيك تماثيل معاونيه والتخلص من بعض الشعارات مثل «طول العمر للقائد الأعلى زو دي! فأصبح هو بالتالي محط العبادة الوحيد.

أعطى ماو الانطباع بأنه يقوم بتنازلات هامة أخرى أقلها السماح لمعاونيه بالتحدث عن حكم القانون. وقد وعد ليو شاو-كي بوقف عمليات القتل الضخمة وأعمال العنف، وبإقامة نظام شرعي: «يجب أن...نقنع الجميع...بأنه طالما لا ينتهك القانون، تُضمن حقوق مواطنيه ولا يكون هو عرضة للانتهاكات...» وانتقد تقرير آخر «الحملات» التي كانت جوهر حكم ماو. ومع ذلك كان ماو هو من يضحك في النهاية. فسمح بصياغة قانون جنائي، لكنه تأكد بعد ذلك من عدم الموافقة عليه خلال حياته.

إن أكبر تنازل قام به ماو هو عدم التشدد في توقيت برنامج القوة العظمى. ففي التقرير الرئيسي الى المؤتمر، أزال شعاره الخاص «أكثر وأسرع...» وسمح باستبدال الحد الأقصى 15 سنة بعبارة «خلال وقت طويل الى حد ما». كما كرر التقرير انتقادات ليو للتصنيع الفائق السرعة الذي «يحمّل الشعب عبئاً ثقيلاً...ويؤدي الى الفقر». وكان ماو قد أقر مصادرة كميات أقل من الطعام. ونتيجة لذلك، في عام 1956 بلغت الحصص الغذائية ما يعادل 205كغ من الحبوب - وهو أعلى معدل تم بلوغه في عهد ماو. كما وافق على حصاد إضافي بمعدل 21% لاستثمار صناعات الأسلحة لعام 1957. خلاصة، كان عام 1957 مثل عام 1956، عاماً أفضل نسبياً بالنسبة الى الشعب العادي.

ولكن بالنسبة الى ماو، كان من الصعب تحمّل هذه التنازلات؛ فقد أبطأت برنامجه. وخلال سنة من الوقت، وجد وسائل صد جديدة، وأعاد تأكيد برنامجه الأساسي القديم.

38- إضعاف خروتشيف
(1956-1959؛ العمر 62-65 سنة)

خلال الأشهر التي تلت إدانة ستالين، اصطدم خروتشيف ببعض المشاكل. ففي حزيران 1956، حصلت مواجهات في بولونيا في مصنع سمّي عن حق «أعمال ستالين» في مدينة بوزنان، وقتل أكثر من خمسين عاملاً. فعاد الى السلطة فلادسيلاف غومولكا القائد السابق للحزب الذي سجن في عهد ستالين، وأقام مع موسكو علاقات سادها مزيد من الاستقلالية. في 19 تشرين الاول قال الروس لماو إن الشعور المناهض للسوفيات يتنامى في بولونيا، وإنهم يفكرون في استخدام القوة للمحافظة على سيطرتهم.

رأى ماو في ذلك فرصة مثالية لإضعاف خروتشيف من خلال إبراز نفسه كبطل البولونيين وكمعارض «للتدخل العسكري السوفياتي». وبما أن ذلك قد يؤدي الى صِدام مع خروتشيف، زان ماو الإيجابيات والسلبيات بهدوء وتأن وهو مستلق في فراشه؛ ثم عقد اجتماعاً للمكتب السياسي بعد ظهر يوم الـ20 من تشرين الاول: لم ينصح أحدٌ بالحذر. بعد ذلك، اجتمع بالسفير الروسي يودين Yudin – وهو يرتدي ثوباً من قماش المناشف – وقال له: إذا استعمل الجيش السوفياتي القوة في بولونيا، سنقوم بإدانتك علناً. وطلب من يودين أن يتصل بخروتشيف فوراً. فاستنتج ماو الآن أن خروتشيف بمثابة «مرتكب لخطأ فادح» كان «نذير كارثة». فالرعب الذي أثاره خروتشيف في نفسه عندما قام القائد السوفياتي بإدانة ستالين، زال بسرعة وحلّت محله الثقة بقدرته على الاستفادة من ضعف خروتشيف لمصلحته.

قبل وصول رسالة يودين الى الكرملين، كان خروتشيف قد قرر عدم استخدام الجيوش. في 21 تشرين الاول دعا الحزب الشيوعي الصيني وأربعة أحزاب حاكمة أخرى الى موسكو لمناقشة الأزمة. أرسل ماو ليو شاو-كي مع تعليمات بانتقاد روسيا بسبب «مغالاتها الكبيرة في الوطنية» والتفكير في «التدخل العسكري». في موسكو، اقترح ليو أن يقوم القائد السوفياتي «بانتقادات ذاتية». وكان ماو يهدف الى تحجيم خروتشيف كقائد للكتلة الشيوعية، والحلول مكانه في القيادة، وكان هذا حلمه منذ موت ستالين؛ والفرصة الآن متاحة لذلك.

في هذا اللقاء، انفجرت دولة أخرى تابعة: هنغاريا. اعتبرت الثورة الهنغارية أضخم أزمة سُجّلت في العالم الشيوعي – كمحاولة ليس فقط لكسب استقلالية أكبر في موسكو (وكان

هذا هدف بولونيا)، بل لإسقاط النظام الشيوعي والانفصال كلياً عن الكتلة. في 29 تشرين الاول قرر الروس سحب جيوشهم من هنغاريا، وأخطروا بكين بذلك. حتى تلك المرحلة، كان ماو يطالب بانسحاب القوات السوفياتية من أوروبا الشرقية، لكنه أدرك الآن أن النظام في هنغاريا سينهار إذا غادر الروس. ففي اليوم التالي، أوصى بقوة أن يبقى الجيش السوفياتي في هنغاريا ويقمع الثورة. إن إبقاء أوروبا الشرقية في كنف الشيوعية، بات أولوية تتقدم على إضعاف خروتشيف. فمحاولة ماو ترؤس المعسكر الشيوعي لن تجدي نفعاً إن لم يعد المعسكر موجوداً.

في الأول من تشرين الثاني، بدّلت موسكو أوضاعها. فبقي جيشها في هنغاريا وأقمعت الثورة بإراقة دماء كثيرة. إن إدراك أهمية الجيوش الروسية في إبقاء الدول الأوروبية التابعة، تحت الحكم الشيوعي، شكّل ضربة لمخططات ماو التي تقضي بتخليص هذه البلدان من قبضة موسكو. لكنه لم يستسلم. ففي 4 تشرين الثاني، وفيما الدبابات الروسية تدخل بودابست، قال لمكتبه السياسي: على الهنغاريين أن يجدوا طريقة جديدة للسيطرة على بلدهم - ويجب أن نساعدهم. وكان يعني أن على أنظمة أوروبا الشرقية أن تتبنى طريقته في الحكم وتنفذ سياستها القمعية العنيفة بنفسها: بهذه الطريقة، لا تضطر بعد الى الاعتماد على الدبابات الروسية. بالعودة الى عام 1954، نشر ماو أفكاره حول فن الحكم أمام رجل كان من المفترض أن يصبح رئيس وزراء هنغاريا عندما بدأت الثورة، هو أندراس هيجيدوس Andras Hegedus. أخبر هيجيدوس أن ماو طلب منه المحافظة على سيطرة تامة على الجيش وكل شيء، ولكن قال له إن النظام الهنغاري يجب أن يفرض سلطته التي لا تتغير، من خلال القتل. وعندما سمع ماو عن الديكتاتور اليوغوسلافي تيتو الذي اعتقل معارضه الليبيرالي ميلوفان دجيلاس، عبّر عن «ابتهاج كبير»، كما لاحظ قائد الجيش بينغ الذي قال «إن وجهه أضاء». كان على ماو أن يستمر في تأييد طرقه الستالينية أمام بلدان أوروبا الشرقية، على أمل أن يتباروا في تطبيق نموذجه في القمع ويتقبلوا قيادته.

في كانون الثاني 1957، أرسل ماو تشو إن-لاي الى بولونيا ليحاول ضم غومولكا الى جانبه. قال تشو لغومولكا: «إن مفتاح كل المسائل هو الهجوم على قوى جناح اليمين والثورات المضادة المخفية...باستهدافها مجموعة تلو الأخرى». لم تلق هذه النصيحة تجاوباً من غومولكا الذي أمضى سنوات طويلة في سجون ستالين. وأظهرت الخلاصة التي قدمها تشو لاحقاً لماو، تصميمات بكين التنازلية وفشلها على حد سواء:«القيادة البولونية محقّة...لكنها مع ذلك لم تُمسك بالمسألة الأساسية». في وقت لاحق من تلك السنة، في موسكو، حاول ماو مجدداً من خلال تقديم نصائح متكررة لغومولكا حول كيفية التمسك بالسلطة، مسمياً حكومة

غومولكا «محكمتك أنت» (نحن وضعنا الخط المائل). لم يتماد ماو كثيراً، ولم يطمح غومولكا الى أن يصبح طاغياً.

أمل ماو أن يدفع البولونيين باتجاه اقتراحه رئيساً للمعسكر الشيوعي. ومن خلال أسلوبه الملتوي لتحقيق ذلك، أراد القول لغومولكا باستمرار إن المعسكر الشيوعي يجب «أن يكون برئآسة الإتحاد السوفياتي». والقول بضرورة وجود رأس للمعسكر، هو محاولة من ماو لطرح مسألة مَن يجب أن يكون هذا الرأس، على أمل أن ينظر البولونيون باتجاهه. أما غومولكا فكان يكتفي بالتجهم كلما تحدث تشو عن الصيغة.

أراد البولونيون مزيداً من الحرية، لا مزيداً من الستالينية، أو مزيداً من الفقر. إن الهوة الكبيرة التي تفصل بين رؤيا ماو والحقيقة البولونية تجلت بعمق عندما قالت مجموعة من الزوار البولونيين لماو إن زملائهم في القرى ليسوا مسرورين من مستويات معيشتهم المتدنية، وإن حزبهم أحس بضرورة القيام بما يلبي رغبات الشعب. رد ماو: «لا أصدق أن مستويات المعيشة متدنية الى هذا الحد في بولونيا. على العكس، أشعر أنها مرتفعة جداً نسبياً: فالبولونيون يأكلون أكثر من ألفي أو ثلاث آلاف سعرة حرارية يومياً، في حين أن [حوالى 1500سعرة] قد تكون كافية. وإذا أحس الناس أن السلع الاستهلاكية المتوفرة قليلة جداً، فعلى [النظام] أن يزيد جهودهم الترويجية». بعد «مونولوج» ماو، كتب ديبلوماسي بولوني أن البولونيين «أدركوا أن مساعدة الصينيين ليست جوهرية ولا طويلة الأمد، لأن برنامجهم هو «مناهض للشعب» أكثر من البرنامج السوفياتي»(*).

عندما رأى تشو أنه لن يستطيع على الأرجح الحصول على موافقة البولونيين لاقتراح جعل ماو على رأس المعسكر الشيوعي، التفت ماو فوراً الى البلد الشيوعي الآخر الأكثر عداءاً لموسكو، يوغوسلافيا. فمنذ كانون الثاني 1957 أرسل الموفد فوراً الى هناك وأُعطي توجيهات سريعة بطلب اجتماع خاص مع تيتو طلب فيه من الرئيس اليوغوسلافي أن يشارك في رعاية قمة شيوعية عالمية الى جانب بكين، متحججاً بأن الحزب السوفياتي في حال من انثلام السمعة بحيث لن يستمع أحد اليه. في ذلك الوقت، كان ماو يرمي تيتو للمقربين اليه كعدو - تماماً كما رمى غومولكا. إن طلب ماو رعاية هذين البلدين الشيوعيين كان انتهازياً بامتياز، وارتكز فقط على كونهما الأكثر عدائية للسوفيات. بعد الاستماع الى إعلان ماو، لم يكتف تيتو برفض المشاركة في رعاية مؤتمر كهذا، بل لم يلتزم حتى بحضوره.

في الوقت نفسه، كان ماو يحاول مجدداً إضعاف الكرملين من خلال جعل الروس

(*) سرت نكتة في بودابست حول رجل طلب الشاي. وعندما سئل: «أي شاي تريد - الروسي أو الصيني؟» أجاب: «سأستبدله بالقهوة!».

يهينون أنفسهم. ففي موسكو، في كانون الثاني 1957، طلب تشو بأن يقوم القادة السوفيات «بانتقادات ذاتية علنية» مذلّة وأن يعيدوا تقييم ستالين مقارنة مع مخططات ماو. فاتخذ الروس موقفاً عدائياً وصدّوه في الطلبين. فجاءت ردة فعل ماو بتوجيه لوم قاس الى تشو، إذ قال لرؤساء المقاطعات: «أخبرت الرفيق إن-لاي هاتفياً أن هذه الشعوب أصبحت معتلة عقلياً بسبب مكاسبها المادية، والطريقة الفضلى للتعامل معها هي بتوجيه سلسلة قاسية من الضربات المؤلمة. ماذا لديها حالياً؟ ليس أكثر من 50 مليون طن من الفولاذ، 400 مليون طن من الفحم الحجري و80 مليون طن من الزيت... لا يهم!» كان ماو يلوم إخفاقه في جعل خروتشيف يحل محل نقص القوة الاقتصادية في الصين.

كانت لماو مصادر خيبة أخرى. إحدها الشرق الأوسط حيث انفجرت تزامناً مع هنغاريا، أزمة كبرى حول قناة السويس التي أممتها مصر في تموز 1956. في 29 تشرين الاول هاجمت اسرائيل مصر لكونها مسؤولة عن اجتياح سري اسرائيلي-إنكليزي فرنسي منسّق.

كان ماو متلهفاً للعمل كحامٍ لمصر ومرشد لها. فنظّم تظاهرات ضخمة ضد البريطانيين والفرنسيين ضمت حوالى 100 مليون شخص. واعتبر زائر من اسبانيا الفرنسية حضر إحدى المظاهرات في بكين، أنها كانت: «أسوأ من اجتماع فاشي. فتوزع القادة على كل المدرجات وراحوا يضحكون فيصرخ الجميع عندما يصرخون. لم تكن هذه تظاهرات حقيقية...بل مملة جداً»...وراح ماو يوزع نصائحه على السفير المصري الجنرال حسان رجب حول كل الأمور، بدءاً من كيفية التعامل مع الملك المنفي فاروق وصولاً الى كيفية تفادي الرئيس المصري جمال عبد الناصر الاغتيال؛ فحثّ السفير على «دراسة خبرة الصين» التي «تستحق فعلاً الدراسة». وإذ عبّر بخفر عن التنافس المستتر مع روسيا، دعم ماو مساعدة رجب: «سيقوم الاتحاد السوفياتي بكل ما في وسعه لمساعدة مصر. ويُسعدنا في الصين أيضاً أن نبذل جهدنا لمساعدة مصر وليس لهذه المساعدة أية تبعات. فكل ما تحتاجون إليه اذكروه فوراً... ليس عليك أن تسددوا لنا مساعدتنا لاحقاً... وإذا أصررتم على التسديد... فادفعوا بعد مائة عام». قدمت الصين لعبد الناصر 20 مليون فرنك سويسري ورجحت كفة الميزان التجاري المتبادل لمصلحة مصر.

كان ماو يتوق الى لعب دور ما؛ ففي 3 تشرين الثاني أرسل لعبد الناصر خطة حرب. وكما كان متوقعاً، وهب ماو علفاً للمدافع: 250 ألف متطوع صيني. لم يقبل عبد الناصر العرض - لحسن حظ «المتطوعين»، ولكن أيضاً لحسن حظ ماو، إذ لم تتوفر للصين أية وسيلة لنقل هذا العدد من الأشخاص الى الشرق الأوسط.

لم يعر عبد الناصر ذلك سوى اهتمام بسيط. فقد أخبرنا كبير مستشاري ناصر محمد حسنين هيكل أن الرئيس ترك خطة حرب ماو فوق مجموعة الرسائل التي أمامه. فما أراده عبد الناصر فعلاً هو السلاح، وقرر أن يعترف ببكين في ذلك الربيع فتتمكن الصين الموجودة خارج الأمم المتحدة، من لعب دور الممر للأسلحة الروسية في حال حصول حظر أسلحة من قبل الأمم المتحدة.

عندما طلبت القاهرة أسلحة في شهر كانون الأول، عرضت الصين فوراً أن تقدم كل ما تنتجه وبدون مقابل. لكنها ليست قادرة سوى على تصنيع أسلحة خفيفة كالبنادق، فلم يُقبل العرض. اعتبر ماو أنه أُزيح جانباً، وبالتالي أصبح أكثر استعجالاً لإنهاء برنامج القوة العظمى وامتلاك القنبلة الذرية؛ وإلا، كما قال، «لن يستمع الناس بعدُ الى ما تقوله».

ولتحقيق ذلك، كان بحاجة الى خروتشيف. ولحسن حظ ماو كان خروتشيف بحاجة اليه أيضاً. فما إن هدأت قليلاً أعمال الشغب في بولونيا وهنغاريا، حتى واجه خروتشيف أزمة داخلية. في حزيران 1957، حاول مولوتوف ومالنكوف ومجموعة من الستالينيين القدامى، إسقاطه. أحبط خروتشيف المحاولة لكنه أحس بالحاجة الى دعم صريح من الأحزاب الشيوعية الأجنبية. سارع قادة الأحزاب الأخرى الى إرسال موافقاتهم ولكن ليس ماو. فأوفد خروتشيف ميكويان ليقابل ماو الذي كان في مدينة هانغزهو جنوبي البحيرة. فأخبرنا مترجم ميكويان: «أعتقد أنهم أرادوا شخصاً من الرتب العليا أن يأتي اليهم». ترك ماو ميكويان يتكلم حتى ساعة متقدمة من الليل قبل أن يشير بكسل من فوق كتفه الى سفيره السابق في موسكو: «وانغ [جيا-كزيانغ] العجوز أين برقياتنا؟» كانت آلة التلغراف حاضرة في جميع الأوقات. أراد ماو طبعاً أن يدعم خروتشيف الذي هو في النهاية قوة الكرملين. أراد فقط أن يدفع خروتشيف الى التوسل، فيرفع من شأنه. وطلبت الصين فوراً إعادة التفاوض حول اتفاق تحويل التكنولوجيا.

ردت موسكو بإيجابية كبيرة معبرة عن فرحها لمساعدة الصين في بناء القنابل الذرية والصواريخ، إضافة الى الطائرات المقاتلة المتقدمة. واتضح أن موسكو تحتاج الى مزيد من دعم ماو. فحُدد تاريخ انعقاد أكبر قمة للعالم الشيوعي في 7 تشرين الثاني، في الذكرى الـ40 للثورة البولشيفية. وليمر هذا الحدث بسلام، أرادت موسكو أن يكون ماو مشاركاً فيها.

استغل ماو هذا الوضع استغلالاً كاملاً. وقال إنه سيحضر القمة فقط شرط توقيع الروس على اتفاق مسبق يضمن تسليمه «المواد والنماذج الضرورية لإنتاج سلاح نووي وطرائق تسليمها». في 15 تشرين الأول وقبل ثلاثة أسابيع من انعقاد القمة وقعت موسكو اتفاقاً

حاسماً لتزويد ماو بنموذج قنبلة الذرية. وطُلب من الوزراء الروس «بتزويد الصينيين بكل ما يحتاجون اليه لبناء قنبلتهم الخاصة بهم». فانتقل فجأة العديد من خبراء الصواريخ الى الصين ما تسبب في «فوضى عارمة» في برنامج روسيا نفسها، بحسب أحد الخبراء الروس(*). كما ساعد الخبراء الروس الصين في اختيار مواقع الصواريخ والاختبارات النووية في عمق البلاد.

ورغم الاعتراض الشديد لـ«أبي القنبلة الروسية»، إيغور كورشاتوف، فقد أرسل خروتشيف أحد كبار العلماء النوويين، يفجينيي فوروبيوف، للإشراف على بناء قنبلة ماو؛ وخلال إقامة فوروبيوف في الصين، ارتفع عدد الأخصائيين النوويين الصينيين من 60 الى 6000. وقال تشو أمام مجموعة من القريبين إن روسيا «ترغب في إعطائنا كل الطبعات الزرقاء وكل ما صنعته بها في ذلك القنابل الذرية والصواريخ. إنها الثقة المطلقة، المساعدة المطلقة». عندما قال خروتشيف في وقت لاحق: «لقد حصلوا على الكثير منّا...»، قاطعه ميكويان قائلاً: «بنينا مصانع [أسلحة نووية] للصينيين».

إن المهارة السوفياتية سمحت للصينيين بنسخ كل طريق مختصرة صنعها الروس، وبالتأكد، بالمعرفة، من جدوى هذه الطرق المختصرة، فسرّعوا بالتالي كثيراً صنع قنبلة ماو الذرية. كانت الصين البلد الوحيد في العالم الذي يتمتع بهذا المستوى من المساعدة لتصنيع الأسلحة النووية. وقبل توقيع الاتفاق الجديد علم ماو من وفده أن هذا المقدار من المساعدة الروسية يمكّنه من امتلاك كل مكونات القوة العسكرية العظمى في نهاية عام 1962. إن المشاريع الكبيرة باهظة الكلفة. فقد قدّر مصدر غربي رسمي كلفة صنع القنبلة وحدها للصين بـ4.1 بليون دولار أميركي (بحسب أسعار عام 1957). وسُدد قسم كبير من هذا المبلغ بواسطة المنتجات الزراعية.

لكن ماو أراد أكثر من قنبلة وصواريخ. ففي 4 تشرين الأول 1957، أطلقت روسيا قمراً إصطناعياً باسم سبوتنيك وهو أول منتج من صنع الإنسان يخرج الى الفضاء - وكانت المرة الأولى التي «يتفوق» فيها العالم الشيوعي على الغرب في أي مجال تقني. أراد ماو أن يدخل السباق الفضائي فوراً. فأعلن أمام كبار رتبائه في أيار 1958: «مهما حصل، يجب أن يكون لنا عدة سبوتنيك». «ليس من نوع الكيلو الواحد، أو 2 كيلو...بل عشرات الآلاف من الكيلوات...لن نصنّع أقماراً بحجم بيض الدجاج كالأميركيين. فأول قمر إصطناعي أميركي أُطلق في كانون الثاني 1958، كان بزنة 8.22 كغ مقارنة مع سبوتنيك الذي يزن 83.6 كغ. أراد

(*) احتفظ خروتشيف بأكثر من صاروخي ر2- القصيري المدى وهو الصواريخ أرض-أرض نسختها الصين، رغم رفضه تحويل قنابل يزيد مداها على 2.900 كم. كما ركز الروس قاعدة صواريخ خارج بكين مع 63 صاروخ ر1- و ر2- لتدريب الصينيين عدم استعمالها.

ماو أن يكون قمره أكبر من القمرين الأميركي والروسي، وأن يُطلق عام 1960.

في 2 تشرين الثاني 1957 طار ماو الى موسكو لحضور القمة الشيوعية، مقرراً أن يكون متعاوناً لينال ما أراده من خروتشيف، وليحاول في الوقت نفسه أن يضع نفسه على خارطة المعسكر الشيوعي كمساوٍ لخروتشيف وحتى أعلى منه. هذه القمة، الأضخم من نوعها، حضرها قادة 64 حزباً شيوعياً وصديقاً، من بينهم 12 حزباً شيوعياً حاكماً. قبل مغادرة بكين، اقترح ماو على الروس فكرة أن يتم توقيع الإعلان الأخير منه ومن الروس فقط.

لم ينجح ماو بعد في محاولته، لكن الصين كانت المساعد الوحيد الذي وضع مسودة الإعلان الأخير مع الروس، وماو نفسه لاقى معاملة مميزة في موسكو لكونه القائد الأجنبي الوحيد الذي استضافه الكرملين، وأُعِدّ كل شيء بحسب ذوقه، كالسرير الخشبي الكبير، والحمام الذي تحوّل بحيث يمكنه جلوس القرفصاء من خلال وضع عارضة على المرحاض. في الاحتفال عشية ذكرى الثورة البولشيفية، ظهر ماو وخروتشيف يداً بيد. وفي الإستعراضات العسكرية في شارع غوركي والساحة الحمراء، كان الناس يلوحون بالأعلام الصينية ويصيحون «العمر الطويل لماو وللصين!»

إن أعظم مصدر قوة لماو في سيره باتجاه تحقيق وضع مساوٍ لروسيا، هو الطاقة البشرية التي تملكها الصين. وقال أحد سكان موسكو لشيوعي فنلنديٍ كبير في ذلك الوقت: «يجب ألا نخاف من أميركا بعد الآن. فالجيش الصيني وصداقتنا مع الصين قد بدّلا الوضع في العالم بأسره، ولا تستطيع أميركا شيئاً حيال ذلك». وهذا هو مصدر القوة الذي نشره ماو نفسه عندما كان في موسكو. هناك، أحصى لخروتشيف عدد فرق الجيش التي يمكن أن يعطيها كل بلد، استناداً الى عدد سكانه. كانت الصين متفوقة عددياً على روسيا وكل حلفائها الآخرين بنسبة إثنين الى واحد. فور عودته من موسكو، رفض ماو كلياً تحديد النسل في الصين، وهي سياسة كان النظام في السابق منفتحاً عليها بشكل عادل.

ولإظهار مساواته بمضيفه الروسي، وتفوقه على باقي المشاركين، لم يكترث لأوامر المؤتمر السارية التي يسلّم بموجبها كل متحدث نصه مسبقاً، وقال: «ليس لدي أي نص. أريد أن أكون حراً في التحدث بحرية». وتحاشى بالفعل أي نص مكتوب، لكنه أعدّ بدقة فائقة خطاباته التي تبدو مرتجلة. قبل دخول قاعة المؤتمر، كان ماو في حالة من التركيز الفائق لدرجة أنه عندما تحرك مترجمه الصيني ليزرر له قميصه في انتظار المصعد، بدا ماو غافلاً تماماً لما كان يفعله مساعده.

كان ماو كذلك الشخص الوحيد الذي يتحدث وهو جالس في مقعده. قال إنه كان «مريضاً في رأسه». واعتبر السفير اليوغوسلافي ساخراً أن ذلك «أدهش غالبية الحاضرين».

تحدّث ماو عن الحرب والموت بلامبالاة كبيرة لا بل وقحة إزاء المعاناة البشرية:

> فلنتأمل في ذلك: ما عدد الأشخاص الذين يموتون إذا اندلعت الحرب.
> يبلغ عددهم 2.7 بليون شخص في العالم. وقد يُفقد ثلثهم؛ أو أكثر
> بقليل، ربما نصفهم... أقول إننا إذا أخذنا أقصى الحالات، سيموت
> نصف الشعب ويحيا نصفه الآخر، لكن الإمبريالية ستباد
> ويصبح العالم بأسره اشتراكياً.

أخبرنا أحد المشاركين الإيطاليين، بياترو إنغراو، أن الحضور «صُعق» و«غضب». فما أعطى ماو انطباعاً بأنه لم يكتف بعدم معارضة الحرب النووية، بل قد يرحّب بها فعلياً. وقال كارديلج، موفد القائد اليوغوسلافي لدى خروجه: «من الواضح تماماً أن ماو تسي-تونغ أراد حرباً...» بدون أدنى شك. كما طال الخوف الفرنسيين الستالينيين أيضاً.

ثم أغفل ماو النظر القلق في شأن تحسين مستويات المعيشة:

> يقول الناس إن الفقر أمر سيء، ولكن في الواقع الفقر أمر حسن. فكلما ازداد
> فقر الناس ازدادت ثورتهم. ومن المروع تصوّر أن يصبح الجميع أغنياءً
> يوماً ما... وبسبب السعرات الحرارية الفائضة، سيكون للناس رأسان
> وأربعة أرجل.

إصطدمت آراء ماو بغضب الأنظمة الشيوعية ما بعد ستالين التي أرادت تحاشي الحرب ورفع المستويات المعيشية. فلم ينجح. ورغم التقائه بالعديد من القادة الشيوعيين في هذه المرة، خلافاً لزيارته السابقة عندما منع ستالين عنه أي نوع من هذه اللقاءات، ورغم عدم تفويته أية فرصة لتقديم النصائح، إلا أن كلامه لم يحمله كثيرون على محمل الجد. ونقرأ في ملاحظات البريطاني جون غولان حول نصائح ماو للحزب البريطاني الصغير وغير الهام: «...انتظر الوقت المناسب – يوماً ما ستكون انكلترا لك – عندما تنتصر لا تقتلهم، أعطهم مأوى». ولاحظ ماو أمام أحد أصغر الحاضرين سناً، البلغاري من الدرجة الثالثة تيودور زيفكوف: «أنت شاب وذكي... عندما تنتصر الاشتراكية في العالم بأسره، سنقترحك رئيساً للمجتمع العالمي». لم يصدق أحد غير زيفكوف نفسه أن ماو يعني ما يقول. فقد أدهش بعض الناس، لكنه لم يطلب الاحترام الذي يُترجَم ولاءاً أو ثقة.

عزا ماو هذا الفشل الى ضعف الصين على الصعيدين الإقتصادي والعسكري؛ وقال أمام غومولكا البولوني: «نحن شجرة قصيرة والإتحاد السوفياتي شجرة كبيرة»، معتبراً أن انتاج الصلب هو المقياس؛ وكان مصمماً على إيجاد حل لذلك. وأعلن في خطابه الأخير: «أخبرني الرفيق خروتشيف أن الإتحاد السوفياتي سيتمكن خلال 15 سنة من التفوق على أميركا.

ويمكنني القول أيضاً إننا خلال 15 سنة سنصبح بمستوى بريطانيا أو نتفوق عليها». والمعنى الضمني لهذا الكلام، أنه داخل في السباق كلاعب بمقدار دخول خروتشيف فيه.

ولمساومة خروتشيف، اعتمد ماو بلاغة كبيرة في مخاطبته القائد السوفياتي كأستاذ: «أنت حاد المزاج، الأمر الذي قد يزيد عدد أعدائك...دع الناس يعبّرون عن آرائهم المختلفة وتحدث اليهم بتأن...» وأمام حضور كثيف، أظهر ماو فوقية أكبر:

> كل إنسان يحتاج الى دعم. والرفيق القادر يحتاج الى مساعدة ثلاثة أشخاص آخرين، كما السياج بحاجة الى ثلاثة أوتاد تدعمه. هذه أقوال مأثورة صينية. وبحسب قول مأثور صيني آخر، فزهرة اللوتس رغم جمالها الأخّاذ، تحتاج الى خضرة أوراقها لتزيينها. فأنت، أيها الرفيق خروتشيف، رغم كونك زهرة لوتس جميلة، تحتاج أيضاً الى الأوراق لتزينك...

عند هذا الحد، وبحسب أحد المشتركين، «ثبّت خروتشيف رأسه واحمّر كثيراً»[*].

والأسوأ من ذلك أن ماو عدل فجأة أمام موفدين من 64 بلداً، عن محاولة الحلول محل خروتشيف التي بدأها منذ أشهر قليلة، ووصف مولوتوف، القائد المتآمر، بأنه «رفيق قديم، له تاريخ طويل من النضال»، وقال إن الخط الذي يسير فيه خروتشيف «صحيح نسبياً»؛ عند هذا الحد، خيّم في القاعة هدوء مميت. فكرر ماو قول أشياء لكبار القادة الروس على انفراد، مثلاً: «أحببنا مولوتوف كثيراً». (في عام 1955 قام مولوتوف غير المحبوب أبداً بتسمية الصين «القائد المعاون» للمعسكر الشيوعي).

كتب خروتشيف في مذكراته أموراً حول «جنون العظمة» لدى ماو: «اعتقد ماو نفسه رجلاً أرسله الله لينشر مشيئة الله. في الواقع، اعتقد ماو على الأرجح أن الله صنع مشيئة ماو الخاصة». لكن ماو لم يكتف بجنون العظمة بل كان يهدف طوعاً الى تخفيض منزلة خروتشيف ورفع منزلته هو. تحمّل خروتشيف كل ذلك لمصلحة الحفاظ على وحدة المعسكر الشيوعي. هذا القلق كبّل خروتشيف في تعاطيه مع ماو، فيما استغل ماو هذا الضعف حتى النهاية.

بعد عودته من موسكو، أضاف ماو الى لائحة مطالبه بنداً آخر عزيزاً على قلبه: الغواصات التي تستطيع إطلاق أسلحة نووية، والتي كانت تنظر اليها بكين على أنها «في طليعة الترسانة المعاصرة». في حزيران 1958، كتب تشو يطلب من خروتشيف التكنولوجيا والتجهيزات

---

[*] قرر ماو لعب دور الفيلسوف الكبير واستخدم لغة مليئة بالاستعارات الصينية، تصعب ترجمتها. قال أحد المترجمين الإيطاليين: «سمعت من المترجم الروسي أن احداً لم يفهم ما قاله ماو. تذكرت أن مترجمينا وضعوا رؤوسهم بين أيديهم». في الواقع، توجب على الحضور الصيني رمي اليه ماو عندما استخدم هذا الأسلوب.

لتصنيع هذه الغواصات، إضافة الى حاملات الطائرات وغيرها من السفن الحربية الضخمة.

ولكن هذه المرة لم يتخل خروتشيف عما طلبه ماو فحسب، بل حاول تأمين مقابل لذلك: استخدام شاطىء الصين الطويل الذي يسهل من خلاله بلوغ عرض البحار، خلافاً لشاطىء روسيا. إقترح خروتشيف أن تساهم الصين (والفيتنام) في مناورات البواخر الى جانب الروس، مقابل استخدام هذه البواخر للمرافىء الصينية (والفيتنامية). هذا ما نقله السفير يودين لماو في 21 تموز.

أراد ماو أسطولاً خاصاً به، وأن يبني بواخره الخاصة. وليجد عذراً لنفسه عن رفض الاقتراح الروسي للتعاون، لعب دور المصاب بنوبة غضب. ففي اليوم التالي، في 22 تموز، أعاد الاجتماع بيودين وقال له: «لقد أغضبتني كثيراً لدرجة أنني لم أنم طوال الليل». ثم حرّف اقتراح موسكو ليبدو وكأنه مسألة سيادة، واتهم الروس بأنهم «يريدون السيطرة علينا» من خلال «أسطول مشترك». «وكأنهم يقولون باختصار لا تثق بالصينيين...«وفي خضم هذه العاصفة تقدّم ماو بمطلبه الحقيقي: «عليك مساعدتنا لبناء أسطول بحرية»!... نريد الحصول على 200 أو300 غواصة بحرية» (الحرف المائل نحن كتبنا).

قلق خروتشيف من غضب ماو، وهذا ما كان يرجوه ماو- وذهب سراً الى بكين في 31 تموز. فرحب به ماو ببرودة واستعلاء. وإذ باشر القائدان بمحادثاتهما الأولى قال خروتشيف فوراً: «لم نفكّر بالأسطول المشترك». بعد الكلام المنمق والطنان تراجع ماو وأذعن أن تفسيره لاقتراح خروتشيف غير مبني على أسس ثابتة، وأن «عجزه عن النوم» ذهب سدى رغم أنه بقي يتصرف وكأن كرامته الوطنية جُرِحت في الصميم. لكن تمثيليات ماو دفعت خروتشيف الى التقدم أكثر من نصف الطريق، فعرض القائد السوفياتي أن تُبنى للصين «تجهيزات ضخمة...لتصنيع عدد كبير من الغواصات النووية». وللمحافظة على هذا الضغط ألمح ماو بشدة الى أن عدم تحقيق ذلك سيجر الروس الى حرب: «بما أننا لا نملك الآن أسطول غواصات نووية، فقد نسلمكم كذلك شاطئنا بكامله لتحاربوا بالنيابة عنا». ثم، ولتكرار المحاولة من الداخل، وما إن غادر خروتشيف، حتى اصطنع ماو حالة حرب، إنطلاقاً من تايوان مرة أخرى.

إن أزمة مضيق تايوان الثانية تشبه الى حد بعيد الأزمة الأولى عام 1954-1955، التي استخدمها ماو مسرحاً ليدير منه سلاح حليفه، للحصول على تكنولوجيا القنبلة الذرية. والهدف هذه المرة كان الغواصات النووية وغيرها من المهارات العسكرية ذات التقنيات العالية. في 23 آب، فتح ماو خزان أسلحة ضخم ضد جزيرة كيموي، نقطة الإنطلاق الى تايوان، فغطى الجزيرة الصغيرة بأكثر من 30 ألف قنبلة (في غالبيتها روسية الصنع). إعتقدت

واشنطن أن ماو قد يشن فعلاً الحرب على تايوان. لم يشك أحد في الغرب بهدفه الحقيقي: إرغام الولايات المتحدة الأميركية على التهديد بحرب نووية لإخافة حليفه الخاص - وهي حيلة فريدة من نوعها في تاريخ فن إدارة شؤون الدولة.

حركت الولايات المتحدة أسطولاً كبيراً باتجاه المنطقة، وفي 4 أيلول أعلن وزير الخارجية جون فوستر دالاس أن الولايات المتحدة ملتزمة بالدفاع ليس فقط عن تايوان بل عن كيموي أيضاً، وهدد بقصف الصين القارية. ساد التشنج الشديد داخل الكرملين بسبب المواجهة المسلحة مع الولايات المتحدة، فأرسل وزير الخارجية أندراي غروميكو سراً الى بكين في اليوم التالي. حمل غروميكو مسودة رسالة من خروتشيف الى أيزنهاور، تقول إن الهجوم على الصين «هو هجوم على الإتحاد السوفياتي». كان خروتشيف يستدرج تعليق ماو، آملاً أن يعيد التأكيد بأن الأمور لن تصل الى هذا الحد. فتفضّل ماو على غروميكو وقال له «هذه المرة لن نقصف تايوان ولن نقاتل الأميركيين، فلن تكون حرباً عالمية». لكنه أوضح أن الحرب على تايوان مدرجة قطعاً على اللائحة «للمستقبل»، وستكون على الأرجح حرباً نووية.

اعتقد خروتشيف أن ماو يستطيع بالفعل إطلاق حرباً كهذه، لكنه كتب في مذكراته: «لم نُقدِم على أية خطوة باتجاه كبح رفاقنا الصينيين لأننا اعتقدنا أنهم على حق تماماً في محاولة توحيد كل أراضي الصين». كانت هذه روعة تايوان كقضية أساسية بالنسبة الى ماو: فرغم تهديده بإطلاق حرب عالمية ثالثة، لم تقل موسكو أنه على خطأ.

بعد إعداد هذا السيناريو حول الحرب النووية المستقبلية الى جانب أميركا ضد تايوان، ضغط ماو كثيراً على أعصاب الروس. فقال لغروميكو إنه يود أن يناقش مع خروتشيف في مرحلة معينة، كيفية التنسيق في حرب مماثلة، ثم رفع شبح إبادة روسيا. عند انتهاء الحرب سأل، «أين يجب بناء عاصمة العالم الإشتراكي؟»، وعنى بذلك أن موسكو تكون قد زالت. فاقترح أولاً أن تقع العاصمة الجديدة في جزيرة من صنع الإنسان في المحيط الهادىء. هذه الملاحظة أجفلت غروميكو كثيراً الى حد أنه أراد إلغاءها من التلغراف المرسل الى بلاده؛ فالكرملين هناك «يعير اهتماماً خاصاً» لهجمات ماو، على حد تعبير المعاون الذي وضع مسودة التلغراف.

ولكن، بعد أن نجح ماو في هزّ غروميكو بهذه الطريقة، لجأ الى تهدئته بالقول إن الصين ستتحمل كل ضغط الحرب النووية الآتية. «تقضي سياستنا بأن نتحمل شخصياً كافة عواقب هذه الحرب. سنتعامل مع أميركا، و...لن نجر الإتحاد السوفياتي الى هذه الحرب». عدا ذلك، قال ماو، «علينا القيام ببعض الإستعدادات لمواجهة الحرب مع أميركا»، ويشمل ذلك «الاستعدادات المادية». قال تشو إن-لاي للقائم بالأعمال الروسي: «وضعنا خططاً لإنتاج

أسلحة عصرية بمساعدة الاتحاد السوفياتي». وقد أوضح ماو موقفه جيداً: يمكنك تحاشي ذلك إذا جعلتني أخوض الحرب بنفسي.

فهم خروتشيف ما المقصود. ففي 27 أيلول كتب لماو: «نشكرك على رغبتك في التعهد بخوض المعركة بدون توريط الاتحاد السوفياتي»، وأعقب ذلك في 5 تشرين الأول إعلان أن أزمة تايوان كانت مسألة «داخلية» وأن روسيا لا يمكنها التورط في ما أسماه «الحرب الأهلية». بالنسبة الى خروتشيف، القول بأنه سيسمح لماو بالتعاطي شخصياً في الحرب النووية مع الأميركيين، يعني أنه وافق على تسليح الصينيين ليقوموا بذلك. في اليوم التالي، كتب ماو تقريراً باسم وزير دفاعه يعلّق بموجبه قصف كيموي؛ فانتهت بذلك أزمة تايوان القاسية الثانية.

ثم كتب ماو لخروتشيف مؤكداً أنه سيكون سعيداً جداً بأن تخوض الصين حرباً نووية مع أميركا وحدها. وعرض ما يلي: «من أجل انتصارنا الأخير، ومن أجل طرد كامل للإمبرياليين، نحن [أي الشعب الصيني الذي تمت استشارته] نرغب في تحمّل أول هجوم [نووي أميركي]. كل ما في الأمر مجموعة كبيرة من الناس يموتون [نحن كتبنا الخط المائل]»(*).

وليبقى الضوء مسلطاً على قضية تايوان، أمر ماو بقصف كيموي ليبدأ من جديد، وبالأحرى ليستعيد حرب الأيام المتعاقبة. إن هذا التهوّر الذي يميّز ماو قد أدى الى زيادة الضغط على الاقتصاد. لكن رئيس الأركان في الجيش الذي لم تخدعه نوايا ماو، اعترض قائلاً: «ثمة نقطة صغيرة تتعلق بالقصف: إنه يكلف مالاً كثيراً...لماذا القيام به؟» لم يعرف ماو بما يجيب عدا اتهام الجنرال بأنه «ينتمي الى جناح اليمين»، وسرعان ما تمّ إبعاده. استمر انهيال القصف الثمين على الجزيرة الصخرية مدة 20 سنة ولم يتوقف إلا بعد وفاة ماو يوم رأس السنة عام 1979، اليوم الذي أقامت فيه بكين علاقات ديبلوماسية مع واشنطن.

في هذه الأثناء، قام خروتشيف بعدد من التحويلات التكنولوجية التي أدت الى اتفاق مذهل في 4 شباط 1959 التزمت روسيا بموجبه بمساعدة الصين لصناعة مجموعة كاملة من السفن والأسلحة المتطورة بما فيها غواصات الصواريخ القاذفة والمزودة بالطاقة التقليدية والصواريخ الغواصات-أرض. إن أول أزمة تايوانية قاسية قد أهابت إخراج أسرار القنبلة الذرية من موسكو؛ الآن، وبعد أربع سنوات، وفي خلال الأزمة التايوانية القاسية الثانية، استحصل ماو من خروتشيف على اتفاق بتحويل ما لا يقل عن المجموعة الكاملة من

(*) قال ماو أموراً مشابهة في السابق بلغة أقل غموضاً. في عام 1955 قال للسفير الفرنسي بأن «القنابل الذرية الأميركية قليلة جداً لابادة الصينيين. حتى ولو رميت القنابل الذرية الأميركية على الصين وأحدثت فجوة في الارض أو مزقتها الى أجزاء، قد يشكل ذلك أمراً كبيراً بالنسبة الى النظام الشمسي، لكنه سيبقى أمراً غير مهم فيما يتعلق بالكون ككل».

التجهيزات الضرورية لتسليم القنبلة الذرية.

وخلال السنوات التي تلت عام 1953، وعندما رسم ماو خطته لبرنامج القوة العظمى، تعاظمت أهميته تدريجياً، لكن كل توسّع كان يصعّب مشكلته الأساسية: كيف ينتزع كمية كافية من الطعام ليدفع مشترياته. في عام 1956 عندما كان مجال تطبيق البرنامج ضيقاً جداً، أصبح الموت بسبب الجوع مزعجاً وضاغطاً الى حد أن مكتبه السياسي، المطيع عادة، صدّ الخطة وأرغمه على التروي. والآن سيكون الموت أكثر اتساعاً. ولكن هذه المرة ليس على ماو أن يقوم بتنازلات لمعاونيه في الداخل. خلال عام 1957 تغير أمراً أساسياً. فلم يعد لخروتشيف أية سلطة على بكين ولم يعد ماو يشعر بالارتباك تجاهه.

39- قتل «المئة زهرة»
(1957-1958، العمر 63-64)

شكلت عمليات الترهيب دوما الاسلوب العام الذي كان يلجأ اليه ماو كلما أراد إنجاز عمل ما. ولكن في عام 1956، وبعد أن أدان خروتشيف لجوء ستالين الى الإرهاب، بات على ماو أن يخفف وتيرة عمليات الاعتقال والقتل. ففي 29 شباط وما إن عرف ماو بوجود خطاب خروتشيف السري حتى أمر قائد شرطته بمراجعة الخطط الموضوعة: «هذه السنة يجب تخفيض عدد عمليات التوقيف أكثر من السنة الماضية... ويجب بشكل خاص تخفيض عدد عمليات الإعدام...».

ولكن عندما زحفت دبابات خروتشيف باتجاه هنغاريا في وقت لاحق من تلك السنة، رأى ماو في ذلك فرصة لإعادة إحياء الاضطهاد. وما زال معاونوه يعتقدون أن المشاكل في أوروبا الشرقية ناتجة عن التركيز الزائد على الصناعة الثقيلة وعن إهمال المستويات المعيشية. واعتبر ليو شاو-كي أن على الصين أن تسير بشكل «أبطأ» في اتجاه التصنيع بحيث «لا يضطر الناس الى الذهاب الى الشارع للتظاهر...وأكثر من ذلك يكونون فرحين بشكل عادل». أراد تشو بدوره التخلص من بعض مصانع الأسلحة. ورغم اتفاقه التام مع ماو في ما يتعلق بإعطاء الأولوية للأسلحة النووية لاحظ تحديداً: «لا يمكننا أن نأكل المدافع أو الأسلحة».

لكن نظرة ماو الى «الدروس من الشرق الأقصى» كانت مختلفة تماماً. فقد قال لأحد رتبائه في 15 تشرين الثاني «صحيح أن مستوى المعيشة لم يتحسن كثيراً في هنغاريا، ومع ذلك لم يكن سيئاً جداً». وقال: «المشكلة الأساسية مع بعض بلدان أوروبا الشرقية هي أنها لم تتخلص من كل هذه الثورات المضادة...وهي الآن تجني ثمارها المُرّة». وأعلن ماو «أن أوروبا الشرقية لم تقتل على نطاق واسع». «يجب أن نقتل. ونقول إن القتل جيد».

ولكن مع اندفاع العالم الشيوعي باتجاه نظام مغاير للستالينية، قرر ماو أنه من غير الحكمة الضغط كثيراً لإحداث إبعاد ما. ولإيجاد تبرير لذلك، اخترع خطة مخادعة. فعل ذلك وهو مستلق في سريره حيث أمضى معظم وقته في شتاء 1956-1975 . فكان يأكل في السرير ويجلس على حافته ولا ينهض إلا لدخول الحمام.

في 27 شباط 1957 تلا ماو خطاباً مدته أربع ساعات أمام مؤيديه في المجلس الأعلى

معلناً دعوته الى انتقاد الحزب الشيوعي. وقال إن الحزب يحتاج الى أن يكون مسؤولاً و«تحت المراقبة». ورأى من المنطق انتقاد ستالين بسبب عمليات التطهير «المبالغة» معطياً الانطباع بأن أموراً كهذه لن تحصل في الصين. في هذا الإطار، ذكر قولاً مأثوراً "«فلتزهر مائة زهرة»".

قليلون فقط حزروا أن ماو ينصب فخاً وأنه يدعو الناس الى التعبير بحيث يستطيع عندئذ استخدام ما قالوه كحجة لقتلهم. وكان ماو يستهدف المفكرين والمثقفين وهم الأكثر قدرة على التعبير. بعد الاستيلاء على السلطة، وهبتهم سياسة ماو مستوى معيشياً أفضل من الحد المتوسط. وقد حاز المشهورون بينهم أو «النافعون» على كثير من الامتيازات. لكن ماو اضطهدهم وظلمهم مرات عديدة، ليس أقله من خلال «إصلاح الفكر» الذي وصفه هو بنفسه بأنه غسل دماغ: «يقول بعض الأجانب إن إصلاحنا الفكري هو غسل دماغ. أظن أن ذلك صحيح، إنه بالضبط غسل دماغ». في الواقع، حتى التعبير المخيف «غسل دماغ» لا يستحضر الى الذهن الألم الفكري للعملية التي تلوي وتقلب عقول الناس. فماو يخطط الآن لاضطهاد المثقفين جماعات جماعات.

لم يبح ماو بخطته إلا أمام عدد محدود من الأصدقاء الحميمين كسيد شانغهاي كي كينغ-شي، حتى أنه لم يطلع المكتب السياسي عليها. في بداية شهر نيسان، أخبر هؤلاء الأصدقاء القلة أنه نتيجة لإثارته الانتقادات، «بدأ المفكرون ...بتغيير انطباعاتهم من الحذر نحو مزيد من الانفتاح...فسيأتيهم العقاب على رؤوسهم يوماً ما...نريد أن نجعلهم يعبرون. وعليكم شد عزيمتكم ودفعهم الى التهجم!...دعوا كل هؤلاء الأبالسة الثيران والشياطين الأفاعي... يُلعنون بضعة أشهر». ولهؤلاء الأصدقاء القلة أنفسهم قال ماو إنه «يرمي صنارة طويلة ليصطاد سمكة كبيرة». وفي وقت لاحق وصف شركه كما يلي: «كيف يمكننا اصطياد الأفاعي إن لم نخرجها من أوكارها؟ أردنا أبناء السلاحف [الأنغال] هؤلاء أن يتراجعوا ويغنوا وينكسروا...فيمكننا بهذه الطريقة أن نلقي القبض عليهم».

كان فخ ماو محكماً وناجحاً. وما إن غُضّ الطرف قليلاً حتى انفجرت عاصفة من الانشقاقات وخاصة في الملصقات الجدارية والإجتماعات الضيقة النطاق المسماة «حلقات دراسية»، التي كانت الاجتماعات الوحيدة المسموح بها.

من بين الأمور الأساسية التي يجب تحديها منذ البداية، الاحتكار الشيوعي للسلطة، الذي وصفه أحد النقّاد بأنه «مصدر كل العلل». وقد عنونت إحدى الملصقات «السلطة التوتاليتارية خطر!» كما تمت مقارنة ممارسة الشيوعيين للسلطة بممارسة هتلر للسلطة. فقال رجل في إحدى الحلقات الدراسية أن الحكم اليوم الذي «لا يحمي حقوق المواطنين» هو اسوأ من السلالات الإقطاعية الحاكمة أو تشيانغ كاي-شيك. وقال أحد الأساتذة عن الدستور أنه

«ورق تواليت». وغاص إقتصادي آخر في عمق وسائل ماو ودعا الى حظر الإدانات العامة، «التي هي اسوأ بكثير من البقاء في السجن» - «إذ أن مجرد التفكير بها يجعل المرء يرتعد من قلبه الى جسده». فكانت الديمقراطية إذاً مطلباً شعبياً.

وهكذا كانت أيضاً قاعدة القانون. فقد دعا نائب أحد الوزراء الى استقلالية القضاء. وقال إداري آخر إنه يريد أن يكون قادراً على «مجرد تطبيق القانون وليس أوامر الحزب». استناداً الى الوسائل الضبابية التي يلجأ اليها الحزب الشيوعي الصيني في التحكم بكل الأمور، سأل أحد الكتّاب المسرحيين: «لماذا من الضروري أن توجد قيادة في الفنون؟ من قاد شكسبير وتولستوي وبيتهوفن وموليير؟؟».

وخضعت السياسة الخارجية بدورها لاستجوابات بعض النخب الذين كانوا مطلعين على بعض المعلومات الجزئية. أما الحاكم القومي السابق لمقاطعة ينان، والذي عبر الى الشيوعيين، فاعترض معتبراً أنه «من غير العدل أن تدفع الصين كل تكاليف الحرب الكورية» - ودعا الى تخفيض مستوى المساعدات التي تُقدَّم بإسراف الى الدول الأجنبية.

كما تعرضت سرية النظام الى الهجوم. إذ اعترض أحد النقاد بالقول «إن جميع الاحصاءات الاقتصادية هي أسرار دولة، وحتى محصول القِلي...ما هذا غير محاولة إبقاء الناس في حال من الغباء؟» وطلب معلومات حول برنامج التصنيع. وكتب آخر: «سمعت فعلاً عن فلاحين... يموتون لأن طعامهم يقتصر فقط على التربة السطحية في مناطق وافرة بالإنتاج حتى أنها عُرفت بأرض السمك والأرز. لكن الصحف لم تقل شيئاً عن هذا أبداً...».

كثيرون قابلوا بين قساوة حياة الفلاحين وحياة القادة (الذين اكتفوا بإلقاء نظرة خاطفة عليها). نقلت صحيفة **بيبولز دايلي** أخبار المأدبة التي أقيمت على شرف الرئيس الروسي كليمنت فوروشيلوف وحضرها ألف شخص. وتساءلت إحدى الملصقات «لماذا كل هذه العظمة؟» فيما «يلجأ «أباطرة الحزب المحلي» الى استخدام وسائل كالتعسف والتعذيب والإحتجاز لحرمان الفلاحين من الطعام...؟» وحذر هذا الكاتب الجريء قائلاً: «فلنعلم أن الفلاحين المستائين يمكنهم رمي تمثال الرئيس ماو في المرحاض».

معظم هذه الانتقادات لم تصل الى عامة الشعب، إذ لم يسمح ماو بأن تُنشر في الصحف إلا النُتَف المختارة بعناية. أما الباقي فكان يُحتجز في القناتين - الحلقات الدراسية والملصقات الجدارية- المؤقتة بحيث تسهل إزالتها. كما تأكد ماو أن هذين المخرجين يقتصران على المجمعات المنعزلة والمؤسسات الفردية التي لم يُسمح لعامة الشعب بالدخول اليها. ولم يكن يسمح كذلك لهذه المؤسسات بالإتصال في ما بينها، وحُرم الناس في داخلها من الخروج ونشر آرائهم. عندما حاول بعض الطلاب توزيع مجلات مكتوبة بخط اليد، صودرت هذه المجلات

samizdats فوراً وعوقبوا باعتبارهم «يقومون بثورات مضادة». بالتالي بقي الانشقاق مجزّأ بصلابة ليستحيل حصول أي هجوم شعبي.

في 6 حزيران 1957 قرأ ماو كرّاساً منسوخاً فيه تأمل حول كون القيادة منشقة، واعتُبر هو نفسه بطل الانشقاق المنظَّم ضد «المحافظين». وفي ظل فقدان المعلومات الذي خلقه، اعتقد البعض خطأً أنه ليبرالي، وسمعت دعوات مثل: «فلنتوحد حول ماو تسي-تونغ-خروتشيف!» كما عبّر البعض عن قلقه على ماو بالقول: «يبدو أن رفيقنا العزيز ماو تسي-تونغ هو في وضع صعب جداً». إن هذا الافتراض بأن ماو ليبرالي، هو خطير بالنسبة اليه لأنه قد يشجّع الانشقاق.

في اليوم التالي، أمر بنشر افتتاحية في صحيفة **بيبولز دايلي** الليلة نفسها، تقول إن تحدّي الحزب ممنوع. وما إن ضغط على هذا الزر حتى بدأت آلة الاضطهاد تدور على ما سمي «بالحملة المناهضة لليمينية» التي دامت سنة واحدة. وانتهى بذلك زمن «المئة زهرة» المثير ولكن القصير.

في 12 حزيران، أصدر ماو تعميماً الى الحزب ليقرأه كل الأعضاء «باستثناء غير الموثوق بهم»، شرح فيه أنه نصب فخاً. فهو لم يرد أن يعتقد الحزب بأنه ليبرالياً - في حال تحوّل أفراد الحزب الى ليبراليين.

في هذا التعميم، وضع ماو كوتا للضحايا: بين 1 و10% من «المفكرين» (أي الأكثر تثقفاً)، وبلغ عددهم حوالى 5 ملايين في ذلك الوقت. نتيجة لذلك، تمّ تصنيف حوالى 550 ألف شخص وما فوق على أنه «يمينيون». وفيما عبّر عديدون عن آرائهم، امتنع آخرون عن قول أي شيء ضد النظام ونُبذوا فقط لتعبئة الكوتا التي وضعها ماو.

بالنسبة الى ماو، كان الكتّاب والفنانون والمؤرخون سطحيين. في حين أن العلماء والتقنيين كانوا معفيين من الاضطهاد الى حد بعيد - «وخاصة أؤلئك الذين قاموا بإنجازات كبيرة»؛ هذا ما جاء في أمر أصدِر في أيلول 1957. «فهؤلاء يجب حمايتهم بالتأكيد». وإن العلماء الذين عادوا من أوروبا وأميركا بشكل خاص، «لا يجب تصنيفهم ولا إدانتهم». فقد عوملَ علماء الفيزياء النووية وعلماء القذائف معاملة ممتازة. (وطوال فترة حكم ماو، حظي كبار العلماء بامتيازات تفوق حتى تلك التي يتمتع بها الضباط الكبار.)

وبما أن الهدف النهائي من هذه الإجراءات الصارمة هو خلق جو يساهم في فرض مزيد من القساوة في انتزاع التمويل لبرنامج القوة العظمى، فقد عمل ماو تحديداً على بتر أي تحدّ يُوجه ضد سياساته إزاء عمل الفلاحين. وجاء في أحد العناوين الصارخة في صحيفة **بيبولز**

دايلي: «هاجموا قذارة اعتبار «حياة الفلاحين» بهذه القساوة!» ولتصل رسالته الى الداخل، دبّر ماو شخصياً مشهداً مسرحياً سادياً. فمن بين الوجوه المعروفة من قال إن الفلاحين «على حافة الموت بسبب الجوع»، فنُظّمت له رحلة «تقصّي حقائق». ونقلت صحيفة بيبولز دايلي أنه أينما ذهب، كانت تطارده حشود تصل الى 50 ألف متحمس، «يرفضون هذه القذارة»، فأُرغم في النهاية على الهرولة واختبأ تحت أكياس من الجوتة في صندوق سيارة.

تزامناً مع هذه المسرحية جاءت الاضطهادات. فكشف ماو في وقت لاحق أمام كبار رتبائه أن إحدى المقاطعات، هونان، «أدانت 100 ألف شخص واعتقلت 10 آلاف وقتلت 1000. وفعلت المقاطعات الأخرى الشيء نفسه. فحُلّت مشاكلنا».

مثال محدد عن ذلك، إعدام ثلاثة أساتذة في حاضرة الإقليم نفسها في مقاطعة هبي على افتراض أنهم حرّكوا تظاهرة ضمت تلاميذ مدارس بسبب قطع الدروس. وأدى قطع الدروس هذا الى تمكّن تلميذ واحد فقط من أصل عشرين، من متابعة دراساته في المدرسة الثانوية. وكانت التظاهرة موسومة «بهنغاريا الصغيرة»، وتم التركيز على نشر أخبار الاضطهادات في كل أرجاء الأمة. ومن شبه المؤكد أن ماو شخصياً أمر بأحكام الموت إذ أنه وصل الى المقاطعة في اليوم السابق للتظاهرة، وحتى ذلك الحين لم تكن السلطات قد اتخذت بعد قرار فرض عقوبة الموت. والهدف من الإعلان الواسع النطاق كان غرس الخوف في المدارس الريفية التي تتحمل وزر قرار قطع الدروس الذي أدخله ماو لانتزاع مزيد من الأموال لبرنامج القوة العظمى.

إن تمويل التعليم كان قليلاً في الأساس، والآن يجب تخفيضه أكثر من السابق. لم تكن مقاربة ماو أن يرفع المستوى العام للتعليم في المجتمع ككل، بل التركيز على نخبة قليلة وخصوصاً في مجال العلوم وغيرها من المواضيع «المفيدة»، وترك الباقي للشعب الأمي أو للعمال العبيد شبه الأميين. وما يُجمَع من أموال للتعليم، كان يذهب أساساً للمدن؛ ولم تكن مدارس القرى تحصل على أي تمويل، والمدارس في المدن الصغيرة قليلة جداً. نتيجة لذلك، عدد قليل فقط من الشباب القرويين كانوا قادرين على متابعة التعليم العالي.

حتى في المدن، تدنت كثيراً فرص الشباب بالحصول على التعليم في عام 1957، إذ يقال لـ80% من الـ5 ملايين الذين يغادرون المدرسة الابتدائية المدينية (أي 4 ملايين تلميذ) و800 ألف من المليون تلميذ الذين يغادرون المدرسة المتوسطة، أنهم لن يستطيعوا متابعة دراستهم. فساد الاستياء العام جميع المدن، وشكّل اضطهاد الأساتذة في قضية "هنغاريا الصغيرة" تحذيراً لسكان المدن أيضاً.

لم يكن الاضطهاد سبب الموت الوحيد في هذه الحملة: إذ سادت الانتحارات بين المحكومين على أنهم «يمينيين». وفي القصر الصيفي في بكين، غالباً ما كان المناورون يصادفون في الصباح

الباكر أجساداً تتدلى من الأشجار، وأقداماً عالقة على سطح البحيرة.

معظم هؤلاء الذين صُنّفوا «يمينيين» كانوا يُقحمون في اجتماعات إدانة جهنمية وإن لم تكن عنيفة. باتت هذه العائلات منبوذة، وأرغمت نساؤها على ممارسة أعمال غير مرغوب فيها، وفقد أبناؤها كل أمل في الحصول على تعليم لائق. ولحماية أطفالهم - وأنفسهم - طلّق العديد من الرجال نساءهم عندما كن يصنّفن يمينيات. فتفككت عائلات كثيرة ما أطال عمر مأساة الأطفال والأهل على حد سواء.

بعد الإدانة، يتمّ ترحيل معظم اليمينيين للقيام بأعمال شاقة في مناطق بعيدة. وكان ماو بحاجة الى يد عاملة وبخاصة لفتح أراض بور. ووصف صحافي يدعى داي هوانغ كيف كان يُلقى بالمرحّلون في أماكن كأقصى شمالي منشوريا المعروفة «بالبرية الشمالية العظمى»، وكان عليهم إعداد ملجأ «بسرعة مستخدمين قصب القمح لصنع السقف» في درجة حرارة تبلغ 38 درجة مئوية تحت الصفر. وحتى في وجود النيران «بقيت درجات الحرارة عشرات تحت الصفر...»

إن الأكواخ المصنوعة من الأعشاب والتربة المضروبة التي كنا نعيش فيها يدخل اليها الهواء من كل جانب...وكانت الخضار واللحوم المتوفرة نادرة جداً...استيقظنا بعد الساعة الرابعة فجراً ولم نتوقف حتى الساعة السابعة أو الثامنة مساءً...في خلال الساعات الـ15 - 16...كنا نعمل بشكل أساسي وبدون توقف...في فصل الصيف...كان علينا أن نستيقظ عند الساعة الثانية فجراً...وكنا ننام ثلاث ساعات على الأكثر.

كان المرحّلون عرضة للخطابات المتواصلة العديمة الشفقة -«أنتم هنا فداءاً عن جريمتكم! لا تتجرّأوا على إثارة المشاكل أو البحث عن وسائل لتكونوا كسالى!» - وكان عليهم في الوقت نفسه أن يعملوا بأقل من معدلات الحصص التي تمكنهم من البقاء على قيد الحياة. فقد مات كثيرون بسبب سوء التغذية والمرض والبرد والعمل الزائد والحوادث خلال ممارسة أعمال غير مألوفة كقطع الأشجار.

في الواقع، تحدث هذا الصحافي، داي، بعد أن عرف أن ماو نصب فخاً. فكتب عريضة الى ماو اعترض فيها على «الطبقة الحاكمة الجديدة» التي تقيم «الاحتفالات والمأدبات» الفاخرة، في حين «يقتات عشرات الآلاف من الناس...من التربة السطحية أو لحاء الشجر». كما انتقد عبادة ماو لذاته. وحذر ماو قائلاً: «للشيف الذي يطهي طعاماً لذيذاً يقال 'الشكر لقيادة الرئيس ماو'. لا تحسب نفسك آلهاً حكيماً».

زوجة داي هويانغ طلّقته، وأقاربه عانوا من الفصل العنصري. كما مُنع ابن أخ أحد الأساتذة من الحصول على المال لعملية تنقذ حياته بسبب صلة قرابته للعائلة. وداي نفسه

عاش في بؤس البرية الشمالية التي لا يعود منها كثيرون.

بعد وضع حد للانشقاق بين المثقفين عامة، بدءاً بعام 1958، وفور عودته من قمة موسكو، تحرّك ماو في اتجاه نشر الخوف في صفوف كبار رتبائه من خلال التهديد بتصنيفهم «كيمينيين» إذا عارضوا إعادة إطلاق برنامج القوة العظمى. وركّز اهتمامه الأساسي على الرجلين الثاني والثالث، ليو شاو-كي وتشو إن-لاي الذين كانا بطلي التخفيض في برنامج العام 1956.

والخطة التي اختارها ماو هذه المرة جديدة - إنزال رتبة كبار معاونيه أمام عشرات من رؤساء المقاطعات. إنها المرة الأولى التي يُقحِم فيها ماو هؤلاء الضباط من الرتبة الثانية في التهجّم المباشر على كبار معاونيه وعلى من يتقدمون عليهم في المناصب. إنها وسيلة لإهانة تشو وليو في وقت واحد والضغط عليهما، خاصة عندما أطلق ماو شخصياً هجومه اللاذع على معاونَيه أمام أتباعهما. إن إحضار رؤساء المقاطعة ليشهدوا على عمل السلطة إزاء المراتب العليا -وإهانة الرجلين الثاني والثالث في النظام- كان أيضاً وسيلة لجأ اليها ماو لتفويض الرجال المسؤولين عن مراقبة عمليات جمع الطعام حالياً.

وقد ركز على تشو المسؤول عن تخطيط وإدارة البرنامج. وصف ماو تشو على أنه «بعيد مسافة 50 م فقط على كونه يمينياً»؛ وقال ماو إن محاولات تشو كبح الاستثمار في مصانع الأسلحة عام 1956، هي بأهمية الثورة الهنغارية و«أثّرت كثيراً على اليمينيين». كانت هذه أعباءاً مشؤومة تحمل في ذاتها العواقب المباشرة. ولتصبح الأمور أكثر تهديداً، أزاح ماو تشو كوزير للخارجية في شباط 1958 وشجع الديبلوماسيين الكبار المقربين من تشو على التهجم عليه.

لم يعد الضغط يُحتمل حول ماو، حتى على المستويات المرهقة عادة للأعصاب في نظامه. فقد قضى أحد الوزراء الذي كان على خط النار، بسبب انهيار في الأعصاب. عندما ذهب طبيب ماو ليكشف على الوزير رآه ممدداً في السرير، «يتمتم مراراً وتكراراً: «أعفوني! أرجوكم أعفوني!» نقل الوزير الى مستشفى في كانتون. في الطائرة، نزف فجأة من ركبتيه ورمى برأسه على الأرض متوسلاً: «أرجوكم أعفوني...» ومات في كانتون خلال أسابيع عن عمر يناهز الـ 46 سنة+.

+ الوزير هو هوانغ جينغ وكان الزوج الثاني للسيدة ماو. تزوجا حين كان هو شاباً انيقاً وتلميذاً راديكالياً في العشرين من عمره، وكانت هي في الثامنة عشرة وتعمل في المكتبة في العام 1932 ودخلت الحزب الشيوعي مباشرة. وبعد زواجها من ماو كانت تدعو زوجها السابق للمحادثة والحوار وكان يفشلها في كل مرة. وهذه المرة لم يكن الضغط عليه شخصياً من قبل ماو لأن ماو لم يكن غيوراً. والواقع ان ماو في العام 1945 في تشونغكينغ اصر على دعوة تانغ ين احد ازواج زوجته السابقين ولدى استقباله غمزه وربت على كتفيه. وكان تانغ حاول مرة الانتحار لاجل من ستصبح السيدة ماو فيالمستقبل. فيما بعد استقر تانغ في باريس بعد سيطرة ماو على السلطة وبقي هناك حتى وفاته.

وبما أن عملية الإهانة والإذلال في أوجها، أمر ماو تشو أن يقوم بانتقاد ذاتي مفاده أنه كان شبه يميني، وذلك أمام 1360 موفداً الى مؤتمر خاص للحزب في أيار 1958. إعتذر تشو عن جهوده السابقة الآيلة الى إعاقة وصول ماو الى مستوى «التصنيع» الذي أراده، والذي لم تُكشَف طبيعته العسكرية حتى في الاجتماعات على المستويات العالية، ولا انعكاساته المأساوية. هذه الإدانة الذاتية ألحقت بتشو كثيراً من الألم؛ وقد استغرقت كتابة خطابه عشرة أيام. فرئيس الوزراء الأنيق عادة أنهى أيامه الأخيرة محتجزاً في غرفته، بدون حلاقة ومهمَل، وحتى بدون أن يرتدي ملابسه. وذكر السكرتير الذي كان يكتب ما يمليه تشو، أنه تكلم ببطء شديد،

> وكان غير قادر أحياناً على قول كلمة واحدة مدة خمس أو ست دقائق...فاقترحت أن أغادر مكتبه وأدعه يصيغ بهدوء...كان منتصف الليل، وعدت الى غرفتي واستلقيت في فراشي مرتدياً ثيابي، في انتظار استدعائي.
>
> حوالى الساعة الثانية فجراً دعتني [السيدة تشو] للإجتماع بها. قالت: «إن-لاي جالس في المكتب يحدق بدون أي تعبير. كيف ذهبت الى الفراش؟...» فتبعتها الى مكتبه، حيث تناقشت مع الرفيق تشو إن-لاي مدة طويلة...

ثم أملى تشو، وهو يكاد يبكي. لقد اختار تشو زوجته ليس بدافع الحب، بل بدافع الإخلاص المتبادل للقضية الشيوعية، وكانت تحيا تماماً بهذه المواصفات.

حرر تشو خطابه حسب الأصول، توافقاً مع ما يرضي ماو. وكان الجو في المؤتمر مخيفاً أكثر من العادة، كما عكسته لهجة الصحف التي قالت إن الاجتماع «أدان اليمينيين الذين تسللوا الى داخل الحزب» - بالتعابير الشيوعية، وعلى بعد خطوة واحدة من الحكم على هؤلاء الناس لكونهم عملاء أعداء. وتحت إدارة ماو، أعلنت مجموعة من المقاطعات كيف رفعت التغطية عن اليمينيين الموزعين بين رؤساء مقاطعاتهم أنفسهم. وقد أدين رئيس مقاطعة هونان وأزيح لأنه قال إن الفلاحين لا يستطيعون تحمّل هذا القدر من التسليم للدولة لأنهم «يجوعون». وقال إن هونان عانت «من الفيضانات المستمرة والجفاف وغيرها من الكوارث الطبيعية»، وكان على ساكنيها «أن يحفروا الأرض بسبب موت العديد من الحيوانات نتيجة نقص الطعام».

كما خضع ليو شاو-كي بدوره لهجوم مرير من تابع ماو في المؤتمر، بسبب دوره في غلال عام 1956. ففعل مثل تشو، إذ استسلم أيضاً بشكل بغيض، شأنه في ذلك شأن كل من كان له دور إداري في برنامج القوة العظمى الذي وضعه ماو. وتظهر ملاحظات ماو أنه كان مستعداً أن يعاقب أيّ شخص يرفض الالتزام الشديد بسياسته، وكأنه ارتكب خيانة («استخدام وسائل غير شرعية...للقيام بنشاطات معارضة»). في النهاية، لم يكن بحاجة الى التمادي الى هذا الحد إذا أتى الجميع اليه.

بقي ليو الرجل الثاني فيما أحس تشو أنه يُهاجم بشكل عنيف لدرجة سؤاله ماو «إن كان مناسباً له أن يستمر في كونه رئيساً للوزراء». فطُلب منه الاستمرار، وبقي القائم الأعلى بالأعمال الخارجية، وإن لم يعاد تنصيبه كوزير للخارجية. كان ماو مدركاً تماماً أن لا أحد غيره يستطيع أن يعطي هذه الصورة المثيرة لنظامه. فالرجل الذي حل محل تشو كوزير للخارجية، تشين يي، لاحظ بكآبة أنه وجد نفسه مجرد «مضيف معظّم».

قام ماو بأهم تبديل في المؤتمر. فقد روّج ليصبح صديقه الحميم لين بياو أحد الرؤساء المساعدين في الحزب (الى جانب ليو وتشو وزو دي وتشين يان). كسب ماو بذلك حليفاً يحتاج اليه من الداخل، ويتمتع أيضاً برتبة عالية في الجيش: مارشال. فأدخلت المراتب العسكرية الرسمية في عام 1955 عندما أصبح لين وتسعة جنرالات آخرين، مارشالات.

تزامناً مع هذه الخطوات، كثّف ماو عبادته لذاته التي بدأ الترويج لها منذ عهد إرهاب ينان عام 1942 - 3. في آذار 1958، قال لكبار رتبائه (من معاونين ورؤساء مقاطعات ووزراء): «لا بد من وجود عبادة للذات. إنه أمر ضروري جداً». وقد سارع تابعه الى إعلان «إيمانه الأعمى» بماو، تماماً كما دعم سيد شانغهاي كي غريزة الجماهير المؤيدة: «يجب أن نتبع الرئيس كمؤيدين عميان».

ولإذكاء هذه العبادة قام ماو بالخطوة غير المألوفة أبداً، وهي زيارة أماكن كالمصانع والتعاونيات الزراعية، ولاقت هذه الزيارات ترحيباً جماهيرياً كبيراً. وكان يتم تصوير ماو لجريدة السينما التي تُعرض في كل أنحاء الأمة، وتوضع رسمته في لوحة عنونت بشكل مناسب الرئيس ماو يسير في كل أنحاء الصين، والتي أصبحت رسمة توضع في المنازل. بعد أن زار ماو قرية خارج شينغدو في سيشوان، جرت تغطية إعلامية كبيرة لحادثة قيام القرويين المتحمسين بتغيير اسم القرية الى «سعادة متعاونة». عندما رفع ماو كمية من التراب في مجرفة ووضعها على قبر مينغ في ضواحي بكين، كتبت صحيفة بيبولز دايلي: «ما إن أعاد ماو المجرفة الى مكانها حتى أقدم أحد الجنود ويدعى يو بينغ-سين على لف المجرفة بثيابه. وقال بصوت متأثر: «كلما نظرنا الى هذه المجرفة، سنفكر بالرئيس ماو فنشعر بطاقة متزايدة». كما بكى أحد المزارعين وقال للمقرر...»(*). هذه الابتهاجات التي أظهرها ماو أمام الصحافة كانت بمثابة تزويد للقوة للشعب بأسره، الأميين والمتعلمين على حد سواء، وفي دورات دراسة الصحف التي كانت عنصراً دائماً في الحياة في عهد ماو.

في 13 آب، وللمرة الوحيدة خلال فترة حكمه الذي دام 27 عاماً، تناول ماو الطعام في

(*) قلّبَ ماو تربة قبر مينغ لدقائق قليلة وكان ذلك الجهد الجسدي الوحيد الذي بذله في فترة حكمه. مع انه فرض العمل المضني الاكراهي تقريباً على كل فرد في الصين، بما فيهم الاطفال. وكل ذلك لأجل مساعدتهم لبلوغ النقاء الايديولوجي.

أحد المطاعم في تيانجين. فرآه الجميع، كما أراد بدون شك، ليس فقط لدى خروجه من السيارة أمام المطعم، لكنه ظهر أيضاً أمام النافذة في الطابق الأعلى. فبدأ الناس يصرخون: «أيها الرئيس ماو! أيها الرئيس ماو!» إنتشر الخبر فوراً، وسرعان ما بلغت الحشود الهستيرية عشرات الآلاف من المحيطين بالمطعم في مجمعاته العديدة، وكانوا يقفزون ويصيحون «العمر الطويل للرئيس ماو!» لكن سكرتير ماو قلق على الوضع الأمني واقترح أن يغادر ماو فيما يقوم أحد المرافقين تكون له بنية ماو، بسحب الحشود الى الخلف. لكن ماو رفض ذلك؛ فقد أتى الى هذا المكان ليراه الناس ولم يكن تحت أي خطر، لأنها زيارة مفاجئة وكان بعيداً عن الحشود مسافة كافية، وفي جميع الأحوال ليس ممكناً أن يكون بحوزة أحد أي سلاح (لأن أول ما قام به نظامه هو مصادرة الأسلحة.) وإن الناس المحيطين بالمطعم قد تم اختيارهم على الأرجح، كما يحصل في أماكن أخرى عندما يظهر ماو. لوح ماو بيده للمحتشدين الذين ردوا بمزيد من الصراخ والبكاء. كل ذلك نقلته الصحف بدقة فائقة.

عندما غادر ماو فعلياً، بعد ساعات طويلة، وصف رحلته أمام المقربين بلغة شبه إلهية: «لوحت مرة واحدة بيدي فتراجعت الحشود». فقد استمتع كثيراً بكيفية ازدهار عبادته لذاته وقال أمام «شلته» أنه «كان شديد التأثر». إن سنوات من التغذية لعبادته لذاته منحته قوة مرعبة.

40- القفزة الكبرى:
«قد يكون على نصف الصين أن تموت»
(1958-1961؛ العمر 64-67 سنة)

بعد أن غذّى ماو وروى شعبه من عجبه بذاته، وأخضع معاونيه لسيطرته، وسكتت أصوات الإنشقاق المحتملة من خلال الحملة «المناهضة لليمينية»، سار بخطى كبيرة نحو تسريع برنامج القوة العظمى، رغم استمراره في إخفاء طبيعته العسكرية. إن الفترة الزمنية الأصلية التي حددها عام 1953 لإنجاز «التصنيع» بين «عشر وخمس عشرة سنة»، قُصّرت الآن الى ثماني أو سبع أو حتى خمس - وربما ثلاث - سنوات. فقد أُعلِم ماو أن ما سيحصل عليه من روسيا سيمكّنه ربما من اقتحام حلقة القوة العظمى في خلال خمس سنوات. وظنّ أنه يستطيع تلبية طموحاته في «ضربة عنيفة» واحدة، وأعلن أن «أمّتنا كالذرة». أطلق على العملية إسم «القفزة الكبرى للأمام» وبدأها في شهر أيار عام 1958.

وفي حين قيل للأمة، بغموض، إن الهدف من قيام الصين بهذه القفزة هو «السيطرة على كل البلدان الرأسمالية في وقت قصير وعادل، لتصبح إحدى أغنى بلدان العالم وأكثرها تقدماً وقوة»، أفصح ماو أمام مجموعات صغيرة، وبشكل سري جداً، عما ينوي فعلاً القيام به فور إنجاز القفزة. ففي 28 حزيران، قال لنخبة من فرق الجيش: «ليس المحيط الهادىء آمناً الآن. ولن يكون آمناً إلا عندما نسيطر عليه». عند هذا الحد، صرخ لين بياو: «يجب أن نبني سفناً ضخمة، ونستعد للنزول [عسكرياً] في اليابان، والفيليبين وسان فرنسيسكو». أردف ماو قائلاً: «كم سنة ستمر قبل أن نستطيع بناء هذه السفن؟ في عام 1962، عندما نحظى بـ xx-xx طن من الصلب [حُجبت الأرقام في النص الأصلي]...».

في 19 آب، قال ماو أمام بعض رؤساء المقاطعات المختارين: «في المستقبل، سننشىء لجنة مراقبة الأرض، ونضع خطة موحدة للأرض». سيطر ماو على الصين وينوي السيطرة على العالم.

بالنسبة الى الشعب الصيني، القفزة الكبرى هي في الواقع وثبة ضخمة - ولكن بمقدار الطعام المُنتزع. ولم يُحتسب ذلك على أساس ما يمكن أن يتحمله الفلاحون، بل ما يحتاج اليه

برنامج ماو. بدأ ماو بمجرد التأكيد على حصول ارتفاع كبير في الحصاد، وطلب من رؤساء المقاطعات أن يعلنوا أن مناطقهم ستُنتج محصولاً هائلاً. عندما بدأ موسم الحصاد، أرسل الرؤساء بعض المتزلفين الى الأرياف ليعلنوا أن مناطقهم قد أنتجت في الواقع محصولاً رائعاً. ثم قامت آلة ماو الدعائية بنشر هذه الإدعاءات وسط صخب كبير. وأطلق على المحاصيل الستراتوسفرية وغيرها من الإدعاءات المرتفعة جداً، إسم «سبوتنيك» لتعكس هوس ماو بالقمر الصناعي الروسي. في 12 حزيران نقلت صحيفة بيبولز دايلي أنه في هونان، المقاطعة النموذجية الأولى بالنسبة الى ماو، أنتجت «تعاونية سبوتنيك» 1.8 طن من القمح في سدس أكر (mu) – أي أكثر من عشرة أضعاف المعيار العادي. إن الإدعاءات في هذا المجال لم تكن نتيجة الجرأة العفوية للكوادر المحلية والفلاحين، كما أرادنا أحد المؤرخين الصينيين الرسميين أن نعتقد. فالصحافة كانت صوت ماو وليس صوت الشعب.

تكاثرت «حقول سبوتنيك» بسرعة، وهي ناتجة عن زرع محاصيل يانعة مأخوذة من عدد من الحقول، في قطعة أرض صغيرة ...وكانت هذه حقولاً ماوية في مقابل حقول بوتمكن Potemkin – مع الاختلاف الأساسي بأن المقصود من أراضي ماو ليس خداع الحاكم، بل على العكس كانت من إنتاج الحاكم ليراها أتباعه البعيدون وكوادر القاعدة في المزارع الجماعية الأخرى. هذه الكوادر كانت الأهم بالنسبة الى ماو لكون الناس مسؤولين شخصياً عن تسليم المحاصيل الى الدولة. أرادهم ماو أن يروا حقول سبوتنيك هذه ثم يعودوا وينشروا ادعاءات مماثلة فتقول الدولة: بما أنكم أنتجتم أكثر، يمكننا أن نأخذ أكثر. أما الكوادر الذين رفضوا القيام بذلك فأدينوا واستبدلوا بمن يفعل. كما ملأت الصحف تمثيليات تحذيرية حول وجود محاصيل غالية جداً، في حين أوقفت بكين بهدوء مسرحية النقل والتجميع لأنها تسبب خسائر كبيرة.

في نهاية شهر تموز، نشرت صحيفة بيبولز دايلي «يمكننا إنتاج الكمية التي نريدها من الطعام»، ومهّدت بذلك الطريق لماو ليؤكد علناً في 4 آب: «يجب أن نفكّر بما نفعله بكل هذا الطعام الفائض». ماو نفسه لم يكن يتوقع إمكانية حصول هذا الفائض من الطعام. فقبل حوالى ستة أشهر، في 28 كانون الثاني ، أعلم المجلس الأعلى بوجود نقص في الطعام وسأل: «ماذا سنفعل والطعام ليس كافياً؟ ثم أعطى الحل: «ليس أسوأ من تخفيف الأكل... النمط الشرقي...إنه جيد للصحة. فطعام الغربيين دسم جداً؛ فكلما اتجه المرء غرباً، ازداد الدسم الذي يتناوله. أقول إن آكلي اللحوم الغربيين تافهون. فحسن برأيي تخفيف كمية الأكل. ما الفائدة من الإكثار في الطعام والحصول على معدة كبيرة كالرأسماليين الأجانب في أفلام الكرتون؟» هذه الملاحظات الوهمية يجب أن تنطبق على ماو أيضاً المتكرّش، ولكن لا علاقة

لها بالفلاحين الجائعين. في شهر كانون الثاني قال ماو: لا يوجد كمية كافية من الطعام ولكن يمكن أن يخفف الناس كمية الأكل. بعد ستة أشهر، قال: «يوجد الكثير من الطعام. تتناقض هاتان الملاحظتان وهدفهما واحد: انتزاع مزيد من الطعام من الفلاحين.

في شهر أيلول، نقلت صحيفة بيبولز دايلي أن «أكبر حبة أرز سبوتنيك» أنتجت أكثر من 70 طن في مساحة تقل عن 5/ 1 في الأكر الواحد، أي 100 ضعف الكمية العادية. حقول السبوتنيك هذه قلّدها مسؤول طموح جديد في إقليم غوانكسي. في نهاية السنة، أعلن إقليمه عن وجود حبة تعطي محصولاً يتعدى ثلاثة أضعاف الرقم الفعلي. ثم طلبت الدولة طلباً مستحيلاً: أن تحصل على 4.8 أضعاف ما حصلت عليه السنة السابقة.

غالباً ما كان يلجأ كوادر القاعدة الى العنف الشديد، وإذا اعتبروا غير فعّالين، تُرسَل الشرطة المسلحة. في 19 آب 1958، أصدر ماو تعليماته الى رؤساء المقاطعات عندما تأمرون بالتخلي عن أمور محددة ولا ينفّذ ذلك، أعيدوا إصدار أوامركم بالقوة». تحت ضغط كهذا، عصف عنف الدولة في كل انحاء البلد.

ومن باب «التبرير»، كرر ماو اتهامه الفلاحين وكوادر القرى بتخبئة الحبوب. وفي إحدى المناسبات، في 27 شباط 1959، أخبر كبار رتبائه: «كل فرق الإنتاج تخبىء طعامها تتقاسمه في ما بينها. كما أنها تخفيه داخل غرف سرية عميقة وتضع الحراس والخفراء...» في اليوم التالي، أكد مجدداً أن الفلاحين كانوا «يأكلون أوراق الجزر خلال النهار والأرز خلال الليل...».

وعنى بذلك أن الفلاحين كانوا يدعون نفاذ الطعام الجيد لكنهم في الحقيقة يملكون الطعام الجيد الذي يستهلكونه سراً. وكشف ماو عن احتقاره للفلاحين أمام مجموعة من المقربين: «الفلاحون يخبأون الطعام... وهم سيئون جداً. لا يوجد في داخلهم أي روح شيوعية! الفلاحون هم في النهاية فلاحين، وهذه هي طريقة تصرفهم الوحيدة...».

أدرك ماو تماماً أن الفلاحين لا يملكون طعاماً ليخبأونه. وكان جهاز الاستخبارات لديه فعالاً جداً فبقي على إطلاع كامل بما يحصل في البلد يومياً. ففي مجموعة من التقارير التي استلمها في شهر نيسان 1959، لاحظ أن نصف البلد يعاني من جوع مدقع: «مشكلة كبيرة: 15 مقاطعة - 25.17 مليون شخص بدون طعام يأكلوه»؛ فكان رده أن يطلب من المقاطعات أن «يعالجوا هذا الوضع»، لكنه لم يقل كيف. وفي تقرير ورد الى مكتبه من مقاطعة ينان بتاريخ 18 تشرين الثاني 1958، كان وصف لموجة الموت بسبب الأوديما الناتجة عن سوء تغذية حاد. وهذه المرة أيضاً كان رد ماو بتحويل مسؤولية الى شخص آخر: «هذا الخطأ يقع أساساً على عاتق كوادر الأقاليم». وكان ماو يدرك أن الناس في أماكن عديدة أضطروا الى أكل قطع من التراب. وفي بعض الحالات، مات سكان قرى بكاملها نتيجة لذلك، بسبب انسداد في الأمعاء.

إن هذا الضغط على صعيد الأمة مكّن ماو من تصدير 4.74 مليون طن من الحبوب، أي ما يساوي قيمة 935 مليون دولار أميركي في عام 1959. كما ارتفع تصدير الأطعمة الأخرى وبخاصة لحم الخنزير.

وصلت الى خروتشيف أنباء الادعاء بأن الصين «تملك الكثير من الطعام». فعندما أتى الى بكين في صيف عام 1958، ضغط عليه ماو ليساعده في صناعة غواصات نووية، ستكون باهظة الثمن. فسأل خروتشيف كيف ستدفع الصين، ورد ماو بأن الصين تملك مخزوناً غير محدود من الطعام.

وكان الطعام يستخدَم أيضاً كمادة أولية في البرنامج النووي الذي يتطلب وجود نوعية ممتازة من الفيول. وتحوّل القمح الى أنقى نوع من الكحول. في 8 أيلول، وبعد الادعاء بوجود كميات احتياطية من الحبوب، قال ماو أمام المجلس الأعلى «يجب أن نجد أسواقاً لتصريف الحبوب في الصناعات كإنتاج الكحول الاثيلي مثلاً للفيول». لكن الحبوب كانت تستخدم لاختبارات الصواريخ إذ يستهلك كل واحد منها 10 مليون كغ من الحبوب، وهي كمية كافية ليُستنفد جذرياً مسرب الطعام الذي يؤمنه 1 الى 2 مليون شخص طوال سنة كاملة.

بات على الفلاحين الآن أن يعملوا بكد أكبر وساعات أطول من السابق. وإذ أراد ماو أن يزيد المحصول بدون إنفاق أي مال، لجأ الى وسائل تعتمد على اليد العاملة لا الاستثمار. لهذا السبب أمر بأن تقوم آليات ضخمة ببناء أجهزة الري - السدود، الخزانات، القنوات. وخلال السنوات الأربع بدءاً من عام 1958، أُقحِم حوالى 100 مليون فلاح في مشاريع مماثلة، فقاموا بتحريك كميات من الأراضي وورش البناء تعادل شق 950 قناة سويس، ولم يستخدموا سوى المطارق والمعاول والرفوش، وأحياناً حتى الأبواب وألواح الأسرّة التي يحملونها من بيوتهم لصنع عربات صغيرة مؤقتة. كانت أعمال الفلاحين شاقة في هذه المشاريع وكان عليهم في أغلب الأحيان ألا يجلبوا فقط طعامهم الخاص بل أيضاً معدّاتهم الخاصة، وفي أوقات عديدة موادهم الخاصة لصنع السواتر.

وفي غياب التدابير الحمائية والعناية الطبية، تعددت الحوادث، وكذلك الموت، وكان ماو يعرف ذلك جيداً؛ فكل أحاديثه مع رؤوساء المقاطعات حول محطات المياه هذه، سادها دائماً ذكر مستمر لضرائب الموت. وفي نيسان 1958، لاحظ أن هونان (نموذجه) وعدت بتحريك 30 بليون م3 في الشتاء المقبل، «أعتقد أن 30 ألف شخص سيموتون. وحُكي في أنهوي، وهي أيضاً من المقاطعات المحببة لماو، عن «20 بليون م3 وأعتقد أن 20 ألف شخص سيموتون...» وعندما انتفض كبار الضباط في مقاطعة غانسو ضد «تدمير الحياة البشرية» بهذه المشاريع،

أدانهم ماو وعاقبهم على أنهم «عصابات يمينية مناهضة للحزب».

أراد ماو الحصول على نتائج فورية، فنشر مقولة نموذجية: «المسح، التصميم والتنفيذ تباعاً» وعرفت بـ«المتعاقبات الثلاث». لكن المسح الجيولوجي كان خفيفاً أو غير موجود، فسرعان ما أضيفت متعاقبة رابعة هي المراجعة.

من بين المشاريع المعروفة قناة يبلغ طولها 1400 كلم تمر عبر سهل الأرض الصفراء الجاف والطاعوني في الشمال الغربي. وكانت تجتاز بالضرورة 800 جبل وهضبة، وكان على العمال الـ170 ألف أن يحفروا كهوفاً ليناموا فيها وأن يبحثوا عن أعشاب يضيفوها الى طعامهم الهزيل. وبعد مرور أشهر على المشروع، توقف العمل بالأنفاق التي بدأوا حفرها يدوياً للعمل في مجارير المياه. وبعد أشهر إضافية، توقف العمل بهذا المشروع أيضاً وأعيد بعض الأنفاق الى وضعه السابق. استمر المشروع بهذه الطريقة مدة ثلاث سنوات، مات خلالها 2000 عامل على الأقل ثم تم التخلي عنه. واستناداً الى الحساب الرسمي، فإن قطعة أرض واحدة فقط استفادت منه.

تحول معظم المشاريع الى خسارة مذهلة إذ كان العمل يتوقف في معظمها في منتصف الطريق: فمن بين 500 خزان ضخم (سعته 100 مليون م3 أو أكثر) وتوقف العمل في 200 منها في نهاية عام 1959 وانهار الكثير منها أيضاً خلال فترة حكم ماو. وإن أكبر كارثة سدود في تاريخ البشرية حصلت عام 1975 في مقاطعة ماو النموذجية هونان، عندما تحطمت الخزانات المبنية خلال «القفزة»، بسبب عاصفة قوية ما أدى الى غرق حوالى 230 الى 240 ألف شخص (الإحصاء الرسمي للضحايا: 85.600 شخص). واستمرت حماقات أخرى في عهد ماو، تقتل الناس حتى فترة طويلة بعد موته، كما في عام 1999 عندما اعتُبر ما لا يقل عن 33 ألف شخص أنهم في دوامة الخطر على الحياة البشرية. وقد أدت السدود الى اقتلاع ملايين من الناس من منازلهم؛ وبعد أكثر من عقدين مازال 10.2 مليون من الناس في عداد «المهجرين الاحتياطيين».

إضافة الى ذلك، دفع ماو الفلاحين الى تطبيق خطط عديدة أخرى غير مدروسة تماماً، كإرغامهم على حفر الأرض بأيديهم حتى عمق نصف متر وقال آمراً: «استخدموا تكتيك الموج البشري وقلبّوا كل حقل رأساً على عقب. ومن هذه الخطط أيضاً زرع الشتول قريبة جداً من بعضها؛ والزرع القريب بحاجة الى سماد لكن ماو رفض الاستشارات الأساسية، وفي أواخر عام 1958 أمر فعلياً: «خففوا استيراد السماد الكيماوي». وفي مناسبة أخرى قال: «حولوا الصين الى بلد الخنازير...فيكثر السماد...ويفيض اللحم فيمكن تصديره في مقابل الحديد والصلب». لكنه لم يقل من أين سيؤتى بالطعام لهذه الخنازير. في الواقع، وتحت إشراف

ماو، بلغ عدد الخنازير باقل بـ 48% عنه بين عامي 1957 و1961.

وعبر العصور، لجأ الفلاحون الى عبقريتهم لإيجاد أية مادة يمكن استخدامها كسماد. في المناطق المدينية، كل مساحة تطمر فيها القمامة البشرية، كانت مخصصة لقرية معينة، وكان الفلاحون يأتون قبل بزوغ الفجر ليجمعوا هذه القمامة في براميل مستطيلة خاصة بهم تُحمّل في عربات صغيرة؛ وقد شكل ذلك سمة في حياتهم. وكانت القمامة البشرية ثمينة جداً الى حد أن معارك كثيرة نشبت بين الناس من قرى مختلفة على خلفية انتهاك حرمة أراضيهم باستخدام المغارف ذات المسكة الطويلة. وإذ يئس الناس من إيجاد مصادر جديدة للسماد، مزجوا السماد البشري والحيواني مع الأسقف المصنوعة من القش والجدران الرملية للمنازل القديمة، والتي تسرب اليها الدخان والدهون. وقد هدم العديد من منازل الفلاحين لتغذية حُفَر القمامة المعروفة «ببحيرات الأوساخ وبحار التبويل».

وفي أحد الأيام فكر ماو بأن الطريقة الجيدة لحفظ الطعام آمناً، هي التخلص من العصافير الدورية لأنها تأكل الحبوب. واعتبر أن العصافير الدورية هي من بين «الحيوانات الأليفة الأربعة» التي يجب التخلص منها، الى جانب الجرذان والبعوض والذباب؛ فحرّك الشعب بأسره للتلويح بالعصي والمكانس، وإحداث ضجة كبيرة لإرعاب العصافير الدورية أثناء هبوطها فتسقط من التعب فتلتقَطها الحشود وتقتلها. ويقال الكثير عن إبادة الأنواع الثلاثة الأخرى التي كانت حيوانات أليفة حقيقية، رغم الوجه السلبي الوحيد وهو غياب خصوصية الناس أثناء قيامهم بوظائفهم الجسدية، إذ كان الملتقطون يحتشدون أمام الحمامات العامة عندما يكثر الذباب. لكن التخلص من العصافير الدورية لم يكن سهلاً الى هذا الحد لأن هذه العصافير تتخلص من حيوانات أليفة متعددة، الى جانب أكل الحبوب - وغني عن القول إن عدداً كبيراً من العصافير الأخرى تموت في خضم موجة القتل. عندما تقضي العصافير الدورية على الحيوانات الأليفة، تنمو عصافير أخرى وتكون النتائج مأساوية. وقد تم تجاهل الذرائع التي قدمها العلماء حول إفساد التوازن الإيكولوجي.

ولم يمر وقت طويل حتى تقدّمت الحكومة الصينية بطلب «سري جداً» الى السفارة السوفياتية في بكين. وفي نص الطلب قيل إنه باسم العالمية الاشتراكية، نرجو أن ترسلوا لنا 200 ألف عصفور دوري من الشرق الأقصى السوفياتي في أسرع وقت ممكن. وكان على ماو أن يتقبل أن مسيرته المناهضة للعصافير الدورية هي مضادة للإنتاج، وقد تلاشت تدريجياً(*).

(*) كان الكوري الشمالي كيم إيل سونغ أقل غباءاً من ماو في هذه المسألة. فقد ضغط عليه ماو لينافس الحملة الصينية المناهضة للعصافير الدورية. ولمسايرة ماو، وضع كيم «خطة على ثلاث سنوات لمعاقبة العصافير الدورية» لكنه لم يقم بشيء بعد ذلك ليرى كيف سارت حملة ماو.

إن حملة «الحيوانات الأليفة الأربعة» كانت بديلاً للخدمة الصحية، لجأ اليه ماو، لأنها تتطلب عملاً مكثفاً واستثماراً مجانياً. أراد ماو أن يتخلص من الكلاب التي تستهلك الطعام، لكنه لانَ عندما حُذّر من أن الفلاحين يحتاجون اليهم لحماية منازلهم فيما هم خارجاً للعمل.

والأمر الفاشل الآخر الذي أضنى قوى الفلاحين وجلب الكوارث، هو الأمر الذي أصدره ماو بأن على الأمة بكاملها أن «تصنّع الصلب». وكان برنامج القوة العظمى بحاجة الى كثير من الصلب - وكان الصلب كذلك المقياس الذي يعتمده ماو لمعرفة وضع برنامج القوة العظمى. وعندما تباهى أمام القادة الشيوعيين في موسكو عام 1957 بأن الصين «ستتفوق على بريطانيا خلال 15 سنة» (ثم قصّر المدة الى ثلاث سنوات)، وعندما أخبر الصينيين أنه واثق تماماً بأن الصين تستطيع «التفوق على أميركا» خلال 10 سنوات، بلغ محصول الصلب الكمية التي كان يفكر بها. وقد رسم ماو لعام 1958 قيمة 10.7 مليون طن. إن طريقة تحقيق ذلك تظهر مقاربته المناورة جداً إزاء علم الاقتصاد. وعندما كان جالساً قرب بركة سباحته في زونغنانهاي في 19 حزيران، قال لوزير الطاقة المعدنية: «في السنة الماضية، بلغ محصول الصلب 5.3مليون طن. هل يمكنك مضاعفة القيمة هذه السنة؟» قال رجل-النعم: «حسن»، وهكذا كان.

أصدرت الأوامر الى معامل الصلب والمصانع المرتبطة بها كمناجم الفحم، بالتسريع فوراً في الإنتاج. فالقواعد والفطرة السليمة وضعت جميعها جانباً؛ وأُجهِد عمل التجهيزات الى حد تحطمها، كما قُتل أكثر من 30 ألف عامل، فقط في حوادث خطرة خلال بضعة أشهر. أما الخبراء الذين حاولوا التحدث بتعقّل فتعرضوا للإضطهاد. وشدد ماو على نبذ التعقل بقوله إن معرفة «الأساتذة البورجوازيين» يجب أن تعامل كالكلاب الأليفة، لا قيمة لها، ولا تستحق سوى الازدراء والسخرية والاحتقار...»

ورغم هذه الدعوة الفورية الى الإسراع، لم تتمكن معامل الصلب الموجودة من تحقيق هدف ماو. وكان رده بأن أمر عامة الشعب ببناء «أفران في الحديقة الخلفية». «فأُرغم» 90 مليون شخص على الأقل - كما قال ماو، من باب الأمر الواقع- على بناء هذه الأفران التي لم يسمها خروتشيف بظلم أفران «السماور»، والتي لم تكن تنتج الصلب أبداً بل بالأحرى تماسيح الصلب، في حال أنتجت.

ولتغذية هذه الأفران، أُجبر الشعب فعلياً على تقديم كل قطعة معدن لديه، بغض النظر عن استخدامها لأغراض إنتاجية أو حتى أساسية. فمعدات المزارع وحتى قاطرات المياه نقلت بعربات وصُهرت، شأنها شأن أواني الطبخ وقبضات الأبواب الحديدية ودبابيس شعر النساء.

وكان شعار النظام: «إن الإمساك بمعول واحد هو بمثابة مسح إمبريالي واحد، وإخفاء مسمار واحد هو بمثابة إخفاء معادٍ واحد للثورة».

الى ذلك استمر هدم مزيد من بيوت الفلاحين في كل الصين، وأصبح أصحابها بدون مأوى فحُرق الخشب والقش لتحويلهما الى وقود. معظم الجبال ومنحدرات التلال التي يمكن بلوغها جُرّدت من الأشجار؛ ونتيجة لعملية إزالة الأحراج، استمر حصول الفيضانات طوال العقود اللاحقة.

تستدعي الأفران انتباهاً مستمراً واستهلاك أوقات عمل طويلة. لذلك أُبعِد 10 ملايين فلاح إضافة الى نسبة عالية من الحيوانات التي تجر الأثقال، عن الزراعة وتُركت النساء والأطفال فقط لجمع الغلال في أماكن عديدة. في نهاية السنة، احتسب 10 بلايين يوم عمل للزراعة أي حوالى ثلث الوقت الذي يحسب عادة لإنتاج الحبوب. ومع أن مجموع عام 1958 من محصول الغلال زاد قليلاً عما كان عليه في العام 1957، فإن قيمة المحصول الذي جُمع لم تنخفض.

ومع اقتراب الحد المقرر نهاية السنة – وهي المهلة القصوى المحددة لتحقيق هدفه بجمع محصول الصلب، كان ماو يستخدم أصابعه كلما رأى مدرائه، ليعد الأيام الباقية ويحثهم قائلاً: «يجب أن ننجح!» وفي 31 كانون الأول تم التوصل الى رقم الـ10.7 مليون طن، ولكن كما قال ماو لكبار رتبائه، «فإن 40% فقط من المحصول هو صلب جيد»؛ وأكثر من 3 مليون طن كانوا بدون فائدة. الصلب «الجيد» تم إنتاجه في معامل صلب مناسبة؛ الصلب السيء جمع من أفران الحديقة الخلفية، وسرعان ما تُرك معظمه. إن المجازفة بكاملها، التي شملت خسارة ضخمة للموارد واليد العاملة، أحدثت مزيداً من الخسائر: ففي مكان واحد، كان القادة المحليون يسطون على عمليات شحن المعادن الروسية العالية النوعية ويمزجونها ويدّعون وجود محصول متوفر جداً اسمه «سبوتنيك الحديد والصلب». ولم يكن ماو يوماً دقيقاً في تقييم نفسه كما بدا عند قوله: «لست جيداً في البناء لكنني عظيم جداً في التهديم».

أضاع ماو معظم التكنولوجيا والمعدات التي اشتراها من روسيا، الى جانب مهارات الأخصائيين المرافقين لها. وغالباً ما كانت الآلات تبدو غير فعالة بسبب نقص البنية التحتية الصناعية الضخمة التي تتطلبها. فالمعدات العاملة كانت تفرط في العمل حتى 24 ساعة يومياً في أكثر الأحيان، في حين أُهمِلت الصيانة أو غابت تماماً وكأن لا صلة لها بالموضوع. كما شجع ماو على تجاهل الأنظمة، وقال للصينيين الذين كانوا يعملون مع مستشارين روس، أن ليس عليهم أن يكونوا «عبيداً» للخبرة الروسية. إن المطالبة الروسية بوجود فطرة سليمة لم تلق آذاناً صاغية؛ وحتى المستشار القائد أرخيبوف المقرّب جداً من الصينيين فقد صُد أيضاً. في عام

1958، قال لنا: «طلبت من تشو وشين يون أن يحاولا إقناع ماو بالاحتفاظ بأفكاره لنفسه، لكن ماو لم يأبه... قالا لي: للأسف الشديد، لم يوافق ماو على الناحية السوفياتية». وفي حزيران 1959، قام النائب السوفياتي الأسبق ألكسندر زاسيادكو -الخبير في مطامر المعادن والقذائف، بزيارة الصين ونقل بعد ذلك لخروتشيف بأنهم «تركوا الأمر كله يتدهور».

مع نهاية عام 1958، بلغ عدد المشاريع الصناعية الضخمة المتمحورة حول الأسلحة والتي هي قيد البناء، رقماً مذهلاً 1.639 – ولكن لم ينجز سوى 28 منها وهي لا تنتج أي شيء مطلقاً. إلا أن مشاريع كثيرة لم تستكمل بسبب نقص المواد الأساسية كالصلب والإسمنت والفحم والكهرباء. والنظام نفسه أسماها «المشاريع العجوزة». وكان ماو الحاكم الوحيد في التاريخ الذي أنتج أحواض صدأ في بداية التصنيع بدلاً من آخره.

كل هذه الأمور كانت هدّامة لأحلام ماو الخاصة. فالسرعة الفائقة التي فرضها أعاقت النوعية وخلقت مشاكلاً بعيدة المدى كانت لتعيق إنتاج الأسلحة في عهده. وانتهى الأمر بالصين الى صناعة طائرات لا تحلق، ودبابات لا تسير في خط مستقيم (في إحدى المناسبات انحرفت دبابة وسقطت على مرأى من ضباط عاليي الشأن)، وسفن كانت مصدر خطر كبير للبحارة التي على متنها أكثر من أعداء الصين. وعندما قرر ماو إعطاء طائرة مروحية الى هو تشي مينه، خاف المصنّعون من سقوطها الى حد احتجازها عند الحدود.

شكلت سنوات «القفزة» الأربع خسارة ضخمة للموارد الطبيعية والجهود البشرية على حد سواء، وكانت فريدة في تاريخ العالم من حيث مقياسها. والفرق الكبير بين الأنظمة الفاشلة وغير الفعالة الأخرى ونظام ماو، هو أن غالبية الأنظمة النهبية سلبت شعبها بعد إنجازه عملاً قلّت ضخامته ونِظاميته نسبياً، لكن ماو أرهق الجميع بالعمل المضني، ثم أخذ كل شيء – ليبدده في النهاية.

كان ماو يطالب بوتيرة عمل متصاعدة، مستخدماً سبل «تضارب» مستمرة لجعل الناس يتنافسون في ما بينهم. فقد أُرغم الرجال والنساء والأطفال الجائعون والمرهقون على نقل كميات مضاعفة من التراب، وغالباً ما كان عليهم أن يركضوا حاملين أحمالاً ثقيلة، مهما كان حال الطقس، من الشمس المشرقة الى البرد القارس؛ كان عليهم أن يسرعوا مسافة كيلومترات طويلة عبر الطرق الجبلية حاملين الماء للحقول، من الفجر الى الغسق؛ وأن يبقوا مستيقظين طوال الليل لتبقى «أفران الحديقة الخلفية» تعمل. وأطلق ماو على طريقة العمل هذه «الروح الشيوعية». وفي إحدى تعبيراته المسرحية، في 6 تشرين الثاني 1958، أكّد أولاً أن الفلاحين يرفضون الاستراحة («حتى إذا أردتموهم أن يرتاحوا، فهم يرفضون»)، ثم أظهر كرماً ودهاءاً وحدد ماهية اليوم المثالي: «التغيير منذ الأول من كانون الثاني السنة المقبلة: ضمان 8 ساعات

نوم، 4 ساعات طعام واستراحة وساعتي دراسة [أي ترسيخ العقيدة]...10-2-4-8، و«10» تشير الى عدد ساعات العمل. وبالنبرة الكريمة نفسها، منح بضعة أيام عطل: مرتان في الشهر، وخمس مرات للنساء (من أصل المرات الثلاث التي صمم لها في الأساس).

في الواقع، هذه التنازلات البسيطة ناتجة في جزء منها عن تقارير حول أنتشار الأمراض، الأمر الذي حمله ماو على محمل الجد، أقلّه بسبب تأثيره على طاقة العمل. إن الرقم الأول الذي أقلق ماو فعلا كان وباء التيفيوئيد الذي انتشر قرب بكين. فدعا الى «تخفيف كبير للأمراض» «ليتمكن الناس من ممارسة عملهم يومياً».

في صيف 1958، وزع ماو جميع سكان الأرياف على وحدات جديدة وكبيرة دعاها «كومونات الشعب». وكان الهدف إحداث مزيد من الفعالية في مراقبة الأرقاء. وقال هو نفسه إن تجميع الفلاحين في عدد أقل من الوحدات - 26 ألف وما فوق في كل الصين - «يسهّل الرقابة». شُكّل الكومون الأول «تشاياشان سبوتنيك» في مقاطعته النموذجية هونان. ونصت شرعته التي وضعها ماو ووصفها «بالكنز الكبير»، على أن يخضع كل جانب من جوانب حياة أفراده لرقابة الكومون. وكان على جميع الأسر الـ9،369 أن «يتخلوا كلياً عن أراضيهم الخاصة...وبيوتهم وحيواناتهم وأشجارهم». عليهم أن يعيشوا في مهاجع «وفقاً لمبادىء الإنتاج والرقابة المفيدين»؛ كما نصت الشرعة في الواقع على «تفكيك» منازلهم «إذا احتاج الكومون الى قطع من القرميد أو الآجر أو الخشب». يجب أن تدور حياة كل قروي حول «العمل»، وأن يُعامَل كل الأفراد وكأنهم في الجيش، وفق نظام الأفواج المتدرجة الثلاثة: الكومون، اللواء، وفريق الإنتاج (وهو عادة القرية). وكان يُسمَح للفلاحين بمبالغ لا تُذكر من المال. وكانت الكومونات في الواقع معسكرات للعمال الأرقاء.

وذهب ماو الى حد العبث بأسماء الأشخاص من خلال التخلص منها واستبدالها بأرقام. في هونان وغيرها من المناطق النموذجية، عمل الناس في الحقول بموجب أرقام مدوّنة على ظهورهم؛ وهدف ماو من وراء ذلك الى تجريد فلاحي الصين الـ550 مليون من إنسانيتهم وتحويلهم الى ما يشبه الحيوانات التي تجر الأثقال.

وكما في ثقافة معسكرات العمل، على النزلاء أن يأكلوا في الكانتينات؛ ولم يقتصر الأمر على منع الفلاحين من تناول الطعام في بيوتهم، بل حُطّمت أواني الطبخ والأفران التي يستخدمونها. فالرقابة الكاملة المفروضة على الطعام، منحت الدولة سلاحاً مخيفاً، وأصبح احتجاز الطعام الصيغة الشائعة للعقاب «الخفيف» الذي يستطيع ضباط الأرياف فرضه ضد من يشاؤون.

وبما أن الكانتينات تبعد مسافة ساعات سيراً على الأقدام من مكان عيش الناس وعملهم، فقد مال كثيرون الى الانتقال للعيش في موقع الكانتين. هناك، كان الرجال والنساء والأطفال والعجّز يعيشون كالحيوانات، يملأون أي مكان متوفر، بدون أي حياة خاصة أو عائلية؛ الأمر الذي زاد كثيراً من حالات المرض. في هذه الأثناء، ونتيجة للإهمال إنهار العديد من منازلهم الخاصة المصنوعة غالباً من الوحل أو خشب البامبو؛ ودُمّرت منازل أخرى لتتحول الى سماد أو لتغذية الأفران في الحديقة الخارجية كوقود. عندما كشف ليو شاو-كي على إحدى المناطق قرب قريته الأم في ربيع 1961، لم يبق من المساكن الـ1،415 سوى 621 كوخاً بالياً.

إن إدعاء ماو بوجود «الكثير الفائض من الطعام» ساهم بطريقة أخرى، في زيادة مأساة الفلاحين. فعند إنشاء الكانتينات، سمح العديد من الكوادر للفلاحين الجائعين بملء بطونهم. ولم تدم هذه الفورة أكثر من شهرين، لكنها رفعت وتيرة المجاعة الأولى - ونشرت الموت بالجملة - في العديد من المناطق قبل نهاية عام 1958. بعد مرور ثلاث سنوات، وافق ماو مكرهاً على التخلي عن الكانتينات؛ لكن إغلاق الكانتينات، ورغم شيوعه الواسع بحد ذاته، كان صعباً بمقدار صعوبة فتحه تقريباً، لأن الفلاحين الكثيرين الذين انتقلوا للعيش قرب الكانتينات، لم يبق لهم الآن منزل يعودون اليه؛ حتى في حال سلِمت بيوتهم، فأفرانهم وأوانيهم لم تسلَم.

إن سوء التغذية وفائض العمل عجّلا في تحويل عشرات الملايين من الفلاحين الى حالة من الضعف الشديد منعتهم من العمل. وعندما اكتشف ماو أن أحد الأقاليم يرسل حصصاً من الطعام الى المرضى العاجزين عن العمل، ردّ بالقول: «لن ينفع ذلك. أعطوهم هذا المقدار ولن يعملوا. الأفضل أن تعطوا نصف الحصة الأساسية، فإذا أحسوا بالجوع، عليهم أن يبذلوا جهداً أكبر».

إن الأشخاص الذين كانوا يسيّرون الفلاحين، هم كوادر الكومونات أي رجال الحزب. إنهم مراقبو الأرقاء المقيمون. وإذ كانوا يدركون أن فشلهم في إنجاز عملهم سيؤدي الى إلحاقهم وعائلاتهم بمصفّ الجائعين، اعتمد كثيرون منهم الموقف الذي عبر عنه رجل واحد: الناس هم «أرقاء يجب ضربهم، واستغلالهم، أو منعهم من الطعام لحثّهم على العمل».

هؤلاء الكوادر كانوا في الوقت نفسه سجّانين إذ أبقوا الفلاحين محتجزين داخل قراهم. في 19 آب 1958، مارس ماو مزيداً من الضغط على كل من يتنقل بدون إذن، وسمى ذلك «تحرّك الناس غير المراقَب». فأغلقت بالتالي الإمكانية التقليدية بالفرار من المجاعة من خلال الانتقال الى مكان يتوفر فيه الطعام، الأمر الذي لم يكن شرعياً. وصف أحد الفلاحين الوضع بأنه أسوأ مما كان عليه في ظل الاحتلال الياباني قائلاً: «حتى عندما جاء اليابانيون كان بإمكاننا

الفرار. هذه السنة [1960]...أُطبِق علينا ببساطة لنموت في منازلنا. تتألف عائلتي من ستة أشخاص، مات أربعة منهم...».

وتقضي وظيفة أخرى للكوادر بمنع الفلاحين من «سرقة» حصادهم الخاص؛ فانتشرت إثر ذلك عقابات مرعبة: إذ دُفِن بعض الناس وهم أحياء، وشنِق آخرون بالحبال، وقُطعت أنوف آخرين أيضاً. وفي إحدى القرى، تمّ إنقاذ أربعة فتية مذعورين من الدفن وهم أحياء لأنهم تناولوا بعض الطعام فقط عندما وصل التراب الى خصرهم، بعد مطالبات يائسة من أهلهم. وفي قرية أخرى، قطعت الأصابع الأربعة لأحد الأطفال لأنه حاول سرقة فتات طعام فج؛ وفي قرية أخرى أيضاً أدخِلت أسلاك في آذان طفلين حاولا سرقة الطعام ثمّ علّقا من السلك على أحد الجدران. وقد تفشى هذا النوع من الوحشية فعلياً في كل مراحل هذه الحقبة، وعلى صعيد الأمة ككل.

وفي إطار هذه القفزة أيضاً، حاول ماو عام 1958 أن يحوّل المدن الى معسكرات عمل للأرقاء من خلال تنظيم كومونات مدنية. وقضت خطته بإلغاء الأجور وإدخال المجتمع بأسره في نظام ثكنات تعمل مجاناً. لم يفلح ذلك لأن نظام الاسترقاق ليس موضوعاً ليناسب المدن المعاصرة حيث تتميز الحياة بأبعاد أكثر تعقيداً.

لكن هذا الفشل لم يعنِ أن ماو ترك المدن بدون تدمير. فالعنوان العريض الذي كتبه لها هو «الإنتاج أولاً ثم تأتي الحياة في المرتبة الثانية». مدينته المثالية كانت مركزاً صناعياً محضاً: وقف ماو عند بوابة تيان ان مين ونظر في اتجاه القصور والمعابد والباغودة الرائعة التي كانت تزين سماء بكين في تلك الأيام، وقال للمحافظ: «في المستقبل أريد أن أنظر من حولي وأرى المداخن في كل مكان»!

والأسوأ من ذلك أن ماو أراد تدمير المدن الموجودة على نطاق واسع جداً، وبناء مراكز صناعية على الأنقاض. في عام 1958، قام النظام بمسح للنصب التاريخية في بكين. بلغ عددها 8،000 - فقرر الإبقاء على ثمانية وسبعين. كل من سمع بالخطة، من المحافظ نزولاً الى عامة الشعب، عارض هذا المستوى من التدمير. في الواقع، لم يُنفّذ الأمر بشكل جذري - في البداية. لكن مع إصرار ماو، دُمّر معظم جدران المدينة وبواباتها العائدة الى القرون القديمة، من جذورها، واستُخدم التراب لملء بحيرة جميلة في المدينة. قال ماو: «أنا مسرور لأن جدران مدينة نانجينغ، وجينان، وغيرهما قد دُمّرت [أيضاً]. كان مولعاً بالهزء من الوجوه الثقافية التي تذرف دموع الألم لدى رؤيتها هذا الدمار الذي لا مبرر له، كما دُفع المفكرون الى العمل طوعاً فوق أنقاض الخراب. فالعديد من الرموز المرئية للحضارة الصينية غاب عن وجه الأرض الى الأبد.

إن هذه المجاعة المنتشرة في كل أنحاء البلد، بدأت عام 1958 واستمرت خلال عام 1961 وبلغت ذروتها عام 1960. في تلك السنة، سجلت إحصاءات النظام نفسه تدنياً للمعدل اليومي من تناول السعرات الحرارية بلغ 1.534.8. وبحسب مدافع أساسي عن النظام هو هان سويين، كانت ربات البيوت في المدن يحصلن على 1.200 سعرة حرارية يومياً عام 1960. في أوشويتز، حصل العمال الأرقاء على كمية تتراوح بين 1.300 و1.700 سعرة حرارية يومياً. وكانوا يعملون حوالى 11 ساعة في اليوم؛ أما الذين عجزوا عن إيجاد طعام إضافي، فكانوا يموتون خلال بضعة أشهر.

خلال فترة المجاعة، لجأ البعض الى أكل لحوم بشرية. فقد سجلت دراسة حصلت بعد ماو (وحظرت فوراً) في أقليم فانغيانغ في مقاطعة أنهواي، 63 حالة أكل للحوم البشرية، فقط خلال ربيع عام 1960، بما في ذلك حالة زوجين خنقا ابنهما البالغ من العمر ثماني سنوات وأكلاه. لكن فانغيانغ لم تكن الأسوأ على الأرجح. ففي أحد الأقاليم في غانسو حيث ثلث الشعب يموت، كان أكل اللحوم البشرية منتشراً جداً. فقال أحد كوادر القرية الذي فقد زوجته وأخته وأطفاله في تلك الفترة، للصحافيين في وقت لاحق: «لجأ العديد من سكان القرية الى أكل اللحوم البشرية...هل رأيتم هؤلاء الناس الرابضين خارج مكتب الكومون يتشمسون؟ بعضهم تناول لحوماً بشرية...كاد الناس أن يجنوا بسبب الجوع».

وفيما كل هذا يحصل، كان الطعام وافراً في مخازن القمح التابعة للدولة والتي كانت تحت حراسة الجيش. كان بعض الطعام يُترك ليتعفّن. وقد رأى طالب بولوني الفاكهة «تتعفن بالأطنان» في جنوبي شرقي الصين خلال صيف-خريف عام 1959. لكن الأوامر من فوق كانت: «لا تُفتح أبداً أبواب مخازن القمح حتى إذا مات الناس من الجوع». (e-si bu-kai-cang).

خلال فترة القفزة الكبرى للأمام والمجاعة التي دامت أربع سنوات(*) مات ما يقارب الـ38 مليون شخصاً من الجوع والعمل الفائض. وأكد هذا الرقم الرجل الثاني لماو ليو شاو-كي نفسه. وحتى قبل نهاية المجاعة، قال للسفير السوفياتي ستيبان تشيرفونينكو إن 30 مليون قد ماتوا.

(*) يرتكز هذا الرقم على الحساب التالي. استنتج الديمغرافيون الصينيون أن معدل الموت في السنوات الأربع بين 1958 و1961 بلغ تعاقباً 1.20% 1.45% 4.34% و2.83%. وإن معدل نسبة الموت في السنوات الثلاث مباشرة قبل وبعد المجاعة بلغ 1.03% - عام 1957: 1.08% عام 1962: 1% عام 1963. ونسب الموت خارج هذه المعدلات سببها الجوع والإفراط في العمل خلال فترة المجاعة. الاحصاءات الرسمية المنشورة عام 1983 اعتبرت ناقصة جزئياً لأن رجال الشرطة المحليين قللوا من تقدير عدد الموتى بين سنتي 1959 و1961 بعد أن خضع البعض للإبعاد بسبب «المغالاة في تقدير عدد الموتى».

كانت هذه أكبر مجاعة تحصل في القرن العشرين - وفي كل تاريخ البشرية. لقد أدرك ماو أنه يجوّع عشرات الملايين من هؤلاء الناس ويدفعهم الى العمل حتى الموت. وخلال السنتين العصيبتين 1958 و1959 كانت صادرات الحبوب وحدها والتي بلغت بشكل شبه دقيق 7م طناً لتؤمن ما يعادل أكثر من 840 سعرة حرارية يومياً لـ38 مليون شخصاً - وبالتالي الفرق بين الحياة والموت. الحبوب وحدها تؤمن ذلك بدون اللحم وزيت الطهي والبيض وغيرها من مواد الطعام التي كانت تصدّر بكميات كبيرة. ولو لم يتم تصدير هذه الأطعمة (بل توزيعها بحسب المعايير الإنسانية)، لما مات على الأرجح أي شخص في الصين بسبب الجوع.

سمح ماو فعلياً بمزيد من حالات الموت. ورغم أن القتل لم يكن هدفه في هذه القفزة، فقد كان على أتمّ الاستعداد لإيقاع عشرات الآلاف من الموتى لتحقيق هذه القفزة، وألمح الى كبار رتبائه بألا يُصدموا كثيراً في حال حصول ذلك. وفي المؤتمر الذي عقد في أيار 1958 وأطلق القفزة، قال للحضور ألا يمتنعوا عن الخوف فحسب، بل أن يرحبوا أيضاً بالموتى كنتيجة لسياسة حزبهم. وقال: «ألن تكون كارثة لو لم يزل كونفوشيوس على قيد الحياة اليوم؟» وأضاف «صدق الفيلسوف الطاوي تشويانغ تزو في أن يتسكع ويغني عندما ماتت زوجته. يجب أن تحصل احتفالات حاشدة عندما يموت الناس». قال ماو «يجب أن يحتفل بالموت كثيراً...نؤمن بالمنطق وأصوله فلا يمكننا الا أن نشجّع الموت».

إن هذه «الفلسفة» الخيالية لا بل الغولية نقلت على مراحل الى ضباط الأرياف. ففي إقليم فانغيانغ في أنهواي، عندما رأى أحد الكوادر جثامين الناس الذين ماتوا من الجوع والعمل الفائض، ردد كلمة كلمة تقريباً، ما قاله ماو: «إن لم يمت الناس لن تكون الأرض قادرة على احتوائهم! أناس يعيشون وأناس يموتون. من لا يموت؟» حتى الانتحاب البالي ممنوع؛ وحتى ذرف الدموع - لأن ماو قال بضرورة الاحتفال بالموت.

رأى ماو في الموت الجماعي حسنة عملية. ففي 9 كانون الاول 1958 أخبر كبار رتبائه أن «للموتى فوائد كثيرة. فهم يُغْنون الأرض بالأسمدة». لذا أُمِر الفلاحون بزرع الغلال فوق رقع المدافن، الأمر الذي سبب آلاماً كبيرة.

يمكننا التأكيد الآن على كمية الناس التي كان ماو مستعداً للتخلص منها. فعندما كان في موسكو عام 1957 قال: «إننا مستعدون للتضحية بـ300 مليون صيني في سبيل انتصار ثورة العالم». وهذا هو بالتالي نصف عدد سكان الصين تقريباً. في الواقع، قال ماو خلال مؤتمر الحزب في 17 أيار 1958: «لا تظهروا احتجاجاً على مسألة حرب عالمية. في أقصى الأحوال يموت الناس...ويختفي نصف عدد السكان - وحصل ذلك مرات قليلة فقط

في تاريخ الصين...الأفضل أن يبقى نصف عدد السكان، والأفضل بعد ذلك أن يبقى ثلثهم...».

لم يكن ماو يفكر فقط بحالة الحرب. ففي 21 تشرين الثاني 1958 وخلال تحدثه الى مجموعة من المقربين حول مشاريع العمل المكثفة كمحطات المياه وصنع «الصلب»، وإذ لفت بشكل ضمني وشبه عرضي، الى وضع يحظى فيه الفلاحون بقليل من الطعام وكثير من العمل الى حد الإرهاق، قال ماو: «من خلال العمل بهذه الطريقة مع كل هذه المشاريع، يمكن أن يموت نصف سكان الصين. إن لم يكن النصف فالثلث أو العشر – 50 مليون–». وإذ أدرك أن هذه الملاحظات قد تصدم، حاول أن يتهرب من مسؤوليته الخاصة فأردف قائلاً: «50 مليون قتيل. قد أفقد مركزي أو أفقد حياتي... ولكن إذا اصررتم سأدعكم تقومون بذلك ولا يمكنكم لومي عندما يموت الناس».

41- معركة وزير الدفاع بينغ الوحيدة
(1958-1959 العمر 64-65 سنة)

خلال السنتين الأولتين من القفزة الكبرى للأمام، قام غالبية معاوني ماو بدعمه. رجل واحد في المكتب السياسي هو المارشال بينغ دي-هواي، وزير الدفاع، تجرأ أن يعارضه.

بقي بينغ قريباً من جذوره القروية المكافحة للفقر. وقد ذكر في سيرة حياته التي كتبها عندما سجنه ماو، أنه لطالما ذكّر نفسه بطفولته الجائعة ليتحاشى «التحول الى فاسد أو متجنّ على حياة الفقراء». في الخمسينيات، تحدث أمام كبار رتبائه عن نمط الحياة الفاسد الذي يعيشه ماو: الفيلات في كل أنحاء الصين، وتدبير الفتيات الجميلات، الأمر الذي وصفه بينغ بأنه «اختيار للخليلات الإمبراطوريات».

تشاجر بينغ مع ماو عبر السنين. ففي الثلاثينيات انتقد معاملة ماو السيئة للقادة العسكريين الآخرين. وخلال «المسيرة الطويلة» تحدّى ماو للقيادة العسكرية عندما كان هذا الأخير يجر الجيش الأحمر الى الانهيار القريب من أجل أهدافه الشخصية. في الأربعينيات، ومع بدأ ماو سياسة عبادته لشخصه خلال إرهاب ينان، رفع بينغ وتيرة الاعتراضات على الطقوس كالصراخ «فليعش الرئيس ماو طويلاً!»، وغناء نشيد ماو «الشرق أحمر». وما إن عمد خروتشيف الى إدانة ستالين عام 1956 حتى بدأ بينغ يتحدث بعنف أكبر ضد عبادة الذات، حتى أنه دعم تغيير اليمين الذي يتلوه الجنود، من القسم بالولاء لماو شخصياً الى القسم بالولاء للأمة، معتبراً أن «جيشنا ينتمي الى الأمة».

كان هذا كفيلاً أن يُغضِب ماو. إضافة الى ذلك، اشمأز ماو لكون بينغ لم يكتف بالتعبير عن تقديره لإدانة خروتشيف للنظام الستاليني، بل ألحّ أيضاً على أن يكون الإنفاق على الصناعات الدفاعية في زمن السلم «متناسباً مع المستوى المعيش للناس».

غالباً ما كان بينغ ينشر آراءاً مستقلة وغير تقليدية. فقد عبّر علناً عن إعجابه بمفاهيم «الحرية والمساواة والأخوة»، التي أدانها ماو واعتبرها «مناهضة للماركسية». كما دعم بينغ مراقبة الرموز الأخلاقية الصينية التقليدية كأن «يتساوى الأمير والرجل في الشارع أمام القانون» و «لا تفعل للآخرين ما لا تريد أن يُفعل لك». وقال ماو «مبدأي هو العكس تماماً: أفعل للآخرين تماماً ما لا أريد أن يُفعل لي».

كان بينغ شوكة في خاصرة ماو طيلة ثلاثة عقود رغم كونه متعاوناً مع ماو في بعض الأوقات الأساسية كالذهاب الى كوريا في عام 1950. نتيجة لذلك على ما يبدو جعله ماو وزيراً للدفاع عام 1954 - على مضض، كما كشف ماو نفسه في وقت لاحق. وخلال فترة سيطرة بينغ، عمل ماو على تشويه سمعته من خلال خلق سلاسل قيادية منافسة. ومع ذلك، حافظ بينغ على شجاعة إزاء ماو الذي كان فريداً من نوعه بين كبار القادة.

عندما أطلق ماو «القفزة» في أيار 1958، أغرق ماو بينغ و1500 ضابط عسكري كبير في اجتماعات يومية «انتقادية وانتقادية-ذاتية» تمّ تنظيمها ليهاجموا بعضهم خلال أسابيع طويلة بدون انقطاع. إن هذه الجلسات التي أصبحت قوام النظام الماوي منذ إرهاب ينان كانت مليئة باغتيالات مريرة لشخصيات، الى جانب كونها استنزافية تماماً على صعيد العاطفي(*). أحس بينغ بالإحباط الشديد الى حد طلب الاستقالة، الأمر الذي رفضه ماو لأنه أراد إبعاد بينغ. في هذه الأثناء، رفع من شأن صديقه الحميم المارشال لين بياو وجعله نائب رئيس الحزب، فأصبح لين أرفع مقاماً من بينغ في الجيش وفي الحزب على حد سواء.

إن هذا الغليان قد استنفد وقت بينغ وطاقته حتى أواخر شهر تموز، عندما عُلّقت الاجتماعات الانتقادية. عندها فقط تمكّن من تقدير البانوراما المخيفة الموجودة حوله. فلاحظ أن ماو يركّز على انتزاع قوة قتالية هائلة - أي ما لا يقل عن 200 الى 300 غواصة نووية، كما أصر ماو أمام الروس، وكل أنواع الأسلحة المتطورة الأخرى التي تملكها روسيا - كما لاحظ أن ماو قد يذهب الى أي حد لبلوغ هدفه. من بين الخطوات المؤدية الى هذه النتيجة، قصف جزيرة كيموي التي احتلها القوميون في شهر آب، بهدف تفجير التهديدات النووية الأميركية لفرض مزيد من الضغط على خروتشيف. (استبعد بينغ عمداً عن هذه الممارسة رغم كونه قائداً للجيش). ثم كان سيل الأرقام المزيفة للحصاد التي لم تعن سوى أمر واحد: أن هدف ماو هو انتزاع أكبر كمية ممكنة من الطعام لدفع التكاليف الطائلة للمعدات التي سيحصل عليها من روسيا.

وعشية الثالث من أيلول، وبعد مرور وقت قصير على بداية قصف كيموي، اختفى بينغ فيما بدأت دورة من الاجتماعات على شاطىء منتجع بايدايهي. في الواقع، وبعد بحث طويل، وجده الحرس البريتوري يتمشى وحيداً على امتداد شاطىء بعيد تحت ضوء القمر. ثم عاد الى الفيلا الخاصة به، شاحب الوجه، وبقي مستيقظاً طوال الليل.

(*) في نهاية هذه الجلسات ضحى ماو بعدد من الجنرالات البارزين ليظهر بأن على كبار الضباط أن يحافظوا على مسافة بينهم وبين الروس. كانت رسالة ماو التالية: الأمر الوحيد الذي يجب تعلمه من الروس هو كيفية استخدام الأسلحة الحديثة.

بعد ذلك، قام بدورة استطلاعية في شمالي الصين، أدرك خلالها أن أرقام الغلة مضخمة فعلاً، وأن الفلاحين يموتون من الجوع. كما رأى للمرة الأولى الأثر المأساوي لهوس ماو المفضل، أفران الحديقة الخلفية. وعندما عبر هونان، المقاطعة النموذجية لماو، رأى الأفران تزداد حماوة ومن حولها الحشود والكارات والرفوش والسلالم والسلل، وتتطاير اللهب كبحر يتألق في الأفق. فبعد أن حدق من نافذة القطار، استدار نحو معاونه وهز رأسه قائلاً: «هذه اللهب ستحرق كل ما لدينا».

في بداية شهر كانون الأول، وفي مؤتمر في وهان، سمع بينغ ماو يعلن أن رقم الحصاد لعام 1958 قد تجاوز ضعف ما كان عليه عام 1957 الذي كان عاماً ممتازاً. قال بينغ إن ذلك غير معقول لكن القادة الزراعيين أتباع ماو أسكتوه بقولهم «نحن نعرف أفضل منك».

قرر بينغ العودة الى منطقته الأم هونان التي تقع في الإقليم نفسه مع قرية ماو الأم، ليعرف ما الذي يحصل فعلاً. هناك، تأكد بأن أرقام الحصاد غير صحيحة؛ وأن منازل الفلاحين تهدم لتغذية أفران الحديقة الخلفية؛ والفلاحون يدفعون للعمل الى حد الانهيار؛ وكوادر الأرياف يستخدمون العنف لإرغامهم على العمل. كتب بينغ: «في بعض المناطق، أصبح ضرب الناس ممارسة شائعة. يضرب الناس عندما يعجزوا عن إتمام حصص عملهم، ويضربون عندما يتأخرون في الخروج الى العمل، ويضربون حتى إذا قالوا أشياءاً لم تعجب البعض». كما سجّل بينغ المأساة المميزة التي عانت منها النساء بسبب سياسة الاسترقاق التي مارسها ماو: فالعمل الفائض، كما قال، جعل «العديد من النساء يعانون من هبوط في الرحم، أو وقف مبكر للحيض».

أصدقاء طفولة بينغ عانوا بدورهم من الجوع واصفرت وجوههم. فأروه أواني الطعام الموجودة في الكانتين والتي لا تحتوي سوى على أوراق الخضار وبعض حبوب الأرز بدون زيت. أما أسرتهم فكانت مجرد حصر من خشب البامبو مع الملاحف الرقيقة في طقس كانون الأول المثلج. وبما أن معاصريه من الناس يناهزون الستين من العمر، كانوا يعيشون في مقرات الكومون للعجزة المدعوة «بلاط السعادة». صرخ بينغ قائلاً: «أي نوع من السعادة هذه؟»: فالأسرّة الموجودة في روضة الأطفال لم تكسوها سوى خرق رقيقة. وكان العديد من الأطفال مرضى. فقدم بينغ لروضة الأطفال 200 يوان من جيبه الخاص، واحتفظ بـ200 يوان أخرى لشراء أسرّة للعجز. إن جندياً في الجيش الأحمر تمّ إضعافه في الثلاثينيات دس له قطعة من الورق في راحة يده: إنها توسّل الى بينغ «ليوصل احتجاجنا».

في 18 كانون الأول التقى بينغ أحد كبار المدراء الاقتصاديين، بو يي-بو، وقال له إن الأرقام التي أعلنها ماو عن حصاد القمح ليست واقعية، وأن عليهم ألا يجمعوا الطعام على

أساس هذه المبالغة. وافق بو معه. في الواقع، كل المدراء الاقتصاديين، الى جانب أعضاء المكتب السياسي، كانوا يعرفون الحقيقة. لكن عندما اقترح بينغ أن يرسل وبو تلغرافاً مشتركاً الى ماو، رفض بو. عند ذلك أبرق بينغ بنفسه الى ماو ملتمساً منه التخفيف من جمع الطعام، لكنه لم يلق أي جواب.

أدرك بينغ أن تقريره ليس بالنبأ الجديد بالنسبة الى ماو الذي أعاد التركيز على آرائه المرتجلة حول الموت في وهان في وقت سابق من ذلك الشهر: «يموت عدد قليل من الأطفال في روضات الحضانة ويموت عدد قليل من المسنين في بلاط السعادة... ففي غياب الموت لا تكون البشرية موجودة. منذ كونفوشيوس وحتى اليوم، إن لم يمت الناس سيكون الأمر مأساوياً».

كيف يمكن إيقاف ماو؟ رغم أن بينغ وزير للدفاع، فسلطته قليلة – ليست كالسلطة التي يتمتع بها وزراء الدفاع في البلدان الأخرى. فالجيش هو تحت سيطرة ماو الكلية، ولا يستطيع بينغ أن يحرّك الفرق بدون إذن صريح من ماو. بدأ بينغ يفكر في طلب المساعدة من المصدر الوحيد الممكن – الخارج.

في غياب التواصل مع الغرب كانت أوروبا الشرقية وخروتشيف أمل بينغ الوحيد. إنها طلقة بعيدة المدى جداً لكنه قرر على ما يبدو أن يحاول ويُسمع الصوت ولو بدون أمل.

حظي بينغ بدعوات قديمة العهد لزيارة أوروبا الشرقية. والوصول الى هناك يعني اجتياز موسكو، وكان ماو قد أشار أنه لا يشجع قيام بينغ بهذه الزيارات؛ لكنه وافق في 28 شباط 1959 بعد أن قام بينغ بخطوة غير اعتيادية إذ ضغط عليه ليوافق.

أحس ماو المراوغ أن بينغ على وشك القيام بأمر ما. في 5 نيسان، وقبل رحيل بينغ المرتقب بقليل، صرخ ماو في اجتماع لكبار مسؤولي الحزب قائلاً: «هل الرفيق بينغ دو-هواي هنا؟... أنت فعلاً تكرهني حتى الموت...» ثم تبدّل مزاجه بشكل قال المقربين منه أنهم لم يروه فيه من قبل. أضاف ماو: «لطالما حاربنا بعضنا البعض. مبدأي هو التالي: لا تعبث معي ولا أعبث معك؛ ولكن إعبث معي وسأعبث معك كالجحيم!»

في تلك الليلة، شوهد بينغ يمشي داخل مكتبه. وعندما جاء سكرتيره لاستشارته في شأن خطط اليوم التالي، فاجأه بينغ الذي لم يذكر يوماً أموراً خاصة، بالتحدث فجأة وباشتياق عن مدى افتقاده لزوجته السابقة. زوجته الحالية كانت شخصاً خائفاً «مستقيماً» في الحزب، ولم يكن يتوقع منها أي تفهّم أو دعم لمجرى الأحداث التي ينوي مباشرتها.

في 20 نيسان، ومباشرة قبل المغادرة الى أوروبا، حضر بينغ حفل استقبال أقامه سفراء البلدان التي سيزورها. هناك، أقدم على شيء لم يسبق أن قام به. فأخذ السفير السوفياتي يودين

الى غرفة منفصلة، وفي حضور مترجم السفارة الروسية وحده، وهذا خرق كبير للقوانين، دار بينهما حديث عن القفزة الكبرى للأمام. بحسب المترجم، كان بينغ حذراً في تعاطيه: «فقط من خلال طابع أسئلته ونبرته في طرحها، كان من الممكن فهم موقفه السلبي إزاء القفزة». وأخبرنا المترجم: «يبدو أن بينغ أراد أن يرى ماذا سيقول السفير عن القفزة الكبرى - ليحصل على رأي السفير» استفاض يودين في شرح النواحي «الإيجابية» للقفزة. وتذكر المترجم قائلاً: «ما علق في ذهني كان منظر عيني المارشال الشاحبتين اللتين عكستا مجموعة من المشاعر: من الإنذار بالخطر المحدق بمصير بلده الى التصميم الصارم على النضال من أجل مستقبله».

عندما وصل بينغ الى أوروبا لم يجد أي تعاطف. وقال قائد ألمانيا الشرقية، أولبريشت، إنه يدرك كم كانت الصين تنعم بالنمو الكبير في الزراعة، وهل كان بإمكانها إرسال مزيد من اللحم فتنافس استهلاك ألمانيا الغربية السنوي لـ80 كغ لكل شخص؟ في الصين، وحتى في المدن، بلغت حصة اللحم للسنة بكاملها بعض الكيلوغرامات فقط.

بعد أن تحدث أولبريشت، صمت بينغ فترة طويلة قبل أن يطلع مضيفه على وجود نقص هائل في الطعام حالياً. لم يبد أولبريشت ردة فعل، فهو من قدامى أتباع ستالين وقام شخصياً بتلفيق بعض الإدعاءات؛ لذا فصحة إدعاءات ماو أو عدم صحتها لم يشغلاه. في الواقع، إن واردات الطعام من الصين سمحت لألمانيا الشرقية أن تضع حداً للتخصيص في أيار 1958مع المحافظة على مستوى معيشي لا يقارن من حيث ارتفاعه بالمستوى المعيشي في الصين. (في وقت لاحق، وبعد أن مات عشرات الملايين من الصينيين بسبب الجوع، طلب أولبريشت من ماو مزيداً من الطعام في 11كانون الثاني 1961. وعندما أخبر تشو سفراء أوروبا الشرقية بأن الصين لا تستطيع تسليم كل الطعام الذي تعاقدت على إرساله، وطلب تأجيل أو إلغاء بعض العقود، أظهرت بولونيا تفهّماً، لكن ألمانيا الشرقية رفضت فوراً حتى التفكير في التأجيل، واستعجلت التسليم في الوقت المناسب تماماً. وقال تشو إن «ألمانيا العظمى فوق كل شي» ومع ذلك أرسل 23 ألف طن من فول الصويا).

بعد حديثه مع أولبريشت، قال بينغ فجأة وبعنف أمام معاونيه: «كيف سيشعر شعبنا إذا سمع أن المطلوب منه مساعدة الآخرين للحصول على 80 كغ من اللحم سنوياً؟» وقفته التالية كانت في تشيكوسلوفاكيا. عندما أخبر التشيكيين بما يحصل حقيقة في الصين، وقال إن أي شخص ما عدا الصينيين، سيجر الى الشارع، لم يلق ردات فعل تُذكر. فأدرك بينغ أن أنظمة أوروبا الشرقية هي قضية خاسرة؛ وذكر أنهم «جميعهم يعيرون أنتباهاً كبيراً للأسلحة. ولديهم جميعهم طبقات مميزة من المجندين الذين درّبهم الاتحاد السوفياتي». في النهاية، اتضح أن هذه الأنظمة لم تكترث لما تكلّفه الشعب الصيني ليزودها بالطعام، حتى ولو عنى ذلك

موت الصينيين؛ إن واردات أوروبا الشرقية من الطعام من الصين بلغت أعلى مستوى لها في عام 1958(*). لذا أحس بينغ بالاكتئاب طوال الرحلة.

وآخر وقفة لبينغ في أوروبا كانت في ألبانيا. عندما وصل الى هناك، في 28 أيار، وجد أن خروتشيف وصل لتوه، في زيارته الأولى وغير المتوقعة. ولكن سرعان ما اضمحلت آمال بينغ بأن يكون خروتشيف قد قدم خصيصاً للقائه؛ فهذا الأخير لم يصطحب معه أي مترجم صيني.

أتى خروتشيف الى ألبانيا لسبب مختلف تماماً. فألبانيا زودت روسيا بقاعدة غواصة فريدة من نوعها في قلب المتوسط، على جزيرة سازان. وإن مهمة بينغ الخاصة التي أملاها عليه ماو تذهب في اتجاه هذه القاعدة أيضاً. وفي أول يوم كامل له في ألبانيا، في 29 أيار، استيقظ بينغ عند الساعة الخامسة والنصف فجراً وذهب فوراً الى هناك. إن هدف زيارة خروتشيف هو محاولة منع الألبانيين من عقد صفقة مع الصين حول هذه القاعدة+. ولاحظ بينغ أنه لا يستطيع الاتكال على خروتشيف أو أي من البلدان الشيوعية الأخرى للمساعدة.

عندئذ، يبدو أن بينغ، في يأسه، فكر في شيء يشبه الضربة العسكرية. وعندما عاد الى بكين في 13 حزيران، أول ما قام به هو محاولة تغيير مواقع بعض القوات العسكرية «لنقل الحبوب الى المناطق التي تضربها المجاعة» - هذا ما قاله لرئيس الأركان في الجيش هوانغ كي-تشانغ الذي كان صديقاً حميماً وروحاً محببة. فَهِم هوانغ بوضوح لماذا أراد بينغ فرق الجنود، إذ أبدى درجة من الممانعة، ما كان ليظهرها لو أدرك أن الاقتراح يتعلق فعلاً بنقل الطعام. ويبدو أن ماو اكتشف أمر هذه المحادثة، وجعل بينغ يعاني كثيراً من ذلك لاحقاً. وبما أن كل تحركات الفرق يجب أن تحظى بإذن ماو، عجز بينغ عن تحريك أي منها. كل ما تمكن القيام به هو محاولة ممارسة ضغط على ماو من خلال إرسال تقارير موسومة تتعلق بالمجاعة، وإرغام الآخرين على القيام بالأمر نفسه. ولدى رؤيته الفلاحين الجائعين من القطار، قال لمرافقيه: «لو لم يكن عمال الصين وفلاحوها طيبين الى هذا الحد، لكان علينا استدعاء الجيش الأحمر السوفياتي [لدعم النظام الشيوعي]».

تعقب ماو كل خطوة قام بها بينغ في أوروبا من خلال الجواسيس في الوفد، وعلم أن بينغ لم يحقق شيئاً. وسرعان ما لاحظ ماو برضى، أن بينغ سافر «ليتنفس الصعداء»، لكنه عجز عن القيام بأي أمر إضافي. وما إن اقتنع أن بينغ لم يحظ بأي دعم أجنبي، قرر ماو الهجوم. ومن بين

(*) كما سمحت أوروبا الشرقية لبينغ باستباق تشييد ضريح ضخم لماو. «رأينا جثامين القادة: لينين، ستالين، غوتوالد، ديمتروف. لكل بلد ضريحه. وعلى الأرجح أن البلدان الآسيوية ستحظى به أيضاً في المستقبل».

+ عندما قطعت البانيا علاقاتها مع روسيا، كانت قضية السيطرة على قاعدة الغواصات هي جوهر المشكلة. وفي كانون الثاني 1961 منحت بكين للزعيم الالباني انور خوجا مبلغاً ضخماً من 500 مليون روبل. ولما حاول الروس سحب الغواصات في حزيران من السنة عينها، استخدم خوجا القوة لاعادة اربعة منهم وبالتأكيد مُنح ماو سبيلاً للوصول الى الغواصات ولاستخدامها.

مخططاته استخدام استبعاد بينغ للتخلص من حملة إرهابية واسعة النطاق. وكان ماو بحاجة ماسة الى استمرار عملية انتزاع طعام كبيرة لأن الصين لا تزال متأخرة في تسديد مدفوعاتها لروسيا. والمشكلة بالنسبة الى ماو هي أن ضباط الأرياف، وبداعي الشفقة، غالباً ما عدلوا عن انتزاع الطعام الذي يحتاج اليه الفلاحين للبقاء على قيد الحياة. وأدرك ماو أن الجزء الأكبر من جهازه الخاص، وكذلك الأمة بأسرها، يقاومون سياساته. ففي شباط وآذار 1959، قال مرات عديدة: «إن مئات الملايين من الفلاحين وقادة فرق الإنتاج، موحدون ضد الحزب». حتى رؤساء المقاطعات حافظوا اليوم على سكوت مربك عندما أرغمهم على تسليم مزيد من الطعام. وكان ماو بحاجة الى دعامته، الإرهاب، ليشدد عزم جهازه.

في 20 حزيران 1959، وبعد مرور أسبوع على عودة بينغ من أوروبا، غادر ماو بكين بالقطار. كان الطقس حاراً جداً وقد أطفئت المراوح الكهربائية كي لا يشعر ماو بالبرد؛ كما وضعت قطعة كبيرة من الثلج في حافلته لتعطي مفعولاً قليلاً. كل الرجال، بمن فيهم ماو، اضطروا الى البقاء بملابسهم الداخلية فقط. (بعد ذلك مباشرة، أحضر قطار مبرّد لماو من ألمانيا الشرقية). وليشعر ماو بالبرودة، ذهب للسباحة في يانغتزي وبحيرة كزيانغ - فكان مفعولها مزدوجاً بسبب الاستحمام. فهو لم يستحم أو يغسل شعره منذ عام 1949، أي منذ حوالى عشر سنوات تقريباً، عندما اكتشف لذة أن يلفه الخادم بمنشفة ساخنة ويقوم حلاقه بتمشيط شعره.

في هذه الأثناء، بدأ يستعد للكشف عن أوراقه. ففي الرابع والعشرين من الشهر، طلب من سكرتيره أن يتصل ببكين للدعوة الى مؤتمر في لوزهان، المنتجع الجبلي فوق يلنغتسي. وأملى ماو لائحة من المشاركين لكنه لم يفصح أن الهدف من ذلك هو استفتاء لإدانة بينغ.

وإذ قرر ماو منذ توليه السلطة كيفية الاستبعاد العالي المستوى، يبدو أنه أحس بالحاجة الى التأكيد الشخصي على أنه ما زال يتمتع بصورة إلهية وأنه لا يُهزم. بقي في هذه الأثناء قرب قريته الأم شاوشان؛ فارتجل قراراً بالذهاب الى هناك ليتنفس الصعداء.

كانت هذه أول زيارة يقوم بها ماو الى دياره منذ 32 عاماً رغم مروره في المنطقة باستمرار. بنت له السلطات المحلية فيلا نزولاً عند رغبته الملحة. وبقيت باين هيل رقم 1، الواقعة في غابات الصنوبر جاهزة لاستقباله طوال سنوات عديدة. كما أبعدت السلطات كل العائلات غير المرغوب فيها في السابق، لمنعها من الاقتراب من ماو - أو الالتقاء صدفة بالأجانب الزوار.

قضى ماو ليلتين في شاوشان. وإذ فتح باب الشكاوى، حصل على الكثير منها. وأخبره القرويون أن مواسم الحصاد كانت متضخمة؛ والذين اعترضوا خضعوا لاجتماعات الإدانة وهوجموا. وحاول

رجل مسنّ أن يستعلم ما إذا كانت فكرة ماو أن يعيش الرجال والنساء حياة منفصلة في ظروف المعيشة في الثكنات (نتيجة إقامة الكومونات في أنحاء عديدة من الصين). وعلاوة على ذلك كله، كانوا جائعين إذ لم يحصلوا إلا على ثلث الى ربع الكمية التي كانت تعتبر كافية تقليدياً في هذه المنطقة. وعندما قدم ماو وجبة الى عشرات القرويين، التهموها بدون التهليل لها.

لم تحظ سياسة ماو بأي كلمة دعم، حتى هنا في قريته الأم التي كانت مميزة جداً وتحصل على إعانات كبيرة من الدولة. لكن ماو لاحظ أيضاً أنه بالرغم من الاستياء العارم، لم يجرؤ أحد على تجاوز الدمدمة وبعض الشكاوى التي نظر إليها كإطراء. وقال أحدهم: «سيدي الرئيس لو لم تأت الى شاوشان، لمتنا جميعنا من الجوع». وعندما تذمّر أحد الشباب بمرارة أكثر من الآخرين، اكتأب ماو ورد بحدة: «على كل حال، الوضع أفضل مما كان عليه في الأيام السابقة». ورغم كون هذا الرد مجرد كذبة مثيرة للشفقة (إذ قال هو نفسه «في الأيام السابقة» أنه من «السهل في شاوشان أن يصبح المرء غنياً»)، لم يتوقف أحد عند خداع ماو؛ كما لم يتحدّ أحد تعليماته اللاحقة التي من الواضح أن لا صلة لها بهذه المسألة: «كلوا أكثر في مواسم العمل وكلوا أقل في مواسم الركود. كونوا مقتصدين في الطعام...» وعندما استدار نحو رؤوساء المقاطعات وقال بدون خجل إن الشكاوى «كانت بمثابة دعوات ضده؛ إنها مسؤوليتكم، سجّلوها»، التزم الصمت مَن هم كبش المحرقة.

إن عبادة ماو لذاته أكدت أنه لا يُنتَقَد. لقد أمضت خادمة شابة في بيت الضيوف ثلاثة أيام وليال بدون نوم تنظّف المكان. وبعد عقود، تذكرت كيف استدعاها المدير: «هل يمكنني تسليمك أفضل وأعظم مهمة؟» قلت: «طبعاً...» وهذه المهمة كانت غسل ملابس ماو الداخلية الوسخة.

> آه، إنها ثياب الرئيس ماو. هذا أمر رائع، رائع فعلاً...كانت مليئة بالعرق. هذا اللون، الأصفر. قميص وسروال طويل...فكرت في الرئيس ماو: كان قائد شعب العالم وكان يعيش حياة بهذه القساوة[!] كانت الملابس الداخلية رقيقة جداً لم أجرؤ على فركها، فعصرتها بنعومة. ماذا عساي أفعل إذا أفسدتها؟...كنت خائفة أن يراها أحد [معلقة في الخارج لتجف]، ويقوم بأمر ما...فكنت أخرج كل بضع دقائق وأمسكها لأرى إذا جفت أو لا... لم تكن الكهرباء متوفرة ولا المكواة الكهربائية(*). ولكن كان علي أن أجعل الملابس تبدو أنيقة. فقبل أن تجف، ثنيتها ووضعتها تحت زجاجة المكتب لأضغط عليها...وعندما سلمتها الى المدير قال: «عظيم، عظيم». لكنني فكرت لن ينفع ذلك إن

(*) تم إمداد الكهرباء لماو عندما أتى في المرة التالية في 18 أيار 1960. استدعى ذلك 470 عاملاً كان عليهم مقاومة عاصفة قوية. ومع ذلك لم يعد ماو مرة اخرى.

لم يُعجب الرئيس ماو بعملي...

غادر ماو شاوشان غير مشكك في أنه سيتغلب على بينغ.

لوشان التي ترتفع 1.500 م عمودياً خارج سهل يانغتزي البخاري، كانت تتميز بهواء الجبل الساحر بعيداً عن الحياة في الأسفل؛ تحجبها دائماً غيوم كثيفة سرعان ما تتبخر. وقد ترك أحد الشعراء الكبار، سو تشي، قصيدة خالدة حول هذا السر:

لا أقدر على رؤية الوجه الحقيقي للوشان

لا عجب في ذلك، لأنك في داخلها.

كانت الغيوم الرائعة الأشكال تتدفق من الممرات الضيقة صعوداً الى الجروف، تتمايل أمام المشاة على أرصفة الطرقات. وتمر الغيوم بخفر من أمام شخص يتحدث فتلف محدثيه بخفر - لتبتعد عنهم بعد لحظات؛ حتى أن المرء يستطيع التقاط هذه اللحظة السريالية لغيمة تلتف وتتماوج عبر نافذة مفتوحة ثم تستدير وتطير الى نافذة أخرى.

حوّل الأوروبيون لوشان الى منتجع صيفي في أواخر القرن التاسع عشر. هنا البامبو والصنوبر وشلالات المياه والصخور المكسوة بالطحالب، تقدّم جميعها استراحة مفرحة من قيظ حرارة المنخفضات. وفي وسط المدينة، كولينغ، يوجد أكثر من 800 فيلا بنيت على أنماط أوروبية مختلفة، وأصبحت العاصمة الصيفية لتشيانغ كاي-شيك مدة 13 سنة. إحدى هذه الفيلات بنيت لرجل إنكليزي كانت مقر تشيانغ، وأصبحت الآن مقر ماو. خلال الإقامة الأخيرة لتشيانغ في آب 1948، أطلق عليها اسم «فيلا الجمال» - وبالصينية «Mei-lu» (إذ أن صفة «الجمال» هي جزء من اسم السيدة تشيانغ وهو Mei-ling). وإذ أدرك تشيانغ أن أيامه معدودة في الصين القارية، حفر اسمه في الصخرة على مدخل الفيلا. عندما رأى ماو أن البنائين يحاولون نقشه لإزالته، أوقفهم.

كان تشيانغ والمقيمين القدامى يصعدون الى لوشان على محفات إن لم يرغبوا في السير صعوداً مسافة 8-7 كم. بنى الشيوعيون طريقاً: وعندما وصل اليها موكب ماو، منعت كل السيارات الأخرى من المرور من أعلى الطريق الى أسفلها. وكان الجبل بكامله مغلقاً أمام الناس خلال فترة إقامته؛ حتى المقيمين خارج منطقة الفيلا ابعدوا. وكان الأمن مشدداً حول ماو أكثر بكثير مما كان عليه حول تشيانغ. في الواقع، بعد هذه الزيارة، لم يعد ماو معجباً بفيلا تشيانغ كما كان معجباً بكل الفيلات القديمة المختارة له في كل أنحاء الصين. وهنا أيضاً أمر بوجود مستودع للأسلحة مضاد للقنابل على نمط المستودعات المصنوعة من الباطون والصلب والحجر. هذه الديار الجديدة، ريدز وود رقم 1 Reeds Wood No.1، التي أنجز بناؤها بعد سنتين، شُيّدت قرب خزان ضخم فيمكن بالتالي لماو أن يذهب للاستحمام متى شاء. وقد بُنيت، شأن العديد

من الفيلات الأخرى، خلال أسوأ أيام المجاعة.

وفي وجه المجاعة الجماعية الهائلة، قرر ماو نشر جو عطلة في لوشان. وقيل للمشاركين بشكل خاص أن يُحضروا زوجاتهم وأطفالهم. (وبالنسبة الى العديد من الأطفال، كانت هذه أول خبرة داخل الفيلات الأوروبية حيث سحرتهم الحمامات الكثيرة والجدران الحجرية). كان الطعام عظيماً؛ وحتى كانتين المعاونين كانت تتسع لأكثر من ستة صحون في كل وجبة. وفي الأمسيات، كانت سهرات الأوبرا المحلية التي يختارها ماو، والرقص في الكنيسة الكاثوليكية القديمة بمشاركة فتيات راقصات. ثم كان ماو يجتمع على الأقل مع إحدى الراقصات وإحدى ممرضات المنتجع «لتبادل حديث لطيف».

بات انجذاب ماو الى النساء وقحاً الآن أكثر من أي وقت مضى. ففي زونغنانهاي، أضيفت حجرة جديدة الى جانب باحة الرقص ووضع فيها سرير. كان ماو يصطحب فتاة أو عدة فتيات الى هذه الحجرة للقيام بممارسات جنسية أو لهو جماعي. وكانت الحجرة مجهزة بجهاز عازل للصوت ومع طبقة سميكة من الستائر المخملية من الأرض الى السقف تسحب وراءهم. إن سبب اختفاء ماو في هذه الحجرة واضح المعالم، لكنه لم يكترث.

عندما وصل بينغ الى لوشان لحضور أحد المؤتمرات، استوقِف لدى دخوله منطقة الفيلا من قبل حراس يحملون رايات صغيرة: هنا تمركزت «المجموعة الأولى» - الاسم-الرمز لماو. فاضطر بينغ الى الترجل والسير؛ كانت الفيلا الخاصة به وتحمل الرقم 176، تبعد حوالى 100م عن فيلا ماو - بحيث يتمكن رجال أمن ماو من مراقبته بشكل أسهل.

في 2 تموز 1959 بدأ المؤتمر الذي ضم أكثر من 100 ضابط كبير. قضت خطة ماو الأولى بأن يفصل المشاركين الى ست مجموعات تكون كل واحدة منها برئآسة ورقابة رئيس مقاطعة يثق به، وعلاقته بماو مباشرة. كانت المناقشات محصورة داخل هذه المجموعات بحيث يُضبط عدد المستمعين الى الآراء غير المرغوب فيها؛ ولا يطلع باقي المشتركين إلا على ما يريدهم ماو أن يقرأوه في تقرير المؤتمر الذي طبعه مكتبه.

عندما تحدث بينغ الى مجموعته، المجموعة الشمالية الغربية، عبّر عن آرائه حول القفزة، وتناول مسألة مزاعم الحصاد الشبح، وسمى ماو أساساً بالكاذب: «إن الأرقام المضخمة التي زُعمت...في مقر الرئيس ماو خلال السنة الماضية هي أعلى بكثير من الرقم الحقيقي. فقد كنت هناك وسألت وتعلّمت أن الارتفاع لم يتجاوز الـ16%...وحتى هذا الارتفاع فهو ناتج عن قيام الدولة بتقديم العديد من الإعانات والقروض». «كما ذهب الرئيس الى هذا الكومون. سألته: ما معلوماتك من خلال استطلاعك؟ أجاب أنه لم يتحدث عن الأمر. أعتقد أنه فعل».

وفي اليوم التالي، كرر بينغ تحميل ماو المسؤولية: «الـ10.7 مليون [طناً من الصلب هدف

عام 1958] قررها الرئيس ماو. لا يمكنك القول إنه ليس مسؤولاً». خلال الأيام التالية، تساءل بينغ عن دور ماو في الصخب الذي يدور حول مسألة بناء الفيلا، وحذر قائلاً: «يجب ألا يتعسف ماو في استخدام مقامه». كما تهجّم بينغ على سياسة ماو في انتزاع الطعام للتصدير «على حساب الاستهلاك البيتي».

ولكن، وكما أكد ماو، فإن كلمات بينغ لم تنفذ الى مسامع المجموعة. ففي 14 تموز، وفي خضم تشنجه، كتب بينغ رسالة لماو انتقد فيها القفزة الكبرى للأمام، مستخدماً بتأن لغة موجزة؛ وأمل في أن يؤدي ذلك الى حوار حقيقي حول القفزة. أطلع ماو المشتركين الآخرين على هذه الرسالة، فقط ليحوّلها الى مبرر لإبعاد بينغ.

كان ماو يراقب بينغ كحية الكوبرا ليرى إن كان متورطاً في أية مؤامرة، وهي الطريقة الوحيدة التي تهدد ماو فعلاً. بعد ثلاثة أسابيع أحس باقتناع بأن بينغ لم يكن متورطاً.

في الواقع، نشر بينغ بعض التحريين؛ فعلم أن «لو فو»، الرجل الأول السابق في الحزب، كان معارضاً لسياسات ماو، فطلب بينغ من «لو» أن يقرأ الرسالة التي أرسلها لماو. لكن «لو» رفض؛ وعندما حاول بينغ أن يقرأها له قفز وفرّ. لقد بث ماو هذا الخوف من «التآمر» فبات الناس يشعرون بالشلل لمجرد هبوبها. ففي عهد ماو، كما في عهد ستالين، شخص واحد فقط سُمح له بالتآمر – وهذا الشخص هو الرئيس، كما لاحظ مولوتوف، صديق ستالين الحميم.

وإذ سُرّت نفس ماو لأن أحداً لم يواجهه، جمع كل المشتركين للمرة الأولى في 23 تموز. افتتح الاجتماع بطريقة تميزت بالعنف والتذمر: «لقد تكلمتم كثيراً. أتسمحون لي الآن بأن أتكلم مدة ساعة وأكثر؟ تناولت حبوباً منومة ثلاث مرات ومع ذلك لم أستطع النوم». وجعل الأمر يبدو وكأن أحداً يمنعه من الكلام وحتى من النوم. أراد ماو خلق جو يضعف فيه الحوار العقلاني، ليتهرب من تناول المسائل الحقيقية؛ فأدخل نفسه في حلقة من الغضب وقلل من شأن المأساة التي سببتها سياسته مدلياً ببعض الملاحظات مثل: «كل ما هو مطلوب، التخفيف من أكل لحم الخنزير ووجود كمية أقل من دبابيس الشعر وفقدان الصابون مدة من الوقت». ثم تناول المانع الأخير وقال لو كنت معارَضاً، «لغادرت منصبي...لأقود الفلاحين [!] في اتجاه قلب الحكومة...إذا تبعك الجيش سأصعد الى الجبال وأبدأ حرب عصابات جديدة...لكنني أعتقد أن الجيش سيتبعني أنا». وتذكر أحد الجنرالات ما حصل: «أحسسنا أن جو القاعة تجمد». فقد وضع ماو المسألة في اتجاه واحد: بينغ أو أنا؛ وإذا ساندتم بينغ سأقاتلكم حتى الموت.

أدرك الجميع أن ماو لا يُهزم. وللتشديد على مسألة انصياع الجيش له، طلب من صديقه

الحميم المارشال لين بياو، الذي تضاهي مكانته العسكرية مكانة بينغ، أن يظهر في المؤتمر في اليوم التالي. حتى ذلك الوقت، لم يكن لين في لوشان نفسها؛ كان على وشك الوصول، لاختبائه في سفح الجبل.

عندما صعد لين الى لوشان، هاجم بينغ بعنف وأظهر لماو دعمه الكامل والظاهر. لم يكن باستطاعة بينغ أو أي كان أن يتحدى ماو أو أن يتحدث معه بعقلانية. كما سهّل ماو على الناس عملية دعمه إذ ادعى أنه يقوم ببعض التنازلات - على صعيد انتزاع الطعام، وأهداف محصول الصلب، والإنفاق على مصانع الأسلحة - وعبّر عن رغبته في تقديم بعض المال للزراعة. لم يكن ماو ينوي الإيفاء بأي من هذه الوعود، وسرعان ما أنكرها جميعها.

عمد ماو الى تصنيف بينغ وغيره من النقاد بمن فيهم قائد الأركان هيانغ كي-تشنغ والرجل الأول السابق في الحزب «لو فو» على أنهم «بوتقة من المناهضين للحزب». وبادر الى توسيع المؤتمر نحو جلسة مكتملة للجنة المركزية، فيُدان منتقدوه بشكل رسمي. قرأ ماو القرار بنفسه وأعلن أن ذلك حصل حتى بدون الطلب الى المشاركين أن يرفعوا أيديهم. بعد اجتماع الإدانة الملزم الذي يحصل بموجبه تجريد من الرتب، وضع بينغ في الإقامة الجبرية، فيما عانى الآخرون من عقوبات مختلفة. فنبذت عائلاتهم معهم وفقدت زوجة هيانغ صوابها. أما الأصغر سناً في المجموعة، سكرتير ماو في بعض الأوقات «لي روي»، فخضع لحوالى 100 اجتماع إدانة ثم أُرسل الى الأعمال الشاقة في البرية الشمالية الكبرى؛ طلقته زوجته، وبتأثير منها، تبرأ منه أولاده تاركين له رسالة باردة، ورافضين طلبه بالإحتفاظ بصورة لهم. لقد أمضى عملياً العقدين التاليين يدخل معسكرات الأعمال الشاقة ثم يخرج، ويحتجز منفرداً في سجنه، إذ نجا من حكم الموت في اللحظات الأخيرة. هذا الرجل الأكثر شجاعة، خرج بدون أي خلل صحي أو عقلي أو نفسي، وتابع معارضة الطغيان في السنوات التي تلت عهد ماو.

بعد العودة من لوشان، أستُبدل بينغ كوزير للدفاع بـ«لين بياو» الذي بدأ فوراً بابعاد المتعاطفين مع بينغ في الجيش. كما باشر بالترويج لعبادة ماو لذاته على نطاق أوسع. ومنذ كانون الثاني 1960 أمر القوات المسلحة بحفظ مقولات لماو - وهي خطوة تمّ تطويرها في النشرة الموجزة التي عُرفت في ما بعد بـ«الكتاب الأحمر الصغير». كان ماو مفعماً بالفرح. وقال لاحقاً لأحد أتباع ماو، الاسترالي إدوارد هيل، إن لين «اخترع وسيلة جديدة وهي تجميع المقولات...فالـAnalects لكونفوشيوس هي مجموعة من المقولات. وفي البوذية أيضاً مجموعات من المقولات». ثم ذكر ماو الكتاب المقدس. هذه هي المجموعة التي يعتقد أن مقولاته انتمت اليها.

كل من كان يناهض الإفراط في المصادرة وتسيير الأرقاء، في كل أنحاء الأمة، كان يخضع

للمطاردة. ففي خلال السنتين اللاحقتين، وبحسب ما قاله في وقت لاحق القائد خلَف ماو، دينغ كزياو-بينغ، وقع «ما يُقدّر بحوالى 10 ملايين» نسمة، ضحية هذا التسيير، الذي عرّض أيضاً للخطر «عشرات الملايين» من المقربين منهم. العديد من الضحايا الـ10 ملايين كانوا كوادر أرياف؛ وحل محلهم أناس أرادوا تسيير الأرقاء بكمّ العنف المطلوب تنفيذه.

ومن بين المجموعات الأخرى التي اضطُهدت بشكل خاص خلال دورة الإبعاد هذه، الأطباء، لأنهم غالباً ما اعتبروا الجوع السبب الحقيقي لموجة المرض الجارفة والموت. أراد ماو التأكّد من أن المأساة الضخمة التي خلقها بقيت حدثاً بدون أهمية. فحتى أسماء الأمراض التي تفترض الجوع سبباً لها، كانت محرّمة، كالأوديما التي سميت «المرض رقم 2». بعد سنوات، بقي ماو يضرب الأطباء لأنهم يقومون بعملهم باحتراف: «لماذا تعددت...حالات التهاب الكبد الى هذا الحد في [هذه الأيام]؟ ألم تهتموا أنتم الأطباء بهم؟ ذهبتم للبحث عنها أليس كذلك؟؟»

في السنة التالية، 1960، مات 22 مليون شخصاً من الجوع. كان هذا العدد الأكبر في سنة واحدة في أي بلد في تاريخ العالم.

طبعت لوشان أيضاً مصير زوجة ماو السابقة غوي-يوان. فمنذ 22 سنة، وإذ عجزت عن تحمّل انجذاب ماو الصارخ نحو النساء وصلابته العامة تجاهها، تركته وذهبت الى موسكو. في روسيا، عانت من انهيار عصبي وأمضت سنتين في مستشفى للأمراض النفسية في إحدى المقاطعات حيث خضعت لحمية قاسية ومزعجة. ثم خرجت في خريف عام 1946 وكانت حالتها مستقرة، ولو ببطء، وسُمح لها بالعودة الى الصين. منعت من الدخول الى بكين، وفي عام 1959، خلال أحداث لوشان، عاشت في منطقة مجاورة لها، في نانتشانغ. وحظيت بنقاهة جيدة، لكن حياتها كانت وحيدة، إذ عاشت على حسابها الخاص. لم تر ماو منذ 22 سنة.

في 7 تموز 1959، وفيما كان ماو يراقب بينغ قبل التهجم عليه، اعترته نزوة رؤية غوي-يوان. فأرسل زوجة أحد الرؤساء المحليين، القديرة لتأتي بها، لكنه أصر على المرأة ألا تخبر غوي-يوان من سترى، وأن تكتفي بالقول إنها مدعوة الى لوشان لقضاء عطلة - لأن غوي-يوان كما قال ماو للوسيطة، «قد تتدهور عقلياً إذا اهتاجت كثيراً». وكان ماو مدركاً تماماً أن غوي-يوان في حالة عاطفية دقيقة، وأنها قد لا تحتمل الصدمة. وأخبرته ابنتها أن والدتها أحست بنكسة عندما سمعت من غير أن تتوقع، صوت ماو عبر الراديو عام 1954 (وهي إحدى المرات النادرة التي يُبث فيها صوته - وقد أنّبت الإذاعة على ذلك). كان مستعداً لجعلها تخاطر بحصول انهيار في أعصابها فقط لإشباع رغبته.

إن أنانية ماو كلّفت غوي-يوان غالياً. فعندما رأته فجأة واقفاً أمامها انهارت أعصابها. وما زاد في الضرر أن ماو عندما ودّعها وعد برؤيتها مرة أخرى «غداً». ولكن في اليوم التالي أعيدت بالقوة الى نانتشانغ نزولاً عند أوامره. هذه المرة كان انهيار أعصابها أسوأ من أي وقت مضى. فهي لم تعرف حتى ابنتها وعجزت عن غسل أو تبديل ملابسها. فكانت تفر من وقت لآخر الى بوابة المقر الرئيسي للحزب في المقاطعة، بشعرها الأشعث ولعابها الذي يسيل من فمها، وتريد معرفة من خطط لمنعها من رؤية ماو ثانية. ولم تتعافى بعد ذلك أبداً.

42- تمرّد اهل التيبت
(1950-1961؛ العمر 56-67 سنة)

منذ أن غزا ماو الصين، كان مصمماً على احتلال التيبت بالقوة. وعندما رأى ستالين في 22 كانون الثاني 1950، سأل إن كان بإمكان السلاح الجوي السوفياتي أن ينقل الذخائر الى الجيوش الصينية «التي تعدّ حالياً لهجوم على التيبت». رد ستالين: «حسن أنكم تعدّون للهجوم. فالتيبتيون يجب أن يهزموا...» كما نصح ستالين بملء التيبت ومناطق حدودية أخرى بالصينيين الهانيين: «بما أن الصينيين الإتنيين لا يشكلون أكثر من 5% من شعب كزينجيانغ، يجب رفع معدل الصينيين الإتنيين الى 30%...في الواقع، يجب تأهيل كل الأراضي الحدودية بالصينيين...» وهذا بالضبط ما باشر في تنفيذه النظام الشيوعي الصيني.

خلال عامي 51–1950، قامت 20 ألف فرقة من الجيش الشيوعي الصيني باجتياح التيبت. لكن ماو أدرك أنه عاجز عن إرسال أعداداً أكبر من الجيوش لاحتلال التيبت بكاملها. لم تكن الطرقات مناسبة لاحتواء مزيد من الجيوش ولم تكن جنود ماو معتادة على الارتفاع، في حين كانت جيوش التيبت قوة قتالية جاهزة. فلعب ماو لعبة المفاوضات مدّعياً أنه سيسمح باستقلالية عمليةٍ للمنطقة. وإذ لعب أيضاً دور المعتدل اللطيف، اعترف بالدالاي لاما، القائد الروحي والحكومي للتيبت، كرئيس للتيبت، وأرسل له هدايا كمسلاط فيلم 16 مم، وقال أموراً مطمئنة أمام الوفود التيبتية. في هذه الأثناء ضغط باتجاه بناء طريقين توصلان الى داخل التيبت.

في أيلول عام 1954، ذهب الدالاي لاما البالغ من العمر 19 سنة، الى بكين لحضور اجتماعات اللجنة الدائمة للمجلس الوطني التي عُيّن عضواً فيها. التقى به ماو 12 مرة على الأقل خلال إقامته التي دامت ستة أشهر، وشرع في لفت نظره – واسترضائه –. فقد علم ماو بشأن اهتمامه بالعلوم. قال ماو: «أعرف أنك رجل مصلح، مثلي أنا. لدينا الكثير من الأمور المشتركة»، تلميحاً الى الاصلاح في التربية. وقال لنا الدالاي لاما «هذا هو الخطر مع ماو. كل ما يقوله هو – نصف الحقيقة! نصف الحقيقة!» ولكن الى جانب المهاودة، راح ماو أيضاً يرعى ويتنمر ويعنّف الدالاي لاما لأنه رفض كون «الدين سماً».

وفي محاولة جاهدة للقيام بأفضل ما يمكنه لشعبه، تقدّم الدالاي لاما للالتحاق بالحزب الشيوعي الصيني. رُفض طلبه فحاول أن يُبقي ماو في مزاج جيد؛ بعد أن عاد الى لاسا، كتب

له رسالة في صيف 1955 وضع في داخلها زهرة تيبتية. رد ماو بلغة شبه عاطفية:

«عزيزي الدالاي لاما، فرحت جداً لدى استلامي رسالتك...أنا غالباً ما افتقدك، أفتقد الأوقات السعيدة عندما كنت في بكين. متى يمكنني رؤيتك مجدداً؟... فرحت جداً برؤية الزهرة التيبتية داخل الرسالة...وأرسل لك الآن زهرة داخل رسالتي هذه...».

في بداية عام 1956، وما إن أُنجز العمل في الطريقين الأساسيتين المؤديتين الى التيبت، حتى بدأ ماو الحديث عن مصادرة الطعام، والهجوم على الدين ومصادرة الأسلحة في منطقة اسمها خام، متاخمة للتيبت يقطنها نصف مليون تيبتياً. فتمرّد الناس، وفي نهاية شهر آذار، حشدوا قوة مسلحة قوامها أكثر من 60 ألف رجل وأكثر من 50 ألف بندقية. انتشر التمرد كلَهيب النار في المناطق الأخرى حيث شكل التيبتيون غالبية. فوجد ماو نفسه وسط حروب كبيرة بين يديه غطت مناطق شاسعة في الداخل؛ ولجأ الى استخدام الأسلحة الثقيلة والقذائف الجوية.

إن المشاركة الجماهيرية واندفاع المتمردين نحو القتال، أظهرا لماو أي نوع من المقاومة سيلقى في التيبت نفسها. في شهر أيلول، علّق خطته «إخضاع التيبت لماو».

ومع ذلك، بعد مرور سنتين وبدء القفزة الكبرى عام 1958، تضاعفت كثيراً مصادرة الطعام في كل أنحاء الأمة. أدى ذلك الى مقاومة شرسة في التيبت والمقاطعات الأربع الكبرى في غربي الصين التي تضم عدداً من شعب التيبت – غانسو، كينهاي، يونيان وسيشوان – والتي انتشرت فيها جميعها الثورات المسلحة قوامها عشرات الآلاف. وقد عمل العديد من التيبتيين على الاحتفاظ بأسلحتهم النارية التي كانت بالنسبة الى الرعاة أساسية لرزقهم. وكانت لديهم أيضاً الأحصنة التي مكّنتهم من التحرك. ولكن علاوة على ذلك كله كانت لهم هويتهم الخاصة المستقلة ولغتهم وديانتهم، الأمر الذي مكنهم من تنظيم أنفسهم سراً.

في كينغهاي، التي هي أوسع من فرنسا، انتشر التمرد في كل أنحاء المقاطعة. وأصدر ماو أوامر فورية بقمعه في 24 حزيران. في الوقت نفسه، قال لقواد جيوشه أن «يكونوا مستعدين للتعامل مع تمرد شامل في التيبت» نفسها. وعبّر بصراحة عن أنه أراد فعلاً حلاً عنيفاً وساحقاً. وفي 22 كانون الثاني السنة اللاحقة، كتب «في التيبت، يجب أن تحصل حرب مصيرية وشاملة قبل أن نتمكن من حل المشكلة بشكل قاطع. وبات الحكام التيبتيون...يملكون الآن 10 آلف قوة مسلحة متمردة قوية تتمتع بمعنويات عالية؛ إنهم أعداؤنا الحقيقيون. لكن هذا الأمر... جيد، إذ يصبح من الممكن حل كل مشاكلنا من خلال الحرب». وكأن ماو يقول: لقد أعطوني عذراً لبداية حرب. وبعد مرور شهر، كتب: «كلما استعّر الثوران، كان ذلك أفضل».

في 10 آذار 1959، اندلعت ثورة في لاسا بعد انتشار شائعة حول تخطيط الصينيين لاختطاف

الدالاي لاما. فتظاهر الآلاف أمام قصره وفي كل لاسا وهم يصرخون «أيها الصينيون اخرجوا!» في اليوم التالي، أصدر ماو أمراً بجعل الدالاي لاما يفر. فقد حسب الأمر كما يلي: إذا قُتل دالاي لاما سيُشعل ذلك الرأي العام العالمي،،وبخاصة في البلدان البوذية والهند، التي كان ماو يلاطفها. وفي ليلة السابع عشر من آذار، شق الدالاي لاما طريقه الى خارج لاسا وانطلق الى الهند. وما إن تأكد نبأ فراره حتى قال ماو لرجاله: «إفعلوا كل ما بوسعكم لإبقاء الأعداء في لاسا... فعندما تصل قوتنا الأساسية يمكننا محاصرتهم وسحقهم».

كانت للحرب الجسدية خورسها الدعائي الترويجي. ففي 7 نيسان أجرى ماو تحقيقات حول الممارسات التيبتية. والأمر الأساسي الذي كان يتوق الى معرفته هو: هل تلجأ الطبقة الحاكمة التيبتية الى التعذيب، وهل يتعرض اللاما غير المطيع للعذاب بدون رحمة وتُقطّع أوصاله؟ في التاسع والعشرين من الشهر، ونزولاً عند أوامر ماو، بدأت حملة إعلامية ضخمة، وصفت التيبت بأنها مكان مرعب حيث العذاب المخيف الذي تحدث عنه ماو واقتلاع العيون بالأصابع، من الأمور التي تحصل كل يوم. إن هذه السياسة الترويجية التي دعمتها الاحكام المسبقة القديمة، أظهرت فعاليتها، ونجح ماو في أن يزرع في عقول الناس فكرة أن التيبت هي أرض البربرية.

شهد حكم الثيوقراطية التيبتية القديمة ناحية سوداء قاتمة، ولكن من حيث الوحشية والمعاناة ككل، كان حكم ماو قطعاً هو الأسوأ. وتجلى ذلك في رسالة من 70 ألف كلمة كتبها لتشو إن-لاي، القائد الروحي في المرتبة الثانية في التيبت، بانشان لاما عام 1962، شرح له فيها ما حصل بين سنتي 1959 و1961. وما أعطى الرسالة ثقلها الكبير هو أن بانشان لاما سبق أن رحّب بجيوش ماو في التيبت، كما وافق على قمع تمرّد لاسا عام 1959. أكثر من ذلك، أدرك تشو نفسه أن الرسالة كانت دقيقة.

فرض ماو على الاقتصاد التيبتي مستوى من المصادرة أعلى بكثير مما يمكن تقبّله. في الماضي، كتب بانشان لاما «لم يكن الطعام نادراً الى هذا الحد...لم تحصل حالات موت بسبب الجوع». ولكن بين عامي 1959 و1960 «جُمعت كميات كبيرة من الحبوب، وصودر حتى الطعام والتسامبا tsampa [طحين الشعير، وهو الطعام الأكثر تناولاً من قبل التيبتيين] الموجودين داخل أكياس التقدمات». كانت المصادرة أمراً عنيفاً: «كل الطعام الاحتياطي تقريباً، اللحوم والزبدة تمت مصادرته...كما فُقد الزيت لإشعال القناديل، وحتى حطب الوقود...» وللبقاء على قيد الحياة، كان على الرعاة أن يأكلوا العديد من ماشيتهم؛ فسيق الشعب الى الكانتينات حيث أُطعموا «الأعشاب الضارة وحتى لحاء الشجر غير الصالح للأكل، والأوراق والتربة

والبذور». فالطعام المخصص تقليدياً للحيوانات «بات يعتبر طعاماً غذائياً لذيذاً ونادر الوجود». بالتالي، تدهورت صحة الناس بشكل دراماتيكي: «فالالتهاب البسيط كالبرد مثلاً كان يؤدي... الى موجة من حالات الموت. كما مات أيضاً كثيرون...مباشرة بسبب الجوع... كان معدل الموت مخيفاً فعلاً... إن ألماً مبرحاً بهذا الشكل وبسبب الجوع، لم يشهد له أبداً تاريخ التيبتيين».

وفيما بانشان لاما يكتب الرسالة، كان يطوف في المناطق التيبتية. فوجد أن الناس في كينغهاي لا يملكون حتى أوعية للطعام. ولاحظ أنه «في المجتمع القديم، حتى المتسوّلون كانوا يملكون أوعية». في عهد تشيانغ كاي تشيك والقائد المسلم ما بوفينغ، لم يكن التيبتيون في كينغهاي «بهذا المستوى من الفقر الى حد عدم قدرتهم على اقتناء أوعية!» في وقت لاحق، اضطر الناس حتى الى محاولة اقتحام معسكرات العمل والسجون للتفتيش عن الطعام.

أُخضع عدد كبير من التيبتيين لاجتماعات إدانة عنيفة، من بينهم والد بانشان لاما وعائلته، هو الذي كتب: «كان الناس يُضربون حتى ينزفوا من عيونهم وآذانهم وأفواههم وأنوفهم، فيُغمى عليهم وأيديهم وأرجلهم مكسورة...ويموت آخرون فوراً». وللمرة الأولى في التيبت، أصبح الانتحار ممارسة شائعة.

أمام هذا العدد من التيبتيين الذين انضموا الى حركات التمرد ضد نظام ماو، عمدت الجيوش الصينية الى معاملة معظم التيبتيين على أنهم أعداء، واحتجزت غالبية الرجال في مناطق عديدة، تاركة فقط «النساء والمسنين والأطفال والقليل القليل من الرجال الشباب ومتوسطي الأعمار». بعد موت ماو، كشف بانشان لاما عما لم يجرؤ على كتابته في رسالته الأساسية: وهو أن نسبة مذهلة من مجمل التيبتيين تراوحت بين 15 و20% منهم – وربما نصف عدد الرجال – زُجّوا في السجن، حيث أخضعوا للعمل حتى الموت؛ كانوا يعاملون وكأنهم دون مستوى البشر. وأخبرنا لاما بالدين جياتسو وهو سجين شجاع أمضى فترة طويلة في السجن، أنه وبعض السجناء الآخرين، جُلِدوا بسوط سلكي وهم يحملون المحراث.

إن عنف حركات التمرد أدى الى تصرف وحشي من قبل الجيوش الصينية. فمن جهة، وصف بانشان لاما (والحديث بعد موت ماو) كيف «كانت الجثامين تجر من أعلى الجبال نزولاً الى أسفلها وتُدفن في حفرة كبيرة، ثم يُجمع الأقرباء ويقال لهم: [لقد سحقنا الزمر المتمردة، واليوم هو يوم احتفال. سترقصون جميعكم فوق حفرة الجثامين]».

سادت الوحشية بشكل مواز على صعيد الإبادة الثقافية. فقد شهدت هذه الفترة لحملة سميت رسمياً «التدمير الكبير» خضعت خلالها طريقة العيش التيبتية ككل، لاعتداء مادي عنيف لكونها «متخلفة ووسخة وبدون فائدة». وكان ماو مصمماً على تدمير الدين، جوهر

حياة معظم التيبتيين. وعندما التقى الدالاي لاما عام 1954-5 قال له إن عدد الرهبان كبير جداً في التيبت وهذا أمر مسيء للقوة العاملة. والآن أُرغم اللاما والراهبات على قطع نذورهم بالعزوبية، وبالتالي الزواج. وكتب بانشان لاما «الكتب المقدسة كانت تستخدم للأسمدة، أما صور بوذا وحكمه فاستعملت لصناعة الأحذية». كان التدمير من النوع الذي «لا ينفذه بسهولة حتى المجانين». فقد دُمر معظم الأديرة «وبدت المواقع وكأنها خارجة من حرب أو عمليات قصف». وبحسب بانشان لاما، انخفض عدد الأديرة في التيبت من أكثر من 2.500 قبل عام 1959 الى «أكثر بقليل فقط من 70» عام 1961، وعدد الرهبان والراهبات من أكثر من 110.000 الى 7.000 (كما سافر الى الخارج حوالى 10.000 منهم).

الأمر المؤلم فعلاً بالنسبة الى التيبتيين كان منع الاحتفالات البوذية للموتى. كتب بانشان لاما: «عندما يموت شخص ما،

> إن لم يحصل احتفال للتكفير عن خطاياه لتنجو روحه من العذاب، يعني ذلك أن الموتى يعاملون بأقصى درجة من... الوحشية... وكان الناس يقولون: «إننا نموت متأخرين جداً...الآن عندما نموت، سنكون كالكلب الذي يقذف من الباب!»

وخلال تنقل بانشان لاما بين المناطق في بداية الستينيات، خاطر التيبتيون برؤيته وهو يبكي وينتحب: «لا تدعونا نجوع! لا تدعوا البوذية تُباد! لا تدعوا شعب أرض الثلوج ينقرض!» كان ماو «مستاءاً جداً» من رسالة بانشان لاما، فزاد من معاناته، بما في ذلك عشر سنوات من السجن.

للتيبت كما للصين بأسرها، جاء حكم ماو بمأساة لا سابق لها.

43- الماوية تصبح شاملة
(1959-1964؛ العمر 65-70 سنة)

في شباط عام 1959، وقّعت روسيا اتفاقاً لتزويد الصين بوسائل صناعة الغواصات النووية. وشكل ذلك أعلى مستوى لتعاون الكرملين في إطار تحويل التكنولوجيا. ولكن حتى خلال توقيع الاتفاق، كان خروتشيف يعيد النظر في منح ماو كل هذه القوة العسكرية الضخمة.

إن حادثاً واحداً بشكل خاص دفع خروتشيف بقوة الى إعادة النظر. ففي أيلول عام 1958 سقط على الصين صاروخ أميركي جَو- جَو من نوع سايدوندر Sidewinder لم ينفجر، أُطلق من طائرة تايوانية. لكن مطالبات خروتشيف الطارئة بأن يكشف الروس على هذا السقوط المعاصر، لم تلق أي رد. ثم ادعى الصينيون أنهم عجزوا عن العثور عليه. وتذكّر سيرغاي، ابن خروتشيف، وهو عالم صواريخ بارع، ما جرى:

> للمرة الأولى شعر والدي بالشرخ العميق الذي ظهر في «علاقتنا الأخوية». وللمرة الأولى تساءل إن كان من المفيد نقل احدث تكنولوجيا عسكرية وتعليم الصين كيفية بناء الصواريخ ورؤوس الطرابيد النووية... في شباط [1959] قرر ممارسة الضغط للمرة الأولى...فأوقف نقل التعليمات حول [الصواريخ] R-12. كانت الخدعة ناجحة؛ وتم العثور فوراً على صاروخ سايدوندر.

فكك الصينيون الصاروخ وفُقد جهاز التوجيه الأساسي. وكتب خروتشيف في مذكراته «كان ذلك بمثابة هجوم وإهانة لنا. أي شخص لو كان في مكاننا لشعر بالألم. إننا لا نخفي أي أسرار عن الصين. نعطيهم كل شيء... ولكن عندما ينتصرون يرفضون مشاركة نصرهم». توصل خروتشيف الى خلاصة أن ماو كان فقط يستعمل روسيا لتحقيق أهدافه الشخصية ولا يأبه باهتمامات المعسكر الشيوعي ككل. وأحس أن ماو «مغمور برغبة متلهفة في السيطرة على العالم». وأصدر خروتشيف أوامره بالإبطاء في نقل الخبرة النووية، وفي 20 حزيران 1959 علّق تقديم المساعدة لصنع القنبلة الذرية.

لم يشكل ذلك ضربة قاضية لأن الصين باتت الآن تملك الخبرة الأساسية والتجهيزات الرئيسية لصنع القنبلة. لكن ماو رأى أنه من الآن فصاعداً سيكون صعباً طلب المزيد من خروتشيف.

في شهر أيلول، ذهب خروتشيف الى أميركا في أول زيارة لقائد سوفياتي. وكان مؤمناً بوجود

إمكانية حقيقية للتعايش مع الغرب بسلام. بعد ذلك، ذهب الى بكين لمناسبة الذكرى العاشرة لقيام نظام ماو. فحث خروتشيف ماو أن يكون مهاوداً مع الغرب «لتحاشي حصول أي شيء قد يُستغَل... لإعادة العالم الى «حقل» الحرب الباردة، على حد تعبير القائد الروسي الإيديولوجي.

رأى ماو في التقارب بين خروتشيف والغرب فرصة تاريخية ليضع نفسه في المقدّمة كبطل على كل من اعتقد في العالم أن التعايش بسلام يشجع - وربما يجمد- حالة الأمر الواقع. وبدا التوقيت جيداً بشكل خاص لأن إزالة المستعمرات كانت في أوجها. فقد تعددت الحركات المناهضة للاستعمار في أفريقيا والداعمة لحرب العصابات التي أدرك ماو أنه مؤيدها وخبير بها الى حد لم يبلغه خروتشيف. بدت الأحزاب الشيوعية بدورها أهدافاً سهلة لأن أملها في الوصول الى السلطة ضئيل إلا باستخدام العنف. ففكر ماو بوضع تكون فيه «الأحزاب الشيوعية في العالم بأسره غير مؤمنة [بروسيا] ولكن مؤمنة بنا». ورأى فرصة في إقامة «مركز للثورة العالمية» خاص به.

ولطالما كان حلم ماو بأن يكون له معسكره الخاص، وألا يضطر أن يلعب دوراً ثانوياً أمام خروتشيف. وإذ بدأ خروتشيف بالتراجع، وهو مصدر المؤن العسكرية، لم يعد ماو مهتماً بمضايقته كما في السابق. ولكنه مع ذلك لم يشأ الانفصال عنه، لأن روسيا ما زالت تسيطر على تكنولوجيا عسكرية غنية لا تقل عن 1.010 مخطط نقلوا في عام 1960 وحده - وحتى أكثر من عام 1958. فصاغ ماو سياسة عدم إدانة الروس «في الوقت الحاضر»، وكان يتوق الى انتزاع كل ما يمكنه انتزاعه منهم بأسرع وقت. وقال لكبار رتبائه: «ستصبح الصين قوية في خلال ثماني سنوات، وسيصبح خروتشيف مفلساً تماماً».

*

وفي بداية عام 1960 قال لمجموعة من المقربين إن الهدف الآن هو «نشر فكر ماوتسي- تونغ» حول العالم. في البداية، يجب ألا تكون المسيرة عنيفة جداً والسبب - كما قال - ألا يُنظر الينا وكأننا نحاول «تصدير أمعاءنا العطرة» (التي كان ماو يقارن بها «أفكاره»). والحملة الترويجية الناتجة عن ذلك أدت الى نشر «الماوية» في العالم.

إن فكرة الترويج لتجربة الصين كنموذج، فيما الصينيون يموتون من الجوع بالملايين، قد تبدو ربما أمراً صعباً لكن ماو لم يقلق: فوضع مصافٍ مانعة لما يمكن أن يراه أو يسمعه الأجانب. وفي شباط 1959، اعتبر «الحكم البدائي» لوكالة الاستخبارات الأميركية حول محصول الطعام في الصين أن ثمة «زيادات ملحوظة في الانتاج». وتمكن ماو بسهولة من ذر الرماد في عيون معظم الزوار. فعندما زارت الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار الصين عام 1955، كان حتى على المرأة الصينية الناطقة باللغة الفرنسية التي عينت لمرافقتها، أن تحظى بإذن

خاص لتكلمها مباشرة بدون المرور بالمترجم. بعد زيارتها القصيرة، صرحت دي بوفوار بقوة «أن السلطة التي يمارسها [ماو] ليست أكثر ديكتاتورية من سلطة روزفلت مثلاً. إن دستور الصين الجديد جعل من المستحيل تركيز السلطة في أيدي رجل واحد». وكتبت كتاباً مطولاً حول الرحلة بعنوان «المسيرة الطويلة»؛ في فهرسته مدخل واحد لكلمة «عنف»، يقول: «ماو في العنف، التحاشي التام».

تأكد ماو من استحالة خروج أي صيني من البلاد باستثناء نخبة مختارة بعناية. من بين هذه القلة التي يحق لها الخروج، الديبلوماسيون الذين أصبحوا مشهورين بسبب اداءاتهم الرديئة؛ فقد عملوا بموجب قواعد مقيّدة لما يمكنهم قوله، الى جانب الأوامر الأكثر صرامة بنقل أي حديث يسمعوه وبمراقبة بعضهم البعض باستمرار. وكان معظم السفراء الشيوعيين الأوائل في الصين جنرالات في الجيش. وقبل توديعهم، قال لهم ماو بشيء من المزاح: «أنتم لا تعرفون أية لغة أجنبية، ولستم ديبلوماسيين [محترفين]؛ ولكن أريدكم أن تكونوا ديبلوماسييني أنا - لأنكم برأيي لن تكونوا قادرين على التحليق». وكان أكثر من نصف هؤلاء الرجال متوجهين الى بلدان شيوعية أخرى.

الأشخاص الوحيدون الذين خرجوا وتكلموا هم عدد قليل من المواطنين العاديين الجريئين الذين خاطروا بحياتهم وسبحوا الى هونغ كونغ. فكسروا جدار الصمت حول المجاعة التي يسببها ماو والحقائق المظلمة في الصين الحمراء بشكل عام. لكن أصواتهم لم تحظ بمصداقية كبيرة في الغرب.

في المقابل، عندما أطلق ماو أكاذيب وقحة أمام القائد الفرنسي الاشتراكي (والرئيس المستقبلي) فرنسوا ميتران خلال مجاعة عام 1961 («أكرر، ليسمعني الجميع: لا يوجد مجاعة في الصين»)، صدقه كثيرون. أما رئيس الوزراء الكندي المستقبلي بيار ترودو فجاء الى الصين عام 1960 وشارك في نص كتاب مفرط في التفاؤل، «بريئان في الصين الحمراء»، لا يذكر المجاعة أبداً. وحتى القائد السابق لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة اللورد بويدأوور، أحس بالخداع. ففي أيار 1959، وبعد رحلة قام بها الى الصين، اعتبر أن انتاج الطعام ارتفع 50 الى 100% عما كان عليه بين عامي 1955 و1958 وأن الصين «تبدو قادرة على إطعام [شعبها] جيداً». أما المارشال البريطاني مونتغومري، الشخصية الأكثر سذاجة، فأكد بعد زياراته عامي 1960 و1961 أن لا وجود «لمجاعة واسعة النطاق، فقط بعض النقص في مناطق محددة»، وهو لم يعتبر حتماً أن «النقص» هو خطأ ماو، لأنه حث ماو على التمسك بالسلطة: «الصين... بحاجة الى رئيس. يجب ألا تتخلى عن السفينة».

لم ينزعج ماو من تغطية المجاعة، وكان واثقاً من قدرته على الترويج لنفسه كقائد دولي

يتمتع بمصداقية. لهذه الغاية، استدعى ثلاثة صحافيين-كتّاب يثق بهم: إدغار سنو، نصف الصيني هان سويين وفيليكس غرين الذي قام بمقابلة مع تشو على محطة التلفزيون البريطانية BBC، واكتفى هذا الأخير خلالها بقراءة الأجوبة المدونة على أوراق أمامه.

إن ترويج ماو لنفسه في الخارج، دعمه ازدياد كبير للبيانات التي تتناول القضايا الثلاث الاعتيادية: الأسلحة، المال والطعام. في 21 كانون الثاني 1960، شُكِّل جهاز جديد اسمه مكتب العلاقات الاقتصادية الأجنبية يعمل بالتناغم مع وزارة التجارة الخارجية ووزارة الخارجية، لتوجيه المساعدة الخارجية؛ فارتفعت فوراً أرقام المساعدات. إن إنهماك ماو في مسألة الهبات تزامنت مع أسوأ وأكبر سنوات مجاعة في تاريخ العالم. ففي عام 1960 وحده مات أكثر من 22 مليون شخص بسبب الجوع.

لم تكن الصين مجرد أفقر دولة في العالم تقدّم المساعدات، لكن مساعدتها كانت الأكبر من حيث النسبة المئوية للدخل الفردي في البلدان الواهبة - وأكثر من ذلك، غالباً ما كانت المساعدات تذهب الى بلدان يكون فيها المستوى المعيشي أعلى بكثير من مستواها، كهنغاريا مثلاً. إن كلفة هذه البيانات لم تكن مجرد كلفة المستوى المعيشي، بل كلفة حياة الصينيين. أكثر من ذلك، كانت البيانات واقعية لأن بكين قالت باستمرار إن القروض يجب أن تُعامل كهدايا أو أن يؤجل التسديد الى ما لا نهاية. وكما بالنسبة الى الاسلحة، أحب النظام أن يقول «لسنا تجار أسلحة»؛ لكن ذلك لم يعن أنه لم يصدّر أسلحة، بل أن ثمن الأسلحة لا يجب أن يسدد.

ورأى ماو أن أفضل فرصة له تكون حيث الحروب مندلعة؛ فالمتلقي الأساسي للمساعدات على لائحته كان الهند-الصينية التي بدد عليها أكثر من 20 بليون دولار أميركي خلال حكمه. في أفريقيا، حاول السيطرة على حركة إزالة المستعمرات: فأغدق المال والسلع والأسلحة على الجزائريين الذين كانوا يقاومون أكبر حرب مناهضة للاستعمار في المحيط، ضد فرنسا(*).

في أميركا اللاتينية، فتحت بكين خطاً مباشراً مع كوبا بعد استئثار فيدل كاسترو بالسلطة في كانون الثاني 1959. وعندما جاء معاون كاسترو، تشي غيفارا الى الصين في تشرين الثاني 1960، تصدّق ماو بـ60 مليون دولار أميركي «كقرض»، قال تشو لغيفارا أنه «غير ملزم بتسديده».

وفي داخل الكتلة الشيوعية نفسها، عمل ماو على محاولة التأثير في كل بلد، لكنه نجح فقط في انتزاع زبون واحد من دائرة التأثير الروسية: إنها ألبانيا الصغيرة المناضلة ضد الفقر. ففي

(*) أظهرت الجزائر مدى اتكال ماو على النزاعات المسلحة. وما إن حازت الجزائر على استقلالها عام 1962 حتى اختفى تأثيرها.

بداية عام 1958، قام ديكتاتورها انور خوجا باستجداء 50 مليون روبل من ماو الراغب في مساعدته - وهذه كمية كبيرة من المال بالنسبة الى بلد يبلغ عدد سكانه أقل من 3 ملايين نسمة. ثم في كانون الثاني 1961، وفيما زادت حدة الشرخ بين بكين وموسكو، وأظهر انور خوجا إمكانية الاعتماد عليه لبث السموم في وجه خروتشيف، قدمت بكين ضعف هذا المبلغ عشر مرات، فأقرضت تيرانا 500 مليون روبل وأرسلت 2.2 مليون بوشل من القمح كانت الصين قد اشترتها من كندا مقابل عملة صعبة. وبفضل الطعام الذي وهبته الصين، لم يدرك الألبانيون حتى ماهية التخصيص، في حين كان الصينيون يموتون بعشرات الملايين. وأخبرنا المسؤول عن المفاوضات الألبانية مع بكين، بوبو شيتي، أن «الجوع ترونه» في الصين. لكن «الصينيين أعطونا كل شيء». «عندما كنا نحتاج الى أي شيء، كنا نتوجه بمجرد طلب من الصينيين... شعرت بالخجل...» وعندما يجفل معاونو ماو كان يوبخهم.

بدد ماو المال وهو يحاول فصل الأحزاب الشيوعية ودعم الأحزاب الموالية لفكر ماو في كل أنحاء العالم - إنها مهمة أوكلها الى رئيس استخباراته القديم كانغ تشانغ. وإذ اكتشف المتهربون معايير بكين الأساسية للولاء، فروا على متن القطار الرمادي. وكشف الأرشيف الألباني عن «كانغ» سريع الغضب في تيرانا يشكو من سرقة اليساريين الفنزويليين بـ300 ألف دولار أميركي من مال الصين المقنن من خلال ألبانيا. وقد أسست الاستخبارات الهولندية حزباً زائفاً موالياً لفكر ماو أسسه واحتُفل به الصينيون. كما أخبرنا المساعد الصيني الكبير للاستخبارات الأميركية، جايمس ليليه، أنهم فرحوا لاكتشاف مدى سهولة التسلل الى الصين: مجرد جمع القليل من الناس يهللون لماو، ودعم حزب موال لفكر ماو، فتقوم بكين بإغداق المال عليهم - وتدعوهم الى الصين. (لكن هؤلاء الجواسيس لم يكونوا نافعين لأن كل الأجانب كانوا مفصولين بقوة عن الصينيين)(*).

ولإطلاق «الماوية» حول العالم، اختار ماو الذكرى التسعين لميلاد لينين، في نيسان 1960، فأصدر بياناً رسمياً بعنوان فلتعش اللينينية طويلاً!، وفيه أن تأييد السبيل السلمي الى الاشتراكية هو ما أسمته بكين «حركة تأييد روح التطور» - غير مقبولة، وأنه إذا كان على الشيوعيين أن

(*) لاحظ صيني واحد على الأقل سهولة تدفق كميات كبيرة من المال الى المشاريع المعدة للترويج الخارجي وتحاول الاستفادة. ففي آذار 1960 خرج كاتب في وزارة التجارة الخارجية بمبلغ مذهل يساوي 200 الف يوان في أضخم احتيال مالي نقدي معروفة، وذلك من خلال تزوير رسالة واحدة وتوقيع واحد: توقيع تشو إن لاي. ادعت الرسالة من صفحة واحدة ان اتصالاً هاتفياً جاء من موظفي ماو الى مكتب تشو يسألون فيه عن سيولة مالية من أجل ترميم معبد في التيبت ليتمكن بعض الصحافيين الأجانب من التقاط صور له. كان للكاتب أربعة أطفال جائعين وأراد أن يشتري لهم الطعام الإضافي. غني عن القول إن هذه البيروقراطية في التعامل اكتشفت بسهولة.

يستأثروا بالسلطة، يجب أن يلجأوا الى العنف؛ لم يتهجم على خروتشيف بالاسم، بل استعاض عن ذلك بتيتو يوغوسلافيا ككبش محرقة. ورأى ماو أنه بهذه الطريقة ستقل حجج خروتشيف لمعاقبته من خلال تعليق تقديم الخبرة العسكرية.

تزامناً مع ذلك، حاول ماو وضع نفسه في وسط الساحة من خلال دعوة أكثر من 700 مؤيد من العالم الثالث في عيد العمال. وكان من المفروض أن يشكل ذلك اللحظة التأسيسية للمعسكر الماوي. فاستقبل شخصياً مجموعات كبيرة منهم، وقد نقل الأجانب «التعبير عن تعظيمهم» له وغناء نشيد الماوية، «الشرق أحمر». وأمر ماو بحصول أقصى حد من الدعاية لهؤلاء الحضور، ودقق بنفسه في كل التقارير الصحفية جملة جملة.

حُدد توقيت هذه اللقاءات مباشرة قبل حدث عالمي ضخم استثني منه ماو – قمة الأربعة الكبار (الولايات المتحدة، المملكة البريطانية، فرنسا وروسيا)، التي تُوقّع افتتاحها في باريس في 16 أيار، وأمل خروتشيف أن يحافظ فيها على تعايش سلمي. وأمِل ماو أن تحقق لقاءاته عرضاً منافساً، وأن يراه فيه العالم بطل المحرومين. لكن خطته لم تلفت الأنظار عملياً، والسبب يعود في جزء منه الى كون أتباعه الأجانب شخصيات مهمشة. لم يوح ماو حتى بإيمان عميق به، ولم يكسب سوى قلة من الأتباع المتحمسين. كان يُنظر اليه كناشر لفكره الخاص؛ وقد سمعته مجموعة من الأفارقة يقول إنه بالنسبة الى الغربيين «فجنسنا لا يبدو أفضل منكم أيها الأفارقة».

إن آمال ماو بأن يُنظر الى خروتشيف كمهادن وإليه كنقيض له، تحطمت بدورها، من قبل جهة غير منتظرة. فقبل أسبوعين من قمة باريس، أطلقت طائرة تجسس أميركية U–2 على روسيا. وعندما رفض الرئيس إيزنهاور الاعتذار، خرج خروتشيف وانهارت القمة. كان على بكين أن تشكر خروتشيف على وقفته الصلبة.

إن ولع خروتشيف بمقاتلة الأميركيين كاد أن يخطف هذه الرغبة من ماو، لكنه بقي عازماً رغم ذلك، واتيحت أمامه فرصة مناسبة: اجتماع للفدرالية العالمية للاتحادات التجارية الذي افتتح في بكين في 5 حزيران 1960. كان هذا أهم اجتماع دولي يُعقد في الصين منذ استئثار ماو بالسلطة، وجاء اليه مشاركون من 60 دولة بين وفود من أحزاب شيوعية حاكمة واتحادات تجارية مجاهدة من القارات الخمس، وبعضها ليست تابعة لموسكو. حرك ماو كل كبار معاونيه للتكتل بقوة في وجه موسكو، معتبراً أن التعايش السلمي هو خيبة أمل، وأنه «طالما الرأسمالية موجودة، لا يمكن تحاشي اندلاع الحرب». إن الفرنسيين والإيطاليين القريبين من موقف خروتشيف، عُزلوا ودُعيوا خدّام الامبريالية. وأخبرنا موفد إيطالي، فيتوريو فوا، أن العدائية الصينية كانت مرهقة للأعصاب الى حد أن الإيطاليين خافوا على سلامتهم الجسدية وحاولوا ألا يبقى أحد بمفرده. إن عدوانية الصينيين صدمت حتى موفد ألبانيا غوغو نوشي، الذي

وصفهم، سراً، بأنهم «قطاع طرق»(*).

وعلق خروتشيف بالقول إن الصينيين «يبصقون في وجوهنا». ورأت موسكو في هذا الحدث بداية للانشقاق الصيني- السوفياتي. وهكذا فعلت الاستخبارات الأميركية؛ فقد قال مديرها المؤقت تشارلز كابيل للمجلس الأمن القومي، بعد أسبوعين، بأن تصرف الصينيين في الاجتماع شكّل «تحدياً فاضحاً لقيادة الاتحاد السوفياتي بحيث اضطر خروتشيف الى مجابهته وجهاً لوجه». حتى الآن، كانت السرية الشيوعية تنجح في إحكام التكتم حول الاختلافات بين موسكو وبكين، وقد شك كثيرون في وجود انشقاق صيني- سوفياتي.

في 21 حزيران، تحدث خروتشيف الى قادة شيوعيين من 51 دولة اجتمعوا في بوخارست. فرفض إصرار ماو على اعتبار الحرب ضرورية لولادة الاشتراكية وقال: «لا حاجة الى حرب عالمية من أجل انتصار الأفكار الاشتراكية في العالم بأسره. المخبولون والمجانين وحدهم يستطيعون الآن الدعوة الى حرب عالمية جديدة» وأضاف بلغة رؤيوية «حرب قد يحترق في لهيبها ملايين من الناس». وفي مقابل ذلك، «الناس ذوات العقول الرنانة كانوا في غالبيتهم من بين ألد أعداء الشيوعية». وهذا بمثابة القول إن ماو كان مجنوناً، واقتراح أن التعايش مع الغرب هو رهان أفضل من متابعة التحالف مع ماو. وقال خروتشيف لموفد ماو، بينغ زين، سراً، «تريد أن تسيطر على الجميع، تريد أن تسيطر على العالم». كما قال خروتشيف للصينيين: «بما أنكم تحبون ستالين كثيراً، لماذا لا تأخذون جثمانه الى بكين؟» وقال لمعاونيه: «عندما أنظر الى ماو أرى ستالين، إنه نسخة ممتازة عنه».

عندما بقي بينغ زين على خط ماو، وجد نفسه وحيداً. وذكر ماو «كنا معزولين في بوخارست. لم نجد حزباً واحداً يدعم الصين. ولا حتى...ألبانيا». إن هذا العزل، إضافة الى حدة هجوم خروتشيف، فاجأ ماو. فالانشقاق في هذه الظروف بات غير مفيد، لأنه ما زال بحاجة الى التكنولوجيا العسكرية الروسية. عندما رفض خروتشيف الموافقة على أيّ من آراء ماو لتوضع في البيان، انصاع ماو للأمر وطلب من بينغ زين أن يوقع.

الآن اكتمل انقشاع الرؤية بالنسبة الى خروتشيف. فعند عودته من بوخاريست، أمر فوراً بانسحاب الألف مستشار سوفياتي – وما فوق من الصين وأوقف مساعدة المشاريع الصناعية الـ155 التي كانت بعيدة عن الإنجاز.

أخطأ ماو في الحساب، وأتى انتقام الروس في وقت غير مناسب أبداً. ورغم أن علماءه أمّنوا

(*) في ذلك الوقت كان احد أفراد المكتب السياسي للحزب الشيوعي الألباني ليري بيليشوفا في الصين، مما سمح للروس بمعرفة ما يجري، وهو أمر عانت بسببه 30 سنة في معتقلات خوجا - لا «مخنوقة» ولا «مبعدة»، كما كتب خروتشيف في مذكراته. وخرجت بحماسة ملحوظة كما رأينا عام 1996.

التكنولوجيا الضرورية لصنع القنبلة الذرية، إلا أن الروس لم ينتهوا من نقل خبرتهم في بناء جهاز الإطلاق: الصواريخ. فارتبك الصينيون وقالوا لعلمائهم أن ينتهزوا كل دقيقة لينتزعوا أموراً من الروس قبل مغادرتهم، وبأية وسيلة ممكنة. كما أوتي بالمغنيات والراقصات لدفع الحراس السوفيات الى الثمالة واحتجازهم على حلبة الرقص، فيما يتم تصوير سجلات الروس العلمية. ومع ذلك فقد أُفسد برنامج الصواريخ وبالتالي كل برنامج القوة العظمى. إن استعجال ماو في الترويج لنفسه كقائد عالمي وكمنافس لخروتشيف دفعه الى التصويب على نفسه.

اضطر ماو الى التراجع. وعندما اجتمع 81 حزباً شيوعياً في موسكو في شهر تشرين الثاني، بدا الصينيون مُصلحين. فقد حضر ماو شخصياً الى السفارة السوفياتية في بكين لمناسبة ذكرى الثورة البولشيفية، وأرسل لخروتشيف تحيات شخصية بغيضة لمناسبة رأس السنة 1961. إنها مصالحة رديئة. في النهاية، تابع الروس تأمين المساعدة ليحافظوا على استمرار العمل على المشاريع الصناعية الـ66 غير المنجزة من أصل 155. لكن ماو لم يحصل على ما أراده أكثر من أي شيء آخر – التعاون المتجدد لنقل التكنولوجيا العسكرية حتى أقصى حدودها.

ألغيت كمية كبيرة من المشاريع الواسعة النطاق. وفي وقت لاحق لام ماو المجاعة التي خلقها هو نفسه، على هذا الالغاء، الذي ادعى أنه دمّر اقتصاد الصين، وادّعاءه يصدقه الصينيون الى اليوم. في الواقع، كان من شأن الالغاءات أن توقف المجاعة: ويمكن للصين الآن أن تصدر كمية أقل من الطعام.

ولكن بدلاً من السماح للشعب الصيني بالاستفادة من فترة استراحة، وجد ماو طريقة جديدة لصرف الطعام. فأصر على متابعة تصديره ليسدد للروس القروض قبل الوقت المحدد – في خلال خمس سنوات بدلاً من 16 سنة وهي الفترة المنصوص عليها في الاتفاقات. فعل ماو ذلك لأنه أدرك أن روسيا بحاجة الى طعام، ويشكل الطعام الصيني ثلثي واردات الطعام في روسيا؛ فإذا استمر في تأمين هذه الكميات الضخمة كما في السابق، يشجع روسيا على الاعتماد على الطعام الصيني، آملاً أن يبيعه خروتشيف مزيداً مما أراده. وفي وقت لاحق، اختلق ماو خرافة مفادها أن خروتشيف ضغط على الصين لتسدد ديونها خلال فترة المجاعة، وأن هذا هو السبب الأساسي لجوع الصينيين. في الواقع، وكما ورد في تقرير قاطع لقادة الصين بعد ماو، فإن روسيا «لم تطالب بتسديد دينها» ثم تجاوزاً، حاولت «إرغام» الصين على القيام بذلك. فماو هو الذي أصر على تسديد الدين مسبقاً قبل الموعد المحدد.

أخبرنا السفير الروسي في بكين في تلك المرحلة، تشيرفونينكو، أن موسكو أوعزت اليه أن يحاول رفض صادرات الطعام الصينية، وأن روسيا رفضت أحياناً الموافقة على شحن الحبوب. وكان الروس يعرفون الكثير عن المجاعة. وقال تشيرفونينكو «ليس عليكم القيام بأية تحقيقات.

يكفي أن تقودوا من المطار؛ فترون أن لا أوراق على الشجر». وفي إحدى المناسبات، عندما رأى الصينيون أنهم سيزيدون شحونات اللحم، سأل الروس كيف؟ وكان الرد: «هذا ليس شأنكم!»

وإذ ابتعد خروتشيف عن المطالبة بالتسريع في تسديد الدين، دعم لا بل أعاد تقييم سعر صرف اليوان: الروبل، لمصلحة الصين. وبحسب مصدر روسي، أدى ذلك الى خفض مديونية الصين تجاه روسيا بنسبة 77.5%. في شباط 1961، عرض خروتشيف على ماو مليون طناً من الحبوب ونصف مليون طن من السكر الكوبي. اشترى ماو السكر لكنه رفض الحبوب، ليس بدافع من الكرامة؛ فقد انتزع لتوه من خروتشيف عرضاً بالتكنولوجيا والخبراء لتصنيع مقاتلات الميغ 21.

وكانت خطة ماو للسنتين القادمتين تقضي بالإبقاء على علاقة مع الكرملين، أملاً في المحافظة على الاستفادة من التكنولوجيا العسكرية، الى جانب توجيه ضربة عنيفة الى خروتشيف في كل مناسبة ممكنة – حتى عبر جدار برلين، الرمز الأخير للحرب الباردة. ثم أخبرنا ديبلوماسي من شرقي ألمانيا أنه عند ارتفاع الجدار في 17 آب 1961، أوضح تشو إن-لاي للألمان الشرقيين أن ماو يرى في ذلك رمزاً لاستسلام خروتشيف للإمبريالية الأميركية».

وفيما ماو يظهر نفسه كمخادع يصعب التعامل معه، كان على خروتشيف أن يحمي ظهره في أية خطوة هامة يقوم بها. ففي تشرين الأول 1962، نشر خروتشيف سراً صواريخ نووية في كوبا، وهذه أكبر مغامرة يُقدم عليها في خلال السنوات العشر من سلطته، وقمة «المناهضة للإمبريالية». وبالنظر الى خطر المواجهة مع الولايات المتحدة الأميركية، أراد التأكد من أن ماو لن يطعنه في ظهره. فقرر أن ينصب له فخاً، ولكن فخاً كبيراً: هو سماح الكرملين للصين بالهجوم على الهند، رغم أن ذلك عني أن روسيا خانت مصالح الهند، البلد الصديق الأساسي الذي لطالما تودد اليه خروتشيف.

كان ماو يخطط منذ فترة لشن حرب على الهند حول مسألة الحدود. فالصين رفضت الاعتراف بالحدود التي رسمها البريطانيون في زمن الاستعمار، وأصرت على إعادة التفاوض حولها، أو على الأقل ترسيمها من قبل الدولتين السيدتين الآن. أما الهند فكانت تنظر الى الحدود على أنها مرسومة وغير قابلة للتفاوض، فإذا بالفريقين أمام ورطة. وعندما ازدادت المناوشات على الحدود، سارعت بكين الى الإعداد لحرب خلال شهري أيار وحزيران 1962. وفي وقت لاحق، أخبر تشو الأميركيين أن «نهرو أصبح مغروراً جداً...وحاولنا التخفيف من غروره». لكن ماو كان حذراً من بدء الحرب بسبب قلقه على سلامة موقع الاختبار النووي في «لوب نور» شمالي غربي الصين، والذي كان خارج مرمى طائرات التجسس الأميركية يو

2 التي تنطلق من تايوان، ولكنه على مرمى الهند. إن جزءاً من التخوف من الحرب يعود الى سماح الهند لطائرات اليو 2 أن تنطلق من قاعدة في شارباتيا، من حيث يمكنها تصوير اختبار أول قنبلة ذرية صينية عام 1964.

كما كان ماو قلقاً من اضطراره الى القتال على جبهتين. ومنذ عام 1949 بدأ تشيانغ كاي-تشيك إعداداته الأكثر حيوية لاجتياح الصين القارية، وقد أمل كثيراً أن يهبّ الشعب ويرحب به بسبب المجاعة. أخذ ماو مشهد الاجتياح القومي على محمل الجد، فأرسل قوات كبيرة الى الشاطىء الجنوبي الشرقي المقابل لتايوان، في حين قبع هو في مخبئه السري في التلال العربية خارج بكين.

ومنذ عام 1955 بدأ الصينيون محادثات منتظمة مع الأميركيين على مستوى السفراء في وارسو. ولجأ ماو الآن الى قناته ليكتشف ما إذا كانت واشنطن ستدعم اجتياحاً يشنه تشيانغ. وحصل على جواب مطمئن ومباشر. قال الأميركيون إنهم لن يدعموا شن تشيانغ ليشن حرباً على الصين القارية وإن تشيانغ وعد بعدم الهجوم بدون موافقة واشنطن.

ومع ذلك بقي ماو متردداً؛ والعنصر الأساسي كان روسيا التي تعتمد عليها الصين كثيراً من أجل النفط. فخلال المناوشات السابقة التي قامت بها الصين على الحدود مع الهند، رفض خروتشيف بافتخار أن يدعم بكين. ثم وافق أن يبيع الهند طائرات يمكنها التحليق على ارتفاعات شاهقة، ووقّع في صيف 1962 اتفاقاً لا يقتصر على بيع الهند طائرات الميغ، بل على السماح للهند بتصنيع طائرات الميغ 21.

وفي بداية تشرين الأول، اقترب شتاء هيملايا وضاقت نافذة الفرص. فأرسل ماو جساساً للنبض الى السفارة الروسية لمعرفة ردة فعل موسكو في حال شنت الصين هجوماً على الهند. وانتهز خروتشيف فرصته للقيام بخطوة مروعة. ففي الرابع عشر من الشهر أعدّ مأدبة وداع استمرت أربع ساعات على شرف السفير الصيني المنتهية ولايته، تعهد خلالها القائد السوفياتي بأن تقف موسكو الى جانب بكين في حال دخلت الصين في حرب حدود مع الهند، وتؤجل بالتالي بيع الهند طائرات الميغ 21. وكشف أنه قام سراً بنصب صواريخ نووية في كوبا وعبّر عن أمله في أن يحظى بدعم الصين.

إنها مفاوضات قوية رافقتها مساومات وتنازلات، وقد حُجبت تماماً عن العالم(*). وفي صباح 20 تشرين الأول وما ان أنذرت الأزمة الكوبية بالانفجار، حتى أعطى ماو إشارة

(*) عندما سأل أحد المشاركين (توماس كوتشيل) في مناقشات المكتب البيضاوي في البيت الابيض في 22 تشرين الاول عن وجود أي إشارة بأن تحرك روسيا في كوبا «مرتبط بالعملية الصينية ضد الهند»، رد رئيس الاستخبارات الأميركية جون ماك كون: «كلا ليست لدينا أية معلومات أبداً في هذا المجال».

انطلاق الجيوش الضعيفة لضرب المواقع الهندية على طول قطاعين واسعين من الحدود. بعد مرور خمسة أيام، وفيها الأزمة الكوبية في أوجها، قدّم خروتشيف دعمه لماو على شكل تقرير نشر في صحيفة البرافدا، الأمر الذي جرح مشاعر نهرو.

سارعت القوات الصينية الى التقدم مسافة أكثر من 150 كم داخل الشمال الشرقي من الهند. ثم، وبعد أن أظهر ماو تفوقاً عسكرياً، سحب قواته وترك لكل بلد أرضاً يتنازع عليها، ولا يزال هذا الوضع سائداً الى اليوم. وهكذا، حقق ماو هدفه: الاستقرار البعيد المدى على الحدود، الأمر الذي ترك له حرية التركيز على طموحاته الأشمل والأوسع. كما سددت الحرب ضربة قاضية لنهرو، منافس ماو على القيادة في العالم النامي، الذي مات بعد 18 شهراً بسبب نوبة قلبية.

في هذه الأثناء، حُسمت أزمة الصواريخ الكوبية بشكل أساسي في 28 تشرين الأول، بعد أن وافق خروتشيف على سحب الصواريخ مقابل تعهد من الرئيس الأميركي جون ف. كينيدي بعدم اجتياح كوبا (وتعهد لم يُنشر بسحب الصواريخ الأميركية من تركيا). وسرعان ما تخلى ماو عن تعهده بعدم إثارة المشاكل لخروتشيف أثناء الأزمة، وحاول التمسك بمسألة استياء هافانا من خروتشيف لعدم استشارتها في شأن التسوية مع الولايات المتحدة. فانطلقت في الصين تظاهرات ضخمة «مؤيدة لكوبا»، ترافقت مع تصاريح تحمل لهجة قتالية وتحتوي اتهامات مبطنة قليلاً ضد موسكو بسبب «البيع». فأمطر ماو الكوبيين برسائل أخبرهم فيها أن موسكو كانت «حليفاً غير جدير بالثقة»، وحثهم على الصمود في وجه اتفاق خروتشيف لنزع الصواريخ والطائرات الروسية. حاول ماو الاستفادة من الفرق بين كاسترو وغيفارا الذي كان ضد التسوية؛ وقال ماو: «رجل واحد فقط فهم الامور بشكل صحيح: شي غيفارا».

لقد تطفّل ماو وأغاظ، لكنه عجز عن دفع هافانا الى تأييد موقفه المناهض للسوفيات. ومع ذلك، استفاد من أحاسيس كوبا المريرة تجاه الروس. فعندما سقطت عرضاً على كوبا قذيفة أميركية حديثة من نوع ثور-أيبل-ستار Thor-Able-Star، وبدل أن يسمح كاسترو للروس بأخذها كما يحصل عادة، عمد الى إثارتهم ضد الصينيين من خلال عرضها في المزاد العلني. نتيجة لذلك، حظيت بكين ببعض العناصر الأساسية التي لعبت دوراً كبيراً في تمكينها من تطوير صواريخها.

خروتشيف من جهته، تراجع عن دعمه السابق للصين حتى خلال استمرار القتال داخل الهند. ومن الواضح أن افتتاحية صحيفة برافدا الصادرة بتاريخ 5 تشرين الثاني لم تحتو على كلمة واحدة حول دعم موقف بكين. فبالنسبة اليه، كما الى ماو، كان التعاون انتهازياً الى أقصى الحدود، ومع ذلك أراد المحافظة على لُحمة المعسكر الشيوعي.

فعل ماو الشيء نفسه، على أمل أن يتمكن من انتزاع مزيد من الأسرار النووية من خروتشيف بالخدعة. في تموز 1963 أحبطت هذه الآمال نهائياً عندما وقع خروتشيف مع أميركا وبريطانيا معاهدة حظر الاختبار النووي التي منعت الموقعين من مساعدة الآخرين على حيازة القنبلة(*). وعنى ذلك عملياً، أن خروتشيف لم يعد الآن مفيداً بالنسبة الى ماو.

عند هذا الحد، وبعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على بدء نشر الماوية على صعيد العالم، أصدر ماو أمراً بإدانة خروتشيف بالإسم على أنه «مؤيد لروح التطور». وسرعان ما علت جولة من الهجوم الكلامي الشعبي. بالنسبة الى ماو، شكل هذا الهجوم نوعاً من الحملة الدعائية الدولية للماوية التي يلخص جوهرها في أحد الاتهامات الأساسية الموجهة ضد خروتشيف: «بنظر المؤيدين لروح التطور المعاصرين، البقاء على قيد الحياة هو كل شيء. وفلسفة البقاء حلت محل الماركسية-اللينينية». ومن الصعب الآن أن يعيد المرء نفسه الى زمن قد يعتقد فيه أي شخص أن الاحتكام لهذه المقاربة ممكن؛ لكن إنكار رغبة الناس - وحقهم - بالعيش كان أمراً أساسياً بالنسبة الى نشر الماوية.

(*) كان كينيدي يحاول فعلياً استخدام المعاهدة لتوسيع الهوة بين موسكو وبكين.

44- ضحية كمين نصبه الرئيس
(1961-1962، 67-68 سنة)

عندما أطلق ماو القفزة الكبرى للأمام عام 1958، سانده رجله الثاني ليو شاو-كي رغم عدم موافقته على موقف ماو. وعندما عبّر وزير الدفاع بينغ دو-هواي عن معارضته سياسات ماو في لوشان عام 1959، فيما المجاعة منتشرة، فشل ليو، الذي كان يومها رئيس دولة وكذلك الرجل الثاني في الحزب، في تأييد بينغ.

لكن ليو انزعج كثيراً من المجاعة التي عرف أنها استهلكت حوالى 30 مليون نسمة في بداية عام 1961. وتأثر بشكل خاص بعد أن عاد الى منطقته الأم في هونان في نيسان-أيار من تلك السنة، ورأى فوراً المعاناة المروعة التي ساهم في خلقها؛ فقرر أن يجد وسيلة لإيقاف ماو.

خلال الرحلة، زار ليو أخته. فقد تزوجت شخصاً ينتمي الى عائلة من «مالكي الأراضي» صُنّفوا «طبقة الأعداء». عندما كتبت رسالة لليو في بداية عهد ماو حول شدّتهم خلال فترة إصلاح الأراضي، رد عليها مدوناً كل النصائح «الصحيحة» وغير المريحة. أتى اليها الآن حاملاً الطعام: 2.5 كغ من الأرز، 1 كيلو من البسكويت، 1 كغ من الحلويات، 9 بيضات مملحة ومرطبان من شرائح لحم الخنزير. كانت أخته مطروحة في الفراش جائعة ومريضة، تنتحب وهي تتحدث عن زوجها الذي مات منذ زمن ليس ببعيد على أثر ألم شديد أحس به بعد أن أكل كعكة مصنوعة من الحبوب غير المقشورة تركتها ابنتهما خصيصاً له. لكن معدته التي بات ضعيفة عجزت عن هضم الطعام القاسي. ولم يتوفر أي طبيب يمكن استدعاؤه أو مستشفى يمكن الانتقال اليها.

هذا الصهر كتب رسالة لليو عام 1959، بعد أن أصبح ليو رئيساً، ليخبره عن الجوع في القرية. لكن الرسالة اعتُرضت وعوقب هو بربطه الى شجرة وتُرك ليتجمد وسط رياح قارصة حتى أشرف على الموت.

أينما ذهب ليو، كان يصادف مشاهد موجعة للقلب وقصصاً مأساوية. فاستطاع أن يتحسس مدى كره الناس للشيوعيين - وله. ففي قريته الأم، كتب ولد في الثانية عشرة من عمره «فليسقط ليو شاو-كي» خارج منزل عائلة ليو القديم. هذا الولد رأى ستة من أفراد عائلته يعانون من الجوع والمرض المستشري خلال سنة كاملة، وآخرهم كان أخوه الأصغر الذي مات بين يديه؛ كان يحمل الطفل بين يديه وينظر من حوله بحثاً عن أحد يرضعه لأن

أمها ماتت. طلب ليو من الشرطة ألا تعاقب الولد «كأحد أفراد الثورة المضادة» المسؤولة عادة عن هكذا أعمال.

كما منع السلطات المحلية من معاقبة الفلاحين بسبب «سرقة» الطعام، وأدلى باعتراف لافت وقوي أمام القرويين مفاده أن النظام هو الذي يسرق طعامهم. قال ليو: «أعضاء الكومون يفكرون بهذه الطريقة. بما أنكم تأخذون منا، لماذا لا يمكنني أن آخذ منكم؟ بما أنكم تأخذون الكثير لماذا لا يمكنني أن آخذ القليل؟»

قام ليو بأمر لم يسبق له مثيل. فاعتذر من الفلاحين بسبب الفوضى التي أحدثها الشيوعيون. وقال، بعد حوالى 40 سنة «أنا مصدوم لرؤية القرويين زملائي يعيشون حياة قاسية الى هذا الحد...أعتبر نفسي مسؤولاً عن التسبب بهذا القدر من المعاناة لكم، وعلي الاعتذار...» ثم بدأ يتنهد وانحنى أمام القرويين.

تركت هذه الرحلة أثراً عميقاً في نفس ليو. وبعد عودته الى بكين، قال لكبار المدراء: «لا يمكننا الاستمرار بهذه الطريقة».

في آب 1961، ومع اقتراب موسم حصاد الخريف، جمع ماو مدرائه مجدداً تحت سماء جبل لوشان المغطاة بالغيوم، ليحدد كميات الطعام المنتزعة. فضغط عليه ليو ليخفض الأرقام؛ لكل من الرجلين حججه الكثيرة، وانعكس التوتر في علاقتهما لينعكس على تصرفهما الخارجي، كما لاحظ المراهق ابن أحد رؤساء المقاطعات. كان يسبح في الخزان مع بعض أبناء كبار الضباط، عندما وصل ماو. تسلق الأولاد بحماس على المنصة الخشبية حيث جلس ماو مع الحراس والراقصات. قال الصبي لماو إنه ابتلع بعض الماء وهو يسبح، فردّ ماو: «لا شيء يخنق إذا كانت آلاف الأفواه مليئة بالماء خلال السباحة؛ يجب أن تختنق عشرات الآلاف من الأفواه المملوءة قبل أن تسيطر عليها». الاختناق خلال تعلّم السباحة كان صورة مجازية «للتعلّم الذي يأتي بثمن»، الأمر الذي غالباً ما تطوع ماو لشرحه بعيداً عن كوارثه الاقتصادية المتكررة. وبعد ذلك بقليل سبح ليو شاو-كي مع حراسه وتسلقوا المنصة. لم يتبادل الحديث كثيراً مع ماو، كالإيماء. بل جلسا منفصلين بحيث بلغت المسافة بينهما حوالى 30م2 ، يدخنان ولا ينطقان بأية كلمة. وتذكر الصبي أنه تساءل: «كيف لا يحييان بعضهما؟»

كما حاول معاونو ماو الآخرين أن يفكروا معه. وبعد أن تجولا في منطقة قديمة للقاعدة الحمراء في هبي، قال تشو إن-لاي لماو إن الشعب «لا يملك سوى أوراق الشجر والخضار المالحة والأعشاب البرية، ولا شيء آخر أبداً. لم يبق في الحقيقة أية حبوب»، فاغتاظ ماو بشدة؛ وفيما كان تشو يصف مرة ما رآه، رد ماو بحدة: لماذا كل هذه الجلبة؟»

ومع ذلك، وتحت ضغط كبير في لوشان، وافق ماو على وقف مصادرة الطعام عندما تتعدى 34% من الرقم الذي وضعه في بداية السنة. نتيجة لذلك، تراجعت حالات الموت بسبب الجوع عام 1961 الى نصف ما كانت عليه تقريباً في السنة السابقة - رغم بقائها قريبة من الـ12 مليون.

إن هذا التنازل الذي قدمه ماو يعود في جزء منه الى أن عدداً كبيراً من المشاريع الصناعية الضخمة ستتوقف في جميع الأحوال نتيجة نقص المواد الأساسية كالصلب والفحم والكهرباء. وإغلاق هذه المشاريع كان فكرة جيدة، بسبب الخسارة المذهلة التي تسببها، لكن النتيجة كانت اضطراباً كبيراً إذ فقد أكثر من 26 مليون شخصاً وظائفهم. هذه المشاريع وحدها، امتصتها المدن خلال السنوات الثلاث الأخيرة؛ والآن رميوا مجدداً في قراهم - في أضخم حركة أخذ وردّ للسكان في تاريخ البشرية. وقال ماو بتعجب: «ما أروع شعبنا وكوادرنا الصينيين! 20 مليون نسمة: نناديهم فيأتون؛ نصرفهم فيذهبون». وتابع: «أي حزب يمكنه القيام بذلك غير الحزب الشيوعي؟» وما إن عاد هؤلاء الى قراهم حتى خسروا أي مستوى متوسط من الرزق والرفاهة، كانوا قد حصلوا عليه لكونهم عمال مصانع. إضافة الى ذلك، كانت العائلات تفلس إذا ارتبط أحد الزوجين بعمل في المدينة ولم يشأ العودة للعيش كفلاح ومواجهة الجوع. أزواج كهؤلاء واجهوا احتمالات العيش وهم منفصلين دوماً، فلم يتمكنوا من البقاء معاً أكثر من 12 يوماً في السنة.

ولكن مع تنازله عن فرض جمع كميات أقل من الطعام عام 1961، حذر ماو الحاضرين في لوشان بقوله: «لقد انسحبنا الى أسفل الوادي» ما يعني أن الطريقة الوحيدة للمصادرة يمكن أن تبدأ من هناك وصعوداً. في السنة التالية، قيل لمدرائه أن يزيدوا مجدداً فرض جمع الطعام.

ولكل من يحاول من الحاضرين التفكير بتدابير عنيفة ضده، أرسل ماو إشارة إنذار من خلال قناة غير اعتيادية، المتقاعد الزائر المارشال مونتغومري. فقال ماو لمونتغومري بشبه عفوية: «أنا مستعد للتدمير في أي وقت»، قبل أن يعلن عن خمس وسائل ممكنة لاغتياله: «إطلاق النار من قبل الأعداء حتى الموت، حادث طائرة، حدث قطار، غرق والتسمم. وقد قمت باستعدادات لجميع هذه الوسائل الخمس». وبما أن تداول كبار القادة بحديث ماو مع الأجانب هو إجراء عادي، حذر ماو معاونيه بالقول: لا تحاولوا أي شيء. أخذت احتياطات.

من حق ماو أن يقلق. فحتى الحراس البريتوريين الذين يأتمنهم على حياته، عبروا عن مشاعر مريرة تجاهه. فقال أحد الجنود: «أين كل هذه الحبوب التي حصدت؟» وسأل آخر: «هل الرئيس ماو أمر بألا يأكل الشعب إلا العشب؟ لا يمكنه ألا يلاحظ إن كان شعبه يعيش أو يموت...» وأضاف آخر: «الناس في القرى الآن لا يملكون حتى الطعام الذي اعتاد الكلاب

على تناوله. في الماضي، كان الكلاب يحصلون على القش والحبوب...وأعضاء الكومون يقولون: هل يريد الرئيس ماو تجويعنا جميعاً حتى الموت؟» فسرعان ما أُبعد الحراس.

إن أكثر من أقلق ماو في أيلول 1961 هي إمكانية فقدان السلطة في مؤتمر الحزب. فقد كتب لين بياو في مذكراته إن «أكبر هم» بالنسبة الى ماو «هو حصوله، أو عدم حصوله على أغلبية عند التصويت». وكان هذا الشهر موعد المؤتمر الحالي. انعقد المؤتمر السابق في أيلول 1956 ونص قانون الحزب على انعقاد مؤتمر كل خمس سنوات. فكان على ماو أن يواجه التهديد بترحيله.

وكما في عام 1959، أحس ماو باستياء عميق تجاهه من قبل كبار رتبائه. ثم قال لمتحيزّ في الحزب «إن لم تصوت لي، فليكن». ومنذ ذلك الحين بات الضباط مهووسين بتأثير المجاعة. وفي اجتماعات الحزب في المقاطعات، كان الكوادر يجهشون بالبكاء وهم ينقلون ما رأوا في القرى. أكثر من ذلك، أدت سياسات ماو الى تجويعهم هم أنفسهم وعائلاتهم. فقد بلغت حصصهم الشهرية حوالى 10كغ من الأرز ومقادير قليلة من زيت الطبخ وقطعة صغيرة من اللحم. في زونغنانهاي، عمد بعض الضباط كمعاوني ليو الى زرع القمح والخضار خارج مكاتبهم لزيادة حصصهم غير الكافية. فالجوع دفع ضباط ماو الى طلب شبه شفقة عالمية لتغيير السياسة.

حاول ماو تخفيف هذا الاستياء من خلال وسيلته المعهودة أي تعيين من سيكونون كبش المحرقة. فالناس الذين اختارهم كانوا أولاً كوادر كل القرى الذين لامهم لأنهم «ضربوا الناس، وضربوهم حتى الموت»، ولأنهم تسببوا بسحب حصاد الحبوب فيما الناس لا يملكون طعاماً كافياً يأكلوه». ثم لام الروس، وكبش المحرقة الثالث كانت «الكوارث الطبيعية الهائلة». في الواقع، أظهرت تقارير الأرصدة الجوية ليس فقط أن الكوارث الطبيعية لم تحصل خلال سنوات المجاعة، بل أيضاً أن الطقس كان أفضل من المعدل. ولكن رغم عدم إدراك الكوادر للصورة الحقيقية للوضع، آمن نصفهم بماو، وبقي الضباط الجائعون يشعرون أن أمراً ما يسير بشكل سيء تماماً من حيث طريقة إدارة الحزب للبلد، ليصل الشعب بأسره، وهم أنفسهم، الى هذه الحالة من البؤس.

كما حاول ماو أن يكسب تعاطف أصوات كوادره من خلال إعلانه لأفراد الحزب أنه «سيشارك الأمة في السراء والضراء»، ويمتنع عن أكل اللحم. في الواقع، كل ما فعله فترة من الزمن، هو أكل السمك الذي كان يحبه، بدلاً من اللحم. لكن امتناعه عن اللحم لم يدم طويلاً. ففي أوج حالة المجاعة، أبدى إعجاباً بالمطبخ الأوروبي الغني باللحوم. وفي 26 نيسان 1961، قُدمت اليه مجموعة واسعة من لوائح الطعام الأوروبية ضمت سبعة أصناف رئيسية: ثمار

البحر، الدجاج، البط، الخنزير، الغنم، العجل والحساء – ولكل صنف مجموعة من الأطباق.

ذهب ماو بعيداً في سبيل المحافظة على سرية كاملة لحياته اليومية. كانت ابنته «لي نا» تذهب الى الجامعة، فكانت بالتالي تعيش خلال أيام الأسبوع بحسب المعايير الطبيعية وكانت تجوع. بعد قضاء عطلة أسبوع واحدة في البيت، هرّبت شيئاً من ترف والدها الاعتيادي الى خارج المنزل. فأمرها ماو ألا تفعل ذلك مجدداً أبداً؛ لا شيء يجب أن يخرق توهّم الناس بأنه يقتصد في الطعام تضامناً مع باقي الأمة. نتيجة لذلك، عانت لي نا من أوديما حادة عام 1960 وتوقف طمثها. في السنة التالية، تركت الجامعة وقبعت في البيت.

أمام معاونيه الذين كان يرونه ما يأكل، وهم أنفسهم نصف جائعين كما عائلاتهم، ادعى ماو أن طعامه هو مكافأة له «من الشعب»، وأن الآخرين «لا يحق» لهم الحصول عليه. عندما أخذ مدبّر منزل ماو بعض فتات الطعام معه الى بيته، وجد نفسه منفياً في البرية الشمالية العظمى ولم يُسمع عنه شيء منذ ذلك الحين.

لم ينجح ماو في محاولة اكتساب تعاطف بعض الأصوات؛ فالحرمان كبير جداً. ومن بين الأشياء التي اختفت كلياً، الصابون، لأن ماو كان يصدر الشحم الضروري لصنعه. أراد ماو أن يتقبل الناس الاستغناء عن الصابون، فأخبر الحزب أنه هو نفسه أقلع عن استخدام الصابون لغسل يديه. فصرخ أحد الضباط سراً وقال: «إنه لا يقوم بأي عمل مناسب!» وكان الضباط الكبار يقولون لبعضهم البعض أموراً أخرى لا يمكن تصديقها مثلاً: «لماذا لا يذهب، هكذا بكل بساطة!» وكان ماو يعلم أي نوع من التعليقات المريرة يتبادلون. ومن بين الملاحظات التي تناهت الى مسمعه: «لو ما يحدث الآن حدث في الماضي، لكان على الحاكم أن يستقيل منذ زمن بعيد».

عندما ذهبت ابنة ماو تشياو-تشياو لتنظف قبر زوجته السابقة كاي-هواي، سمعت الناس يشتمون ماو، فأخبرته. وعندما سُمح لوزير الدفاع السابق المبعد بينغ دي-هواي الذي وضع تحت الإقامة الجبرية منذ عام 1959، بزيارة منطقته الأم في تشرين الاول 1961، لقي ترحيباً حاراً من الضباط ومن القرويين العاديين على حد سواء، لأنهم سمعوا أنه أبعد بسبب معارضته سياسات ماو. فتدفق نحو ألفي «حاج»، وقد سار بعضهم مسافة 100كم بمعدة شبه فارغة، الى منزل عائلة بينغ القديم ليشكروه على رفع الصوت عالياً. فبقي بينغ يتكلم حتى فقد صوته.

إذا انعقد المؤتمر المقرر ولجأ الى التصويت، فثمة إمكانية كبيرة بألا يحصل ماو على أصوات. وقد عبّر عن خوفه لاحقاً أحد أتباعه المقربين (زانغ تشان-كياو، أحد الرائدين في «عصابة الأربعة»): «لو طُبق قانون الحزب القديم، وعُقد المؤتمر التاسع... لأصبح ليو شاو-كي هو الرئيس...»

دعا العديد من الضباط الى انعقاد مؤتمر لمواجهة الوضع المأساوي. عارض ماو الفكرة ولجأ الى حيلة الدعوة الى عقد مؤتمر لا تكون فيه قوى تصويتية، فيتفادى بالتالي التهديد بالخلع. سيحضر المؤتمر كبار الأشخاص القلة في كل وزارة ومقاطعة ومدينة ومنطقة وبلدة، الى جانب المؤسسات الصناعية الأساسية.

في كانون الثاني 1962، جاء هؤلاء الضباط 7- آلاف ككل- الى بكين من كل أنحاء الصين لحضور أكبر اجتماع في تاريخ الحزب والذي عُرف بمؤتمر السبعة آلاف. وبرهن أنه شكّل نقطة تحوّل، إذ بعد المؤتمر توقفت المجاعة. ولكن ما ليس معروفاً كثيراً هو أن هذا النصر أمنه ليو شاو-كي الذي نصب كميناً لماو.

فعندما دعا ماو الى المؤتمر، لم تكن لديه النية بوقف السياسات المميتة. على العكس، كان هدفه انتهاز الفرصة المناسبة لحث ضباطه على العودة الى منازلهم فيلجأ الى مزيد من العنف. ثم قال أمام جماعة من المقربين: «ليست المسألة أننا نفتقر الى ما [نأكله]. صحيح أنه ليس لدينا كمية كافية من لحم الخنزير ولكن يوجد طعام آخر كثير. لكننا نبدو غير قادرين على وضع يدنا عليه. نحتاج الى التحفيز».

إن الوسيلة التي استخدمها ماو لرسم خطه هي إعطاء الموفدين نص خطابه الرئيسي قبل الإدلاء به. يشرح النص الكوارث السابقة التي جاء الحديث عنها غامضاً ومقتضباً على أنها «أخطاء»، قبل الإعلان عن «انتهاء الفترة الأصعب». والأسوأ أنه لم يدع فقط بأن «وضعنا البيتي جيد ككل» بل أعلن أيضاً عن حصول قفزة كبرى أخرى خلال السنوات القادمة.

قيل للموفدين أن يعبروا عن آرائهم، وأن تعديلاتهم تؤخذ بعين الاعتبار قبل تلاوة الخطاب. لكن ماو تأكد أنه من الصعب جداً على أي كان أن يعبر عن رأيه بحرية، وذلك من خلال تنظيم النقاشات داخل مجموعات يرأس كل واحدة منها أحد أتباعه الموثوقين والمرعبين. فكل من يتجرأ على طرح أسئلة حادة، يتم إسكاته فوراً بتهديدات ثقيلة. وعندما كتب أحد الموفدين الشجعان رسالة مجهولة الى القيادة، تحولت الجلسات للجميع الى مجرد «فترة للجلوس وتمضية الوقت».

استمر ذلك خلال أسبوعين. وحافظ ماو على مراقبة شديدة للموفدين، وكان يقرأ بتعجرف تقارير النقاشات وهو مستلق في فراشه بين أحضان فتياته. وقضت خطته بأن يلقي ليو شاو-كي الخطاب النهائي أمام الجلسة الوحيدة والمكتملة في 27 كانون الثاني ثم يختتم المؤتمر. بالتالي يتجمد برنامجه ويتحمل ليو وكل المشاركين جزءاً من المسؤولية.

*

لكن خطة ماو الحذرة سقطت. ففي السابع والعشرين من الشهر، فاجأ ليو ماو بأمر مباغت

تماماً. ففي حضور ماو شخصياً، أدلى ليو بخطاب مختلف عن نص الرئيس المعمم والذي كان من المفترض أن يلقيه.

أمام حضور كثيف قوامه 7 آلاف مستمع من كبار الضباط في البلد، غاص ليو في سياسات ماو، وقال: «لا يملك الناس ما يكفي من الطعام والألبسة أو الضرورات الأخرى؛ والمحصول الزراعي الذي لم يرتفع عام 1959 و1960 و1961 لم يتراجع قليلاً بل كثيراً جداً...لم تحصل قفزة كبرى للأمام بل حصل سقوط كبير للوراء». وأغفل ليو الشرح الرسمي للكوارث بقوله إن «الطقس لم يكن سيئاً جداً» في المناطق التي زارها -وأضاف ملمحاً- ولا في أي مكان آخر. ودعا الموفدين للتساؤل حول القفزة الجديدة التي دعمها ماو، وزاد إمكانية مقاومة الكومونات وحتى نمط ماو في برنامجه التصنيعي.

اعتبر ليو بدون أي شك أن السياسات السابقة كانت مأساوية ويجب العدول عنها. فرفض علناً صيغة ماو المعيارية بأن «الأخطاء هي أصبع واحد فيما الإنجازات هي ثمانية أصابع». وقال بصراحة إن ذلك ليس صحيحاً. وعندما قاطعه ماو وأصر على أن هذا صحيح في أماكن عديدة، عارضه ليو.

أثار خطاب ليو رداً عاصفاً من الحضور الذين انتظروا بصعوبة أن يرفعوا أصواتهم. وقد أخذت النقاشات في ذلك اليوم نبرة ومزاجاً مختلفين. وإذ أدرك الموفدون أن الرئيس أصبح وراءهم، عبّروا عن آرائهم وأدانوا السياسات السابقة بانفعال وأصروا على عدم تكرارها.

لم يتوقع ماو من ليو الحذر جداً عادة أن يخدعه. داخلياً، شعر بغضب شديد لكنه قرر أنه من الحكمة أن يضبط نفسه لأن ليو يحظى بدعم 7 آلاف مشترك، وكان ماو عاجزاً عن تحقيق اصطدام وجهاً لوجه مع هذا العدد الكبير من الضباط، الذي يشمل كل من يدير البلد تقريباً. فكان عليه الادعاء بأن لا خلاف بينه وبينهم. وأول ما قام به هو تمديد المؤتمر معتبراً ذلك رداً متعاطفاً من جهته مع مشاعر الموفدين، وقال إن ذلك سيسمح لهم «بتفريغ القلق الذي في داخلهم» (*chu-qi*). وعندما جلس بمفرده بدأ يدخّن وسمى ذلك «إطلاق حيواناتهم الأليفة» (*fang-pi*).

غاص ماو في التحكم بالضرر للقضاء على أي فكرة حول مسؤوليته عن المجاعة. فعين بعض رؤساء المقاطعات والقادة الزراعيين والمخططين لتتحمل الخطابات مسؤولية الكوارث، وبالتالي يعفى هو من المسؤولية. لكن أهم مناورة قام بها هي طرد صديقه الحميم وزير الدفاع لين بياو الذي كان أول شخص يتحدث بعد تمديد المؤتمر، في 29 كانون الثاني. وقد بدأ تواطؤ المارشال مع ماو منذ عام 1929، وكان شخصاً يمكن لماو أن يعتمد عليه ولو لسبب بغيض.

أمام المشتركين الـ7 آلاف، عرض لين بياو الكليشيهات العديمة الرحمة التي أحب

ماو سماعها: الكوارث هي «رسوم ضريبية» لا مفر منها؛ وأفكار الرئيس ماو كانت «دائماً صحيحة»؛ «وفي زمن الصعوبات...علينا جميعاً أن نتبع الرئيس ماو أكثر». عندما انتهى، كان ماو أول المصفقين ومدح لين باشمئزاز أمام الحضور. الآن فقط أحس ماو بما يكفي من الاطمئنان ليلمح في اشمئزازه الى ما فعله ليو شاو-كي، مستخدماً عبارة مشؤومة «سأنتقم منك لاحقاً». فقد نجا لين بياو من أذى ماو.

ما إن رأى ليو شاو-كي لين بياو أمامه حتى تجمد قلبه. وأخبرتنا أرملته أن ليو تمتم: «جاء لين بياو وتحدث بهذه الطريقة؛ إنها مشكلة». إن هذا التضامن الكامل مع ماو من قبل قائد الجيش، والذي عبرت عنه اللغة الحاسمة التي أشارت الى عدم وجود نقاش عقلاني، ألقى بظل مخيف على المشتركين. وفي خلال الأيام اللاحقة، لطّفا لغتهما وطريقتهما في التعبير عن غضبهما، رغم استمرارهما في انتقاد السياسات الاقتصادية المأساوية. نتيجة لذلك، لم تحظ سياسات ماو بالتدقيق وبالإدانة القاسية التي أمل ليو في حصولها. ولم يجرؤ أحد على انتقاد ماو مباشرة، على الأقل بالاسم.

ومع ذلك، شعر ماو بقوة إحساس المشتركين الـ7 آلاف، وأحس أنه مرغم على القيام «بانتقاد ذاتي» أمامهم، في 30 كانون الثاني – للمرة الاولى منذ توليه السلطة عام 1949. ورغم أن ماو يُلمح دائماً الى أن الكوارث ناتجة عن أخطاء الآخرين، وأنه تقبل بغيرية اللوم الموجه اليه مستخدماً بعناية صيغة ساخرة مثل «أنا مسؤول...لأنني الرئيس»، فقد اعترف بوجود أمور كثيرة يلام عليها. وإذ قام ماو بهذا الاعتراف، بات عليه استيعاب سياسة التغيير. فاضطر الى التخلي عن سياسات فرض انتزاع الطعام بالقوة التي خطط لها منذ عام 1962 الى الآن. نتيجة لذلك، نجا عشرات الآلاف من الناس من الموت بسبب الجوع.

وما إن انتهى المؤتمر في 7 شباط، حتى طار ماو بسرعة الى شانغهاي ليكون بين أصدقائه الحميمين في منطقة نفوذ القائد المحلي كي كينغ-شي. فكان عليه أن يتحاشى الخطأ فيما ليو ومعاونه الآخرون وبخاصة تشو إن-لاي وتشين يون والنجم الصاعد دينغ كزياو-بينغ، أدخلوا تغييرات أساسية على سياساته. فتراجعت المصادرة الى حد بعيد، وعُلّقت المشاريع المكلفة وغير الواقعية كالغواصات النووية، رغم عدم تأثر البرنامج النووي الأساسي. فالإنفاق على مصانع الأسلحة خفّ كثيراً في حين حصلت مصانع السلع الاستهلاكية على تمويل لم يسبق له مثيل. وفي فورة الترويج لفكر ماو الى ما وراء البحار، تراجعت المساعدات بشكل عنيف – حتى الصفر عملياً خلال السنة. فتهوّر ماو لم يكن مقبولاً أبداً من قبل الضباط الذين علموا بشأنه. وكتب الرجل الذي قدم لاحقاً مساعدة عسكرية: «كلما رأيت وجوه

الأجانب الضاحكة عند التوقيع على اتفاق مساعدة جديد، يمتلىء قلبي بإحساس بالذنب تجاه شعبي الخاص».

ارتفع الاستثمار في الزراعة بشكل سريع. ففي أماكن عديدة، سُمح للفلاحين باستئجار أراض من الكومون، وكانوا قادرين فعلياً على العودة الى ما كانوا عليه: فلاحون منفردون. وأدى ذلك بالتالي الى تراجع الجوع وتحفيز الانتاجية. ودفاعاً عن هذه الممارسة، استشهد دينغ كزياو-بينغ بقول قديم أصبح ملاحظته الأكثر شهرة: «لا يهم أن تكون الهرة صفراء أو سوداء طالما أنها تلتقط الفئران». في المدن، خُفضت ساعات العمل ليتمكن الشعب الذي يعاني من سوء تغذية من استعادة قواه، وأعطى ذلك مزيداً من الوقت الخاص والحياة العائلية. وفي أقل من سنة، تحسنت حياة الناس بشكل ملحوظ. على العموم، توقف الموت بسبب الجوع.

كما سمح النظام لعدد من الناس بمغادرة البلاد. عادة، كان الناس الذين يحاولون الهرب الى الخارج، يرسلون الى معسكرات العمل، ولكن الآن فتحت السلطات نافذة في اتجاه هونغ كونغ لبضعة أيام لتسمح لـ50 ألف نسمة بالطيران. وكان حراس الحدود يمدون يدهم لرفع الأطفال فوق السلك الشائك.

شكّل عام 1962 أحد أكثر المراحل الليبرالية منذ بداية حكم ماو. وفي هذا الربيع، قام ليو ومعاونيه بعملية تأهيل شاملة لجميع الذين أدينوا بعد إبعاد بينغ دو-هواي عام 1959، والذين يبلغ عددهم حوالى 10 ملايين. كما أُعيد تأهيل بعض «اليمينيين» (الذين أدينوا بين عامي 1957 و1958). في مجالي الفن والأدب، أُنجزت إبداعات ضخمة. فكان من الضروري أن يموت عشرات الملايين من الناس ليصل الباقون على قيد الحياة الى هذا الحد من الارتياح. وفي تلك السنة أيضاً شعر بانشين لاما بالقدرة على مراسلة تشو إن-لاي، ليسرد له تاريخ القساوة التي عانى منها التيبيتيون. ولكن حصل بعض الارتياح في التيبت، فأعيد ترميم بعض الأديرة وتمّ تقبل بعض الممارسات الدينية.

إن أكبر هزيمة عانى منها ماو منذ توليه السلطة، هي إرغامه من قبل حزبه الخاص على تغيير سياسته - بدون دعم موسكو - . ففي البداية، وقع ضحية دهاء ليو الذي كان يظهر حذراً فائقاً. ثم خسر في الواقع، عملياً، تأييد كل الطبقات التي كانت تدير البلد. ومن الآن فصاعداً، نما في داخل ماو حقد فائر تجاه ليو والضباط الذين حضروا المؤتمر - وتجاه حزبه، الذي يمثله هذا الشعب بشكل واضح. كان مفعماً برغبة في الثأر؛ وهدفه رئيس الصين والعمود الفقري لحزبه. لهذا السبب، وبعد سنوات قليلة، أطلق ما سمي «التطهير الكبير»، أي الثورة الثقافية، التي حطم خلالها ليو ومعظم الضباط في تلك القاعة وآخرين كثيرين. وعندما عبّرت السيدة

ماو عن رأيها، «كبت ماو ضيمه في مؤتمر السبعة آلاف، ولم يكن قادراً إلا على الانتقام من خلال الثورة الثقافية». بالطبع لم يكن ماو يسعى فقط وراء الانتقام والضراوة والدمار؛ فكان واضحاً بالنسبة اليه أن هذه المجموعة من الضباط ليست مستعدة لإدارة البلد بالطريقة التي أراد. فكان ليبعدهم ويستبدلهم بمنفّذي أوامر جدد.

إن عدداً قليلاً من المشاركين غادروا المؤتمر شاعرين أن ليو ينذر بالشر. وليو نفسه أدرك أن ما جرى هو أكبر نقطة تحوّل في حياته، لكنه قرر أن أولويته هي تفادي وقوع عشرات الملايين الآخرين من الموت جوعاً. خلال هذه الفترة، أظهر ليو المتحفظ عادة تعاطفاً غير معهود وعبّر جهاراً عن ورطة الشعب الصيني الذي عانى بشكل مأساوي على أيدي نظام كان هو فيه عضواً قيادياً.

وخلال السنوات القليلة اللاحقة، عمل ليو ومن أيده من المعاونين، على إنعاش الاقتصاد فيما ماو يخطط للانتقام.

45- القنبلة

(1962-1964، العمر 68-70 سنة)

مع نهاية عام 1962، خفت المجاعة. خلال السنوات اللاحقة، وفيها أجاز ماو مصادرة الطعام بمعدل يبقي أتباعه على قيد الحياة، عاود إحياء المشاريع المُحبّبة التي عُلّقت بسبب المجاعة، كالأقمار الصناعية والغواصات النووية؛ ثم انضمت اليها مشاريع جديدة. فعندما أُخبِر ماو بوجود الليزر، كمجرد سلاح فتّاك في ذلك الوقت، وإذ تُرجم اسمه الى الصينية «بـنور الموت»، si-guang، قرر فوراً إجراء استثمارات ضخمة في أبحاث الليزر، وأصدر أمراً مميزاً: «نور الموت: أحضروا بعض الناس ليكرسوا أنفسهم لذلك. أطعموهم ولا تدعوهم يفعلون أي شيء آخر».

أما الآن فقد ركّز ماو انتباهه على القنبلة الذرية. في تشرين الثاني 1962، شُكّلت لجنة خاصة برئاسة تشو إن-لاي للتنسيق بين مئات الآلاف من الناس المعنيين، وجمع كافة موارد البلد لإنتاج القنبلة في غضون سنتين. بلغت كثافة الموارد المجمعة نسبة عالية جداً أدهشت كبار الرتباء المعتادين على التنظيم التوتاليتاري. فكل اختبار من الاختبارات التحضيرية العديدة، كان يشغل حوالى نصف خطوط المواصلة البعيدة في الصين؛ لذلك، أصبح البلد نفسه، في مختلف أنحائه، بدون كهرباء أو نقل، لأن الطاقة تحوّلت الى هذه الاختبارات.

كيف يمكن حماية القنبلة، وبالتالي المجمّع النووي بكامله؟ هذا هو السؤال الذي شغل ماو بدون انقطاع؛ وليس بدون سبب. ففي المحادثات الثلاثية (الولايات المتحدة- المملكة المتحدة- الاتحاد السوفياتي) لحظر الاختبار النووي، التي جرت في موسكو في تموز 1963، طلب الرئيس كينيدي من مفاوضه أفيريل هاريمان، أن يجس نبض خروتشيف حول تدمير إمكانيات ماو النووية: «حاوِل استنباط رأي [خروتشيف] حول وسائل حصر أو منع التطور النووي الصيني، ومدى استعداده للإقدام على تحرّك سوفياتي، أو الموافقة على تحرك أميركي في هذا الاتجاه». رفض خروتشيف المقاربة، لكن كينيدي قال في مؤتمر صحفي في الأول من آب، إن الصين النووية - التي ركّز على كونها «ستالينية»، «مع حكومة مصممة على الحرب كوسيلة لتحقيق انتصارها النهائي- قد فرضت »بالقوة، حالة خطيرة أكثر من أية حالة أخرى واجهناها منذ نهاية الحرب [العالمية] الثانية...ونود اتخاذ بعض الخطوات الآن، من شأنها تخفيف حدة هذا المشهد...»

فكر كينيدي جدياً في بدء قصف جوي على الإمكانيات النووية الصينية. فتمّ تحذيره من أن نبتة اللانزهو Lanzhou الناشرة للغاز، يمكن أن تُدمَّر بطريقة تبدو وكأنها حادث عرضي، لكن القصف النووي قد يكون ضرورياً لإبادة نبتة البلوتونيوم في باوتو Baotou.

بعد اغتيال كينيدي في تشرين الثاني 1963 (على يد «ملك الزيت» كما قال ماو لوزير الدفاع الألباني)، سرعان ما فكّر خلفه ليندون جونسون، في إسقاط المخربين التايوانيين لتدمير الإمكانيات في لوب نور Lop Nor، موقع الاختبار الذري الصيني.

كانت لوب نور والمواقع النووية الأخرى في عمق صحراء غوبي Gobi، معزولة بواسطة اليابسة؛ وجميع الذين كانوا فيها، من كبار العلماء الى العمّال، بقيوا مفصولين كلياً عن عائلاتهم والمجتمع خلال سنوات، لا بل عشرات السنين. لكن المواقع كانت مفتوحة أمام طائرات التجسس الأميركية - والهجوم من الجو، الأمر الذي خشيه ماو كثيراً.

في نيسان 1964، قيل لماو إن القنبلة قد تنفجر هذا الخريف. فتحرك فوراً على كل الجبهات ليقلل من خطر قصف الإمكانيات النووية. وللتعامل مع الهدف الروسي، ذكّر خروتشيف علناً أن الصين لا تزال عضواً في المعسكر الشيوعي. في 12 نيسان، وفي اليوم الذي تلى تقرير حول ماهية تفاصيل الاختبار، كتب تلغرافاً جديداً لخروتشيف لمناسبة عيد ميلاده السبعين. عكست المسودة الأصلية مدى حدة العلاقة العامة بين الدولتين؛ فغيّر ماو النص ليجعله أكثر تحبباً، وأضاف اليه، على غير عادته، عبارة «أيها الرفيق العزيز»، مشدداً على أن اختلافهما «ليس سوى خلاف مؤقت» إذ قال: «في حال حصول أزمة عالمية كبرى، سيتحدون حتماً في مواجهة عدونا المشترك». وختم بجملة عبّرت عن علاقتهما السابقة: «فليتزعزع الإمبرياليون والرجعيون أمام وحدتنا...» راجت البرقية في كل وسائل الإعلام الصينية، وأدهشت الجميع لأنها جاءت بعد أشهر من الهجوم العلني الشديد اللهجة على خروتشيف. وعشية اليوم الوطني في تلك السنة، في الأول من تشرين الأول فاجأ ماو الروس عندما حيّا موفدهم بحرارة، وأمسك يده مردداً: «كل شيء سيكون على ما يرام؛ شعوبنا ستكون موحدة».

أميركا كانت همّ ماو الأساسي؛ لردعها، وحاول جاهداً أن يلعب بعض أوراقه. لكن الخيارات المتوفرة أمامه لإثارة المشاكل في الولايات المتحدة نفسها أو في جوارها المباشرة، محدودة جداً. فبعد مرور وقت قصير على توقيع معاهدة حظر الاختبار، أطلق بياناً في 8 آب 1963 دعم فيه السود في أميركا؛ لكن هذه الخطوة لم تتعد كونها «طلقة فارغة» كما أسماها لاحقاً. وقد قال لنا روبيرت ويليمز، الأميركي الأسود المتطرف الذي وثق به ماو فحثه على إصدار البيان: إن ماو «لم يفهم أموراً كثيرة عن السود في أميركا». وقارن ويليمز ماو بـ«هو شي مينه»، ولم تكن المقارنة لمصلحة ماو في هذه المسألة. ثم أصدر ماو مزيداً من البيانات الداعمة

للحركات المناهضة للأميركيين في المناطق القريبة من الولايات المتحدة كتلك التي في باناما وجمهورية الدومينيكان. كانت كلها مجرد كلام.

ومع ذلك، ثمة نقطة واحدة قرب الصين، يتواجد فيها أميركيون: إنها الفيتنام. في نهاية عام 1963، بلغ عدد المستشارين العسكريين الأميركيين في جنوبي الفيتنام 15 ألف شخص. كان ماو يخطط لخلق جو يدفع أميركا الى إرسال مزيد من الجيوش الى جنوبي الفيتنام، وأكثر من ذلك، اجتياح شمالي الفيتنام المحاذية للصين. بهذه الطريقة، إذا قصفت واشنطن إمكانياتها النووية، يقوم الجيش الصيني بدخول الفيتنام ومحاصرة الجيوش الأميركية كما فعلت في الحرب الكورية. ولمحاولة إحداث ذلك، بدأ ماو في عام 1964 يحثّ الفيتناميين على تأجيج الحرب في الهند الصينية؛ فقال لهم إن قتالهم «لم يكن ذا أثر كبير بل مجرد مناوشة سطحية... ومن الأفضل تحويله الى حرب كبرى». وأضاف باندفاع: «أخشى أن تضطروا فعلاً الى إرسال مزيد من الجيوش الى الجنوب. لا تخافوا من التدخل الأميركي؛ في أقصى الحالات، ليس هو أسوأ من دخول حرب كورية أخرى. فالجيش الصيني متأهب، وإذا خاطر الأميركيون وهاجموا شمالي الفيتنام، سيقتحمها الجيش الصيني فوراً؛ جيوشنا تريد حرباً الآن».

طلب ماو من الفيتناميين الشماليين أن يصعّدوا القتال في بلدان أخرى مجاورة للصين قائلاً: «من المستحسن أيضاً أن ترسلوا آلاف الجيوش الى لاوس. فلاوس تقاتل منذ سنوات عديدة ولكن بدون أية نتيجة. يجب أن تجدوا وسيلة للحصول على 3000 أو 4000 رجل... وتدربوهم ليتوقفوا عن الإيمان بالبوذية ويصبحوا بدلاً من ذلك جيوشاً مقاتلة...» كما حثّ الفيتناميين بشكل خاص على المساعدة في بناء جيش متمرد في تايلاندا حيث تملك أميركا قواعد عسكرية.

في الواقع، قامت سياسة هانوي على حمل الولايات المتحدة الأميركية على وقف التصعيد، وقال الفيتناميون لماو إنهم لا يريدون «استفزاز» أميركا. ومع ذلك، أمر ماو بنشر 300 الى 500 ألف عنصر من الجيش الصيني على طول الحدود مع الفيتنام، استعداداً للاقتحام. ثم زار تشو إن-لاي الأسطول البحري في جنوبي الصين وطلب من قائده الاستعداد للهجوم على جنوبي الفيتنام. كما خُصصت أموال لتقريب الاسطول من الفيتنام، الى مرفأ زانجيانغ.

وفي وقت لاحق قال تشو إن-لاي للرئيس المصري عبد الناصر، إن برنامج ماو قضى بسحب أكبر عدد ممكن من الجيوش الأميركية الى داخل الفيتنام «كسياسة ضمان» للصين ضد أي هجوم نووي أميركي محتمل، لأن كثيرين منهم سيقعون تحت قبضتنا.

فكلما ازداد عدد الجيوش التي يرسلوها الى الفيتنام، كلما ازداد فرحنا إذ سنشعر أننا نسيطر

عليهم، ونستطيع هدر دمائهم...

... سيقتربون من الصين... وهم في قبضتنا... سيكونون رهائننا.

كما أخبر تشو الرئيس التانزاني جوليوس نيريري، أن بكين ستتصرف في الفيتنام، لتحمي إمكانياتها النووية، بغض النظر عما يريده الفيتناميون أنفسهم. قال تشو: «قل للولايات المتحدة إنه في حال هاجمت أميركا إمكانيات الصين النووية، «لن تحترم بكين أية حدود» وستقتحم شمالي الفيتنام «أوافق الفيتناميون أو اعترضوا».

لم يكن ماو قلقاً من الهجوم الجوي على إمكانياته النووية فحسب، بل كان يخشى أيضاً من استهداف كل صناعاته المتمحورة حول الأسلحة. وبما أن جزءاً كبيراً من هذه الأخيرة يقع في السهول الشاطئية، قرر نقلها الى المناطق الجبلية الخلفية في الصين.

في حزيران 1964، أمر ببدء عملية النقل الضخمة والتي وصفها أمام المقربين بأنها «نقل منزلي» للصناعات، على صعيد الأمة، تماشياً مع «عصر القنبلة». جرت العملية تحت اسم «الجبهة الثالثة» («الجبهة الأولى» كانت المناطق الشاطئية والحدود، و«الجبهة الثانية» باقي مناطق الصين). فقد تم تفكيك ما لا يقل عن 1.100 منشأة ضخمة ونقلها الى مناطق بعيدة حيث ستبنى تجهيزات أساسية كإمدادات الصلب والكهرباء: كما جرى تكبير بعض الإمكانيات النووية، لذلك جُوّفت الجبال لصنع كهوف ضخمة لاستيعابها. إن حجم هذه العملية وكلفتها كانا كبيرين: فخلال العقد الذي استغرقه بناء الجبهة الثالثة، بلغت الكلفة رقماً خيالياً 200 بليون يوان وأكثر، وعندما وصلت الى ذروتها، امتصت على الأقل ثلثي استثمارات الأمة بكاملها. فالخسارة الى خلّفتها فاقت مجموع الخسائر المادية التي تسببتها القفزة الكبرى للأمام.

من وجهة نظر استراتيجية، المشروع بكامله كان هراءاً. فغالبية إمدادات الجبهة الثالثة اعتمدت الى حد بعيد على النقل البري - وحتى بالنسبة الى إمدادات المياه أحياناً - في حين بقيت مصافي الزيت معرضة للخطر. إن حقل الزيت الأساسي للصين، والذي بات في وضع يمكنه من الانتاج، يقع في السهل المنشوري؛ وعملية النقل لم تعط الصين أي أمان إضافي ضد الهجوم.

وتماشياً مع ماو وطباعه، أصر ماو على أن يبنى كل شيء بسرعة قصوى، وبدون أي مسح ملائم كما هي العادة. فالاختيار غير العقلاني للموقع، وحده، ضاعف على الأقل، تكاليف البناء العادية، وترك المصانع الجديدة -التي بنيت في غالبيتها على نحو رخيص يفتقر الى المتانة- وعرضة للفيضانات وانهيارات الثلوج والصخور والوحول. أما المنشآت الباهظة الثمن التي شملت مصانع الدبابات ومراكز بناء السفن، فلم ينته العمل فيها أبداً، أو استمر سنوات

عديدة. وخلصت دراسة الى القول: «قد يكون الفشل الأضخم هو مصقلة الصلب في غانسو، التي مر على بنائها 27 سنة قبل أن تبدأ بإنتاج أي صلب.

الكلفة البشرية بدورها كانت لا تقاس: فقد دُفع حوالى 4 ملايين نسمة الى الجبال لبناء المصانع ومد السكك الحديدية وفتح المناجم، وعملوا وعاشوا في ظروف مروعة، داخل كهوف لا يدخلها الهواء؛ وغالباً ما كانت المياه الملوثة، نادرة الوجود. فمات كثيرون، وانفصل العديد من العائلات فترات طويلة وصلت الى عقدين من الزمن. فقط في عام 1984، وبعد مرور زمن على وفاة ماو، سُمح للأزواج المنفصلة بالتوحد من جديد –فقط إذا تعدى من كان منهما في الجبهة الثالثة، الأربعين من عمره، وعمل طوال 20 سنة.

لم يبد ليو شاو-كي ومعاونو ماو الآخرين أية معارضة لهذه الحماقة. وقال لهم ماو إنه مصمم على القيام بذلك. ولتسهيل استيعابهم للفكرة، استخدم أقرب الكلمات في معجمه ليتعهد بألا يموت الناس من الجوع، قائلاً لمخططيه: «انتبهوا: لا تكرروا ما حصل عام 1958 أو 1959 و1960». إضافة الى ذلك، ورغم كون الجبهة الثالثة حماقة اقتصادية كبرى، لم تحصل فيها أية اضطهادات: أن يمتنع ماو عن إحداث الموت والاحتيال السياسي، فهذا أفضل ما توقعه معاونوه على ما يبدو – وكان كافياً ليشعروا أن بإمكانهم الوقوف الى جانبه. إنه ليوم جميل على ما يبدو، إذا تخلى الرئيس على عدة ملايين من القتلى.

انفجرت أول قنبلة صينية في 16 تشرين الأول 1964 في لوب نور في صحراء غوبي. كانت طريق الحرير تمر من هناك، وتصل بين الصين الوسطى وشواطىء البحر المتوسط عبر محيطات أوروبا وآسيا الواسعة. ومن خلال هذه الصحراء القاحلة والمقفرة الى أبعد الحدود، تدفق الحرير والتوابل والأحجار الكريمة والفن والثقافة، بكل ما تحمله جميعها من غنى وزهو، فأذهل تبادلها الحضارات القديمة وأدخل اليها حياة جديدة. بالتالي، شهدت لوب نور عدة مظاهر تحسين للحياة اليومية. والآن، وبعد مرور حوالى ألفيتين، اعتبرت مهد لـ«ضربة قاضية» Big Bang أخرى، ضربة الدمار والموت.

إن الروس هم الذين اختاروا أساساً موقع الاختبار النووي. فقد عاش مهندسو جيوشهم وعلماؤهم وعمالهم سنوات طويلة في أكواخ وخيم من الطين، وفي عزلة تامة، وعملوا رغم العواصف الرملية والحر الشديد والرياح المثلجة.

في يوم الإطلاق نفسه، انتظر ماو اللحظة الكبرى في جناحه في قاعة البهو الكبير –التي طوبت «قاعة الشعب» رغم منع عدم المدعويين من دخولها. وتقع في ساحة تيان ان مين، على مرمى حجر من زونغنانهاي، وصممت لتقاوم أي نوع من الهجوم العسكري وكان لها مستودعها النووي الخاص. ويحمل الجناح المصمم خصيصاً لماو الاسم الرمز «جناح 118»

تماشياً مع نمطه الخفي المعتاد. يمكن لماو أن يدخله مباشرة في سيارته. وفي الداخل، مصعد ينزل في نفق خروج، وهو واسع بشكل كاف ليتسع لشاحنتين جنباً الى جنب، ويؤدي الى المراكز العسكرية تحت الأرض عند أطراف بكين. وكان الجناح ملاصقاً لمنصة قاعة محاضرات ضخمة بحيث يستطيع ماو أن يدخل ويغادر بدون أي اتصال قريب مع الحضور.

في ذلك اليوم، انتظر بقرب جناح ماو نحو 3000 مؤدّ لعرض الفورة الموسيقية حول الترويج لشعاره، «الشرق أحمر» ، من إخراج تشو إن-لاي. اقتُبس العنوان من «نشيد» ماو:

الشرق أحمر
أشرقت الشمس
اطلعت الصين ماو تسي-تونغ
إنه يسعى الى سعادة شعبه
إنه المخلص العظيم للشعب.

ما إن تأكد نجاح الاختبار، حتى بدأت موسيقى النشيد، وأنيرت الأضواء، وظهر ماو المشرق يحيط به كل كبار فريق حزبه. وبعد أن لوّح بيده للمؤدين الـ3000 أشار الى تشو إن-لاي أن يتكلم. وقف تشو أمام الميكروفون وقال: «طلب مني الرئيس ماو أن أعطي بعض الأنباء السارة...» ثم أعلن أن القنبلة انفجرت. في البداية صمتت الحشود لأنها لم تعرف كيف تعبّر إذ لم تحصل على تعليمات مسبقة؛ فألمح اليهم تشو بقوله: «يمكنكم الابتهال من كل قلوبكم، ولكن إبقوا على الارض!» على أثر ذلك بدأوا يهتفون ويقفزون صعوداً ونزولاً في جنون واضح. كان ماو القائد الوحيد في أي بلد يحيّي ولادة وحش الدمار الشامل بهكذا احتفال. على انفراد، نظم شطرين هزليين:

القنبلة الذرية تنفجر عندما يُطلب منها ذلك
آه، يا للفرحة اللامتناهية!

نُظّمت الاحتفالات في كل أنحاء البلد. الناس الذين أدركوا للمرة الأولى أن الصين تصنع قنبلة، أحسوا بابتهاج كبير وصادق. فامتلاك الأسلحة النووية كان يُعتبر رمزاً لإنجازات الأمة، وشعر كثيرون بفخر عظيم - خاصة عندما قيل لهم إن الصين أنتجت قنبلة بدون مساعدة أحد وبدون مساهمة أجنبية. فالدور الحاسم الذي لعبته روسيا أزيل كلياً، وهو غير معروف جداً اليوم.

بالنظر الى الجوع الذي عانى منه الشعب منذ سنوات قليلة، والذكريات المؤلمة التي لم تمح بعد، تساءل بعض النخب عن كلفة القنبلة. سجّل النظام الأسئلة الواردة، وحرص تشو على الرد أمام حضور قليل بقوله إن الصين صنعت القنبلة بكلفة منخفضة، ولم تصرف عليها إلا

بعض البلايين من اليوان. في الواقع، قدرت كلفة قنبلة الصين بـ4.1 بليون دولار أميركي (بحسب أسعار عام 1957). كان لهذه القيمة أن تشتري بالعملة الصعبة كميات كافية من القمح لتؤمن 300 سعرة إضافية يومياً لمدة سنتين للشعب بأسره - وهي كمية كافية لإنقاذ حياة أيّ من الـ38 مليون نسمة الذين قضوا بسبب المجاعة. تسببت قنبلة ماو بأعداد من الموتى شكلوا 100 ضعف ما تسببت به القنبلتان اللتان رماهما الأميركيون على اليابان.

46- زمن الشك والنكسات
(1962-1965؛ العمر 68-71 سنة)

في السنوات التي تلت عام 1962، وفيما تستعيد الصين انتعاشها الاقتصادي، بدأ ماو يدبّر لانتقامه؛ فليو شاو-كي، رجله الثاني الحذر عادة واللطيف، أوقع به وتفوق عليه دهاءاً في مؤتمر السبعة آلاف الذي عقد في كانون الثاني 1962. وتحت الضغط الجماعي لكل المؤسسة الصينية فعلياً، أُرغم ماو على التخلي عن سياساته المميتة؛ لكن ماو لن يسمح لليو أو لأي من المتعاطفين معه بأن ينجوا بمعارضتهم له.

راح ماو يعدّ لعملية تطهير كبيرة منذ توقف المجاعة. فأوقف كل التدابير الليبرالية كالسماح للفلاحين بتأجير بعض الأراضي، وإعادة تأهيل الضحايا السياسيين، كما أعاد بحزم تعزيز عبادته لذاته. لذا سيطرت تقاريظ ماو بشكل متزايد في امتحانات المدارس والمنشورات ووسائل الإعلام وكل دائرة تطال عقول الناس؛ فأينما وقعت عيون الناس ترى شعارات تحيّيه، وكلما سُمعت أغنية كانت تسري في العروق أغنية تقول: «الأب قريب والأم قريبة ولكن لا أحد منهما قريب بمقدار الرئيس ماو». بات ماو يسيّس كل شيء أكثر من أي وقت مضى، بحيث لم يسمح إلا بالتزلف له.

استهل ماو حملته بالروايات وقال بسخرية أمام حضور من الحزب في أيلول 1962: «ألا يوجد عدد كبير من الروايات والمنشورات حالياً؟ إن استخدام الروايات لممارسة نشاطات مناهضة للحزب، هو اختراع كبير». في وقت لاحق، هاجم كل الكتب بقوله: «كلما قرأتم مزيداً من الكتب، أصبحتم أكثر حماقة. يمكنكم قراءة القليل، لكن الإكثار في القراءة يُفلسكم». كان هذا الكلام ساخراً ومخزياً، خاصة وأنه هو نفسه يقرأ كثيراً ويحب القراءة. فقد صُنّعت أسرّته خصيصاً له لتكون واسعة جداً وتتسع لأثقال الكتب المكدسة من جانب واحد (والمائلة، بحيث لا تسقط عليه)؛ وكانت القراءة في السرير هوايته المفضلة. لكنه أراد أن يكون الشعب الصيني جاهلاً، وقال أمام المقربين «نحتاج الى سياسة «إبقاء الناس أغبياء».

في ربيع عام 1963، حوّل ماو انتباهه الى أوبرا الصين التقليدية. وخلافاً للأوبرا في الغرب، كانت الأوبرا الصينية تسلية شعبية. فخلال مئات السنين، طوّرت مختلف المناطق أنماطها الخاصة المميزة؛ وكانت تؤدي استعراضاتها في أسواق القرى كما على مسارح المدن، وترقص في الجبال الشمالية وسط الرياح والغبار، وتغني تحت ضوء القمر وقناديل الزيت في

الجزر الصغرى الجنوبية. فاستمع اليها صيادو السمك في مراكبهم السكنية. ماو نفسه كان هاوياً للأوبرا لا بل خبيراً في الأوبرا الإقليمية. احتفظ بمجموعة تضم اكثر من 2000 كاسيت وتسجيل، وكان يناقش مع مغنيي الأوبرا، أداء الألحان، بإدراك ومعرفة. ولم يكن يسمح للناس برؤيته يضع النظارات، إلا خلال وجوده في الأوبرا، كما إنه مشاهد متعمق وثاقب؛ ففي إحدى المرات كان مستغرقاً الى حد أنه لم يكتف بنشج وتمخيط أنفه بصوت عال، بل راح يقفز على مقعده، فسقط سرواله فيما كان خادمه يقفل له حزامه ليشعر بمزيد من الراحة. كان يتذوق هذا النوع من الأوبرا التي اعتبرها نظامه الخاص «إباحية».

إن ولع ماو بالأوبرا لم يثنه عن إلغاء عدد كبير منها فور بداية حكمه. ولكن عندما باشر بعملية التطهير الجديدة هذه، بدأ بحظر مجموعة الألحان القديمة كلياً، انطلاقاً من النوع المعروف بـ«Ghost Dramas» الذي تثأر فيه أرواح الضحايا من الذين اقتادوها الى الموت. حظر ماو هذا النوع في آذار 1963؛ وبما أنه المتسبب في موت عشرات الملايين من الناس، كان ينظر الى المنتقمين على المسرح وكأنهم قريبين من الواقع الى حد مزعج.

في نهاية عام 1963، اتهم «كل أشكال الفن –من أوبرا ومسرح وفنون شعبية [بما فيها غناء القصائد، وسرد القصص التقليدية، والكوميديا]، وموسيقى وفنون جميلة، ورقص وسينما وشعر وأدب» بأنها «إقطاعية أو رأسمالية» و«مظلمة جداً». كما أدان الأعمال التي تم انتاجها في ظل نظامه الخاص والتي تنشد إطراءات الشيوعيين، واعتبرها «أعشاب سامة»؛ كما أمر ماو بإرسال الفنانين الى القرى «لإعادة إصلاحهم بشكل جدي». وفي شباط 1964، قال بأسلوبه الفظ المثالي: «أطردوا المغنين والشعراء والكتّاب المسرحيين والكتّاب، خارج المدن. أبعدوا العدد الأكبر منهم الى القرى؛ ولا طعام لمن لا يذهب منهم».

أما المعالم القديمة، الرموز الواضحة لحضارة الصين الطويلة، فقد وقعت ضحية بدورها أيضاً. وما إن وصل ماو الى السلطة حتى بدأ بهدم جدران المدينة وقناطرها التذكارية بدون تمييز في ما بينها. وفي نهاية الخمسينيات، اكتمل تدمير غالبيتها. ثم أضاف ماو الى لائحة دماره معابد ومقابر قديمة وشكا أمام أحد موظفيه في كانون الأول 1964 من بطء تنفيذ أوامره: «لم تنبش بعد سوى بعض العظام النتنة [أي المقابر]...تتساهل كثيراً مع الأعداء [أي المقاومين منهم]. أما المعابد فلم تمس أيّ منها بعد».

كما دفع ماو باتجاه منع علم الجنانة بقوله: «الأزهار النامية هي من آثار المجتمع الماضي، وتسلية طبقة العلماء الإقطاعيين والطبقة البورجوازية وطبقات أخرى». وفي تموز 1964 أمر: «يجب أن نغير ذلك الآن. تخلصوا من معظم الجنيناتيين».

كان ماو يفكر بمجتمع قاحل كلياً، خال من الحضارة، ومحروم من تمثيل المشاعر الإنسانية،

مجتمع تقطنه جماعات لا إحساس لها وتطيع أوامره تلقائياً. أراد الأمة أن تكون بدون فكر لتتماشى مع حركة التطهير الكبرى التي بدأها – ولتعيش في هذه الحالة باستمرار. في هذا المجال، كان أكثر تطرفاً من هتلر أو ستالين، إذ سمح هتلر بالتسلية غير السياسية، وحافظ ستالين على الكلاسيكيات. في الواقع، انتقد ماو ستالين في هذه المسألة؛ ففي شباط 1966 قال ماو: «سيطر ستالين على ما سمي بالكلاسيكيات في روسيا وأوروبا بدون انتقاد، ما أدى الى عواقب خطرة».

بين سنتي 1962 و1965، خطا ماو خطوة الى الأمام إذ حوّل كل وجه من أوجه الحياة الى أمر «سياسي»، وقضى بالتالي على الحضارة؛ لم تكن النتيجة مرضية بالنسبة اليه، فاضطر الى الاتكال على ماكينة حزبه لتنفيذ أوامره، وكان الجميع يتحفّظ فعلياً على سياسته، بدءاً بالمكتب السياسي نزولاً حتى عامة الشعب. قليلون فقط رحّبوا بحياة تخلو من التسلية أو الألوان. ولاحظ ماو أن الجميع تقريباً يتحفظون، وأن فسحات الراحة ما زالت موجودة، وهي بوضوح غير مضرة للنظام، كالكلاسيكيات والأزهار. أحس ماو بالغضب والقلق لكنه عجز عن تحقيق ما أراد.

كان ماو أكثر نجاحاً في منطقة واحدة، علّم فيها الشعب وخلق له نموذجاً أساسياً: جندي جامد وآمن يدعى لاي فينغ Lei Feng. إن أفضل ما قام به لاي فينج هو الاحتفاظ بكتاب مذكرات، يُفترّض أنه سجل فيه مدى إلهامه من ماو لإنجاز الصنائع الحسنة، وأقسم أنه، من أجل ماو، مستعد أن «يتسلق جبالاً من السكاكين، وينزل في بحار من اللهب». هذه الطاعة التامة لماو، والتحوّل الى ما يعتبره النظام بفخر «أسنان دواليب صغيرة» في آلة ماو، هما الفضيلة الكبرى والأخيرة. كما أن هذا التمجيد لانعدام الشخصية في المقابل ضرورة لعبادة شخصية ماو، غلفته دعوة مضللة الى الابتعاد عن الأنانية – «من أجل بلدنا» أو «الشعب».

الى جانب كونه رمزاً للولاء التام لماو، كان الجندي لاي فينغ يمثّل نقطة حيوية أخرى: فكرة أن الكره أمر جيد، والتي نُقلت للشعب وخاصة جيل الشباب. كتب لاي فينغ مفترضاً: «أعامل رفاقي بحرارة كالربيع...ولتصنيف الأعداد، أظهِر وحشية وعدم شفقة كالشتاء القاسي». فإذا أحب أحد الشعب، يلبس البغض قناعه من باب الضرورة.

وبما أن ماو وجهاً حاقداً بامتياز، فقد تشدد مع خروتشيف على أساس ممارسته سياسة «تأييد روح التطور». وكانت الصحافة الصينية مليئة بالتهجمات العنيفة التي تشبّه القائد السوفياتي بالشيطان، والتي تغذّي عنوة عقول الشعب في الجلسات الأسبوعية لتعليم العقيدة. بالتالي، رُسخت في عقول الشعب فكرة أن خروتشيف وغيره من «المؤيدين لروح التطور» أوغاد (كالسفاحين في مجتمع عادي). أخيراً، برزت المسألة الأخرى: فقد أدان ماو ليو شاو-كي على

أنه «خروتشيف الصين»، وضباط الحزب غير المطيعين على أنهم «مؤيدون لروح التطور».

عندما تحدث ماو للمرة الأولى أمام كبار رتبائه عن شبح خروتشيف الصيني في 8 حزيران 1964، أدرك ليو أن ماو يشير اليه، وأن الإعصار على أبواب الانفجار. لكن خياراته محدودة؛ فكل ما استطاع فعله هو محاولة تحصين موقعه الخاص ليصعّب على ماو النيل منه. ثم في تشرين الأول، حدث شيء في موسكو منح ليو انفتاحاً جديداً.

ففي 14 تشرين الأول 1964، طُرد خروتشيف على أثر انقلاب في رأس هرم السلطة. رأى ماو في ذلك فرصة لإعادة إحياء المساعدة السوفياتية لبرنامجه حول الصواريخ الذي أُبعد كثيراً عن جدول الأعمال. فوجد نفسه في موقع امتلاك القنبلة الذرية أخيراً، لكنه افتقر الى وسائل إطلاقها. لذلك، كان بحاجة الى خبرة أجنبية، فصب اهتمامه على تحسين العلاقات مع القيادة الجديدة في الكرملين التي أصبحت برئاسة ليونيد بريجنيف. في خلال أيام، أخبر تشو السفير السوفياتي تشيرفونينكو أن «أمنية ماو الأهم» هي تحسين العلاقة؛ والتمس تشو دعوة الى الاحتفال بذكرى الثورة البولشيفية في موسكو في 7 تشرين الثاني.

كانت القيادة السوفياتية الجديدة مهتمة بدورها باكتشاف مدى إمكانية حصول تقارب، والتأكد من أن ماو هو أول من سمع بسقوط خروتشيف، قبل إعلان ذلك. لكن سرعان ما أدرك الكرملين أن هذه الإمكانية ضعيفة وواهية طالما أن ماو في السلطة. ردد السفير تشيرفونينكو ما حصل عندما ذهب لإخبار ماو: كانت حوالى الساعة 11 مساءاً، عندما دخلت مقر ماو«. بعد سماع الأنباء، فكر ماو بضع دقائق ثم قال: «لقد قمت بخطوة جيدة، لكنها غير كافية»... بعد الاجتماع،... ودّعني ماو. لم تنطلق السيارة، فأخذ السائق دلواً وذهب الى المطبخ برفقة حارس ماو. كان القمر ساطعاً فوق البحيرة. وقف ماو بقرب سيارتي الراكنة وقال: «ثمة أشياء قليلة يجب معالجتها وجلستك لم تعالجها جميعها».

أصر ماو أن على موسكو سحب برنامج حزبها، وأن تتبرأ في الواقع من نقض الستالينية. كان هذا الأمر مستحيلاً بالنسبة الى القادة السوفيات الجدد، ويبدو أنهم استخدموا زيارة تشو لجس النبض ومعرفة مدى إمكانية الحزب الشيوعي الصيني التخلص من ماو.

خلال الحفل الذي أقيم في الكرملين في 7 تشرين، في اليوم المنتظر، كان تشو والوفد المرافق له يطوفون في القاعة ويشربون نخب المعارف القديمة، عندما اقترب وزير الدفاع السوفياتي روديون مالينوفسكي من تشو، مصطحباً معه كبير مترجمي روسيا الى اللغة الصينية. قال مالينوفسكي لتشو، على نحو غير متوقع: «لا نريد أي ماو أو أي خروتشيف أن يقف في طريق علاقتنا». فردّ تشو: «لا أفهم عما تتحدث»، وتابع طريقه فوراً. ثم استدار مالينوفسكي الى المارشال هو لانغ Ho lung، نائب قائد الجيش الصيني، وقال: «تخلصنا من مجنوننا

خروتشيف، والآن تخلص أنت من مجنونكم ماو؛ بعد ذلك يمكننا استعادة علاقات صداقة في ما بيننا». استخدم مالينوفسكي لغة العسكر وقال: «إن بذة المارشال التي أرتديها كانت حثالة ستالين، وبذة المارشال التي ترتديها أنت هي حثالة ماو تسي-تونغ...» تناقش معه هو لانغ، ثم غادر الوفد الصيني الاحتفال.

جلس تشو طوال الليل يكتب برقية لماو. في صباح اليوم التالي، جاء بريجنيف برفقة أربعة من معاونيه الكبار (ولكن بدون مالينوفسكي) الى مقر الوفد الصيني بحيث قدم تشو اعتراضاً رسمياً. فاعتذر الروس وقالوا إن كلام مالينوفسكي لا يعكس آراءهم وأنه كان ثملاً. ولكن بغض النظر عن كون مالينوفسكي رجلاً يتحمّل الكحول، لا يجوز أن يصدر كلام مماثل، بهذا الوضوح، من قائد جيش دولة ما، الى رئيس وزراء وقائد جيش دولة أخرى، خاصة وأن الدولتين المعنيتين هما روسيا والصين التوتاليتاريتين. أكثر من ذلك، لم تفرض القيادة السوفياتية أية رقابة على مالينوفسكي، الأمر الذي كانت ستؤديه حتماً لو كان ما اقترفه خطأ حقيقياً. كل البراهين تشير الى أن مالينوفسكي تصرف من تلقاء نفسه، بطريقة يمكن التبرؤ منها. واستخدم أحد كبار خبراء الاستخبارات الروسية في الصين، صيغة معبّرة قائلاً لنا: «تعلّمنا أننا لا نستطيع الفصل بين تشو وماو».

أثارت هذه المرحلة كثيراً شكوك ماو حول إمكانية وجود مؤآمرة كبيرة تُحاك ضده، من قبل كبار المعاونين بالاتفاق مع الروس. لا شيء أخطر بالنسبة اليه من تعبير الكرملين عن رغبة جدية في طرده. فلم يتمكن تحدي بينغ دي-هواي Peng De Huai عام 1959، ولا تحدي ليو عام 1962، من زعزعة موقعه؛ ولكن إذا أراد الكرملين فعلاً التخلص منه، فهذه مسألة أخرى. إن الاهتمام من قبل روسيا، قد يشجع بعض معاونيه على اتخاذ خطوات جذرية. فالمسافة بين حدود الدولة التابعة لروسيا، منغوليا الخارجية، وبكين، لا تتعدى الـ500 كم، وتمتد على أرض مسطحة ومفتوحة يمكن للدبابات الروسية أن تجتاحها بسهولة، فيما تفتقر الصين الى وسائل دفاعية فعالة مقاومة للدبابات. في الشهر التالي، أي في كانون الأول 1964، ونزولاً عند تعليمات ماو، رسم الجيش خطة لبناء جبال اصطناعية تشبه كل واحدة منها قلعة عسكرية ضخمة، في سهل شمالي الصين، وتكون بمثابة عوائق في وجه الدبابات الروسية - وهذا مشروع كبير تم التخلي عنه لأنه لم يؤتِ ثماراً بعد سنوات طويلة وكلفة طائلة.

نجح تشو في كسب عطف ماو، لأن صورة تشو بالنسبة الى ماو هي صورة شخص شديد الدهاء الى حد عدم محاولة التهور معه. لكن تشو أدرك أن سحابة من الشك تحلق فوق رأسه. وقبل مغادرة موسكو، سمعه بعض أعضاء الفريق المحيط به يقول إنه زار موسكو عشر مرات منذ تأسيس الصين الشيوعية، لكنه على الأرجح لن يعود أبداً. في الواقع، كانت تلك آخر

زيارة له – ولم يقم أيّ من معاوني ماو بعد ذلك بزيارة موسكو طالما ماو على قيد الحياة(*).

كان ماو حذراً من ذهاب أيّ من كبار المقربين منه الى روسيا، خشية أن يخططوا مع الروس للإطاحة به. كما أراد تحاشي التواجد معهم في مناسبة واحدة الى جانب كبار الروس في بلد ثالث – أي خارج نطاق سيطرة ماو. في أيلول 1969، واجه تشو إمكانية الالتقاء ببعض القادة الروس في جنازة هو تشي مينه في هانوي، فأسرع الى هانوي متقدماً الجنازة، ومتجاهلاً الاعتراضات الفيتنامية بعدم الاستعداد لاستقبال الزوار. وغادر تشو قبل الاحتفال نفسه الذي أرسلت اليه الصين وفداً من الدرجة الثانية.

مع عملية التطهير الوشيكة، بات أي اتصال مع روسيا مسألة أساسية، وخاصة بين كبار الرتباء. فقد تم توقيف واستجواب «هو لانغ» وعدد كبير من أتباعه القدامى. هو لانغ نفسه مات خلال الاحتجاز في ظروف مروعة عام 1969.

وكذلك الأمر بالنسبة الى مساعد وزير الدفاع الجنرال كزو غوانغ–دا Xu Guang-Da الذي تعرض لتعذيب عنيف خلال 18 شهراً وتم استجوابه ما لا يقل عن 416 مرة. ومن سوء حظه أنه الوجه العسكري الكبير الوحيد الذي زار روسيا بعد تعليقات مالينوفسكي، فاشتُبه بأنه صلة الوصل بين أخصام ماو في الداخل وموسكو. ذهب كزو الى روسيا في أيار 1965 لأن التعاون النووي كان قائماً في ذلك الوقت مع روسيا. فور عودته من سفره، سحب ماو كل ما هو صيني من المركز النووي الروسي في دوبنا، مغلقاً بالتالي باب التعاون نهائياً.

وبسبب ما حصل مع مالينوفسكي، قطع ماو كل علاقة ببريجنيف. فتدهورت علاقات الصين بالاتحاد السوفياتي الى أسوأ حد لها في عهد بريجنيف الذي بقي في السلطة حتى نهاية حياة ماو.

ولكن في زمن قبضة مجسّ الكرملين الحديدية لم يأمر ماو تشو بالمغادرة، فبقي تشو في موسكو وعقد اجتماعات مع مضيف الموفدين الأجانب الذي أصر ماو على أن يلتقيه. ثم عاد الى بكين في 14 تشرين الثاني بحسب البرنامج المقرر. ذهب ماو ليحيّه في المطار مع كل فريقه؛ فكانت الرسالة الى الروس: بأن القيادة الصينية موحَّدة. لكن استنتاجات الروس كانت متفاوتة، إذ لاحظ الديبلوماسيون السوفيات في المطار أن ماو لم يبد مرتاحاً بل ظنوا أنه –«على وشك الانهيار».

كانت هذه فترة عدم استقرار استثنائية بالنسبة الى ماو، استغلها ليو شاو–كي؛ فتقدم

(*) باستثناء توقف دينغ كزياو بينغ في طريقه الى مؤتمر للحزب الشيوعي في رومانيا في تموز 1965، ما يظهر ثقة ماو بدينغ.

بعرض لمحاولة تعزيز موقعه، من خلال إعادة تثبيت نفسه كرئيس للدولة. إنها فرصة للقيام بجهد كبير من أجل بناء صورته، كأحد أشكال عبادة الذات. لكن عملية إعادة تثبيت موقعه جاءت متأخرة جداً. لم يسمح ماو للهيئة التي «انتخبت» الرئيس، الجمعية الوطنية، بالاجتماع عام 1963 كما كان متوقعاً، لأنه لم يشأ أن يحصل ذلك قبل أن يصبح مستعداً لإبعاد ليو.

ولكن بعد مرور أسابيع على ملاحظات مالينوفسكي حول التخلص من ماو، عقد ليو اجتماعاً للجمعية بعد تبليغ قصير وطارىء، واعتبر أن ماو سيشعر بكثير من عدم الأمان، إما لناحية نقض هذه الخطوة أو إبعاده. لاحظ ماو ما يخطط له ليو، وثار؛ فقال لليو بسخرية في 26 تشرين الثاني: «فلنبدأ بالتنازل الآن، تتولى أنت القيادة وتكون الرئيس. أنت [الإمبراطور الأول] كنشيهيانغ Qinshihuang...».

لم يستطع ماو منع اجتماع الجمعية: كل ما فعله هو الامتناع عن مباركته من خلال عدم الدعوة مسبقاً الى جلسة مكتملة للحزب لوضع جدول الأعمال – وهي المرة الوحيدة التي يحدث فيها امتناع مماثل خلال حكمه. في المكتب السياسي، وقبل يوم من افتتاح الجمعية، تهجّم ماو على ليو مردداً: «لن أوافق عليك». ثم قال لليو في وقت من الأوقات: «لستَ صالحاً».

خارج قاعة الاجتماعات، انفجر ماو أمام ثنائي من المخلصين له قائلاً: «أحدهم يعبث بي!» ثم في 26 كانون الأول، في عيد ميلاده الـ71، قام بخطوة غير اعتيادية ودعا ليو الى العشاء؛ لم يسبق لماو أن تشارك اجتماعياً مع ليو أو معاونيه الآخرين، إلا للتواجد على حلبة الرقص في وقت واحد. وقال ماو لابنته لي نا Li Na قبلاً: «لن تأتِ اليوم لأن والدك سيشتم أحدهم». جلس ماو على إحدى الطاولات برفقة بعض الأشخاص المفضلين لديه، في حين وُضع ليو على طاولة منفصلة. لم يسُد في القاعة أي جو من الاحتفال بعيد ميلاد؛ وفيما حافظ الجميع على صمت مزعج، تحدث ماو بصخب متهماً «بتأييد روح التطور» و«بتولي مملكة مستقلة»، وهو يتوجه بشفافية نحو ليو.

لم يقل أحد شيئاً دعماً لماو، ولا حتى ما يشبه «أنت على حق، أيها السيد» – ماعدا سكرتيره، تشين بو-دا Chen Bo-da. قدّر ماو ذلك كثيراً الى حد اجتماعه لاحقاً بتشين، الذي غلبه النعاس بسبب الحبوب المنومة، في ساعات الليل الأولى، وأطلعه على نيته النيل من ليو، وجعل تشين من بين الأوائل الذين أخبرهم بذلك صراحة. (سرعان ما رفع ماو تشين الى المرتبة الرابعة في الحزب.)

في 3 كانون الثاني 1965، أعيد تعيين ليو رئيساً، وسط فورة إعلامية مفاجئة، لا تشبه كثيراً مناسبة تعيينه الأول في عام 1959 بحيث كانت الأجواء الاحتفالية خجولة. هذه المرة احتشد الناس وسارت مواكب استعراضية، وحُمل تمثاله الى جانب تمثال ماو، وتصاعدت المفرقعات

النارية وأصوات الطبول والأجراس القرصية. كما كتبت الصحف في عناوينها العريضة عبارات مثل «الرئيس ماو والرئيس ليو هما قائدينا المحبوبين». (كان متولي السلطة في البلد يسمى أيضاً «الرئيس» باللغة الصينية.) من الواضح أن ليو جمع حوله عدداً كبيراً من الداعمين المناصرين له. وحاز أيضاً على ثقة كبار ضباط الحزب لأنه خلّص الصين من المجاعة؛ حتى أتباع ماو المخلصين من المقربين، أظهروا بوادر تغيير في الولاء. لكن الأمر الذي لا يمكن تصديقه، هو التداول في فكرة تعليق تمثال ليو على بوابة تيان ان مين - لوحده، بدون تمثال ماو! - وهذا ما نقضه ليو فوراً.

وفي يوم إعادة انتخاب ليو، دعيت زوجته، للمرة الأولى، الى اجتماع في جناح ماو رقم 118 في القاعة الكبرى. كان الثنائي ليو متحابين جداً، وماو يعرف ذلك. فاختار هذا اليوم ليكشف عن نيته في تعذيبهما معاً. عندما دخل ليو بعد التصويت، ذهل لدى رؤيته زوجته بين الحضور. فبدأ ماو هجومه، جائراً خطبة مسهبة وعنيفة. شعرت السيدة ليو بحقد كبير يشع من ماو؛ فتبادلت الأنظار مع ليو بسكون. أراد ماو أن تشهد السيدة ليو على سوء معاملة زوجها، وأن يسجّل أمام ليو: سأجعل زوجتك تدفع الثمن أيضاً.

ولكن حتى بعد هذا العرض العدواني، لم يقف أي رفيق الى جانب ماو لإدانة ليو؛ بل عبّر معظمهم عن قلقهم إزاء الاختلاف الحاصل بين «الرئيسين»، وحثوا ليو على اعتماد موقف أكثر ليونة تجاه ماو. في الواقع، اعتذر ليو من ماو لأنه لم يحترمه بشكل كاف؛ فجاء رد ماو مهدداً بقدر ما كان عشوائياً: «إنها ليست مسألة احترام أو عدم احترام. إنها مسألة ماركسية في مواجهة تأييد روح التطور».

وإذ استعاد ماو ملاحظة ستالين حول تيتو («سأهز إصبعي الصغير، ولن يكون أي تيتو»)، قال لليو: «من تظن نفسك؟ يمكنني أن أهز إصبعي الصغير ولن تبق موجوداً!» ولكن في الواقع، تسود الآن حالة من التحفظ، فلن يستطيع ماو إدانة ليو لمجرد أنه قرر ذلك.

عند هذا الحد، لجأ ماو الى حركة رمزية فعالة - رحلة الى جبال جينغانغ Jinggang، حيث أقام قاعدته الأولى عام 1927. وخلافاً لرحلاته الأخرى التي كانت ارتجالية، فقد تمّ الإعلان عن هذه الرحلة مسبقاً أمام كل المقربين منه فيعرف كل معاونيه أنه سيرحل. منذ ست سنوات، وفي مواجهة المتمرد بينغ دو-هواي، هدد ماو أنه إذا تعرض للتحدي «سيصعد الى الجبال ويبدأ حرب عصابات». وها هو الآن يصعد فعلياً الى الجبال، الأمر الذي جعل الرسالة أكثر وضوحاً وواقعية وقوة في آن واحد.

بُني هناك كرسي حمام نقال للإقعاء، وكشف فريق أُرسل قبله على الطريق المؤدية الى نقطة

الوصول. كما احتُجز «الأعداء العاديين» وأبعدوا كثيراً عن طريق ماو، وأُعدّت سيارات مزدوجة ونُصبت مدافع رشاشات ثقيلة على النقاط المكشوفة. ارتدى الحرس البريتوري ألبسة عادية، وحُجبت أسلحته، مثل قطّاع طرق هوليوود، داخل علب الآلات الموسيقية.

غادر ماو بكين في أواخر شباط 1965، وتنقل ببطء مترقباً طريقه. في 9 شباط، أثناء رحلته، علم بموت أحد أتباعه المفضلين، سيّد شانغهاي كي كينغ-شي Ke Qing-shi البالغ من العمر 63 عاماً، بسبب سوء تشخيص لمرض في البنكرياس. أن يموت معاون لا يُثمّن بسبب خطأ بشري في ظرف مماثل، فهذا أمر مقلق، لذلك توقف ماو في وهان Wuhan. هناك، دعا شريكه منذ زمن بعيد، وزير الدفاع المارشال لين بياو Lin Biao، الى اجتماع مغلق في 22 نيسان. والمارشال الذي أنقذ ماو في مؤتمر السبعة آلاف في كانون الثاني 1962، كان موافقاً على خطط ماو بإبعاد الرئيس ليو. طلب منه ماو أن يُحكِم قبضته على الجيش بشكل خاص، وأن يبقى حذراً ومتيقظاً في حال حاول الرئيس، الذي يراقب الأمور في العاصمة، أن يكسب دعم العسكريين.

في 19 أيار، قام لين بياو بخطوة لافتة تماشياً مع طلب ماو؛ ففي ذلك اليوم، وبصفته رئيساً، كان ليو يستقبل المشاركين في الاجتماع الأعلى لقيادة الجيش، عندما حضر المارشال على نحو غير متوقع، بعدما رفض قبلاً الدعوة لأسباب صحية. في نهاية الاجتماع، عندما أعلن الرئيس أنه توصل الى نتيجة مرضية، وقف المارشال فجأة وأطلق خطاباً رناناً يناقض أساساً ما قاله ليو. فأوضح جيداً لكبار الضباط أنه هو سيدهم، وليس الرئيس، فأضعف بذلك كثيراً سلطة ليو.

وفيما بقي المارشال يراقب الرئيس ليو في بكين، توجه ماو الى أرضه المفضلة القديمة والمحرّمة، وبقي فيها سبع ليال، واقتصر خروجه على بعض النزهات القصيرة في بيت الضيوف المتاخم لها. ومن المفروض بحسب البرنامج، أن يتوقف في مقر إقامته القديم، أوكتاغونال بافيون، Octagonal Pavilion، ولكن عندما خرج من السيارة، سمع أصواتاً خفيفة. إنها قرقعة مطارق وأزاميل بعض البنائين الذين يعملون في منحدر بعيد، ولكن هنا في الجبال تسمع الأصوات عن بعد. وما إن وطأت رجلاه الأرض حتى عاد بسرعة الى السيارة وأمر بالإنطلاق فوراً.

لم ير ماو أية شعوب محلية حتى الدقائق الأخيرة قبل مغادرته، عندما أُحضرت حشود منظمة للوقوف خارج بيت الضيوف، فلوّح لها وسمح بالتقاط الصور. بقي وجوده سرياً حتى الدقيقة الأخيرة. خلال إقامته، وبعد فترة من رحيله، قُطعت كل اتصالات المقيمين المحليين، مع العالم الخارجي.

إن بيت الضيوف الذي أقام فيه ماو، والذي بني أثناء المجاعة، لم يستجب لكل معاييره، فبدأ العمل على بناء بيت آخر يضم المواصفات التالية: طابق واحد ومضاد كلياً للقنابل؛ لكن ماو لم يعد أبداً. فقد أتى لغرض واحد فقط: فرض تهديد.

فيما كان ماو في الجبال، انهمك ليو ببناء صورته الخاصة. ففي 27 أيار، نُشر بيان في صحيفة **بيبولز دايلي**، مفعم بتعابير تقريظية ممتازة: «كانت الهضاب خضراء رائعة، والمياه زرقاء مميزة... ومشهد أحواض مقابر مينغ يظهر بهاءاً غير مسبوق». ولكن بدل أن يتناول الحديث ماو فقط، تناول ماو وليو، وكلاهما ملتزمين بنشاط السباحة التي يعشقها ماو بشكل جوهري.

> بعد الساعة الثالثة من بعد الظهر، توقفت سيارتان...وترجّل منهما رجلان عملاقان، حسنا المظهر وتقدما بخطى حازمة نحو الماء.
>
> ...وقف هناك قائدانا الموقران والمحبوبان، الرئيس ماو والرئيس ليو. فسارعت الحشود الى إطلاق صيحات عالية:
>
> «جاء الرئيس ماو للسباحة!»
>
> «جاء الرئيس ليو للسباحة!»
>
> لاحظ الشباب أن الرئيسين ماو وليو يشعان صحة وروحاً، وأحسوا بالفرح يتطاير من جسديهما...
>
> سبح الرئيس ماو والرئيس ليو...جنباً الى جنب...

لم يكن هذا الحادث تقريراً «إخبارياً» أبداً، لأن السباحة حصلت السنة السابقة في 16 حزيران 1964؛ لذا، فإعادة إحيائها تعني أن المقصود هو الترويج لصورة ليو، في حين أن غياب ماو عن بكين يعني أن صحيفة **بيبولز دايلي** لم تكن ملزمة باستيضاح الأمر مع ماو. لهذا السبب، ولأسباب أخرى تتعلق بعدم الطاعة، أنزل ماو لاحقاً عقوبات قاسية بالمسؤولين عن وسائل الإعلام.

بعد رحلته الى جبال جينغانغ لإطلاق تهديده، لم يتصرف ماو فوراً؛ ويبدو أن سبب تريّثه هو انتظار حصول حدث دولي مميز: القمة الأفريقية-الآسيوية الثانية المقرر عقدها في حزيران 1965 في العاصمة الجزائرية. وبصفته رئيساً، سيقيم ليو اتفاقات مع العديد من رؤساء الدول الذين سيحضرون القمة، لذلك سيعطي إبعاده قبل الاجتماع، انطباعاً سيئاً. كانت القمة قاسية جداً بالنسبة الى ماو الذي أراد استخدامها للقيام بدور بارز في العالم الثالث. وبما أنه لم يكن مستعداً لمغادرة أرضه الأم لأسباب أمنية، أضطر الى التحكم بعلاقاته عن بعد؛ والرجل المناسب لهذه المهمة هو تشو إن-لاي.

عقدت أول قمة أفريقية-آسيوية منذ عشر سنوات في باندونغ في إندونيسيا حيث نجح تشو كثيراً في تشجيع بلدان العالم الثالث المستقلة حديثاً. منذ ذلك الحين، تعاظم تأثير بكين، أقله بسبب مساعداتها الضخمة. توفي نهرو، نجم باندونغ، وفي هذه الأثناء حصلت الصين على القنبلة. فكر ماو في أنه سيعتبَر راعي القمة الثانية - في حال عدم اشتراك روسيا. وخلال الإعداد للقمة الجزائرية، كان هدف ماو إبقاء الروس خارجاً.

ولبلوغ هذه الغاية، لاطفت بكين الرئيس الإندونيسي سوكارنو بصفته الرجل الذي يوافق على الدعوات، ولكونه مضيف القمة الأولى. كما قدمت له الصين هدايا ثمينة شملت على الأرجح جنوداً لحرب سيشنها على ماليزيا. وفي طليعة قائمة العروضات، تدريب العلماء النوويين الاندونيسيين، وتمكين سوكارنو من إعلان قرار أندونيسيا بتفجير قنبلة ذرية قريباً. ألمحت الصين الى الانجذاب نفسه نحو الأسرار النووية، أمام مصر، البلد الأساسي الآخر في العالم الثالث، في حين لم ينو ماو مشاركة معرفته النووية مع أحد؛ وعندما طلب عبد الناصر لاحقاً من تشو أن يكشف عن وعده، أجابه تشو «كن مستقلاً بنفسك».

ولشراء أصوات للقمة الجزائرية، تعهّد ماو بأن تنجز الصين أضخم مشروع ما وراء البحار - سكة حديدية يبلغ طولها حوالى 2000 كم تبدأ من زامبيا المحاطة باليابسة وتمر عبرتنزانيا وصولاً حتى المحيط الهندي. وإذ علم تشو أن الرئيس التانزاني جوليوس نيريري مهتم بالسكة الحديدية، ولم يتمكن من دفع الغرب الى تأمين المال، قال: «قال الرئيس ماو كلما اعترض الامبرياليون، نقدم نحن الدعم؛ الامبرياليون يعترضون على هذا، نحن نرعاه...» لم يكن ماو قلقاً بشأن فرص نجاح السكة الحديدية. عندما عبّر نيريري عن تردده في شأن قبول العرض، مارس تشو مزيداً من الضغط مدّعياً أن مواد بناء السكة الحديدية وعمالها، ستُفتقد إن لم تُستعمل في تنزانيا. كلّف المشروع حوالى بليون دولار أميركي، وهي قيمة صرفها ماو واعتبرها «غير هامة جداً».

وقبل عشرة أيام من افتتاح القمة، خُلع الرئيس الجزائري أحمد بن بيلا في انقلاب عسكري. وقبل ذلك بقليل، سماه ماو «أخي العزيز»، وهو الآن يجعله يسقط كالبطاطا الساخنة، وأمر تشو بدعم الحكومة العسكرية الجديدة والتأكد من استمرار انعقاد القمة وفق البرنامج المقرر.

بدأ ديبلوماسيو بكين بالتكتل بحماس شديد، رغم أن الغالبية الكبرى من الحكومات المفترض أن تشارك، عبرت بوضوح عن تفضيلها للتأجيل. حتى نيريري الموالي جداً لماو، كشف أمام تكتل بكين عما يدور في رأسه قائلاً: «تشو إن-لاي هو أكثر رجل دولة أحترمه. لكنني لا أفهم لماذا أصر على انعقاد المؤتمر بحسب البرنامج المقرر؛ كان بن بيلا بطلاً مناهضاً للاستعمار اعترفت به كل أفريقيا»، وأضاف: «يجب أن أخبركم [بأن التكتل في الصين] أضرّ

بسمعة الصين ورئيس الوزراء تشو نفسه».

تأجلت القمة، وارتدّ كيد بكين المخادع عليها. فخلال أسابيع طويلة، كان عبد الناصر، الذي له الصوت الحاسم بطرق مختلفة، يدعم المشاركة الروسية. وإذا حضر الروس، لن يستطيع ماو لعب الدور القيادي، لذلك أعلن الصينيون أنهم لن يشاركوا؛ ولم تنعقد القمة.

وإذ انهار حلم ماو بلعب دور القائد على البلدان الآسيوية والأفريقية، شعر بغيظ شديد. وإذ كان يتوق الى إحراز انتصار في مكان ما، وجد نفسه على وشك دخول حرب مع الهند.

خلال السنوات الثلاث السابقة، كان يهزم الهند برضى وفرح؛ ولكن الآن، في خريف 1965، لم يعد يضمن النجاح لأن الهند أصبحت أكثر استعداداً. فراح يتطفل على صراع دولة أخرى، وهذه وسيلة خطرة دائماً. في 6 أيلول، دخلت باكستان حرباً مع الهند. وخلال السنوات السابقة تقرّبت باكستان من الصين وباتت إحدى أكبر دولتين غير شيوعيتين تحصلان على مساعدة صينية(*).

بدت حرب باكستان على الهند بالنسبة الى ماو، فرصة لتسجيل انتصار آخر على الهند التي ستضطر الى القتال على جبهتين في حال تدخلت الصين. فحرك جيوشاً باتجاه الحدود، ووجّه إنذارين يطلب فيهما من الهند أن تفكك القواعد المزعومة على بعض الأراضي التي تطالب بها بكين، وذلك خلال ثلاثة أيام تنتهي في 22 أيلول. عندما ردت دلهي بلهجة مصلحة، ناكرة وجود قواعد هناك، ولكن داعية الى «تحقيق مشترك» وواعدة أنه في حال وجود قواعد «لن تمانع في تفكيكها»، ردت بكين بعنف أن «لا حاجة للتحقيق» وأن القواعد موجودة. كان ماو يميل فعلاً الى دخول الحرب.

لكن المخطط انهار عندما وافقت باكستان فجأة على دعوة الأمم المتحدة الى وقف لإطلاق النار قبل انتهاء المهلة التي حددتها الصين. فقال الباكستانيون لماو إن كلفة متابعة القتال باهظة على الصعيدين الديبلوماسي والاقتصادي، لكن ماو ضغط عليهم ليكملوا المعركة، ونقل الى الرئيس الباكستاني أيوب خان الرسالة التالية: «في حال حصول حرب نووية، فبكين ستكون الهدف وليس روالبندي». عندما رفض الباكستانيون الالتزام، أُسقط ماو من المعادلة واضطرت بكين الى الانسحاب علناً، زاعمة بضعف أن الهند فككت قواعدها سراً – في حين لم تتحرك الهند فعلياً. وانتهى الأمر بماو الى تشنج كبير.

حاول ماو أن يحرز نجاحاً بأي ثمن، فأشعل تدخلات عنيفة أينما استطاع. ففي تايلاندا،

(*) في عام 1965 بدأت الصين تتحدث عن نقل المهارة النووية الى باكستان -أو بالأحرى لوحت بهذه الإمكانية. أصبحت باكستان أكثر نفعاً لماو كمحطة هامة إلى الشرق الأوسط، كما دعمت بكين بعنف طموحات باكستان على كشمير مدربة ثوار كشمير لما قدمته الصين على أنه حرب «تحرير وطنية».

قام الحزب الشيوعي برعاية ماو (ومشاركة عدد ساحق من الصينيين الاتنيين)، بإطلاق عصيان مسلح، واجه للمرة الأولى قوى حكومية في 7 آب 1965، وعرف منذ ذلك الحين «بيوم إطلاق البنادق». ولم يحرز أية نتيجة.

أما الفشل الأكبر – والأكثر مأساوية – فقد أتى من إندونيسيا. فالحزب الشيوعي هناك PKI كان الأضخم في العالم غير الشيوعي، إذ ضم حوالى 3.5 ملايين عضواً، وكانت له علاقة ودية وسرية مع بكين كالتي كانت للشيوعيين الصينيين مع ستالين قبل غزوهم الصين(*). وأخبرنا رئيس الحزب الشيوعي الياباني في ذلك الوقت، كينجي مياموتو Miyamoto، أن بكين كانت تقول باستمرار للحزب الشيوعي في إندونيسيا وللحزب الياباني: «كلما سنحت الفرصة بالاستئثار بالسلطة، يجب أن تهبّوا في قتال مسلح». في عام 1964، ناقش مياموتو الأمر مع إيديت Aidit. وفيما كان الشيوعيون اليابانيون حذرين، كان إيديت، الذي يثق كثيراً بماو، يتوق الى العمل. فبعد فشل القمة الجزائرية، وما خلّفته من مزاج محبط، حرك ماو الحزب الشيوعي في إندونيسيا ليستأثر بالسلطة.

قضت الخطة بضرب أعناق كبار ضباط الجيش المعارضين للشيوعية، الذين لم يمارس عليه الرئيس سوكارنو الموالي لبكين، سوى سلطة محدودة. وكانت بكين تحث سوكارنو على إصلاح الجيش بشكل جذري؛ وبسبب دعم سوكارنو تمكن الحزب الشيوعي في إندونيسيا من التسلل الى الجيش بنجاح. كما آمن الحزب الشيوعي في إندونيسيا، وبتفاؤل فائق، أن باستطاعته السيطرة سراً على نصف الجيش وثلثي السلاح الجوي وثلث السلاح البحري. وبحسب الخطة، ما إن يتم التخلص من الجنرالات، حتى يخطو سوكارنو خطوته ويستولي على الجيش، فيما يبقى الشيوعيون في الجيش، رُتباً وأرتالاً، في خط واحد.

في 30 أيلول، قامت مجموعة من الضباط باعتقال وقتل قائد الجيش الإندونيسي وخمسة جنرالات آخرين. وعندما تحدث ماو سريعاً الى رئيس الحزب الشيوعي الياباني مياموتو، لاحقاً، أشار الى هذه الضربة على أنها «ثورة... الحزب الشيوعي في إندونيسيا». لكن الحزب الشيوعي في إندونيسيا فشل في التعاون مع الحدث غير المرتقب الذي غيّر كل مسار مؤآمرته. وقام أحد المخبرين بإعطاء معلومات سرية الى جنرال مغمور في ذلك الحين ويدعى سوهارتو Suharto، ولم يكن على لائحة الاعتقال. ورغم استعداده، انتظر سوهارتو انتهاء عملية اعتقال

(*) في أيلول 1963 دعا تشو إن لاي قائد الحزب الشيوعي في أندونيسيا الى قمة سرية في كونغوا جنوبي الصين، الى جانب الفيتنامي هو شي مينه ورئيس الشيوعيين في لاوس، وذلك لتنسيق الاستراتيجية العسكرية في اندونيسيا تماشياً مع الحرب في الهند الصينية. هذه القمة وضعت اندونيسيا على خط استراتيجي واحد مع الهند الصينية، وربطت التطورات في اندونيسيا بأكثر الصراعات العسكرية تقدماً في الهند الصينية.

وقتل الجنرالات الخمسة، ثم استولى فوراً على الجيش، مسبباً مجزرة كبيرة راح ضحيتها مئات الآلاف من الشيوعيين والمتعاطفين - والأبرياء. كما احتُجز وأعدم كل أعضاء قيادة الحزب الشيوعي في إندونيسيا تقريباً. نجا عضو واحد فقط من المكتب السياسي وهو جوسوف أدجيتورود، الذي كان حينها في الصين، والذي التقيناه هناك وأصبح رجلاً خائباً بعد ثلاثة عقود.

طُرد الرئيس سوكارنو، وأقام الجنرال سوهارتو قيادة ديكتاتورية عسكرية مناهضة لبكين بشكل وحشي، ومعادية للمجتمع الصيني الاتني الواسع في الداخل.

لام ماو الحزب الشيوعي في إندونيسيا على فشله، وقال للشيوعيين اليابانيين: «ارتكب الحزب الإندونيسي خطأين. الأول، أنه آمن بسوكارنو بشكل أعمى، وغالى في تقدير سلطة الحزب في الجيش». وأضاف ماو: الخطأ الثاني هو أن الحزب الشيوعي في إندونيسيا «تردد ولم يحارب جيداً»[*]. في الواقع، إن المجزرة التي أحدثها سوهارتو كانت وحشية وعنيفة بحيث استحال على الحزب الشيوعي في إندونيسيا أن يواجه بقتال مماثل. ولم يشهد ماو ورجاله لأي شيء من هذا النوع على يد تشيانغ كاي-شيك Chiang Kai-shek، الذي اعتُبر هرة صغيرة مقارنة مع سوهارتو. في جميع الحالات، ماو هو الذي يلام، لأنه أطلق العمل لأسباب تتمحور حوله شخصياً، إذ كان متعطشاً الى إحراز نصر ما، بعد انهيار حلمه في قيادة أفريقية-آسيوية.

في نهاية عام 1965، بدأت خطط ماو تتراجع خطوة تلو الأخرى. وبمزاج قاتم وملتهب التفت الى مواجهة أخصامه داخل الصين.

---

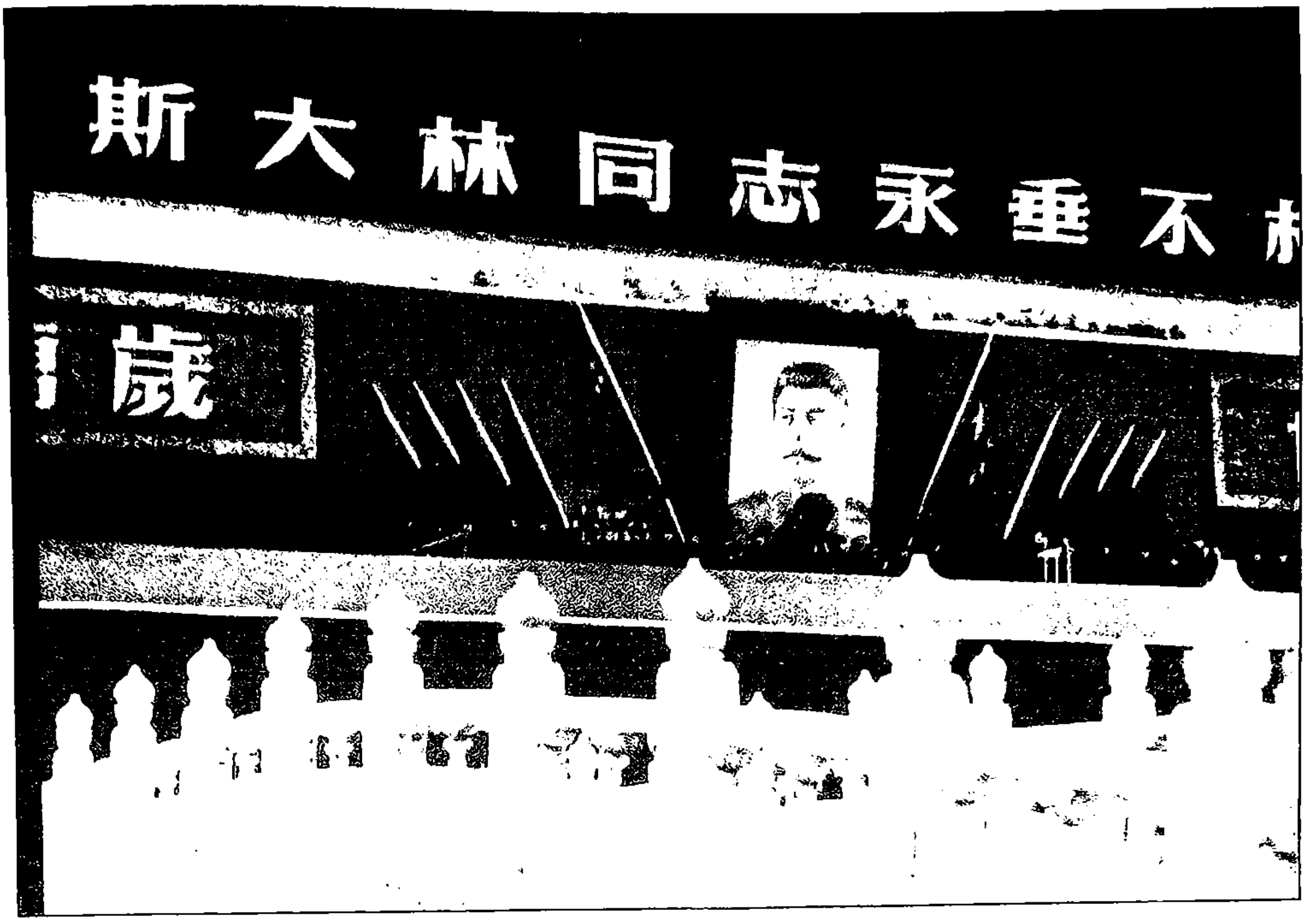
[*] هذه الأجزاء من أحاديث ماو أخذت من النسخة المنشورة وتوفرت لنا من اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الياباني.



ماو متجهاً الى جانب زعيمه وخصمه ستالين ، لمناسبة عيد ميلاد هذا الأخير السبعين في موسكو في كانون الأول/ ديسمبر 1949. إلى يسار ستالين، الزعيم الألماني الشرقي والتر أولبريشت الذي اقترح عليه ماو بناء الجدار؛ إلى أقصى اليمين، تسيدنبال رئيس منغوليا؛ ويبدو الماريشال السوفياتي بولغانين في الوسط (الخلف). وخلف كتف ماو اليمنى، يبدو مترجمه شي زي الذي زوّدنا بمعلومات قيمة جدًا عن علاقة ماو بستالين.



ماو العابس في جولة لرؤية مآثر العناية العملية بالحيوانات في الاتحاد السوفياتي في حظيرة أبقار باردة جدًا. ويبدو المترجم شي زي الى اليسار.



بوابة تيان ان مين مزيّنة بصورة لستالين الراحل، 9 آذار 1953، (نرى القادة تحت صورة ستالين). وشملت الأوامر التي أعطيت لمئات الآلاف من الأشخاص الذين أحضروا إلى الاحتفال الضخم، التنبيه الآتي: «الضحك ممنوع».



ماو يضع إكليلاً على صورة ستالين. كانت وفاة ستالين لحظة تحرّر ماو.



كان الرئيس الروسي الذي خلف ستالين نيكيتا خروتشيف، مستعدًا للمساعدة في تحويل الصين إلى قوة عسكرية عظمى. وكان هذا حلم ماو العزيز على قلبه. يتعانق القائدان في مطار بكين في آب 1958. ويبدو المترجم لي يو-ران إلى اليسار.



ماو متأثرًا لدى رؤية طيار حربي (يظهر القائد الأعلى للأمن الشخصي ليو روي-كينغ إلى اليمين).



«السلطة تمر من فوهة البندقية»: ماو في تمرين عسكري مع (من اليسار) ليو روي-كينغ والرئيس ليو شاو-كي.

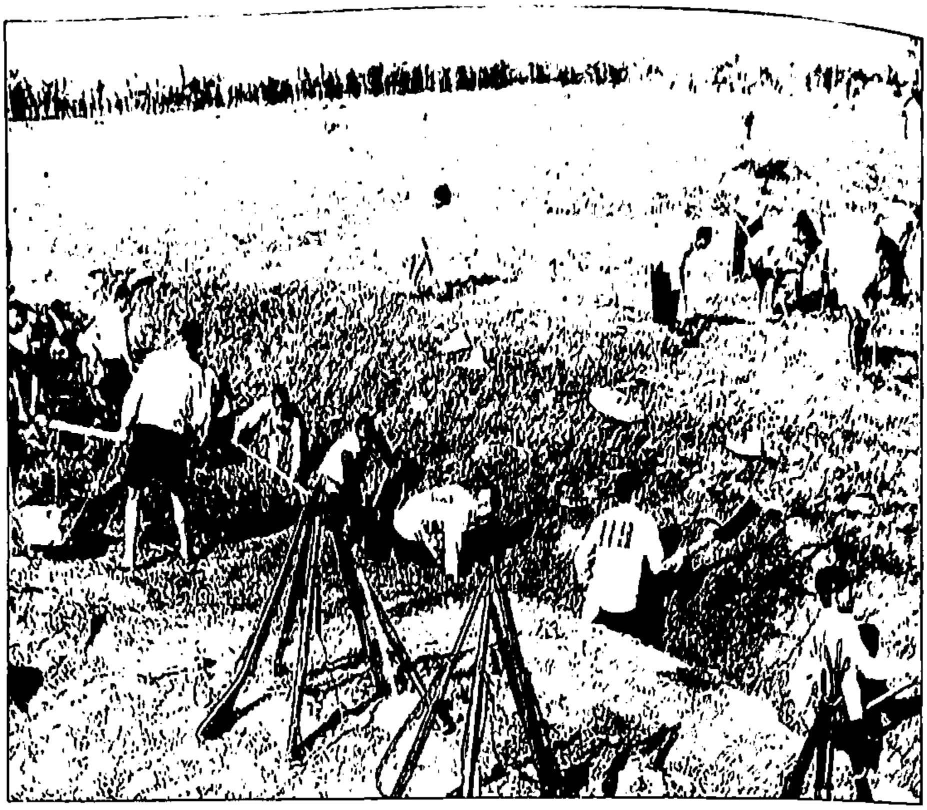


دمية شقراء تلفت نظر ماو في معرض ياباني في بكين سنة 1956. لم يحضر ماو المعرض ليتفقد الموضة من أجل النساء الصينيات اللواتي كنّ ملزمات بارتداء «بذلات ماو»، بل لتملق اليابانيين للحصول على سلع استراتيجية لبرنامج التحوّل إلى قوة عظمى.



كان ماو يحب الحكم من السرير وغالباً ما كان يستدعي زملاءه من أسرّتهم في منتصف الليل. وكانت الكراسي لاعضاء اللجنة التنفيذية لحزبه توضع عند قدم سريره الضخم. وعلى هذا السرير استقبل ايضاً صديقاته العديدات.

في «القفزة الكبرى للأمام» (1958-1961)، تسلى ماو بفكرة التخلّص من الأسماء وتعريف الناس بالأرقام. القرويون في المقاطعة النموذجية هونان يعملون مع أرقام على قمصانهم.



تضخيم المحاصيل الزائفة بغية تصدير أقصى كمية ممكنة من الطعام للخارج. - الصين تتفوق على الولايات المتحدة الأميركية في إنتاج القمح.



تشغيل الناس بجهد أكبر خلال «القفزة»: فتاة تجرّ عربة.



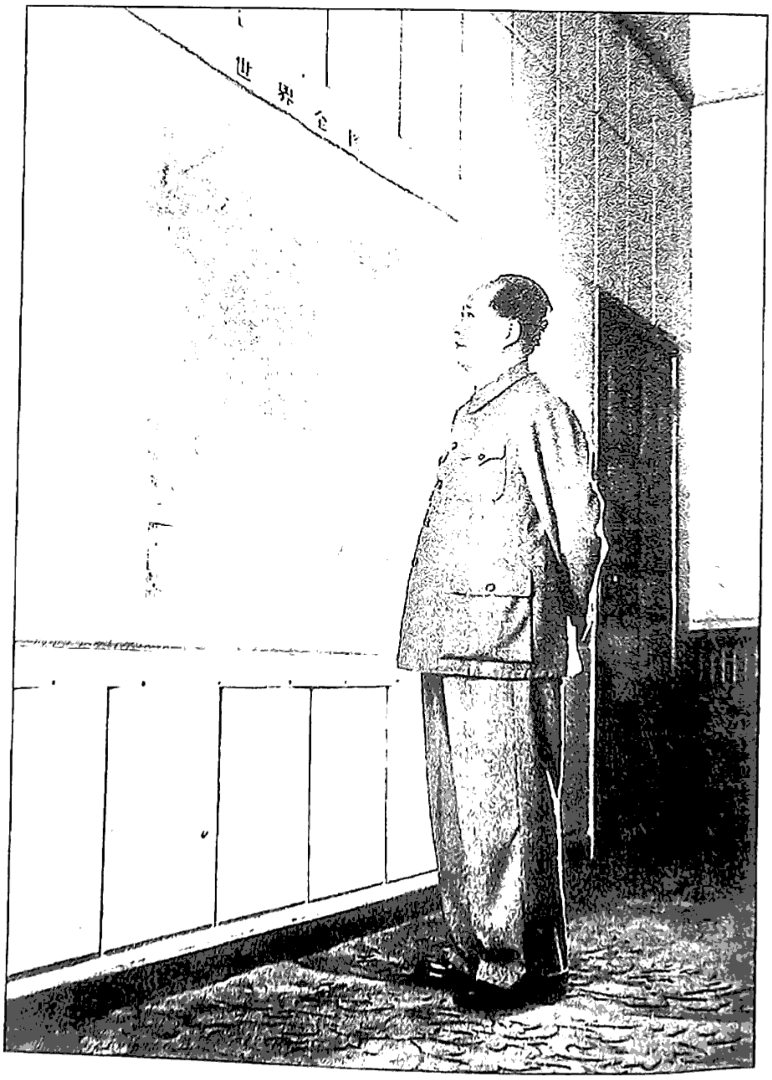


الرئيس ليو شاو-كي يزور مسقط رأسه هونان في ربيع 1961. (في الأعلى) يصغي مندهشاً إلى فلاحة عجوز و(في الأسفل) يحدّق في وعاء طعام فارغ مع زوجته وانغ غوانغ-مي. حثّته هذه الزيارة على الكمن لماو وإيقاف «القفزة» - والمجاعة.





في تصميمه على استعادة المبادرة، لجأ ماو إلى هوايته المفضّلة، السباحة، كخطوة سياسية ليبرهن عن القوة والتصميم.



ماو متأملاً خريطة للعالم خلال المجاعة سنة 1961. قال لحلقته الداخلية: «علينا أن نحكم العالم!»



من تجرأ على الكلام تعرّض للاضطهاد. (في الأعلى) «بانشن لاما» التيبيت يُتّهم أمام صورة لماو؛ ووزير الدفاع السابق بينغ دي-هواي (في الوسط) مستعرَضًا (إلى اليسار) في «الثورة الثقافية» قبل ان يعاني موتاً بطيئاً.







خلال «الثورة الثقافية»، انتقم ماو من ليو شاو-كي الذي نراه هنا يتعرّض للضرب من قبل الموظفين مستعملين «الكتاب الأحمر» داخل مجمّع القادة، زونغنانهاي، ثم (في الاسفل) واقعًا على الأرض. مات ليو موتًا مفجعًا في الأسر. (في الوسط)، زوجة ليو الشجاعة، وانغ غوانغ-مي تُعامل بقسوة مرتدية عقداً من طابات البينغ- بونغ ورقعة تصفها بـ«اللصة السياسية».



المشاهد اليومية في «الثورة الثقافية». وضعية «الطائرة النفاثة» (إلى اليسار)، وقص الشعر بشكل عنيف، دومًا تحت صورة لماو.







صورة نادرة لمظهر الشعب خلال تلك السنوات.



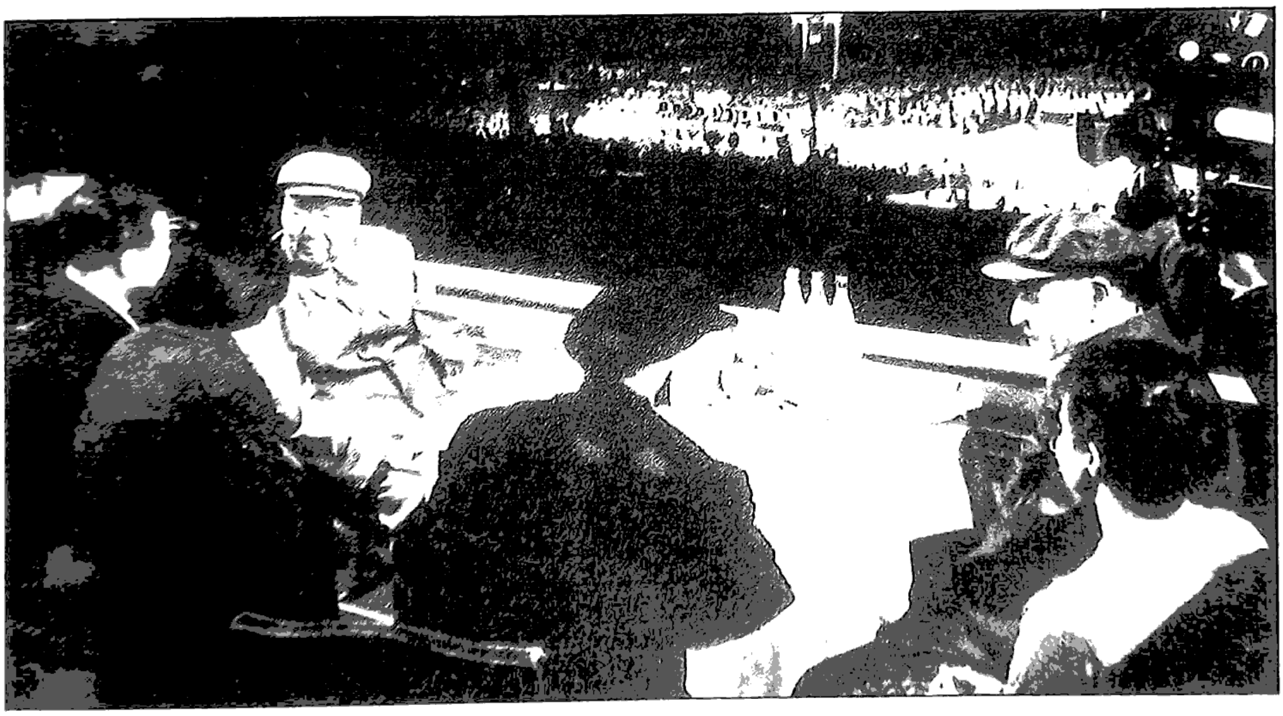
المعارضون المتحدّون
يُعدمون أمام حشد
خارج هاربين خلال
«الثورة الثقافية».







باتت «الثورة الثقافية» ممكنة نتيجة مقايضة ذكية بين ماو والماريشال لين بياو. (إلى اليسار) لين إلى جانب ماو الذي يرتدي رباط يد «الحراس الحمر» عند بوابة تيان ان مين، سنة 1966. (لاحظوا أسنان ماو السوداء التي كان نادراً ما يفرشيها. لم يستحم واقفاً او مسطحاً خلال حكمه الذي استمر 27 سنة). في النهاية، ساءت العلاقة بين ماو ولين. (في الأسفل)، في «يوم أيار» سنة 1971، تحدى لين العابس (بالقبعة، إلى اليمين) البروتوكول وحضر إلى تيان ان مين لدقيقة فحسب، رافضاً التحدّث إلى ماو أو إلى أمير كمبوديا سيهانوك (قرب ماو) أو إلى زوجته الأميرة مونيك.





ابن لين بياو «تايغر» (إلى اليمين)، هو الشخص الوحيد المعروف للتخطيط لاغتيال ماو. في أيلول 1971، لين وزوجته (في الوسط) وابنه «تايغر» فرّوا من الصين على متن طائرة تحطمت بهم في منغوليا، وذلك بعد أن قامت ابنة لين «دودو» (إلى اليسار) والتي خضعت لغسيل دماغ بالإبلاغ عنهم.





كان رئيس الوزراء تشو إن لاي الوجه الفاتن لاستبداد ماو. استخدم ماو خدماته فيما كان يبتزه لنحو النصف قرن. في شباط 1972، حظي تشو بأريكة مريحة (في الأعلى) لدى زيارة الرئيس الأميركي نيكسون. من اليسار: تشو، نانسي كينغ ماو، نيكسون، كيسينجر، وينستون لورد. في كانون الأول 1973، أقصى ماو تشو إلى كرسٍ قاس مهين خلال لقائه الملك النيبالي (في الوسط). في ذلك الوقت، كان ماو يؤخّر منح الإذن لتشو للعلاج من السرطان.



(إلى أقصى اليسار)، سنة 1974، دينغ كزياو-بينغ الذي استعاد عافيته حديثاً (الأقصر قامة، في المقدمة) شكّل تحالفاً مع المارشال ياه جيان-يينغ (الثاني من اليسار) وتشو إن-لاي (أقصى اليمين) ضد «عصابة الأربعة». ويظهر في الصورة ثلاثة من أعضائها: السيدة ماو (مع الوشاح)، ووانغ هونغ-وين (خلف دينغ) وياو وين-يوان (أقصى اليسار).





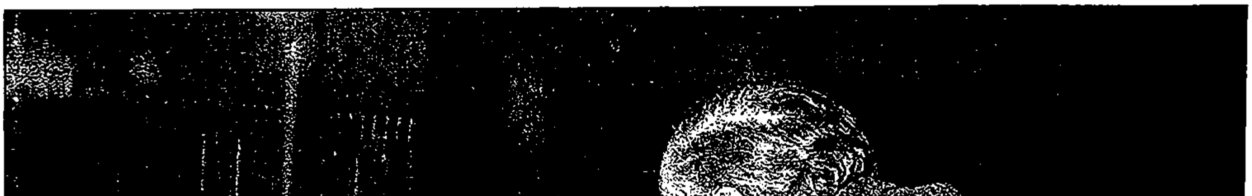


السيدة ماو تُقيّد في محاكمتها بعد وفاة ماو. قالت لملاحقيها: «كنت كلبة ماو. أعضّ من يطلب الرئيس ماو مني أن أعضّ». انتحرت سنة 1991.





في سنواته الأخيرة، ارتبط ماو بعدد من القادة الآفلين، بخاصة الرئيس الأميركي السابق نيكسون الذي لطخته فضيحة الواترغيت والذي سافر إلى الصين في رحلة وداعية خاصة في شباط 1976.



الصورة الأخيرة لماو كانت مع رئيس وزراء باكستان، ذو الفقار علي بوتو، 27 أيار 1976. توفي ماو في 9 ايلول 1976 وجلبت سنوات حكمه (27 عاماً) الموت لأكثر من سبعين مليون صيني.

القسم السادس

الثأر المرير

47- مفاوضات لضمان الثورة الثقافية
(1965-1966، العمر 71-72 سنة)

في تشرين الثاني 1965، أصبح ماو مستعداً أخيراً لإطلاق التطهير الكبير الذي خطط له منذ زمن بعيد «لمعاقبة حزبنا هذا» كما قال.

بدأ ماو ذلك على مراحل: فقرر أن يصوّب طلقته الأولى باتجاه الثقافة، لذلك سمي التطهير الكبير، الثورة الثقافية. كانت السيدة ماو رأس حربة هذا الهجوم؛ إنها ممثلة سابقة تحب الثقافة لكنها لا تكترث لمنعها عن الصينيين الآخرين. كانت تفرح عندما ترتسم أمامها فرصة لبث سمومها المخزَّنة بكميات كبيرة. لاحظ ماو يوماً أمام أحد أفراد عائلته وهو يهز إصبعه الصغير كذيل العقرب: «جيانغ كينغ Jiang Qing سامة جداً كالعقرب». أدرك ماو تماماً كيف يستغل طاقتها للاضطهاد. ففي عام 1963، عينها في وزارة الثقافة كمراقبة خاصة لديه، في محاولة للتوصل الى إدانة الأوبرا والأفلام. الرسميون في الوزارة، تجاهلوها تماماً؛ فهي في الأساس امرأة مهووسة، اتهمت ممرضاتها بمحاولة تسميمها بحبوب منومة، وإحراقها بالماء الساخنة خلال استحمامها. وهي الآن تدعي أن الرسميين الذين تعاملت معهم «أبعدوها وتنكروا لها» - وبدأت تتمرد بنفسها عليهم بدون رحمة. فجعلها ماو قائدة شرطته لأنها خنقت الثقافة على صعيد الأمة ككل.

من بين مهامها، إعداد بيان رسمي يدين كل أشكال الثقافة، على أساس أنها تخضع جميعها لإدارة رسميين يتبعون «خطاً أسوداً معارضاً لفكر ماو تسي-تونغ». طلب منها ماو أن تنجز ذلك بالتعاون مع لين بياو Lin Biao قائد الجيش. ففي ليل 26 تشرين الثاني، اتصلت السيدة ماو هاتفياً بالسيدة لين بياو التي تستلم عادة اتصالات زوجها، وتتصرف على أنها مساعدته الاولى. فالتمس لين بياو مساعدتها في المشروع.

في الحقيقة، قلما التقى ماو ولين بياو اجتماعياً، لكن تعاونهما يعود الى حوالى أربعة عقود- الى عام 1929، عندما عقدا تحالفاً للإطاحة بزو دو Zhu De الذي يشمئز منه لين بياو ويميل ماو الى السيطرة عليه. منذ ذلك الحين قامت علاقة حميمة مميزة بين ماو ولين. وقد سمح ماو بأن يتمتع لين بدرجة عالية من الاستقلالية؛ مثلاً، عندما كان لين في روسيا، خلال الحرب

الصينية-اليابانية، عبّر أمام الروس عن رأيه في عدم رغبة ماو في محاربة اليابانيين، ومدى توق ماو الى الإطاحة بتشيانغ كاي-شيك - الأمر الذي ما كان ماو ليتقبله من أي شخص آخر. وخلال الإرهاب في ينان، قام لين مجدداً بأمر لم يكن مسموحاً به لأحد: إذ أخرج زوجته من الاحتجاز ورفض أن تُستجوب. في عهد ماو، كان على الجميع القيام علناً، «بانتقادات ذاتية» مهينة. وفي المقابل منح لين هذا المستوى من حرية العمل، توقع منه ماو أن يأتي اليه عند الحاجة، الأمر الذي فعله لين دائماً.

عندما أطلق ماو القفزة الكبرى للأمام عام 1958، روّج للين على أنه أحد نواب رئيس الحزب، وقوة مقابلة لمعاونيه الآخرين. عندما تحدى بينغ دي-هواي Peng De-huai رئيس الدفاع السابق، ماو حول مسألة المجاعة عام 1959، وبسبب دعم لين القوي لماو، قليلون فقط تجرأوا على دعم بينغ. فعمد ماو الى ترقية لين وجعله وزيراً للدفاع بدلاً من بينغ. خلال المجاعة، عزز لين صورة ماو من خلال الترويج لعبادة شخص ماو، خاصة داخل الجيش. فاخترع «الكتاب الأحمر الصغير»، وهو مجموعة من الأقوال القصيرة جداً التي أطلقها ماو، كآلية لتعليم عقيدته. وفي مؤتمر الـ7000 في عام 1962، أنقذ لين ماو من خلال تأييد ما يوازي العصمة البابوية بالنسبة اليه. بعد ذلك، وفيما كان ماو يعد للتطهير الكبير، تابع لين بناء الجيش في إطار عبادة ماو.

في العلن، كان لين يرفع ماو عالياً جداً، رغم انه في الحقيقة لا يخلص له كثيراً، ويبدي حوله في الداخل ملاحظات استخفافية لا بل ازدرائية، دخل بعضها في مذكراته. إن دعم لين لماو وتأييده بحماسة وعزم، جاء بدافع الطموح المحض - طموح أن يصبح الرجل الثاني لدى ماو ومن ثم خلفه. كما أخبر زوجته أنه أراد أن يكون مثل «إنجلز بالنسبة الى ماركس، وستالين بالنسبة الى لينين وتشيانغ كاي-شيك بالنسبة الى سان يات-سين». خلال التطهير الكبير الذي كان ليو، الرئيس، هدفه الأول، توقع لين بياو أن يحصل على تقدّم ما.

لكن الرجل الذي كان على وشك الارتفاع الى أعلى الدرجات، عانى من رهابات عديدة وبدا كمدمن على الكحول. رهابه الأكبر ارتبط بالماء والهواء. فرهابه من الماء كان حاداً وقوياً لدرجة أنه لم يستحم طوال سنوات، واكتفى بمسح جسمه بمنشفة رطبة. لم يكن يحتمل رؤية البحر، لذلك عجز عن إقامة أي اتصال بالسلاح البحري. كان يملك فيلا مطلة على البحر لكنها تقع بين الهضاب، فلا يرى فعلياً البحر. كانت أماكن إقامته مجهزة بالعديد من مجسات الهواء المعلقة في السقف. وقد طلبت السيدة لين من أحد الزوار أن يمشي ببطء في حضور لين حتى لا يؤدي التحرك البطيء للهواء أثناء المشي، الى إثارة رهاب زوجها من النسيم.

كتبت زوجة لين في مذكراتها أن لين رجل «متخصص في الكره، والاحتقار (فالصداقة

والأطفال والأب والأخ - كلها قيم لا تعنيه)، والتفكير الأسوأ والأكثر خساسة عن الناس، والحسابات الأنانية...والتخطيط والعمل على إحباط الآخرين».

إن الرجل الذي كرهه لين بشكل خاص منذ عام 1965 هو رئيس الأركان في الجيش لويو روي-كينغ Luo Rui-qing أحد المفضلين لدى ماو منذ زمن بعيد، والذي أسماه ماو بإعزاز لويو الطويل. غالباً ما كان ماو يصدر أوامره الى الجيش عبر لويو الطويل، وحتى الأوامر الى لين نفسه التي كانت في جزء منها ناتجة عن توقف لين عن العمل بسبب اهتمامه برُهاباته. أما لويو الطويل فكان مفعماً بالنشاط والقدرة، وسهولة اتصاله بماو لا مثيل لها. كان كبير رجال الأمن لدى ماو خلال سنوات، بسبب ثقة ماو الكبيرة به. قال ماو: «ما إن يقترب لويو الطويل، حتى أشعر بالأمان التام»؛ لم يقل ماو هذه الكلمات بخفر. فأحس لين بأنه يوضع في الظل وبدأ يحيك مؤآمرة للتخلص من رئيس الأركان لبعض الوقت. عندما استلم اتصال السيدة ماو في تشرين الثاني 1965 وتقول فيه إن ماو يحتاجه لمهمة أساسية، أراد لين بياو اقتناص فرصته. بعد أربعة أيام، أرسل زوجته لمقابلة ماو في هانغزهو (إذ كان الثنائي لين يقطن في الجوار، قرب حديقة مدينة سوزهو)، حاملة رسالة بخط يده، تضم بعض الاتهامات الدقيقة للويو الطويل؛ طلب لين من ماو أن يضحي بتابعٍ له يحظى بتقدير عميق.

أحضر ماو لين بياو شخصياً من هانغزهو، وفي ليل الأول من كانون الأول، دارت بين الرجلين محادثات سرية. أخبر ماو لين عن خططه لعملية التطهير الكبير، ووعد بجعل لين رجله الثاني وخلفه. وطلب من لين أن يتأكد من أن الجيش تحت السيطرة التامة - وأن يستعد للعب دور جديد كلياً: التدخل واستلام أعمال عدد كبير من ضباط الحزب الذي ينوي ماو إبعادهم.

أصر لين على إبعاد لويو الطويل أيضاً؛ أن يقود لين مراهنة صعبة كهذه، يعني أنه وماو فهما قيمته الوحيدة: بدون لين، لن يستطيع ماو إنجاز عملية التطهير.

حاول ماو عبثاً إدانة مقطوعة أوبرا محددة، ولم ينجح. تدعى الأوبرا هاي روي Hai Rui هاي روي المطرودة من المكتب، وارتكزت على قصة تقليدية عن موظف كبير في الامبراطورية الصينية القديمة، عوقب على يد الامبراطور لأنه تحدث باسم الفلاحين. اتهم ماو ذلك بأنه هجوم مستتر على ما فعله هو (الامبراطور) لوزير الدفاع المبعد بينغ دو-هواي، وأمر بشجب ذلك وإدانة المارشال بينغ نفسه. كتبت مقالة في هذا المجال، برعاية ماو، ونشرت في شانغهاي في 10 تشرين الثاني 1965.

لكن ماو تملكه الغضب الشديد إذ لم تنشر هذه المقالة في أي مكان آخر في الصين. فبقيت

مجهولة من مقاطعة الى أخرى، وحتى داخل العاصمة بكين. كان الأمر ممكناً، لأن الثقافة كانت - الحاكم المطلق في ذلك الوقت - فمنع بينغ زين Peng Zhen (لا علاقة له ببينغ دو-هواي) إعادة طبعها. وكان بينغ زين تابعاً وفياً منذ زمن بعيد، موثوق به الى حد إمساكه بالعمل الاستراتيجي الحيوي الذي يقوم به حاكم العاصمة، وقليلون الرجال القريبين مثله من ماو. ولكن عندما لم يُلحَظ ولاؤه، قرر الحاكم بينغ، الذي جُعل المشرف الوطني على الثقافة عام 1964، أن يعارض مطالب ماو بإبادة الثقافة. وبما أن بينغ دخل صلب المسألة، أدرك أن ماو نوى هذه المرة استخدام حقل الثقافة ليبدأ التطهير الذي سيشمل الحزب برمته.

كان الحاكم بينغ شديد الاهتمام بالحزب، وكان شجاعاً أيضاً؛ حتى أنه تذمر أمام الأجانب من ماو، وهذا أمر مستغرب بين المُطبقة أفواههم في قيادة الحزب الشيوعي الصيني. وعندما سأله شيوعي ياباني عن أوبرا هاي روي رد الحاكم بينغ بالقول: «ليست مسألة سياسية بل مسرحية تاريخية. الرئيس ماو قال إنها مسألة سياسية. ما أزعج ذلك!» كانت هذه لغة صريحة لا تصدق لتُستخدَم من قبل أحد المقربين أمام شخص من الخارج.

وبما أن الحاكم بينغ تحمل مسؤولية تجميد المقالة التي رعاها ماو، فقد رفضت صحيفة بيبولز دايلي بدورها، إعادة طبعها؛ أدرك محررها «وو لينغ-كزي» أنه يعارض ماو، كما لاحظ شاهد عيان خلال اجتماع صغير معه ومع ماو. طلب ماو من المدخنين التوقف عن التدخين ثم قال: «يبدو أنني أقلية في هذا المجال أيضاً». قال الشاهد متذكراً: «عند هذه الملاحظة، رأيت وجه وو لينغ-كزي...يتحول الى أبيض شاحب، وتوقف عن تدوين الملاحظات وتسمّر. فشيء مما قاله ماو أثار مخاوفه».

لكن المحرر حافظ على موقفه أسبوعاً إضافياً، الى أن تدخل تشو إن-لاي وأمره بنشر المقالة، موجهاً اليه تعليمات من ماو. ومع ذلك، عرف المحرر كيف يحجب جزءاً من المقالة في الصفحة 5، الفقرة المعنونة «نقاشات أكاديمية»، وفيها أن الحزب ليس هو من أمر ببدء حملة الاضطهاد. فانتهى الأمر بالمحرر في السجن، وقال ماو لخلفه مهدداً: «وو لينغ-كزي عصى أوامري، وأتساءل كيف كنت ستتصرف أنت». كان الخلف خائفاً ومتوتراً الى حد عجزه عن تمتمة ما أراد قوله: «سأطيع بالتأكيد الرئيس ماو».

إن الطريقة التي تم التعامل بها مع مقالة رعاها ماو الى هذا الحد، تظهر مدى المقاومة التي يواجهها من قبل قوى سلطوية جداً داخل الحزب. كان ماو بحاجة الى جهاز يمكّنه من تحقيق أمنيته، الأمر الذي استدعى مساعدة أساسية وفورية من لين بياو. أدرك لين ذلك، وأدرك أيضاً ماذا يريد في المقابل: أن يتعذب قائد الأركان ليو. فتنازل ليو رغم أن لويو الطويل كان وفياً الى أبعد الحدود؛ وكان ماو بحاجة الى رجال مثله أكثر من أي وقت مضى. لكن لين هو

الرجل الذي لا يمكن الاستغناء عنه: فلا أحد سواه يملك هذا النفوذ لتُنَفّذ أوامر ماو. كان لويو الطويل قديراً ووفياً، لكنه ليس مارشالاً، ولا يتمتع بهيبة مؤثرة داخل الجيش، فتمت التضحية به.

في 8 كانون الأول، تحدثت السيدة لين بياو في اجتماع للمكتب السياسي برئاسة ماو، على مدى عشر ساعات كاملة عن الجرائم المزعومة المرتبطة بلويو الطويل، فاتهمته بطموحاته «العميقة واللامحدودة»، بدءاً باشتهاء منصب لين وعمله كوزير للدفاع. لم يسبق أن قامت زوجة لين بلعب دور مماثل في اجتماع للمكتب السياسي، إذ لم تكن عضواً في المكتب السياسي ولا ضابطاً كبيراً، خاصة وأن زوجات كبار الضباط بقين بعيدين عن التدخل.

لم يكن لويو الطويل حاضراً في الاجتماع. عندما اكتشف أمر سقوطه، تجمدت رجلاه. فقد عجز هذا الرجل القوي البنية عن الصعود، ووضع في الإقامة الجبرية.

بالنسبة الى عائلته، بدأ الكابوس؛ ففي أحد الأيام القليلة التي تلت هذا الحدث، كانت ابنته تقود دراجتها عائدة الى منزلها عبر جسر بايهاي بريدج المقابل لزونغنانهاي، وكانت تقيم في مدرسة داخلية فلم تسمع بما حصل لوالدها. كانت القنطرة محاطة بدرابزين مصنوع من الرخام الأبيض ومنحوت بشكل أنيق. فمن خلال سحب الغبار الكثيف الذي حملته الرياح الباردة الآتية من سيبيريا، رأت ثلاثة شبان يركضون وراءها؛ إنهم أصدقاء حميمون، وأهلهم أصدقاء حميمون لأهلها أيضاً. عندما تجاوزوها، استداروا نحوها ونظروا اليها ببرودة وازدراء شديدين حتى سقطت عن دراجتها. كانوا يعلمون شيئاً لا تعلمه هي – أن والدها بات عدواً الآن. فهذه النظرة الباردة والقاسية، التي قصدت الأذى والجرح من قبل أناس كانوا بالأمس أصدقاء، ستصبح دمغة تميز علاقاتها خلال السنوات القادمة.

لكن لين بياو لم يكتف بمستوى الألم الذي أُلحق بلويو الطويل؛ فطلب من ماو أن يدان لويو لأسباب تعادل الخيانة العظمى: «الرغبة في اغتصاب الحزب والدولة». تريث ماو في السماح بهذا الأمر، لأنه سيعني إبعاد رجله الشجاع القديم، الى الأبد؛ لذلك لم يُتّهم لويو الطويل خلال الأشهر القليلة التالية بهذه الخيانة.

بالتالي، تلكأ لين عن مساعدة ماو. عندما أتت السيدة ماو لمقابلته في 21 كانون الثاني 1966 حول كتابة «البيان الرسمي» المخطط له ضد الفنون باسم الجيش، أبدى رغبة في ذلك، وعيّن بعض الكتّاب من الجيش، لكنه أخبرهم بدون علمها: «جيانغ كينغ مريضة... ومصابة برهاب...استمعوا فقط الى ما تقول وقولوا كلاماً مقتضباً قدر المستطاع...لا تُدلوا بأية انتقادات حول الفنون التي تديرها...» نتيجة لذلك، عندما رفعت المسودة التي أعدّوها الى السيدة ماو في شهر شباط، وجدتها «غير مجدية كلياً».

في هذه الأثناء، كان ماو يصاب باليأس. ففي شهر شباط نفسه، وبدعم من ليو شاو-كي، أصدر الحاكم بينغ «موجزاً لنهج» وطني يمنع استخدام الاتهامات السياسية لسحق الثقافة والقَيّمين على الثقافة. أكثر من ذلك، ذهب فعلياً الى حد إلغاء تعليهات ماو الهادفة الى بدء حملة الاضطهاد. وكانت الإعاقة من قبل الحزب فعالة وقوية.

لم يكن هذا كل شيء: فما إن أصدر الحاكم بينغ موجز النهج، حتى طار الى سيشوان زعماً أنه يريد الكشف على مصانع الأسلحة التي أخليت في مقاطعته الجبلية. هناك، قام بشيء مذهل فعلاً؛ إذ أجرى محادثات مغلقة مع المارشال بينغ الذي نفي الى هناك في شهر تشرين الثاني السابق عندما بدأ ماو يعدّ للتطهير الكبير. لم يُكشف أبداً عن مضمون الحديث الذي دار بين الرجلين الحاملين اسم بينغ؛ ولكن بالنظر الى التوقيت والمخاطرة الكبرى التي قام بها المارشال بينغ من خلال زيارة خصم أساسي لماو، بدون إذن، وسراً، يعني ذلك الى حد بعيد أنهما ناقشا إمكانية استخدام الجيش لإيقاف ماو.

ورغم أن المارشال بينغ كان فعلياً تحت الإقامة الجبرية، ومجرداً من أية سلطة، إلا أنه بقي يحظى باحترام كبير وولاء داخل الجيش، وخاصة من قبل أتباعه القدامى. وفيما هو في الإقامة الجبرية في بكين، قام بعضهم، بمن فيهم أحد الرجال المرموقين في جهاز ماو الأمني، بمخاطرة كبرى لرؤيته.

قد لا تكون أنباء زيارة الحاكم بينغ السرية للمارشال وصلت لماو، لكنه شك حتماً بأن الحاكم بينغ على وشك القيام بأمر ما في سيشوان؛ وازدادت شكوكه عندما ذهب المارشال هو لونغ بدوره الى سيشوان، وأيضاً باسم تفقد مصانع الأسلحة -وهو الرجل الذي قال له وزير الدفاع السوفياتي مالينوفسكي «تخلص من ماو». شك ماو بأن مؤامرة ما يجري الإعداد لها هناك، وسرعان ما اتهم معارضيه بتدبير مؤامرة أسماها «انقلاب شباط العسكري»(*). وقد اتضح مزاج ماو من خلال كمية الحبوب المنومة التي بات يتناولها، إذ ازدادت عشرة أضعاف الكمية العادية وبلغت حداً يمكن أن يقتل إنساناً عادياً.

لكن أموراً أخرى أيضاً أزعجت ماو؛ إذ يبدو أن الحاكم بينغ يترقب فرصة التواصل مع الروس، وقد يفكر في طلب المساعدة الروسية لتحاشي التطهير الذي ينوي ماو تنفيذه. دعا الكرملين الحزب الشيوعي الصيني لحضور المؤتمر القادم الـ23 الذي يعقده الحزب السوفياتي في نيسان 1966. أدرك معاونو ماو أنه منذ ملاحظات مالينوفسكي في تشرين الثاني 1964، لم يشأ ماو أن يذهب أيّ منهم الى روسيا، خوفاً من أن يتآمروا مع الكرملين ضده، لذلك أوصوا برفض الدعوة.

(*) هذا الشك حكم مصير قائد سيشوان لي جينغ كوان الذي من المفترض أن يكون يد بينغ دي هواي اليمنى. لي الذي كان أحد المفضلين لدى ماو عانى كثيراً خلال السنوات اللاحقة وانتحرت زوجته.

ولكن في بداية شهر آذار 1966، وبعد أن اجتمع الحاكم بينغ سراً بالمارشال بينغ في سيشوان، أعاد النظر في هذا الموقف، بموافقة الرئيس ليو شاو-كي، واقترح على ماو أن يفكر الحزب في قبول الدعوة. إنه لتحوّل كبير، ولا شك أنه زاد شكوك ماو. فسرعان ما اتُهم الحاكم بينغ بمحاولة «إقامة علاقات مع دولة أجنبية» و«محاولة انقلاب». وبات من الصعب احتواء قلق ماو عندما قام السفير السوفياتي الجديد، سيرغلي لابين - الذي سبق للرئيس ليو أن عقد معه محادثات صريحة غير مسبوقة - بالتخطيط لصدام غير مرتقب مع ليو على طريق مطار بكين المسفلتة في 24 شباط 1966، عندما كانا في انتظار وصول الرئيس الغاني كوامي نكروما (الذي أطيح به خلال انقلاب في ذلك اليوم نفسه). قال لابين إنه يحمل دعوة الى الصينيين للمؤتمر السوفياتي. رد ليو: «أعطني الوثيقة». أجاب لابين أنها موجودة في السفارة؛ لكن كل الجهود اللاحقة لإيصالها الى ليو، باءت بالفشل.

كان ماو يشك أصلاً في وجود تآمر كبير بين معاونيه وموسكو، ضده. ففي تشرين الثاني الماضي، وفي مرحلة الإعداد للتطهير، قضت خطوته الأولى بطرد الرجل الذي تولى محادثات القيادة مع موسكو، الناطق الروسي مدير المكتب المركزي لأمانة السر، يانغ شانغ-كون Yang Shang-kun ونفاه الى كانتون في الجنوب الأقصى. في وقت لاحق، استُجوب كثيراً في السجن حول الاتصالات مع موسكو، وكذلك مترجمي اللغة الروسية في القيادة.

إن أمراً واحداً في ماضي يانغ أثار بشكل خاص شكوك ماو: فقد قام مكتب يانغ بتسجيل صوت ماو على آلة تسجيل. لم يرد ماو الاحتفاظ بأي تسجيل لما قاله وفعله، إلا في حال تنقيته بدقة. في الأيام الماضية، كان يحرق التلغرافات بعود ثقاب فور إرسالها. بعد أن وصل الى السلطة، كان يطلب من مستمعيه دائماً ألا يدونوا الملاحظات. لكن ذلك أثار مشاكل لا حل لها، لأن كلمات ماو كانت أوامر، وغياب التسجيلات المدونة صعّب على الأتباع معرفة ما الذي قاله فعلاً، وبالتالي، تنفيذ الأوامر أحياناً. لذا اضطر الى السماح بتدوين أو تسجيل بعض ما يقوله. وبموافقة ماو، بدأ مكتب يانغ بإنشاء أجهزة تسجيل في نهاية الخمسينيات. ولكن بعد مرور سنتين، قام مسجّل الشريط بمضايقة إحدى صديقات ماو بحماقة، حول استراق الاستماع اليها وماو في قطاره، فادعى قائلاً: «سمعت كل شيء» ولكنه في الواقع لم يستمع الى أي شيء. فأخبرت الفتاة ماو الذي أمر فوراً بتفكيك الاجهزة وإتلاف الأشرطة(*). كل منازل ماو وسياراته كانت مجهزة بكواتم للصوت. ورغم عدم العثور على أي تسجيل، لم يقتنع ماو.

(*) رغم المحافظة على معظم الاشرطة، فقد أخبرنا الرجل المسؤول أنه رأى سراً ان المتلفة منها قد نسخت أولاً. حصل ذلك بموافقة رئيسه وهو بينغ زين الذي قال: «سأكتفي بالقول للرئيس إنها أتلفت جميعها».

فاشتبه في أن يكون التسجيل جزءاً من مؤامرة مرتبطة بالرئيس ليو والروس. فتم استجواب كل المتورطين في حينه، كما واجه البعض موتاً مروعاً.

في آذار 1966، تجمعت كل خيوط شكوك ماو سوية. في شهر كانون الثاني، زار بريجنيف منغوليا - وهو أول قائد سوفياتي يفعل ذلك - ولم يلتق هناك إلا بوزير الدفاع مالينوفسكي، الرجل الذي دفع المخبر الى التخلص من ماو. لم يكن بريجنيف قد تعاطى أبداً مع ماو، لكنه تعرف الى ليو شاو-كي إذ كان بضيافة ليو عندما زار روسيا أثناء قمة للأحزاب الشيوعية في العالم عام 1960. كان بريجنيف في تلك المرحلة الرجل الثاني لدى خروتشيف، وأمضى أكثر من أسبوع برفقة ليو خلال سفره في روسيا والشرق الأقصى السوفياتي على متن قطار عبر سيبيريا، وكان الرجلان متفقين تماماً. الآن، وقّع بريجنيف معاهدة عسكرية مع القائد المنغولي يومجعجيين تسيدينبال Yumjaagiyn Tsedenbal. فنُقلت وحدات روسية الى منغوليا وتمركزت على بعد 500 كم فقط من بكين، عبر بلد مفتوح، ترافقها صواريخ أرض-أرض يبدو أنها كانت مزودة برؤوس نووية. تسيدينبال، الذي كان آخر من أعدّ ماو للإطاحة به في الستينيات، تطوع لمقاتلة «زمرة ماو» في الصين نفسها.

إنها لأزمة حقيقية بالنسبة الى ماو، وكان بحاجة الى دعم قوي من لين بياو - فوراً. فوافق على طلب لين بإدانة رئيس الأركان لويو بسبب «الخيانة». في 18 آذار، ألقى لويو بنفسه عن سطح منزله، في محاولة فاشلة للانتحار. اعتُبر ذلك، كالعادة، «خيانة» للحزب، فحكم عليه بأشنع عقوبة. في وقت لاحق، خضع لاجتماعات إدانة جماعية؛ وبما أنه كسر كاحليه عندما قفز عن السطح، فقد سحب الى المنصة في سلة كبيرة، فيما رجله المصابة تتدلى فوق حافة السلة، والدم يسيل.

في اليوم الذي تلى محاولة انتحار لويو، كتبت السيدة ماو للين بياو تطلب منه الموافقة على بيانها الرسمي حول «ثقافة القتل»، الأمر الذي كان ماو نفسه يراجعه، كاتباً اسم لين في العنوان لإظهار دعم لين («الرفيق لين بياو سمح للرفيقة جيانغ كينغ بـ....»). وافق لين فوراً وردّ خطياً، ثم تقدم قبل نهاية الشهر، بطلب رسمي من الحزب، باسم الجيش، من أجل تطهير واسع النطاق.

إن هذه الخطوة التي قام بها لين، دفعت برجل هام آخر الى تأكيد مساندته: إنه تشو إن-لاي، الذي عرف كيف يحافظ على موقع مزدوج. فقال تشو للحاكم بينغ أنه، أي تشو، الى جانب ماو. وبوجود تشو على اللائحة، اكتمل الثلاثي الذي لا يُقهر، ماو والمارشال لين وتشو، فتمكنوا سوية من إحباط أي أمل بالمقاومة.

في 14 نيسان 1966، جرى تعميم بيان السيدة ماو الرسمي حول «قتل الثقافة». بعد مرور شهر على ذلك، وافق المكتب السياسي على أول لائحة بضحايا التطهير الكبير، التي شملت أربعة أسماء هامة وُصفت «بزمرة المناهضين للحزب»: الحاكم بينغ، رئيس الأركان لويو، يانغ شانغ-كون، صلة الوصل مع روسيا والمشتبه بتسجيل الشريط، والمسؤول القديم عن وسائل الإعلام لو دينغ-يي. لم يهتم ماو بالمشاركة في المناسبة، واكتفى بفرض تمرير الوثيقة التي أعدها حول إدانة الأربعة. ساد الاجتماع جو جبري، وقد ضم إثنين من رجال «الزمرة» الأربعة، وكان فعلياً برئاسة ليو شاو-كي الذي أدرك أنه يترأس حدثاً سيقود في النهاية الى تدميره، رغم عدم تسميته حالياً. إنها المرة الأولى التي يخذله فيها تدريبه الشيوعي القوي؛ فانتابه غضب واضح غير متوقع وهو يوجّه اعتراضاً الى ماو: «لقد أُمرنا بمناقشة هذه الوثيقة، لكن المراجعة ممنوعة...أليس هذا ديكتاتورياً؟» ثم سأل الحاكم بينغ المدان بالإسم في الوثيقة، إن كانت لديه «أية شكاوى». رد الحاكم الذي تصرف حتى الآن بشجاعة كبيرة: «لا شكاوى». فمنحه ليو فرصة أخرى ليقول شيئاً، إذ سأله: «هل أنت مع ذلك أو ضده؟» رفع الحاكم رأسه ولزم الصمت. ثم طلب ليو منهم جميعهم أن يرفعوا أيديهم، ففعلوا، بمن فيهم الحاكم بينغ وليو نفسه.

سرعان ما اقتيد أعضاء «الزمرة» الى السجن. وقد انكشفت سخرية ماو حيال هذه المسألة خلال الحديث الذي تبادله، الشهر التالي، مع الفيتنامي هو تشي مينه. فادّعى ماو أن الرجال الأربعة «هم الى جانب القوميين». وعندما تساءل «هو» عن هذا التأكيد الفارغ، رد ماو بدون أن يرف له جفن: «ليس لدينا حتى الآن أي برهان قاطع، بل مجرد شكوك رديئة».

في اجتماع المكتب السياسي خلال شهر أيار الحالي، تصرّف لين بياو وكأنه هو رجل ماو القوي. فإذ رفع قبضة يده بإحكام، نظر الى الحضور مهدداً، وأعلن أن كل من يعارض ماو يجب «أن يموت...وعلى البلد بأسره أن ينادي بدمه». كان خطابه مشبعاً بالإساءات الشخصية القاسية، مع ذكر للأخصام على أنهم «أوغاد».

وعلى نحو غير مألوف، تحدث لين صراحة في الخطاب، عن إمكانية حصول انقلاب، وهو موضوع محرم عادة. سمح له ماو بالتكلم بهذه الطريقة لإحباط أية أحلام تحاك حول القيام بانقلاب. وكشف لين أن ماو يستعد منذ سنوات لمواجهة أي انقلاب، وخاصة «خلال الأشهر الأخيرة»، عندما «أولى ماو اهتماماً خاصاً لاعتماد تدابير عديدة من أجل تحاشي...الانقلاب». كما «نشر ماو جيوشاً وموظفين أساسيين...وقام بتعديلات داخل الدوائر الحساسة كمحطات الإذاعة، والجيش والشرطة. هذا ما كان يقوم به الرئيس ماو خلال الأشهر القليلة الماضية...»

كما كشف أن ماو حمل إمكانية حصول انقلاب، على محمل الجد بحيث «عجز عن النوم طوال أيام عديدة».

اتخذ ماو فعلاً بعض التدابير لإحباط أي انقلاب. فقد نقلت وحدات الجيش التي بإمرة رجال لين، الى داخل العاصمة. وقال ماو لوزير الدفاع الألباني: «نقلنا كتيبتين عسكريتين إضافيتين [الى داخل بكين]. فلدينا الآن في بكين ثلاث كتائب مشاة وكتيبة مؤللة واحدة، ما مجموعه أربع كتائب. وبفضلها فقط، يمكنك الذهاب أينما شئت، ويمكننا الذهاب أينما شئنا». كما أبعد الحرس البريتوري جذرياً، بما فيه ثلاثة قادة مساعدين، مات أحدهم بطريقة مروعة، وعاش الآخرَين فترة قصيرة جداً. الشخص الوحيد الذي بقي سالماً هو قائد الحرس، الحاجب الذي يثق به ماو وانغ دونغ-كزينغ Wang Dong-xing. كذلك، في المنظمة الوحيدة التي يُحمل فيها السلاح، أي الشرطة، تم توقيف قائد مقرها الرئيسي ورئيس مكتبها في بكين على حد سواء، بسبب علاقاتهما السابقة بالرئيس لين. ومن ضحايا اضطهادات ماو أيضاً، رئيس منغوليا الداخلية، الإثني المنغولي أولنهو Ulanhu. فهذه المقاطعة احتلت موقعاً حيوياً على حدود منغوليا التابعة لروسيا. اعتقل أولنهو في شهر أيار المشؤوم نفسه.

وفيما كان لين بياو يدعم ماو، كان ينجز أيضاً بعض الأعمال الخاصة. فالى جانب قائد الأركان لويو، كان يكره عضواً آخر من «زمرة» الرجال الأربعة: المسؤول عن وسائل الإعلام لو دينغ-يي، لسبب غير اعتيادي. فزوجة لو دينغ-يي كانت تعاني من انفصام في الشخصية وتركز انتباهها على السيدة لين، وكتبت لعائلة لين أكثر من 50 رسالة مجهولة غير محتشمة، مدعية أن السيدة لين تقيم مجموعة من العلاقات الغرامية القصيرة، واحدة منها مع وانغ شي-واي، القائد المشاكس للمتطوعين الشباب في ينان، وأن لين قد لا يكون والد أبنائهما. وجه بعض هذه الرسائل الى أبناء لين مع وصف فاسق للحياة الجنسية المزعومة لوالدتهم، وقد وُقّع بعضها باسم المنتقم، «مونتي كريستو» بطل رواية الكسندر دوماس. وبدلاً من الحصول على علاج عقلي، هي بحاجة واضحة اليه، اعتقلت السيدة لين في 28 نيسان 1966، وعاشت في الجحيم خلال السنوات الـ 12 الباقية.

في إحدى جلسات اجتماع المكتب السياسي في شهر أيار، وضع لين وثيقة أمام المشاركين. نقرأ فيها:

أعلن جهاراً:

1 - أن يي كون [السيدة لين] كانت عذراء طاهرة عندما تزوجتني. ومنذ ذلك الحين كانت مستقيمة دائماً؛

2 - أن يي كون لم تقم أية علاقة من أي نوع مع وانغ شي-واي؛

3 – أن تايغر و دودو هما ابني وابنتي أنا ويي كون؛

4 – أن كل ما كتب في رسائل الثورة المضادة على يد [السيدة لو] هراء بهراء.

لين بياو

14 أيار 1966.

إنها المرة الأولى التي يُعرض فيها نص من هذا النوع أمام المكتب السياسي.

ورغم أن هذا التصرف يبدو مضحكاً لغرابته، لكن هدفه عملي جداً. فقد كان لين ينقّي اسم زوجته إذ ستكون محط أنظار على الساحة السياسية، وستعمل كممثلة له. فهو يكره حضور الاجتماعات ومقابلة الناس.

كانت السيدة لين بالأحرى امرأة غريبة الأطوار، كثيرة الحيوية؛ لم تحظ على مقدار كبير من حب المارشال، فعاشت حالة من الحرمان الجنسي المتواصل. نمت لتكون غريبة في تصرفها، وعرفت كيف تدفع ابنتها دودو، الى محاولة الانتحار أكثر من مرة، أولها عام 1964. وشأنها شأن السيدة ماو التي كانت هستيرية أيضاً بسبب الحرمان، باتت السيدة لين تبحث الآن عن التعويض وتحقيق الذات، من خلال المكائد السياسية والاضطهاد، رغم كونها أقل فظاعة من السيدة ماو. كانت تتصرف على أنها مساعدة زوجها فتصدر الأوامر نيابة عنه.

جرى التمهيد للتطهير الكبير الذي أعدّه ماو، بمفاوضات وتنازلات مع صديقه لين بياو.

48- التطهير الكبير
(1966-1967؛ العمر 72-73 سنة)

في نهاية أيار 1966، أنشأ ماو مكتباً جديداً، «المجموعة الصغرى للثورة الثقافية»، للمساعدة في إدارة عملية التطهير؛ ترأسته السيدة ماو، الى جانب السكرتير السابق تشين بو-دا Chen Bo-da، مديره الإسمي، والخبير في التطهير كانغ شينغ Kang Sheng «مستشاره». هذا المكتب، مع لين بياو وتشو إن-لاي، شكّلوا آخر مجموعة من المقربين بالنسبة الى ماو.

في ظل هذه العصبة الجديدة، تصاعدت عبادة ماو لذاته لتبلغ ذروتها. فقد طغى وجه ماو على الصفحة الأولى لصحيفة بيبولز دايلي، التي كانت تورد أيضاً كل يوم، عموداً يضم أقواله. وسرعان ما بدأ ظهور شارات عليها وجه ماو، وقد صُنّع حوالى 4,8 بليون قطعة منها. كما طبعت نسخ لأعمال ماو المختارة – وجسمت تماثيل له (1,2 بليون) – تفوق عدد سكان الصين. في ذلك الصيف، بات «الكتاب الأحمر الصغير» في متناول الجميع. وكان من الضروري أن يُحمل ويلوح به في جميع المناسبات العلنية، وأن تُقرأ توصياته يومياً.

في شهر حزيران، عزز ماو إرهاب المجتمع. واختار كأداة أولى للإرهاب، الشباب في المدارس والجامعات، التي هي المرتع الطبيعي للناشطين. طُلب من هؤلاء الطلاب أن يدينوا أساتذتهم والمسؤولين عن تعليمهم لأنهم يسممون عقولهم «بأفكار بورجوازية» – ويضايقونهم بالإمتحانات التي يجب أن تلغى من الآن فصاعداً. برزت هذه الرسالة بأحرف ضخمة جداً على الصفحة الأولى لصحيفة بيبولز دايلي، وأذيعت عبر الأثير بلغة خطابية ونبرة عالية، كما علقت مكبرات الصوت في كل مكان، فخلقت جواً حماسياً ومروعاً في آن. وقد تم اختيار الأساتذة والإداريين في مجال التعليم كأول الضحايا، لأنهم يغذون ثقافة الناس، ولأنهم يشكلون أفضل مجموعة تستطيع الوصول الى الجماهير الشباب، وجاهزة للمساعدة.

قيل للشباب إن دورهم هو «حماية» ماو، رغم عدم الكشف لهم عن كيفية إيذاء أساتذتهم «للربان العظيم»، أو ماهية الأخطار التي تحدق به. ومع ذلك، تجاوب كثيرون بحماس شديد؛ فالمشاركة في المسائل السياسية، لم تكن مسموحة في عهد ماو، وكان البلد في حال غليان بسبب الناشطين المرتبكين الذين حُرموا المخارج العادية المتوفرة في معظم المجتمعات، وحتى الجلوس حول الطاولة ومناقشة المواضيع. واليوم فجأة، يبدو أن الفرصة متاحة لتحقيق ذلك؛ فأمام

كل من يهتم بالسياسة، الإمكانية متوفرة وبقوة. وهكذا، بدأ الشباب يشكلون مجموعات متكتلة.

في 2 حزيران، قامت مجموعة شبان من مدرسة متوسطة في بكين، بتعليق لافتة على أحد الجدران بعد أن توقيعها بالاسم جميل «الحرس الأحمر»، وذلك إظهاراً لإرادتهم حماية ماو. كانت كتابتهم مليئة بالملاحظات مثل: «إضغطوا 'المشاعر الإنسانية'!» «سنكون عنيفين!» «سنقاتلكم يا [أعداء ماو] حتى النهاية ونسحقكم بأقدامنا!» إن بذور الحقد التي زرعها ماو بدأت تنبت. وبات قادراً الآن على إطلاق عنان إجرام هؤلاء المراهقين المفسودين، العنصر المطواع والعنيف بامتياز في المجتمع.

وللتأكد من أن الطلاب مستعدين تماماً لتلبية رغباته، أمر ماو بتعليق الدروس ابتداءاً من 13 حزيران وقال: «ستتوقف الدروس الآن» وسيُعطى الشبان «طعاماً. بالطعام تصبح لهم الطاقة والقوة فيبحثون عن الشغب. ماذا يتوقعون أن يفعلوا غير المشاغبة؟» خلال أيام قليلة اندلع العنف. في 18 حزيران، تراجع عدد الأساتذة والكوادر في جامعة بكين أمام الحشود والشبان الذين يعاملونهم بخشونة؛ فاسودّت وجوههم ووضعت قبعاتهم الرديئة على رؤوسهم، كما أرغموا على الركوع، وضُرب بعضهم، وتعرضت النساء للمضايقة الجنسية. حوادث كهذه حصلت في كافة أنحاء الصين وأدت الى سلسلة من عمليات الانتحار.

كان ماو يدير هذه الأحداث من المقاطعات. فقد غادر العاصمة في شهر تشرين الثاني السابق، ما إن أطلق عملية التطهير. فبكين لم تعد آمنة: كانت مليئة بالأعداء الذين أراد إبعادهم، وقريبة من الجيوش الروسية المنتشرة على حدود منغوليا الخارجية. بقي ماو أكثر من ثمانية أشهر في أقصى الجنوب، يسافر باستمرار.

وكان يرتاح أيضاً ويخزّن طاقة للثورة الآتية؛ كما راح يتمشى في التلال الضبابية على طول البحيرة في هانغزهو، ويغازل الفتيات خلال حفلاته الراقصة التي تقام مرتين في الأسبوع. في شهر حزيران، وفيما ازدادت الأعمال المؤذية، أمضى فترة من الوقت في فيلا هادئة مميزة لم يذهب يوماً اليها، تقع خارج قريته الأم شاوشان. فقد أمر ببناء هذه الفيلا خلال زيارته السابقة منذ سبع سنوات. وفيما كان يسبح في حوض السباحة هناك، أُخِذ بسحر المنطقة المحيطة به وقال لرئيس المقاطعة: «هذا المكان هادىء جداً؛ هلاّ بنيت هنا كوخاً من القش أمكث فيه خلال تقاعدي؟» ولكن سرعان ما أُبعد الرجل، فلم يُبنى شيء الى حين أعاده ماو مجدداً بعد سنة، في عز المجاعة. فبدأ «المشروع 203»، تشييد بناء ضخم من الصلب والإسمنت يدعى «الكهف المشبع Dripping Grotto». فسُدت امتدادات الجبل بكاملها، وطُرد الفلاحون المحليون. كما

خُطط لبناء مدرّج لطائرة مروحية، وخط سكة حديدية خاصة، ثم أضيف لاحقاً بناء مضاد للهزات الأرضية والقنبلة النووية، مع جهاز امتصاص للصدمات. مكث ماو في هذا المكان 11 يوماً فقط، خلال شهر حزيران العنيف، ولم يعد اليه ثانية.

إن هذه الضخامة الرمادية، أحاطت بها، وبشكل مناقض، تلال خضراء ناعمة تحييها أزهار برية متوهجة؛ جانبها الخلفي متاخم لمدافن أجداد عائلة ماو؛ أما بوابتها الأمامية فمواجهة لقمة تدعى رأس التنين، وهي تبشر بالنجاح بحسب معتقدات الضرب بالرمل. تنعّم بهذا المكان، ماو المبتهج الذي تحادث بمرح مع المحيطين به عن feng shui.

ورغم كونه على أطراف قريته الأم، لم يلتق ماو أي قروي. وفي طريقه، التقت فتاة صغيرة نظرة خاطفة منه وهو في سيارته، فأخبرت عائلتها. حضرت الشرطة فوراً وحذرت العائلة: «لم تروا الرئيس ماو! لا تتجرأوا على قول ذلك ثانية!» ثم عُقدت اجتماعات لتحذير القرويين بألا يعتقدوا أن ماو موجود هنا. أمضى ماو معظم وقته في القراءة والتفكير. لم يذهب حتى الى السباحة، رغم أن حوض السباحة كان عند عتبة الباب تماماً.

في نهاية شهر حزيران، بات ماو مستعداً للعودة الى بكين وبدء المرحلة التالية من عملية التطهير. في الطريق، توقف في وهان Wuhan، حيث سبح في 16 تموز لأكثر من ساعة في يانغتزي، تحت أنظار عشرات الآلاف من الناس. إن هذه السباحة تهدف -كما من عشر سنوات – الى بعث رسالة الى أخصامه أنه في سن الـ72، وما زال متمتعاً بالصحة، والقوة والإرادة للقيام بمعركة كبيرة. في هذه المرة، كانت حركته الرمزية موجهة أيضاً الى الشعب بأسره وخصوصاً الشباب. ركّزت الرسالة على شعار واحد: «اتبعوا الرئيس ماو الى الأمام عبر الرياح والأمواج العالية!» وإذ رُنّمت الرسالة باستمرار عبر مكبرات الصوت الحاضرة بقوة الآن، أشعلت لهباً في كثير من العقول التي لا تهدأ. وهكذا، وبعد أن حرّك ماو وسائل إعلامه للإبلاغ عن هذه السباحة بأقصى صخب ممكن، وحتى جعلها مشهورة في الخارج، عاد الى بكين في 18 تموز. اعتمد فوراً سياسة عملية، فترأس باستمرار اجتماعات مع «المجموعة الصغرى» التي تدير التطهير، كما اجتمع يومياً بتشو إن-لاي المسؤول عن الأعمال اليومية.

لم يعد ماو الى بيته القديم، مدعياً أنه لم يحب الديكور الجديد. بدلاً من ذلك، انتقل الى أحياء غير متوقعة في جزء آخر من زونغنانهاي – غرف تبديل الملابس التابعة لحوض السباحة، التي جعلها مكان إقامته الأساسية طوال السنوات العشر القادمة. لم ينتقل الى هناك للسباحة، بل كان يأخذ احتياطات ضد إمكانية وضع أجهزة تنصت – أو أسوأ منها – خلال غيابه.

من هذه الغرف الغريبة، اختلق ماو رعب «آب الأحمر»، بهدف إخافة الأمة بأسرها

حتى تبلغ درجة أعلى من الخضوع. ففي الأول من آب كتب الى المجموعة الأولى من الحرس الأحمر - التي تعهدت في ملصقاتها أن تكون «عنيفة» وأن «تسحق بأقدامها» أعداء ماو- ليعلن «دعمه الناري». ثم عمم هذه الرسالة، مرفقة بملصقات الحرس الأحمر القتالية، على اللجنة المركزية، قائلاً لكبار الضباط أن عليهم الترويج للحرس الأحمر. إن عدداً كبيراً من هؤلاء الضباط كانوا مدرجين فعلياً على لائحة ماو، ولكن في الوقت الحاضر، استخدمهم لنشر الرعب - الذي سرعان ما سيغمرهم. تبعاً لتعليمات ماو، شجع هؤلاء الضباط أطفالهم ليشكلوا مجموعات الحرس الأحمر، ونقل هؤلاء الأطفال هذه الرسالة الى أصدقائهم. نتيجة لذلك، تكاثرت مجموعات الحرس الأحمر بسرعة وبقيت برئاسة أبناء كبار الضباط.

وإذ تعلّم أفراد الحرس الأحمر من آبائهم وأصدقائهم أن ماو يشجع العنف، باشروا فوراً بأعمال العنف. ففي 5 آب، وقعت أول حادثة موت بسبب العذاب، في مدرسة للبنات في بكين، احتشد فيها أبناء كبار الضباط (من بينهم إبنتي ماو): مديرة المدرسة، امرأة في الخمسين من عمرها وأم لأربعة أولاد؛ رُفست وسُحقت تحت أقدام الفتيات، ورُشت عليها ماء مغلية؛ ثم أُمرت بأن تحمل قطعاً ثقيلة من القرميد ذهاباً وإياباً؛ وإذ زلّت قدمها أثناء السير، جُلدت بأحزمة الجيش الجلدية والأبازيم المعدنية، وبالعصي الخشبية المسننة؛ وسرعان ما انهارت وماتت. بعد ذلك، أخبر الناشطون القادة السلطةَ الجديدة بما حدث، ولكن لم يُطلب منهم التوقف - ما يعني، تابعوا عملكم.

ثم جاء تشجيع أكثر صراحة على العنف من قبل ماو نفسه. ففي 18 آب، ارتدى البزة العسكرية للمرة الأولى منذ عام 1949، ووقف على بوابة تيان ان مين ليستعرض مئات الآلاف من الحرس الأحمر؛ حصل ذلك عندما كتبت الصحافة الوطنية عن الحرس الأحمر، وأُدخل الى الأمة والعالم. إن الفتاة التي قادت أعمال العنف في مدرسة البنات التي قتلت فيها المديرة، قد حصلت على شرف بارز بتسليح مجموعة الحرس الأحمر بطلب من ماو. وقد تم تعميم الحوار الذي جرى بينهما لاحقاً: «سألها الرئيس ماو: «ما اسمك؟'» قالت: «سونغ بين-بين». سألها الرئيس ماو: «هل «بين» هي كما ورد في «المتعلم واللطيف؟» قالت: «نعم». فقال الرئيس ماو: «كوني عنيفة!».

غيّرت سونغ بين-بين اسمها الى «كوني عنيفة»، وغيرت مدرستها اسمها الى «المدرسة العنيفة الحمراء». منذ ذلك الحين، تزايدت أعمال العنف في المدارس والجامعات. بدأت في بكين، ثم انتشرت في البلد بأسره، إذ أُرسل الحرس الأحمر الى كل الصين ليظهروا كيف تحصل الأمور كجلد الضحايا وهدر دمائهم على الأرض. كما شُجع شبان المقاطعات على زيارة بكين ليتعلموا أن ماو وهبهم إجازة تدميرية ضخمة. ولتسهيل هذه العملية، أمر ماو بأن يصبح

السفر مجانياً، وكذلك الطعام ووسائل الراحة أثناء السفر. خلال الأشهر الأربعة التالية، جاء الى بكين 11 مليون شاباً، وظهر ماو في ساحة تيان ان مين سبع مرات أخرى، حيث احتشدت مجموعات مسعورة ومدرّبة جيداً.

لا توجد في الصين بكاملها، أية مدرسة لم تحصل فيها أعمال عنف، ولم يكن الأساتذة وحدهم ضحايا هذه الأعمال. ففي رسالته الى الحرس الأحمر في 1 آب 1966، أثنى ماو بشكل مميز على بعض المراهقين المجاهدين الذين قسّموا التلاميذ على أساس العائلات، وأساؤوا معاملة المنتمين الى عائلات غير مرغوب بها، وصنّفوهم «السود». وأعلن ماو تحديداً أن هؤلاء المجاهدين يحظون «بدعمه الناري» الذي شكل موافقة واضحة على ما يقومون به. ففي مدرسة البنات حيث تمّ تعذيب المديرة حتى موتها، رُبطت حبال حول أعناق «السود» وضربوا وأرغموا على القول: «أنا وغد. استحق الموت».

في وجود نماذج صممها ماو، انتشرت هذه الممارسة في كل المدارس، مرفقة «بنظرية سلالة الدم»، ولُخصت بدوبيت سخيف بقدر ما هو عنيف: «إبن والد بطل هو دائماً رجل عظيم؛ لكن الوالد الثوري لا ينتج سوى وغد فقط!» أنشد هذا الدوبيت العديد من أبناء عائلات الضباط الذين سيطروا على الحرس الأحمر الأول؛ قليلون فقط علموا أن «آباءهم الأبطال» هم هدف ماو الحقيقي. في هذه المرحلة الأولية، اكتفى ماو باستخدام هؤلاء الأبناء كأدوات له، وهاجمهم بعنف خلافاً للأبناء الآخرين. عندما عاد سيد سيشوان من بكين، قال لابنه الذي ينظم مجموعة حرس أحمر: «الثورة الثقافية هي استمرار للشيوعيين ضد القوميين... وعلى أبنائنا وبناتنا أن يقاتلوا الآن أبناءهم وبناتهم [القوميين]». لا يمكن لهذا الرجل أن يصدر أمراً كهذا إن لم يحصل عليه من ماو.

بعد الإرهاب في المدارس، وجّه ماو الحرس الأحمر الى داخل المجتمع بأسره. واستهدف في هذه المرحلة، الأوصياء على الثقافة، والثقافة نفسها. ففي 18 آب، وقف ماو الى جانب لين بياو في تيان ان مين، فيما دعا لين الحرس الأحمر من كل أنحاء البلد الى «سحق...الثقافة القديمة». توجه الشبان أولاً نحو الأشياء، كرموز المحلات التقليدية وأسماء الطرقات التي ضربوها بالمطارق وأعادوا تسميتها. وكما في العديد من الثورات، قام المتزمتون بمهاجمة من هم أكثر لطفاً وتوهجاً. وخضع للملاحقة في الطريق كل شعر طويل، وكل التنانير والأحذية وخاصة الكعاب العالية التي كانت تقص على يد المراهقين البارعين في القص. ومنذ ذلك الحين، لم تتوفر سوى الأحذية المسطحة، والألبسة التي تشبه البزات والسترات والسراويل، الموجودة بألوان قليلة فقط.

لكن ماو أراد شيئاً أفظع من ذلك بكثير. ففي 23 آب قال للسلطات الجديدة: «لا تعمّ

الفوضى بشكل كاف داخل بكين... بكين متحضرة جداً». وبما أن بكين هي المدينة الرائدة، وبما أن كل المقاطعات تقلّد العاصمة، فهذه طريقة لبث الرعب على صعيد الأمة بكاملها. فبعد ظهر ذلك اليوم، نزلت مجموعات من المراهقين في الحرس الأحمر، تضم الكثير من الفتيات، الى حقول أرياف جمعية كتّاب بكين. في تلك الفترة، كانت «البزة» هي الموضة البارزة للحرس الأحمر: لباس أخضر على نمط لباس الجيش، وغالباً ما كانت الألبسة العادية تُصبغ باللون الأخضر الجيشي، أو أحياناً بزة جيش حقيقية أخذوها من الأهل، والعصابة الحمراء حول اليد اليسرى والكتاب الأحمر الصغير في اليد الأخرى - إضافة الى الحزام الجلدي مع الأبازيم المعدنية. بهذه الملابس، كان الحرس الأحمر ينهال ضرباً بأحزمته الثقيلة على حوالى 24 من أفضل الكتّاب المعروفين في الريف؛ كما طُوّقت رقاب الكتّاب بأسلاك رفيعة عُلّقت عليها لوائح خشبية مهينة كبيرة، وهم يُجلدون تحت أشعة الشمس الحارقة.

بعد ذلك، سيق الضحايا الى معبد كونفوشي قديم، ضم مكتبة بكين الأساسية. هناك، جُمعت بذلات الأوبرا ودعائمه لحرقها في الهواء الطلق. ثم أُحضر حوالى 30 من الكتّاب الرائدين في الريف ومغنيي الأوبرا وغيرهم من الفنانين، وركعوا أمام النار المشتعلة ووجهت اليهم مجدداً رفسات ولطمات بالعصي والأحزمة والأبازيم المعدنية. أحد الضحايا كان كاتباً في الـ69 من عمره يدعى لاو شي، ذكره النظام على أنه «فنان الشعب». في اليوم التالي أغرق نفسه في بحيرة.

أُختير الموقع والدعائم والضحايا للرمز الى «الحضارة القديمة». فاختيار الضحايا، وكلهم من الأسماء المحلية، جاء بدون شك من الباب العالي، إذ أن جميعهم حتى الآن هم من الرسميين المشهورين. ولا شك أيضاً في أن الحدث بكامله هو من تنظيم السلطات؛ فلا يمكن للحرس الأحمر - الذي يضم مراهقين يعقدون عصاباتهم بخفة - أن يخطط لكل هذا من تلقاء نفسه.

كما فتح ماو الطريق أمام مزيد من أعمال العنف من خلال إصدار أوامر صريحة للجيش والشرطة في 21 و22 من الشهر، «بعدم التدخل أبداً» ضد الشبان، مستخدماً لغة خاصة غير شائعة كالقول «وحتى إطلاق النار في الهواء...ممنوع».

ولنشر رعب أعمق وأقرب الى الداخل، سمح ماو للسفاكين الشباب بشن غارات عنيفة على الضحايا الذين اختارتهم الدولة وأعطت أسماءهم وعناوينهم للحرس الأحمر. فسيد سيشوان مثلاً، أمر الدائرة التي تهتم بالبحث عن الوجوه الثقافية البارزة، في مقاطعته، بتسليم لائحة الى منظمة الحرس الأحمر التابعة لابنه - الأمر الذي لا يمكنه القيام به إلا بطلب من ماو.

في 24 آب، طلب قائد الشرطة الوطنية كزي فو-زي Xie Fu-zhi من أتباعه نشر هذه

المعلومات. ورد كزي، بوضوح، على أسئلة من نوع «ماذا لو قتل الحرس الأحمر هؤلاء الناس؟» بالقول: «إذا ضُرب الناس حتى الموت...فهذا ليس شأنكم. لا تتقيدوا بقواعد وضعت في الماضي. وإذا اعتقلتم أؤلئك الذين ضربوا الناس حتى الموت...تكونون قد اقترفتم خطأً كبيراً». وطمأن كزي أتباعه المترددين قائلاً: «رئيس الوزراء تشو يدعم ذلك».

وهكذا، وبركة السلطات، اقتحم أفراد الحرس الأحمر المنازل وحرقوا الكتب الموجودة فيها ومزقوا الرسومات وداسوا على التسجيلات الفونوغرافية والأدوات الموسيقية - وحطموا كل ما له علاقة «بالثقافة». كما «صادروا» كل ما هو قيّم وضربوا المالكين. فانتشرت في الصين المنازل المقصوفة والدامية، التي وصفتها صحيفة بيبولز دايلي بأنها «رائعة حقاً». معظم البيوت التي قصفت، خضع أصحابها للعذاب حتى الموت داخل منازلهم الخاصة. كما نقل بعضهم بالعربات الى غرف تعذيب مؤقتة داخل صالات كانت تستخدم كسينمات، أو مسارح أو قاعات رياضية. إن مشهد الحرس الأحمر يسحق بأقدامه، ونار الدمار المشتعلة، وصراخ الضحايا المتصاعد - كلها مشاهد وأصوات ملأت ليالي صيف 1966.

وثمة لائحة قصيرة من البارزين يجب أن تستثنى، وهي التي أعدّها تشو إن-لاي. لكن ذلك منح تشو لاحقاً، تقديرات لا يستحقها أبداً، إذ زُعم أنه «أنقذ» بعض الناس. في الواقع، ماو هو الذي طلب من تشو أن يضع اللائحة في 30 آب، والهدف كان منفعياً صرف. فالسبب الوحيد لتكليف تشو بذلك، هو كونه يدير العملية بكاملها، وليس لأنه تدخل في مسألة إنقاذ الناس. شملت اللائحة حوالى 12 إسماً. في المقابل، أظهرت الاحصاءات الرسمية لاحقاً أنه خلال شهري آب وأيلول، وفي بكين وحدها، قصف 33.695 منزل (رافقه دائماً عنف جسدي)، وتم تعذيب أو ضرب أو قتل 1.772 شخص.

ولتغطية نفسه، طلب ماو من تشو إن-لاي أن يدعو الى تجمّع للحرس الأحمر في تيان ان مين في 31 آب: «أدينوا بالكلام لا بالعنف». سمح هذا الإعلان لمعظم أفراد الحرس الأحمر بتحاشي العنف من خلال الادعاء بأن ماو يعارضه. كما تمكّن بعض الضحايا من حماية أنفسهم بترداد هذه الأقوال أمام مهاجميهم. ولكن عدم معاقبة مرتكبي أعمال العنف أدى الى تعاظم العنف.

عندما قرر ماو قصف المنازل، كان من بين أهدافه استخدام أفراد الحرس الأحمر كلصوص بالوكالة. فقد صادروا أطناناً من الذهب والفضة والبلاتينوم والمجوهرات وملايين الدولارات بالعملة الصعبة، ذهبت جميعها الى خزينة الدولة، إضافة الى العديد من التحف الأثرية والرسومات والكتب القديمة التي لا يقدّر ثمنها. إن الغنائم التي سُلبت، والدمار الكبير في الأمكنة، قد أفرغ الأفراد من كل ممتلكاتهم الثمينة؛ كما صُدّر بعض المسروقات الى

الخارج للحصول على عملة أجنبية.

سُمح لبعض كبار القادة بأن يختاروا من الكنوز الثمينة؛ فاختارت السيدة ماو قلادة فلانسية على شكل ساعة، مصنوعة من الذهب 18 قراط، ومرصعة باللؤلؤ والماس ودفعت ثمنها الباهظ 7 يوان. جاء ذلك تماشياً مع ممارسة القيادة الماوية «غير-الفاسدة» التي تصر على دفع ثمن المواد الخسيسة كأوراق الشاي خلال الاجتماعات، ولكن بدون دفع أي شيء لقاء الفيلات والخدم، وكذلك الحق الفعلي في استخدام الطائرات والقطارات وغيرها من المنافع، استخداماً خاصاً. كما قام أحد عشاق الأثريات، كانغ شينغ، بتخصيص أحد المنازل المقصوفة إذ أرسل اليها شخص يخصه لجمع الغنائم، متنكراً بلباس الحرس الأحمر. ماو نفسه سرق آلاف الكتب القديمة. فبعد تعقيمها بالأشعة فوق البنفسجية، رُصفت على رفوف غرفة جلوسه الضخمة، وشكلت ستارة خلفية لصوره وهو يستقبل قادة العالم ويُدهش الزوار الأجانب. وقد قال كيسينجر متأملاً، إن الغرفة تشبه «اعتزال العالم». في الواقع، الغرفة التي لم يعرفها الزوار الأميركيون، تشبه الى حد بعيد غرف غورنغ المزينَة بفنون استولي عليها من ضحايا النازية.

لكن النظام أراد من هذا القصف أموراً أخرى: مساحات للسكن. فقد كان نقص المساكن حاداً جداً إذ لم تبنى فعلياً، في ظل حكم الشيوعيين، أية منازل جديدة للمقيمين المدنيين العاديين. فالعائلات المصابة التي تعرضت للقصف، جمّعت في غرفة أو غرفتين، وانتقل الجيران الى باقي البيوت المقصوفة، ما يؤدي، طبعاً في أغلب الأحيان، الى علاقات مريرة ومؤلمة.

إن بعض العائلات التي تعرضت للقصف، نفيت الى القرى، فتصاعدت العملية التي كان ماو قد بدأها بهدف تحويل المدن الى مراكز صناعية «صرف». في بكين، طرد حوالى 100 ألف شخص في أقل من شهر منذ نهاية شهر آب. وقد رأى شاهد عيان غرف الانتظار الواسعة في محطات قطار بكين، تعجّ بالأطفال الذين ينتظرون مع أهلهم موعد نفيهم؛ فأمر الحرس الأحمر بأن يركع الأطفال، فيتحلقون حولهم ويضربونهم على رؤوسهم بالأحزمة المزودة بأبازيم معدنية. كما رُميت على بعضهم مياه ساخنة حارقة كذكرى وداع، فيما حاول بقية المسافرين إيجاد مكان للاختباء.

في صيف 1966 اجتاح الحرس الأحمر كل المدن والبلدات وبعض المناطق الريفية. «المنزل» والكتب وكل ما يرتبط «بالثقافة»، باتت جميعها أماكن خطرة. وخشية أن يقتحمهم الحرس الأحمر ويعذبهم إذا وجد في حوذتهم «ثقافة»، أحرق المواطنون الخائفون كتبهم الخاصة أو باعوها كقصاصات ورق، ودمروا قطعهم الفنية الخاصة. وهكذا، نجح ماو في محو الثقافة من

البيوت الصينية. في الخارج، واصل ماو تحقيق هدفه المستمر منذ زمن، أي محو ماضي الصين من أذهان الناس. فدُمر عدد كبير من الآثار التاريخية، وأبرز ما يظهر حضارة الأمة، التي صمدت حتى الآن في وجه كره ماو. في بكين، ومن أصل القطع الأثرية الـ6843 التي صمدت في عام 1958، أزيلت الآن 4922 قطعة.

كانت لائحة الآثار التي يجب الاحتفاظ بها قصيرة جداً شأنها في ذلك شأن لائحة الأشخاص الذين لن يطالهم التطهير. فقد أراد ماو الاحتفاظ ببعض الآثار كبوابة تيان ان مين، المكان الذي يمكنه الوقوف فيه لتهلل له «الحشود». كما خضعت «المدينة الممنوعة» وبعض المواقع التاريخية الأخرى للحماية، فأغلقت ومُنع الناس بالتالي من الوصول حتى الى جزيئات من إرثهم الثقافي الصامد. من بين الذين لم ينجوا من العنف، المهندس المعماري الأساسي في الصين، ليلنغ سي-تشينغ، الذي وصف رغبة ماو في رؤية «المداخن في كل مكان» في بكين، على أنها «صورة مرعبة جداً لا يُحتمل التفكير بها». فإذا به يخضع للإذلال وسوء المعاملة، كما قصف منزله بعنف. فدُمرت مجموعة كتبه، وطُردت عائلته الى غرفة صغيرة، نوافذها مكسورة، وغطت الثلوج أرضها وجدرانها. في عام 1972 توفي ليانغ بعد إصابته بمرض مزمن.

وخلافاً للاعتقاد السائد، فإن الغالبية الكبرى من الدمار لم تكن عفوية بل برعاية الدولة. فقبل أن يوبّخ ماو الحرس الأحمر لكونه «متحضراً جداً» في 23 آب، لم يحدث أي تخريب متعمد للآثار التاريخية. في ذلك اليوم، وفقط بعد كلام ماو، دُمِر أول تمثال - لبودا في القصر الصيفي في بكين. ومنذ ذلك الحين، وكلما هدمت مواقع هامة، كان الأخصائيون الرسميون يأتون لاختيار الأغراض الأكثر قيمة للدولة، فيما يُنقل الباقي في عربات ويصهر أو يهرس.

إن مكتب ماو، «المجموعة الصغرى»، هو الذي أمر بتدمير منزل الرجل الذي يدعى كونفوشيوس، وهو مرادف للثقافة الصينية. كان منزله الواقع في شاندونغ، متحفاً غنياً، إذ زاره الأباطرة والفنانون للثناء عليه، فاستأجروا تماثيله ووهبوا فنه. أصدرت الأوامر للمحليين بهدمه، لكنهم ردوا بتنفيذ ذلك ببطء. فأرسِل الحرس الأحمر من بكين. وفي التعهد الذي أطلقوه قبل بداية العمل، قالوا إن الحكيم هو «العدو المنافس لفكر موت ماو تسي-تونغ». إن ماو يكره فعلياً كونفوشيوس لأن الكونفوشيوسية وافقت على أن الحاكم يجب أن يهتم بشعبه، وكما قال ماو نفسه، «كونفوشيوس موال للحركة الإنسانية...أي حركة التمحور حول الشعب».

لعبت السيدة ماو دوراً أساسياً في عملية إبادة الثقافة، بكونها قائدة شرطة زوجها في هذا المجال. وتأكدت أن لا مجال لنهضة جديدة للثقافة حتى نهاية حياة ماو. فطوال عقد كامل،

وحتى وفاة ماو عام 1976، كان لها الفضل الى حد ما، في بقاء الكتب القديمة محرّمة؛ وإن مجموعة الكتب الجديدة ذات المصلحة العامة التي نشرت، أوردت جميعها أقوالاً لماو مكتوبة بخط عريض على كل صفحة. كما ظهرت بعض الرسومات والأغاني، لكنها جميعها خدمت أهدافاً ترويجيةً، ومدحت ماو. فعلياً، إن الأداءات الفنية الوحيدة التي كانت مسموحة هي ثمانية «نماذج استعراضية ثورية» وبعض الأفلام التي ساهمت السيدة ماو في إنتاجها. وهكذا أصبحت الصين صحراءاً ثقافية.

*

في منتصف شهر أيلول 1966، كانت البلد مرعوبة بشكل تام، وأحس ماو بثقة كافية ليبدأ بمطاردة هدفه الحقيقي: ضباط الحزب. ففي 15 أيلول، قال لين بياو أمام حشد من الحرس الأحمر عند بوابة تيان ان مين أن عليهم تغيير هدفهم و«التركيز على إدانة أصحاب السلطة داخل الحزب الذين يسيرون على طريق الرأسمالية»، المعروفين بـ«مؤيدي الرأسمالية». إن الذين قصدوهم لين -وماو- فعلياً هم المنفذون القدامى الذين أظهروا كرههم لسياسات ماو المتطرفة. فقد هدف ماو الى التخلص منهم دفعة واحدة، واستمرت الدعوة لمهاجمتهم عبر الصين.

للقيام بهذا العمل، شُكلت مجموعات جديدة، أطلقت على نفسها أحياناً أسم الحرس الأحمر ولكنها عُرفت إجمالاً بـ«المتمردين»، لأنهم كانوا يقبلون تحدّي أسيادهم. معظم هؤلاء المتمردين هم من البالغين؛ فمجموعات الحرس الأحمر الأصلية التي كانت مؤلفة من المراهقين، تلاشت الآن، إذ كانت متمحورة حول أبناء هؤلاء الضباط الكبار الذين أصبحوا الآن هم الهدف. فقد استخدم ماو الحرس الأحمر الشاب ليرهب المجتمع ككل. وانتقل بعد ذلك ليواجه أخصامه الحقيقيين، ضباط الحزب؛ لذلك لجأ الى النطاق الأوسع، وبالأخص القوة الأقدم.

بدعم صريح من ماو، أدان المتمردون أسيادهم من خلال ملصقات جدارية وتجمعات عنيفة. لكن كل من اعتقد أن ديكتاتورية الحزب قد تضعف، أصيب فوراً بخيبة أمل. فالناس الذين حاولوا الوصول الى ملفاتهم الخاصة (التي أمسكها النظام جميعها)، أو استعادة تلك التي لاحقها الحزب، صُدّوا فوراً. كما صدرت أوامر من بكين أوضحت أن قواعد الحزب لن تُحلّ دفعة واحدة، رغم تعرض ضباط الحزب للهجوم. فضحايا الاضطهاد السابق حُرموا من الالتحاق بمنظمات التمرد.

بعد بضعة أشهر، ولتحقيق مزيد من التوسع، دعا ماو المتمردين في كانون الثاني 1967 الى «انتزاع السلطة» من أسيادهم في الحزب. لم يفرّق ماو بين الضباط المعارضين والضباط الموالين

له بشكل كامل الذين لم يترددوا حتى خلال فترة المجاعة. في الواقع، كان مستحيلاً أن يميّز بينهم؛ فقرر أن يهزمهم جميعهم أولاً، ثم يتحرى عنهم بواسطة المنفذين الجدد. قيل للشعب إن الحزب بين أيدي الأشرار («الخط الأسود») منذ تأسيس النظام الشيوعي. ومن مؤشرات الخوف العميق السائد، أن أحداً لم يجرؤ على طرح الأسئلة الواضحة البديهية مثل: «في هذه الحالة، لماذا يجب أن يبقى الحزب في الحكم؟» أو «أين كان ماو طوال السنوات الـ17؟».

إن مهمة المتمردين الأساسية هي معاقبة كوادر الحزب، الأمر الذي تاق ماو الى تحقيقه منذ سنوات. بعض المتمردين كانوا يكرهون أسيادهم في الحزب، فانتهزوا فرصة الثأر منهم. البعض الآخر كان متعطشاً للسلطة، وأدرك أن الطريقة الوحيدة للتقدم هي معاملة «مؤيدي الرأسمالية» بدون رحمة. كما وجد بينهم العديد من القتلة والساديين.

قام ستالين بعملية التطهير مستخدماً نخبة معينة، الاستخبارات الروسية، التي سارعت، بمنأى عن الأنظار، الى زج ضحاياها في السجن، أو العذاب أو الموت. وتأكد ماو أن القدر الكبير من العنف والإذلال يحصل أمام الناس، وزاد كثيراً عدد المضطهِدين من خلال تعذيب وتشويه ضحاياه على يد أتباعهم.

في عام 1967، لمح مهندس بريطاني كان يعمل في لانغزهو، مشهداً حياً في زاوية بعيدة من الشمال الشرقي. فبعد مرور ليلتين على استمتاعه في عشاء رسمي، رأى جثة تتدلى من مصباح عمودي؛ إنه مضيفه في تلك الليلة. وفي وقت لاحق، رأى رجلين غابا عمداً في حالة من اللاوعي بسبب ضجة المهللين – «فلا يدخل آذانهم مزيد من الملاحظات الرجعية»، على حد تعبير حارسه.

إن أول ضابط كبير عُذّب حتى الموت هو وزير الطاقة في 21 كانون الثاني 1967. كان ماو يكرهه لأنه تذمر من القفزة الكبرى للأمام – ومن ماو نفسه. فقد عُرض أمام حشود منظمة، ولُويت أذرعه بوحشية الى الخلف، كأحد أشكال العذاب سمي «الطائرة النفاثة». في أحد الأيام، رمي على مقعد وهو ينزف، ونُزع قميصه والحرارة متدنية الى ما دون الصفر، فيما انقض عليه السفاحون لتشطيبه بسكاكين صغيرة. أخيراً، طُوّقت رقبته بموقد حديدي، فسقط رأسه على الأرض الإسمنتية، وضُربت جمجمته بأبازيم الحزام المعدنية الثقيلة. في هذا الوقت، كانت تُلتقط الصور التي اطّلع عليها تشو لاحقاً – وماو بدون شك.

كان تصوير العذاب حتى ذلك الحين قليلاً في عهد ماو، لكنه ازداد كثيراً خلال الثورة الثقافية، وخاصة عندما تعلقّ الأمر بأخصام ماو الشخصيين. وبما أن ماو لا يحتفظ عادة بتسجيلات للأجيال اللاحقة، وبعيداً عن وجود برهان للعذاب، فإن التفسير الأصح لخروجه عن قاعدته، هو استمتاعه برؤية صور أخصامه يتعذبون. كما سجّلت أفلام الكاميرات تجمعات

الإدانة الشنيعة، وكان ماو يرى العروض من فيلته. ثم اختيرت أفلام من هذا النوع وعرضت على التلفزيون، مرفقة بالتسجيل الصوتي للسيدة ماو حول «العروضات النموذجية»؛ كما نُظّم الناس لحضورها (إذ قليلون فقط كانوا يملكون تلفازاً في تلك الأيام).

تآلف ماو مع أنواع جلسات التعذيب التي يتعرض لها معاونوه وأتباعه السابقون. وفي وقت لاحق، تذكر نائب رئيس الوزراء جي دينغ-كوي كيف تقلد ماو أمام المخيطين به وضعية «الطائرة النفاثة» الموجعة التي كانت روتينية في اجتماعات الإدانة؛ وضحك ماو من كل قلبه عندما وصف جي ما حصل له.

في الواقع، بعد سنتين أو ثلاث سنوات من العذاب المماثل، نُفي العديد من الضباط الى معسكرات عمل حقيقية سميت باسم عقار للسكن «مدارس كوادر 7 أيار». كما أوت هذه المعسكرات القيّمين على الثقافة – من فنانين وكتّاب وعلماء وممثلين وصحفيين – أصبحوا عناصر فائضة غير ضرورية في نظام ماو الجديد.

استُبدل الكوادر المطرودون بعناصر من الجيش بشكل أساسي، وقد أدخلهم ماو في كل المؤسسات ابتداءاً من كانون الثاني 1967. كمجموع عام، وخلال السنوات القليلة اللاحقة، تحوّل 2.8 مليون من أفراد الجيش الى مراقبين جدد، وتولّى 500 ألف منهم أعمال ضباط الحزب في المراتب المتوسطة والعليا. وحظي عناصر الجيش هؤلاء، في أدوارهم الجديدة، بمساعدة المتمردين وبعض كوادر المحنكين الذين تم الاحتفاظ بهم من أجل الاستمرارية والخبرة. لكن الجيش شكّل صلب عمل المنفذين الجدد – على حساب ممارسة وظيفتهم في الدفاع عن البلد. فعندما نُقلت وحدة في الجيش بعيداً عن الشاطىء المواجه لتايوان لتولي إحدى المقاطعات في الداخل، سأل قائدها تشو إن-لاي ماذا سيحصل في حال اندلعت حرب. أجاب تشو: «لن تندلع أية حرب خلال السنوات العشر الآتية». لم يصدّق ماو أن تشيانغ سيقوم بالاجتياح.

في شهر آذار، عندما أصبح المنفذون الجدد في مواقعهم، أُمر التلاميذ والطلاب بالعودة الى مدارسهم – رغم أنهم سيقضون وقتهم هناك بالتعبير عن الابتهاج المفاجىء، لأن كتبهم القديمة ومناهج التدريس والأساتذة خضعت جميعها للإدانة، فلم يعرف أحد ما العمل. لم تكن الدراسة الطبيعية متوفرة في المدارس للشبان إلا بعد موت ماو، بعد عشر سنوات.

عموماً، بقي الوضع الاقتصادي على حاله باستثناء حالات التمزق الضئيلة نسبياً الناتجة عن تغير المستخدَمين. فالناس عادوا الى العمل كالسابق، وفتحت المحلات وكذلك البنوك. كما عادت المستشفيات والمصانع والمناجم والبريد، وأخيراً وبشكل متقطع، وسائل النقل، الى العمل بشكل طبيعي ومقبول. أما برنامج القوة العظمى الذي اعتقد كثيرون أنه شُلّ،

فقد أُعطي أولوية خلال الثورة الثقافية، وزاد فيه الاستثمار؛ ولم يكن وضع الزراعة أسوأ من السابق.

ما تغيّر، الى جانب الأسياد، هي الحياة خارج العمل؛ فغابت التسلية، وحلت محلها اجتماعات مخدرة للعقول - ولكن مرهقة للأعصاب - لا تنتهي، الهدف منها قراءة وإعادة قراءة أعمال ماو ومقالات صحيفة بيبولز دايلي. كما سيق الناس الى تجمعات الإدانة العنيفة والمتعددة ضد «مؤيدي الرأسمالية» وغيرهم من الأعداء المحدَّدين. وأصبح العنف العلني جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية. وكانت كل مؤسسة ترعى سجنها الفعلي، الذي عُذِّبت فيه الضحايا، وبعضهم حتى الموت. أكثر من ذلك، غابت وسائل الاسترخاء، إذ لم تعد الكتب متوفرة فعلياً، ولا المجلات أو الأفلام أو المسرحيات أو الأوبرا؛ ولا موسيقى هادئة على الراديو. للتسلية، يوجد فقط «فرق الترويج لفكر ماو» التي غنت مقولات ماو الملحنة في موسيقى صاخبة، والتي رقص عليها المناضلون وهم يلوحون بالكتاب الأحمر الصغير. حتى «نماذج السيدة ماو الاستعراضية الثلاثة» لم تُؤدّى بعد أمام الناس، إذ يجب أن يخضع إخراجها المسرحي لرقابة مركزية هائلة.

من بين مهام المنفذين الجدد، تفحّص الكوادر القدامى، لاكتشاف مدى مقاومتهم السابقة لأوامر ماو، ولو من باب الاستسلام. كل ضابط من ملايين الضباط المطرودين، له «فريق قضية» خاص به، ينقّب في ماضيه (أو ماضيها). وفي أعلى الهرم، يوجد «فريق القضية الخاص المركزي»، وهو مجموعة سرية برئاسة تشو إن-لاي، وكانغ شينغ كنائب له، وأعضاؤه ضباط في الجيش من المراتب الوسطى. هذا هو الجهاز الذي تحرّى عن الناس شخصياً، بتعيين من ماو. وإذ أراد أن يعرف بالتحديد ما إذا كان أي من كبار رتبائه يتآمر ضده مع الروس، اعتبر أن القضية الأساسية في المجال العسكري هي قضية المارشال هو لانغ، سيء الحظ الذي تلقى ملاحظات وزير الدفاع الروسي مالينوفسكي حول التخلص من ماو. وقد تورط في هذه القضية، كل أتباع «هو» القدامى، و«هو» نفسه مات نتيجة لذلك.

كان فريق القضية الخاص المركزي يتمتع بسلطة التوقيف، والاستجواب - والتعذيب. كما يوصي بنوع العقوبات التي يجب إنزالها. وقد ظهر توقيع تشو على العديد من مذكرات التوقيف وتوصيات العقوبة، بما فيها الحكم بالموت.

وفيما المشتبه بهم يُستجوبون تحت التعذيب، وبينما قاعدة سلطته القديمة تتألم بشكل لم يسبق له مثيل، كان ماو يثب مرحاً. فاستمر الرقص في زونغنانهاي مع الفتيات المدعوات، وبعضهن حتى سريره الواسع. وغنى على أنغام أغنية «التنين التواق الى اللذة يغازل طائر

الفينيق»، التي اعتبرها نظامه «إباحية» ومنعها فترة طويلة. مع مرور الأيام، كان معاونو ماو يختفون الواحد تلو الآخر من حلبة الرقص، أو يُبعدون، أو يفقدون أية شهية للتسلية. في الواقع، بقي ماو القائد الوحيد على الحلبة.

ومن بين كبار رتبائه المتبقين، لم ينفجر سوى تحدّ واحد. ففي شباط 1967، تجرأ على الكلام بعض أعضاء المكتب السياسي الذين لم يسقطوا، للإعلان عن غضبهم بسبب ما يحصل لزملائهم كوادر الحزب. فإذا بتابع ماو القديم تان زين-لين، الذي كان مسؤولاً عن الزراعة في زمن المجاعة (ما يظهر مدى إستعداده لماشاة ماو) يصرخ أمام المجموعة الصغرى: «هدفكم هو التخلص من كل الكوادر السابقين...لقد حققوا ثورة مدة عشرات السنين، وانتهى بهم الأمر الى انكسار عائلاتهم، وموتهم هم. إنها أشرس معركة في تاريخ الحزب، وأسوأ من أي وقت مضى». في اليوم التالي، كتب للين بياو: «توصلت الى أقصى ما يمكنني تحقيقه...أنا مستعد للموت...لإيقافهم». وزير الخارجية تشين يي أطلق على الثورة الثقافية اسم «أكبر غرفة تعذيب».

لكن هذه النخبة من الذين بقوا على قيد الحياة، شملت إما أتباع متحمسين ومخلصين لماو، أو رجال سبق وكسرهم ماو، فانهاروا عندما واجهوا غضبه. وبدعم من الثنائي الخطر لين بياو وتشو وراءه، تمكّن ماو من إزعاج المنشقين عنه باستمرار؛ ثم عندما بلغوا حداً مناسباً من الرعب والتهديد، علّقهم على غصن شجرة زيتون. وهكذا، أُحبط التمرد الصغير بسهولة.

أما الشخص الذي لم يكن سهلاً إرهابه وتهديده مثل أفراد المكتب السياسي، فهو لواء يدعى كاي تي-جين Cai Tie-gen، الذي عاين أيضاً تنظيم إحدى قوى العصابات، فبات العضو الوحيد من الكوادر الذي كان معروفاً بتفكيره بمحاولة «التصرف مثل ماو» مع ماو. فأطلقت عليه النار؛ وهكذا أُعدِم أعلى ضابط خلال عملية التطهير. وفيما كان يودع صديقاً كاد يصاب معه، شجعه على متابعة القتال، ثم سار بهدوء باتجاه مكان الإعدام.

وثمة مقاومات بطولية حقيقية أخرى بين الناس العاديين. من بينهم امرأة مميزة في الـ19 من عمرها. تدرس اللغة الألمانية وتدعى وانغ رونغ-فين؛ كانت حاضرة في تجمع تيان ان مين في 18 آب 1966، وقد أظهرت ردة فعلها على ما حصل، نقاوة واستقلالية في الروح، الى جانب الشجاعة. فاعتبرت أن ما يجري «يشبه ما فعله هتلر»، وكتبت لماو طارحة عدداً من الأسئلة الحادة: «ماذا تفعل؟ الى أين تقود الصين؟» وقالت لماو «إن الثورة الثقافية ليست حركة جماعية. إنها رجل واحد يحمل السلاح، ويتلاعب بالمجموعة. أعلن استقالتي من عصبة الشباب الشيوعي...».

كتبت رسالة واحدة باللغة الألمانية ووضعتها في جيبها، وأخذت أربع عبوات من مبيد

الحشرات وشربتها خارج السفارة السوفياتية، على أمل أن يكتشف الروس جثمانها ويعلنوا معارضتها أمام العالم بأسره. ولكن بدلاً من ذلك، صحت في مستشفى للشرطة، وحُكم عليها بالسجن المؤبد. خلال أشهر متواصلة، بقيت يداها مقيّدتين بإحكام وراء ظهرها، وكان عليها أن تزحف على الأرض ليصل فمها الى الطعام المرمي على أرض زنزانتها. عند نزع القيود أخيراً من يديها، كان لا بد من نشرها بسبب الصدأ الذي تكدس على القفل. بقيت هذه المرأة الرائعة حية في السجن - وبعد موت ماو - وبقيت روحها صامدة.

49- الثأر المرير
(1966-1974، العمر 72-80 سنة)

في آب 1966، اسقط ماو ليو شاو-كي. في الخامس من الشهر، وبعد أن التقى ليو وفداً من زامبيا بصفته رئيساً، طلب ماو من تشو إن-لاي أن يتصل بليو ويقول له أن يتوقف عن الاجتماع بالأجانب، والظهور علناً، إلا إذا طُلب منه ذلك. في ذلك اليوم، كتب ماو خطبة مسهبة عنيفة ضد ليو، قرأها بنفسه أمام اللجنة المركزية بعد يومين، في حضور ليو، فسرّع بالتالي إعلان خبر سقوط ليو (إذ لم يتم إخبار عامة الشعب). قبل ذلك، في السادس من الشهر، طلب ماو من لين بياو المجيء خصيصاً الى بكين ليساعده في حال حصلت مواجهة صعبة؛ وهكذا حلّ لين بياو رسمياً محل ليو على أنه الرجل الثاني لماو.

والآن بات من الممكن أن يبدأ ماو باضطهاد أكثر رجل يكرهه. فبدأ بزوجة ليو، وانغ غوانغ-مي Wang Guang-mei. أدرك ماو أن كليهما مخلص للآخر، وأن تعذيب غوانغ-مي سيؤلم ليو جداً.

انحدرت غوانغ-مي من عائلة كوزموبوليتانية مرموقة: كان والدها وزيراً في حكومة وديبلوماسياً، ووالدتها وجهاً معروفاً في مجال التربية. تخرجت غوانغ-مي في مادة الفيزياء، من جامعة تابعة لبعثة أميركية، وكانت على وشك قبول عرض من جامعة ميتشيغين لمتابعة دراستها في أميركا عام 1946، عندما قررت الالتحاق بالشيوعية، بتأثير من والدتها المتطرفة. تذكّر الناس أنه في حفلات الرقص التي أقيمت في القاعدة الشيوعية خلال أيام الحرب الأهلية، كان ليو يجتاز أرض حلبة الرقص، بخطاه الثابتة المميزة، وينحني طالباً منها مشاركته في الرقص، بطريقة غير مألوفة بالنسبة الى قائد حزب. كانت غوانغ-مي رشيقة ومرتبة، وكان ليو متيّماً بها. تزوجا عام 1948، وتميز زواجهما بكونه زواجاً سعيداً، خاصة بالنسبة الى ليو الذي سبق أن أقام مجموعة من العلاقات الفاشلة (كما قتل القوميون إحدى زوجاته).

منذ أن اتضحت ملاحقة ماو لليو، أي منذ مؤتمر الـ7000 في كانون الثاني 1962، شجعت غوانغ-مي زوجها على الصمود في وجه ماو. وكان تصرفها هذا مناقضاً جداً لتصرف العديد من زوجات القادة اللواتي شجعن أزواجهن على التملق؛ وخلال سنوات اللاحقة، ساعدت زوجها على تعزيز موقعه. في حزيران 1966، عندما كان ماو يثير العنف في المدارس

والجامعات، قام ليو بمحاولة أخيرة للَجم الضرر المتعمّد من خلال إرسال «فرق عمل» الى هناك، وأصبحت غوانغ-مي عضواً من الفريق الذي أرسل الى جامعة كينغهوا Qinghua في بكين؛ فاصطدمت بمجاهد في العشرين من عمره يدعى كواي دا-فو Kuai Da-fu، يعود اهتمامه الأساسي بالسياسة الى اهتمامه بالعدالة: فعندما كان فتى في 13 من عمره، في قرية اجتاحتها المجاعة، رفع عريضة الى بكين حول سوء معاملة ضباط الأرياف للفلاحين. ولكن في صيف 1966، عندما أظهرت وسائل الإعلام الثورة الثقافية على أنها «نضال من أجل السلطة»، أبدى كواي شهية للسلطة، وأطلق أعمال شغب «لانتزاع السلطة من فريق العمل». فوُضع في الإقامة الجبرية الخاصة بالطلاب مدة 18 يوماً، كما حددها ليو.

وفي الساعات الأولى من فجر التاسع من آب، استيقظ كواي على ضجيج سيارات في الموقف، فوجد أمامه تشو إن-لاي شخصياً. شعر كواي بإرباك شديد، وعجز حتى عن الجلوس على الأريكة كما يجب، فجلس على طرفها. حاول تشو بلطف أن يشعره بالراحة، وقال له إنه جاء نيابة عن ماو، وامتحنه في شأن فريق العمل - ودور السيدة ليو؛ فدوّن تشو بنفسه ما قاله كواي رغم وجود الستينوغراف في حوذته. دامت الجلسة ثلاث ساعات، الى ما بعد الخامسة فجراً، ثم دعا تشو كواي الى قاعة الشعب الكبرى عند المساء، حيث تحدثا لثلاث ساعات إضافية. فاستخدم ماو شكاوى كواي كذخيرة، ومنذ ذلك الحين بات كواي الرجل الذي صوّبه ماو في وجه عائلة ليو.

في 25 كانون الاول، عشية عيد ميلاد ماو الـ73، وانصياعاً لأوامر «المجموعة الصغرى»، قاد كواي 5000 طالب في تظاهرة استعراضية في شوارع بكين، فيما الشاحنات مزودة بمكبرات للصوت تعلن: «فليسقط ليو شاو-كي!» هذه التظاهرة غير الاعتيادية، شكلت خطوة في اتجاه تهيئة الناس لحدث تحوّل رئيس الصين الى عدو؛ ورغم أن ذلك لم يعلَن في وسائل الإعلام، يكون ليو قد سقط بنظر الأمة. وساهم كواي و«التظاهرات» في أن يبدو سقوط ليو وكأنه مطلب شعبي، وهذا ما أراده ماو.

منذ ذلك الوقت، تعرضت عائلة ليو للتعذيب بشتى الطرق. ففي عشية يوم رأس السنة عام 1967، أرسل ماو تهانيه بعيد رأس السنة الى معاونه القديم، من خلال إرسال العاملين لديه في زونغنانهاي لصب إهانات ضخمة داخل منزل عائلة ليو. وتبعت ذلك تهديدات مشابهة، وضعت لها جميعها ألحان راقصة، ما عدا واحدة.

حصل ذلك في 6 كانون الثاني، عندما قبضت مجموعة كواي على ابنة ليو المراهقة، بينغ-بينغ، ثم اتصلت بغوانغ-مي لتقول لها إن سيارة صدمت ابنتها وهي في المستشفى، وحالتها تستدعي موافقة الأهل قبل عملية بتر. فهرع الثنائي ليو الى المستشفى، الأمر الذي خيب أمل

المتمردين. قال كواي:

> لم يعتقد الطلاب أبداً أن ليو شاو-كي سيأتي، فخافوا جميعهم. وأدركوا أنه لن يستطيعوا مسّ ليو شاو-كي...لم يعط المركز أية أوامر [حول التعدي على ليو شخصياً]. لم نجرؤ على التسرّع...عرفنا أن هذا النوع من «فاليسقط» في السياسة قد يتحول الى «فليحيا»... فبدون تعليمات واضحة ودقيقة من المركز، عند اللوم، نلام نحن. فطلب أصدقائي من ليو العودة واحتفظوا بوانغ غوانغ-مي.

إنه اعترافي شخصي جيد بكيفية عمل المتمردين؛ إنهم أدوات، وجبناء، وهم يعرفون ذلك.

وبما أن هذا العمل لم يدار من المركز، نزل جنود الى المستشفى خلال دقائق. ففرّ الطلاب بغضب بسبب اقتراحات بإدانة غوانغ-مي بعد نصف ساعة فقط. في هذه الأثناء، تلقى كواي اتصالاً هاتفياً، تذكّر تفاصيله:

> أحسست بخوف كبير عندما سمعت الصوت الذي على الهاتف يقول: «أنا تشو إن-لاي». طلب مني تشو بأن أطلق وانغ غوانغ-مي «لا ضرب، لا إهانات. هل تفهم؟» قلت: «نعم أفهم»...فأقفل الخط. بعد أقل من دقيقة، جاء اتصال آخر. إنها جيانغ كينغ - وهذا هو اتصالها الوحيد بي. عندما رفعت السماعة، سمعتها تقهقه. قالت: «قبضت على وانغ غوانغ-مي. ما كل هذا؟ هل تعبث أو ماذا؟ لا تضربها، لا تهنها». كررت كلمات تشو إن لاي وقالت: «الرئيس قلق وطلب مني أن أتصل بك. ما إن تنتهي من إدانة وانغ غوانغ-مي، أرسلها الى بيتها».

وهكذا انتهى التحرك العفوي الوحيد الذي قام به المتمردون ضد عائلة ليو. إن طلب تشو بعدم إيذاء غوانغ-مي لم يكن نتيجة طيبة قلبه. لكن عمل كواي لم يكن مسموحاً، ولا يتناسب مع جدول ماو الزمني.

الخطوة التالية لماو كانت إحضار ليو الى الجناح 118 في القاعة الكبرى، لاجتماع مغلق في منتصف ليل 13 كانون الثاني. أبدى ماو اهتمامه بالخدعة التي رُتّبت ضد عائلة ليو إذ سأل: «كيف حال ساقَي بينغ-بينغ؟ ثم نصح ليو «بقراءة بعض الكتب»، وذكر عنوانين يحمل كل واحد منهم كلمة «ميكانيكي»، وقال ماو أنهما لهايدغر Heidegger وديدرو Diderot. كانت هذه طريقة لنصح ليو بأن يكون أقل عناداً، أي أن يلجأ الى بعض التملق. لم يتذلل ليو، لكنه ردد العرض الذي قدمه مرات عديدة: الاستقالة والذهاب للعمل كفلاح. وطلب من ماو أن يوقف الثورة الثقافية ويعاقبه هو وحده ولا يأذي أي شخص آخر. لم يقطع ماو أي تعهد، وطلب من ليو فقط أن يهتم بصحته. بذلك، نظر الى ليو، المعاون الأقرب اليه منذ ثلاثة

بعهدة المجموعة الصغرى قبل مغادرة بكين في 13 تموز. لحظة ذهابه، اجتمع مئات الآلاف من المتمردين في معسكر خارج زونغنانهاي، مطلقين إهانات لعائلة ليو مثل «كومة من الحثالة»، عبر مكبرات الصوت. كما طرد أتباع ليو الى خارج جدار زونغنانهاي لتتم إدانتهم في استعراض غريب في الشارع.

عند هذا الحد، طُلب من ليو أن «إحن رأسك طاعة واعترف بجرائمك تجاه الرئيس ماو». يُفترض أن ذلك حصل باسم بعض المتمردين للإدعاء أنه جاء من «الجموع». لكنه قُدّم الى ليو من قبل وانغ دونغ-كزينغ، حاجب ماو ورئيس الحرس البريتوري، الذي لم يترك أي شك في من هو محرك الدمى. رفض ليو الطلب كلياً؛ وتحسباً للأسوأ بعد هذا التحدي، أخذت غوانغ-مي زجاجة من الحبوب المنومة أمام زوجها وعرضت أن ينتحرا معاً. لم يتكلم أحد منهما خوفاً من أجهزة التنصت، التي كانت لتؤدي على الأرجح الى مصادرة الحبوب. هزّ ليو رأسه.

وإذ أدرك ماو مدى القوة التي يستمدها ليو من زوجته، أمر بفصل الزوجين. ففي 18 تموز، قيل لهما أنهما سيدانان في اجتماعات منفصلة في ذلك المساء. بعد أكثر من ثلاثة عقود، كتبت غوانغ-مي عن تلك اللحظة:

> قلت: «يبدو وكأنها لحظة وداع هذه المرة!» لم أستطع منع دموعي من الانهمار...
> ...إنها المرة الوحيدة في حياتنا، التي يحزم فيها شاو-كي حقائبي، ويطوي ملابسي ببراعة.
> في الدقائق القليلة الأخيرة، كنا نحدق في بعضنا البعض...ثم قال، هو الذي قلما روى النكات: «إنه كانتظار وصول المحفّة لتأخذك [أي للزواج]!»...وبدأنا نضحك.

بعد اجتماعات إدانة عنيفة، وُضع الزوجان ليو فعلياً في معتقلات منفردة ومنفصلة. التقيا مجدداً مرة واحدة فقط، عندما مثلا أمام محكمة كنغرية كثنائي، في 5 آب، في الذكرى الأولى لقيام ماو بكتابة الخطبة المسهبة العنيفة ضد ليو؛ وقد أعدّ كواي، الرجل المعيّن من ماو، لحدث كبير في ساحة تيان ان مين، حيث بنيت خصيصاً لهذه الغاية منصة ليقف عليها الثنائي ليو أمام حشد من مئات الآلاف. في النهاية، عارض ماو الفكرة، إذ لم يشأ المخاطرة في أن يرى الأجانب ذلك. فإذا شهدوا للوحشية التي يعامل بها أقرب معاون سابق، هنا في قلب بكين، أي بدعم واضح منه، فإن التمثيلية بكاملها ستعطي عكس النتائج المرجوة؛ أو على الأقل، سيؤثر ذلك على الماويين الأجانب الذين أبعد معظمهم بسبب عملية التطهير التي قام بها ماو(*). وما كان ماو ليخاطر بأن يتكلم الزوجان ليو. تمكّن ماو من الاعتماد على الزوجين ليعطيا ردوداً حذرة، كما فعلا في الرسائل التي بعثا بها إليه، وفي ردوده على المتمردين. لم يجرؤ

(*) إن الشيوعي البلجيكي جاك غريبا الأعلى مقاماً بين أتباع ماو في أوروبا الغربية والرجل الذي تعرض بنفسه للعذاب في معسكر نازي، كتب اليوم لليو كريس في زونغنانهاي. أعيدت الرسالة وعليها «لا يقيم في هذا العنوان».

ماو على المخاطرة بمشهد محكمة على نمط ستالين. فانتهى الأمر بالثنائي ليو بحصوله فقط على وابل من سوء المعاملة داخل زونغنانهاي، على يد الحرس البريتوري (العسكري باللباس المدني، وموظفي زونغنانهاي.

في ذلك اليوم، الخامس من آب، أدين «السائران على طريق الرأسمالية» الرجلان الثاني والثالث، دينغ كزياو-بينغ وتاو زو Tao Zhu (ليو كان «الرقم 1»)، خارج منازلهما أيضاً. أُلحق العار بهما، شأنهما في ذلك شأن العديد من الرجال القدامى المفضلين لدى ماو، لأنهما رفضا التعاون مع عملية التطهير الكبرى التي شنها ماو. ولكن بما أن ماو لم يكن يكرههما كما يكره ليو، فقد عوملا بأقل وحشية. زوجة تاو زو، زينغ زي Zeng Zhi، كانت صديقة قديمة لماو، فلم تُعذّب. فأعادت قص أخبار المرحلة التي تظهر مدى دقة سيطرة ماو. وفيما زوجها يتعرض للضرب، سُمِح لها بالجلوس. وكانت امرأة مجاهدة على وشك مهاجمتها، عندما لاحظت زينغ زي رجلاً بين الحضور يهز رأسه للمرأة، فتراجعت فوراً.

كان زينغ زي تعلم أن صداقة ماو وحمايته، يمكن أن تزولان ما إن تفعل ما لا يرضي «الربان العظيم». في وقت لاحق، عندما أُرسل زوجها المصاب بمرض مزمن الى منفى داخلي، فكرت في إمكانية مرافقته، لكنها أدركت هي وزوجها أنها إذا فعلت ذلك، ستفقد رضى ماو، الأمر الذي سيدمرها وابنتها الوحيدة. فقرر الثنائي ألا تذهب معه، فمات وحيداً في منفاه.

في محكمة كنغرية داخل زونغنانهاي، في 5 آب 1967، صمد ليو في موقفه وأعطى أجوبة موجزة؛ ولكن ما إن حاول قول المزيد، حتى انهالت «الكتب الحمراء الصغيرة» على رأسه، وأسكتته الحشود وهي تطلق صيحات غبية. لقد خضع الثنائي ليو للضرب والرفس في وضعية «الطائرة النفاثة»، كما أرجع شعرهما الى الوراء بوحشية لإظهار وجههما أمام ملتقطي الصور والأفلام. في وقت من الأوقات، تأجل الاجتماع وصدر أمر من الرجل المعين من ماو بأن يكون الاجتماع أكثر وحشية أمام الكاميرات. فأظهرت الأفلام كيف سحق ليو على الأرض بالأقدام. وفي عمل سادي بامتياز، أحضرت ابنة ليو وهي في السادسة من عمرها وأبناؤه الآخرون ليتفرجوا على الاعتداء الذي يَتعرض له أهلهم. كما تفرجت على الحلقة الحقيرة بكاملها، مشاهدة ماو المميزة - ابنته لي نا.

قد يكون ماو استمتع بمشاهدة محكمة تعذيب الثنائي ليو، لكنه قلما فشل في ملاحظة انهما لم يخضعا خضوعاً تاماً. ففي إحدى المرات، تمكنت غوانغ-مي من الإفلات وتمسكت بطرف ملابس زوجها؛ ولدقائق معدودة، وتحت وابل من الرفس والضرب، أمسكا بأيديهما بإحكام وحاولا جاهدين الوقوف.

لكن غوانغ-مي دفعت غالياً ثمن شجاعتها. فبعد أقل من شهر اتهمت بالتجسس لمصلحة

أميركا -وكذلك اليابان وتشيانغ كاي-شيك، لإعطاء المسألة حجماً إضافياً. وطوال 12 سنة، وحتى بعد موت ماو، اعتقلت في سجن يخضع لحماية مشددة، كينتشينغ، حيث لم يسمح لها حتى بالمشي فترات طويلة، لدرجة أنها بقيت سنوات عديدة بعدها، عاجزة عن الوقوف؛ وحافظت على شجاعتها. عندما ناداها فريق قضيتها الى الإعدام، قال ماو: لا؛ فهو لم يشأ إخراجها من بؤسها بهذه السرعة.

اعتقل أقرباء غوانغ-مي، وكذلك والدتها وهي في العقد السابع من عمرها، وماتت في السجن بعد بضع سنوات. أما أبناء الثنائي ليو فأصبحوا مشردين وتعرضوا للضرب والسجن. أحد أبناء ليو من زواج سابق، انتحر. في هذه الأثناء، تحوّل منزل ليو، القريب من منزل ماو، الى زنزانة ماوية للموت البطيء.

قارب ليو الـ70 من العمر، وتراجعت صحته بسرعة. فشلّت رجله وكان في حالة حرمان من النوم، إذ منعت عنه الآن الحبوب المنومة التي بات مدمناً عليها، فكان شبه حي. في 20 كانون الأول 1967، قال سجّناوه إنهم «فقط يبقوه على قيد الحياة بما يكفي كي لا يموت من الجوع». «ثم مُنع الشاي...». كما عولجت أمراضه التي هددت حياته، الالتهاب الرئوي والسكري، رغم أن تشدداً إضافياً من ماو، كان ليدفع الأطباء الى تعذيبه في أثناء المعالجة السريعة له. غير أن صحته العقلية كانت على طريق التدهور تلقائياً. في 19 أيار 1968، نقل سجّانوه أنه «نظف أسنانه بالمشط والصابون، ولبس جواربه فوق الحذاء وثيابه الداخلية فوق سرواله...» وفي ظل الفوضى الفظيعة التي سادت في ذلك اليوم، كتبوا أن ليو «لعب دور الغبي، وتصرف بحماقة، مرة تلو الأخرى».

في ذلك الصيف، أصدر ماو أوامره مرتين، لوانغ دونغ-كزينغ والأطباء والحراس، بأن «يبقوا [ليو] على قيد الحياة الى ما بعد المؤتمر التاسع»، بحيث خطط ماو لطرده من الحزب. لو مات ليو، لما استمتع ماو بهذا الهراء الى هذا الحد. فما إن انتهى المؤتمر، حتى سُمح ضمنياً بترك ليو يموت.

في تشرين الأول 1968، بات ليو يحصل على الطعام من قطارة في أنفه، وبدا أنه سيموت بين دقيقة وأخرى. لم يكن ماو مستعداً للمؤتمر، فسارع أعضاء اللجنة المركزية الى الاتفاق على طرد ليو من الحزب – في الواقع، الأقلية المتبقية التي ضمت فقط 47% من العدد الأصلي للأعضاء، إذ خضع الآخرون للتطهير. كما أزاحته اللجنة عن الرئاسة، الأمر الذي لا يتماشى حتى مع الإجراءات الدستورية.

من الواضح أن «فريق قضية» ليو فشل في إيجاد قضية، إذ قال له ماو إنه يريد تهمة

بالتجسس، وهي وسيلة لتحاشي أية مشاكل تتعلق بطريقة المحاكمة، ولإبعاد المحققين عن الروابط القائمة بين ليو وبينه. في الواقع، شعر ماو بقلق شديد حيال ما سيقوله ليو، الى حد منع كل الفريق المحقق حتى من النظر الى ليو، أو طرح أي سؤال. بدلاً من ذلك، سُجن آخرون كثر واستُجوِبوا في محاولة لقلب البرهان ضده. ولمزيد من التكيّف مع المحتجزين الأساسيين في قضية ليو جرى توسيع كينغتشانغ بنسبة 50%، وهو سجن «النخبة» الذي بني بمساعدة لمستشارين الروس في الخمسينيات؛ وأول من شارك ليو السجن خلال الثورة الثقافية هو شي زي Shi Zhi، مترجم ليو خلال لقاءاته مع ستالين، الذي أُجبر على القول إن ليو جاسوس روسي. كما سُجن هنا أيضاً الأميركي سيدني ريتنبيرغ الذي كان يعرف السيدة ليو في الأربعينيات؛ كما ضُغط عليه ليقول إنه جنّدها وليو لخدمة الاستخبارات الأميركية. (لاحظ ريتنبيرغ أن المستجوبين، خلال تنفيذهم الاستدعاءات الجنونية المطلوبة، لم يبدوا مؤمنين بقضيتهم الخاصة). كما جرت محاولات لدفع قادة الاستخبارات القومية السابقين للقول إن غوانغ-مي تجسست لهم.

معظم هؤلاء المحتجزين والمدعوين الى الإدلاء بأكاذيب صارخة، حاولوا جاهدين ألا يذعنوا؛ ومن بين الذين دفعوا غالياً ثمن التمسك بمواقفهم، القائدان السابقان في الحزب لي-صان و لو فو. فزُجت عائلتهما في السجن، ووضع الرجلان في مواجهة الموت. زوجة لي-صان الروسية، التي وقفت الى جانبه خلال عملية التطهير في روسيا في الثلاثينيات، عندما سَجن هناك مدة سنتين، أمضت الآن ثماني سنوات في سجن ماو.

ومع ذلك، رفض بعض أعضاء فريق قضية الثنائي ليو اصطناع البراهين. نتيجة لذلك، خضع الفريق نفسه للتطهير ثلاث مرات، وزج إثنان من قادته الثلاثة في السجن. فوجد نفسه في حالة «اللافوز»، لأن تلفيق البرهان قد يكون خطراً كخطر الفشل في اكتشافه. في إحدى المناسبات، ادّعى الفريق أن ليو أراد أن تجتاح الجيوش الأميركية الصين عام 1946، وأن ليو أراد مقابلة الرئيس ترومن لمناقشة هذه المسألة. قال ماو: «إن القيام بادعاء كهذا، يعني... معاملتنا كأغبياء. أن ترسل أميركا جيوشاً غفيرة: القوميون أنفسهم لا يريدون ذلك». في النهاية، كدّس الفريق مجموعة من التأكيدات، منها أن ليو «تزوج من الجاسوسة الأميركية وانغ غوانغ-مي التي أُرسلت الى ينان من قبل الاستخبارات الأميركية الاستراتيجية». وتقريرها الذي سُلّم الى اللجنة المركزية على يد عبد ماو الأمين، تشو إن-لاي، سمّى ليو «خائناً، وعميلاً عدواً وحقيراً»، وأوصى بالحكم عليه بالموت. لكن ماو رفض ذلك كما فعل بالنسبة الى السيدة ليو. وفضل الموت البطيء والمطوّل.

بقي ماو على اطلاع دائم بآخر معاناة ليو. وكانت تلتقط صور تظهر ليو في حالة من النزاع

الشديد بحيث ضغط على قاروروتي دواء بلاستيكيتين قويتين فوراً بسبب صحته السيئة. في نيسان 1969، عندما انعقد أخيراً المؤتمر التاسع، أعلن ماو بصوت يخلو حتى من الشفقة، أن ليو شارف على الموت.

في أوقات الصحو، كان ليو يحافظ على كرامته. ففي 11 شباط 1968، كتب آخر دفاع عن نفسه، وفيه أنه شارك ماو سياسته الديكتاتورية كمساند منذ بداية العشرينيات. بعد ذلك، سكت ليو كلياً. إن كل طريقة عمل ماو مرتبطة بكسر الناس، لكنه فشل في إخضاع ليو.

في إحدى ليالي شهر تشرين الأول البارد، وُضع ليو على متن طائرة متوجهة الى كايفينغ Kaifeng، وهو نصف عار، لا يلفه سوى لحاف واحد. هناك، رُفض طلب الأطباء المحليين بإجراء صورة أشعة اكس أو إدخاله المستشفى. فمات في خلال أسابيع، في 12 تشرين الثاني 1969. بذلك يكون ليو قد عانى مدة ثلاث سنوات من العذاب الجسدي والاضطراب العقلي. حُرقت جثته تحت اسم مستعار ولُف وجهه بقماش أبيض. وقيل للفريق المنفذ للحرق أن يمحوا الأدلة عن الأرض، بحجة أن الجثة عانت من مرض جرثومي مميت.

النهاية المذهلة في قصة ليو هي أن موته لم يعلن أبداً خلال حياة ماو؛ وهذا التصرّف الذي بدا شاذاً (لأن معظم الديكتاتوريين كانوا يحبون الرقص على قبور أعدائهم) هو إشارة الى مدى عدم الأمان الذي أحس به ماو. فخاف من أن يثير نشر الخبر تعاطفاً مع الرجل الميت. في الواقع، استمر تشويه سمعة ليو طوال حياة ماو، بدون أي تلميح للناس أن ليو مات. لقد ثأر ماو من خلال الموت المؤلم والبطيء الذي ألحقه بليو. لكن طعم ذلك لم يكن حلواً جداً.

وكذلك، لم يخرج ماو منتصراً حيال الشخص الثاني الذي يكرهه جداً، المرشال بينغ دي-هواي. فأول قائد متمرد أرسل الى سيشوان في كانون الأول 1966 ليعيد بينغ الى الاحتجاز في بكين، كان متأثراً جداً بما قاله له بينغ، بحيث بدأ يستغيث نيابة عن بينغ. فزّج المتمرد في السجن لكنه قال إنه لا يندم على ما قام به. والقائد المتمرد الآخر الذي عامل بينغ بخشونة، عبّر بدوره عن عمق ندمه لاحقاً، على ما قام به. لا شك في أن كل الناس تعاطفوا مع بينغ عندما أدركوا ما تحمله أو سمعوا ما قاله.

في بكين، جُرّ بينغ الى العديد من اجتماعات الإدانة، نزولاً عند أوامر ماو؛ وفي كل اجتماع، كان يرفس من قبل المتمردين وهم ينتعلون أحذية جلدية ثقيلة، كما ضربوه بوحشية بواسطة العصي. فكسرت أضلعه وكان يغمى عليه باستمرار.

خلافاً لليو، استُجوب بينغ حوالى 260 مرة، لأن ماو خشي، في الحقيقة، من أن يكون لبينغ أي ارتباط بخروتشيف. في الحبس الانفرادي، بدأ عقله ينهار، لكن قلبه القوي لم يفعل. فكتب

مراجعة ثاقبة النظر لحياته، نافياً كل اتهامات ماو؛ وورد في النهاية التي كتبت في شهر أيلول 1970: «سأبقى أرفع رأسي وأصرخ مئات المرات: ضميري مرتاح!»

كان بينغ إنساناً صلباً، واستمرت محاكمة تعذيبه أطول من محاكمة ليو - ثماني سنوات، حتى 29 تشرين الثاني 1974، حين قضى أخيراً بداء سرطان القولون المستقيم. ومثل ليو، أحرقت جثته تحت اسم مستعار، وكذلك لم يُعلن موته طالما بقي ماو على قيد الحياة.

50- زمرة الرئيس الجديدة
(1967-1970، العمر: 73-76 سنة)

في بداية عام 1967، صرف ماو ملايينَ من مسؤولي الحزب واستبدلهم، بشكل أساسي، برجال من الجيش؛ ولكن سرعان ما وجد نفسه يواجه المشاكل مع هذه التبديلات: فمعظم هؤلاء يفتقرون الى الوحشية الكافية، وهم غالبًا ما حموا الضباط المبعدين وحتى أعادوا توظيفهم، وهو أمر أنجزوه مستفيدين من تعليق ماو المرائي بأن «لا بأس بمعظم أفراد الكوادر القديمة». كان هذا الأمر سيئًا بشكل كاف، لكن مسألة أخرى أثارت قلق ماو إذ وجب عليه الاعتماد على ضباط الجيش ليختار «المتمردين» من أجل إعداد فريق الماكينة الجديدة. والمشكلة أن كل منطقة ومؤسسة، تضم مجموعات متنافسة مختلفة تسمي نفسها «المتمردين». وقد مال الجيش إلى إدخال المعتدلين منهم رغم أن ماو طلب دعم «اليسار» أي من هم الأعنف في اضطهاد «السائرين على طريق الرأسمالية».

وإذا سُمح لرجال الجيش بالتصرف على سجيتهم، فانتقام ماو لن يكون كاملاً. والأهم من ذلك، أنه في حال تبيّن أن قادة الجيش الجدد يشبهون القادة القدماء، فستعود الأمور إلى نقطة الانطلاق. أراد ماو من وراء التطهير الكبير أن يوظّف مسؤولين أقل رحمة.

من بين الأماكن التي كانت تثير إزعاج ماو، مدينة وهان، المنطقة المفضلة للسباحة الرمزية في يانغتزي. انضم القائد هناك ويدعى تشين زاي داو تشين Zai-dao، إلى الجيش الأحمر عام 1927 كقروي فقير في الثامنة عشرة من عمره، وارتقى سلم المناصب. كان الجنرال تشين تشين معارضًا شديداً لـ«الثورة الثقافية»، وأظهر حتى بعض التعاطف تجاه من كان هدف ماو الرئيسي، ليو شاو-كي. ففي المقاطعة الواقعة تحت سيطرته، أعاد عددًا كبيرًا من المسؤولين القدامى إلى مناصبهم السابقة، وشتت مجموعات «المتمردين» الأكثر تحركاً واعتقل قادتها. في أيار 1967، دعم تشين المعتدلون الذين اتحّدوا في منظمة واحدة شملت كل الريف تدعى «المليون جندي المنقطع النظير» وضمت 1.2 مليون شخصاً.

في منتصف تموز، قصد ماو شخصيًا مدينة وهان، ليأمر الجنرال تشين بتغيير موقفه. وإذ افترض ماو أن الجنرال تشين سينصاع ببساطة، خطط لاستخدام وهان كمثال، لحثّ وحدات الجيش في كل أنحاء البلد على حذو حذوه.

بيد أن ماو تعرّض لصدمة كبيرة حين قال للجنرال تشين إن «منقطعي النظير» منظمة «محافظة» وإن الجيش ارتكب خطأً فادحاً بدعمها، وأجابه تشين: «نحن لا نظن ذلك».

في وقت لاحق، حصل أمر آخر غير مسبوق أيضاً: فقد تحدّى أعضاء أساسيون في منظمة «منقطعي النظير» إضافة إلى متعاطفين معهم في الجيش، حكم ماو. وفي ليل 20-19 تموز، حين نُقلت إليهم الرسالة عن طريق مسؤولين عسكريين ومدنيين أحضرهم ماو معه من بكين، نزلت الحشود الغاضبة إلى الشوارع مع مئات الشاحنات التي حملت نحو ألف جندي مع أسلحة رشاشة إضافة إلى عشرات الآلاف من العمال المسلحين بقضبان حديدية.

أطلق المتظاهرون احتجاجات عبر مبكرات الصوت في محيط فيلا ماو. وقد عرف الكثيرون أن ماو يملك هذا المجمّع الواقع على جانب البحيرة والشديد الغموض والحراسة. ولدى رؤيتهم المصابيح مضاءة، افترضوا أنه في الداخل. ورغم أن أحداً لم يجرؤ على مهاجمة ماو علنًا، فإن ملصقات عملاقة رفعت في الشوارع وحملت شعارات منددة بـ«المجموعة الصغرى» ورئيستها السيدة ماو، وهي موجّهة بصورة غير مباشرة إلى ماو نفسه: جيانغ كينغ، ابقي بعيدة عن السلطة!» و«الرئيس ماو يتعرّض للتضليل!». كما تلقى الجنرال تشين رسائل مذهلة، حثّته إحداها حتى على «استعمال قوتك... لتمحوَ عن وجه الأرض أسوأ ديكتاتورين في العالم والذين لا يريدون لا تاريخاً ولا ثقافة...»

إن أكثر ما أثار خوف ماو هو أن مئات المتظاهرين والجنود المسلحين اقتحموا أراضي دارته، وباتوا على مرمى حجر منه آخذين بالقوة عضوًا أساسيًا في جماعته، وعضو «المجموعة الصغرى» وانغ لي Wang Li الذي تعرّض لضرب مبرح.

خلال السنوات الـ18 من الحماية الذاتية الشاملة الملزمة، لم يسبق أن واجه ماو هذا الحد من التهديد الملموس لسلامته الشخصية ولحسه بالسلطة الكاملة.

إن تشو إن-لاي الذي سبق ماو إلى وهان لتنظيم تدابير حماية هذا الأخير، عاد للتو إلى بكين. بيد أنه اضطر للعودة فورًا مع 200 حارس بريتورياً بأسلحتهم الكاملة. وقد لجأ بهدوء إلى أسلوبه المتخفي القديم، رغم أنه كان هذه المرة يعمل في بلد هو رئيس وزرائه: انتظر حتى حلول الظلام قبل ذهابه إلى منزل ماو مبدّلا ملابسه وواضعاً نظارات سوداء. وفي الساعة الثانية من فجر 21 تموز، تمّ تهريب ماو عبر الباب الخلفي لفيلته. وكانت كل وسائل نقله الثلاث معدّة للإنطلاق- قطاره الخاص، طائرته، وسفنه الحربية. أعطى ماو الأمر بالرحيل عبر القطار لكن ما إن أصبح على متنه حتى انتقل إلى طائرة لم تكن خاصته. ولم يتم إطلاع الطيار على الوجهة، شنغهاي، إلى أن أصبح في الجو.

كانت هذه رحلة ماو الأخيرة في الطائرة ويا لها من رحلة. فثوران الجنود داخل ملكيته

كان أمرًا غير مرجح على الإطلاق. وكذلك الحال بالنسبة إلى مظاهرة مندّدة بأوامره علناً، إضافة الى مظاهرة شارك فيها جنود بكامل أسلحتهم.

تحرّك النظام بسرعة ليُظهر أنه لن يقبل بما حصل في وهان. فعمل تشو على إطلاق سراح وانغ لي عضو «المجموعة الصغرى» وعانقه علناً واضعاً ذقنه النامية مقابل ذقنه. وعاد وانغ لي إلى بكين وحظي بترحيب لم يشهد له مثيل في البلد. وإذ رحّب به عشرات الآلاف في مطار بكين على رأسهم تشو الذي اغرورقت عيونه بالدموع. تلى ذلك حشد من مليون شخص في ساحة تيان ان مين بقيادة لين بياو.

صُرف الجنرال تشين واستبدل برجل لا مجال للشك في ولائه هو لين بياو. كما حُلّت وحدات الجيش التي شاركت في الاحتجاج وأرسلت الى الأعمال الشاقة الإلزامية. كما حُلّت منظمة «منقطعي النظير»، وتعرض كل من حاول المقاومة للضرب الجسدي حتى انهياره. وفي غضون الأشهر القليلة التالية، تعرّض نحو 184 ألف مدنيّ وعضو عادي من الكوادر، الى إصابة أو إعاقة أو الموت في الريف. استدعي الجنرال تشين ونوابه إلى بكين؛ هناك، حصل أمر مذهل، والأرجح أنها سابقة في العالم. فقد تعرّض جنرالات وهان للضرب، ليس في سجن قذر لكن خلال اجتماع «للجنة التنفيذية في الحزب الشيوعي» برئاسة تشو إن-لاي. وكان المنفّذون مسؤولين كبار يرأسهم قائد السلاح الجوي وو فا-كزيان Wu Fa-xian. والمشهد في غرفة اللجنة التنفيذية يشبه عملية إدانة في الشارع حيث أُجبر الضحايا على الوقوف منحنين إلى الأمام وأذرعهم ملوية إلى الخلف في وضعية «الطائرة النفاثة» وتعرضوا للضرب والرفس. ودفع الجنرال تشين وسحق تحت الأقدام. حتى في عالم عصابات ماو، كانت سابقة أن يصبح اجتماع «اللجنة التنفيذية في الحزب الشيوعي» مسرحًا لعنف جسدي.

استنتج ماو من الثورة في وهان أن 75% من ضباط الجيش هم غير جديرين بالثقة. فبادر إلى إطلاق عملية تطهير هائلة في صفوف العسكريين وبدأ بإدانة «مؤيدي الرأسمالية في الجيش»، لكن سرعان ما اضطر الى التوقف. فبعد أن أبعد معظم الضباط المدنيين، لم يكن بإمكانه ببساطة أن يخلق المزيد من الأعداء بين ما بات يشكّل فعلياً قاعدة قوته الوحيدة.

فأُرغم ماو على استرضاء الجيش، وحاول رشوه مدعيًا أنه ليس مسؤولاً عن محاولة إبعاده. من بين تلك الرشاوى كان وانغ لي عضو «المجموعة الصغرى»، من حقبة وهان، فجعل منه ماو كبش محرقة. وفي 30 آب، اعتُقل وانغ لي. وقبل شهر تقريباً، وقف عند بوابة تيان ان مين يهتف له مليون شخصاً ويصفوه ببطل وهان وهي المناسبة الوحيدة التي اجتمع فيها القادة هناك بدون ماو. والواقع أن هذا البروز كان سبب دماره. فرؤيته في تيان ان مين، ساحة ماو

المقدّسة، أزعجت القبطان العظيم الذي قال إن « شأن وانغ لي عظُم كثيرًا ولا بد من إعادته إلى حجمه الصحيح».

بيد أن إبعاد وانغ لي لم يحلّ مشكلة ماو. فما زال عليه إيجاد وسيلة للتأكد من أن ضباط الجيش الجدد هم رجال يفعلون ما يُطلب منهم بدون شروط. لاختيار هكذا رجال، اعتمد على لين بياو الذي اضطر للبحث في الثلث الثاني من الجيش لإيجادهم. بالتالي، وجد ماو أن ليس لديه خيار سوى السماح للين بتحويل قيادة الجيش إلى إقطاعة شخصية يديرها أصدقاء لين المقربين وتعمل على أساس الولاء للعصابة. في 17 آب 1967، سمح ماو للين بتأسيس هيئة جديدة هي «المكتب الإداري» لإدارة الجيش. وتألفت هذه الهيئة من زوجة لين وبعض الجنرالات الذين يدينون للين بمهنهم، وحتى بحياتهم أحيانًا.

نموذج عن هؤلاء كان الجنرال كيو هيو-زيو كيو Hui-zuo، المسؤول عن لوجستيات الجيش. في بداية «الثورة الثقافية»، تمّت إدانته وتعرّض للضرب. انكسر أحد أضلعه وتمزقت مفاصل كتفه وعضلاتها بشكل خطير؛ ثم أغمي عليه في المكان وأعيد إلى وعيه بالماء البارد لمزيد من الضرب. وحين ظن أنه سيموت، صدر أمر من لين بياو بإطلاق سراحه. فكتب للثنائي بعد ذلك قائلاً: «الساعة الواحدة إلا ثلثًا في 25 كانون الثاني 1967 كانت لحظة ولادتي الثانية، اللحظة التي لن ننساها أبدًا، أنا وزوجتي وأولادي...»

شكّل كيو زمرة شخصية وانطلق في عملية ثأر ضد الذين جعلوه يعاني. في دائرته القديمة فقط، تم اعتقال وتعذيب 462 تابعاً. ومن بين أقل وسائل التعذيب سوءًا، إجبارهم على تناول الخبز المغموس بالبراز وضربهم على أعضائهم التناسلية. وقد مات ثمانية منهم.

أصبح كيو مثالاً للشخص المتهكم بامتياز، لأسباب تعود إلى أبعد بكثير من «الثورة الثقافية»، وترتبط بالطبيعة المجرّدة من الأخلاق التي تميز الحزب نفسه منذ الأيام الأولى. عشية «المسيرة الكبرى»، أُمر هو وعدد من شبان الجيش الأحمر وبينهم ولد في الحادية عشرة، بإخفاء بعض وثائق الحزب؛ فقاموا بختمها وإغراقها في نهر مربوطة بالحجارة. وبينما كانوا يتسلقون ضفة النهر عائدين، وجدوا أنفسهم يحدّقون في ماسورات بنادق رفاقهم الذين أرسلوا لقتلهم لئلا يتبقى أي أثر. بقي كيو وحده حيًا بسبب ضربة حظ.

سمح لين لكيو وزمرته بالمضي بعملية ثأرهم، وإنشاء عصاباتهم الخاصة طالما ينصاعون لأوامره. فعل ماو الأمر نفسه مع لين. لفترة من الزمن، حاول ماو إبقاء رجاله في الجيش وعيّن أحد مساعديه، الجنرال يانغ تشينغ-هيو Yang Cheng-Wu كمساعد قائد أركان. بيد أن لين لم يرغب بوجود الجنرال يانغ الى جانبه، وفي نهاية المطاف زجه ماو في السجن في آذار 1968. حتى أن ماو علّق المجلس العسكري، السلطة العليا القديمة التي كان يترأسها بنفسه.

واحتفظ ماو بحق فيتو حيوي واحد: يجب أن يخضع تحريك أي قوة عسكرية، من كتيبة الى أعلى المراتب، لطلب إذن خاص منه.

عيّن لين صديقاً حميماً له يدعى هيونغ يونغ-شينغ هيونغ Yong-sheng رئيساً للأركان. كان هيونغ هيونغ صغيراً جداً لدرجة أن ماو لم يستطع أن يحفظ وجهه. وقد كان زير نساء معروفاً، وسرعان ما أصبح عشيق السيدة لين. الواقع أن يي كون يي كون كانت امرأة ذات شهية جنسية شرهة قلما، أشبعتها مع المارشال العاجز، على ما يبدو، الذي وصفته ب«الجثة الباردة». وكُشفت العلاقة بينها وبين عشيقها في اتصال هاتفي مدته 3 ساعات جرى النصت عليه.

يي كون: أخشى أن تقع في المشاكل لملاحقتك المتعة الجسدية. يمكنني أن أقول لك إن حياتي هذه مرتبطة بك على الصعيد السياسي والشخصي... ألا تعرف كيف هو 101 (اسم لين بياو المشفّر) في المنزل؟ أعيش مع استغلاله... يمكنني الشعور بأنك تقدّر الأحاسيس... البلد كبير، وباستطاعة أولادنا أن يحتلوا مناصب أساسية! ألست على حق؟

هيونغ: أجل، أنت محقة كلياً.

يي كون:... أولادنا معاً، لا بد أنهم خمسة. سيكونون خمسة جنرالات وسيمضون. سيحتل كل منهم منصباً أساسياً ويمكنهم أن يكونوا جميعهم مساعدين لك.

هيونغ: أنا ممتن جداً لك.

يي كون:... قمت بذلك الإجراء (تقصد منع الحمل) في حال حملت واضطررت للتخلّص منه (أي الطفل)، أتمنى لو تأتي لزيارتي مرة واحدة. (صوت نحيب).

هيونغ: سآتي! سآتي! لا تتصرفي بهذا الشكل لأنه يحزنني جداً.

يي كون: أمر آخر، يجب ألا تحصر نفسك بي، يمكنك العبث... لست محدودة التفكير. يمكنك إقامة علاقة مع نساء أخريات وأن تكون حميماً معهن. لا تقلق بشأني...

هيونغ: أنا وفيَ لك وحدك.

يي كون: إنّ أعجبتك نساء أخريات، فلا بأس. لكن اسمع، يجب أن تكون كتوماً. إن تكلمت وإن تورطت، فستقع مأساة...

هيونغ: (لا يردّ)...

يي كون: أشعر أننا إن عالجنا المسألة جيدًا، فسيكون الأمر لصالحك وصالحي... هل تؤمن بذلك؟

هيونغ: أجل! أجل! أجل!

مع هذا المزيج من المشاعر الشخصية الصادقة والحسابات السياسية السافرة، بات مصير رئيس الأركان الجديد مرتبطاً بمصير الثنائي لين.

حوّل لين القوات الجوية إلى قاعدته الأساسية. فقام خادمه هناك بجعل «تايغر»، ابن لين البالغ من العمر 24 سنة، مساعد رئيس قسم الحرب، وطلب من القوات الجوية أن تقدّم كل تقاريرها إلى «تايغر» وأن تنصاع لأوامره. كما عيّنت «دودو» ابنة لين، مساعدةً لمحرر صحيفة القوات الجوية.

في صيف 1967، فكّر ماو غير الراضي عن الجيش، في تشكيل قوة «جنود خاطفين» مؤلفة من أولئك «المتمردين» الذين كان يسميهم «اليسار». وبعد ذعر وهان في تموز، حثّ ماو وهو في مزاج انتقامي، «اليسار» على تنظيم هجومات على مجموعات أخرى أسماها «المحافِظين». وعندما فر ماو إلى شنغهاي، طلب من «اليسار» الموجودين هناك أن يهاجموا المجموعة المنافسة. وكانت النتيجة، معركة الفصائل الوحيدة والأكبر في شنغهاي خلال «الثورة الثقافية»، والتي جرت بعد أسبوعين من وصول ماو. في ذلك اليوم، في 4 آب، قام أكثر من 100 ألف مجاهد «يساري» مسلحين بالرماح والقضبان الحديدية، بتطويق نحو 25 ألفًا من خصومهم في مصنع قرب البحر؛ كان المخرج مقفلاً من قبل البحرية – وهو تدبير يستحيل القيام به بدون أوامر ماو. ومع انتهاء النهار، أصيب أكثر من 900 شخص، فأُقعد عديدون وقُتل آخرون. وقد صوّرت طوافتان المشهد– وهذا الأمر مستحيل أيضاً بدون أمر من ماو – كما استقر فريق تصوير في نقطة مثالية لالتقاط الصور بعد يومين. وتم عرض وثائقي مدته ساعتين ونصف حول الحدث أمام حشود منظمة. تفرّج ماو على ذلك من فيلته. بعد ذلك، عمد ماو الى ترقية الرجل الذي قاد الهجوم، وانغ وونغ-وين، ليصبح الرقم 3 لديه. قال له ماو مهنئاً إياه على النصر: «لقد شاهدت فيلمك».

في يوم المعركة، أمر ماو بتشكيل «جنوده الخاطفين». وكتب إلى زوجته قائدة «المجموعة الصغرى»: «سلّحي اليسار. لِمَ لا يمكننا تسليح اليسار؟ لقد هاجمنا (المحافظون)، ويمكننا مهاجمتهم أيضاً».

لكن هذا الأمر بتسليح المدنيين، فتح الباب على مشاكل معقّدة. ففيما كان التمييز سهلاً في بعض المناطق مثل وهان، بين المعتدلين و«اليسار»، إلا أنه في عديد من المناطق الأخرى، لم يكن باستطاعة حتى أتباع ماو الأكثر وفاءاً له، أن يحدّدوا أي مجموعة هي الأكثر جهاداً، إذ كانت كل المجموعات تتنافس لتبدو الأكثر عدائية. وشكّلت مقاطعة أنهوي Anhui النموذج المثالي لذلك، حيث أن الكتلتين المتنافستين هناك تملكان اسمين سياسيين مبالغ فيهما، وهما

«الرائعون» و«الأغبياء». وبما أن الفريق الأول وصل أولاً إلى مكاتب الحكومة القديمة، أعلن أنه استولى على السلطة من «مؤيدي الرأسمالية»، بالقول: «قوتنا المستولية رائعة». فعبّر الفريق الثاني عن سخطه بالقول: «رائعة؟ يا لكم من مجموعة أغبياء!».

لم يكن أي منهما في الواقع أكثر جهاداً من الآخر؛ فالفريقان يتنافسان على الاندماج في بنية السلطة الجديدة. وفي غياب أي معيار أكثر دقة من «الجهاد» الذي حُدّد خطأ أمام «مؤيدي الرأسمالية»، قامت وحدات الجيش بتسليم الأسلحة إلى الفريق الذي تقرر أنه «اليساري»؛ ثم قامت فصائل أخرى بقصف الترسانات لتحصل على الأسلحة لنفسها، وغالباً بالتواطؤ مع المتعاطفين معهم في الجيش. نتيجة لذلك، باتت الأسلحة متوفرة بشكل واسع، وتصاعد قتال الفصائل ليتحوّل إلى حروب مصغّرة عبر الصين، ويشمل عملياً كل المناطق المدنية. فبدأ النظام ينحدر إلى ما يشبه الفوضى السياسية للمرة الأولى منذ توليه السلطة قبل عقدين تقريباً.

سرعان ما أدرك ماو أن مفهوم «الجنود الخاطفين» لن ينجح في كل مكان. لذا، وبينما استمر في بناء قوة منهم مؤلفة من مليون شخص في شنغهاي حيث كانت سلطته مطلقة عملياً، اضطر في المناطق الأخرى إلى إبطال مرسومه الذي ينص على «تسليح اليسار»؛ وفي 5 أيلول، أمر بضرورة إعادة كل الأسلحة. ومع ذلك، فالذين حصلوا عليها، كانوا مترددين في تسليمها. وبعد مضي أكثر من سنة، قال ماو لوزير الدفاع الألباني إنه تم جمع 360 ألف سلاح من سيشوان وحدها (وهي مقاطعة يسكنها 70 مليون شخصاً) وأنه ما زالت هناك كمية أكبر منها. فبوجود الأسلحة الآن في أيادٍ غير رسمية، ظهر «قطّاع الطرق» في الأماكن النائية.

أطلق ماو العنان لقوة محرّكة كانت تقوّض أسس سلطته. واضطر الى التخلي عن محاولته التعريف بالفصائل على أنها «يسارية» و«محافظة»، ودعا كل المجموعات إلى الاتحاد. بيد أنه تم تجاهل أوامره. فالشبان، بشكل أساسي، وإذ ادّعوا أنهم يسحقون «المحافظين»، تابعوا القتال الذي اعتبروه أكثر تسلية من أداء الأعمال المملة.

توقف الناس عن الذهاب إلى العمل واضطرب الاقتصاد الآن بشكل خطر. كما أن صناعات الأسلحة، وحتى البرنامج النووي، عانت اضطراباً للمرة الأولى منذ بدء «الثورة الثقافية». وتسلل عنصر فوضى حتى إلى «الحرس البريتوري»؛ فقد قام أحد أفراده بإعطاء جدول سفر ماو إلى طالب كان يغترّ بكونه محققاً، واستطاع اللحاق بماو سراً. ورغم أنه سرعان ما تم اعتقال الرجلين، إلا أن خللاً مماثلاً في الأمن لم يحصل من قبل قط.

بعد سنة، في عام 1968، أظهرت التصادمات المسلّحة بين الفصائل دلائل تهدئة بسيطة، رغم فيض الأوامر من بكين. وكان ثمة رجل يتصرف بعناد واضح وهو كواي دا-فو كواي

Da-fu، طالب جامعة كينغهوا Qinghua الذي استخدمه ماو لتعذيب ليو شاو-كي وزوجته. والواقع أن كواي أصبح أشهر «يساري» في البلد، وكان مصمماً على إخضاع خصومه في الجامعة. فتجاهل الأوامر المتكررة بالتوقف، مدعيًا أن أخصامه «محافظون» وبالتالي يحق له ضربهم وفقًا لأوامر ماو السابقة. واضطر ماو الى التدخّل شخصيًا لإجباره على التوقف وجعل، في الوقت نفسه، مثالاً لإطلاق تحذير إلى البلد بكامله، بضرورة وقف حروب الفصائل.

في 27 تموز، تم إرسال 40 ألف عامل غير مسلّح إلى جامعة كواي لنزع سلاح مجموعته. وإذ لم يدرك كواي أن الأمر صادر عن ماو، قاوم، وقتلت مجموعته خمسة عمال وجرحت أكثر من 700. في اليوم التالي، استدعي كواي إلى «قاعة الشعب الكبرى». فتفاجأ هناك برؤية ماو وإلى جانبه كل كبار القادة. فألقى كواي نفسه بين ذراعيّ ماو- على الأرجح أنها المرة الأولى التي يُقدم فيها غريب على فعل ذلك- وأفضى بمكنونات قلبه منتحبًا. يبدو أن ماو أيضًا بكى، وسبب ذلك ربما انزعاجه من عجزه شخصياً على التوفيق بين اندفاعه وحاجاته العملية. فالجانب المندفع من ماو أراد أن يتعرّض جميع «المحافظين» الذين يعرف بوجودهم، للضرب حتى ينهاروا. لكن جانبه العملي أعترف أن من مصلحته إعادة النظام. فأخبر كواي وكبار القادة «المتمردين» الحاضرين، أنه هو نفسه طلب نزع سلاح فصيلة كواي، وأنهم إذا استمروا بالقتال، هم أو سواهم، فإن الجيش «سيبيدهم». وقام كواي وزملاؤه بتسجيل هذه الرسالة تم نشرها الى العلن.

أُرسل كواي إلى مصنع في نينغكسيا Ningxia البعيدة. وتم تفكيك كل المنظمات الطلابية في الجامعات كافة، وأُرسل الطلاب للعمل في وظائف عادية، وتم نشر العديد منهم في المناطق الخلفية. وتلى هذا الشتات، شتات أكثر من 10 ملايين تلميذ من الصفوف المتوسطة، وُزّعوا على القرى ومزارع الدولة في كل الصين. وفي السنوات اللاحقة، تم ترييف أكثر من 16 مليون شاب مدني – وهي طريقة أخرى لمعالجة مشكلة البطالة؛ وأنتهى بذلك عصر «الحرس الأحمر» الطلابي.

ولكن من بين مجموعات «المتمردين» غير الطلابية، استمرت الحروب المدنية المصغّرة المتقطعة في الكثير من الأماكن. وبغية إيقافها، تم اختراع متآمرين وهميين يدعون «قوات 16 أيار» كوسيلة شاملة لإدانة كل من يخالف الأوامر. وأصبح كواي المشهور على الصعيد الوطني، قائدهم ثم احتُجز. بصورة إجمالية، وبهذه المقاربة، تمت إدانة عدد مذهل من «المتمردين» بلغ 10 ملايين، جرى اعتقال 3.5 مليونًا منهم.

إن ارهاب الدولة لم يرفع مستوى العنف فحسب، بل كان أكثر ترويعاً من قتال الفصائل

نفسه. والتجسيد الأوضح لهذا الأمر جاء من مقاطعة غوانكسي Guangxi الجنوبية في صيف 1968. هناك، رفضت إحدى الفصائل الاعتراف بسلطة الرجل المعيّن من ماو، الجنرال واي غوا-كينغ Wei Guo-qing (الذي ساعد مباشرة في إدارة المعركة الحاسمة ضد الفرنسيين في ديان بيان-بهو Dien Bien Phu في فيتنام سنة 1954). كان واي مصمماً على استعمال أي درجة من القوة لسحق خصومه.

لم يشمل هذا الأمر استعمال الأسلحة الرشاشة ومدافع الهاون والمدفعية فحسب، بل أيضًا التحريض على القتل المروع لأعداد كبيرة من الناس الذين اعتبرهم النظام «أعداء طبقيين». وقال رئيس إقليم بينيانغ Binyang وهو ضابط في الجيش، لأتباعه: «سأكشف لكم الآن الهدف العميق: في هذه الحملة، علينا أن نقتل نحو ثلث أو ربع»الأعداء الطبقيين «عبر ضربهم بالهراوات ورميهم بالحجارة». والقتل بالإعدام المباشر لم يكن مخيفًا بشكل كاف. «لا بأس بإعدام البعض كبداية لكن علينا إرشاد الناس إلى استعمال القبضات والحجارة والهراوات. بهذه الطريقة وحدها يمكننا تثقيف الناس». وخلال فترة 11 يومًا بعد إصدار الأمر، بين 26 تموز و6 آب، تعرض3681 شخصًا في هذا الاقليم للضرب حتى الموت، معظمهم بطرق مروّعة؛ عند المقارنة، يُلاحظ أن مجموع الوفيات في السنتين السابقتين من «الثورة الثقافية»، بلغ «فقط» 68. وأودت نوبة القتل هذه بحياة 100 ألف شخص في الريف.

نظمت السلطات «تظاهرات نموذجية للقتل» ليظهر للناس كيفية تطبيق أقصى حد ممكن من الوحشية. وفي بعض الحالات، كانت الشرطة تشرف على القتل. وفي الجو العام الذي تسوده وحشية معزّزة، انتشر أكل لحم البشر في أجزاء عديدة من الريف، وبخاصة في مقاطعة ووكسوان Wuxan حيث وضع تحقيق رسمي في الفترة اللاحقة لماو (تم توقيفه بحزم عام 1983 وإخفاء نتائجه) لائحة باسم 76 ضحية. في الواقع، بدأ أكل لحم البشر مع الرزة الماوية، «حشود الإدانة». بعد ذلك مباشرة، كان الضحايا يُذبحون وتُنتزع أجزاء مختارة من جسمهم - القلب والكبد وأحيانًا القضيب - غالباً قبل أن يموت الضحايا، وتطهى فوراً لتؤكل وتتحول الى ما عُرف في ذلك الحين «بمآدب اللحم البشري».

غوانغكسي هي المنطقة التي تتمتع بأروع المناظر الطبيعية في الصين: هضاب فاتنة تعلو وتهبط فوق مياه شديدة الصفاء، بحيث بدت القمم حقيقية كما هي في الأعلى. ووسط هذه المناظر المزدوجة السماوية، قرب أنقى الأنهار، كانت تُقام «مآدب اللحم البشري» هذه.

إن قروياً عجوزاً في السادسة والثمانين من العمر، قام في وضح النهار بشق صدر فتى، ذنبه الوحيد أنه ابن مالك أراضٍ سابق؛ وأظهر كيف أن الناس لم يجدوا صعوبة في إيجاد تبريرات لتصرفاتهم في كلمات ماو. وفي وقت لاحق، قال لكاتب محقق: «أجل، قتلته. الشخص الذي

قتله هو عدو... هاها! أنا أصنع الثورة وقلبي أحمر! ألم يقل الرئيس ماو: إما أن نقتلهم وإما أن يقتلونا؟ تموت أنت وأعيش أنا، هذا هو النزاع الطبقي!».

بلغت عمليات القتل التي دعمتها الدولة أقصى حدّ لها في كل المقاطعات عام 1968. سادت في تلك السنة، حملة هائلة اطلق عليها اسم «تصنيف الفئات الطبقية». والهدف من هذه العملية كان وضع جردة بكل «عدو طبقي» بين جميع السكان، وإخضاعه لأنواع متنوعة من العقاب، بما في ذلك الإعدام. بالتالي، اقتيد كل الضحايا الذين سقطوا قبل الثورة الثقافية وخلالها، وتعرضوا للاضطهاد مجددًا. إضافة إلى ذلك، قرر النظام الكشف عن أعداء جدد من خلال التدقيق في تاريخ وسلوك كل بالغ في البلد، والنظر في كل تشكيك لم يُحلّ. فبلغ عدد المصنفين منبوذين رسميين 23؛ كما وصل عدد الناس المضطهدين إلى عشرات الملايين - أكثر من أي وقت مضى.

وقد وصف شاهد عيان كيف كان الرئيس الجديد لمقاطعة أنهوي Anhui، وهو جنرال في الجيش، يتخذ القرارات بشأن عمليات الإعدام. فخلال تقليبه بكسل لائحة «المناهضين للثورة» التي رفعتها إليه الشرطة، كان يتوقف بين الحين والآخر ويرفع صوته بطريقة رسمية مثالية (منهياً جملته بنبرة أنفية بدت مضجرة): «هل ما زلت تحتفظ بهذا؟ الأفضل أن تقتله». «ماذا عن هذه؟ قم بإعدامها». ثم سأل عن عدد الأشخاص الذين تخطط المقاطعات المجاورة لإعدامهم: «كم ستقتل جيانكسو Jiangsu هذا الشهر؟» وكم ستقتل زيجيانغ Zhejiang؟وحين حصل على الجواب، قال: «فلنوزع المعدّل بين الاثنين». وكان الناس يُعدمون على هذا الأساس.

إحدى أسوأ المقاطعات المنكوبة كانت منغوليا الداخلية حيث كان ماو يشك بوجود مؤامرة لفصل المقاطعة وضمها إلى منغوليا الخارجية والروس. وقام الرئيس الجديد هناك، الجنرال تانغ هاي-كينغ Teng Hai-qing، بالتحقيق بقوة في شكوك ماو لاجئاً الى التعذيب على نطاق واسع. ووفقًا لأمور كُشفت بعد حقبة ماو، شملت الحالات امرأة مسلمة تم اقتلاع أسنانها بالزردية ثم نزع أنفها وأذنيها قبل أن تُضرب حتى الموت. وتعرضت امرأة أخرى للاغتصاب بواسطة سارية (انتحرت بعد ذلك). رجل آخر، أدخلت أظافر في جمجمته. وآخر أيضاً قُطع لسانه وقُلعت عيناه. وتعرّض آخر للضرب على أعضائه التناسلية قبل إدخال البارود عمدًا عبر منخريه وإشعاله. والواقع أن الأرقام الرسمية التي نُشرت بعد حقبة ماو كشفت أن أكثر من 346 ألف شخص أُدينوا و16222 قتلوا نتيجة لذلك، وفي هذه الحالة وحدها. كما قُدّر رسميًا عدد الأشخاص في الريف الذين «عانوا» بطريقة أو بأخرى بأكثر من مليون- 75%

منهم منغوليين إثنين، ما يعني أن 60% على الأقل من كل المنغوليين في الريف- رجالاً ونساءاً وأولاداً- عانوا الأمَرّين.

وثمة محافظة أخرى عانت مصابًا جللا، وهي محافظة ينان Yunnan، في الجنوب الغربي، حيث (وفقًا للأرقام الرسمية) في قضية ملفقة واحدة، تمت ملاحقة 1.400000 شخص تحت إدارة الرئيس الإقليمي الجديد، الجنرال تان فو-رين Tan Fu-ren. فقد أُعدم 17 ألفًا منهم أو ضربوا حتى الموت أو دفعوا إلى الانتحار. وفي مثال مؤثر نادر عن كيف أن الذي يحكم بالسيف قد يموت بالسيف، اغتيل الجنرال تان Tan نفسه في كانون الأول 1970. ما جعله أعلى مسؤول يموت بهذه الطريقة في صين ماو حيث كانت الاغتيالات نادرة جدًا. وكان القاتل ضابط أركان في المقر الرئيسي يدعى وانغ زي-زينغ Wang Zi-zheng، الذي لم يكن يحمل أية ضغينة تجاه الجنرال Tan شخصيًا بل يكره نظام ماو. ففي سنة 1947، كان متورطًا مع قوة مناهضة للشيوعية قتلت قائد ميليشيا شيوعية، وفرّ بعد ذلك. والآن بعد أكثر من عقدين، بدأت بلدته مسقط رأسه، مطاردةً منظمةً لإيجاده. ورغم أنه كان يبعد أكثر من ألف ميل وقام بتغيير اسمه، فقد عُثر عليه وتم توقيفه في نيسان 1970. وإذ أدرك ما سيكون مصيره، قرر أنه سيحاول قتل الجنرال تان Tan الذي لم يكن أهم مسؤول في المنطقة فحسب، بل كان يقوم بأمور رهيبة في ينان Yunnan. وفي إحدى الليالي، هرب ضابط الأركان من الاعتقال وقصد منزله لوداع زوجته وابنه، وسرق مسدسين و20 رصاصة من المقر الرئيسي، كانت موضوعة في خزنة (كالعادة)، ثم تسلّق إلى داخل منزل الجنرال تان Tan وأطلق عليه النار. وحين وصل مطاردوه إليه، أطلق هذا المنتقم الفريد النار وجرح اثنين منهم قبل أن يطلق النار على نفسه.

في بداية عام 1969، كان جهاز قوة ماو الجديد مؤمّناً. في شهر نيسان، دعا إلى عقد مؤتمر للحزب، هو التاسع، ليعطي الصفة الرسمية لنظامه الذي أعيد بناؤه. انعقد المؤتمر السابق عام 1956؛ ورغم أن ميثاق الحزب نص على اجتماع واحد كل خمس سنوات، أخّر ماو السماح لهذا المؤتمر بالاجتماع مدة 13 سنة، إلى حين إحساسه بأن كل المعارضة قد أبعدت تمامًا.

اختير النواب الجدد حصرياً بناءاً على ولائهم لماو؛ مقياس الولاء كان مدى الوحشية والقسوة المعتمدتين إزاء أعداء ماو. وداخل قاعة المؤتمر التي خلت من هؤلاء الأعداء، حاولوا إظهار ولائهم عبر القفز بدون توقف مطلقين شعارات مثل « فليعش الرئيس ماو طويلاً!» فيما هذا الأخير يتكلم. وقد احتاج ماو إلى عشرين دقيقة لينهي الصفحتين اللتين يتألف منهما خطابه الافتتاحي. هذه المهزلة ليست ما أراده من كبار رتبائه الذين يفترض بهم أن يكونوا آلة

عملية. فبدا عليه الاستياء واختصر خطابه. وبعد الجلسة، طلب من أمانة سر المؤتمر أن تصدر قوانين تنص على منع إطلاق الشعارات غير المبرمجة.

باتت القيادة الأساسية في ظل ماو تتألف حاليًا من لين بياو، وتشو إن-لاي، وقائدين من «المجموعة الصغرى»: تشين بدا وكانغ شينغ Kang Sheng. ثم ألغيت «المجموعة الصغرى» وهي مكتب ماو الذي يُعنى بالثورة الثقافية. وأُدخلت السيدة ماو في المكتب السياسي للحزب وكذلك زوجة لين بياو وأصدقائه الحميمين الأساسيين مثل قائد أركان الجيش (وعشيق زوجة لين) هيونغ يونغ-شينغ. أما في اللجنة المركزية، فإن 81% من الأعضاء كانوا جدداً، وما يقارب نصف المقبولين الجدد كانوا رجالاً من الجيش، بما فيهم الجنرالات الذين أشرفوا على الفظائع في غوانغكسي Guangxi وينان Yunnan ومنغوليا الداخلية. وقد نال لين بنفسه الجائزة الكبرى عبر إدراجه في ميثاق الحزب كرجل ماو الثاني وخلفه، وشكّل ذلك شارة غير مسبوقة من السلطة والمجد.

أنهى ماو «التطهير الكبير»، رغم أن هذا لم يعنِ انتهاء عمليات القتل. ففي السنوات العشر التي مرت منذ بدء ماو بالتطهير حتى وفاته سنة 1976، مات 3 ملايين شخصاً على الأقل بطرق عنيفة. كما أقرّ قادة ما بعد حقبة ماو أن 100 مليون شخصاً، أي تسع عدد السكان، عانوا بطريقة أو بأخرى. والدولة هي التي كانت ترعى أعمال العنف؛ ونسبة صغيرة فقط منه كانت تحصل على يد «الحرس الأحمر». فمعظمه كان من قبل العمل المباشر لنظام ماو الذي أعيد بناؤه.

51- الخوف من إندلاع الحرب
(1969-1971؛ العمر: 75-77 سنة)

قدّم ماو الثورة الثقافية على أنها خطوة في اتجاه تخلّص الصين من «المؤيدين لروح التطور» على النمط السوفياتي. لذا، عندما كان يستعد لإعلان النصر وإطلاق سلطته الجديدة بعد عملية التطهير خلال المؤتمر التاسع الذي عُقد في نيسان 1969، كان يبحث عن رمز للإنتصار على الإتحاد السوفياتي. فصمم على إقامة التزام مسلح صغير ومدروس، معركة على الحدود.

وقعت معارك عديدة على طول الحدود الصينية-السوفياتية التي تبلغ مسافتها سبعة آلاف كيلومتر. وإختار ماو موقعاً لهذه المعركة، جزيرة صغيرة غير مأهولة تدعى زينباو Zhenbao (دامنسكيDamansky باللغة الروسية)، عند نهر أوسوري Ussuri على الحدود الشمالية الشرقية. كان هذا اختياراً ذكياً بما أن المطالبة الروسية بالجزيرة لم تكن مسألة مطروحة.

في الثاني من آذار، استعانت القوات الصينية بوحدة نخبوية مجهزة ومدربة، لتنصب كميناً أدى إلى مقتل 32 روسياً وإصابة 50 الى 100 صيني بين قتيل وجريح. أعدّ الروس المدفعيات الثقيلة والدبابات وفي ليل 14-15 آذار، وقعت مناوشة كبرى إذ أطلق الروس صواريخاً على مسافة 20 كيلومتراً داخل الصين، ما أدى إلى مقتل حوالي 60 روسياً وعلى الأقل 800 صيني. قال خبير صور من وكالة الإستخبارات المركزية إنّ الجانب الصيني من نهر أوسوري كان مليئاً بالبؤر بفعل المدفعية السوفياتية لدرجة أنه بدا مثل «سطح القمر». من الواضح أن الروس كانوا جديين.

إنّ الردّ الروسي القاسي فاجأ ماو، فقلق من حدوث غزو روسي، وهو كما قال للمقربين منه، أمر ممكن. أمرَ جيشه على الفور بوقف إطلاق النار وعدم القيام بأي شيء حتى مع إستمرار القصف الروسي.

بعد مرور أسبوع، عادت السخونة الى الخط القديم من موسكو، بشكل غير متوقع. فقد طلب رئيس الوزراء السوفياتي أنذاك ألكسي كوسيجين التحدّث إلى ماو وتشو إن-لاي. في هذه الأثناء، انقطعت الإتصالات الديبلوماسية كلياً بين الصين وروسيا طوال ثلاث سنوات. رفض عامل الهاتف تمرير الإتصال قائلاً في المرة الرابعة، إنّهم غير قادرين على تمرير إتصال للرئيس ماو من «ذلك الوغد كوسيجين. في اليوم التالي، رصد الصينيون تحركات القوات

الروسية قرب الجزيرة المتنازع عليها. فطلب ماو فوراً من وزارة الخارجية أن تُعلم موسكو «بإستعدادها لإجراء مفاوضات ديبلوماسية»، أي أنه لم يرد شنّ أي حرب. خشي ماو من أن يستهدف الروس المؤتمر التاسع على حين غرّة في هجوم جوي، خاصةً وأن المجلس سيُفتتح في بكين في غضون عشرة أيام ولا مفر له من حضوره.

إذاً، إنعقد المؤتمر في جوّ سادته السرّية التامة وفقاً لمعايير السرّية الفائقة للسلطة. ولم يتم الإعلان عن الحدث إلا بعد إنتهائه وقد احتجز الموفدون والموظفون البالغ عددهم ألفيْن داخل فنادقهم. وتم إغلاق الستائر ومُنعوا من فتح النوافذ المواجهة للشوارع. وبدلاً من اصطحابهم من الفندق مباشرة إلى مكان الحدث أي القاعة الكبرى للشعب، تم نقل الموفدين بالباص عبر طرقات ملتفة حول بكين قبل إيصالهم إلى القاعة خفيةً، على مراحل متقطعة. وفي يوم الإفتتاح أي في الأول من نيسان، عندما كان من المقرر حضور ماو، جُهّزت القاعة ليبدو الأمر وكأن شيئاً لم يحدث فيها. فأخفت الستائر السميكة وهج الأنوار (لم يتم إفتتاح الجلسة إلا عند الخامسة مساء) واحتشاد المبنى بالناس.

كان ماو يملك أجهزة إنذار. بعد بضعة أشهر، في 13 آب 1969، هاجم الروس آلاف الأميال بإتجاه الغرب على حدود كازاخستان- كزينجيانغ Xinjiang حيث كان لديهم مميزات لوجستية مهمة. وتوغلت الدبابات والآليات المدرعة الروسية إلى داخل الصين فحاصرت القوات الصينية وابادتها.

لم يملك ماو أية أسلحة دفاعية فعالة في وجه الدبابات السوفياتية، إذا إختارت إستهداف بكين. فلطالما إعتمد على حجم الصين وعلى شعبها كضمانة ضد أيّ عدو يريد الغزو. ولكن منذ أن أمر مالينوفسكي زملائه المقربين بالتخلص منه في أواخر عام 1964، إستحوذت على ماو فكرة وقوع هجوم عسكري سريع على عاصمته بالتنسيق مع خصومه. فأصدر أمراً: «أبنوا بعض الجبال إنْ لم يكن هناك أي جبال»، وادفعوا أموالاً طائلة واستخدموا اليد العاملة لبناء «جبال» لصدّ الدبابات الروسية. تم تصميم كلّ جبل ليكون على إرتفاع 20-40 م وبعرض 250-400 م وعمق 120-220 م. وقد تم نقل التراب والصخور من مكان بعيد الى جانب بناء أعمال دفاعية متقنة في الداخل قبل التخلي عن المشروع بعد بضع سنوات. كل مَن رأى هذه «الجبال» (ومنهم وزير الدفاع الأميركي السابق ورئيس وكالة الإستخبارات المركزية السابق جايمس شلزنغر James Schlesinger) إستنتج أنها عديمة الجدوى بالكامل.

كذلك كان ماو قلقاً من حصول هجوم نووي على منشآته الذرية. في الواقع، فكرت موسكو في هذه العملية ووصل الأمر إلى حدّ إعلام واشنطن. فغضب ماو جداً الى حد خرق قاعدته المتعلقة بتجنّب أي إتصال مع الكرملين، ووافق على قدوم كوسيجين إلى بكين في أيلول

1969 في طريق عودته من جنازة هو شي مينه في هانوي. بقي رئيس الوزراء السوفياتي محتجزاً في المطار حيث إلتقى به تشو إن-لاي في قاعة الإنتظار. كان الهجوم الروسي أول موضوع أثاره تشو ولكنه فشل في الحصول على إلتزام من كوسيجين بعدم شنّ روسيا هجوماً على الصين. بعد أسبوع، عندما كتب تشو رسالة لكوسيجين يطلب فيها التأكيد على إتفاق الجانبين بعدم شروع أيّ منهما هجوماً على الآخر، رفضت موسكو التأكيد على «تفاهم» تشو.

في هذه الأثناء، نُشرت مقالة في صحيفة لندنية، لصحفي روسي مرتبط بوكالة الإستخبارات الروسية يدعى فيكتور لويس (كان يعمل مؤخراً بصفته المبعوث الأول لروسيا إلى تايوان). قال لويس إنّ على الكرملين مناقشة عملية قصف موقع ماو لإختبار الصواريخ النووية، والتخطيط لتعيين «قيادة بديلة» للحزب الشيوعي الصيني.

هذا الأمر أفقد ماو رباطة جأشه بالفعل. فقد إتفق مع وفد روسي قادم إلى بكين لإجراء مفاوضات حول النزاع على الحدود. وأصبح هذا الأمر بحد ذاته مصدراً للقلق. كان من المقرر أن يسافر الوفد في الثامن عشر من تشرين الأول. خشي ماو وعصبته السرية أن تكون الطائرة محملة بالقنابل الذرية بدلاً من المفاوضين. لذا، غادر برفقة لين بياو بكين وتوجها إلى الجنوب على أن يذهب ماو إلى وهان في الخامس عشر من الشهر، ولين الى سوزهو Suzhou في السابع عشر. في الثامن عشر، فوّت المارشال قيلولته المنتظمة لتتبّع مسيرة الطائرة الروسية،ولم يعد للإستلقاء إلا بعد تأكده من نزول الروس عن متن الطائرة.

قبيل وصول الروس، غادر تشو إن-لاي محلّ إقامته سراً في زونغنانهاي وإنتقل إلى الغرف النووية المحصنة في الهضاب الغربية حيث بقي هناك حتى شباط 1970. إلتجأت السيدة ماو إلى هناك أيضاً على الأرجح لمراقبة تشو.

دام هذا الخوف من إندلاع الحرب حوالى أربعة أشهر، ووُضع الجيش بأكمله في حالة تأهب قصوى وتضمن ذلك نشْر 4100 طائرة و600 سفينة و940000 عنصر. باشر الجيش عمليات التدريب العسكري الجدية التي كانت قد عُلّقت مؤقتاً منذ بداية الثورة الثقافية.

وجرت حفريات داخل زونغنانهاي لبناء ملجأ ضخم متصل بأنفاق واسعة تتسع لأربع سيارات متراصفة جنباً إلى جنب، مروراً بتيان ان مين القاعة الكبرى للشعب، المستشفى الرئيسي (المستشفى 305، الذي بُني خصيصاً لماو مع كل متطلبات الأمن، رغم أنه لم يأت اليه قط)، محل إقامة لين بياو، بالإضافة إلى المقر الرئيسي العسكري السري في الهضاب الغربية. أجبر عشرات ملايين المدنيين على العمل بالسخرة لبناء ملاجىء وأنفاق تحت الأرض في كل مدينة، وإلا تمت معاقبتهم. إنّ فكرة الخوف من إندلاع الحرب التي أخطأ ماو في تقديرها كلّفت الصين كثيراً.

في النهاية، بقي هذا الخوف مجرد خوف، مما عزز ثقة ماو بمعتقده القديم بأن ما من دولة، بما في ذلك روسيا، ستود غزو الصين. وللتأكيد على ذلك، شرع في تهدئة الروس. وفي عيد العمال عام 1970، أصرّ على الترحيب بمساعد قائد الوفد السوفياتي الى المحادثات حول الحدود، والذي كان حاضراً على بوابة تيان ان مين فأعرب عن رغبته في أن يكون «جاراً» لروسيا وعدم رغبته في شن حرب معها. عادت العلاقات الى مستوى السفارات مع السفير الروسي الجديد الذي يصل إلى بكين في تشرين الأول، وما زالت فكرة شن هجوم روسي مستبعدة.

ورغم ثقته بعدم إندلاع أي حرب، إلا أن ماو إستمر في نشر الخوف داخل الصين قائلاً إنّ جواً من الحرب مؤاتٍ لبرنامج القوة العظمى.

بقي حلم ماو الأهم أن يصبح القوة العظمى. لهذا السبب جزئياً، نفّذ عملية التطهير لتعيين مؤيدين جدد يتوافقون أكثر مع مطالبه. بعد انجاز هذه العملية، بدأ بتسريع عجلة البرنامج. لهذه الغاية، إفتتح في آب 1970، جلسة مكتملة النصاب في لوشان جبل السُحب السريعة الزوال، حيث إجتمعت اللجنة المركزية مرتين من قبل، في العامين 1959 و1961 للهدف نفسه أي تسريع البرنامج، مما أدى إلى مقتل حوالي 38 مليون شخصاً من جراء المجاعة والأشغال الشاقة.

في كلتي المناسبتين، لاقى ماو مقاومة كبيرة. هذه المرة، أظهر مؤيدوه الجدد بعض الإرتياب حيال مساعدته، رغم أن خططه الأخيرة تضمنت الإستثمار في البرنامج النووي لخمس سنوات من 1971-1975 بقدر ما أُنفق طيلة السنوات الخمس عشرة السابقة؛ هذا في وقت كان فيه الدخل الفردي في الصين أقل من الدخل في الصومال الفقيرة، ومخزون السعرات الحرارية أقل مما كان في عهد القوميين عام 1930. إلا أن ماو لم يلقَ أية معارضة. في الواقع، أيّد لين بياو وزمرته عدم أهمية السؤال المطروح حول إمكانية تحمّل الدولة لمعدل الإنفاق هذا أم لا. عرض سيد جيانغكسي الجديد، الجنرال تشانغ شي-كينغ Cheng Shi-qing أن يدفع ثمن الطعام سنوياً إلى الحكومة المركزية أكثر مما كانت تساهم به المقاطعة بسبعة أضعاف، عندما كان شعب Jiangxi يصارع للبقاء. كان مراقبو الأرقاء مستعدين لإضطهاد الشعب بضراوة أكثر من أي وقت مضى.

وكان ماو راضياً. وفيما كان يتجه من الساحل إلى الجبل اشتاق للسباحة. فما إنْ وصل، حتى خلع ثيابه وغاص في بركة المياه متجاهلاً الحراس الذين حذروه من برودة المياه القارصة خاصة وأنه تعرّق كثيراً. سبح قرابة الساعة من الوقت وهو يضحك ويمزح، في مياه جعلت الشبان من حوله يرتجفون من البرد. في سن السادسة والسبعين، وكان في حالة

جسدية ممتازة. كما أن شهيته أثارت دهشة طباخه ومدبرة منزله. كان ما يزال يتمتع بحيوية غير محدودة.

ولكن في هذه المرحلة، إتخذت الأحداث منحىً غير متوقع. فقد وقع خلاف بين ماو ولين بياو، وبدأت خطة ما بعد التطهير بالتلاشي.

52- النزاع مع لين بياو
(1970-1971 العمر: 76-77 سنة)

حتى الآن، آب 1970، بدت الشراكة بين ماو ولين جيدة ووثيقة. خلال السنوات الأربع الماضية، قدّم لين بياو دعم الجيش الذي يحتاج اليه ماو لعملية تطهير الحزب وإعادة تشكيل النظام. وقد قام ماو بكل ما في وسعه لإشباع تعطّش لين بياو إلى السلطة عبر تسليمه قيادة الجيش وجعله الرجل الثاني في الحزب وخلفه. كما أدخل زوجة لين في المكتب السياسي للحزب (وجعلها أحد العضوين النسائيين، الى جانب السيدة ماو)، فخرق بذلك الحظر البعيد المدى المفروض على ترقية الزوجات. كما سمح ماو بعبادة مصغّرة لشخص لين. وكل يوم، عندما يصدح النشيد: «فليعش إلى الأبد القبطان العظيم (الخ...) الرئيس ماو!» مع التلويح بالكتاب الأحمر الصغير، كان يلي هذا الولاء: «فليتمتع نائب الرئيس لين بالصحة التامة إلى الأبد!».

ولكن في لوشان، قيل لماو إنه جعل لين يزداد قوة مما يشكّل تهديداً له الآن. وبدأ ذلك بنزاع خفيف على ما يبدو حول الرئاسة وهو منصب كان ليو شاو-كي آخر مَن شغله. أراد ماو إلغاء المنصب، لكن لين أصرّ على بقائه وعلى تنصيب ماو رئيساً. ويعود تشبّث لين برأيه المعارض الى رغبته في أن يكون نائب الرئيس، فيصبح بالتالي رسمياً، الرجل الثاني في تراتبية الدولة. ومن بين الذين احتلوا المناصب الخمسة الأولى (ماو، لين، تشو، كانغ شينغ وتشين بو-دا)، تضمنت اللائحة أربعة أشخاص موالين لرأي لين مقابل إسم وحيد لصالح ماو. إنه لرمز مدهش لنفوذ لين، إذ يظهر أنه بالنسبة الى كبار معاوني ماو، فإن مصالح لين تتجاوز رغبات ماو.

ازداد غضب ماو عندما أعلن لين عرضه في الإجتماع السري في الثالث والعشرين من آب بدون استيضاح الأمر أولاً مع ماو. بُعيد حديث لين، دعمه رئيس الحرس الإمبراطوري وانغ دونغ كزينغ Wang Dong-xing مطالباً بلهجة حادة أن يصبح ماو رئيساً ولين نائباً له مع أنه يعرف تماماً هو أيضاً، أن ذلك يتعارض ومشيئة ماو. إنّ الرجل الذي لطالما إعتمد عليه ماو، يفضل بدوره رغبات لين على رغبات ماو.

إن السبب الذي جعل رئيس الحرس الإمبراطوري يتصرف بهذه الطريقة هو شعوره بأن رعاية لين أمر ضروري. فقد عاين المصير الذي انتهى اليه سلفه الفعلي ليو الطويل Luo the Tall الذي كان مقرباً جداً من ماو ومع ذلك ضحّى به هذا الأخير بطلب من لين. وهو يرى

الآن أن ماو يقوم بتضحية أخرى مشابهة: فقد وافق على طلب لين بالتضحية برجل آخر كان ماو يثق به ثقة تامة وهو زانغ تشون-كياو Zhang Chun-qiao الرجل السابع في الحزب.

كان زانغ الذي يبلغ الثالثة والخمسين من العمر موظفاً متوسط المستوى في شنغهاي ولفت إنتباه ماو بسبب قدرته على تأليف مقالات غطت أعمال ماو التي تخدم مصالحه الشخصية، بزي ماركسي. في بداية الثورة الثقافية، قام ماو بترقيته إلى أعلى المناصب لتأدية عمل مهم وهو الكتابة عن عملية التطهير بأسلوب مثالي. وكان زانغ مسؤولاً عن النصوص التي ضللت الكثيرين في الصين والخارج، والمتعلقة بالطبيعة الحقيقية للثورة الثقافية.

كما كان زانغ متحفظاً وكتوماً؛ فكان يصعب على زملائه قراءة تعابير وجهه. وقد منحه لين وزمرته لقب «الكوبرا» لأنه كان يضع النظارات ويتمتع بميزات الأفعى. كرهه لين بياو لأنه لم يكن فرداً من زمرته ولأن ماو الذي نشر بذور الخلاف بين أتباعه، أخبر لين بأن الكوبرا قد يخلف لين في يوم من الأيام عندما يصبح لين طاعناً في السن. كان لين يحاول لبعض الوقت إضعاف الكوبرا عبر بثّ الشائعات حول ماو ونسبها له. قبيل إلقاء خطابه في لوشان، أعرب لين لماو عن نيته في إدانة كوبرا بسبب ذلك، فأعطاه ماو الضوء الأخضر. بعد خطاب لين الذي كان شديد اللهجة، تجمّع المشاركون الآخرون مطالبين باللهجة الحادة ذاتها بقتل كوبرا عبر جلده ألف مرة.

كان الدرس واضحاً: مهما كان الشخص قريباً أو هاماً بالنسبة إلى ماو، يجب أن يحظى ببركات لين كي يبقى على قيد الحياة. لم يكن تأييد ماو وحده كافياً. وقد شكّل ذلك تحولاً جذرياً في السلطة. ففكرة أن رعاية لين هي أكثر أهمية من رعايته، هزت كيان ماو.

لذا عمل فوراً على إظهار أن سلطة لين ليست مطلقة. فعارض أية إمكانية لوجود نظام رئاسي، ودعا إلى وقف الهجمات على كوبرا، والى مزيد من المناقشة لخطاب لين. باشر ماو في إظهار إستياءه من لين ثم أدان سكرتيره السابق تشين بو-دا Chen Bo-da، الرجل الخامس في الحزب والذي أصبح حليفاً للين. وكما جرت العادة في حالات كهذه، وُضع تشين في الإقامة الجبرية ثم اقتيد إلى السجن وهي تجربة وصفها بأنها تشبه «الضرب على الرأس بقنبلة ذرية».

طلب ماو من لين أن يُجري نقداً ذاتياً أمام كبار الرتباء، ويقول إنّ تشين «خيّب أمله». لكن لين رفض ذلك. حتى الآن وبفضل علاقته المميزة مع ماو، نجح دائماً في تجنّب إخضاع نفسه لهذه الطقوس المُهينة. وعلى الرغم من إصرار ماو، إلا أن لين رفض أن يتزحزح. فوصلا إلى طريق مسدود. بعد مرور أربعة عقود، بدأت العلاقة بين ماو ولين تتدهور.

بعد إجتماع لوشان الذي إنتهى بشكل غير حاسم في 6 أيلول، انتقل ماو الى إضعاف نفوذ لين – وكذلك الى ضمان سلامته الشخصية. فدعا جنرالات موثوق بهم من خارج زمرة لين لتولّي القيادة العسكرية في بكين وأدخلهم في قيادة الجيش. كما قام بتنظيف منزله عبر صرْف بعض صديقاته المفضلات اللواتي أتينَ من فرقة الغناء والرقص في السلاح الجوي، وهي خدمة قِوادة قُدمت لماو ولها صلات مع لين.

كان على ماو أن يتصرف بحذر كي لا يُشعر لين بأنه مهدد شخصياً. لن يتحمل بسهولة حصول قطيعة نهائية مع لين. عملياً، كان النظام يعجّ بأشخاص تم تعيينهم من قبل لين وشبكته الشخصية. وأراد ماو تقويضه بقدر الإمكان بدون إبعاده نهائياً. وكانت هذه المكائد اللامتناهية بحاجة الى أن توهن طاقة ماو فأصيب ذلك الشتاء بداء رئوي. الآن فقط، في الـ70 من العمر، بدأت ملامح الشيخوخة تبرز عليه، هو الذي لطالما تمتع بصحة جيدة وأصبح الآن رهينة المرض.

في هذه الأثناء، إستمر لين بياو في رفض إذلال ذاته الذي طلبه ماو. ولكونه وحيداً على الدوام، أصبح أكثر إنعزالاً، وأمضى معظم وقته يذرع غرفته جيئةً وذهوباً، ويشاهد الأفلام الحربية من وقت لآخر. بعد ذلك، أملى كتابة رسالة إلى ماو موضحاً أنه في حال إبعاده، سيضطر ماو إلى إعادة تعيين الجهاز كله الذي وضعه لين؛ والبديل الوحيد هم كوادر الحزب القديم مما يعني إنكار الثورة الثقافية. ولكن بإلحاح من زوجته، لم يبعث لين الرسالة، ولن يسمح ماو بتهديده بهذه الطريقة.

بدا الخيار الأكثر واقعية بالنسبة الى لين هو الفرار كما فعل أخصام ماو السابقين مثل تشينغ كيو-تاو Chang Kuo-tao الذي توجه إلى القوميين في الثلاثينيات، ووانغ مينغ Wang Ming الذي فرّ إلى موسكو في الخمسينيات. وبما أن القوات الجوية تحت سيطرته، يستطيع لين الفرار عبر البحار. وكانت روسيا خياره الواضح؛ فقد سبق وأمضى أربع سنوات هناك، وتتكلم زوجته الروسية بشكل جيد كونها إتخذت ضابطاً روسياً عشيقاً لها. إنّ جعْل روسيا مجرد خياره الوحيد في التراجع، يشير إلى عدم ثقة لين بياو بالأنظمة الشيوعية، ففضّل أن يقصد المستعمرة البريطانية هونغ كونغ.

قامت خطة لين على السفر أولاً إلى كانتون Canton القريبة من هونغ كونغ حيث القوات العسكرية مخلصة له بشكل إستثنائي. ولكي يؤمن طريق الهروب، إعتمد على إبنه الوحيد لي-غيو Li-guo الذي أسماه «تايغر» أي النمر وكان في منتصف العشرينات. في تشرين الثاني عام 1970، وبُعيد إنقطاع العلاقات بين ماو ولين في لوشان Lushan، بدأ تايغر يقابل أناساً من معسكر كانتون Canton. قام أصدقاؤه المقربون بزيارات سرية متكررة إلى كانتون وتزودوا

بأسلحة خفيفة وأجهزة إرسال وسيارات وتعلموا قيادة المروحيات. خلال هذه النشاطات الشاملة، لم يبلّغ أحد عن تايغر الذي كان رمزاً للوفاء.

وكان تايغر يدرس الفيزياء في جامعة بكين عند إندلاع الثورة الثقافية. ومن غير المألوف بالنسبة إلى شاب له هذه الخلفية، أن ينضم إلى الحرس الأحمر على مضض، ثم يغادر بسرعة، ولا يبدي أي ميل الى العنف أو إضطهاد الناس. يبدو أنه كان شخصاً جديراً بالإحترام. ولكنه كان زير نساء بعض الشيء فقد إتخذ لنفسه صديقات عدة. أحبّه والداه كثيراً وأرسلت والدته عملاء في جميع أنحاء الصين بحثاً عن أجمل إمرأة لتكون زوجة له. إختار تايغر خطيبة جذابة تتمتع بالذكاء والشخصية القوية. وكان يستمع بصحبتها إلى موسيقى الروك الغربية التي يعشقها كثيراً وقال لها: «سيأتي يوم أخبر فيه شعب الصين عن وجود موسيقى رائعة في هذا العالم!»

إن القدرة على الإستمتاع بالموسيقى الغربية، شكلت إحدى مميزات تايغر العديدة النادرة، كونه إبن لين بياو. ومن المميزات الأخرى قدرته على تصفّح المجلات العلمية الغربية التي كان يطالعها بشغف، معرباً في معظم الأحيان عن إعجابه بالتطورات الجارية في الغرب. (كان مخترعاً فذاً للمعدات العسكرية مع إستنباط بعض من أفكاره الخاصة الفعالة). ولكن الأهم من ذلك كله قدرته على قراءة بعض الوثائق الفائقة السرية. ونتيجة لذلك، كان شديد الاطلاع على هذه الأمور.

أصبح تايغر ينتقد إستبداد ماو بحدة. وفي آذار 1971، خطّ أفكاره على الورق مع ثلاثة من أصدقائه:

- يشعر الضباط الأعلى مقاماً بالغضب ولا يجرأون على التكلم جهاراً؛
- يفتقر الفلاحون إلى الطعام والملابس؛
- طُرد الشباب المثقف من الجامعات: إخفاء العمال في السجون؛
- تم خداع الحرس الأحمر وإستغلاله في البداية...مثل علْف المدافع [ثم] إلقاء المسؤولية على الآخرين...
- تم تجميد أجور العمال: إستغلال مقنّع.

شكلتْ هذه الكلمات جزءاً من وثيقة تحت عنوان «موجز عن المشروع 571». إختار تايغر الإسم لأن «571» أو wu-qi-yi تُلفظ بالطريقة نفسها في اللغة الصينية وتعني «الهجوم المسلح»، وكان الأصدقاء يفكرون في شنّ إنقلاب. شكّل الموجز إتهاماً حاداً لماو واصفاً الصين تحت حكمه بأنها «دولة ثرية ذات شعب فقير» وهذا ما أرادوا تغييره إلى «شعب ثري ودولة قوية». تمثل هدفهم في «منح الشعب ما يكفي من الطعام والكساء وتأمين حياة هانئة»، نقيض أهداف ماو.

وصفوا ماو بأنه «المروّج الأكبر للعنف» وهو الذي «يحرّض الناس ضد بعضهم البعض»، «ساديّ ومصاب بجنون الإضطهاد» و«الطاغية الإقطاعي الأكبر في تاريخ الصين». وإتهموه بـ«تحويل النظام الصيني إلى مطحنة لحم تسحق الشعب سحقاً». كانت هذه الملاحظات هامة بالفعل في تلك الحقبة. أطلق تايغر على ماو لقب «B-52» تيمّناً بقاذفة القنابل الأميركية الثقيلة. وقصد بذلك أن ماو، على حدّ وصفه، يمتلك في بطنه الكبير أفكاراً شريرة تشبه كلّ واحدة منها قنبلة ثقيلة يمكن أن تقضي على أعداد كبيرة من عامة الشعب. إختلف موقف تايغر تجاه ماو تماماً عن موقف خصوم ماو من بين الحرس القديم. لقد أدرك حقيقة ماو الذي إعتبره شريراً وغير مناسب ليحكم البلد. وأدرك أيضاً أن لا مجال للحوار أو المساومة معه. من هذه الناحية، كان تايغر أقرب ما أنتجته الصين إلى كلوس فون شتوفنبيرغ Claus Von Stauffenberg، الضابط الألماني الذي حاول إغتيال هتلر عام 1944.

بدأ تايغر ورفاقه يتحدثون عن إغتيال ماو عندما أدرك تايغر أن هذا الأخير يطارد والديه. ناقش الأصدقاء أفكاراً عديدة ولكن بطرق عامة جداً مثل «إستخدام الغاز السام، الأسلحة الجرثومية، القنابل...». ولم تصدر أية إشارة على بلوغهم مرحلة تتعدى الإعداد بهذه الطرق. فقد وضع ماو أكثر القوانين صرامةً على الأسلحة وتحرّكات القوات والأمن الإستثنائي. وكما لاحظت مجموعة تايغر نفسها، فأنّ «إيمان الشعب الأعمى بـB-52 عميق للغاية» (وذلك جزئياً بفضل والد تايغر، الأمر الذي يبعث إلى السخرية). لذا، لم يتجرأوا على الكشف عن مشروعهم أمام معظم أصدقائهم أو أهم أعضاء زمرة لين على رأس القوات العسكرية. فترك تايغر نسخة مع والديه، إلا أن لين لم يدرس المشروع.

في آذار 1971، بعد سبعة أشهر من القطيعة مع لين في لوشان، قرر ماو أن يدعو حوالى أربع مئة شخص من النخبة إلى مؤتمر للإستماع إلى زوجة لين والأعضاء الأساسيين في زمرته، وهم يقومون بإذلال أنفسهم. أرسل ماو تشو إن-لاي شخصياً ليطلب من لين بعبارات حادة غير إعتيادية، بأن يحضر و«يقول بضع كلمات». ولكن لين رفض. كان ذلك إزدراءاً عظيماً لنفوذ ماو، الأمر الذي أثار حنقه. أمر تشو بتوجيه إدانة لاذعة للين في 29 نيسان (رغم عدم ذكر إسمه) مفادها أن قيادة الجيش كانت «تتّبع خطاً سياسياً خاطئاً».

فردّ لين بغضب كبير. بعد يومين، كان عيد العمال عندما إجتمعت القيادة بشكل تقليدي عند بوابة تيان ان مين. كان البروتوكول هاماً جداً في العالم الشيوعي، فأيّ غياب قد يُفسّر أولاً على أنه تعارض. ولكن تلك الليلة، لم يظهر أي أثر للين. حدّق تشو بقلق في المقعد الخالي المواجه لماو وأمير كمبوديا نورودوم سيهانوك، إلى جانب زوجة الأمير، فيما تجرى إتصالات

هاتفية متكررة بمنزل لين. في النهاية، ظهر لين بوجه موهن العزيمة، بعد مرور وقت طويل على عرض الألعاب النارية.

وصف لنا المصور الرسمي دو Du المشهد كالتالي:

عندما رأيتُ لين بياو يجلس، إلتقطتُ له صورة. لم أعتزم نشرها على الأطلاق. أردتُ إنتظار (ماو ولين) أن يبدآ الكلام...لكنهما لم ينظرا حتى إلى بعضهما البعض...ثم وقف لين بياو وغادر. ظننتُه ذهب إلى الحمام ولكن مرّت نصف ساعة ولم يعد. تساءلتُ عن سبب إستغراق نائب الرئيس لين وقتاً طويلاً في الحمام. في الواقع، كان قد غادر. صُعقنا جميعاً. وما إنْ إنتهى العرض، حتى سألني رئيس الوزراء تشو : «هل إلتقطتَ صورة لنائب الرئيس لين؟»...قلتُ: «صورة واحدة». قال: «ماذا عن الفيلم والتلفزيون؟» قلتُ «لا أعرف». فطلب رئيس الوزراء إحضار طاقم العمل وقام بتوبيخه؛ يتذكر هؤلاء الأشخاص ذلك اليوم وكأنه حدث في الأمس.

بقي لين أقل من دقيقة بدون أن يرحب بأحد، ولا حتى بماو أو أفراد عائلة سيهانوك.

علمَ لين أن ماو لن يغفر له ما حدث. بعدئذٍ، ذهب تايغر إلى كانتون للتحقق من طريق الهروب إلى هونغ كونغ. توجه مباشرةً إلى لوو Lowu، نقطة العبور الأساسية إلى هونغ كونغ وإقترب كثيراً من الحدود لدرجة أن رفاقه خشيوا أن تطلق شرطة هونغ كونغ النار عليهم.

وسرعان ما قام لين بتحدي ماو مجدداً في حزيران، عندما قدِمَ الثنائي الطاغية الروماني نيقولاي تشاوشسكو إلى البلدة. رفض لين الحضور إلى إجتماع معهما، مدّعياً أنه «مرهق»، فجثت السيدة لين على ركبتيها راجيةً إياه أن يذهب. أخيراً ظهر لين ولكنه غادر الغرفة بعد أن أبدى ماو بضع ملاحظات ساخرة، فجلس خارجاً في وضعية مترهلة، مُرخياً رأسه. بُعيد ذلك، قام تايغر بعملية إستطلاع أخرى على الحدود مع هونغ كونغ بواسطة المروحية.

مع حلول منتصف آب، أي بعد سنة من حادثة لوشان، بات ماو مستعداً لإبعاد لين. في الرابع عشر من ذلك الشهر، غادر بكين لإعداد قادة المقاطعات. كان عليه التأكد من أن هؤلاء الرجال، الذين عيّن لين معظمهم، لن يؤيّدوا هذا الأخير عند حسم النزاع. خلال جولته، أبدى ماو ملاحظات متكررة عن لين مثل: «يودّ أن يقسم الحزب ويتوق إلى تسلّم مقاليد السلطة». ورغم أن ماو طلب من المستمعين اليه عدم نقْل ما قاله إلى لين، إلا أن بعضاً من أتباع لين عصوا الأوامر. وصلت كلمات ماو إلى مسامع عائلة لين في منتجع بايدايهي Beidaihe الساحلي، شرق بكين في السادس من أيلول. تقع فيلا لين على هضبة بكاملها، مسوّرة جيداً من جهة البحر بنباتات خصبة، لكون لين لا يحتمل رؤية البحر مع أنه يحب هواءه. على طول كيلومترات عديدة لم يتواجد أي شخص بإستثناء الحراس والأتباع.

قرر لين وزوجته وتايغر الفرار إلى خارج البلد على الفور. وخططوا الإنطلاق من المطار المجاور في شانغهايغوان Shanghaiguan حيث يتلاقى الجدار العظيم والبحر. سافر تايغر إلى بكين في الثامن من الشهر لتأمين الطائرات من أجل عملية الفرار. وأحضر معه ملاحظة مكتوبة بخط يد والده مفادها: «يُرجى إتّباع الأوامر الصادرة عن الرفيقين لي-غيو Li-guo (تايغر) و يو-تشي Yu-chi (أعز صديق لتايغر). توقيع لين بياو في الثامن من أيلول». وافق المسؤول عن تجهيز الطائرات في مطار بكين العسكري على تجنّب الطرقات العادية لتزويد تايغر بالطائرات.

إلا أن تايغر لم يشأ الفرار بدون أن يحاول إغتيال ماو أولاً. في تلك الأثناء، كان هذا الأخير في منطقة شانغهاي حيث يحتل الضباط المناصرين للين المناصب الرئيسية، ويتحملون مسؤولية أمن ماو بشكل جزئي في الحلقة الخارجية. يبدو أنه في الساعة الحادية عشرة، وافق لين بياو على أن يقوم تايغر بالمحاولة. وكذلك فعلت السيدة لين. عندما قبّل تايغر خطيبته قبلة الوداع في بايدايهي Beidaihe، قال: «في حال حدوث أي مكروه لي، أنكري كل شيء؛ لن أورطك».

في بكين، طلب تايغر من مساعد قائد أركان السلاح الجوي وانغ فاي Wang Fei إعداد هجوم على المجمّع حيث تقيم السيدة ماو وزمرتها أي الفيلا الإمبراطورية؛ كما أخبره تايغر بأن هجوماً متزامناً سيُشن «في الجنوب» حيث يتواجد ماو. كان وانغ فاي صديقاً جيداً ولكن جوابه كان مخيباً للآمال. لم يظن أنه يستطيع إقناع القوات بتنفيذ مطالب تايغر. في جميع الأحوال، لم يُسمح لقواته بحمْل الأسلحة إلى بكين.

بعد ذلك، إلتقى تايغر بضابط رفيع المستوى في السلاح الجوي يدعى جيانغ تينغ-جياو Jiang Teng-jiao. كان الجنرال الأصغر سناً في الصين وكان يكره ماو لأسباب عديدة. فطلب منه تايغر أن يحاول قتْل ماو خلال وجوده بالقرب من شانغهاي. وافق جيانغ، وعرض كلاهما أفكاراً عديدة منها قصف قطار ماو بقاذفات اللهب وقذائف البازوكا، أو ضرْبه بالقنابل. وتمثلت الفكرة الثالثة في جعْل القائد العسكري في شانغهاي، والذي تثق به عائلة لين، يُطلق النار على ماو وهو على متن قطاره. أما الفكرة الرابعة فهي قصْف قطار ماو من الجو. إلا أن الرجل الذي طلبوا منه إسقاط القنابل، وهو مقاتل ممتاز خلال الحرب الكورية، أجاب بعدم توفر طائرة لقذف القنابل. فإرتعب وطلب من زوجته الطبيبة أن تفرك عينيه بالماء المالح والأوريومايسين، العقار المضاد للجراثيم كي تنتفخان وبالتالي يتم إدخاله إلى المستشفى للمعالجة. كما وأثبتت الأفكار الأخرى أنها غير قابلة للتطبيق لأنه من المستحيل إقتراب الأسلحة النارية الفتاكة من قطار ماو الخاضع للحراسة المشددة والمصفّح جيداً.

خلال اليومين التاليين، إستمرت المناقشات الحادة. كان تايغر يصيح ملوحاً بقبضتيه: «لا

يمكنني إحتماله أكثر من ذلك!» وتابع قائلاً: «حسناً، تموت الأسماك ولكنها تخرق الشباك!»، إشارةً إلى أنه مستعد لتنفيذ هجوم إنتحاري إنْ كان ذلك يطيح بنظام ماو.

وإذ فرغ تايغر من الأفكار بسرعة، أرسل صديقاً إلى بايدايهي Beidaihe في العاشر من الشهر ليطلب من لين أن يكتب رسالة إلى رئيس أركان الجيش هوانغ يونغ-شينغ Huang Yong-sheng يدعوه فيها للتعاون مع تايغر. إلا أن المتآمرين لم يستطيعوا الوثوق بأن هوانغ لن يخونهم.

ولكن هذه المرة أيضاً فات الأوان. في اليوم التالي، وصلت أنباء تفيد بأن ماو غادر شانغهاي في القطار. عرض العديد من أصدقاء تايغر تنفيذ هجوم إنتحاري بالمروحيات لإغتيال ماو على بوابة تيان ان مين في يوم العيد الوطني في الأول من تشرين الأول. عارض تايغر الفكرة بعينين دامعتين. لم يستعجل حصول هجوم بهذه الضخامة.

ألغيت كل خطط الإغتيال، وقرر تايغر العودة إلى خطة الفرار إلى كانتون ثم الى هونغ كونغ. عشية الثاني عشر من أيلول، عاد إلى بايدايهي على متن طائرة لين تريدنت Trident بنيّة المغادرة مع عائلته صباح اليوم التالي.

عاد ماو إلى بكين في وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم، غير مدرك تماماً بالمؤامرة التي تحاك لإغتياله. توقف قطاره خارج العاصمة في محطة تدعى فانتاي Fengtai حيث قدم له قادته المعينين حديثاً في بكين، لمحة موجزة عن الأحداث التي جرت في العاصمة. إفتُتح الإجتماع بتقرير حول زيارة وفد للجيش إلى ألبانيا. كانت العودة إلى زونغنانهاي، كنهاية أية رحلة أخرى. عاد ضباط أمن ماو ورئيس حراسه الذين يقيمون خارج المجمع إلى منازلهم. تناول بعضهم حبوباً منومة؛ ماو بدوره خلد إلى النوم.

في الوقت الذي أوى فيه ماو ورجاله إلى الفراش، كانت عائلة لين تستعد للفرار. وصل تايغر الى بايدايهي عند الساعة التاسعة مساءاً وألقى نظرة على الخطط مع والديه. تبلغ الأتباع بأن أفراد عائلة لين سيغادرون في السادسة صباحاً إلى داليان وهي مدينة ساحلية مجاورة، كانت ملاذاً قديماً لعائلة لين. لذا، لم يُثر هذا الأمر أية شكوك. ثم، طلب تايغر عبثاً من شقيقته دودو أن تستعد للمغادرة في الصباح.

كانت دودو التي تكبر تايغر بسنتين، ضحية من ضحايا غسْل الدماغ. لم يشأ والداها إطلاعها على خطط الفرار خشية أن تبلّغ عنهم. لكن تايغر خشي أن يصيبها مكروه بعد هروبهم، وكشف لها عن جزء من الخطط قبل بضعة أيام. شعرت بخوف كبير، كما توقع والداها. كانت دودو، على عكس شقيقها، باكورة الخوف والمنطق المنحرف الذي يطغى على

نظام ماو. بالنسبة إليها، تعتبَر محاولة الفرار إلى الخارج إرتداداً، وبالتالي خيانة، رغم إدراكها أن والدها العليل الذي أَحَبته كثيراً لن يحتمل السجن مدة طويلة في ظل حكم ماو. عندما أخبرها تايغر عن مغادرتهم في الصباح التالي، أبلغت الحرس البريتوري المتمركز في مبنى منفصل عند أسفل الطريق. وبهذا التصرف، حكمت على عائلتها بالهلاك.

إتصل الحرس بتشو إن-لاي، فراح هذا الأخير يتحقق من حركة الطائرات وخاصة طائرة لين التريدنت. قام أصدقاء تايغر بإعلامه على الفور بأن تشو يطرح أسئلة، فقرر لين بياو المغادرة فوراً بدلاً من الإنتظار حتى الصباح. كذلك، لم يقرر الذهاب إلى كانتون بل إلى روسيا عن طريق منغوليا الخارجية مما يعني إمضاء وقت أقل في الأجواء الصينية أي ساعة واحدة.

إتصل تايغر برفاقه لإعلامهم بتغيير الطريق، واتصل بربان التريدنت لتجهيز الطائرة. أخبر تايغر أخته دودو عن إقلاعهم حالاً غير مدرك بأن خيانة شقيقته أطلقت تحقيق تشو، ثم عادت مباشرة إلى الحرس البريتوري وبقيت في المركز.

قرابة الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق ليلاً، إنطلق لين بياو، وزوجته وتايغر بالإضافة إلى صديق تايغر مسرعين إلى المطار برفقة رئيس خدم لين. حاول الحرس البريتوري إيقاف السيارة فيما كانت تنطلق بسرعة. عند هذا الحد، ظن رئيس الخدم بأنهم سيلوذون بالفرار. وإذ فكّر بمصير عائلته إذا أصبح مرتداً، صاح: «أوقف السيارة!» وقفز إلى خارجها. تلا ذلك إطلاق عيارات نارية، أصاب أحدها ذراعه. تايغر هو مَن أطلق النار على حد قول رئيس الخدم؛ ولكن البعض قال إنه فعل ذلك لحماية نفسه.

إنطلق الحرس البريتوري في مطاردة حامية بآليات عديدة. بعد حوالى نصف الساعة، توقفت السيارة بعائلة لين بقرب طائرة لين التريدنت في مطار شانغهايغوان Shanhaiguan وكانت سيارة جيب تلاحقهم على بُعد 200 متر فقط. ترجلت السيدة لين صائحةً بأن لين في خطر وصارخةً: «إننا ذاهبون!» كان تايغر يحمل مسدساً في يده. صعدت المجموعة بسرعة السلّم الصغير إلى قمرة القبطان.

أقلعت الطائرة التريدنت بسرعة عند الساعة الثانية عشرة وإثنتي وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل، وعلى متنها أفراد لين الثلاثة وصديق تايغر وسائق لين. ومن بين الطاقم المؤلف من تسعة أشخاص، تمكّن أربعة فقط وهم القبطان وثلاثة ميكانيكيين من الصعود على متن الطائرة. كان الميكانيكيون قد جهّزوا الطائرة للإقلاع وبدأوا بإعادة ملئها بالوقود عندما وصلت عائلة لين وصاحت السيدة لين لإبعاد ناقلة البترول. نتيجة لذلك، كانت الطائرة تحمل 12.5 طناً من البترول على متنها ما يكفي لتحليقها لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات في الجو بحسب الإرتفاع والسرعة.

إضطروا للتحليق على إرتفاع منخفض في معظم الأحيان لتفادي الرادار مما إستنفد المزيد من الوقود. بعد ساعتين، تبقّى ما يقارب الطنين ونصف الطن من البترول، فوق الأراضي المنغولية الخضراء- أي أن معيار البترول كان يومض لبعض الوقت. في الساعة الثانية والنصف ليلاً من الثالث عشر منْ أيلول 1971، حطّت الطائرة متحطمةً في حوض منبسط وإنفجرت بفعل الإصطدام مودية بحياة الأشخاص التسعة جميعاً.

قام تشو بإيقاظ ماو المخدّر بفعل الحبوب المنومة بُعيد إقلاع طائرة لين. لازم ماو غرفة نومه التي كانت إحدى غرف تغيير الملابس السابقة لحوض السباحة في زونغنانهاي. وكان الهاتف الأقرب موضوعاً في غرفة على الجانب الآخر من البركة التي يبلغ طولها 50 متراً. عندما إتصل الأشخاص الذين يراقبون طائرة لين، كان رئيس الحرس وانغ دونغ-كزينغ Wang Dong-xing (الذي سامحه ماو لدعمه لين في لوشان قبل سنة) يُسرع إلى الهاتف ثم يعود إلى ماو ثم إلى الهاتف مجدداً. لم تتجاوز الطائرة حدود منغوليا حتى الساعة الثانية إلا عشر دقائق ليلاً. لذا، كان أمام ماو قرابة الساعة للتصرف.

يبدو أن ماو جوبه بخيار واحد فقط إنْ أراد القيام بهجوم، وهو الإعتراض بواسطة الطائرات الحربية. من الواضح أن الصين لم تمتلك صواريخ أرض-جو صالحة للإستعمال. رفض ماو فكرة الإعتراض(*). ويكمن السبب غير المُعلن في عدم ثقته بالسلاح الجوي الذي يعج برجال لين. بدلاً من ذلك، طلب ماو جعْل كل طائرة في الصين تحطّ على الأرض فيما إنتشر الجيش في المطارات كلها، وأقفلت المدرجات لمنع الطائرات من الإقلاع. كانت الطائرات الوحيدة المحلقة في الجو هي الطائرات الحربية الثمانية التي يتم مراقبتها عن كثب والتي تم إرسالها لاحقاً لإرغام مروحية تحمل على متنها ثلاثة من أصدقاء تايغر، على الهبوط. عندما أعيد الرجال الثلاثة إلى ضواحي بكين، إتفقوا على قتْل أنفسهم معاً. إثنان فعلا ذلك. أما الثالث الذي قال إنّ رصاصته الأخيرة «محفوظة لـ B-52» أي ماو، فضَعف في اللحظة الأخيرة وأطلق النار في الهواء.

نُقل ماو إلى الجناح 118 في القاعة الكبرى حيث يوجد مصعد يؤدي إلى حصن مضاد للأسلحة النووية، ونفق يفضي إلى الهضاب الغربية. قيل للخدم أن يستعدوا للحرب ووُضع حرسه في حالة تأهب قصوى وراحوا يحفرون الخنادق حول محلات إقامة ماو. قال رئيس حرس ماو إنه لم يرَ ماو قط متوتراً ومرهقاً وغاضباً إلى هذا الحدّ طيلة سبع وعشرين سنة.

بقي ماو عاجزاً عن النوم ومرهقاً حتى فترة بعد الظهر 14 أيلول عندما بلغه خبر تحطّم

(*) تظهر الرسالة التي وجهها تشو الى ماو في ليل 13 أيلول أن الطائرة لم تسقط من قبل الصينيين.

طائرة لين في منغوليا. كانت هذه الحادثة مثالية من وجهة نظره، فتجرّع القليل من مشروب ماو-تاي الحاد المذاق والذي لا يتناوله عادة في الاحتفالات+.

إلا أن إدراك ماو للمؤامرة التي حيكت لإغتياله والتي إنكشفت بعد سماعه بتحطّم طائرة لين، طغى على شعوره بالإرتياح لموت لين. كانت هذه المؤامرة الأولى لإغتيال ماو من قبل كبار رتبائه، وجاءت بمثابة صدمة كبرى. والأمر المفاجىء الآخر هو واقع أن العديد من الأشخاص كانوا على علم بهذه المخططات، ولم يقم أحد منهم بالإبلاغ عنها. لم يتمكّن ماو من النوم طيلة أيام رغم تناوله الكثير من الحبوب المنومة. أصيب بالحمى وأخذ يسعل بلا إنقطاع. كما أن مشاكل في التنفس حالت دون تمكّنه من الإستلقاء، فجلس على أريكة ليلاً نهاراً لثلاثة أسابيع، مما أدى إلى إصابته بقرحة الفراش. ثم، تبيَّن إصابته بإضطراب في القلب. في الثامن من تشرين الأول، لم ينطق سوى بكلمات معدودة عندما إلتقى بالإمبراطور الأثيوبي هايلي سيلاسي. كما أن مسؤولاً حاضراً شاهد ماو للمرة الأخيرة قبل يوم من فرار لين أي قبل أقل من شهر، لم يصدق مدى الإرهاق الذي بان على وجه ماو. فأنهى تشو الإجتماع مبكراً.

كان على ماو أن يناضل للتعامل مع تفاصيل كثيرة ليضيّق الخناق على جهاز أمنه أكثر فأكثر. إضطر كل شخص قريب منه أن يبلّغ بالتفصيل عن تعامله مع عائلة لين. أفصح مساعد قائد الحرس البريتوري زانغ ياو-سي Zhang Yao-ci عن تلقّيه طلقات خيزران بالإضافة إلى «طائرين مائتين» من السيدة لين بمناسبة عيد رأس السنة وعن تقديم بعض ثمار المندرين إليها. إنّ تحذير ماو يكشف الكثير عن العالم الغادر المحيط بالرئيس:

1. عدم التشجيع على إقامة العلاقات.
2. عدم زيارة الناس.
3. عدم تقديم الدعوات إلى العشاء أو الهدايا.
4. عدم دعوة الناس إلى حفلات الأوبرا (أي عروض أزياء السيدة ماو) أو مشاهدة الأفلام.
5. عدم إلتقاط الصور مع الناس.

+ ارسل الروس احد كبار محققيهم في الكي. جي. بي الجنرال الكسندر زاغفوزدين الى منغوليا للتأكد من انها طائرة لين وانه كان على متنها. نقب زاغفودين في الجثث، لكنه اخبرنا ان تقريره لم يرض رؤوسائه. عاد ثانية ونبش الجثث من التربة الرطبة. وتم تسخين جثة لين وزوجته في جرة كبيرة واخذت هياكلهم العظمية الى موسكو وتم التحقق منها مقارنة مع ملف لين الطبي القديم ومنها صور شعاعية اجراها في زياراته الاخيرة. وبالنهاية اعتبرا، الموسوس يوري اندروبوف وبريجنيف انه بالفعل لين.

تمثلت المهمة الأبرز في تصنيف القوات المسلحة التي يتغلغل فيها رجال لين وخاصة في المناصب العليا. كان من المستحيل أن يعرف ماو الأيدي المتورطة في مؤامرة إغتياله أو مَكمن المتآمرين. تم الإبلاغ عن حادثة صغيرة ولكن مثيرة للإنتباه بعد عدة أيام، عندما كان الضباط في السلاح الجوي مجتمعين ليتلقوا تعليمات عن عائلة لين. فأسرع أحد الرجال إلى أعلى المبنى، أطلق شعارات معادية لماو ثم قفز ولاقى حتفه.

كان ياه جيان-يينغ Yeh Jian-ying المارشال الوحيد الذي يستطيع ماو الوثوق به لإستلام قيادة الجيش. فقد كان من أتباعه المخلصين في الماضي، ولكنه عبّر عن رأيه بمعارضة الثورة الثقافية. نتيجة لذلك، وُسم بالعار ووُضع في الإقامة الجبرية. وفي الوقت الذي منحه ماو مركزاً هاماً، كان العديد من أولاده وغيرهم من الأقارب لا يزالون في السجن.

لكن ماو لم يثق بأحد آخر. فكان مرغماً على إعادة المسؤولين في الحزب الذين تم تطهيرهم، إلى مراكزهم لأنهم كانوا البدلاء الوحيدون للأشخاص الذين عيّنهم لين. وكان غالبية هؤلاء في المعسكرات؛ فأعيد تأهيل العديد منهم وتوظيفهم. مقتَ ماو إضطراره للسماح بحصول ذلك وحاول أن يحدّ من نسبة حالات إعادة التأهيل. وكان يعلم أن هؤلاء المسؤولين يشعرون بالكره تجاهه، بعد محاكمات التعذيب المروعة التي خضعوا لها. تحدّث مساعد سابق لقائد الحرس البريتوري بإسم كثيرين عندما أخبرنا عن شعوره ثم قال: «أيّ رئيس ماو، أيّ حزب؟ ما عدتُ أكترث لأيّ منهما...».

في تلك الفترة، توفي المارشال تشين يي - أحد أهم معارضي عملية التطهير الكبير وأكثر المتضررين منها - بداء السرطان في السادس من كانون الثاني 1972. وتم تحديد موعد الجنازة في العاشر من الشهر، من دون الاعلان عن الأمر، مع وضع بعض القيود حول حجم الصورة التي ستُعلّق وعدد أكاليل الزهر وعدد الأشخاص الذين سيحضرون وعدد المواقد المسموح بها لتدفئة القاعة الكبرى: إثنان فقط. لم يرغب ماو في حضور الجنازة.

ولكن بعد أيام من وفاة تشين يي، وعلى الرغم من عدم إعلان خبر وفاته، انكشف الأمر واجتمع عدد كبير من الكوادر القديمة خارج المستشفى مطالبين بالسماح لهم بإلقاء النظرة الأخير على جثمانه. طغت مشاعر الغضب والحزن الشديدين على الجموع الغفيرة. ولا شك في أن الغضب كان موجهاً ضد الثورة الثقافية وضد ماو شخصياً. وشعر هذا الأخير بأنه يرزح تحت ضغط كبير لإسترضاء رجال السلطة السابقين الذين عاملهم معاملة سيئة، ويعلم أنه مضطر الى الاعتماد عليهم الآن من جديد.

في يوم الجنازة، وقُبيل حلول موعد بدئها، أعرب ماو فجأة عن رغبته في الحضور. لاحظ

رجاله أن «وجهه كان مكفهراً» وبدا «غاضباً ومحبطاً» ولازم الصمت طيلة الوقت. لكنه أدرك أنه من الحكمة الذهاب وإستغلال المناسبة لإيصال الرسالة إلى الكوادر القديمة بأنه «يهتم لأمرنا». كما ألقى المسؤولية على الآخرين قائلاً لعائلة تشين يي إنّ لين بياو «حاك مؤامرة... للتخلص منا جميعاً نحن المتمرسين القدامى». قيل إن عملية الإضطهاد التي نُفذت إبّان الثورة الثقافية كانت خطأ لين بياو، وإنّ ماو قد عاد إلى رشده. بعدئذٍ، تم نشر صورة لماو في الجنازة حيث بدا حزيناً كما تقتضي المناسبة (مع أن لحيته التي لم تُحلق بدت مرسومة بالمرذاذ الهوائي) متأبطاً ذراع أرملة تشين يي المفجوعة وكان لذلك وقعاً كبيراً للتخفيف من حدة البُغض في صفوف «مؤيدي الرأسمالية».

كان البرد قارصاً يوم جنازة تشين يي لكن ماو كان في مزاج سيىء لدرجة أنه رفض إرتداء معطف سميك. حاول طاقمه إقناعه بإرتداء ملابس سميكة ولكنه أبعد الثياب عنه في كل مرة. في النهاية، ارتدى معطفاً خفيفاً فوق ملابسه. هذا ما ارتداه طيلة الجنازة في قاعة سيئة التدفئة. نتيجة لذلك، أصيب بالمرض. كان في الثامنة والسبعين من العمر وقد إشتد المرض عليه. في الثاني عشر من شباط، فقدَ الوعي وبقي طريح الفراش على حافة الموت.

إنّ الحساسية السياسية أرغمت ماو على تسريع عجلة إعادة تأهيل الكوادر، وأصبح النظام أكثر إعتدالاً للمرة الأولى منذ بداية الثورة الثقافية منذ حوالى ست سنوات. وإنخفضت نسبة ممارسات العنف في السجون بشكل كبير، وتم التخلص من إجتماعات الإدانة العنيفة، حتى بالنسبة إلى رجال لين الذين، رغم إحتجازهم(*)، عانوا جسدياً بشكل طفيف مقارنةً مع الممارسات الروتينية السابقة في عهد ماو. ومن المدهش أن أحداً لم يُعدم بها أن الأمر يتعلق بمحاولة إغتيال ماو.

بعد سنوات من المعاناة اليومية وغياب أي شيء بنّاء في مجال الترفيه، إزدادت حدة التوتر في المجتمع لدرجة لا تحتمل. أخبرنا محلل نفسي إيطالي كان في الصين قُبيل هذه الفترة، أنه لم يرَ قط مثل التوتر والتقلصات اللاإرادية التي رآها في وجوه الناس. الآن، ساد بعض التهاون. فسُمح بنشر بعض الكتب والمقطوعات الموسيقية القديمة بالإضافة إلى بعض النشاطات الترفيهية. كما أعيد فتح بعض الحدائق العامة. وعلى الرغم من القيود التي بقيت تحيط بعملية التراخي هذه، إلا أن فسحة الأمل بانت مع حلول ربيع العام 1972.

(*) من بين المحتجزين هؤلاء ابنة لين بياو دودو.

53- فشل الماويّة على الساحة العالمية
(1966-1970، العمر: 72-76 سنة)

تمثل طموح ماو الأقصى بالهيمنة على العالم. في تشرين الثاني 1968، أخبر الزعيم الأسترالي الماوي هيل بما يلي:

برأيي، يجب أن يتوحد العالم...في الماضي، أراد كثيرون بمن فيهم المغول، الرومان... الإسكندر الكبير، نابوليون والإمبراطورية البريطانية أن يوحدوا العالم. واليوم، تريد الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي توحيد العالم...هتلر أراد أن يوحد العالم...لكنهم فشلوا جميعاً. ويبدو لي أن إمكانية توحيد العالم لم تختفِ...من وجهة نظري، يمكن توحيد العالم.

من الواضح أن ماو شعر أنه الرجل المناسب للمهمة بما أنه ألغى أميركا وروسيا من المعادلة، مستعيناً بحجج تستند فقط إلى شعب الصين الضخم. وتابع قائلاً: «إلا أن هاتين الدولتين، أميركا وروسيا، لا تملكان كثافة سكانية، ولن تتمتعان بما يكفي من القوة الشعبية إذا ما تشتتت هذه الأخيرة. كما أنهما تخشيان من شن حرب نووية. لا تخشيان القضاء على شعوب البلدان الأخرى ولكن تخشيان أن يُقضى على شعبيْهما». لم يكن من الضروري القراءة بين السطور لمعرفة أن الحاكم الذي يتمتع بأكبر شعبية – والأقل خشية من زوال هذه الشعبية – كان ماو نفسه. فقد يرى دور الصين كما يلي: «خلال خمس سنوات أخرى، سيكون بلدنا... في موقع أفضل...بعد خمس سنوات...».

وبسبب طموحه إلى الهيمنة، باشر ماو العمل على برنامج القوة العظمى عام 1953 مصراً على التقدّم بأقصى سرعة، والمخاطرة في المجال النووي. وأكثر هذه المجازفات إرعاباً حدثت في السابع والعشرين من تشرين الأول 1966 عندما أُطلق صاروخ مزود برأس حربي ذرّي على بُعد 800 كلم شمالي غربي الصين فوق بلدات كبيرة. إنه الإختبار الوحيد الذي أجرته أمة على الأرض، عبر إستخدام صاروخ معروف بعدم دقته مع المجازفة بأرواح هؤلاء الذين يتواجدون على مساره. قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدد، طلب ماو من الرجل المسؤول المباشرة في العملية قائلاً إنه مستعد لفشل الإختبار.

شعر معظم الأشخاص المشاركين في الإختبار بإمكانية وقوع كارثة. توقع الأشخاص

في غرفة التحكّم بالإطلاق أن يموتوا. وكان قائد منطقة الهدف متوتراً جداً لدرجة أنه نقل مقره الرئيسي إلى أعلى الجبل مطمئناً نفسه ورفاقه بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم من الانفجار الذري عبر نزول الجبل من الجهة الأخرى في حال انحراف الصاروخ عن مساره.

نجح الإختبار الذي نُسبت نتيجته إلى «فكر» ماو، فجاء في الشعار «القنبلة الذرية الروحية تفجر القنبلة الذرية المادية». في الواقع، كان النجاح مجرد حظ. فقد فشلت إختبارات لاحقة للصاروخ نفسه عندما راح الصاروخ يتذبذب بحركة لولبية قصوى بُعيد إطلاقه(*).

عانى البرنامج الصاروخي بأكمله مشاكل لا تُذلل. فلام النظام الأعمال التخريبية، وإضطهد العلماء بشكل رهيب بما في ذلك تنفيذ أحكام زائفة بالإعدام لإستخراج «الإعترافات». مات العديدون ميتة عنيفة. وفي هذا المناخ السائد، ليس مفاجئاً عدم إمتلاك ماو لصاروخ عابر للقارات خلال حياته. فقد أطلق الصاروخ الصيني الأول العابر للقارات عام 1980 بعد سنوات من وفاته.

ولكن في تشرين الأول 1966، وبفضل الصاروخ الوحيد المزود بسلاح نووي والذي أصاب الهدف، افترض ماو أنه سيكون قادراً على إطلاق القنبلة أينما يشاء. في الحادي عشر من كانون الأول، إتّخذ قراراً بضرورة حيازة الصين ترسانة كاملة للأسلحة الصاروخية تضم صواريخ عابرة للقارات في غضون أربع سنوات.

تعزّز تفاؤل ماو عند تفجير القنبلة الهيدروجينية الأولى في الصين في السابع عشر من حزيران 1967. قال ماو لصانعيها في السابع من تموز: «صُنعت أسلحتنا الجديدة وصواريخنا وقنابلنا الذرية بسرعة فائقة. صنعنا قنبلتنا الهيدروجينية في سنتين وثمانية أشهر فقط (منذ صناعة القنبلة الذرية الأولى). سرعتنا تقدّمت على أميركا، بريطانيا، فرنسا والإتحاد السوفياتي. إننا نحتل المرتبة الرابعة في العالم». في الواقع، يعود معظم ذلك إلى المساعدة التي أمّنتها روسيا سابقاً (والتي إنتهت تماماً عام 1965). وبدون مساعدة السوفيات، لكان مستحيلاً تصنيع القنبلة الذرية أو الهيدروجينية في فترة قصيرة. ولكن ما كان ماو ليركّز على هذه الناحية.

شدد أكثر على ما يمكن أن يفعله بالتكنولوجيا. قال لصانعي القنبلة مستخدماً صيغة الجمع العظيمة: «لسنا المركز السياسي فحسب للثورة العالمية، يجب أن نصبح مركز الثورة العالمية عسكرياً وتكنولوجياً. يجب أن نمنحهم أسلحة، أسلحة صينية مدموغة برموزنا...

(*) تزامن نجاح تشرين الاول 1966 مع وجود أحد كبار خبراء قنابل هتلر، في الصين، وهو وولفغانغ بيلز، الذي أرسله الى بكين ديبلوماسي هندي في ذلك الشهر، الى جانب 3 زملاء ألمانيين. كان بيلز قبل ذلك يشرف على برنامج صواريخ مصري وأبعد عنه من خلال عروضات بقيم كبيرة من المال ومزيد من الظروف التقنية المغرية. عندما حاولت الصين جذب علماء ألمانيين آخرين عرضت عليهم الولايات المتحدة مزيداً من المال لجذبهم نحو أميركا.

يجب أن ندعمهم علناً. يجب أن نصبح ترسانة الثورة العالمية».

قام ماو بالترويج لعبادته لذاته عالمياً على نطاق واسع ما بين أكتوبر 1966 وصيف 1967 مع التطور الملحوظ الذي يشهده البرنامج. في العام السابق أي 1965، كان قد عانى بعض النكسات الكبرى. والآن، أصبح «فكر ماو تسي-تونغ الترويجي» «المهمة الرئيسية» للسياسة الخارجية. أعلنت بكين أن «العالم دخل عصر ماو الجديد»، وفعلت ما بوسعها للتأكد من إدخال الكتاب الأحمر الصغير إلى أكثر من 100 دولة.

من المفترض أن ذلك شكّل «حدثاً سعيداً لشعوب العالم» التي «تحب كتب الرئيس ماو أكثر من أي كتب أخرى»، بحيث يُعدّ الكتاب الأحمر الصغير بالنسبة إليهم بمثابة «المطر الذي يروي المحاصيل العطشى والمنارة التي ترشد السفن المُبحرة في ضباب كثيف». شرعت كل الماكينة الديبلوماسية والسرية في الصين في محاولة الحثّ على التملّق لماو في الدول الخارجية.

ولم تختلف بورما عن البلدان التي كان لبكين موطىء قدم فيها. فقد عمدت حملة دعائية على ممارسة ضغط على الأقلية الإثنية الصينية لتلوّح بالكتاب الأحمر الصغير وتضع شارات ماو وتغني الأناشيد التي تضم كلمات مقتبسة عن ماو وتُلقي التحية على رسْم ماو. وبما أن هذه الممارسات تشكّل تحدياً لسلطتها، قامت حكومة بورما بمنعها في منتصف العام 1967. حثّت بكين الصينيين الإثنيين على تحدّي الحظر ومواجهة الحكومة. كانت النتيجة حماماً من الدم وإزهاق الكثير من الأرواح مع إنزال أشد العقوبات بالصينيين الإثنيين.

ثم أطلق ماو الحزب الشيوعي البورمي الذي اعتمد بقاؤه على الصين خلال موجة جديدة من التمرّد. في السابع من تموز 1967، بُعيد نجاح إختبار القنبلة الهيدروجينية، أعطى تعليمات سرية قائلاً: «من الأفضل أن تكون حكومة بورما ضدنا. أرجو أن يقطعوا العلاقات الديبلوماسية معنا لندعم علناً الحزب الشيوعي البورمي.» دعا تشو ضباط الحزب الشيوعي البورمي إلى قاعة الشعب الكبرى، كونهم يتدربون في الصين، لإعلامهم بأنهم سيُرسلون إلى ديارهم لشنّ حرب. فتوجهوا إلى بورما برفقة زوجاتهم الصينيات اللواتي تم إختيارهنّ بطريقة غير رسمية. كان كلّ رجل بورمي يخرج إلى الشارع مع ضابط صيني ويختار إمرأة تلفت إنتباهه. وفي حال تخطت المرأة وعائلتها التحقيق الأمني، عندئذٍ تعمل السلطات على تزويجها من الرجل البورمي. تزوجت بعض النساء طوعاً فيما أرغم البعض الآخر على ذلك.

كان العصيان معدّاً حول الترويج لماو. عند تحقيق أي إنتصار، كان الإحتفال يتم مع فريق مروّج لفكر ماو عبر الرقص والتلويح بالكتاب الأحمر الصغير وإنشاد «ليحيا القائد العظيم، قائد شعوب العالم، الرئيس ماو!».

ولنشْر الفلسفة الماوية في أنحاء العالم، نُصبت معسكرات تدريب سرية في الصين. يقع

أحدها في الهضاب الغربية خارج بكين حيث تم إرشاد العديد من شبان دول العالم الثالث بالإضافة إلى بعض الشبان الغربيين لإستخدام الأسلحة والمتفجرات. كان الفكر الماويّ الذي لا يمكن تجنبه أو تغييره مصدر الحياة في المعسكر.

إلا أن القائد العظيم للثورة العالمية واجه واقعاً مزعجاً عند عتبة بابه. بقي جزءان من الأراضي الصينية تحت الحكم الإستعماري: ماكاو تحت الحكم البرتغالي، وهونغ كونغ تحت الحكم البريطاني. وكان من السهل إستردادهما كونهما تعتمدان على الصين من أجل الماء والطعام. سخر خروتشيف من ماو قائلاً إنه يقيم الى جانب «قذارة المستعمرين». بعد أن إتهمه ماو بالإنسحاب خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، قارن خروتشيف تراخي ماو في ما يتعلق بالمستعمرتين، بإستيلاء نهرو حديثا على مستعمرات البرتغال في الهند: «الرائحة المنبعثة من (هونغ كونغ وماكاو) هي بلا شك أحلى من تلك المنبعثة من الإستعمار في غوا Goa».

شعر ماو بضرورة شرح موقفه إلى هؤلاء الذين كان يطالب بمحاربتهم. لذا، قرر إخبار رئيس الوزراء الصومالي، بطريقة دفاعية، بأن هونغ كونغ «تمثل قضية خاصة ولسنا بصدد محاربتها. قد لا تفهم ذلك».

إختار ماو عدم إستعادة هونغ كونغ وماكاو لأسباب براغماتية محض. فقد كانت هونغ كونغ المصدر الأكبر للعملة الصعبة في الصين وقناة حيوية لإكتساب التكنولوجيا والمعدات من الغرب، وكانت ترزح تحت حظر أميركي صارم. علمَ ماو أن هونغ كونغ لن تفيد برنامج قوته العظمى إذا خضعت لحكم بكين.

ولعقد صفقات مربحة في هونغ كونغ، كان على بكين أن تعطّل شبكة الإستخبارات التايوانية التي كانت تساعد الولايات المتحدة على تحديد هوية الشركات الغربية الخارقة للحظر. كانت الطرق التي تعتمدها بكين متطرفة في بعض الأحيان. في نيسان 1955، كان من المفترض أن يذهب تشو إن-لاي إلى إندونيسيا لحضور المؤتمر الإفريقي-الآسيوي الأول في باندونغ فإستأجرت بكين طائرة تعمل على الخطوط الجوية الهندية تدعى كشمير برنسيس Kashmir Princess، للذهاب من هونغ كونغ إلى إندونيسيا. من الواضح أن العملاء التايوانيين ظنوا أن الطائرة ستحمل على متنها تشو، وأعدّت خطة لزرع قنبلة على متنها في مطار هونغ كونغ. كانت بكين تعرف كل التفاصيل مسبقاً، ولكنها دعت العملية تأخذ مجراها بدون إعلام الخطوط الجوية الهندية أو المفوضية البريطانية في بكين أو حكومة هونغ كونغ - أو حتى الركّاب الأحد عشر الذين كانوا من المسؤولين والصحفيين الثانويين (في طائرة تحمل أكثر من 100 راكب). إنفجرت الطائرة في الجو وقضى كلّ مَن كان على متنها بالإضافة

إلى خمسة من أعضاء الطاقم الهندي الثمانية.

إتهمت بكين على الفور العملاء التايوانيين بزرع القنبلة وقدّم تشو إن-لاي تشو أسماء أشخاص بريطانيين أرادت بكين طردهم من هونغ كونغ. مضى البريطانيون قُدماً وخلال السنة التالية، تم ترحيل أكثر من أربعين عميلاً قومي رئيسي على لائحة تشو تشو رغم غياب الأدلة الكافية لإدانة أحد منهم في المحكمة. هذا الأمر أبطل جزءاً كبيراً من شبكة تشيانغ في هونغ كونغ، وبعد ذلك عقدت بكين سلسلة من الصفقات السرية لبرنامجها النووي عن طريق المستعمرة؛ كلّفت عملية شراء وحيدة من أوروبا الغربية 150 طناً من الذهب.

عندما بدأت الثورة الثقافية وروّج ماو لحملته ليكون قائد الثورة العالمية، أراد أن يُظهر للعالم بأنه سيد المستعمرة الحقيقي، عبر «إخضاع» البريطانيين وإرغامهم على «الإستسلام غير المشروط» بشكل علني، عن طريق الديبلوماسيين الصينيين في الإجتماعات الداخلية. والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو جعْل البريطانيين يتحملون المسؤولية وهذا يعني مذبحة للصينيين.

لذا، استغلت بكين نزاعاً عمّالياً في أيار 1967 وحثت المتطرفين في هونغ كونغ على تصعيد أعمال العنف وخاصة خرق القانون بطريقة متعمدة. ولدفعهم الى ذلك، أشارت بكين بحدة وبشكل علني إلى إمكانية إستعادتها للمستعمرة قبل انتهاء مدة الإيجار في عام 1997 وتم إفهام الناشطين بأن هذه هي نيّة بكين.

كانت عبارة ماو الحقيقية هي تلك التي أفشى بها سراً لتشو إن-لاي: «تبقى هونغ كونغ كما هي» – أي أنها تبقى تحت الحكم البريطاني. تمثلت مهمة تشو في إثارة ما يكفي من العنف للحثّ على عملية الإسترداد وبالتالي إخضاع البريطانيين، ولكن بدون ممارسة الكثير من العنف مما قد «يرغمنا على إسترداد هونغ كونغ في وقت مبكر»، الأمر الذي قد يؤدي إلى كارثة كما أوضح تشو سراً.

خلال أعمال الشغب الناشئة، قتلت شرطة هونغ كونغ بعض المتظاهرين، ولكن عدد القتلى لم يكن كافياً لإطلاق كلمة مذبحة ورفضت سلطات الإستعمار تقديم إعتذار. عندئذ، حثت بكين متطرفي هونغ كونغ على قتْل رجال الشرطة. صرّحت صحيفة **بيبولز دايلي** «إفعلوا بهم كما فعلوا بنا. يجب أن يدفع هؤلاء القتلى الثمن بأرواحهم». وبما أن المشاغبين في هونغ كونغ غير قادرين على قتل رجال الشرطة، قام تشو بتسريب جنود إلى المستعمرة. عَبر هؤلاء الرجال الحدود خلسةً في الثامن من تموز مرتدين زياً مدنياً وقتلوا خمسة من رجال الشرطة. أعرب تشو عن إرتياحه للنتائج ولكنه عارض تنفيذ المزيد من هذه العمليات في حال تطور الوضع لدرجة إنكشاف خدعة بكين علناً. فضلاً عن ذلك، شجعت بكين على القيام بحملة تفجيرات لا يمكن تمييزها. وخلال الشهرين التاليين، وقع حوالى 160 حادثة تفجيرية بعضها مميتة.

لكن البريطانيين رفضوا اللجوء إلى مذبحة وركزوا على تطويق الناشطين بشكل نظامي وهادىء خلال الليل. تبددت آمال ماو في إخضاع بريطانيا. وبسبب شعوره بالإحباط، لجأ إلى قطع الطرق في أرضه الخاصة. في 22 آب، قام حشد من أكثر من عشرة آلاف شخص بإحراق المفوضية البريطانية في بكين وإحتجاز الموظفين في الداخل وكادوا يحرقونهم أحياء كما عرّضوا النساء للتحرش الجنسي.

كما أن مفوضيات عدد من الدول الأخرى وجدت نفسها عرضةً لغضب ماو. ففي عام 1967، نُفذت هجمات عنيفة على السفارة السوفياتية وبعدها على سفارات إندونيسيا، الهند، بورما ومنغوليا. وخضعت هذه الهجمات لعقاب رسمي، إذ أطلعت وزارة الخارجية العصابات، على أي المفوضيات تُشن الهجمات، ومدى جديتها. وتراوحت «العقوبات» بين تنظيم مظاهرات حاشدة لمحاصرة المفوضيات، ونشْر صور ضخمة لماو، وإطلاق الشتائم عبر مكبرات الصوت، والإقتحام مع إحراق السيارات وإساءة معاملة الديبلوماسيين وزوجاتهم وتهويل أطفالهم وإطلاق شعارات مثل «الموت لكم، الموت لكم».

وإتسعت رقعة هذه المعاملة الى خارج كوريا الشمالية، ولكن كيم إيل سونغ رفض الإذعان لنفوذ ماو. فقد حاول هذا الأخير على إمتداد السنوات تحطيم كيم الأمر الذي إضطر ماو للاعتذار منه مرةً في قمة الحزب الشيوعي التي انعقدت في موسكو في تشرين الثاني 1957، هاجم كيم ليصحح موقفه بسبب إفشائه أسرار القادة الشيوعيين الآخرين. وفقاً لتقرير كوري رسمي تم نقله عن إجتماع كبير في بيونغ يانغ، أعرب ماو «بشكل متكرر عن اعتذاره (لكيم) لتدخّل الحزب الشيوعي الصيني غير المبرر في شؤون الحزب الكوري». إنتهز كيم الفرصة لتقويض أهداف ماو في كوريا مطالباً بسحب كل القوات الصينية التي ما زالت متمركزة هناك، فإضطر ماو إلى الموافقة.

لم يستسلم ماو. في كانون الثاني 1967، قال رجله المسؤول عن المهمات السرية في الخارج، كانغ شينغ Kang Sheng للألبانيين: «يجب الإطاحة بكيم من أجل تغيير الوضع في كوريا». قام ماو غير القادر على تحقيق أمنيته، بتوجيه الحشود إلى السفارة الكورية لشجْب أعمال «كيم السمين». فردّ هذا الأخير بإعادة تسمية ساحة ماو تسي-تونغ في بيونغ يانغ وإغلاق الغرف التي تحيي ذكرى دور الصين في متحف الحرب الكورية، و«إعادة تصنيف» مذكرات الحرب الروسية والصينية في بحسب الأهمية مع إظهار المزيد من الإهتمام لروسيا.

بحلول نهاية أيلول 1967، كانت الصين قد أصبحت متورطة في نزاعات مع معظم الدول الثمانية وأربعين التي ارتبطت معها بعلاقات ديبلوماسية أو شبه ديبلوماسية. وخفضت العديد

من هذه الدول نسبة تمثيلها، وبعضها أغلق أبواب سفاراتها. شهد اليوم الوطني من ذلك العام وصول بعض موفدي الحكومة الخارجية في تيان ان مين(*). ألقى ماو اللوم لاحقاً فشله على «اليساريين المتطرفين». والحقيقة أن سياسة الصين الخارجية لم تفلت قط من بين يديه.

مع أواخر الستينيات، كانت عملية ترويج ماو لذاته قد إستمرت طيلة عقد وزاد رصيده كثيراً في دول العالم. وفي الغرب، أُعجب الكثيرون به. فقد لاقى الكتاب الأحمر الصغير إقبالاً في صفوف المثقفين والطلاب، واعتُبر ماو فيلسوفاً. أثنى الكاتب الفرنسي جان بول سارتر على «العنف الثوري» الذي قاده ماو وإعتبره «عملاً أخلاقياً عميقاً».

ولكن من الواضح أن هذا الإفتتان العام لم يُترجم إلى فعل. لم يكسب أي حزب ماويّ في الغرب وحتى الحزب الأكبر في البرتغال، إلا قلة من الأتباع. كان معظم أنصار ماو في الغرب من أتباع الفنتازية والمتطفلين الذين لم يعربوا عن أية نية لإتخاذ موقف مؤازر، وخاصة إذا كان خطيراً أو يتطلب جهداً جسدياً. عندما وقع إضطراب طلابي على نطاق واسع في أوروبا الغربية عام 1968، نادى ماو به واعتبره «ظاهرة جديدة في التاريخ الأوروبي» وأرسل أنصاره الأوروبيين الذين تم تدريبهم في ديارهم، لإستغلال الموقف. إلا أنهم لم يشرعوا في القيام بأي شيء هام.

كما أن المجموعات الماوية لم تُظهر أيّ تقدّم في دول العالم الثالث. وكشفت أفريقيا التي كانت مليئة بالوعود في يوم من الأيام، عن خيبة أمل، لخّصتها أغنية ديبلوماسي صيني:

القبلية كبيرة، كبيرة
القومية صغيرة، صغيرة
الإمبريالية كثيرة، كثيرة
والقليل القليل هي أفكار ماو تسي تونغ

وأخذ المتطرفون الأفارقة المال من ماو بدهاء، على حدّ تعبير ديبلوماسي صيني، بإبتسامة عريضة، وبدون الإكتراث لتعليماته. بعد بضع سنوات، إعترف ماو بالفشل لإلقائه دعابة ساخرة عند لقائه بأحد الرؤساء الذي حاول جاهداً الإطاحة به وهو الرئيس الزائيري موبوتو. كانت دعابته: «أهذا حقاً أنت يا موبوتو أهدرتُ الكثير من المال للإطاحة بك - لا بل لقتلك - ولكن ها أنت حيّ تُرزق. لقد أعطيناهم المال والسلاح ولكنهم لم يحاربوا. لم يستطيعوا الإنتصار. ماذا بوسعي أن أفعل إذاً؟»

لاقى ماو نجاحاً أقل في الشرق الأوسط. فعندما إندلعت حرب الأيام الستة بين إسرائيل

(*) غير مستغرب ذلك، عندما يكون حتى الأصدقاء الأكثر التزاماً عرضة للخطر. عندما عاد رئيس الوزراء الألباني محمد شيهو ومعاونه رامز عليا الى بكين بعد الطواف حول البلد، حياهما ماو بالقول: «هل ضربكما أحد»؟

والدول العربية في حزيران 1967، عرض ماو على عبد الناصر عشرة ملايين دولار أميركي و150 ألف طن من القمح بالإضافة إلى «متطوعين» عسكريين، شرط أن يأخذ عبد الناصر بنصيحته «في القتال حتى النهاية». وأرسل إلى عبد الناصر خطة لشن «حرب شعبية» على طريقة ماو، قائلاً له بأن «يستدرج العدوّ إلى الداخل» عبر الإنسحاب إلى شبه جزيرة سيناء وحتى إلى الخرطوم، عاصمة السودان. رفض عبد الناصر أن يتّبع نهج ماو، فشرح لمستشاره أن سيناء «صحراء ولا يمكن نقل حرب تحرير شعبية إلى سيناء بسبب عدم وجود سكان هناك». فسحبت بكين عروضها بتقديم المساعدة، وحاولت تعزيز المعارضة ضد عبد الناصر. إلا أن ماو لم يجمع أي أتباع له في الشرق الأوسط. عندما توفيّ ماو و تشو عام 1976، لم يُرسل أي رئيس في العالم العربي رسالة تعزية واحدة من بين المئة وأربعة أحزاب، التي يتشكل معظمها من مجموعات صغيرة، من إحدى وخمسين دولة.

العنصر الأساسي خلف هذا الفشل هو إصرار ماو على أن يقف المتطرفون الأجانب معه ضد روسيا. هذا الأمر أفقده العديد من المتعاطفين المحتملين - ليس أقله في أميركا اللاتينية. هناك، أنفق ماو المال وقدّم المساعدات الغذائية لمحاولة قلْب كوبا ضد موسكو. أنتج هذا السخاء بعض الثمار. ففي عام 1964، قدم وفد مؤلف من تسعة أحزاب شيوعية من أميركا اللاتينية وعلى رأسهم رئيس الحزب الكوبي كارلوس رافاييل رودريغز إلى الصين طالباً من ماو وقف مشاحنته العنيفة مع روسيا، و«نشاطات الفصائل» أي محاولة شقّ صفوف الأحزاب الشيوعية. فقال لهم ماو بلهجة حادة إنّ النزاع مع روسيا «سيستمر لعشرة آلاف سنة» كما أنه شتم كاسترو. وعندما حاول موفد الأوروغواي (يبلغ عدد سكانها 3 ملايين نسمة) إبداء رأيه، هاجمه ماو قائلاً إنه، أي ماو، «يتكلم بإسم 650 مليون نسمة» فكم يبلغ عدد مَن يمثلهم هو؟

إنّ كاسترو الذي لم يزُر الصين خلال حياة ماو، وصف هذا الأخير بـ«القذر»، ثم ألقى خطاباً جماهيرياً دولياً في الثاني من كانون الثاني 1966 متهماً بكين بممارسة الضغط في محاولة لتقويض علاقته مع موسكو. بعد شهر، إتهم بكين باللجوء إلى «الإنتقام العنيف» وبشكل خاص إلى محاولة تدمير الجيش الكوبي. وصف ماو كاسترو ب»الذئب وإبن آوى».

كان ماو قد علّق آمالاً كبيرة على شي غيفارا معاون كاسترو. خلال زيارة غيفارا الأولى إلى الصين عام 1960، أظهر ماو إهتماماً غير إعتيادي به، ممسكاً بيده خلال التحدث معه بتوق شديد ومثنياً على كتّيبه بشكل ينطوي على الرياء. ردّ غيفارا المجاملة موصياً بإتبّاع نهج ماو في كوبا. وقد أثبت أنه الأقرب إلى موقف ماو في قيادة الهافانا خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962. ولكن في النهاية، لم ينجح ماو في ضمّه إلى صفوفه ضد الروس. عندما عاد غيفارا إلى الصين عام 1965، قُبيل محاولة إطلاق حرب العصابات في أفريقيا ثم في بوليفيا، لم يرَه ماو،

ورُفض طلب غيفارا في بوليفيا، بمساعدة الصين لبناء محطة إذاعية يمكن أن تبث في أنحاء العالم. عندما قُتل غيفارا في عام 1967، أعربت بكين سراً عن إرتياحها. قال لوزير الدفاع الألباني في تشرين الأول 1968: «إنّ الثورة في أميركا اللاتينية تسير بشكل ممتاز، خاصة بعد هزيمة غيفارا؛ لقد كُشف القناع عن الحركة الإشتراكية الماركسية الثورية...».

خلال حياة ماو، لم يكن هناك أية أحزاب ماوية ذات أثر كبير في أميركا اللاتينية. فالحزب البارز الوحيد «Shining Path» أو «الطريق المنير» تم تأسيسه عام 1980 بعد أربع سنوات من وفاة ماو(*).

حتى في موطنه في آسيا، فشل تأثير ماو في الإنتشار ضد الأنظمة المنهكة مثل نظام ني وين Ne Win في بورما. ولكن عائق ماو الأكبر كان «خسارة» فيتنام. في الخمسينيات وأوائل الستينيات، كانت الصين الداعم الوحيد لهانوي في حروبها ضد الفرنسيين أولاً من ثم الأميركيين، منذ أن حصصها ستالين لماو عام 1950. إلا أن الفيتناميين شكّكوا في ماو منذ بداية عام 1954. في ذلك العام، راح ماو يحاول الولوج إلى التكنولوجيا والمعدات الغربية المحظورة، بعد إطلاقه لبرنامج القوة العظمى وقيامه بكل شيء لجذب المساعدة الروسية. كانت فرنسا المرشح الرئيسي لفكّ الحظر.

في ذلك الوقت، كانت فرنسا عاجزة عن التقدم في الهند الصينية. قضت خطة ماو بحث الفيتناميين على زيادة شرارة الحرب «لزيادة مشاكل فرنسا الداخلية» (على حدّ تعبير تشو)؛ بعد ذلك، عندما تكون فرنسا في حالة عدم استقرار، يمكن اقتحامها وفرض تسوية لوضعها. وكانت الفكرة أن تردّ فرنسا بالموافقة على مقاربات ماو في خرق الحظر.

كان ماو يساعد في توجيه الحرب في الهند الصينية. خلال الحرب الكورية، أوقف هجمات واسعة النطاق على الهند الصينية لتركيز موارد الصين على كوريا. في أيار 1953، عندما قرر إنهاء الحرب الكورية، أرسل ضباطاً صينيين مباشرة من كوريا إلى الهند الصينية. في تشرين الأول من ذلك العام، إستولى الصينيون على نسخة من الخطة الفرنسية الإستراتيجية، خطة نافار، المسماة تيمناً بالقائد الفرنسي الجنرال هنري نافار. فحملها المستشار العسكري الصيني في فيتنام الجنرال واي غيو-كينغ Wei Guo-qing من بكين وسلّمها إلى هو تشي مينه شخصياً. أدت هذه الضربة الإستخباراتية المهمة إلى إتخاذ الجانب الشيوعي قراراً بشنّ معركة في ديان بيان فو وهي قاعدة فرنسية شمالي غربي فيتنام حيث حقق الفيتناميون، بدعم عسكري صيني

(*) قائده الفاشل أبيمعيل غوزمان، سمى نفسه «رئيس الثورة العالمية». في سنة تأسيس «الطريق المشع» تم الاحتفال بعيد ميلاد ماو من خلال تعليق الكلاب من المصابيح في ليما وتغليفها بشعارات تندد بالقائد خلف ماو دينغ كزياو بينغ الذي اعتبر خائناً لماو و«قذراً».

شامل، إنتصاراً حاسماً في أيار 1954.

دارت معركة ديان بيان فو تمهيداً لمؤتمر جنيف حول الهند الصينية (وكوريا) وخلاله، وقد إفتتح في السادس والعشرين من نيسان وكان تشو إن-لاي تشو على رأس الوفد الصيني. قرر ماو قبل أكثر من شهر على إفتتاحه أنه «يجب الحصول على تسوية» ولكنه لم يُعلم الفيتناميين. بالنسبة إليه، يقتصر دورهم على القتال وتأجيج الحرب، مهما كلّف الأمر، لخلْق أزمة كبرى بقدر المستطاع لفرنسا. كتب ماو للمستشار العسكري الأول واي Wei في الرابع من نيسان حول مرحلة تالية مزعومة: «حاول إتمام حملة ديان بيان فو بحلول... أوائل أيار...إبدأ الهجوم على لوانغ برابنغ Luang Prabang وفيانتيان Vientiane في آب أو أيلول، وحررهما». إنهما العاصمتان التوأمان للاوس. ثم، تابع ماو قائلاً: «كن مستعداً للهجوم على هانوي وهايفونغ في الشتاء القادم وأول الربيع من العام القادم على أبعد تقدير، وذلك بهدف تحرير الدلتا (النهر الأحمر) في عام 1955». وأمر واي بشكل خاص بمناقشة هذه الخطة مع وزير الدفاع الفيتنامي الجنرال فو نغيوين غياب ديان بيان فو ليعطي الفيتناميين الإنطباع بأنه سيدعمهم لتمديد الحرب إلى السنة المقبلة – فيما قرر سراً تنفيذ وقف لإطلاق النار في الأشهر القادمة.

إنتصر الفيتناميون على أرض ديان بيان فو في السابع من أيار وسقطت الحكومة الفرنسية في السابع عشر من حزيران. كانت هذه اللحظة مناسبة لتدخّل الصين. في الثالث والعشرين، إلتقى تشو رئيس الوزراء الفرنسي الجديد بيبار منديس-فرانس في سويسرا بدون الفيتناميين، وعقدا إتفاقاً.

راح تشو في هذه الأثناء يمارس ضغوطاً كبيرة على الشيوعيين الفيتناميين لتسوية الشروط التي تفاوض عليها مع الفرنسيين، والتي كانت أقل بكثير مما أمله الفيتناميون. قال القائد الفيتنامي اللاحق لو دويان Le Duan إنّ تشو هدد «الفيتناميين بأن يناضلوا بأنفسهم إذا ما إستمروا بالقتال. لن يساعدنا بعد الآن وضغط علينا للتوقف عن القتال».

(كشفت هذه الملاحظات مدى إعتماد الفيتناميين على الصينيين). أمرَ هوشي منه مفاوضه فام فان دونغ Pham Van Dong بالإذعان وهذا ما فعله دونغ على مضض. أرسل لي ديوان لنقْل الأخبار إلى القوات الشيوعية في الجنوب. قال: «توجهتُ جنوباً بالعربة. خرج المواطنون على طول الطريق لإلقاء التحية ظناً منهم أننا إنتصرنا. كان الأمر مؤلماً.» فنمت بذور الغضب والشك تجاه بكين في صفوف الفيتناميين.

في أوائل عام 1965، بدأ الفريق الجديد بريجنيف-كوسيجين في موسكو بمضاعفة المساعدة العسكرية لهانوي، عبر تزويدها بالمعدات الثقيلة الأساسية التي إحتاجت إليها وهي مضادات الطائرات وصواريخ أرض-جو، بعضها محصّن من قبل الروس. لم يستطع ماو منافسة ذلك.

لذا، حاول إقناع الروس بعدم مساعدة الفيتناميين. قال لرئيس الوزراء الروسي في شباط من ذلك العام «يقاتل شعب فيتنام الشمالية جيداً بدون مساعدة الإتحاد السوفياتي...وسيقومون بطرد الأميركيين بأنفسهم. يستطيع الفيتناميون الإهتمام بأنفسهم.» وأضاف ماو (بشكل غير صحيح) أن «عدداً قليلاً من الأشخاص فقط قُتلوا في الغارات الجوية، وليس رهيباً أن يُقتل عدد قليل من الناس...» إقترحت بكين أن يقوم الروس بمهاجمة الأميركيين في مكان آخر. قيل للسفير السوفياتي تشيرفوننكو Chervonenko إنّ أفضل ما قد تفعله روسيا هو «ممارسة الضغط على القوات الإمبريالية في إتجاه غربي» أي في أوروبا.

في الوقت عينه، حاول ماو إرغام هانوي على قطع العلاقات مع روسيا. تقرّب من هو تشي مينه الذي أقام صلات وثيقة مع الصين حيث أمضى معظم وقته. وجد له الحزب الشيوعي الصيني زوجة صينية ولكن القيادة الفيتنامية عارضت الزواج على قاعدة أنه من الأفضل لقضيتهم أن يضحي قائدهم ويبقى أعزباً.

طُلب من هو ورفاقه رفض المساعدة السوفياتية. قال تشو لرئيس الوزراء فام فان دونغ: «لا أدعم فكرة إرسال متطوعين سوفياتيين أو مساعدات سوفياتية إلى الفيتنام». وإدّعى تشو بأن «الهدف من تقديم المساعدات السوفياتية إلى الفيتنام هو...تحسين العلاقات السوفياتية-الأميركية.» كانت هذه الحجج مرهقة حتى بالنسبة إلى تشو البليغ. فالطريقة الوحيدة لمحاولة التأثير هي إدخال المزيد من المال والسلع والجنود(*)، ولكنه لم يستطع منع هانوي من التقرّب من الروس.

كان ماو عاجزاً أيضاً عن ثنيها عن بدء المحادثات مع الولايات المتحدة والتي أعلنتها هانوي في الثالث من نيسان 1968. محاججاً ضد هذه المبادرة، لام تشو هانوي على قتل قائد الحقوق المدنية الأميركي الأسود مارتن لوثر كينغ في الرابع من نيسان. قال: «وقعت عملية الإغتيال بعد يوم من إصدار التصريح. لو تم إصداره بعد يوم أو يومين، لربما أُلغيت عملية الإغتيال». ومدعياً بتمثيل «شعوب العالم»، تابع تشو قائلاً: «لم يفهم الكثيرون سبب الإستعجال في القيام بهذا التصريح...هذا حكم على شعوب العالم. في أعين شعوب العالم، قبلتم بتسوية مذلة مرتين».

قامت هانوي بتجاهل بكين وبدأت التفاوض مع الولايات المتحدة في أيار. ثم حاول

(*) كان للصين أكثر من 320 ألف جندي في الفيتنام بين عامي 1965 و1968 من ضمنها أكثر من 150 ألف كتائب مواجهة الطيران وبقي بعضها حتى نهاية عام 1973. إن وجود هذه الجيوش في شمالي الفيتنام سمح لهانوي بإرسال العديد من قواتها الخاصة الى الجنوب حيث رافقها بعض الصينيين. في عام 1965 كان جنرال صيني حاضراً ليعاين وصول القوات الأميركية الى دننغ على شاطىء جنوبي الفيتنام.

ماو إستعراض قوته حاثاً تشو على إخبار الفيتناميين بأن الصينيين أكثر تمرساً من هانوي في التفاوض. إستمرت هانوي في تجاهل الصين، الأمر الذي أغضب ماو. في بداية تشرين الأول، أخبر تشو الفيتناميين بأنه لا حاجة لقدوم وفد لزيارة الصين من أجل المزيد من المساعدات بحجة أن القادة الصينيين سيكونون مشغولين ولن يتمكنوا من إستقباله. إلا أن ماو إضطر إلى تغيير موقفه والإستمرار في تقديم المساعدات. لم يستطع سيد الشعوب الثورية في العالم إلا أن يلعب دوراً في الحرب الثورية الأولى في الكون.

وما أغضب ماو أكثر، هو إضطراره إلى الوقوف موقف المتفرج، فيما كان الفيتناميون يوسعون دائرة نفوذهم على حسابه. ورغم تلقي رعاية شاملة من الصين، إلا أن العصابات الحمر في لاوس إختاروا الفيتنام راعية لهم؛ وبحلول أيلول 1968 طلبوا من المستشارين الصينيين هناك «أن يعودوا إلى ديارهم»، وهو طلب توجب على الصينيين الإذعان له. إنحاز جنود لاوس والفيتنام إلى صف موسكو.

فشل ماو بعد عقد من تشكيل الحملات وإنفاق المال بلا إنقطاع للترويج للفلسفة الماوية كبديل دولي جدي لموسكو. كان العالم يرى موسكو وليس بكين، على أنها القوة العظمى المعادية لأميركا. ومن الواضح أن خطابات ماو المسهبة والعنيفة ضد موسكو «لمساعدتها الإمبرياليين» غير صحيحة، فكان المستمعون يشعرون بالإنزعاج والملل وحتى بالإحراج. في مناسبة واحدة على الأقل، طلب بعض شيوعيو دول العالم الثالث من الصينيين أن يصمتوا.

مع نهاية الستينيات، إعتبر المسؤولون الأميركيون أن النهج الماوي ما عاد يشكل تهديداً لدول العالم الثالث، وهو واقع أدركه ماو بحد ذاته؛ فقال لزمرته عام 1969: «إننا معزولون الآن. لا أحد يريد منا شيئاً». وقال إن الماويين الأجانب لا ينفعون، فأمر بوقف تمويلهم.

أراد ماو حلاً. وسنحت الفرصة لذلك عندما خُلع القائد الحيادي الكمبودي، الأمير سيهانوك في الثامن عشر من آذار 1970 في عملية إنقلاب قيل إنّها من وحي وكالة الإستخبارات المركزية. فقرر ماو دعم سيهانوك في حال إستعداده لمحاربة أميركا. وفقاً لحساباته، يمكن تحويل حرب الفيتنام الآن لتصبح حرباً شاملة في الهند الصينية. ومن خلال لعب دور الراعي لسيهانوك، يمكنه أن يلعب دوراً أساسياً في الهند الصينية كلها.

منذ فترة ليست بطويلة، في صيف 1967، كان ماو يحوك مؤامرة ضد سيهانوك. بالنسبة إلى الأمير، كانت بكين «تؤيد ضمناً الإطاحة بي» وهو أمر إعترف به تشو إن-لاي لاحقاً مع أنه أنكر مسؤوليته بشكل غير مقنع على الإطلاق. في آذار 1968، أعلن سيهانوك عن دعم بكين لمجموعة متمردة معروفة قليلاً في كمبوديا وتُعرف باسم الخمير الحمر. وصرّح

قائلاً: «كانت الأمم الشيوعية تمارس ضمنياً لعبة قذرة لأن الخمير الحمر نتاج هذه الأمم... لقد صادرنا ذلك اليوم كمية كبيرة من أسلحة متنوعة آتية من الصين بشكل خاص». ولكن الآن، في آذار 1970، تمسّك ماو بسيهانوك. كان من المقرر أن يقوم الأمير بزيارة الصين بعد يوم من الإنقلاب. ولحظة نزوله من الطائرة، تحقق تشو من عزمه على محاربة الولايات المتحدة، ثم أعلن دعمه المطلق له. إتصل تشو بالفيتناميين على الفور، وإقترح عقْد قمة شاملة للهند الصينية بإسم سيهانوك. تم إختصار القمة التي إنعقدت في الصين في الشهر التالي، لتصبح مجرد تشكيل لقيادة هندية صينية مشتركة.

بما أن سيهانوك كان هاماً جداً بالنسبة إلى ماو، نزل الصينيون عند رغبات الأمير الملكية فزودوه بسبعة طباخين وسبعة من رؤساء الطهاة وأحضروا له طبق الكبد الدسم من باريس؛ كما قدموا له قطارات خاصة وطائرتين لرحلاته الخارجية وخُصصت إحداها لحمْل هداياه وأمتعته فقط. قال ماو لسيهانوك: «أخبرنا عما تحتاج إليه. أطلب فحسب. يمكننا فعل المزيد لك. إنه أمر سهل.» أبعد ماو مسألة التعويض قائلاً: «لسنا تجار أسلحة». عندما إحتج سيهانوك على العبء الذي سيشكله على الصين، أجاب ماو: «أطلب منك أن تحمّلنا المزيد من العبء». وقد تم إقناع تابع ماو الكمبودي، بول بوت Pol Pot، قائد الخمير الحمر والذي كان في الصين سراً في ذلك الوقت، بأن يدعم سيهانوك دعماً رسمياً.

إلا أن الفيتناميين لم يسمحوا لماو بتولّي زمام الأمور وإستمر العالم بإعتبار الفيتنام اللاعب الرئيسي في الهند الصينية. قالت صحيفة التايمز اللندنية: «تعتمد عودة سيهانوك إلى السلطة على رفاهة هانوي.» وتكلم مستشار الأمن القومي الأميركي هنري كيسينجر عن «مخططات هانوي في كمبوديا».

حاول ماو التأثير على الفيتناميين عبر إطلاق الصين للقمر الصناعي الأول يوم إفتتاح قمة الهند الصينية، والذي قدمه تشو على أنه «هدية» للقمة و«إنتصاراً لنا جميعاً». ولكن ذلك لم يُحدث أي تغيير بالنسبة الى الفيتناميين أو العالم.

كان القمر الصناعي عبارة عن رحلة إغترّ بها ماو بما أنه دار حول الكرة الأرضية منشداً النشيد الماوي «الشرق أحمر». كان ماو متحمساً لفكرة تبجيله من الفضاء. في يوم العمال وعلى بوابة تيان ان مين، صافح كلّ مَن عمل على القمر الصناعي وقد إرتسمت على وجهه إبتسامة عريضة قائلاً: «مدهش! مدهش!»، بينما أطلقوا هم شعارات تنادي بفكر ماو.

بذل ماو – الفرِح بالقمر الصناعي – جهداً آخر للترويج للعالم بأنه قائد الحرب في الهند الصينية. في 20 أيار، أصدر تصريحاً تحت عنوان «يا شعوب العالم إتحدوا واهزموا المعتدين الأميركيين وكل أتباعهم!» في اليوم التالي، وقف عند بوابة تيان ان مين وألقى خطاباً أمام نصف

مليون شخص بوجود سيهانوك إلى جانبه. وكما أوضح العنوان، كان ماو يُصدر أمراً. ولكن التقديم كان مضحكاً شأنه شأن الذرائع التي تضمنها النص. وقد قرأ الخطاب عندها الرجل الثاني لماو في حينه لين بياو الذي تم حقنه بمنشّط مسبقاً. لاحظ سيهانوك أن لين «بدا... مخموراً بعض الشيء». فقد كان يقاطع ماو دورياً فيما كان يومىء برأسه أثناء الكلام ويطلق عبارات مسهبة عنيفة معادية للولايات المتحدة. عندما بدأ لين بقراءة التصريح، كانت أولى الكلمات التي تفوه بها: «سوف ألقي خطاباً! - سأتكلم عن الفيتنام - للفيتنامين - نصف الفيتنام». وعندما راح يقرأ النص المكتوب، أخطأ عدة مرات قائلاً «باكستان» بدلاً من «فلسطين».

أدان التصريح الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون علناً وأثار سخطه وفي لحظة غضب، أمر بنقل السفن إلى مواقع الهجوم. ولكن كيسينجر هدّأ من روعه مشيراً إلى أن ماو قد «عرض القليل على هانوي بإستثناء التشجيع الفعلي.» لقد تم تجاهل ماو. وفي فورة غضب، وبّخ كيسينجر لعدم إعترافه بالدور الذي يلعبه، وأسماه «العالم الفاشل»، «أستاذ الجامعة الذي لا يفقه شيئاً عن الديبلوماسية». تبادل ماو الغاضب والساخطِ هذا الحديث مع رئيس وزراء الفيتنام دونغ:

ماو: لَمِ لم يُثر الأميركيون ضجة حول واقع أن أكثر من مئة ألف جندي صيني يساعدك في بناء السكك الحديدية والطرقات والمطارات رغم معرفتهم بذلك؟(*)

دونغ: إنهم خائفون بالطبع.

ماو: كان من المفروض أن يثيروا ضجة حول الموضوع. كما أن تقديراتهم لعدد القوات الصينية في فيتنام أقل من عددها الحقيقي.

وصل الترويج للفلسفة الماوية إلى طريق مسدود في الهند الصينية وفي العالم أجمع. إخترع ماو الواسع الحيلة دائماً، خطة جديدة ستسلط الأضواء عليه، ألا وهي دعوة الرئيس الأميركي لزيارة الصين.

(*) ارتدت الجيوش الصينية بزات صينية ليعرف الأميركيون أنهم هناك.

54- نيكسون: صائد الحمر مُصاداً
(1970-1973، العمر 76-79)

عندما أسّس ماو نظامه عام 1949، تعمّد أن يجترح المستحيل لاعتراف الولايات المتحدة به، لطمأنة ستالين في المقام الأول، آملاً أن يشجع ذلك ستالين على تعزيز الآلة العسكرية في الصين. بعد وفاة ستالين عام 1953، بدأ ماو يسعى لإقامة علاقات مع أميركا ليتمكن من الولوج إلى التكنولوجيا الغربية من أجل برنامج القوة العظمى. إلا أن ذكريات محاربة الصينيين في الحرب الكورية كانت ما تزال ماثلة، فقامت واشنطن بتجاهل بكين. ورغم أن الدولتين أقامتا علاقات ديبلوماسية لمناقشة مسائل معينة، إلا أن هذه العلاقات بقيت مجمدة بشكل عام. عملَ ماو من موقع معادٍ للولايات المتحدة. ففي عام 1960، عندما كان يروّج لفلسفته الماوية، جعل الميول القتالية سمةً مميِّزة له وأقصى نفسه عن الكرملين الذي اتهمه بالتعاطف مع أميركا.

في عام 1969، أعرب الرئيس الأميركي الجديد نيكسون، علناً، عن اهتمامه بتحسين العلاقات مع الصين. ولكن ماو لم يُجب. فإقامة علاقة مع واشنطن قد تهدد هويته وصورته كقائد ثوري. لم يقرر ماو دعوة نيكسون لزيارة الصين إلا في حزيران 1970 بعد الإخفاق التام الذي مُني به تصريحه الرسمي المعادي لأميركا في 20 أيار وعندما أصبح واضحاً جداً أن الفلسفة الماوية لن تحقق مآربها في أي مكان في العالم. لم يكن الدافع تسوية النزاع مع أميركا، بل إعادة إطلاق نفسه على الساحة الدولية.

لم يشأ ماو أن يظهر بصورة المتملّق للرئيس الأميركي وذهب إلى حدّ جعْل الدعوة قابلة للإنكار. في تشرين الثاني، بعث تشو برسالة من خلال الرومانيين الذين أقاموا علاقات طيبة مع الصين وأميركا، مفادها أن نيكسون مرحّب به في بكين. وصلت الدعوة إلى البيت الأبيض في 11 كانون الثاني 1971. أشار نيكسون إلى الأمر، على حدّ تعبير كيسينجر، قائلاً: «لا ينبغي أن نبدو تواقين إلى الرد»، وهذا ما خشي ماو حصوله. فعندما أرسل كيسينجر الردّ إلى بكين في 29 كانون الثاني، «لم يُشر إلى أيّ زيارة رئاسية» معتبراً الفكرة «سابقة لأوانها ومسببة للإحراج».

لم يرتدع ماو، وسرعان ما وجد طريقة أخرى لحثّ نيكسون على القدوم إلى الصين.

في 21 آذار، وصل فريق كرة الطاولة الصيني إلى اليابان للمشاركة في بطولة العالم، وكان

من الفرق الرياضية الأولى التي تسافر خارج البلاد منذ بداية الثورة الثقافية قبل خمس سنوات. كان الفريق الصيني بارعاً في كرة الطاولة، ووافق ماو شخصياً على الرحلة. وكي لا يبدو غير متحضر، تم إعفاء اللاعبين من وجوب التلويح بالكتاب الأحمر الصغير.

تلقوا تعليمات محددة حول كيفية التصرف مع الأميركيين: لا مصافحة، لا مبادرة الى التحادث. ولكن في 4 نيسان، صعد اللاعب الأميركي غلين كوهان Glenn Cowan إلى باص الفريق الصيني فقرر البطل الصيني زويانغ زي-دونغ Zhuang Ze-dong التكلم معه. فنشرت صور للإثنين وهما يتصافحان وتصدّرت الأخبار الصحف اليابانية. عندما أُعلم ماو بالأمر، أشرقت عيناه وأطلق على زويانغ اسم «الديبلوماسي الجيد». ولكن عندما أعرب الفريق الأميركي عن رغبته في زيارة الصين، بعد دعوة فرق أجنبية أخرى، أقرّ ماو بتوصية وزارة الخارجية برفض الطلب.

ولكن بدا واضحاً إرتباكه عند إتخاذه هذا القرار، ولاحظ الموظفون إنشغاله لبقية اليوم. وتلك الليلة، تناول جرعة كبيرة من الحبوب المنومة عند الساعة 11، ثم تناول العشاء مع مساعدته وممرضته ووكسوجان Wu Xu-jun . كان ماو يدعو أحياناً فرداً أو إثنين من موظفيه لتناول العشاء معه. ونادراً ما كان يتناوله مع زوجته في تلك المرحلة، ودائماً تقريباً بدون زملائه. قضى عمله الروتيني بأخذ الحبوب المنومة قبل العشاء كي ينام فور إنتهائه من الطعام الذي يتناوله جالساً على حافة السرير. كانت الحبوب فعالة جداً لدرجة أنه كان أحياناً يغفو فيما يمضغ الطعام فيضطر الموظفون إلى إخراجه من فمه. لذا، لم يُقدم إليه السمك على العشاء قط بسبب الحسك. تذكرت وو Wu في تلك المرة قائلةً:

> بعد إنتهائه من الطعام، سقط على الطاولة... ولكنه تكلم فجأةً متمتماً واستغرقني وقت طويل لأفهْم أنه يريدني الإتصال بوزارة الخارجية... «أدعي الفريق الأميركي إلى الصين»...كنتُ مذهولة. فكرت في قرارة نفسي: هذا تماماً عكس ما طلبه خلال النهار! كانت أوامر ماو الثابتة: «الكلمات التي يتفوه بها بعد تناول الحبوب المنومة لا تُحتسب». هل تُحتسب الآن؟ كنتُ في مأزق فعلاً... لا بد من أن أجعله يقول ذلك مجدداً.
>
> ... تظاهرتُ بأن شيئاً لم يحدث، وعدتُ لإكمال وجبتي... وبعد قليل، رفع ماو رأسه وحاول جاهداً أن يفتح عينيه وقال لي: «يا وو الصغيرة... لِمَ لا تذهبين وتفعلين ما طلبته منك؟». كان ماو... يدعوني وو الصغيرة فقط عندما يكون غاية في الجدّية. تعمّدتُ سؤاله بصوت عال: «أيها الرئيس، ماذا قلتَ لي؟ كنتُ أتناول الطعام ولم أسمعك بوضوح. أرجوك أن تعيد ما قلته مجدداً.» فكرر ماو، كلمة بكلمة، ما قاله. ثم تحققت وو مع ماو من قاعدة الحبوب: «لقد تناولتَ حبوباً منومة. هل تُحتسب كلماتك؟» فلوّح ماو بيديه أمامي:

«نعم، إنها تُحتسب! نفّذي الأمر بسرعة وإلا فسيضيع الوقت».

أبقى ماو نفسه صاحياً إلى أن عادت وو مؤكدةً بأنها فعلت ما طلبه منها.

تغيّرت حظوظ ماو مع تغييره لرأيه. فالدعوة الأولى على الإطلاق التي تلقاها الفريق الأميركي من الصين الحمراء أثارت ضجة كبرى. والواقع أن فريقاً رياضياً ساعد على جذب إنتباه العالم. أظهر تشوإن-لاي سحره وقام نظامه الديكتاتوري بالتنسيق الدقيق لإنتاج ما وصفه كيسينجر «بالترحيب الحار» لفريق كرة الطاولة. شغلت التقارير المبهرجة والمذهولة الصحافة الأميركية والغربية يوماً بعد يوم. لقد حقق ماو، الصحافي القديم، نجاحاً صارخاً. كتب أحد المعلّقين: «ذُهل نيكسون لتصدُّر الخبر الصفحات الرياضية والصفحات الأولى». بحركة واحدة، خلق ماو مناخاً يمكن من خلاله أن تكون زيارة الصين مصدر قوة بالنسبة إلى نيكسون في ترشيح نفسه مجدداً للإنتخابات الرئاسية لعام 1972.

كتب كيسينجر «بدا نيكسون متحمساً لدرجة شعوره بالنشوة. والآن يريد حذف الخبر المتعلق بإرسال المبعوث، خشية أن يسلب وهج رحلته الخاصة». بحلول شهر أيار، تقرر سراً ذهاب نيكسون إلى الصين.

لم ينجح ماو فقط في حثّ نيكسون على القدوم فحسب، بل أيضاً في إخفاء واقع أن ذلك كان هدفه. قدم نيكسون ظناً منه أنه كان الأذكى. لذا، عندما قام كيسينجر بزيارته الأولى سراً في تموز 1971، ليفتح الطريق للرئيس، حمل معه العديد من الهدايا العظيمة الشأن ولم يطلب أي شيء بالمقابل. وكان العرض الأكثر ترويعاً يتعلق بتايوان الملتزمة بمعاهدة دفاعية متبادلة مع الولايات المتحدة. عرض نيكسون التخلي عن حليف واشنطن القديم، واعداً بأن يولي بكين إهتماماً ديبلوماسياً بحلول كانون الثاني 1975 شرط أن يعاد إنتخابه عام 1972.

وافق نيكسون على موقف بكين العام وعلى تحرير تايوان. بحلول نهاية الرحلة، كان تشو يتكلم وكأن تطويق بكين لتايوان مسألة سلوك. عند هذا الحد، قام كيسينجر بمبادرة غير فعالة قائلاً: «نأمل أن تُحلّ مسألة تايوان سلمياً. كيسينجر ولكنه لم يضغط على تشو للحصول على وعد بعدم إستخدام القوة»(*).

وكجزء من الإعتراف ببكين، عرض نيكسون إدخال بكين إلى الأمم المتحدة على الفور. فقال كيسينجر لتشو عند تقديم هذا العرض سراً: «يمكنك الحصول على مقعد الصين الآن». ثم أضاف: «أرادني الرئيس مناقشة هذه المسألة معك قبل أن نتبنى أي موقف».

وأكثر من ذلك، برز عرض لإطلاع الصينيين على كل شيء حول الصفقات التي تُعقد بين

(*) تم الاحتفاظ بتسجيلات زيارات كيسينجر عام 1971 حتى عام 2002. وادعى كيسينجر في مذكراته ان تايوان «ذكرت بشكل مقتضب». وعندما تمت مواجهته بالتقرير عام 2002 قال: «الطريقة التي عبرت بها كانت غير مؤاتية وأنا آسف».

أميركا وروسيا. قال كيسينجر: «إنني مستعد بشكل خاص لمنحكم أية معلومات ترغبون في الإطلاع عليها في ما يتعلق بالمفاوضات الثنائية التي نجريها مع الإتحاد السوفياتي حول مسائل مثل SALT (محادثات حول الحدّ من الأسلحة الإستراتيجية)». وبعد بضعة أشهر، قال كيسينجر للصينيين: «سنطلعكم على محادثاتنا التي تجرى مع السوفيات، ولن نطلع السوفيات على محادثاتنا معكم».

وأضيف إلى ذلك معلومات إستخباراتية على مستوى عالٍ. فنُقل عن نائب الرئيس نيلسون روكفيلر Nelson Rockefeller «دهشته الكبيرة لدى سماع... كمية المعلومات الحساسة التي سيتم توفرها للصينيين». وتضمنت المخابرات معلومات حول عمليات نشْر القوات السوفياتية على الحدود الصينية.

كما تعهّد كيسينجر بإلتزامين حيال الهند الصينية: إخراج القوات الأميركية كلها خلال مهلة إثني عشر شهراً، والتخلي عن نظام الفيتنام الجنوبية، واعداً بالإنسحاب «من جانب واحد» حتى مع عدم إجراء أية مفاوضات، وعدم عودة القوات الأميركية. قال كيسينجر: «بعد عقْد الصلح، سنكون على بُعد عشرة آلاف ميل، وستبقى هانوي كما هي». كما وعد كيسينجر بإخراج «معظم القوات الأميركية – أو كلها» من كوريا قبل نهاية ولاية نيكسون التالية، بدون الحصول على أي ضمان بعدم دعم ماو لأي غزو شيوعي آخر على كوريا الجنوبية.

مُنح ماو الكثير على طبق من ذهب. قال كيسينجر تحديداً إنّه لم يطلب من الصين وقْف تقديم المساعدات للفيتنام، ولم يطلب من ماو تلطيف لهجته العدائية المعادية لأميركا بصورة عامة أو خلال الإجتماعات. تُظهر المذكرات تغطرُس تشو («ينبغي أن تجيب على هذا السؤال... ينبغي أن تجيب على هذا السؤال») وإستخدامه عبارات مثل «ظلمك، إضطهادك وتدخلك.» في الواقع، إقترح أن يقوم نيكسون بمزيد من التنازلات مقابل إمتياز القدوم إلى الصين، والسماح له بالإعتراف ببكين. لم يطلب كيسينجر في المقابل أية تنازلات. لم يتم تحدّي إدعاء تشو الغريب بأن الصين غير «عدائية» – بسبب نظامنا «الشيوعي» الجديد. كما أن إشارة تشو إلى «الوحشية» الأميركية في الفيتنام لم تستحق التأنيب حيال وحشية ماو في الصين. في مناسبة مختلفة، عندما إنتقد مفاوض كوريا الشمالية إدارة نيكسون بشكل غير مباشر، ردّ كيسينجر: «أنت تمثل إحدى أكثر الحكومات إستبداداً على الكرة الأرضية...» وصف كيسينجر عرض تشو بـ«المؤثر جداً».

عندما إستمع ماو إلى تقرير محادثات اليوم الأول، إزداد تعالياً وأشار إلى كبار ديبلوماسييه أن أميركا «تحولت من قرد إلى إنسان، ليس بعد إلى إنسان، فالذيل ما زال موجوداً... ولكنها لم تعد قرداً، بل شيمبانزي بذيل قصير». وأعلن قائلاً: «يجب أن تبدأ أميركا حياتها بشكل

جديد» متوسعاً في مقاربته الداروينية، بحيث إعتبر أميركا كأحد الرئيسات الأقل شأناً التي تتطور ببطء. «هذا هو التطور!». من جهته، قارن تشو نيكسون بإمرأة عاهرة «تعرض نفسها على الأبواب». خلال زيارة كيسينجر الأولى، إستنتج ماو إمكانية التلاعب بنيكسون، وإمكانية حصول بكين على الكثير من أميركا بدون إضطرارها إلى تغيير إستبدادها أو لهجتها العنيفة المعادية لأميركا.

بُعيد زيارة كيسينجر السرية، أُعلن عن دعوة نيكسون لزيارة الصين وعن موافقته على ذلك. عاد كيسينجر إلى بكين في تشرين الأول 1971 للتحضير لزيارة الرئيس. تزامنت زيارته الثانية مع تصويت الأمم المتحدة السنوي على مقعد الصين، وكانت الجلسة برئاسة تايوان، وجاء حضور المستشار الأول للرئيس إلى بكين ليقلب الموازين. ففي 25 تشرين الأول حلّت بكين محل تايباي في الأمم المتحدة مما منح ماو مقعداً وحق النقض في مجلس الأمن.

حصل ذلك بعد أكثر من شهر على تحطّم طائرة لين بياو وموته. إنّ أنباء حصول مؤامرة لقتله، أصابت ماو بحالة من الإكتئاب الحاد. إلا أن هزيمة تايوان وزيارة نيكسون رفعتا معنوياته كثيراً. فقد تحدّث قرابة ثلاث ساعات بطلاقة إلى كبار ديبلوماسييه، ملقياً الدعابات وضاحكاً ملء فمه. قال وهو ينظر إلى الأصوات في الأمم المتحدة: «بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، كندا، إيطاليا، ستصبح جميع هذه الدول من الحرس الأحمر»...

قبل مغادرة موفدي الصين إلى مقر الأمم المتحدة، ذكّرهم ماو بضرورة الإستمرار في معاملة الولايات المتحدة على أنها العدو العلني الأول، ومهاجمتها بعنف «بالإسم، إنها ضرورة مطلقة». أراد أن تكون بدايات ظهوره على الساحة العالمية، كبطل معاد لأميركا، وذلك باستخدام الأمم المتحدة كمنبر جديد.

قبل تسعة أيام من موعد قدوم نيكسون إلى الصين، أي في 21 شباط 1972، أُغمي على ماو واقترب كثيراً من الموت. إلا أن توقع قدوم نيكسون الوشيك ساعد على شفائه. فصُنعت له أحذية وملابس جديدة بما أن جسده أصبح منتفخاً. كما أن غرفة الجلوس حيث يُفترض إستقبال نيكسون، تحولت إلى جناح كبديل مؤقت مع سرير كبير ومعدات طبية. نقل الموظفون بعض هذه الأشياء إلى خارج الغرفة وأبعدوا السرير والمعدات الطبية الأخرى. كانت الغرفة الواسعة مليئة بالكتب القديمة التي أثارت إعجاب الأميركيين الذين لم يعرفوا أن العديد منها قد نُهب من جراء الغارات الوحشية التي جرت في الماضي القريب.

في الصباح، عندما وصل نيكسون، كان ماو شديد الحماس واستمر في التحقق من رحلة الرئيس. ما إنْ علمَ بوصول نيكسون إلى بيت الضيوف، الفيلا الإمبراطورية، أعرب ماو عن رغبته في مقابلته على الفور. كان نيكسون يتحضر للإستحمام عندما إستعجلهم تشو بـ«نفاد

صبر» على حدّ تعبير كيسينجر.

خلال الإجتماع القصير نسبياً- الذي دام 65 دقيقة (الإجتماع الوحيد بين نيكسون وماو في هذه الرحلة)، تجنب ماو أية محاولة للتكلم في مسائل جدية، ليس بسبب مرضه ولكن لأنه لم يرد أن يترك سجلاً بمواقفه بين أيدي الأميركيين. لا شيء يجب أن يؤثر على إدعائه بأنه القائد العالمي المعادي لأميركا(*). وقد دعا نيكسون الى بكين لترويج هذا الإدعاء وليس التنازل عنه. لذا، عندما عرض نيكسون مناقشة «المواضيع الراهنة مثل تايوان، الفيتنام وكوريا»، تصرّف ماو وكأنه أعلى مقاماً من هذه الأمور الصغيرة الشأن. قال مبدياً إنطباعاً من التجرّد المتغطرس: «هذه المسائل لا يتم مناقشتها في دياري. يجب مناقشتها مع رئيس الوزراء». وأضاف: «لا أريد التدخل كثيراً في كل هذه المشاكل المزعجة». ثم قطع الطريق على الأميركيين قائلاً: «هل يمكنني الإقتراح بأن تتكلم بإختصار؟» عندما أصرّ نيكسون على إيجاد «قاعدة مشتركة» وبناء «هيكلية عالمية»، تجاهله ماو وإنتقل إلى تشو ليسأله عن الوقت وقال: «ألم نتكلم بما يكفي الآن»؟

حرص ماو بشكل خاص على عدم الثناء على نيكسون، فيما إمتدحه كلّ من نيكسون وكيسينجر بشكل ينطوي على الرياء. قال نيكسون لماو: «إنّ كتاباتك حرّكت أمة بأكملها وغيّرت العالم». فشكره ماو بمجرد تعليق واحد متعال إذ قال: «إنّ كتابك، الأزمات الستة، لا بأس به».

بدلاً من ذلك، راح ماو يمزح ليحطّ من شأن نيكسون وكيسينجر، لاكتشاف مدى قدرتهما على مجاراته. عندما قال نيكسون: «لقد قرأتُ قصائدك وخطاباتك وعلمتُ بأنك فيلسوف متمرس»، إستدار ماو لينظر إلى كيسينجر وراح يسأل.

ماو: هل هو دكتور في الفلسفة؟

نيكسون: بل إنه دكتور في الأدمغة.

ماو: ماذا إنْ طلبتُ منه أن يكون المتكلم الرئيسي اليوم؟

إستمر ماو في تبادل الحديث مع نيكسون مُبدياً ملاحظات مثل: «لا يجب أن يحتكر كلانا العرض كله. لن ينفع إنْ لم ندعْ الدكتور كيسينجر يُبدي رأيه». إنتهك هذا الأمر البروتوكول وتجاوز حدود السياسة العامة وقلل من شأن نيكسون بالتأكيد. ما كان ماو ليجرؤ على التكلم بهذه الطريقة مع ستالين. ولكن على الرغم من تعظيم شأن كيسينجر على حساب نيكسون، إلا

(*) تأكد ماو مرتين أنه يسيطر على السجل من خلال عدم السماح للمترجم الأميركي بالحضور. انصاع نيكسون لذلك بدون اعتراض.

الشعب الصيني. ولم تتوقف الأعباء الإضافية هناك. مع إعتراف المزيد من الدول ببكين على أثر زيارة نيكسون، إزداد عدد الدول التي أرسلت إليها الصين المساعدات من 31 قبل عام 1970 إلى 66. أنفق ماو ما لا يقل عن 25 مليون دولار أميركي في نيسان 1972 على مالطا الصغيرة المساحة والأكثر إزدهاراً (يبلغ عدد سكانها 300 ألف نسمة). وعاد وزير خارجيتها دوم مينتوف من الصين حاملاً شارة ماو.

غالباً ما كان ماو يضطر إلى دفع ما يفوق الحدود المعقولة ليحافظ على موقعه مع الدول التي حاول مسبقاً القضاء عليها. أخبرنا مصدر سابق، الرئيس الزائيري موبوتو عن التمويل الذي أغدقه ماو عليه بسخاء، والذي سمح له بإرجاء القروض الى ما لا نهاية، وبإعادة دفعها بالعملة الزائيرية العديمة القيمة – على عكس صندوق المال الدولي والبنك الدولي. في السنوات الممتدة من 1971 إلى 1975، بلغت المساعدات الخارجية نسبة 5.88% من مجموع نفقات الصين وبلغت ذروتها بنسبة 6.92% عام 1973 وهي النسبة المئوية الأعلى في العالم وقد فاقت معدل الولايات المتحدة بسبعين ضعفاً على الأقل.

وفيما أهدر ماو المال والطعام وبنى السكك الحديدية تحت الأرض ومراكز بناء السفن والبنى التحتية لدول أكثر ثراءاً من الصين، عانى معظم الصينيين الذين يبلغ عددهم 900 مليون نسمة وكانوا على عتبة الفقر. في مواضع عدة، تذكر الفلاحون السنوات التي حصلت فيها أسوأ المجاعات بعد المجاعة العظمى بين 1958 و1961 وهي السنوات الممتدة من العام 1973 وحتى وفاة ماو عام 1976 أي السنوات التي تلت زيارة نيكسون.

غالباً ما نُسب الفضل إلى نيكسون في فتح الباب للصين. فقد زادت نسبة الحضور الغربي في الصين نظراً لأن عدداً من رجال الأعمال ورجال الدولة الغربيين بالإضافة إلى بعض الصحافيين والسياح كانوا قادرين على الدخول إلى الصين. ولكنه لم يفتح باب الصين – في الكثير من جوانبها– ولم يؤثر الحضور الغربي المتزايد على المجتمع الصيني في حياة ماو. وحرص هذا الأخير على إبقاء الصين سجناً محصناً للأغلبية الساحقة من الشعب الصيني. وحدها قلة من النخبة استفادت من عملية التقارب. فقد سُمح لبعضهم برؤية أقاربهم في الخارج تحت إشراف مشدد. وتمكّن عدد قليل من الأشخاص من الحصول على نصف دزينة من الكتب الغربية المعاصرة المترجمة في نسخات حُظّر الجمهور من الإطلاع عليها. وكان كتاب نيكسون الخاص، الأزمات الستة، من بين هذه الكتب. منذ عام 1973، أرسل بعض طلاب اللغات الأجنبية إلى الخارج ولكن توجب على القلة المحظوظين منهم بما يكفي للسماح لهم بالسفر، أن يكونوا موضع ثقة على الصعيد السياسي؛ فعاشوا وعملوا في ظل مراقبة مشددة ومُنعوا حتى من الخروج من مكان إقامتهم بدون مرافقة.

بقي الشعب بشكل عام، في عزلة تامة عن الأجانب القلائل المسموح لهم بالدخول إلى الصين والذين كانوا خاضعين لسيطرة مشددة. وأيّ حديث غير مسموح به معهم قد يسبب كارثة للأشخاص المحليين المعنيين. كان من الممكن أن يدوم النظام وقتاً طويلاً جداً. خلال زيارة نيكسون ليوم واحد إلى شنغهاي والتي تزامنت مع رأس السنة الصينية، المناسبة التقليدية للإجتماعات العائلية (مثل عيد الميلاد)، فطُرد آلاف الشبان الذين كانوا يزورون عائلاتهم، إلى قرى النفي كتحذير من إمكانية تذمّر أحدهم من الرئيس.

كان ماو بحدّ ذاته ونظامه، المستفيدين الحقيقيين من زيارة نيكسون. لم يُظهر نيكسون شرور ماو أمام الرأي العام في الغرب من أجل أهدافه الإنتخابية. وتحدّث نيكسون عن «تفاني» زمرة ماو الساخرة والتي أسماها كيسينجر «مجموعة من النسّاك...الذين حافظوا على نقاء الروح الثورية». أكّد رجال ماو على نحو مخادع «أن حياة الأعداد الضخمة من الصينيين قد تحسنت في ظل حكم ماو». وأثنى بيلي غراهام Billy Graham، المبشّر البروتستانتي المفضل لدى نيكسون على فضائل ماو أمام رجال الأعمال البريطانيين. قال كيسينجر إنّ طاقم ماو الصلب قد «يتحدانا بطريقة أخلاقية». وكانت النتيجة تكوين صورة عن ماو أبعد عن الحقيقة من تلك التي ساعد نيكسون نفسه على ترويجها باعتبارها صورة معادية للشيوعية في الخمسينيات.

لم يصبح ماو شخصية دولية جديرة بالثقة فحسب بل أيضاً شخصية ذات سحر لا يُضاهى. كان رجال دول العالم يقصدونه بشكل خاص. وكان يُنظر إلى فكرة الإجتماع مع ماو، وما زال يُنظر إليها أحياناً على أنها ذات أهمية وحيوية خاصة. وعندما دُعي الرئيس المكسيكي لويس إشيفيريا Luis Echeverria، تدافع محيطه للإنضمام إلى مجموعة الحضور. أخبرنا السفير الإسترالي أنه لم يجرؤ على الدخول إلى الحمام رغم إضطراره لقضاء حاجته، خوفاً من مغادرة المميزين القلائل فجأة من دونه. من جهة أخرى، قضى رئيس وزراء اليابان كاكوي تناكا Kakuei Tanaka حاجته في دارة ماو الذي رافقه إلى الحمام وإنتظره خارجاً.

إحتمل رجال الدولة حالات تجاهلٍ ما كانوا ليتغاضوا عنها مع قادة آخرين. لم يتوقف الأمر عند عدم إخبارهم مسبقاً ما إذا كانوا سيقابلون ماو، بل تمت دعوتهم أيضاً، وبحزم، بحسب الوقت الذي يناسب الرئيس، وعليهم الحضور مهما كانوا يفعلون، حتى عند تناولهم لوجباتهم. إنّ رئيس وزراء كندا بيار ترودو الذي لم يُطلب منه مقابلة ماو، وجد نفسه فجأة يخضع لأوامر تشو «حسناً، علينا إرجاء الإجتماع الآن. لديّ أعمال أخرى أقوم بها وأنت كذلك» بدون إطلاعه على السبب.

عندما إلتقى ماو بالأجانب، راح يتباهى بآرائه ونظرته الساخرة والديكتاتورية. قال للرئيس الفرنسي جورج بومبيدو: «كان نهج نابوليون هو الأفضل. فقد حلّ كل الجمعيات

وعيّن بكل بساطة تلك التي ستحكم معه». وعندما أعرب رئيس الوزراء البريطاني إدوارد هيث عن تفاجؤه لوجود صورة ستالين في ساحة تيان ان مين وأثار واقع أن ستالين قتل الملايين من الناس، لوّح ماو بيده بطريقة رافضة إشارةً إلى قلة إكتراثه وأجاب: «ولكن صورته معلقة هناك لأنه كان ماركسياً». حتى أن ماو نجح في التأثير على القادة الغربيين بلهجته الغريبة. بعد إعراب رئيس الوزراء الأسترالي غوو ويتلام Gough Whitlam عن بعض الشكوك حيال الإجابة الصحيحة على سؤال حول داروين، كتب لماو ما أسماه في مذكراته «النقد الذاتي». عام 1997، عندما كُشف الكثير عن ماو، وصفه كيسينجر «بالفيلسوف»، وإدعى أن هدف ماو هو «البحث عن الفضيلة المساواتية».

أحبَّ ماو إجراء مقابلات رسمية مع زوار مرموقين، واستمر في ذلك حتى أيامه الأخيرة، فيما أنبوب الأوكسجين على طاولته الجانبية مخفياً بكتاب أو صحيفة. بالنسبة إليه، كانت هذه المقابلات تمثل مجداً عالمياً.

كما أن زيارة نيكسون فتحت أمام ماو إمكانية بسط يديه على الأسلحة النووية الأميركية.

لطالما كان الحصول على أسرار عسكرية أمراً رئيسياً بالنسبة إلى سياسة ماو مع أميركا. فقال ديكتاتور كوريا الشمالية كيم: «إنّ الهدف الوحيد من هذه العلاقات هو الحصول على التكنولوجيا المتطورة». وعرف ماو أنه يستطيع تحقيق هدفه فقط إذا إعتبرته أميركا حليفاً لها. وليقدم تفسيراً مقبولاً لهذه النقلة النوعية في موقفه الثابت المعادي لأميركا، إدعى ماو أنه يخشى وقوع هجوم روسي وبالتالي يحتاج إلى حماية. تحدث ماو علناً عن عقْد حلف عسكري في شباط 1973، بما أنه رسم القاعدة الأساس منذ زيارة كيسينجر الأولى. قام كيسينجر بإبلاغ نيكسون قائلاً: «لقد تفوق الإتحاد السوفياتي على محادثاتنا». وفيما سجّل ذلك في مذكراته، تم إفهامه بأن «نزاع الصين مع الإتحاد السوفياتي متجذر، ويفوق قدرتها على تدبّر أمرها بنفسها». عندئذٍ، قال ماو لكيسينجر: «يجب أن نرسم خطاً أفقياً» (أي حلف) مع الولايات المتحدة، اليابان، الصين، باكستان، إيران، تركيا وأوروبا[*]». كل البلدان التي ذكرها ماو بإستثناء الصين تضمنت قواعد أميركية (موظفون عسكريون أميركيون في إيران) وضمّ بعضها أسلحة نووية أميركية – وهو ما كان ماو يسعى إليه فعلاً عندما عرض فكرة الحلف العسكري.

ولجعل الفكرة أكثر جذباً، قال ماو وتشو إنّ الصين تود أن يتم الحلف بقيادة أميركا. سجّل

[*] في المحضر المنشور باللغة الانكليزية والذي وفره الصينيون، لا ذكر «للصين» لكن الكلمة موجودة في السجل الصيني.

كيسينجر أن تشو «طلب منا أن نقوم بتنظيم إئتلاف مضاد للسوفيات».

لم يكن ماو خائفاً من حصول هجمة سوفياتية. فرغم أنه خشي حدوثها فعلياً كما أظهر عام 1969، إلا أنه أصبح واضحاً منذ ذلك الوقت أن فرص حصول ذلك مستبعدة تماماً. إنّ الطريقة التي إحتال بها للحصول على الأسرار العسكرية الأميركية تلاها نموذجاً مشابهاً لمقاربته الماضية مع موسكو. لقد إستغل خوف «أميركا مرتين في العامين 1954 و1958 مستخدماً القنابل الذرية في مواجهاته مع تايوان ليحصل على مساعدة خروتشيف أولاً لصناعة قنبلته الخاصة، وثانياً لعقْد صفقة تمنحه ترسانة عصرية عبر الحدود. وهو الآن يعاود إستغلال مخاوف الحرب للحصول على جائزة مشابهة من أميركا.

في مرحلة ما في شباط 1973، ألمح ماو الى ما فكر به حيال «التهديد السوفياتي». عندما وعد كيسينجر بأن تهبّ الولايات المتحدة لإنقاذ الصين «في حال إطاحة الإتحاد السوفياتي بالصين»، أجاب ماو الذي سبق أن أثار هذا الموضوع بنفسه، ضاحكاً: «كيف سيحصل ذلك؟ كيف أمكن ذلك؟... أتعتقد أنهم سيشعرون بالرضا إذا عجزوا عن التقدم في الصين؟» أمام إرتباك كيسينجر، أعاد ماو التفكير بما قاله، وعاد يطلب إغاثة كاذبة.

ولإقناع الولايات المتحدة، وحثها على الظن برغبته فعلاً في التحالف معها، أشار ماو إلى أنه وواشنطن يتشاطران عدواً مشتركاً: هانوي. شعر كيسينجر أن «المصالح الأميركية والصينية كانت متوازية في الهند الصينية. فقد كانت الفيتنام الشيوعية الموحدة والمهيمنة في الهند الصينية تشكل كابوساً إستراتيجياً للصين...» لم يكن موقف ماو خيانةً للفيتناميين فحسب، بل أيضاً خيانة عظمى للصينيين الذين تم تجويعهم لعقود خلت من أجل مساعدة الفيتناميين – ضد «الإمبريالية الأميركية».

أضاف ماو لمسة شخصية لتليين كيسينجر، عبر التلميح إلى نجاح كيسينجر مع النساء. «هناك بعض الشائعات التي تقول إنك كنتَ على وشك الإنهيار. (ضحك)». وتواصل الإجتماع. «والنساء الجالسات هنا كنّ غير راضيات بذلك (ضحك خاصةً في صفوف النساء). قلنَ: إنْ كان الدكتور (كيسينجر) سينهار، سنصبح عاطلات عن العمل». «أتريد نساءنا الصينيات؟ نستطيع منحك عشرة ملايين (ضحك خاصةً في صفوف النساء)».

بعد بضعة أسابيع، في 16 آذار، كتب نيكسون رسالة سرية لماو مصرّحاً بأن وحدة الأراضي الصينية تشكل «عنصراً أساسياً» للسياسة الخارجية الأميركية، بلغة تعبّر عن إلتزامه بالدفاع عن الصين عسكرياً في حال تعرّضها للهجوم. أراد الصينيون معرفة ما يعنيه ذلك تحديداً.

أخبر كيسينجر الصينيين في 6 تموز عن تشكيل «مجموعة سرية جداً من أربعة أو خمسة من أفضل الضباط الذين يمكن إيجادهم» لدراسة ما يمكن للولايات المتحدة أن تفعله.

من بين الأفكار المطروحة، يُذكر تأمين خط تموين جوي لقذائف المدفعية النووية الأميركية وصواريخ نووية في ساحة القتال للقوات الصينية خلال الحرب. والخيار العملي الوحيد الذي إقترحته المجموعة، هو نقل القاذفات التكتيكية الأميركية إلى الصين مزودةً بالأسلحة النووية، وشن هجمات نووية على القوات السوفياتية من المهابط الصينية. أدى ذلك إلى إمكانية تركيز الأسلحة النووية الأميركية على أرض صينية.

في 19 تموز، كشف كيسينجر لجماعته عن طريقة تفكير البيت الأبيض: «كل هذا الكلام حول 25 سنة من الإقصاء المتبادل كان مجرد هراء. جلّ ما أراده الصينيون هو الدعم في الإمكانية العسكرية»(*). تكشف المذكرة عن إدراك كيسينجر لتفكيره وتفكير نيكسون بفعل شيء لا يمكن تخيله: «قد لا ننجح في ذلك ولكن على الأقل فهمَ (كيسينجر) والرئيس الأمر. أحبَّ أليكس إيكستاين وغيره من الليبراليين في الصين، ولكن إنْ سئلوا عن العمليات العسكرية المشتركة، قد يصابون بـ600 نوبة قلبية».

أدرك نيكسون وكيسينجر أن ماو مهتم بالبراعة العسكرية، ووافقا على تزويده ببعض الأمور الأساسية. في 6 تموز، قال كيسينجر لمبعوث ماو:

> لقد تكلمتُ مع وزير الخارجية الفرنسي حول إهتمامنا بتعزيز قوة الصين الشيوعية. سنفعل ما بوسعنا لتشجيع حلفائنا على تسريع عجلة المطالب التي يتلقونها منك للدفاع عن الصين.
>
> وبشكل خاص، طلبتم الحصول على التكنولوجيا المتعلقة بسيارات الرولز رويس. إننا نعترض على ذلك بموجب الأنظمة القائمة ولكننا أجرينا بعض التدابير مع البريطانيين لتكون هناك معارضة رسمية فقط. لا ترتبكوا مما نفعله علناً...

كان القرار هاماً بالنسبة إلى صناعة الطائرات في الصين والتي كانت جميعها موجهة عسكرياً ومتداعية لدرجة أن منتجاتها كانت غير نافعة عملياً. في نيسان 1972، حذّر تشو الألبانيين من عدم محاولة التحليق طائرات MiG – 19 الصينية الصنع. بعد ستة أشهر، إنفجرت في الجو طائرة محمّلة إلى دولة أخرى، فتوقفت على أثرها كل عمليات شحن الأسلحة إلى ما وراء البحار. أخبر تشو رؤوساء دول العالم الثالث عن عدم تمكّنه من الإستجابة إلى طلباتهم الملحة للمروحيات الصينية لأنها غير آمنة.

إنّ الولوج إلى التكنولوجيا الغربية، حقق ثورة في صناعة الطائرات في الصين، وربما يكون قد دفع برنامجها الصاروخي الواهن إلى الأمام مع دخول رؤساء الأسلحة في مفاوضات

(*) غاص كيسينجر في مسألة رغبة الصينيين الشديدة بتحالف من خلال اقتراح «مساعدة عسكرية صينية» ضد الهند خلال الأزمة البنغلاديشية في كانون الال 1971.

حول تكنولوجيا الرولز رويس. إضافةً إلى ذلك، شجّع كيسينجر سراً بريطانيا وفرنسا على بيع تكنولوجيا المفاعل النووي المحظورة للصين. كان ماو يمضي قُدماً للحصول على ما كان يهدف إليه دائماً.

أقلق انفتاح ماو على الأميركيين الروس. ففي حزيران 1973، حذّر بريجنيف نيكسون وكيسنجر (كما أعاد كيسينجر صياغة التحذير أمام من كانوا صلة الوصل مع الصينيين) «من مغبّة وقوع عواقب وخيمة كبيرة وإرغام السوفيات على إتخاذ تدابير جذرية في حال إعداد ترتيبات عسكرية بين الولايات المتحدة والصين الشيوعية. كان هذا الحديث مع بريجنيف الذي يتعلق بالأمن القومي الأميركي، وثيقاً مع مبعوث ماو الذي كان حاضراً في البيت الأبيض الغربي خلال المحادثات بين نيكسون وبريجنيف ولكن ليس مع حلفاء أميركا - الحكومة الأميركية بحد ذاتها». قال كيسينجر لمبعوث ماو «لم نُطلع أحداً على مضمون هذا الحديث. يجب أن يبقى سرياً».

كان التخفيف من خطر شن حرب على روسيا، أحد الأهداف المزعومة لرحلة نيكسون إلى بكين. إلا أن نسبة هذا الخطر زادت بفضل ماو.

55- الزعيم يحرم تشو من علاج السرطان (1972-1974؛ العمر 78-80 سنة)

في منتصف أيار 1972، بعد زيارة نيكسون، تبين ان تشو إن لاي يعاني من سرطان في المثانة. ففي ظلّ حكم ماو لم تكن معالجة المرض المهدد للحياة مجرد مسألة طبية. كان ماو يتحكم بزمان وكيفية حصول أعضاء مكتبه السياسي على العلاج. فعلى الأطباء ان يراجعوا ماو أولاً، فقد طلبوا جراحة فورية لتشو مشددين على أن المرض في مراحله الأولى، وأن السرعة في العلاج قد تشفيه.

وفي 31 أيار أصدر ماو قراراً: «أولاً احتفظوا بالسرّ ولا تقولوا لرئيس الوزراء [ولا لزوجته]؛ ثانياً منع الفحص الطبي؛ وثالثاً لا للجراحة...».

وكان ماو يعزي رفضه للعلاج إلى «كبر سن» تشو (فكان يبلغ من العمر 74) وكان يشكو من «مرض في القلب» وأن «لا فائدة» من الجراحة. ولكن ماو نفسه كان في الـ78 من العمر ويشكو من أمراض قلبية أكثر سوءاً، ولطالما كان الجراحون وأطباء البنج في حالة تأهب في كل لحظة.

إن أحد الأسباب رفض ماو ذهاب تشو الى المستشفى للمعالجة هي ليبقى تشو حاضراً للعمل على مدار الساعة وليتعامل مع القادة الاجانب الذين كانوا ينتظرون في الصف بعد زيارة نيكسون. فمنذ أوائل الأربعينيات كان تشو الرجل الديبلوماسي الأساسي لماو. وتمركز خلال الحرب ضد اليابان لسنوات طويلة في تشونغكينغ، عاصمة تشيانغ كاي-شيك وبفضل مزيج من السحر والمهارة والانتباه الى التفاصيل، أكسب الشيوعيين أصدقاء كثيرين من بين الأجانب. وبعد أن بدأت الحرب الأهلية بعد استسلام اليابان، تمحور حول جورج مارشال مبعوث الرئيس هاري ترومن والذي ساهمت قراراته الى حد بعيد في غزو ماو للصين. وبعد تأسيس الصين الحمراء، كان تشو منفذ سياسة ماو الخارجية وركن من أركان ديبلوماسيته. وبعد 3 أيام من بدء المحادثات عام 1971 دهش كيسينجر بموقف تشو «البطولي» كما كتب في تقريره لنيكسون:

> إن محادثاتي الطويلة مع تشو بشكل خاص، تمتعت بنكهة وطعم وتنوع مأدبة طعام صينية. تم تحضيرها حسب التقاليد الغنية والعريقة، وخُبِزَت بدقة على يد خبير، وقدمت في محيط

بسيط، وتضمنت أطباق مختلفة بعضها حلوة والأخرى حامضة [إلخ، إلخ]...
ونذهب في النهاية بعد تناول كلّ هذه الأطباق الصينية راضين ولكن غير مشبعين.

إلاّ أن تشو ورغم نجوميته، كان يختفي بشكل وضيع أمام ماو في حضور الأجانب. وقد علّق كيسينجر، بحضور ماو، «يبدو تشو شخصية ثانوية»؛ في حين ذهب رئيس وزراء اليابان تاناكا أبعد من ذلك. وقال بعد زيارة قام بها للصين في أيلول 1972 «تشو ليس بشيء أمام ماو»، بعدما أعيدت العلاقات الديبلوماسية (وتنازل ماو عن كل طلبات تعويضات الحرب). كان شعار تشو في التعامل مع ماو: «تعامل دائماً وكأنك تمشي على الجليد الدقيق».

ولكن استضافة رؤوساء الدول الأجنبية لم تكن السبب الوحيد والأساسي لعدم موافقة ماو على أن يخضع تشو لجراحة. كان ماو يريد أن يبقى تشو قريباً ودائم الاستعداد، لكنه لم يرد أن يشفى من مرضه؛ ولم يشأ أيضاً أن يعيش تشو الذي يصغره بـ4 سنوات أكثر منه. وكان ذلك تعويضاً تعيساً لعقود من الخدمة تضمنت أيضاً عناية بصحة ماو تفوق الواجب. كان تشو قد اختبر بعض أدوية ماو على نفسه وحتى قطرة عينه «ليرى ما إذا كانت تحرق» على حدّ قوله.

ورغم أن الأطباء منعوا من القول لتشو أنه مصاب بالسرطان، فقد تنبّه للأمر بسبب فحص البول المتكرر الذي طلبوه منه، والطريقة الغامضة التي كانوا يتصرفوا بها. فلجأ إلى قراءة كتب طبية بنفسه. وعَلِمَ ماو أن تشو قلق من العلاج، واستغل الفرصة ليمارس بعض الابتزاز عليه. وبعد هروب لين بياو وموته في أيلول الماضي، كان ماو يَقِظاً على مدى سلطة تشو إذ كان يدير كلّ شيء – الحزب، الحكومة والجيش. فقرر ماو أن يستغل قلق تشو ليجعله يقوم بشيء ليضعفه إلى أقصى حدّ. فأمره أن يقوم تشو بإدانة ذاتية مفصّلة حول «أخطائه» الماضية أمام 300 من كبار الرسميين.

بالإضافة إلى ذلك، أمر ماو أن يعطي تشو لهؤلاء الرسميين وثيقة اتهامية اجرامية شخصية. ففي 1932 بعد أن حلّ تشو ماو كقائد للحزب في الدولة الحمراء، أظهرت بشكل غريب رويجيم Ruijim «إشعار بالاعتراف العلني» في صحافة شانغهاي، حاملة اسم تشو المستعار، وتبين أن كاتبها يدين الحزب الشيوعي وينكره. خاف تشو من هذا التلطيخ، وخشي بشكل خاص من أن يكون ذلك نتيجة لأعمال ماو، فصار يقترب منه. ومنذ ذلك الحين عَرف ماو أن لديه أداة فعالة لتهديده. وعندما بدأت الثورة الثقافية، بعد مرور أكثر من 3 عقود لاحقاً، أبقاها ماو تحوم فوق رأس تشو. والآن ها هو يشير إليها ثانية.

أمضى تشو أياماً وليالٍ طويلة وهو ينظّم خطابه المذل الذي كان طويلاً ومسهباً وتطلب

إنهاؤه 3 ليال. كان شديد القساوة على نفسه ومثيراً للشفقة، حتى أن بعض المستمعين انكمشوا خوفاً، ألماً وارتباكاً. وفي النهاية أعلن: «لطالما فكرت وسأفكر أن ليس بوسعي ان أكون في الطليعة ولن أكون إلا مساعداً». كان هذا بمثابة محاولة يائسة للتعهد بأن لا طموح له في أن يأخذ مكان ماو وأنه لا يشكل تهديداً لذلك.

في هذه الفترة كان تشو يعيش حياة مزدوجة، فريدة من نوعها في سجلات تاريخ السياسة الحديثة. فبعيداً عن الأنظار، سواء في الصين أو في الخارج، كان عبداً مهدداً يعيش في خوف عدم معالجة مرضه السرطاني و الخوف من التطهير؛ ولكن بالنسبة الى العالم الخارجي كان يعطي صورة الرجل القوي المتألق، يستقبل قادة الدول، ومعظمهم يرون فيه الرجل السياسي المثير للخشية والإعجاب والجاذبية.

ولكن حتى بعد أن قام تشو بما طلبه منه ماو، كان هذا الأخير لا يزال يرفض له العلاج. ففي بداية 1973 كان بول تشو يحتوي كمية كبيرة من الدم وهذه إشارة إلى أن الورم أصبح أسوأ بكثير. فالآن فقط أُبلغ رسمياً بأنه مصاب بالسرطان؛ ولكن عندما طالب الأطباء بالسماح بإجراء فحوصات كاملة ومعالجته، رفض ماو ذلك عبر حاجبه في 7 شباط قائلاً إن تشو طاعناً في السن بحيث يمكنه أن يموت؛ وأضاف «لماذا بحق الجحيم تريدون إجراء فحوصات؟».

ثم بعد مرور أسبوع، قام تشو بخدمة خالصة لماو الأمر الذي أبهج مزاج ماو. وعندما كان كيسينجر في بكين في شهر شباط، وادّعى ماو أنه يريد حلفاً كي يحصل على الأسلحة النووية الأميركية، قام تشو بعمل ممتاز في جعل حجة ماو مقبولة. وأخيراً وافق ماو أن يخضع تشو للعلاج بعد أن طلب منه هذا الأخير ذلك بشكل متواضع. ولكن ماو فرض بعض الشروط فقبل أن يكون العلاج «على مرحلتين»، سامحاً فقط بالفحوصات وقائلاً إن على الجراحين أن يتركوا الورم وأن يتم استئصاله في «مرحلة ثانية». وعندما وصل الأمر الى شفاء تشو كلياً، كان ماو مبدعاً في منع تشو من الخضوع لعلاج نهائي.

أدرك رئيس قسم الأطباء من عدم وجود «مرحلة ثانية» وقرر أن يخالف مطالب ماو ويستأصل الورم خلال عملية الفحص الذي تمت في 10 آذار.

لكن قبل ذلك، ذكّرت السيدة تشو للجراحين: «تعرفون أنه يجب أن تقوموا بعملكم على مرحلتين أليس كذلك؟» فسأل رئيس الجراحين «ولكن إذا رأيت ورم خلال الفحص... هل أتركه هناك...؟» فوافقت على استئصاله. وعندما استعاد تشو وعيه وعلم أن الورم استئصل، قلّد ماو قليلاً ووبّخ الأطباء: «ألم يُطلب منكم أن تقوموا بعملكم على مرحلتين؟» ولكنه بدا مسروراً جداً ودعى الفريق الطبي الى حفل عشاء فاخر تضمن بطاً من بكين.

كان الأطباء قلقين حول ردة فعل ماو لعملهم، وبدوا مرتاحين عندما تلقوا رسالة هاتفية

«حسناً فعل الأطباء في ضمّ المرحلتين». ورغم أن المدح كان يتضمن سخرية، فقد أشار إلى أن ماو قبِل بالخضوع للأمر الواقع. علماً أنها لم تكن عملية جراحية كاملة.

لم يدم مزاج ماو اللطيف طويلاً. ففي 22 حزيران 1973 وقّع بريجنيف ونيكسون على معاهدة حول منع الحرب النووية؛ وعندما قرأ ماو تحليل وزارة الخارجية التي أقرت أن ذلك يظهر «أن العالم اقتنع أكثر من أي وقت بسيطرة قوتين كبيرتين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي»، غضب كثيراً. كانت زيارة نيكسون الى بكين قد رفعت آمال ماو (على حد تعبير كيسينجر) «إن الثنائية القطبية لفترة ما بعد الحرب قد انتهت».

ولكن ماو رأى أن ذلك ليس صحيحاً، وأنه لم يقلّب ميزان القوى في العالم. في هذه الأثناء، دفع صورته العالمية ثمناً لعبثه مع أميركا. قال ماو لمعاونيه: «استاءت سمعتي كثيراً في السنتين الاخيرتين». «ماركس الوحيد في العالم، والمناورة الوحيدة هي الآن في أوروبا. هناك [وكان يقصد ألبانيا التي غضبت كثيراً منه بسبب زيارة نيكسون] حتى قذارتهم تعتبر معطرة وتعامل كمراسيم امبريالية... وأصبحت أنا متطرفاً يمينياً وشخصاً انتهازياً».

صب ماو غضبه على تشو. فقد كدس الكثير من الاشمئزاز تجاه تشو حول التعامل مع أميركا. ولكن رغم أن ماو هو الذي خطط لزيارة الرئيس الأميركي ولنهاية عزل بكين ديبلوماسياً، فغالباً ما كان تشو هو الذي يحظى بشرف التقدير. (هذه بعض الأفكار المشابهة لغيرة نيكسون من كيسينجر). وفي 4 تموز، أرسل ماو كلمة للمكتب السياسي للحزب قائلاً إن تشو«ينتمي الى الحركة الاشتراكية الماركسية الثورة المؤيدة لروح التطور» وأدين تشو بمرحلة جديدة من الإذلال الذاتي.

وما أن أوشكت هذه الأزمة على الانتهاء، حتى بدأت أخرى تقع على رأس تشو وكانت أسوأ من الأولى. فقد عاد الى الصين في تشرين الثاني (الآن بصفة وزير خارجية) ضارباً بالتالي طموحات ماو ضربة أخيرة. فقبل 9 أشهر، كان كيسينجر قد وعد بأن واشنطن ستسعى إلى علاقات ديبلوماسية كاملة«بعد انتخابات لسنة 1974» [الأولية]؛ والآن قال إن الحالة الداخلية» للولايات المتحدة تحول دون خدمة العلاقات مع تايوان «فوراً» - وكانت بكين قد أصرّت على ذلك كشرط مسبق لعلاقات ديبلوماسية. لم يكن ماو ليحكم تايوان قط، أو ليحصل على اعتراف ديبلوماسي من أميركا.

والأسوأ بالنسبة الى ماو، أن أحلامه بالتمتع بسلطة عسكرية بفضل الولايات المتحدة ذهبت سدى. لن يكون للصين أي أسلحة نووية أميركية. كلّ ما كان بوسع كيسينجر أن يقدمه هو نظام «إنذار مبكر» لاكتشاف قاذفة الصواريخ السوفياتية. «سوف أدرسها» أجاب

تشو، لكن كيسينجر لم يعد يسمع. وهكذا، لم يكن للاقتراح أي فائدة بالنسبة لماو، وهو لم يكن يؤمن بهجوم روسي. توقف الصينيون عن التحدث عن حلف عسكري مع أميركا أو «التهديد السوفياتي» على الصين(*).

عزا ماو هذه العوائق إلى فضيحة ووترغايت Watergate التي كانت تهدد رئاسة نيكسون، ونتيجة لذلك لم يكن باستطاعته أن يخاطر. قضى ماو بعض الوقت يتحدث الى كيسينجر حول واترغيت قائلاً إنه «ليس سعيداً بذلك» وإنه لا يستطيع أن يتفهم سبب كل هذا «الهراء»؛ كما كان يشكو باستمرار من واترغيت أمام رؤوساء دول أخرى. وقال للرئيس الفرنسي بومبيدو إنه لا يمكنه فهم أسباب كل هذا «الهرج و المرج». وسأل رئيس وزراء تايلاندا «ما الخطأ في حمل آلة مسجلة؟» وكان يسأل «أليس للقادة الحق في القيادة؟» وفي أيار 1974 عندما كان مصير نيكسون غير مستقر، سأل ماو رئيس الوزراء البريطاني السابق هيث «هل يمكنك أن تمدّ له يدّ العون؟»

وبسبب ووترغايت أجبر نيكسون على الاستقالة في 9 آب 1974. ونادراً ما عُرف أن واترغيت ساهمت أيضاً في إنهاء حلم ماو بأن يصبح قوة عظمى.

بات الآن برنامج القوة العظمى في حالة سيئة جداً وذلك رغم عقدين أمضاهما في استهلاك كميات ضخمة من الاستثمار الوطني. كان مصنع الأسلحة ذو التكنولوجية العالمية يصنع بكامله أجهزة فيها خلل وغير قابلة للاستعمال وبالتالي كانت بحاجة ماسة إلى دعم خارجي؛ وبما أن روسيا أصبحت مسألة خاسرة، أمِلَ ماو في أن تعيد له أميركا الأمل بالحياة؛ لكن رحلة كيسينجر في تشرين الثاني 1973 التي كانت تحت راية واترغيت أقفلت هذا الباب. كان ماو غير قادر على عرض أية استراتيجية جديدة؛ فرغم كونه مخططاً ممتازاً فقد بلغ قاع البرميل.

كان الآن ماو في الـ 80 من عمره وطاعناً في مرضه. وأخيراً سلّم بأنه لن يصبح قوة عظمى في حياته. ولن يستطيع أن يسيطر على العالم أو أي جزء منه خارج الصين(*).

وسرعان ما بدا عدم سرور ماو واضحاً أمام الأميركيين. فقد ألغيت الاجتماعات من قبل الفريق الصيني وانحرف التعاون عن الخط المرسوم. ولاحظ كيسينجر أن العلاقات الصينية الأميركية باتت «مجمدة فعلياً»، وزياراته المقبلة إلى الصين «كانت إما حارة جداً أو يسودها

(*) قال كيسينجر بعد ذلك (إلى السفير الروسي لدى واشنطن) إنه كان قد «أخطأ في تأسيس رؤياه على حتمية هجوم سوفياتي على الصين».

(*) كان ماو يرى أن عملية نقل التكنولوجيا من الغرب بطيئة جداً بالنسبة إليه. إن الصفقة حول محركات سيارات Rolls-Royce التي وفرها كيسينجر لم تمض بعد لمدة سنتين ولم تصنع هذه المحركات في الصين إلى بعد مرور فترة طويلة على وفاة ماو. وتم توقيع أول اتفاق على التكنولوجيا العالية مع الولايات المتحدة في تشرين الأول 1976 بعد وفاة ماو. لم يستطع ماو أن يفرض جدول أعماله على الدول الديمقراطية، وعلى الصناعة الحديثة.

في الواقع، وعد ماو ألاّ يطارد تشو بعد الآن. وبعد أن تلاعب ماو بشرف تشو ونشاطه، أراده أن يكون دائماً حاضراً في خدمته. وكانت أبرز أعمال تشو الأخيرة في مساهمته في سياسة ماو الخارجية، مراقبة الاستيلاء الفيتنام الجنوبية في كانون الاول 1974 على جزر باراسل Paracel الاستراتيجية (aka Xisha) في بحر الصين الجنوبي، قبل أن تقع في أيدي «رفاق» بكين الفيتناميين.

في هذه الأثناء كان تشو يفقد كميات كبيرة من الدم لدرجة أنه كان يحتاج الى نقل الدم إلى الوريد، مرتين في الأسبوع. وغالباً ما تجمد الدم داخل مجرى البول فاستحال أن يبول، ورآه الأطباء يقفز من جهة إلى أخرى متألماً، منازعاً يحاول إخراج الدم المتجمد. حتى في هذه الحالة الصحية، كان لا يزال ملاحقاً. وذات مرة، خلال عملية نقل للدم، وصلت رسالة تدعوه فوراً الى اجتماع للمكتب السياسي للحزب. طالب أطباؤه بـ20 دقيقة لإنهاء عملية نقل دم. بعد بضع دقائق وصلت رسالة أخرى عبر الباب، وهذه المرة من زوجة تشو تقول : الرجاء قولوا الرئيس الوزراء أن يرحل. بدا تشو غضباً كبيراً وهو يقول: اسحبوا الإبرة! وبعدها عرف الأطباء لاحقاً أن الأمر لم يكن طارئاً.

وُجِه توسل الأطباء لماو بإجراء عملية جراحية حقيقية، بجواب صارم في 9 إيار 1974: «العمليات الجراحية مرفوضة الآن، ولا مجال للجدال أبداً». كان ماو ينوي أن يأكل الورم تشو حتى الموت. ثمّ توسل تشو نفسه لذلك عن طريق 4 قادة بارزين عينهم ماو لمراقبة «عنايته» الطبية. عند هذا الحد، وافق ماو مكرهاً: «فليرى تون رازاك Tun Razak وثم نتحدث عن الأمر». كانت زيارة رازاك رئيس الوزراء الماليزي متوقعة في آخر الشهر، ودخل تشو المستشفى في 1 حزيران – بعد أن وقعّ على بيان يوطد العلاقات الديبلوماسية مع ماليزيا. فالآن فقط سُمح له بإجراء أول عملية جراحية حقيقية، بعد مرور سنتين على تشخيص إصابته بالسرطان. وكان هذا التأخير من شأنه أن يؤكد موته بعد مرور 19 شهراً، وقبل وفاة ماو.

وافق ماو أخيراً على إجراء عملية جراحية لتشو، لأنه صار يشعر نفسه متهالكاً نتيجة تدهور حالته الصحية الشخصية. فقد أصبح شبه أعمى، وأكثر قلقاً؛ فبالنسبة اليه بدأ يفقد السيطرة على أجزاء من جسمه. ففي هذه الحالة لم يشأ أن يقحم تشو في الزاوية ويجعله يشعر بأن لن يخسر شيئاً، وباستطاعته أيضاً أن يتخذ تدابير شديدة.

وبعد شهر على خضوعه لعملية جراحية، عَلِمَ تشو خبراً مروعاً: ماو يعاني من مرض نادر ولا يمكن شفاؤه ولن يعيش أكثر من سنتين. فقرر تشو ألا ينقل هذه المعلومات لماو.

إن هذا الإدراك بدّل العلاقة بين تشو وماو، إذ أصبح تشو الآن رجلاً أكثر جرأة.

56- السيدة ماو في الثورة الثقافية
(1966-1975، العمر 72-81 سنة)

كانت جيانغ كينغ آخر زوجات ماو تعتبر امرأة شريرة تتلاعب بماو. شريرة حقاً، لكنها لم تنشأ على السياسة وكانت دائماً خادمة ماو المطيعة، منذ زواجها عام 1938. وبعد وفاة ماو وصفت علاقتها: «كنت كلبة الرئيس ماو؛ فكلما طلب مني الرئيس ماو أن أعض كنت أنفذ»؛ ففي السنوات الأولى لعملية التطهير الكبير، ترأست المجموعة الصغرى، مكتب ماو الذي كان يتعامل مع التطهير، وبعد ذلك أصبحت عضو في المكتب السياسي؛ في هذه المناصب، كان لها دور كبير في تدمير حياة عشرات آلاف الأشخاص. كما ساهمت في مساعدة ماو في تدمير الثقافة الصينية وإبقاء الصين صحراء ثقافية.

إن المبادرة الوحيدة الفردية التي اتخذتها أثناء فترة التطهير كانت استغلال منصبها للتوصل إلى الثأر الشخصي. انتقمت مثلا من فنانة تدعى وانغ يينغ Wang Ying التي ربحت منذ عقود سابقة دوراً مسرحياً، لطالما أرادته السيدة ماو لنفسها، وعاشت بالتالي سنوات فاتنة في أميركا تؤدي أدواراً في البيت الأبيض لعائلة روزفلت. توفيت وانغ يينغ في السجن.

كان للسيدة ماو نقطة ضعف واحدة: ماضيها في شانغهاي. فكانت تعيش دائماً في هاجس انكشاف فضائحها وتصرفاتها في السجن أيام القوميين، الى العلن. لذلك، زُج في السجن زملاؤها القدامى، أصدقاؤها، عشيقها، أصدقاء عشاقها، وحتى خادمة وفية لها في السجن، ومعظمهم لم يخرجوا منه أحياءاً.

وكان هاجسها الآخر استرجاع رسالة كتبتها بعد شجار مع ماو عام 1958. ففي فورة جنون مؤقت، كتبت رسالة لصديق سابق وهو مخرج أفلام سينمائية طالبة منه عنوان زوج سابق لها تانغ نا Tang Na يعيش في باريس. ورافقها هاجس نتيجة هذا العمل الطائش منذ ذلك الوقت.

بعد 8 سنوات وما أن صار لها سلطة، طالبت باعتقال مخرج الأفلام القليل الحظ وعدد من رفاقها، ونقّبت منازلهم. مات مخرج الأفلام نتيجة التعذيب في السجن مبرراً دون جدوى أنه أتلف الرسالة.

نتيجة لكل هذا الدم على يديها لاحقها باستمرار شبح القتل. وفي أوّج نفوذها، تولد لديها

خوف هائل من الغرباء، وحتى من الأصوات غير المتوقعة، كما حصل مع ماو عشية غزو الصين. وعندما انضم إلى موظفيها سكرتير جديد عام 1967 رحّب به السكرتير السابق قائلاً «رفيقي إن جيانغ كينغ ليست بحالة جيدة... فهي تخشى الأصوات والغرباء بشكل خاص. فكلما سمعت صوتاً أو رأت شخصاً غريباً، تبدأ بالتعرق وتفقد صوابها. فكلّ ما نقوم به في هذا المبنى - التحدث، المشي، فتح النوافذ والأبواب وإغلاقها - يجب أن يتم بحذر كبير خشية إصدار أي ضجة. الرجاء كن حذراً جداً. لا تراها مدة طويلة، وحاول جاهداً أن تبقى بعيداً عنها. في أسوأ الحالات وإن لم يكن بوسعك الاختباء، لاتحاول أن تركض...».

كما نصحت ممرضتها السكرتير الجديد «إنها تخشى الغرباء والأصوات بشكل خاص، فإذا وقع نظرها عليك الآن ستقع في مشكلة كثيرة». ولأكثر من 3 أشهر، لازم السكرتير مكتبه. ثم غادر السكرتير القديم - في الواقع إلى السجن. وفي اليوم التالي طلبت السيدة ماو رؤية الرجل الجديد: «دخلت مكتبها وأنا أرتجف خوفاً. رأيتها مستلقية على أريكة ورجليها على كرسي للقدمين، تقرأ بعض الوثائق بكسل». بعد حديث قصير، «رفعت رأسها، فتحت عينيها وحدقت بي بتذمر واستياء، وقالت 'لا يمكنك أن تكلمني وأنت واقف. عندما تتكلم معي يجب ألا يكون رأسك أعلى من رأسي. ها أنا جالسة، فعليك الانحناء أمامي ثم التحدث الي. ألَم يخبرك أحد بهذه القاعدة؟ «... فانحنيت...».

وبعد أن أجاب السكرتير على سؤالين أو ثلاثة، نطقت السيدة ماو بكلمات لاذعة قائلة: «تتحدث بصوت عال جداً وبسرعة كأنك تطلق النار من رشاش، ما أصابني بصداع أليم وأصبحت أتعرق. فإذا مرضت بسببك وسبب إهمالك لطريقة تحدثك إلي ونبرة صوتك، ستكون مسؤوليتك ضخمة». أشارت إلى جبينها وقالت بصوت عالٍ أنظر! أنظر إنني أتعرق!.

«أخفضت صوتي وقلت أرجوك سامحيني. سأنتبه إلى طريقة تحدثي إليك ونبرة صوتي

«عقدت جيانغ كينغ حاجبيها وصرخت بصوت عال «ماذا تقول؟ لا أستطيع أن أسمعك. الآن صوتك منخفض جداً. إن لم أفهمك جيداً، سأقلق أيضاً وأتعرق...». انصرف السكرتير.

كانت الحياة بالقرب من السيدة ماو أشبه بكابوس، كما قال كل شخص قابلناه. فكانت لتزج الخدم إلى السجن لمجرد تصورها وقوع جرائم خيالية. عندما أتى تشو إن-لاي إلى منزلها، كان مرافقوه يفضلون البقاء في سياراتهم وتحمّل البرد بدلاً من الدخول إلى فيلاتها خشية من رؤيتها والوقوع في مصيبة. ذات مرة كان تشينغ يان-غونغ Cheng Yuan-gong، رئيس حرس تشو، مسؤولاً عن الأمن خلال اجتماع كانت السيدة ماو ستحضره عام 1968.

فطلب منه موظفوها تحضير بعض الطعام، فدعاها إلى تناول الأكل أولاً. ووصف ما حدث بعد ذلك: «قالت صارخة في وجه رئيس الوزراء: أراد تشينغ يان-غونغ أن يمنعني من الدخول. ماذا يجري هنا؟ أي نوع من الاجتماعات تعقدون؟ صرخت في وجه رئيس الوزراء. فاضطر تشو الى قضاء ساعات طويلة يحاول إصلاح الأمور. وبعد يومين قالت لتشو «إن تشينغ يان-غونغ وغد. له ماض مشبوه. ولطالما حاول أن يمنعني من رؤية رئيس الوزراء...» كان الحرس يعمل لدى تشو منذ 23 سنة ولكن اضطرّ تشو أن يتخلص منه، فأرسل الرجل إلى السجن ومن ثم إلى معسكر.

كان ماو يعرف مدى الازعاج الذي تثيره زوجته، بحسب ما ينقله اليه أحياناً بعض الناس؛ ويعلم أيضاً أن تصرفاتها كانت تعيق أحياناً سير نظامه. ورغم ذلك كان ماو يفضل إبقاء الجميع في حال من عدم التوازن، والمحافظة على جو من التعالي، وترك الجميع في حالة عدم استقرار وتخوّف شديدين. وكانت هي بالطبع مع ماو جبانة وهادئة كالفأرة. كانت تخاف منه. وهو الوحيد الذي كان باستطاعته أن يؤذيها.

في عام 1969 عندما أعاد ماو تنظيم سلطته، أنشأ المجموعة الصغرى، وبقيت السيدة ماو كلبته المهاجمة. لم يكن لها أي دور إداري. وفيما كانت دائماً جاهزة للتدخل من أجل ماو، أمضت وقتاً طويلاً في لعب الورق، تلهو مع الحيوانات الأليفة، بما في ذلك سعدان (علماً أن كافة أنواع الحيوانات كانت ممنوعة على الجميع) تمتطي الحصان في بايهاي بارك Beihai Park في وسط بكين، الذي كان سابقاً حديقة عامة، أصبحت الآن مقفلة أمام الناس. كانت تشاهد أفلاماً أجنبية تقريباً كلّ ليلة – وبالطبع كل ذلك كان ممنوعاً على الشعب الصيني العادي.

كان نمط حياتها يمثل ذروة التهور. ومن بين هواياتها، التصوير. فمن اجله كانت تجلب سفن الحرب تطوف في البحر ومضادات للطائرات لاطلاق النار من مدافع دفعة واحدة. وكانت أحواض السباحة الخاصة بها دافئة دائماً؛ كما بني حوض خصيصاً لها في كانتون ومُلئ بمياه معدنية نقلت عبر قنوات تبعد عشرات الكيلومترات. صممت طرقات خاصة بها لتتمتع برؤية مناظر جبلية، واستدعى ذلك في أغلب الأحيان استخدام وسائل استثنائية. فمن بين الأمثلة، كانت فيلتها قريبة جداً من الطريق، فمُنع مهندسو الجيش الذين يتولون شق الطريق، من استعمال الديناميت كي لا تخيفها التفجيرات، كما اضطروا الى كسر الصخور يدوياً. وكانت الطائرات جاهزة لتستعملها متى شاءت، وحتى لتسافر من أجل شراء سترة أعجبتها وأرادت فجأة أن ترتديها من بكين إلى كانتون، أو كرسيها الطويل المفضل. وكان قطارها الخاص، على غرار قطار ماو، يتوقف على هواها ويشابك بالتالي نظام التنقل. ولم تكن تخجل أبداً من ذلك،

فتقول «كي أرتاح جيداً وأتمتع بوقتي، يستحق ذلك التضحية بمصالح الآخرين».

ومن بين هذه التضحيات، الدماء. فإذ كانت تبحث دائماً عن طرق ووسائل لتحسين صحتها ومنظرها، تعلمت تقنية غير مألوفة: نقل دم شباب أصحاء الى وريدها. فخضع عشرات أفراد الحرس البريتوري إلى فحص صحي صارم وأخذ دمّ شخصين منهم لنقله إليها. بعد ذلك، دعتهما إلى عشاء فاخر قائلة لهما «أي عمل «رائع» قاما به، إذ «تبرعا» لها بدمهما. «وعندما تعرفان أن دمكم يسيل في داخلي... عليكما أن تفتخران»؛ كما حذرتهما من إفشاء هذا السرّ لأحد؛ لم تصبح عملية نقل الدماء عملية روتينية، فإذ كانت في غاية الابتهاج أخبرت ماو بذلك، فأوصى ماو بعدم الاقتراب منهما لدواع صحية.

ولكن رغم تذمرها الدائم، كانت السيدة ماو بصحة جيدة؛ إلاّ أنها كانت في حالة انهيار عصبي. توجب عليها ابتلاع 3 أكوام من الحبوب المنوّمة قبل أن تستسلم للنعاس وغالباً ما يحصل ذلك حوالى الساعة 4 فجراً؛ كما كانت تأخذ أدوية مسكّنة مرتين يومياً. وعندما تكون داخل البيت في النهار، كانت تحجب عنها نور الشمس، كما كان ماو يفعل، بواسطة 3 طبقات من البرادي، وكانت تقرأ قرب قنديل مغطى بقماش أسود، مولدة بالتالي جوّاً وصفه سكرتيرها الخاص بالشبحي.

كان الضجيج يزعجها بشكل غريب. ففي مقرها الأساسي في بكين: فيلا Imperial Fishing Villa، طُلب من الموظفين طرد العصافير والزيزان - وأحياناً حتى بعدم ارتداء الأحذية والمشي مع اليدين مرفوعتين والرجلين بعيدتين عن بعضهما لمنع ثيابهم من الحفيف. ورغم أن فِيلتِها كانت كبيرة وتحيط بها حديقة كبيرة مساحتها 420000 م2 أمرت بأن تُغلق الحديقة المجاورة يويونتان Yuyuantan أبوابها أمام الناس، وهي آخر حديقة عامة باقية في العاصمة. وحصل الشيء نفسه في كانتون حيث تقع فيلتها بالقرب من نهر اللؤلؤة إذ منعت مرور السفن في هذه المنطقة التجارية الهامة خلال وجودها هناك، وتوقف العمل في مواقع بناء السفن في المنطقة.

وكانت مهووسة أيضاً بالحرارة ومجرى الهواء. يجب أن تبلغ حرارة غرفتها 21.5 درجة تماماً في الشتاء و26 في الصيف؛ وحتى عندما كان الترموستات يشير إلى أن الحرارة كانت كما أمرت، لطالما اتهمت خدامها «بأنهم يزيفون الحرارة! تتآمرون لإلحاق الأذى بي!». وذات مرة، رمت مقصاً كبيراً على إحدى ممرضاتها، مخطئة الهدف ببعض الإنشات، لأن الممرضة لم تعرف مصدر مجرى الهواء.

*

كانت مقولتها المتكررة لموظفيها «خدمتي تعني خدمة الشعب».

وبعد أن مات لين بياو وباتت مؤامرة قتل ماو - وقتلها - واضحة المعالم في أواخر 1971، أصبحت السيدة ماو مهووسة بكابوس روح لين يلاحقها. فأئتمنت لسكريترها قائلة «صرت أشعر وكأني سأموت في أي لحظة... كأن كارثة ستحصل غداً. إني خائفة جداً في كلّ لحظة».

بلغ جنون الارتياب هذا أوجه، بعد وقوع حادثة قبل هروب عائلة لين. ذهبت إلى كينغداو Qingdao لتصوير بعض المراكب البحرية (أمرت بتجول 6 منها على البحر كي تلتقط أفضل صورة) فوجدت المرحاض مفقوداً في الفيلا هناك؛ لذا، استعاضت عنه بمبْصَقة، تذمّرت من كونها قاسية جداً لتجلس عليها، فوضع لها خَدمها دولاباً مطاطياً مأخوذاً من حوض السباحة؛ فساعدتها ممرضاتها للجلوس وقضاء حاجتها، وهو أمر كانت معتادة عليه. إلاّ أنها في إحدى الليالي، استخدمت هذا «المرحاض - المبصقة» من دون مساعدة، وبعد تناول عدد كبير من الحبّات المنومة، فوقعت وكسرت الترّقوة. وبعد هروب عائلة لين، أصرّت على أن هذا الحدث كان جزءاً من المؤامرة وأن الحبات المنومة كانت مسممة. تسبب ذلك بفوضى كبيرة وأرسلت كافة الأدوية لفحصها، واعتقل كل طاقمها الطبي وتم استجوابه أمام تشو إن-لاي والمكتب السياسي. وأجبر تشو على محادثتها طوال الليل (من 9 مساءً حتى 7 صباحاً) محاولاً تهدئتها.

أتت زيارة عائلة نيكسون في شباط 1972 كمنشط عظيم. فأشبعت رغباتها في لعب دور السيدة الأولى، كما سنحت لها الفرصة بترويج نفسها في العالم من خلال كتابة سيرة حياتها. ففي آب من تلك السنة، دعيت الكاتبة الأميركية روكسان ويتكي Roxane Witke للكتابة عنها وتحويلها إلى شخص مشهور كما فعل إدغار سنو مع ماو.

تكلمت السيدة ماو مدة 60 ساعة مع ويتكي؛ إلاّ أن ماو انزعج من أدائها، علماً أنه هو الذي وافق على المشروع. ومن باب الاخلاص في التصرف، أطبقت فمها. وأمام دهشة المحيطين بها، اعترفت «بحب عميق» وحنين إلى شنغهاي Shanghai في أيام ما قبل الشيوعية، وحتى أنها رنمت لويتكي أغنية شعبية غزلية تعود الى الثلاثينات، «كانت حياتي آنذاك في غاية الرومانسية... كان لي عدد من الأصدقاء الشباب، يطلبون يدي ويلحقونني...» كان هذا سيئاً للغاية، إلاّ أنها كادت ان توقع فشلاً ذريعاً داخل الصين الحاضرة، عندما وصفت كيف حاول بحري أميركي أن يستعيدها. «ربما كان ثملاً. كان يتمايل بشدة ويقترب مني في بوند Bund في شانغهاي ووقف أمامي. قطع علي طريقي وطقطق بكعبيه ووجه اليّ سلاماً عسكرياً... قرّب ذراعيه...رفعت يدي وضربته على وجهه. ظلّ يبتسم وسلّم علي مرة أخرى، مطقطقاً بكعبيه. حتى أنه قال «عفواً»، فأنتم الأميركيون مهذبون جداً...».

أعربت السيدة ماو أنها «تعبد» غريتا غاربو و«ذهب مع الريح» وصرحت أنها رأت هذا الفيلم أكثر من 10 مرات: وفي كل مرة كنت أتأثر جداً». وسألت «هل باستطاعة الصين أن

تنتج فيلماً كهذا؟» وكأن لا علاقة لزوجها بقمع الأفلام الصينية. ويبدو أن عشقها لفيلم «ذهب مع الريح» أزعج مراقب الصحافة ياو وين-يوان Yao Wen-yuan لدى ماو، إذ راح يسترسل في إطلاق كليشيات الحزب: «... كان للفيلم عيوبه. فـ(الكاتبة) تتعاطف مع مالكي العبيد». فأسكتته السيدة ماو بملاحظة مربكة: «لكنني لم أرَ أي تمجيد في الفيلم لمجموعة كو كلوكس كلان».

وفي النهاية، ونزولاً عند أوامر ماو، أرسلت فقط بعض المقتطفات إلى ويتكي التي نشرت سيرة حياة كاملة. ظلت جيانغ كينغ تلعب دور السيدة الأولى أمام الأجانب، علماً أن فرصها في القيام بالشيء نفسه تضاءلت أكثر مما أرادت. نتيجة لذلك ظلت تحاول دائماً حشر نفسها. فعندما أتى رئيس وزراء الدانمارك بول هارتلينغ Poul Hartling مع عقيلته عام 1974، رافقتهما إلى مسرحية، لكنها لم تكن مدعوة إلى حفل العشاء الحكومي، فدخلت قبل الوقت، واستوقفت الثنائي الدانماركي مدة نصف ساعة، تاركة بالتالي 400 شخص ينتظرون وصولهما إلى الحفلة. تحدثت بطريقة «لفت الأنظار» و«متعجرفة» على حدّ تعبير الثنائي هارتلينغ وكان هذا مربكاً. عندما أتى فريق سباحة من أصل أميركي للتمارين، كانت تتسللّ خلف الزجاج لرؤيتهم يتمرنون. «آه كم كان المنظر جميلاً!... حركات جميلة»، كانت تقول. (وسبق أن قالت لـWitke في وقت سابق، أنها رفضت السباحة لأن الشعب «سيتهيج» لدى رؤية السيدة الأولى تسبح.)

كان تعطش السيدة ماو للتواصل مع الأجانب يضاهي اشتياقها إلى الملابس النسائية. ففي الصين التي يترأسها زوجها كان يُسمح للصينيات فقط بارتداء سروال وسترة لها شكل لها. وفي مناسبات نادرة كان يُسمح لهن بارتداء فستان أو تنورة. ففي عام 1972 طالما أرادت أن ترتدي فستاناً لمرافقة الرئيس الأميركي (الذي وصفها بأنها بغيضة وعدوانية») والسيدة نيكسون إلى حفلة باليه «فرقة النساء الحمراء» أحد أبرز «عرض» لها من بين 8 عروض. ولكن بعد صراع طويل، تخلت عن الفكرة، إذ سيبدو ذلك متنافراً مع ما يرتديه الصينيون المدعوون، أي زيهم الذي صممه لهم ماو بالدراب الرمادي. عندما زارت إيملدا ماركوس من الفيليبين، الصين في أيلول 1974 في زيها الوطني الرائع، كان على السيدة ماو أن تظهر بزيها المعتاد الذي لا شكل له، وقبعتها، فبدت عادية جداً الى جانب السيدة ماركوس ملكة الجمال السابقة. ولاحظت السيدة ماركوس، والمصوّر على حد سواء، أن السيدة ماو لم تنفك عن التحديق بالسيدة ماركوس بطرف عينيها، بحسد.

عقدت السيدة ماو العزم على تصميم «زي وطني» للنساء الصينيات؛ فأتى تصميمها على شكل كنزة من دون قبّة وتنورة شبه طويلة. لم يكن الزي جذاباً لدرجة أنه عندما نشرت

في الصحف صور البطلات الرياضيات الصينيات يرتدينه في الخارج، سخرت منه النساء الصينيات رغم تعطشهن للموضة. ولكن رغم فشلها في مجال التصميم والموضة ساهمت السيدة ماو في إزالة الحرم المفروض على ارتداء النساء للتنانير والفساتين، فعاد بحذر بعد حوالى عقد، في عام 1975.

حاولت السيدة ماو أن يصبح تصميمها بمثابة «زي وطني» رسمي. تطلب هذا قراراً من المكتب السياسي الذي صوت ضدّ ذلك لأسباب تتعلق بالموازنة، إذ ان التنورة الطويلة تتطلب قماشاً كثيراً، وفي حال اعتمدت كزي وطني ستستعمل كميات كبيرة. فحاولت أن تقنع ماو بتغيير القرار طالبة من أفضل صديقاته أن يرتدين الزي أمامه؛ ولكن عندما علم ماو أن الفكرة كانت فكرتها سرعان ما رفض طلبها بإزعاج، وحتى بإشمئزاز.

أصبحت الآن السيدة ماو تطلب الاستحسان من زوجها بواسطة صديقاته. منذ بداية الثورة الثقافية كان الزوجان يعيشان في منازل منفصلة، حتى عندما كانا معاً في بكين: كانت تمكث في الفيلا Imperial Fishing، وهو في زونغنانهاي. في أوائل الثورة الثقافية، عندما كانت ناشطة في إدارة الأشياء، كان باستطاعتها أن تزوره في أي وقت. ولكن مع تضاؤل دورها السياسي، حدد ماو حرية وصولها اليه حتى أنه غالباً ما كان يمنعها من الوصول إلى منزله. بكل بساطة، لم يكن ماو يتحمّل زوجته. وكلما أبعدها، كلما ازدادت إرادتها للوصول إليه. لم تكن تتحمل الإقصاء. فكانت تتوسل إلى صديقات ماو كي يتوسطن لها، وكانت تقدم لهن هدايا كثيرة كالأقمشة الجميلة والثمينة لصنع الثياب وحتى ساعات سويسرية. وذات مرة أقنعت الحراس بالسماح لها بالدخول إلى منزل ماو للتحقق من مسألة «النظافة». فصرخ ماو في وجهها وطلب منها المغادرة، وبعد ذلك قال غاضباً للحرس: «اعتقلوها إذا حاولت الاقتحام مرة أخرى»!

في عيد ميلاد ماو الـ 82 (والأخير) في 26 كانون الأول عام 1975، سمح لزوجته بالدخول ومعها طبقان من طعامه المفضل. فتصرف وكأنها ليست موجودة، ولم يوجه اليها سوى نظرات عابرة، ولم يتحدث إليها أبداً. فسرعان ما غادرت في حالة بائسة، في حين أتته 5 شابات، معظمهن من صديقاته السابقات، للعشاء معه والاحتفال بعيد ميلاده.

لم تكن هذه الفتيات تعامل كخليلات ملكيات، وتغدقن بالهدايا والامتيازات. كان ماو يستغلهن كما فعل مع زوجته. كن يمارسن الجنس معه، ويعتبرهن خادمات وممرضات. في سنوات حياته الأخيرة، ولأنه كان يخشى أن يقتل، سمح فقط لشخصين بالدخول إلى غرفة نومه بدون إستئذانه؛ وكلتاهما صديقتان تحولتان الى ممرضتين وهما: Zhang Yu-feng وهي

المضيفة السابقة في قطاره وMeng Jin-yun، ممثلة سابقة في جوقة الرقص والغناء في السلاح الجوي. كانتا تتبادلان الأدوار للقيام بكافة أعمال ماو؛ دوماً على استعداد وفي تأهب، وغالباً ما كانتا تخلدا إلى النوم في ثيابهما. لم تكن لهما حياة عائلية، ولا عطلة أو حتى عطلة نهاية أسبوع. رفض ماو أن يزيد عدد ممرضاته علماً أنهما كانتا الشخصين الوحيدين اللذين يثق بهما ليبقيا بقربه دائماً.

لطالما أرادت مينغ Meng، الممثلة السابقة، الرحيل، وكانت تطلب من زميلتها الممرضة يو-فينغ Yu-feng أن تعتذر عنها وتقول أن عمرها أصبح يناهز الـ30 وأنها تريد العيش قليلاً مع زوجها لتنجب ولداً. فكان رد ماو «انتظري موتي وبعدها أنجبي أولاداً!» كانت ليو-فينغ طفلة صغيرة تحتاج إلى حليبها (لم يكن في الصين آنذاك طعام للأطفال). وبما أنه كان مستحيلاً عليها العودة إلى المنزل كلّ يوم حاولت أن تضع حليبها في زجاجة في ثلاجة ماو، وتأخذه إلى المنزل كلما توفر لها الوقت لإطعام طفلتها. ولكن الطفلة مرضت بسبب الحليب، وكانت قلقة على طفلتها باستمرار. أحياناً عندما كانت تقرأ لماو وهي في حالة تعب وإرهاق كانت تنادي ابنتها. لكن ذلك لم يحرّك ماو بشكل كاف ليخفف من أعبائها.

قلة من النساء اللواتي نظر ماو اليهن، خذلنه، لكن امرأة واحدة فعلت ذلك: إنها معلمة اللغة الإنكليزية الجميلة ومترجمته الفورية زانغ هان-زي Zhang Han-zhi. ذات يوم، في أواخر عام 1972، بعد أن أتمت عملها كمترجمة فورية، قادها ماو إلى غرفة الموظفين في آخر الممشى، وصرخ في وجهها «أنا لست في قلبك! أنا لست في قلبك!» لا تحبيني! لا تحبيني» فتراجعت، وقالت: «سيدي الرئيس، كيف يمكن ألاّ تكون في قلبي؟ كلنا في الصين نحملك في قلوبنا» فسمح لها بالذهاب. بقيت في وظيفتها كمترجمة فورية له، كما رقّى ماو الرجل الذي كانت تحبه (وثم تزوجت منه) ليصبح وزيراً للخارجية. ولكن ماو عاقبه إذ أخضعه لاتهامات من قبل موظفي وزارة الخارجية.

كانت لي نا Li Na أحد الأشخاص المحببين لديه كثيراً، وهي ابنته الوحيدة من جيانغ كينغ. ولدت عام 1940 وكبرت إلى جانبه وكان كلامها وهي تدمدم وهي طفلة صغيرة يساهم في تهدئته. كانت تعبد والدها كما بدا واضحاً في رسالة كتبتها إليه وهي في الـ14 من عمرها، في 8 شباط 1955:

أبي العزيز،

هل أنت نائم؟ لا بدّ أنك تحلم أحلاماً سعيدة جداً. قد تفاجأ لماذا أكتب لك فجأة.

ما حصل هو التالي: عندما كُنتَ تحتفل بعيد ميلادك، أردت أن أهديك شيئاً ولكن انتهى

عيد ميلادك قبل أن أنتهي من تطريز منديل لك. وكان تطريزي سيئاً للغاية، لذلك لم أعطك إياه. لأني أعرف أنك لن تغضب مني وأنت حقاً أبي الصالح أليس كذلك؟ والآن، عيد ميلاد أمي على وشك أن يأتي قررت أن أستغل الفرصة لأعوّض. قد لا تحب ما سأعطيك ولكنني صنعته أنا بمفردي. إنه صغير ولكنه يعبر عن مشاعري: أتمنى أن يبقى أبي الصغير الأغلى على قلبي، شاباً، ولطيفاً ومتفائلاً...

كانت الرسالة موقعة: قبلات من ابنتك التي تحبك بولع.

أراد ماو أن تكبر ابنته وتكون مفيدة سياسياً، فقادها في هذا الاتجاه. في عام 1947 عندما كان الشيوعيون يخلون ينان أصرّ أن تبقى قريبة من دوي القذائف وإطلاق النار، علماً أنها كانت تبلغ فقط 6 سنوات. توسلت إليه السيدة ماو وهي تبكي بأن يسمح لها بأن تبعد عن المنطقة ولكنه صرخ في وجه زوجته: «اذهبي من هنا! فالطفلة لن ترحل. أريدها هنا كي تسمع إطلاق النار!»

بدأ ماو يهيئها كمساعدة له عندما بدأت الثورة الثقافية سنة 1966. كانت في 26 من عمرها، وتخرجت من جامعة بكين في دراسة تاريخ الصين المعاصر، وهو اختصاص لم تكن تحبه كثيراً، ولكنها قبلت به لأن الحزب كان يريد عدداً أكبر من أطفال نخبة العائلات كي يصبحوا مؤرخين للحزب. عيّنها والدها في صحيفة الجيش الرئيسية حيث بدأت بالعمل كمراسلة صحافية خاصة تجمع له المعلومات. كان هدف ماو أن تتولى ابنته الصحيفة، الأمر الذي حققته في آب 1967 عندما نقل أفراد التحرير ومجلس الإدارة إلى السجن؛ ثم نشأ إعجاب بها يقارب العبادة. كانت مكاتب الصحيفة - وحتى منازل موظفيها - مغطاة بملصقات «تحييها»، وشعارات تردد في المظاهرات، وتعتبر أن مَنْ يعارضها يكون مناهضاً للثورة. افتتحت صالة عرض في مقر الصحيفة لإبراز «فضلها الكبير»، من خلال عرض كوب الشاي خاصتها، ودراجتها، ما يعني أنها تقدّس عدم استخدام البورسيلين الصيني أو سيارة الليموزين.

في تلك الفترة، تغير تصرفها. فإذا بدت في بادئ الأمر غير مدّعية، صارت الآن تصرخ في وجه كبار الموظفين ليتأهبوا، أمامها وتردد على مسامعهم «أودّ حقاً أن تقتلوا!» كما قررت أنها ستفرض «قانون السفاح» مستخدمة تعبيراً مُلغزاً تعلّمته من والدها. وقد تحمّل أكثر من 60% من الموظفين القدامى في الصحيفة اضطهاداً مروعاً بسبب ادعائهم معارضتها؛ ومن بين المضطهدين الكثر، صديق شخصي قديم لها عارضها في بعض الأمور التافهة.

في أوائل عام 1968، وبما أن ماو كان يغلق قنواته الشخصية في الجيش لإرضاء لين بياو، سُحبت لي نا من الصحيفة. ولم يكن عملها التالي أقلّ خطورة: مديرة المكتب الخاص للمجموعة الصغرى. شغرت الوظيفة لصالحها من جرّاء حيلة صغيرة خاصة على طريقة السيدة ماو. فقد

اتهمت السيدة ماو المدير الحالي بكونه جاسوساً وزجته في السجن ثم تسلمت لي نا وظيفته الى حين حلّ المجموعة الصغرى سنة 1969.

كان ماو يريد لها مناصب أهم – السيطرة على بكين. ولكن في عام 1972 أصيبت بانهيار عصبي، تكرر على مدى سنوات حتى بعد وفاة ماو. وبدا أن لي نا كأنت نقيض والديها من حيث عدم زيادة الاضطهاد؛ ولكن مع تحمسها المبكر لتلبية أوامر والدها، فقدت صوابها وعقلها بسبب التضحية الدائمة التي تقوم بها. ذات مرة حملت كومة من الملفات المتعلقة بانتحار رجل كانت تعرفه ابان عملية التطهير، فرمتها خارج النافذة وهي تصرخ: «لا تعطوني تفاهات كهذه مرة أخرى! لقد سئمت منها لسنوات طويلة!».

كانت تسعى وراء العاطفة. فأمها التي أحبتها وهي طفلة أصبحت الآن، كوالدها ماو، تحصر علاقتها بالسياسة فقط ولم تعطها حناناً أو راحة. وعندما بدأت تنهار أعصابها، وتعتمد أكثر فأكثر على الحبوب المنومة، لم يبق لها أي شخص تلجأ إليه. وفي سنوات صباها، كانت تحلم بعلاقة حب ولكن مع اب كماو وخاصة مع جيانغ كينغ كأم، لم يجرؤ أي رجل على الاقتراب منها، ولم يرغب أي متحمس لتدبير الزيجات في الدنو من المشاكل. ولكن عندما بلغت الـ31 من عمرها، في عام 1971 تقربت من خادم شاب. وعندما كتبت لوالدها ليسمح لها بالزواج، سأل حامل الرسالة بعض الأسئلة الأساسية وكتب على الرسالة فقط: «أوافق». كانت هدية ماو لزفاف ابنته مجموعة كتب رصاصية لم يقرأها في حياته وهي أعمال ماركس وإنغلز.

لم يأت أي من والديها لحفل زفافها البسيط، ووافقت السيدة ماو بتذمر على الزفاف، ونظرت إلى العريس كشخص دون ابنتها إذ كان خادماً. وبعد زواجها بفترة كانت Li Na عرضة للمرض والحرارة المرتفعة، وعزت السيدة ماو سبب ذلك إلى أن ابنتها تقوم بعلاقات جنسية مع الصهر، وفرضت عليه بشكل مهين أن يقوم بفحوصات طبية. لم يطل الأمر قبل أن ترسل السيدة ماو الصهر إلى مدينة أخرى مدعية أنه يشبه الجاسوس. فانهار الزواج، وغاصت Li Na في انهيار عصبي عميق.

في أيار 1972 رزقت Li Na بطفل أفرحها قليلاً. ولكن لم تكن جيانغ كينغ تحبذ الطفل لأنها كانت تبغض والده، ولم تحمله بين ذراعيها أبداً. ولم يظهر ماو بدوره أي اهتمام بحفيده، أو بأحفاده الثلاثة الآخرين.

فبدون فرح أو حب في حياتها هبطت Li Na في الجنون. وبرأي ماو لم يَعُدْ لها فائدة. فتضاءلت رؤيته إليها ولم يظهر أي اهتمام بحالتها العقلية أو الجسدية(*).

(*) استعادت اليوم لي نا صحتها وتعيش حياة طبيعية. ويبدو أنها «نسيت» دورها في الثورة الثقافية.

كما فقد ماو اهتمامه بابنته الاخرى تشياو-تشياو Chiao-Chiao التي لم يكن لها أي حس سياسي. ومنذ سنوات عديدة، عندما عادت من روسيا كفتاة فاتنة في 12 من عمرها مرتدية تنورة صوف روسية وحذاء من الجلد، فبدت روسية في تصرفاتها وكلامها، أظهر لها ماو بعض الحنان، وكان يناديها «صغيرتي الأجنبية» وكانت في غاية الفرح. وعندما فقدت رونق طفولتها وبدت فاشلة على الصعيد السياسي كراشدة، صار وصولها إلى ماو صعباً. وفي آخر أيام حياته لم تره إلا نادراً. قصدت مراراً بوابة زونغنانهاي ولكنه منعها من الدخول. فأصيبت بانهيار عصبي لسنوات طويلة.

قُتِلَ ابن ماو البكر آن-يينغ خلال الحرب الكورية سنة 1950. ولده الوحيد المتبقي على قيد الحياة آن-تشينغ كان مختلاً عقلياً. فوفّر له ماو حياة هنيئة، ونادراً ما زاره، ولم يعتبره كعضو من عائلته؛ كان ماو يميل إلى القول إن عائلته مكونة من 5 أشخاص: هو والسيدة ماو، الفتاتين ويوان-كسين Yuan-xin (ابن أخيه الوحيد).

قضى أبن الأخ معظم سنوات حياته في عائلة ماو. خلال الثورة الثقافية، وهو في أوائل سن الثلاثين، أرسل إلى منصب مفوض سياسي في منطقة شينيانغ Shenyang العسكرية، ومن منصبه هذا ساعد ماو في القضاء على منشوريا المنطقة الحساسة الواقعة شمالي شرقي البلاد على حدود روسيا. إن أهم عمل معروف قام به، هو إعدام امرأة عضو في الحزب تدعى زناغ ريكسين Zhang Zhixin تحدت السيدة ماو صراحة، وكذلك التطهير الكبير. وقبيل أن تقتل، ثبتت إلى أرض زنزانتها وفتحت قصبتها الهوائية لمنعها من التحدث على أرض الإعدام، علماً أنه كان إعداماً سرياً. وكان هذا العمل الوحشي مجانياً إذ كانت رقاب ضحايا الإعدام تُطوَّق بالحبال، فتشدّ عند الحاجة لخنقهم إذا حاولوا أن يتكلموا.

بالإضافة إلى كونه لا يرحم، كان يوان كسين عضواً من العائلة. في آخر سنة من حياة ماو، جعله هذا الأخير الرابط بينه وبين المكتب السياسي أي سنة 75-76. في الواقع، كان أخ ماو تسي-مين والد يوان كسين قد قتل نوعاً ما نتيجة تعليمات ماو بعدم محاولة نجدته عندما كان في السجن في زينجيانغ في أوائل الأربعينات - وهو عمل حُجب عن يوان كسين والآخرين.

كان ماو سبب وفاة امرأته الثانية أيضاً. فبعد أن تركها ماو، أعدمت كاي-هيو Kai-hui عام 1930 كنتيجة مباشرة لهجومه على تشانغشا حيث كانت تسكن، وذلك لأسباب متعلقة مباشرة بسلطته الشخصية. كما كان مسؤولاً الى حد بعيد عن وفاة زوجته الثالثة غوي-يوان نتيجة انهيار عصبي نهائي (التي توفيت عام 1984 وهي في الـ75 من عمرها).

عبر العقود، وهب ماو كافة أفراد عائلته مصيراً سيئاً. وكانت آخر خيانته لزوجته الرابعة والأخيرة جيانغ كينغ. فبعد أن قامت بمعظم أعماله الرديئة والسيئة، لم يقم بأي عمل

لحمايتها بعد وفاته. بالعكس تماماً، تاجر بها وقدمها «للمعارضة» التي نشأت في آخر أيامه؛ ولضمان أمنه وحمايته الشخصية وهو لا يزال على قيد الحياة، قيل للمعارضة أن باستطاعتها، بعد وفاة ماو، أن تفعل ما تشاء بالسيدة ماو وجماعتها التي تضم ابن أخيه يوان كسين. وبعد أقل من شهر على وفاة ماو، زجت المجموعة كلها في السجن. وفي عام 1991 انتحرت السيدة ماو.

57- ماو الضعيف يطوّق رهاناته (1973-1976؛ العمر 79-82 سنة)

خلال السنتين الأخيرتين من حياة ماو، نشأت «معارضة» قوية لسياساته، على شكل حلف تمحور حول دينغ كزياو-بينغ، الرجل الذي بدد معظم ميراث ماو بعد وفاة هذا الأخير. كان ماو قد أبعد دينغ عام 1966 في بداية الثورة الثقافية، ولكن أعاده إلى اعلى المناصب في عام 1973.

ولد دينغ في سيشوان عام 1904، ورغم كونه أصغر سناً من ماو ب11 سنة، فقد ذهب إلى فرنسا في عام 1920 خلال برنامج عمل ودرس، وهو في الـ16 من عمره، وهناك أصبح شيوعياً يعمل تحت إشراف تشو إن-لاي. مكث في فرنسا 5 سنوات، وعشقها مدى الحياة لأسباب عديدة منها: النبيذ، الجبنة، الحلوى - القهوة والمقاهي - كلّ ما كان يتعلق بالطعام. بعد مرور سنوات عديدة كان يقارن الحنين إلى المقاهي الفرنسية بمجالس الشاي في منزله الريفي في سيشوان وهو يتذكر مقهى صغير كان يرتاده دائما، ويقع في ساحة إيطالية في باريس.

كان أصدقاؤه الصينيون في فرنسا يتذكرون دينغ، القصير القامة ولكن كالكرة المليئة بالحركة، ويتمتع بروح النكتة. منذ ذلك الحين وبعد مرور عقود من العيش في الحزب، تغير كثيراً ليصبح رجلاً يتميز بالتحفظ الشديد والتكتم؛ من أبرز فوائد هذه الخصائص أن الاجتماعات كانت مختصرة. فقد دامت أولى جلسات اللجنة المسؤولة عن جنوبي غربي الصين بعد استيلاء الشيوعيين، حوالى 9 دقائق، في حين طالت الاجتماعات الأخرى التي ترأسها تشو إن-لاي، بسبب تحدثه مدة 9 ساعات. كان دينغ رجل قرار، صارماً في شأن المسائل المعقدة، والتي غالباً ما كان يحلها وهو يلعب البريدج، التي سرعان ما أظهر ولعاً لها.

انضم دينغ إلى الشيوعيين في فرنسا، ولكن كانت جذوره في روسيا حيث أمضى سنة بعد أن طرد من فرنسا، وحيث تلقى تدريباً حزبياً. وعندما بدأت المسيرة الكبرى في عام 1934، كان أمين عام قيادة الحزب، وكذلك قائداً رفيع المستوى خلال الحرب الصينية اليابانية في عام 1937-1945. خلال الحرب الأهلية بعد عام 1945، أصبح رئيس نصف الجيش الشيوعي الذي ربح حملة هواي-هاي الحاسمة التي ثبتت الفوز الأحمر ثم ضمّ معظم مناطق الصين، جنوب يانغتزي. بعد ذلك أصبح مسؤولاً عن عدة أقاليم بما فيها سيشوان مسقط رأسه قبل

أن يرقّيه ماو إلى القيادة المركزية في بكين في أوائل الخمسينيات.

كان وفياً تماماً لماو؛ وكان برتبة ملازم أول خلال قمع المثقفين في الحملة المضادة لليمنيين بين عامي 1957-1958. ولكن لزم حدوده، وحظي بدعم جهود ليو شاو-كي لوضع حدّ للمجاعة في أوائل الستينيات. كما حاول أن يترك مسافة بينه وبين ماو - الأمر الذي أدركه ماو ملاحظاً أن دينغ «كان يحاول أن يترك مسافة محترمة بيني وبينه كما ولو كنت شيطاناً أو إلهاً».

عندما أطلق ماو الثورة الثقافية عام 1966 استعان بكافة طرق الاقناع لإبقاء دينغ الى جانبه لكنه فشل. عُرف دينغ «بثاني أكبر مؤيد للرأسمالية» بعد ليو، ووضع في الإقامة الجبرية عام 1967 وطرد أولاده وزوجة ابيه من منزلهم. كما خضع لاجتماعات الإدانة، ولكن مع تعذيب جسدي أقل من الذي تعرض له ليو. كان ماو يحتسب بدقة تامة عقاب أعدائه. لم يكن يكره دينغ كما كره ليو، لذلك «أمر أن يدان دينغ... ولكن فرّق بينه وبين ليو». وعلى نقيض ليو، لم ينفصل دينغ عن زوجته، فحظي برفقة غالباً ما كانت تصنع كل الفرق بين الحياة أو الموت.

ولكن حتى طريقة تعامل ماو «الأفضل» كانت أشبه بالجحيم. في أيار 1968 اعتقل ابن دينغ البكر وإحدى بناته واقتيدا معصوبي العينين إلى جامعة بكين، وطلب منهما «عرض» والدهما. أما الأشخاص الـ60 الذين اعتقلوا هناك أيضا، فقد انتحروا أو تعرضوا للعذاب حتى الموت. بو-فانغ Pu-fang، ابن دينغ الذي كان في الـ24 من عمره، رمى بنفسه من شباك عال فأصيب بشلل نصفي. لم يُخبر دينغ أو زوجته بهذا الحادث إلاّ بعد سنة من وقوعه، عندما سمح لهما برؤية بقية أولادهم سريعاً، قبل نفيهم من بكين في تشرين الأول 1969. في المنفى، كان دينغ في الإقامة الجبرية يحيط بمنزله حرّاس مسلحون، وكان يعمل في مصنع سفلي على جرّارة في مقاطعة جيانغكسي.

بكت السيدة دينغ أياماً طويلة عندما عرفت بشأن بو-فانغ، وأخبرت بعد ذلك زوجة أب دينغ أنها كانت على وشك أن تفقد الرغبة في الحياة. مُنع دينغ من رؤية ابنه المشلول، وتأثر كثيراً بما حصل لأولاده. في أحد الأيام، وبعد أن اضطر ابنه الأصغر، الذي بدا عليه الجوع والوسخ، إلى المغادرة الى مكان نفيه، وقع دينغ وانهار على أرض المعمل. وفي حزيران 1971 عندما وصل ابنه بو-فانغ المشلول، تأثر دينغ كثيراً. كان ابنه في الماضي شاباً مرحاً ونشيطاً. اهتم دينغ بابنه بكل إخلاص يساعده على التقلب في سريره كل ساعتين كي لا يصاب بقرحة الفراش، ولم يكن ذلك عملاً سهلاً (كان بو-فانغ كبيراً) وكان يمسح جسمه عدة مرات في النهار نظراً لرطوبة الجوّ والحرّ في جيانغكسي.

في وقت لاحق قال دينغ عن الثورة الثقافية أنها كانت من أصعب أيام حياته، وكان القلق يطارده حتى أثناء نومه. وفي إحدى الليالي أيقظ المبنى بكامله وهو يصرخ من كابوسه. لكن

ساعدته أيضاً هذه السنوات في إعادة النظر في النظام الذي فرضه الحزب الشيوعي الصيني على الصين. ونتيجة لذلك تخلّى عن الإيديولوجية الماوية والستالينية، وبعد وفاة ماو غيّر مجرى الصين.

في المنفى لم يتفوه دينغ بكلمة، وحاول أن يحافظ على صحة جيدة وانتظر فرصة المناسبة للعودة الى المقر السياسي.

بعد مرور سنتين، في أيلول 1971 لاح أمل في الأفق. كان ابن دينغ بارعاً جداً في الالكترونيات وأصلّح راديو قديم يعمل على الموجات القصيرة. فعل ذلك بموافقة أهله علماً أن الاستماع إلى محطات الراديو الأجنبية كان يعتبر جريمة تؤدي إلى السجن (إضافة إلى أن والده ساعده في ذلك). واعتبرت عائلة دينغ أن لين بياو مات نتيجة لهذه البرامج الإذاعية الأجنبية.

كان النظام يراقب بتأن طريقة تقطّر المعلومات حول وفاة لين. سمع دينغ الأخبار رسمياً بعد مرور شهرين عندما قرأ وثيقة على العمال الذين يعملون في معمل الجرار حيث كان يعمل. أشارت الوثيقة إلى «جرائم لين لاضطهاد الرفاق المحاربين». وقال الضابط الذي ترأس الجلسة» لن يقود الرئيس ماو أبداً الكوادر القدامى إلى الموت» (أي كما فعل لين) وأضاف متوجهاً الى دينغ قال: «دينغ العجوز جالس هنا، يمكنه أن يشهد لذلك. أليس كذلك يا دينغ؟» رفض دينغ متبلد الحس دعوة إبراء ماو وبقي صامتا، ولم تتغيّر ملامح وجهه أبداً. وعندما عاد إلى المنزل ذلك اليوم، سمح دينغ لنفسه بالإثارة وأدان لين بصراحة، وكان ذلك أمراً جديداً إذ إنه لم يتحدث قط عن أمور السياسة مع عائلته. وبعد يومين، كتب لماو لأول مرة منذ سقوطه المفاجئ قبل 5 سنوات، بحثاً عن وظيفة. ففكّر أن ماو قد يلغي الثورة الثقافية مع وفاة سنده.

لم يرد عليه ماو. فإن إعادة تعيين الرجل الذي أدانه علناً «كثاني أكبر مؤيد للرأسمالية»، ستعتبر مدخلاً الى فشله. حتى عندما تمّ تشخيص مرض تشو إن-لاي السرطاني في أيار 1972، وإذ لم يكن لماو أحد يستند إليه غير دينغ، لإدارة مملكته الكبيرة بهذا الحجم، رفض ماو أن يستدعي دينغ.

وعوضاً عن ذلك، عمد ماو الى ترقية وانغ هونغ-وين Wang Hong-wen القائد المتمرد السابق في شانغهاي، وهو أحد منتجات الثورة الثقافية. كان وانغ رجلاً وسيماً في الـ37 من عمره، كان قبل التطهير رجل أمن في معمل أقمشة؛ كان ذكياً، وكمعظم القادة المتمردين، تمتع بميل الى الهام الجماعات بالولاء للدولة. أحضره ماو إلى بكين وبدأ يدربه؛ بعد سنة، أي في آب 1973، جعله الرجل الثالث بعد تشو.

لكن هذا الرجل المكلف، لم يتمكن من ملء مكان تشو، خاصة في ما يتعلق بالتعامل مع الأجانب. لاحظ السفير الأسترالي، ستيفان فيتز جيرالد Stephan Fitz Gerald الذي التقاه برفقة ماو في تشرين الثاني 1973 أنه كان شديد التغير، ولم يتفوه بكلمة طيلة الاجتماع، إلا في نهايته. كما ذكر رئيس الوزراء الأسترالي ويتلام Whitlam «ثورة نانتشانغ Nanchang» الشيوعية عام 1927 ولاحظ أن الرجل الشاب هذا لا يمكن أنه ولد في هذا الزمان. عندما انتهى الاجتماع، قال الرجل المكلف بعصبية «أيها الرئيس الوزراء قلت، في أثناء ثورة نانتشانغ Nanchang لم أكن قد ولدت. لكنني كنت أقوم بثورات منذ زمن بعيد». كانت هذه مداخلته الوحيدة.

اعتقد ماو أن عليه إيجاد بديل، حتى عندما كان يروّج للرجل المكلف. فأحضر دينغ إلى بكين في شباط 1973 وجعله نائب رئيس الوزراء، خاصة لاستضافة رؤساء الدول الأجانب. ولكن رغم أن Deng لم يتمتع ببريق تشو، وكان يبصق باستمرار خلال الاجتماعات – الأمر الذي أزعج عدداً من محاوريه– فكان يتحلى بمكانة مرموقة.

مع نهاية عام 1973، عندما كان ماو يعذب تشو، أخذ ماو القرار الآني بوضع دينغ مسؤولاً عن الجيش (وبالتالي أعيد دينغ إلى المكتب السياسي للحزب). كان دينغ الشخص الوحيد الذي باستطاعته تأمين استقرار الجيش، علماً أن الرجل المكلف من ماو لم يتمتع بأي نفوذ. كان المارشال Yeh الرجل الذي عينه ماو رئيساً للجيش بعد وفاة لين بياو يفتقر الى الجاذبية الضرورية.

كان إعطاء دينغ هذا القدر من السلطة بمثابة رهان، ولكنه قرار حكيم. لم يقم دينغ أبداً بحركة ضد شخص ماو طيلة فترة حياة هذا الأخير؛ وحتى بعد وفاة ماو أصرّ دينغ على عدم اتهام ماو شخصياً، علماً أنه ألغى الكثير من صلب تراث ماو.

وما أن تسلّم دينغ السلطة، بدأ يعمل على دفع برنامجه الخاص الى الأمام؛ ومن أهم الاعمال ضدّ الثورة الثقافية. فحاول إعادة تأهيل وإعادة توظيف عدداً كبيراً من الكوادر لإحياء بعض الثقافة، ورفع المستوى المعيشي، الأمر الذي أدين بسببه على أنه «من أنصار الحركة الاشتراكية الماركسية الثورية المؤيدة للتطور». كان ماو ينظر الى الثورة الثقافية على أنها إحدى أكبر إنجازاته، منذ تسلمه السلطة عام 1949 وأبقى على 4 من متشددي الثورة الثقافية في مناصبهم لمواجهة دينغ دينغ: السيدة ماو، زانغ Zhang «الكوبرا»، رئيس الإعلام ياو Yao ووانغ Wang الرجل المكلف – إنها جماعة أطلق عليها ماو اسم «عصابة الأربعة». (وكان كانغ شينغ Kang Sheng خارج العمليات في ذلك الحين، يعاني من السرطان في مراحله المتقدمة، ومات في عام 1975). تلك كانت عصابة ماو الخاصة التي مثلت سياسته الحقيقية.

من جهته، شكل دينغ فور عودته من بكين في ربيع 1973، حلفه المضاد مع قائد الجيش المارشال يي ورئيس الوزراء تشو إن-لاي. ومن ضمن هذه المجموعة الثلاثية كان Yeh كانا في آخر لائحة من خضعوا لعملية التطهير، في حين كان تشو يتعاون مع ماو. كما بدّل تشو اسم منزله ليصبح «المنزل الريفي المجذوب نحو الشمس [أي ماو]». فعندما يصدر ماو أمره، كان تشو يرسل أي شخص إلى الموت. إن صان واي-شي Sun Wei-shi ابنة تشو الوحيدة بالتبني، سجنت لأنها كانت مترجمة فورية روسية بارعة والتقت عدداً كبيراً من القادة الروس بمن فيهم ستالين؛ فاشتبه بها ماو كما سبق وفعل مع غيرها ممن كانت لهم روابط قوية مماثلة. وكانت السيدة ماو تكرهها أيضاً لأنها كانت جميلة جدا، ولأن ماو تولع بها مرة. وكان معروفاً أن تشو مغرم بها كثيراً لكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذها. فماتت في السجن وبقي بعيداً أيضاً حتى في مماتها.

أحس دينغ بفتور إزاء تشو، وقال علناً بعد وفاة ماو إن تشو «قام بأعمال كثيرة رغماً عنه» أثناء الثورة الثقافية، رغم ادعاء دينغ بأن «الشعب غفر له». ومع ذلك، قرر دينغ أن يطرح المشاعر الشخصية جانبا، ويشكل تحالفاً مع تشو. في 9 نيسان، بعيد عودته إلى بكين ذهب لرؤيته – في أول لقاء لهما منذ حوالى 7 سنوات. في البداية جلسا وجهاً لوجه، صامتين. أخيراً تحدث تشو. وأول ما قاله: لقد خان زانغ تشان-كياو Zhang Chun-qiao الحزب لكن الرئيس يمنعنا من التحقيق في الأمر». كان Zhang «الكوبرا» من أهم نجوم الثورة الثقافية. عندما قال تشو ذلك، لم يكن يدين الكوبرا فحسب، بل كان يتذمر من ماو. ولم يكن ذلك تطفلاً من تشو الحذر جداً؛ كانت هذه طريقته في التعبير عن انحيازه الى جانب دينغ، ومعارضته للثورة الثقافية. فهذا الحدث، مضافاً الى كون تشو مريضاً جداً بسبب ماو، أدى إلى كسر الجليد بينه وبين دينغ. منذ ذلك الحين، أصبحا حلفاءاً.

كان ذلك حدثاً هاماً : فمعاونا ماو الأكثر أهمية، شكلا حلفاً نوعياً ضمّ أيضاً قائد الجيش المارشال Yeh. وهكذا، فشلت محاولات ماو الطويلة الأمد بمنع التحالفات بين معاونيه؛ وبقي رعب ماو مخيباً.

كان ماو مكبلاً بهذا الضيق بسبب تدهور صحته بسرعة وهو يقارب العقد الثامن من عمره. ففي هذه المرحلة توجب عليه التخلص من الإدمان على التدخين القديم العهد. في أوائل عام 1974 كان شبه أعمى. وكان هذا الأمر كسائر أمراضه، محاطاً بسرية تامة. إن فقدانه البصر جعله قلقاً حول أمنه لذلك طُلب من خدمه أن «يمشوا محدثين ضجة ليعرف أن أحدهم قادم فلا يشعر بالخوف».

كما كان منهاراً لأنه لم يستطع القراءة. فقد أمر بطباعة خاصة لبعض الأدب الكلاسيكي المحظور. وجُهِزت مطبعتان في بكين وفي شانغهاي للقيام بهذه الطباعة؛ فطبعت 5 نسخ على كل منهما، وكانت جميعها لماو، إضافة إلى نسخ أخرى حفظت في خزنة مقفلة، كما منع الأشخاص الذين عملوا على النص من الاحتفاظ بنسخة. ونظراً لتراجع بصره، كبر حجم الأحرف لتصل إلى 12 ملم. عندها أدرك ماو أخيراً أنه لن يستطيع القراءة بعد الآن، حتى باستخدام زجاج مكبّر، راح يجهش بالبكاء. منذ ذلك الحين، صار يلجأ إلى موظفيه ليقرأوا له، وأحياناً ليوقعوا له الوثائق.

وبسبب وضعه الصحي، لم يرغب ماو في الظهور في الاجتماعات ويبدو سريع التأثر، فغادر العاصمة في 17 تموز 1974 واتجه جنوباً. وسرعان ما قيل له أن سبب المشكلة هو إعتام عدسة العين، وأن انتزاعها ممكن بواسطة عملية جراحية بسيطة، عندما تصبح ناضجة تماماً. كان هذا الخبر مريحاً جدا، رغم أنه يعني قضاء قرابة السنة من عدم الرؤيا. في هذه الأثناء، بقي بعيداً عن بكين – مدة 9 أشهر وصار ذلك بمثابة آخر رحلة له.

وفي الوقت نفسه تمّ كشف أمر جديد: كان يعاني من مرض نادر ومميت بسبب محرك العصبة المعروف أيضاً باسم amyotrophic lateral sclerosis أو مرض لو غيهرين Lou Gehring. وهذا المرض يشل عضل اليدين تدريجياً ثم الرجلين، والحنجرة واللسان، مخنقاً بالتالي قدرته على الكلام، مانعاً الطعام من الدخول بطريقة سليمة وأخيراً مسبباً الموت بسبب فشل تنفسي. نتيجة للتشخيص لن يعيش أكثر من سنتين.

لم يُعلم الأطباء ماو بذلك. فكان مرجعهم حاجبه ورئيس الحرس البريتوري وانغ دونغ-كزينغ الذي لم يخبر سوى تشو إن-لاي. والآن فقط أصبح تشو أكثر جرأة.

وضع تشو حليفيه دينغ والمارشال يي Yeh في صورة صحة ماو. وقرروا عدم إخبار «عصابة الأربعة» بذلك، وحتى زوجة ماو التي كانت تدفع الآخرين الى إبعادها عنه الساحة. ومنذ سنتين، بعد وفاة ماو، اتهمت أفراد الفريق الطبي بأنهم «جواسيس» و«مناهضين للثورة». عندما ناقش تشو معها مسألة مرض ماو، اتهمته بأنه يريد دفع ماو الى الاستسلام. ولكن قرار ابعادها عن الحقيقة يفوق كونها مثيرة للمشاكل: إنه دافع سياسي.

لم يعرف ماو نفسه شيئاً. فلو عَلِم ماو أن أيامه معدودة، لما عرفنا ما باستطاعته ألا يفعل. وعلى العكس قيل له إن صحته جيدة وأمامه سنوات طويلة للعيش. وللتأكد من عدم معرفته بشيء، لم ينقل الخبر لأي من خدمه الدائمين. فالطبيب الذي قال من دون تفكير «أخشى أن مرض الرئيس صعب العلاج...» أبعِد فوراً. فكانت عوارض ماو تعتبر طبيعية وغير مؤذية. لم يكتف بذلك، ولكن ليس بيده حيلة.

بالنظر الى المدة الزمنية لبقاء ماو على قيد الحياة، وتدهور صحة تشو نفسه، قرر حلف دينغ-تشو- يي Yeh-Chou-Deng الضغط على ماو لتثبيت دور دينغ كداعم وخلف لتشو، ولإعادة عدد كبير من الكوادر السابقين الذين أبعدوا في الماضي، إلى المناصب العالية. في كانون الأول 1974 غادر تشو فراش المستشفى وذهب إلى تشانغشا Changsha لرؤية ماو ومعه سجل أعمال مليء بالمواعيد. كان ماو على علم بنشاطات الحلف من عصابة الأربعة التي كانت تراقب بكين نيابة عنه. كتبت السيدة ماو تقول إنها «صدمت وغضبت» لما يحدث. لكن ماو ليس في حالة تمكنه من رفض لائحة تشو-دينغ. كان عاجزاً عن تسليم البلد لعصابة الأربعة، الى جانب عجزه عن التخلص من الحلف - إذا أراد أن يموت في فراشه. افتقرت عصابة الأربعة الى نفوذ في الجيش، ولم يجد ماو بين العسكريين من يدفع الحلف الى جانبه؛ وكان هو ضعيفاً جسدياً ليتمكن من إنشاء قوة جديدة تتفوق على الحلف.

كان مرض لو غيهريين يتغلغل داخل جسمه ويضعفه. في بداية رحلته إلى الجنوب في صيف 1974 كان باستطاعة ماو أن يتمشى في الحديقة؛ ولكن في خلال بضعة أشهر لم يستطع سوى جر رجل خلف الاخرى مسافة قصيرة. وفي 5 كانون الأول لاحظ أن عليه توديع السباحة - هوايته المحببة طوال حياته. كان يغطس أحياناً في حوض سباحته الداخلي في شانغشا ولكن ذات مرة كاد يختنق في المياه، وكانت هذه آخر مرة يسبح فيها. سمعه حارسه الشخصي الذي يبلغ 27 من عمره وهو يتنهد بكآبة واستسلام، الأمر الذي لم يسمعه قط ولم يتخيل أنه صادر عن ماو.

ومع فشل تناسق عضلاته، أصبح كلام ماو غير واضح تدريجيا، وبات الطعام يتوقف في رئتيه مسبباً الاختناق والعدوى. فتوجب عليه أن يتمدد على جنبه كي يطعموه. أصبحت الحياة غير مريحة إلى حدّ كبير وموجعة.

وفي هذه الظروف، كان على ماو أن يوافق على لائحة مطالب تشو وخاصة مسألة ترقية دينغ دينغ إلى منصب نائب أول لرئيس الوزراء وداعم لتشو. ولكن ماو رقّى عضو عصابة الأربعة، الكوبرا، وجعله في منصب خلف دينغ دينغ في الجيش والحكومة. من جهة أخرى فقد أصر أن يبقى الإعلام في يد العصابة، فلا تصل سوى رسائله الى كافة انحاء البلد.

قامت استراتيجية الحلف على طرد الكوبرا والسيدة ماو، من خلال استغلال ماضيهما المفتقر الى الصفاء. ففي 26 كانون الأول، في يوم عيد ميلاد ماو الـ81 قال تشو لماو إن لهذين الرأسين روابط مع الاستخبارات الوطنية في الثلاثينيات. رد ماو أنه لطالما علم بماضيهما وأنه لا يبالي.

إن إخبار ماو مباشرة بأن زوجته وأحد كبار معاونيه متهمان بكونهما عملاء العدو، كان

تصرفاً لافتاً من قبل تشو. اعتبر ماو أن الاشتراك الفعلي في المعركة قد بدأ بينه وبين عصابة الأربعة ضد حلف دينغ-تشو-يي والكوادر القدامى الذين أعيد توظيفهم جماعياً.

حاول ماو أن يستعيد بعض النفوذ من خلال حث عصابة الأربعة الى بدء حملة إعلامية في آذار 1975 لتلطيخ سمعة سلطة الكوادر الذين أعيد تثبيتهم. في شهر نيسان، بعد أن عاد ماو إلى بكين، صارح دينغ ماو بما يفكر وطلب منه أن يتريث. فأجبر ماو على الرضوخ واتهم عصابة الأربعة. في 3 أيار، وأمام المكتب السياسي، أمر ماو بوضع حدّ للحملة وقال إنه «اقترف خطأً». شكل ذلك تراجعاً لا سابق له، ناتج عن ضعفه. فكما لاحظ كل من حضر الاجتماع، بدا ماو هزيلاً جدا، وأعمى، وقلما كان خطابه مفهوماً. كان هذا آخر ظهور له في اجتماع للمكتب السياسي.

لهذه المناسبة، ولأول مرة منذ استلامه زمام السلطة، أخضع ماو نفسه لرحمة معاونيه، طالباً منهم عدم القيام بانقلاب. فتوسل اليهم مراراً وتكراراً قائلاً: «لا تطبقوا مبادىء الحركة الماركسية الثورية المؤيدة للتطور؛ لا تتفرقوا، ولا تتآمروا». النقطة الأولى عنت: ابقوا الى جانب الثورة الثقافية. والباقي يعني: لا تتآمروا ضدي. خلال تلك الفترة، كرر مرات عديدة أمام دينغ وحلفائه، أقصوصة تاريخية، كانت الرسالة ضمنية ولكن صحيحة مغزاها: إن كنتم تفكرون بانقلاب، نفذوه ضد زوجتي والعصابة، بعد وفاتي.

كان على ماو أن يتوسل بهذه الطريقة لأنه فَقَد السلطة على الجيش. فقد أعاد الحلف تأهيل العديد من الجنرالات الذين كانوا من ضحايا ماو، ووضعوهم في مناصب هامة. ولو كُشف ذلك لم كان في الجيش أي ضابط في مرتبة عليا موال لماو. فحاول أن يدرج رجاله (عضوان من عصابة الأربعة) في مناصب عليا في الجيش، ولكن رُفِض له ذلك.

في حزيران 1975 قام الجيش بعمل قوي متحدياً ماو. كانت المناسبة الذكرى السادسة لموت المارشال هو لونغ Ho Lung الرجل الذي قال له وزير الدفاع الروسي مالينوفسكي قبل عشر سنوات «تخلص من ماو». نتيجة لشكوك ماو، مات المارشال هو في السجن في ظروف مروعة عام 1969. قرر الجيش الآن إقامة احتفال تذكاري له، كان إشارة لتغيير النهج، وتصدياً كبيراً لماو. لم يستطع ماو منع حصول هذا الاحتفال - لكنه أمر بإبقائه خفراً - من دون أكاليل أو خطابات. ومع دعم كبار الضباط، كتبت عائلة هو إلى ماو مهددة بمقاطعة الاحتفال إن لم ترفع هذه القيود، مصرّين على أن لـ هو رفاقوه الأوفياء الذين ما زالوا على قيد الحياة. فرضخ ماو. وكل ما استطاعه، هو إبقاء أخبار هذا الاحتفال بعيداً عن الإعلام.

طغت على الاحتفال أحاسيس مريرة، وكان الجو أكثر حدة نتيجة الأسى الكبير الذي عبر

عنه تشو إن-لاي، بعد أن قام ما اعتبر فراش موته، ليحضر الاحتفال ويمدح الفقيد. دخل القاعة وهو ينادي بصوت مرتفع اسم أرملة المارشال، وبكى كثيراً وهو يغمرها معرباً عن «أسفه الشديد» لعجزه عن حماية زوجها.

كان تشو مسؤولاً عن التحري عن هو أثناء الثورة الثقافية التي أدت إلى وفاة هو وسجن عدد من أتباعه وتعذيبهم، بعضهم حتى الموت. وكانت للبعض مشاعر سلبية إزاء تشو، وكان مدركاً ذلك، وما اعتذاره من أرملة «هو» إلا تبرأة لنفسه وإدانة لماو. هذا الحدث، مضافة الى كونه هو أيضاً على فراش الموت - الأمر الذي أصرّ على قوله للحضور - بددا جزءاً كبيراً من غضب الشعب تجاهه، لتوجيهه نحو ماو.

ماو، المعتاد على تحويل المسؤولية الى الآخرين، لم يرحب بإلقاء اللوم عليه، فوجهه مجدداً الى تشو - ما إن شفي من مرض عينيه. في 23 تموز، خضع ماو لإزالة اعتام عدسة عينه اليسرى. فاختار موسيقى صاخبة ترافق الجراحة التي ستدوم 7 دقائق، لتشجيع نفسه. كان مسروراً جداً لسهولة العملية وطلب من الطبيب الجراح أن يقوم بها على عينه اليمنى في السنة المقبلة. ولكن في الوقت الراهن وافق على وضع نظارات خاصة. فصنع زوجين منها، أحدهما مع ذراع شمالي فقط، والآخر بذراع أيمن فقط، وكان أحد الخدم يتولى نقلها من طرف الى آخر عندما يتحرك ماو في سريره بحيث لا يقع وجهه على أحد الذراعين.

وإذ استعاد ماو بصره ثانية، شعر بثقة جديدة. ففي غضون اسبوعين استهلّ حملة إعلامية جديدة ضد تشو. فأعلن ماو أن إحدى أشهر الروايات الكلاسيكية الصينية تدعى «أطراف المياه» كانت تتناول فعلاً «المستسلمين» الذين يستحقون الإدانة. «المستسلمون» هم تلميح الى مبدأ «الإشعار المزيف العلني بالخطأ» الذي يعود الى عام 1932 ويحمل اسم تشو. كان تشو قلقاً جداً من أن يشوه ماو سمعته، خاصة بعد وفاته؛ فقبل الخضوع لعملية جراحية كبيرة لمعالجة السرطان، وبعد أن أخذ الأدوية السابقة العملية، وبعدما كان على وشك الدخول إلى غرفة العمليات، أصرّ على منحه ساعة للدفاع الذاتي عن نفسه حول مضمون الإشعار. ولم يجلس على محمل الانتظار إلاّ بعد ان وقّع بيد مرتجفة، على الوثيقة وسلمها الى زوجته. عندما قابل دينغ ماو في وقت لاحق، واجهه بمسألة الحملة، واضطر ماو مجدداً الى التراجع. فحاول إلقاء اللوم على زوجته مستخدماً تعابيره المميزة: «اللعنة عليك! أخطأت الهدف!»؛ وسقطت الحملة.

في كل تلك الفترة كان دينغ يحاول إزالة ممارسات الثورة الثقافية وتحسين المستويات المعيشية. فخلال السنوات الـ25 لوجود ماو في السلطة، كان معظم الشعب يعيش في فقر

مدقع وبؤس كبير. أما المناطق المدنية التي كانت تتمتع بامتيازات، فما زالت تخضع لتخصيص الطعام واللباس، وكافة ضرورات الحياة اليومية تقريباً. وغالباً ما كانت العائلات المكونة من ثلاثة أجيال تُقحم في غرفة واحدة صغيرة، علماً أن عدد سكان المدينة ازداد في عهد ماو وبلغ 100 مليون نسمة، وأن عدداً قليلاً جداً من المساكن بني، والصيانة غير موجودة. إن أولويات ماو - ونوعية الحياة - يمكن قياسها من المنطلق أن مجموع الاستثمار الضروري للحفاظ على الطابع المديني (بما في ذلك الماء والكهرباء والنقل ومياه البواليع، إلخ) خلال الأعوام الـ11 من 1965 حتى 1975، كان أقل من 4% من مجموع الاستثمار الضروري للصناعات المتمحورة حول الأسلحة. حصلت الصحة والتعليم على أقل من نصف النسبة الصغيرة للاستثمار التي تلقتها في بداية حكم ماو. في الريف، ما زال معظم الشعب يعيش على حافة المجاعة. وفي بعض الأماكن، كانت بعض النساء اللواتي لا يملكن ثياباً لتغطية أجسادهن، يخرجن عاريات. وفي عاصمة ماو القديمة، مدينة ينان، كان الناس أفقر مما كانوا عليه مع وصول الشيوعية منذ 4 عقود. كانت المدينة تصارع المتسولين الجائعين الذين كانوا يربطون بالحبال ويعتقلون عند مجيء الأجانب للتمتع بجمال قاعدة ماو القديمة، ثمّ يُرَحّلون مجدداً الى قراهم.

أدرك ماو بدون أدنى شك سوء الوضع. وأبقى نفسه على اطلاع دائم من خلال قراءة (أو طلب من أحد أن يقرأ له) تقارير يومية من شبكة القنوات التي تم تركيبها. في أيلول 1975 قال للو دوان، رئيس حزب الفيتنام الذي كان قد أنهى 30 عاماً من الحرب المستمرة، بما في ذلك القصف الأميركي المدمّر: «الآن، أفقر دولة في العالم ليست دولتكم، بل دولتنا». ولكنه وجّه الإعلام للتهجم على جهود دينغ دينغ لرفع مستويات المعيشة بشعارات سخيفة مثل: «بذور الاشتراكية أفضل من حصاد الشيوعية».

كما حاول دينغ رفع الحظر الفعلي المفروض على الكتب، والفن والترفيه الذي دام عقداً تقريباً. ولكن في الوقت الحاضر حاول بإلحاح بثّ أفلام نوعية جديدة لتسلية الشعب. ورغم أن ذلك كله بقي ضمن حدود الشيوعية الواقعية، حاولت السيدة ماو التي كانت تتصرف نيابة عن ماو، سحبها واتهامها «بجرائم» كاستخدام ممثلات جميلات.

كان ماو نفسه يتمتع بوسائل ترفيه كافية؛ إحداها رؤية أوبرا بكين المفضلة وهو مرتاح في منزله. لذلك كانت تدعى نجوم الأوبرا من معسكراتها للتصوير داخل استوديو تلفزيون بكين الفارغ الآن، الى جانب الطاقم الذي أعيد لتوه من المنفى. بعد عدة سنوات أمضوها في مناطق نائية، كانوا بطيئين في عملهم، لذلك عُزلوا خلال أشهر قليلة، وقيل لهم أن يستعيدوا فنهم المفقود وعدم طرح الأسئلة. وإذ لم يشرح لهم أحد لماذا يجب أن ينجزوا هذه «البذور السامة» - التي لا زالت محظورة - وبالتالي خطيرة جداً -، وقد أمضى معظمهم عدة أشهر في

حالة خوف من الشر المرتقب. بعد ذلك، بثت الأفلام لماو من عربة تلفزيونية راكنة بالقرب من منزله. كما شاهد أفلاماً من أيام ما قبل الشيوعية من هونغ كونغ والغرب.

ولكن ماو رفض ان يترك الشعب يتمتع بقدر ولو صغير جداً مما كان هو يتمتع به. وغالباً ما تشاجر دينغ مع زوجة ماو، وكان أحياناً يصرخ في وجهها ويضرب بيده على الطاولة – لم تكن معتادة على هذا النمط من التعامل إلاّ من زوجها. كما أدان دينغ أعمال جيانغ كينغ أمام ماو، وشجّع الشعب خاصة مخرجي الأفلام على كتابة رسائل لماو للتذمر منها. أراد ماو أن يوقف مبادرات دينغ دينغ طالباً منه أن يدوّن خطياً وعداً بالبقاء وفياً لممارسات الثورة الثقافية. وفي تشرين الثاني 1975، أمر أن يقوم دينغ بقرار حزبي يحصن الثورة الثقافية.

لم يرفض دينغ ذلك فحسب، بل عارضه مباشرة أمام 130 من كبار الكوادر، متحدياً بالتالي ماو بكل صراحة. فاضطر ماو الى التخلي عن هذا القرار. شكّل ذلك بالنسبة إليه محاولة أخيرة وعزم على التخلص من دينغ.

كان تشو ويي قد حثا دينغ على عدم تحدي ماو كثيراً: فقط القيام بولاء كلامي كاذب وانتظار وفاته. لكن لم يقو دينغ على الانتظار. فاحتسب أن باستطاعته إرغام ماو على احتمال ما كان يقوم به، شرط ألاّ يؤذي ماو شخصياً.

كانت صحة ماو تضعف بسرعة. فقد اكتسح الشلل العضلي أعضاءه الحيوية بما في ذلك حنجرته، معيقاً بشدة قدرته على الطعام. ولكن وراء هذه القوقعة المتفتتة، حافظ على عزمه في عدم الانهزام.

حان الوقت الذي لطالما انتظره ماو في 8 كانون الثاني 1976 عندما توفي تشو إن-لاي حليف دينغ وكان يبلغ 78 عاماً. تحرك ماو بسرعة. فطرد دينغ ووضعه في الإقامة الجبرية وأدانه علناً بالاسم. في الوقت نفسه أوقف مؤقتاً المارشال يا-ي وهو العضو الثالث في هذا الحلف، زاعماً أن ياه مريض. لخلافة تشو، عين ماو هيوا غيو-فينغ Hua Guo-feng أحد أتباعه غير المعروفين ومتوسط القوى؛ ولقيادة الجيش عيّن تشين كسي-ليان Chen Xi-lian وهو جنرال غير معروف. اختار ماو هذه الوجوه المحايدة نسبيا، عوضاً عن أعضاء من عصابة الأربعة وذلك للتخفيف من ردات فعل الحزب والجيش، وكان معظمهم يكرهون العصابة.

إلاّ أن موت تشو فجّر شيئاً لم يكن موجوداً في صين ماو: الرأي العام. ففي السنوات السابقة، تحت إمرة دينغ كانت المعلومات حول الشخصيات القائدة قد تسربت لأول مرة، عبر شبكات مكونة من ضباط شيوعيين وأولادهم الذين أعيد تأهيلهم، وجالت في البلد. فأدرك الشعب الى حد ما أن تشو قد اضطهد (من دون معرفة أي شيء عن دوره الحقير في

الثورة الثقافية). وقد أثار خبر موت تشو حزناً شعبياً غير مسبوق، خاصة أن الإعلام قلل من أهميته. وفي اليوم الذي نقل فيه جثمانه من المستشفى إلى المحرقة، امتلأت شوارع بكين بملايين الأشخاص. إنها المرة الأولى في ظل حكم ماو يجتمع فيه هذا العدد الكبير من الناس بدون تنظيم. وفي يوم جنازة تشو، حتى الممرضة - سكرتيرة ماو اقترحت عليه بحذر المشاركة، لكن ماو رفض الفكرة. اعتبر الشعب أن عدم مشاركة ماو بمثابة تصدّ لتشو؛ وعندما أطلقت بعد بضعة أيام الألعاب النارية من زونغنانهاي منزل ماو بمناسبة حلول للسنة الصينية الجديدة، بدأ الموظفون يتهامسون بأنه يحتفل بموت تشو.

علت الاعتراضات الشعبية في كافة أنحاء الصين، مستخدمين علناً ثغرة موت تشو للإعراب عن الاشمئزاز من سياسات ماو. وفي أوائل نيسان ثار البركان في مهرجان مقابر شامل، وهو يوم يحترم فيه الصينيون موتاهم. فكسحت وفود عفوية ساحة تيان ان مين لتندب تشو بالأكاليل والأشعار، ولتدين الثورة الثقافية. والأغرب من ذلك أن الحشود في قلب العاصمة راحت تحطم السيارات التابعة للشرطة التي كانت تأمرهم بإخلاء الساحة، كما أحرقت مقرّ الميليشيا التي نظمتها عصابة الأربعة، والتي حاولت قمع المتظاهرين بعنف. حصل كلّ هذا التحدي لقواعد ماو، على مسافة قصيرة من منزله.

منع النظام معارضة المتظاهرين وكانت النتيجة هدر دماء كثيرة. اعتبرت السيدة ماو ذلك بمثابة انتصار، وكتب ماو: «تشجيع معنوي عظيم. حسن. حسن. حسن.» واتخذت إجراءات صارمة في البلد، ولكن لم يعد باستطاعة ماو أن ينشر الرعب كما في الماضي.

ورغم ان لا علاقة لدينغ في تنظيم هذه التظاهرة، فثمة مؤشر صغير على شعبيته: مجموعة القناني صغيرة المتدلية من أشجار ساحة تيان ان مين. تجدر الإشارة هنا إلى أن اسم دينغ أي كزياو-بينغ Xiao-ping يلفظ مثل عبارة «قناني صغيرة» في اللغة الصينية. شعر ماو بتهديد كبير من هذا المؤشر. فإن انضمام الشعب الى أخصام الحزب أمر غير مسبوق. بالتالي نقل ماو دينغ من حالة الإقامة الجبرية في المنزل إلى الاعتقال في جزء آخر من بكين.

ولكن بدلاً من معاقبة دينغ بالوسائل الشريرة نفسها التي استخدمها على أعدائه الآخرين، لم يؤذه ماو. ليس بسبب محبته لـ دينغ ولكن لأنه لن يخاطر بخلق وضعية تدفع مناصري دينغ في الجيش الى التحرك. ورغم أن ماو وضع حدّاً لأعمال المارشال ي-ي مؤقتاً، تابع ياه ممارسة رقابة فعلية على العسكريين. في منزله داخل المجمع الحصري للجيش في ويسترن هيلز Western Hills، استقبل عدداً كبيراً من الجنرالات وكبار الضباط قائلاً لهم بتحد إنه ليس مريضاً أبداً كما يدّعي ماو. من بين الأصدقاء، لم يعد يي يشير إلى ماو على أنه «الرئيس» كعبارة احترام، ولكن «na-mo-wen» وهي الترجمة الحرفية الصينية من الإنكليزية وتعني «الرقم واحد» وهي

لا تتسم بالاحترام اللازم. كان قادة الجيش يتحدثون في ما بينهم وبطريقة شبه علنية عما يجب القيام به. قال أحدهم الملقب «بالجنرال الملتحي» لـ ياه أن يتصرف فوراً و«القبض» على عصابة الأربعة. ولكن خشية التحدث بصوت مرتفع، خوفاً من أجهزة التنصت، رفع ياه ابهمه ولوّح به مراراً ثم أداره الى الأسفل، ويعني ذلك: انتظروا وفاة ماو. ثم تحدث «الجنرال الملتحي» مع وانغ دونغ-كسينغ Wang Dong-xing رئيس حرس البريتوري الذي كان سابقاً أحد أتباعه، قائلاً إنه يجب حماية دينغ حماية تامة.

كان ماو على علم بما يجري في Western Hills لكن منفذيه الجدد في الجيش لم يكونوا في حالة تمكنهم من التصدي للمحاربين القدامى، وهو شخصياً كان مريضاً جداً بحيث لا يمكنه التصرف. فكان عليه أن يتحمل ذلك. في حالة الاحباط هذه، تعرض لنوبة قلبية في أوائل حزيران 1976، وضعته على شفير الموت.

أُعلم المكتب السياسي وكبار أطباء ماو بذلك. وأُخبر احد الاطباء المتعاطفين فوراً زوجة دينغ بالأمر، والتي كانت في المستشفى 301، وهو مستشفى خاص لكبار القادة، حتى الذين طردوا. أن يتسرب خبر سري جداً يتعلق بوضع ماو الصحي، لأخصامه، هو دليل على تراجع سلطة ماو. وما إن علم دينغ نفسه بالأمر، حتى كتب لماو في 10 حزيران طالباً أن يسمح له بالعودة إلى منزله؛ لقد طلب في الواقع أن يطلق سراحه.

كان على ماو أن يقول «نعم»، وقد فعل ذلك بعد أن استقر وضعه في نهاية الشهر؛ لكن تمّ تأجيل إطلاق سراح دينغ بضعة أيام بسبب حدث آخر جعل ماو يشعر بعدم الأمان. ففي 6 تموز مات المارشال زو دو زو وهو أكبر قادة الجيش الذي كان يحترمه كثيرا، وهو في الـ90 من عمره. خشي ماو أن يؤدي موت زو إلى حصول تظاهرات ضخمة كالتي تلت موت تشو في أوائل هذه السنة – وقد يتورط دينغ في ذلك. كان زو أقدم عدو لدينغ وذلك منذ أواخر العشرينيات. عذّبه ماو كثيراً خلال الثورة الثقافية ولكنه امتنع عن إبعاده. في الواقع، وإذ لم تحصل اضطرابات بعد موت زو سمح لدينغ بالعودة الى منزله في 19 تموز – وكان يقود على طرقات مقفرة في آخر ساعات الليل.

دام اعتقال دينغ 3 أشهر فقط. ورغم أنه ما زال في الإقامة الجبرية، كان الآن برفقة عائلته. فقد فشِل ماو في تدميره وكان دينغ مستعداً لخوض معركة جديدة.

58- الأيام الأخيرة
(1974-1976، العمر 80-82 سنة)

سيطر البغض والإحباط والاشفاق على الذات على آخر أيام ماو. وعبّر ماو عن هذه المشاعر الواضحة في طبعه، بطرق فريدة. فقد كان معجباً جداً بقصيدة من القرن السادس تدعى «الأشجار الذابلة» وهي عبارة نواح ومرثاة شعرية حول بستان من الأشجار المهيبة، تحولت إلى أشجار ذابلة وبلا حياة. وقد عزا الشاعر Yu Xin مصيبة الأشجار إلى أنها استئصلت من جذورها وأعيد زرعها، وهذا صدى ما حصل له في المنفى. ولكن في 29 أيار 1975 قال ماو للتلاميذ الذين كانوا يدونون قصائد خاصة له، إن قدر الأشجار «لا علاقة له بإعادة زرعها»؛ لكنه أكّد أنها «أتت نتيجة لسحق الأشجار من جرّاء تيارات حاقدة وقطعها بضربات متتالية على أيدي الناس». اعتبر ماو نفسه شخصاً كان «مستأسداً» (على حدّ قول زوجته) من قبل دينغ كزياو-بينغ وحلفاء دينغ. وفي الأيام السابقة، إرغموا ماو على سقوط سريع لا مثيل له وأجبروه على إلغاء حملته الإعلامية ضدهم والتسليم بأنه «اقترف خطأً».

بعد اضطراره الى اطلاق سراح دينغ في تموز 1976 - الأمر الذي أغضبه كثيراً، طلب ماو أن تُقرأ له بصوتٍ عالٍ مرتين على التوالي قصيدة «الأشجار الذابلة» ثم راح يرددها بنفسه، على مهل، بصوته المخنوق الذي يطفح بالمرارة. وبعد ذلك لم يطلب أبداً سماع أو قراءة أية قصيدة أخرى.

كان دينغ من بين أعداء ماو الكثيرين في الحزب القديم، الذين انتقدهم ماو بقساوة في فكره في السنوات الأخيرة؛ ومن بينهم أيضاً تشو إن-لاي. ففي حزيران 1974 خضع تشو أخيراً لجراحة السرطان التي أعاقها ماو مدة سنتين. وافق ماو أخيراً لأن حالته الجسدية المستضعفة كانت تجعله يشعر أنه واهن. فيما كان تشو في المستشفى، استعاد ماو خطبات لاذعة كان قد كتبها عام 1941 ضد تشو وغيره من أخصامه. كانت خطباته هذه مليئة بالإهانات العنيفة، ولم يشعر ماو يوماً بأنه من الحكمة أن تنشر.

الآن، وبعد مرور 33 عاماً، كان يقضي وقتاً طويلاً في قراءتها، ويلعن تشو في فكره بصمت.

إن قراءتها مجدداً شكلت بالنسبة الى ماو وسيلة لصب حقده على خصم آخر هو ليو شاو-

كي الذي توفي قبل خمس سنوات على أيدي ماو - موت لم يجرؤ ماو على إعلانه رسمياً بعد. ولكن عندما كتب ماو هذه المقالات، كان ليو حليفه، وكان يمدحه فيها. أما الآن فأصرّ على حذف كلّ عبارة تشير إلى ليو.

وثمة رجل آخر كان ماو ينتقده بقسوة في فكره، وكان من أبرز أخصامه في ذلك الحين عندما كتب المقالات وهو وانغ مينغ الذي مات في المنفى في روسيا في 27 آذار 1974 وذلك قبل شهرين من قراءة ماو الثانية لخطبه المسهبة العنيفة. حاول ماو قتل وانغ مينغ بتسميمه في الأربعينيات، ثم سمح له ان يلتجىء الى روسيا حيث كان وانغ مينغ بمثابة قنبلة مؤقتة. أثبت خروتشيف وابن وانغ مينغ أن ماو حاول أن يسمم وانغ مينغ في روسيا. لكن المحاولة باءت بالفشل فقط لأن المنفي كان يختبر الطعام على كلبه تلك الذي مات. في موسكو بدأ وانغ مينغ ينقلب ضدّ ماو، الأمر الذي نقل الى الصين؛ وخلال الثورة الثقافية بدأ يخطط للعودة إلى الصين لإنشاء قاعدة في زينجيانغ قرب الحدود الروسية، ثم محاولة جديدة للانقلاب على ماو (وهو اقتراح لم يَحظَ بغفران الكرملين).

جاء موت وانغ مينغ نتيجة نزاع طويل وعقود من التدهور الصحي بعد محاولات ماو المتكررة لقتله. كان يلازم الفراش في سنواته الأخيرة، ويمضي 3 ساعات قبل أن يستطيع ابتلاع قطع صغيرة من طعامه توازي وجبة مقبولة. لكن موته الأليم لم يلطّف تذمر ماو، كما كان الأمر مع احتضار ليو وتشو، الذي وهب ماو شيئاً من الراحة. قبل شهر من وفاته، طلب ماو أن تُقرأ له مجدداً خطبته المسهبة العنيفة ليستعيد مؤقتاً متعة التهجم على كل هؤلاء الأخصام مرة جديدة.

مع نهاية حياة ماو، كان كل معاونيه المقربين السابقين قد ماتوا، ومعظمهم بسببه. إلاّ أن وفاتهم لم ترضيه تماماً. فكان عليه أن يكتم موت ليو و بينغ دو هيو، الضحيتان الأهم في الثورة الثقافية، خشية تعاطف الناس. أعلنت وفاة تشو إلاّ أن النتيجة كانت زعزعة سيطرة ماو. توفي وانغ مينغ في روسيا، بعيداً عنه؛ لم يستطع إبعاد زودي Zhu De؛ في حين استطاع لين بياو المعاون الرئيسي لماو خلال عملية التطهير الكبير، أن يفر من البلد قبل تحطم الطائرة التي أقلته الى خارج الحدود؛ أكثر من ذلك تخلى لين عن الهاجس الذي كان يلاحق ماو - مؤامرة لقتله. كان دينغ حياً، لا بل أكثر من حي: فقد اضطر ماو الى الاستسلام والسماح له بالعيش في رفاهية داخل منزله الخاص بين أفراد عائلته. وعلى فراش الموت كان ماو لا يزال متعطشاً للثأر.

تعب ماو من تراكم الاستياء عليه. فقد عجز عن جعل بلده قوة عظمى رغم عشرات العقود من التوق الى ذلك. ورغم امتلاكه القنبلة، لم يستطع رميها، أقله لأن نظام التسليم عجز عن ضربها الى أبعد من حدود الصين. فقد كانت قواعد البلد الصناعية خِرباً تنتج ركام أجهزة

فيها خلل - تشمل أساطيل طائرات عاجزة عن الطيران، علماً أن صناعة الطائرات كانت من أولويات جدول أعماله منذ بداية عهده، وخيضت الحرب الكورية جزئياً لدعم هذه الصناعة. لم يكن السلاح البحري في حال أفضل. فآخر ما قاله ماو لقائد البحرية عام 1975 أي قبل عام من وفاته: «اسطولنا البحري هو على هذا الشكل!»، رافعاً اصبعه الصغير وبدت على وجهه ملامح الحزن والغم. في تشرين الأول آنذاك، علق ماو بكآبة أمام كيسينجر أنه لا ينتمي إلى العصبة الأساسية، «في العالم قوتان عظمتان فقط... ونحن وراءهما...» ثم قال يعدّ على أصابع يده: «نأتي آخراً: أميركا، الاتحاد السوفياتي، أوروبا، اليابان، الصين - أنظر!». وعندما وصل الرئيس الأميركي فورد بعد بضعة أسابيع إلى الصين، قال له ماو: «نستطيع فقط أن نطلق النار... مدافع فارغة، وأن نلعن».

بذل ماو جهداً أخيراً في محاولة لترويج نفسه كزعيم عالمي عام 1974، عندما حاول أن يستفيد من أمر لا يتطلب قوة عسكرية، ويضعه في المرتبة الأولى ليدعي قيادة العالم: إنه الفقر. فقد أعلن عن منهج جديد للتعريف بـ«ثلاث كلمات» - معلناً أن «العالم الثالث» يعني البلدان الفقيرة، باستثناء روسيا، وألمح برموز عديدة الى ضرورة اعتباره قائداً للعالم الثالث. ولكن رغم اعتباره، بشكل عام، قائد العالم الثالث، لم يكن هذا الأخير يأتمر به، ولم تكن قيادته ملموسة فعلياً. الى جانب ذلك، سأل ديبلوماسي أميركي محنك «أكانت الأمور ستختلف فعلاً؟»

كما رفضت مخلوقاته الخاصة الاعتراف بسلطته. وأدى ماو دوراً حيوياً في تأسيس نظام الخمير الحمر في كامبوديا عام 1975. كان قائده بول بوت صديقاً حميماً لماو، وقد أبعِد في عهده حوالى ربع الشعب الكامبودي في غضون سنوات قليلة. وإثر تسلم بول بوت زمام السلطة، هنأه ماو شخصياً على دولته، معسكر العمل الاستعبادي، قائلاً «لقد أحرزت نجاحاً ساحقاً. فئة واحدة، من دون طبقات اجتماعية مختلفة». وما عناه ماو هو أن الجميع أصبح عبداً. وبعد ذلك أرسل ماو الأمير سيهانوك الذي كان يعيش في منفى فخم في الصين إلى دياره في كامبوديا حيث وضع في الإقامة الجبرية، وصار بول بوت يستغل اسمه. ورغم كون ماو راعي بول بوت والمستشار الأمين، لم يحظ بأي عرفان الجميل. وكان زميل ويدعى كيو ميز Keo Meas قد أشار إلى ماو بمدح وتقريظ، فتم تعذيبه حتى الموت. وكُتب على ملف هذا الرجل المائت «هذا الخسيس ماو الذي لاقى الموت المروع الذي استحقه، كان عديم القيمة. يجب ألا تفكر أيها القذر القديم بأن الحزب الكامبودي تأثر بماو».

على الصعيد العالمي، كان على ماو أن يتشبث بهالة مبهمة؛ وقد وصفت جولي ابنة نيكسون ردة فعل ماو عندما ظهرت مرتدية شارته: «بدا على وجهه فرح الأطفال، وصافح يدي بشكل عفوي». ولدعم صورته بقي يستقبل قادة الدول الأجنبية حتى قبل 3 أشهر من وفاته. لكنه

غالباً ما أفسد التأثير على هذه الجماهير. رآه القادة التايلنديون «يشخر» عندما دخلوا القاعة. أما رئيس وزراء سنغافورة Lee Kuan Yew زائر ماو قبل الأخير، فوصف كيف كان ماو العاجزعن التحدث بوضوح، يسند رأسه على ظهر كرسيه. وبالفعل كما أظهرت آخر صورة لم يكن ماو يشبه القائد العالمي. كان لعابه يسيل من فمه، ووجهه أصفر اللون، وحنكه مرتخٍ، فعكس صورة رجل يعاني الخرف والبؤس. وعندما رأى ماو مدى سوء مظهره في الصور التي التقطت له مع رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، في أواخر أيار 1976 توقف عن مقابلة أجانب كلياً.

وفيما كان يشعر بالاستياء إزاء فشله في تحقيق طموحه العالمي، لم يحجم ماو عن أفكار الإنسان العملاق والخسائر المادية التي تكبدها شعبه بسبب مطالبه المدمرة. فقد مات أكثر من 70 مليون شخصاً – أيام السلم – نتيجة سوء إدارته، لكن ماو لم يأسف إلا على نفسه. كان بوسعه أن يبكي وهو يتكلم عن أي شيء له صلة بماضيه المجيد وفشله الحالي، حتى وهو ينظر إلى أفلام تروج لنظامه الخاص. وغالباً ما كان يرى خدامه الدموع تنهمر على وجهه، «كنبع» على حدّ قولهم. شكلت الشفقة الذاتية التي كان ماو دائماً ميالاً إليها، أبرز شعور تغنى به ماو في آخر أيامه.

تعلّق ماو كثيراً ببعض القصائد الكلاسيكية التي كانت تتحدث عن رجال كبار فقدوا سلطتهم، ملوك فقدوا عرشهم وأبطال محلقين هزموا. وكان يتعاطف مع مصير الأبطال والملوك غير المتكامل.

أدت وجهة النظر هذه إلى شعور مميز باللأخوة حيال الذين اعتبرهم «ملوك هزموا» حول العالم؛ وعلى رأس اللائحة الرئيس الأميركي السابق ريتشارد نيكسون الذي أجبر على تخلي عن الحكم بسبب فضيحة واترغيت في آب عام 1974. ولطالما أظهر ماو تأييده لـNixon مراراً وخلافاً لعادته. بعد أسابيع من طرد نيكسون من البيت الأبيض، طلب ماو من إيملدا ماركوس من الفيليبين أن تحقق آماله وأن تدعو نيكسون باسم ماو الى زيارة جديدة للصين. استُقبلت ابنته جولي وزوجها دافيد ايزنهاور David Eisenhower استقبالاً مدهشاً في كانون الأول من السنة التالية. وقال ماو لجولي «اكتبي فوراً لأبيك وقولي له أني مشتاق إليه»؛ ولدى عودتها إلى الولايات المتحدة، قال لها مبعوث بكين إن ماو «يعتبرك جزءاً من عائلته» – وهي ملاحظة فريدة من نوعها.

في شباط سنة 1976 عندما أتى نيكسون المطرود لزيارة الصين، أرسل ماو إلى لوس انجلوس طائرة بوينغ 707 لتقله مع كافة المسؤولين عن البروتوكول في وزارة الخارجية – وهذه أيضاً خطوة أخرى غير مسبوقة. فالمجازفة بأن تستولي الولايات المتحدة على الطائرة

الأميركية الأصل المجردة من ملكيتها في الصين لم تكن أمراً هاماً بالنسبة الى ماو. وعندما رأى نيكسون مجدداً، تناول معه كوب شاي. ولدى مغادرة نيكسون بذل ماو جهداً كبيراً ليرافقه حتى الباب وبدا حزيناً، كئيباً وهو يودعه. دعاه ماو لزيارة الصين، وكان هذا بمثابة وداع شخصي. وقد اختار شخصياً تصميم سهرة وداعية للرئيس الأميركي السابق تضمنت حفلة غنائية للقصائد الكلاسيكية التي يحبها ماو والتي تضيء النهاية المأساوية للرجال العظام. لم يعن هذا البرنامج الكثير لنيكسون الذي أبدى تعباً وضجراً. إلاّ أن ماو اظهر مشاعره الخاصة لنفسه رغم عدم وجوده على المنصة.

والشخص الأخر غير المرغوب فيه الذي حظي أيضاً بتعاطف ماو كان تشيانغ - كاي - شيك الرجل الذي عزله ماو وذبح ملايين الصينيين ليبقيه في العزلة. توفي تشيانغ في تايوان في 5 نيسان 1975 وهو في الـ89 من عمره، تاركاً وصية قال فيها أنه لا يريد أن يدفن في تايوان بل أن يبقى في مزار حتى يتم نقله إلى الصين القارية عند انهيار النظام الشيوعي. عندما اقترب موعد دفن تشيانغ انتحب ماو الجنرال يوماً كاملاً بمفرده. في ذلك اليوم، لم يأكل ماو ولم يتحدث مع أحد. فقد بث شريطاً موسيقياً لمدة 80 دقيقة على التوالي طوال النهار لخلق جوّ مأتمي، في حين جلس هو على سريره لتمرير الوقت وبدت على وجهه ملامح الوقار. جهزت هذه الموسيقى خصيصاً لماو لقصيدة من القرن الثاني عشر كتب فيها الشاعر مودعاً صديقه الذي كان يشبه تشيانغ كثيراً وهو وطني رفيع المستوى، وموظف كبير انتهت وظيفته بشكل مفاجىء، وقد نفي إلى مكان بعيد في الصين. قال الكاتب لصديقه:

أنت وأنا رجال تاريخ
لا رجال صغار يثرثرون حول أمور تافهة

هذا ما كان ماو يشعر به تجاه تشيانغ.

بعد أيام، أعاد ماو كتابة هذين البيتين من الشعر، وأصبحا كالآتي:

اذهب، اطلق سراحك يا صديقي العزيز
ولا تنظر إلى الوراء

أدى هذا التعديل بالشعر إلى توديعٍ جلي. كان ماو يكتب المقطع الأخير من القصيدة لرفيق عملاق عنيد. وتم تسجيله موسيقياً وتم غناء إحدى القصائد لنيكسون عندما دعاه ماو ليودعه شخصياً.

أبدى ماو تعاطفاً غير عادي، مع قادة آخرين طردوا. عندما توفي امبراطور أثيوبيا هيلاسيلاسي في السجن عام 1975 بعد أن تمّ خلعه نتيجة انقلاب عسكري، حزن ماو كثيراً،

علماً أنه التقاه مرة واحدة وبشكل وجيز. وظلّ ماو يردد «كان الامبراطور على ما يرام» و«لماذا انتهى به الأمر هكذا؟!»

كان هذا الشعور المتعاطف لقادة مخلوعين، تمديداً لمخاوف ماو من أن ينتهي به الأمر كذلك مخلوعاً. وفي هذه الحقبة الأخيرة من حياته كان مهووساً جداً، أكثر من أي وقت مضى بشأن حصول انقلاب؛ ولتفادي ذلك صرّح ماو لـ دينغ هسياوبينغ وحلفائه سنة 1975 أن باستطاعتهم قمع السيدة ماو وعصابتها (Gang) بعد وفاته.

كان الخوف من حصول انقلاب سبباً جزئياً لعدم تعيين ماو خلفاً له. فهو لم يمنح هذه الصفة أبداً لرئيس زمرته Hua Gua-feng، كما سبق وفعل مع لين بياو. كان يخشى أن خلفاً رسمياً قد يستعجل النجاح فيحاول أن يتغلب عليه. ورغم أن هو أبدى قدراً كبيراً من الوفاء (عندما أجبر ماو على الأكل بواسطة أنبوب يمرّ بأنفه للمرة الأولى تحول هو إلى حقل تجارب وقام بتجريب الأنبوب على نفسه أولاً) علماً أن ماو كان يثق بـ هو بشكل واضح لكي يسلمه المسؤولية، رفض أن يعلن أن هو سيكون خليفته بعد وفاته.

لم يكن يكترث ماو بتاتاً بما قد يحصل بعد وفاته. في الواقع كانت ثقته ضئيلة في أن تبقى «إنجازاته» في السلطة. والمرة الوحيدة التي تفوه بها ببعض الكلمات أمام المقربين له عن المستقبل كانت عندما علم أنه سيموت؛ قال لهم ستحصل «ثورة» بالطبع «دماء غزيرة وهواء رائحته مفعمة بالدم»؛ ثم قال ماو «الله يعلم ماذا سيحل بكم».

لم يترك ماو وصية، رغم أن موته كان متوقعاً بعد سنة على الأقل وكان أمامه الوقت الكافي ليكتب وصيته.

قضى ماو آخر أيامه في مبنى يصعب وصفه، بني خصيصاً له في زونغنانهاي مع كافة وسائل الحماية العادية الخاصة به، بالإضافة إلى كونه مضاد للزلازل. شكلياً فقط كان له اسم رمزي «202». فقد نقل إلى هناك في أواخر تموز 1976 بعد أن هزّ زلزال كبير منطقة بكين بلغت قوته 7.8 درجة على مقياس رختر والذي جعل تانغشان مسطحة، وهي مدينة صناعية تقع على بعد 160 كلم شرقي البلاد حيث قتل حوالى 240000 شخص (وفقاً للإحصاءات الرسمية) و600000 شخص (حسب الإحصاءات غير الرسمية). أما في بكين ومناطق كثيرة أخرى فأجبر السكان على البقاء والنوم خارجاً. وعلى غرار نهج ماو، رفضت السلطة المساعدة الخارجية التي كان من شأنها أن تساهم في تخفيض عدد القتلى. وقد أطلقت حملة إعلامية تحض المسعفين على «إدانة Deng على الخراب».

كان ماو لا يزال يعطي الأوامر؛ فعندما أرادت السيدة ماو أن تخرج من بكين في 2 أيلول، جاءت تطلب الإذن من زوجها. كان يتذمر لأنها أزعجته فجأة، فرفض اول مرة ثم وافق

عند إصرارها. بعد 3 أيام فقد ماو وعيه فجأة وطلب هو منها العودة. في الأسابيع الأخيرة كانا يتبادلان الأدوار للسهر على ماو، وعندما عادت السيدة ماو انضمت إليهما ولكنها كانت تجلس خلف سرير ماو لأنه أبدى انزعاجاً عندما استفاق ذات مرة ورآها أمامه. لم يكن أحد من أولاد ماو حاضرين.

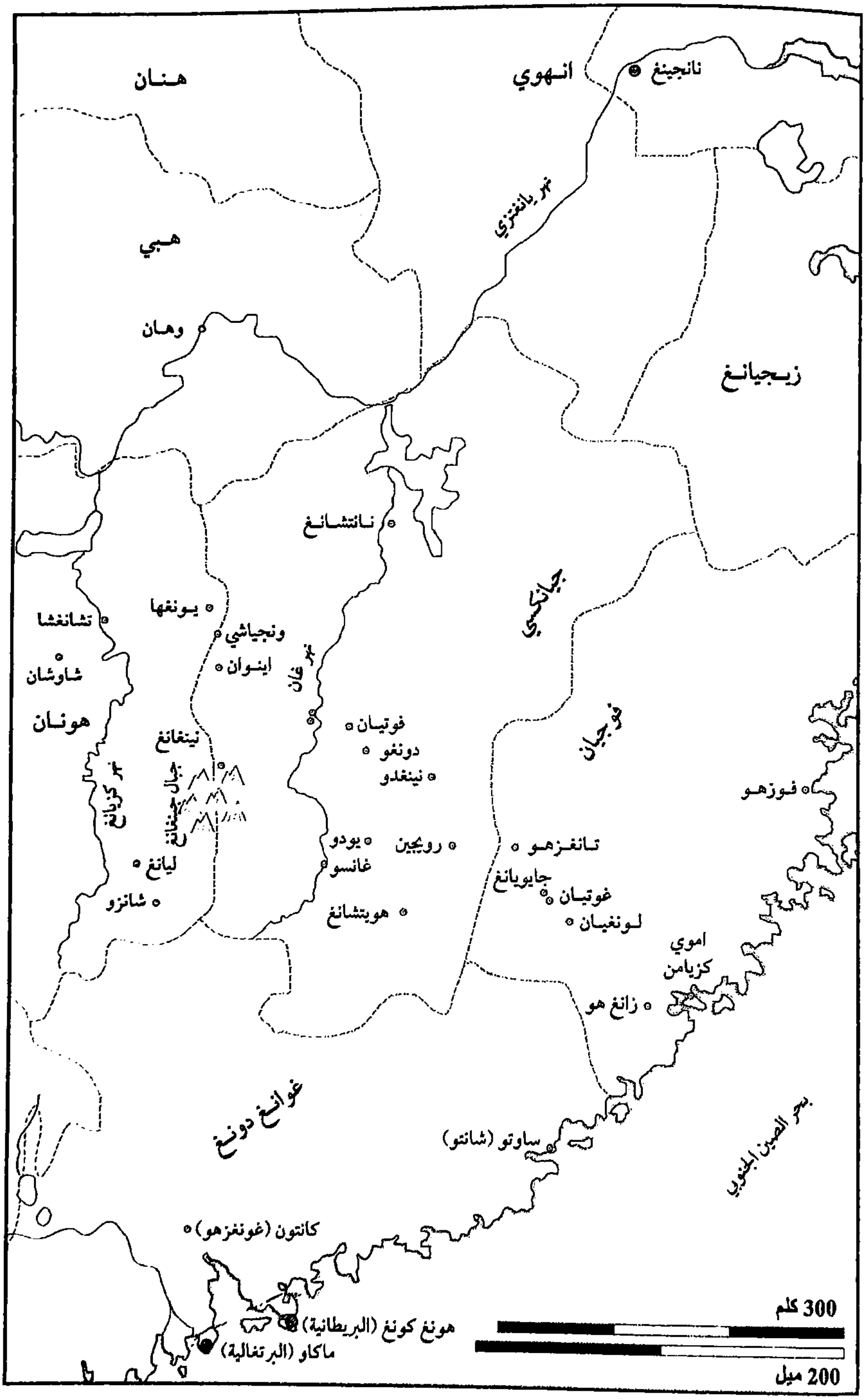
في 8 من أيلول تفوه ماو بشيء، فأعطاه خادمه وحلاّقه منذ 17 عاماً، قلماً وورقة فكتب ماو بيد مرتجفة 3 أسطر ثم لمس بيده 3 مرات الطرف الخشبي لسريره. ظن خادمه أن ماو أراد أن يعرف ماذا حصل لرئيس الوزراء الياباني Takeo Miki (يعني اسمه في اللغة الصينية «3 قطع من الخشب») لم يلتق ماو بـ ميكي قط ولم يهتم لأمره قبل الآن، في حين كان ميكي يناضل لتفادي انقلاب من قبل حزبه الخاص.

حملت Meng إحدى صديقتي ماو المتنكرتين بزي ممرضات، الصحيفة كي يقرأ الأخبار، وكان هذا آخر نبأ قرأه ماو.

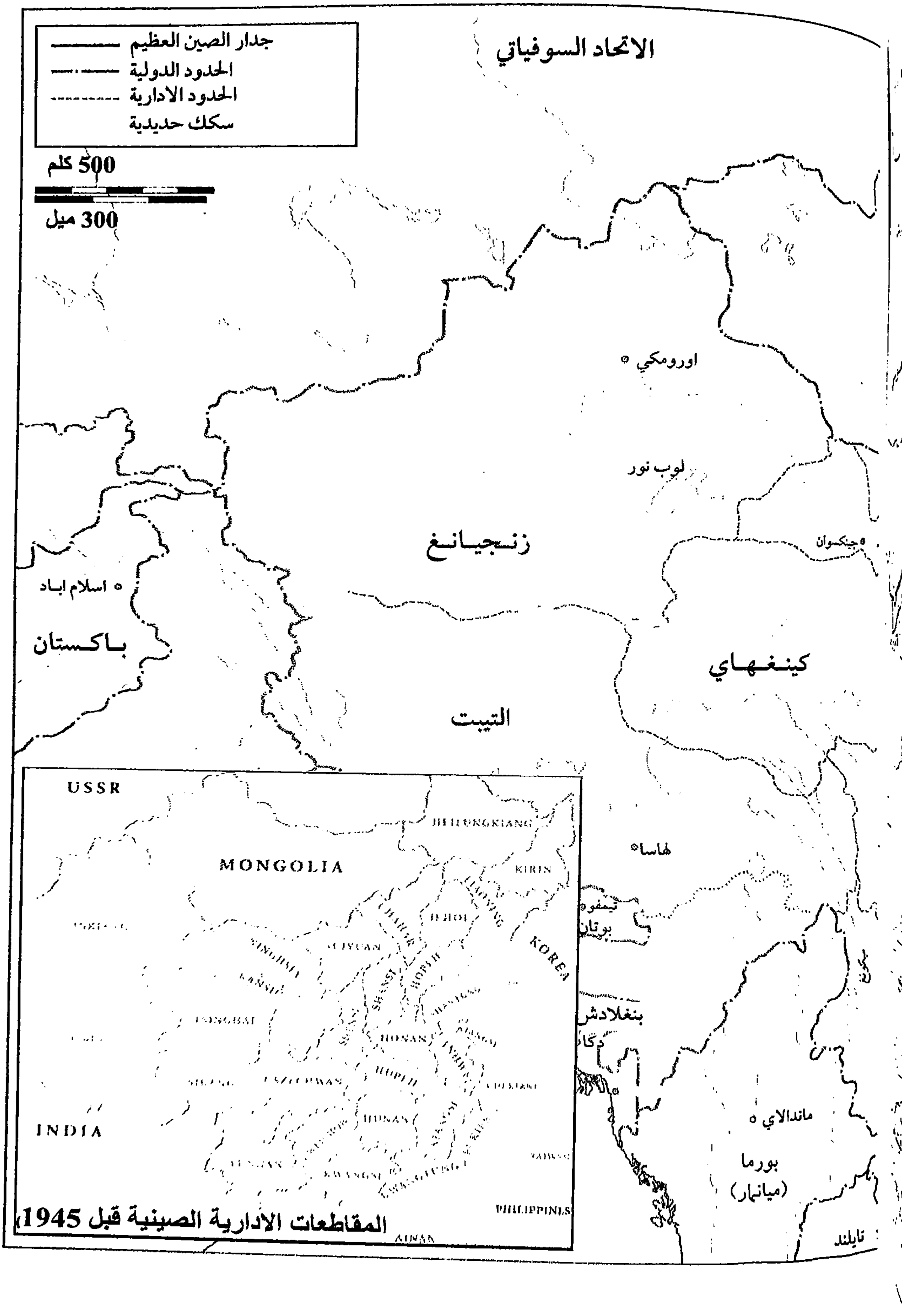
وبعد ذلك سمعت Meng ماو يقول «أشعر أني مريض جداً. اطلبي الطبيب». وكانت هذه آخر كلمات تفوه بها ماو؛ فبعد ذلك غاب عن الوعي. وفي الساعة 12 ليلاً، أي صبيحة التاسع من أيلول 1976 مات ماوتسي تونغ. وبقي في كامل وعيه حتى آخر لحظات حياته، وجالت في رأسه فكرة واحدة أساسية: هو وسلطته.

الخاتمة

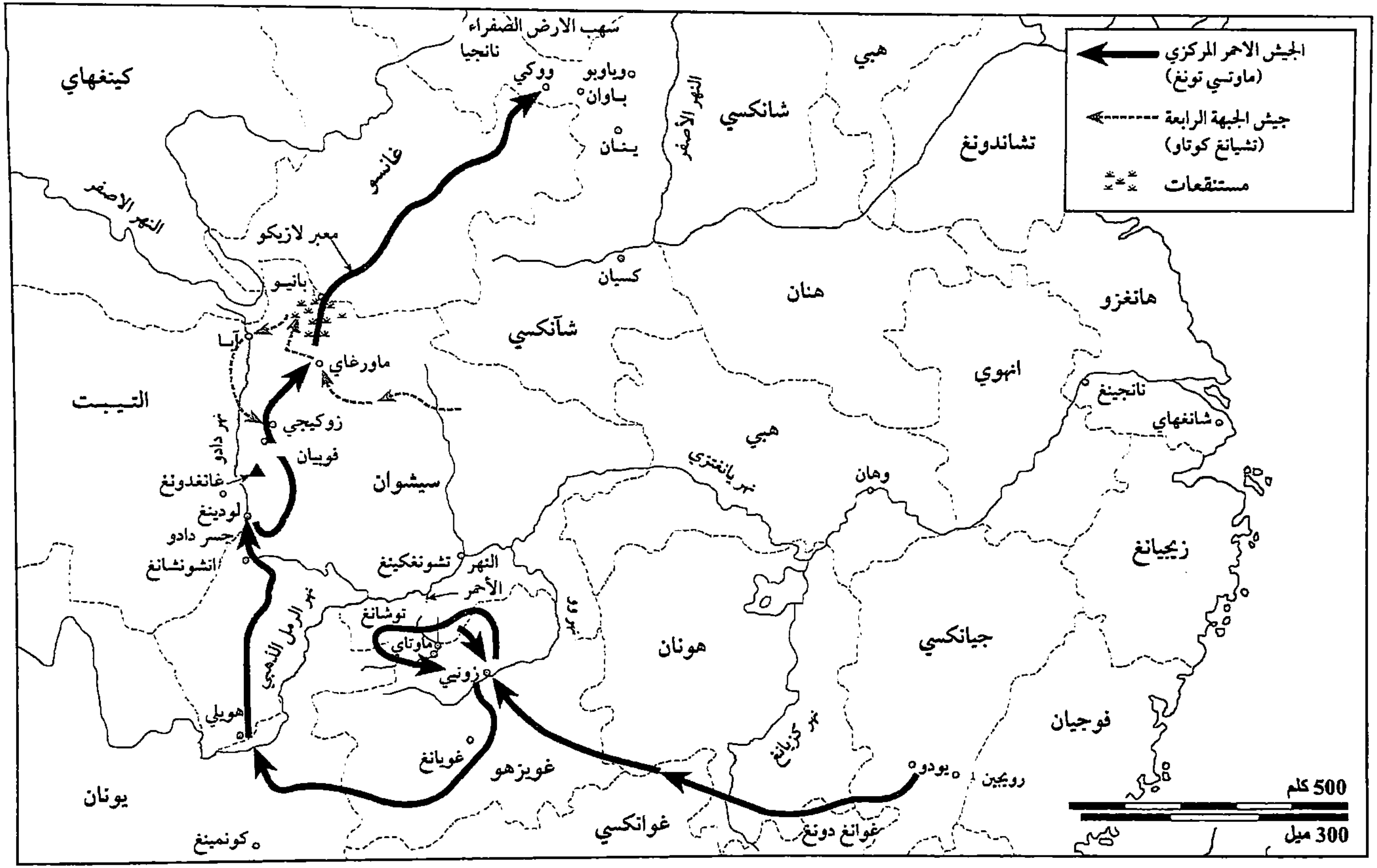
اليوم لا تزال صورة ماو وجثمانه يسيطران على ساحة تيان ان مين في قلب العاصمة الصينية. ويعلن النظام الشيوعي أنه وريث ماو، وأنه يخلّد أسطورة ماو بقوة.



مناطق تحركات ماو (1927 - 1934).



المقاطعات الادارية الصينية قبل 1945



المسيرة الطويلة (تشرين الاول 1934 تشرين الاول 1935).

تعتمد هذه السيرة لأحد أهم الزعماء السياسيين في القرن العشرين على عقد كامل من البحث والتقصي، وعلى أحاديث مع أقرب المقربين إلى ماو الذين لم يسبق لهم الكلام عليه. ومع معظم الشخصيات السياسية والمدنية غير الصينية التي أقامت علاقات ذات شأن معه. وهذا ما يجعل منها أكثر سير الزعيم الصيني المكتوبة مصداقية ووثوقاً. وهي تكشف للمرة الأولى أموراً لم تعرف سابقاً، وطالما جرى التعتيم عليها من طفولته و"المسيرة الطويلة" إلى حكم الصين و"الثورة الثقافية".

والسيرة مكتوبة بأسلوب مشوّق يشد القارىء إليها فلا يترك الكتاب إلا عند الفراغ من قراءته.

المؤلفان: يونغ تشانغ، المولودة في الصين في العام 1952. انتمت الى الحرس الاحمر عندما كانت في الرابعة عشرة من العمر. عملت في الزراعة وصناعة الفولاذ والكهرباء، وفي "الطب الحافي القدمين" قبل الدخول الى الجامعة والتعليم فيها. نالت شهادة الدكتوراه من جامعة يورك (بريطانيا). وجون هوليداي، زوجها، وهو مؤلف بريطاني معروف.

ISBN 9953-74-136-0

9 789953 741369